مدحت محفوظ

سهم كيوبيد

(رواية ليست رومانسية بالضرورة !)



١- الثلث الدافئ

(صدرت على موقع EveryScreen.com في ١٠ مارس ٢٠٠٧)

تحذير قانونى
شخصيات هذه الرواية قد تفصح عن آراء ربما يعتبرها البعض صادمة اجتماعيا أو دينيا أو عرقيا أو جنسيا .
القارئ ، والذى يشترط فيه أن يكون قد بلغ السن الراشدة قانونا ، يتحمل وحده -دون المؤلف أو الناشر- كامل مسئولية قرار قراءتها ، ولا يحق له بحال العودة على أى منهما بأية تبعات .

To the first person from whom I've learned the meaning of the word 'Arabs' …
MY MOTHER

► ***First draft: Saturday, September 02, 2006.***
First PDF publishing of the complete draft (limited): Tuesday, January 30, 2007.

► ***First PDF publishing of the final document: Saturday, March 10, 2007.***
This version's date: Tuesday, January 24, 2023 (some minor formal, linguistic and/or typying corrections have been made).

Before you read or print, it's highly recommended to download the latest version from this location:
http://www.everyscreen.com/views/pdf/SahmCupid_01.pdf

► © 2006 - 2023 Medhat Mahfouz. All Rights Reserved.
► Reproduction, full or partial, in any form, printed or electronic, recent or future, is strictly forbidden without a thorough written permission from the author.
► Production of electronic edition: Author's Office (*MSoft*)

For Best Printing Results:
I) ***Print on both sides***:
Step 1: Select even range of pages, e.g. 1 to 50, or the whole document (which we adjusted to end with even page number).
Step 2: Print 'Odd pages only.'
Step 3: Flip paper stack and print (for the same range, of course) 'Even pages only' with 'Reverse pages' option ticked.
II) Some PDF advanced printing options for older versions of Adobe Acrobat Reader:
'Print as image' may help avoiding some rare Arabic printing glitches, such as deflected display of the cashidas.

۱
وحید



أحمد لطفى السيد باشا كان من اختار لآمال اسمها

أحمد لطفى السيد باشا كان من اختار لآمال اسمها . كل مصر عرفت هذا بعد قليل ، حين بدأت آمال الطفلة التمثيل للسينما . كان صديق والدها ، وكانت الأسرتان تلتقيان مرة فى الأسبوع على الأقل . تخرج نور الدين والد آمال من إحدى كليات الهندسة البريطانية ، وكانت رغبة أبيه له أن يصبح أول مدير مصرى لهيئة السكك الحديدية المصرية ، التى كانت مفخرة كبرى أن يقال إنها ثانى خطوط حديدية أنشأت فى العالم . لم يتحقق حلم جد آمال لابنه بالضبط . التحق بالفعل للاشتغال كمهندس بالسكك الحديدية ، لكن ما حدث هو أن طلبه ذات يوم طلعت حرب باشا لمقابلته فى مكتبه ، وعرض عليه أن يكون أول مدير هندسى مصرى لستوديو مصر الذى أسسه . كان الألمان قد انتهوا من تصميم وانشاء الستوديو ، وكانت المعدات متقدمة للغاية بمقاييس عصرها ، وفى حاجة لمهندس كفء لإدارتها . وقرر طلعت حرب الذى اشتهر بأنه يجمع الكفاءات حوله فى مكتبه كما يجمع التحف حوله فى منزله ، أن الوقت قد حان للمخاطرة بإقحام خبرة مصرية لهذا الحقل . لحسن الحظ كانت المقابلة رائعة ، حيث علم طلعت حرب أن مرشحه مولع بالسينما كآلة فى حد ذاتها ، وأنها كانت أول ماكينة سحر بها فى طفولته حيث قام بتفكيك تلك التى كانت لديهم بالمنزل . وهى التى حسمت مبكرا توجهاته ، وقبوله الفورى لفكرة والده له بدراسة الهندسة .

من هواية والدها ، وحتى من قبل احترافه ، اكتسبت الطفلة آمال الشغف بالسينما والأفلام ، وإن لم تكتسب كل اسمه . أصبحت تعرف بآمال نور فقط ، ربما بسبب قصر وموسيقية الاسم ، وربما أيضا بسبب بعض مواقفها الدينية وولعها الشديد بالقراءة عن تجربة كمال أتاتورك فى علمنة تركيا . من أمها الإنجليزية اكتسبت القوام الممشوق والوجه خارق الملامح والشعر الكستنائى المنسدل (الذى يتغير طبعا طولا ولونا وتسريحة حسب الأفلام) . ومن الكاتب الكبير صديق والدها اكتسبت الأفكار العصرية الحداثية المتحررة . كذلك اكتسبت ازدراء حزب الوفد . رغم أنها لم تعاصر سعد زغلول ، بل ولدت بعد موته بثلاث سنوات كاملة ، سنة ١٩٣٠ ، إلا أنها كانت تزدريه ، وتزدرى كل من خلفوه ، لأنها كانت تزدرى ما يمثلونه . كانت تقول دوما عن سعد إنه أجبن شخص سمعت عنه فى حياتها . دجال مصفى ، إزاى أزهرى وقارئ قرآن وهو بينطق القاف كاف ؟ أكيد إللى كان بيقرأه موش قرآن ، إنما كرآن . وتنقلب السخرية إلى غيظ يتملكها ، كلما تذكرت كيف خان كل زملائه ، وعلى رأسهم عدلى يكن ، إذ كانوا قد خططوا بدقة لأن تبقى مصر تحت الحماية البريطانية ، فى مقابل التسريع فى حصولها على مساعدة الإنجليز فى تحديث التعليم والصناعة وبناء الاقتصاد . كرهت كل من يلجأ للدهماء ليستخدمهم كورقة ابتزاز وإشباع لطموحات الصعود الطبقى والزعامة والسلطة . من خلال زعيم الوفد هذا ازدرت -إن لم نقل كرهت- كل الأزهريين ، وكل المحامين ، وكل الانتهازيين ، وكل ذوى الأصول الوضيعة ، بل وحتى كل السياسيين ؛ لدرجة أن أحدا لم يفهم تقريبا لماذا فترت علاقتها بأبيها الروحى يوم أصبح عضوا بالبرلمان ، ولم يعد مجرد كاتب صاحب ' رسالة ' بعد . هو عظيم ككاتب وكأستاذ جامعة وحتى كوزير للمعارف ، لكن أن يرشح نفسه فى الانتخابات ، فهذا خطأ فادح . ذكرته بتجربته الأولى قائلة : ' هذا شعب جاهل وسوف يخذلك ' . إلا أنه صمم ونجح ، أما هى فلم تغير رأيها ، على الأقل من قبيل عناد اليافعات وغرورهن . للأسف من ساعتها لم تعد علاقتها بمعلمها بذات حميميتها القديمة أبدا . كانت متأكدة أن الأيام سوف تثبت صحة موقفها ، وأن بدخول هذا المفكر العظيم لمعترك السياسة وتنازلاتها وألاعيبها سيضحى بالكثير دون أن ينجز شيئا يذكر .

حين أصبحت آمال أعظم وأشهر ممثلة فى مصر ، وأصبح كل المصريين يحبونها ويعشقونها ، اكتشفت إنها لا تكره هذا الشعب ؛ بالعكس ، هى طالما آمنت بأن أفلامها تهدف للارتقاء بثقافته وبسلوكياته ، بتفاصيل حياته بطريقة كلامه ولبسه . ولعل أشهر ما يروى عنها مشهد تربط فيه الكراڤتة لحبيبها ، قدمته بالتفصيل . ويقال إن المصريين لم يكونوا يقبلون كثيرا على ارتداء الكراڤتات ، مع كونها غير باهظة الأسعار جدا ، أو كانوا يرتدونها بطريقة مضحكة ، رغم أنها شىء شائع بين وجهاء المجتمع وبين نجوم السينما . لكن آمال قلبت كل شىء ، من خلال مشهد سينمائى واحد ، حلت فيه ما كان عموم الناس يعتبرونه لغزا غامضا ، ألا وهو كيفية تنفيذ تلك الربطة السحرية الغريبة . فقط فيما يخص الشعب ، كانت ترفض أن تزج به لحلبة المشاركة فى القرار السياسى ، وهو بعد فقير جاهل . ولطالما قالت إن المطلوب -أولا- ديموقراطية البيت وديموقراطية المدرسة وديموقراطية المسجد وطبعا ديموقراطية الاقتصاد ؛ أى الرأسمالية الحرة المفتوحة ، تلك كلها قبل أن نفكر فى الديموقراطية السياسية ، وأن يعهد للشعب بالمفاضلة بين هذا البرنامج وذاك ، أو بين هذا الزعيم وذاك . وعن الانتخابات صرحت ذات مرة أن سؤال شعب متخلف فى مواضيع متخصصة دقيقة وصعبة ، كالاقتصاد أو الاستقلال أو العلاقات الدولية ، أشبه بطفل فشل فى امتحان الابتدائية ، فنقول لنجرب معه الدكتوراة . كذلك لم تستوعب جدا فكرة مثل مجانية التعليم ، التى بدأها وهى بعد صغيرة الدكتور طه حسين بقوله الشهير التعليم يجب أن يكون حقا كالماء

والهواء ، وكانت أميل لأستاذها تقول المهم النوعية ، وتضيف : ' لو خيرت بين كوب ماء نظيف وبين بركة قذرة لاخترت الأول ، والميزانية التى تخصص لبناء مدرسة لن تفيد البلد قدر إرسال طالب واحد للحصول على تعليم راق فى الخارج ' .



كل شيء قد أجهز عليه بالفعل فى ١٩١٩ ، وما تفعله طغمة يوليو ليس إلا تحصيل حاصل .

مع ذلك كان غضب آمال على استيلاء الأقلية العربية على السلطة فى مصر

بواسطة الانقلاب العسكرى لما تسميه تنظيم الضباط الأعرار الأعراب

أضعاف غضبها على استيلاء الدهماء المصريين عليها -بالقوة أيضا- لحساب الأفاق سعد زغلول !

أحبت آمال وتزوجت من ضابط للجيش ترك وظيفته ليشتغل موجها (مخرجا) للأفلام لدى والدها . كان وجدى الديب موجها قديرا تحقق أفلامه أعلى الإيرادات . هى نفسها يحقق الفيلم الذى يخرجه لها ضعف ما تحققه أفلامها الأخرى . كان مولعا لحد الجنون بالسينما ، درسها بالخارج ، وولع بعظماء موجهيها العالميين ، لكنه لم يكن صاحب موقف سياسى دقيق أو عنيد مثلها . رغم أن آمال كانت تطلق على سعد زغلول اسم البلشفى ، وكان البعض يعتقد أنها ربما لا تفهم الفارق بين الوفد وبين الأيديولوچية الشيوعية ، لكن الحقيقة أنها كانت تعرف كل ذلك بدقة ، وكانت أبعد فى رؤيتها من الجميع . مع ذلك كانت نضاليتها الزائدة فى تحدى ريچيم ١٩٥٢ ، تدل على حماس وانفعال أكثر منه على وعى وتعقل ؛ فهى فى خضم حماسها لتجربة الليبرالية المصرية ، تناست عدة أشياء . تناست أن الأمور لم تكن حقا فى ذروتها قبيل ١٩٥٢ ، تناست أن فترة الذروة الحقيقية لمشروع الحداثة المصرى الذى بدأ بسعيد وإسماعيل ، كانت ما بين ١٨٩٨ و١٩١٤ ، هذه التى بدأت بتحرير الملكية الزراعية وتأسيس البنك الأهلى المصرى ، ثم تأسيس أول جامعة مصرية فظهور أفكار أحمد لطفى السيد عبر ' الجريدة ' ، أو إعطاء الاعتبار لأمثال قاسم أمين ، وأخيرا ، الذروة الأكبر إطلاقا لها كلها : بسط الحماية الإنجليزية على مصر ، ميلاد أول صيغة رسمية لأن باتت مصر جزءا من إمپراطورية الحضارة ، ١٩١٤ ، لحظة السنام الأعظم فى كامل مشروع الحداثة المصرى ، مشروع الأمل . أو هكذا على الأقل تمثلته بعض النخبة المصرية فى حينه . تناست أن ما جرى فى ١٩٥٢ لم يكن بحال تغيرا نوعيا . لم يكن إلا الخطوة المنطقية التالية . كان فقط اختلافا فى الدرجة ، مدا للخطوط على استقامتها ، نتيجة وليس سببا . حاول من هم أكبر منها سنا وخبرة إفهامها أن كل شيء كان قد انتهى وقضى ، وهو بعد فى المهد تقريبا . كل شيء قد أجهز عليه بالفعل فى ١٩١٩ ، وما تفعله طغمة يوليو ليس إلا تحصيل حاصل . مع ذلك كان غضب آمال على استيلاء الأقلية العربية على السلطة فى مصر بواسطة الانقلاب العسكرى لما تسميه تنظيم الضباط الأعرار الأعراب أضعاف غضبها على استيلاء الدهماء المصريين عليها -بالقوة أيضا- لحساب الأفاق سعد زغلول ! أشفقوا عليها أنها حين تحاربهم إنما تحارب طواحين الهواء . ببساطة ، من حيث الجوهر ، كل المظاهرات منذ ١٩١٩ حتى ١٩٥٢ ، أو كل ما يوصف زورا بالحيوية السياسية ، لم تكن تطالب إلا بشيء واحد : ١٩٥٢ ! للأسف ، روح آمال النضالية أعمتها -على الأقل فى ذلك الوقت- عن مثل هذه الحقيقة المؤلمة !

حين جاء ضباط يوليو للسلطة أصبحت تسميهم العصابة ، لكن زوجها لم يكن ذا رأى محدد . هنا بدأت الخلافات تدب تدريجيا بينهما . كان يرى أن التغيير قد يأتى بفائدة فى حد ذاته ، أو يقول لننتظر ونرى ، وكانت هى تثور فى كل مرة وترد عليه مثلا أن الملوك ربما يصابون بالخرف أحيانا ، وربما يولدون أغبياء أحيانا ، وربما ينجرفون وراء نزواتهم الشخصية أحيانا . لكن كل هذا كوم ، وأن نسلم أمر حكمنا للأوباش كوم آخر . حتى لو جن كل الملوك ، لا يصح أن نعطى الحكم للشعب أبدا ؛ إنه ليس حلا على وجه الإطلاق . كانت ترى فى مواقف زوجها علامات ضعف شخصية ، أو لعلها أيضا كانت تقول فى قرارة نفسها : ' أنت مخرج وبس ، من أين لك أن تفهم فى السياسة ؟ ' . لذا حين عرض عليها مشروع الفيلم الجديد عن الثورة ، كما أصبح الكل يسميها ، وأن تصبح بطلته ، أصابها انهيار عصبى فى التو واللحظة ، ولم تهدأ إلا بعد أن أتى المأذون فى تلك الليلة ووقع الطلاق .



عرابى زى ما بيسميه المصريين كان هوجة واحد واطى طماع جاهل وراحت لحالها ،

مصطفى كامل كان عميل عثمانلى وسافل كلام موش أكتر ،

سعد زغلول كان وغد بلطجى محترف إجرام ، إنما البكباشى ده موش لاقية له وصف !

هذا الأعرابى الجربوع سليل بنى مر قرر أن يستجلب أسلافه من جديد لاحتلال ونهب مصر ، وليدمر عمدا تراثها وتاريخها ،

هذا الذى يذكره بضآلة أجداده الأقحاف الأجلاف الرعاع الهمج ، الحفاة الجفاة العراة الجوعى ، الذين غزوها قبل ١٤٠٠ سنة !

حصان طروادة الداعر هذا يقول إنه أول مصرى حكم مصر منذ أيام الفراعنة ، والحقيقة أنه ليس مصريا أصلا بل ابن عربانى وليبية ،

وأول عودة لحكم الحثالة العرب لمصر ، الأمر الذى اعتقدنا أنه انتهى للأبد منذ أن حررنا منه ابن طولون والمعز قبل ١١٠٠ سنة !

وحيد هو ابن آمال الوحيد من زواجها هذا ، كان بعد رضيعا تخطى عامه الأول بعدة شهور ، وبطبيعة الحال هى حاضنته . قالت لنفسها هذه هى اللحظة المناسبة لتحويل الاعتزال المؤقت منذ منتصف شهور الحمل إلى اعتزال نهائى . مؤخرا فعلتها ليلى مراد حين شككوا فى مصريتها وكثر الحديث عن يهوديتها ، ومن قبلها فعلتها جريتا جاربو وكثيرات . ذهبت للراهبة ناظرة المدرسة التى تخرجت منها . استقبلتها بترحاب كبير ، وبالعبارة التقليدية : ' أهلا بأشهر من تخرج من مدرستنا ! ' . كانت آمال تحرص على حضور حفل المدرسة السنوى ، ومشاركة الخريجات الجديدات يوم تخرجهن . وهذا التقليد وحده كان كافيا لجعل الجميع لا يذكر المدرسة باسم القديسة المكتوب على بوابتها ، والذى كان اسما طويلا على أية حال ، بقدر ما أصبحت تسمى مدرسة آمال نور . كذلك كانت تحرص دوما على أن تقدم بعض التبرعات سواء طلب منها أو لم يطلب . قالت آمال للأم : ' لقد أتيتك اليوم فى خدمة ' . ردت عليها بابتسامة عريضة : ' بكل سرور ، إنتى تأمرى يا آمال ! ' .

– أنا قررت الاعتزال ، وناوية آخد وحيد ونعيش فى بيروت .

– (ضاحكة :) فيه حد يعتزل فى سن ٢٧ سنة ؟ ! ده حتى راقصات البالية ما بيعملوهاش !

– ده قرار نهائى ، يا ريت تعرفى من خلال كنيستكم فى بيروت حد ممكن يؤجر لنا بيت صغير وهادئ .

ذعرت الأم وقالت لها بلهجة تعنيف لم تستخدمها معها حتى وهى بعد طالبة : ' إزاى تعتزلى ؟ كلنا عارفين قيمة أفلامك وبنحبها ، حتى الفيلمين أو تلاتة إلى كان فيهم بعض التحفظات الأخلاقية أو عملتى فيهم دور واحدة موش كويسة ، ما حاولش المركز بتاعنا إللى بيتابع السينما ، إنه يخلى حد ما يشوفهمش . أنتى عارفة الأستاذ فريد المزاوى بيقدرك أد إيه . ده حتى إدوكى جايزة عن واحد منهم . كلنا بنقدرك ، كل مصر بتقدرك وتحبك . أنتى غيرتى كل حاجة فى مصر ، إنتى حتى غيرتى فى أفكار كنيستنا نفسها . حاجات كانت طول عمرها ثابتة ، خلتينا نبص لها نظرة جديدة . ها أقول لك سر جايز ما تعرفيهوش ؛ قبلك ما كانش فيه ولا واحدة من بنات العائلات اشتغلت بالتمثيل ، ولما پاپاكى خلاكى تمثلى فى أجازة الصيف ، بعض الأخوات قالوا إحنا لازم نطردها من المدرسة ، وأنا إللى رفضت وقلت السينما زى أى حاجة ممكن تكون وسيلة للصلاح . كل مصر بتحبك يا آمال ، ولا يمكن ها تسمح لك تعملى حاجة زى كده . ده ها يعملوا مظاهرات قدام بيتك ! ' .

قالت آمال بحزم : ' مظاهرات إيه يا ماذر ؟ ! المظاهرات دلوقتى بتتعمل علشان واحد بس إنتى عارفاه ؟ واحد أخرى فى سرواله ونزل جرى علشان يخطب فى الأزهر ، والنهارده بيقول إنه هزم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على بعض ، وأنا متأكدة أنه ما يقدرش يهزم صرصار ، لو شاف واحد فى الحمام ها يطلع يجرى ينادى على عساكر الحراسة . واحد نقل تمثال رمسيس الثانى من مكانه الأصلى ونصبه أمام محطة السكك الحديدية كى يثبت جبروته وجبروت حكمه ، لكن ما حدث هو أن قام بنشره لستة أجزاء ، فدمر للأبد ما به من جبروت حقيقى . لم يستطع مجرد نقله وليس صنعه . يا ماذر ، عرابى زى ما بيسميه المصريين كان هوجة واحد واطى طماع جاهل وراحت لحالها ، مصطفى كامل كان عميل عثمانلى وسافل كلام موش أكتر ، سعد زغلول كان وغد بلطجى محترف إجرام ، إنما البكباشى ده موش لاقية له وصف ! هذا الأعرابى الجربوع سليل بنى مر قرر أن يستجلب أسلافه من جديد لاحتلال ونهب مصر ، وليدمر عمدا تراثها وتاريخها ، هذا الذى يذكره بضآلة أجداده الأقحاف الأجلاف الرعاع الهمج ، الحفاة الجفاة العراة الجوعى ، الذين غزوها قبل ١٤٠٠ سنة ! حصان طروادة الداعر هذا يقول إنه أول مصرى حكم مصر منذ أيام الفراعنة ، والحقيقة أن من طردهم هم أكثر مصرية ووطنية منه ، بل بالأحرى هو ليس مصريا أصلا بل ابن عربانى وليبية ، وأول عودة لحكم الحثالة العرب لمصر ، الأمر الذى اعتقدنا أنه انتهى للأبد منذ أن حررنا منه ابن طولون والمعز قبل ١١٠٠ سنة ! إنه ليس مجرد صبى أخرق أراد أن يثبت أنه جبار فأثبت أنه قزم ، لكن لا جديد : إنها ذاتها طباع أجداده الجرذان العرب الغزاة الذين راح يحالفهم هذا الوضيع وكنا قد

نسيناهم ، بنوا قلاعهم وجوامعهم التى فرضوا بها قهرهم على المصريين ، من تفكيك أحجار أهرامات صغار موظفى مصر الفرعونية ، أو حتى من مجرد تقشير طلاء الهرم الأكبر ؛ وعرفوا لبس النعال لأول مرة من جلود مخطوطات مكتباتنا التى حرقوها . (وتدمع عيناها :) هم يا ماذر من أتلفوا التمثال وليس الزمن . سامحينى ده قرار نهائى ، وبعدين كمان أنا اتطلقت خلاص ' .

أخذت الأم من حدة كلامها فى السياسة لكن صعقت بالكامل بمجرد سماع لفظة الطلاق . تجمدت لبرهة ، ثم راحت لدقائق تدور وتدور فى المكتب وتتمتم بكلمات غير مفهوم معظمها . وتركتها آمال تأخذ وقتها فى استيعاب الموقف . وحين عادت للجلوس ، قالت لها : ' أنا لى طلب واحد بس ' . لم ترد الأم . فواصلت آمال : ' أنا موش عاوزة حد يعرف بحكاية بيروت دى ' . قالت الأم بعد سكوت طويل ، وقد استعادت بعض هدوئها : ' حاضر ، بس موش أنا إللى ها أعمل كده ، أنا ها أكلم أبونا مظلوم بتاع مدرسة الأولاد ، هو إللى يعرف آباء فى بيروت وغير بيروت وبيسافر لهم ' .



قال بعضهم لنيكسون

إن الحكومة المصرية هى التى دفعت هؤلاء الناس للشوارع

حرصت آمال على أن تكون لغة وحيد الثانية -أو بالأحرى الأولى- هى الإنجليزية ، فقد كانت العامية المصرية هى لغته الثانية . تذكرت أن والدها كان يستشرف المستقبل سلفا ، يوم أصر على أن تدرسها فى وقت كان فيه معظم التعليم الأجنبى فى مصر بالفرنسية ، وكانت الإنجليزية عبارة عن فصل وحيد فى ذات المدرسة ، وفى عدد نادر من المدارس الأجنبية ككل . اكتشفت وقدرت أن الإنجليز لا يهمهم نقل ثقافتهم أو لغتهم بقدر ما يهمهم أن تتعلم الشعوب أشياء مادية ملموسة ، كالتقنيات الجديدة أو تبنى الاقتصاد الحر الحديث . حين واجهت نفس الوضع فى بيروت ، تذكرت أيضا كم كان لها تحفظاتها الشخصية الكثيرة على فرنسا وعلى الثقافة الفرنسية ، تحديدا منذ قرأت فى طفولتها رواية ' قصة مدينتين ' المرعبة ، وعرفت أن الثورة الفرنسية هى أصل كل الجمهوريات ، وأنها أصل كل حكم للدهماء فى العالم . المهم قالت إنه ما باليد حيله ، وبيروت أيا ما كانت مساوئها ، لا تقارن مطلقا بجحيم مصر تحت حكم زعيم العروبة الملهم .

أتم وحيد دراسته الثانوية فى صيف ١٩٧٣ ، والتحق بقسم الصحافة بالجامعة الأميركية ببيروت . حين قارب عامه الدراسى الأول على الانتهاء ، وكانت آمال قد شارفت آنذاك الرابعة والأربعين من عمرها ، قالت هذه هى اللحظة المناسبة للعودة لمصر . الأحوال تغيرت ، وذهب الكابوس ، والرئيس السادات يبدو مختلفا كثيرا . إذا كان فعلا سيفتح القناة كما يقول ، وسيعيد المهجرين لمدن القناة ويعيد بناءها ، فهذا معناه أن ملف الحروب مع إسرائيل قد أغلق للأبد سواء عادت سيناء أو لم تعد . هكذا قدرت آمال الوضع ، وتوصلت منه ليقين بأن قرار السادات بات واضحا : التنمية وعيش الناس أهم من الشعارات أو حتى من الأرض . أيضا أنا لا أريد أن أموت بعيدا عن بلدى ، ولا أريد لوحيد أن يتحول لبنانيا شيئا فشيئا .

تذكرت فى هذه اللحظة الأم الراهبة ، وكيف حصلت على مسكنها البيروتى هذا ، لكن تفكيرها راح بسرعة لمنزلها القديم الذى أهداه لها والدها ، ويقع قرب طريق المطار ، الطريق الذى يعرف باسم پالاس أڤينيو ، والمقصود بالپالاس أكبر قصور الشارع ، قصر البارون بالطبع . لم تكن تعرف آمال أن اسمه قد أصبح صلاح سالم والعروبة وأسماء كثيرة من هذا النوع ، بحيث لم يعد أحد يعرف اليوم على أى اسم استقر ضباط ٥٢ بعد أن استتب لهم مصادرة معظم ما وجدوا على جانبيه . كانت ڤيللا آمال ذات موقع مميز جدا ، فى منطقة وسيطة هادئة ، المنطقة التى لا تزال تتمتع برائحة مصر الجديدة المميزة ، رائحة الياسمين الذى كانت تتدلى فروعه خارجة من أسوار كل ڤيللاتها يوما ، ولم تعد تجده فى بقية الحى إلا متفرقا فى بعض الشوارع الجانبية ، حيث لا تزال هناك ڤيلات لم تتحول بعد لعمارات ، ولا يزال هناك من يعتنى بزراعة شىء فى حدائقها . الڤيللا يمكنها أن ترى من إحدى الجهات فندق القصر هذا ، ومن الجهة الأخرى ترى بوضوح قصر البارون ، وإن على بعض البعد . نعم ، الڤيللا لم تؤمم ، وكان هناك من يرعاها من أقاربها ، وتعرف أنها لا تزال بحالة جيدة ، لكن كيف سيكون مذاق العودة ، هذا ما ظل يشغل بالها طيلة الأسابيع التالية .

بعد أيام قليلة من انتهاء وحيد من امتحانات النصف الثانى للعام الدراسى ، ولم تكن النتيجة قد ظهرت بعد ، أو تحديدا صبيحة الأربعاء ١٢ يونيو ١٩٧٤ ، جلست آمال ووحيد فى المقعد الخلفى لسيارة الأجرة الميرسيديس السياحية . قبلها بدقائق لم ترتح آمال لكثافة الإجراءات الأمنية

فى المطار ، إذ كانت تتمنى أو تتصور أن ترى مصر مختلفة عما تركتها عليه . خارج المطار كانت المفاجأة أكبر ؛ حشود من الجماهير تهتف وتلوح بالأعلام . لا يمكن للمرء استبعاد أنه قد خطر ببالها ولو للحظة أنها ربما تكون هى المقصودة بهذا الاستقبال . سألت السائق بسرعة : ' هو فيه إيه يا أسطى ؟ ' ، فرد : ' نيكسون جاى النهارده يا مدام ! ' ، وراح يتأملها من خلال المرآة المرة تلو الأخرى لبضع دقائق ، هذا الصوت ليس غريبا ، وربما الوجه أيضا ، لكنه فشل فى التعرف عليها بسبب النظارة السوداء الواسعة ، وربما أيضا بسبب ما فعله الزمن على امتداد قرابة عقدين منه .

ما أن وصلت للبيت ، حتى هرعت للمذياع القديم ، وعرفت أن خمسة ملايين قد خرجوا لاستقبال رئيس أميركا ، وهو خمسة أضعاف العدد الذى خرج ليطلب من ' الزعيم الخالد ' عدم التنحى أو خرجوا لجنازته ، مع اختلاف يضرب فارق العددين فى ١٠ ، أو بالأحرى فيما لا نهاية ، هو أن من خرجوا ' للبكباشى العربانجى ' حركهم دائما أبدا الانفعال الأهوج الأعمى وغسيل المخ القسرى الجنونى ، بينما لم يخرج أحد لنيكسون إلا بعقله . تمددت على السرير ، وأخذت نفسا وعميقا ، وارتسمت على وجهها ابتسامة عميقة ، فلو كان الاستقبال المشهود هذا لها هى شخصيا ، لربما ما فرحت به هكذا .

لم تغير العودة كثيرا من حياتها ؛ هى ماضية فى قرار الاعتزال ، ونفذته فعلا ، بحيث لم تخرج للعلن سوى مرتين فيما يمكن ذكره ، وفيما يمكن القول إنه لم تستطع فيهما الصمت .

المرة الأولى يوم قرر العرب مقاطعة مصر ، حيث قالت بحدة إن هذا أفضل بكثير . تحدثت عن ذكرياتها عن زيارة نيكسون ، وروت طرفة نمت إليها من أحد السفراء ، هى أن قال بعضهم لنيكسون إن الحكومة المصرية هى التى دفعت هؤلاء الناس للشوارع ، فرد متسائلا : ' ومن الذى وضع الفرحة على وجوههم ؟ ! ' . وأضافت بأن الكل يعلم أن أعداد الشعب التى خرجت فرحة بالسلام قد فاقت أعداد من خرجوا لاستقبال نيكسون المشهود ، وقالت إنه فى حدود من تعرف ومن تقابل تستطيع الجزم بأن كل الشعب المصرى مع السلام ، من خرجوا من أهوال الحروب ، ومن لم يخوضوها ويحلمون بفرص شغل مجزية غير حكومية ، أو على الأقل يأملون بتخفيف أو ربما إلغاء التجنيد الإجبارى .

الظهور العلنى الثانى لآمال كان فى التسعينيات ، أيضا من خلال لقاء تليفزيونى ، لكن كان أكثر استفزازا . راحت تقرع بشدة الممثلات المحجبات ، وتجاوزت حتى العبارة الشهيرة لأمينة رزق ' هل تريدون إفهامى أنى كنت على خطأ سبعين عاما ؟ ' ، بأن انتقلت من الدفاع للهجوم . اندفعت لمناقشة دقائق أسلوب حياة هؤلاء وتفاصيل مرجعيتهن الفكرية ، حيث أظهرت دراية كبيرة بكلا الأمرين . ولشهور قامت مصر ولم تقعد ، وحاول بعض المحامين المتدينين رفع قضايا ضدها ، لكن النائب العام أجهضها جميعا فى مهدها .



اعرف وأنت مغمض أن كل الكلام الحلو (أفلاطون) يقودك لجهنم .

فقط الكلام الوحش (أرسطو) هو المعبر عن الحقيقة المرة : قوانين الطبيعة !

تخرج وحيد من قسم الصحافة بالجامعة الأميركية بالقاهرة ، لكن مع الحرص على أن يكون ما يسمى بدراسته الصغرى هو ولاية البيزنس ، أو ما يترجمونه بالعربية إدارة الأعمال . لم تفهم أمه هذا ، وكانت تقول على أيامنا لم يكن أحد يدرس شيئين بالتوازى فى نفس الشهادة ، وكان يرد إن دراسة البيزنس بالذات تجعل صاحبها يحصل على مرة ونصف ضعف الأجر ؛ فالشركات لن تكون مضطرة لتعيين مدير فوق رأسه . بمجرد تخرجه عرض عليه الاشتغال فى صحيفة جديدة تحت التأسيس فى دولة الكويت .

خلال فترة صباه البيروتية تفاعل لفترة مع الأفكار الشيوعية التى كانت ملء الأسماع والأبصار ، لكنه لفظها بسرعة ، ليس فقط بالوراثة عن أمه ، إنما لأنه كما يقول اكتشف أن ماركس نفسه ليس بالماركسية الكافية ، ويوم أصدر ' المانيفستو ' قد خان الماركسية وأصبح شيوعيا ! ، إذ لو كان مؤمنا بالمادية حقا ، لما بشر بأن المستقبل يكمن فى نقل الوعى لطبقة الشغيلة ؛ فالمادية هى المادية ، التقنية والاقتصاد والمخترعات ، أما الثقافة والوعى والفكر فهى عوامل ثانوية فى صنع التاريخ . تلويث المادية بما يسمى بالديالكتيك ، الذى هو ظاهرة إنسانية وليست كونية ، هو غثاء وإلغاء لها . ثم كيف يكونون ماديين وكل كلامهم عن الفقراء كلام عاطفى طوال الوقت -هكذا كان يختم محاججته عادة ، مستنكرا أن بمجرد ما أن يحاول سياسى يمينى التواصل مع عموم الناس ترفع فى وجهه على الفور فزاعة أنه ' شعبوى ' !



المادية المادية

من كثرة ما كان يقول إن أرسطو أحسن من ماركس ، وإنه مهما اخترع الأخير أو غيره من مادية ديالكتيكية أو مادية تاريخية أو غيرهما من ماديات فسيظل هو على عهد مادية أرسطو ، المادية المادية ، كانوا يغيظونه بأن واحدا فقط هو الذى استحق لقلب ' ال ' أستاذ ، وأنتم فى مصر أسميتم أحمد لطفى السيد بالأستاذ لمجرد أنه ترجم كتابا للأستاذ الحقيقى . كان يدافع بضراوة عن صديق جده ، بأنه يمثل لمصر نفس ما يمثله أرسطو للعالم . وفى النهاية ، حين أدركوا مدى عمق إيمان وحيد وفهمه لأفكار أرسطو ، أسموه هو نفسه أرسطو ، وينادونه : ' هلا أرسطو ! ' ، ' هيك أرسطو ! ' ، ' كرما لأرسطو ' ، ' باى أرسطو ! ' . وأصبحوا يتناقلون عبارة له تقول ' اعرف وأنت مغمض أن كل الكلام الحلو (أفلاطون) يقودك لجهنم . فقط الكلام الوحش (أرسطو) هو المعبر عن الحقيقة المرة : قوانين الطبيعة ! ' . وطبعا لم يكونوا يرددونها على سبيل الإعجاب ، إنما لمجرد أنه كانت مرادفا لعبارة أخرى كان يحاجج بها المسيحيين اللبنانيين ، أنه يستطيع بمنتهى السهولة رص نص أروع من الموعظة على الجبل ليسوع الملقب بالمسيح ، لكن المشكلة أن أحدا لن يستطيع تنفيذ شىء منه على أرض الواقع . بل كان يتطرف أحيانا فى كلام يزدرى الفكر ازدراء مطلقا ، ويعتبره نبتا شيطانيا دخيلا على الطبيعة ، ومآله الاندثار حتما !



لا يسعدنى وصفى بالمفكر ولا الانتماء لمن يوصفون بالمفكرين ؛ أنا أفضل صفة أكثر تواضعا بكثير : ناطق غير رسمى بلسان أمنا الطبيعة !

حتى اليوم عرف عن وحيد إيمانه المطلق بالفلسفة المادية لدرجة أنه يستهجن أن يوصف هو نفسه بالمفكر ، ويقول : ' الأفكار والأيديولوچيات والفلسفات فى كفة ، والمادية فى الكفة الأخرى . مهما بدت أفكارى أو أفكار من يشبهنى شديدة الجموح أو الابتكار أو الصدمة ، فالفارق بينها وبين كل المدارس الأخرى أنها -ومهما كان مجهودنا الذهنى نحن الماديون هائلا فى التوصل إليها- ليست فكرا إنسانيا صنعناه ، إنما جوهر وإرادة المادة التى يتكون منها الكون والموجودان منذ الأزل ، وكل ما نفعله ونريده فى النهاية أن ننطق بلسانها ، وهذا ليس بفكر إنما قد يسمى فى أقصى تقدير بالتفكر . ... لا يسعدنى وصفى بالمفكر ولا الانتماء لمن يوصفون بالمفكرين ؛ أنا أفضل صفة أكثر تواضعا بكثير : ناطق غير رسمى بلسان أمنا الطبيعة ! ' .

بالتالى ، هو يؤمن بالطبع بالحداثة بمعناها المادى العميق والضيق معا الذى لا يغالى فى تقدير قيمة الإنسان ، ومن ثم من كلماته الشهيرة أيضا : ' الحداثة هى الحداثة ، وما بعد-الحداثة خواء . هذه الأخيرة تشبه زعم البعض بخلق الجيل السادس أو السابع للحاسوب ، بينما الجيل الخامس لم ينجز بعد ! ... لا شىء بعد الحداثة ، لأن ما بعدها هو فقط : ما بعد-الإنسان ! ' ، ويقصد بالطبع الذكاء الآلى والكائنات المنماة چينيا أو ما يستجد غيرهما من كائنات حية أخرى فائقة الذكاء .



كانوا أول من كتب بالعربية كلمات عولمة وإنترنيت وخليوى وكيبول وساتيلايت

تدريجيا أصبح وحيد مؤمنا بالرأسمالية مطلقة التنافس ، وبالطبع بدأ يشعر بالاغتراب بين أقرانه هؤلاء ، بالذات فى فترة بوادر الحرب الأهلية واحتدام الصراعات الفكرية . من كل هذا وذاك كان قراره بأن يدرس البيزنس بجانب الصحافة ، ثم طلبه أن يصبح مسئولا عن صفحة الاقتصاد فى الصحيفة الجديدة . سرعان ما أطلقت عليه ألقاب من قبيل رائد الأرسطية الجديدة أو زعيم الليبراليين الجدد ، وبالمثل كان تعليقه إنه لا يفهم أصلا هذه المصطلحات ، فليس من قديم أو جديد فى الأرسطية أو الليبرالية ، بل فوقية المادى على المعنوى وحتمية التنافس والصراع أمور لا يد لأحد فيها ، إنما هى من خصائص المادة التى صنعنا منها ، إليكترونات وبروتونات ... إلخ ، وهى أزلية أزل الكون نفسه ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأشخاص بأعينهم ، وقطعا لا علاقة لها بالعرق البشرى .

مع اقتراب عقد الثمانينيات من نهايته ، شعر بأنه ترك أمه أكثر مما يجب ، وأن عليه العودة ، ليحتفل معها بعيد ميلادها الستين وتكون هديته لها بتلك المناسبة قراره بالاستقرار النهائى فى مصر . تمسك به صاحب الجريدة بقوة ، وتمسك هو أيضا ، فإذا بالأول يقدم له عرضا لا يمكن رفضه : أن تكون رئيس تحرير أول جريدة اقتصادية يومية ناطقة بالعربية ، وأن يكون مقرها القاهرة .

رغم أن كثيرا ما راوده الندم من حين لآخر لأنه لم يتجه للسلك الأكاديمى ، إلا أنه بدأ ينظر للأمر بطريقة مختلفة عندما تعرف على ابن لأحد أصدقاء أمه القدامى ، جاءا لتحيتها . هذا تخرج من إحدى كليات الهندسة الحكومية ، ولم يعين معيدا وسط اعتقاده واعتقاد الجميع أن السبب التعصب المتصاعد ضد المسيحيين فى السبعينيات ، إلا أنه بتمحيص الآمر بينهما كون وحيد نظرية أخرى : الغيرة . السبب الحقيقى للفظ أساتذته له هو تفوقه الفائق ، لم يكن فى حاجة لاستذكار الدروس قط ، حتى الليالى السابقة على الامتحانات كان يقضيها فى مشاهدة الأفلام فى دور العرض السينمائية . كانت الهندسة فى دمه وحضور المحاضرات كان كافيا جدا لا يخرج منها إلا مصرا على الإلمام التام بكل الموضوع الذى تدور حوله . أسئلته الكثيرة وأحيانا المحرجة خلالها ، جعلت أساتذته يخشون نبوغه الذى لم يشهده تاريخ الكلية قط ، خاصة وأنه كان مغرورا وسليط اللسان يندفع لمجادلتهم وكشف أخطاءهم ناسيا أنه مجرد تلميذهم . عندما سمع من وحيد هذه النظرية تهلل وجهه وقفز واقفا وقال لقد حللت لى لغزا لم أفهمه منذ كنت طالبا بالثانوية . مدرس الإنجليزية قطع فجأة الدرس وذهب للسبورة ليكتب بحروف ضخمة ملأتها كلمة CONCEIT وهو يرمقنى بنظرات غاضبة ، بينما لم أفهم أبدا سببا لما فعل لأنى لم أفعل شيئا يستوجب وصفى بالغرور ناهيك عن أن يستوجب الغضب ، إلا الآن . على أية حال ، هذا الصديق لم يحزن قط لما حدث من رؤساء قسم الهندسة الميكانية فى كليته وسارع للالتحاق بشركة أميركية للتبريد والتكييف افتتحت فرعا لها للتو فى مصر فى بداية سنوات الانفتاح الاقتصادى ، وبالفعل سرعان ما ارتقى سريعا فى وظائفها ، وصار نموذجا للشاب الناجح يفكر الآن فى تأسيس شركة خاصة به .

ذلك الهاجس الأكاديمى الذى كان يراود وحيد من حين لآخر نسى تماما منذ مع توليه جريدة ' الاقتصاد اليوم ' . ليس فقط لأنه كأبناء جيله فضل خوض غمار الحياة العملية والاشتغال فى الشركات الخاصة ... إلخ ، لكن لأن التجربة جاءت أكثر إشباعا بكثير مما توقع . فالكتابة الصحفية المتخصصة يمكن لو أرادت أن تبارى بجديتها الكتابة الأكاديمية ، بل قد تفوقها بما لا يتوفر فى هذه الأخيرة ، وهو الرؤية واتساع الأفق كنقيض للقيود الأكاديمية البليدة العقيمة . لم يشعر وحيد الديب بالاعتزاز بذاته فى حياته قدر اعتزازه بوظيفة رئيس التحرير لهذه الجريدة ؛ صبغها بمنهج وبأسلوب الفاينانشيال تايمز اللندنية ، لدرجة أن اختار اللون البرتقالى للورقة الخارجية مثلها . كانوا يكتبون عن كل الاتجاهات الاقتصادية الجديدة ، وعن كل المخترعات التقنية القادمة ، ومن خلالها كانوا يقدمون نظرة عميقة لعالم السياسة ولدنيا المستقبل . كانوا أول من كتب بالعربية كلمات عولمة وإنترنيت وخليوى وكيبول وساتيلايت وتفاعلية وطريق فائق ووسائط متعددة ودى فى دى وصور مولدة حاسوبيا ، وغيرها كثير . كانوا أول من عرف القارئ العربى بريوبرت ميردوك وتيد تيرنر وبيلل جيتس ، والقائمة طويلة أيضا . كانوا يتابعون كيف ارتاد أحد هؤلاء عالم السموات المفتوحة ، وكيف اخترع الثانى من الصفر فكرة القنوات الإخبارية فقنوات الأفلام المتخصصة ومن ثم كل مفهوم القنوات المتخصصة عامة ، وكيف وعد الثالث بحاسوب فوق كل نضد فى كل مكتب وكل بيت فى العالم . كانت روح اتفاقية الجات تتملكهم . كانوا يتحدثون عن العالم وكأنه أصبح بالفعل قرية صغيرة ، وكان الحماس هو الصفة الغالبة على كل طاقم الجريدة ، فقد طبعهم وحيد بطابعه وأفكاره وحيويته .

لم تكن مصر سيئة جدا ؛ بالعكس كانت فيما يسمى فى الأدبيات الاقتصادية الغربية سوقا بازغة . كان رئيس وزرائها عاطف صدقى يعكف لسنوات طويلة على إنشاء بنية تحتية هائلة ، شملت كل المرافق ، وكان يعتقد الجميع أنه فى لحظة معينة ستحدث انطلاقة اقتصادية كبيرة . بالفعل ارتفعت كثيرا التوقعات بمجىء الدكتور الجنزورى لرئاسة الوزراء فى مطلع سنة ١٩٩٦ ، وكان أبرز سمات وزارته خروج مُحَمَّد الرزاز وزير الجباية الشهير جدا . لقد انتهى عصر جبى الضرائب ، وحان وقت جذب الاستثمارات الأجنبية ، ولم يكن الدكتور الجنزورى يخفى فى أى حديث له مع الصحافة الأجنبية بالذات ، أن طموحه هو أن تستقطب مصر ٤٠ بليون دولار سنويا ، فهى على حد قوله المتكرر ليست أقل من ماليزيا فى شىء ، بل وكان يوحى ضمنا بشىء من الاستخفاف بتجربة هذه الأخيرة .



الصداقة المتنامية بين الأمير الوليد بن طلال وبين ساندى وايلل

كانت الصحيفة تغطى مختلف البيزنسات كما تغطى سائر الأخبار الاقتصادية المصرية والعالمية ، لكن فى آخر سنة ١٩٩٨ بدأ وحيد سلسلة من المقالات يتحدث فيها بقسوة عن الاقتصاد الإسلامى . روى تجربة سوق المناخ فى الكويت ، وروى تجربة شركات توظيف الأموال فى مصر ، وروى قصة انهيار بنك الائتمان والتجارة اللندنى ، بسبب فساد تصرفات الأموال السعودية فيه . هذه كانت كلها قصصا معروفة ، لكن الجديد أنه حاول أن يربط بين طريقة التفكير فى الربح السريع لدى الأموال العربية وبين العقلية السائدة لدى شعوب المنطقة . كرر شرح نظرية أن العملة

الرديئة تطرد العملة الجيدة ، أيضا كان ثمة إلماحات دينية هنا وهناك ، كأن كتب فى واحدة من تلك المقالات أن أحد مديرى البنوك الإسلامية قال له فيما بدا مزاحا لكنه -كما قال- يعلم يقينا أنه لم يكن يمزح على وجه الإطلاق ، إن الله قال إنه أحل البيع ولم يقل أحل الإنتاج ، قال لا تغش الميزان ولم يقل لا تغش السلعة ، قال حرمت الربا ولم يقل حرمت النصب .

كانت المقالات فى مجملها حملة ضخمة تحاول مناقشة أكثر المفاهيم قاعدية فى الاقتصاد الإسلامى . دافع عن ' الربا ' باعتباره عقدا هو شريعة بين المتعاقدين ولا إجبار فيه ، وأن بديله هو النصب باسم الدين ، والارتكان للتهاون وازدراء العلم ، باعتبار أن لا شىء يلزم صاحب البنك بتحقيق ربح . وخلص لأن تحريم الربا قد فتح فى المقابل بوابات جهنم لما هو أسوأ بآلاف المرات . استخدم كلمة اقتصاد قذر أكثر من مرة لوصف هذا النوع من الاقتصادات البدائية ، وعرف الاقتصاد القذر بالاقتصاد القائم على الأموال السهلة والربح السريع دونما قاعدة بناء وطيدة . وكان واضحا أى اقتصاد يقصد ، رغم أنه بذل جهدا فى كل مرة للتأكيد أن كلمة قذر هذه مصطلح علمى وليست شتيمة .

كل هذا أثار بعض الجدل ، ووصلت الجريدة بعض الردود الغاضبة ، لكنه لم يتحول لقضية رأى عمومى ، على الأقل بسبب أن ' الاقتصاد اليوم ' كانت فى خاتمة المطاف صحيفة متخصصة ولا يقرأها الجمهور العام . على أن القشة التى قصمت ظهر البعير هى الجزء الأخير من هذه السلسلة . كانت المناسبة التى كتب فى الأصل بسببها وحيد كل سلسلة المقالات هى صدور قانون أميركى يسمح للبنوك التجارية بالاشتغال فى حقل الاستثمار ؛ أى امتلاك أسهم الشركات ، وتقديم الاستشارات المالية ، هذا بعد أن كانت وظيفتها هى ' تجارة ' المال ؛ أى أخذه من راغبى الإيداع وتسليفه لراغبى الاقتراض ، أى ضخه داخل الشركات الصناعية مباشرة ، لا تمويلها من الخارج بطرح اكتتابات لها و' الاستثمار ' فى أسهمها . الكل كان يعلم أن ساندى وايلل رئيس السيتى جروب هو الذى ضغط نحو صدور هذا القانون الذى يسمح بتوسيع نشاط البنوك التجارية ، الأمر الذى كان يعد حتى تلك اللحظة من الكبائر فى الاقتصادات الحديثة ، وحظرته أميركا بشدة قانونا فيما سمى بـ Glass-Steagall Act سنة ١٩٣٣ . كانت صور ساندى وايلل تملأ أغلفة كل المجلات الكبرى ، باعتباره عبقريا لا يجود الزمان بمثله . لكن فى تلك الأيام كان كلينتون اليسارى هو الرئيس فى البيت الأبيض ، فأصبح الاقتصاد كله فى وول ستريت اقتصادا فقاعيا ، الدعاية فيه أكثر من الشغل ، والورق أكثر من الخرسانة ، وكانت الأجواء مرحبة جدا ككل بإلغاء مثل ذلك التقليد القديم البالى الموروث عن بريطانيا العجوز . كان الحماس كبيرا ، لدرجة أن آلان جريينسپان نفسه ، المدير شديد الرصانة لبنك الاحتياطى الفيدرالى ، انضم لقائمة المؤيدين لمثل ذلك القانون (وإن كان للرجل أسبابه المختلفة ، فهو يؤمن بالحرية المطلقة للسوق ، وليفعل كل ما شاء فقط بشرط أن يتحمل نتائج قراراته ، وألا يولول لاحقا طالبا الانقاذ الحكومى !) .

فى مقاله أثار وحيد عددا من الشبهات حول الصداقة المتنامية بين الأمير الوليد بن طلال وبين ساندى وايلل خلال تلك السنة . قال إن الوليد ربما هو الذى أوحى لساندى وايلل بالدفع نحو مثل هذا القانون . على أن المقال لم يشر مطلقا إلى أن الأمر ينطوى على أى سوء نية من أى منهما ، وقال إن الأمر ربما جاء ببساطة شديدة ، لمجرد أن الأمير جاء من بيئة لا ترى ضيرا على الإطلاق فى المزج بين النشاط المصرفى التجارى والنشاط المصرفى الاستثمارى . خروج وحيد بمثل هذه النظرية الغريبة ، أدى لاستقالته من ' الاقتصاد اليوم ' . لم يحتمل الملاك الخليجيون للجريدة الأمر ، وكان المقال مجرد أطروحة نظرية لا يسندها أى دليل متماسك ، ثم إنه يسيىء بطريق غير مباشر لشخص أقرب للرمز فى البلاد العربية ، وطالما اعتبرته حتى ' الاقتصاد اليوم ' نفسها مثالا للعصرية والحداثة وللعقل العربى الجديد والمتفتح . الأمر الأهم أن وحيد رغم خبرته ، فاته أمر على جانب كبير من الأهمية ، هو أن استثمارات الوليد تختلف جذريا عن كل تلك الكوارث التى تحدث عنها ، ذلك أن الوليد -فى حدود ما عرف عنه وأكده هو مرارا- لم يحدث وأن استخدم يوما ، ما يسمى بأموال الآخرين other people's money ، التى هى سمة قاعدية فى كل المشاريع الاستثمارية الشهيرة التى تنسب نفسها للشريعة الإسلامية ، والتى عادة ما تكون بنسبة ١٠٠ ٪ من رأس المال .

مع ذلك أثبتت الأيام أن مخاوف وحيد كانت فى محلها ، إذ سرعان ما أفلست شركة الاتصالات الأميركية العملاقة ووورلدكوم التى كانت السيتى جروب تديرها استثماريا وتجاريا معا ، بمعنى استثماريا كأسهم وكاستشارات للمستثمرين وبنكيا كقروض وكتمويل . ولاحقا ألغى بالفعل الكونجرس ذلك القانون لدى إفلاس شركة أخرى لذات السبب هى شركة الطاقة هائلة الحجم إنرون . حتى اليوم لا تزال نظرية وحيد المشئومة عن صداقة الوليد-ساندى وايلل هى أحد أكبر الألغاز فى دنيا الاقتصاد . ورغم الكثير من الكتب والمذكرات التى صدرت ، لا أحد يعرف بعد ، هل كان للوليد دور بالفعل فيما حدث ، أم أن كل شىء كان من عنديات رئيس السيتى جروب الطموح غير المبالى بالمبادىء والتقاليد . هل كان كل

الأمر جوا عاما نبع فساده الأخلاقى من طبائع الأفاقين ساكنى البيت الأبيض فى تلك الحقبة ، أم لعله نبع من شباب وادى السيليكون الذى لا يقيم وزنا لقيم أو مبادىء أو تقاليد أو أصول ؟ كثيرون كتبوا أشياء كهذه ، لكن أحدا حتى اليوم لا يملك الجزم .



هنا جاءت واقعة التنطيط الشهيرة

التى ارتكبها توم كروز فوق أريكة أوبرا وينفرى

منذ ترك وحيد الجريدة ولم تعد على حالها . باعها المالك الكويتى لثلاثة رجال بيزنس مصريين ، لم تكن لهم أية خبرة تقريبا ، لا بالصحافة ولا بالصحفيين . بسرعة انخفضت مواردها وأجورها ، بل وحتى اختاروا لها بعد قليل ، ودون أن يتنبهوا ، رئيس تحرير اشتراكيا . لم تمر له أيام فى وظيفته حتى جاءته الفرصة لأن يحول الجريدة لمنشور معادى لمنتدى ديڤوس المنعقد فى ذلك الحين ، ومدافعا عن منتدى آخر مغمور شبه شيوعى يجمع الاقتصاديين المعادين للجلوبة -أى توحيد العالم- ويسمونها الهيمنة الأميركية والرأسمالية المتوحشة وأشياء من هذا القبيل . بعدها سرعان ما أصبحت الجريدة منبرا يساريا صريحا معاديا لتحرير الاقتصاد وللخصخصة . كلما حدث فشل أو مشكلة أو حتى كارثة طبيعية أو انتحار فتاة ، كان السؤال الوحيد أين دور الدولة . إذا بيعت شركة خاسرة ، قالوا هذا ثمن بخس . وإذا تم التركيز عليها وأصلحت أحوالها ، قالوا لماذا تبيعونها وهى تربح ، ولم يحدث لمرة واحدة أن صارحوا أنفسهم ولا قرائهم ، بأن هذه الشركات لو تركت مطولا مرة أخرى فى يد الإدارة الحكومية لفسدت وخسرت من جديد حتما .

فكر وحيد أن الخطوة المنطقية التالية هى أن يبدأ بيزنسه الخصوصى هو نفسه . شىء داخلى تقريبا ، هو الذى جعله يقرر أن يغير تخصصه وينشئ شركة لإنتاج الأفلام ، وهذه كانت غلطته الكبيرة الثانية ، وربما الضربة القاضية التى أجهزت عليه . السينما كانت مهنة أمه وأبيه وحتى جده ، وأحس أنه سيفعل شيئا قد يشعر أمه بالعرفان لو أقدم على ذلك . من ناحية أخرى لم ينس قط أن أمه لم تكن سعيدة جدا بذهابه للكويت أو حتى برئاسته للاقتصاد اليوم ، فتوجسها من العرق العربى كان يفوق الحد ، والمؤلم أن ثبت أنها كانت على حق ؛ بينما لم يعط هو وزنا كبيرا لتحذيراتها ، وقدر -على الأقل بطموح الشباب وتفاؤله- أن الدنيا تغيرت ، أو أن كل ما لديها هو عقدة من الحقبة الناصرية لا أكثر .

قال لنفسه إنه منذ نجاح فيلم ' إسماعيلية رايح جاى ' ١٩٩٧ ، وأصبحت السينما المصرية شيئا واعدا جدا ، وأصبح مستوى الإيرادات كبيرا جدا عما سبق . فتحت شاشات عرض كثيرة ، بالذات من خلال المولات التجارية ، ميزانيات الأفلام بدأت تكبر ، والسوق حسب اعتقاده سوف ترحب بإنتاجات أكبر وأكبر . كان من المدهش للكثيرين أن أنشأ هذه الشركة برأسمال ٥٠٠ مليون جنيه ، جمع معظمها من ممولين مصريين . فقط -وحتى لا يكرر غلطة الاقتصاد اليوم- اشترط الإبقاء على سلطة الإدارة له هو بالكامل ، وكان يقول لكل واحد منهم إن المستثمرين العرب يثقون فى ميردوك ويمنحونه البلايين دون أى مقعد فى مجلس الإدارة ، فلماذا لا تفكرون بالثقة فى أنا بعشرين أو ثلاثين مليون جنيه مصرى فقط ، ولاحقا حين وصفته مجلة قارايتى بميردوك النيل راح يذكرهم بما كان يقوله لهم .

هكذا أكمل وحيد رأسمال الشركة ، طبعا وسط احتجاجات هائلة من الجيل القديم من السينمائيين ، وكانوا يقولون هذا احتكار ، ووصل الأمر لحد أن صمم أحد أشهرهم -واسمه يوسف شاهين- على ربط نفسه بالسلاسل لسور مكتب الدكتور الجنزورى . لم تكن هى الشركة الوحيدة العملاقة التى ظهرت طبقا للقانون الذى سنه رئيس الوزراء الأسبق هذا ، ووزيره الداهية طلعت حماد ، ولم تكن حتى الأولى زمنيا ، لكنها تميزت دون الباقيات بطموحاتها الأكبر . بدأت نشاطها بسلسلة من نحو خمسة أفلام كان كل واحد منها يسجل رقما جديدا للتكلفة لم تشهده من قبل السينما المصرية . كانت الإيرادات داخل مصر جيدة ، وأحيانا قياسية ، لكن لا تكفى لتغطية التكاليف الهائلة . التوزيع الخارجى كان أفضل من كل الأفلام المصرية السابقة ، لكن يظل أيضا كل شىء دون مستوى التكلفة .

حين قرأ وحيد رواية چون لوكاريه الجديدة فى صيف عام ٢٠٠٤ ، قرر أن ينتجها . كانت معظم الأحداث تدور فى مصر ، ومن ثم سافر إلى لندن للحصول على حقوقها ، ودفع عشرة ملايين من الجنيهات الستيرلينية ، بينما كان يتقاضى كتاب القمة هؤلاء عشرة ملايين دولار فقط كحد أقصى فى العادة . على الفور كلف كاتب سيناريو أميركى شهير بكتابتها ، وفى ربيع عام ٢٠٠٥ كانت المخطوطة قد قاربت على الانتهاء . هنا جاءت واقعة التنطيط الشهيرة التى ارتكبها توم كروز فوق أريكة أوبرا وينفرى ، وأسفرت عن أن لفظته هوليوود . رأى وحيد فى هذه فرصة العمر ، وأسرع لتوقيع عقد معه بذات أجره المعتاد ، ٢٥ مليون دولار .

بمجرد أن أعلن وحيد فى مؤتمر صحفى عالمى عن مشروع فيلمه الجديد ، انهالت عليه الانتقادات من كل مكان . اليساريون قالوا هذه هى سيطرة رأس المال على السينما والرأى ، والناصريون قالوا هذا هو الغزو الثقافى الأميركى الإمبريالى ، والإسلاميون قالوا هذا تبشير وإن هناك موافقة حكومية سرية على افتتاح كنيس للساينتولوچى (ديانة كروز) فى مصر . لم يلتفت وحيد لأى من كل هذا ، ولا حتى لكل مساعديه من حوله ممن حذروه من المخاطر البيزنسية للمشروع . قالوا له إن هوليوود نفسها تخسر ، فكيف تكسب أنت وقد دفعت أكثر من مرة ونصف ما تدفعه هى للرواية ، ودفعت لنجم انتهى أمره ما تدفعه هى له هى وهو فى قمته . قال لا يهم ، تكاليفنا ستكون أقل حيث معظم التصوير فى مصر ، ثم إن الجمهور الأميركى الذى تأتى منه معظم الإيرادات سيتفاعل مع شخصية البطل الأميركى ، هذا هو الشرط المهم ، أن يكون الـ protagonist أميركيا . وطبعا سأتفق مع ستوديو هوليوودى كبير وسيوزع الفيلم ، تماما كما توزع الأفلام الأميركية فى كل الدنيا ، ثم على الأقل الإيرادات التى ستأتى من مصر والبلاد العربية ، لن تقل عن ١٠ أضعاف ما يحققه أى فيلم أجنبى فى العادة فيها .

يبدو أن سر الطبخة السينمائية شىء تعرفه هوليوود وحدها . أفلامها التى تنجح ، تنجح لأسباب تقترب من الميتافيزياء ، وكل فيلم يصنع خارجها يحاول أن يحاكيها فى ضخامة الإنتاج ، أو بنفس النجوم ، أو حتى بنفس كتاب السيناريو والموجهين ، يفشل فشلا ذريعا . المهم ، عرض الفيلم بالفعل فى أواخر صيف ٢٠٠٧ ، وفشل فشلا ذريعا ، وأفلست الشركة . أصيب وحيد بشلل خطير فى وجهه وفى معظم نصف جسمه ، ولم يتبق له شىء بعد تصفية الشركة ورد أموال مموليه العرب إليهم . حتى شقته الفسيحة فى حى المهندسين المفضل لدى المقيمين والزوار العرب ، والتى كان قد اختارها لقربها من دائرة مالكى ' الاقتصاد اليوم ' ، اضطر للتخلى عنها ، حتى سيارته فعل نفس الشىء بها . وجاء للعيش بقيللا أمه فى الكورية ، أقدم وأعرق مناطق حى مصر الجديدة .

ببطء أبدى وحيد استجابة للعلاج ، وحين اكتمل شفاؤه كانت آخر نصيحة وجهها له الطبيب ، هى أن لا يصح مطلقا أن تعيش فى وحدة ، الكلام نفسه ضرورى لعضلات وجهك ، عليك أن تعود لشغلك ، أو على الأقل لأصدقائك ، وتكثر من الالتقاء بهم . جرح وحيد من الهزيمة والفشل كان أعمق من أن تحتمله كبرياؤه المجروحة ، لم ينصع لنصيحة الأطباء ، قال سأبقى مع أمى ، يكفينى مسامرتها ، زائد أن من واجبى أن أرد لها بعض الجميل بأن أرعاها فى شيخوختها . آخر ما خطر بباله هو أن يأتى هذا الجميل بالأثر العكسى تماما عليها . لم يحزنها فى حياتها شىء ، قدر أن ترى ابنها قعيد البيت فى تقاعد مبكر غير مبرر كهذا ، كان حزنها عليه يغور ويعمق وهو لا يلحظ ولا يفهم . لم يدرك أنه لم يكن يرعاها ، إنما كان يقتلها . لم تحتمل أن تراه طويلا على هذه الحال ، فغلبها المرض وسرعان ما رحلت ، وكان ذلك فى خريف ٢٠٠٨ . وتجرع من الألم عليها ما يقزم كل ألم سابق مر به .



ذكرى ميلاده الرابعة والخمسون ، ٢ أغسطس ٢٠٠٩ !

لستة شهور أخرى عاوده الشلل بدرجات جزئية متفاوتة ، وأخيرا بدأ يأخذ على محمل الجد نصيحة الأطباء . الاشتغال ككاتب من جديد شىء خارج تماما عن كل الحسابات ؛ إذ قرر أن لا مصداقية له فى الكتابة فى البيزنس بعد اليوم إن كان هو نفسه قد فشل فيه . ثانيا أصدقاؤه ليسوا كثيرين ، كلهم مشغول بحاله ، ولا يزوره فعليا سوى اثنين أو ثلاثة من الصحفيين والصحفيات الصغار الذين يعتبرونه أستاذهم وصاحب أكبر فضل عليهم ، ويكنون له الاحترام والعرفان ، وهى ليست بالصفات التى تتوافر فى الكثير من أقرانهم . ثالثا هو مكتئب ، ولا يكاد يتصور بعد أن شيئا فى الدنيا يمكن أن يجعله ' لا يكف عن الكلام ' كما أمره الطبيب . لمعت له فكرة وجد فيها الحل لكل تلك الأشياء معا ؛ لقد تلقى فى الفترة الأخيرة عددا من العروض لشراء القيللا ، سيسكن فى شقة مفروشة متوسطة الحال ، وسيستثمر أمواله فى البورصة . فى شركة السمسرة لن يكف عن الكلام مع بقية العملاء . أصلا بمجرد أن يعرفوا من هو لن يتركوه صامتا . ثم إن استثمار النقود سيأتيه بعائد يغطى به تكاليف المعيشة ، بعد أن أصبح معتزلا لكل شىء ولا يريد العودة لشىء .

عاود الاتصال بطالبى الشراء ، وطلب عروضهم . تراوحت كلها بين ٥ و٦ ملايين جنيهات . هو لا يحب المساومة ، ويعرف كيف يدار البيزنس المحترم فى بقية العالم ، ولطالما تذكر القصة التى كانت ترويها أمه كلما جاء الحديث على ذكر تاريخ اليهود بمصر ، أو عما فعله عبمعصور بهم . كانت كثيرا ما تقول إن اليهود من أقدم شعوب هذه المنطقة وإنهم أصحاب حق فى أن يعيشوا فيها ، وفى أن يرفضوا وضعية ما يسمى بأهل الذمة تحت نير العرب الهمج بل فى دولة متقدمة هم أسيادها إن حدث وأرادوا هذا ، وعن مصر بالذات تقول نحن شعب ودود متسامح بطبعه

وكان اليهود يعيشون بيننا ونعيش بينهم فى حب وسلام إلى أن جاء ذلك الأعرابى اللص ونهبهم وطردهم ، ثم تردف عادة بقصة اصطحاب والدها لها ذات مرة لعمل نظارة طبية لنفسه ، لدى محل فى حى العتبة ، وإنها تعجبت من بعد المكان ، ومن تواضعه ، فقال لها : ' هذا رجل يهودى ، يديكى حاجة ممتازة وبأقل سعر ، وكمان ما عندهوش فصال ' . وتضيف أن زمان كانت محال اليهود فقط هى التى تكتب العبارة الجديدة الغريبة فى ذلك الوقت ' السعر محدد ' ، وحاكاهم بعض الآخرين بعد ذلك ، ومن هنا صك المصريون كلمة ' تهاود ' ، يقولونها لدى المساومة على سعر شىء ما ، بمعنى كن كاليهود لينا عادلا فى أسعارك . وجد وحيد نفسه قد ارتاح لشخصية أحد المشترين ، أحس فيه بعراقة رجل البيزنس القديم ، سأله : ' طبعا ستبنيها برجا عملاقا ؟ ' .

– يا ريت ! هو فيه أبراج تطل على قصر جمهورى ؟ وإللى كان موجود اتهدم . ده كفاية كل شبر فى المكان بيفضل تحت أمن الرئاسة ، حتى لو دور واحد ، حتى لو أرض فاضية .

هذه الإجابة كانت الحاسمة فى قبول وحيد لعرض الملايين الستة ، هذا وضع طبيعى أن يعانى أى ساكن فى المنطقة من ارتباك أمنى ، لعلى لم أستشعر هذا لقلة دخولى وخروجى ، أو لقلة المترددين علينا ، أو لعلهم شاءوا أن يجعلوا الرقابة غير ملحوظة إكراما لأمى ، أو لى من بعدها . على العكس تعجب من أن العرض قد يكون أسخى مما يجب ، فواصل السؤال :

– أمال ها تعملوا إيه ؟

– ها نبنى قيلا أكبر ، ها نوسع مسطح المبانى حوالى مرة ونص ، ها نعلى دورين زيادة ، ها نكون أكثر عملية ، بارتفاع الأدوار الثلاثة الحاليين ها نطلع ٥ أدوار . لو بطرازها الحالى كان ممكن تسميها قصر ، لكن طبعا ها تكون بناء حديث ، وبه جماليات معمارية عصرية ، خطوط جريئة وكده . تقريبا المسطحات المسقوفة ، ها تكون ضعف المساحة الحالية ، ها تصمم كمبنى مكاتب ، وها نؤجرها لشركة أجنبية .

مرة أخرى كان وقع كلمة الإيجار طيبا وأكثر حسما على وحيد وعلى قراره ؛ فهو لديه نظرية كتبها فى تلك المقالات سيئة الصيت ، أن المال العربى يشتغل فى شيئين لا ثالث لهما ، الأوراق المالية والعقارات ، والفكرة هى أن لا أرض دائمة له ، الورق يباع فى لحظة ، ومشروع عقارات التمليك يبنى ويباع فى عامين أو ثلاثة ، ويبدأ القنص من جديد فى مكان جديد .

دمعت عينا وحيد يوم استلم التشيك بمبلغ البيع ، دمعتا لحظة أن نظر للتاريخ المكتوب ، مكتشفا أنه ذكرى ميلاده الرابعة والخمسون ، ٢ أغسطس ٢٠٠٩ ! امتلأ بالحسرة أن محصلة كل حياته المهنية هى صفر ، وأن كل ما تبقى له هو فقط ميراثه عن والدته ، ثم أخذه الفكر ليلاحظ لأول مرة أن هذه هى سيرة أمه أيضا . ما تركته بعد رحيلها كان هو عينه الميراث الوحيد عن أبيها ، القيلا . هذا لم يخفف عنه ، بل بالعكس . ثم إن الحزن الأكبر هو أن القيلا نفسها ستهدم ، بينما كان الواجب عليه أن يحولها مثلا لمتحف لمقتنيات أمه نجمة السينما المصرية الأشهر ، مع ركن يخلد ذكرى والديها أو شىء كهذا .

... ذهب فى نوبة اكتئاب عميقة ، كان هاجسه الكبير فيها لماذا بات هذا هو مصير هذه الأسرة ، ولماذا هذا العقم وقلة الإنجاز .



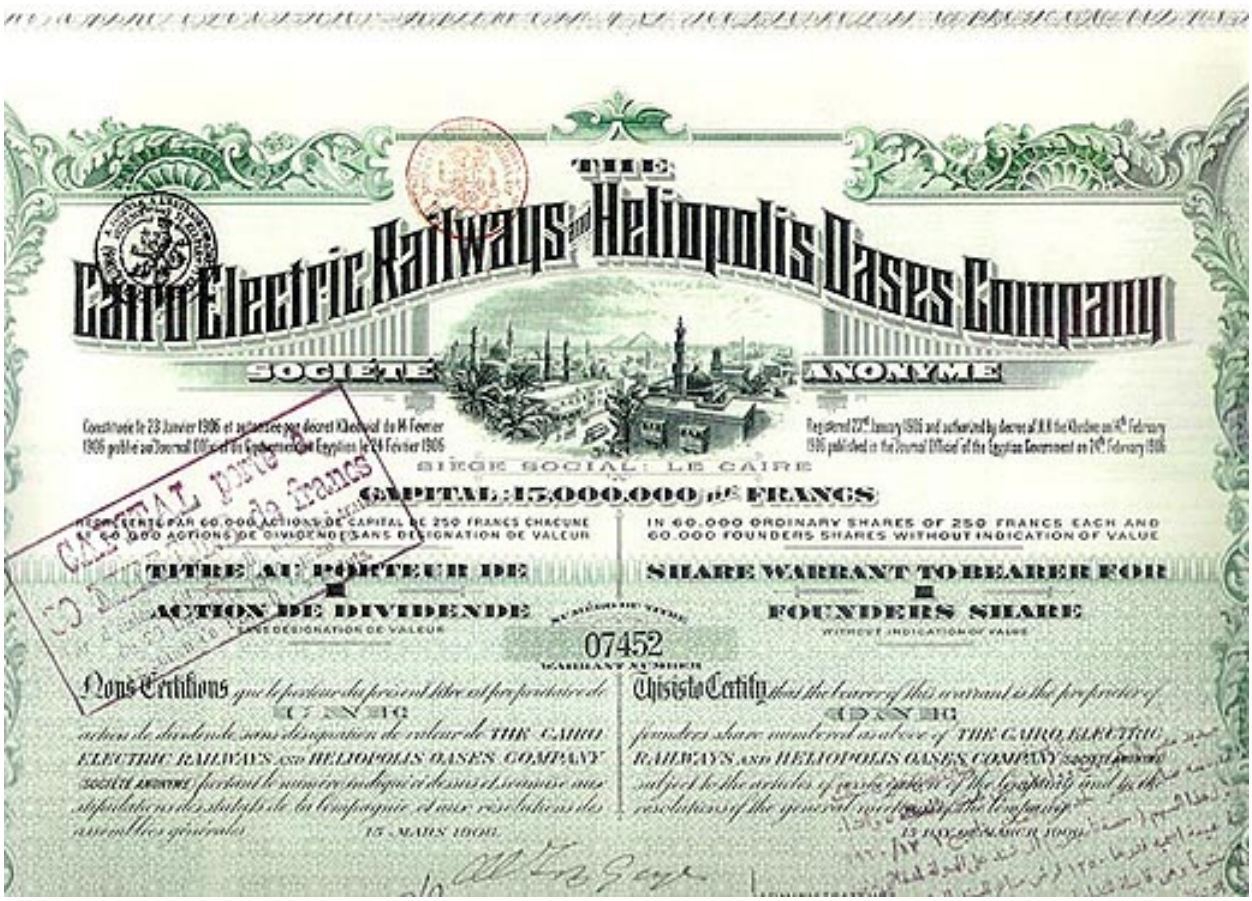
باقتضاب يناقض كل النصائح الطبية

فتح وحيد باب المصعد ، وخرج ببذلته الثمينة شبه اللامعة ، وبقامته المديدة الرشيقة ، وشعره المتميع ذات اليمين وذات اليسار بلون الزئبق -فوق جبهة ناصعة البياض- إلا من مفرقة رمزية فى منتصف الرأس . للحظة وقف أمام اللافتة التى تقول : شركة رمسيس للسمسرة فى الأوراق المالية . مسح حذاءه باعتناء شديد فى الممسحة الأنيقة ، ثم دخل بثبات . رحب به صاحبها -الذى تصادف وجوده بالبهو- بحرارة مفرطة وقد عرفه على الفور ، كان سعيدا جدا به وراح يروى كيف تأثر بكتاباته عن البيزنس الخصوصى ، وأنها السبب وراء قراره بافتتاح هذه الشركة ، وكان بعد موظفا فى أحد البنوك . قاطعه وحيد وكأنه لا يريد أن يسمع أى كلام من أى نوع عن ماضيه ، وأخرج من جيبه تشيكا ، دفعه على المكتب قائلا باقتضاب يناقض كل النصائح الطبية :

– هذا مبلغ ٦ مليون جنيه ، وهذه بطاقة هويتى ، وأريد أن تشترى لى بالمبلغ أسهما فى شركة كيوبيد !



٢
رمسيس



متى يأتى الغد ويصبح بوسعى تداول أسهمى بالبورصة ؟

فى الحقيقة لم يكن جد وحيد يريد فى الأصل السكنى فى مصر الجديدة . كان يراها ذات طابع ثقافى زائد عن الحد ، بحكم انتماء مؤسسها البلجيكى للثقافة الناطقة بالفرنسية ، واختياره لمبانيه بطراز أشيع أنه هجين وأنه سمى لدى البعض ' إسلاميا حديثا ' ، وإن كان فى الحقيقة طرازا هنديا بالأساس ، أو بالأدق -حسبما يقول الخبراء- ما جاء للهند من شرقها المجولى أو بقية ضواحيها ، مستشهدين فى ذلك بقصره هو نفسه ذى المعمار الكمبودى الموشى بلمسات تاميلية . كان يفضل المعادى عليها لطبيعتها الأنجلو-يهودية الإمبريالية الأرستقراطية الوقور . فقط اختيار صديقه أحمد لطفى السيد للسكنى فى مصر الجديدة -فى قلبها فى شارع فينيكس- هو الذى شجعه . لم يكن هذا ميلا من الكاتب الشهير للثقافة الفرنسية التى اطلع عليها بالسفر والقراءة . كان دائما أبدا مترفعا عليها ويعى -دونا عن كل المثقفين المصريين سابقيه ولاحقيه- أزمة الفرنسيين التاريخية كأمة مأزومة مهزومة فاشلة ، تتجرع كأس الذل والمر والهوان منذ ووترلوو وربما إلى أبد الدهر . فقط كان يرى مصر الجديدة مكانا أكثر شبابا وحيوية وبهجة من المعادى شديدة البرود . رغم كل أفكاره الحداثية المحلقة لم يصل لمستوى الارتياح لبيوتها التى تبدو كمصانع صممت لسكنى الآلات لا البشر . كان يبرر لنور الدين إعجابه بمصر الجديدة بترامها الكهربى فى مقابل خط حلوان البخارى التقليدى ، ويتوقع أنها ستصبح قبلة لأهل الفكر والفن والثقافة والذوق الرفيع ، ولم يقو صديق العمر على معارضة شخص حرفته الكلام .

مواقف أحمد لطفى السيد معروفة : مواقف صارمة ضد شعبوية سعد زغلول واستدعائه الشعب للمعترك السياسى لحسابه هو الشخصى شديد الانتهازية والفجور ، مفضلا على ذلك أولا طريقا طويلا شاقا من التعليم وبناء الإنسان ، ربما يحسب بالقرون لا بالعقود . مواقف صارمة أخرى ضد الخلافة الإسلامية ، وثالثة ضد ما أسماه تعريبا الپان أرابيزم pan-Arabism ، ولم تكن ترجمت أو عدلت بعد إلى ' القومية العربية ' ، إذ كان

الرجل علمانيا ومؤمنا بمصريته قبل أى شيء آخر ، ولو أن ثم مكانا لمشروع عربى أو إقليمى ، فلا بأس ، لكن الفيصل فيه شيء واحد : الحداثة وربطنا عضويا بالعالم المتقدم .

أيضا هناك مواقفه المتكررة المشيدة بدور الإنجليز الاقتصادى فى بناء وتحديث مصر ، وقد جلب عليه كل السخط والويلات أن قال فى غير ذات مرة إن التعليم أهم من الاستقلال . لقد تطلب منه هذا شجاعة هائلة ، بينما ويلسون نفسه رئيس أميركا كان يطالب فى نفس الوقت بما سمى حق الشعوب الصغيرة فى تقرير المصير . فقط تحفظ تحفظا خجولا من وقت لآخر ، ولا يناسب حدته المعتادة فى كافة القضايا ، على طريقة الإنجليز فى التعامل مع السياسة المصرية . من ناحية لأنه بالطبع كان يتمنى فى نهاية مشوار الحداثة المضنى الطويل أن تصبح مصر بلدا مستقلا ندا لكل ما عداها ، وطبعا لم يكن يخطر بباله -حتى وإن كان مترجم كتاب ' السياسة ' وغيره من كتب أرسطو- ما يعلمه كثيرون الآن بسهولة ، من أن الاستقلال سيأتى على الشعوب بالكوارث ألف ضعف من كل ما قيل أو يقال عن ' الاحتلال ' من عيوب . ومن ناحية -وإن لم تكن السافرة جدا لكن لعلها الحقيقية- لأنه رأى فيها ممالأة ورضوخا لابتزاز السفهاء ممن لا قيمة حقيقية لهم كزعماء حزب الوفد الرعاع . أو كأنه تمنى الاستقلال -لو كان قد تمناه حقا يوما- خلاصا من جهل الإنجليز ولا مبدأيتهم أو حسن طويتهم فى عدم الحزم تجاه هؤلاء المحرضين الديماجوجيين الفاسدين عديمى الموهبة . هؤلاء الذين لا يهمهم إلا احتكار المناصب ، يوم يخلو البلد إلا لهم ، من رقيب أو مدير ذى عقلية متقدمة يفهم كيف يجب أن تدار الأشياء ، ويصارح الناس بأن التقدم يأتى بالكد المسالم والتعلم المتواضع وتقبيل اليد المحسنة لا عضها ، لا بالخطب المتباجحة بمجد تليد لم يكن أبدا ، وبكراهية للعالم لن تصل بنا لأى مكان .

عامة ، لم يكن لنور الدين آراء يمكن وصفها بالمخالفة لصديقه ، بالذات وأنه لم يكن يوما ضليعا فى السياسة ، أو بالأقل يبوح بآرائه فيها ؛ لذا فالخلاف بينهما فى المفاضلة بين المعادى وهليوپوليس ، هو فى الأرجح نابع فقط من خلفيتهما المهنية ، وما جبل عليه عقل كل منهما : كاتب يود الاطلاع على جميع الثقافات والعيش المتواصل فى بيئة منعشة للفكر ، ومهندس يرى فى النموذج الإنجليزى الكمال المطلق بلا تحفظات ، ويفضل العيش فى بيئة هندسية عتية صارمة الدقة بلا زخرف ولا سفاسف ، ويعتبر فى قرارة نفسه أن التقنية هى تعريف الحضارة ، والثقافات ما هى إلا التخلف . وفى الواقع سرعان ما نسى الأمر حين لاقى فى مصر الجديدة من الإنجليزية أكثر من الفرنسية ، بما فى ذلك أول ما طالع فيها ، اسم شركتها The Cairo Electric Railways and Heliopolis Oases Company التى تقدم لها لشراء ڤيللا . كان يجد الاسم دوما مكتوبا بالإنجليزية ، حتى داخل الجزء الفرنسى الصغير من صكوك أسهمها نفسها يوم اشترى بعضا منها . وطبعا كان معتزا بترامها الكهربى ، الذى ذكره بحلم أبيه القديم فى أن يصبح مديرا للسكك الحديدية ، وكان بالفعل أكثر ما شجعه على مسايرة صديقه فى اختيار ' الواحات ' كمسكن .

تهادت كل هذه الذكريات على ذهن وحيد ، وهو عائد من شركة رمسيس ، أو بالأحرى وقد راحت عيناه تتفحصان مبانى مصر الجديدة ، فى أول يوم خروج له فى شوارعها ، وأمه ليست فيها . تجول لوقت غير قليل فى شوارع الكورية ، شجعه عليه جو بدايات الخريف المعتدل ؛ على أن ما نغص عليه هذه المرة وجبة الغذاء التى طلبها فى المطعم الأنيق بشارع الأهرام ، هو أنه أراد تذكر السبب الذى دفع كل هذه الخواطر للتدافع لرأسه . بعد أن خرج شعر بضيق آخر ؛ لأنه كان شاردا ، وربما لم يشكر النادل ما وجب من شكر . المذهل أنه بمجرد خروجه من المطعم تذكر السبب . مرة أخرى يقع بصره على لافتة متجر مكتوبة بالإنجليزية لكن بها خطأ فى الهجاء . يسمون المحلات ونجمات الغناء لورين وچاكلين وكارولاين وكلوديا وسيندريللا وميليسا وشهر زاد ودومينيك وپوسى ونيكول وروبى وپاميلا ، ومائة اسم أخرى ، ويصممون على كتابتها بالحروف اللاتينية ، تباهيا بالثقافة الغربية والدخول لعصر الجلوبة ، لكنهم لا يعرفون الهجاء الصحيح ، فيصبحون فضائح حية مطبوعة بحروف حجم أبناطها بالآلاف بارتفاع بنايات كاملة . ما فائدة كل هذا التعليم الأجنبى إذا كانت وكالات الإعلان التى تصمم واجهات المحلات وإعلانات الأغانى ليس بها من يعرف هجاء أسماء الأعلام ؟ ثم زاد غيظه ، وكادت تمتماته أن تسمع وهو يهز رأسه متقطب الوجه احتجاجا : ' قطعا لم تكن مصر الجديدة هكذا فى شبابها ! حتى فى تلك السنوات القليلة التى عشتها فيها فى نصف السبعينيات الثانى ، كانت لا تزال تحتفظ برونقها الأصلى لدرجة معقولة ' .

تنقل لمقهى ثم لبار ، ولاحظ أن الوقت لا يمر . راح يلف على دور السينما كعادته وهو طالب فى وسط بيروت . اكتشف أن الكثير منها قد اختفى ، والبعض الجديد قد ظهر . لكنه فى كل الأحوال لم يجد مزاجا مناسبا لالتقاط شطر من هذا الترفيه . هو لم يشعر بالملل يوما فى حياته ؛

العكس دائما هو الصحيح . ما يعانيه ليس مللا . ما يعانيه هو اكتئاب . هو ليس ساذجا لدرجة أن تنطلى عليه خدعة صديقه الطبيب الذى قال له إن عليه العودة للناس من أجل مرونة عضلات وجهه . كان يقصد كى لا أصاب بالاكتئاب . شعر برهبة وبامتعاض ، وأحس أيضا بانقباض لم يسبق أن ألفه فى حياته . غرق وحيد من جديد فى دوامة شريط الذكريات المؤلم الذى لا يملك سواه . ما أنا إلا حطام ! لا شىء ! لا أحرك ساكنا ولا أسكن متحركا ! الشخص الذى كان أشد من بشر بالتنافسية واقتصاد الدغل ، ها هو الآن يتعيش من ميراثه عن أمه ؛ بالضبط ذات المال السهل الذى طالما ازدراه ووصفه بالقذر ، تماما كأموال الريع ، الأرض والبترول وما شابه ، أو كالوظائف الحكومية أو حتى غير الحكومية . فالدخول الثابتة هى أيضا نوع من الريع ، والريع رؤية متكاملة للحياة ، رؤية ستاتية للثروة لا تنافسية ولا روح فيها . حياة -ككل- عنوانها الفشل والهزيمة ، قلة الإنجاز ، الاغتراب عن الفكر السائد ، وحتى الوحدة بمعنى ما .

إنها -الوحدة- الشىء الذى لم يعرفه أبدا فى حياته الحافلة ، وتقريبا لا يعرفه الآن ، لكن ماذا حين يصاب باكتئاب يصد نفسه عن شاغله الأساس الذى اعتاد أن يملأ كل حياته ، ويتمنى لو أصبح كل يوم ٤٨ ساعة لا ٢٤ فقط ، شاغل القراءة ؟ ألا توجد حبة دواء تصلح لوقف المخ عن الاشتغال ؛ حبة تنقذنى من تلك الآلام الرهيبة ؟ الخمر لم تجد يوما معى فى غياب الوعى . هل أجرب العقاقير المخدرة ؟ كلا ، لقد جربتها فى شبابى . جربت كل شىء ، وليس أى منها الدواء الذى أريد الآن . أنا لا أسكر ولا ' أنسطل ' أبدا . مستحيل ! ذات مرة قال لى صديق فى الجامعة حين رآنى أشرب أضعافهم ولا أسكر أبدا : ' انس ! قرار السكر لا يكمن فى الخمر . يكمن فيك أنت . طالما أن عقلك يشتغل طوال الوقت ، لا أمل لك فى التحليق مثلنا . السكر ليس كيمياء ! السكر إرادة ! ' . لم أفهم ، ولا زلت لا أفهم . إذا لم تسم ما أنا فيه الآن بإرادة فبماذا تسميه إذن ؟

حين عاد لشقته المفروشة ، ألقى بنفسه على الأريكة ، وبدأ يتمتم : ' لقد قال لى صاحب الشركة إن ' تكويد ' العملاء فى البورصة يتم الآن إليكترونيا فى لحظات ، وليس خلال أسابيع كماضى الأيام . الرقم القومى جعل كل الأشياء سهلة ، كما أن شركات السمسرة نفسها تتحمل مسئولية صحة البيانات . لقد باتوا يعتبرونها تضاهى البنوك فى مسئوليتها وحيثيتها ' .

... متى يأتى الغد ويصبح بوسعى تداول أسهمى بالبورصة ؟ بوسعى مراقبة تحركاتها المثيرة ؟ بوسعى مناقشة العملاء الآخرين فيما يحدث وفى جديد الشركات والاقتصاد ؟

... لن أشعر بالملل أو بغير الملل ساعتها !



لم يكن إدوارد مضطرا فى الحقيقة للإبلاغ عن تشيك تسلمه

صاح إدوارد فى موظفه سامر : ' عليك أن تذهب بصورة البطاقة هذه للبورصة من أجل استكمال ملف صاحبها عندهم ، ثم فى خلال عودتك تمر على مباحث الأموال العمومية ، وتسلمهم صورة التشيك ده أبو ٦ مليون ، بالجواب إللى ها تاخده من ميرفت وأنت خارج . فاهم ؟ ' . لم يفهم سامر بالضبط سبب الصياح ، أو تخيل وراءه شيئا معينا ، إلا حين أردف إدوارد قائلا : ' بسرعة لو سمحت ، علشان تلحق توصل البورصة قبل الجلسة ما تبدأ ! ' ، فرد وهو يهرول : ' آه ، طبعا ! ' .

فى الحقيقة لا يحب سامر الأيام التى يؤمر فيها بالذهاب للبورصة . يتمنى لو جاء اليوم الذى طالما وعدوا به من نقل كل ما يخص البورصة لمدينة السادات ، وإلغاء التداول من داخل قاعتها التقليدية بوسط مدينة القاهرة . لكن يبدو لأسباب حنينية ، لم تجرؤ إدارة البورصة على اتخاذ مثل تلك الخطوة أبدا . نقلوا كل شىء ، إلا أنهم لم يشأوا إلغاء تقاليد السنوات الطويلة ، على الأقل ما عرف عن القاعة من قداسة من حيث ملبس السماسرة وحظر تناول المشروبات أو التدخين إلا فى أماكن معينة ، أو ما عرف لها من لحظات تاريخية يذكرها الجميع ، مثل أيام يصفق السماسرة لارتفاع سريع فى سعر سهم معين نتيجة إنجاز ضخم حققته شركته ، أو أيام يوقف التداول بسبب انهيار شامل للأسعار ، أو ربما أن لم تجرؤ إدارة البورصة أن تلغى بجرة قلم ، ذلك الإحساس الخاص للرنين المهيب لجرسى الافتتاح والإغلاق !

دائما ما يحاج سامر صاحب شركته بأن كل شىء يمكن تنفيذه من الطرفيات الحاسوبية المتاحة فى مقر الشركة ، لكن إدوارد يصر : ' طالما نحن مضطرون لإرسالك للبورصة أو لوسط البلد لإنجاز غرض معين ، فلتقض بقية اليوم فى قاعة التداول ' . وجود سمسار فى البورصة مفيد تحوطا لأى طارئ ، كانقطاع الاتصال بين طرفيات التنفيذ بالشركات وبين ' الخادم ' المركزى للبورصة ، أو انقطاع التيار الكهربى فى مقر الشركة نفسه ،

حيث يمكن للأجهزة الاشتغال لدقائق قليلة على أجهزة المظاهرة ثم تتوقف . وبالفعل يوم يطرأ شيء كهذا أو ذاك ، يضطرون لإرسال سامر على عجل إليها . أيضا من فوائد تواجد سمسار للشركة داخل قاعة التداول أنه يضع هذا المنفذ فى أجواء وأخبار السوق (بالأحرى شائعات السوق ، فالأخبار الرسمية تبث فى كل الأحوال من خلال تلك الطرفيات أيضا) . وطبعا يريد إدوارد أن يضع عملاءه فى أجواء البورصة بنقل ما يسمعه سامر إليهم ، مع التأكيد فى كل مرة أن تلك ربما كانت إشاعات ولا أساس لها . عامة أهم خبر إطلاقا هو دوما معرفة هل هناك صندوق استثمار أو محفظة مالية كبيرة ، أو مجرد مضارب فرد ذى ملاءة مالية ، ينتوى شراء أو بيع كمية ضخمة من سهم ما . معرفتك المسبقة بشيء كهذا تتيح لك الشراء أو البيع وأنت تعلم أن ثمة حركة ملحوظة سوف تطرأ على السعر وتعرف الاتجاه التى ستكون عليه . ورغم أن الكشف عن مثل هذه الأوامر قبل إدخالها بالفعل ، هو جريمة متكاملة الأركان تحرمها بشدة قوانين ولوائح أسواق المال فى مصر ، إلا أن ذلك لم يمنع قط أن يتداول السماسرة تلك المعلومات على سبيل الصداقة والخدمات الشخصية المتبادلة ، كأن يوصى أحدهم قريبا له بشراء كمية من هذا السهم أو ذاك ، طبعا فى حدود ضيقة لا ينكشف معها الأمر ، أو تؤثر على صاحب الصفقة الأصلى .

بالمثل ، لم يكن إدوارد مضطرا فى الحقيقة للإبلاغ عن تشيك تسلمه ؛ التشيك لا يمكن أن يحمل شبهة غسيل أموال ، هو تشيك بالفعل ، بمعنى أنه ينتمى لحساب بنكى ، أى أموال بيضاء نظيفة بالفعل ، أو فى أسوأ الأحوال غسلت وشبعت غسيلا . لكن تلك هى طبيعته ، لا يريد أن تأتيه المشاكل من أية ناحية .

معروف مثلا عن كثير من الشركات ، أنها قد تمول المشتروات الزائدة للعملاء من أموال أصحابها الخصوصية نظير فائدة يومية ، بينما هناك دفاتر أخرى موازية تحوى الحسابات الحقيقية ؛ أى أن تكون الدفاتر الرسمية دقيقة لا يظهر فيها اللون الأحمر للحسابات المدينة الذى يمنعه من المنبع برنامج التداول الحاسوبى الجديد ، وقبل إدخاله كانت يجرمه التفتيش على الشركات ويعتبره تلاعبا بحسابات العملاء ويسأل كيف تم تمويل تلك المشتروات . إدوارد لا يسمح بحدوث مثل ذلك أبدا ، رغم أن هذا يكلفه إحيانا هرب بعض العملاء ، إلا أنه لا يريد أن تأتيه المشاكل من أية ناحية .

أما لماذا لا يحب سامر الأيام التى يذهب فيها للبورصة ، فالسبب أيضا معروف ؛ إنه واقع فى غرام زميلته ميرفت ، موظفة خدمة العملاء ، ويود البقاء بجوارها معظم اليوم ، يترك غرفة التنفيذ الداخلية ويأتى ليسحب كرسى ويشاركها الجلوس لمكتبها ، ولا ينهض إلا حين يعطى أحد العملاء أمرا بالشراء أو البيع ، فينهض لتنفيذه من طرفية التنفيذ الحاسوبية بالداخل ، ويعود هاتفا قوله التقليدى : ' ع الشاشة يا پاشا ! ' ، ويجلس من جديد . يبدو سامر قصير القامة قوى البنية ، حريصا على نحو خاص على دقة الملبس وإحكام ربطة العنق . وتبدو ميرفت فتاة رقيقة الملامح خمرية اللون ذات شعر أسود طويل منسدل تجيد تصفيفه وتغذيته والعناية به ، وملابسها فى الغالب عبارة عن بنطلون وبلوزة ، وأحيانا تايير ا ، لكن المميز دائما فيها أن هناك فوقها جميعا ما يشبه الروب المفتوح أو فستانا مغلقا فضفاضا بلا أكمام صنع من قماش رقيق شفاف ، شيء يعطى مظهرها لمسة إضافية من الشفافية والبراءة والرقة ، وكأنها إحدى شخصيات أساطير ديزنى ، سنو وايت أو سيندريللا مثلا .

حصل سامر على وظيفته من اليوم الأول لتأسيس شركة رمسيس للسمسرة ، وحصلت ميرفت عليها بعده بخمس سنوات ، هذا حين كبرت أشغال الشركة وزاد عدد عملائها ، واحتاجت لموظف جديد . عين كلاهما بعد تخرجه مباشرة تقريبا ، وساعدهما على ذلك تقدير ' جيد جدا ' الذى تخرجا به من كلية التجارة . ورغم أن رمسيس شركة صغيرة ، تدفع مرتبات أقصى ما توصف به أنها ' عادية ' ، ولا تتيح اتصالا مباشرا بين السمسار والعملاء ، الشيء المعتاد الذى عادة ما يحصل السماسرة من جرائه على عمولة شخصية خاصة ، إلا أنهما -سامر وميرفت- لم يفكرا أبدا فى البحث عن وظيفة أخرى . أحد الأسباب هو ذلك الرباط الذى جمعهما ، والذى لا يزيد ظاهريا عن ارتياح واستلطاف وصداقة ، لكنها جميعا مؤكدة عميقة واضحة ، بحيث لا يشك أيهما فى أنه يحب الآخر وأن الآخر يحبه ، ويشاطرهما كل من يراهما فى رمسيس ذات الاعتقاد .

كاد سامر بسبب تطلعه المتكرر لساعته أن يصطدم فى هرولته بالأستاذ نبيل هذا الذى كان يتحسس خطواته ببطء لداخل الشركة . يرفع نبيل عكازه فى الهواء ويقول بلهجة ودود : ' فيه إيه يا سامر يا بنى ؟ ' .

– لا مؤاخذة يا مستر نبيل . صباح الخير سيادتك . أنا آسف !

وهرول ليلحق بالمصعد الواقف قبل أن يجره أحد إليه فى هذه الساعة البكيرة الرحيمة .



أول عميل يطرق باب شركة رمسيس

لماذا يأتى المستر نبيل كل يوم فى التاسعة والنصف ، بينما موعد جلسة التداول هو العاشرة والنصف (أو بالأحرى الحادية عشرة والنصف ، هذا قبل أن تعدل فى مطلع سنة ٢٠٠٧) ؟ هذه قصة قديمة ، بدأت تقريبا منذ اليوم الأول لافتتاح الشركة .

تقع شركة رمسيس خلف شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير ، أى فى الشارع التالى لشارع عباس (الآن إبراهيم اللقانى) وموازيا له ، وفى نفس الوقت إلى القرب من تقاطعه من شارع الأهرام الأكثر تجارية فى كل مصر الجديدة ، والذى يمر به المترو الذى ينتهى فى منطقة النزهة كما يدل عليه اسمه منذ عقود . الفارق أنها تقع فى واحدة من العمارات العالية ذات السبعة أدوار ، التى بدأت تنبت فى منطقة بنيت أصلا كلها من ثلاثة أدوار ؛ ولأن شركة مصر الجديدة نفسها تقع بحكم تاريخها فى واحدة من تلك البنايات القصيرة العريضة ، ولأن كل جاراتها كانت كذلك بحكم طول العمر ، أو استسلاما لجيرة قصر أصبح جمهوريا ، وإن بالمصادرة لا بالإصالة ، فإن من يطل من شرفات تلك العمارة العالية ، يستطيع أن يمد بصره ، حتى الضفة الأخرى لطريق المطار ، وبالأخص معلمها الكبير قصر البارون ، ودونه الكثير من القيلالات والقصور الأصغر ، والمسطح الكبير لنادى هليوپوليس ، وطبعا معالم القصر الجمهورى نفسه ، الأقرب منها جميعا ، لكن البعيد بما يكفى لئلا تمثل مثل هذه العمائر خطرا أمنيا .

نبيل كان أول عميل يطرق باب شركة رمسيس لدى تأسيسها فى خريف ١٩٩٥ . إدوارد كان بالطبع قد أخبر كل أقاربه ومعارفه بافتتاح الشركة ، لكنه ظل بعضا من أسبوع لم يسمع جوابا ، حتى جاءه هذا الأستاذ الكهل ، وعرفه بنفسه .

– نبيل رأفت قرياقص ، مدرس إنجلش فى سان چوزيف ، دلوقت بالمعاش . تقدر تقول عنى أنى بأعانى من الفراغ ، لا أؤمن بالدروس الخصوصية ، وكنت دايما أقول للتلميذ إللى عاوز درس : ' كل إللى عندى قلته فى الحصة ، ولا تتوقع شيئا جديدا فى الدرس الخصوصى ! ' . من زمان بأمارس الترجمة بالقطعة لحساب مكتب ترجمة معتمد ، هواية دخلت فى احتراف شوية ، أصل أنا خريج ألسن من بتوع زمان . وبالصبح لو ها تسمح لى ، أسلى نفسى معاكم هنا .

نبيل كهل نحيل أشيب الشعر ، يرتدى بذلات فاتحة اللون دائما ، وتميزه تلك حمالة الأكتاف التى يشد بها سرواله ، فهو أحد هؤلاء الناس الذين لم يقتنعوا قط أن الأحزمة اختراع كاف لمنع البنطلونات من السقوط . إدوارد يبدو شخصا طويلا أميل للامتلاء ، ذو بشرة بيضاء وشعر أسود مجعد لكن لا يظهر منه هذا أبدا لحرصه على فرده وحسن تمشيطه . أبدى فرحة كبيرة بقدوم نبيل لدرجة أن ضرب قبضته اليمنى بقوة فى قلب راحته اليسرى . بالوضع فى الاعتبار الخصائص البدنية الجيدة لإدوارد ، كانت هذه ضربة مسموعة الصوت غير مفهومة المعنى بالنسبة لنبيل ؛ لم يكن السبب أن مجرد أن الزبون رقم ١ قد طرق الباب ، إنما لأنه وضع نظرية بخصوص افتتاح الشركة فى حى مصر الجديدة تحديدا ، ها هى تتحقق حرفيا .

كان إدوارد موظفا فى بنك القاهرة الذى ألغى لاحقا بالاندماج ، حتى جاءه يوما والده ليقول له إيه رأيك تعمل مشروع ؟

– مشروع ؟ إوعى تقول لى تجارة البلح ؟

– لأ ! لأ ! أى مشروع ، أنا خلاص نويت أصفى وأبيع الوكالة ، أنت ما لكش فى البلح ، ومينا ما لهوش فى أى حاجة . إعمل مشروع ، وخد مينا مرنه فيه ، أهو زيك خريج تجارة ، والفلوس موجودة .

لم يرتح إدوارد لفكرة الميراث المبكر هذه ، على الأقل لأنه لم يفكر فيها قط . كان سعيدا باستقلاله وشقه طريقه بنفسه ، وقد تزوج وانتقل لإحدى عمارات أغا خان السامقة فى كورنيش شبرا ، والميراث بالنسبة له ، يأتى حينما يأتى ، وليست لديه له أية خطط ، ربما فقط يقرر أن يحتفظ به كما هو لأبنائه . لم يفكر قط أن يصبح صاحب أو مدير بيزنس . لقد توقفت طفرة الأجيال فى تفكيره عند أن يكون صاحب شهادة عليا تجارية يشتغل بها فى بنك كبير ، مقارنة بأبيه خريج مدرسة الزراعة التوفيقية ، والذى تقريبا لم يستفد من تعليمه فيها شيئا ، إنما فقط ورث تجارة أسرته العريقة فى ساحل شبرا .

سرعان ما استملح إدوارد الفكرة ؛ لم لا ؟ لم لا يخطو قانون التطور خطوتين لا خطوة واحدة . فى تلك الأوقات من سنة ١٩٩٥ لم يكن للصحف ولا لأروقة البنوك ، من كلام إلا عن عزم الحكومة إحياء سوق المال من جديد فى مصر .

راح يقص عليه حكاية مصر الجديدة كلها

راح إدوارد يستقصى أبعاد مشروع شركة السمسرة ، تكاليفه وجدواه ، وحين اقتنع تماما ، قرر أن يسارع فى التنفيذ ، وأن يكون من أوائل الشركات التى تطلب الترخيص ، إن لم يكن أولها . للحق هو فكر قليلا فى البحث عن شقة إيجار ، لكنه وجد أنها إما تقع فى عمارات قديمة متهالكة لا تليق ، أو كمسطحات تجارية فى عمارات جديدة ، ليست فقط باهظة الإيجار ، بل نادرا ما يوجد فيها المسطح الكبير المتصل الذى يريد . ثم لا مشكلة فى رأس المال ، وشراء شقة . بالفعل وجد هذه الشقة ، عمارة أوشك بناؤها أن ينتهى ؛ موقع ممتاز فى قلب المركز القديم لمصر الجديدة . الشارع اسمه رمسيس ، وهو نفسه اسم إدوارد رمسيس ، والشركة سيكون اسمها رمسيس ، أو للحق هذا الاسم الأخير كان مقررا سلفا ، بفرمان عائلى لحظة أن باح باقتراح أن يسمى الشركة هليوپوليس مثلا . كل ذلك دون أن يخطر بباله أن فى مصر الجديدة أيضا شارع اسمه رمسيس ، سقط سهوا من ثوار يوليو تغييره ، بعد أن استغلوا الاسم بالفعل ليضفوه على شارع آخر باسم عباس ، لكنه الشارع الأضخم والأشهر فى كل القاهرة ، هذا الذى يمتد من وسطها التجارى متجها لشمالها الشرقى ، أى العباسية .

إدوارد لا يعرف هذا ، ولا يعرف أن هذه العباسية نفسها سقط سهوا تغيير اسمها ، مثلها مثل التوفيقية مثلا ، أو مثل الترعة الإبراهيمية ، ولم يحدث أن سمى أيها فلسطين أو لومومبا مثلا ، ولا يعرف مثلا (طبعا لو نحينا جانبا أسماء المدن الأعصى نسبيا على التغيير كالإسماعيلية وپور سعيد) ، أن لاقى ذات مصير المحو أسماء أثرياء اليهود التى التصقت بميدان سوارس بالمعادى وبعربات السوارس فى المعادى وغير المعادى ، أو بكل ما اسمه منشية فى كامل أرجاء القطر المصرى ، نسبة إلى ليڤى منشى . إدوارد لا يعرف شيئا ! هذه كلها أشياء لم تشغل باله يوما ، لكن قطعا الأكبر سنا فى أسرته ، الشبراوية المسيحية ، رجالا ونساء ، يتذكرون هذه الأشياء كثيرا ، بل واكثر من اللزوم أحيانا . وكان لا يعطيهم آذانا كثيرة ، معتقدا أن كل هذا قد ولى وانقضى ، تماما كما أنساه حصوله على بكالوريوس التجارة ووظيفة البنك المحسودة ، أن لديه ميراثا هائلا من الثروة ؛ فقط اكتفى بالصياح يوم وقع عقد الشقة : ' شارع رمسيس ! يا لها من صدفة سعيدة تنبئ ببداية موفقة ! ' .

أما النظرية التى ضرب بسببها إدوارد قبضته فى راحته ، فهى أن مصر الجديدة التى وقع اختياره عليها هى ' حى المعاشات ' . وها هو أول عميل يأتيه ، يعرفه بنفسه بأنه من أرباب المعاشات ، حرفيا كما خطط ، وأما لماذا يأتى المستر نبيل مبكرا فهى كما قلنا قصة أخرى ، أيضا ترجع لذلك اليوم الأول لمجيئه للشركة .

بعد ' نبيل رأفت قرياقص ، مدرس إنجليش فى سان چوزيف ... ' . أردف قائلا : ' مبروك الشركة الجديدة ! ' .

– عجبتك يا مستر نبيل ؟ اتفضل اتفرج عليها .

ما أن خرج نبيل للشرفة ، حتى صعق لمنظر القصور ، الذى لم يره من عل هكذا أبدا ، ولم يرها فى إطار واحد على هذا النحو قط .

– شقتك دى فريدة جدا ! حضرتك ساكن فى نفس العمارة برضه ؟

– لا ، لا ، إحنا من شبرا ، ومصر الجديدة بالنسبة لى ذكريات صياعة ، موش أكتر !

– باعتبارك لسه ضيف على مصر الجديدة ، تسمح لى أقوم معاك بدور مرشد سياحى ؟

– ها تتعب نفسك يا مستر ؟

– أتعب إيه ؟ بلكونتك دى موش عاوزة تعب خالص .

فى ذلك الصباح الصحو ، راح يقص عليه حكاية مصر الجديدة كلها -ما يرى وما لا يرى- ذلك من الشرفة الذهبية ، الشرفة التى عادة لا تفضل الشركات الاحتفاظ بمثلها ، باعتبارها مساحات غير مستغلة . فندق القصر الذى كان يقارن فى حينه بتاج محل الهندى ، وكان أفخم من أن يستمر كفندق ، وطبعا من أن يترك دون مصادرة ، وظل له دور ثانوى كمقر لقيادة مشروع مضحك كان يسمى اتحاد الجمهوريات العربية ، لم يعد يذكر أحد حتى أسماء تلك ' الجمهوريات ' المشاركة فيه . هذا إلى أن اختاره لاحقا الرئيس حسنى مبارك مقرا له ، فأصبح ثانى من يحكم مصر من حى مصر الجديدة ، بعد السلطان حسين كامل . هذا الأمر الذى حدث فى سنة ١٩١٤ قبل مبارك بـ ٦٧ عاما ، ومن قصر السلطان غير البعيد المواجه لقصر البارون ، وأيضا غير البعيد عن المصادرة ، كقيادة عسكرية هذه المرة ، ثم عندما وجدوا قصرا أكبر للمصادرة أحالوه

مدرسة ثانوية للبنات ، يطالعنك اليوم فى شرفته بزى موحد -تلميذات ومدرسات- هو الخمار الأبيض . هذا يعد مفارقة كبيرة بالنظر لاسم صاحبه ، هذا الذى أتت به بريطانيا حاكما لمصر بالتزامن مع إعلانها الحماية عليها ، وعزلها لسابقه الاستقلالى المتخلف الأخرق عباس حلمى ، ومن ثم ارتفاع سقف آمال العصرنة بذروة جديدة لم تعرفها فى كل تاريخها الحديث . إن مجرد نقل الرجل لمركز الحكم فى مصر إلى ضاحية شديدة العصرية كهليوپوليس كان فى حد ذاته رمزا مقصودا ، ربما يعادل فى رمزيته جبروت أن أولى الخديوى إسماعيل دبر حصان أبيه إبراهيم پاشا (فى التمثال الشهير الذى صنعه له) ، إلى القاهرة الفاطمية القديمة (أو إلى مكة ، لم يخبرنا بالضبط) ، متطلعا -أى الأب- بإصبعه غربا إلى قاهرته الجديدة (قاهرة إسماعيل ، وسط القاهرة الحالى) ، أو ربما غربا إلى الغرب فى حد ذاته !

... أما قصر البارون ، أهم معالم مصر الجديدة إطلاقا ، فهو قصة حافلة بالأساطير ويطول شرحها . لقد أثقلت عليك اليوم ، ونؤجلها ليوم آخر . أغدق نبيل على إدوارد بفيض من معلومات من هذه الشاكلة ، مستئذنا فى نهاية الحوار أن يأتى مبكرا كل يوم ليجلس فى الشرفة لبعض الوقت ، مستمتعا بما لا تتيحه له شقته المدفونة فى طابق خفيض بعيد ، بعد عدة شوارع أخرى فى عمق الحى العريق .



حقيبتان ورقيتان من ذوات اللون العسلى القديم

مما كان يعتقد أنها طريقة للتغليف اندثرت منذ ظهور عصر الشنط البلاستيك

– إيه معنى كلمة كورپة يا مستر نبيل ؟

– هناك أكثر من قول ، أنا رأيى هى تعريب لكلمة كورپوريشن ، المقصود شركة مصر الجديدة يعنى . البعض يقول لك دى كلمة لاتينية معناها الجسم أو الشىء الملتف ، والكورپة تقع عند التفاف طريق الخليفة المأمون القادم من القاهرة ، هذا صحيح ، لكن فى نفس الوقت هذه الكلمة نفسها هى أصل كلمة كورپوريشن الإنجليزى ، لأنها الجسد الذى يضم مساهمين كثر .

ينبه نبيل وحيد ، وهما يتمشيان سويا عبر شوارع الكورپة ، لبعض المعالم البارزة ، لعل أكثرها إثارة للفضول عدد من علامات نجمة داود الموجودة على بعض المبانى القديمة ، وعلى أسماء بعض المحال التى تحمل أسماء يهودية صريحة . أيضا تطرقا بطبيعة الحال أكثر من مرة للهجاء الخاطئ لأسماء الأعلام وللكلمات عامة ، سواء بالإنجليزية أو العربية . يتركان شوارع الكورپة العتيقة خلفهما ، يعبر الاثنان أشهر ميادين مصر الجديدة ، ميدان كنيسة البازيليك (نسبة لطرازها المعمارى حيث السقف قطعين ناقصين أو نصف أسطوانة أفقية بطول المكان ، وإن كانت هذه بالتحديد هجينا مع الطراز التقليدى للكنائس ذى القباب) ، والتى بدورها أهم كنائس مصر الجديدة ، وأحد أهم كاثدرائيات مصر إطلاقا . إذا كان ثمة شارعان رئيسان يقسمان مصر الجديدة الأصلية على هيئة صليب ضخم ، فهما شارعا الأهرام والبازيليك (الأول لا يزال يحتفظ باسمه والثانى تغير) ، وفى هذا القلب تقع كنيسة طائفة الروم الكاثوليك هذه ، والتى أرادها إمپان ثانى أهم معلم للضاحية بعد قصره هو الشخصى ، واختار أن يدفن فيها . هذه كانت بعض المعلومات التى راح نبيل يلقنها لوافد مصر الجديدة القديم-الجديد .

واصلا السير حتى البقالات القديمة فى شارع هارون الرشيد . البقالات القديمة موجودة فى كل مكان فى مصر الجديدة-القديمة ، يوجد سوق فى الخليفة المأمون وآخر فى صلاح الدين وثالث فى تريومف وهكذا . أنا أحب شارع هارون الرشيد ، وإن ليست محلاته بالضبط فى قلب سوق صلاح الدين إنما على هامشه . هى لا تقل عراقة ، لكن تاريخها أكثر أرستقراطية . لم يستمع وحيد جيدا لكل ما قاله نبيل لأن مرورهما غير المقصود بمدرسة والدته جعله يسرح فى ذكريات معها . أول ما لاحظه وحيد فى محل البقالة الفسيح ، هو صور پاپاوات روما التى تزيح كل واحدة الأقدم منها جانبا بواحدة أكبر حجما وأزهى ألوانا وأفخم إطارا ، وتشكل كلها معا مثلثا حوافه صور صغيرة بالأبيض والأسود ترجع لبدايات القرن العشرين . نبيل نفسه كاثوليكى ، وإن ليس من اللاتين الكاثوليك ، إنما كاثوليكى شرقى ، ' روم ' ، والمقصود يونان .

تنبه وحيد حين لكزه نبيل قائلا : ' ما تشتريه من السوپرماركت لا يمكن أن يسمى بقالة ، أنا أزور المحلات الكبيرة تلك ، وأول ما أذهب له قسم البقالة ، والرائحة وحدها تخبرنى إن كان هذا المتجر متوسطا أم رديئا ، لكن قطعا لا يوجد سوپرماركت يبيع بقالة حقيقية بمعنى الكلمة . ماذا تعتقد هذه الرائحة ؟ '

فكر وحيد قليلا وقال متصنعا الخبرة وبلهجة غير المرتاح لطريقة المدرس التى يهواها نبيل : ' بسطرمة طبعا ! ' .

– خطأ ، وخطأ كبير ، هذه روائح كثيرة وليست رائحة واحدة .

– صح !

– البسطرمة هى الرائحة الغالبة ، لكن أليست رائحة الطرشى واضحة أيضا ؟ انظر لكل إناء طرشى واسأل نفسك أليست رائحته تعبق الجو أيضا : الليمون بالعصفر ، البصل ، الفلفل الأخضر ، الزيتون الأسود والأخضر ، وغيره ، وغيره .

صاح وحيد باندهاش : ‘ فعلا كلها موجودة ! ’ .

– ركز أيضا فى رائحة الأجبان المختلفة ، دقق ستجدها أيضا ، فباب ثلاجة العرض هذه الخلفى يفتح من حين لآخر ويبث الروائح بعناد يقاوم كل الحواجز ، ثم ماذا عن بقية اللحوم المحفوظة أو الرنجة والأنشوجة .

طلب من نبيل أنه يجهز له مشتروات مثله بالضبط ، وقال نبيل : ‘ المرة دى على ، ولو عاوز تدفع ماشى ، بس تعريفى لك بالمحل بـ ٥ آلاف جنيه ، يا إما تدفع الكل يا إما الكل هدية منى ! ’ . ضحك وحيد وتركه مع البائع يجهز المشتروات ، حقيبتان ورقيتان من ذوات اللون العسلى القديم مما كان يعتقد أنها طريقة للتغليف اندثرت منذ ظهور عصر الشنط البلاستيك ، وذهب هو لقسم الخمور ، كامل الضفة الأخرى اليمنى للمحل الغائر للداخل . مشى طويلا ممنيا نفسه بأن يجد نبيذا مستوردا ، لكنه كالعادة وجد أن أغلى قنينة تقع دون المائة جنيه . انتقى قنينتين من هذا النوع ، ملاحظا حتى أن الأسعار تقل بضعة جنيهات عما اعتاد شراءها . بعد مناقشة قصيرة مع الكاشيير حول النبيذ المستورد ، قال له إنه لا يباع رسميا بسبب الضرائب الهائلة ، لكن محل الخمور المجاور يأتيك به لو شئت ، فهو مشهور بأنه يشترى كل ما يعرض عليه من خمور يأتى بها أصحابها من المطار ، ولا يشربونها . تعجب وحيد لسماع هذا ، وتمتم فى صمت : ‘ جايز ! شرب الخمر هو الحرام ، إنما بيعه ليس كذلك ، ربما هناك فتوى جديدة تسمح بهذا ! ’ . دفع الثمن وناول نبيل واحدة من الزجاجتين الملفوفتين فى نفس نوعية الورق العسلى . وسحب منه أحد كيسى البقالة قائلا بحماس ضاحك : ‘ شكرا على البقالة وشكرا على معرفة المحل ! وتمتم مرة أخرى قائلا : أنا تقريبا غريب عن مصر الجديدة . قضيت فيها أيام الجامعة بس ! ’ .

قبل أن يغادرا سأل وحيد عن عطلة المحل فعرف أنها الأحد ، فعاهد نفسه أن تكون هذه هى تمشية عصر يوم الجمعة ، حيث مصر الجديدة هادئة إلا من صوت المترو الهادر ، بسبب تهالك الخط الحديدى الأرضى ، مرة كل نحو نصف ساعة .



لعلها الطريقة المتفق عليها فيما بينهم للتعزية !

قاعة المستثمرين فى شركة رمسيس ، عبارة عن قاعة فسيحة هى أول ما تقودك إليه الطرقة القادمة من الباب الخارجى . بعد ذلك توجد طرقة داخلية تقودك إلى ثلاث غرف مكاتب أخرى ، مكتب إدوارد ، مكتب لشاشتى التنفيذ المتصلتين بالبورصة ، وعادة ما يجلس به مينا وسامر ، وأخيرا مكتب للمحاسب لا يكاد يحظى بأى احتكاك مباشر مع العملاء . بمجرد ما أن تدخل من الباب الخارجى للشقة ، حتى تهاجم أنفك حزمة من الروائح الدسمة ، المتشاكلة معا من أجل تكوين رائحة واحدة فريدة ، ربما يجدر تسجيل حقوقها باسم هذه الشركة . دخان التبغ الكثيف بأنواعه ، وقد اختلط بعطور النساء الفواحة ، زائد نكهة بهار إضافية تمنح تفردا يختلف من يوم إلى يوم لجو القاعة . إنها رائحة ما يأتى به الحاج ضهرى يوميا من مزارعه بالقناطر الخيرية . حزمة الزهور أو النباتات العطرية التى تتغير يوميا من الورد إلى الفل إلى الريحان إلى الياسمين إلى النعناع إلى العتر إلى القرنفل وهكذا . وكان من المنافسات الشهيرة أن يحاول كل من يأتى التعرف على تلك الرائحة اليومية الإضافية بمجرد دخوله ، فيقول نهارنا ورد ، أو نهارنا فل ، أو نهارنا ياسمين ، أو نهارنا ريحان ، حسبما يخيل لأنفه من وجود هذا النبات أو ذاك .

ومما يزيد من نفاذية عبق القاعة ، هو أنها مغلقة المنافذ تقريبا ؛ السبب أنه منذ تركيب پروجكتور لإسقاط صورة برنامج الحاسوب الخاص بالمعلومات اللحظية للأسهم ، وأضحى من المحتوم إظلام المكان . باستثناء مصباح مكتب فلوروسينتى صغير أمام ميرڤت ، بات المكان كقاعة السينما المحكمة ؛ لا يفتح فيها منفذ ، إلا فى تمام الثانية والنصف (الثالثة والنصف سابقا حين كانت الجلسة الرئيسة تنتهى عندها وكانت جلسة سوق الأوامر تعقد فى الصباح الباكر) ، حين تنهض ميرڤت بسرعة وقد فاض بها الكيل مفاضه من رائحة السجائر ، وتضىء الأنوار وتصيح : ‘ الفيلم خلص خلاص ! ’ ، وتذهب للشبابيك لتفتحها ، ثم تعود لمكتبها لمواصلة تلك الجلسة الصغيرة المسماة بجلسة المشتقات والمستقبليات والخيرات وأشياء أخرى غامضة ، نادرا ما يهتم بها عملاء رمسيس ؛ إما لأنها كما قلنا غامضة عليهم ، وإما لأنها تحتاج لمبالغ فوق طاقتهم (الأولى تعنى ورقة مالية ‘ مشتقة ’ عن مجموعة من أوراق أخرى ، والثانية تعنى السلع الأولية التى لم يحن موعد حصادها أو تسليمها بعد وأشهرها عالميا

البترول . والأخيرة تعنى السلع الأولية كبضاعة حاضرة وفى مقدمتها بالنسبة لمصر القطن الذى ألغى مؤخرا أيضا من بورصته العريقة بالأسكندرية التى ظلت تمارسه لقرابة القرن ونصف ، لكنه فى محاولة لإعادته من جديد للازدهار ، تحول وهو وسلع زراعية كثيرة أخرى للتداول الإليكترونى الآن) . وفى كل الأحوال يكفى هؤلاء المهتمون الجلوس إلى الحاسوب المكتبى المواجه لميرفت لمتابعتها (كانت هذه الفترة مخصصة من قبل للتداول على الشركات المفلسة أو التى عجزت عن تلبية متطلبات الشفافية بإصدار ميزانية منتظمة ، هذا فيما يسمى بسوق الأوامر أو خارج المقصورة ، وكانت قبل سنة ٢٠٠٧ تعقد لمدة ٤٥ دقيقة صباحا قبل الجلسة الرئيسة . لكن ها هى سوق الأوامر قد ألغيت بالكامل مؤخرا ، أو بالأحرى حولت أسهمها لما تسمى بسوق الصفقات ، أى مما لا تتداول خلال جلسة علنية مفتوحة محددة التوقيت . وحلت محلها جلسة الأسواق المتخصصة المذكورة ، هذا كله فى إطار إحساس البورصة المصرية بالتوسع والتنوع والكبر وارتفاع المكانة عالميا ، ومن ثم ' تطفيشها ' لكثير من الشركات الصغيرة التى كانت قد سبق ورحبت بها وأدرجتها فى جداولها على مدى العقد الأول لتأسيسها مع منتصف التسعينيات) .

من عادة ضهرى أيضا أن يأتى كل يوم بجميع الصحف والمجلات المصرية والعربية . ولما لاحظ وحيد هذا من يومه الأول فى الشركة أصبح يحرص على أن يأتى بدوره بالصحف والمجلات الأجنبية الناطقة بالإنجليزية . ليست كثيرة جدا على أية حال ، بعد تحول معظم مجلات العالم وصحفه الكبرى لمجرد إصدارات إليكترونية على الإنترنيت . لكن هذه الأخيرة متاحة بدورها عبر الهواتف الخليوية والحواسيب التى يحملها الكثيرون من عملاء رمسيس ، ومن هنا تظل -هذه وتلك- أطعمة شهية تتناولها الأيدى ، لعلها تجد فيها خبرا عن شركة ما يحفزهم لقرار استثمارى مربح ، وإن كان الأغلب أن تستأثر قصة جريمة ما أو واقعة انتحار على الحديث بقية اليوم .

يفترض فى شركات السمسرة سرية تعاملات العملاء . هذا لا ينطبق بحال على شركة رمسيس . قديما كانت الصفقات تدار على المقاهى ، ومن هنا جاءت تسمية كثير من المقاهى بالبورصة . رمسيس شركة صغيرة ذات جو عائلى حميمى ، والمفارقة أنها أقرب لمقهى منه لشركة عصرية حديثة . خلافا لكل الأعراف المصرفية أو أعراف شركات السمسرة الكبيرة ، لا يخفى شىء على أحد فى قاعة المستثمرين فى شركة رمسيس ؛ كل شىء يتم فى العلن . خدمة العملاء عبارة عن ذلك المكتب الصغير المتعامد على مكتب ونس-روميو ، ويتناوب الجلوس عليه سامر أو ميرفت حسب مقتضى الحال ، أو سويا حين لا يقتضى الحال شيئا . كل الأوراق موضوعة عليه بحيث ينظر لها من شاء متى شاء وكيفما شاء . العملاء أنفسهم اعتادوا تملية أوامرهم بصوت عال كى تنقل عبر التليفون الداخلى بسرعة من خدمة العملاء للمنفذ كى يدخلها بدوره من خلال طرفيته لنظام التداول الخاص بالبورصة . ويأتى عادة رد سامر عاليا من الغرفة الداخلية ، أو يأتى هو بنفسه ، حاملا دوما بصمته المميزة : ' ع الشاشة يا پاشا ! ' ، ردا موسيقيا نمطيا لا يتغير أبدا حتى لو كانت صاحبة الأمر سيدة . بعد ذلك ينهضون على مهل لتحويل هذا الأمر لمحرر رسمى مكتوب ، أو لو تقاعسوا أو تناسوا أو نسوا ، تكتبه لهم ميرفت ، وتأتيهم به فى أماكنهم لمجرد التوقيع . وأيضا لا حرج أن تسأل أى أحد أنت معاك أسهم إيه دلوقت ، ولا يعتبر هذا تدخلا منك فى خصوصياته . يعتبر أنه يسألك لأن الوقت الصحيح للسؤال قد جاء ، وليس لأى هدف آخر ، ذلك كى يقترح عليك إما بيع نصف الكمية وإما ثلثها .

قبل أيام قال وحيد لنفسه إن التحركات المثيرة لأسعار الأسهم هى التى ستذهب عنه الملل . الواقع أنه كان يكذب على نفسه . هو لم يحدث أن استمتع بشىء قط إلا فى اللحظة التى يبدأ يصبح فيها هذا الشىء روتينا فى حياته . المفاجآت هى أسوأ الأشياء التى يمكن أن تهز عالمه العقلى دقيق البناء . فى البداية صدم بما يحدث ، لكنه سرعان ما استمرأ هو نفسه هذه الأجواء . الجميع أشبه بأسرة واحدة أو قل بفصل مدرسى واحد . وجد ألفة فى كونهم يعرفون عن ظهر قلب محتويات محافظ بعضهم البعض . يتشاركون الفرحة لربح أحدهم ، يتسابقون لإبلاغه بأعلى وأسرع صوت ، أن السهم الفلانى قد ارتفع . أو يتشاركون التعازى فى حال الهبوط ، أو بالأحرى هم لا يتبادلون أبدا التعازى بالمعنى المعروف للكلمة ، إنما ببساطة يعايرون بعضهم البعض بالخسائر ، أو لعلها الطريقة المتفق عليها فيما بينهم للتعزية ! ' أنت يا بتاع سهم سيدى عطعوط يا خايب ! ' ، ' حد يشترى سهم شركة اسمها سيدى عطعوط ؟ ' ، ' ما لها ؟ شركة استثمار أد الدنيا ' ، ' برضه تخلى شيخ نصاب يضحك عليك ويأخد فلوسك ! ' ، ' هأ ، هى جات على ده ، ده أهون واحد وحياتك ! ' ، ' من كان منكم بلا خسارة فليرجمها بحجر ' ، ' سيدى عطعوط ، يا سيدى أمرك أمرك يا سيدى ! ' ، أو هكذا ينتهى الأمر عادة فى كل مرة : التحول للغناء !

إن سر تآلفهم واضح ، أنهم جميعا ركاب قارب واحد يواجهون عدوا واحدا ، مسخا بحريا هائلا لا يعرف الرحمة لا يمكن أبدا التنبؤ بنفحاته الكريمة أو بصولاته الشريرة ، مسخ اسمه السوق !

المزاح ، زائد الغناء الجماعى ، لا ينتهيان طوال ساعات جلسة البورصة الأربع ، زائد امتدادات تطول أو تقصر قبلها وبعدها ؛ بحيث قد يخيل للداخل الجديد (لا سيما مع كثافة الدخان الذى يقاوم مرور ضوء البروجكتور إلى الحائط المقابل) ، أنه أخطأ العنوان وطرق على ستوديو للتسجيلات أو على ناد ليلى . أيضا الرهانات على أين يتجه ' القطيع ' ، قطيع المستثمرين ، أى أسعار الأسهم ، لا تنتهى طوال الوقت . وتبدأ بالرهان على سيجارة كحد أدنى ، حتى سيجار فاخر أو عشاء باهظ الكلفة كحد أقصى . كل الأحاديث ترتبط بالأسهم على نحو أو آخر . مثلا إذا طرأ تغير مهم على أسعار شركات الإنتاج التليفزيونى يتحول الكلام للقنوات والمسلسلات والبرامج والأغانى ، كل يستعرض ثقافته وصوته -القبيح غالبا- فى الغناء . أو يتسابقون لفتاوى شرعية لا يطبقونها أبدا ، مثل أن هذه أسهم هز الوسط وقلة الأدب . وأن لا غرابة أنها صاحبة التاريخ الأسوأ سمعة فى البورصة ، لأنها صعدت بسرعة هائلة لدى طرحها (طبعا بسبب كثرة كلام التليفزيون عنها) ، ثم انهارت فجأة .

من ذلك أيضا أن حين يقترب سهم ما من الحدود القصوى عليا أو دنيا وتصبح العروض أو الطلبات صفرا ، إذا سأل أحدهم : ' صفر ؟ ' [بتشديد الفاء] ، يردون عليه بصوت واحد : ' لسه ! ' ، على طريقة لصوص على بابا (هذا التقليد كان قد اختفى لفترة قصيرة ، بعد أن ألغيت الحدود السعرية على جميع الأسهم سنة ٢٠٠٧ ، لكنه سرعان ما عاد بعد إعادة فرض الحدود السعرية من جديد إثر هجمة مضاربة جديدة للأموال العربية فى نفس السنة) . حين يفرح أحدهم بربح ينغصونه عليه : ' شفت الأسلاك عملت إيه ؟ ' ، ' أسلاك مين يا عم ، دى شركة لو باعوها أراضى موش ها تجيب الديون إللى عليها ؟ ' ، ' إحنا ما لنا خسرانة ولا كسبانة ؟ المهم فى السهم الصيت ولا الغنى ' . وحين يغضبون من سهم يكيلون له الشتائم : ' سهم نجس ' أو ' سهم ابن كذا أو كذا ' أو ' سهم مشموم ' أو ' سهم معفن ' ، أو ' سهم مخبخبخ ' ، وهذه الأخيرة هى المفضلة لدى عم ونس لأنها تؤشر لخبرته بصناعة سباكة المعادن باعتباره مهندسا . أو من عادتهم مثلا وصف الصعود التدريجى للأسعار بأنه ' سوق بيدرج ' ، فيرد أحد القادمين الجدد حديثى العهد بمصطلحاتهم : ' يدرج ؟ هو إحنا هنا فى صالون حلاقة ؟ ' ، ' أنت جيت هنا إزاى يا بنى ؟ من يوم ما اتفتحت مدرسة الحلاقين وسهمها دخل البورصة ، لازم تعدى عليها الأول قبل ما تيجى تتصفف فى البورصة ! هأ ! ها ! ' .

كذلك يوم انهارت أسعار إحدى شركات القطن ، كان كل الحديث عن ' هذه ' الورقة ' أكلتها الدودة ! ' ، أو ' خسرنا كل فلوسنا ولازم نحجز من دلوقت مكان فى تنقية اللطع ! ' ، أو ' خلاص ! إحنا كده اتحطينا فى الشونة ! ' ، أو ' ما تقلقش ، الميزانية قربت وها يولعوا فينا ! ' ، أو حتى ' جايز يستفيدوا م البذرة بتاعتك ويعملوها علف ! ' . أو مثلا يوم صعدت أسهم شركة السكر ولم يكن قد سبق لأيهم شراؤها ، تمازحوا متمنعين على الشراء : ' أنا يا عم بأخاف من النمل ! ' ، ' أنا ما أحبش إيدى تتلبك ! ' ، ' أنا أحب أمص قصب أحسن ! ' ، ' سهم تشتريه من هنا وتاخد إنسولين من هنا ! ' ، ' أنا ها أجيب لكم شنطة بنجر بكرة ! ' ، ' أنت راجل سكر ! ' ، ' وأنتى ست عسل ! ' . وفى كل الحالات تشارك السيدات بالضحك ، وأحيانا يشاركن فى الحوارات نفسها (وربما الغناء كذلك) .

هناك كثير من العملاء لا تكاد تشعر بهم ، سواء أتوا كل يوم أو أتوا لماما . لا يتكلمون أبدا . حتى ربما لا يطلبون مشروبات من نصر الله ، الساعى . يكتبون أوامرهم فى صمت ، أو يكتفون بالفرجة على الشاشة . إذا كان يمكن القول إن هناك شخص على العكس من كل هؤلاء على طول الخط ، فهو عبد النبى مُحَمَّد عبد المعبود عبد الجبار ، وعبد النبى مُحَمَّد هو اسمه المركب هو وحده ، وونس هو اسم الشهرة . إنه المهندس الذى فرض وجوده على الجميع فى قاعة المستثمرين فى شركة رمسيس . جسد منفوخ ضخم ، رأس هائل أصلع ، لا تستطيع اليدان الإحاطة بالكرش ، لا تستطيع العينان رؤية الساقين ، ولا تستطيع القدمان لمس بعضهما البعض ؛ كأنما بالوونا مطاطيا نفخ إلى أشده ، بحيث تباعدت أطرافه ، ويكاد يوشك على الانفجار . من داخله يخرج صوته عميقا جدا غليظا جدا جهوريا جدا ، كل حرف يأتى مشددا وعظيم الوضوح . فقط حين يتحشرج تعرف على الفور أنه مصاب بالبرد اليوم .

رغم غلظة صوت ونس ، فهو دائما قائد الغناء . كل سهم وكل موقف يوجد أغنية لديه . ' مين يشترى السهم منى ، وأنا بأنادى وأدلل ؟ ' و' بالصمتووو الرهيبووو ' (جاءت يوم قال نبيل dead calm ، واصفا الصمت الواجم الذى حل بالجميع فجأة لحظة هبوط هائل للأسعار ، فكان واجبا على ونس أن يترجمها بسرعة لأغنية ، وعبد الحليم حافظ هو الأقرب لذهنه عادة حين يكون الموقف مفاجئا كهذا !) . أو طبعا حين لا يكون مفاجئا تتكرر ' فى يوم فى شهر فى سنة تعلى الأسهم وتبان ، وعمر خسارتى أنا أكبر من الأيام ' . على أنه بالرغم من عدم إعجاب

أحد بصوت ونس ، ورغم تشاؤمهم من غنائه ، ' بلاش وحياتك يا عم ونس ، الأسهم دى عاملة زى الحية ، لما تغنى لها تلدغك ! ' ، فإنه تعود أن لا يستجيب أبدا لأية تضرعات ، ذلك أنه يعلم ببساطة أن الكل سينضم إلى جوقته بعد لحظات !

روميو نفسه ، جاره الدائم ، نسى الضغائن الأولى بينهما (بسبب انتزاع ونس لمكانه أمام حاسوب المعلومات اللحظية) ، وأصبح أكثر المدافعين عنه وعن غنائه . ذات مرة انفجر سخطا على اعتراض البعض على الغناء فصاح فى ميرفت ، بطريقة يصعب أحيانا التمييز بين الجد والهزل فيها : ' يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى . ها أفتح قناة ساتيلايت لكلاسيات الڤيديو كليب العربى من ٩٨ و١٩٩٩ ، وزى كده ؛ مثلا حاجات سميرة سعيد ونوال الزغبى الأولانية ، أغنية إليسا إللى كلها ع الكرسى ، أغانى ' عينى ' و' يا نور العين ' ، شاكيرا عروسة بحر ، والحاجات دى ! ' . وطبعا كان الاقتراح كنزا سخيا لونس ، إذ دله على برنامج كامل لأغانى ذلك الأسبوع !

الأغانى نفسها تتحور طبقا لمصطلحات البورصة أو بالأحرى مصطلحات ونس بالذات . ذات مرة كان يغنى : ' دستة مناديل منظرها جميل ... مع صحبة من الورد هدية ... ' ، ثم قطعها فجأة ليقول إن ما يحدث الآن هو ' طلعة تسليك ' ، فإذا بكل الحاضرين يردون عليه غناء فى نفس واحد : ' طلعة تسليك منظرها جميل ... ' . وأحيانا يفضلون إدخال بعض الكلمات الأجنبية : ' طلعة تسليك منظرها sleek ... ' . وهكذا تدريجيا تتحور الأغنية الواحدة فى أكثر من اتجاه ، كأن يقال مثلا : ' طلعة تصريف منظرها ظريف ... ' . قد تثبت عند الكلمات الجديدة لفترة ، وقد يصبح للأغنية الواحدة أكثر من نسخة . الفيصل الوحيد هنا هو آليات قانون التطور ، مبدأ التحيؤ للأليق Survival of the Fittest . بالنسبة لمصير هذه الأغنية تحديدا ما حدث هو أن أعلنت شركة صلب التسليح ذات مرة عن توزيع كوبون أرباح جيد وراح سعر السهم يرتفع ، فغنى الجميع : ' طلعة تسليح منظرها مليح مع صحبة من الكوبونات هدية ' ، وفى النهاية أصبحت بحالتها ' النهائية ' هذه ، نشيدا مميزا لتلك الشركة تحديدا . وهكذا يسير الحال ، فتبدو الأغانى وكأنها كتبت خصيصا للبورصة وأسهمها وأسماء شركاتها . ومن نتيجة هذا أن القادم الجديد يرتبك ويسأل نفسه حين يسمع إحدى تلك الأغانى أين سمع هذا اللحن من قبل ، هذا من فرط ابتعاد الكلمات عن أزجال الأغنية الأصلية !



من عادة ونس المضاربة على خمسة أسهم بعينها

كان بعد نحو أسبوع من قدوم وحيد للشركة ، أن بدأ يحضر معه جهاز الحاسوب الخاص به . وطلب من إدوارد أن يأتيه باشتراك فى خدمة المعلومات اللحظية ؛ بحيث يمكنه توضيب الشاشة كما يحلو له ، بعيدا عن ونس ومشاكسات العملاء له الذين لا يكفون عن الاحتجاج على استئثاره بمعظم الشاشة للأسهم التى يتداول عليها .

– إللى أنا طالبة منك دلوقت يا أستاذ إدوارد أنك تطلب لى شركة بيانات البورصة يركبوا لى البرنامج على الـ laptop بتاعى ، ويعملوا لى وصلة معاك من الساتيلايت .

– يا سلام أنت تأمرنى . إحنا نعملها على حسابنا كمان . بسيطة يا أستاذ وحيد ، وبالمرة ها نحط كمپيوتر تانى فى الهول له وصلة لوحده علشان ممكن مجموعة تقعد عليه تظبط الأسهم إللى هى عاوزاها .

ويفهم ونس المقصود : ' هو كان فيه حد اشتكى لك منى ؟ ' .

فيرد إدوارد ضاحكا : ' كلهم ! ' .

وينظر ونس لوحيد : ' يا عم يا ريت لنا شوية رضا زى إللى ليك . إدوارد ده له ناس ناس . فضلنا نتحايل عليه شهور علشان يجيب البروچكتور ، وأنت بكلمة منك ، تطلع الكمپيوترات الجديدة واشتراكات الساتيلايت الجديدة ' .

فيعلق إدوارد كى يزيد غيظه : ' وكمان بكرة ها تلقى هنا مكتب مخصوص للأستاذ وحيد ! ' .

فى الصباح التالى وجد وحيد مائدة دائرية فى ذات المكان الذى اعتاد الجلوس فيه ، الركن الآخر لموخرة القاعة مجاورة للمكتب المخصص على نحو دائم لونس وذلك الشاب الآخر -أو هكذا يبدو- روميو . وتشرح ميرفت : ' الأستاذ إدوارد أمر نجيبها من مكتب الأستاذ تادرس ، علشان

سيادتك تحط عليها الكمبيوتر بتاعك ' . والأستاذ تادرس هو ذلك المحاسب الكهل -أو هكذا يبدو- الذى يشغل تلك الحجرة الداخلية الصغيرة -أو هكذا تبدو- المكدسة بالأضابير ، وليس مجرد جهاز حاسوب كما قد تتوقع ، والتى نادرا ما يخرج منها أو حتى يفتح بابها .

أصبحت شاشة وحيد لا تقارن بالفوضى العارمة فى الشاشة القديمة ، وأصبحت متابعة الجلسة عبر هذه الشاشة متعة قائمة بذاتها . من عادة ونس المضاربة على خمسة أسهم بعينها ، يجمعهم فى نافذة واحدة كبيرة . ويملأ بقية الشاشة بالكثير جدا من التفاصيل عنها ، مختلف أسعار الافتتاح والإغلاق وآخر تنفيذ وعروض البيع وطلبات الشراء ... إلخ . كلها موزعة أو بالأحرى متداخلة ومتراكمة فوق بعضها البعض على نحو عشوائى عبر الشاشة ، وفقط هناك نافذة واحدة صغيرة يمكن التجول فيها لعرض أية بيانات لأى سهم آخر . قال وحيد هذا أشبه بأن تنظر من نافذة فندق صغيرة ، وتقول لقد شاهدت كل القاهرة أو لندن أو نيو يورك . على الحضور أن يوسعوا دائرة اهتمامهم لتشمل أكبر عدد من الأسهم ، فالفرص الممتازة حقا لا تكمن فى أسهم المضاربة الشهيرة فقط ؛ من هنا كان حرصه على أن تكون نافذة ما يسمى بالتنفيذات أكبر ما يكون ، بكامل طول الشاشة ، حتى يتعرف العملاء على مجريات أسعار أكبر عدد من الأسهم ، كلها عادة بفرض أن كثير مما يتم من تنفيذات يعرض عبر هذه النافذة ، ولو فات اسم سهم ما فإنه سيظهر فى تداول لاحق .

وجود الحاسوب الجديد الذى وضع على مكتب ميرفت ظهرا لظهر مع حاسوب خدمة العملاء الخاص بحساباتهم وما شابه ، أتاح متنفسا لبعض منهم بمتابعة أخرى مستقلة بعيدا عن تحكمات ونس ومزاجه ' المنحرف ' فى اختيار الأسهم . ظل بعض الآخرين يلحون على ونس من أجل نقل توضيبة العرض من هذا الحاسوب أو حاسوب وحيد للحاسوب الرئيس الذى يبث للبروچكتور . حين رفض توالت التلميحات لأن يغير مكانه هو نفسه ويذهب للحاسوب الجديد : ' طول ما أنت إللى بتسوق يا عم عبده ، طول ما إحنا بندخل فى حيطة بعد حيطة ! ' ، ' أنت شكل سواقين التريلر صحيح ، بس البورصة زى سفينة الفضاء ، عاوزة إيد حنينة ! ' ، ' لاحظ إيدك قد الماوس عشر مرات ! ' . أيضا لم يسفر هذا عن نتيجة ، وتذرع بأنه لو انتقل سيسد الممر بضخامة جسمه ، ويمكنهم نقل وصلة البروچكتور لو شاءوا للحاسوب الجديد ، وهو شىء يعلم أنه يحتاج لبعض التعديلات الخاصة ، التى لن يواصلوا الإلحاح عليها كثيرا . ثم إن روميو الذى كان يقوم بمهمة التحكم فى الحاسوب فى أيام الشركة الخوالى حين لم يكن هناك سوى حاسوب يتيم بلا بروچكتور ، لم يبد متحمسا للعودة لمقعد ' القيادة ' ، إنما استمرأ هو نفسه الجلوس والفرجة عن بعد .

المهم ، احتاج الأمر لأسابيع إلى أن رضخ ونس أخيرا ، وقبل نقل توضيبة شاشة وحيد لحاسوبه . لكن ما لم ينجحوا فيه ولم يحاولوا انتزاعه منه أبدا ، هو سلطة أن يبقى على ' لوحة التحكم ' . كل ما استطاعوا فرضه عليه هو ألا يعدل من خريطة الشاشة ، شديدة التنظيم والدقة تلك . كانت ' مبعككة ' وفوضى ، ودلوقت منظمة ومريحة وبتخلينا نركز كويس مع الجلسة . كمان فيها معلومات عن مؤشرات البورصة وعن قيمة التداولات الإجمالية وعن أسعار أسهم الشركات المصرية فى سوق لندن ، وكلها مؤشرات مفيدة . صحيح أصبحت الشاشة أكثر ثراء وتنظيما ، لكن أسهم المضاربة التافهة التى يفضلها ونس ، ظلت كما هى تحتل لأغلب الوقت معظم النوافذ الصغيرة التى استحدثها وحيد . ما استجد هو استقلال تلك النوافذ عن بعضها البعض ، مما أعطى مرونة أكبر للمتابعة ؛ فقد بات من الأسهل كثيرا أن يطلب أحد الحضور الاطلاع على سهم بعينه ، فيضحى ونس لدقائق بعرض أحد أسهمه المفضلة ، ويأتى بالسهم المطلوب . وفى كل مرة يجيب السائل ، بترحاب زائف ، أو بضجر مصطنع ، ودائما كنوع من الجميل ، كلها حسب حالته المزاجية المرتبطة بمقدار الربح والخسارة فى محفظته هو الشخصية ؛ فالحقيقة التى يعرفها الجميع أن ونس رغم كل إزعاجه هو إنسان مخلص دءوب خدوم ، بل ويسعد أغلب الوقت بهذه المهمة ، ويفرح بأن يقدمها مرفقة بنصيحة ما بخصوص السهم المطلوب عرضه .



دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين

قامة قصيرة نسبيا ، جسم أميل للنحافة ، رأس يتصل شعره الأشيب بذقن مطابقة اللون كلاهما بطول موحد سنتيمتر واحد أو أقل قليلا . وسط كرة الزغب البيضاء الناعمة هذه تبرز فقط وجنتان متوردتان وشفتان بلون الدم وعينان سوداوان صغيرتان حادتان . حين أطل ضهرى بهيئته المميزة هذه ، وجد عاصفة فى انتظاره : ' خير يا حاج ؟ ' ، ' إيه إللى حصل يا حاج ؟ ' ، ' مواعيدك زى الساعة يا حاج ! ' ، ' اوعى تقول لنا زى العادة دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! ' .

يخرج ضهرى من جيبه ورقتين ماليتين قيمتهما مائة وخمسون جنيها ، يرفعهما بيده اليسرى التى اعتاد استخدامها ، ويبدأ حكاية القصة : ' فعلا ، دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! رحت دفعت مصاريف منى بنتى فى الجامعة الأميركية . زى ما أنتم عارفين هى آخر دفعة ها تدرس فى ميدان التحرير (مداخلة تصحيحية من نبيل لم يهتم بها أحد : ' كان اسمه ميدان الإسماعيلية ، على اسم الخديوى إسماعيل ') . وأنا راجع طلعت الكوبرى وفوجئت أنه واقف من الأسعاف ، وفضل واقف لغاية غمرة . عيل راكب عربية بى إم دبليو جديدة لسه البلاستيك عليها ، وخلص منه البنزين . نزلت له : ' يا بن الـ ... ، ولا بلاش جايز أهلك ناس طيبين ' . خطفت منه الموبايل ورميته جوه العربية : ' ده موش ها ينفعك بحاجة . أنا ها أبيع لك عشرة لتر بألف جنيه . موافق ؟ معاك ألف كاش ؟ ' . قال وهو بيترجف : ' أيوه تحت أمرك ' . قلت له : ' لتر واحد كفاية عليك ، ينزلك من الكوبرى ويوصلك لمحظة البنزين إللى قبل العباسية . تروح تتعلم تمون العربية إزاى . أنا يوم ما أبوى وافق يجيب لى عربية ، عربية قديمة بمليم ، فضلت أسبوع أركب أتوبيسات وتاكسيات علشان أعمل خريطة بمحطات البنزين والميكانيكية وبتوع الكاوتش ، فى القاهرة كلها ، وأنت موش هاين عليك تبص فى مؤشر البنزين ' . بصيت فى عربيته ما لقيتش غير ' كان ' كوكا كولا : ' مهتم بس بالبنزين بتاعك ؟ هه ؟ ' . فضيتها له فى الأرض وبصيت فيها ورميتها جوه العربية تانى ، قلت له : ' ما تنفعش ' . أخدت قزازة الميه بتاعتى ، فضيتها . قلت له : ' دى لتر ونص ، زى بعضه ها أديك لتر ونص . هات خمسين جنيه كمان ' . بصراحة بينى وبينكم خفت اللتر وحده ما يكفيش علشان الطلمبة تسحب ، والدرس يبوظ . خليته ركع وزحف على ركبه ، لغاية البنطلون ما باظ . إديت له الخرطوم وقلت له : ' أشفط ' ، وشفط البنزين ، والغبى بلعه وفضل يكح ويتف . قلت له : ' أنا موش باسترزق منك . أنا راكب عربية أغلى من عربيتك ، أنا عاوزك ما تنساش اليوم ده فى حياتك أبدا . لولا آلاف العربيات إللى واقفة ورانا دى ، كنت خليتك تفك الأربع عجلات وتركبها تانى . فاهم ؟ ' . جرى لجوه العربية زى الفأر ، وهو بيقول لى : ' خلاص خلاص ها أعمل الخريطة ! ' ' .

يخرج ضهرى مائة وخمسين جنيها أخرى من جيبه . نعمل إيه بالفلوس دى ؟ كالعادة كان المهندس ونس الجالس فى مؤخرة القاعة هو قاذفة المقترحات : ' نديها مكافأة لسامر وميرڤت ' .

– سامر وميرڤت إللى أنتم مطلعين عينيهم ، تكافئوهم من جيبوبكم يا بلطجية يا ناصحين . انزل يا واد يا نصر الله اشترى لنا مكسرات . اليومين دول بقوا بيقشروها ويعملوها أكياس فى السوپرماركت . بندق ولوز وفستق وجوز وعين جمل ، اعمل تشكيلة حلوة بالـ ٣٠٠ جنيه وتعال .

ثم جلس يشرح لهم أيام كسارة البندق وشكلها وكيف كانت تشتغل ، بينما شرد وحيد متذكرا أنغام تشايكوڤسكى . أما ونس فراح يلقى محاضرة يستعرض فيها علمه الغزير : ' بصفتى مهندس أقدر أقول لك إن إللى حصل النهارده موش ها يتكرر تانى . هل لاحظت شاشات جديدة وأنت طالع الكوبرى ؟ خلاص ها تشتغل الأسبوع ده . ها تقول لك مثلا فى حالة كوبرى أكتوبر من التحرير ، لو طلعت الكوبرى ها توصل العباسية مثلا فى كذا دقيقة ، ولو مشيت أرضى فى شارع رمسيس ها توصل فى كذا دقيقة . كل ده شغال بنظام تحديد المواقع بالساتيلايت . الصور بتدخل لكمپيوتر كبير بيحللها ، يتابع صور العربيات ويحدد متوسط زمن الرحلة ويبعته للشاشات الموجودة على كل الطرق الرئيسة . لو أنت رايح العباسية مثلا ها يقول لك كم دقيقة ها تحتاجهم فى كل طريق ، لو رايح مدينة نصر ها يقول لك برضه . وطبعا ها تكون كل الأرقام متطابقة تقريبا ؛ لأن الناس ها تختار الطريق الأسرع وها يحصل توازن . الولد صاحبك ده موش ها يقدر يقفل الكوبرى أوى كده بعد النهارده ، لأن العربيات موش ها تطلع الكوبرى أصلا ، وللأسف موش ها تقدر تخليه يفك العجلات ويركبها زى ما بتحلم ! ' .

– جايز من حظى يكون فيه ولد فوق الكوبرى وولد تحت !

وقبل نهاية اليوم يتساءل وحيد فى إعجاب موجها كلامه لضهرى : ' دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



ما الذى تعرفه عنى حتى تطأنى بكلام كهذا ؟

كما أن الصداقة بين نبيل ووحيد (أو فى الحقيقة بين نبيل وبين أى أحد) ، لا تحتاج لتمهيدات ولا لتنامى ، إنما تبدأ من القمة مباشرة ، كذلك كانت الصداقة بين وحيد والحاج ضهرى . بدأت تقريبا من اليوم الأول لقدوم وحيد ، أوائل أغسطس ٢٠٠٩ . على سبيل الدقة نقول إن البداية الأولى تماما لم تكن مريحة جدا لوحيد ، إلا أنه بعد أيام قليلة أصبحت كل الشواهد تقول إنها سوف تصبح أعمق الصداقات التى سيكونها

وحيد فى عالمه الجديد المسمى شركة رمسيس . تلك البداية جاءت حين كان وحيد -بصفته عميلا جديدا- جالسا بمكتب إدوارد ، فتقدم إليه الحاج وبادره بتعريفه بنفسه . لم يفاجأ ضهرى كثيرا حين قال له وحيد إنه سمع عنه من خلال أخيه مجدى الذى يعتبره صديقا له ، وأضاف أنه قابل أيضا يسرى أختهما مرة أو مرتين . توقع ضهرى هذا بحكم وظيفة وحيد كصحفى متخصص فى الاقتصاد ، ووظيفة أخيه هو الأصغر كوزير للاستثمار ، وأخته التى تتوسطهما كنائبة لرئيس ' البنك التجارى الدولى -مصر ' . لكن فجأة بعد دقائق معدودات تحول ذلك اللقاء لنوع من الاقتحام من ضهرى لأخص خصوصيات وحيد ، فشله المهنى : ' كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شىء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابى فيها ! ' .

– عفوا ، ماذا قلت ؟

ماذا قال ؟ ' أسال نفسى ما الشىء الجيد فى كل ما جرى لى ؟ تعال لى بسرعة يا هذا الشىء ؟ إن هناك دائما وجها جيدا لأى شى . لماذا أنت غائب عنى يا هذا حتى الآن ؟ ' . كلا ! ويحك يا أخ ضهرى . ما لك وشأنى ؟ ما الذى تعرفه عنى حتى تطأنى بكلام كهذا ؟ ليس من الممكن لمأساتى من نهاية . من المستحيل أن يكون فيما جرى لى أى شىء إيجابى على وجه الإطلاق . فقدت وظيفتى ، فقدت تأثيرى ومكانتى الاجتماعية والفكرية ، فقدت أمى . من المستحيل أن يكون ثمة شىء إيجابى هنا . من المستحيل أن تدور حياتى صعودا مرة أخرى . إنها ليست سهم الدواجن الذى تعشقه . مستحيل ! إطلاقا !



موش معنى أن بقى معاك ثروة أنك بقيت رأسمالى

على أية حال العلاقة بين الرجلين التى بدأت بذلك الحوار الوعظى القصير ، أخذت صفة الديمومة والالتصاق من أول يوم جاءت فيه المائدة المستديرة . فى ذلك الصباح دخل الحاج مباشرة وبعد التحيات المطولة المعتادة وتوزيع أعواد الياسمين -حسبما اتفق فى ذلك اليوم- على الحاضرين ، جلس على نحو عفوى -أو هكذا بدا- على مائدة وحيد ، الذى رد عليه بابتهاج : ' صباح الياسمين ! ' . بالنسبة للحاضرين بدا جلوس الاثنين معا ، ومن ثم أى مدى يمكن أن تصل له صداقتهما ، بدت كأشياء منطقية جدا . فهما ' الاتنين الكبار ' فى هذه الشركة ، أصحاب أكبر محفظتين بين كل عملاء رمسيس ، والطبيعى أن يكونا صديقى بعضهما البعض أكثر من أى أحد آخر .

لم تمض دقائق من جلوس ضهرى إلى جوار وحيد حتى بادره بالسؤال : ' تعرف حاجة عن مرقس ؟ ' .

– (متفكرا :) أفتكر هو إللى دخل المسيحية مصر .

– (ضاحكا :) قصدى تعرف حاجة عن ' شركات ' مرقس ، عندك أخبار يعنى ! كنت متخيل أنك ها تستثمر فيها ، بيعتبروها الأسهم القائدة ، وأصحابها أغنى أسرة فى مصر ، وكل إللى بيستثمروا استثمار طويل زيك بيشتروا فى أسهم شركاتهم !

كان السؤال وجيها حقا ، وعلى خلاف كثير من المضاربين الذين تعج بهم رمسيس ممن لا يعرفون عن الشركات أكثر من أنها نقاط ضوء تضع رهاناتك عليها على شاشة روليت البورصة ، كان السؤال ينم عن فهم بالاقتصاد المصرى وباللاعبين الكبار فيه .

وحين لم يتلق الحاج إجابة ، واصل السؤال : ' لماذا هذا الولع الخاص منك بكيويبد ، لماذا ليس بشركات عيلة مرقس ؟ ' .

– مجموعة موراسكو لا بأس بها ، والاستثمار فيها مفيد .

– وما لك بتقولها من غير حماس ؟

– تقدر تقول عندى شىء من عدم الراحة النفسية من ناحية عائلة مرقس . فى مصر لما بقوا بتوع التكنولوچيا ومستوردين كمپيوتر وغيره ، كانت أسعارهم غالية جدا وأكيد معتمدين برضه على البيع للحكومة والقطاع العمومى والجيش . وأنا لما كنت بأبتدى الجورنال عملت مشكلة معاهم لما استوردت بنفسى من أوروپا الأجهزة نفسها بربع التمن . اتصلوا بى من الجمرك وقالوا : ' ده ممنوع ، إحنا التوكيل ' ، فقلت لهم : ' وأنا الصحافة ' ، فسكتوا . ولما بدأت البورصة كانوا مهتمين شوية بالدعاية للأسهم علشان أسعارها تعلى ، وده برضه عيب ما يصحش يحصل من شركات محترمة . دايما فيه ضغط على القانون ونزاعات حول شروط العقود وتفسيراتها سواء مع الحكومة أو مع الغير بالذات لو كانوا منافسين جايين من الغرب ، وكأنك دايما عاوز تاخد أكتر من حقك ، وبرضه ده عيب ما يصحش يحصل من شركات محترمة . كل ده يختلف عن أنك

تبيع رخام اصطناعى أو سجاد لمطار طوكيو أو لفنادق نيو يورك مثلا ، أو تكتسح أوروبا بالإسمنت المصرى أو صلب التسليح المصرى مثلا ، تحت الترابيزة فى الحالة دى ما ينفعش . صحيح هم تأمموا فى مصر ، لكن سواء كان الحكم اشتراكى صريح ، أو عالم ثالثى فاسد يوصف خطأ بالرأسمالية ، هم ليس لهم موقف واضح ، شايفين كله كويس . إن ما كانش شغلهم فاسد على طول الخط ، أو حتى لو ما كانش فاسد خالص ، فهو على الأقل لعب على الحبال . أنا لا أرتاح مثلا لأن معظم شغلهم فى العالم الثالث ، ولا أفهم تركيزهم دائما على التعاون بالذات مع الريجيمات المارقة كتشاشيز وإيل وموجابى وصدام والأسد والقذافى وخامنئى ، رغم أن الأمر ينتهى عادة -ودونما سبب معلن- بالاستيلاء على أموالهم وطردهم . موش معنى أن بقى معاك ثروة أنك بقيت رأسمالى . فيه أهداف وأيديولوچيات مريبة بأحسها أحيانا ورا الفلوس دى ، موش الفساد بس . شىء مريب جدا أنهم يبحثون عن كل مكان به بقايا اشتراكية كى يستثمروا فيه . دايما عندهم رطانة كتير عما يسمونه الوطن ، أو عن ربنا ، وعن الفقرا وعن الإيمان بما يسمونه العدالة الاجتماعية . دى موش رأسمالية ، الرأسمالية خلق ومبادىء بسبب أنها قبل أى شىء رؤية متكاملة للعالم . جوهر الرأسمالية هو الصراع ، هو التنافسية المطلقة ؛ من التنافس الذى لا يرحم يأتى الخير لكل المجتمع .

– آدم سميث ! عارف ! إنما ما تنساش هم المصريين كده ، لو ضحكوا شوية يقولوا اللهم اجعله خير ، ولو جت لهم شوية فلوس يقولوا استغفر الله العظيم !

– أنا لا أتهمهم بشىء ، وليست لدى أية أدلة ، لكن ككل تلك الأشياء غير مريحة بالنسبة لى ، وتختلف كثيرا فى نظرى عن رأسمالى يتحدث مثلا عن التنافسية الشرسة ، أو يرفض كليا أى دور للدولة ، أو يتهمها صراحة بالفساد . هذا إنسان صاحب رسالة وليس أرزقى يسترضى كل أحد بكل طريقة . المهم كل إللى أقدر أقوله مرقس بيكسبوا ، وبيكسبوا كويس جدا ، وكل الناس بتحبهم ، وممكن تستثمر فى شركاتهم وخلاص ، وها يبقى مكسب مضمون . بس شخصيا موش سهل أرتاح لهم . جايز حكم جائر أو متحيز أو حتى عقدة نفسية لا أكثر ، لكن عقيدة عندى أن من تلوث عقله أو يده بالاشتراكية يوما ، ها تفضل فى نظرى اللعنة ماشية فى دمه وتطارده طول العمر .

– (مستسلما :) على رأيك ! أكيد عيلة مرقس يعرفوا أكتر من غيرهم أن الوصايا العشر بتقول ربنا بينتقم لغاية الجيل الرابع . أنت ها تكون أرحم من ربنا ؟ ! أنت ما عشتش الأيام دى . إللى بيشتغلوا مع الاشتراكية فى مصر أو غيرها اسمهم الرأسمالية الوطنية ؛ هكذا كان يسميهم عبمعصورة (وكأن بقية الرأسمالية خاينة) . ووطنية معناها قبولها أن تقوم بدور الخادم الطيع للحكومة والقطاع العمومى ، لا تنافسها أبدا ، إلا فى شىء واحد : الفساد !

– أنت فهمتنى غلط . أنا فعلا لا أتحدث عن الفساد كأفراد ، إنما أتحدث عن النظام الذى يؤدى للفساد . على أية حال أقصى شىء ممكن أقوله عن آل مرقس أنهم ليسوا جميعا نسخة من بعضهم البعض . ما قلته ينطبق على واحد منهم بالأخص . ليسوا جميعا بتوع كلام وشعارات واسترضاء للناس وإسهال تصريحات . من درس البيزنس فى مدرسة شيكاجو لا يمكن أن يعادل من كان زعيما طلابيا شيوعيا فى مصر السبعينيات . عندك حق ، لنكن أكثر انصافا ، وننظر إليهم من الآن فصاعدا على هذا الأساس .



الشركة التى تسعى للربح تنتهى للإفلاس

الحاج الذى يبدو أنه لا يكف عن التفكير أبدا يواصل شد طرف الحديث من جديد ، مستدركا فيما يبدو عن ملحوظته الأخيرة المتسرعة : ‘ وكلامك أنت صح . فعلا كان لهم فى الفهلوة ، الدعاية واللعب على الحبال ... إلخ ، لكن دلوقت كبروا وموش محتاجين لها . الشركات عاملة زى منى بنتى ، مراهقة ولما بتكبر بتعقل ! ’ .

– أكيد !

يبدو أن وحيد لم يفهم ماذا يختفى وراء الكلمات بالضبط ، فاستطرد الحاج : ‘ أنا قريت عن بيلل جيتس وكان بيعمل إيه فى شبابه المتوحش علشان يبنى مايكروسوفت ، والنهارده بقى صاحب أكبر مؤسسة خيرية فى العالم . أنا مقتنع بمبدأ الشركة الكبيرة ، وعلشان كده تحولت من بيزنسمان لمستثمر فى البورصة ’ .

وحيد يقول إنه لا توجد كتب كتيرة مترجمة للعربية تشرح نظريات ‘ الكورية ’ corporation على ألسنة منظريها ، ويقترح عليه قراءة كتاب ‘ المجتمع الجديد ’ : ‘ ها تلقاه فى مكتبة النهضة ، له خمسين سنة مترجم والطبعة الأولى لسه ما خلصتش ! ’ .

ويفاجأ وحيد بالإجابة الصاعقة : ' قريته ! وقريت حاجات تانى لبيتر دراكر ، عميد علم الإدارة ، موش كده بتسموه برضه ! ' .

وقبل أن يأخذ وحيد الفرصة لاستيعاب الوزن الحقيقى للشخص الذى يحادثه ، الذى يتجاوز مجرد أنه يملك أسهما فى شركة للدواجن قيمتها عشرون مليونا من الجنيهات ، تتوالى القذائف الثقيلة مع ظهور اللكنة الريفية وبدء الذراعين التحرك فى مساحة أوسع مما هو معتاد لدى أهل المدن : ' إزاى الشركات تنشأ لتلبية احتياج مجتمعى وليس من أجل الربح ؟ صعبة الفهم ، موش كده ؟ ' .

– آه ، ده كلام طويل عريض ، والراجل قضى عمره يشرحه . يقصد أنه من غير حاجة مجتمعية لن تنشأ الشركات . الشركة تنشأ حين يرى أحد ما أن الناس فى مكان ما فى احتياج لخدمة ما أو لسلعة ما ، فينشىء شركة كى تصنعها أو توفرها إليهم . سأعطيك مثالا معاصرا ، أغنى الأغنياء اليوم كانوا مجرد طلبة صغار رأوا تلك الحاجة : شابان رأيا إمكانة أن تختزل الحواسيب العملاقة لتوضع على كل نضد فى كل مكتب وفى كل بيت ، فأسسا مايكروسوفت وكتبا الدوس لحساب آى بى إم . شابان رأيا أن الإنترنيت يمكن أن تصبح خدمة معلوماتية جبارة لكل إنسان لو أعطى خريطة للمكان ، فصنعا ' شجرة ' ياهوو . شابان رأيا أن هذا لا يكفى وأن الأمر يحتاج لمحركات بحث ذكية دينامية ونشطة ، فصنعا جووجل . عن أى احتكار يتحدثون ؟ هل نسوا أن توماس واتسون رئيس آى بى إم الأشهر ، كانت كل نبوءاته أن الحاجة للحواسيب سوف تزداد بشدة ، بحيث سيصبح العالم فى حاجة يوما لخمسة حواسيب أخرى !

– بدون قطع أفكارك ، كلامك ده إثبات فى نفس الوقت لأن لا وجود لشىء اسمه احتكار ؛ بدليل أن فى كل مرة طالبين قزمين صغيرين ، يقهران من سبقهما وأصبح بالفعل عملاق العماليق فى غضون سنوات قليلة . آى بى إم لم تمنع ميلاد مايكروسوفت بل فى الواقع هى التى ساعدت عليه . مايكروسوفت لم تمنع ميلاد ياهوو بل فى الواقع لم تحاول أصلا ، وياهوو لم تستطع منع ميلاد جووجل وقد حاولت كل السبل ، وهلم جرا .

– رأى هايل يا حاج ! أنا شخصيا أعجب لمن يقيم الدنيا ويقعدها ضد وهم خيالى بالكامل لم ولن يوجد أبدا اسمه الاحتكار . روكيفيللر خفض أسعار الكيروسين إلى أن دمر كل منافسيه فى حقل النفط فضلا عن سائر حقول زيوت الإضاءة الأخرى التقليدية الأقدم ، هذا هو أشهر مثال يضربه الديماجوجيون من اليسار وخلافه للاحتكار فى التاريخ ، لكن أحدا لا يسأل ماذا فعل روكيفيللر بعد ذلك ؟ لقد واصل تخفيض الأسعار ، هل لأنه رجل خير أو ذو أخلاق رفيعة ؟ إطلاقا ، إنما ببساطة لأنه لو لم يفعل كان سينتهى هو نفسه وسيظهر من يقضى عليه ، ولم تكن لتجديه عملقته وانفراده بالسوق فى شىء ساعتها ، ذلك أن قاعديا -كما اتفقنا- الشركات توجد لتلبية حاجة مجتمعية ، والربح ناتج ثانوى لمدى نجاحها فى هذه الأولى . أبسط دليل أن قانون ' مكافحة التواثق ' فى أميركا حبر على ورق لم يحدث وأن طبق أبدا فى خلال فترات حكم الجمهوريين ، ولم يحدث أن قبلت به محكمة أبدا فى الحالات التى عرض عليها خلال فترات حكم اليسار . أنا لست ضد الاحتكار . من يريد أن يحتكر فليحتكر ، إن استطاع ، والأرجح أن لن يستطيع . ما أردت قوله بخصوص كلام دراكر هو أن كلمة السر هى تلبية الحاجة المجتمعية ، من يراها هو وحده الذى يرى الذهب فى الأكمة البعيدة . مع ذلك هذا الربح المذهل ما هو فى كل مرة إلا أثر جانبى لا أكثر ، ومصدره وجود ذلك الاحتياج ، وإلا فشلت الشركة ، وطبعا ما أكثر ما فشل من شركات .

– مظبوط . ليس بالضرورة فقط الشركات الكبيرة أو التقنيات العالية أو المخترعات الضخمة التى ضربت بها المثل . إنما انظر لأبسط المحلات الصغيرة الناجحة فى أية منطقة سكنية ، ستجد أنها تقدم خدمات بسيطة ، لكن مطلوبة جدا ، ولذا هى مستمرة . كل شىء تقريبا نشأ بهذه الطريقة . من لم القمامة من البيوت حتى توصيل الطلبات للمنازل . أغلب المشروعات الكبرى بدأت بأن ذهب أحدهم للمتجر فلم يجد الشىء الذى يرضيه ، فقرر أن يصنعه بنفسه ويبيعه هو للناس ؛ كلها فى الأصل فكرة نشأت فى دماغ شخص ما ، فبدأ يعرض خدمته على الناس فرحبوا بها .

– أيضا يمكن أن نضيف فى حال الشركات المساهمة ، أن الربح ذاته هذا يعود للمجتمع فى النهاية ، من حيث إن عموم المساهمين هم ملاك الأسهم ؛ دى أفكار دراكر ، تقدر تقول باختصار ، أو ربما اختصار مخل .

– لأ ، ممتاز ؛ بس أنا عاوز أقول حاجة قالقانى فى موضوع الربح : خد كمثال مرقس ، اشتروا شركة مصر الجديدة ، وحاليا بيبيعوها للشبكجى . تقدر تقول لهم بلاش كده ، عيب تجروا ورا مكسب حلو زى ده ، السعوديين ها يضاربوا بأسهم الشركة وآخرتها تخسر وتفلس ، لأنهم لن يهتموا بإدارتها أصلا ، ولا يعرفون كيف يديرونها ، أو بالكتير ها يكرروا إللى بيقولوه دايما بعنجهيتهم الغبية المتوارثة المعتادة ، المهم الفلوس ، والمديرين حاجة ممكن تشتريها . أنا عارف إيه أهمية المديرين ، وقارئ دكتور ألفريد تشاندلر كويس . إنما فين الرؤية ، بالذات لو بنتكلم

عن شركة لسه ناشئة ؟ لازم أنت صاحب المال يكون لك أنت نفسك رؤية ، وبناء عليها تختار المديرين ، وبعد كده لازم تفضل أنت فوقهم بنفسك إلى ما لا نهاية ، ويا ما شركات كبيرة انهارت بعد موت مؤسسها . الورثة بلا رؤية واعتمدوا على المديرين . آى بى إم نفسها كانت ها تضيع . المدير موش وظيفته يكون صاحب رؤية ، هو إما بييجى على رؤية موجودة فعلا ، وإما لو غير موجودة ، بيطبق خبرته هو السابقة نقلا ومحاكاة لشركة أخرى ، وهذا لا جديد ولا رؤية فيه .

– بس خلاص ! أنت كده حليتها ! جايز تكون شرحت إللى دراكر ما عرفش يبسطه كويس : الشركة التى تسعى للربح تنتهى للإفلاس . الشركة لازم يكون لها نظرة مستقبلية بعيدة ، وهى دى معنى الحاجة المجتمعية . طالما ظللت ملتصقا بمفهوم أن شركتك يجب أن تظل تلبى حاجة مجتمعية ستظل ناجحا ، بمجرد أن تبدأ فى التفكير فى مجرد الربح وتعظيم الربح ستفشل وتنهار . مايكروسوفت لما تيجى عندنا بتقول أنا جاية علشان أقعد ١٠٠ سنة . بتستثمر فى الويندوز العربى ، تنشئه من الصفر ، وتستثمر فى البرامج العربى ، وفى التدريب ، وفى بناء الكادرات ، بخلاف طبعا المختبرات ، ومنافذ التوزيع . إللى يعمل كده ، موش ممكن بعد شوية يبيع الشركة لأول مشترى . هو باصص للمكسب البعيد ، لأنه باصص للحاجات المجتمعية ، موش باصص لنفسه . بعبارة أخرى : انس الربح ، وركز تفكيرك على الحاجات المجتمعية ، وتأكد أنه سيأتيك الربح وفيرا ومن تلقاء نفسه !

– بس ده ما يمنعش أن فيه فى أميركا جزارين للشركات ، كيركوريان مثلا ، يشترى الشركة من دول ويهدها ويبيعها فكة . وبعد شوية يدور على غيرها .

– وأنا قلت لأ ؟ ؛ طبعا فيه ! لكن لاحظ أنهم موش ها يلقوا سوق لنفسهم ، إلا لو كانت الشركات نفسها خسرانة وفاشلة . كيركوريان موش ها يشترى مايكروسوفت مثلا ، أو يشترى إكسون موبيل . وهو ده إللى عاوزين نقوله فى إخواننا بتوع الربح السريع ، أن بعد شوية الدنيا كلها ها تخرب ، وموش ها يلاقوا حاجة يلعبوا عليها . ما هو الفارق بين الشركات الغربية العريقة العملاقة وبين شراء السعوديين لبنك الائتمان والتجارة ؟ ليس الفارق فى الرقى الحضارى أو لون العينين ، وليس الفارق أن هناك أناسا ذوى أخلاق وآخرين بلا أخلاق ، وليس الفارق أن للرأسمالية مبادىء وأعراف مستقرة لا يخرج عليها أحد ولا نعرفها نحن ؛ الفارق الأساس هو التفكير بعيد المجرى : أنت تستثمر لتبنى شيئا يظل يتعاظم لعشرات أو مئات السنين ، لا لخبطة فتات تافهة واحدة سريعة ، اخطف واجرى تاركا خلفك الحطام !

– عارف ، وجايز متغاظ أكتر منك ! الربح الحقيقى لا يأتى إلا بالتفكير البعيد لقدام ! العرب لا يعرفون إلا المضاربة والإسكان .

– العرب لا يعرفون سوى المضاربة . مشاريع الإسكان التى تنسب لهم لا يقومون بها بأموالهم . يأتون ويفوزون بالمشروع ، ثم يتضح أن لا أموال لديهم ويبدأون الاقتراض من البنوك المصرية ، وتضطر الحكومة للتساهل معهم حتى لا تحدث هزة بسحب المشاريع منهم ، وهى نفسها التى أعطتها لهم . إنها أشبه بعملية نصب ، بينما أموالهم موجودة فى المضاربة عبر العالم على الأسهم ، وعلى إشعال أسعار البترول باستخدام عائدات البترول نفسها ، وما إلى ذلك .

– ما قصدته بالإسكان هو الأفراد ، وقصدت المضاربة أيضا . عندهم بيشتروا العقارات موش علشان يسكنوا فيها ، إنما علشان يبيعوها ؟ ! لكن إزاى أنت موش ضد الاحتكار . عيلة الشبكجى موجودة فى كل مجلس إدارة لكل شركة إسكان ، حتى إللى لهم نسبة صغيرة من أسهمها ، وكأنهم عاوزين يحطوا عين فى كل حتة .

– ده موش احتكار ، ده فساد ؛ اسمه تضارب مصالح . هذا لعب قذر ، هدفه الوحيد أن يضمنوا سيلا لا ينقطع من الأخبار (أو بالأحرى الشائعات) المنتظمة التى ترفع أسعار الأسهم ؛ أى احتكار ، وهم لا يهمهم على وجه الإطلاق ماذا تبنى هذه الشركة أو تلك ، أو حتى إن لم تكن تبنى شيئا على وجه الإطلاق .

ويتدخل ونس مؤمنا على الكلام بأن رأس المال جبان ، فيصحح ضهرى بحدة : ' رأس المال البدوى بس هو الجبان . أنا أستطيع أن أذكر لك ألف اسم من رأس المال الشجاع جدا . كل رموز الصناعة والبيزنس الكبار عبر العالم وفى التاريخ هم أبطال مغامرين عميقى الرؤى ، رأوا وراهنوا على ما رأى فيه الجميع حماقة وخراقة ' . ويؤيده نبيل : ' له كلمة مخصوص بالإنجلش entrepreneur ، معناها الحرفى المقاول أو المنفذ ، لكن بتستخدم بمعنى من يقدم على بيزنس عالى المخاطر ' . ويوافق ونس مغيرا الموضوع قليلا ، شارحا أنه تلقى فى أول يوم إطلاقا له فى كلية الهندسة محاضرتين ، واحدة فى هندسة الإنتاج والأخرى فى التصميم الهندسى ، فوجئ بأن كلتيهما تتحدثان عن ذات الشىء : التقييس

standardization . المسمار لما يتعمل منه مليون يطلع بجنيه ، لو عملت واحد ع المخرطة يكلف ١٠٠ جنيه . محطات القوى لما بتكبر بتزيد كفاءتها . هنرى فورد هو رائد الإنتاج الكبير . عربية وحيد بتاع سنة ١٩٤٩ إللى موش عاوز يستخدمها دى ، كانت نقطة تحول . موش لصناعة السيارات بس ، إنما جايز لكل تاريخ الصناعة والعالم . العالم كان طالع من الحرب ، كان ممكن الشركة تفلس لو ما نجحتش . مفترق طرق ، إما تصبح السيارة سلعة كمالية ، أو سلعة للملايين . وفعلا بقت خبطة لا سابق لها . بعد كده تويوتا دخلت ، وبقت المنافسة أكبر ، وبعدين دخلت الفيات والبيجو والميني وغيره ، إنما فورد ١٩٤٩ هى نقطة التحول .

ويسخر ضهرى : ' ولما أنت عندك كل المعلومات دى أخدت الكلية فى ١٠ سنين ليه ؟ ' .

– يا عم على قد حالنا . عندى المعلومات ، وعندى الفورد ١٩٤٩ لعبة صفيح لما كنت صغير . وحيد عنده الأصل نفسه . ها أنزل معاك الجراج يا وحيد يا بنى تفرجنى عليها . ماشى ؟

– بس سمى وأنت بتتكلم ! واوعى تحاول تركبها بجسمك ده !

أما وحيد فيجتر الكلام السابق ، ويتساءل فى إعجاب : ' الشركات زى منى بنتى لما تكبر تعقل ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



إن طريقة كلامك تجعل الديناميات الحرارية تبدو كنوع من الفن فوق كونها علما !

البداية بين وحيد وونس كانت بالمثل ودية كثيرا ؛ ونس هو الذى بادر ليعرفه بنفسه ، ووجد موضوعا جيدا لبدء الحديث : كارثة سوق المناخ فى الكويت . كان يعلم أن وحيد عاش طويلا بالكويت ، وكذا كتب عن تلك الكارثة المالية ، فراح يعطيه المزيد من التفاصيل عن قرب ، لأنه أيضا سمع وعايش الكثير والكثير عنها خلال إقامته هو نفسه هناك . فى رمسيس فوجئ وحيد بأن كثيرين قرءوا سلسلة مقالاته تلك . هو لا يزال فخورا بها ، لكنه يشعر أن الناس حين تحدثه عنها تواسيه وكأنها كانت فضيحة . أما وحيد فقال لونس المهندس الميكانى ، إنه طالما ولع بالديناميات الحرارية ، وقال إن بها معظم الإشكاليات التى اهتم بها الفلاسفة والفلسفة . قال إنه آمن بالإمبريالية والجلوبة وتوحيد العالم بفضل الديناميات الحرارية . لقد تحول قانونها القائل بأنه كلما كبر النظام كلما زادت كفاءته ، إلى قناعة عمومية جامعة فى داخله ، يطبقها على كل مناحى الحياة ، وليس حتى الاقتصاد فقط . قال إنه تأثر بالمثل بالمبدأ الهندسى المسمى فيها بشرط الحالة الثابتة steady state condition فى التنبؤ بمجريات الاقتصاد والسياسة والمجتمع ؛ حيث يمكن أن تسبق لتخيل المستقبل على المجرى البعيد بناء على توازن القوى والعوامل المختلفة الحالية حتى وإن بدت الصورة مضطربة ظاهريا والطرف الضعيف أو المتخلف منتصرا أو محققا بعض الانجازات . وعدد الأمثلة قائلا إن عبمعصور أفلت بسرقة القناة ، لكنه لقى أشر العقاب بعد ١١ سنة . الأسد قلده فى لبنان ، وصدام قلده فى الكويت ، البشير قلده فى الجنوب ودارفور وكل مكان ، وإيران قلدته ببرنامجها النووى ، ولم يخجل أى منهم من القول صراحة وعلى لسان أعلى رأس سياسى لديه ، أنهم درسوا معادلات القوى الدولية ووجدوها شبيهة بما قدره عبمعصورة سنة ١٩٥٦ . هكذا يذكرونه هو والقناة بالاسم ، لكن بعد قليل يلقون أيضا أشد العقابات مثله . لماذا ؟ لأنهم خدعوا أنفسهم بلحظة وقتية مضللة بدا لهم فيها الطرف الآخر ضعيفا أو مرتبكا ، ولم ينظروا للـ SSC ، ضعفهم المؤبد والقوة الحقيقية للطرف الآخر ، والتى لا بد معا وأن تفرض توازناتها يوما !

من رأى وحيد أيضا أن مفهوم الاستثمار على المجرى البعيد ، أو توقع نتيجة حرب ما مثلا ، يمكن أن يستفيد كثيرا من مبادى الديناميات الحرارية . ورد ونس أن الهندسة والاقتصاد هما ككل أبناء عمومة ؛ لأنهما منشغلان بهاجس الكفاءة وحسن استغلال الموارد ، أى خفض التكاليف وتعظيم الناتج . ويبدى ونس إعجابا -أو بالأحرى تعجبا- شديدا حين يقول له وحيد إنه طبع القانون الثانى للديناميات الحرارية على ورقة مقواة ، ووضعه فى إطار علقه فوق مكتبه ، ويعلق قائلا : ' إن طريقة كلامك تجعل الديناميات الحرارية تبدو كنوع من الفن فوق كونها علما ! ' .



ليس للسكان الأصليين ممن تصادف ظهور البترول فى منطقتهم ، أى فضل أو حق فيه !

المناقشة التالية التى تكن على نفس المستوى من الاتفاق ، جاءت حين قال ونس إنهم فى بلاد الخليج سبقونا إلى الرأسمالية . قال وحيد إنه إذا كنت تقصد المقارنة مع ريجيم عبمعصور فعندك حق ، لا يوجد مجال للمقارنة بينهم كاقتصاد مختلف وبين لص صريح كعبمعصورة يسرق كل

شىء تطاله يداه . مثل هذا السلوك الإجرامى لم يبرز عندهم على نحو خطير سوى مرة واحدة حين قطعوا البترول عن الغرب سنة ١٩٧٣ . فنظريا وأخلاقيا البترول ملك من اخترعوا الماكينات والأجهزة التى جعلت له قيمة . كل بترول العالم ، أو على الأقل نسبة كبيرة منه ، هى حق لمبتكرى محركات الاحتراق الداخلى أو الكهرباء ، زى أوتو أو رودولف ديزل وورثتهم ، أو إديسون وورثته . القيمة المضافة أتت من الاختراعات ، وقبلها لم يكن لباطن الأرض أى ريع .

ويتدخل ضهرى ساخرا : ' وبالتالى فحم العالم ملك چورچ ستيڤنسون وعائلته التى ورثته ؟ ! ' .

ويرد وحيد دون أن يتخلى عن جديته : ' يعنى ! وإن كان للفحم برضه استخدامات لم تكن تحتاج لاختراع المحركات . إنما البترول كان يسمى بروث الأرض ، ظهوره فيها ينكبها ويفسد للأبد فرصة استخدامها فى الزراعة . إلى أن جاء الأميركيون يطلبونه من الملك عبد العزيز ، لم يكن يعرف ما هى فائدته أصلا . يا حاج ، ليس للسكان الأصليين ممن تصادف ظهور البترول فى منطقتهم ، أى فضل أو حق فيه ! ' .

ويسأل نبيل : ' أنت إذن لا تعتبر البدو الرحل سكانا أصليين indigenous people أو قاطنين أصليين indigenous inhabitants ؟ ' .

– السكان الأصليين ؟ (فى لحظة يغير ضهرى رأيه مائة وثمانين درجة :) فعلا عندك حق ! أنا برضه من أنصار نظرية الأرض لمن يستعمرها ! العرب عندهم أرض قد إسرائيل ألف مرة ، وما بيعملوش بها حاجة . لا قيمة للشاى والكاكاو بدون توماس ليپتون وچورچ كادبورى ، ولا قيمة للفحم والبترول بدون ستيفينسون ووات وأوتو وديزل وإديسون . إن من البلطجة المحضة بعد ذلك طرد هؤلاء باسم السيادة والاستقلال ، وترك الموارد تنهب من جانب أقلية فاسدة محرضة تسمى الحكام القوميين ، ومن ثم -باعتبارها موارد ناضبة- تخسرها البشرية المتقدمة للأبد ، أو على الأقل تركها تذوى تخرب وتنهار على المجرى الطويل ، أو تصبح سببا ووقودا معا للحروب الأهلية والإقليمية . اسألنى أنا ! هذا ما آل إليه حال الزراعة وكل شىء فى بلادنا بعد الاستقلال . لا أعتقد أنى أخالفك كثيرا .

ويسخر ونس : ' أنتم ها توهونا ليه ؟ الثروة والسلطة فى الجزيرة العربية كانت ملك اليهود وطردهم الإسلام ، ولو فيه أى جدال حوالين البترول يكون بين اليهود والغرب ؛ العرب بره الموضوع أساسا ! ' .



كما أن الشيوعية أخذت فرصتها كاملة وثبت فشلها ، استقلال الشعوب أخذ أيضا فرصته كاملة وثبت فشله !

وحيد الذى تعود العيش فى بيئة قريبة منه وشديدة التفهم فكريا ، وفى نفس الوقت الذى لا يعرف ما سينتظره من خلافات وشيكة مع الجميع فى هذه القاعة ، ومنهم ونس بالذات ، كان المفروض أن يكون موقفه مختلفا من ذلك التأييد الفكرى السخى شبه المجانى من ضهرى . ما حدث هو أن فعل ما اعتاده ، تجاهله ببساطة ، ليس لنقص فى التهذيب لديه ، إنما لاعتقاده أن الكل مهتم مثله بفحوى المناقشة ، لا للمجاملات . وعاد لونس وإن بلهجة أقل خيالية : ' أنت تقول عن دول الخليج إنها اقتصادات رأسمالية . هذا ليس صحيحا ؛ إنها اشتراكية ريعية -أى قائمة على ريع الأرض : البترول ' . ثم راح يشرح له -دون قبول كبير من هذا الأخير ، لا لهذه ولا لما قبلها- أن كلمة رأسمالية تعنى المنافسة بالضرورة ، وهذا لا وجود له فى كل المنطقة . دور الدولة فى الاقتصاد كبير جدا فى كل هذه الدول . وهذا لا يمكن أن يسمى رأسمالية .

لكن ضهرى يعود لتكرار فكرته التى يراها مؤيدة لكلام وحيد رغم عدم اهتمام هذا الأخير بها : ' كيف لا يرى هؤلاء القبضايات القيمة المضافة الهائلة فى مجرد تمثل الرأسمالى لشكل ووظيفة الشركة والخدمة أو المنتج الذى ستقدمه ؟ الاختراع هو قيمة مضافة . الأفكار هى أهم القيم المضافة ' .

– بالظبط يا حاج ! هذه آراء متقدمة جدا وأؤيدك فيها . كما أن الشيوعية أخذت فرصتها كاملة وثبت فشلها ، استقلال الشعوب أخذ أيضا فرصته كاملة وثبت فشله ! الشيوعية امتلكت القنابل النووية وسفن الفضاء لكنها انهارت من جوع البطون ، كل الشعوب أصبحت تحكم نفسها فلم ترث سوى الفقر والفساد والمزيد من التخلف .

– الأدهى أن ترد التهمة : الغرب تقدم لأن لديه موارد طبيعية ، ونحن تخلفنا لأنه نهب ما لدينا من موارد طبيعية . يغيظنى أن يفسر هؤلاء كل شىء بالموارد الطبيعية . يقولون لك إن أميركا أصبحت قدرة فائقة super power ، لكونها قارة حديثة الاكتشاف هائلة الموارد . هذا غير صحيح . الولايات المتحدة ليست أكبر ولا أثرى موارد من كندا أو البرازيل ، وانظر حالهما . بالمثل اليابان ليست لديها موارد ولا حتى ماء أو أرض أكثر من الأنبار ، لكن سنة العراق لا يعرفون أسلوبا للحياة غير مص الدماء ، الإغارة على الشعوب المجاورة وحكمها ونهب مواردها . التقنية هى التى صنعت روما وصنعت بريطانيا العظمى وصنعت أميركا . لماذا أميركا أغنى وأقوى دولة فى العالم ؟ لماذا من الطبيعى أن تسير كل الشعوب فى ركابها بلا رفض أو مقاومة (أو ما يسمونه اليوم على سبيل التدليل الممانعة !) .



ما اسمهاش مقاومة ، اسمها مقاولة ؛

ما اسمهاش ممانعة ، اسمها ملاوعة !

– ما اسمهاش مقاومة ، اسمها مقاولة ؛ ما اسمهاش ممانعة ، اسمها ملاوعة ! مقاولة وملاوعة موش هى أسماء الدلع . بالعكس ، هى الأصل والباقى قصر ديل يا أزعر . زمان كان اسمها الصمود والتصدى والردع وما أخذ بالقوة ، وكلام تخين أوى ، وحين انحطت أدواتهم للحضيض وتلاشت الجيوش وباتوا مجرد عصابات تمولها فلوس الاتحاد السوفييتى وليبيا وصدام ، أصبحت مقاولة ومن هنا جاء اسم الدلع ' مقاومة ' . لكن عندما أصبحت إيران هى الممول طلبت التحول لاسم أكثر فارسية ، فباتوا يدلعونها بأسماء مثل الممانعة والتمنع ولوى البوز ، بينما هى م الأول للآخر -من ناصر لحماس- ملاوعة (جايز كلمة فارسية برضه -لا أعلم !) : لا أحد لديه رؤية غير أن يقول لا . ارفع رأسك يا أخى ، علشان ما تقرفناش وإحنا بنقطعها لك ، والملاوعة تبوظ !

– (غير مهتم بالمقاطعة :) لماذا اكتسبت أميركا هذه المكانة المستحقة ؟ لماذا يتودد الكل لها هى بالذات ؟ لحاجته للتقنية . لطالما أقول التقنية هى الخير الأعظم فى الكون . هل تعرف لماذا ؟ لأنها ببساطة (ومنذ اختراع العجلة حتى نهاية الزمان) ، هى الشىء الذى يجعلك أكثر قوة ! ويجعلك هذه لا أقصد بها الإنسان بالذات . الإنسان لا يمثل أية مرجعية عندى ، ولا يهمنى رأيه . باختصار : المهم التقنية !

– المهم الچيبنات !

– عفوا ، ماذا قلت ؟

– لا تشغل بالك ! هذا موضوع يطول النقاش فيه ، ومحتاج قعدة مخصوص . كل ما أستطيع قوله الآن إن الشعوب المتخلفة تفكر فى التقنية تماما مثل الشعوب المتقدمة . الفارق أن أول شىء يفكر فيه أى شعب متخلف استقل ليس جوعه وتخلفه إنما امتلاك القنبلة النووية . دعنا نؤجل حديث الچيبنات هذا ليوم آخر . النهارده ورانا شغل كتير أنا وأنت . أنا أجرى تنويع على محفظتى من حين لآخر ، ليس كل شىء دواجن ، وأقترح عليك أن تفعل ذات الشىء ، ولو بجزء صغير . ليس دستورا أن يكون كل شىء كيوپيد ، لماذا إذن تأتى كل يوم ؟ لمجرد أن تنصح الناس ؟ أعتقد أن هذا الأسبوع آخر فرصة لنا لشراء بعض أسهم شركات الإسمنت قبل أن تنتهى السنة وتعلن ميزانياتها الممتازة كما نتوقع . سنطلع على ما سجلته فى حاسوبك من أحدث أرباح الشركات المختلفة عن فترة التسعة شهور ومكررات سعر السهم / الربح لها . أنا أيضا لدى بعض المعلومات عن أوضاع بعض شركات بعينها وتوسعاتها المستقبلية ، ربما تفيدنا !

... المؤكد بعد هذا اليوم ، هو ذلك الانطباع القوى بأن النقاشات فى أغلب الأحوال ستصبح ثنائية بين هذين الرجلين . ربما يستمع لها الباقون لكن قليلا ما سيتدخلون . إن اهتماماتهما تختلف بلا شك عن اهتمامات الجميع !



إن عرفت سرها أصبحت مليونيرا فى شهر واحد

المناقشة الثالثة بين وحيد وونس كانت صداما سافرا . إذا كان من شىء آخر يميز ونس فهو أنه قاذفة سريعة الطلقات فى إسداء النصائح لجميع الحاضرين ، مضفيا على نصائحه المزيد من الوقار بإضافة كلمة يا ابنى ويا بنتى ، ومؤكد أنها كلها -أى النصائح- لوجه الله . السبب متداول اسمه رزق ، أحد أصدقاء ثلاثة شبان هم أسد وعارف وهو ، قرر بناء على نصيحة من ونس وضع معظم أمواله على سهم لشركة أقطان ، كان

ونس شديد الحماس له ، لأنه ' يجرى بسرعة ' . وحين يجرى سهم ، يعنى أن يجرى ونس نفسه وراءه ، ويلح بمطرقة نصائحه على الجميع للجرى وراء الفرصة الثمينة . فى رأى وحيد أن شراء الأسهم بسعر عال غير حقيقى ، بالذات لو كان الأمر برمته مضاربة على أسهم ورقية لا قيمة حقيقية لها ، سوف يورثك خسارة جسيمة ، وعضده ضهرى مشبها تلك الأسهم بالجلد المحروق ينتفخ بالماء ثم ينفجر ويموت .

هنا رد ونس ، الذى يؤمن إيمانا أعمى بهذا التحليل التقانى ؛ أى التنبؤ القائم على متابعة حركة أسعار الأسهم فى الفترة الأخيرة ، قائلا هذا ما يقوله التحليل التقانى . طالما تجاوز السهم ١٩ جنيها و٦٣ قرشا ، فسيصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا . وينطلق وحيد : ' يا للهراء البائس ! كيف تحددون الأمور على هذا النحو ؟ وبالقرش ؟ عن أى نقاط دعم ومقاومة تتحدثون ؟ كيف حسبتموها ؟ مر بها السهم قبل سنة ؟ تمدون الخطوط على استقامتها ، من قال إن الخطوط ستسير على استقامتها ؟ إن خبرا واحدا حقيقيا يخص الشركة يكسر عشر نقاط دعم أو مقاومة فى نصف ساعة ، فما قيمة التحليل التقانى أصلا ؟ أقصى فائدة ممكنة للتحليل التقانى أن تحدد ساعة البيع والشراء ما بين اليوم وغدا مثلا ، بينما أنتم تحددون به السهم نفسه الذى تشترونه ، مهما كان باهظ الثمن من حيث مكررات الربحية والقيمة الحقيقية للشركة . أنتم تعاملون الأسهم كورق كوتشينة ، وكأنه لا يوجد خلف السهم شركة على الأرض ، بآلات وعمال وإدارة ومشاكل ومزايا ومبيعات وتصدير وميزانيات وتحديات ، وغيرها من الأمور التى هى مادة ما يسمى بالتحليل القاعدى . باختصار : التحليل التقانى عبودية للماضى ، والتحليل القاعدى تطلع للمستقبل ' .

ثم بإسهاب غير مجد ، حاول وحيد إفهامه أن من الخطر الاعتماد على التحليل التقانى ، وأنه لا ينطبق على الأسواق غير الناضجة ، أو فى قول آخر الضحلة ، أى التى يمكنك جرف سهم بكامله لأعلى أو لأسفل بمائة ألف جنيه مثلا . أعطنى مائة مليون جنيها وسأكسر لك أية قاعدة للتحليل التقانى تخطر لك ببال فى أى سهم يخطر لك ببال ، بل حتى لكل الأسهم المضاربة مجتمعة . هو منطقى فى أميركا وما شابهها من أسواق ، حيث الأسهم تتداول بمئات الملايين يوميا ، وتتذبذب تذبذبا طفيفا ، و... (وهو الأهم) حول سعرها الصحيح ؛ أى أن لا وجود للشائعات ولا حتى للأخبار الصحيحة (' المادية ' أو الجوهرية كما تسمى) ، وبداهة تتداول بواسطة جمهور لديه الحد الأدنى من الوعى بقيمة السهم الحقيقية . هذا مع ملاحظة أن العقيدة السائدة بين المستثمرين ككل هناك ، هى أنه لا يصح أن تشترى سهما لشركة لم تشتغل فيها أنت شخصيا (!) ، أو على الأقل اشتغلت فى شركة فى ذات القطاع . حتى فى ظل كل هذا لا يجرؤ شخص واحد هناك على تسمية التحليل التقانى علما ، فى أقصى تقدير المولعون جدا به يسمونه فنا .

كل هذا الكلام ذهب هباء ، ليس فقط لأن ونس لم يقتنع به ، وليس لأن رزقا لم يقتنع به ووسط حماس هائل منه وإثارة كبيرة من كل الحاضرين حول كل نقوده لسهم الأقطان ، إنما لأن معظم الحاضرين ، وهم بطبعهم ممن يأتون يوميا بهدف التداول اليومى الكثيف ، لم يقتنعوا أيضا . فكلمة ' تحليل فنى ' كما يسمونها أو يسمعونها فى محطات التليفزيون ، أشبه بتميمة سحرية ، إن عرفت سرها أصبحت مليونيرا فى شهر واحد !

– يا حاج ، منحنى إيلليوت بيقول لك بيع سهم الدواجن دلوقت .

لكن وحيدا مرة أخرى كان من انبرى للرد : ' لا تقول لى إيلليوت ولا أويلر . الراجل مستثمر فى السهم ، وموش ها يبيعه ' .

– أويلر ؟

وطبعا كانت البداية لمعركة كلامية عنيفة أخرى بيت الاثنين ، كلها حول التحليل التقانى ، لدرجة أن لم يعلق حتى خلالها ونس على معرفة وحيد هذه ، بإحدى المعادلات المهمة من دنيا الهندسة .



دول ٥ مليون مستثمر بـ ٥ مليون دماغ

من ناحية أخرى يعتقد ونس دائما أن كل ما يتم فى البورصة مدبر . لو ارتفعت الأسعار يسميها ' طلعة تسليك ' ، ذلك أن ' هو ' عاوز يبيع ؛ بمعنى أنه يضحى بشراء كمية أخرى حتى ترتفع الأسعار فيبيع الكمية الرئيسة عند المستويات الجديدة . ولو هبطت يقول : ' ' هو ' نازل علشان يلم ' ، أى يضحى بجزء بيعا كى يشترى كمية أكبر بسعر أرخص . ووحيد يعلق : ' إللى عاوز يتلم هو أنت يا مستر مؤامرة . نفسى مرة أعرف مين هو ' هو ' ده إللى بتتكلم عنه ؟ ' . مرة يرد ونس قائلا : ' هو يعنى أصحاب الشركة ' ، ومرة يقول : ' هو يعنى المضارب إللى

ماسك السهم ' ، ومرة يقول : ' هو يعنى المؤسسات كالمحافظ الكبيرة وصناديق الاستثمار ' ، ومرة يقول : ' هو يعنى ' هو ' لا أكتر ولا أقل ' ، ومرة لا يرد على وجه الإطلاق .

وفى كل مرة يحاول وحيد أن يشرح : ' أولا فيما يخص أصحاب الشركات : هل تفتكر واحد زى أحمد عز أو فريد خميس أو أبو العينين أو أى صاحب شركة كبيرة قاعد بيتابع سعر السهم دقيقة بدقيقة زيك ؟ ده بس علشان أنت بتعمل كده بيتهيأ لك أن كل الناس بتعمل زيك وتفكر زيك ؛ بيسموه فى علم النفس إسقاط ' .

– طلعتنى مريض حضرتك ؟ ! ثم أن مرقس فلوسه سخنة ما بيقعدش فى شركة أكتر من ٥ سنين ، وأكيد عينه على شاشة البورصة طول الوقت .

– مرقس ده شيوعى معاه شوية فلوس ، ودى حاجة تختلف عن الرأسمالية بالكامل . إللى بأتكلم عليهم ناس وراها أشغال تانية تشغلها ٢٤ ساعة فى اليوم ، وراها شركة تديرها كلها مشاكل ومجهود . وجايز يمر شهر أو شهرين على رئيس أى شركة منهم قبل ما يفتكر أن شركته لها حاجة اسمها أسهم ، ويسأل أحد مساعديه السهم بتاعنا بكام دلوقت . كل علاقتهم بالمستثمرين تنحصر يوم يحتاجون إليهم للتمويل ، أى لاكتتاب لزيادة رأس المال . عدا ذلك فقسم شئون المستثمرين هو أتفه قسم إطلاقا من حيث الأهمية فى أية شركة جادة ، كل وظيفته تنحصر فى إعلان الميزانية أو إرسال الأخبار المهمة للبورصة فى مواعيدها الصحيحة . جايز زمان كانت لهم شغل يومى ، لما كان فيه صكوك ونقل ملكية وحاجات زى دى ، النهارده عبارة عن موظف واحد قاعد فاضى معظم السنة ، إلا أسبوع يجهز فيه للجمعية العمومية . الطبيعى أن على الإدارة أن تهتم بصميم شغلها نفسه ، النسيج ، الحديد ، الاتصالات ، أيا ما كان . أما سعر السهم فى السوق ، فهو نوع من الديموقراطية ، رأى الدهماء فى الشركة ، تصويت حر بين إللى بيفهم وإللى ما بيفهمش . بالذات إذا كانت السوق غير ناضجة كأسواقنا وكلها تتحكم فيها العواطف والإشاعات وعقلية القطيع . هذا عن أصحاب الشركات ، أولا .

– (ملاحظا أن الكل بدأ يرقب كبير خبراء رمسيس وقد أصبح فجأة تلميذا يتلقى درسا :) هو فيه ثانيا ؟

– ثانيا عن المضاربين الكبار . هم موجودون صحيح ، لكن على أسهم معينة -الأسهم الصغيرة غالبا- وكأشخاص معروفين بالاسم . ده جزء بسيط من البورصة ، وموش لازم كل حاجة مدبرة ، أغلب الحاجات -النسبة الكاسحة- مجرد عرض وطلب . الأهم أنك موش ها تكسب حاجة من الجرى وراهم . قرار البيع والشرا عند أى واحد منهم ما تعرفهوش حتى مرأته . جايز ما يعرفهوش حتى هو نفسه ، ويعن له فى لحظة ما . فى كل الأحوال هو المستفيد الوحيد . لو اشتريت بعده ، فقد اشتريت بسعر مرتفع ، ولو انتظرته حتى يبدأ البيع فقد بعت بسعر منخفض ، وفى كل الأحوال أنت لا تعرف كيف تأخذ القرار ، فالسهم ربما سيواصل الصعود ، ولا أحد يعرف بالضبط متى يعرف سيعكس اتجاهه . لا أحد يعرف كما قلت لك . هو قرار سرى يتخذه فرد واحد معين وينفذه فى لحظة ، بعدها يكون الأوان قد فات .

– (وقد بدأ البعض يتجمعون واقفين حولهما :) ثالثا ؟

– ثالثا ، بالنسبة للمؤسسات يا ريت تفهم أن دول موش ناس قاعدين على تيرمينال تنفيذ بيجروا ورا سعر السهم بيع وشرا زيك . القرار عندهم بياخد أسابيع لغاية ما يتاخد . ولما بيتنفذ بيحتفظوا بالأسهم شهور أو سنين ، موش يوم أو يومين أو حتى ٥ دقايق زيك . حتى المؤسسات دى بتختلف تقييماتها عن بعضها البعض ، وتلقى واحدة بتبيع سهم معين وواحدة بتشترى نفس السهم ؛ لأن كل واحدة لها حساباتها . شىء ممتاز أنك تحاول تستنتج المؤسسات بتعمل إيه ؛ لأنك بكده بتكون استفدت بنتيجة دراسات مطولة ومكلفة قاموا بيها . بس تأكد أنهم ليسوا هم هذا الـ ' هو ' ، ذلك العفريت إللى بتتكلم عنه وإللى بيطلع وينزل الأسعار كل ثانية بناء على خطة محكمة ومرسومة سلفا ، دائما ما تكون أنت ضحيتها .

– (معلنا هزيمته بطريقة ساخرة :) أفادكم الله !

– زى ما قلت لك أغلب الحاجات مجرد عرض وطلب . دول ٥ مليون مستثمر بـ ٥ مليون دماغ ، كل واحد بيفكر بطريقة مختلفة ومخه رايح لحتة مختلفة ، والطلوع والنزول محصلة تفكيرهم . ولو كلهم عقل واحد لربما ما تذبذت أسعار الأسهم مطلقا ، أو نظريا لما تمت فى البورصة عملية بيع أو شراء واحدة ، فالمربح لو اتفقوا جميعا على أنه مربح لن يبيعه أحد ، والخاسر لو اتفقوا جميعا على أنه خاسر لن يشتريه أحد .

– حلوة الفكرة دى ! أنا فكرت فيها بطريقة تانية . لو كلنا عرفنا المستقبل موش ها تتم ولا صفقة واحدة ، السهم الكويس ما حدش ها يبيعه والسهم الوحش ما حدش ها يشتريه !

– أهو أنت كده على طول ، عايش فى التمنيات !

ويغنى ونس عن الذى ضيع مستقبل حياته ، أو ضحى بهنائه هباء ، أو : ' راح ! راح ! راح ! خد مالى وراح ! ' .

ويكايده ضهرى بالربت عليه : ' آخر الأحزان إن شاء الله ! ' .

الأسوأ من هذا الوضع ، أنه لم يستمر . كل مرة يتحول نقاش وحيد وونس إلى مشادة أعنف من سابقتها ، ويحاول ونس رد الصاع صاعين . ذات مرة حاول وحيد أن يقدم للحاضرين تصنيفا لأسهم الشركات حسب قيمة هذه الشركات نفسها . بدأ بالقول إن القرار الاستثمارى يبدأ بالسؤال عن أحوال الاقتصاد العالمى ، وأقله السؤال من يحكم أميركا ، هل اليمين المؤمن بالاقتصاد الحر ، أم اليسار الذى يثقل كاهل البيزنس بالضرائب . ثم تنتقل للسؤال عن اقتصاد مصر ، وأقله السؤال عن المؤشرات الرئيسة كالنمو السنوى ومعدلات الفائدة ونسب التضخم . ثم تنتقل لاختيار أفضل القطاعات للاستثمار . قدرة القطاع التصديرية . آفاق كل القطاع ومستقبله . ثم أخيرا تختار أفضل شركات القطاع ، بتاريخها وأسماء مديريها وقوائم ميزانياتها ، ومن هذه الأخيرة مكرر سعر السهم بالنسبة لربحيته . ثم بعد هذا كله يمكنك مجازا استخدام التحليل التقانى لانتظار دورة الهبوط القادمة لتشترى السهم بسعر أقل قليلا . هذا الكلام كان ترجمته العملية قائمة أعدها وحيد على الحاسوب ، بها موجز لتقييمه لأفضل الشركات مرتبا طبقا لتلك المعايير ، وأيضا أتى بها مطبوعة كى توضع تحت زجاج المنضدة يطلع عليها من شاء . هاتان -القائمة البيضاء والقائمة السوداء- لم تأتيا على مزاج ونس على وجه الإطلاق ، إذ اكتشف أن كل الأسهم التى يشتغل عليها قد صنفها وحيد كمجرد ' ورق ' ، أى لا قيمة حقيقية لها على الأرض .

– كلام غريب أوى ! السهم الكويس هو إللى سعره بيطلع . ما يهمنى هو الربح !

– لكن هل تربح فعلا ؟

– ثم إزاى يعنى الشركة ما تهتمش بسعر سهمها ؟ قصدك مين إللى بيهتموا بسعر السهم ؟ الصعايدة ؟

– الصعايدة مين ؟

– موش عارف مين الصعايدة ، وقاعد تدينا محاضرات فى البورصة ؟ الصعايدة هم العرب !

– أيوه ، العرب بالذات من الناس إللى بيدخلوا فى الأسهم مضاربة لا أكثر ولا أقل . البنوك عندنا قوية وناجحة . أغلب شركات الصناعة بالمثل . بتصدر الصلب والإسمنت والسجاد وبلاط الأرضيات وحاجات تانى كتير لكل العالم ، العالم إللى لا يعرف مجاملة ولا رشاوى . دى أسعار أسهمها عادية أو حتى رخيصة . إللى متضخم أسعار شركات الإسكان إللى شغالة بنظرية اخطف واجرى ، ويا ريت بتطلع مكاسب لحملة الأسهم ، إنما الميزانية حمرا . وعليك تتخيل مجلس الإدارة بيودى الأرباح فين ، أو جايز فعلا ما فيش أرباح وماحدش فاضى لغير المضاربة بها كأسهم . ثانيا شركات النسيج ، الصناعة المصرية العريقة إللى بتتدهور يوم بعد يوم ، لأن المشترين الجدد شايفين الوظيفة الوحيدة لإنشاء وامتلاك الشركات ، هى المضاربة بأسهمها فى البورصة ، ويوم ما تفلس تتباع كأراضى ، وهو عين المنى بالنسبة لهم .

– بلاش ظلم ! أنا اشتغلت ١١ سنة مع العرب ، ما اتسرقتش زى ما اتسرقت هنا فى مصر !

ويتدخل ضهرى لتحويل الأمر إلى مزاح : ' لأنك حرامى خايب تقدر على الحرامية الأغراب ، لكن فى مصر ما تمشيش ؟ ' .

لا يزل وحيد جادا : ' إن كنت سرقتهم فعلا ، أهم بيعوضوا دلوقت . ومن جيبك هو نفسه . الأسعار دى لما تعلى ها يبيعوا ويمشوا ، وها يسيبوا لك شوية ورق ! ' .

حاجة واحدة فى الدنيا تخلى الست زى البركان

يتفجر بحمم السمن والعسل

رامى أو روميو ، الزميل الثابت لونس على ذلك المكتب الصغير فى مؤخرة القاعة ، هو ذلك الشخص الذى اعتاد ارتداء القمصان زاهية الألوان مفتوحة الصدر حتى وهو يرتدى چاكيتات فوقها فى فصل الشتاء . ربما لو حكى لك واحد -أو واحدة- عن مغامراته العاطفية ، لتصورته موديلا قد خرج من إعلان لكالڤين كلاين . لكن الحقيقية أنه أبعد ما يكون عن هذا . لا هو طويل ولا قصير ، لا هو قوى ولا نحيل ، لا هو أبيض ولا أسمر ، لا شىء ملفت فى ملامح وجهه . حتى لو رأيته عاريا ، لما لحظت فيه شيئا مميزا أو شديد الإلفات ! نعم هو يهتم بمظهره وأناقته وبتسريحات شعره وكل ما إلى ذلك ، لكن ليس بما يختلف كثيرا عن هؤلاء الآلاف الذين يمكن أن تقابلهم يوميا فى الشارع . باختصار من حيث المظهر هو شخص متوسط وعادى لمدى يختلف تماما عما يمكن أن تسمعه عنه من أوصاف يجملها الراوى عادة بكلمة العاشق المثالى .

اكتسب روميو ذلك الموقع فى الصف الخلفى لأنه أحد الشخصيات العريقة فى رمسيس ، وهو محنك بالفعل فى التداول اليومى . فى الواقع وطيلة سنوات عمر الشركة باستثناء ما اعتكف منه فيه أو هجرها إلى السى آى بى ، كان روميو هو المختص بالجلوس أمام حاسوب المعلومات اللحظية (لم يكن البروچكتور قد ركب بعد) . كان المكتب فى نفس المكان تقريبا لكن مواجها للحائط الجانبى للقاعة ، وكان يجلس هو إليه ، أمام الحاسوب بالضبط ، وبقية العملاء متحلقين حوله جلوسا أو وقوفا . حين جاء ونس كان أول من ينازع روميو مكانته هذه . بعد أسبوع واحد فقط من قدومه ، وبمجرد أن فهم كيف تسير الأمور ، جاء مبكرا يوما ، وجلس إلى المقعد الذى كان يشغله روميو عادة . وبتكرار حيلة الأمر الواقع ، الحضور المبكر يوما بعد يوم ، زائد عقد صفقة مع إدوارد أن يدور محفظته الصغيرة عدة مرات شهريا ، بحيث يعاد حساب العمولة آخر الشهر ليصبح ٤ فى الألف بدلا من ٥ المعتادة إذا ما تجاوز مجموع العمليات نصف مليون جنيها ، دب اليأس فى روميو ورضى بالجلوس على كرسى الوصيف ، أو ' التباع ' أو ' العطشجى ' ، كما اعتادا منابذة بعضهما البعض . حين أدخل إدوارد البروچيكتور سنة ٢٠٠٥ بعد سلسلة الاكتتابات التى جلبت الكثير من صغار المستثمرين الجدد ، لا سيما الأخير منها ، اكتتاب ' المصرية للاتصالات ' ، تراجع المكتب لركن القاعة الخلفى . أصبح إلى الطرف الآخر من الحائط الذى تبث له الصورة ، مواجها له وللطرقة الجانبية التى تأتى بالقادمين من الباب الخارجى . أصبح ونس يجلس فى الركن تماما ، ومن ثم لا يكف روميو عن الشكوى من ضخامة جسده ، وأنه لا يرى شاشة الحاسوب جيدا من كثرة إزاحته له بعيدا عن المكتب .

أيضا هما -كما أغلب الجميع- اعتادا المراهنة فيما بينهما . ونس توقع صعود أسهم الصلب ، فتحداه رامى أن يحدث العكس ، وأنه سوف يهبط إلى ٥٢ جنيها . لم يرض ونس بالهزيمة ، فراهن على تلك السيجارة مقابل علبة سجائر لو هبط إلى ٥٠ جنيها ، وخسر . فراهن على العلبة مقابل ' خرطوشة ' لو هبط إلى ٤٨ جنيها ، وخسر . ثم راهن على الخرطوشة مقابل كرتونة ، وخسر . بعدها رفض روميو الاستمرار قائلا : ' الرهان التالى سيكون على شركة فيليپ موريس نفسها ! أنا أريد سجائرى ، وسآخذها واحدة واحدة رحمة بك ، وسأرضى بسجائرك المصرية الرخيصة ! ' . لم يكن فى الاقتراح أية رحمة من أى نوع ؛ إذ كان يشهد الجميع على كل سيجارة ، يحولها لفضيحة ' بجلاجل ' على جهل ونس بالبورصة : ' باقى من الزمن ١٩٩٩ سيجارة . ضع القلم ! ' ، ' باقى من الزمن ١٩٩٨ سيجارة . ضع القلم ! ' ، وهكذا ، وهى محاكاة لما تفعله القاعة عادة من صياح جماعى عند اقتراب أحد الأسهم من الحدود السعرية التى سيتوقف عن التداول بعدها : ' باقى من الزمن قرشان ! ' ، ' باقى من الزمن قرش واحد ! ' ، ' ضع القلم ! ' . بتلك الطريقة كان فى وسعه أن يستمر شهورا فى إذلاله ، لكن الاثنين سرعان ما نسيا الأمر فى غضون يومين أو ثلاثة ، إذ دخلا فى رهانات جديدة ، بعضها كان ونس محقا فيه ، وكان صوته أكثر جهورية فى اثبات انتصاره !

يبدو روميو هادئا دائما ، يشكو من ضجيج العملاء ، ودائما ما يدعوهم فى حزم وصرامة للصمت ، وأحيانا يلجأ لإغلاق البرنامج الذى يعرض الأسعار ، إلى أن يتنبهوا ويسكتون . ' إحنا هنا موش فى مباراة كورة . كل واحد فيكم يا إما بيشجع الأسهم ، إما بيعمل وصف تفصيلى للجلسة . كل إللى أنتم شايفينه إحنا شايفينه برضه ، وموش بنتكلم ! ' . ونس على العكس يحب الصخب ولا يكف عن الكلام ، أو الغناء كبديل عن الكلام . مع ذلك حين حاول روميو ذات مرة إغلاق البرنامج كعادته القديمة ، قال له ونس : ' أنا عندى حل أحسن ! عندى فى دمياط نفير بتاع أبويا الله يرحمه ، ها أجيبه الأسبوع الجاى ' . وفعلا أصبحت هذه هى الطريقة الجديدة لدعوة القاعة للهدوء . يخرج البوق من مسكنة الجديد القاهرى ، درج هذا المكتب ، وينفخ فيه نغمة طويلة لا معنى لها سوى أن اسكتوا قليلا !

السبب فى تركيز روميو الشديد مع شاشة الأسعار ، أنه يشبهها بالأرجوحة ، التى عليه أن يتحين بدقة اللحظة المناسبة للشراء والبيع عند أخفض وأعلى النقاط فيها . على عكس الجميع ، هو يكره أن تأتى أية أخبار عن أداء الشركات ، هذه التى يتلهف عليها أى أحد ؛ ذلك أنها فى رأيه تفسد عليه ما يسمى بجنة المضارب ، هذه الأرجوحة رتيبة الحركات . من هنا كان الفارق بينه وبين ونس ، أنه لم يتدخل فى أى وقت فى جدال مع وحيد يدافع فيه عن المضاربة ؛ فهو يمارسها بالكامل بإحساسه وغريزته ، وحتى دون أدوات التحليل التقانى كما ونس .

بدا طبيعيا أن جاء أول تعارف بين وحيد وروميو بسبب شرب القهوة . كان ذلك فى أول يوم جاء فيه وحيد للتداول . بعد أن جلس طويلا مع إدوارد ، أحس بأنه أصبح ضيفا ثقيلا على غرفته ، فخرج إلى حيث وجد كرسيا خاويا فى موخرة القاعة . أصبح رامى إلى يمينه ، ومن ثم ونس إلى ركن الحجرة ، كلاهما إلى ذات المكتب سالف الذكر . حين جاء نصر الله بفنجالين من البن لروميو وونس ، طلب منه وحيد فنجالا لنفسه ، فراح نصر الله يقول ما يبدو إنه اعتاد قوله لكل عميل جديد : ' أنا عندى بن محوج مخصوص جدا مية مية ، اسأل عنه الأستاذ روميو ! ' . ويصيح به روميو كالعادة كلما وجده يقف وسطهم : ' أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' .

نصر الله القصير النحيل هذا ، هو ابن خادم قديم لأسرة رمسيس كان يشتغل حمالا على أحد مركب البلح ، سأل الجد أن يشتغل معه ويستقر فى القاهرة ، فوافق . نصر الله ، المسيحى شبه الصعيدى هذا ، هو من اختاره إدوارد ليجعل منه ساعيا لشركته . وأصبح من بين التزاماته البيات فى الشركة ، كنوع ولو ظاهرى من الحراسة . كان فى تلميح نصر الله الجنسى بعض التجرؤ ، لكن جرأة روميو فيما قاله بعد أن صرف نصر الله ، كانت مما فاق كل توقعات وحيد . قال وكأنه يخاطب صديق طفولته : ' سيبك يا عم وحيد م الأونطة بتاع نصر الله دى . حاجة واحدة فى الدنيا تخلى الست زى البركان يتفجر بحمم السمن والعسل ، وتخلى الراجل زى جذع النخلة بتاع الإله من لا يمكن ينتنى أبدا ! ' .

ويسأل وحيد بفضول برىء : ' إيه ؟ ' .

– أسعار الأسهم لما تطلع !



مكة نفسها محتلة ولازم ترجعوا يثرب

روميو فى الأصل صديق لإدوارد منذ أيام المدرسة الثانوية فى شبرا . هذا يعنى أنه ليس شابا كما قد يبدو بمظهره وتصرفاته ، إنما تخطى منتصف أربعينيات العمر كإدوارد . وهذا الأخير هو الذى أتى به عميلا للشركة ، عندما علم بمشاكله فى مهنة السياحة . حين يتكلم روميو يكون الجنس موضوعه غالبا . يبدو للجميع كزئر نساء أثيم لا يضيع فرصة التودد لأية عميلة جديدة بمعسول الكلمات . لكنه فى الحقيقة أبعد خطوة من هذا . رغم أن مظهره لا يشى بأية خنوثة ، فهو ثنائى الميول الجنسية . الحب الحقيقى والوحيد فى حياته لم يكن امرأة بالمرة ، إنما صحفى أميركى مقيم فى مصر . جاء روبرت مراسلا حرا فى حرب ١٩٦٧ ، ثم قرر الإقامة . لم يكن ذا أفكار سياسية ، لكنه كان يبدو يساريا حين يقول إن أميركا لها ناسها إللى يعرفوا يعيشوا فيها ، وأنا لست منهم . أصبح يراسل كل ما يمكن أن ينشر له ما يكتب ، من التليجراف فى لندن حتى الهوليوود ريبورتر فى لوس أنچيليس . وبالتوازى مارس توضيب النصوص فى بعض المجلات المصرية الناطقة بالإنجليزية ، كى يعطيها أسلوبا يستسيغه القارئ الأجنبى بدلا من الكتابة الإنجليزية المدرسية التى يكتبها المصريون عادة .

يقول إدوارد على مسمع من كل الموجودين بالقاعة : ' صاحبى طول عمرنا صحيح ، بس خوان ساب شركتنا وراح السى آى بى (يقصد شركة السمسرة التابعة للبنك التجارى الدولى) ' .

– السى آى بى حاجة تانى . دنيا غير الدنيا .

– (ضهرى هامسا لوحيد :) قصده النسوان !

يعود روميو بصوت هامس لا يريده أن يصل لمسامع الآنسات والسيدات فى القاعة : ' أيوه يا حاج يا خويا . العميلات والموظفات ، دول ودول . حاجة تانى . أنتم فاهمين البورصة فلوس وبس . البورصة موش فلوس ، البورصة حياة كاملة . متعة من كل النواحى . ومن غير مزاج رايق ووجه حسن ، موش ها تاخد قرارات صح أبدا ! ' .

– فعلا يا أستاذ رامى (يقولها أسد بصوته الخشن) . شاشة البورصة دى بتعمل ' دماغ ' ، ومن ساعة ما عرفتها بطلت البانجو .

– مظبوط ! طبعا ! دخول الحمام موش زى خروجه . فعلا البورصة إدمان . البورصة هى المتعة . لو دخلتها موش ها تسلاها أبدا . موش مهم الفلوس والمكسب والخسارة . هم إللى بيلعبوا قمار بيلعبوه ليه ؟

ويجد إدوارد فرصة لانتقام قديم : ' ده بس علشان لما رحت السى آى بى خسرت ' .

– البورصة كلها كانت بتخسر أيامها . على الأقل أنا كسبت حاجة هناك ! (ثم يغير إلى نغمة تصالحية :) فعلا هنا أحسن . هناك تملى الأوردر مرة ويتبعت بالفاكس للمركز ، وأول تعديل يطنشوه ، وتانى تعديل يخلى السعر ماركت . بيعاملوك كقاصر يفهموا مصلحتك أكتر منك . الشركة الصغيرة جوها مريح . هنا بتدخل للمنفذ وتتابع معاه ، وحاجات كده . العمولة هناك أعلى من هنا طبعا ، وده لأنها بتشتمل على النصيحة . هناك ناس بتسمع الكلام ، العملاء هناك مؤدبين . يدخلوا للموظفة يقولوا لها المحلل قال لى اشترى كذا أو بيع كذا . العميل ما لهوش رأى . موش عباقرة وملوك فتاوى زى كل الناس إللى هنا .

ينظر لونس فيفهم أنه هو المقصود بالسخرية ، فيرد السؤال بسؤال يضع روميو فى مواجهة مع حشد السيدات والفتيات فى القاعة : ' طب الستات أحلى فين ؟ ' .

يفهم روميو خبث السؤال لكنه يتحاشاه بلباقة : ' الستات حلوين فى كل حتة ! ' ، ثم بصوت خفيض : ' كلنا بنقول كده . إنما عارفين جوانا أن الطويلة البيضاء الشقراء هى وحدها الجمال الحقيقى ! طول عمرك شفت كريم لتغميق البشرة ، أو واحدة شقراء بتصبغ شعرها أسود ؟ ' .

يتدخل ونس موجها كلامه لإدوارد بلغة المساومة التى لا يملها أبدا : ' بس السى آى بى بيدى نصايح ، وأنتم بتاخدوا فلوس من غير نصايح ' .

يواصل إدوارد شرح الفارق بين الخدمة المتكاملة وخدمة البيع والشراء : ' بيضحكوا عليكم بكلمتين وياخدوا عمولة ٧ فى الألف ' .

– ٦ بس .

ويجد إدوارد نفسه مضطرا للمرة الألف فى شرح مزايا شركته ، وينهى بلهجة كمن انتصر فى هذا الجدال : ' أنا هنا فى مصر الجديدة قبل السى آى بى ما يعمل شركة سمسرة أصلا ! ' .

ويشرح ضهرى لوحيد : ' هو حاقد على السى آى بى . هم الأقباط كده ، فاكرين أنهم أصحاب كل شىء فى البلد ، حتى لو كان ' الغزاة ' بنك تشيس مانهاتان الأميركى بجلالة قدره . موش واخد باله أنه هو شخصيا وكل الأقباط إللى زيه ، هم غزاة فى مصر الجديدة هنا ، إللى أصحابها الأصليين أوروبيين ! ' .

ثم يزداد بهجة وهو يروى أن إدوارد الذى اعتاد مداعبته بأننا كمسلمين احتللنا كل شىء ، مكة نفسها محتلة ولازم ترجعوا يثرب ، من أول ما قلت له أنت دلوقت من غزاة مصر الجديدة ، بطل يجيب السيرة دى خالص . يتدخل روميو ببعض معلوماته التاريخية الغائمة من دنيا السياحة : ' يا سلام على مكة زمان وأيام زمان ، أيام ' المتعتين ' ! ' . وما أن دلف للحديث ببعض معلومات متفرقة لديه عن طقوس الخصوبة وحفلات الجنس الجماعى فى العالم القديم ، حتى قاطعه ونس بسؤال وجهه لضهرى : ' عارف يا حاج ليه القناطر أهم نقطة فى مصر ؟ ' ، ' ليه ؟ ' ، ' بص للخريطة وأنت تعرف ! ' . تضج القاعة بالضحك ، لكن ضهرى لم يغضب كما توقع الجميع ، إنما راح يشرح أن لطالما كان عضو الخصوبة لدى المرأة رمزا مقدسا فى العقائد القديمة .

ويناوش إدوارد روميو : ' تعرف أن مكة ملك اليهود ؟ ' .

– إزاى ؟

– موش أنتم بتقولوا وادى فاران هو بتاع إسماعيل والكعبة وبئر زمزم وإللى تنبأت التوراة أن ها يظهر فيه نبى ، هو مكة ؟

– أيوه ، سمعت حاجة زى كده !

– تعملوا إيه طيب ، لو طلع وادى فاران ده كان تحت ملك داود فى يوم م الأيام ؟ !

– إزاى ؟

– ما هو بينى وبينك وادى فاران أو برية فاران هو بير سبع أو النقب ، موش مكة . لكن لو صممتم أنه مكة ها يتاخد منكم !

– ارحمنا أنت وداود بتاعكم ، كفاية علينا القدس إللى راحت !

– خد بالك يثرب كمان يهودية أبا عن جد ، قبل أن تبدأ الإبادة والتطهير العرقى تحت شعار ' اخرجوا المشركين من جزيرة العرب ' ، موش دى أرض محتلة برضه ؟ ، وما تخلىناش نفتح ملفات أكتر من كده !

هذه المقاطعات لم تصرف ضهرى عن الشىء الذى أراد إثباته لوحيد بخصوص إدوارد ، فيسأل هذا الأخير بما يوحى أنه يعرف الإجابة سلفا ، إجابة سمعها ألف مرة ، وفقط يريد الآن أن يسمعها وحيد : ' سيبك من السى آى بى . إيه رأيك فى كيوبيد ؟ ' .

– شركة سمسرة زيها زيى . جايز إحنا أحسن .

ويعود ضهرى لوحيد بلهجة المنتصر الذى أثبت ما يريد إثباته : ' شفت ؟ ! الغرزة إللى إحنا قاعدين فيها دى ، زى كيوبيد إللى بتدير محافظ وأصول واكتتابات بمئات البلايين ! ' .



طلاق الرجالة والستات

أكتر مائة مرة من طلاق راجل وراجل أو ست وست

لم يفهم ضهرى أن ما فعله هو -وليس ونس- كان هو المقاطعة . هو لم يلحظ أن الجنس وليس تشيس مانهاتان هو ما كان شاغل الحاضرين ساعتها ؛ لذا كان تدخل نبيل بوقاره البشوش المعتاد قائلا : ' أنا مع الأستاذ رامى . تقدر تقول البورصة زى اليوجا ، لازم تعيش معاها علشان تحس بها ' ، ذريعة كافية للجميع لاستعادة البداية الأولى للحوار ' . وينطلق روميو ، الذى أصبح محور القعدة وكبيرها ومغناطيس العيون فى هذه اللحظة ، وكأنه كان ينتظر الفرصة منذ زمن . الكلام فى حد ذاته ليس جديدا ، وسمعه الحاضرون مرارا من قبل ، لكنهم لا يضجرون منه أبدا على ما يبدو : ' لأ ، وأنت الصادق ، الأسهم زى الجنس (يكاد فى كل مرة أن يهم باستخدام كلمة أخرى بذيئة لولا أن يلحظ الآنسات والسيدات الجالسات) . أهم حاجة فى الجنس هى التوقيت . timing's everything زى ما بيقولوا ! لازم تحس بصدر الست وهو بيطلع وينزل ، بصوت أنفاسها وهى بتعلى وتوطى ، بدقات قلبها وهى بتسرع وتبطئ ، بجسمها وهو بيترعش وهو بيرتخى . أنا لا أعترف لا بتحليل قاعدى ولا تقانى ولا غيره ؛ السهم ممكن يبقى صديق مخلص لك ، لو حبيته بجد ، ووصلت معاه للدرجة دى من التفاعل والتوحد الشعورى . ساعتها هو إللى ها يقول لك اشترينى دلوقت ، وبيعنى دلوقت ! ' .

يعود نبيل : ' وأنا قلت إيه غير كده : النيرڤانا ! ' .

لكن ضهرى يتدخل بخشونته المعتادة مع روميو ، وبما يسبب بعض الحرج لنبيل أيضا : ' لو السهم بيحبك صحيح يا سى روميو موش ها يقول لك بيعنى أبدا ! ' .

– وهو لازم الحب يدوم طول العمر يا حاج ؟ أنا بأحب أسهمى ، والدليل أنى ما بأبقاش طايق نفسى يومين الأجازة ؛ البورصة والأسهم بيوحشونى جدا . وبالمثل أنا متأكد أنها بتحبنى زى ما بأحبها ؛ أنا لدى خبرة طويلة فى الحب تكفى لمعرفته والإحساس به حينما يوجد !

يستغل روميو فرصة الحوار الذى جعله نجما لفتح حوار جانبى مع حديث العهد بهم وبه ، وحيد . بعد أن حط الحوار الأصلى أوزاره ، قال بجدية هادئة ، وكأنه يأمل أن يجد معها أحدا قد يفهمه : ' طبعا أنت عارف أن موش قصدى الستات بس . التوحد بين أى إنسان وأى إنسان . لا توجد غضاضة فى هذا لا جنسيا ولا عاطفيا . روبرت كان الوحيد إللى بأرقص معاه فى السرير . كل أنواع الرقص . باليه كمان وحياتك . مع النساء أنت ترقص التانجو فقط . الراجل أقرب للراجل بعقله ومشاعر ، نفس الحكاية للست مع الست . الراجل مع الست علاقة صعبة ، والفهم المتبادل فيها محدود . بيحصل طبعا ، لكن نادر . بيسموه الحب . العلاقة المثلية أكتر من الحب . حب زائد تفاهم . عاطفة زائد عقل . طلاق الرجالة والستات أكتر مائة مرة من طلاق راجل وراجل أو ست وست ' .

– عندك حق يا بنى ، أنا بأقول لبنتى منى لو قعدنا منى بتاعة النهارده مع منى بتاعة ٥ سنين فاتوا موش ها يبطلوا خناق !

ويتدخل ونس ساخرا : ' وإيه الغريب فى كده ؟ ده إحنا لو قعدناك ، الحاج ضهرى بتاع النهارده مع الحاج ضهرى بتاع النهارده ، موش ها تبطلوا خناق ! يعنى لو عملنا منك كلون ها تتخانقوا سوا ! هأ ! هأ ! هأ ! ' .

ويأتى وحيد بتفسيره الشخصى : ' هذه الأيام الطلاق ليس ذنب أحد . نحن فى عصر ما بعد-الصناعة ، حيث العالم سريع التغير جدا ، والشاب أو الفتاة يجد نفسه بعد سنوات قليلة ، وقد أصبح ذا مشاريع مختلفة وطموحات مختلفة وتوقعات مختلفة ، يغير وظيفته ، يغير اهتماماته ، يقبل السفر مثلا بعد أن كان يرفضه ، يغير ذوقه فى الموسيقى والأفلام ... إلخ ، ... إلخ ، فكيف نطالبه بأن لا يغير نظرته لشريك حياته ؟ فى عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هى الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد ! ' . ويردف الحاج : ' بل قل إن نظم التأمين الاجتماعى هو التى أبطلت الزواج لأن الفرد لم يعد فى حاجة لأبناء يرعونه فى كهولته ' . ويعلق وحيد أنها فكرة مثيرة للاهتمام ويضيف : ' بل لنمدها قليلا على استقامتها ونقول إن شركات التأمين -وليس أى أحد آخر- هى التى قتلت الإله لأنه التى أمنتنا ضد مفاجآت الزمن وغدر الطبيعة ! ' . ومرة أخرى يسخر ونس : ' بالعكس ! هى لم تقتل أحدا بل خلقت بلايين الآلهة ! هل تعرفون كم مرة فند القرآن عقيدة أن الله اتخذ ولدا ؟ ... كثير جدا ! المدهش أن الشىء المشترك فيها كلها أنه دائما ما يردف بأن الله غنى ولذا ليس فى حاجة لأبناء . معنى كلامكم ، أن بمعيار القرآن (إللى هو مدى حاجة الإله للاشتراك فى نظام التأمينات) ، كلنا آلهة الآن ! ' .

ويتدخل إدوارد شارحا لوحيد ، الوحيد الذى فاتته معاينة القصة فى حينها : ' صديقه ده مات ، ورامى دخل شهور فى اكتئاب ووحدة ، ما كناش عارفين نطلعه منها إزاى ' .

ويعود روميو ليدلى بدلوه فى مؤسسة الزواج : ' أغلب مشاكل الزواج تأتى بعد الإنجاب ، حين يكتشف الرجل أن زوجته تحب أطفاله أكثر منه ؛ وكأنها فى الواقع لم تكن تريد أكثر من ذكر للتلقيح ! ' .

ويعود الحاج لا ليؤيد كالمرة السابقة إنما ليعارض : ' بل حين يكتشف أن أهلها هم أهلها ، وما هو إلا غريب وسيظل إلى أبد الدهر غريبا ، نفس الشىء ينطبق على الرجل ومن هم أهله الحقيقيون . الآن ، ' البيت ' هو المكان الذى ولدت فيه ، والزواج ما هو إلا شغل أو بيزنس بس بالعكس من ٥ إلى ٩ ، أو حتى موش لازم يشوفوا بعض ، وبرضه يبقى لسه اسمه زواج ناجح طالما الطلاق لم يحدث . (ثم صائحا :) ولا إيه رأيك يا إدوارد ! ' .

لا يملك إدوارد إلا التنهد موافقا ، لأن الحاج نكأ جرح عمره ، ويواصل هذا الأخير : ' يا كابتن روميو ، الطلاق له سبب واحد : أنك أثناء الخطوبة لا تستطيع أن ترى أعماق طبائع الطرف الآخر ، أو لا تستطيع أن ترى أعماق نفسك . بلاش نقول بسبب التصنع المقصود ، إنما محاولة كل طرف الظهور بصورة ترضى وتسعد الطرف الآخر ، وهو سلوك طيب وبرىء ، لكن عواقبه خطيرة ، لأن الشخص نفسه لن يستطيع الاستمرار فيه طويلا حتى لو أراد ، ببساطة لأن چيبناته أقوى منه . لازم تعرف أنت عاوز إيه فعلا موش قولا ، والطرف الآخر عاوز إيه فعلا موش قولا . لو هناك علاقة طويلة بين الشاب والفتاة سنتهى لأحد أمرين ، زواج سعيد ، أو استبعاد لفكرة الزواج والمحافظة على الصداقة عميقة ' .

– وأنا قلت إيه غير كده ! الارتباط هو صداقة عظيمة ، لذا هو صعب جدا بين الرجل والمرأة . أنا موش عارف إيه سبب الحساسية حوالين الموضوع ده ؟ لا شىء اسمه جنس مثلى خالص وجنس لا مثلى خالص . كل الأفلام المشهورة إللى بيظهر فيها مثليين موش فاهمة ولا حاجة خالص . أغلب المثليين المشهورين متزوجين . هل كلهم منافقون ؟ أو هل كل ستاتهم مخدوعين أو مرغمين ؟ إطلاقا ! كلنا نقع فى مكان ما على المسطرة . المهم أين تجد الحب والتفاهم والإخلاص والالتزام العاطفى .

ويعود لأسلوبه التقليدى فى المزاح بالعدوانية ، وكان نصر الله الضحية هذه المرة ، وهو ضحيته الدائمة فى الواقع كلما لاحظ وقوفه وسطهم كى يستمع للحوارات : ' أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' .

ذات السباب الذى كلما سمعه ضهرى لا يملك إلا التعليق فى كل مرة ساخرا : ' ما لقيتش غير الشتيمة دى ؟ ! ' .

– الشاذ هو فقط الواقع على أحد طرفى المسطرة ، المثلية الخالصة أو اللا مثلية الخالصة . أو لو عاوز صياغة دقيقة ، الشاذ هو الإيجابى على طول الخط أو السلبى على طول الخط . ده موش جنس ، ده حاجة تانية ، عقد نفسية . مع الست أنت بتعمل حاجات كتير ، مع الراجل بتعمل حاجات أكتر ، مع الاتنين أنت بتعمل كل حاجة .

– (كعادته فى الانقلاب فى لحظة من البهجة للحزن ، من الوداعة للغضب ، من الهزل للجدية ، والعكس والعكس والعكس ، انقلب ضهرى هذه المرة إلى الثورة :) لأ ، وأنت الصادق لازم تجرب مع الحيوانات كمان ، علشان تعمل كل حاجة . طول عمرى ما شفت بنى آدم قارح زيك .

ثم يشرد قليلا ، ويعود بغضب : ' أنت غريب أوى ! أنا طول عمرى ما هجت على راجل أو ولد ، هل أبقى شاذ ؟ ' .

– أنت متأكد من إللى بتقوله ؟ مع الاحترام يا حاج ، وما تزعلش منى : ' إما أنك كداب أو أنك ناسى ! ' .

– هو فيه حد يزعل منك برضه . إحنا زعلانين عليك .

– (بحزمه المعتاد :) فكرة غلط برضه !

بعد برهة يعود الحاج لروميو ليواصل الثأر من الكلام الذى جعل رأسه يغلى : ' الأجانب دول زى الحيوانات ، بيعملوها زى ما بتعملها الكلاب فى الشوارع . حياتهم كلها جنس ' .

– غلط ! بالليل بس . الهم والباقى علينا إحنا ، الجنس فى تفكيرنا ٢٤ ساعة ، وفاكرين نفسنا ملايكة بتوع الفضيلة والشرف والنضافة . أنت تعرف الأجانب أنت ؟ إزاى بتقول لفيت العالم ؟ يا ريت كنا كلاب زيهم ، كنا أنتجنا واخترعنا زيهم . أيوه طول الليل جنس وانحلال ، ده طبعا غير إللى أنت بتسميه ' اللواط والعياذ بالله ' . إنما البوظان بالليل بس ، لكن طول الصبح شغل ، يوم واحد بسنة كاملة من شغلنا إحنا . دى ناس لما بيشتغلوا يشتغلوا بجد ولما بيلعبوا يلعبوا بجد ، إنما إحنا واخدين كل العيشة من أولها لآخرها هزار ؛ كل حياتنا نكتة طويلة وبايخة . ثم ده موش بوظان ولا حاجة ، الإخلاص فى علاقات ' الزنا ' دى أكتر من الإخلاص فى الزواج المسيحى نفسه بتاع العمر كله . زواج المصلحة والماديات حاجة عندنا إحنا بس ؛ بره جايز فيه خلافات عند الطلاق ، إنما عند الزواج لأ ، لسبب بسيط أنهم بيكونوا عاشوا مع بعض سنين طويلة ، وأخيرا فكروا دمج حياتهم المادية من أجل إنجاب طفل ، أى بعد أن يكونوا قد أنهوا تقريبا حيواتهم المهنية وتخلوا أو نسيوا موضوع الطموحات المادية والشخصية . ثم تسمى بإيه تعدد الزوجات ؟ كلبات برخصة ؟ هأ ! هأ ! فاكر يا حاج أيام ما كانت الكلاب برخصة فى رقبتها علشان ما تقتلهاش عربية الكلاب ؟ ! إشمعنى يا حاج التوحيد فى ربنا وموش فى الستات ؟ هأ ! هأ ! ثم وبعدين تسمى إيه أطفال الشوارع عندنا ، موش بيعملوها زى الكلاب برضه ؟ ! تسمى إيه العرب إللى طايحين فى شوارعنا زى الطلوقة مستعدين يعملوها مع أى حد ؟ ! ' الشذوذ ' إللى موش عاجبك موجود بنسبة ٥ ٪ فى الغرب وبنسبة ٩٥ ٪ فى مدارسنا ، وبنسبة ١٠٠ ٪ فى الأزهر . ما تزعلش أوى ، ما هى برضه النسبة أعلى شوية من ٥ ٪ فى الغرب بين رجال الدين الكاثوليك . ليه النسب الرهيبة دى بينما النسبة البيولوچية الطبيعية هى ٥ ٪ ؟ الإجابة : البركة فى الدين ؟ إللى أنا عاوز أقوله إنى موش عاوز حد يتحول للمثلية بسبب الكبت الجنسى أو اعتداء رجال الدين عليهم فى الصغر أو لمنافقة المجتمع ؛ يعنى لمجرد أن الولد موش عارف يقابل البنت إللى بيحبها أو البنت موش عارفة تقابل الولد إللى بتحبه . دول كلهم مثليين مزيفين وأنا شخصيا بأقرف منهم . كل إللى أنا عاوزه أن كل واحد يعيش على حريته وفى النور ، وأعتقد ده بدأ يحصل أخيرا . (ثم يضحك :) يا حاج ، الحل أن نعمل فى المشاخخ إللى عاوزين يعملوه فينا : الإلقاء من عل منكوسين ، ثم رجم الجثث ، وأخيرا حرقها . لو عملنا كده حال البلد ها ينصلح ١٠٠ ٪ !

وكعادة الحاج البحبوحة فى الاقتناع بكل شىء بسهولة : ' عندك حق ! ' .

وينقلب الأمر لمزيد من التهريج ، فيردف ضهرى : ' أنا شايف أنك بتحب البورصة أكتر من أى حد ، والمفروض تتجوزها ! ' ، ' إشمعنى ؟ ' ، ' علشان مذكر بورصة برص . هأ ! هأ ! ' . ويتدخل ونس مستعيدا كلام ضهرى عن أسباب الطلاق ومقومات الزواج الناجح : ' يعنى عاوز تفهمنا يا حاج ، أن الواحد لازم يكون خريج زراعة ومتخصص فى الچيينات زيك ، علشان يتجوز جواز سعيد ؟ ! ' .

لكن بمجرد أن يحول ضهرى وجهه لليسار فيجد وحيدا ، ينقلب شخصا جادا جدا . يميل عليه ليذكره بما كان يقرأه فى شبابه عن دوريات قتل أطفال الشوارع فى البرازيل ، التى تشبه دوريات قتل الكلاب الضالة عندنا التى أشار لها روميو والتى كان فى طفولته يشاهدها بعينيه . فيرد وحيد بأنهم يفكرون جديا فى إعادتها مرة أخرى بعد حالة الفلتان الأمنى المرعبة التى تعانى منها البرازيل -بالذات ساو پاولو- طيلة العقد الأخير .



تكون هذه لحظة اكتشاف الفتاة أنها ارتكبت خطأ مروعا آخر

عادة صديقة روميو إما أرملة أو مطلقة حسناء ، وإما فتاة يافعة تبحث عن فرصة فى الحياة . سواء هذا أو ذاك ، ليس هناك أصعب وأسهل . فالفتيات فيما يبدو صرن أسهل كثيرا هذه الأيام ، بما فى ذلك صاحبات الجمال الصارخ منهن . أيضا سواء هذا أو ذاك ، السيناريو لا يتغير قط . ذات الستراتيچية تفلح مع أغلب من ينتقيهن روميو . السبب لا يكمن فقط فى أنه أستاذ للذة تحلم به أية امرأة ؛ إنما لأنه يجيد من البداية انتقاء صديقاته . يجلس لأحد مقاهى السيتى ستارز الأوروبية الأنيقة . يرمق الجالسات وحيدات . يتفحصهن جيدا . يغير مكانه لو تطلب الأمر . من خلال عيونهن الزائغة أو الكسيرة ، يعرف شخصياتهن ويقرأ احتياجهن ، حتى لو كان هذا الاحتياج لم يمر قط ببال صاحبة الشأن . احتياجا زائغا أو منكسرا ، هو يفضل الثانى على أية حال ، احتياج الوحيدات ، احتياج عاطفى شامل وليس جسديا فقط . هو على أية حال يؤمن بأن المصريات إن لم توقظ جنونهن بنفسك ، فليس لديهن احتياجات جسدية . يولدن بدونها ربما .

يدعوهن لشركة السمسرة ، حيث الأرباح طيبة وسهلة ولا تحتاج إلا لذكاء لا يفتقدنه . يفتتح للصديقة محفظة استثمارية بمدخراتها لو شاءت ولو كانت تلك المدخرات ذات شأن ، وهى الحالة الغالبة . أو بمحفظة صغيرة يسهم فيها إلى جانب مدخراتها هى الصغيرة ، بجزء من ماله الشخصى ' حتى يختبر قدراتها كمضاربة ' . أو يفتتح من جيبه لها محفظة كهدية ، بخمسة آلاف جنيه مثلا ، المبلغ الذى يكفى بالكاد للتداول على سهم واحد دون تبديد نسبة ملحوظة على المصروفات الثابتة التى تحصل على كل عملية تداول ، مهما كانت صغيرة . فيشة واحدة كما يسمونها ، تبيعها ثم تتحين شراء سهم آخر ، أو نفس السهم فى وقت لاحق . أو أخيرا فيما عدا ذلك من حالات يفتتح لهن محفظة وهمية على الورق تفرح الفتاة بأرباحها غير الحقيقية ، هذا حين لا يكون لديها أية مدخرات ، أو لا تزال طالبة مثلا ، أو تخشى مثلا أن ينكشف هذا لأسرتها .

الأطعمة البحرية هى طعامه المفضل . حين افتتح أول مطعم للسوشى اليابانى فى مصر فى السيتى ستارز فى نهايات ٢٠٠٥ ، اعتاد عليه . يعتقد أن السمك غير المطهو هو طعام aphrodisiac أى منشط للشهوة الجنسية . اعتاد أن يغازل خليلته (أو مشروع الخليلة) ، بأن أجمل شىء فى الدنيا أنك تاكل حاجة أفروديسياك مع أفرودايت ! هذا يحمل أيضا تمهيدا ضمنيا لغرابة الطعام النسبية . لصوص الصويا البنى اللاذع . لشوربة المأكولات البحرية حريفة المذاق . وللواسابى ، العجينة الخضراء النفاذة المصنوعة من جذور نبات نادر ، هذا هو اسمه ، وفى معتقدات سكان شرق آسيا أنه يقى من جميع الأمراض . لعل أقرب ما نعرف شبيها له هو الفجل ، جذوره فى حالتها قوية الطعم والرائحة ، مع فارق أن تركيز المادة النفاذة فى جذور الواسابى أكبر بكثير وأعلى نوعية . يفترض أن تغمس قطع السوشى فى قليل من الواسابى ، لكن روميو يفضل ترك كتلة الواسابى الصغيرة للنهاية لكى يقذفها فى فمه قطعة واحدة ، يتلقى صدمتها الأولى الكبيرة لجيوبه الأنفية بشجاعة ، ثم يبدأ فى استحلابها كما قطعة حلوى لذيذة ، فتترك أثرا عنيفا جبارا يشعر معه بانتعاش عميق وممتد المفعول معا لا نظير له ، يتضاءل معه نشوق جده التقليدى الساذج فى شبرا ، وفى نفس الوقت يستمتع برؤية ملامح القشعريرة الممزوجة بالانبهار على وجه صديقته .

للحق هو يحاول بإخلاص أن يجر كل صديقة جديدة إلى الطعام اليابانى لتجاربه تجاربه المغامرة ، إلا أنه دائما ما يفشل ، فأمثالهن يتعاملن عادة بريبة ونفور مع كل تلك المأكولات الغريبة . يتذوقن فى البداية القليل جدا منها على طرف ألسنتهن ، هذا قبل الخوض فى أكلها جديا . حتى الفرجة على كيفية إعداد السوشى يخشين منها . سبيط أو جمبرى أو سمكة كانت حية للتو ، وكان بداخلها كل الأمعاء والفضلات ، والآن يجب أن تضعها فى فمها ، لمجرد أن غسلت ببعض الماء . حتى سرده لتاريخ السوشى كمجرد طريقة قديمة لحفظ السمك عن طريق دفنه فى الأرز وأكله حين ' ينضج ' بعد شهور ، تماما كما نفعل نحن مستخدمين الملح مع الفسيخ أو الطرشى مثلا ، هو قصة لا يردن أن يسمعنها .

طريقته فى طمأنتهن فريدة من نوعها . يذكر أنه يعرف أن هناك أصناف أكثر غرابة لا تقدم هنا أبدا ، أقلها الأخطبوط وهو عادى تقريبا . وأخطرها سوشى الفوجو وهى سمكة يابانية سامة ، وقد يسبب موتا زعافا إن لم يعد بالطريقة الصحيحة . والمقصود بالطريقة الصحيحة التخلص

من معظم السم ، فالتخلص منه كله مستحيل ، وما يتبقى منه -ملليجرامات أو ربما أقل- يكفى لترك إحساس بالدغدغة والتنميل فى الشفاة واللسان ، ولو زاد الأمر عن هذا الحد ، فمعناه أن الموت قادم خلال لحظات قليلات . بطبيعة الحال يزيد مثل هذا الحديث من ارتعادهن من الأكل . هنا يسارع لتهدئة هلعهن ، بتذوق قطعة أخرى من السوشى الملفوفة فى ورق نبات النورى البحرى داكن الخضرة ليثبت أنها طيبة ، ويدس نسخة طبق الأصل منها فى فم الرفيقة ، دون أن ينسى أن يصحح أن تقديم الفوجو محظور على أية حال فى معظم دول الغرب .

حين تتصور الضحية الحلوة أن المفاجآت بما أنها وصلت لذروة الرعب ، فقد نفذت ، وأن روميو قد أثبت لها بالفعل تفرد شخصيته وأنها شخصية أفسح من الحياة كما يقال بالإنجليزية ، تكون هذه لحظة اكتشاف الفتاة أنها ارتكبت خطأ مروعا آخر . لا تزال بعد فى جعبة روميو رمية واحدة أخيرة فى مباراة إثارة الانطباع الاستعراضية هذه . شوط إضافى لذيذ مرح بمثابة تمهيد طويل حميم ورائع لمشروع الألفة والأنس الجديد ، تقبض خلاله الأيادى على بعضها البعض وتتقارب أثناءه الوجوه وترن الضحكات وتختلط الأنفاس : إنه شوط استعراض روميو لقدرته على التقاط حبة أرز واحدة بعصاتى الأكل الخشبيتين ، ومحاولته المخلصة بدورها لتدريب صديقته على اكتساب هذه المهارة الأسطورية ذائعة الصيت عالميا كتحدى يستعصى على أغلب الناس !

مجرد جلوسه فى هذا المطعم مع خليلة أو بدون كان يبشره بالخير دائما . بعد توطد العلاقة بهذه الخليلة ، لا ينقطع الذهاب للسينى ستارز . لا بد من فيلم واحد على الأقل أسبوعيا ، وأيضا أكلة سوشى . وعندما ينتهى المحارب من تنويع مصادر السلاح ، يعود بقية الأيام إلى قواعده سالما : مطعم الخليفة المأمون المضمون للأسماك والمأكولات البحرية ، العريق الذى يعتمد عليه كل الاعتماد .



فقط عندما تصل امرأته للحظة المحنة الكبرى

بعد أسبوع أو نحوه من تأسيس محفظة خليلته ، يتحين يوما يتوقع فيه صعودا كبيرا للأسعار . يعد فتاته بمتابعة هادئة للأسعار فى الغد فى شقته الصغيرة التى أجرها فى أحد شوارع روكسى الفرعية ، بالقرب من ذلك المطعم . تجدها لا تزال تقريبا عارية من الأثاث ، فهو بالأساس مبرمج شعوريا ولا شعوريا على توجيه المال للبورصة لا لتملك الشقق أو لتملك أية موجودات ثابتة أخرى . أهم مقتنياتها مرتبة جيدة الصنع ألمانية المكونات اشتراها من شارع عماد الدين ، وبالنسبة للشأن الغرامى تكتسب أهمية خاصة فى فصل الشتاء . هذه البساطة التى تنم عن الصدق وعدم التكلف ، تقربهن أكثر له . هنا سيطلعهن على حواسيبه ، وعلى طريقته الشخصية جدا فى تتبع الأسعار وعلى كيفية تحين لحظات البيع والشراء ، باستخدام هذه الشاشات المتعددة . يجلسان على الأرض أمام الحواسيب ، وحين تصل الأسعار لذروتها ، يلقى بنفسه فجأة على ظهره ، فتلحظ هى بروزا يشب من داخل بنطاله ، فيقول لها فيما يشبه الاعتذار : ' الظاهر كل حاجة طالعة النهارده ! ' ، ثم يتودد لها بكلام من نوعية أنتى أجمل سهم عرفته فى حياتى ، ما فيش أحلى من وشك على . يتمرغان ويتعاركان لمدة ساعة ، نصفها الأول يكرس كليا للغوص المتبادل فى فاهى بعضهما البعض . إنه أكثر شىء يشعر الإنسان بالتوحد مع شريكته أو شريكه ، فلا يكف الفمان الملهوفان بعد إدمانهما لهذه الصداقة عن تلبية شوق اللقاء أكثر من مرة فى نصف الساعة الثانى . ترتفع حرارة الجسدين وتفوح رائحة الشواء فى المكان وتفقد أرضية البورسلين برودتها المنعشة .

الفكرة الجوهرية أنه لا يبحث إلا عن متعة رفيقته . متعته هو نفسه هى أن يرى المتعة متوردة على وجهها ، وفى انتفاخ شفتيها ، وحركة مقدمة لسانها المحشورة من بين أسنانها البيضاء ، وزيغان مقلتيها تحت جفون جميلة شبه منسدلة . يستخدم روميو كل ما لدى جسمه من أدوات ، كل الأدوات ، كل البروزات ، حتى أذنيه يستخدمهما أحيانا ؛ حتى أهداب عينيه يستخدمهما !

يستخدم كل الأوضاع ، ويتنقل بينها بحيث لا يفوته أى منها فى كرنفال الجنس المقدس ، طقس الخصوبة البدائى البرىء الطاهر هذا . لا يبخل بأى منها من أجل أن يصل بامرأته للذروة . يعرف هذا حين يجد راحة متخشبة وقد أطبقت على ذراعه حتى كادت تشلها ، أو أمسكت برقبته حتى كادت تخنقها وهى تحاول دفعه بعيدا عنها ، ثم يرى عضلات الجفون تسترخى شيئا فشيء لتكشف عن عينين مكدودتين داميتين أضناهما طول احتباس العبرات فى مآقيها ، فانطلقتا فجأة تجهشان بشحنتيهما بلا روية . قط عندما تصل امرأته للحظة المحنة الكبرى هذه ، يبدا هو فى ممارسة الأداء الذكرى النمطى ، ويجعل من سعيه هو للإشباع دقائق انسحاب إضافية لذيذة لشريكته ، تستوجد فيها أسلوبا مبتكرا يسترخى خلاله جسدها المتصلب ، وتتيح للسامرى الصالح أن يفرغ ما كاد ينفجر منه بالفعل ، وأيضا يتيح لها هى أيضا أن تلمس رغم نصف غيبوبتها

هذه ، كيف كان بالمثل أثرها ساحرا عليه . بعد ذلك يستلقى الاثنان متلامسين ، على ظهريهما على الأرض ، حتى تعود برودة الأرضية لإيقاظهما . عندئذ ينهضان ، بحرص حتى لا يتزحلقا فى بلل الأرضية ، ويجدان أن أسعار الأسهم قد بدأت هى الأخرى تفقد حرارتها .

سواء كانت الشريكة فتاة صغيرة مندفعة ، أو سيدة متوسطة العمر ، هو يعرف الطريقة المثلى لتناولها . بالذات مع متوسطات العمر هو أكثر من رائع . له دعابة تقول إن عبارة Nobody is perfect الإنجليزية ، بها خطأ فى الهجاء ، والصحيح هو No body is perfect ، وهنا يأتى دورك . مثلا هو يعطى اهتماما هائلا لكتفى المرأة . الكتف هو المنطقة الوحيدة فى الجسم التى لا تتجعد أبدا ، لا تسمن أبدا ، لا تترهل أبدا ، ولا تشيخ أبدا . اهتمامه الزائد بالكتفين بغمرهما بالنظرات واللمسات والقبلات ، يجعل المرأة يتملكها وسواس كبير نحوهما ، ومن ثم تكتشف قدر جمالهما . وحين تشعر المرأة أنها جميلة ، تصبح جميلة فعلا . أو هكذا يقول هو .

أهم طقس إطلاقا يجب أن يتلو الممارسة الجنسية الأولى ، هو أن يذهبا بسيارتيهما -الاثنتين معا- لمنطقة الأهرام ، ومن نقطة معينة على الطريق يبدأ كل منهما برسم نصف قلب ضخم على الرمال . يبدءان من ذات النقطة ، يفترضانها الرأس السفلى المدبب للقلب ، ويسيران فى اتجاهين متعاكسين حتى يلتقيان فى عمق الصحراء عند قلب القلب . بهذا القلب الموقع رسميا ببصمات سيارتيهما ، يكونان قد أشهدا السماء على عهود الإخلاص الجديدة ، وطبعا يغريهما جوف الصحراء الهادئ إلا من نفخات بوق الريح السحرى ، بمعاودة ما انتهيا عنده قبل قليل ، ثم بعد ذلك يواصل كل منهما رحلة العودة على الدرب الذى لم يسبق له أن سار عليه ، النصف الآخر للقلب !

المهم أكثر من أى شىء أن روميو يخلص فى علاقته بهن ؛ بمعنى أن طالما صادق إحداهن ، فإنه يأتى بها كل يوم إلى رمسيس . وبمعنى أنه يخلص فى تعليمها المضاربة . وبمعنى أنه يوميا -ما لم تمنع ظروفها الخاصة- يدعوها لغداء ويرافقها حتى العشاء ويشاركها مهرجان المتعة الجسدية مرة أو مرتين . وبمعنى أن الشق المادى لا يمثل أية مشكلة أو كأنه لا يصح تذكره أو غير موجود أصلا ، أيهما يدفع وكأن الأمر أتى تلقائيا ، أو يدفع هو لكن دون أن يظهر حرصه على ذلك ، حتى لا يجرح الفتاة الصغيرة إن كانت بلا موارد . أغلبهن لا يرغبن فى تركه لفترات طويلة . هو يمنحهن سعادة يصعب العثور عليها فى مكان آخر . هو يريد معهن حياة عاطفية وغير عاطفية كاملة شاملة . فقط حين يبدأ الملل يشق بينهما ، أو حين يبدأ التفكير فى أن العلاقة يجب أن تنتقل لارتباط أطول مدى أحدهما ليس مستعدا له جدا بعد ، أو حين يحين وقت عودة الزوج من الخارج ، أو وقت أن جاء عريس يطلب اليد ، ينفصلان انفصالا وديا . المؤكد أنه لم يحدث قط أن خان روميو صديقة مع أخرى ، خلال فترة ارتباطه بها .

والمؤكد أيضا أنه يراهن مجددا بعد الفراق فى رمسيس لفترات طويلة لاحقة ، ولا يجمع بينه وبين أى منهن إلا كل ود وذكريات حلوة . أو كما قلنا يتركنه جسديا على الأكثر ، إذ على الأقل يتركن إدارة محافظهن وديعة لبراعته المشهودة .



أثارته جنسيا تلك الابتسامة التى لا تبارح وجهها قط

لم يحس وحيد بالألفة أبدا تجاه الشقة المفروشة . أنت لا تفكر فى تحسينها جذريا ، لأنها ليست ملكك . لا تستطيع التخلص من قطعة أثاث ، ولا شراء قطعة بديلة أو ربما مجرد لوحة أعجبتك . لا شىء ملكك ، أو على الأقل عليك أن تستأذن قبل أن تفعل شيئا . مثلا لو فكرت أنك فى حاجة لوصلة كهربية أو هاتفية أو تليفزيونية أو لشبكة حاسوبية ، لن تقوم بإعادة تصميم التوصيلات ، ثم تقول لا بأس بدهان الشقة دهانا جديدا بألوان جديدة . فقط ستكتفى بتمديد السلك على الحائط أو حتى على الأرض . إحساسك هو فقط أنك ضيف ، نزيل فندق . لا شىء يعطيك الشعور بالدوامية إلا شىء واحد ، الإحساس المتواصل بالزوالية والعابرية . إن الشقق المفروشة فكرة فذة لتعليم الإنسان اللا مبالاة . الآن مضى أسبوع ، واكتشف أنها ليست حتى فندقا ، وأنها على الأقل فى حاجة لاستئجار أحد لتنظيفها .

لم يتذكر أن هناك شركات متخصصة تأتى بشغيلات النظافة ، أو لعله تخيلها لا تتعهد بنظافة المنازل إنما شركات البيزنس فقط . كل ما تذكره أن تلك كانت مهمة البواب فى شقته القديمة بحى المهندسين (وطبعا فى ڤيللا أمه) ، فراح يدق جرس الإنتركوم طالبا من البواب الصعود . صعدت زوجة البواب ولم تقل له أكثر من كلمة حاضر ، من عينى . ظل لأسبوع آخر يستجدى البواب وزوجته أن يبحثا له عن شغالة ، فكانا يقولان إنهما لا يريدان أن يأتيانه بواحدة من الشارع ربما تكون لصة ، وأنهما يحاولان . هنا عنت له فكرة أن يتصل بصاحبة الشقة التى قابلها لدقائق قليلة فى شقتها بحى المهندسين يوم أخذه سمسار العقارات هناك لتوقيع العقد . هى شخصية لم يتح له الوقت الكافى لفهمها ، كل ما وجده فيها أنها امرأة محجبة خليط من العصرية والتدين ، هل هى عصرية ذات قناع متدين ، أم متدينة ذات قناع متعصرن ، لم يعرف ، ولم يهتم أن

يعرف . المهم أنها أستاذة جامعية تتحدث بتهذيب ولو مصطنع تعامله بالتوجس المعتاد تجاه سكان الشقق المفروشة . هى تملكت شقة جديدة قرب شغلها لكن يهمها أن لا يقال إنها أجرت شقتها القديمة ماخورا . من هنا كانت مفاجأة حسنة أن عرضت مساعدته بحماس ، أو هكذا تخيل لوهلة ؛ فربما كان يهمها أن ترسل له جاسوسة ، أو فى أفضل الأحوال يهمها أن تظل شقتها نظيفة . قالت له بحماس إنها سترسل له شغالتها يوما فى الأسبوع . فقط عليه أن يزيد على أجرها المعتاد عشرة جنيهات قيمة المواصلات الطويلة .

هذه الخادمة امرأة شابة متوسطة الطول ، رشيقة الجسم ، بلا نحافة ولا بدانة ، جريئة الكلام . هو تعامل مع شغالات كثيرات فى شقته التى باعها . وكلهن تقريبا كن يتوددن إليه ، ويتعمدن الشغل بالقرب منه ، بالذات عندما يكون وحده ، وبعضهن تبدأ اقترابيتها بعبارة : ' يا ريت يا أستاذ كل الرجالة محترمين زيك ' ، أو : ' أنا قابلت رجالة قلالات أدب كتير ' ، أو توجد طريقة أخرى أبسط هى أن تبدأ فى الشكوى من زوجها . أو ثمة ستراتيچية مختلفة بالكامل ، أن تظهر لك أنها فى حاجة للنقود بأى ثمن ، كأن تقول مثلا أنا أجمع تبرعات لإجراء عملية جراحية لابنى . إنها كلها تلميحات تمهد الطريق للجنس ، الذى لم يفكر فيه مع أيهن أبدا . هذه الخادمة الجديدة جريئة ، قالت فى الإنتركوم : ' أنا من طرف الدكتورة زينب ، يا فندم ! ' . كانت تعلم أنه يعيش وحيدا ، لكنها دخلت سريعا ، وهى التى بادرت لغلق الباب خلفها . ألقت نظرة سريعة ، ربما لتتأكد أن الشقة ليست ضخمة ومرهقة ، وابتسمت قائلة : ' كله تمام ! ' . فى حمام الشقة الوحيد غيرت ملابسها بسرعة بأخرى جاءت بها معها ، وأصبحت بلا ذلك الإيشارب الرمزى الصغير ، أيضا ببساطة تامة . أخذت تسأل عن أدوات النظافة المتاحة ، فعرض عليها أن تشترى ما تشاء . قالت : ' ها أتصرف بإللى موجود ' .

بدا المنزل مختلفا بالكامل ، حين فتحت الخادمة كل نوافذه لأول مرة ، وغمر الضوء كل الأركان . بغتة ، تسلل لوحيد شعور شامل جارف . تجسد أمامه فى لحظة أن حياته التى ارتضاها مؤخرا نفسه ربما أقرب لقبر مظلم . لا تستطيع امرأة أن تحرك وحيد بسهولة . حتى نجمات أفلام البورنو لا تحركنه . أحيانا فقط تثيره بعض الأفلام الأجنبية الكبيرة أو قصاصات الڤيديو الغنائية ، حتى تكون الفكرة الجنسية الكامنة خلفها مبتكرة وأصيلة ، وليست ذلك العرى أو رقص البطن الصريح المتواصل ، رغم إعجابه به . ورأيه أن الجنس ليس ثديا نافرا ولا سخونة تسرى من جسد لآخر ولا تأوهات النشوة ، إلى آخر التعبيرات التى يستخدمها ما بدأ يظهر فى مصر فى السنوات الأخيرة من أدب حافل بالمشاهد الجنسية . وقطعا الجنس ليس ذلك الطعن الميكانى اللا نهائى بأعضاء شاهقة فى أفلام البورنو . كان يقول إن هذا أو ذاك ليس جنسا إنما پورنو . أنا لست ضد البورنو ، إنما الفارق كبير . ويضرب المثل دوما بأفلام مثل ' جيلدا ' و' غريزة قاعدية ' ، ويقول إن ما تقدمه ريتا هايويرث أو شارون ستون هنا ليس پورنو إنما جنسا . إن كلا منهما بسيطرتها وذكائها أركعت كل رجل شاهدته فى الفيلم أو شاهد الفيلم ، لدرجة أن تمنى أن تأخذه فى تلك الرحلة الغائية إلى جهنم . الجنس فى رأيه مفهوم أو concept . ليس مجرد العرى أو الطعن أو التأوه حتى لو يكن مصطنعا .

إن جزءا من تقشف وحيد ، هو تعاليم أرسطو ، زرع به منذ الطفولة ، أو ربما ولد به . الترفع عن الشهوات هو ما يميز الأفراد عن بعضهم البعض ، ويميز الطبقات فيما بينها ، ويميز الشعوب والأعراق أيضا ، وتطرف فى الفكرة إلى أن وصل بها لأعتاب الاكتفاء الذاتى ، أو ربما لشىء من الزهد ، الاستغناء . استوقفته للحظة مقولة ألبيرت أينستاين إن الجنس أكثر متعة من الفيزياء ، أعجب بها ، لكن وجد من الصعب أن يجعلها منهجا لحياته ، حتى لو كان أينستاين نفسه قد فعل العكس . ذلك الاستغناء لم ينكسر إلا مرات قليلة فى حياته ، حين توسم أن علاقة ما يمكن أن تمنحه تلك الواحة التى تكمل حياته الآلية المنضبطة ، بعواطف جامحة تكسر كل قواعد العقل التى تسيطر على حياته ؛ لكن أيا من تلك العلاقات لم يدم طويلا ، إما لأن توقعاته كانت خاطئة ولم يجد الرومانسية الحقة ، وإما لأنه استمرأ بالفعل حياة الفكر والعقل بحيث لا يجد صبرا أو إغراء قويا للمثابرة فى بناء علاقة عاطفية . وبات يقول -وكأنه ينفض شاغله عن الأمر- إنه لا سبيل للبحث عن الحب ، أنت لا تذهب إليه ، هو الذى يأتيك . أنت لا يمكن أن تسمح لامرأة أن تنام فى حضنك بينما حياتها المهنية أهم شىء لديها ، والعكس بالعكس لا يصح أن تنام أنت معها وعقلك فى مكان آخر . على الأقل الحب هو تلك الفترات -التى لا بد وأن تكون كثيرة وطويلة ومهمة- التى ننسى فيها تماما كل شىء ، ويصبح المحبوب هو كل شىء . لو قدر لى الوقوع فى الحب ، حب التضحية والعطاء والتسليم المتبادلة هذا ، الشعاع السحرى الذى يخترق القلبين فيبطل كل الحسابات والصفقات والشروط والمناورات والألعاب ، ويبطل العقل نفسه ، فسيأتى هذا فى لحظة ورغما عنى ، وبلا مجهود أو قصد أو ملاحقة منى ، أو منها . ليس لدى شك أن لدى داروين تفسيرا لهذا السلوك البشرى الغريب لتسليم القياد لآخر وائتمانه على كل شىء (حتى وإن كان فى نفس الوقت داروين عينه هو المسئول بالأحرى عن إهمال الناس للحب وانشغالهم بصراع الحياة اليومية ولقمة العيش !) .

الرغبات عنده لا تصل أبدا لمستوى الشهوة العارمة التى يمكن أن ينجم عنها كارثة . هو يرى أنه لو كان الجنس شيئا جسديا ماسا حقا ففى وسع الإنسان ممارسته مع نفسه ، وهو بدوره شىء نادرا ما يلجأ له هو نفسه ، مرة كل أسبوع أو أسبوعين حين يلاحظ أن الأمور تكاد تنفجر من تلقاء نفسها ، ذلك رغم علمه بأن الإحصاءات تقول إن ١٠٠ ٪ تقريبا من الرجال على اختلاف حيواتهم الجنسية يمارسونه بانتظام . جنسيا لا بد من شىء عميق ما حتى تتحرك الرغبة لدى وحيد . هنا -مع هذه الخادمة الجديدة- وقع شىء غريب مفاجئ : أثارته جنسيا تلك الابتسامة التى لا تبارح وجهها قط ؛ على بساطتها وحنوها (أو بالأحرى بسبب بساطتها وحنوها) ، كانت هذه الابتسامة واحدة من تلك الأشياء العزيزة المحركة لعروق الجسد . لكنه سرعان ما فكر أن خادمته قد تتراوح ما بين امرأة عفيفة جدا وعاهرة جدا . أنا لست ضد العاهرات إلا فى شىء واحد ، محاولتهم سرقة لقب أقدم مهنة فى التاريخ من رجال الدين ، لكنى من أجل النظافة لست مستعدا لخسارة أية شغالة . وسواء كانت امرأة سهلة أو صعبة هو لا يريد أن يخسرها بأى ثمن ، ناهيك بالطبع أنه لم يشأ لنزوة أن تذله ، وهو لم يذل نفسه أبدا من أجل الجنس أو من أجل امرأة ، أو ربما من أجل أى شىء . هو لا يعرف شخصيتها بعد . كلا ، بل يعرف ، ويعرف يقينا . إن من تبتسم مثل هذه الابتسامة الصبوح الصافية الطاهرة لا يمكن أن تكون عاهرة . لكن من أجل ذلك الوجه وتلك الابتسامة الجميلة التى استلبته ، والتى يستطيع -أو بالأحرى يحتاج- للاستمتاع بها لساعات طويلة ، هو لا يريد لنزوة أو لأى شىء أن يحرمه منه .

هذه الابتسامة التى أثارته جنسيا لوهلة ، سرعان ما تحولت لمصدر راحة عميق له دونما شهوة . ثم بعد قليل اكتشف أنها لا تفارق وجهها أبدا . بمجرد أن تشرع فى الحديث معه (أو غالبا مع أى أحد) حتى تنفرج أساريها ، وتكشف عن سنة أمامية بارزة قليلا عن مكانها تزيد طلعتها إثارة . هذا شىء أخاذ . ظل يعاودها يسألها عن أحوال التنظيف ، يدعوها لتناول طعام أو شراب حتى تقوى على الشغل ، ثم يسألها عن نفسها ؛ فعرف أنها تعول ذلك الطفل الذى تتصل به بين الحين والآخر منذ أتت . عاد ليسأل عن ضرورة تنظيم الوقت هى وزوجها من أجل الطفل . فعرف أن زوجها ' طفش ' هربا من الإنفاق عليها وعلى ابنهما . لا بد أنه فقد وظيفته فى أيام الكساد العظيم الذى أتى به عاطف عبيد ، رئيس الوزراء الماركسى الذى كان يعتقد أن بطاقة التموين هى الحل ، ولم يفهم أبدا أنها المشكلة . وكان يسمى الإيجار التشغيلى الذى يمول من خلاله بطاقات التموين خصخصة ، وينهب نقود المستثمرين مضاعفة مقابل مصانع لا تساوى شيئا إلا لو طرد عمالها وسويت بالأرض وبيعت هكذا ، طبعا مع وعد ضمنى بأن كل شىء يريدونه يمكن أن يمشى مع موظفى الحكومة بالرشاوى ، وأنهم سوف يعوضون ما دفعوا . وهو ما لم يحدث سواء برشاوى أو بدون . أنا نفسى فكرت فى شراء دور عرض سينمائى لشركتى ، لكنى تراجعت بعد أن قرأت الشروط وعرفت الخديعة . إنها ليست خصخصة إنما عملية نصب حكومية ، شراء سمك فى الماء ، بل تحديدا سمك ميت عفن . أنا غير آسف على الزملاء الذين غرر بهم الرفيق عبيد وأقنعهم بتأجير تلك الدور أو أية شركة ، فهم يستحقون ما لحق بهم من خسائر ، سواء كانوا مخدوعين أو كانوا منفتحين للبيزنس الفاسد . ككل يا ستى كاد رئيس الوزراء هذا يقودنا لكارثة محققة لولا أن أتى الدكتور أحمد نظيف وحاول إنقاذ ما يمكن انقاذه . أتقولين أنك كنت تكدحين كل هذا فقط كى تشترى الحشيش لزوجك ، وأنه ربما قتل نفسه بعد أن هرب كما يفعل الكثيرون الآن ؟ أنتى اسمك إيه ؟

حين همت بالمغادرة طلب منها التليفون فأعطته له ، وهو تليفون جار آخر فى المنزل . قال إنه سيجهز المزيد من أدوات النظافة ، وسألها هل تريد هى شراءها بنفسها ، فلم تبد اهتماما كبيرا ، وقالت : ' دعنى أتصرف ، سآتى أنا من بيتى بفوطة للمسح ' . حسب صاحبة الشقة وحسب ما كررته هى ، كان اسمها حتى اللحظة أم كريم . سألها عن اسمها الحقيقى ، فلم تتردد فى ذكره . إنها ليست متحفظة أو ممن تخجلن من ذكر اسمائهن . اسمها رمانة . ربما فقط كانت تخجل من سخرية البعض منه ، أو لما يمكن أن يبنوا عليه من تلميحات جنسية . لكن ها هو هذا الأستاذ يقول لها إنه اسم جميل وفريد جدا من نوعه ، فزادها هذا ابتساما على ابتسام . وأخيرا ودعها بعلاوة العشرة جنيهات التى اشترطتها صاحبة الشقة ، وبعشرة جنيهات أخرى إضافية تماما ، تلقى فى مقابلها وابلا من الشكر .

تذكر وحيد صديقا له من أيام الدراسة . كان من أسرة ثرية للغاية ، وكان حين يأتى الحديث للزواج ، كان يقول إن لديه شرطا واحدا : ألا تكون ' وش نكد ' . هذا كان غريبا جدا . نعم لم يكن أحد يجرؤ أو يفكر فى أيام أفلام الحرية الجنسية الكبرى تلك ، أن يقول إن الزواج فلوس أو صفقة ، لكن أيضا كان الكلام كله عن التوافق فى الفكر والثقافة والاهتمامات والميول وحب القراءة والفن ، هذا إن لم يكن من شبه البديهى لدى الجميع وقتها أن الفيصل فى الزواج هو الحب . كيف تأتى لصديقه أن يهمل كل هذا ، ويتكلم عن خشية النكد لا أكثر ؟ ساعتها بدا له هذا الصديق تافها غير مثقف ، ويطلب من الحياة شيئا متواضعا للغاية . منذ أيام تذكر هذا الصديق حين سمع إدوارد يشكو لضهرى من أحدث مكائد زوجته ' التى تصارع ذباب وجهها ' كى تنأى عن تحسيسه بأن بينهما شراكة ومصير واحد ودون أن تقول أو حتى تعرف ما الذى تريده

بالضبط ، فقط سخط لمجرد السخط ، فقال وحيد : ' ربما كان صديقى ذلك أكبر طموحا مما تخيلت ' . اليوم عاد ليتذكره من جديد ، لكن الإحساس يختلف . لا شك أن رمانة هذه تعيش حياة قاسية بائسة . كيف إذن لا تبارحها أبدا ابتسامة الرضا المهذبة الوادعة هذه ؟ زوجة إدوارد لديها الكثير ، لكنها تبحث عن الشقاء بحثا . لم يفهم كثيرا كيف يكون هناك أناس يستمتعون بالنكد . لم يفهم كثيرا لماذا عندما يضحك المصريون ، يردفون فورا : ' اللهم اجعله خير ! ' . لكن بالأحرى لم يفهم بالمرة لماذا لا تنمحى قط تلك الابتسامة عن وجه رمانة ، وكأنها ' سترتها ' الوحيدة التى تتلفح بها من برودة الزمن .

لقد وصل بعض الفلاسفة لأن السعادة أو اللذة هى الغاية العليا للإنسان . ربما هناك أيضا تفسير داروينى للسعى للسعادة ؟ أية نوع من الآليات التكيفية تكون ؟ هل لأن صفاء الذهن والروح يعزز قوة العيش داخل الإنسان ؟ هل لأن التفاؤل آلية تقوية لمقاومة الألم والإحباطات ؟ لكن لماذا يبدو البعض على العكس تماما ، يقتاتون على التعاسة والتوتر وعلى بيئة تملؤها المشاكل والصراعات ؟ ما قول داروين هنا ؟

أنا محطم مكتئب يائس لأن لى أسبابى ؛ لكن أليس لرمانة أسبابها أيضا التى كان يمكن أن تجعلها أشد حزنا وقنوطا منى ؟ أية قوة تلك التى تضع تلك الابتسامة اللطيفة التى لا تقدر بمال فوق هذا الوجه الطيب طوال الوقت ؟ لم يكن لدى يوما وقت للتفكير فى مثل هذه الأسئلة ، واليوم تلوح لى الدنيا كلها كلغز كبير . الأرجح أن السعادة هى أحد تلك الأسرار التى لا مفتاح لها . ربما على أن أبحث عن صديقى هذا ، لأرى إلام انتهى مسعاه ، الذى بدا يومها سهلا جدا فى نظرنا .

حين قال وحيد ذات يوم إنه سيبقى فى البيت فى اليوم التالى ، حيث اليوم الذى سمحت فيه صاحبة الشقة لرمانة بالقدوم إليه للتنظيف ، لم يفت ونس التعليق على الاسم : ' أنا كمهندس أعرف رمانة بلى ، رمانة بلح ، إنما أول مرة أسمع عن رمانة حريمى ! ' ، ويحاكى بيديه المكتظتين صورة ثديين كبيرين . وكان هذا أحد أيام ونس العالية القليلة ، إذ سرعان ما بهر الجميع بذاكرته الغنائية . بدأ بأغنية لمحمد رشدى ، وتلاها بنحو عشرين أغنية مختلفة تدور كلها حول الفواكه !

أما روميو فيعلق قائلا لوحيد : ' تعال معى يوما لوادى السيليكون ... ' .

– ماذا ؟

– أقصد للسيتى ستارز ، وستجد هناك كل الرمان والتفاح والموز والمانجو والكمثرى الذى تريد . التين الشوكى بس هو إللى موش موجود !



المنظمة الدولجية التى يسمونها الأمم المتحدة لا تكيل بمكيالين ، إنما بكفة تزن ٢٥٠٠ مرة ضعف الأخرى !

هناك مسافة تزيد عن المتر بقليل تفصل ما بين المكتب المستطيل والمائدة المستديرة . فى هذه يوضع عادة مقعد خامس ، على يمين الجالس يوجد روميو فونس الذى يجاور الحائط ، وعلى يساره سيجد ضهرى فوحيد الذى يجاور بدوره الحائط الآخر .

إحنا هنا الخمسة الدائمين ، ولو أى حد فينا قال لك ما تشتريش أو ما تبعش ، تسمع الكلام . كمان خد بالك فيه حاجة اسمها الفصل السابع ، ممكن نحجر عليك ونحطك فى مصحة ! كثيرا ما تسمع هذه العبارة من روميو حين يريد -بحزمه الظاهرى المعتاد- تحذير أحد ما من قرار استثمارى يوشك عليه . النصائح دائما غير مباشرة مثل : ' نشنت يا فالح ؟ ! ' ، التى تعنى سوء الاختيار . أو تأتى فى صيغة أغنية يرد بها ونس ، مثل : ' ع الحلوة والمرة ' ، التى تقترح التمسك بالسهم ، وهكذا . على أنه بمرور الوقت تنبهوا لأن قرارات مجلس الأمن يجب أن تكون أكثر وقارا ، بل وتحديدا تكون ذات صلة مباشرة بالسياسة والسلم العالميين ؛ فأصبحوا مثلا إذا أرادوا تحذير عميل يريد الشراء ويرون أن السعر قد ارتفع يقولون : ' إنى أحذر إيميريكا ! ' ، فى محاكاة لأسامة بن لادن . أو إذا أرادوا التحذير من البيع لأن السهم لا يزال قويا يقولون : ' الإمن مستتب ! ' ، بكسر الهمزة وكسر الميم الثانية ، على طريقة شيوخ غفر الأفلام المصرية القديمة التى تدور فى الريف . وإذا أرادوا التحذير من سهم حقق شهرة عالية ثم اتضح أنه أكذوبة يقولون : ' اللهم صلى على مُحَمَّد ، وعلى آل مُحَمَّد ، سقط الطاغية ! ' ، متأسين بطقوس إعدام صدام حسين . أما إذا أرادوا تأييد قرار استثمارى ما ، سهم الأحذية مثلا ، فليس هناك أفضل بالطبع من : ' بالروح ، بالدم ، نفديك يا جزمة ! ' .

بالذات العبارة الخاصة بصدام حسين كانت تنطوى على مفارقتين هائلتين : الأولى أنها نصيحة ارتبطت أول ما ارتبطت بشركة كويتية ! شركة ضخمة اسمها ' القابضة المصرية الخليجية ' ، انتهى الأمر بصاحبها إلى السجن ، بعد أن كان أغنى أغنياء الكويت ، والأسرة المالكة نفسها تعهد

له بأموالها ليستثمرها لهم ؛ والسبب هو فشله فى إدارة ما يشتريه من شركات ، زائد بذخه الشديد ، ليس من جيبه الشخصى طبعا ، إنما كجزء من مصروفات الشركة القابضة هذه . هذا البذخ الذى رآه ونس رأى العين أيام إقامته بالكويت وأخذ به ، هو الذى أقنعه بأن يضارب بجزء الدولارات الذى يملكه ، على سهم هذه الشركة . ظل يشترى ويبيع ، دون أن يلحظ أن السهم ينزلق للأسفل شهرا بعد شهر ، إذ انفض عنه المضاربون الكبار أنفسهم . نبهه وحيد لذلك ، من خلال الأرقام ربع السنوية للميزانية ، وكان أول من أطلق نبوءة أثارت عليه حنق وسخرية القاعة كلها ، أن هذه بوادر إفلاس ، وكارثة سوق المناخ بصدد الوقوع ثانية ، وأن الرجل -أسطورة الكويت الخرافية- سيذهب للسجن لا محالة .

تدريجيا بدأ ونس يستغرب أمر الشركة ، وبدأ ينسحب تدريجيا منها ، وأضحى يغنى لها أغنية ملتبسة المعنى تقول : ' أهواك وأتمنى لو أنساك ! ' ، ثم بعد أن خسر معظم دولاراته ، رفض نصيحة وحيد باستثمارها استثمارا طويلا فى النايلسات أقوى وأيضا أرخص سهم دولارى فى نظره آنذاك ، وفضل تحويلها للجنيه المصرى للمضاربة على أسهم تافهة كالعادة . هنا تكمن المفارقة الثانية فى عبارة سقط الطاغية . إن ونس الذى هو أكثر من يرددها الآن ، هو نفسه أكثر من تأذى من السبب الأصلى التى استخدمت فى القاعة لأجله . لقد نسى ونس كل ما جرى له بسرعة ، وتحول لأحد أعنف المهاجمين للشركة الكويتية ، وكان أول من استجلب عبارة سقط الطاغية ، لتحذير الجميع منها . ثم عندما أفلست الشركة وحوكم صاحبها ، ادعى لنفسه أنه صاحب النبوءة !

للدقة هم ليسوا أعضاء دائمين بكامل معنى الكلمة ؛ فالمقعد الخامس يمكن أن يتناوب عليه أى أحد ، بالذات نبيل دائم التنقل بين الناس . لكن الديمومة شىء نسبى ، إذ عرف هذا المقعد بين الجميع بأنه المقعد المخصص لصديقة روميو : مقعد السيتى ستارز .

ذات مرة خطر فجأة ببال أسد ، صديق رزق وعارف وأكثر الثلاثة ألفة ومودة مع كل الناس فى القاعة ، أن يقترح تسمية الأعضاء الخمسة الدائمين . قال : ' أستاذ وحيد أمريكانى خالص . عم ضهرى راجل كبير وعاقل يبقى هو بريطانيا ! ' ، وبسرعة أضاف إدوارد : ' روميو هو فرنسا ! ' ، فيرد هذا ممازحا مستنكرا وكأنه يتباهى بثنائيته الجنسية : ' قصدك إيه ؟ ' ، ' لأ ، موش قصدى إللى فى بالك . قصدى أنك بتلعب على كل الحبال ، شوية مع السى آى بى ، أميركا يعنى ، وشوية مع الغلابة إللى زينا ، وكده ! ' . يعود أسد : ' وعم عبده تخين وقصير ، يبقى هو الصين ! ' ، وكالعادة يعترض ونس على أى شىء بعكسه ، ولو كان العكس قد قيل لكان قد اعترض بعكس العكس : ' وليه ما تقولش الدب الروسى ؟ ! ' يقع أسد فى حيرة : ' طب وبعدين ؟ ' . يقترح ونس أن يجلس على الكرسيين سويا ، كل فردة على كرسى . فيسخر ضهرى : ' وليه الطمع ده ؟ قيتو واحد يكفى ! ' ، ويجد إدوارد الحل : ' خلاص يا أسد ، المقعد الخامس هو إللى يحدد . لو جت فيه الأول واحدة روسية يبقى ونس كمالة عدد الصين ، ولو جت واحدة صينية ، يبقى ونس الدبة بتاعتنا ' . ' بس ونس ما ينفعش ، الشيوعيين نشفانين رفيعين وموش لاقيين يأكلوا ؟ ' ، ' ماو تسى تونج كان نشفان ؟ ! ' ، ' ده رئيس الحزب ! ' ، ' خلاص ! يبقى عندنا ماو تسى تونج وعندنا الدب الروسى وعندنا ونس الدمياطى ! إيه المشكلة ؟ ! ' . وفعلا تنجح الفكرة ، إذ بعد قليل جاء روميو بفاتنة روسية شقراء ، فأصبح ونس هو ' الرفيق ماو ' . ظلوا شهورا على هذا الحال رغم تغير الفتيات ، هذا إلى أن أتى روميو بحسناء صينية بملامح أوروبية ، فقال ونس ضاحكا : ' أمرى لله ، دلوقت بقيت أنا الدبة ! ' .

فى كل مرة يأتون فيها على ذكر مجلس الأمن أو المقاعد الخمسة يكرر وحيد ذات الرأى . إنه ينفى ضلوعه فى المسرحية ، ويتبرأ من أى انتساب للأمم المتحدة ، ويعلن أنه لا يعترف بها ، وبأنها لا تمثل عدالة من أى نوع ، بل هى منظمة لحكام العالم الثالث ، الهدف منها حماية إجرامهم وفسادهم واستغلالهم لشعوبهم ، وتمردهم البلطجى على أميركا ، وابتزازهم لكل العالم المتقدم من أجل المعونات التى ينهبونها هم كالمتوقع . ويضرب المثل بأن ناتج كاليفورنيا أكبر من ناتج خمسين دولة منهم . لها ١ من خمسين من مقعد واحد ، ولهم هم خمسون مقعدا . أية عدالة هذه ؟ المنظمة الدولجية التى يسمونها الأمم المتحدة لا تكيل بمكيالين ، إنما بكفة تزن ٢٥٠٠ مرة ضعف الأخرى ! ثم يقولون بعدها إنهم لا يزالون مظلومين وأميركا هى المهيمنة ؟ !



– أنت عنصرى ؟

– أشكرك ! تبنى الحقيقة العلمية لا يمكن أن يكون تهمة !

طبعا يفهم ونس من مثل هذا الكلام أنه محاولة غير مباشرة -لكن مفضوحة- للحد من هيمنته هو شبه المطلقة على القاعة وسكانها ، فيقول : ' يعنى أنت عاوز تنفرد بالرأى وحدك هنا ؟ ' .

– إللى أنا شايفه أن ما حدش بيقول رأى أصلا غيرك !

– أنت عنصرى ؟

– أشكرك ! تبنى الحقيقة العلمية لا يمكن أن يكون تهمة ! أنت فاكرها ها تزعلنى ؟ أنت خلليتنى زى أرسطو . زى كل المفكرين العظام . زى أمنا الطبيعة . شكرا بجد !

ويتدخل ضهرى مدافعا عن صديقه الجديد : ' من سنتين لما كان واحد فى أوروبا يقول لك أنا متقدم لأنى أبيض وأنت متخلف لأنك عربى كان يدخل السجن بتهمة الكراهية . النهارده لو قال لك كده ، بيعتبروه بيقول حقيقة علمية . من حق كل شعب يقول على نفسه أنه أفضل الأعراق أو شعب الله المختار أو خير أمة أخرجت للناس ، لكن التقدم هو الفيصل لو أنت متقدم يكون كلامك عن نفسك حقيقة علمية بسيطة وبديهية ، ولو متخلف تكون ببساطة أنت العرقى المتعصب العنصرى . صحصح يا حبيبى : لا يوجد اليوم قانون عقوبات فى الدنيا يعتبر العرقية تهمة ! التسامح حاجة كويسة ، لكنه لا يستطيع ولا يصح أن يلغى العلم . أنت ما سمعتش عن حاجة اسمها چيينات ؟ ! ' .

ويواصل وحيد غير عابئ بالتفريعات والاستطرادات : ' نموذج الأمم المتحدة ، النموذج الذى يروج له البعض بشراسة ، سمه بالأحرى نموذج الجمعية التعاونية ، أو بلغة الحاج ضهرى الزراعية سمه النموذج الطحلبى البدائى ، نموذج المائتى رأى وليس الرأى الواحد الوحيد القائد . هذا هو الوصف الصحيح ، طحلب ! الكل خلايا موحدة متساوية الرءوس ، سمه النموذج الإنسانى أو الديموقراطى أو الاشتراكى ، سمه كما شئت ، هو نموذج لا يصلح نهائيا لأى مجتمع ، بل هو تحديدا الذى لم يؤد تاريخيا لأى مكان . لم يؤد إلا لاضمحلال وانهيار الحضارات . هو يرى ويريد العالم كيانا متساوى الخلايا وظيفيا وقيمة ، بينما الثورة التقنية والاقتصادية ثورة تتضرع طالبة قيادة عليا ، مركز وظيفته الرؤية الشاملة والتوجيه ، ثورة تستصرخ أن لن يكتب لها البقاء -ناهيك عن الازدهار والنماء- دون نموذج إمپراطورية كوكبية ، نموذج البيزنس الذى تدار به أية مؤسسة أو شركة أو جيش أو أى شىء بأدنى قدر من الاستعقاد على ظهر الأرض ، ' متعضية ' (يتدخل ضهرى : ' إللى اخترع الترجمة دى كان أستاذى ' ، ويؤمن عليه نبيل محييا بإشارة من قبضة يده) ، organism متخصص الخلايا والأعضاء والوظائف ، له مخ وله عضلات ، وكلاهما شديد التمايز عن الآخر . ده بيقول أنا مخ ووظيفتى أنى مخ ، وده بيقول أنا عضلات ووظيفتى أنى عضلات ؟ ' .

– (يضيف ضهرى ساخرا :) وده عضو إخراج بيقول وظيفتى إخراج الفضلات ! (وبسرعة يأخذ الحوار بجدية أكبر :) طب والحل ؟

– فيه حل ؛ الهندسة الچيينية . ها تخلق كائنات بمواصفات فائقة ، ها تخلق قادة بالمواصفات إللى تخيلها أرسطو . صح ولا غلط يا حاج ؟

لا يرد الحاج ، ولا يفهم وحيد لماذا يصبح كلام ضهرى مقتضبا كلما تطرق الحوار لمنطقة الچيينات .

تمر الأيام ، ويتكرر مثل هذا الجدل ثقيل الظل من حين لآخر . أما التندر على المقاعد الخمسة فقد أصبح عادة شبه يومية فى شركة رمسيس . لو سأل أحد من القاعة : ' يا رفيق ماو إيه أحسن سهم بالدولار اليومين دول ؟ ' ، يقول له : ' عندك رئيس أميركا نفسه ، اسأله ! ' . ولو سأل أحد : ' شركات السياحة طالعة لفين يا حاج إنجلترا ؟ تفتكر سهم التدليك ها يوصل لكام ؟ ' ؛ فيرد بغضب : ' أنت شايفنى بتاع تدليك ؟ اسأل بريچيت باردو ! ' . أما ذروة النوادر فتأتى بالطبع حين يخلو المقعد الخامس ، مقعد السيتى ستارز ، ويذهب أحد من القاعة للجلوس إليه .

أنا كنت عذراء من ٥ دقايق بس !

تنهار أسهم شركات الصيدلة (إنتاج الأدوية) والمستشفيات بسرعة . هذا قطاع اقتصادى كبير يضم الكثير من الشركات ، بدءا من فروع شركات الصيدلة الأجنبية العملاقة ، مرورا بشركات الصيدلة المصرية الأصغر ، وشركة المستشفيات الحديثة التى تضم سلسلة تعم البلاد أغلبها من

مستشفيات حكومية تمت خصخصتها جزئيا ، وانتهاء بالمستشفيات الفرادى المقيدة بالبورصة . يتصل ونس بزوجته فى دمياط : ' عندك أخبار ؟ ... مكتوب إيه ع الإنترنيت ؟ ... طب وإيه يعنى ؟ ... ما إحنا عارفين أن نقابات الأطباء والصيادلة عاملين اعتصام من أسبوعين . وعارفين أن كل ما تبقى من المستشفيات الحكومية ها يتخصخص دفعة واحدة لشركة إنجليزية ' .

يبدأ ونس الشرح للعيون الواجمة المحدقة فيه : ' الإخوان المسلمين ! الحكومة علشان تضرب المعتصمين لفت على كل مستشفيات وصيدليات الإخوان . النقباء طلعوا تصريح أن لا تفتش علينا الشرطة ، لا أمن صناعى ، لا شرطة أموال ، ولا شرطة مصنفات فنية ، ولا مباحث أمن دولة ، إنما فقط وزارة الصحة . والصيادلة والأطباء بقوا بيضربوا الشرطة لما بيدخلوا لهم ، والمظاهرات على ودنه . الظاهر الإخوان موش ها يبطلوا البلطجة بتاعتهم أبدا ' .

يقول ضهرى بصوت عال : ' طبعا بلطجة . يعنى إيه الأمن الصناعى لا يفتش ؟ عندك مواد ملتهبة ، وأنت جزء من عمارة ، وما عندكش طفايات . ده اختصاص المطافئ موش وزارة الصحة . عندك ملايين كاش فى خرنتك بره كل الحسابات الرسمية ، ده غسيل أموال ومن اختصاص شرطة الأموال موش وزارة الصحة . عندك كمبيوتر وبرامج مسروقة ، ده اختصاص شرطة المصنفات موش وزارة الصحة . عندك منشورات وعامل اجتماعات تنظيمية ، ده اختصاص مباحث أمن الدولة موش وزارة الصحة . خللى الرشاوى على جنب ، أشطر ناس فيها دفع وقبض سوا . هم بس يوعظونا طول الوقت فى الفساد والأخلاق والشريعة وهم أفسد الفاسدين ؟ ' .

ويفاجئ ونس الجميع برأى استنكارى يدعى المعرفة بخبايا الدين ، وإن لم يعلقوا عليه ، أو ربما لم يفهموه : ' مين قال الرشوة حرام ؟ ! موجودة رسمى فى القرآن واسمها المؤلفة قلوبهم . الإسلام نفسه كان بالرشوة . سفيان بن حرب هو شيخ المؤلفة قلوبهم ؛ على الأقل كل بنى أمية دخلوا الإسلام بالرشوة ، ولم يحدث أن آمن أحد من سلالتهم به يوما ' .

ويعلق عارف (ثالث الأصدقاء الثلاثة سالفى الذكر) : ' كفاية عليهم الإشاعات . كل الموبايلات ومواقع الإنترنيت شغالة اللهم صلى ع النبى . الوزارة ها تتشال . الوزير ده مغضوب عليه . الوزيرين فلان وفلان متخانقين على هبرة مع شركة أميركانى . خايبين حتى فى الإشاعات . هم الأمريكان بيدفعوا رشاوى ؟ ! إمبارح وصلتنى ٧ رسايل عن أن الرئيس سافر يتعالج . كل يوم دلوقت بقى بيتعالج فى ٣ مدن أوروبية مختلفة ، بينما هو بيفتتح مشروع جديد فى قنا ! ' .

طب وإيه العمل دلوقت ؟ ، يسأل أسد . وينقسم مجلس الأمن على نفسه ، النصف الأيسر يقول له بع بسرعة . ويضيف ونس بلهجة تقريرية جازمة مستشهدا بالشاشة : ' العك التنازلى ابتدأ ! ' . عبارة معتادة له فى مثل هذه المناسبة ، يذكر له أنه الذى نحتها وأعجبت الناس ، لكن يؤخذ عليه أنه يقولها معتقدا أنه يعطى معلومة لم يلحظها أحد سواه ، وأنها أيضا تصف لحظة لا يحبها أحد . ضهرى ووحيد ينصحان بالتريث ، مرجحين أنها زوبعة وسوف تستقر الأمور ، وتعود الأسهم لطبيعتها . ينضم عارف لهما قائلا : ' هذه ليست أول مرة . هذه النقابات فعلتها من قبل مع كل مرحلة خصخصة لشركات الأدوية لمستثمر أجنبى ، والآن يكررونها مع كل مرحلة خصخصة للمستشفيات . اذكر كلمة أجنبى حتى يجن جنون الإخوان . ثم يذكرهم بمرات متعددة محددة استطاعوا فيها هز البورصة ، لكن فى كل مرة لم يدم الأمر أكثر من يومين ، وعادت الأسعار لأفضل مما كانت عليه ' . ويتساءل أسد : ' أليس من المفروض أن يشكروا الحكومة ، إذ وفرت عليهم تكاليف السفر ، وأتت لهم بالأجانب حتى عندهم ، كى يقنعوهم بالإسلام ما شاءوا ؟ ' . ثم يعود ونس ليفيض فى فلسفاته الدينية : ' أنا فى طفولتى تصورت أن الحديث المعنعن هو الحديث الضعيف لأنه يحتمل الدس والتحريف خلال تلك السلسلة الطويلة مهما كان حسن نية هؤلاء ، لكن اكتشفت حين كبرت أن العكس هو الصحيح ، وإن لم أفهم كيف حتى اليوم ؟ نحن نعرف كتاب الموتى لأن لدينا بردية له ولدينا نقوش وحوائط ومسلات . نعرف بالحرف ما كتبه هوميروس وأرسطو وأفلاطون لأن المخطوطات متاحة ولم تخل مدينة فى العالم القديم من مكتبة ، بل الكثير من أدبيات التاريخ لا تزال محفوظة بخطوط أصحابها الأصليين ، أما العرب فببساطة لم يكونوا يعرفون أى من تقنيات رجس الشيطان هذه ، وليس لديهم من آلية للحفظ والتوثيق سوى الرواية المعنعنة المباركة والرواة الثقاة المباركون ، ويوم رأوا الكتب لأول مرة فى مكتبة الأسكندرية حرقوها فى الحمامات وأبقوا على أغلفتها لصنع أحذية التى بدورها بها شبهة رجس الشيطان . أصبحت أسال : هل هناك حقا شىء اسمه رواة ثقاة ؟ هل يروون عن هارد ديسك أم فلاش ميمورى ؟ أم يروون عن أهواء وتصورات ذاتية ؟ أما عن محتوى الكلام فأولئك النقليون نكتة متحركة . بمجرد أن تفتح موضوعا معهم يهرولون لمراجعة الإسناد ، وكأن محتوى الكلام لا يعنيهم بالمرة . ثم حين تجبرهم على تأمل فحوى الكلام لا يخجلون من المجاهرة بأنهم يؤمنون بالنقل

ويرفضون العقل ؛ يحرمون النبلة لأن هناك نصا لمحمد يحرمها ، ويحللون القنبلة النووية ليس لأنه لم يأت فيها نص (فلا يوجد شيء حتى آخر الزمان لم يأت فيه نص) ، إنما لأن نص النبلة نفسه هذا ، نهى عن النبلة لأنها لا تقتل ، ويعتبر هكذا سندا قويا جدا للقنبلة فى نظرهم ' . ' هو ما يعرفش أن داود أصبح نجم النجوم وملك الملوك بسبب نبلة ؟ ! هأ ! هأ ! ' . ' خلونا فى الجد : هم يفعلون كل هذا بينما منهج البخارى نفسه فى انتقاء الأحاديث -بغض النظر عن علميته من عدمها- هو من صنع عقله هو ، ومثلا توجد له أحاديث مقطوعة أو معلقة وهذا عكس منهجه ، لكنه فتح المجال للاستثناءات من باب تقديره هو الشخصى للراوى أو تقدير الراوى للحديث أو الاثنين معا . طبعا هم لا يهمهم بقشرة بصلة تعارض القرآن أو الحديث مع العقل ، لكنهم حين يجدون تناقضا بين آية وآية أو آية وحديث أو حديث وحديث أو منها وخبر أى واقعة ، تبدأ مشاكلهم ، وحين ' يغلب حمارهم ' يضطرون لتأويل أحد المتناقضين على محمل روحى ، فهم يعلمون أن هذا خطر جدا ، وأنه يزرع قنبلة موقوتة قد تهدم أساس عقيدتهم ، لأنى مثلا أستطيع القول إنه يمكننى الصلاة بقلبى والصوم بقلبى والزكاة بقلبى والحج بقلبى ، وهلم جرا . المهم ، تظل نقطة ضعفهم قائمة : إذا كانوا يلتزمون بالحرف ويرفضون التأويل فليتزموا حتى النهاية ! ' . ثم يستدرك بضجر : ' إيييييه ! إذا كان النقليون نكتة متحركة ، فالعقليون نكتة أكبر ، فلا يوجد عقل فى الإسلام . الإسلام ما فيهوش غير إسلام ؛ تسليم وإذعان ' ... وطبعا لم يفهم أحد شيئا !

الوحيد الذى يبدو دائما مستمتعا بانهيار الأسعار هو سامر . اصطباغ الشاشة بلون الدم ، يعطيه فرصة فى تمرير بعض التلميحات الجنسية لميرفت ، وله هو أيضا عبارات مشهورة لمثل هذه المواقف : ' قمصان النوم اشتغلت ! ' ، أو ' الدم ابتدأ ينزل ! ' ، يتلقى جزاء كل تفوه بإحداها ، لكزة عنيفة غاضبة فى جانبه ، يتأوه لها بتلذذ ! هذه التعليقات معتادة من سامر فى كل مرة يسيل فيها الدم على الشاشة ، لكن كونها قد جاءت هذه المرة مقرونة بالحديث عن المستشفيات ، فقد أوحت لروميو بمشروع تجارى عظيم آخر من مشاريعه الكثيرة . طلب من سامر أن يترك ميرفت قليلا ويأتى إليه ليناقشها معه بصوت منخفض : إنتاج ذات الجوارب النسائية الحريرية البيج الشفافة الطويلة التقليدية ، لكن مع طباعة بقع حمراء واسعة عليها تغطى منطقتى باطن الفخذين ، ثم تهبط أنحل شيئا فشيئا لتصبح كما خيوط دم رفيعة !

– (وقد حازت الفكرة إعجابه بشدة :) ها تنجح جدا ! كأن الواحدة بتقول أنا كنت عذراء من ٥ دقايق بس ! تحب نشرك مستر وحيد معانا ؟ هو بتاع الرأسمالية المتوحشة وها تعجبه أوى الفكرة !

– خليها سر بيننا أحسن ، بدل ما بيسموا الأيام الغبرة إللى زى النهارده ، الاثنين الأسود والثلاثاء الأسود ، ها نسميها إحنا الشرابات الحمرا !

أما وحيد فيتساءل فى خبث : ' يا عم ونس ، التحليل التقانى واخد أجازة ولا إيه النهارده ؟ ! إيه رأيك تتصل بـ ' هو ' بتاعك خليه ينقذ الأسعار ! ' .

– ' هو ' مين يا عم ؟ البورصة دلوقت فيل ونازل من السما ، مين يقدر يحط إيده تحته علشان يوقفه ؟ ثم إن موش عاوزين هزار فى يوم أسود زى ده . كل الناس دى قلبها فى رجليها ، ولو الموضوع طول يوم أو اتنين ها نبتدى كلنا نحجز إشارات المرور علشان نبيع فيها مناديل ورق ! (ثم لا يلبث أن يمزح هو نفسه :) السوق ده نازل فى بير ما لهوش قرار ، علشان كده سموه bear market !



لنكن صرحاء : أى شيء يفوق الولاء للوطن !

– أنت إيه رأيك فى المسيحيين ؟

– المسيحيين ولا الأقباط ؟

– هو فيه فرق ؟

– الأقباط هم مسيحيين مصر .

– عارف دى طبعا ، وعارف أن كلمة قبطى معناها مصرى . إنما ما كنتش أعرف أن فيه فرق . المهم ، إيه رأيك فيهم ، دورهم فى المجتمع ، طباعهم ، شخصيتهم ، كده ؟

– زى قلتهم .

– ماذا قلت ؟ أهذا رأى يمكن أن يصدر عن شخص ليبرالى مثقف مثلك ؟

– أنا قربت أتجنن من تعريفات الليبرالية حسبما يفهمها المصريون . فى أميركا كلمة ليبرالية مسروقة من معناها الأصلى إللى هو الليبرالية الاقتصادية ، وحطها الحزب الديموقراطى يافطة على الشيوعية بتاعته إللى هى العكس بالظبط . عادى ! إنما على الأقل لما بتسمعها بتفهم إيه المقصود بها ، إنما هنا فى مصر الموضوع مشكلة . البعض فاهم أن معناها أنك تكون على الحياد ، ما لكش رأى أو موقف ، وناس بتستخدم كلمة liberal كمرادف لكلمة loose ، أو نوع من توهان ما بعد-الحداثة ، وناس فاهماها حرية أى حد بمن فيهم أعداء الليبرالية ، وناس فاهماها الانتخابات ، وآدى ناس فاهماها أنها مجرد التسامح بين المسيحيين والمسلمين !

– حكاية التسامح الدينى دى موجودة من أيام حزب الوفد القديم ، بالذات لأنها أدت لتحاشى فتنة طائفية ضخمة آنذاك . المشكلة إللى موش واخد بالك منها فى التعريفات دى ، أن لو الموضوع بكرة مشى شوية فى الإعلام ، يطلع علينا الإخوان -أو إللى بتسميهم أعداء الليبرالية- يقولوا الليبرالية هى سماحة الإسلام ، ووسع يا جدع إحنا بتوع الليبرالية !

يضحك روميو : ' زى ما قالوا إحنا بتوع التعددية ، وطلع قصدهم تعدد الزوجات ! هأ ! هأ ! ' .

لكن وحيد لا يبدو فى مزاج متحمس لمناقشة الشأن الدينى ، فيواصل : ' زى ما قلت لكم كده ، الأقباط زى قلتهم . موش موقف منهم ، إنما حاجة تشبه إزاى بقت مصر كلها زى قلتها . مصر كان لها دور كبير وسط العرب ، منارة وعاصمة ، لما كانت مترفعة عنهم ؛ لما كان الخديوى إسماعيل بيقول مصر قطعة من أوروبا ، وكان إسماعيل صدقى بيقول من الأفضل لمصر أن تكون فى ذيل الدول المتقدمة من أن تكون قائدة لمجموعة شعوب متخلفة . من يوم أصبحت جزءا من العرب والعروبة وتنادى بالقومية العربية ، أصبحت إما تقودهم للخراب ، وإما فى ذيلهم . مصر كانت حاجة مميزة متقدمة جدا عن كل العرب . كان إهانة لها أن توصف بأنها عربية ، وإهانة لأى مصرى أنه يوصف بأنه عربى . فى الحالة دى كانت مصر منارة وقائد ، والعرب هم إللى محتاجينها وبيبصوا لفوق بسببها . عبمعصورة قال مصر جزء من ' الأمة العربية ' زى ما سماها . واحدة من العرب يعنى . ساعتها هى ما بقتش بس جزء من التخلف العربى ، بقت القائدة بتاعته . الأقباط فى مصر نفس الشىء . تخيل أن لا هم لهم إلا الصراع على بناء مزيد من الكنائس ؟ ' .

– اسمها ' هى المشرحة ناقصة قتلا ! ' . الخلاصة أنك باختصار عاوز المسيحيين يبقوا عملاء .

– ما فيش حاجة اسمها عمالة . ده عالم واحد ، لا أوطان فيه . وطنك هو نفسك وهو كل العالم ، لا شىء ثالث . اسال منى بنتك .

– والله عال ! ما فيش غير البت العيلة الهبلة دى إللى عاوز تخليها حكم بينى وبينك ؟ !

– نفسك والعالم ! كل شىء آخر وسيط لا قيمة له ، ليس بأكثر من الولاء للأهلى أو للزمالك ، للمناقرة والتسلية لا أكثر .

– هذا ما تمثله مصر بالنسبة لك ؟ فريق كورة تشجعه ؟ ماذا تريد منها بالضبط ؟

– أريد أن يكون الهجاء اللاتينى لأسماء المغنيات صحيحا فى إعلانات الشوارع .

– ماذا قلت ؟ هل أسماء المغنيات هى مشكلة مصر ؟

– مشكلتى أنا . أنت سألتنى عن نفسى . مصر لا تعنى لى أى عواطف ولا شعارات ولا حب ولا كره ، ولا أى حاجة من كل هذا الكلام . كل ما أريده فى الحياة ، مكان ذا اقتصاد معقول ، يحقق لى دخلا معقولا ، وأعيش فى حى ليس بشوارعه قمامة ، ولا هجاء خاطئ لأسماء المغنيات . ثم ده موش رأيى أنا لوحدى فى مصر . بص لكل الأيديولوچيات الموجودة ، تكتشف أن الوطنية وحدها إللى لقيطة ما لهاش صاحب ولا أب . الشيوعيون ولاؤهم للطبقة العالمية . الإسلاميون ولاؤهم للأمة . الناصريون ولاؤهم للعروبة . عندهم هذه الكينونات تسبق مصر ، والانتماء لمصر حاجة ثانوية ، إن لم يكن خيانة فى نظرهم . حتى ' الأقباط ' رغم كل رطانتهم عن أنهم مصر ، غير مرتاحين جدا لحقيقة أنهم دينيا من سلالة حام الملعونة وأنهم اضطهدوا موسى وأتباعه يوما وأن صب الرب عليهم لعنات عشر ، وبالتأكيد غير راضين كثيرا عن أن مصر هذه عينها هى ما تحول معظمها فيما بعد للإسلام ، طبعا كل هذا وذاك لأن الولاء لملكوت السماوات يفوق الولاء لأى وطن . باختصار ، لنكن

صرحاء : أى شىء يفوق الولاء للوطن ! تقدر فى كلمة تقول أن ولائى للكورية ، مصر بنت حلال وكل حاجة ، إنما ما حصليش الشرف واتعرفت بيها .



إذا جاء نصر ربك والفتح ، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا !

– أنت صح فى حاجة : البت منى ها تنبسط منك أوى لو سمعت أن وطن الإنسان هو نفسه . بس ده موش معناه أن أنت ولا هى صح . أنت عارف أنا سألتك ليه عن المسيحيين ؛ لأنى سامع أنهم بيجهزوا ميليشيات علشان يواجهوا بها ميليشيات الإخوان والجماعات التانية الثائرة على موضوع الارتداد إللى زاد اليومين دول . معنوياتهم فى السما وشعارهم أصبح ' إذا جاء نصر ربك والفتح ، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا ! ' . تصور : المسيحيون -سواء بالمولد أو بتغيير الديانة- يعتبرون الآن بطريركهم ليس فقط جبانا إنما خائنا ؛ يسمونه قيافا الجديد ، لأنه يفضل أن يحكم بصلب يسوع من أجل تحاشى المواجهة مع الحكام أو مع أتباع الديانات الأخرى .

– لا يفرق كثيرا معى التحول من دين لآخر ؛ المهم نوع الحرب ، تار وحرب دينية ولا حاجة تانية ؟ هى حرب بين تقدم وتخلف ، ولا بين تخلف وتخلف ؟ برضه الحل توحيد العالم . والمفروض يبتدوا بنفسهم ، يبقوا agent ، وكلاء ، جسر ، لربط مصر بالعالم المتقدم ، بدلا من الانكفاء الذاتى على مصريتهم . جايز تقول لى چيپيناتهم مصرية زى كل المصريين ، موش ها نختلف . لكن ده وضع غريب بالنسبة للأقليات فى العالم كله . اندماج زيادة عن اللزوم ، لدرجة أن لا لون ولا طعم ولا رائحة لهم . باختصار ، مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم !

– كل المصريين مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم .

– عفوا ، ماذا قلت ؟

لا يرد ضهرى ، ويواصل وحيد : ' شوف ! أنا اتربيت فى لبنان . طوايف من كل صنف وشكل . معيارى الوحيد كان هو الطايفة دى بتقودنا للتقدم ولا لأ . فيه حاجة اسمها حداثة وعلم وتكنولوچى وانفتاح على العالم . لو المسيحيين أو أى طايفة أو فئة (أنا على فكرة كلامى عام جدا ، موش موقف من المسيحيين . وأقصد أية طايفة ، النوبيين ، البدو ، الصعيد ، الشمال ، البحر الأحمر ، البحر البرتقالى ، أى حد) ، لو أية فئة ولاؤهم للحداثة ، يعنى ناس decent همهم التعليم والشغل والبناء وتكوين الثروة ودخول المنافسة ، يبقوا أحسن ناس . إنما لو ها يدونا إنشاء وخطب فى الوطنية وتراب مصر وموش عارف إيه ، أو أنهم الأصل والتاريخ والتمسك بالماضى ، أو أن لهم هوية وخصوصية وموش فاهم إيه (حاجة غير الحداثة والعصرية) ، ها يبقوا عملوا زى إللى عمله عبمعصور بمصر . موش ضرورى يكون عرق كامل أو أقلية كاملة ، ممكن أفراد أو حتى فرد واحد حاسس أنه متميز ، أو چيپيناته متطفرة عن بقية أهله ، يقوم بالدور ده ' .

– (ضاحكا :) برضه ارفع رأسك يا أخى !

– أنا لست ضد أن يشعر أحد بالاستعلاء على الجميع ، لكن بشرط أن يكون لهذا مسوغ حداثى مادى واقعى ملموس ، وليس عجرفة جوفاء كالعروبية وما شابه . وأضرب لك مثل بأكراد العراق ، إللى قافلين حدودهم وبيحتقروا كل الباقيين ، موش علشان الحفاظ على الهوية أو ... أو ... ، إنما لأنهم حاسين أن مدارسهم أحسن ومدنهم أنضف وحياتهم أرقى واقتصادهم أكثر ثراء ، وها يتوسخوا لو اختلطوا بالعرب ؛ مفتوحين على كل العالم المتقدم ومنغلقين على العرب ، وكل ده رغم أنهم لغاية وقت قريب جدا ، كانوا أفقر من الفقر ومنهوبين ومضطهدين . بذمتك مين أحق بدولة ، الأكراد ولا الفلسطينيين ؟ ناس شغالين ليل نهار ، وناس ما لهمش شغلانة إلا الزعيق والقتل . جنوب السودان نفس الشىء ، وغيره وغيره ، بينما لو قالوا الوطنية والتراب والوحدة كان زمانهم كلهم لسه متخلفين ومحرومين . أنا مستعد أقبل تفكير المسيحيين بتوعنا (أو أية فئة مصرية زى ما قلت) ، أنهم أصحاب البلد ، وأن المسلمين مغتصبين أجانب أو شحاتين مصريين ما قدروش يدفعوا الجزية ، أو ... أو ... ، لو أثبتوا لى أنهم أحسن من المسلمين دول . بس ده ما بيحصلش . مصممين على كلمة قبطى علشان يفرقوا نفسهم عن بقية مسيحيين العالم . إنما لو حسوا بالترفع ، وبانتمائهم للعالم الغربى ، المسيحى بين قوسين ، ها يكونوا منارة وقائد ، ولو قالوا إحنا مصريين وجزء من النسيج ، أصبحوا جزءا من التخلف بل قادة له . علشان يبقوا أصحاب مصر بجد زى ما بيقولوا ، لازم يبقوا قادة . والقيادة يا حاج موش حق مكتسب ولا وضع يد ولا إرث تاريخى ولا نزاع قانونى ، القيادة رؤية وفعل ، إحساس أنك جزء من مشروع الحداثة العالمى الكبير .



يا نخبة العالم اتحدوا !

ينجرف وحيد لشرح نظريته فى الجلوبة (الكلمة التى سبب نبيل غصة له يوما حين أفهمه أنها الترجمة الصحيحة وليس عولمة كما صكتها ' الاقتصاد اليوم ' يوما ، وتبعها كل الناطقين بالعربية بعدها . فهذه ترجمة لكلمة أخرى حتى وإن لم يكن لها وجود فعلى فى الإنجليزية) : ' فى الأصل كان العالم مجموعة من القرى . عندما تفاعلت مع بعضها اقتصاديا اكتشف الحاجة لتجمعها فى كيان موحد . من يكتشف هذا ليس كل الناس فى نفس الوقت . لهذا السبب يشعر البعض بالقهر طوال الوقت ، وأن الأمير أو الاقطاعى صاحب هذه الرؤية الدخيلة الجديدة يستغلهم ، حين يقيم مشروعات رى أو مزارع ضخمة ويجندهم فيها أو يحصل الضرائب منهم إسهاما فيها ، ذلك أنهم لا يرون مثله فى هذا مصلحة أبنائهم على المجرى البعيد ، ويتخيلون فقط أن يستمروا فى ممارسة اقتصادهم البدائى فى هدوء وسلام و' استقلال ' فى قراهم الصغيرة المنعزلة بدون أى تدخل (أو ' نهب ') خارجى . بالمثل لنفس السبب تجمعت لاحقا المقاطعات وكونت الدول ، ثم تجمعت الدول وكونت الإمبراطوريات أو الاتحادات ، وأيضا ساعتها اعتبروا المصانع ظلما واستغلالا . فى كل مرة كانت العقبة هى قوى النظام القديم المنتفعة بتخلفه وفساده وانعزاليته ومكونات ثقافته البائدة . توحيد عالمنا الآن فى دولة واحدة ليس بحالة خاصة . وقهر قوى الماضى مسألة وقت لا أكثر ، فالتقنية والميل للاستعقاد حتمية ، والتعملق الاقتصادى حتمية ، والتوحد السياسى حتمية ، والكفاءة القصوى حتمية ، ذلك أن فيما يبدو هذه هى طبيعة المادة التى يتكون منها كوننا . بص : الصراع الحقيقى ليس بين عرب ويهود أو مسلمين ومسيحيين أو بين سنة وشيعة . الصراع بين تقدم وتخلف ، بين مستقبل وماضى . هو نفس الصراع سواء نظرت لقرية أو سواء نظرت للعالم . ما يقسم الإسرائيلى والمصرى ، ولا أقول الأميركى والمصرى ، أتفه مما يقسم الإسرائيليين أنفسهم أو الأميركيين أنفسهم أو المصريين أنفسهم ، لقوى تقدم وقوى تخلف . إنها معركة واحدة فى كل مكان ، التقدم ضد التخلف ، وشعارى شخصيا هو : يا نخبة العالم اتحدوا ! ' .

– (ضاحكا :) المانيفستو الرأسمالى ! جديدة ! اختراع وحيد الديب ده ؟

ويشرع ونس فى ضرب المثل بمحطات القوى الكهربية التى تعتصر طاقة الوقود حتى آخر قطرة فلا يخرج من المداخن سوى ثانى أكسيد كربون نقى وبخار ماء بارد ، كدليل على أن التعملق واتحاد الشركات مع بعضها البعض يزيد من الكفاءة لأنه يستفيد من التكامل فيما بينها ؛ تكامل الموارد والتقنيات والكفاءات والأسواق وكل شىء . يشارك وحيد بحماس مناقشة وتوكيد هذا المثال الجديد المستقى من حقل الديناميات الحرارية لكنه فى ذات الوقت ينطوى على أبعاد أوسع اقتصادية واجتماعية وربما أيضا فلسفية . وبينما الاثنان مستغرقان فى هذه المتعة الذهنية الغريبة ، يخرج مينا من الغرفة الداخلية معلنا صدور قرار البورصة بوقف التعامل على كل أسهم قطاع الطب والصيدلة حتى أجل غير مسمى ، مع ' تسجيل عكسى للأوامر ' (مصطلح محاسبى يعنى عمليا الإلغاء) لكل ما تم من عمليات على شركاته منذ الصباح .

بعد نحو نصف ساعة آخر ، تبث قناة الجزيرة مشاهد لجنود الأمن المركزى وهم يضربون المتظاهرين بالعصى وينكلون بهم على الأرض ركلا ، وتستضيف من يعلقون على المستوى الخطير الذى تردت إليه انتهاكات حقوق الإنسان فى مصر . هنا تعلن إدارة البورصة عودة الأسهم للتداول ، فإذا بها تشهق عاليا ، وبسرعة مذهلة . يقول ونس : ' آدى الكلام ! الخيرزانة تشتغل ، السوق تشتعل ! ' . ويعلق عارف : ' مظبوط ! بقى قانون معروف من ١٠ سنين ' . ويردف الحاج : ' الاستقرار أهم شىء للاستثمار ، والديموقراطية والفوضى ألد أعدائه . أميركا دى موش فاهمة أى حاجة . لما الديكتاتورية سبب الإرهاب ، طب بالديموقراطية ها يحصل إيه ؟ ' . ويضيف أسد : ' بتوع المظاهرات دول ما بيضروش غير إللى زينا . كما يقول الأستاذ وحيد أصحاب الشركات الكبار تهمهم إدارة شركاتهم ولا يهمهم كثيرا سعر السهم . أما نحن صغار المستثمرين فيهمنا جدا . هو إحنا موش تبع حقوق الإنسان برضه ولا إيه يا حاج ؟ ! ' .

حين تهدأ الأنفس يميل وحيد على ضهرى ويقول له مداعبا : ' طول عمرى ما قدرت أفهم إزاى يكون فيه طبيب واحد مؤمن ؟ أنت بتستخدم مخلوقات من صنع البشر هى العلم والأدوية ، كى تحارب مخلوقات من صنع الله هى الميكروبات والجراثيم ؟ إزاى بعد كده يروح يصلى ، ويبجى له وش يوريه لربنا ؟ ! سؤال تانى : ليه المؤمنين بيشوفوا ربنا فى البلابل والحملان ، وموش بيشوفوه فى الغربان والذئاب ؟ ! ' .

لم يهتم ضهرى بحديث وحيد المستخف ، مستعينا فى هذا بانتهاء الجلسة وإضاءة ميرفت للأنوار .

ويجتر وحيد الكلام السابق : ' هى المشرحة ناقصة قتلا ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



شيء ممتع أن تصبح الحياة روتينية ؛ هذا يفرغ العقل للأشياء الأهم !

طوال النهار لا يكف نبيل الكهل عن التحرك بين العملاء بعكازه الذى لا يتكئ جديا عليه ، وبكشكوله البالى الذى يحتفظ فيه بسجلات تاريخية يومية لأسعار الأسهم تمتد لعدة سنوات . يجلس إليهم يتعرف عليهم ، يسألهم عن أحوالهم ، يسامرهم ، يتمنى لهم التوفيق ، ويعزيهم فى حال الخسارة . الكل ألف أن يحكى له عن حياته الشخصية ومتاعبه ومطالب الأولاد المتزايدة ، وكل ما إلى ذلك . لقد فقد زوجته منذ سنوات ، ويجد فى عملاء رمسيس -أسرته الوحيدة الآن- خير أنيس وجليس . إنه بلا منافس أول صديق لكل عميل جديد . كانوا يعاملونه كأب ، ويطلبون نصائحه باعتباره الأقدم خبرة فى التعامل مع الأسهم . وحيد لم يكن استثناء . وحيد كان يستمع بشغف لقصص الأيام الخوالى التى يرويها نبيل . كان من أحاديثهما التى تفرضها المناسبة من حين لآخر ، الترجمة الدقيقة لبعض الكلمات الإنجليزية للعربية . كان يؤمن بالترجمة الدقيقة ، وينفر مما يسمى ترجمة المعنى ، ويعتبرها غطرسة من مترجمين لديهم عقدة الدونية يريدون فرض شخصيتهم على المؤلف الأصلى . فوجئ وحيد بهذا الرأى لحد ما ، فعادة متخصصو العلوم فقط هم الحريصون على الترجمة الدقيقة ، بينما المشتغلون باللغة والأدب يفضلون الترجمات المتحررة التى تهتم بروح النص وشعريته ، وليس بحرفية الكلمات .

– بماذا تترجم كلمة laptop يا مستر نبيل ؟

– قمة الحجر . ألا يوضع على الحجر ، كما أن الـ desktop يوضع على النضد ؟

ثم أردف مازحا : ' كنت أعرف أن كوول ترجمتها بارد ، لغاية ما لقيت الشباب بيترجموها ' روش ' ! ' .

من هنا أطلق وحيد على نبيل نفسه ترجمة حرفية Noble ، وأصبحت دارجة بين جمهور القاعة . لم يكن وحيد ، إنما أسد ، هو أول من تسبب فى ذيوع هذا اللقب بين الحاضرين . حين حقق أسد ربحا فى أحد الأسهم ذات مرة بفضل نصيحة من نبيل ، صاح على مسمع من كل الحاضرين : ' يا نوبل يا بتاع نوبل . أنت لازم تاخد جائزة نوبل للبورصات ! ' . وساعتها بدأ نبيل محاضرة طويلة فى أنهما كلمتان مختلفتان تماما ، هجاء ومعنى . وراح يعلم أسد كيف ينطق نوبل الأولى نو–وه–بل والثانية نو–بيلل ، لام بشدة يعنى ! وكان مأزق أسد أعمق مما تخيل ، الأمر لم يقف عند درس نبيل ، فبعض الجالسين -بالذات ونس وروميو- كانوا من محترفى السخرية من كل شيء ، بالذات من الأسماء . ضهرى نفسه لم يحمه وقاره من سخريتهم بـ ' آه ، يا ضهرى ! ' ، و' ضهرى واجعنى ! ' ، ' كام سهم تدليك ممكن يصلحوا حالك ' ... إلخ . وها هو أسد المسكين يزاحمهم تخصصهم . مثلا فى هذه المرة علق ونس : ' عارف الميزة إيه فى اسمك يا أسد ؟ إن لما تموت ومراتك تندب عليك وتقول يا سبعى ، ما تبقاش بتكدب ! ' .

مشروبات وحيد باتت بالمواعيد . حفظها نصر الله وراح ينفذها بدقة . بحيث لو طلب منه وحيد شيئا ، يرد عليه بصرامة ممزوجة بابتسامة ودون أن ينظر للساعة : ' لسه ربع ساعة ! ' . شيء ممتع أن تصبح الحياة روتينية ؛ هذا يفرغ العقل للأشياء الأهم ! الحادية عشرة قهوة . الثانية عشرة شاى سكر مظبوط ، والمظبوط هذا أكثر قليلا من السكر الذى يفضله وحيد عادة للشاى أو سائر المشروبات . لكن فى هذا الوقت بالذات هو يحتاج السكر كمدد ضرورى للمخ ، بعد نفاذ وقود إفطاره الصباحى الصغير جدا ، باكو بسكويت . الساعة الواحدة قهوة أخرى طبق الأصل . سيجار واحد طوال اليوم ، يقسم لبضع نفثات بعد كل مشروب . يقول النيكوتين مفيد ، والتدخين مضر ، الحرق والأكاسيد هو المؤذى . أنا أريد أكبر جرعة ممكنة من هذا المنبه الممتاز ، لكن بأقل الأضرار الصحية الممكنة ، ولا يوجد هكذا أفضل من السيجار . هذا يميزه بوضوح عن جيرانه ، روميو الذى يدخن سجائر فرنسية بدون فلتر (أيضا ذات نيكوتين عال ، ' حامية ' بالمصطلح البلدى) ، وونس الذى يدخن سجائر مصرية بفلتر أبيض ، وضهرى الذى لا يدخن على وجه الإطلاق .

يفضل وحيد القهوة بالبن الغامق المحوج الذى يشتريه من باب اللوق ، ولا يرضى عن بن هذا المحل الشهير بديلا . كان قد تعرف على هذا المحل من خلال أمه التى كانت ترسل خصيصا فى طلبه . تعود أيام شغله القديم أن يرسل من يشتريه له . بعد رحيل أمه ، أصبح يرضى ببن السوبرماركت . يحمل اسم نفس المحل ، لكنه لا يحمل النكهة المخصوصة التى يريدها . الآن كل تنقلاته فى حياته الجديدة تتم سيرا على الأقدام ، إلا فيما يخص البن . لم يكن لديه الدافع النفسى لإخراج واستعمال سيارة أمه الأثرية ، فورد ١٩٤٩ ، التى تكبر وحيد بست سنوات . لا يزال الجراج يحتفظ بها فى حالة جيدة ، وجاهزة للانطلاق فى أية لحظة ، أو هكذا يؤكدون له دوما . معنوياته الضعيفة كانت تستسهل له طلب تاكسى هاتفيا والذهاب والعودة به لباب اللوق لإحضار البن ، وأيضا كفرصة للفرجة على الشوارع والناس ولوحات الإعلانات .

دعا الجميع فى رمسيس إلى البن فأعجبوا به ، وأصبحوا راغبين فى شربه بانتظام ، بدلا من البن الذى يأتى به نصر الله من السوبرماركت . ضهرى واسع الحيلة تطوع بأن يجعل أحد عمال مزرعة المانجو يأتى به ، لكل منهم حسب طلبه : ' هو قريب لأحد جيراننا . يسكن فى عابدين ويأتينا بالباص النهرى كل صباح ' . كان اقتراحا أخرقا لأنه حين علم فى المساء التالى أن هذا الشاب جاء للشغل فى منتصف النهار متذرعا بالبن ، اضطر لتعنيفه بشده ، وكاد أن يفصله . نصر الله مقيم بالشركة ولا يصلح للمهمة . الكل يتحرج من أن يطلب من وحيد أن يشترى له . هنا تطوع نبيل بأن يشترى البن بنفسه لكل من يريد ، بمن فيهم وحيد نفسه . أنا بأحب البن ده ، وعندى وقت كتير وبأسلى نفسى . وما عنديش مانع أشترى لكم معايا . أيضا لدى بعض الأفكار المفيدة لمن يريد . من الممكن شراء كمية أكبر نسبيا ، نصف كيلو أو حتى كيلو ، ويمكنكم الاحتفاظ بها فى الفريزر ولو لشهور لو شئتم . هذا ما أفعله أنا شخصيا لأن استهلاكى قليل ولا يزيد عن فنجال واحد يوميا فى الصباح الباكر قبل نزولى إلى هنا .

يمتلك نبيل عددا من أسهم شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير ، هذه التى يفرح دوما بالحديث عن تاريخها منذ تأسيس البارون إمبان لها ، وعن ماضى مصر الجديدة ككل . جزء من هذه الأسهم كانت قد أهدته إياها زوجته ، ولا يزال يحتفظ بها كصكوك ورقية لم يتقدم بها للحفظ المركزى الإليكترونى المعمول به ، وبالطبع لا يتداولها إطلاقا . فجأة ذات يوم يخرج إدوارد بسرعة من مكتبه ويصيح وكأنه يشهد العملاء على أن قد أعذر من أنذر ، وأن ذمته قد باتت بريئة : ' يا مستر نبيل ، إحنا عاوزين الصكوك الورقية بتاع شركة مصر الجديدة . ها تندمج فى شركات الشبكجى ، ولازم ندخل أسهمك حفظ مركزى وإما ها تضيع عليك . بعد شهر أو شهرين بالكتير موش ها يبقى لهم قيمة بالمرة ! ' .

رغم أن كل الحاضرين أيدوا إدوارد فيما فعل ، وراحوا يستحثون نبيل على الإسراع فى إحضار الأسهم : ' السهم ده ها يولع يا مستر نوبل ! ' ، ' ها يسموها مصر الشديدة يا عم نبيل ! ' ، ' لأ ، ها يسموها السعودية الجديدة ' ، إلا أنه ما كان من المفروض من إدوارد أن يفعل ما فعل . كانت لهجته قاسية ومفاجئة ، بحيث أدمعت عينا نبيل ، وقال بصوت منكسر : ' حاضر ' ، لكنه فى الحقيقة لم يأت بها أبدا !

تداول ، حجز ، مقاصة ، تسوية ، حفظ ، إيه التعقيد ده ؟ !

سماء طبيبة أمراض النساء والتوليد ، أرملة بيضاء جميلة ذات شعر قصير بنى فاتح ، رشيقة ، لا ترتدى سوى تايرات البيزنس وكأنها موظفة فى شركة أجنبية . تنورة قصيرة تكشف الركبة وما فوقها بقليل ، وجاكيت طويل لا يكشف من التنورة أكثر من عرض قبضة اليد . تختار دوما ألوانا إما أن تحلق فى اللون السماوى أو تحوم حوله ، فهى تريد أن تجعل من اسمها الإثيرى جزءا من شخصيتها . فقط ياقة الجاكيت وأسوار أكمامه التى تطول شتاء وتقصر صيفا ، هى التى تأتى بالتنويعات اللونية التى تضفى حيوية وجاذبية على ملبسها الأميل للكلاسية والنمطية . تركت كل الوظائف رغم أنها تأتيها بالزبائن وبالخبرة ، واكتفت بعيادتها الصغيرة الأنيقة ، تقدم فيها كل خدمة تقوى عليها وفى صدارتها بطبيعة الحال التوليد ، وترفض إجراء ما لا تثق فيه من عمليات جراحية . تأتى فى موعد بداية الجلسة بالضبط لتجلس فقط مع إدوارد تتابع الأسعار من خلال الشاشة الموجودة على مكتبه ، وتنصرف بمجرد انتهاء الجلسة ، وليس من عادتها مخالطة بقية العملاء كثيرا ، رغم تعرفها عليهم جميعا من خلال ترددهم لسبب أو لآخر على مكتب إدوارد .

علاقتها لا بأس بها مع الجميع ، ربما باستثناء روميو . لم ترتح كثيرا لكلامه المعسول المتودد الزائد عن المعتاد ، وتحول هذا لنفور حين فاجأها بالقول : ' أنتى التخصص إللى أنا محتاج له ! ' . الحقيقة هو لم يقاوم نفسه بخصوص الدعابة ، لكن الواقع أنه كان يريدها كامرأة وليس كطبيبة . فهم الكل أنه غازلها فصدته . والحقيقة أنه لو فعل هذا لنفرت أيضا . لم تر الشق الرومانسى فى شخصية روميو ، أو أساء هو تقديم نفسه ، أو لم يكنا ليتفاهما على أية حال . هذا أو ذاك لم يحدث بسبب تقزز أو نفور جسدى من جانبها تجاهه . حدث تحديدا لأسباب أفلاطونية للغاية . هى تشمئز من كل من ينظر لها أو لنفسه -ولو جزئيا- على أنه جسد . هكذا الأمر بالنسبة لها ، لا أكثر !

ليس هناك سبب محدد لجلوسها الدائم مع إدوارد . لعل كل الأمر جاء بالصدفة . فى العادة يقضى كل العملاء الجدد أيامهم الأولى فى ضيافة إدوارد فى مكتبه . يجعلهم يوقعون على العقود ، ثم يشرح لهم أوليات البورصة وآليات الشغل فى شركة السمسرة ، ويقترح عليهم أسهما للشراء ، ثم بعد ذلك يدعهم يخرجون لمعمعة القاعة الخارجية . فى اليوم الذى جاءت فيه سماء لأول مرة ، وبعد دقائق من جلوسها ، فوجئت بإدوارد يسقط من كرسيه مغشيا عليه ومرتطما بالأرض . جاء الجميع ، وبسرعة سألت عن تاريخه الصحى ، فأجاب مينا بأنه مصاب بداء السكرى . أمرت له

بماء محلى بالسكر ، كما أرسلت نصر الله لإحضار بعض الأدوية ، وعلبة شوكولاتا قالت إنها لا يجب أن تفارق المكتب . إذ كما أضافت فإن تناول الإنسولين يحرق السكر ، ونقص السكر يسبب غيبوبة قد تؤدى لموت الدماغ فى دقائق . كل هذه معلومات بديهية يعرفها كل مرضى السكرى ويحرصون على الالتزام بها ، من ثم راحت هى تبحث عن شىء غامض وراء الأمر . عرفت أن إدوارد على خلاف مع زوجته ، وأنهما يسعيان لطلاق ترفضه الكنيسة ، وأنه ترك شقته الفاخرة نسبيا فى عمارت أغا خان لها ، وانتقل إلى بيت أبيه القديم ، وإن الضخم ، بمجرد رحيل هذا الأب . كى يعيش مع أمه ومع مينا . إدركت سماء أن إهماله فى صحته يعبر عن نوع من اليأس المتعمد ، ومن ساعتها أصبح المكتب مقرها الدائم .

تسأل إدوارد : ' إيه حكاية الصكوك دى ؟ ' .

– تاريخيا كانت الأسهم عبارة عن صكوك ورقية تصدرها الشركات لدى تأسيسها ، أو لدى زيادة رأسمالها . أحيانا تصدر الصكوك اسميه ، بمعنى أن بها خانة تحدد صاحب السهم ، وأحيانا أخرى ، وهى الغالبة بالذات بين صغار المساهمين ، يكون السهم ' لحامله ' ، أى بدون تحديد اسم . مع تطور البورصة فى السنوات العشر الأخيرة تحولت للحفظ المركزى -أى مجرد سجلات إليكترونية فى البنوك تدل على الملكية ، مع ذلك لا تزال بعض الصكوك فى أيدى الأفراد .

ويريها الصحيفة اليومية ويشرح لها ما تقوله نشرة نقل ملكية الشركة ، وأنها -أى الأسهم- لا بد وأن تسلم للحفظ المركزى ؛ أى أن تسجل فى الكمبيوتر ، وإلا اعتبرت معدومة وليس لصاحبها الحق فى المطالبة بها ؛ كل الناس سلمت الصكوك من سنين وهو موش عاوز .

– تفتكر ليه ؟

– دى قصة شخصية ما أعرفهاش . لى أسبوعين بألح عليه ، وإجراءات الاندماج اتحددت خلاص فى شهر مارس من السنة الجديدة ٢٠١٠ ، بعدها ها يبقوا حتة ورقة فى إيده . اسأليه أنتى لو تحبى .

ثم يدلف لسرد الكثير من التفاصيل عن تطور البورصة منذ عودتها للنشاط فى ١٩٩٥ . والتطور التدريجى لدور لتحولها للأتمتة الحاسوبية الكاملة ، وسهولة حجز الأسهم للبيع ، وسرعة التسوية المالية لعمليات البيع والشراء . وتطور خدمات المعلومات اللحظية التى تتيح التعرف على الأسعار والعروض والطلبات فى نفس اللحظة من أى مكان . وكذا مثلها التداول عبر الإنترنيت .

– تداول ، حجز ، مقاصة ، تسوية ، حفظ ، إيه التعقيد ده ؟ ! كنت فاهمة أن كل حاجة بتتم فى خطوة واحدة فى مكان واحد هو كمبيوتر البورصة .

– محتمل إللى بتقوليه يحصل قريبا جدا . البورصة خلاص بقت شركة تجارية عادية تسعى للربح زى كل بورصات العالم . لغاية دلوقت كانت شركة شبه حكومية وظيفتها التداول فقط . ما تنسيش أن التعقيد أصله النظام القديم . كل الأمور تمت بالتدريج لمجرد تحويل النظام الورقى القديم القائم فعلا ، لنظام إليكترونى ، موش لإنشاء نظام جديد .

ويضحك مضيفا : ' أنا عارف أن مستر نبيل ها يغرقك بمعلومات قديمة عن البورصة كانت إيه قبل عبمعصورة . ما نقدرش نقول عاشها ، إنما هو مهتم جدا يقرأ فى التاريخ ، وبيسأل أصحابه القدام ، وحاجات زى كده . إنما أنا عندى بعض ذكريات موش قديمة أوى . الكام شهر الأولى لشركاتنا بتاع ١٩٩٥ دى ، إللى رجعت فيهم البورصة بالنظام بتاع زمان . كان اسمها أيام الطباشيرة والسبورة . البورصة لو دخلتيها كانت عبارة عن إيه ؟ ترابيزة كبيرة حواليها أصحاب شركات السمسرة ، عددهم حوالى ٤ ، ٦ ، موش أكتر . كل واحد يأتى بما عنده من أوامر العملاء ، ويدخلون الأوامر من خلال التملية للكتابة على السبورة . إللى يعجبه عرض أو طلب مكتوب يرفع إيده ، وتتنفذ الصفقة ويتمسح من على السبورة . وكان عامل التليفون ، برضه بزى وشارة ورخصة ، يدخل يبلغهم الأوامر الجديدة إللى جاية من عملائهم . أما المقاصة ، فلوس وصكوك ، كانت تتم فى مقاصة البورصة . نفس مبنى البورصة فى شارع الشريفين جنب الإذاعة القديمة ، صالة كبيرة فى البدروم ، يجتمع فيها السماسرة يسووا حساباتهم ، يستلموا التشيكات ، وفى مقابلها يسلموا الصكوك . ولازم الصكوك زى الفلوس بالظبط ، بالذات إللى اسمها لحامله . لازم السمسار يفحصها واحد واحد ؛ جايز يكون فيه مثلا صك مزور ، لأن هو ده النظام ، سلم استلم وقع بالاستلام ، وانتهى الأمر . حتى لو كانت العملية عاوزة عربية لورى للصكوك ، كان لازم السمسار يكون مجهز نفسه . جرس الافتتاح والإغلاق كان جرس فعلا زى بتاع

المدارس . كمان على فكرة كانت شغالة بـ ٣ أجراس موش جرسين . واحد للافتتاح ، وواحد قبل الإغلاق بخمس دقائق ممنوع بعده تسجيل أوامر جديدة ، والتالت للإغلاق نفسه ، يعنى ما فيش تنفيذ خلاص . البورصات فى العالم كله ، مكان للتقاليد الصارمة والعريقة ' .

ويضحك من جديد : ' فى مرة مستر نبيل حكى لى حكاية تهلك من الضحك موش عن بورصتنا دى ، إنما قبل ما تطلع : أسهم قناة السويس إللى باعها الخديوى إسماعيل لإنجلترا فى نوفمبر ١٨٧٥ سدادا لديونه عليها . ١٧٦٦٠٢ سهم حسب ما أنا فاكر العدد ، كذا يوم يعدوا فيهم ، فى الأول اكتشفوا عجز ٤٠ سهما ، وبإعادة العد اكتشفوا غياب سهمين آخرين ، وبإعادة العد اكتشفوا عد مكرر لسهمين . كانت ماساة ، ظبط ٤٤ سهم أخد منهم أكتر من أسبوعين . كمان ممكن يوصف لك شكل صناديق الزنك إللى اتبعتت فيها على المراكب لبنك إنجلترا . وتفاصيل تانى كتير عن البارون روتشايلد إللى مول الصفقة بقرض أعطاه للحكومة البريطانية ، وإزاى بقى فرخة بكشك عند دزرائيللى رئيس الوزرا ، وحاجات زى كده ! ' .



يعنى سبت الفرس ومشيت ورا الغزال ؟

اعتبرت سماء هذا الحديث عتادا لا بأس به سوف يعينها فى مسعاها الغامض مع ذلك النوبل . انتظرت لواحدة من المرات التى يأتى فيها لمكتب إدوارد وتبادره بالأسئلة التى يطرحها كل أحد كل الوقت : ' إزيك يا مستر نبيل ؟ ' ، ' إيه رأيك فى السوق النهارده ؟ ' ، ' تفتكر ها يكمل طلوع بكرة ؟ ' ، ولم تصبر طويلا حتى دخلت للب الموضوع : ' إيه حكاية الصكوك الورقية ؟ ' ، ' أنت لسه عندك صكوك من دى ؟ ' ، ' ممكن أشوفها ؟ ' ، ' أنت ليه موش عاوز تسلمها ؟ ' .

– الحقيقة دى هدية من مراتى ، ومحتفظ بها ذكرى .

– أنا أحب أسمع القصص دى . تسمح لى أتطفل على ذكرياتك شوية ، لو ما كانش يضايقك . الجلسة خلصت . النهارده ها أتغدى فى النادى ، أنت بتتغدى فين ؟

– فيه مطعم جنبنا هنا متعود عليه . غير كده أحيانا أطلب وجبات سريعة ، وأحيانا بأطبخ بنفسى .

– بتطبخ إيه ؟

– للفطار بيض مقلى فى زيت زيتون مع طماطم وبصل وكام فص توم ، ومعلقتين فول مدمس ، ومعلقة نبيذ . للغدا لحم بتلو مع بصل وتوم وفلفل أخضر وأسود وبرضه نقطتين زيت زيتون ، ولما تستوى أحط عصير طماطم وكيس خضار مشكل مجمد عليها . كله بى فى بى زى ما بيقولوا . أنا مبدأى فى الطعام (وربما فى الحياة كلها) ، أن القليل من كل شىء يعطيك فوائد كل شىء ، ومضار لا شىء !

– هو ده أكلك كل يوم ؟

– موش كل يوم ، زى ما قلت لحضرتك فيه المطعم وفيه الديليڤرى .

– أول مرة أسمع عن حاجات زى دى . بسيطة وشكلها صحية جدا ، بعبارة تانى بتاعة عزاب . لازم تدوقهانى مرة .

– خلاص ، بكرة تيجى من غير فطار ، أو ها أجيب لك سندوتشات معاى ، أنا بآجى تسعة ونص ، وبأقعد فى البلكونة لغاية الجلسة ، لو جيتى فى الوقت ده تلاقيها سخنة ، أو لو عاوزانى أعملها متأخر أنا مستعد .

– لأ ، خلاص ! تسعة ونص ، وأتفرج معاك ع البارون ، أنا عارفة حكايتك مع البلكونة . إنما النهارده تعال جرب معايا أكل النادى . تحب تتمشى ؟

الطريق من شركة رمسيس حتى نادى هليوپوليس لا يستغرق دقائق ، وهو تقريبا مجرد أحد أضلاع قصر الرئاسة . خلاله واصلا الحديث : أنتى طبيبة نفسية ؟

– ليه بتقول كده ؟

– (مبتسما :) جايز طريقتك فى الكلام .

– (تبتسم وقد فهمت قصده :) لأ ، ما تخافش ، أنت موش محتاج طبيب نفسى . أنت إللى تنفع طبيب نفسى تداوى ناس كتير . إللى زيك ناس نادرة يا مستر نبيل . وبعدين أنا تخصصى بعيد خالص ، أمراض نساء وتوليد . أنا حقيقى بأحب أسمع القصص الإنسانية الجميلة إللى زى قصتك ، موش أكتر ولا أقل . أنا كمان فقدت زوجى . كان طيار ، ومات فى الحادثة بتاع تونس . وأنا مستقيلة من الحكومة ومكتفية بالعيادة . بيقولوا شغل المستشفيات ضرورى علشان إيدك تفضل شاطرة فى العمليات ، وكمان بتجيب زباين . أنا كل ده موش مهم عندى . الجو فى المستشفيات -بالذات لما كانت حكومية- موش حلو ، وما قدرتش استحمله ، وبدل ما أعتزل خالص اكتفيت بالعيادة . برضه بأعمل عمليات ، بس إللى بأخاف منها بأسيبها ؛ مثلا الأورام أو استئصال الرحم ما ليش فيها . وفى الصبح أدينى بأسلى نفسى بالأسهم . وبالليل أوى أشوف فيلم كوميدى أو رومانسى ، حاجة لطيفة كده ، وأنام . إيه بقى حكاية الصكوك ؟

– هدية من مراتى ، الله يرحمها . كان عيد جوازنا الأربعين ، وجابتهم لى هدية .

– اتعرفت بيها إزاى ؟

– سنة ١٩٥٥ . كنت فى الأسكندرية بأصيف . كنت فى السلسلة أيام ما كانت مفتوحة . كنت راكب عجلة بالإيجار . وشفت بنت طليانية طويلة وشعرها طويل أسود ، وفضلت متابعها بعينى لورا لغاية ما لقيت نفسى خبطت فى عجلة هيلين .

– هيلين ؟

– قصيرة وشعرها أصفر قصير ووجهها جميل اتسمرت قدامه .

– يعنى سبت الفرس ومشيت ورا الغزال ؟

– إيه يا دكتورة ؟ ما كنتش أعرف أنك بتستخدمى كلام زى ده ؟

– غزال ؟ عصفورة ؟ فراشة ؟ حسيت بإيه بالظبط ؟

– ملاك ! شفت قدامى ملاك ! المهم شفتها الفوقانية اتفتحت ونزلت دم . رفعتها من ع الأرض ، وأخدتها لمستوصف قريب . ووصلتها لبيتها ، وعرفت أنها يونانية . أنا برضه من أصل يونانى . اتقابلنا تانى وحبينا بعض ، وكنت أزورها كل سبت وأحد لغاية ما اتجوزنا بعد كام شهر ، فى يناير . جت القاهرة ، وفتحت جاليرى للزهور المجففة . خلفنا ولد وبنت ، مهاجرين ومستقرين . هى صحتها ما كانتش قد كده . بعدين عرفنا أن عندها روماتيزم فى القلب .

– أيوه ، ما كانش بيتكشف بدرى زى دلوقت .

– هى كمان كانت بتتعب نفسها فى الشغل ، وفى البيت . حتى لما طلعت أنا على المعاش ما رضيتش تقعد . طبعها كده ، وتقول أى قرش ينفع الأولاد . بصراحة كانت عايشة لغيرها بكل معنى الكلمة . بعد ٤ شهور كان ها نحتفل بعيد ميلادها الستين ، لكن لما تعبت ما كملتش .

– اشترت لى الصكوك قبل موتها بكام أسبوع . (تغرورق عيناه بالدموع :) كنت مستنى عيد ميلادها علشان أرد لها الهدية . (يصمت ثم يمسح عينيه :) آدى القصة .

– وآدى الأكل (مشيرة لخادم النادى وهو يضعه) !



تعتبرى قصة البورصة دى قصة سعيدة ، ولا قصة حزينة ؟

قصة البورصة فى مصر قديمة للغاية ، بل هى بالتأكيد الأقدم فى المنطقة . ترجع جذور بورصة الأسكندرية إلى عام ١٨٨٥ ، وفى قول البعض ١٨٨٣ ، حسبما أمكن رصد تاريخ أول صفقة تصدير قطن ، على مقهى أوروبا بميدان القناصلة (مُحَّد على لاحقا) . بهذا المعنى كانت بورصة للمستقبليات futures ، أى بيع المحاصيل وهى بعد فى الأرض ، نفس حال بورصات البترول مثلا اليوم . فى ١٨٨٩ انتقل هؤلاء التجار -وأغلبهم يهود أو مستوطنين أوروبيين- لمبنى جديد مهيب مستقل يطل على ذات الميدان ، مبنى اسمه ' البورصة ' ، سرعان ما أصبح أحد معالم الأسكندرية الكبيرة محل التباهى ومحط الإعجاب .

أما بورصة القاهرة فقد أنشئت فى عام ١٩٠٣ . كان الاقتصاد فى ذروته . كان عدد الشركات ذات المسئولية المحدودة قد بلغ ٧٩ شركة برأسمال بلغ ٢٩ مليون جنيها ، وبات من الصعب -لا سيما للأجانب القادمين بهدف الاستثمار والمشاركة وعقد الصفقات- أن يجروا صفقاتهم على هذا المقهى أو فى ذاك الفندق طوال الوقت . راعى فكرة البورصة القاهرية وصاحب فكرتها كان رجل المال المتنفذ موريس -أو موسى- قطانى . كان أيضا يهوديا . أراد أن يخلق نموذجا موازيا لبورصة القطن السكندرية الناجحة ، لكن للشركات التجارية والصناعية المتنامية عبر البلاد .

يحب المؤرخون تحديد يوم ٢١ مايو من تلك السنة تاريخا لميلاد لبورصة القاهرة . فى ذلك اليوم اجتمعت لجنة البورصة تحت الإنشاء ، Bourse and Banking Company of Egypt Limited ، أو بورصة القاهرة الخديوية حسب التسمية الدارجة بعد قليل . اجتمعت برئاسة قطانى واختارت أول مقر لها ، البنك العثمانى بشارع المغربى (جروبى شارع عدلى حاليا) . كان مقرا مؤقتا بعقد إيجار مدته ست سنوات . وشرعوا قبل انتهائه بعامين فى خطوات بناء مقر دائم فى ذات الحى ' الإسماعيلى ' ؛ أى ما يسمى حاليا بوسط المدينة ، باعتبار أنها كلها عمرت على يد الخديوى إسماعيل ، أو فى حال تضييق المصطلح ، الجزء التابع منه الآن لحى قصر النيل ، نسبة بالأخص لميدان الإسماعيلية ، الذى بدروه نزعت عنه الحقبة الناصرية اسم الرجل وفضله ، وأسمته ميدان التحرير . لم يكونوا ليرضون بمنشأة أقل من أن تجاور أهم منشأة مالية فى البلاد ، البنك الأهلى المصرى ، التى كان مقرها تقاطع شارعى شريف وقصر النيل الحاليين ، المبنى الذى انتزع هو أيضا وأصبح البنك المركزى المصرى فى الستينيات الناصرية .

لم تأت الرياح بما تشتهى السفن . مصر كانت ' السوق البازغة ' الأهم فى العالم كله . وللأسواق البازغة مخاطرها ، والسبب فيها عادة هو الإفراط فى التفاؤل . آنذاك -فى ١٩٠٧- كان عدد الشركات المسجلة فى بورصتى الأسكندرية والقاهرة مجتمعتين ، ٢٢٨ شركة برأسمال ٩١ مليون جنيها ، يقوم على تقديم الخدمات لهما ٧٣ سمسارا ، وكانت تحتل المرتبة الخامسة عالميا (لاحقا ارتقت للمرتبة الرابعة بسبب الحربين العالميتين اللتين ضربتا أوروبا والعالم) . كان الكل مذهولا لرؤية سهم بنك الأراضى يرتفع من ٥ إلى ٨٠٠ جنيها فى غضون ثلاث سنوات فقط من تأسيسه فى ١٩٠٢ . لكن الطفرة المعمارية والاستثمارية لسنوات القرن الأولى كانت أضخم من التوقعات الواقعية . والاندفاع للاستثمار بأكبر من طاقة السوق الفعلية ، يخلق فقاعة تؤدى للانهيار . يتفق كثير من المحللين أن ' المعجزة ' المصرية هى التى بثت تفاؤلا كبيرا فى العالم كله . وبنفس القدر يدفع بعضهم أن بدوره كان انهيار بنك كازا دو سكونتو بالأسكندرية فى يوليو ١٩٠٧ هو الشرارة الحقيقية ، أو القشة التى قصمت ظهر البعير ، فانطلق منها تساقط ورقات الدومينو عبر العالم ، إلى اليابان فألمانيا فتشيلى فبقية أسواق أوروبا ، فالولايات المتحدة نفسها ، فيما سمى فى وول ستريت بانهيار أكتوبر ١٩٠٧ الكبير ، الشهر الأكثر دراماتية فى دورة الهبوط ، هذه التى تواصلت حتى يونيو التالى .

أفلست البورصة الخديوية وصفيت ، لكن قطانى ظل متمسكا بحلمه . وفى أكتوبر ١٩٠٨ ومع تعافى البورصات العالمية ، أسس مع شركاء جدد بورصة جديدة ، وشرع فى بناء مبنى جديد ، هو ما عرف فى حينه بالبورصة الجديدة ، ولا يزال يحمل الشارع هذا الاسم ، لكنها فى عرف الناس اليوم تسمى بالبورصة القديمة . مبنى رائع الزخارف مواجه للقنصلية الفرنسية ، تداول على ملكيته لاحقا بنك اللويدز ، والغرفة التجارية البريطانية ، والبنك الأهلى المصرى ، وأخيرا البنك الوطنى للتنمية . من الداخل أرضية واسعة للتداول ، وشرفة للجمهور ، كل شىء يجعلها بورصة الأحلام عالمية المستوى التى طالما تمناها صاحبها . لكن سوء الحظ كان بالمرصاد مرة أخرى . ما أن دشن التداول فى صباح الجمعة الثلاثين من أبريل ١٩٠٩ ، حتى هبط كالصاعقة على الحاضرين وسط أجوائهم الاحتفالية ، خبر موت أكبر اقتصادى وصناعى فى البلد ، رافائيل سوارس ، رائد كامل البناء الرأسمالى فى مصر ، أحد الشركاء المؤسسين الرئيسين للبنك الأهلى المصرى ، ونصير وأصل توطين فكرة الاقتصاد الحر رقم واحد تاريخيا وحجما فى أرض النيل . وبالنسبة للبورصة ' الجديدة ' كان هو راعيها الأكبر ، وصمام نجاحها الموعود ، بعد الضربة العنيفة التى سبق وأطاحت بها .

على أن بورصة مصر سارت من نجاح إلى نجاح لعقدين تاليين ؛ ولأن الأحلام الكبيرة لا تموت أبدا ، يحدث فى سنة ١٩٢٨ ، بعد ٤ سنوات من رحيل موسى قطانى -أبو بورصة القاهرة- أن يتم اختيار منزل أسرته ، قصر قطانى الذى كان فى وقت ما يغطى مساحة هائلة تمتد لكل المسافة من البنك الأهلى لميدان سليمان باشا ، كى يصبح البورصة الحالية ، أو مجازا ما يمكن تسميته بالبورصة الحالية ، بعد انتقالها عمليا للقرية النابهة (الذكية فى الترجمة العربية الخاطئة) ، بمدينة السادات ، منذ ٢٠٠٧ .

– وطبعا يا مستر نبيل ، جاءت ضربة الكساد العظيم للثلاثينيات ، ثم الكساد الأعظم لمصر الاشتراكية ، مصر العظيمة ، مصر العزيمة ، مصر الهزيمة ، مصر عبمعصورة ، وعمليا لم يعد للبورصة منذ ذلك الحين وظيفة أكثر من تجارة القطن القديمة جدا . الجزء ده أنا عارفاه !

– مظبوط يا دكتورة . شكرا على الأكل الجميل . تعتبرى قصة البورصة دى قصة سعيدة ، ولا قصة حزينة ؟

– أعتبرها قصة حب !



ها تبقى أول مسيحى يتجوز مسلمة فى مصر

بمرور الأيام لاحظ إدوارد توطد العلاقة بين نبيل وسماء ، وأنه أصبح يقضى معظم الوقت فى مكتبه هو حيث سماء موجودة طوال الوقت . انتهز فرصة ذات صباح باكر قبل أن تأتى سماء وراح يداعبه : ' إيه يا عجوز أنت ، إيه الكراڤات البمبى ده ؟ أنت الوحيد إللى اتعزم على نادى هليوپوليس . شكلك ناوى على حاجة ؟ فيه أخبار حلوة قريب ؟ ' .

– أخبار إيه ؟ أنا بتاع كلام من ده . ثم ما ينفعش أصلا .

– لأ ، ينفع . بيقولوا ها يلغوا خانة الدين من البطاقة ، وها تبقى أول مسيحى يتجوز مسلمة فى مصر ، وآدى عندنا هنا صحفيين كبار ، وها نخليك مشهور .

– صحفيين ؟ ده أنا أخاف لو جه اسمى فى الجورنال . دى صداقة جميلة . سماء ست لطيفة وجواها إنسانة كبيرة والكلام معاها بيريح .

– وهو الحب إيه غيركده ؟ حصل ؟ صح ؟

أما روميو وونس فكانا يتضاحكان فى ذات الوقت : ' عارف إيه السبب أن المسيحى ما ينفعش يتجوز مسلمة ؟ ' ، ' علشان دين الإسلام هو الأعلى ' ، ' طب افرض كتبوا فى العقد أن الست تركب فوق على طول ؟ ! ' .



نزلة القياجرا

جاء صوت رمانة من الطرف الآخر للهاتف ، وهى تنتحب : ' أستاذ وحيد ، موش ها أقدر آجى ! ' ، ' فيه إيه ؟ ! ' ، ' ما فيش ! موضوع شخصى . إنما أنا بطلت شغل خلاص ' . تلح على عدم الكلام ، ويلح هو على معرفة الأمر : ' إدينى حد أكلمه ! ' . لا يأخذ أجوبة شافية ، لكن يأخذ العنوان ، إمبابة . ينزل للجراج المجاور . يطلب لأول مرة منذ سنوات طويلة سيارة الفورد ١٩٤٩ ، التى كانت تستخدمها أمه ولم يستخدمها هو أبدا . يضعون بها چركنا من البنزين ، ويؤكدون له إنها -كما دائما أبدا- جاهزة تماما للسير . بدا كمن يسوق سيارة لأول مرة ، لكن سرعان ما اعتادها . سأل كثيرا حتى وصل للعنوان فى المنطقة المسماة بنزلة القياجرا . فى مصر لا أحد يقول لك لا أعرف . يعتقدون أن من النذالة أن لا تجيب السائل ، ولو بالإفتاء بما لا تعلم .

إيه الحكاية ؟ تمد رمانة يديها ، ولا تزال آثار الاحمرار بادية فى عينيها . مفاصل أصابع يديها متورمة جميعا ، بحيث بدا شكل اليدين مخيفا ، سلاميات نحيلة تفصلها عقل كروية متضخمة . الدكتور فى المستوصف إللى جنبنا قال لى روماتويد . دخول الشتاء ومن ثم برودة الماء هى السبب . ما فيش علاج . تحملى حتى يمضى فصل الشتاء ، وستعود لحالتها الطبيعية من جديد . فقط حاولى تدفئة يديك حتى يقل الألم ، وابتعدى تماما عن الماء البارد .

– طب والدكتورة إللى مشغلاكى قالت إيه ؟

– الست بتاعة الصلاة والصوم دى إللى خدمتها طول عمرى ، قالت لى إنها لازم تجيب واحدة تانية . هزت كفوف إيديها قدام وشها زى المروحة ، ولوت شفتها وقالت بأنزحة وهى بتتنفض زى ما تكون لدغتها عقربة : ' ما أقدرش أبدا أبدا استغنى يوم واحد عن الشغالة . أنتى عارفة ! ' . إدتنى ١٠٠ جنيه وقالت لى ربنا يتولانا جميعا !

أقسم لأتركن شقة هذه الشمطاء فى أقرب فرصة ، أو لأشتريها كى أخلص من رؤية سحنتها المنتفخة وكلامها المصطنع . نعم ، سأفعل هذا حين تأتينى فى المرة التالية ، وإن لم توافق سأنتقل فورا !

تنتحب رمانة : ‘ ما عدش لى لازمة فى الدنيا يا أستاذ وحيد . ما فيش غير أنى أدخل كريم ملجأ ، وأدور لى على معاش آكل منه ، أو أروح أموت نفسى ! ’ ، وجاراتها المحيطات بها يطبطن عليها ، ويحاولن تعزيتها . ‘ ممكن تقومى معاى ؟ ها نروح لدكتور تانى ! ’ .

حين تركب السيارة يقول لها : ‘ أنا لى شرط واحد : إياكى تقولى كلمة ‘ ما عدش لى لازمة ’ دى تانى . أنتى ما تعرفيش أى حاجة عن لازمتك إيه ! ’ .



٣
كيوپيد



تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد

رغم دخول وحيد لحقل الإنتاج السينمائى لفترة ، إلا أنه لا يعتبر بحال من هواة قراءة الأدب . يقرأه عندما يكون مقررا عليه بالمدرسة ، أو أحيانا يقرأه عندما تصبح رواية بعينها حديث كل الناس ، كأجاثا كريستى فى فترة الطفولة ، وكالأب الروحى مثلا فى مطلع السبعينيات ، ذلك كى لا يشعر بالعزلة والتخلف عن كل من حوله . بالنسبة للأدب العربى هو أكثر عزوفا ، بحكم نشأته وثقافته العلمية واهتماماته الفلسفية . كان يقول بإمكانى قراءة كتاب فلسفة أو علوم كامل ، فى نفس وقت قراءة رواية تتحدث عن بشر عاديين . حتى رواية ' النبى ' لخليل جبران لم يقرأها أبدا ، رغم ما يعلمه عن شهرة كاسحة لها فى الغرب ، ورغم أنها كتاب فلسفة فى نظر البعض . ' ميرامار ' لنجيب محفوظ كانت أحد الاستثناءات المبكرة . أتت له بها أمه ، وألحت عليه وكلها حماس محتفل لقراءتها ، قائلة هذه ستعرفك بما وصل له حال مصر الآن تحت حكم عصابة العسكر . لم يهتم وحيد ابن الحادية عشرة كثيرا برأى نجيب محفوظ فى عصابة العسكر ، لكنه توقف طويلا عند شىء آخر .

قبل أسابيع قليلة فى نفس عام ١٩٦٦ هذا ، كان فيلم ' رجل وامرأة ' قد زرع فيه لأول مرة حب الجو العاصف ، ليحل محل رعب الطفولة الأصغر منه فى شواطئ بيروت الصقيعية . بالنسبة له كما للملايين عبر العالم ، أصبحت شواطئ أوروبا ، وبالأخص دوفيل التى دارت فيها قصة الحب العنيفة للفيلم ، حلما سياحيا عالميا ، كذلك فتحت حواس وحيد على النفور من المناطق الحارة والشعور بالبؤس نحو سكانها وتخلفهم . لكن نجيب محفوظ أعطاه أبعادا لم تخطر بباله قط حين كتب فى روايته السكندرية هذه يقول : ' يعجبنى جو الأسكندرية ... لا فى صفائه وإشعاعاته الذهبية الدافئة ... ولكن فى غضباته الموسمية ... عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم ... ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب ... ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب . عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل ... وتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون ... ويدوى عزيفها فى الآفاق ... ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق ... ويجعجع الرعد حاملا نشوات فاترة من عالم

مجهول ... وتندلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب ... وينهل المطر فى هوس فيضم الأرض والسماء فى عناق ندى ... عند ذاك تختلط عناصر الكون وتموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد (...) شىء حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى ... وتخط طريقا ما زال غامض الهدف ... أو تضرب موعدا فى غمغمة لم تفهم بعد ' .

توقف وحيد الطفل ساعتها عن القراءة -قراءة أى شىء- لأيام . ومن حينها -ورغم أنه وضع لاحقا نظرية فحواها أن هذه الرواية لم تتنبأ فقط بهزيمة ١٩٦٧ إنما بغزو أميركا للعراق بعد عقود و' حكمها إيانا بواسطة يمينيين معقولين ' ، إلا أنه ظل يعود من حين لآخر ، فقط لزيارة صفحتى ١٨٨ و١٨٩ من روايته المفضلة حيث نحتت الجديلة الحريرية لعلامة [بتشديد اللام] الكتب حفرية غائرة فى كلتيهما . تتجسد أمامه صورة مبانى الأسكندرية وآثارها ، ويحاول تخيل كيف أنها كان يوما عاصمة للعالم ، سياسيا وثقافيا وكل شىء ، وكيف أنه لا يوجد فى مصر كلها شىء أجمل من شتاء الأسكندرية ، ويشرد طويلا مجددا فى صفحتى الرواية ، وما هو بخبير فى الأدب أو الشعر ، وما أراد يوما أن يكون ؛ يقول : ' فقط يكفينى منهما هذه الآيات المرعبة ! ' .

شىء أكثر من مذهل ، أكثر حتى من فلسفى أو وجودى ، وصف كونى ، وصل الحد بهذا الكاتب الجبار لتخيل أنها ولادة كونية . وصف يذكرنى فى كل مرة بذلك البرطمان الأسطورى الذى خلقوا فيه لأول مرة الأحماض الأمينية -الوحدات البنائية للبروتين- من مواد أولية جدا فى منتصف الخمسينيات . برطمان مكوناته الماء ، ثانى أكسيد الكربون ، الميثان ، الأمونيا ، بالإضافة لأشعة فوق بنفسجية تحاكى الشمس ، وشرر يحاكى البرق ، وحرارة تحاكى دفء أحواض البراكين ، معا كانت التركيبة المثالية لأكثر الأشياء نمطية وتوافرا فى كوكب الأرض قبل بلايين السنين . يا لها من محنة جزيئية مروعة التى مرت بها مكونات هذا البرطمان حتى ولدت هذا الفتح العلمى الزلزال ، الحساء الذى قعقع الآلهة فى عروشها البعيدة مدعيا نيابة عنها أنها ليست صاحبة معجزة الخلق المزعومة . فعلا يكاد محفوظ -لولا ربما حرج أن تذكر أنه يكتب أدبا لعموم الناس لا علما للخاصة- يكاد يقول إنها حالة سديمية تصبح فيها كل الجسيمات بلازما منصهرة تنبئ بقدوم ' الانفجار الكبير ' . شىء واحد لم يعجبنى فيها هو الإتيان على ذكر الخطباء فى مثل هذا السياق الفلسفى الما ورائى البركانى المحلق ، سواء خطباء الدين أو خطباء السياسة ، من -سواء بسواء- نفرتنى منهم أمى . سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !



لو كان للإنسان حقوق أصلا ، فهى لا يجب أن تزيد بشعرة واحدة عن حقوق الكلب !

الحقيقة أن قصة وحيد مع شراسة الطبيعة أقدم حتى من ذلك . ربما بدأت بذلك الولع الغريب بالجلوس بالساعات أمام الغسالة الكهربية ، كان يهوى التطلع من بابها للمحنة التراجيدية التى تمر بها الملابس داخلها من لحظة بدء التشغيل حتى انتهائه . تتطور الغسالات وتختلف أشكالها وتقنياتها ، وعادة وحيد الشاذة لا تتغير أبدا . عندما كبر كان يقول عندما يسأله أحد ، صديق أو خادمة ، عن هذه العادة السادية ، إنها خير ملهم له فى أفكاره ، وأن أفضل تأملات تأتيه أثناء تلك الجلسات الطويلة على أرض حمام المنزل الباردة . إنها أفضل حتى من الشرود عبر الشباك الزجاجى خلال رحلة قطار طويلة مريحة من القاهرة للأقصر وسط خضرة المزارع اللا نهائية طباشيرية الملامح . إن ماكينة الغسيل الكهربية أشبه شىء عرفه بذلك البرطمان مأساوى الظروف ، برطمان الخلق .

كان معجبا بكل من يتحدث عن قسوة آليات التطور ، من داروين وسبنسر ونيتشه حتى چيمس واتسون مكتشف الدى إن إيه ، والذى كان أكثر الجميع -المعاصرين منهم على الأقل- إثارة ، أساسا بسبب زلاقة لسانه فى نقد مفهوم حقوق الإنسان . إذا كان داروين رأى الإنسان قردا ونيتشه رآه دودة ، فإن واتسون -طال عمره- كان ولا يزال يقول إن أمنا الطبيعة لم تعط حقوقا لأحد ، أى أحد ، ويقول إنه لو كان للإنسان حقوق أصلا ، فهى لا يجب أن تزيد بشعرة واحدة عن حقوق الكلب ! ولا يزال يؤكد أن التطور سوف يكتسح عشيرة الإنسان نفسها عما قريب ، وقطعا سوف تنزع عنه قداسته الموهومة التى ادعاها لنفسه .

مثل هذه القراءات والاهتمامات هى التى حسمت ميل وحيد الحازم نحو الاقتصاد مطلق التنافسية ، وبطبيعة الحال كان ' ثروة الأمم ' هو دستوره فى الشأن الاقتصادى ، كما هو دستور الكثيرين من اختصاصيى الاقتصاد ممن جاءوا بعد آدم سميث ومرجعه الكلاسى الكبير هذا .

... من كل هذا وذاك جاء إعجابه الشديد بالدكتور فرغلى .



إن ما تقوم به يا سيادة الرئيس عظيم ،

لكن مصر الآن فى حاجة لمدير لا لزعيم !

لو كان ثمة اسم ثالث يمكن أن يقرن بفريدريك ڤون حايك وبميلتون فريدمان ، فهو الدكتور حسين فرغلى . ذلكما هما المنظران الاقتصاديان اللذان تبناهما ثاتشر وريجان بالترتيب ، وصنعا ثورتهما العظمى بتطبيق أفكارهما . أما البروفيسور فرغلى فقد انفرد بأطروحة فى الثمانينيات تقول بعدم جواز إعمار المناطق المنكوبة . اتركوا الناس تعانى . دعوهم وحدهم يصارعون الطبيعة . الأفضل أن يرحلوا عن تلك المناطق المنكوبة ويبحثون عن مكان آخر . كلام قاس وغير إنسانى لم يجد من يؤيده فى حينه . حين ضرب إعصار كاترينا نيو أورلينز عام ٢٠٠٥ ، طفت أطروحته للسطح من جديد ، واستغلها المعارضون للإنفاق الحكومى السخى على إعادة إعمارها للبرهنة على أن الساسة إنما يبذرون أموال الضرائب ، وأنهم يفعلون هذا لأغراض انتخابية خسيسة ، لا أكثر .

خلال زيارة السادات لأميركا فى عهد الرئيس ريجان طلب مقابلته ، وعرض عليه رئاسة الوزارة فى مصر . فرفض فى لحظة ، قائلا باندفاع رائع : ' إن ما تقوم به يا سيادة الرئيس عظيم ، لكن مصر الآن فى حاجة لمدير لا لزعيم ! ' .

– ستكون أنت ذلك المدير .

لكن القرار كان فيما يبدو محسوما سلفا : ' كلا ، إن مصر ، بما فيه الانفتاح والثورة الخضراء والسلام مع إسرائيل وكل أفكار سيادتكم الرائعة ، ما هى إلا فوضى شاملة ، لا يمكن أن يصلحها لا أنا ولا غيرى ' .

أما ريجان فقد قال للسادات فى اليوم التالى : ' عن نفسى سأخطو أعمق من مشروعى الانتخابى . سأقوم بمجزرة للإنفاق الفيدرالى . لدينا عجز لا لزوم له . نحن لسنا فى حالة حرب مثلا حتى تكون حكومة الولايات المتحدة مدينة . سأطبق الاقتصاد شديد الحرية ، وبعد قليل سأخفض الضرائب أيضا . ماجى بتطبق ڤون حايك ، وإحنا فى أميركا أولى ! ' .

كانا يجلسان ساعتها فى غرفة إدوارد . اقترب اللواء عزمى وكان قد استمع لكل ما قاله وحيد ، وسأله : ' كيف عرفت بما دار بين ريجان والسادات ؟ ' .

– وكيف عرفت أنت ؟

– السادات حكى لى . كنا قاعدين زى أنت وأنا . دكتور فرغلى هو إللى حكى لك . صح ؟

– (لا يجيب إنما مرة أخرى بغريزة الصحفى يرد السؤال بسؤال :) أنت والسادات كاچوال كده قدام بعض على ٢ فوتيى ؟

– أيوه بالظبط . أنت فاكر السادات راح علشان موضوع الدكتور فرغلى ؟ الموضوع الأهم كان خطف القذافى . السادات هو إللى طرح الفكرة على ريجان ، وأنا إللى وضعت الخطة ، وكنا ها نحط عمر المحيشى رئيس لليبيا . لقاء السادات وريجان كان يوم ٦ أغسطس ١٩٨١ ، وفى نفس الأسبوع استدعانى ؛ أعتقد لأنى مخابرات لكن أصلى قوات خاصة . وفهمنى أن كل الكلام يفضل سر حتى عن رؤسائى . بعد كام يوم رحت له بالخطة . درسها واستدعانى تانى ، سألنى فيه احتمال القذافى يتقتل ؟ قلت له ممكن يا فندم ، محدش يضمن ظروف العملية بالظبط ، وطبعا أى رصاصة جايز تطلع كده أو كده . بص لى وقال نأجل الموضوع ده شوية . كنت حاسس أنه جايز يفكر فى حاجة تانى ، أو جايز يكلف حد تانى ، أو جايز يحط احتمال قتل القذافى فى الاعتبار ، أو مثلا يدرسه تانى مع أميركا إللى كانت عاوزة تحاكمه . لكن الأجل جاء له بعد كام أسبوع ولم يتم أى شىء !

– اتكتب كتير عن خطط لاغتيال القذافى ، وأغلبها فيه اسم المحيشى .

– موش دى . كلها كانت لعب عيال . ما حدش كتب عن خطة تنفذها قوة مسلحة مصرية .

ذهل وحيد من أن هذا ' الشاب ' (بينما فى الواقع هو قرب الستين) ، الهادئ الصامت شبه الخجول ، الذى كل ما يعرفه عنه عملاء رمسيس أن اسمه الكابتن عزمى ، الضابط المتقاعد الرياضى الرشيق طويل القامة أسمر البشرة الذى يأتى جريا بتى شيرت قطنى مبلل بالعرق كل صباح وبنظارة شمسية أنيقة لا يخلعها أبدا ، وأنه أحد المستثمرين غريبى الأطوار ممن يفضلون الاستثمار طويل المجرى ، ويفضل شركات السماد ربما بسبب قرابته لأناس بها أو شىء كهذا ، ذهل من أنه شخص يخفى خلفه سرا رهيبا كذلك السر .

– أنت ليه بتقول لى القصة دى ؟

– موش عارف ! احتمال علشان هى سر ما يعرفهوش غير ثلاثة . اتنين ماتوا ، ما فيش ولا كلمة اتحطت على ورق ، ولو مت أنا جايز السر يندفن للأبد .

– بص يا كابتن : أنا برضه عاوز أقول لك حاجة . بس قبل ما أقولها لك أحب أعرفك بشىء عن نفسى ، بما أنك كنت قريب كده من السادات وواضح أنك بتحبه . أنا من الناس القلائل جدا الذين لم يلوموا السادات أو ريجان على استخدام الإسلاميين فى ضرب الشيوعيين . طبعا ما حدث هو كارثة ، وغلطة كبرى ، وكان الأفضل أن يحاربا الشيوعيين مباشرة بنفسيهما ، وليس بالوكالة ؛ أى بواسطة أناس أشرس وأشد تخلفا . وطبعا كما نعلم جميعا دفعا الثمن غاليا .

– ما حدش بيتعلم ببلاش .

– (وقد ازدادت كلماته حدة وسرعة وتنفيسا عن غيظ مكتوم :) فعلا ، أنا عاوز أقول كده . أنا من السهل لى ككاتب ، أن أقول هذه مبادىء ، وأهندس كل شىء على الورق بأروع ما يكون . هذه وظيفتى . لكن ما لم أفعله أبدا هو أن أنسى عمن أتحدث ؟ أنا لا أتحدث عن انتهازى يسارى حقير كبيلل كلينتون الذى حارب مع الأصوليين الإسلاميين كتفا بكتف فى البلقان ، ويا ليتها حتى كانت حربا صحيحة بالحسابات اليسارية ، إنما كان بيحارب يساريين زيه ، فقط كى ينتصر الإسلاميون على كليهما فى النهاية . نحن نتحدث عن السادات وريجان ، عن اثنين من أعظم زعماء القرن العشرين . ويكفى السادات نبوءته غير المسبوقة من إنسان (جايز من كمبيوتر آه ، إنما إنسان لأ !) ، بسقوط الاتحاد السوفييتى . أقصد يوم ما طرد الخبراء السوفييت ، وكان الاتحاد السوفييتى فى عز جلال مجده ، وكان بوسع دباباته تسوية بودابست وبراج بالأرض لبادرة أقل من هذا بكثير ، ولم يحدث أبدا أن تلقى لطمة مهينة بهذا الحجم ، أو بأى حجم ، من أى أحد ، فى كل تاريخه ، وفعليا كانت أول خطوة انكماشية تراجعية بعد عقود طويلة من النمو والتوسع . وطبعا يكفى ريجان السقوط الفعلى للاتحاد السوفييتى . من السهل تقول عليهم جهلة أو حساباتهم كانت غلط مع الإسلاميين ، بينما دى سياسة والمسئول لازم يلعب بالأوراق إللى تحت إيده . دى أنا فاهمها كويس ، حتى وإن ما كنتش قابلها . يا سيادة اللواء ، أنا بصراحة رغم كل إللى المآسى إللى عملها السادات فى تديين المجتمع ، طول عمرى ما شفت فيه المسلم المتدين ، جايز فى شبابه نعم ، إنما طول فترة حكمه لأ ، والأهم أنه بالتأكيد لم يتخيل مصر دولة إسلامية ، إنما العكس بالضبط : دولة عصرية منفتحة على العالم والحداثة حرة الاقتصاد وتعيش فى سلام وتعاون مع جارتها الوحيدة المتقدمة إسرائيل ، إن لم يكن أيضا العداء قدر الإمكان مع بقية الجارات المتخلفات من أجل ضمهم لمعسكر التحضر مثله . فقط كان فى نظرى بطل بيحارب الشيوعية ، بطل تراچيدى ، حرفيا كما أبطال اليونان القديمة : سيطر عليه هدف نبيل فقاده للتهلكة . هو ده رأيى : فى الأساس الشيوعيين أنفسهم هم من يتحمل معظم مسئولية ما حصل من هجمة إسلامية ، إن لم يكن كل المسئولية ، موش السادات وريجان . وأن النهارده لازم يشعروا بندم شديد على غبائهم الحقيقى منقطع النظير إللى تسبب فى كل هذا .

– بس ... (لم يدعه وحيد يكمل) .

– لو كانوا اتصرفوا بطريقة مختلفة ، ذكية ومتحضرة ، ما كانش حصل إللى حصل ، وكان العالم بقى أفضل كتير . حتى فى إيران ، كان من عاشر المستحيلات أن يسقط الشاه بدون مشاركة الشيوعيين فى الثورة عليه ، إن لم أقل حركوها وقادوها وكانوا وقودها . أما هم فما كانش ها يخسروا أكتر من إللى خسروه فعلا ، الرأسمالية (بين قوسين) اتطبقت فى مصر ، وهم أبيدوا فى إيران ، والاتحاد السوفييتى سقط . شوية مسعورين بيتبنوا مشروع فاشل بل مستحيل اسمه الاشتراكية ، وبيلحوا عليه بكل الطرق . حقد طبقى ، تحريض العمال ، الطلبة ، الصحافة ، السينما ، المسرح ، الأغانى ، لعب على مشاعر الناس من كل الطبقات باسم المساواة ورفع الظلم والسلام العالمى وأخوة البشر ... إلخ . كلام جميل ، انفعالات ومشاعر ، ونجاح هايل ومظاهرات بالملايين ملأت العالم ، إنما المشروع نفسه ولا حاجة . حلم غبى . مؤامرة ضد الطبيعة وقوانينها وضد طبائع الإنسان ، وموش ها يودينا لأى حتة ، إلا الفقر للجميع . وأكيد استئصال أناس بمثل هذه اللزوجة كان أصعب بكتير بأى طريقة تانى ، أو على الأقل بطريقة سريعة زى إللى عملها السادات وريجان . (يهدأ قليلا :) نعم ، أعلم أننا عانينا جميعا من ظهور الإسلاميين ، لكنى بالمقارنة أعتبر ما عانيناه رغم ألمه وجسامته ، ضريبة بسيطة كان يجب علينا -كمجتمعات وكأفراد- دفعها عن طيب خاطر للخلاص من كابوس رهيب هو الشيوعية . على الأقل لم يضطر الملايين من أمثالى عبر العالم للبس الزى العسكرى وحمل السلاح لمحاربتها . ماشى ؟

– ماشى ! بس على فكرة إحنا فى القوات المسلحة ما لناش أى رأى فى السياسة !

– باختصار ، أن موش علشان المصلح أخطأ -بفرض أنه أخطأ- ننسى المخرب الأصلى ، أو علشان الشرطى أخطأ نبرئ المجرم . دى عاملة زى إسقاط صدام حسين ، والدنيا إللى باظت بعد كده . هل الغلطة تومى فرانكس ؟ هل الغلطة پول بريمر ؟ هل الغلطة إياد علاوى ؟ كلا ، الغلطة هى ما جاء لاحقا : الديموقراطية . نعم ، أميركا أخطأت ؛ فبدلا من أن تحكم العراق حكما عسكريا حداثيا بالحديد والنار ، تخيلته ياپانا أو ألمانيا أخرى ، وشرعت دستورا وأمرت مصانع البلاستيك بتصنيع صناديق للانتخابات ، فكانت النتيجة أن تحول كله لساحة لحرب أهلية . لكن فى الحالتين المجرم الأصلى معروف وإسقاطه عن عرشه

كان واجبا بل ونصرا كبيرا للحضارة بكل المعايير . دى المقدمة عن أرائى ، أما بأه الحاجة إللى أنا عاوز أقولها لك ، فهى أنك جبت لى اكتئاب ما بعده اكتئاب النهارده .

– أنا دلوقت إللى بقيت عاوز أعرف أنت ليه بتقول لى كل الكلام ده ليه !

– (يزداد الاحتداد والسرعة فى كلامه :) لو خطتك إللى بتقول عليها دى كانت اتنفذت ، كان حاجات كتير جدا اتغيرت فى المنطقة . بدل كام معركة هنا وهناك على الجبهة الغربية ما لهاش أثر يذكر ، كنتم قطعتم رأس الأفعى . موش هو بس ، إنما كان جايز ساعتها كل جبهة الرفض انهارت ، وأثمان مهولة دفعتها المنطقة والعالم بقى ممكن تجنبها ! وشكرا !

– زى ما بأقول لك إحنا فى القوات المسلحة ما لناش أى رأى فى السياسة . صحيح شلنا كلمة ' العدو ' بتاع زمان ، وبقينا بنكتب بدلها على الخرايط والخطط الحربية ' العدو الغربى ' و' العدو الجنوبى ' ، ودخلنا بعض معارك هنا وهنا أيام السادات وأول أيام مبارك ، وإللى أعرفه أنهم أضافوا دلوقت ' العدو الشرقى ' من جديد ، الفلسطينيين والسوريين . إنما فى كل ده موش إحنا إللى حددنا ولا إللى بنحدد سياسة البلد .

– (وقد وصل الغيظ مداه :) بأقول لك : شكرا !



تلميذ الدراسات العليا عنده ، كمال الجنزورى !

دكتور فرغلى الذى رفض توسلات السادات المباشرة ، قبل -صدق أو لا تصدق- على يد تلميذ الدراسات العليا عنده ، كمال الجنزورى ! هذا الوزير المتفق عليه سرا من قبل المؤسسات المالية العالمية ليكون رئيس الوزراء القادم لمصر ، بمجرد انتهاء ما سمى بالمرحلة الثانية للإصلاح وبدء المرحلة الثالثة ، الخصخصة ، أول يناير ١٩٩٦ . قيل فيما بعد إن المقابلة التى تمت قبل هذا التاريخ بنحو ستة شهور ، قد جرت بمكتب آل جور ، نائب الرئيس الأميركى . لهذا الظن مبرراته ، فآل جور هو الذى بعد هذه الشهور ، جاء كل تلك الرحلة الطويلة لمصر بساق ممدودة فى الجبس لتنصيب الجنزورى ، لكن ذلك الظن لم يكن صحيحا بالمرة . آل جور يسارى ولا يطيق أصلا أمثال پروفيسور فرغلى ولا أفكارهم .

المقابلة تمت فى الحقيقة فى مكتب نيوت جينجريتش ، زعيم الأغلبية الجمهورية بالكونجرس . للدقة كان اللقاء رباعيا . الشخص الرابع كان ميلتون فريدمان نفسه ، بشير الاقتصاد الحر الأشهر فى أميركا ، والقوة الدافعة وراء إصلاحات ريجان ، والصديق الشخصى لكل تلك القيادات المسماة باليمينية ، والأب الروحى لمن سموا لاحقا بالمحافظين الجدد ، الذين جينجريتش هو أولهم وأشهرهم . وأخيرا وهو ما يهمنا ، المعلم الذى رضع على يديه دكتور فرغلى الفكر الاقتصادى . بعد دقائق انتحى فريدمان بجينجريتش ، يتهامسان حول الخطط التى سيحاول بها الكونجرس كبح المشاريع الكارثية لآل كلينتون ، هيللارى وزوجها ، هكذا كانا يتمثلانهما . الاثنان الباقيان بدءا الحوار :

– اسمح لى يا دكتور ، ليه ما تطبقش أفكارك دى بنفسك فى مصر .

– أفكارى مطبقة فى تشيلى وأميركا وأماكن كتير .

– لماذا لا تطبقها بنفسك ؟ تشرف على تجربة ما إشرافا مباشرا ؟

– مصر اشتراكية من فجر التاريخ . وبصراحة يا دكتور كمال ، ورغم كل تهليل الإعلام لى وللى زيى اليومين دول ، أنا أفكارى ماشية بالعافية ، وبس عند الأنجلو-ساكسون ، أو لو رعوا انقلاب فى حتة زى تشيلى . على أية حال ، الحل عندكم يجب أن يبدأ ببنك استثمارى

ضخم لإدارة الخصخصة ، وقبلها لتأسيس البورصة بقوانين على أعلى مستوى عالمى ، وبتداول إليكترونى ، ورقابة واعية غير غليظة اليد ، ليكن اسمها هيئة سوق المال أو شيء كهذا .

– (لم يشأ الخوض فى هل مصر اشتراكية تاريخيا ، أو ماذا كان دور الدولة بالضبط فيها ، فهو فى قرارة نفسه يرى مصر القديمة أما وجذرا للقانون الطبيعى ، لا لشيء إلا لأنه فى ذلك الوقت البكر وتحت تلك السماوات صافية الذهن ، لم يكن ليرى المصرى القديم شيئا سوى الطبيعة ، ولم يكن يسعى لتعلم أو تقديس سوى قوانينها ، وقطعا لم يكن ليعرف شيئا اسمه الأيديولوچية أو الإسقاط أو لى عنق الأشياء ؛ لذا فقط عاد الجنزورى ليكرر :) لماذا يا دكتور لا تطبقها بنفسك ؟ تشرف عليها إشرافا مباشرا ؟

– أنا ليس لدى المال لمثل ذلك البنك . هذا البنك يجب أن يكون عملاقا ، قادرا على تأسيس شركات جديدة وتمويل شركات قائمة ... إلخ .

فرد الجنزورى بسرعة مدهشة : لكنك يا دكتور تؤمن بالسوق ، لماذا لا يكون هذا البنك بكامله تقريبا مملوكا لصغار المساهمين ؟

كان هذا الاقتراح ضربة معلم ، كما يقولون . الجنزورى كان يعلم أن رئاسة الوزراء نفسها قد عرضت يوما على فرغلى ورفضها ، وهو يعرض عليه اليوم شيئا أقل شأنا بكثير . لكن هذا العرض الأخير هو بالتحديد العرض الوحيد الذى لا يمكن رفضه : حقق أحلامك دون أن تتولى منصبا حكوميا ، الشيء الذى تعافه وتزدريه . ولأن شيئا لا يفرح الأستاذ أكثر من أن يجد تلميذه قد فاقه ، فقد صعق من الاقتراح ، وقبل فى أقل من لحظة . وفوجئ الجنزورى بأنهما صديقان حميمان أكثر مما توقع ، وأنه يحتفظ بمثل هذا القدر من الدلال والحظوة عند أستاذه .

عادا لزف البشرى لصاحب المكان وصديقه . بعد قليل نهض الثلاثة الذين يمثلون ثلاثة أجيال مختلفة من الاقتصاديين يحيون زعيم الكونجرس العتيد ويهمون بالانصراف . فجأة ألقى الثعلب الكهل ، ذلك القصير المكير الذى وقف ساعتها متوسطا فرغلى والجنزورى ، فبدا مضحكا بعض الشيء ، ألقى بواحدة جديدة من نبوءاته الطائشة فائقة الفحش ، التى تثير غضب الجميع (لمدة عشرين عاما عادة فى المتوسط) ثم يعترفون بها بعد ذلك كما هى حرفيا . قال : ' لم يحدث أن شهد جيل فى التاريخ كل هذه المنجزات التقنية فى سنة واحدة (أو حتى فى قرن كامل) : الإنترنيت ، الاتصالات الخليوية ، تليڤزيون الكيبول أو الساتيلايت ، زائد جلوبة تتيح انتشارها الفورى جميعا ، لكن انظروا كيف استغلت هذا الزمرة الشيوعية ساكنة البيت الأبيض ؟ إنهم ماضون فى سلسلة قوانين جباية الضرائب تنهك الاقتصاد وتضيع الفرصة التاريخية من ناحية ، ومن الناحية المقابلة يداروننا بقوانين أخرى تشجع رهونات العقارات والتضخم عامة لخلق وهم بأن الاقتصاد يتقدم . الأخطر أنهم يقودون وول ستريت نفسه إلى فقاعة فى أسهم التقنية ستقع حتما خلال سنوات إن لم يكن شهور قليلة ، وستفضى إلى كارثة كبرى ، كساد قد يفوق كساد الثلاثينيات ، هذا ما لم يتول الحكم بسرعة رئيس يطبق بصرامة سياسات سوق حقيقية ؛ سياسات بناء جاد ، لا سوق لتجارة السراب ، اعطنا كسلا وخذ وهما ، ولنرسل معا لفواتير لجيوب ضحايانا المشتركين ، البنائين الأشرار ممن يجب أن تقصم الضرائب ظهورهم وتسرق عرقهم ' .

... كان يتنبأ بالقانون الكارثى للتصريح للبنوك التجارية بممارسة نشاط البنوك الاستثمارية ، وأيضا يتنبأ غائيا بچورچ دبليو . بوش وفريقه الثورى غائر الطليعية والتقدمية !



الحقد

تذكر البروفيسور فرغلى كلام السادات عن ' الحقد ' . كان حين قد علم قبل نحو عقد ونصف برغبة السادات فى مقابلته ، قد طلب على عجل من شركة خدمات صحفية أن تأتيه بملف متكامل عن رئيس مصر ، مشددا بالطبع على أن يكون به بعض التسجيلات التليڤزيونية . لفتت نظره عبارة ' أنا قدرت على كل حاجة فى مصر ، إلا حاجة واحدة ما قدرتش عليها : الحقد ! ' . ساعتها ضحك وهز رأسه هازئا : ' لو كان ذلك الحقد هو كل مشكلة مصر حقا ، لهان الأمر ! ' . إلا أنه بعد اغتيال السادات شعر بشديد الحزن وببعض غير قليل من الإحساس بالذنب والندم . لقد ترك الرجل يصارع وحيدا من أجل انفتاح عشوائى بنى القليل ، وأثار من غضب الناس الكثير ، وإن كان -حسب نظريات فرغلى- لا مفر من غضب الناس فى كل الأحوال ؛ انفتاح اضطره للجوء للدين لتمريره ، فدفع حياته ثمنا لهذا الأخير .

... من هنا اختار دكتور فرغلى كيوپيد اسما للشركة ، واعتبره تخليدا وتكريما للرئيس السادات على نحو أو آخر .

النسوان القماطة

– اوعى تقول لى يا حاج أن ما عندكش فكرة عن النسوان القماطة .

– أنا موش وسخ زيك !

– وإيه الوساخة فى كده ؟

ويبدأ ونس فى شرح الفارق بين نساء العراق ونساء تركيا ، المرأة العراقية تقمطك فى وسطك برجليها ، والمرأة التركية تقمطك فى حتة تانية ، الواحدة تبقى مخلفة عيلين وتلاتة وتقمط !

– أنت خايف من المدام ولا إيه يا حاج ؟

ويضطر ضهرى بطيبة أن يشرح أنه متعفف ولم يخن أبدا إجلال التى يحبها . وروميو المستمتع بالحوار رغم دخول صاحبيه فى منطقة تكاد تكون احتكارية بالنسبة له ، يواصل حث ضهرى على الاعتراف بكم مغامرة أتى بها قبل الزواج .

العراق وتركيا كانت أكثر الأماكن التى تردد عليها ونس فى رحلاته لتوزيع الملابس انطلاقا من الكويت . هكذا راح يشرح قصته . ذات مرة قرر أن يجرب بيع كل كونتينر الشتاء فى مصر . فوجئ بعراقيل الجمرك ، وأن لا بد من رشاوى هائلة ، فتقدم إليه مخلص جمركى ، قال له تعالى قابل الپاشا وها يحل لك كل حاجة . كتب الشحنة باسم ' الپاشا ' حتى يسهل دخولها . ثم قال له أعوان الپاشا المياه أتلفتها وها نغسلها ونبيعها فى وكالة البلح .

ويتدخل ضهرى : ' إذن قالوا لك كانت فى العشة وطارت ! ' .

– بالظبط ! فى لحظة خسرت نصف مليون جنيه !

عاد ونس لدمياط ، بخمسين ألف جنيه ، وهو لا يعرف ماذا سيفعل . اكتشف أن أباه قد ترك لدى وفاته صكوكا لأسهم لبعض شركات حلج القطن ومطاحن ، وأنها كانت نصيبه من الميراث الذى قسم فيما بين إخوته وأخواته الكثر . نظر فى الجريدة فوجد أنها تساوى حوالى ٣٠ ألفا أخرى . فقرر الرحيل والاستقرار فى القاهرة ، حيث لا يوجد فى دمياط شركات سمسرة ، وهو لا يعرف الأسكندرية جيدا . وزوجته البراجماتية الجشعة شجعته وقالت إنها ستقدم على معاش مبكر من وظيفة الشهر العقارى ، وستستخدم كمپيوتر الأولاد فى إمداده الفورى بأخبار الإنترنيت . وسيأتيها كل نهاية أسبوع كما كان يفعل أيامه القديمة فى القاهرة .

قدم لحى المطرية لبيت إحدى قريبات زوجته ، ولم يكن خفيف المقام جدا ، لكنه بعد نحو ثلاثة أسابيع حصل على غرفة مفروشة واستقل بنفسه .

– أول الشهر ها أدور على أوده مفروشة ، وأعمل جلاء من عندكم !

ظل يلاحق موظفة البورصة فى التليفون ، للحصول على تليفونات وعناوين شركات السمسرة فى المطرية . أحالته للإدارة المختصة بالمطبوعات . ادعى أنه مسافر يوم الأحد ، وأن لديه صكوكا ورقية يريد تسليمها بسرعة .

– صكوك إيه ؟

– موش مهم ، أنا بس عاوز أعرف تليفونات الشركات .

وتحضر الموظفة المغلوبة على أمرها أحد الكتيبات : ' ما فيش شركات سمسرة فى المطرية ' .

– طيب مصر الجديدة ؟

تمليه بعض الأسماء ، يتصل بالتجارى الدولى ويعرف أن الحد الأدنى لفتح حساب ١٠٠ ألف جنيه ، ويستبعدها . أخيرا يستقر على شركة رمسيس ، إذ أيضا لحسن الحظ هناك مايكروباص بأجر بالنفر يصل ما بين المطرية وروكسى !

كان ذلك فى أحد أيام سنة ٢٠٠١ ، وكالعادة وجد نبيل طريقا لمصادقة كل قادم جديد : ' تعرف أن إمبان صاحب القصر ده ، كان جاى المطرية أصلا ؟ ' .

– إزاى ؟

– موش المطرية دى ، المطرية بتاع المنزلة .

– (ضاحكا :) بتاعتنا برضه !

– أصلا شركته البلجيكية كانت بتتنافس على مقاولة إنشاء خط سكك حديدية من المنصورة لبور سعيد مرورا بالمطرية . حس أنه موش قد شركات الإنجليز وأنه ها يخسر المشروع . جه بنفسه لمصر ، وخسر فعلا . لكن حب البلد وقرر الإقامة ، وبنى مصر الجديدة ، وحب واتجوز من هنا كمان !



مجرد تجميع أموال الناس قسرا -أو حتى طوعا- لخلق ما يسمى بمال عمومى ، هو فساد .

بالتالى المعادلة للقضاء على الفساد بسيطة جدا : لا حكومة ، لا فساد !

نحن لا نستطيع الاستغناء عن الرأسماليين ، لكن نستطيع الاستغناء عن الحكومة ؛

بلغة الدين ، الرأسماليون هم ربنا الذى يطعم الناس ،

والحكومة هى رجل الدين الذى يقتات على حشر نفسه كوسيط بين الاثنين !

قضى ونس ١٠ سنوات بالتمام والكمال فى الدراسة ، ٥ × ٢ ، فى هندسة أسيوط ، قسم الهندسة الميكانية ! وصل لدرجة أن بدا يقول لزملائه يا ابنى ولزميلاته يا بنتى . هيئته البدنية كانت تجعل هذا أقل غرابة من المتوقع . هكذا جاءت الطبيعة التى لاصقته إلى أن حطت على أرضية شركة رمسيس . ينادى الجميع بابنى وبنتى ، وينادونه اختصارا عم عبده أو حاج عبده ، أو ينادونه اصطلاحا النداء الذى ألفه طيلة حياته : ونس . لا أحد يعرف من أين اشتق هذا الاسم أو من أطلقه ، بما فى ذلك ونس نفسه . يقول متهكما : ' ربما اختارته لى إحدى خالاتى كاسم دلع بدلا من الأسماء ثقيلة النطق والظل معا التى تفضلها عائلة أبى ' .

بعد أن تخرج عاد لدمياط ، تقدم للاشتغال فى مصنع حربى فى أبى قير ، ولم يقبل . وفى النهاية رضى بوظيفة السكك الحديدية بمرتب حكومى تافه ، فى موطنه دمياط ، كما تزوج من إحدى قريباته . وبعد فترة قال : ' السكك الحديدية لن تخصخص أبدا ، وقرروا يسيبونا نموت موتة ربنا ! ' . اشتغل فى شركات مقاولات ورصف طرق وما إليها فى دمياط ونحوها ، ثم جرب الذهاب للقاهرة والاشتغال فى ذات نوعية الشركات الخصوصية الصغيرة ، وفى النهاية قرر السفر لأبيه فى الكويت . هذا الأب مقيم هناك منذ عام ١٩٥٧ ، والآن أصبح تاجرا للملابس . ورث عنه ونس مهنته وعاد هو -أى الأب- لدمياط . كان ونس يسافر لمانيلا فى ختام كل موسم شتاء أو صيف ، يأتى ببواقى منتجات السنة من ملابس الأطفال ، ثم يوزعها بسيارة لورى فى الكويت والسعودية والعراق وسوريا وتركيا . ثم أخيرا مصر ، كما سبق وروى .

كالعادة من الآن فصاعدا ، أثارت قصة ونس جدلا بين وحيد وضهرى :

– الفساد مالى البلد يا أستاذ وحيد ، ولولا الفساد لبقينا أحسن من كده كتير .

– غريبة !

– إيه ؟

– أنك أخو وزير وبتشتكى من الفساد . فى رأيى الفساد يا حاج نتيجة موش سبب . طالما فيه حكومة فيه فساد . الحل فى تقليص سلطات الحكومة لأبعد مدى . بالذات ترفع أصابعها بالكامل من الاقتصاد . لو ما كانش فيه جمارك ، ما كانش الأخ ونس فقد شقاء عمره .

– ده غلط فى التطبيق .

– سامحنى يا حاج ، زهقنا فى شبابنا من الكلام عن النظرية والتطبيق . الشيوعية كويسة بس التطبيق وحش . القومية العربية كويسة بس التطبيق وحش . الإسلام كويس بس التطبيق وحش . المسيحية كويسة بس التطبيق وحش . إحنا موش ها نجيب ملايكة من السما علشان يطبقوا

لنا . السيستم لازم يطبق نفسه بنفسه . فيه ناس تقول ممكن الحكومة تدير الاقتصاد لو تحررت من الروتين والبيروقراطية . طب هم الروتين والبيروقراطية اخترعوهم ليه ؟ علشان لو اتلغوا ، كل المال العمومى ها يتنهب فى لحظة . إذن فى كل الأحوال مستحيل الحكومة تصلح . كل الأيديولوچيات دى الفساد مكون عضوى فيها ، وليست المشكلة سوء التطبيق . ده لأن ما فيش سيستم يطبق نفسه بنفسه ، غير واحد بس ، سيستم أمنا الطبيعة ، المنافسة المطلقة ، والاقتصاد الحر المطلق ، وبالكتير يكون للحكومة دور أمنى ، يمنع محاولة الأفراد مصادرة حريات بعضهم البعض . إللى إحنا فيه ده ، رأسماليين بيتحركوا فى وسط بيروقراطى حكومى واسع الصلاحيات والنفوذ ، موش ممكن يسمى رأسمالية ، ليس به ميزة واحدة للرأسمالية ، بينما به كل عيوب الاشتراكية . الرشوة المباشرة تحت الترابيزة هى قمة جبل الثلج لا أكثر ، والفساد شىء أضخم كثيرا جدا من هذا الفعل الفاضح ، أو بالأحرى غير الفاضح ، لأن هناك ما هو أفضح كثيرا من أشكال الفساد . الفساد فى أميركا لا يتخذ أبدا صورة رشوة مالية فى الخفاء ، إنما يتخذ فقط صورة قانون يصدر عن الكونجرس . حتى الكذب وعدم الشفافية لا يعتبر فسادا ، لأن مسئوليتك كمستهلك أو كمستثمر أن تبتعد عن الشركات التى لم تشتهر بالشفافية . إليك تعريفى للفساد : هو كل نشاط اقتصادى يحاول أن يستثنى نفسه من القواعد التنافسية للسوق . كل المال الحكومى (حتى لو قام عليه ملائكة أتوا من السماء فعلا) ، هو مال فاسد ، ويستخدم فى أغراض فاسدة كتنمية من لا يستحقون دارونيا التنمية (دع جانبا إعاشة البيروقراطيين ممن فشلوا فى الحصول على وظيفة فى سباق السوق الحرة ، دع جانبا تربحهم وسوء استغلال سلطاتهم) ، والأسوأ أنه -أى ذلك المال- دائما ما ينتهى إلى فقاعة تقضى على الأخضر واليابس ، الناجح والفاشل ، كل شىء وكل أحد . باختصار ، مجرد تجميع أموال الناس قسرا -أو حتى طوعا- لخلق ما يسمى بمال عمومى ، هو فساد . بالتالى المعادلة للقضاء على الفساد بسيطة جدا : لا حكومة ، لا فساد ! نحن لا نستطيع الاستغناء عن الرأسماليين ، لكن نستطيع الاستغناء عن الحكومة ؛ بلغة الدين ، الرأسماليون هم ربنا الذى يطعم الناس ، والحكومة هى رجل الدين الذى يقتات على حشر نفسه كوسيط بين الاثنين ! الحكومة الصغيرة للغاية هى الحل الأصوب والأوقع ، وكمان الأسهل !

– بس فيه ناس شجاعة بتحارب الفساد !

– (يشهق بصوت لم يسبق أن سمعه عملاء رمسيس بهذا العلو أبدا :) هأ ! ... هأ ! ... هأ ! (قالها متقطعة وكأنه أصيب بزغطة !) . اسألنى أنا . الصحافة عندنا أفسد من الفساد . حتى إللى بيدوهم جوائز البطولة والشجاعة . أنا أعرف الناس دى شخصيا . بيطلعوا بقضايا الفساد علشان يقبضوا . كل واحد وله تمن معروف ، والقوانين مساعدة على كده . إيه حبس ست شهور ، فى شركة خسرت بلايين بسبب إشاعة ، والصحفى قبض أجرة الحبس مقدما من المنافس إللى زقه للإشاعة ؟ لو زى بره التعويضات بمئات الملايين ، والمؤسسة الصحفية عارفة أنها بكرة الصبح ها تبقى مملوكة للى شتمته غلط ، والصحفى عارف أنه ها يقضى بقية عمره فى السجن من غير ما يقدر يسدد التعويض ، ما كانش ولا واحد اتكلم عن الفساد . حتى لو الفساد عينى عينك ، وحتى لو تحت إيديهم أدلة دامغة ، موش ها يتكلموا لأنهم هم نفسهم أس الفساد . هم يوحون طوال الوقت أن الرأسماليين هم من يفسدون الناس ، بينما يعلمون تمام العلم أن الرأسمالى لن يدفع رشوة إلا لأن هناك فى يد البيروقرطيين (أو الصحفيين) سلطة يبتزون أمواله بها . باختصار : هم لا يريدون تغيير النظام . هم فقط يريدون تغيير الأسماء ، يريدون إعادة تقسيم كعكة الفساد !

– والحل ؟

– حرية السوق هى الحل . خصخصة كل حاجة ، والجمارك صفر ، الضرايب صفر ، حق تملك الأجانب للمشروعات ١٠٠ ، حق تحويل الأرباح للخارج ١٠٠ ، والشىء الوحيد الذى يمنع تحويلها للخارج ، هو أن يكون بقاؤها بالداخل أكثر إغراء .

– بس لا بد من دور للشفافية والرقابة ، وده محتاج الحكومة ، طرف محايد على الأقل ؟

– تتخصخص برضه ! لو فضلت الرقابة فى إيد الحكومة ها تفضل فاسدة ، أو فى يوم ها تفسد لو موش فاسدة . خصخصة نهر النيل وقناة السويس . خصخصة الهرم الأكبر والسد العالى . خصخصة الشرطة والقوات المسلحة . خصخصة حقل البترول ومنجم الحديد . خصخصة المدرسة والمستشفى . خصخصة التأمينات الاجتماعية والسجل المدنى . خصخصة القضاء وإصدار العملة . خصخصة كل شىء وأى شىء . وخصخصته الخصخصة الحقيقة المؤدية لرفع كفاءة تلك المؤسسات ولتنمية حقيقية لأرض مصر وشعب مصر ، التى تعنى ، وتعنى فقط ، بيعها لأكبر الشركات العالمية (أو طبعا إعادة ما اغتصب منها إليها ، وطبعا طبعا إغلاق ما لا ترضى الشركات العالمية بشرائه وبيعه كأراضى ، فما

فائدة أن تؤخذ هذه المؤسسات من مصريين لا يفمون فى الصناعة ولا البيزنس كى تعطى لمصريين هم أيضا لا يفمون فى الصناعة ولا البيزنس ؟) . تعريف الخصخصة أن لا تملك الحكومة شيئا ولا تدير شيئا ؛ حتى فى خاتمة المطاف تبيع الصحراء نفسها فلا يبقى لها شىء تفعله ، وترحل . والفكرة ببساطة أن كل شىء وأى شىء قامت أو ستقوم به الحكومة يقوم به القطاع الخصوصى على نحو أفضل ، بالذات لو استجلبناه من لندن أو لوس أنچيليس . دكتور فرغلى بيرأس كيوپيد وفى نفس الوقت بيرأس هيئة سوق المال إللى بتراقب كل الشركات ، ومنها كيوپيد . ما حدش قال تضارب مصالح . ليه ؟ لأن دكتور فرغلى فوق مستوى الشبهات ، ولأنه صاحب الحدوتة كلها ، من أولها وبكل ما فيها ، بورصة وتوريق وشركات وهيئة سوق مال وخصخصة وكل شىء . لكن ماذا لو قرر الدكتور فرغلى الاعتزال ؟ من يضمن أن من يليه سيكون شيئا جبارا مثله ؟ الصح شركات متخصصة فى البحوث ، وفى تحرى المعلومات عن الشركات أو السلع ، أو أى شىء ، وإللى محتاج المعلومة يدفع . يشترى مجلة أسبوعية مثلا خاصة بالشركة دى . وكل شركة معلومات تكسب ثقتها من خلال أدائها وتاريخها والسمعة إللى بنتها لنفسها . والشركة الفاسدة أو إللى تقدم معلومات مزورة أو مغرضة ، المتضرر ها ياخدها للقضاء المدنى وتفلس وتقفل . العالم سبقنا للحاجات دى من زمان ، حماية المستهلك وغيره . كل حاجة . قبل ما حد يدى قرض لشركة ولا لحكومة عارف يروح فين ، لستاندرد آند پوور مثلا . إللى عاوز يعرف العبارة دى سليمة ولا جايز تغرق به ، يروح يسأل اللويدز ، ولو متأمنة فى حتة تانى يكون أقل ثقة . كل شىء بالسمعة ، الدنيا ماشية كده ، والفساد محكوم كده ، من خلال حرية السوق ، موش من خلال بيروقراطيين ملايكة .

يتدخل روميو : ' أنا عندى فكرة اختراع بمليون جنيه يا حاج ، لو تشاركنى ننفذها سوا ! ' .

– آه منك يا مولانا ، اللهم اعطينا من بركاتك ، واكفينا شر حركاتك ، قصدى شر اختراعاتك !

– أجهزة منزلية شفافة . غسالة شفافة . ثلاجة شفافة . پوتاجاز شفاف . أقلها أنها موش ها تصدى . حتى سراير ودواليب شفافة .

ونس يعلق : ' هى دى الشفافية ولا بلاش ! لو المضاربين الكبار بتوع البورصة سمعوا الكلام ده يقتلوك ؛ لأنك ها تبوظ عليهم كل حاجة ' .

ووحيد يضيف : ' غسالة شفافة ! يا لها من فكرة ! سأكون أول المشترين ! سأحصل على ابتسامة كبيرة من رمانة حين تراها ، وعلى ابتسامة أكبر حين ترانى جالسا أمامها ! ' .



تاج المرأة شعرها

عادة صديقة روميو إما أرملة أو مطلقة حسناء ، وإما فتاة يافعة تبحث عن فرصة فى الحياة . سوسن تنتمى للفئة الثانية . هذا هو اسم الصديقة الجديدة ، فتاة السيتى ستارز كما اعتاد الباقون تسمية صديقات روميو همسا وأحيانا علنا . أشبه بموديل طولها ١٨٥ سم ، وذات جسد بالغ العنفوان فاحش المنحنيات وكأنها ثمرة منماة چيبنيا . يغطيها شعر طويل ، بلون معدنى فاتح جدا أقرب ما يكون لخليط من الذهب والپلاتين ، شديد اللمعان وكأنه مغلف بطبقة من الألماس من الخارج ، كبير الموجات كما حلقات واسعة تتلولب صعودا وهبوطا ، لا يكف أبدا عن تحسس مؤخرتها ووخزها فى تحرش علنى وقح !

فى يومها الأول أثارت فى القاعة الكثير من الكلام عن ' الخلفية الثقافية ' و' المقدمة المنطقية ' ، وهلم جرا مما إلى هذا ، حيث جاءت بتى شيرت قصير كتب عليه فوق صدرها الضخم me.jpg بحروف لاتينية كبيرة ، بما فاقم الإحساس بأنها صورة للفرجة . هى لا ترتدى بنطلونات أبدا ، إنما تنورات قصيرة طوال الوقت . فى البدء كان البنطلون . هكذا علمنا الكتاب . اخترعته نجمة البوب مادونا مع بداية الألفية ، ثم أصبحت ترتديه كل فتاة . بنطلون ذو حجر قصير جدا ، بحيث يكاد يكشف الأعضاء التناسلية . الفكرة فى تلك البنطلونات أنها ضيقة للغاية بحيث لا تخشى المرأة أبدا من سقوطها . ثم قال أحدهم : ' لتكن هناك تنورة ' ، فكانت التنورة . ما حدث فى السنوات الأخيرة هو أن صنعت تنورات خفيضة جدا ، سواء طالت أم قصرت هى أيضا من الضيق بحيث لن تسقط أبدا ، ومنها تنورة سوسن . ما استجد مؤخرا أيضا ، أن زاد بشدة اهتمام النساء بشعر العانة . لقد ولى عصر دشنته مجلة الپلاى بوى فى أواخر عقد التسعينيات ، حينما بدأت تقديم موديلاتها حليقات ، وهو ميل أدى فى حينه لازدهار هائل لأدوات الحلاقة النسائية .

الآن مع اقتراب عقد الصفريات من نهايته اندثر هذا الميل . ربما اكتشفت الپلاى بوى أنها كانت تروج لشىء قبيح ، وتنبهت لحقيقة قديمة قدم التاريخ مفادها أن تاج المرأة شعرها . واقتنعت بأن بات من الواجب إعادة الأمجاد التليدة لغابة الخير والنماء ، رمز الأنثى التاريخى الأكبر . حل

محل رواج أدوات الحلاقة ، رواج لمصففى هذا الشعر ، ولعمليات صباغته وزرعه وتقويته وابتكار قصاته . الأشكال أو ' القصات ' التى تظهرها مثل تلك البنطلونات أو التنورات من ذاك الشعر ، يمكن أن تحتمل أى شىء . من رأس ميكى ماوس أو رأس قرد ، حتى وجه الشيطان بقرنين أو كيوپيد بجناحيه الصغيرين ، حتى صليب وهو ما تفضله المتدينات المسيحيات فى الغرب ، أو نجمة داود وهو ما تفضله مجندات الجيش الإسرائيلى ، حتى قلب بسيط تفضله الرومانسيات ، حتى أبسط الأشياء جميعا ، مستطيل هندسى رأسى دقيق الحواف . كلا ، عفوا ! لا يزال هناك بعد خطوة أخيرة إلى البساطة المطلقة : أنت تترك الدغل بحالته البرية قبل التاريخية ، حقبة قبل أن تمسسه يد إنسان ، وهو ما تفضله سوسن .



هذا ليس سقف المهبل

– سوسن ؛ صاحبتى . مستر وحيد ؛ رئيس تحرير كبير ، ومنتج سينما أكبر . إيه رأيك فى سوسن ؟ أظن قوى الطبيعة والليبرالية المتوحشة بتوعك بالحرف ؟ ! طول عمرك بتحكى لنا على القيم السامية للرأسمالية المتوحشة ، أظن ما فيش أسمى من كده ؟ ! متهيأ لى ممكن تبقى بليونير لو عملتها بطلة فيلم . ممكن نسميه Forces of Nature ! اتعمل قبل كده ؟ بس موش بسوسن !

لقد مرت على الآن ستة شهور وسط هؤلاء الناس . من أغسطس ٢٠٠٩ حتى فبراير ٢٠١٠ ، ولا أستطيع فهم كيف يتحدثون كل هذا الوقت عن الجنس ، وبكل هذه الخبرة عن النساء . هذا شىء لا أستطيع تمثله أبدا . أنا لم أمارس من الجنس إلا جزءا من ألف مما مارسوه هم ، لكنى تأملته ضعفهم مليون مرة . مع ذلك لا زلت لا أدعى أنى أفهم النساء ولو لذرة واحدة . حتى ملهمتى الجميلة الصغيرة منذ أيام ' الاقتصاد اليوم ' ، my muse ، هالة ، فشلت فى فهمها ، وليس السبب الوحيد أنها لا تتحدث فى مثل هذه الأمور .

إحدى الصحفيات كتبت يوما أنه حتى إحسان عبد القدوس لم يكن ليستطيع النفاذ حقا لأحاسيس المرأة . أنا لم أقرأ القصص وفقط شاهدت الأفلام ، مؤلف رائع ، هذا واضح ، لكن ذلك الكلام ربما يكون معقولا . الرجل نفسه لم يدع ذلك يوما . أنت لا يمكن أن تشعر بالمرأة ، إلا إذا كنت امرأة ، ونظرت للدنيا من خلال عينيها وسيكولوچيتها . أن تستسلم هو المتعة ، أن تتلقى الطعنات هو المتعة . الرجل يستمتع حين يقوم هو بالطعن . العالم يصبح غير العالم لو أنت ترى تلقى الطعنات هو الشىء ' الطبيعى ' . هذا الأخذ عندها أكثر طبيعية . بالطبع هى إنسان ، ولا بد من كل المتناقضات معا فى داخلها . وتمارس توازنها النفسى فى العطاء ، من خلال الإنجاب وتربية الأولاد والاهتمام برعاية شريكها أو الغيرة عليه ، لكن هذه كلها لا يمكن أن تغير نظرتها القاعدية لما هو أكثر طبيعية فى الكون : تلقى الطعنات أجمل وأسمى من منحها ، هو أكثر احتراما وقوة مما يفعله الرجال . إنهم الشذوذ ، ونحن الطبيعة ، نحن القداسة . ألسنا نحن الإلهات الأوليات ، والآلهة الذكورية ما هى هى آلهة جاءت متأخرة ، أو بالأحرى هى فى العموم آلهة الشر ؟

ضهرى وونس يتحدثان باستخفاف عن قمط الظهر وقمط القضيب . الأرجح أن من يتحدثان عنهن من نساء العراق وتركيا ، لا يفعلن ذلك لمجرد الشهوة الجسدية . لعلها جزء من العنف والخشونة المعروفة تاريخيا للحياة اليومية لهذين الشعبين ، حتى فى أهدأ فترات السلم وفى الظروف العادية تماما . لعلهن يبحثن عن شىء غامض لا يعرفنه . ربما إشباع جنسى لم يصلن له أبدا . لا أعرف . لكن أية شهوة جسدية أصلا ؟ إن تشريح أعضاء الأنوثة ، لا يناسب الطريقة التى يمارس بها أغلب البشر الجنس . إنها لسوء الحظ لا تعطى النساء المتعة الحقيقية أبدا . يحتجن لساعة أو أكثر للوصول للشهوة . أنا لم أعثر على الإجابة أبدا . هذا سؤال يجب أن نوجهه لداروين أو لدكتور دوكينز . لماذا تصر أمنا الطبيعة على ألا تستمتع الأنثى أبدا ؟ ' أمنا ' ؟ لعلها ذكورية هى أيضا ؟ هل الأماكن الخطأ لمتعة الأنثى آلية تكيفية طبيعية للحد من الإنجاب ؟ فعلا طالما شغلنى هذا ، ولم أجد إجابة . لكن هل من الضرورى حقا أن تفهم المرأة حتى تتعايش معها ؟ لماذا لا تظل هى اللغز وهى الحلم ؟ أنت لا تصادق العجل قبل أن تأكل منه شريحة اللحم . أكل ؟ أزلة لسان هذه ؟ أتتكلم أنت أيضا بلغة ذكرية شرق أوسطية ؟ حتى أنت يا بروتس ؟ دماغى ينفجر . كل ما يمكننى تخيله هو فقط أن بنات عشتار أولئك اللاتى يتحدث عنهن ونس وضهرى ، لا بد وأن عقلهن الباطن يتملكه هاجس الخوف من أن تهرب منهن ، فيحيطون بك كل الوسائل ، بسيقانهن ، بكل شىء . إنها طقوس عبادة لا أكثر ولا أقل ، طقوس الچيين الأنانى التى يجب أن تستوفى على أفضل نحو ممكن .

أنا لست ضد وضع الاحتضان وجها لوجه . أنا لست ضد أن ينام أحد فوق الآخر . أنا لست ضد أى وضع . الاحتضان شىء رومانسى جميل ، على الأقل هو يسمح لك بالاستمتاع بمفاتن الوجه الذى تحب . لكنه قطعا ليس الأمثل لممارسة الجنس . أنت لا يمكن أن تستثيريهن إلا بطريقة مصطنعة ، بالحك من الخارج لفترة طويلة ، ثم بالتسلل لنقطة داخلية فى سقف المهبل ذات موقع غريب لا يعرف أحد الحكمة منه ، تستخدم معها الأصابع ، أداة اصطناعية خاصة .

أوه ! ربما الإجابة موجودة ! بل -ويا للعنة- واضحة ! هذا ليس سقف المهبل . هذا باطن المهبل . ببساطة تلك أعضاء جاءت فى المكان الخطأ وراثة من الثدييات الأخرى ، أو ربما حتى تمتد رجوعا للحشرات . الأعضاء الخارجية أعضاء تمهيدية ، لا لبس ولا بأس ، هكذا كل الثدييات . المشكلة فى موقع البقعة الداخلية الأعلى استثارة . أوه ! هل هذا ممكن حقا ؟ أو ربما ليست فى المكان الخطأ كما اعتقدت ! لو أننا نسير على أربع أو نحبو على بطوننا فهذا هو باطن المهبل وليس سقف المهبل ! إذن حتى تسدد على الأجزاء الأكثر حسية يجب أن تأتيهن من الخلف .

أوه ! إذن الأعضاء فى المكان الصحيح . ونحن الرجال الذين فى المكان الخطأ ! أراهن أن روميو يستخدم الوضع الخلفى ولو لبعض الوقت . هذا أنسب الأوضاع للوصول لنقطة تجمع الأعصاب شديدة الحساسية تلك . لا يمكن أن يكون عاشقا حقيقيا لا ترفع صديقاته عيونهن عنه أبدا طوال جلسة البورصة ، إلا لو كان يفعل ذلك . أراهن أنى سأرى خلال أيام قليلة على الأكثر ، ذات النظرات المسلوبة دائما أبدا على وجه سوسن المثير هذا !

يا لبؤسك أيتها البشرية ! أنت كمن رقصت على السلم ، لم نعد حيوانات ولم نصبح شيئا آخر . للمرة الألف لقد أفسد كهنة الإله الواحد ، سواء إله السماء أيا كان اسمه ، أو إله الأرض المدعو الإنسان ، أفسدوا على البشر كل متعهم الأصلية ، كل حياتهم الطبيعية ، كل روحهم الفطرية ! آه ، ربما عرفت الآن لماذا يسمى الوضع النائم بوضع المبشرين . إنهم لم يخترعونه بالصدفة ، أو للنكد على أهل القبائل البدائية ممن يستمتعون حقا بالجنس الفطرى الجيد . إنه جزء أصيل من التبشير الدينى : القهر والكبت والحرمان وإذلال المرأة !

دون أن يقصد راح بصر وحيد يتفقد بعض البدينات فى القاعة . لأول مرة بدأ يحس بالإشفاق عليهن . إنهن مثلا لا يستطعن ركوب السيارات بسهولة ، ولا يستطعن الجرى ولا الرقص ولا معظم مناشط الحياة بالذات البدنى منها ، وطبعا لا يستطعن ممارسة الجنس من الوضع الصحيح ، ومع ذلك تجد جمعيات تحاول إقناعهن بسفالة أن يتصالحن مع أجسادهن . ماذا يحدث عندما تجد المرأة نفسها قعيدة الفراش أو الأريكة أو لا تستطيع الذهاب بمفردها فى الحمام ، وهى بعد فى الخمسين من عمرها . يستهجنون الجمال ويقولون إن المرأة ليست سلعة . أهكذا يفهمون الاقتصاد ؟ لا يعلمون بداهة أن كل شىء سلعة . الإنسان برمته سلعة . ألا يبيع الرجال عضلاتهم فى المزارع والمصانع ؟ الجمال قدرة power ، تماما كالعضلات وكالعقل . الجمال سلاح لم يكن الرجل ليتورع عن استخدامه مع المرأة يوما لو كان لديه . لماذا لا ينتقده أحد حين يتأنق ويصفه بالسلعة ؟ لماذا فى كل الأحوال هو فوق النقد ؟ فى الواقع أعضاء وعضوات مثل تلك الجمعيات أناس يمارسون القتل (بدنيا ونفسيا أو الاثنين معا) ، ومن ثم ربما يستحقون الإعدام .

– تفتكر التخان ها يروحوا الجنة ولا النار يا روميو ؟

– قصدك إللى زى ونس ؟ طبعا ها يروحوا الجنة . كل واحد تخين أخد نصيبه من العذاب خلاص ؟

– طب وإللى زى مراتى فرحانة بأنها بقت تخينة ، ها تروح الجنة برضه ؟ !

عرج فكر وحيد على أن ربما أحد أسباب مأساة إدوارد أن -كما علم ، زوجته أصبحت بدينة والأسوأ منه أنها سعيدة بأن أصبحت بدينة . الجنس مع من لا تستمع بالجنس هو اغتصاب . أما لو كانت طيبة وتريد أن ترضى زوجها ، فهو دعارة . ما الفارق بينها وبين العاهرة المأجورة ؟ الفارق أن الثانية تؤدى المهمة على نحو أفضل . الجنس الحقيقى ليس واجبا زوجيا ، وليس مهمة مدفوعة ولا هدية مجانية . هو تفاعل كامل ومتساوى للطرفين . هو غرق مشترك فى المتعة ، حيث يتضبب الخيط الرفيع بين متعتك ومتعة رفيقتك ، حيث لا أنانية ولا تضحية ، لا أثرة ولا إيثار ، فقط غيبوبة . لا غرابة أن روميو لا يصادق البدينات قط . من لا يمكنها الاستمتاع بالجنس لا يمكنها الاستمتاع بأى شىء . ومن لا تستمتع بأى شىء لا يمكنها أن تمتع أحدا !

من أين تأتى البدانة ؟ إلى أين ترتفع مستويات الدهون القاتلة . إن أجسادنا التى ورثناها عن أسلافنا القدامى مصممة على القنص ولم الثمار . هيكلها التشريحى وتركيبها الداخلى الموروثة من أجداد ما قبل التاريخ ، مصممة على المجهود الوفير والأكل الضنين . حياة المكاتب سم قاتل بطىء . قاتل للحياة وقاتل للذة بمعناها الطبيعى . أيضا كمن رقصنا على السلم .

لا غرابة إذن فيما أورثتنا إياه عبادة هذا الإله : فشل كامل فى العلاقة بين الذكر والأنثى . انتشار هائل للجنس الشفوى لا كجزء من ممارسة حافلة متنوعة للجنس بين الطرفين إنما ككل ما هنالك ، ممارسة بالفم . انتشار هائل لممارسة الجنس المثلى حتى لو لم يكن ميلا چينيا ولدنا به ، لممارسة الجنس الثنائى حتى لو لم يكن ميلا چينيا ولدنا به ، لممارسة الجنس مع الذات ، ممارسة الجنس مع حجرة كاملة من الأبدوعات gadgets الكهربية تنكح أجسادنا ، والخلفية حوائط كاملة من الصور الإليكترونية تنكح عيوننا ، وسماعات بحجم الدواليب تنكح آذاننا . حتى من يمارسون الجنس مع شريك لا يعرفون بالمرة مذاقه القديم الرائع . حقا ما قيمة الجنس إن لم تحس ببلل الطرف الآخر ؟ ما قيمة الجنس إن لم يكن هو الشعور بالانصهار ، بالأمان ، بائتمان شخص آخر على كامل جسدك ؟ لقد اخترعوا مؤخرا مصلا للأيدز ، ولا يزال الكوندوم أسوأ جدار فصل عرقى فى التاريخ ، أقصد جدار الفصل العرقى الوحيد السيئ ، فقد كانت الأخرى كلها إيجابية وتقدمية ومفيدة . لقد أصبح الكوندوم عادة لا يريد أحد إعادة النظر فيها . أراهن أن بعض الفتيات يتخيلنه جزءا من جسم الرجل ولد به !

يا لهم من تافهين . تسير حياتهم كما البهائم ، لا يتوقفون للحظة للتفكير فى عمق مأساتهم . روميو يأتى صديقاته من الخلف ! يجدهن يستمتعن ويزيد تعلقهن به . لكن هل فكر مرة كيف تفكر أيهن وكيف تستمتع ؟ هل يعرف أنه عندما تكون فى موقع تلقى الطعن ، تصبح الدنيا غير الدنيا ! هل قلت الثنائية الجنسية ؟ هل قلت تلقى الطعن ؟ يا للهول من جديد ! إنى أتكلم عن روميو . يا للهول تربيع ! طبعا هو يعرف نكهة ومعنى أن تكون فى محل تلقى الطعن ! يا للهول حقا ! ربما يكمن السر فى مكان آخر . لا غرابة أن لا يفهم إحسان عبد القدوس النساء ، ويفهمهن روميو . إن روميو من خلال علاقته المثلية وضع نفسه مكانهن ، تلقى الطعنات ، شعر بلذة تلقيها ، تلك اللذة المقدسة الخالدة . أوه ! كلا ! يا لى من بائس محروم . هل يتحتم على المرء أن يكون ثنائيا جنسيا حتى يقيم علاقة صحيحة مع المرأة ؟ إن الأمور أعقد ليس فقط مما يتخيل هؤلاء ، بل أعقد مما تخيلت أنا نفسى يوما .

لست وحدى . بائسات بنات عشتار المصابات بالسعار بسبب القهر واللا إشباع ! كلنا بائسون . يا للشفقة ! منذ انتصب الإنسان وودع اللذة ؟ لا ، ليس مبكرا هكذا ! منذ اخترع المكاتب وودع اللذة ؟ لا ، الأمر أسبق من هذا . بلى ، منذ اخترع السرير وودع اللذة . كلا ، بل منذ اخترع إله التوحيد وودع اللذة . نعم ، بالضبط ، هذه هى النقطة التاريخية الفاصلة . كلا ! مهلا ! ما هذا الذى تقول ؟ هذا تجديف . كيف حدث وتفوهت به أصلا ؟ إن أمنا الطبيعة هى الرائعة دائما أبدا . أمنا الطبيعة لا يمكن أن تكون ضد اللذة . بالفعل ، سامحنى يا داروين ، خبرتى معك أنك لا تريد لنا إلا المتعة والسعادة . سامحينى يا أمى الطبيعة ، أنت لا يمكن إلا أن تكونى كريمة معطاءة دائما أبدا . الچيينات الأنانية لا تفكر أبدا فى تحديد النسل ؛ أو على الأقل لا تفكر فيه بهذه الطريقة الفجة !

السؤال هو لماذا اخترع الإنسان إله الشر هذا بنفسه ؟ ألا يستحق الآن جزاء ما فعلت يداه ؟ لا بد أن لاختراع إله التوحيد الذى يستذل كل البشر تفسيرا داروينيا هو أيضا . أو ربما الإنسان لم يخترعه ، البعض منهم فقط هم من اخترعه ، لكى يقمعوا الباقين ويسيطرون عليهم ، الفقراء ، النساء ، الأطفال ، وتصادف داروينيا ، أن كانت الحيلة ناجحة ، ولو إلى حين ! والنجاح إلى حين لا يعد نجاحا فى عمر أمنا العظيمة دائمة التجدد . حقا ما قيمة ألفين أو ثلاثا من السنين ، إذا ما قورنت بصبا شبابك الدائم يا ابنة الـ ١٤ بليون ربيعا ؟ !

... ليس بالفكر وحده يحيا الإنسان ، بل بكل رعشة تخرج من ملذات الجسد !

... إن ملذاتك هائلة يا أمى ، ويا ليتك تجودين على يوما بعضا من كرمك !

... ربما فقط لو أنى كففت قليلا عن عراك الأفكار ، وبدأت عراك الحياة نفسها !



طقوس شبه عارية تعم الشوارع

توحى لك بأن ثقافة غشاء البكارة الشهيرة جدا قد ولت

إذا كان من ظاهرتين اجتماعيتين كبيرتين تميزان مصر ٢٠١٠ ، فهما الانتحار والثورة الجنسية . كل يوم تجئ الصحف المصرية التى يأتى بها ضهرى ، بقصة أب معوز ألقى بنفسه من فوق كوبرى الملك فيصل بالهرم ، أو بشاب ألقى بنفسه من فوق أحد الفنادق الشاهقة ، أو فتاة تناولت جرعة هيروئين زائدة . من الغريب أن أحدا لم يعد يريد أن يقطع شرايينه أو يتناول حبوبا منومة . فيما يبدو لم تعد هذه ميتات توحى بالعصرية ولا بالأناقة أو الابتكار .

الحرية الجنسية باتت مظاهرها واضحة لكل الأعين . ليس فتيات مفردات على طول الأرصفة ، يبحثن عن عشاء طيب ، إنما أعداد هائلة من الثنائيات تجمعها الروابط الغرامية والقبلات العلنية فى الشوارع . فى عيد القالانتاين ، أو بالأحرى طيلة شهر فبراير ، تكتسى مصر وجها لم تعرفه أبدا من قبل . كما يقول العموم ' العريان ' و' المخزق ' موجود طوال السنة . القبلات العلنية فى الشوارع والأماكن العمومية موجودة طوال السنة . لكن فى عيد الحب (كما يسميه المصريون) يتحول الأمر لما يشبه السعار الجموعى . حالة لا تشبه أى شىء سابق آخر . ليس حتى ما اعتادوه فى شم النسيم ، طقس الخصوبة الرسمى المتوارث فى الفلكلور المصرى ، إذ هو شديد التحفظ لدى المقارنة ، ويحتفل بالطبيعة أكثر منه بالجنس ، هذا الذى يكتفى بالتذكير به من خلال أكل البيض .

إنها حالة احتفالية من الاهتياج الجموعى تنافس كرنفالات ديو دى چانيرو . طقوس شبه عارية تعم الشوارع توحى لك بأن ثقافة غشاء البكارة الشهيرة جدا قد ولت ، أو باتت جزءا من تاريخ غابر لا عودة له ، أو كأنك أمام احتفالات تناسخت فجأة من حقب ما قبل التاريخ ! لعل السبب أن أعواما من اعتياد الشبان والفتيات على الزواج العرفى المتكرر ، أدت لاضمحلال عقيدة قدسية غشاء البكارة ، وأن فقده يعد نوعا من عيوب الصناعة يخول لك إعادة السلعة لمنتجها أو مقاضاته بتهمة الغش التجارى . الأبعد ، أن أحيانا تعبر الطقوس الخيط الرفيع ما بين شبه العارى وبين العارى ، بالذات داخل المراقص الصاخبة ، كأن تثور بعض الأثداء المتفجرة بالحياة وتتمرد محطمة قضبان السجان . المساجد والجماعات الدينية واستجوابات مجلس الشعب ، تكون هى نفسها أكثر هياجا . كيف هان الحال بمصر منارة الإسلام ، وكيف سمحت حكومتها ودستورها ، بأن يصبح عيد كهذا أهم من عيدى الفطر والأضحى ، العيدان اللذان استنهما لنا الله وحرم علينا الاحتفال بسواهما ؟ إنه عيد ينسب لراهب نصرانى إيطالى . ويا ليته حتى راهب ورع ، إنما راهب ماجن نفذت فيه الكنيسة حد الردة ، الإعدام حرقا !

كل تلك المظاهر ازدانت بها القاعة ، قلوب من القطيفة حمراء تدلت من السقف ومن الحوائط . دمى لكيوپيد بجناحيه الصغيرين . نبيل يوزع الشوكولاتة على الجميع . ورود حمراء مضاعفة الكمية يأتى بها ضهرى يوميا ، كى يأخذها الحاضرون معهم وهم منصرفون . من بينها باقة مكورة من زهرة السوسن البرية المبرقشة الفواحة شبه النادرة يقدمها لسميتها سوسن ، وروميو يتعجب من الرضا الفجائى من الحاج عن إحدى علاقاته الغرامية ، فيرد الأخير : ' النهارده سماح زى بعضه . عيد الحب ! ' ، ' يا أستاذ وحيد النهارده يومك ، سهم كيوپيد أكيد ها يولع ! ' ، والذروة قبلات علنية بين روميو وسوسن ، هلل لها نصف القاعة وصمت النصف الآخر أو أشاح وجهه بعيدا . لكنها فشلت على كثرتها وسهولتها ، وعمقها أحيانا ، فى إقناع ميرفت الخجول بتلقى قبلة واحدة ولو على الخد من سامر الولهان . أما ضهرى فقد مال على روميو هامسا فى تأنيب : ' عارف أنتم محتاجين لإيه ؟ ورقتين توت ! ' ، ' ما ينفعوش ! ، انسى الموضوع يا حاج ! ، إحنا موش أكلنا التفاحة ؛ إحنا أكلنا الشجرة كلها ! ' .

١– البشر ما إلا كرات دهن لزجة مقززة تقذفها الأرحام !

٢– التقنية تطرد الإنسان ، والمعيار الحقيقى لنجاح أى اقتصاد هو حجم البطالة -لا التشغيل- الذى يخلفه وراءه !

٣– فى عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هى الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد !

٤– الثورة الجنسية حتمية اقتصادية ، ولا بد من تجريم الزواج الإنجابى أو على الأقل تقنينه بشروط شديدة القسوة !

٥– البشرية بتناقص مستمر إلى أن ينتهى بهم الأمر -كما كل العشائر البيولوچية السابقة- نزلاء لحدائق الحيوان والمحميات الطبيعية !

بالتوازى يتحول بالطبع كل شىء على المائدة المستديرة ، ركن ضهرى ووحيد المتجهم دوما ، إلى مناقشة فكرية ، وإن عادة ما تبدأ بمداعبة : ' أنت علمانى ، وطبعا عاوز تخللى كل الزواج مدنى ! ' .

– الحقيقة أنا موش عاوز ألغى الزواج الدينى ، أنا عاوز ألغى الزواج أصلا !

– كنت متوقع الرد ده . أنت فى مرة كتبت أن الثورة الجنسية حتمية اقتصادية . لا يمكن الحد من الإنجاب دون إطلاق الحرية الجنسية . التقنية بتطرد البشر من الدنيا . البشر بقوا إيه ؟ إيه الوصف بتاعك ؟

– (ضاحكا :) كانوا ٥ عناوين : ١– البشر ما إلا كرات دهن لزجة مقززة تقذفها الأرحام ! ٢– التقنية تطرد الإنسان ، والمعيار الحقيقى لنجاح أى اقتصاد هو حجم البطالة -لا التشغيل- الذى يخلفه وراءه ! ٣– فى عصر ما بعد-الصناعة لم تعد الأسرة النووية هى الخلية الأساسية للمجتمع ، إنما الفرد ! ٤– الثورة الجنسية حتمية اقتصادية ، ولا بد من تجريم الزواج الإنجابى أو على الأقل تقنينه بشروط شديدة القسوة ! ٥– البشرية بتناقص مستمر إلى أن ينتهى بهم الأمر -كما كل العشائر البيولوچية السابقة- نزلاء لحدائق الحيوان والمحميات الطبيعية !

– أيوه ! المقالات دى بتاع أن الروبوتات سترث الأرض والكائنات البيولوچية المنماة چيينيا ها تتخانق ع الميراث والحاجات دى . أنت قلت موظفات السنترالات اليدوية اتشردوا بعد السنترالات الآلية . بنات الغزل والنسيج والحياكة نفس القصة . موظفو البنوك نفس الحال بعد ماكينات الصرافة . إعادة التدريب ليست إلا حلا جزئيا ، وطالما التقنية تتقدم ، لا مفر من تناقص عدد البشر . علشان كده كل الأعراق بتنقص ، البيض بينقصوا طبيعى بسرعة مخيفة ، الصفر بينقصوا إما طبيعى فى اليابان وغيرها ، أو بقوة القوانين فى الصين . اللاتين فى أميركا الجنوبية تقريبا عددهم ثابت ، وعلى الأقل اللاتين الأوروبيين أكيد بينقصوا . وقلت ما فيش حد بيزيد غير المسلمين والسود . ولو استمرينا فى الزواج باعتباره الصيغة الرئيسة للاجتماع الإنسانى ، فإحنا رايحين لداهية ما لهاش قرار ، ولا حل إلا الثورة الجنسية . موش ده كلامك ؟ وكنت على شوية تقول الحل ليس تشجيع الغربيين الأنانيين على الإنجاب ، إنما قتل أو تعقيم من ينجبون ؟

– مظبوط ! ما ذنب شخص اكتفى بدخله ولم ينجب ، كى تسلب منه مصلحة الضرائب عاما بعد عام المزيد من دخله ذاك ، كى تنفق به على من يواصلون الإنجاب بلا مسئولية أو ضابط أو رابط !

– القصة موش كده . كل إللى أنا شايفه أن الإنجاب فى القناطر زى الفل وعلى ودنه (يسحب زهرة فل من التى جاء بها صباحا ، ويستنشقها على نحو عابر) ! لا حرية جنسية م إللى بتقولوا عليها نافعة ، لا حتى البطالة نافعة . الناس بتتصرف ، عندها الأرض وبتبنى وتتجوز . الزواج هو سيد الموقف . حتى البت منى كمان موش فاهمة . أنا قريت الإحصاءات إللى بتقول عليها طول الوقت . فعلا البيوت القائمة على شخص فرد بالمعنى المطلق للكلمة ، هى الأغلبية فى أميركا . حتى العزباء التى تربى طفلا لم يعودوا يعتبرونها شخصا مفردا ، وأصبحت معدودة ضمن تلك الأقلية . لكن لو قرأت كويس بقية الإحصاء كانت ها تعرف أن الزواج لا يزال الأسلوب الشائع فى الطبقة الوسطى فما فوق . وإذا كان الانقراض بتاع نظرية التطور سيكون من نصيب الضعفاء ، فمعناها أن الزواج ليس إلى انقراض ، بل إلى زيادة ، إلى سيادة ، الكل سيصبح متزوجا !

– طب وإللى بيقوله روميو عن استحالة العلاقة المستدامة بين الرجل والمرأة ؟

– سيبك م الواد البايظ ده . مصيره فى يوم ها يغير رأيه . إذا كان كل واحد فاهم أنه قوى وقادر يشق الحياة لوحده ، بيلعب لعبة السيطرة والفصال مع الطرف التانى ، بلاش من الجواز ، ما فيش داعى له أصلا .

– يعنى قصدك الزواج للضعفاء ؟ ده عكس كلامك من دقيقة . موش فاهم ؟ !

– الكل ضعيف ، لكن قليلين من يدركون هذه الحقيقة . من يعتقد أنه قوى لدرجة أن يستطيع العيش بمفرده واهم . فقط الأكثر ذكاء يعلمون أنهم سيصبحون أقوى بهذه الشراكة . وأقصد شراكة بجد ، حب وتوحد يعنى ؛ الكيانين بقوا واحد ، كورية زى ما بتقول أنت ونبيل !

– (مؤمنا على الكلام حسبما فهمه :) مظبوط ! الحب للمحظوظين فقط طبعا !

– لا ، بل الحب للأذكياء فقط ! الذكى يجب أن يفعل المستحيل بحثا عن الحب . لما بأشوف اتنين راجل وست بسطاء بيحبوا بعض ، بأقول عليهم دول أذكى من مليون غيرهم . بيشدوا بعض طول الوقت ، وإللى أنجزوه فى حياتهم أكيد يساوى إنجاز ناس نعتقد -أو يعتقدون فى أنفسهم- أنهم أقوى بكتير . أنا مثلا متنبئ لسامر وميرفت بحياة سعيدة ، وأنهم ها ينجحوا فى حياتهم . انظر كيف يحدبان على بعضهما البعض . هذا ما تفعله مثلا كثير من الطيور والحيوانات . ألفة وإخلاص طول العمر ، وده موش عبط منها ، إنما شيء ذو قيمة تطورية كبيرة . ده تخصصى وأنا عارف بأقول إيه . للأسف إللى ماشى دلوقت إما العلاقات العابرة ، أو بس الجنسية ، أو حتى اعتبار الخيانة شطارة .

– الحب للأذكياء ، وأنا أعترف أنى غبى ! بس عاوز أقول موش بمزاج الواحد أنه يلقى الحب أو ما يلقاهش ، الموضوع محتاج لشيء أقرب للسحر !



– إحنا موش شايفين نتايج للاقتصاد الحر ؛ إصلاح إزاى إذا ما كانش خيره يعم وتحس به الناس ؟ !

– الإصلاح لو وصل خيره للى زيك ، ما يبقاش اسمه إصلاح !

– كلامك نفسه به تناقض كبير . قل لى كيف تدافع عن الحرية المطلقة وتطالب بتجريم الزواج بقوة القانون ؟ !

– لو أننا فى بلد بلا ضرائب وبلا تعليم عمومى وبلا صحة عمومية وبلا جمعية خيرية هائلة اسمها الجهاز الحكومى وبلا مظاهرات خبز تقوم بها تلك ' الثروة البشرية ' ، لوجدتنى فى طليعة المنادين بأن الإنجاب حرية شخصية . هؤلاء المشاخ الذين يتزوجون خمسا وينجبون خمسين كى يدفعونهم للمظاهرات أو طوابير البطالة أو على الأقل للمدارس الحكومية ، يستخدمون القوة والعنف كى يسلبوننا حرياتنا ويستولون على أموالنا ، ويخرقون أبسط بديهيات المجتمع التى هى أن يعتمد كل إنسان على نفسه وينفق على نسله ولا ينتظر شيئا من أحد . أنا عامة كنت أؤيد برنامج مبارك ٢٠٠٥ ، إلا فى نقطة واحدة . أكيد فيه كلام كتير عن الديموقراطية والإصلاح السياسى أعارضه بشدة ، لكن طبعا لم آخذه على محمل الجد ، لم أعتقد جديا أن الحكومة مستعدة فعلا لتحويل البلد لفوضى وحروب أهلية ، أو أنها موش فاهمة أن ده إللى ها يحصل لو الأمور سابت من إيديها . نقطة واحدة إللى اعتبرتها خطيرة جدا ، ولم يكن من الواجب أن تكتب أبدا فى البرنامج .

– أنت كنت مبطل كتابة ساعتها ، صح ؟ إيه هى النقطة ؟

– أنه وعد بخلق ٤.٥ مليون فرصة شغل . لو هو ورجالته جادين فعلا فى الإصلاح ، وهم فعلا جادين لحد ما ، كان المفروض يوعدوا الناس بإلغاء ٤.٥ فرصة شغل ، وليس بإضافتها ، بالذات الوظائف الحكومية ووظائف الشركات الخاسرة .

وهنا جرت مناقشة جانبية بين ونس وبين ضهرى :

– إحنا موش شايفين نتايج للاقتصاد الحر ؛ إصلاح إزاى إذا ما كانش خيره يعم وتحس به الناس ؟ !

– الإصلاح لو وصل خيره للى زيك ، ما يبقاش اسمه إصلاح ! ؛ يبقى الاشتراكية بتاعتكم بتاعة زمان ، يا تنابلة يا بلطجية أنتم ! الإصلاح شغل وفكر وفلوس بتقوم به نخبة معينة ، وشيء طبيعى أن خيره بيرجع لهم . يروح لغيرهم ليه ؟ كمل يا وحيد بك . سيبك منه !

– تعرفوا أن أنت وأنت وأنا وكل الناس إللى حوالينا دى ، هم إللى بيدفعوا مرتبات عمال النسيج من جيوبهم ؟ من الضرايب إللى بتدفعها الشركات إللى إحنا مساهمين فيها ، أو كمان بيشغل فيها ناس كتير من القاعدين دول ، وكان المفروض تيجى لنا فى صورة أرباح أو تحسين مرتبات ، بدل ما تروح معونات لصناعة المفروض إذا ثبت فشلها نغلق ملفها . أميركا لا تنتج من الإبرة للصاروخ . أميركا ' لا تقدر ' أن تنتج من الإبرة للصاروخ . مصانع شهيرة جدا تغلق يوميا عندهم . لكن إحنا طالما المصنع أنشئ وكتب عليه افتتحه السيد الرئيس جمال عبمعصورة ، يجب أن يستمر مفتوحا للأبد . بالمثل ، إحنا بنخلف ، وطالما الشخص ولد ، نبدأ نفرضه كأمر واقع (مشروع يجب أن يستمر مفتوحا للأبد) : هذا إنسان ، والإنسان له حقوق ، أين الطعام ؟ أين التعليم ؟ أين الوظيفة ؟ أين الزواج ؟ ، وهكذا . وكأن المفروض أو الطبيعى أن هناك شخصا ما

فى مكان ما عليه أن يتولى تلك المصروفات ، نيابة عن الأب والأم ، شخص اسمه الدولة ، اسمه الرأسماليين ، اسمه الأغنياء ، اسمه الحرامية الكبار ، اسمه أميركا ، اسمه ما شئت . شخص اسمه فايزر أو جلاكسو أو نوفارتيس أو ميرك ، التى تنفق البلايين على تنمية الأدوية ، وفى كل مرة تسرقها حكومات العالم الثالث قاطعة الطريق باسم حماية الحياة ، والنتيجة شىء واحد : إنقاذ حياة الفقراء من أجل إنجاب المزيد من الفقراء ، أى زيادة الفقر والفقراء . إذا كان ما تنفقه هذه الشركات من أموال سوف تسرقه الشعوب القراصنة كل مرة ، ماذا لو قررت التوقف عن إجراء البحوث ؟ ماذا لو أفلست ؟ هل ستفيدوننا أنتم ساعتها ؟ لما الحياة غالية جدا عندكم كده ، طب ما تنموا أنتم الأدوية من جيوبكم ، بدل ما تسرقوا وتحموا الحياة إللى هى فى الحقيقة رخيصة جدا ؛ لأن لا أحد عندكم يفكر فى وضع ميزانية دقيقة لكل مشروع طفل قبل إنجابه ، إنما ينجبه وخلاص . لو الحياة غالية عندكم بصحيح ، ما كنتوش احتجتم للسرقة أبدا !

– بس ...

– أنت عارف أنى موش بأحب فرنسا ، وبأعتبر أقصى اليمين فيها يسار ، ولم أتوقع لساركوزى أن يصبح مثلا مارجاريت ثاتشر ثانية ويسحق النقابات مثلا ، لكنه على الأقل أعجبنى عندما بدأ حملة الرئاسة من ٣ سنين بعبارة ' فى فرنسا لا يستطيع السياسى أن يقول على القبضايات قباضيات ولا على الحثالة حثالة ' (طبعا كان يقصد المهاجرين العرب والمسلمين ، واعتبرتها شجاعة منه أنه لم يتراجع عن رأى سابق له قبلها بشهور كان قد أثار ضده سخطا عارما من قبل اليسار التقليدى وعصابات المهاجرين) . الحقيقة أن موش فرنسا بس إللى فيها الصراحة مفقودة فى لغة السياسيين . عندنا لم يوجد سياسى واحد كانت لديه الجرأة أن يقول أن مشكلة الاقتصاد المصرى أن ميزان العرض والطلب فيه مختل ، وأن بالنسبة للبشر لدينا فائضا هائلا فى العرض !

نسى ضهرى ما كان يود طرحه من تحفظات ، وبالعكس انفعل طربا ، وانتقل لإحصاءات من نوع آخر وأيضا للهجة الريفية وحركة الذراعين : ينصر دينك ! قصدى ينصر أرسطو بتاعك ، إذا كان هو دينك ! أنا فى مرة حسبتها . عارف علشان إنتاجية المصرى تبقى زى إنتاجية الأميركى أو الإسرائيلى أو اليابانى ، عدد سكاننا الـ ٨٠ مليون المفروض يبقى كام ؟

– كام ؟

– ٨٠٠ ألف ! عارف أنا عندى فكرة إيه ؟ زى ما كانوا بيدوا معاشات مغرية للموظفين علشان التقاعد المبكر فى شركات الخصخصة ، يدوا الشبان والبنات فلوس علشان التعقيم ، إللى عاوز يعقم نفسه يأخد ١٠٠ ألف جنيه مثلا ، أما إللى عاوز يخلف لازم يدفع ضريبة ١٠٠ ألف جنيه !

– أنت عنيف أوى يا حاج !

– بعض ما عندكم ! موش أعنف منك ! ثم ارسى على بر ! شوية تقول على طيب وشوية تقول عنيف !

– (يضحك :) أنا إللى أرسى على بر برضه ؟ !

هنا كان ونس قد بدأ مشوار التلميحات مع روميو بخصوص سوسن ، التى بدأت صداقتهما قبل نحو ١٠ أيام فقط . يقول له : ' عاوزين نشوف التانجو ، ولا أنت بتاع كلام وبس ؟ ! ' ، ' التانجو إللى أنت قصدك عليه ما ينفعش هنا ! ' ، ' طب التانجو التانى إللى بالهدوم ! ' . وفعلا وتتدخل سوسن فى الحوار لتسأل -دون أن تعى جيدا أن هناك معنى آخر للكلمة فى هذه القاعة- هل يجيد روميو حقا رقص التانجو . وتدعوه للرقص . يفسحون الكراسى فى منتصف القاعة . يبدأ دق الأرضية بعنف ، وتتنمر العيون استعدادا لالتهام شريك الرقصة الطقسية ، ويبدأ الكر والفر العنيفين ، وفى لحظات التلامس تنسحب الأيدى من خلف هذا الشريك من الأسفل للأعلى وكأنها ترفعه للأعلى أو تشده للانصهار داخل الطرف الآخر . سكان الشقة السفلية يأتون غاضبين محتجين ، لكنهم لم يغضبوا ولم يحتجوا ، فقط انخرطوا فى الفرجة : ' إيه رأيك يا ونس ؟ ' ، ' هايل لدرجة أنى موش ها أطلب منك ترقص باليه معاى ! ' ، ' ومين قال لك أنى ها أرضى ؟ ! ' . وتضج القاعة بالضحك ، عدا سوسن المنخرطة جدا فى الرقص ، والمنهمكة فيه بجدية ، والتى فى نفس الوقت لا تزال لا تعرف بدقة عم تدور هذه الأحاديث أصلا !

حين يفرغ روميو وسوسن من عرضهما الصاخب ، يكتشف الجميع أنهم كانوا شركاء فى الرقصة بالتصفيق الإيقاعى وطرق الأرض بمقدمات الأحذية . ويتضح أيضا أن شهيتهم قد انفتحت فجأة لشىء اسمه الرقص . لا يجدون أحلى من ميرفت ليدعوها لرقصة شرقية ، تتمنع إلى أن

تشجعها عميلة شابة اسمها ناهد ، فترقصان معا ، ويتحول الجميع لعازفى رق وطبلة . وبعد برهة تنسحب ميرفت لتواصل ناهد استعراض موهبتها الراقصة الطبيعية منفردة . ويستبعد ونس فكرة المشاركة بالنفير حتى لا يفسد حماس الفتاة الفتية !

ما إن يهدأ صخب القاعة ، حين يجتر وحيد حواره مع ضهرى ، ويعود متسائلا : ' الحب للأذكياء فقط ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



ماركس قال من كل قدر ما يستطيع ولكل قدر ما يريد .

هذا هو تعريف الظلم . العدل هو من كل قدر ما يريد ولكل قدر ما يستطيع !

أصلا ، ما فيش حاجة اسمها عدل وظلم ، فيه بس عرض وطلب .

أنا موش مستعد أفهم العدالة الاجتماعية بأى معنى تانى غير ده !

المساواة هى المساواة فى الحرية ، لا تنقص قطرة ولا تزيد قطرة ، وإلا باتت شيئا ظالما ، والأهم منه مدمرا !

– أنا قريت لك كل كلام الاقتصاد الحر ده قبل كده ، والحكومة لها كام سنة بتقوله ، لكن موش شايف أى حل نافع ع الأرض . هذا ليس ما تريده شعوبنا أو ما تحلم به . هى لا تريد الحرية ؛ تريد العدل . طموحها الأوحد عمر بن الخطاب . حتى السادات المتحضر العظيم إللى أنت بتحبه وتحترمه ، وإللى بدأ حرية الاقتصاد ، ذكر كلمة عدل أمام الكنيسيت ١٥ مرة ، وكانت كلمة ذات وقع غريب على الأذن الغربية ولم يفهموا سر كثرة استخدامه لها !

– الحكومة ضعيفة ؛ عاوزة تصلح ، إنما ضعيفة . بذمتك شفت بلد فى العالم عمل ضريبة تصدير ؟ بدأوا بضريبة على الإسمنت والحديد والأسمدة والأدوية ، ولما كل الناس ما تشكى من أسعار حاجة يضيفوها لضريبة التصدير ، حتى البترول فكروا يبطلوا تصديره . فيه حاجة فى التاريخ اسمها ضريبة تصدير ؟ فيه بلد فى الدنيا بيحارب تصدير منتجاته غير مصر ؟ تصور لما بتندى نصنع أدوية ذات مستوى ، الحكومة تمنع تصديرها . لولا أنهم فى اللحظة المناسبة أقالوا وزير المصادرة والتأميم ، أقصد وزير التجارة والصناعة ، ذلك الذى تيقظ فجأة ضميره الاشتراكى ، لكنا الآن فى وضع كارثى لا حل له (يقصد الوزير رشيد مُحَمَّد رشيد الذى أقيل ، هو ووزيران آخران ، فى مطلع سنة ٢٠٠٨ بعد الدمار الهائل الذى سببوه للصناعة المصرية ، ولم تتعاف من آثاره بعد . زائد أنهم وضعوا مصر كلها فى مواجهة مكلفة مع منظمة التداول العالمية ، حين قالت لهم هذه حماية ، ولو أردتم مكافحة التضخم كما تقولون ، ابحثوا عن طريق آخر كزيادة الإنتاج أو تقليل الطلب) . الناس تصرخ تقول سعر الإسمنت والحديد والطاقة ارتفعت وبلاش يتصدروا علشان نبنى مساكن لأولادنا ، الحكومة تسايرهم فى الكلام . ابنوا زى ما أنتم عاوزين بس موش من جيب غيركم . سيبوا إللى عاوز يصدر يصدر ، واستوردوا أنتم . ما حدش منعكم . ابنوا وكلوا واتعالجوا بأسعار البلاد إللى موش بتخلف على عمال على بطال . ابنوا بحديد وإسمنت وبنزين بأسعارها العالمية ، بالأسعار إللى بيبنى بها كل البشر . عاوزين تاكلوا ازرعوا بسماد بالأسعار العالمية ، عاوزين تتعالجوا اتعالجوا بأدوية بالأسعار العالمية . أنتم موش على رأسكم ريشة ، علشان تتجوزوا وتخلفوا أرخص من كل العالم . وطبعا بعد ما نبنى مساكن رخيصة للشباب ، ها يتجوزوا أكتر وأكتر ، وها يخلفوا تانى وتانى ، وها يقولوا تانى عاوزين وعاوزين ، ودوامة الفقر الجهنمية تستمر وتتفاقم إلى ما لا نهاية ! ثم ما هذا الذى قلته عن الحرية والعدل . العدل فى ماذا ، إذا لم يكن هناك اقتصاد أصلا ؟ طبعا أنا لست ضد العدالة ، لكن بصراحة كلما سمعت الكلمة أصبحت أتحسس مسدسى . هكذا تعلمت من عشرة الشيوعيين فى شبابى . لعب بالألفاظ لا أكثر . يقولون العدالة ويقصدون المساواة . حدد يا حاج أنت مع العدالة ولا مع المساواة ؟

– مع الاتنين .

– (صائحا :) إزاى ؟ ! إذا كانوا الاتنين عكس بعض ؟ العدالة الاجتماعية أنك تدى كل واحد حقه ، والمساواة أنك تحرم صاحب الحق من حقه . المتميز ياخد حقه ، والضعيف ياخد حقه . المتفوق ياخد حقه ، والمتخلف ياخد حقه . النشيط ياخد حقه ، والكسول ياخد حقه . أنا موش عاوز أكتر من أن كل إنسان ياخد حقه . ماركس قال من كل قدر ما يستطيع ولكل قدر ما يريد . هذا هو تعريف الظلم . العدل هو من كل قدر ما يريد ولكل قدر ما يستطيع ! أصلا ، ما فيش حاجة اسمها عدل وظلم ، فيه بس عرض وطلب . أنا موش مستعد أفهم العدالة الاجتماعية بأى معنى تانى غير ده ! المساواة هى المساواة فى الحرية ، لا تنقص قطرة ولا تزيد قطرة ، وإلا باتت شيئا ظالما ، والأهم منه مدمرا ! واحد موش عاوز يشتغل هو حر ، واحد يقدر يكسب ملايين هو حقه !

– (ساخرا ، مفصحا أنه كان يتلاعب بالألفاظ لا أكثر :) أنا قصدى المساواة فى الفرص !

– بالظبط ! العدل هو حراك اجتماعى يوصلك للسما أو يخفسك تحت الأرض حسب قدراتك . المساواة بين غير المتساوين ليست عدلا . الاشتراكية والديموقراطية ظلم بين . هى تصويتات متساوية لعقول غير متساوية وجيوب غير متساوية وكل حاجة غير متساوية (التوقيع : أرسطو ! أو جايز دى صياغتى أنا لكلام أكثر قسوة منه !) .



تجفيف منابع الإنجاب

– تصويتات متساوية لعقول غير متساوية وجيوب غير متساوية وكل حاجة غير متساوية ؟ يعنى باختصار أنت ضد مبدأ المواطنة ؟

– أنا ضد الفوضى ؛ ضد الإنجاب غير المقنن . المسيحيون بسذاجتهم الغبية فرحوا بالمواطنة لأنها ها تديهم ١٥ أو ٢٠ ٪ من المناصب والمقاعد ، بينما -وبغض النظر عن رأيى الخاص فى مرقس ، أو حتى ككل فيمن يسمون أنفسهم أقباطا ممن لا أجد فيهم شيئا حقيقيا يستحق الاحترام- فإن حقهم هو ببساطة ٧٠ ٪ بحكم الثروة التى تحت أيديهم . لو عاوزين ديموقراطية ، موش أقل من أن تحدد الحقوق السياسية بدخل شهرى معين ، أو شىء كهذا ، لكن أن يكون كل طابور الانتخابات من الشباب العاطل الذى أنجبه أهله عن طريق الخطأ ، فهذا جنون ! ماذا سيحدث اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا لو حكمت البلاد طبقا لمنظور شباب كهذا ؟ الإنجاب نفسه يجب أن يحدد بمستوى مادى معين . فى البلاد الغنية تتشارك العمارة فى تربية طفل واحد ، بينما عندنا يريد كل شخص أن ينجب بنفسه .

– هأ ! هأ ! هأ ! قصدك تعريف المتخلف هو الشخص إللى بيخلف !

– (بجدية :) تقريبا ! على كل زوجين يريدان الإنجاب أن يتقدما بدراسة جدوى اقتصادية من جهة بحثية معتبرة لمشروع الطفل هذا ، أو يدفعان مثلا مليون جنيها ضريبة إنجاب للدولة . هذا لا أعتبره تدخلا من الدولة فى حياة البشر ؛ لأن هؤلاء هم من يتدخلون فى حياة غيرهم ، يفرضون أبناءهم على المجتمع كأمر واقع ، ويجهضون أسس المجتمع وحرياته ببلطجتهم وصوتهم العالى .

– والحل ؟

– الحل هو تجفيف منابع الإنجاب ؛ الحل هو الحرية ؛ التنافسية المطلقة ، وعدم مصادرتها تحت أية دعاوى إنسانوية أو أيا ما كانت . التقنية تلفظ البشر ، أنا أقول هذا شىء جيد ، وأنتم تعتبرونها مشكلة ، إذن الفيصل بيننا هو الحرية ، هى الحل دائما أبدا لكل المشاكل ، باقتلاع الجذور وتجفيف المنابع . لو لدينا هذه الحرية المطلقة ، ولو كانت حقيقة مسلم بها يقرها الجميع ، لما كنا فى حاجة لإجراءات للحد من النسل ، لأن أحدا لن يتعاطف ساعتها مع هؤلاء الآباء ، بل سيطلب محاكمتهم وقتل أطفالهم . ساعتها لن نكون فى حاجة لوجود الدولة أصلا !



الحكومة وسخة صحيح ، إنما الشعب أوسخ ، والمعارضة أوسخ الكل !

– أنا رأيى أن الاقتصاد الحر بتاعك ده قصة تانى ، قصة أطول ، وشروطها أصعب ، وجايز ما تنفعش مع شعبنا ده خالص . أنا لا أستطيع التمييز بين الحكومة والناس والمعارضة كمعسكرات مستقلة ، هم تركيبة سياسية متكاملة معينة هى نفسها نتاج تركيبة چيينية معينة هى هذا الشعب ، ولا يمكن مهما حاولت الحصول على نظام سياسى إلا هذا من تلك التركيبة الچيينية . كل حاجة فى الچيينات . الشعب غبى وجاهل ، ومبسوط بغبائه وجهله . الحكومة وسخة صحيح ، إنما الشعب أوسخ ، والمعارضة أوسخ الكل ! الكل وسخ فقط مع تفاوت فى الدرجة لا أكثر . كل التمانين مليون فاسدين ، ومبسوطين بالفساد . من أول وكيل الوزارة إللى بياخد رشوة ، لغاية الفراش إللى سايب شغله وبيبيع الهدوم للموظفين بالتقسيط . وكل إللى حاولوا تغيير ده اتقضى عليهم . خد الخديوى إسماعيل مثلا ...

ويتدخل روميو مقاطعا بسخريته المعتادة والممزوجة دائما بلهجة الحسم : ' أجلوا الكلام ده بعدين . خلاص ! ونس فلوسه ضاعت وخلصنا ! ركزوا شوية ! شايفين سهم السجاد طالع يجرى إزاى ؟ مين قال لكم مصر ما تفلحش فى حاجة ؟ السجاد والسيراميك المصريين كاسحين العالم . الظاهر بينبسطوا هناك لما يدوسوا على أى حاجة عليها اسم مصر ! ' .

يبدأ ونس فى الغناء : ' مصر ، مصر ، دايما مصر ! ' . ثم يتحول دون أن يلحظ إلى أغنية أخرى ومغنية أخرى : ' ما تقولش إيه إدتنا مصر ، قول ها ندى إيه لمصر ! ' .

لكن شهية وحيد كانت لا تزال مفتوحة لمزيد من النقاشات : ' عارفين إيه أصل كلمات الأغنية دى ؟ ' .

لم يتوقع أن يجيبه أحد ، لكن ضهرى رد بسرعة : ' أنا عارف ! خطبة التنصيب بتاع كينيدى ! ' لا تسأل ماذا أعطتك بلدك ، اسأل ماذا أعطيت أنت لبلدك ' ' .

– ثقافة هايلة يا حاج . أنا كنت عاوز أقول حاجة فكرتنى بها الأغنية ، ولها علاقة بكلامنا عن السوق والاقتصاد .

– إيه ؟

– سمعت عن ميلتون فريدمان ؟

– طبعا ، بتاع الاقتصاد الحر ، السايب ع الآخر . كسب نوبل ، موش كده ؟

– آه طبعا ، بعد كده ، سنة ١٩٧٦ . عارف رد قال إيه لكينيدى ؟

– لأ !

– قال له : ' موش المفروض نسأل ولا سؤال من السؤالين بتوعك ؛ لا بلدنا إدتنا إيه ، ولا ها ندى إيه لبلدنا ' .

– مفهوم ! السوق حر ، ولا يوجد شىء اسمه حكومة ، وبالتالى لا شىء اسمه بلد . وطبعا كينيدى عاوز الناس تدى البلد ، قصده عاوز هو يلم ضرايب يعنى . أيوه ، عليه نور . هى الضرايب كده ، أتاوة وبلطجة . ناس فاشلة وكسلانة ، عاوزة تلغ ببلاش !

يعلق ونس ساخرا : ' أنت لسه من دقيقتين ، بتقول الحب والمودة ودور الحكومة . ثم ما له دور الحكومة ؟ موش المفروض أنها تحمى ضعفاء الناس ؟ ! ' .

– خليك فى حالك أنت . بسلامتك عاوز حكومة روبين هوود تسرق م الأغنياء وتدى الفقراء ؟ أنا معاك يا أستاذ وحيد .

لا يرد . يجتر الكلام السابق ، ويعود متسائلا فى إعجاب : ' شعوب لا تريد الحرية ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



الچيبنات هى الكل فى الكل ،

التربية موش ها تعمل أينستاين تانى ، لأنها ما عملتش أينستاين الأولانى !

يخرج ضهرى من محفظته صورة لابنته منى ويريها لوحيد : ' أنت عارف أنا متفق على إيه مع منى ؟ ' .

– إيه ؟

– قلت لها العلاقات الجنسية شىء خطر فعلا . جايز تؤدى للإصابة بالأيدز . بس الأخطر منها أن تؤدى للحمل . والأخطر وأخطر أن تؤدى للإبقاء على الطفل . والأخطر وأخطر وأخطر أن تؤدى للزواج . الأخطر إطلاقا من كل حاجة أن تؤدى للحب .

– أنت لسه بتقول الحب للأذكياء فقط . ارسى على بر !

– برضه ها تقول بر ؟ !

– أنت بجد قلت لبنتك الكلام ده ؟ قلت لها الجنس أقل الأشياء خطرا ؟

– آه ، إيه المشكلة ؟ !

– أنت حاج أنت ؟ !

– أيوه أنا حاج . وحاج أصلى . كان أول سفر لى بعد التخرج . عزمت الحج ، ومن بعدها بدأت ألف العالم . ونس ده حاج مزيف ، تايوانى . علشان عاش فى الخليج ١١ سنة ، حتى موش فى السعودية نفسها ، بقوا بيقولوا له يا حاج .

– حسب إللى أنا شايفه ، أنت تايوان نفسها !

– قصدى علشان تركز على مستقبلها ، وفى نفس الوقت ما تعملش مصيبة . الجنس أهون من غيره . أنا نفسى حبيت وجزء من سعادتى فى الحياة أنى قابلت واحدة وارتبطنا ببعض ، لكن الحالة دى استثناء ، بالذات اليومين دول ؛ وعقلى بيقول لى الحب أجمل شىء فى الوجود ، لكن فى نفس الوقت أخطر شىء فى الوجود . أنت بتفقد عقلك أصلا لما بتحب ، وكائن تانى جواك هو إللى بيحكم تصرفاتك .

– وبعدين ؟

– اطمئن . هى لو لها مزاج فى الجنس ما كانتش ها تتأخر ثانية ، ولا كانت حاجة فى الدنيا ها تحوشها . أنا مستحيل أراقب كل دقيقة وثانية فى حياتها . فى كل الأحوال هم ها يعملوا كل إللى عاوزينه . إحنا عملنا كده من ورا آبائنا ، وآباؤنا عملوا كده من ورا آبائهم ، وهكذا . إذن رهانى الوحيد أن يكون عقلها كبير . أعلمها العوم ، أحسن ما أقول لها ما لكيش دعوة باليه . إللى شاغلنى بس هو موضوع الحب والهيام . وإللى بيطمنى أنها دايما تقول أنها مستحيل تقع فى الحب ، هو جنون وسكر ، وهى تعيش بعقلها ، ولا شىء إلا عقلها .

– لو أنا أفكارى رجعية وضد البنات كنت سألتك دلوقت : ' أنت عاوز تطلعها راجل ولا إيه ؟ ' .

– أيوه راجل ! ليه لأ ؟ أنت فاكر أنى علشان ما خلفتش ولد ، بأربيها كده . إطلاقا . أنا لفيت العالم وشفت الست ممكن تكون أجدع من مية راجل فى كل حتة !

– حسب الصورة ، منى دى ملكة جمال . إزاى تتكلم عنها كده ؟

– ملكة جمال مشكلتها أنها راجل زيادة عن اللزوم من جوه !

– ارسى على بر ، مبسوط بأنها راجل ولا زعلان ؟

– بر تانى ؟ دى دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين !

– أنت يا حاج لا تقدم سوى اعتراضات ، تعرف ماذا لا تريد ، لكنك لا تعرف ماذا تريد . اسمح لى أقول أن دى مشكلة . عليك أن تكون موقفا إيجابيا نحو شىء ما أولا ، ثم تعرضه على الناس أو تنصحهم به أو تطلبه منهم ، لكن إبداء المواقف بالسلب طوال الوقت لا يفيد شيئا .

– (ضاحكا :) وهل يفعل العرب شيئا غير هذا طوال الوقت !

– (ينقلب من المغايظة للحميمية :) ما خلفتش تانى ليه يا حاج ؟ بيقولوا كمان الولد يشيل الاسم ؟

– اسم إيه وبتاع إيه ؟ بص : أنا قلت لك أومن فى كل حاجة بالكبير . وإللى ها يورثه اتنين ، أحسن يورثه واحد بس . فعلا يا ريت كمان بيجى اليوم إللى زى ما بتقول كل عمارة تشترك ويشتروا جنين بمواصفات كويسة ويأجروا له رحم ، ويربوه كلهم ؛ يرموا قرعة علشان يختاروا له اسم والدولة تعترف به ابن لهم كلهم ويورثهم كلهم . موش من شوية كنا بنتكلم على مايكروسوفت ودراكر ؟ ومن نعم ربنا على أن أمها متفتحة ولها نفس الأفكار (يخرج صورة لإجلال) .

– إنما أنت بتحكى لى كل كده ليه ؟

– (بعد تردد :) لأن منى دى بتفكرنى بالزهد بتاعك ، إللى بصراحة موش قادر أفهمه لا فيك ولا فيها ؛ حاسس أنها ها تطلع مكنة زيك .

– وطبعا ده شىء سيئ ؟

– ما قلتش سيئ ولا كويس ، إنما بأسأل إزاى تبشر بالثورة الجنسية ، وحياتك تقريبا من غير جنس ، ولا أنا فاهم غلط ؟

– أنت بتعرف حاجة زى دى إزاى ؟

– تقدر تقول باينة على وشك . لو أنت ممارس الجنس مظبوط الليلة إللى فاتت ، موش ها تتيجى كده أبدا .



الحريات الواجبة هى الحريات الطبيعية ؛ حريات أمنا الطبيعة :

حرية السوق والاقتصاد ، والحرية الفردية كالحب والجنس والفن وغيره .

أما الحرية السياسية فهى حرية مستجدة مصطنعة الهدف منها استلاب البعض للحريات الطبيعية للآخرين !

– يعنى إيه ' كده ' ؟

– يعنى مشغول ، جد زيادة عن اللزوم ، وشبه متوتر كمان . أنت مكنة من شعر رأسك لغاية دباديب رجليك ؟

– مكنة تانى ؟

– أيوه ! إزاى تؤمن بالاقتصاد الحر وقوى الطبيعة وشركة كيوبيد ، وتحرم نفسك من أهم قوى الطبيعة إطلاقا ؟ إزاى تقدر تفصل بين إللى بتقوله وإللى بتطبقه على نفسك ؟

– بسيطة جدا ! أنا بأكتب عن ما يخص عموم الناس . من حقهم يستمتعوا بالحياة ، نصنع لهم أفلام على مزاجهم ، أغانى على مزاجهم ، موش على مزاج المثقفين . أيوه الديموقراطية غلط ؛ لأنك تستدعى الناس لتسألهم فيما لا يفهمون وكان يجب أن تذهب بأسئلتك لخبراء الاقتصاد والتقنية وغيرهما . الشىء الوحيد الذى لا يجب أن نطالب فيه بأى محتوى معين على الإطلاق ونطالب فيه بالديموقراطية كل الديموقراطية ، هو الحريات الشخصية . الحريات الواجبة هى الحريات الطبيعية ؛ حريات أمنا الطبيعة : حرية السوق والاقتصاد ، والحرية الفردية كالحب والجنس والفن وغيره . أما الحرية السياسية فهى حرية مستجدة مصطنعة الهدف منها استلاب البعض للحريات الطبيعية للآخرين ! السبب بسيط ، أن الحريات الطبيعية هى الأشياء إللى بتخص الناس فعلا . هم ربما لا يفهمون فى العلاقات الدولية ولا بالجيل القادم من الحواسيب ، لكنهم بالتأكيد أدرى بما يحبون مشاهدته وما يريدون الاستماع إليه . أدرى بكيف يرقصون وكيف ينتشون ، وأدرى بكيف يقعون فى الحب وكيف يمارسون الجنس . هذه حياتهم الخصوصية وتلك حرياتهم الشخصية .

– شايفهم بهايم يعنى ؟

– شايفهم أحرار ! (قالها باقتضاب حاسم ثم واصل :) إللى بيسميهم أرسطو قادة ، يختلف الوضع . هو صنف البشر لقادة وعبيد ، والشعوب لحضارية وبرابرة ، كله بناء على القدرة على التحكم فى الغريزة . إنما ده موضوع تانى !

يتدخل ونس ضاحكا : ' بصراحة مناقشتكم دى جديدة خالص ! على أيامنا كانت الخناقات على ودنه بين الفن للفن والفن للمجتمع ، وأنتم طلعتم بحاجة أول مرة أسمعها : الفن للبهايم ! ' .

– كل حاجة قالها أرسطو ؟ القرآن بتاعك ؟ بس استنى ! وقعت يا شاطر ! أنت كده دمرت أرسطو خالص . بتقول تحكم فى الغرائز ، يعنى ضد الطبيعة ، يعنى الفكر والإرادة أهم من المادة ؟

– بس ، بس ، حيلك ! موش أوى كده ! هو الراجل قال القادة يكبتوا غرائزهم متعمدين ؟ قال إن طبيعتهم كده ، چيبناتهم كده . لا أحد يتحكم فى غرائزه ؛ الغرائز محدودة أساسا عندنا !

– البت العبيطة دى ، موش فاهمة أن شخصيتها دى أنا لى أثر كبير عليها . الچيبنات . هى جابتها منين ؟ (ثم يصحح نفسه :) طبعا الچيبنات موش كل حاجة . بچيبناتها دى كان ممكن أطلعها زى أى بنت ريفية تسمع الكلام وتمشى جنب الحيط . أديسون إللى قال العبقرية ٩٩ ٪ عرق و ١ ٪ إلهام .

– (يضحك :) مرة قلت لى منى بتصحح لك الإنجليش ؟ يبقى اسمه إديسون موش أديسون . وفعلا العبارة بتقول Genius is one percent inspiration and ninety-nine percent perspiration . أكيد كلامه صح ، لكن أنا رأيى أن فيه سقف چيينى . التربية جايز توصلك ليه . إنما تظل الچيبنات هى الكل فى الكل . التربية موش ها تعمل أينستاين تانى ، لأنها ما عملتش أينستاين الأولانى !

– حلو أوى المثال ده ! كان موظف صغير ، ولا دكتوراة ولا بكالوريوس حتى .

– أنا بأوصف الموضوع أن الچيبنات هى الـ hardware والتربية هى الـ software ! أنت ما تقدرش تحط طريات سوپركمپيوتر على صلائد كمپيوتر عادى ، موش ها تشتغل .

– ده أنت مكنة فعلا ! إنما باعتبارى متخصص فى الچيبنات التشبيه عاجبنى ، بس موش دقيق . وأنت الصادق ، الچيبنات هى الهاردوير والسوفتوير سوا ، التربية مجرد إدخال بيانات وانتظار نتيجة محددة سلفا حسب نوع الجهاز وحسب نوع البرمجة إللى عليه ! بمناسبة الناس الحلوة إللى جبنا أسماءها دى ، أنا عندى صياغة للموضوع بلغة الرياضيات : كل العوامل التاريخية والثقافية والتربوية والأخلاقية وكل ما يسمى ' بالظروف ' هى متغيرات تابعة ، والچيين فقط هو المتغير المستقل الوحيد فى معادلة التاريخ ، هو الذى خلق كل المتغيرات الأخرى وتسبب فيها جميعا ، بما فيها طريقة تفاعل هذا الشعب المقصود مع العوامل الخارجية كالغزو أو الكوارث الطبيعية . أما حين تختار متغيرا مستقلا آخر ، فأنت هنا تتكلم عن عرق آخر ، وتاريخ آخر و' ظروف ' أخرى ، وكل شىء آخر .

– طبعا كلام رائع لأنه يتماشى تماما مع الفلسفة المادية التى أومن بها ، وأن البنية التحتية -أى الأشياء المادية التى يمكن أن تلمسها بيدك- هى الشىء المهم والأساس ، وبقية الأشياء المعنوية كالفكر والثقافة هى منتجات فوقية لتلك البنية التحتية ، وذات تأثير ثانوى فى جميع الحالات . إنما استنى هنا ! أنت مع أن الإنسان يبقى مكنة ولا ضد أنه يبقى مكنة ؟ ده أنت حتى عملته مكنة صماء . يا ريت تحاول ترسى على بر مرة !

– بر ؟ بر ؟ أنت ما فيش على لسانك غير الكلمة دى ؟ ! على أية حال ، إللى كنت عاوز أقوله إن ما فيش فى إيدينا غير التربية . ما فيش فى إيدينا غير أن نمط دماغهم بالبيانات والخبرات دى .

– نمط دماغهم ؟

– أيوه ، زى ولا مؤاخذة لما كان أبونا يرجع جزمنا للجزمجى إللى عملها ، بعد أول يوم فى المدرسة ويقول له طلعت ضيقة ، حطها فى قالب زيادة نص نمرة . للأسف التربية عندنا تنحصر فى نهى واحد هو ' لا تتناول المخدرات ' ، وبالنسبة للبنات يضاف نهى آخر ' لا تتناولى المخدرات ولا تمارسى الجنس ' ، لكن التربية الحقيقية مليون شىء ، والمفارقة أن كلها خبرات إيجابية ، بمعنى أن لا نواهى فيها على وجه الإطلاق ، ولما يتمط دماغهم ها يكتشفوا الصح والغلط بنفسهم بسهولة ولا يحتاجون لعسكرى يقف على رأسهم طول الوقت . أنا فى رأيى كل النواهى عدم تربية أو نقيض للتربية . منى وهى صغيرة سنتين أو تلاتة كنت بأفرجها على أفلام عنيفة ، والمكتوب عليها للكبار فقط . Terminator 2 مثلا . آكشن وعنف ما فيش بعد كده . الإنسان قزم تافه فى الأفلام دى . موش محصل حتى كرات الدهن بتاعتك . كمان فضلت محروقة أسبوع تسأل زى المجنونة هو ليه البطل مات فى آخر الفيلم . عارف إيه أكتر فيلم هزها ؟ ' بامبى ' الرسوم بتاع الغزال . طبعا عارفه ؟ فضلت مرعوبة شهر وقالت إزاى أم بامبى تموت ؟ دايما كنت بأحطها فى مواقف وتجارب وحاجات أكبر من سنها . الكمپيوتر عندها من سن سنتين . ودلوقت حضرتها مبسوطة بشخصيتها المستقلة وبالتمرد ، وموش فاهمة أن كل ده من تصميمى وهندستى أنا نفسى !

– (مغايظا :) واضح ! عرفنا دلوقت السبب ليه دماغها طلعت زى الجزمة !



أنت كنت طالب متفوق . أخدت حقك وكنت بتطلع الأول . بعدين أخدت حقك فى الوظايف والشهرة والفلوس .

إذا كان المتفوقين بياخدوا حقهم ، إيه إللى يخليك متحمس أوى كده للتنافسية والدفاع عن المتفوقين ، لحد أنك تزعل الناس منك ؟

... السبب أنك بتدافع عن قبيلة المتفوقين ؛ بتدافع عن چيين التفوق !

... ' يا نخبة العالم اتحدوا ! ' ليس شعارا اخترته ، إنما شعار اختارك !

– مع ذلك أنا تعاملت مع حياتها بمنطق الناقد السينمائى لا المخرج ، إنما لم أصنع شيئا مباشرا فى حياتها ولم أجبرها على شىء ؛ كل شىء من صنعها هى ، فقط كنت أنتقدها وأوجهها بلطف من الخارج .

– ارسى على بر ، تصميمك وهندستك ولا نقد وتوجيه ؟ (ثم قبل أن يحتج على العبارة مرة أخرى يردف مواسيا :) ما تضايقش نفسك يا حاج . لما تكبر شوية ها تفتكر وها تفهم وها تشكرك . أو حتى جايز فاهمة ، وكبرياء المراهقين هو إللى بيمنعها .

– لا شىء يشبه حبنا لأطفالنا إلا حب الكلاب لأصحابها ، حب خالص غير مشروط وبلا مقابل . فقط المؤلم فيه أنه من طرف واحد ، فهم لا يريدون هذا الحب ويعتبرونه دسا لأنوفنا فى حيواتهم . إنما حتى تفرح عندما يلعق مايتى وجهها ، بينما لا تقول سوى ' أوف ! ' حين أسألها أنا عن أحوالها !

– وهى دى حاجة تزعل ؟ أنا نفسى مرة أحب حد حب الكلاب لأصحابها . قلت لك لما تكبر ها تفهم .

– أنا ما يهنيش خالص أنها تفهم ، أو تقول لى أو تقول لأمها شكرا . يهمنى تكون كويسة . الشطارة والمهارة أهم حاجة علشان تنجح . ومهما حصل هى خايبة برضه .

– شطارة زى ونس كده ؟

– قلت لك ونس فهلوة وحلنجية وشمحطجية . قصدى يبقى جواك حاجة ، حاجة كبيرة . أنا معجب بك علشان كده . طول حياتى ما قابلت واحد زيك . وطبعا ما أعرفش أبقى زيك . أنا مندفع . إنما أنت كل ما نسألك سؤال عن الأسهم أو عن أى حاجة ، تتهرب وتقول : ' ما ليش رأى ' ، ' أعتقد ' ، ' جايز ' ، ' ربما ' ، وكلامك إياه ده . لكن تانى يوم أو بعد أسبوع تفاجئنا أن لك بقى لك رأى فى الموضوع إللى إحنا تقريبا نسيناه ، ونلقاك بتدافع عنه زى الأسد ، خلفيات وتحليلات وكأنك عملت دكتوراة فيه . وبعد كده يبقى الرأى ده جزء منك ما يتغيرش تانى طول العمر ! هو ده قصدى بجواك حاجة . علم ودراسة يطلع منهم موقف وشجاعة .

– لاحظ أنك قربت تدخل على أرسطو ، وها تبقى عرقى ، عنصرى زى ما بيقولوا ! على فكرة ، على وصفك ده ، منى موش ها يعجبها حكاية ما فيش غير التربية ، وها تقول لك ما عملتولناش چيينات صح من الأول ليه .

– طبعا ! أنت ها تقولى على بجاحتها ووشها المكشوف . المفروض الآن يعملوا أينشطاين (أو أينستاين) من مخه المحفوظ . إذا كان علماء بريطانيا عملوا جنين من خريطة چيينية أخدوها من عظام القبر ، حرفيا أحيوا العظام وهى رميم ، فما بالك من مخ محفوظ بعناية . زمان كان المشعوذ عندنا يقول للست هاتى لى حاجة من ريحة جوزك وأنا أعمله عمل علشان ما يتجوزش عليكى . بكرة ها يتقال هاتى لى ريحة منه وأنا أعمله لك كله ، تربيه على مزاجك ! يا عينى ، بس الموتى إللى كانوا بيحرقوهم وينثروا رمادهم ، هم إللى موش ممكن يرجعوا تانى .

– أهو أنت كده ، ما بتبطلش تفكير يا ضهرى ؟ على فكرة ، العكس موجود برضه . هاتى لنا ريحة منه ، وإحنا نقتله لك . أكيد تعرف أن إسرائيل نمت قنبلة بيولوچية يمكن أن تقتل فردا واحدا فقط لا غير . ڤيروس ينشر فى الهواء ، يصيب تحديدا من تطابق چيينات الشخص الذى صمم الڤيروس لقتله ، بينما لا يؤذى أى أحد آخر ؟

– عرقية ؟ دى الترجمة إللى اتفقت عليها مع نبيل ؟ أنت كتبت مرة أو اتنين تقول الچيينات ، وأعماق الشعوب ، والطبقات الچيولوچية للأمم . صح ؟

– أيوه ، الاختلافات بين الشعوب واضحة . شعوب تحب الاشتراكية بطبعها ، وشعوب تحب التنافس بطبعها . شعوب نشيطة ، شعوب كسلانة . شعوب دينية ، شعوب دنيوية . طبعا . ده كلام أرسطو . كلام قديم جدا . بس لاحظ أنى فى كل مرة كنت بأؤكد أنها إنطباعات عامة ، إحصائية . كنت حساس أوى وأنا بأكتب . كلام عام متأثر فيه بأرسطو ، موش أكتر ولا أقل . الشعوب المتخلفة واضحة ، والمتقدمة واضحة . الكسلانة واضحة وإللى بتبتكر واضحة . لازم فيه ترابط بين الچيينات ، على الأقل بسبب برودة المناخ أو سخونته . موش أكتر من رصد إحصائى ، لأن لسه الحقائق العلمية بتاع الـ DNA ما تعرفتش كلها . مجرد تأملات فلسفية أو إحصائية ، وليست علما مختبريا . وتوقعت أن أكيد لما ها تطلع ها تقلب مفاهيم كتير ، عن الاشتراكية والمساواة والديموقراطية وحقوق الإنسان ... إلخ . وفعلا ده ابتدأ يحصل مع الخرايط إللى بدأت تطلع لتوزيع چيين معين عبر العالم ، وكأنها تنطق بخصائص هذا الشعب أو ذاك .

– المشكلة فعلا أن الموضوع لسه فى أوله . مهتمين بچيينات الأمراض وبس حاليا . لكن ماذا لو اهتموا مثلا بچيين العنف أو چيين الغباء أو چيين الكسل ؟ الدنيا كلها ها تقوم . هل يمكن للتربية أن تغير لون بشرة الإنسان الأسود ؟ الإجابة سهلة ويعرفها أى طفل : لون البشرة جزء من الشفرة الچيينية ، ولا يمكن تغييره . ماذا لو أصبح السؤال : هل يمكن للتربية أن تغير من انفعالية الإنسان الأسود أو ميله للعنف أو بطء الفهم لديه ؟ لا دليل علمى حاسم حتى اللحظة ، لكن الإجابة الأولية التى تدعمها كل الظواهر وأرقام الرصد الإحصائى هى أن لكل شىء عوامله الچيينية التى لا يمكن تغييرها ، تماما مثلها مثل لون البشرة . ثم لما ها يهتموا بموضوع التصاحبات الچيينية gene associations ، الدنيا ها تولع أكتر . تتخيل ها يحصل إيه لو ثبت مثلا أن فيه بين ارتباط بين چيين العنف وچيين البشرة السوداء أو الأنف الأفطس ، أو بين چيين الغباء وبين چيين الشعر المجعد أو چيين اتضح مثلا أنه يحدد مفهوم الشرف ، أو بين چيين الكسل وچيين عدد الغدد العرقية اللازمة للتكيف مع الحر ؟ الأرض كلها ها تنقلب جحيم مولع نار . طبعا كل واحد عارف جواه أن السود طول عمرهم ما ها يتطوروا ، والعرب كذلك بالأحرى ، كلهم

اتعمل لهم ما لا يعمل ومبسوطين بالتخلف . ملايين السنين ها تعدى ولن يجد جديد . كل كلامك وكلام أرسطو مظبوط . كل ده كلام سهل وواضح و' إحصائى ' وموش محتاج إثبات ، إنما يوم ما ها يتقال لهم إن چيبناتهم -وليس الاستعمار أو الصهيونية مثلا- هى إللى كتبت عليهم التخلف للأبد ، وأنها متصاحبة معا بحيث لن يمكن حتى فصلها بمحاولة التحكم فى النسل ، ها ينقلبوا وحوش أكتر ما هم وحوش دلوقت ألف مرة . ربنا يستر . الكلام فى الچيبنات حاجة تانى خالص . دى عاملة زى صندوق پاندورا ، يوم ما ها ينفتح موش ها ينقفل تانى قبل ما يقضى على الدنيا كلها .

– أو جايز يحل السلام الأبدى . كل شعب ها يعرف قدر نفسه ، ولن تقوم حروب . السبب الوحيد لنشوب الحروب أن الضعيف لا يعرف أنه ضعيف .

– السلام الأبدى ؟ أنت بتحلم ! الچيبنات قصة فوق ما يخطر ببالك خالص ! أنت كنت طالب متفوق . أخدت حقك وكنت بتطلع الأول . بعدين أخدت حقك فى الوظايف والشهرة والفلوس . إذا كان المتفوقين بياخدوا حقهم ، إيه إللى يخليك متحمس أوى كده للتنافسية والدفاع عن المتفوقين ، لحد أنك تزعل الناس منك ؟ ... السبب أنك بتدافع عن قبيلة المتفوقين ؛ بتدافع عن چيين التفوق ! ... ' يا نخبة العالم اتحدوا ! ' ليس شعارا اخترته ، إنما شعار اختارك !

– ما كنتش أعرف أنك واخد الموضوع بجد أوى كده !

– تعرف أن الموضوع ده هو تخصصى ؟

– إزاى ؟

– سمعت عن الدكتور أحمد مستجير ، الله يرحمه ؟

– طبعا ، وكنت فى شبابى بأحب أقرا له كتبه وترجماته .

– أنا دخلت زراعة عين شمس بحكم التنسيق وإللى بيسموه التوزيع الجغرافى ، لكن بعد سنة أولى نقلت جامعة القاهرة . كنت بأسمع عن الدكتور مستجير وعن تخصص الهندسة الوراثية إللى أنت بتسميه الهندسة الچيينية . ما كانش لسه حتى بقى أستاذ . نقلت مخصوص علشانه . للأسف ما تجيش سيرة الموضوع ده ، إلا لو موش فاضيين أو فى آخر الجلسة . أشوفك بكرة !

– (بابتهاج :) لا ! ده إحنا ها يكون بينا كلام كتير ! (وبعد برهة :) بس أنت بجد قلت الكلام بتاع الجنس ده لمنى ؟

– طبعا ! هو أنت موش مصدق ليه ؟

– وبسبب إللى أنا كتبته ؟

– لا ، ما تتغرش فى نفسك أوى كده ! ما تنساش أنى لفيت العالم !

– أنت ليه ماشى دلوقت ؟

– القالانتاين بأه ، وأنت عارف ها يحصل لى إيه لو ما روحتش دلوقت حالا ! اوعى تنسى تاخد الورد بتاعك !

– مع السلامة يا حاج ! كل سنة وأنت طيب . ما تنساش فى ١٧ مارس احتفال القديس پاتريك . الناس هنا فاهمة غلط . القالانتاين موش طقس خصوبة . القالانتاين بتاع الرومانسية ، والپاتريك هو بتاع الجنس !

– البركة فى إللى زيك يا سى روميو . كل حاجة بقت بتاع جنس . الكريسماس نفسه !

– أنا عندى سؤال يا حاج : إذا كان كل الستات ها يبقوا محجبات أو يقعدوا فى البيوت ، يبقى الرجالة عملوا إيه يستحقوا عليه الجنة ؟ ! هأ ! هأ ! بس خللى بالك يا حاج الپاتريك له زهور مخصوص ؛ اسمها الشمروك ، الورقة ٣ حتت وبيقولوا عم پاتريك لما راح أيرلاندا كان بيستخدمها فى شرح الثالوث المقدس ! هأ ! هأ !

– عارفها ، نوع من البرسيم غض وقصير أو تشبه الرجلة بتاعتنا شوية ، نوارة جميلة أبيض على بنفسجى فاتح ، اسمها باللاتينى oxalis acetosella ، ممكن استورد البذور بتاعتها !

– ها تكسب مكاسب هايلة . تحب تشاركنى ؟ ! يا للا يا ميرفت ، يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى ! ها أقلب بياع برسيم ! برسيم من بتاع البهايم . البهايم ! فهمتى ؟ !

كان ضهرى يكاد يغادر باب الشركة عندما استوقفه صياح روميو هذا الذى لفت أنظار كل القاعة . كان مبتهجا لأنها المرة الأولى فى حياته ، التى تكون فيها قبلته الأولى مع صديقة له ، قبلة احتشد لها الناس دفعوا إليها وهللوا لها . قرر أن يطرق الحديد وهو ساخن . بعد لحظات مال على أذن سوسن يفهمها أن الجو اليوم صاخب جدا ويعوقه عن التركيز ، ومن الأفضل لهما أن يذهبا لمنزله كى يطلعها أيضا على حواسيبه وأساليبه فى التحليل .

– بس أنا عندى سؤال يا حاج بخصوص الترابطات الچيينية دى ؟ ينفع واحد زى مستر وحيد ما بيحبش طعم السكر على لسانه ، وبيدخن السيجار علشان يطفيه بعد المشروبات ، يكون جسمه فيه خلايا دهنية كتير ، أو واحد مفجوع زى ونس يكون جسمه ما يتخنش ؟ لازم كل الچيينات تكون ماشية مع بعض ، وإلا تطق تموت .

– صح . الأولانية مستحيلة فعلا ، بس التانية ممكن يكون حب الأكل مترابط مع حاجات تانية غير عدد الخلايا الدهنية . (غامزا بعينه :) حب الرياضات العنيفة مثلا !

يودعان وحيد بينما عينا روميو لا تفارقان الجسد الفائر الذى يتقدمه ، فتنم عن ذراع وحيد حركة عصبية لا إرادية ، ويرد فى ابتسام ظاهر وصوت خفيض وغيظ وإحباط مكتومين : ' باين على وشى ؟ ! ... لك حاجات يا حاج ! ' .



كانت تزم فخذيها بشدة

يصف طبيب مصر الجديدة مراهم مسكنة ، قال إنها جديدة وفعالة ، وأيضا تعالج المرض قليلا أو على الأقل تحاصره .

ويسأل وحيد : ' كنتى بتاخدى كام فى الشهر ؟ ' ، ' ٥٠٠ جنيه ' .

– أنا عاوزك يومين الأجازة بتوعى بس ، الجمعة والسبت ، وها أديكى نفس المبلغ . لا تخشى شيئا . لن تقصرى فى شىء يخص كريم . لن تلمسى المياه . اكنسى مثلا وأنا سأقوم بالباقى . علمينى كل شىء ولا تفعلى شيئا لو شئت . فقط لا أريد أن تنمسح تلك الابتسامة عن وجهك أبدا . إنها تعنى لى الكثير . أكثر مما تتصورين !

عاد لها الأمل ، توردت بلون الرمان من جديد . عقلها المشلول عادت له الحياة . بقدر ما الحاجة هى أم الاختراع ، فإن الأمل يدفئ المخ وينجب الأفكار . اشترت قفازا صوفيا وأخرى مطاطية . تبدأ بأن تدهن أصابعها بتلك المراهم التى تجعلها تشعر بسخونة شديدة مريحة فى أصابعها ، زائد بعض الخدر الملطف . ترتدى القفاز الأول وفوقه أحد القفازات الثانية ، وأصبحت تقوم بكل شىء بما فيه ما يختص بالماء . ربما ببطء قليلا وبدون حركات عنيفة حتى لا ينفجر الألم . لكن كل الأشغال عادت ممكنة بهذه الطريقة .

حين أتته بالشاى ، طلب منها أن تجلس قليلا إلى جانبه . منذ جاء إلى هذه الشقة لم يكن قد شغل التلفاز أبدا . من يوم جربه له السمسار والبواب ليتأكدوا من صلاحيته ، لم يقربه هو . بادرت هى إلى تشغيله . ظلت تقلب إلى أن لاحظ أنها تتلكأ أمام قنوات الأغانى العربية . قال لها اتركى هذه قليلا . كانت قناة اسمها ' رومانس ' تتحدث أغانيها طوال الوقت عن الحب والألفة والدفء . ربما تشبه الفكرة التى اقترحها روميو يوما . بعد قليل لاحظ أنها تحبها وتغوص معها .

تأتيه مرتين فى الأسبوع . فى كل مرة تأتيه فيها أصبح يكرر هذا .

يفتح قناة الأغانى العاطفية ، ويدعوها للجلوس بجانبه لساعة أو نحوها ' كى تستريح من الشغل ' .

فى المرة التالية ، التالية للثالثة ، طلب منها أن تجلس على حجره كما طفلة لم ينجبها أبدا .

فى المرة التالية ، بعد أسبوع ، احتضنها ولم يرفع ذراعيه من حولها قط .

فى المرة التالية ، طبع قبلة سريعة على جبهتها .

فى المرة التالية ، ردت عليها بقبلة طويلة على يده .

فى المرة التالية ، أخذ يقبلها مرارا فى وجهها ، فى جبهتها ، فى خديها ، وفوق شعرها .

فى المرة التالية ، أصبح يقبلها فى فمها بذات الطريقة التى يقبل بها بقية وجهها .

فى المرة التالية ، أصبح الاحتضان أقوى .

فى المرة التالية ، أصبحت القبلات أعمق .

فى المرة التالية ، أصبح أكثر حرصا على أن تضغط فى جلستها على مناطق جسمه الأكثر حساسية .

فى المرة التالية ، بدأت تستشعر هى السخونة تلهب فخذها من أعضاءه المنتفخة المتصلبة .

فى المرة التالية ، شعر أن بنطاله قد تبلل ، فنهض خجلا للحمام كى يستحم .

فى المرة التالية ، بادرته هى : ' قوم اقلع هدومك علشان أغسلها لك ' .

فى المرة التالية ، قالت : ' قوم اقلع هدومك علشان أغسلها لك ... يا حبيبى ' .

لا تعرف كيف وصلت بها الجرأة للنطق بكلمة كهذه . مع ذلك هى لم تخرج منها عفوا . فكرت بها ودرستها لأسابيع قبل أن تتفوه بها . هذه الحروف الخمسة كانت أقصى ما يمكن أن تتطاول به على سيدها . لا أستطيع كتمها حتى لو أدى بى الأمر لطردى . احتاج الأمر استجماع أقصى جرأة لديها ، وأعنف ما استطاعت به مقاومة نفسها . كانت تكتم مشاعرها الهائلة بكل طريقة . من السيئ أيضا أن المشكلة ليست مجرد كتمان العواطف والكلمات والنظرات . كل روحها وجسدها كانا متوهجين . منذ يوم التلامس الأول ، تلامس الأطفال . كان جسدها الملتهب يفور هو نفسه برحيق الطمأنينة وترياق السكينة وبلسم الالتصاق . راحت تحاول مداراته بكل طريقة ؛ كانت تزم فخذيها بشدة ، أو تحشر ذراعيها بينهما ، متصنعة أنها تدفئ يديها العليلتين ، ذلك خائفة أن تنطلق من ثغرها نسائم الحب الزكية فيملأ عبقها المكان ، وتنفضح مكنوناتها . كانت تحاول قدر الإمكان كبح الرجفات التى تنبس عن كامل جسدها فجأة رغما عنها . كانت تغسل له ملابسه من بقعة صغيرة ، بينما ملابسها هى الأحوج . غارقة بالكامل ، لكنها لا يمكن لها إلا أن تغسل فى بيتها المتواضع . لا يصح حتى أن تأتى بملابس داخلية إضافية معها لمنزل سيدها .

لم يثر على كلمة حبيبى . لم يثر على أى شىء . بالطبع لم تحلم بأن يرد لها الكلمة بشبيه لها . ولم يفعل .

لكنه كان سعيدا .

سعيدا كلما احتضنها على الكرسى . كلما قبلها . كلما التهب تحتها فى سلام وسكينة كالجمر الصامت الذى لا يرجفه شىء .

سعيدا ... كلما قالت له : ' يا حبيبى ' .

لم ينهرها ، لم يطلب منها أن تكررها ، لم يرد بمثلها ، لكنها ظلت تقولها طوال الوقت .

فى المرة التالية ، قالت : ' أنا عاوزة أحممك بنفسى ، يا حبيبى ! ' .

فى المرة التالية ، تكرر ذات الشىء . تجلسه بهدوء فى الحوض ، وتبدأ فى دعك جسده برفق .

... من الآن سأبدأ رؤية الدنيا من خلال عينيك الصافيتين .

... يا مجدليتى .

... يا قديستى .

... فى كل مرة تالية ، تكرر ذات الشىء .

... بلا نقص ولا زيادة .

... طفلة يهدهدها أبوها .

... وطفل تحممه أمه .

... علاقة أطهر من أن تنقص .

... وأطهر من أن تزيد !



ما الدنيا إلا بورصة كبيرة !

نظر الجميع لما حدث بسبب اعتصامات ومظاهرات الإخوان المسلمين كحدث عابر مر وانتهى . قبله وبعده ، لم تكن محاضرات وحيد المناهضة للمضاربة مقنعة لأحد فيما يبدو . لم تنقص الفجوة أو الجفوة (غير المرئية) بينه وبين العملاء ككل . نعم ، كانوا يتبادلون الكثير من الكلام الودى ، ويسألونه أحيانا وهو يجيب . لكن ما أن يعيب على إحدى الشركات حتى يعتبرون أنه تجاوز الخط الأحمر ، تفوه بما لا يصح التفوه به أبدا على أرضية شركة سمسرة . كانوا يستعوذون من هذا الكلام ، وكأنه مجرد نطق وحيد به سيؤدى لانهيار سعر السهم . فى أفضل الأحوال كان البعض يأخذ كلامه على محمل الجد ، ويعبر عن خوفه هو شخصيا من الخسارة . فقط ضهرى كان الوحيد الذى يتطوع للدفاع عنه علنا .

– أنا طبعا موش عاوز كلمة شكر من حد ، لكن غريبة يا حاج أن ما حدش قالها لى أبدا ، لما قلت لهم الأسعار دى ارتفعت ، وينتظروا شوية ، زعلوا واعتبروا أنى لا أتمنى لهم الخير ، وها هى النتيجة ، خسائر كبيرة !

– ده لأنهم موش عاوزين منك نبوءة صح . عاوزين منك نبوءة متفائلة .

– حتى لو خسروا ؟

– حتى لو خسروا ! هنا سوق بيع الوهم ! إللى أنت شايفهم دول يمثلون كل أجيال البورصة . جيل جه مع الخصخصات الأولى ١٩٩٦ ، جيل جه بعده بشوية مع مرقس والإنتاج التليفزيونى وحاجات تانية ، جيل جه مع خصخصة شركات البترول والاتصالات فى ٢٠٠٥ ، جيل جه مع خصخصة البنوك فى ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ ، وهكذا . تفتكر يا أستاذ وحيد إيه إللى يخللى كل دول يسيبوا أشغالهم المنتجة ويجوا هنا عواطلية طول النهار غير كده ؟ لو هم مستثمرين بجد كانوا اشتروا الأسهم وسألوا عليها بعد سنة ، سنتين ، ٦ شهور .

– ده بيعاملونى كما لو كنت أنا السبب فى نزول الأسعار ! أنا حاسس ده فى نظراتهم .

– ولا يهمك . المهم كلامك سليم . الأسعار لا يمكن ها تطلع على طول . لازم تنزل طبعا ، وبعدين تطلع تانى . أنت لسه شفت حاجة ، طول ما أنت فى رمسيس ووسط الأشكال دى ها تشوف العجب . (ثم ضاحكا بلهجة مسرحية :) ما الدنيا إلا بورصة كبيرة !



قانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest بتاع داروين وسپنسر !

مع ذلك فوجئ بضهرى يقول له ذات مرة دون مقدمات ، فيما كان واضحا أنه نوع من المواساة وتطييب الخاطر : ' أنت فاكر أنهم لا يسمعون كلامك لعيب فى آذانهم ، أو لأنهم لا يجيدون القراءة ، أو لم يطلعوا على ما كنت تكتب ، أو حتى يرفضون ما تقول . إنهم ببساطة لا ينفذونه لأن چيبناتهم تمنعهم من محاولة هذا ' .

وقبل أن يسمح لوحيد بفرصة استغلال حديث الچيبنات على النحو الذى قد يريد ، أردف بسرعة وكأن ما حدث كان زلة لسان : ' إنما كل الناس إللى قاعدة دى ناس طيبة . الشعب المصرى كله شعب طيب ' .

– تفتكر دى ميزة ولا عيب ؟

– أكيد ميزة ، أنك تعيش وسط ناس طيبة .

– وجايز عيب .

– السؤال هو إذا كان كل الناس طيبين ، إحنا ليه متخلفين ؟

– جايز لأنهم طيبين . التطور لم تصنعه إلا الوحشية الهائلة للطبيعة . لو كانت طيبة لما تطور شىء أبدا .

– أنا موش شايف كده . أنا بأتخيل العالم ها يقول علينا إيه لو الشعب ده عمل نهضة اقتصادية . سيعجب العالم بنا أيما إعجاب . ها يقولوا المصريين على عكس بقية الشعوب إللى بتاكل فى بعضها ، طيبين مسالمين ، ليس من طبعهم العنف ، والجريمة عندهم محدودة ، وبكده جمعوا النقضين : الاقتصاد والإنسانية . إحنا شعب بيحب السلام ، ويكره الخلاف ، ويرتاح لشىء اسمه الإجماع !

– ثانشر قالت مرة الإجماع دليل انتفاء القيادة ؛ أو حسب القانون الثانى للديناميات الحرارية ، حتى يتولد الشغل لا بد من جذوة متقدة تمرر وهجها لمحيط بارد خامل .

– عندها حق الست الحديد دى . يهيأ لى أنها كانت بتشرح اللغة موش بتعمل نظرية . بحكم التعريف طالما الكل مجمع على نفس الشىء ، فلا توجد قيادة ! (ويضحك :) المشكلة أن غالبا إجماع المصريين ده ، بييجى على الحاجات الغلط . أنا قصدى أن ده شعب طيب ، ولو وجد توجيه صح ها يبقى شعب عظيم . مثلا الحلو فى مصر أن ما حدش بيموت م الجوع .

– بس فى أميركا بيموتوا .

– وهى أميركا المرجع بتاعنا ؟

– المفروض . يعنى ! باعتبار أنها الأقوى وصاحبة أعظم اقتصاد . وده ما جاش من فراغ ، إنما من المنافسة الشديدة ، وقانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest بتاع داروين وسپنسر !

– أنا لا يمكن أقتنع أن ده الطريق الوحيد للإصلاح .

– والچيبينات بتقول إيه هنا ؟

– قلت لك ده موضوع يطول شرحه ، وأنت أكيد قريت فيه زى ما أنا قريت .

ما هؤلاء الناس ؟ ما لهم وما لى . لماذا لا يهتمون بشئونهم وكفى . أنا لم أطلب نصيحة من أحد . إنى حتى لا أعطى نصيحة لأحد ، إلا لو طلبها منى . لماذا يصممون على اقتحام حياتى ، محاولة تغييرها ، والسعى لفرض مفاهيمهم على . ضهرى إنسان طيب ومثقف ، لكنه فى نفس يوم تعارفنا بالكاد ، راح يرسم لى فى عبارة واحدة كيف أحل أكبر مشاكل حياتى . ونس يحدد لى طوال الوقت كيف استثمر نقودى . روميو يلاحقنى بنصائحه الجنسية . حتى نصر الله رث الحال لا يرحمنى من اقتراحاته . كيف يستبيحوننى على هذا النحو ؟ لكن مهلا . ربما المشكلة أنهم يتوقعون منك الكثير . يتوقعون منك النصيحة التى تجعلهم مليونيرات . نعم ، ربما يثقون بك . لا تنس أن أحدهم ائتمنك على سر حياته الأكبر ، الذى لم يعرفه سوى ريجان والسادات . بالفعل ، لا يجب أن تتسرع . لا تكن قاسيا عليهم . هذه طبيعتهم ، يتصرفون دوما بفطرية ، إللى فى قلبهم على لسانهم ، كما يقال . ضهرى هذا بالذات يصفونه جميعا بابن بلد ، شهم وجدع ولا يريد إلا الخير للجميع . إنهم لا يقصدون شرا ، ولا يقصدون مثلا معايرتك أو إذلالك .

ثم ماذا عن نصيحة ضهرى العجيبة تلك . ألا تستحق وقفة ما : ‘ كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شىء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابى فيها ! ’ . أليس هذا ما يحدث بالضبط على شاشة الحاسوب هذه . كل شىء فى صعود وهبوط . لا شىء يدوم على حاله . كل سعر يرتفع يهبط مرة أخرى ، والعكس . كل خاسر يعود متهللا بعد قليل أن عوض خسائره أو بعضها ، إن لم يكن فى نفس السهم فمن خلال سهم آخر . إنهم يدخلون طوال الوقت ليعلنوا انتصاراتهم هذه لإدوارد . أليست الحياة هكذا ؟ أليس هؤلاء جميعا نسخة من رمانة دائمة الابتسام . هل آن لى بعد أن قرأت كل الدنيا ، أن أتعلم الحياة على يد خادمة وحفنة من المضاربين الصاخبين ؟

يغرق وحيد طويلا فى أفكاره ، ثم يعود لموضوع لم يكن يتخيل أن يناقش فيه أحدا من قبل ، بالذات فى مكان مثل هذا : ‘ بورصة كبيرة ؟ أنت جيت ع الجرح يا حاج ! ’ .

– إزاى ؟

– أنت عارف طول عمرى حلمى فى الحياة كان إيه ؟ أسيب الصحافة والاقتصاد والبيزنس وأدخل طالب دراسات عليا فلسفة . عندى ورقة ، صفحة واحدة ، بأحاول فيها تحديد إيه أقوى القوانين فى الكون . قوانين موجودة قبل الإنسان وبعد الإنسان وفوق الإنسان ، غصب عن عينه يعنى . حاجات زى النزوع للكفاءة . زى النزوع للاستعقاد ، التطور يعنى ، من كائنات بدائية لكائنات معقدة . زى النزوع للاجتماع ، الاتحاد ،

العولمة زى ما بيسموها . زى النزوع للتحكم ، مشكلة إدوارد مع مراته . تصدق مثلا أن الطفل الرضيع بيعتقد أنه هو إللى بيتحكم فينا لما نضحك أو نكشر له ، ويكرر إللى بيعمله علشان نكرر إحنا إللى عملناه . بينما إحنا فاكرين أن إحنا إللى بنتحكم فيه ؟ وطبعا دى مدرسة كبيرة فى التربية ، أكيد تعرف . كمان زى قانون النزوع للاقتصاد ، أقصد به مثلا قانون توفير الطاقة ، الأجسام تتدحرج وتستقر فى أوطى نقطة على الأرض . الموات مثلا هل قانون ؟ هل لازم كل شىء إلى زوال وانحلال ، الكون يذهب لحرارة وسيطة وتنعدم منه الحياة والحركة وأى تفاعلات ؟ من الحاجات إللى موش متأكد منها مثلا التخصصية إللى بتزيد حوالينا يوم ورا يوم ، هل هى قانون وحتمية ؟ هل فيه حاجة زى كده فى الجسيمات مثلا ، جسيمات متخصصة ، وما كانتش موجودة زمان ؟ أنا طبعا موش متأكد أن كل دى ' ناوسيات ' زى ما بأسميها ، وعملت لى هالة بالصفحة دى موقع على الإنترنيت اسمه nOusia.com . كلمتين يونانى nous بمعنى عقل وousia بمعنى المادة أو الكينونة المادية substance أنا شابكهم فى بعض ، ما تاخدش فى بالك ، ممكن نناقش فيها نبيل بعدين ؛ المهم ده المقصود بها . معظم القوانين دى على فكرة موجودة فى الثرموديناميكس ، وفى خواص الجسيمات ، كلها أو أغلبها physics فى الأصل . قانون القوة مثلا ؛ الكون فيه قوى أربع ، من أول جاذبية المجرات ، لغاية ربط النواة بحيث لا تتنافر البروتونات فيها رغم أن كلها موجبة الشحنة ، ولو انحل قانون القوة لانهار كل شىء . جايز قانون القوة يكون أوضح قانون وأقوى قانون ، مع ذلك الأمم المتحدة مثلا بتقول عدم جواز احتلال أراضى الغير بالقوة . هنا فيه تناقض واضح بين الطريقة إللى ماشى بها البشر ، وبين الطريقة إللى ماشى بها الكون . لو طبقنا بجد مبدأ زى بتاع الأمم المتحدة ده ، يبقى لازم كلنا نسيب الكوكب ونسلمه لأصحابة الأصليين ، البكتيريا ! جايز بعض القوانين إللى بأفكر فيها موش قوانين قاعدية ، وموش منطبقة على كل شىء . هو ده البحث . وفايدته أن الإنسان يبطل يتحدى قوانين الطبيعة . الاشتراكية مثلا ، الفلسفات الإنسانوية humanist مثلا ، كلها واضح أنها ضد حاجات بتعتبرها أمنا الطبيعة بديهيات . البورصة دى بتخلينى أفكر فى قانون تانى . ممكن تسميه الدوراتية cyclicality . كل حاجة دورات طالعة نازلة . أسهم تعلى وتوطى ، موش تعلى على طول زى أحلام ونس ، إنسان يتولد يكبر وبعدين يموت ، ازدهار ثم والعكس ، حضارة تعلى ثم تموت ، سعادة ثم حزن والعكس ، كواكب بتلف حوالين بعض ، الموجات ، الذبذبات . أعتقد ده برضه جايز يكون ناوسيا . بل حتى جايز يربط أكتر من ناوسيا مع بعضهم البعض . أو جايز بالعكس ينفى بعض الناوسيات أو كلها ؛ لأن جوهره أنه لا شىء يبقى على حاله ، أى لا ' قوانين ' . أو جايز هناك قوانين فعلا ، لكن الدوراتية فعالة فى كل ما هو ليس قانونا . الموضوع محتاج دراسة فعلا !

يعنى ونس : ' حبة فوق ! ... وحبة تحت ! ' ، بينما يبدى ضهرى جدية أكبر نحو ما قاله وحيد : ' طب وإيه إللى مانعك ؟ ' .

– قلت لك : الكلام كده سهل ، إنما علشان يبقى أكاديمى شىء فى منتهى الصعوبة والضخامة . أرسطو الوحيد إللى عمل حاجة زى دى ، أورجانون زى ما بيسموه . طبعا ده كان مجهود مبكر ، ويتناسب مع معارف عصره ، وما عدش يعتد به النهارده إلا فى خطوطه العريضة . فرانسيس بيكون حب يعمل الأورجانون التانى ، ولقى أن المعارف أكبر من يستوعبها بنفسه ، وقضى عمره يشتغل فى تصنيف العلوم وما قدرش يخلص . موش ده تفكيرى ولا طموحى طبعا ، وجايز حتى لا يمكن أى مؤسسة فى العالم تقدر تنفذ طموح أرسطو أو بيكون على معارف النهارده المهولة . أنا عاوز نمسك شوية قوانين ونمحصها علشان نعرف هل هى قوانين جامعة فعلا ، بتنطبق على شىء فى الكون ، أم لا ، ونقول لازم طبعا الإنسان يطبقها على نفسه . نفسى أستاذ فلسفة يأخد كلامى ده على محمل الجد ويتبنانى ويشرف على ، وأعمل البحث ده .

– أنت جواك سلفى كبير .

– إزاى ؟

– مخلص لأرسطو وعصره حتى فى اختيار الأسماء . إيه ناوسيا دى ؟ اختار حاجة فحمة رنانة من بتوع اليومين دول . Natureology مثلا ! المهم ، ده كلام كبير أوى ! شد حيلك ! آدى الكلام ! سيبك من قعدة رمسيس الهايفة دى ، وعاوزين نشوف حاجة . جايز بالمرة سلفيتك دى ترجع كام خطوة كمان لورا ، قول لمصر القديمة مثلا .

– (شاردا :) موش عارف ! شكلها هايفة فعلا !

– واحد مفكر كبير زيك ، ممكن يشوف غير كده ؟

ويناكفهما روميو : ' هايفة فعلا لأنكم أنتم إللى عملتوها زى قعدة المصطبة ! ' ، ويخفف نبيل من وطأة الكلام : ' مصطبة من setup ! ' ، وبالفعل يضحك ضهرى : ' فعلا ! عندنا فى الأرياف نقول فلان ده متصطب يعنى قاعد على المصطبة وكل حاجة مظبوطة فيه ! ' .

– (يجتر الكلام السابق ، ويتساءل فى إعجاب :) الدنيا بورصة كبيرة ؟ ! لك حاجات يا حاج !



وجد عندها رزقا

أسد لا يأتى ولا يذهب إلا مع صديقيه ، عارف ورزق . الفرسان الثلاثة -كما باتوا يسمون فى القاعة- من شركة ' تى إى داتا ' ، فرعها فى مصر الجديدة . كلهم فوق الثلاثين بقليل . أسد قصير متين البنية ، وهو أكثرهم جرأة لكثرة كلامه ، وأيضا لأنه الأكثر غريزية واندفاعا فى قراراته الاستثمارية ، ويقول إنه لا يستمع إلا لصوت إحساسه الداخلى ، العبارة التى دائما ما تدفع ونس للغناء : ' أنا بأعمل إللى فى رأسى ... ما دام هو ده إحساسى ' . حين يستشعر أسد بأنه قد يتخذ قرار شراء خاطئا ينسل هابطا للمقهى ، قائلا : ' حتى لا يغوينى الشيطان ! ' . حين تهوى الأسعار بشدة ينسل أيضا قائلا : ' خايف قلبى يقف ! ' .

عارف أكثر منه طولا وأكثر حصافة واطلاعا فيما يخص الاستثمار ، وهو الذى كان بوابتهم للمجىء لشركة رمسيس . أخيرا هناك ثالثهم ، رزق المهذب الهادئ ، نحيف طويل ، وأكثر من صديقيه سمرة . لا يرتدى بذلات أنيقة نسبيا كأسد ، لكنه على العكس منه يحرص على ألا تفارقه الكراڤتة أبدا . ذات يوم شوهد أسد يجرى بطاولة المقهى المعدنية الرفيعة الطويلة عبر الشارع ليضرب زميليه يوم أخبرهم أنه انتوى الزواج ، فقالوا : ' ذنبها إيه الغلبانة إللى ها تتجوز واحد اسمه أسد ! ' . هذا الصباح قابل الحاج ضهرى على بوابة العمارة ، وبينما يتصافحان بادرتهما سيدة متواضعة الهيئة بسؤال : ' مترو الأنفاق منين يا أستاذ ؟ ' . فيرد أسد : ' أنا بأدور زيك بالظبط ، وبأسال الحاج وموش عارفين ؟ ' . بهت الحاج من استهتاره ، لدرجة أنه ألجم لسانه عن الشرح لتلك المرأة أن لا وجود لمترو الأنفاق بالمرة فى كل مصر الجديدة . تذكر كل الكلمات الزلقة التى تنسل من لسان أسد دون ضابط أو رابط ، غير مراع على الأقل لوجود كثير من السيدات والآنسات فى القاعة ، مثل : سهم ' ابن وس... ' ، سهم ' ابن مت... ' ، أو ' ابن شر... ' أو ' ابن قح... ' أو ' ابن لب... ' أو ' ...أم كيوپيد ' أو ' ...أم إللى يشترى أسهم الأثاث ' ، هذا بخلاف سباب الدين للأسهم وللشركات ، وهكذا . لكن القشة التى قصمت ظهر البعير جاءت بعد ساعة واحدة من واقعة مترو الأنفاق هذه .

تقرب أسد من الحاج ، وسأله بنبرة جادة : ' عاوزين نسألك سؤال يا حاج . رزق هذا مسيحى ، لكنه لا يصدق أنه ذكر فى القرآن ' .

– إزاى ؟

– ألم يقل : ' وجد عندها رزقا ' ؟

يفزع ضهرى بقوة : ' استغفر الله العظيم ، استغفر الله العظيم . ليه كده يا بنى ؟ ليه كده يا بنى ؟ قوم بينا يا أسد يا بنى نصلى الظهر سوا . إن الله غفور رحيم . إن الله تواب رحيم ! ' .

يرسل نصر الله للبواب : ' قول له يتصرف لنا فى سجادتين صلاة ! ' .

لم تمارس صلاة مسلمة أو غير مسلمة فى مقر هذه الشركة من قبل . لذا كان المشهد مثيرا للترقب والاهتمام ، وساد القاعة صمت متوتر لا تعرفه إلا فى لحظات الانهيار الكبير للأسعار . ذهب ضهرى ومن خلفه أسد إلى المطبخ وراح الأول يؤم الثانى للصلاة . بعدها عادا للجلوس فى هدوء وسكينة ، بينما كل الأعين تتفحص من تحت لتحت ذلك الشاب الأسمر ، بما لا يخلو من شماتة باسمة أحيانا . وفى المساء تكرر مرة أخرى مشهد الجرى بطاولة المقهى المعدنية الرفيعة الطويلة عبر الشارع ليضرب زميليه . جن جنونه حين قالا له : ' أبوك ما رباكش ، أمك ما ربتكش ، مراتك ما ربتكش ، بنتك ما ربتكش ، الأسهم ما ربتكش ، لكن الظاهر ها يربيك واحد فرارجى ، يا سيدنا الشيخ غضنفر ! ' .



أنت يا عم ها تعلمهم الاستثمار الطويل ،

وإحنا بأه نفلس ونقفل الشركة !

عارف يشتغل فنيا لتركيبات الإنترنيت السريع ، وأول من تعرف عليه إدوارد منهم ، يوم أتى لتركيبها فى الشركة ، فدعاه هو وكل من يعرف للاستثمار فى البورصة . هو من دعا زميليه ، وهو حاليا أكثرهم خبرة واتزانا فيما يخص الأسهم ، لكن رغم هذه وتلك كانت بدايته مع التداول متلعثمة جدا بحيث تحولت لنادرة تروى . فى أول يوم له لم يشتر شيئا ، وعندما سأله صديقاه على المقهى عن السبب ، قال إن الأسعار كانت تتغير طوال الوقت فلم أستطع الشراء ، فأخذا يسخران منه بإلقاء الورق المكور عليه قائلين : ' اثبت علشان نشترى ! ' . هو أرق الثلاثة حالا ، ويحمل وراءه قصة مأساوية . فقد مات أبوه فى إصابة شغل ، وهو بعد فى سن الصبا ، ولم يترك معاشا ، فقط مكافأة دفعة واحدة . بنت له أمه شقة فوق البيت شبه المتهالك الذى تملكه فى أحد الشوارع الصغيرة بالعباسية ، كى يتزوج فيها ، أو بالأحرى تقيم فيها هى ، وتترك له شقتها . لم تكن شقة السطوح شقة بمعنى الكلمة ، إنما مجرد غرفتين داخليتين بأمل ألا تلحظ وجودهما السلطات ، وأنهما بنيتا بلا ترخيص . بعد شهور بدأ المنزل يتصدع ولم يسعفهما الوقت لإزالة الغرفتين ، إذ وجد عارف من يتصل به ذات ظهيرة أثناء وجوده بالشغل فى موقع أحد العملاء ، ويبلغه أن البيت قد انهار وأن أمه ماتت صريعة . الثلاثون ألفا التى تبقت له من تحويشة عمرها وعمر زوجها لم تعد تجديه ، أيضا أصبح معظم مرتبه يتبدد فى السكنى بالإيجار ؛ ومن هنا كان هو الذى بادر إدوارد بالأسئلة عن الاستثمار فى الأسهم وعوائده المحتملة ، وقرر عن قناعة أن يأتى بأمواله كى يستثمرها ، وكله أمل أن يحقق ما تمنى أن يراه عليه أبوه الراحل وأمه .

الثلاثة تزاملوا منذ الابتدائى ، حتى الثانوى . فرقتهم المجاميع التى حصلوا عليها فى الثانوية العامة ، ما بين أسد لمعهد سكرتارية ، وعارف لمعهد إليكترونيات ، ورزق لكلية التجارة . رغم ذلك يمكن القول إنه لم يمر يوم واحد فى حياة الثلاثة لم يلتقوا فيه . أبو رزق مدير قديم فى سنترال العباسية ، وحين افتتحت تى إى داتا ، هذا الذراع المعلوماتى للشركة المصرية للاتصالات ، توسط لتعيين ابنه وصديقيه فيها ، ونجح فى ذلك . بعد أن توجهوا للاستثمار فى شركة رمسيس ، سعى ثلاثتهم لتولى الورديات المسائية . نجح أسد وعارف ، لكن طلب رزق رفض ؛ لأن شغله يتضمن تسليم محتويات الخزينة للبنك ، خزينته هو وخزينة الوردية المسائية التى يتولاها آخر مستجد لا يستطيع القيام بما يقوم هو به ؛ لذلك كان أقلهم ظهورا فى شركة السمسرة ، يأتى لمجرد إلقاء التحية وإلقاء نظرة عابرة على أسعار الأسهم ، وينصرف ذاهبا للبنك أو عائدا لشغله . على أية حال نجح رزق بعد فترة فى إقناع رؤسائه بتولى الوردية المسائية مع قيامه بوظيفة التوريد للبنك كما هى ، فوافقوا . لكن هذا لم يصبح وضعا مستقرا جدا أبدا ، إنما يخضع لرغبات المدير أو الزميل الآخر أو احتياجات الشغل نفسه .

هكذا فى البداية حين كان رزق لا يحضر جلسة البورصة ، عهد لأسد بإدارة محفظته ، لما ارتأه من جرأة لهذا الأخير ومن نجاحات حققها . حين أصبح يأتى منتظما نسبيا ، انبهر بونس وبصوته العالى الواثق ، وبانصياع الكل وراءه . فوضع معظم أمواله فى سهم الأقطان الذى -حسب ونس : ' طالما تجاوز السهم ١٩ جنيها و٦٣ قرشا ، فسيصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا ' . ما حدث أن لم يصعد إلى ٢٤ جنيها و٨٨ قرشا ، إنما هبط إلى ١٣ جنيها ، وخسر رزق نحو ثلث أمواله فى خبطة واحدة ، فكانت مأساة تقارن بمآسى صديقه عارف الأسرية . أخذ يشنع على ونس فى كل مناسبة ، لكن أحدا لم يتعاطف معه ، فهو المسئول عن قراراته فى الأول والأخير .

النتيجة أن عهد بمحفظته للاثنين سويا ، أسد وعارف ، ما يتفقان عليه يفعلانه ، بالذات وهو غائب . لكن بعد وقت قصير ، ومع ما أثبته عارف من قراءات واطلاع كثيرين ، بالذات عبر الإنترنيت ، أصبح هو قائد الثلاثة المعتمد . فى الفترة الحالية عاد الأصدقاء الثلاثة لا يفترقون من جديد . طوال جلسة البورصة ثم لمدة ساعة أخرى ، الفاصل بين انتهاء جلسة البورصة وبداية وردية الشركة المسائية ، يجتمع الثلاثة معا على المقهى . كان أسد يقول أحاسيسه ، ورزق يقول أفكاره وما يسمعه من أخبار من موظفى البنك ، لكن دوما كانت الكلمة النهائية لعارف . وبالطبع كانت كل القرارات التى اتخذها ونفذها لنفسه أو باسميهما خلال جلسة البورصة تثير الجدل ، من قبيل : ' أنت حمار ؟ ! ' ، ' حد يعمل كده برضه ؟ ! ' ، فكان رده الدائم : ' أنتما تدعيان العبقرية بأثر رجعى ، بعد أن علمتما إلى أين اتجهت الأسعار . القرارات على أرض الواقع تؤخذ تحت ضغوط حقيقية ، أقلها أن تخاطر بتخمين لأين سيتجه سعر السهم . وبعدين ، أنا بأعملها محبة ، وإللى موش عاجبه يتفضل يشغل محفظته بنفسه ! ' . وينقذه نظرة من أيهم للساعة تنبئ بأن موعد الذهاب للشركة قد حان . وفى اليوم التالى يعود الحال لما هو عليه . هو ينفذ ما يرى ، وهما لا يكفان عن التقريع والانتقاد ، لكن دون أية خطوة جدية منهما لسحب القرار الاستثمارى منه .

ذات مرة قال أسد باندفاعه المعتاد ، سأبيع كل أسهمى وأشترى كيوبيد مثلك يا أستاذ وحيد ، لا يمكن أن يكون أى منا يفهم أفضل منك . لم يجاره وحيد ، والسبب الذى لا يصرح به أبدا أنه يستثمر فى كيوبيد لأسباب أيديولوچية وليست مالية فقط . قال لأسد يمكنك أن تشترى مرقس أو حديد عز أو السى آى بى أو أى بنك كبير أو المصرية للاتصالات أو كيوبيد أو شركات البترول أو الشرقية للدخان أو النساجون الشرقيون ، وتربح ربحا مؤكدا . لكن هذه شركات لها وزنها وسمعتها ، وأسهمها واخدة حقها فى السعر . الأرباح الجدية لا تأتى من شراء مثل هذه الأسهم . واقترح عليك استثمار جزء من أموالك فى سهم لشركة طباعة مغمورة (هى معروفة للعموم ، لكن بالنسبة لمستثمرى البورصة لا تثير أدنى انتباه ، ونادرا ما يتم التداول عليها) ؛ ذلك لأنه يتوقع لها أن تبدأ فى تحقيق أرباح فى خلال ستة شهور ، وحيث إن الكل يعرف مدى جدية أصحابها ، كما يعرفهم هو بحكم تخصصه السابق . وقال موجزا الفكرة : ' الصبر هو كلمة السر (نبيل مصححا : ' كلمة المرور ') . اشتر رخيصا جدا ، واصبر ! ' .

ويومها سخر ونس من كل هذا التعويل على الصبر : ' صبر ، يصبر ، صبارص ! ' . لكن ضهرى تدخل مدافعا عن وحيد : ' مظبوط ! بت مغلوبا ولا تبت غالبا ، هذه هى قاعدتى الذهبية فى البورصة . دائما احتفظ بأسهم أقل من قيمتها الحقيقية ، وستربح ربحا ممتازا ' ، ' أنتم ناس قنوعين ' ، ' بالعكس إحنا إللى طماعين بجد ، بنبص على المكاسب الكبيرة ، موش على شرشرة قرش وقرشين ، إنما فيه فرق بين الطمع وزوغان العين ' ، ' يا عم وحيد أنت حاسوب ، وعين الحاسوب فيها عود ! ' ، ' وماذا لو أصبحت كل الأسهم واخدة حقها فى السعر ، ظالمة موش مظلومة زى ما بتقول ، هل ستقولون ساعتها إن المضاربة غلط برضه ؟ أظن ما فيش قدامنا ساعتها غير اللعب على الشرشرة فى حركة الأسعار ' ، ' ممكن ، أو ممكن برضه تشترى الأرخص فيها ' . ولكن يعود وحيد برأى أكثر صرامة : ' حينئذ من الأفضل أن تذهب بالنقود للبنك ، لأن السوق ساعتها ستكون على وشك الانهيار ' . ويتمهل الحاج قليلا قبل أن يعارض ونس من جديد وإن بلهجة خفيضة متواضعة هذه المرة : ' هو إيه العيب فى الصبر ؟ كتير من المشاكل الواحد منا بيتعب جدا علشان يحلها ، ثم لما يلقاها اتحلت فجأة يفرح ويتفاخر بأنه عمل شىء خارق ونجح ، بينما فى الغالب مجرد مرور الوقت هو إللى حلها . ده بالظبط زى إللى بيحصل للأسهم ، تفضل تحت تحت لكن فجأة لازم ترد لفوق ! ' .

هذه الأيام باتت المواجهة بين وحيد وونس بالغمز واللمز والغناء ، ولم تعد سافرة بالضرورة . بحكم التلاصق اليومى وانخراط وحيد فى نوع من الصداقة ليس معه وحده ، إنما مع الجميع ، وكما الجميع ، ولم يعد ذلك الدخيل الغريب ، حتى وإن لا زال على أفكاره الدخيلة الغريبة . عرف كل منهما طريقة تفكير الآخر ، وصار عيبا ، أو على الأقل من غير المجدى ، الدخول فى مثل تلك المواجهات . اليوم يوشك الوضع على الاختلاف مرة أخرى . السبب أن اكتسب عارف بعض الشهرة فى القاعة منذ بدأ ينتقد قرارات ونس . بالذات انتقاد جريه وراء شراء السهم بعد أن يبدأ صعود السعر بالفعل : ' أنت تركب القطار بعد أن أخذ سرعته بالفعل ، فتتعرض للإصابة . لماذا لا تأتى مبكرا وتركب براحتك وتنتظره إلى أن ينطلق حين يحين موعده ؟ ' ، ' أسهمكم دى قطارات لا مواعيد لها . بتتأخر بالشهور ' . فرد عارف بأن ضرب له المثل بأقوال لوارين بافيت أكبر مستثمر أميركى وثانى أغنى رجل فى العالم ، تطابق تقريبا نظرية وحيد فى الصبر . وفى يوم آخر بكتاب للوليد بن طلال قال فيه إنه يجوب الصحراء سيرا لليال كاملة قبل أن يتخذ قرارا استثماريا ، هذا بينما ونس يقرر البيع والشراء فى أقل من ثانية .

هذا التمرد الكبير كانت له نتيجة أكبر فى مكان آخر متوقع ، أن رد كثيرا من الاعتبار لوحيد من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن جعل القاعة ككل تشهد الانقسام على نفسها لأول مرة فى تاريخها . هذا الكاتب الاقتصادى الكبير والخبير ، يستحق فى الواقع من العملاء احتراما أكبر مما سمح له به صوت ونس العالى الأجش طيلة الساعات الأربع للجلسات ، وقبلها وبعدها بنصفى ساعة آخرين . دفاع ضهرى عن وحيد لم يكن ذا وقع كبير على أهل القاعة ، فكلاهما فى نظرهم مستثمر طويل المجرى ، وهم لا يريدون هذا . أيضا يعتبرانهما من طبقة أخرى بحكم حجم ثرواتهما . عارف شىء مختلف ؛ إنسان بسيط ، وفى نفس الوقت كان يسعى للربح مثلهم من خلال التداول طوال الوقت . وحين يقول شيئا يكون له بعض الصدى لديهم .

من البداية كان عارف هو الوحيد الذى اهتم بقائمة وحيد الموضوعة تحت الزجاج المستدير . كان يعتمد على مكررات الربحية الموضح بالورقة ، واشترى لنفسه ولصاحبيه بعضا من أسهم شركات مغمورة تكاد تكون فى طور الولادة ، وقرر أن يتداول عليها . اليوم ها هو وحيد يقترح شيئا آخر ، شيئا أكثر إثارة : أن تستثمر فى شركة خاسرة ! وأن لا تتداول على السهم على وجه الإطلاق . فقط تتركه إلى أن يصل لثمنه الحقيقى ،

ولا تحاول البيع وإعادة الشراء طمعا فى فروق سعر تافهة ، ذلك أن السعر قد ينفجر فجأة فى أية لحظة ، ولو كنتم خارجا ساعتها فستضيع فرصة المكسب الجدى فيه التى سببها كونه مظلوما مهضوما .

طبعا لم يكن يقصد بالخاسرة الشركات التى يعشقها ونس ، والتى تضخمت أسعار أسهمها بفضل المضاربة ، إنما شركة جادة تمر بمحنة ما ، أو لا تزال فى طور التمويل الأولى للاستثمار ، فأصبح ثمن أسهمها بخسا ، لكن من المتوقع لها أن تجتاز تلك المحنة أو أن تدخل فى طور الربحية . أيد عارف بشدة اقتراح شركة الطباعة ، وقال لأسد لننتظر لسنة أو حتى سنتين . الأرباح الحالية لا تعبر عن قوة الشركة ولا عن مستقبلها . على غير المتوقع تضاعف سعر سهم الطباعة فى شهر واحد ، ربما لأن البعض فكروا أو قدروا الأمور بنفس طريقة وحيد . هنا صاح أسد : ' أنت لك عقل جبار يا أستاذ وحيد ! ' . وغنى ونس : ' جبار ! جبار ! جبار ! ' ، كسخرية ضمنية بالطبع . ومال عارف على أذن وحيد هامسا بسر لم يقله حتى لصديقيه ربما حتى يواصل الاستمتاع بانبهارهما بتنبؤاته : ' سعادتك عارف أنى شغال فى شركة إنترنيت ، من فترة وأنا بأستخدم جووجل ماب لمراقبة مخزونات الشركات وحركة النقل الخارجة والداخلة منها ، اكتشفت أنها طريقة للتنبؤ بنتائج الأعمال أسهل وأسرع من ضرب صحوبية مع موظفى الأمن فى كل الشركات دى ! ' .

كل ذلك أدى لتشجع بعض العملاء -وبالذات العميلات- على التقرب لوحيد أكثر مما سبق ، قائلين إنهم سئموا من نصائح ونس التى لا تجلب إلا الخيبة . أغلب هؤلاء العميلات متقدمات فى السن ، والكثير منهن موظفات بنوك سابقات . وهذا ليس غريبا ، فموظفى البنوك هم الأقرب لشغل البورصة ، ولفهمه ، أو على الأقل إدعاء فهمه . كذلك كان لديهم دوما فرصة السماع عن الطروحات الأولية ، والاشتراك فيها . بل كان يتاح لهم كثيرا شراء الأسهم بالتقسيط ، وهى صيغة للتمويل تتبعها أحيانا البنوك وصناديق العاملين فيها ، كنوع من الحوافز للموظفين من ناحية ، ولتمويل طروحات الشركات من ناحية أخرى ، بالذات لو كان البنك طرفا على نحو أو آخر فى عملية الطرح . نبه ضهرى وحيد إلى أن العادة أن من يدير محفظة يحصل على الأقل على ٢٥ ٪ من ربحها ؛ هذه هى القاعدة هنا . ألم تلحظ أن روميو يملى كثيرا من الأوامر بأسماء أناس آخرين ؟ إنهم أقارب له أو صديقات سابقات ، عهدوا له بمحافظهم .

وحيد كان يعتذر فى الغالب ، والسبب الظاهر أن معظم محافظ أولئك السيدات صغيرة جدا ، بحيث لا تحتمل تحركات كثيرة . والسبب الأعمق ، أنه لا يؤمن بالمضاربة ، ولم يمارسها هو شخصيا ، إلا بنسبة صغيرة من محفظته المجمدة ككل فى سهم كيوبيد . مارسها بهدف اكتساب المهارة ليس إلا ، وشجعه على هذا أن رأى ضهرى يشترى بعضا من أسهم شركات المطاحن والإسمنت فى أوقات معينة من السنة . ويقول هذه شركات لا تتوسع كثيرا ، ومن ثم توزع على مساهميها أرباحا نقدية (كوبونات) جيدة ، وفى مواسم معينة أنت تحصل على ربح جيد من الاستثمار القصير فيها . ومارسها أيضا حتى يفهم العقليات المحيطة به ، وطبعا مارسها فى حدود الأسهم القوية ذات القيمة ، وليست أوراق المضاربة التافهة التى لا تساوى ثمن الحبر الذى كتبت به كما يصفها ، أو لعله أخيرا قد يتطوع ببعض النصيحة من حين لآخر حين تطلب منه فيما يخص اللحظات المناسبة للبيع والشراء . من هنا كانت نصيحة وحيد المعتادة لكل من يأتى له طالبا المشورة أو إدارة المحفظة ، أن يقسموا محافظهم ما بين النصف فى سهم كيوبيد باعتبارها أحد أكثر الشركات وعدا ، والنصف الآخر فى سهمين أو ثلاثة يختارونها بأنفسهم من قائمة قصيرة يقترحها عليهم ، أغلبها من الشركات الصناعية العريقة أو شركات التقنية الكبرى . ويعزز رأيه بالاستشهاد بعارف ، هو يتداول يوميا ، لكن على أسهم لن تخذلك أبدا ، ويهوى سعرها فى لحظات . أما لو أرادوا الاستثمار طويل المجرى حقا وينسون الأسهم حتى تأخذ حقها ، فقائمة الشركات المغمورة معروفة له جيدا .

تنبه إدوارد لهذا . قال لوحيد فيما بدا مزاحا : ' أنت يا عم ها تعلمهم الاستثمار الطويل ، وإحنا بأه نفلس ونقفل الشركة ! ' .

كان يقصد أن دخل الشركة الوحيد هو عمولات البيع والشراء ، لكنه جزئيا كان يقصد أيضا ألا تتحول قاعة المستثمرين لساحة حرب بين العملاء ؛ إذ كان يتوقع أن شخصا مثل ونس قد يفتك بوحيد ، يسىء إليه بالكلام مثلا ، فيخسر هو عميلا مهما . لكن بعد أن وجد بعض الالتفاف التدريجى من العملاء والعميلات حول وحيد ، وأن طابع المرح السائد على دوما على القاعة أقوى من أن يعكره شىء ، بل وقد انسحب على وحيد نفسه أيضا ، وبات الحوار بين ونس ووحيد على ما فيه من تنابذ يأخذ طابع الود والهزار ، تبين له أن ثمة قوة مفيدة من وجود شخص مثل وحيد ، وبمثل ثقة العملاء فيه ، يوميا فى شركته .



– العلم يشبه الرؤية عبر الماء يظهر الأشياء دقيقة كما هى ، والدين يشبه الزيت يريك الأشياء ذهبية براقة ، أما لو خلطت الاثنين فلن ترى شيئا على الإطلاق !

– إسقاط القداسة عن إله السماء هو الهدف الأسهل فى معركة التنوير ، لكنه لا يكفى لتحقيق صفاء الرؤية الكامل . الأهم إسقاط القداسة عن إله الأرض : الإنسان !

لا يبدو أن أحدا ممن يأتون للشركة يمارس الصلاة ، هذا رغم وفرة كلامهم ودعائهم أن يرزقهم ربنا بارتفاع أسعار الأسهم ، ورغم إمكان سماع بعض رنات الخليوى ذات الطابع الدينى ، مسلمة ومسيحية (بالذات فى مواسم هبوط الأسهم) .

الحقيقة أن الحاج ضهرى يصلى مرتين يوميا ؛ صلاة الصبح عند الاستيقاظ ، وصلاة العشاء قبل النوم ، ويعتبرهما كافيتين للتواصل مع ربه ، يستمد منه القوة والرضا فى الأولى ، يعترف بذنوبه ويدعو لمن يعرفهم فى الثانية . هذا ما قاله لوحيد ، الذى لم يكن مرتاحا جدا لما فعله مع أسد ، معلقا بأن حياة كل الإرهابيين بدأت بأن دعاهم أحد يوما للصلاة . وكان رد الحاج على الملحوظة مسهبا جدا ، أفاض خلاله فى توضيح أن الإسلام هو دين التسامح وأنه لا يعرف العنف . ثم استرسل فى أنه شخصيا يعرف جيدا كيف يفصل بين العلم والدين ، وهو الأمر الذى تسبب -كما هو الحال طوال الوقت مؤخرا- فى حوار وإن لم يستمر طويلا بينه وبين وحيد ، أو هكذا كل حواراتهما تبدأ عابرة سلسلة ثم سرعان ما تعود مسهبة حادة :

– العلم يشبه الرؤية عبر الماء يظهر الأشياء دقيقة كما هى ، والدين يشبه الزيت يريك الأشياء ذهبية براقة ، أما لو خلطت الاثنين فلن ترى شيئا على الإطلاق !

– إسقاط القداسة عن إله السماء هو الهدف الأسهل فى معركة التنوير ، لكنه لا يكفى لتحقيق صفاء الرؤية الكامل . الأهم إسقاط القداسة عن إله الأرض : الإنسان !

الحقيقة أيضا أن أسد ليس فظا جدا أو مستهترا جدا ، كما يبدو للبعض ، سواء فى رمسيس أو فى المقهى . وجهه الآخر شديد الاختلاف . المفارقة أن وظيفته هى موظف خدمة عملاء فى ' تى إى داتا ' . حين يجلس خلف المكتب أو حين يرد على الهاتف ، يبدو مهذبا للغاية مع عملاء الشركة ، نشطا لبقا خدوما وحلالا لأية مشكلة . كان هو الأكثر مبادرة بين صديقيه لاستجلاب العاهرات لثلاثتهم ، وكان يستخدم شقته التى وفرتها له أسرته الأفضل قليلا من توسط الحال . مع ذلك هو الوحيد الذى تزوج حتى اللحظة من بين صديقيه . أنجب طفلة أسماها سوزان . أصر أن تدخل مدرسة القلب المقدس ؛ يقول كى يحميها من التطرف . مع ذلك وجد أن قضية لماذا هناك فى الدنيا مسلمون وهناك مسيحيون تشغلها ، وإن تأكيدا بدرجة أقل كثيرا مما يجرى فى المدارس الأخرى ، بالذات المجانية . كان يقول لها : ' عمو عارف مسلم وعمو رزق مسيحى ، لكن شوفى أصحاب إزاى وما يستغنوش عن بعض أبدا ! ' . أيضا هو سعيد بأن تأتيه ' سوزى ' تتحدث عن دروس السلوك التى تعطيها لهن ' السستر ' ، أى إحدى الراهبات . ابنتى تقول شكرا كلما قدم لها أحد خدمة ، بما فى ذلك أنا أو أمها . إنها ستكون شيئا مختلفا عن طبائعى السيئة .



طول عمرك ما ركعتها ، وعاوز تفهمنا أنك يوم ما صليت ربنا كسر لك إيدك ؟

الحقيقة الأدق ، أن أسد يقوم أخلاقه بالتقسيط . الوظيفة علمته التهذب مع العملاء والعميلات . الجرى وراء العاهرات انتهى مع وقوعه فى حب زميلته وزواجه منها . يوم أضاءت قاعة السينما بينما سوزى لا تزال تضحك بهيستيرية ، وأمها حائرة ما بين تهدئتها وبين ممالكة نفسها هى الأخرى من الضحك ، فوجئت الاثنتان بأسد لا يضحك إنما يمسح دموعا غزيرة من عينيه . لقد تأثر بشدة بالمشهد الأخير من الفيلم ، المشهد الذى راح اللمبى يعلم فيه ابنه الحروف الإنجليزية . من ساعتها قرر أن يلحق سوزان بالقلب المقدس ، وأن لا مكان بعد اليوم لألفاظه الخارجة داخل جدران البيت . هكذا أصبح المتبقى فقط هو شركة السمسرة والمقهى ، كى ينفس فيهما عن جنى لسانه .

فى الصباح التالى لواقعة الصلاة جاء بيده اليسرى وقد لفت فى الجبس . راح يشرح للحاضرين كيف انزلق من على سلم بيته متكئا بجسمه الثقيل على يده . ثم اقترب من ضهرى محاولا إثارة شفقته : ' شفت إللى حصل يا حاج ؟ ' . ثم بنبرة تمسكن واضحة : ' ها أصلى إزاى أنا

دلوقت ؟ ! ' . ينفجر ونس ضاحكا : ' أنت طول عمرك ما ركعتها ، وعاوز تفهمنا أنك يوم ما صليت ربنا كسر لك إيدك ؟ ' . يدافع عنه الحاج : ' عيب يا ونس الكلام ده ، لا يعلم القلوب إلا الله ' . ٩٩ ./. من نظريات المؤامرة التى يتخيلها ونس هى أوهام محضة . هذه المرة كان على حق . لقد اشترى أسد الجبس والشاش من الصيدلية وجبس نفسه بنفسه .

لم يعرف الحاج هذا الأمر قط ، وإن ربما خمنه ، لكنه فى النهاية كان راضيا على حرص أسد على ضبط تصرفاته وألفاظه ، ولم يحدث أن دعاه ثانية للصلاة أبدا !



جاندى ومارتن لوثر ومانديلا لم يمسكوا شخصيا سلاحا يوما ، لكنهم قطعا أبشع وأشرس وأشره مصاصى دماء عرفتهم البشرية .

أسلحة الشعوب المتخلفة هى ' الإرهاب ' والإعلام وأضافوا مؤخرا الديموقراطية وحقوق الإنسان ،

مؤكدين للمرة الألف أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان كان أكبر جريمة ضد الإنسانية ارتكبت إطلاقا !

– أكيد شغلانة الصحافة خلتك تلف العالم ؟

– (يضحك بشدة :) مين ؟ أنا ؟ أنا الصحفيين بتوعى لما كنت أروح لهم قاعة التحرير ، يصمموا كلهم ' احلف يا أستاذ ، قول وحياة غربتى ! ' .

– آه ! أنت بتاع قراءة ، موش لف ؛ فكر ، موش صحافة !

– تقدر تقول كده ! سفرياتى موش كتير . الصحافة بالنسبة لى نافذة . تقدر تقول إنى بأرمى إللى فى مخى وأمشى .

– تعرف أن المصرى طول عمره لم يعرف الحركة فى البعدين الأول والثانى ، مزروع فى الأرض زيه زى النبات بالظبط ، عرف مباشرة البعد الثالث ، الزرع وهو ينمو للأعلى ، الهرم ، المسلة ، التطلع للسماء ، وعرف البعد الرابع ، الخلود فى الأورايون ، أما الحركة الأفقية فدى شغلانة البدو .

– (ونس مقهقها :) عندنا فى الهندسة بنسميها degrees of freedom ٢ من ٤ ، ها ها ها ها . (ثم يغنى :) عواد باع أرضه !

– عندنا فى الهندسة ؟ أنت آخرك تقعد مع بواب الكلية ، وتعزمه على سيجارة ، وجايز كمان يكون هو إللى كان بيعزمك .

– تعبير عجيب ؟ بأرمى إللى فى مخى وأمشى ؟ إيه الناس كلاب بترمى لهم حتة لحمة من بعيد علشان موش عاوز تحتك بهم ؟ تكتب تقول مثلا الاقتصاد الحر هو الحل ، لكن أن يطبق أو لا يطبق شىء لا يخصك . موش جايز ده سبب مشكلتك ، ما فيش قضية ؟

– كل ده وما فيش قضية ، أنا آرائى بتصدم طوب الأرض زى ما بيقولوا !

– قصدى ما فيش كفاح ، ما فيش لذة الكفاح ، موش حاسس أنك طرف فى معركة ، لا يهمك أن تكسب أو تخسر ، بل تقريبا مفترض أنك خاسر لا محالة .

– موش ها أعترض . طول عمرى بأعتبر كفاح الإنسان الحقيقى مع نفسه . أنا بأكافح فى القراءة والبحث والتفكير ، وأحاول كتابة معلومات وآراء أفضل ما أستطيع . ما بعد ذلك ليس مهمتى .

– تصدق لو قلت لك أنى لفيت العالم ؟

– أصدق ، ما أصدقش ليه ؟ على الأقل العراق وتركيا إللى ما بتبطلش الكلام عنها أنت وونس ؟

– كل حتة . الحكاية بدأت معى وإحنا لسه طلبة . كانت موضة ، شوطة وماشية فى الشباب . فى الصيف نجمع العنب فى إسپانيا ، الورد فى هولندا ، نغسل صحون فى النمسا ، برضه ما يضرش ، طالما أباؤنا ماسكين فى الأرض وموش غاويين سياحة . بس عاوز أقول لك حاجة . تقدر تقول أنى ما وقعتش فى الغلط مع ستات أبدا . مرة أو اتنين طيش شباب ، وبالذات من ساعة ما تجوزت إجلال ، ما كررتهاش تانى ولا حتى فكرت فيها .

– عظيم !

– تعرف أنى عندى مزرعة مانجو ، نوع اسمه كيت . رحت جبت الزريعة بنفسى من جنوب أفريقيا ، طبعا أيام قبل ما يستولى مانديلا وعصابته ونسوانه عليها وينهبوها وتبقى خرابة . نفس وضع روديسيا بعد ما سرقها مجرم رسمى تانى اسمه موجابى وسماها زيمباوى . برضه زرتها قبل وبعد إللى حصل ، وشفت التقدم وشفت الكوارث .

– إيه ؟ ' كافحت ' ضدهم ؟

– (ضاحكا :) أيوه ! كافحت أنى كنت أول من زرع الكيت فى مصر . الكيت دى شجرة قصيرة جدا ، زراعتها صعبة ومحتاجة عناية دقيقة . الشجرة أو الشجيرة من دول تنتج فقط ٣٠-٤٠ حبة ، لكن الواحدة تزن كيلو كاملا ، وسعر الكيلو خمسون جنيها ومخصص فقط للتصدير أو للفنادق ٥ نجوم . البشاير فى سبتمبر وذروة الموسم فى نوفمبر ، لما تخلص كل المنجة م السوق تطلع هى . على فكرة إحنا كرماء بجد . إللى يزرعوا مانجو من النوع ده ، ما يقبلوش أبدا هدايا من أصحاب المزارع الأخرى ، علشان ما يضطروش يردوا الهدية بالمانجو الغالية . أنا أرد الهدايا . صحيح موش بنرد القفص بقفص ؛ لأن الكل عارف إن الكيت إنتاجه قليل ، لكن مبدأ التبادل موجود ، ولازم نرد قيمة الهدية مضاعفة مرتين وتلاتة .

– أنا ملاحظ فعلا أن أحيانا بعض العملاء يستلفوا منك علشان يسددوا أى زيادة فى مشتريات الأسهم ؟

ونس كان متابعا للحديث وتدخل فى اللحظة المناسبة : ' يا ريت بس ينوبنا م الكرم جانب ؟ ' .

– قلت لك ده موش موسم الكيت يا حلنجى أنت . وزى ما قلت أنا ناوى فعلا أعزمكم كلكم عندى فى المزرعة على أول الموسم فى سبتمبر .

شعر وحيد أنه لو علق على ما جرى لجنوب أفريقيا سيكرر كلاما عن تعريف أرسطو للديموقراطية بأنها حكم الحثالة ، أو لو علق على ملحوظة الزعماء المزواجين بتعريف أرسطو للقائد كمتقشف بالضرورة ، أو عن تعريفه لمعنى القيادة الحق ، لربما ذكر شيئا غير لائق . من هنا راح يقلب فى تاريخ عمره الذى غادره المرح من سنوات ، عن طريقة تؤيد بظل خفيف ما سمع ، لكن الأمر لم يكن سهلا ؛ لذلك راح يتحدث فى موضوع آخر لم يبد أن كانت له مناسبة : الإرهاب !

قال : ' تعريف الإرهاب هو زى القاتل وليس زى القتيل . لا يهم أن يكون الضحية يرتدى ملابس مدنية ، المهم أن يكون القاتل يرتدى ملابس رثة . لا أحد قرأ اتفاقية چينيف التى يقولون فى إعلامنا إنها تشرع مقاومة الاحتلال . إن بها شروطا تجرم كل ما فعل فى التاريخ باسم مقاومة الاحتلال . شروطا فى الزى وفى طريقة حمل السلاح ، وفى عدم الإنطلاق من مناطق مدنية ، وطبعا عدم الهجوم على أهداف مدنية . حتى المقاومة الفرنسية ضد النازى الشهيرة جدا ، لم تلتزم بها يوما ، فما بالك بالفلسطينيين وحزب الله والعراقيين والإيرانيين ، الذين يستعدون لكل حرب بخطف أفراد من الطرف الأخر ، كأى هجام رخيص ، أو بالتهديد بصواريخ القاهر والظافر ، أى لا يريدون قتالا إنما فدية . علشان كده أنا لا أسمى هؤلاء إرهابيين . بالعكس المفروض أن أميركا (الحضارة) هى التى ' ترهب ' من يعاندها . هذا واجبها وتلك وظيفتها ، أمن العالم وحماية اقتصاده البالغ تقريبا أربعين تريليونا سنويا . أما أولئك قاطعو الطريق باسم الاستقلال ، أو عامة باسم إلغاء فوارق طبيعية بين البشر لا يمكن أبد الدهر أن تلغى ، فلا يستحقون أصلا وصف إرهابى . هؤلاء ببساطة بلطجية صغار ، عصابات ، هباشة لعرق البنائين الحضاريين والمتحضرين ! جاندى ومارتن لوثر ومانديلا لم يمسكوا شخصيا سلاحا يوما ، لكنهم قطعا أبشع وأشرس وأشره مصاصى دماء عرفتهم البشرية . إن أسلحة الشعوب المتخلفة هى ' الإرهاب ' والإعلام وأضافوا مؤخرا الديموقراطية وحقوق الإنسان ، مؤكدين للمرة الألف أن الإعلان العالمى لحقوق الإنسان كان أكبر جريمة ضد الإنسانية ارتكبت إطلاقا ! ، كلها بعد أن بدأ الغرب يراجع نفسه فيها وفى ملائكيتها الزائدة ، وفى أنها هبطت بمتوسط معايير الحياة الإنسانية يوم وضعت -باسم المساواة- الكلمة العليا والسلطة السياسية والإعلامية وكل السلطات فى يد وضعاء البشر وفى يد أحط الطبقات والشعوب . نفس الأسلحة التى نستخدمها ضد بعضنا البعض ، هى التى نستخدمها ضد الغرب . إنها أسلحتنا التى ليس ليس لدينا سواها . مع ذلك نحن بارعون حقا فيها . المفارقة أن الغرب لا يريد الاعتراف لنا بهذا ، ويصمم على النظر لنا كمتخلفين غلابة يستحقون شفقته . الأمر لم يبدأ بصوت العرب أو بقناة الجزيرة . منذ لفقنا قصة مذبحة دير ياسين ونحن أساتذة فى الإعلام والپروپاجاندا . منذ تعلمنا الانتخابات ، والإخوان فى الصدارة . هل سألت نفسك من هم أشد المتشدقين بالديموقراطية عندنا اليوم ؟ إنهم الشيوعيون والناصريون

والإسلاميون ، الذين يعلم كلنا أنهم ديكتاتوريون حتى النخاع ، ونعلم ماذا سيفعلون بمعارضيهم بمجرد توليهم السلطة . هل سألت نفسك من هم أشد الناس تمسكا بحقوق الإنسان اليوم : إنهم نفس هؤلاء الذين لا يعترفون بحقوق أحد ! ' .

التجاوب الوحيد جاء من ونس ، وجاء تهكميا : ' لا جديد فى كل هذا . بل العرب هم مخترعو البروبجاندا . منذ سوق عكاظ وأنت تلقى قصيدة فى خصمك ثم تقتله ، دق الأعناق وجز الأوصال ثقافة وتفخيخ الذات بالأحزمة الناسفة أسلوب حياة ، السعى للموت أشرف الأشياء وعشق الحياة عار ، أما الموت كهلا فى الفراش فهو مهانة عظمى . ما الجديد فى دير ياسين ؟ التنكر فى زى امرأة منقبة وقتل اليهود بينما هم يحاولون إخلاء النساء والأطفال ، ثم إقامة الدنيا ضدهم ، أمور لا جديد فيها . شطارة وعبقرية وذكاء . لا جديد فى التشدق بحقوق الإنسان حين تكون ضعيفا ، ثم قتل الجميع يوم تصبح قويا . اليوم ارتداء النقاب أصبح أهم مطلب حقوق الإنسان ، ولم يفكر أحد أن يسأل أحد هذه المنقبة ، كيف ترى هى حقوق ' المتبرجات الفاجرات ' ، أو حقوق أهل الذمة ، أو حقوق المرتد عن الدين . هل هذه التى تريد أن يدافع المجتمع عن حريتها فيما تلبس ، ستدافع عن حرية زميلتها فى الشغل أو المدرسة أو الشارع أو الباص ، لو جلست أو مشيت لجوارها بالبيكينى أو بدون ملابس ؟ يا عم وحيد ، عن أى چينيف تتحدث ؟ الشريعة الإسلامية لا تعرف چينيف !حين يمسك السود الحكم فى أى مكان سيظهرون أبشع عنصرية فى التاريخ ، وحين يمسك الإسلاميون الحكم سيظهرون أكبر تعصب فى التاريخ ، أما اليوم فهؤلاء وأولئك يملأون الدنيا ضجيجا عن حقوق الإنسان . أريد أى أحد يفهمنى ما هو العيب فى الفصل العرقى فى باصات وكنائس أميركا أو فى معسكرات هنودها ، أو فى كانتونات جنوب أفريقيا ، أو فى أسوار إسرائيل ، أو فى أى مكان ؟ أليس من حق أى أحد أن يغلق عليه باب بيته ؟ ألم يقرأ أحد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى يقول إن من حق الإنسان أن يحمى نفسه من الرائحة النتنة لجاره ؟ ثم ألا يلحظ هؤلاء حين يتشدقون هم أنفسهم فى ذات الوقت بالسلام العالمى ، أن الفصل العرقى هو أنجع وسيلة إطلاقا لتحقيق السلام بين الشعوب والأعراق ؟ ألست أنت القائل يوما إن مآل العينات المتبقية من البشر يوما هو المحميات الطبيعية ، يعنى الفصل العرقى هو مآلنا جميعا ؟ ' .

لم يلحظ وحيد أن كلاما كهذا قد يتعارض مع دفاع ونس المعتاد عن العرب فيما يخص البيزنس والاستثمار ، أو مع هجومه السابق عليه بخصوص العرقية ؛ ربما فقط لمح عقله الباطن أن ثمة شيئا غير عادى فى كلام ونس ، لكن من كثرة ما اعتاد على الكلام غير المنطقى أو غير المترابط فى هذه البيئة الرمسيسية العجيبة ، لم يتوقف طويلا عند الأمر ، وشرد من ثم فى شىء آخر : ' أفترض أنى خاسر لا محالة ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



حاولت وحياتك يا سيدنا الشيخ ، لكن ردهم دايما أن المرأة موش جوهرة ، المرأة إنسان !

... إنما أنت عارف مين سر البلاء بجد فى البلد دى ؟ ... النصارى !

أقول لهم ليه ترسموا العذراء مريم بحجاب وأنتم موش بتلبسوه ، تصور يردوا يقولوا إيه ؟

العذراء دى المدام بتاعة ربنا ولازم تلبس حجاب ، إنما العاهرات إللى فى الشوارع يلبسوه بمناسبة إيه ؟

تصور بيقولوا على سيداتنا الفاضلات ذوات الحجاب عاهرات يا شيخ حجاب ؟ !

القادم الجديد اليوم كان وجها يلفت كل الأنظار . وكيف لا ، وهى المرة الأولى التى يظهر فيها أحد بمثل هذا الجلباب الأبيض القصير واللحية الكثة فى وسط شركة رمسيس . ونس عرفه على الفور . جاء حجاب راغبا فتح حساب باسم زوجته . ميرفت تحاشته أصلا ، على الأقل خوفا من التعليق على شعرها المكشوف . فشلت كل محاولات سامر لإقناعه باستحالة طلبه . وقال له : ' لما الأستاذ إدوارد يفضى ، تدخل له ' .

– إدوارد ؟ إيه الاسم ده ؟

دارت الهمسات خلال فترة الجدل هذه . اسمه الشيخ حجاب ، كان عندنا فى المطرية ، الحكومة قبضت عليه ، ولما أفرجت عنه عينته هنا فى روكسى . احسبها أنت بأه ، إيه إللى تم بينهم . ثم احسبها كمان منين الفلوس إللى جايبها معاه ، أتاوة بيع الكتب والشرايط على باب المسجد ، ولا نفحة من الحكومة ، صفقة مع المباحث ؟ هكذا رسم ونس ملامح المؤامرة . ضهرى يرد على ونس بأن الأمر لا يعدو البيروقراطية المعتادة لوزارة الشئون الروحية : ' ما عندهمش معتدل ولا متطرف ، كلهم موظفين بيتخانقوا على الدرجات ، وعلى الأماكن الطرية . والتطرف هو الحل ، لأنه بيبعدك عن الأماكن الشعبية ويحدفك فى الحتت النضيفة ' . لكن سوسن تصحح قائلة : ' أصل أنت موش من هنا يا حاج ؛ كل

يوم جمعة ، المطرية كلها هنا ! ' ، وتؤمن على كلامها عميلة عجوز : ' طول عمرنا ما شفنا الحاجات دى فى مصر الجديدة ! ' . ويعود ونس متصنعا الخبرة بالشأن الجهادى : ' لا فرق بين نقود الجهاد (= الحرابة الشرعية) ونقود المجاهدين ، وغالبا الإخوان عارفين أنه بيستثمرها باسمه ! ' .

لا يتوانى الشيخ حجاب ولو للحظة عن ممارسة الدعوة لله بإخلاص وتفانى . حين أوعز روميو لسوسن بالقيام والذهاب لحجرة إدوارد ، جاء حجاب على الفور ليجلس بجوار ضهرى . سألهم : ' هل أديتم الصلاة . ممكن أصلى تانى معاكم ' . لا يجد ردا ، فيفهم أنهم غير معنيين بالشأن . يتوجه إلى ضهرى ، أو بالأحرى للحيته : ' أنت يا حاج ، واللحية دى مزينة وجهك نورا على نور ، عليك على الأقل أن تقودهم للصلاة كل يوم ، إن ما كانوش عاوزين ينزلوا الجامع ، والله يغفر كل الذنوب ، ثم إن الصلاة فرض من الله عز وجل . ولا خير فى رزق يغنى عن ذكر الله ، والله عز وجل يقول وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' . فرد عليه ضهرى : ' بص يا سيدنا ، أنا شخصيا العلاقة بينى وبين ربنا مية مية ، كل يوم أنا بأكلمه وهو بيكلمنى ، وما أفتكرش إنى محتاج أى حد يتدخل بيننا ؛ أما عن الناس إللى أنت شايفهم هنا دول ، فكلهم ناس تمام ، خيرون وأفاضل وإخوة ، وما فيش بينهم وبين بعض غير المعروف ، أما ما فى الصدور فيعلمه الله ، ولا شأن لنا به . أحيانا ييجى لهم مزاج يصلوا وأحيانا بيشغلهم الشغل ، لكن طول عمر ما حد قال للتانى أنتى ما بتصليش ليه أو أنت بتصلى ليه ' .

– خليهم يصلوا علشان ربنا يبارك فى الأسهم .

ضحك الحاج بينه وبين نفسه ، فقد تذكر رنات الخليوى الدينية ، أو أن البعض ينزلون فعلا للصلاة حين تعانى أسعار الأسهم من هبوط حاد . لكنه اكتفى بالقول : ' ربنا يصلح الحال يا شيخ ! ' .

ظهر إدوارد فى وسط القاعة وبادر حجاب الذى نهض ذاهبا إليه ، بالكلام بلهجة حادة ، وتقريبا بدون إلقاء التحية : ' ما ينفعش يا سيدنا الشيخ . لازم زوجة حضرتك تيجى بنفسها ، أو تعمل لك توكيل فى الشهر العقارى ' .

– زوجتى منقبة ولا تغادر البيت أبدا .

رمق إدوارد بطرف عينه ونس وروميو يتهامسان ، وندا على جانب فمه شبح بسمة باهتة : ' منقبة ! جايز واخدة بشلة فى وشها ! ' . ويرد روميو : ' أنت ليه كده يا مؤامرة على طول سيئ الظن . موش جايز تكون مزة تفك من ع المشنقة ! ' . وينهرهما ضهرى : ' هذه اسمها غيبة ، اتلموا شوية ! ' . ويستمر ونس : ' عارف عود المسواك إللى فى جيبه ده بيبيعه بكام ؟ بعشرة جنيه . أنا مستعد أورده له بخمسين قرش ' .

– ولماذا الحساب باسمها إذا كانت لا تغادر البيت ؟

– غريب منك هذا السؤال يا أستاذ . (يهمس ونس لروميو بنظرية مؤامرة أخرى : ' أراهن إن ما كان متجوز أربعة ، وفاتح حساب بكام مليون لكل واحدة ، وبيلعب بالأسعار بالبيع والشرا من حساب للتانى !) .

– ما فيش حل إلا توكيل فى الشهر العقارى . هم ها يتصرفوا ، يخلوا واحدة ست توثق لها ، أو يشوفوا طريقتهم إيه . إنما إحنا بالنسبة لنا ، لازم الشخص نفسه أو توكيل رسمى عنه .

على حين غرة ، وفى خطوة غير متوقعة على وجه الإطلاق ، ينادى روميو على الشيخ حجاب ، ويقول له بهدوء لكن على مسمع من الجميع ، ممن راحوا يتضاحكون ويحاولون كتم ضحكاتهم مما قيل : ' اقعد هنا يا سيدنا الشيخ ، زى ما كنت قاعد . ده اسمه المقعد الخامس ، أهم كرسى فى الصالة كلها ، وما يقعدش عليه إلا الناس البركة إللى زيك ! ' .

إذن لم يكن إيعازه لسوسن بالنهوض لتحاشى جدال لا لزوم له حول ساقيها العاريتين أو شعر عانتها ، أو هكذا فهم الجميع ، إنما لشىء آخر حسب حسابه أو بالأحرى انتواه : ' السلام عليكم ! السلام عليكم ! ' (قالها حجاب يمينا ويسارا) .

– (مشيرا لوحيد :) لا يا سيدنا الشيخ ، ده موش تبع السلام عليكم . ده تبع السلام على من اتبع الهدى . لا سلام مع الكفار أمثاله .

– هو نصرانى ؟

– حاجة زى كده ؛ تقدر تقول عليه من بتوع القوانين الوضعية ، والعياذ بالله . الأدهى وأضل سبيلا أنه ما بيشتغلش غير فى سهم اسمه كيوبيد ، وكيوبيد ده من آلهة المشركين .

– استغفر الله ! شرك ؟ !

– أيوه شرك ! إحنا موش عندنا ' إنما المشركون نجس ' ، صح ؟

– بالطبع !

– أخونا ده موش نجس وبس ، إنما النجس نفسه ، نجس مصفى ، أو بلغتهم الكافرة pure nagas !

– أعوذ بالله ! بس يا أخى لا تقل ' أخونا ' ، هذا محرم شرعا . فى السعودية لا يجوز أن تقول للممرضة الكافرة سيستر .

– المهم ، سيبنا منه ! أنا أريد استفتاءك فى شىء مهم يا سيدنا الشيخ .

– تفضل يا أخى .

– هى الڤياجرا حلال ولا حرام ؟

– حلال بالتأكيد .

– أتستخدمها أنت ؟

– لو احتجتها استخدمتها .

– إجابة ديپلوماسية ! (ثم يستدرك بصوت عال فجائى :) بس إللى اخترعوا الڤياجرا كفار ؟ !

– سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .

– لكن هذا دعاء الركوب يا مولانا ؟ !

– وفيم نحن نتحدث الآن ؟ !

– آه ! لقد فاتتنى هذه ! يعنى ربنا سخر شركة فايزر ، أكبر شركة صيدلة فى العالم ، علشان تعمل الڤياجرا علشانا إحنا المسلمين ؟

– الله سخر الكون كله لعباده المخلصين .

– يعنى ربنا سخر أينستاين علشان يخترع القنبلة النووية علشانا إحنا ، موش علشان اليهود ولا الأمريكان ؟

– بالتأكيد .

– وعلشان نقتلهم بها ؟

– يا أخى ، الإيمان هو الفيصل . عقيدة التوحيد تفتح للمؤمن أبواب السماوات والأرض وتنصره على أعداء الإسلام بإذنه تعالى .

– بارك الله فيك يا سيدنا الشيخ . لقد أرحت قلبى . (ويصيح متهللا زافا البشرى للجميع :) الڤياجرا حلال يا جماعة ! (ويواصل :) طب ما رأيك فى ڤياجرا الستات إللى طلعت اليومين دول ؟

– أعوذ بالله ! فياجرا للنساء ؟ بالتأكيد دى أحد أسلحة أعداء الإسلام لإفساد أخلاقنا وإضعاف شعوبنا وإغراقنا فى الرذيلة مثلهم !

– الله يفتح عليك يا سيدنا . إحنا قادرين عليهم من غير ڤياجرا ، لما ها نقدر وهم واخدين ڤياجرا ؟ ! (وينفجر من فى القاعة ضاحكين) . بس على فكرة ، هى لها اسم تانى : نياجرا ، موش ڤياجرا ، ولا فياجرا زى ما بتقول .

– لاااا ! دى اسمها فجور !

– (ضاحكا :) حلوة !

– يا ريت يا أخى تبدأ تنصح الستات هنا يلتزموا بالحجاب الشرعى ، ما أراه فيهن ليس إلا نصف كاسيات عاريات والنصف الآخر عاريات عاريات ، والعياذ بالله من غضب الله . أنصحك أن تخبرهن أن المرأة جوهرة مصونة ، در مكنون . يا بنى [بضم الباء] ، إن لهذه الكلمة مفعول السحر !

– حاولت وحياتك يا سيدنا الشيخ ، لكن ردهم دايما أن المرأة موش جوهرة ، المرأة إنسان ! ... إنما أنت عارف مين سر البلاء بجد فى البلد دى ؟ ... النصارى ! أقول لهم ليه ترسموا العذراء مريم بحجاب وأنتم موش بتلبسوه ، تصور يردوا يقولوا إيه ؟ العذراء دى المدام بتاعة ربنا ولازم تلبس حجاب ، إنما العاهرات إللى فى الشوارع يلبسوه بمناسبة إيه ؟ تصور بيقولوا على سيداتنا الفاضلات ذوات الحجاب عاهرات يا شيخ حجاب ؟ ! بذمتك شفت كفر وضلال أكتر من كده ؟ ! ... والأدهى بعد كده ياخدونى تريقة : مريم لو ربنا قال لها افتحى رجليكى علشان أنفخ فى فرجك كانت لطشته بالقلم ، والكلام ده إللى أنت عارفه ، وكمان بيسألوا هل الهوا هو إللى حرك شهوتها ولا ربنا نفخ بالذكر بتاعه . أنت أكيد عارف الستات وكيدهن . تخيل يقولوا لى كلمة الفتوحات الإسلامية موش معناها سيف وقتل إنما كلمة جنسية أبيحة ، وأن الأربعة آلاف إللى جم لمصر بقوا ٨٤ ألفا بعد ٩ شهور من مجرد ٤ زوجات و٦ ملكات يمين ، والغالب فتحوا أكتر والذرية كانت مليون وزيادة ؟ أو تخيل يقولوا عندكم ' التين والزيتون ' لأن شريعتكم مقلوبة بتاكلوا الحلو فى الأول والمخلل فى الآخر ؟ يا شيخى ، كل تفكيرهم -والعياذ بالله- إما فى الجنس أو فى الطبيخ ، وفعلا صدق قرة عينى رسول الله حين قال ناقصات عقل ودين ، فما بالك بالنصرانيات ؟ !

– كان يجب أن تتوقع منهم هذا يا أخى . إن ما بعد الكفر ذنب ! (ثم يهمس فى أذنه :) هل تعتقد أن عدد العرب فى مصر كبير جدا هكذا ؟ ! ليس سهلا يا أخى أن تجد أربع زوجات وست ملكات يمين . للأسف الملاعين والملعونات كثيرون وكثيرات فى هذا البلد يا أخى ، ولطالما قاوموا نور دعوة الإسلام !



إذا كنا جربنا كل شيء ولم نجرب الإسلام ،

فماذا بحق الجحيم كنا نفعل طيلة ١٥٠٠ سنة ؟ !

– بص : أنا قلبى انفتح لك يا شيخ حجاب ، علشان كده أنا ها أديك نصيحة ستحل لك مشاكلك مع هذه الشركة وهؤلاء الناس الكفار والعياذ بالله (مشيرا للجالسين) .

– (بلهفة :) ماذا يا أخى ؟

– أحسن لك يا سيدنا الشيخ تنسى موضوع البورصة ده خالص .

– لماذا يا أخى ؟ هناك شركات ملتزمة بالشريعة .

– أنا معاك ! ، فيه أسهم مسلمة وأسهم نصرانية وأسهم كافرة وأسهم مشركة وأسهم مرتدة وأسهم عاصية وأسهم مغضوب عليها وأسهم ضالة وأسهم مكروهة وأسهم بها شبهة ؛ كل الأنواع موجودة ، بس عاوز أفهمك حاجة : كل الشركات دى إللى ع الشاشة حرام ! لو موش سياحة وموش بيرة وموش بنوك ، ها تلقاها مستلفة من بنوك شغالة بالربا . ثم إن البورصة دى من أولها لآخرها قمار . بتختار السهم بختك يا بو بخيت . حتى لو شرعى . هو قمار برضه . السعر يعلى يوطى ، النية جوانا كلنا قمار .

– ولماذا لا تسميه رزقا ؟

ويضحك الجميع مرة أخرى وهم ينظرون لرزق وأسد ، ويواصل روميو : ' لو ع الرزق صحيح ، أحسن لك تروح تحط فلوسك فى بنك إسلامى ، وترضى بالرزق إللى ييجى لك . بس ادعى أنه ما يكونش هو نفسه واخد فلوس من حد شغال بالربا أو بيشرب بيرة ' .

– الفتوى بتقول المضاربة حلال ، طالما الشركة حلال .

– لأ ، بس فيها شبهة يا سيدنا . دى زى الرهان على حصان السبق . أنت من مصر الجديدة ، موش كده ؟ عارف السبق إللى بعد الميريلاند ؟ أنت بتراهن على حصان وأنت وحظك . ما حدش قال الأحصنة حرام ، إنما السبق حرام . للأسف ، كان فيه اقتراح تتعمل بورصة للأسهم الإسلامية ، لكن حكومتنا الكافرة رفضته ، قال إيه ؟ ضد المواطنة ! يبقى البيت بيت أبونا والصليب يطردونا ؟ !

– يبدو عليك أنك أخ فاضل ؟ (قالها وهو يغلق أزرار قميص روميو ، بينما الكل يضحك مرة أخرى ، ويواصل :) أنا معجب بتمسكك الكبير هذا . على يد من تلقيت العلم ؟ كما تعلم كل تعليم الأزهر لا لزوم له ، وعليك التتلمذ على يد شيخ حقيقى .

– أنا عارف يا سيدنا الشيخ . الأزهر قطاع عام (ق . ع .) ، وزى كل القطاع العام بينتج سلع فسدانة ومنتهية الصلاحية . المفروض يتخصخص وتتباع أسهمه هنا فى البورصة علشان ينصلح حاله .

– يا بنى ، لا غنى عن التلمذة ، هى الطريق الوحيد لطلب العلم . أنا عن نفسى بأدعو فى كل فتاواى للتحوط للشبهات . لكن لماذا لا تفعل ذلك أنت ، أقصد لماذا لا تترك البورصة ؟

– أصل البورصة دى يحوش عننا جميعا ، إدمان ، مرض ، زى السجاير ، زى الخمر والهيروئين كده . ادعى لنا ربنا يتوب علينا جميعا .

– كاليسر والخمر ؟ إن كلها من الكبائر والعياذ بالله . ربنا يقوى إيمانك يا أخى (يضحكون مرة رابعة) ، الاحتياط للشبهات أضمن طريق للجنة . (ويرفع صوته بلهجة الخطيب :) لا تتقاعسوا عن التوبة يا إخوة الإيمان ، فعذاب القبر حق واقع ، ليس له من دون الله دافع . إذا كان هذه الأسهم ربا وميسر فلتتركوها ، ولتتجهوا للبنوك الإسلامية . عليكم بالبنوك الإسلامية على الفور . لقد جربنا الرأسمالية ، جربنا القومية ، جربنا الاشتراكية ، جربنا كل شىء إلا الإسلام !

الصوت الذى ظل صامتا طوال الوقت ، لا يشارك بالكلام ولا حتى بالضحك ، صوت وحيد ، أتى عاليا ذا نبرة صارمة وبسرعة غير محسوبة ، وإن لا ترقى لمستوى الاحتداد الظاهر هذا الذى فعله مرة واحدة يوم سأله ضهرى عن التعارض بين العلمانية والاقتصاد الحر . أتى بما أرغم خطوات ساقى حجاب المهرول خارجا على التلعثم بعضهما البعض للحظة : ' إذا كنا جربنا كل شىء ولم نجرب الإسلام ، فماذا بحق الجحيم كنا نفعل طيلة ١٥٠٠ سنة ؟ ! ' .

– العياذ بالله ! العياذ بالله ! العودة لله هى طريق الصلاح . هى سبيل نهضة الأمة . والنصر على الكفار . السلام عليكم !

... ويواصل الهرولة منصرفا ، دون أن يسمع بالكامل بقية عبارة وحيد التى حاول قولها بصوت أعلى حتى تصله : ' من قال إنى من أنصار القوانين الوضعية ؟ بالعكس ، أنا أؤمن بالقانون الإلهى الوحيد فى هذا الكون -قانون أمنا الطبيعة ، قانون الدغل ، ولا أؤمن بالقوانين الوضعية التى هى الأديان ! ' .



لقد خلقنا الرب عرايا وعلمنا الأنبياء الخجل !

بالطبع توالت التعليقات على كلام روميو : ' عفارم يا روميو ! ' ، ' تخيل لو كان ده ها ييجى يعكنن علينا كل يوم ! ' ، ' الشيخ حجاب فى كرسى السيتى ستارز ؟ ' ، ' دى باين عليها آخر الأيام ! ' . وعن جرأة وحيد اتفقوا على قول أسد : ' بصراحة يا أستاذ ، الحق يقال ، إللى شجعك كلام الأستاذ رامى ! ' . وتحفظ عارف : ' الكلام فى الدين موش عاوز شجاعة كبيرة اليومين دول . ما تنسوش أن أولاد حارتنا من يوم ما انطبعت من ٣ سنين ، وهى مبوظة أمخاخ ناس كتير ! ' . ويدخل ونس كالعادة فى حوار جانبى مع روميو : ' على فكرة كلامك عن العذراء مريم غلط . أنت فاكر ' ما كانت أمك بغيا ' و' أحصنت فرجها ' ، هى إهانة ضمنية لها ؟ بالعكس هو بيتكلم بجد وبمنتهى الاحترام ، لأنه بما أن كل نسوان جزيرة البعر -بمن فيهم أمهات المؤمنين- كانوا عاهرات يتبادلونهن كالبهائم ، فمجرد فكرة وجود امرأة غير منكوحة هو قداسة تفوق الخيال فى نظرهم ! ' . ويرد روميو بممارسة لعبتهما المعتادة فى التهكم على الأسماء : ' تفتكر واحد اسمه حجاب متجوز واحدة منقبة ، يخلفوا إيه ؟ ' ، ' يخلفوا خمار ، هأ ، هأ ' ، ' لأ ، وأنت الصادق ، لو بنت تبقى خمارة [بفتح الخاء] ! ' ، ' هأ ! هأ ! ' . ويثبط ضهرى من مزاجهم : ' أنتم ؟ آه منكم ! قليل عليكم تتجرجروا من عينيكم يوم القيامة ! ' . ثم يردف مازجا الجدية بالمزاح بالتوجس : ' لعلمكم حجاب ده موش سهل ، وموش قليل . ولو أفتى بحل دم واحد زى وحيد ، مجلس الأمن بتاعكم ها يبوظ للأبد ! ' . أما سوسن التى نادرا ما تحادث أحدا ، إلا روميو بصوت منخفض ، فقد قالت له ، إنما بصوت مسموع نسبيا للباقين هذه المرة : ' عارف لو الراجل ده كلمنى حاجة على هدومى كنت ها أقول له إيه ؟ ها أقول له إللى قاله مايكلأنجلو ، عارفه يا روميو ؟ ' ، ' بتاع السقوف والتماثيل ؟ أيوه ، كان مقرر علينا فى كلية السياحة ! ' ، ' أيوه ! بتاع السقوف والتماثيل ! قال لقد خلقنا الرب عرايا وعلمنا الأنبياء الخجل ! ' ، ' لأ ، دى ما كانتش مقررة ! ' ، وهنا تتلقى عاصفة أخرى مستقلة من التشجيع من أسد وجوقته : ' أخيرا ميس سوسن نطقت ! ' ، ' آدى دين الفطرة وإلا بلاش ! ' ، ' تصدقى أنهم علمونا الخجل من غير نص واحد صريح لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ينهى عن العرى ! ' ، ' إمبارح سمعت واحد شيخ بيقول الإنسان لما كان متخلف كان عريان ولما اتقدم بقى بيلبس ، هل معنى كده أن ربنا كان متخلف ؟ ! ' ، ' خللى المشاخ على جنب ، ما فيش حاجة واحدة فى

حياتنا إلا وعارضوها ؛ التصوير الفوتوجرافى ، الراديو ، السينما ، التليڤزيون ، المواطنة ، حقوق الإنسان ، البحوث الچينية بتاعتك ، وبعد كده لما يلقوا ما فيش فايدة يوافقوا عليها ، وكمان كل مرة يطلعوها إعجاز علمى للقرآن ' . ويعلق نبيل : ' عارفين پاپا روما قال إيه لفرانسيس الأسيسى الراهب الفقير شبه العريان المطرود من الكنيسة ، وإللى كان البداية للفرنسيسكان وكل حركات خدمة المحتاجين ؟ ' ، ' إيه ؟ قال له : ' لقد خلقنا الرب عرايا وعلمنا الأنبياء الخجل ' ؟ ' ، ' تقريبا ! ركع وقبل قدميه الحافيتين المتسختين وقال له : ' فى خضم استحواذ الهاجس الأكبر المسمى الخطيئة الأصلية على عقولنا ، لعلنا نسينا الشىء الآخر الأهم : البراءة الأصلية ! ' . ده كان فى القرن الـ١١ . هل تعرفون أن الأسيسى جه مصر وبقى صديق للسلطان الـ... ؟ ' ، وهنا يقاطعه وحيد بتعليق سخيف نسبيا : ' حقا : الشيطان لا يسكن إلا قلوب أولاد الرب ، ذلك أنهم هم الذين اخترعوه ! ' .

يهدأ الضحك ، ويتسلل للجميع الشعور بأن نصر روميو على حجاب ، ما هو إلا نصر أجوف ، وأن المناوشات والصدامات الحالية والتى تحذر بعض الأقلام أنها قد تتحول قريبا لحرب أهلية تجتاح مصر ، قد باتت طبولها أقرب حتى لمصر الجديدة نفسها ، أقرب بكثير مما سبق لأيهم وتخيل ، بل ربما يجد يوما كل منهم يرفع السلاح فى وجه صديقه هذا الجالس إلى جواره الآن . هنا فقط يتدخل وحيد بجدية غاضبة كانت على ما يبدو تعتمل داخله طوال الوقت : ' نهضة إيه إللى بيتكلم عليها أخينا ده ؟ ' جربنا كل شىء إلا الإسلام ؟ ' إحنا ها نهزر ! لأ ، بصراحة جربنا كل شىء إلا حاجة واحدة : الديكتاتورية العسكرية اليمينية ! ' .

ويسأل أسد بلهجة التلاميذ : ' ودى تبقى إيه يا أستاذ ؟ ' .

– تبقى ديكتاتورية الحرية !

ويأخذ وحيد يشرح نظريته فى النهضة : ' كتعريف أقصد بالنهضة بلد متخلف يريد اللحاق بالعالم المتقدم . الحضارة هى ثورة تقنية ، ابتكار تقنيات الغد يعنى : روما – بريطانيا – أميركا ، وبس . ودى بطبيعة التقنية إللى بتخلقها بتنشأ وتتطور ببطء وبدون ديكتاتورية . التحضر أو ' النهضة ' هى اكتساب شعب متخلف لتقنيات اليوم . ودى سريعة تتم فى ١٠ سنين ، ٢٠ سنة ، لكن محتاجة للديكتاتورية العسكرية اليمينية إللى قلت عليها . هكذا فى القرن العشرين تقدمت تركيا أتاتورك ، وإيطاليا الدوتشى ، وإسپانيا فرانكو ، وپرتجال سالازار ، ويونان عسكر فيلم زد لو كنتم شفتوه ، باختصار كل الساحل الجنوبى لأوروپا تقريبا . وتقدمت كوريا (المغدور) پارك تشونج هيى ، ومن ثم كل نمور آسيا . والذروة الأعظم من الجميع بلا شك تشيلى پينوتشيت . لكن للأسف هكذا الكل تقريبا مغدور أو ملعون . بعد ما يعمل النهضة ، وبعد البطون ما تشبع ، والمؤخرات تتغطى ، يغتالوهم أو يبتدوا يحاكموهم باسم حقوق الإنسان والديموقراطية . حتى ألمانيا بسمارك وياپان الميجى فى القرن التاسع عشر ، لو اعتبرناها نهضات بالمعنى إللى أنا قلته ، كانت برضه كده ، ديكتاتوريات عسكرية يمينية . بريطانيا وأميركا بس هم النموذجين الكبار إللى تطوروا تطور تدريجى وطبيعى ، موش نهضة بمعنى نهضة ، قسرية وسريعة . وللأسف الشديد -سواء عجبنا هذا أو ما عجبناش- لم تحدث نهضة واحدة بأسلوب غير ذلك الأسلوب ، تطبيق التحديث والاقتصاد الحر بالقمع والبطش ورغم أنف الرافضين ' .

واتهالت الأسئلة : – طب وناپوليون ؟ – طب وستالين ؟ – طب وعبمعصور ؟ – طب والصين ؟ – طب وماليزيا ؟

وطال الحديث : ' ناپوليون نهضة لم تكتمل ، مسبوقة ومتبوعة باشتراكية متطرفة أو ما يسمونه هم بالجمهورية ، زائد كم من الحروب والتوسع غبى وفوق طاقة بلد زى فرنسا . الاتحاد السوڤييتى موش نهضة ، إنما نكبة . ديكتاتورية عسكرية لكن يسارية . عيش الناس فى فقر علشان يصنع أسلحة ويطلع الفضاء ، والنهاية انهار لنفس السبب إلى اتولد بسببه سنة ١٩١٧ : الجوع . عبمعصورة شرحه ، عسكر يسارى سرق كل الناس وجوع كل الناس . الصين ، رغم أن اسمه الحزب الشيوعى ، ورغم أن أهدافه الحقيقية مشكوك فيها ، إلا أنه يطبق تلك الديكتاتورية النخبوية اليمينية التنافسية فى بقعة صغيرة من الصين معزولة عن كل ما عداها ، شريط صغير على الساحل . ماليزيا نفس الوضع ، صنع نهضتها الشمال ذوو الأصول الصينية ، وليس عرق المالاوى . والاثنان على أية حال ، الصين وماليزيا ، لا أثق أنهما تجارب نهضة أصيلة أو عميقة أو سوف تستمر ' .

– طب الهند موش ديكتاتورية ؟

– وموش نهضة ! لما نص الوقت يحكمها الاشتراكيون يبقى التطور إللى بيحصل فى النص التانى يعتبر بطىء ولا يمكن تسمى نهضة . ممكن مثال تانى ، تونس . بورقيبة فرض العلمانية والتحديث بالقوة ، ليست بالصرامة التى فى التجارب الشهيرة الكبيرة ، ربما الصرامة فى العلمانية ، لكن

ليس الصرامة فى حرية الاقتصاد أو فى إعمال القوة . دى أقرب تجربة لنا ، وأقرب شىء عربى لما يقول الكتاب ، ولا أقول أكثر من أنى أتمنى لها مواصلة الازدهار والنجاح .

ويعارض ونس : ' السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة ' .

– بالظبط ! هذا ما أردت قوله ؛ انزع عن الحكومة سلطاتها وميزانياتها ، لن تجد أى فاسدين ! هؤلاء سينشئون حكومة تتخلى طوعا عن سلطتها على الاقتصاد وعلى الأفراد وعلى المجتمع ولن تتمتع سوى بميزانيات بسيطة ووجهات إنفاق محدودة محددة وواضحة . لا فرصة للفساد أصلا .

– وما الذى يضمن لنا ألا ينحرف هؤلاء ويفسدون ؟ لا تزال السلطات الأمنية بأيديهم ؟

– من لديه الرغبة فى تحرير الاقتصاد ، لا يمكن بطبعه أن يكون فاسدا ؛ لأنه لو كان يفكر فى الفساد لما وقف فى صف الاقتصاد الحر أبدا . من الناحية الأخرى ، من نالوا حرياتهم من الأفراد والشركات ، لن يتخلوا عنها بسهولة ، وسيصبحون قوة هائلة تحكم مسيرة المجتمع . ثم إنه بمرور الوقت ستتدخل الآلات الذكية أكثر وأكثر فى حياة الكوكب وفى صنع القرار وفى دوائر الحكم ، وهى مطلقة الموضوعية ولن تفسد بحال . الحرية لو وصلت لمستويات معينة ستحمى نفسها بنفسها . كن متأكدا من هذا يا مستر مؤامرة !

أما أخبث الأسئلة فيأتى من ضهرى ، من غيره ؟ : ' ويا مستر أرسطو ، فين المادية هنا ؟ إيه الفرق بينك وبين الشيوعية ، نخبة تفرض أيديولوچيتها على المجتمع فرضا ؟ ' .

– المهم إيه الأيديولوچية دى ؛ أيديولوچية مادية أم معادية للمادية ؟ والأيديولوچية المادية على فكرة لا يصح تسميتها أيديولوچية ؛ هى قانون طبيعى وليست فكرا أصلا ، ناهيك عن أن يفترض أنه سابق على المادة أو أفضل منها ، كما تقول كل الأفكار الأخرى عن نفسها . إنها لسان أمنا الطبيعة نفسها . شخصيا حين أقول هذا يسيئنى أن يصفنى أحد بأنى مفكر . هذه الكلمة تنطبق على آلاف الكتاب ، لكن النطق بلسان أمنا الطبيعة ليس فكرا كباقى الفكر ، بل للدقة -كما قلت- هو ليس فكرا أصلا ، إنما مادة . الفارق بين هذه تلك أن أمنا الطبيعة أشبه بجواد جامح ، إما أن تركبه وتنطلقان سويا لهدف مشترك ، وإما أن تركبه ووجهك للخلف وتتوقع منه أن يطيعك ، باسم الاشتراكية أو الإنسانوية أو أيا ما كان ، وهذا ما لم وما لن يحدث أبدا . أمنا الطبيعة قوية جدا ، بحيث لن تستطيع أن تثنيها عن وجهتها أبدا . الإنسان صنيعة لها ، وليس إلهها أو سيدها . لا يجب أن ننسى أنها المادة التى صنعت أجسادنا منها ، وأنه بالتالى لا يمكننا التمرد عليها أبدا . كل ما تستطيع فعله هو أن تقترح عليها شيئا هنا أو هناك يسهل أو يسرع لها تحقيق أهدافها ، لكن تحاول أن تتحدى موجة البحر العارمة فسوف تقتلك حتما !

– يعنى أنت موافق على المذابح ؛ پينوتشيه قتل ٣٠ ألف فى مذبحة الستاد ؟

– كلهم كانوا ماركسيين ، ثم أن مذبحة واحدة تكفى !

كلام لم يقله وحيد لأحد منذ أضحى حطاما بشريا ، بل منذ كان يكتبه قبل ١٥ سنة . وكان استرجاعه له -ولو حتى لبسطاء شركة رمسيس- مصدر سعادة داخلية غامرة له ، وحتى ولو من قبيل : ' أنا بأرمى إللى فى مخى وأمشى ! ' . حين هموا بالانصراف مال ضهرى على وحيد قائلا : ' ١٤٠٠ ' ، ' ماذا ؟ ' ، ' ١٤٠٠ وليس ١٥٠٠ سنة ' ، ' أوه ، هل تقصد بالتقويم الشمسى ؟ ' ، ' بل أقصد أن أحدا لا يضمن أن يكمل الإسلام ١٥٠٠ سنة ! ' .



عثر أخيرا على الخبيئة الحقيقية الكبيرة

تملك ونس الفضول حول ما يمكن أن يحتويه الحاسوب الشخصى لرئيس التحرير السابق ' للاقتصاد اليوم ' . من أين يأتى بأسماء تلك الشركات العجيبة التى تربح ٥٠ ٪ خلال أسابيع قليلة ؟ إنه بالتأكيد يحوى ثروة عن أسرار الشركات وأخبارها . على الأقل تلك البيانات التى يصنع بها الجداول التى يلقى محاضراته علينا استنادا إليها . كان فى كل مرة يذهب فيها مثلا لدورة المياه ، ينتقل لفترة قصيرة جيئة وذهابا لمائدة وحيد ، ويطلب منه أن يحدثه عن حاسوبه ، لكن وحيد لم يجد ما يقوله . راح يسأل السؤال تلو الآخر ، لعله يلقى إجابة مثيرة للاهتمام : ' هل تستخدمه فى الكتابة ؟ ' ، ' هل تستخدم برنامجا معينا للتحليل الفنى ؟ ' . أخيرا لاحظ أن وحيد يترك الجهاز لدى تركه الشركة .

– فين الكمبيوتر ؟ هل تستغنى عنه بعد الظهر ؟

– لأ ، أنا بأتغدى فى المطعم ، وأتمشى شوية ، وأنا مروح بأعدى آخده من نصر الله . هو بيبيت فى الشركة زى ما أنت عارف .

آه ! نصر الله ! أمسكت بك يا بطة أخيرا ! تصنع ونس أنه ينقل من شاشة المعلومات اللحظية أسعار الأسهم فى ورقة ، ودام على هذا الحال إلى أن انصرف كل العملاء . نادى على نصر الله ، وقال له : ' عاوز أشوف شوية أرقام قديمة فى كمبيوتر الأستاذ وحيد ' . حاول نصر الله المناقشة ، فقال له : ' ما تخافش ، لو فيه أى حاجة ابقى قول للأستاذ وحيد إن أنا قلت لك ' . ويدس فى يده مائة جنيه : ' روح هات لنا غدا أنا وأنت ! ' .

فوجئ ونس بأن الجهاز يطلب كلمة مرور لدى فتحه . فى الحقيقة لم يكن وحيد يقصد حماية معلومات بعينها ، بقدر ما هى عادة قديمة منذ أيام كان يحتوى حاسوبه أخطر المعلومات والمقابلات . طلب ونس ابنه على الهاتف فى دمياط . شاب مهوس بالحواسيب . قال له : ' بسيطة ! قول لى إيه الطراز ، وها أجيب لك شريحة بايوس ، نشيل إللى جواه ، ونحط دى ، وبعدين نرجعها تانى ' .

– أنت اتجننت ؟ عاوز نفك ونلحم جوه الجهاز ؟

– فيه حل تانى : الفلاش ديسك ! صحيح ما عادش سهل زى زمان تفكه وتحطه فى جهاز تانى وتقرأ كل حاجة ، بس فى الحالة دى ها نحتاج ... .

– لا حل تانى ولا تالت . انسى ، انسى ، أنا ها أتصرف . على فكرة دى كانت خدمة لواحد صاحبى . خلاص ، خلاص ، هو ها يروح به للتوكيل .

لم يشأ ونس أن يورط ابنه فى سلوك شبه إجرامى كهذا . بل لم يشأ أن يتورط هو أو يورط نصر الله أكثر من هذا . قرر أن يسلك الطريق الصعب . أن يجلس وقتا أكثر مع وحيد ، ويتفقد ملفات الجهاز بنفسه قطعة قطعة . لعدة أيام بدا الأمر محبطا . لم يجد بالحاسوب وصفة سحرية للتداول بالبورصة . فقط اعتناء شديد بحفظ المعلومات . لا يوجد أكثر من بيانات أسعار يومية ، يستنزلها وحيد من على الإنترنيت ، ثم يحولها بمعرفته لملف إكسيل ، فرخ مفرود كما يسمى ، ثم بعد ذلك يحول محتويات هذا الفرخ لما يناسب برنامج رويترز الشهير ' ميتاستوك ' الذى يحول هذه الأرقام لمنحنى ، وكذا يقدم عليه بعض التحليلات . كل شىء بالإنجليزية ؛ أسماء شركات دقيقة ورسمية ، ما فيش الأخطاء الموجودة فى البيانات العادية ، تلقى مثلا أعلى سعر أقل من سعر الافتتاح ، أو أقل سعر أعلى منه . لوهلة تخيل ونس أنه يعرف كل شىء أفضل من وحيد . لماذا كل هذا المجهود من أجل تفاصيل غير مهمة ؟ إن مثل هذه الأرقام توجد جاهزة يضعها البعض يوما بيوم على الإنترنيت . ثم إذا كان وحيد يمتلك هذه النسخة الأصلية باهظة الكلفة من الميتاستوك ، لماذا لا يشترك من خلالها فى خدمة البيانات اللحظية من الرويترز ؟ إنهم سيقدمون له كل شىء بالإنجليزية كما يريد ، وأتخيل أنها ربما كانت دقيقة جدا . كل إللى أنا شايفه أنه عامل الحكاية شغل يد ، تحفة لو تحب تقول ، بس ما فيش حاجة مهمة .

الواقع أن وحيد لم يكن مهتما جدا بكل هذا ، ثم إن المجهود لم يكن ضخما كما بدا لونس . كان يستخدم برمجة داخلية فى داخل برامج الأوفيس تسمى بالماكروهات ، صممها بنفسه ، تصحح تلقائيا كل الأسماء وكل الأخطاء ، وفى غضون خمس دقائق من تنزيل صفحة الأسعار اليومية ، يكون قد بدأ يتفرج على المنحنيات المحدثة . كان الأهم عنده من كل هذا ، أن يجمع مثلا بيانات الشركات نفسها لا بيانات أسهمها . وهذه كلها يجمعها فى ملف واحد يبين تطور الأرباح ، زائد سجل للأحداث المهمة فى تاريخها . وفى الواقع كان يحتاج الأسعار اليومية أساسا من أجل أن يحدث القيمة السوقية للشركات ، ويحدد مدى غلو أو رخص الأسهم بالنسبة للأرباح التى تحققها الشركة . وليس من أجل التحليل التقانى ، الذى عادة ما أغاظ ونس بوصفه هذا النوع من التحليل بأنه يتكلم عن الأسهم كما لو كانت أوراق كوتشينة ولا وجود أصلا لتلك الشركات التى تمثلها ؛ باختصار هو لا يأتى بأسماء تلك الشركات من أى مكان . هو فقط يقرأ الميزانيات . ثم ما كل هذه النسخ الإليكترونية من الميزانيات ، وكأنه يواظب على جمعها منذ قرن كامل ؟

بسرعة ينقل ونس الملفات التى أعدها وحيد كملخصات لبحوثه وأرقامه ، ذلك لذاكرة فلاش صغيرة كان يضعها فى جيبه ، لكن فى الحقيقة دون أية نية لاستخدامها استخداما جديا . هو يؤمن فقط بالمضاربة ، بحركة الأسعار ، ولا يهمه إن كان وراء هذا السهم أو ذاك ، شركة عملاقة ، أو حفنة هواء ، وطبعا لا يهمه إن كتبت أسماء الشركات بطريقة أنيقة ، أم بحروف كبيرة كلها .

على أنه بعد بضعة أيام أخرى من التلصص الودى ، عثر أخيرا على الخبيئة الحقيقية الكبيرة : ملف وورد من بقايا أيام وحيد الغابرة ، ملف بالإنجليزية أسماه الأجندة ، به أرقام هواتف كل اسم مهم قد يخطر ببالك فى هذا البلد ، وربما خارجه أيضا !

فعلا ، كان على أن أتوقع هذا من البداية . وحيد لا يحمل هاتفا خليويا . يقول إنه تخلى عنه منذ مرضه ، ولا يجد داعيا للعودة إليه . طبعا ، لا بد أن يحفظ أرقام هواتفه بهذه الطريقة !



أنا أوافق من يرفضون فكرة أن الإنسان أصله قرد .

... فى الواقع هو أصله عدة قرود !

بدأ هذا الصباح الربيعى باحتفالية كبيرة . ما أن أعلن وحيد أنه اشترى شقته الحالية حتى انهالت التهانى . وطبعا تهنئة ونس كلفت وحيد أن يصدر أمرا بأن ينزل عم نصر الله ويشترى شنطة مكسرات : ' طب استنوا الحاج لما ييجى ! ' ، ' أكيد الحاج عارف الموضوع قبلنا كلنا ! ' ، ' فعلا هو عارف وحضر معاى كتابة العقد ! ' ، لكن زهوة كل هذا نسيت بعد دقائق ، إذ كان ثمة ضيف يسلب الأبصار أهل على القاعة : منى ضهرى عبد الحميد المصرى .

هكذا سمعها الجميع تملى بعد قليل اسمها لسامر المنبهر تأدبا أمامها ، والذى راح يملأ خانات تعاقدها مع الشركة نيابة عنها ، إكراما لأبيها وطبعا إكراما لإشراقها ؛ طالبة فى منتصف دراستها لعلوم الحاسوب فى الجامعة الأميركية ، رشيقة تكاد تطل على النحافة ، بشرة مرمرية لامعة لا يضاهيها فى نعومتها سوى نعومة شعرها الكستنائى الطويل المنسدل إلى الخلف ، رقبتها طويلة مستقيمة تتماشى مع سموق بدنها .

المكون الثابت فى ملابسها هو بنطلون الچينز الضيق الذى يزيد من الإحساس بطولها وبنحافتها . الطول الذى كان الانطباع أولى لعملاء رمسيس لحظة وقعت أبصارهم عليها آتية بصحبة أبيها الأقصر كثيرا . هذا قبل أن يعرفهم بها ويعرفها كل واحد منهم بنفسه ، وتنفجر القاعة فى مهرجان من التهليل والثناء ، وكل الكلمات التى يمكن أن تقال لأب إعجابا بابنته ، ومقارنة لجماله هو المزعوم بجمالها هى الحقيقى .

أما النصف العلوى من ملابس ابنة ضهرى فيتغير طوال الوقت ، ما بين حريرى خفيف ، حتى الچينز الخشن ، لكن المشترك دوما أن يظهر جزءا من بطنها ، أو ربما ميلليمترات قليلة من شعر عانة خفيف مشذب على هيئة مستطيل رأسى ، هذا بالذات إذا ما رفعت رأسها أو صدرها أو أحد ذراعيها لأعلى .

هى تحب لو كان وجهها أطول قليلا . هو ليس مستديرا بالضبط كما وجه والدها غير قوقازى الملامح ؛ لذا فهى ترسم مثلثا من الرووچ الداكن كما جناحى طائر صغيرين على وجنتيها ، بما يجعله -أى الوجه- يوحى بأنه أكثر طولا . فى جميع الأحوال خداها مثاليان ، متسعان مسطحان تماما بلا أدنى تقعر أو تحدب ، لكن ما أن تبتسم حتى تنزرع غمازتين عميقتين فيهما ، تجعل وجهها الساحر ساحرا جدا ، عصريا جدا ، أحد أجمل الوجوه .

عيناها واسعتان حقا ؛ وواسعتان معناها أن القزحيتين نفسيهما واسعتان والعينان ككل مستديرتان ، وليس كما قد تسمى بعض النساء العيون بالواسعة لو كانت طويلة أفقيا ، حتى لو كانت شبه مغلقة فى بعدها الرأسى . هناك ظاهرة غريبة فى عينى منى . حين تأتى من الخارج حيث الضوء الساطع ، يخيل إليك أن قزحيتى عينيها بلون رمادى فريد رائع . لكن بعد مرور ساعة أو نحوها ، تكتسبان شيئا من اللون العسلى ، ولا تبدوان فاتحتين جدا كما كانتا . هذا شىء يلاحظه كل أحد فيها ، ولا تبدو هى مقتنعة جدا به ، وتعتبره نوعا من المغازلة ، على الأقل لأنها لم تسمع بمثله من قبل ، ولا تعتقد أنه صحيح علميا . كل ما تفعله أن تذكر من يقول لها هذا بشراستها : ' أنتم موش بتقولوا على قطة بتخربش ؟ خلاص ! يبقى عينيا لازم تكون عينين قطة ! ' . والدها يدللها بقطة ، وكانت تفرح بهذا وهى صغيرة ؛ لأنها تحب القطط . وعندما علمت بعد ذلك أنه لا يقصد الرقة والجمال ، إنما الخربشة ، فرحت أكثر . هذا هو الاسم المفضل لديها مقارنة بذلك النداء المقرف : ' يا بت ! ' ، الذى تحاول بكل الطرق أن تثنيه عنه ، ومنها حين تيأس جدا تقول : ' أنا دلوقت كبرت ودخلت الجامعة وبأدرس كمپيوتر ساينس ، على الأقل ما تقوليش يا بت ، قول لى يا بايت ! ' .

أما لماذا ظهرت هكذا فجأة ، فهو النتيجة الغائية لجدل حامى الوطيس احتدم أياما بينهما . لديها فى الصيف القادم شهر أجازة ، فى نفس الوقت تريد أن يشترى لها أبوها سيارة . بطبيعته العملية اقترح عليها أن تشترى سيارة مستعملة تناسب حداثتها فى القيادة . ثم اضطر لأن يقترح

عليها سيارة صينية الصنع جديدة ، كحل وسط لمطلبها بسيارة تويوتا جديدة ، هذا رغم عدم ثقته بالمرة فى المنتجات الصينية . صديق لى اشترى صاعقة ناموس صينية ، لم تصعق ناموسة واحدة ، وبحلول المساء صعقته هو وانتحرت . رخص ثمن سلعهم ليس بسبب عبقرية خاصة لديهم تاهت عن الجميع ، إنما لأنهم لا يستطيعون الارتقاء فوق مواصفات حياة الفقر المدقع . يا ابنتى ، أية سلعة صينية لا تشتغل جيدا لأكثر من أسبوع ؛ إنها مصممة للقتل لا أكثر . هنا باغتته باقتراح أربكه أيما إرباك . أن يعطيها ثمن السيارة نقدا ، وسوف تضارب هى فى البورصة لمدة هذا الشهر ، وبعدها ستشترى السيارة أيا ما كانت الحصيلة . حاول نهرها بكل الشدة . طلعى البورصة دى من تفكيرك خالص . دى حاجة بتاع إللى ع المعاش زينا . أو لو عاوزة تقولى بتاع العواطلية قولى . دى شغلانة موش منتجة ، وأنتى تفكرى فى تخصصك وبس .

كانت ثورته هائلة ، لدرجة أن عرض عليها أن يشترى لها السيارة التى تريد ، بشرط أن تبعد عن سكة البورصة دى خالص . منعها كبرياؤها -أو قل عنادها- من القبول . هى أرادت البورصة فى حد ذاتها ، هى خطتها لذلك شهر العطلة . حاولت أن تشرح له أن بالجامعة الأميركية مختبرا يعلمونهم فيه الاستثمار فى البورصة . أيضا ليس كل من يشتغلون فى البورصة غير منتجين . إدارة المحافظ خدمة يحتاجها المجتمع ، ولا بد لأحد أن يؤديها . لم يقتنع بل راح يسب ويلعن الجامعة الأميركية .

هنا فقط استخدمت الطريقة الوحيدة التى لا يقدر على مقاومتها . التخلى عن طبيعتها الظاهرية الرعناء الهوجاء المجنونة التى تحبها ، وإظهار وجهها الداخلى الهادئ العاقل الذى تكرهه . بنبرة منظمة ، قالت له : ' أنا فاهمة كل إللى بتقوله . وفاهمة أن الجامعة بيعلمونا الاستثمار الطويل موش المضاربة . وأوعدك ، وأنت تعلم أنى لا أعد وعدا أقول إنه جاد ، ولا أنفذه ، أعدك أن لا أقترب المضاربة ثانية أبدا ، باعتبارها مصدر للمكسب . فقط فى أوقات الفراغ زى شهر الأجازة ده ' . اشترط عليها أن يكون هذا الشهر فقط ، وليس أية عطلات قادمة . وافقت ، فعطلة العام القادم ستكون الأخيرة ، ومضطرة أن تقضيها فى تدريب فى إحدى الشركات مثل آى بى إم أو هيوليت پاكارد . ثم بعد ذلك من يدرى كيف ستجرها حياتها المهنية . أما الآن فلماذا الانتظار حتى بداية الصيف ، لنفتتح الحساب الآن ، وأتركه لك فربما يحقق بعض الأرباح الإضافية ، قبل أن أبدأ أنا ، وأعلمكم جميعا كلمة مضاربة معناها إيه ؟ !

– آدى الاتفاق يا وحيد ، ٣٥ ألف ما فيش غيرهم ، وإن شا الله تجيب مارصيديص !

– (بكل سعادة اليوم الأول لها كمستثمرة رسميا فى البورصة :) اسمها ميرسيديس يا پاپا ، مير موش مار . ميرسيديس موش مارصيدص . Mercedes . بتركبوها وما تعرفوش اسمها .

– الله يرحم جدك ، كان بيقول مرشيضيظ ! وبعدين يا بت الأمريكان دول بيغيروا نطق الكلام مرة كل ١٠ سنين ، زى ما يكون نطق الكلام موضة وزهقوا منها .

– المرة دى جايز الحكاية موش كده يا حاج . أفتكر السبب برامج القراءة الآلية للنصوص . مثلا st لازم تستقر على نطق واحد ' ست ' أو ' شت ' ، have تنطق هيڤ بدلا من هاڤ ، وهكذا . ولا إيه يا مستر نبيل ؟

لم يكن التعارف بين منى وبين وحيد يحتاج لأية مشقة : ' على فكرة يا أونكل أنت شخصية معروفة جدا عندنا فى الجامعة الأميركية ، وبنعتبرك أشهر واحد اتخرج من قسم الصحافة ' .

حين يصبح الحوار أكثر عمقا ، يقول محذرا إياها إن معظم أساتذة الجامعات فى العالم يساريون ، وإن عليها أن تحتفظ باستقلاليتها الفكرية عنهم . فترد : ' لأ ، فى دى ما تخافش على خالص ! ' . ويواصل بلهجة أقرب للشكوى إن الأمثلة العكسية لذلك محدودة جدا ، ويضرب المثل بجامعة شيكاجو ، التى أسسها چون ديڤيسون روكيفيللر . فترد بأنها تعرف عنه أنه صاحب شركة ستاندرد أويل ، وأغنى شخص فى أميركا فى عصره . يلحظ أن لديها قدرا لا بأس به من المعلومات فى مختلف مناحى الثقافة ، يعبر عن إعجابه بها ، ويسألها عن قراءاتها . كما توقع فهى لم تستقها من قراءة كتب كاملة كما بنى جيله ، إنما هو فيض من المعلومات الصغيرة المتفرقة العابرة ، تكتسبها من خلال الملاحة على الإنترنيت أثناء إعداد ما يطلب منها من بحوث فى الجامعة ، أو أثناء التصفح الحر بلا هدى . حيث فى كلتا الحالتين تظهر لها وفى كل لحظة معلومات لم تهدف فى الأصل للبحث عنها ، وتكتسبها كلها ، بمحض الصدفة تقريبا . هذه هى طريقتهم فى اكتساب المعلومات ، ربما ليست عميقة ، لكن قطعا ليست قليلة ، أو ربما هى فقط مختلفة عن طريقة جيلنا . يقول إنه لا بأس بالمرة . أما فى أيامنا فقد كانت البحوث شاقة للغاية ، كنا نمضى أياما كاملة فى المكتبة للبحث عن معلومة لا تشغل سوى سطر واحد فى البحث ، والآن نأتى بها فى لحظة بكبسة زر . تقول نحن طبعا نلجأ للكتب ،

ومعلومات الإنترنيت لا يعتمد عليها من حيث المبدأ . هى ليست للمعلومات المتخصصة إلا لو هناك مواقع موثوقة كبرى ، أما حتى اللحظة فهى تستخدم فقط للمعلومات السريعة أو الدارجة . فيرد مذكرا إياها بأن لا مفر فى كل الأحوال من قراءة أمهات الكتب ، ومعظمها على أية حال متاح كنسخ إليكترونية على الغشاء ، الويب .

– شفت لون عينيها ؟ دلوقت اختلف عن ساعة ما دخل !

– شىء رائع .

– العين معجزة ، وعين منى معجزة خاصة جدا . أنت لا يمكن أن تجد ساعة يد فى الطريق وتقول إن التطور صنعها ، لا بد أن هناك صانع . سبحان الله !

وينسى وحيد الضيفة الجميلة ، ويدخل فى مجادلة علمانية شرسة مع والدها ضد فكرة أن العين كعضو شديد الاستعقاد تعد أكبر دليل على وجود يد للخالق ، إذ لا يمكن أن تكون قد جاءت بصدفة التطور : ' ما هذا إلا دليل مضحك ، ليس فقط لأن ٤ بلايين من السنين تكفى لصنع أى شىء بالتطور الوظيفى أو حتى بالصدفة ؛ إنما لأنه ثبت أن العين تحديدا قد تطورت على الأقل فى مكانين مستقلين تماما فى المملكة الحيوانية ، وانتهت فيهما لنفس الشىء تقريبا ، وأنت يا دارس البيولوچيا تعرف هذا جيدا ! ' .

– (وكالعادة مؤخرا يعكس رأيه مزايدا عليه :) ليست العين وحدها ؛ أنا أعتقد أنه سيأتى يوم يثبت فيه العلم أن على الأقل البيض والصفر والسود ليسوا من أصل واحد ، إنما تطوروا على نحو مستقل من أصول غير بشرية مختلفة وفى أماكن مختلفة ولا علاقة بينها ! أنا أوافق من يرفضون فكرة أن الإنسان أصله قرد . ... فى الواقع هو أصله عدة قرود !



سهم الدواجن محتاج ترقد عليه ٢١ يوم !

– على فكرة أنا بأحب الفلسفة جدا ، زيك يا أونكل ؟

– بجد ؟ وأية فلسفة تميلين إليها أكثر ؟

هنا ينفجر الحاج فى الضحك ، فيكتسح الاستغراب معالم وجه وحيد : ' إيه الموضوع ؟ (وبفضول باسم :) عاوز أعرف بجد ' .

تجيب منى على السؤال : ' أنا أقرأ كل الفلاسفة ، وليس لى موقف بعد ؟ ' .

والدها لا يزال يضحك : ' قولى له إيه أول فلسفة آمنتى بيها ؟ ' .

– (تكشر :) وإيه إللى يضحك فى كده ؟ : فلسفة ميرى پوپينز .

– (وحيد يضحك هو الآخر لكن محاولا ألا يفسر هذا على أنه إهانة أو استخفاف :) فيه فلسفة اسمها كده ؟

– أيوه يا سيدى ، فيلم من إللى كنت بأشتريهم لها قبل ما تطلع م البيضة ، وبعد كام يوم لقيتها بتقول لى أنا لى فلسفة فى الحياة ، واطلعوا كلكم من دماغى .

– (وقد بدأت تزول الضحكات وتعود الحيرة إلى وجهه :) إيه الفلسفة فى الفيلم ده ؟ شفته كتير وموش واخد بالى ؟

– أيوه ! أن لا تحزن أبدا ! كل شىء حولك يمكن أن تحيله لمصدر للسعادة بينما ربما يكون فى العادة مصدرا للشقاء ، أنت موش فاكر الأغنية ولا إيه يا أونكل وحيد ؟

– (وحيد يتفكر :) ده يبقى اسمه إيه بالظبط ؟ سارتر يقابل ماكياڤيللى ؟

– (بغضب :) ميرى پوپينز ماكياڤيللى ؟

– وهو ماكياڤيللى شتيمة يا منى ؟

شردت لبرهة تحول خلالها الغضب لابتسامة جانبية شريرة يعلوها حاجب ارتفع عن مكانه المعتاد : ' سارتر يقابل ماكياڤيللى . يا لها من فكرة ! ' .

رغم أن من السمات الجوهرية لما يسمى بما بعد-الحداثة تهجين الأفكار والنظريات حتى تصبح بلازما سائلة لا قوام لها ، وكذا -على الأقل عمليا- تعريفها للمستقبل بأنه عشر الدقائق القادمة ، وهى أشياء فعلتها منى على نحو واضح ، إلا أنها -لحسن الحظ- نادرا ما تستخدم مصطلح ما بعد-الحداثة كما يهوى الكثيرون والكثيرات من أبناء وبنات جيلها ممن حققوا أو حققن بعض الاطلاع مثلها ، وإلا كان وحيد قد ترك كل شيء وتفرغ لمناقشتها فى ذلك . على الأقل هذا لم يحدث فى يوم الزيارة العابرة الأولى هذا ، ولم يحاول ضهرى أن يعاجل بتفجيره وقرر أن يدعه يأتى تلقائيا كى يتفرج هو ، فهو على أية حال يرى الأمر بطريقة مختلفة قليلا ، أكثر احتكاكا بالواقع من وحيد وأيضا أكثر سخرية . يرى أن من يقرأون مثل ابنته هم الأقلية بين الشباب ، إلا أنهم لا يختلفون فى شيء عمن لا يقرأون ، فهؤلاء يصلون لذات النتائج بطريق أسرع : تعاطى الحشيش !

أيضا شرد وحيد وعاد لضهرى وكأنه اكتشف شيئا : ' كلما حاقت بك محنة ، لا تفكر سوى فى شيء واحد : أن لا تكف عن سؤال نفسك ما هو الشق الإيجابى فيها ' .

– ماذا ؟

– أليس هذا كلامك ؟

– (ضاحكا :) أنت لسه فاكر ؟ !

– ما الفارق بينه وبين فلسفة الآنسة منى فى الحياة ؟

– أنت عاوز تشبهنى بالبت التافهة دى ؟ ! إللى ما تعرفهوش يا سيدى أن إللى بتقول لك كده ، حاولت الانتحار من كام سنة !

ولم يلحظ أحد ما كان يقوله أو أراد قوله الحاج ، لأن منى كانت تصيح بأعلى صوتها بطريقة مسرحية : ' Supercalifragilisticexpialidocious ' !

يلتف الجميع حولها طالبين أن تعيد نطق الكلمة العجيبة ، فتفعل بابتهاج وزهو ، ويفشل معظمهم فى محاكاتها ، ويضحك وحيد (الذى نادرا ما يضحك) ، ويقول : ' دى صعبة على ! أنا مستواى وقف عند A Spoonful Sugar ! ' .

ثم تشرع فى الغناء Chim Chim Cher-ee ، ويهز رأسه معها ، لكن ونس الذى لم يرتح لهذا التحول لأشياء غير مفهومة ، فضل إعادة الحديث لنقطة الكلام الأولى ، الطلوع من البيض :

– إيه الكلام إللى كله دخان ده . ما تخلونا فى البيض أحسن . حاجة بنفهم فيها . صح يا حاج ، ولا بنتك ها تنسيك سهم الفراخ ؟ !

– فعلا ! هات لنا سهم الدواجن ع الشاشة لو سمحت . انبش عليه لغاية ما تلقاه !

– (يبدأ البحث فعلا وهو يغنى :) انبش عليه تلقاه ، انبش عليه انبش . بس أنا خايف يا حاج لما نجيبه يعمل ريحة ويزبل المكان .

– موش أكتر من الأسهم المعفنة إللى أنت حاططها .

– سيبه فى حاله أحسن ! جايز تقل بركته لو بصينا عليه . ' يتنظر ' يعنى !

– خمسة وخميسة فى وشك !

– جايز يطلع مصفر تحت (كما قلنا تعبير دارج معناه أن كمية طلبات الشراء صفرا) !

– اخرس ! ها تلقاه مصفر فوق ، وبصفارين كمان !

– ها تشوف إيه ؟ سهم حاله نايم ، باين العشة ضلمة .

– بيقولوا لك فى البورصة ما تحطش كل البيض فى سلة واحدة .

– يعنى البورصة ما يفهمش فيها غير الفرارجية إللى زيك ؟

– لاحظ أن القط المستعجل يجيب عيال عميا !

– الظاهر كمان الكتاكيت أكلتهم القطة وخلصنا .

– أهو أنت كده ، عاوز كل حاجة سلق فى سلق . مية مغلية ترمى فيها السهم وتطلعه مستوى ؟ فيه حاجات لازم تستوى على نار هادية ، تسبيها لغاية ما تتحمر !

– أنا حاسس أن أنا إللى اتشويت !

– هو أنت كده عليك بيضة على طول .

– بيضة نعامة وغلاوتك عندى ! (صانعا كفى يديه على هيئة بيضة ضخمة) .

– يا راجل يا بريشت ! تعالى نعملك عجة ! ولا أقول لك : روح اتكحرت بعيد ! هأ ! هأ !

– يا بيضة أنت ، يا حلو ! إنما بجد يا حاج ، تفتكر سهم زى ده ها يطلع م البيضة إمتى ؟

– لما يدفأ ها يطلع .

– أو جايز البيض يطلع ممشش . هأ ! هأ !

– عيب ! ده موش ها يفقس ، ده ها يكاكى مرة واحدة !

– إللى أنا حاسه أن السهم ده بيندبح .

– ده أنت إللى بتفرفر .

– طيب ! حلق يوستووورك !

– بطلنا نشتغل فى الفيومى من زمان . إنما إيش عرفك يا دمياطى أنت بلغوة الفيومية ؟

– أنا أعرف كل خط الصعيد ، فرخة فرخة ، ديك ديك ، وكتكتوت كتكوت . إنما قول لى يا حاج : أنت فعلا دارس السهم ده كويس ؟

– طبعا ! دارسه ريشة ريشة ! هأ ! هأ !

– السهم ده موش ها ينصلح حاله إلا لو اتقسم .

– دى شركة محترمة ، ما يهمهاش اللعب بسعر السهم . أصلك متعود ع الأسهم إللى فيها فرة !

– معلهش أصل ما أخدتش المصل .

– حاسب أحسن تيجى شوطة تاخدك .

– آدى السهم يا سيدى قدامك ع الشاشة ، يا ريت بس ما نتعديش إنفلونزا منه !

– بس ! ارفع إيدك بسرعة عن الماوس ، أحسن ينقرك !

– ما تخافش على ، أنا مخربش !

– شفت ! زى ما قلت لك . سهم محترم . منفذ من الصبح لغاية دلوقت ١٠٠٠ سهم بس . ده معناه أن الناس بتيجى البورصة وتسبيه فى البيت .

– قصدك تسيبه فى الخن . هأ ! هأ !

– ثم يتقسم إيه ؟ ده كله ما يجيش تمن فرخة .

– يتقسم صدور لوحدها ووراك لوحدها . هأ ! هأ !

– خليك فى حالك أنت يا بو حوصلة مخنوقة .

– يا عم إحنا غلابة . كل ديك يصيح على قد حوصلته . يا ريت تاخدنا ولو حتة على جناحك .

– خف وأنت تطير .

– طب وإذا كان سهم الدواجن ده مكسور الجناح ؟

– فشر ! ده دلوقت بيرفس فى الأرض وها يطير !

– طب الحق اقفل القفص !

– قفص الصدر ؟

– ها يطير ؟ ! (ويدندن :) طير يا حمام ! (ثم مشيرا لصديق أدهم الشرقاوى فى الأوبريت الإذاعى القديم :) يا خوفى يا بدران ، يكونوا نتفوا له ريشه ؟

– ليه ، هو أنت فاكر كل الدنيا ريش منفوخ على الفاضى زيك ، يا بو عرف واقع ؟

– يا عم أنا غلبان . فرخ رجله مكسورة .

– لأ ، وأنت الصادق شكلك بيقول أن الحشو كان غلط . كمان دماغك الأصلع ده بيفكرنى بكتكوت رموه إخواته فى الميه !

– بس يا حاج موش جايز العشة تكون ع السطح ، صاحبك ييجى يطير ينزل على جدور رقبته !

– بص : أنا ها أفهمها لك لو عاوز تفهم : م الآخر كده ، وخدها قاعدة ، سهم الدواجن محتاج ترقد عليه ٢١ يوم ! (مشيرا لمؤخرة ونس الضخمة :) أمال عملوا دى علشان إيه ؟

– (باستنكار ضجر :) ٢١ يوم ؟ يا إللى يعيش ؟

– (يواصل الإشارة لمؤخرته :) على فكرة إحنا عاوزين نقيسك !

– ها تلقى العنقود لسه ما نزلش !

– قصدك اتقطع ! (ثم مشيرا لكرشه الضخم ، ومذكرا إياه بمجموعة الأسهم الخاسرة التى لا يزال يحتفظ بها :) حالتك صعبة يا متزغط أنت : حامل فى تسعة شهور ، وخسارتك موش عاوزة ترجع أبدا ؟ !

– (بنفس الضجر واللا مبالاة :) ربنا ينتعنا جميعا بالسلامة !

– أسهمك دى كلها اتمصمصت خلاص ! المضاربين الكبار بيرموا لك العضم !

– طيب انفحنا شوية هرمونات من عندك .

– اشترى سهم الفراخ وأنت تكسب .

– أوعدك لما الديك يبيض ها أشتريه !

– أحسن لك من الأسهم إللى أنت مشتريها ، إللى تبلها وتشرب ميتها .

– وسهم الفراخ أعمل عليه شوربة ! هأ ! هأ !

– اسمع الكلام ! ده سهم مغذى وها يرم عضمك .

– فراخ المزارع ما ترمش حاجة !

– أنت ها تعمل لى فيها شركسى ؟

– لأ ، بس البلدى يوكل .

– اسكت أحسن أعملك پانيه . اصطبح وقول يا صبح .

– صبح ؟ أنا أصل لسه ما سمعتلهوش أذان ؟

– اخلص ! شوف حالك . لقط رزقك !

– ألقط ؟ ده أنا قربت أصوصو .

– يا حبيبى يا بتاع الغلة أنت ، اشتريه أو ما تشتريهوش أنت حر . كده صح : قلت لك ألف مرة كل ورقة ولها كيال ، إللى ما تفهمش فيه ما تدخلش فيه . إنما إللى أعرفه أن ده سهم ها يكسر الدنيا .

– ها يكسر ؟ آه ، دخلنا فى الكلام الأبيح ! (ويطلق نفيره النحاسى إنهاء للمناقشة) .

– (وبدوره يصدر ضهرى ذات الأمر :) خلاص يا أخويا ! كتكت بيتك ! كتكت بيتك !



الفن الهابط رسالة سامية ؛ هو الفن الوحيد الهادف بمعنى الكلمة !

من كافة الجوانب : الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون !

كان من الممكن أن تستمر مثل صراعات الديكة حامية الوطيس هذه لنهار كامل ، ولا تلقى إلا كل التشجيع والتحزب بأعلى أصوات الهتاف من كل الحاضرين : ' إدى له يا حاج ! ' ، ' اوعى تسكت له يا عم عبده ! ' ، وهلم جرا ، إلا أن الصدفة لعبت دورها هذه المرة ؛ إذ انشد تفكير ونس رغما عنه ، لمحاولة تذكر أغنية لفريد الأطرش عن جنينة بها طير خانه أليفه . دندن مقاطع قصيرة شعر بأنها غير مطابقة للأغنية ، وحين يأس قال بضجر متصنعا لهجة الناقد الفنى وهو ينظر بطرف عينه لوحيد : ' أغنية زى الزفت ! الناس تعرف أن الطيور رمز الحب والرومانسية والإخلاص ، وصاحبك ده نيلها خالص ! ' .

– دى أسمهان ، موش فريد يا جاهل .

– أسمهان جميلة . إزاى غنت أغنية زى دى ؟

وينقلب يغنى : ' ليه أخبى غرامى ... وغرامى هالكنى . روحى وقلبى وجسمى وعقلى وجمالى ... فى يدك . يا حبيبى تعالى الحقنى شوف إللى جرى لى ! ' . لكنه بعض لحظات يكتشف أن لا إشارة بها للفراخ ، يمتدح معانيها الجريئة بسرعة لوحيد ، ثم يعرج على الفور محاكيا ما كانت تقوله زينات صدقى عن الكتاكيت ، ويتذكر السياق الذى جاءت به فى الفيلم ، دون بالطبع أن ينسى إلقاء محاضرة عن الفن الجميل بتاع زمان . يلتقط أسد خيط الغناء وهو الذى نادرا ما يغنى ، قائلا : ' هش هش يا ديك ، الفرخة دى موش ليك ! ' ، ' ارحمنا من الغنا الهابط بتاعك يا أسد ' ، ' طب نأخد رأى الناس المتخصصة . إيه رأيك يا أستاذ وحيد فى الفن الهابط ؟ ' ، ' الفن الهابط أعظم فن . من السهل أنك تعمل فن راقى ، لكن من الصعب جدا أنك تعمل فن هابط ' ، ' يسلم بقك يا أستاذ . سمعت يا سى عارف يا فيلسوف الغبرة ؟ الفن الهابط هو إللى بيعيش . قول كمان يا أستاذ . قول لنا إيه رأيك فى أفلام إسماعيل يس ؟ ' ، ' أو ميلودراما حسن الإمام ؟ ' ، ' أو الأفلام الهندية ؟ ' ، ' كلامك مظبوط . شيكسبير كان رمزا للفن الهابط فى أيامه . العقاد وإللى زيه قالوا لنجيب محفوظ الرواية فن هابط ، كلهم ماتوا وهو إللى عاش . الفن الهابط رسالة سامية ؛ هو الفن الوحيد الهادف بمعنى الكلمة ! من كافة الجوانب : الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون ! ' .

ولحسن الحظ يتذكر ونس أخيرا أغنية لعله يدارى بها الإحراج الذى سببته له سابقتاها ، وكذا بعض الصدمة التى سببها الموقف غير المتوقع لوحيد من الفنون الجماهيرية : ' يا أبو الريش إن شاء الله تعيش ! ' . أما أسد فقد فضل تحويل الحوار لدفة أخرى ، أو بالأحرى استئناف الحوار الأصلى من حيث توقف : ' إنما إيه رأيك فى الفراخ يا أستاذ روميو ؟ تحب العتاقى ولا البدارى ؟ ' ، ' كل الفراخ حلوين ! ' .

مرة أخرى يعاود وحيد الضيق من أن ينقطع حبل أفكاره فينسى ما كان يفكر فيه أصلا . لقد انتزعه ذلك الحوار العجيب من دوامة أفكاره . آه ! لقد تذكرت . انتحار منى . هل هذا معقول حقا ؟ نعم ، الإحصاءات القادمة من أميركا تقول أن الغالبية الساحقة من الفتيات لا تصلن لسن السابعة عشرة إلا وقد مررن بمحاول انتحار واحدة على الأقل ، فاشلة أو ناجحة . منى ، هذه المملوءة بهجة وتفاؤلا ومثلها الأعلى فى الحياة ميرى پوپينز ، أقدمت على الانتحار . كيف ، ولماذا ؟ فى أميركا يقول مكتب التعداد إن هذا يحدث غالبا لأتفه الأسباب ، مشادة بسيطة مع الأسرة أو مع الخليل ، الـ boyfriend ، أو حتى أحيانا بسبب رفض الأسرة قيامها برحلة أو بسبب عدم زيادة مصروفها اليومى . أوه ! إن حالتى ليست كارثية جدا . على الأقل أنا لم أفكر فى الانتحار رغم كل ما حدث لى .

يعود وجه وحيد للابتسام ، ويتطلع من جديد لوجه منى بعينين مفعمتين بالإعجاب ، ويقول : ' هل تصدقون أن ابن وجدى الديب وآمال نور لم يشاهد أى فيلم إلا فى سن العاشرة ؟ ! ' .

– فاكره يا أونكل ؟

– طبعا ! وأنتى فكرتينى به تانى النهارده ؟

– (وقد فغرت فاهها إلى أقصاه :) موش ممكن ؟ ! ميرى پوپينز ؟ !

– موش بالظبط . البيت إللى جنبه بالظبط : the movie that everybody hated but the people ! ؛ الفيلم إللى كسر إيرادات ذهب مع الريح ؟ !

– (تفغر فاهها مرة أخرى :) The Sound of Music !

– فاكر كويس المكان والحفلة كمان ، وفاكر فرحت به إزاى . كان فى حفلة فى نادى تابع لكنيسة ، وكان بعد كام شهر من انتهائه فى السينمات . كنت ما بأبطلش أسمع المزيكا على البيك أب كل الشهور دى ، وده جايز إللى خللى ماما تقرر أنى لازم أشوفه . (بعد برهة أخرى لكن أقصر :) ماما آخر واحدة يمكن وصفها بالتزمت ، إلا أنها كانت جد زيادة حبة أو حبتين ، مع نفسها ومعاى ومع كل الدنيا . رغم طبيعة شغلها واعتزازها المهول به ، كانت تفضل ألا أضيع وقتى فى الأفلام . حتى التليڤيچن اشترته متأخر ، وكل فترة لبنان ما كانش عندنا تليڤيچن .

– جايز ده إللى وجهك أكتر للقراءة يا وحيد .

– أكيد ! (ثم يحول وجهه لمنى والعينان بعد شاردتان قليلا :) شايفة الفرق بين جيلنا وجيلكم ؟ آلاف الساعات قراءة ، بينما أنتى من فيلم واحد بقيتى فيلسوفة ، وأنتى فى اللفة زى ما بيقول پاپا .

– اسمها قبل ما تطلع من البيضة !

– أنت تسكت خالص ، أو أقوم أرميك فى شوية ميه ، وأثبت لكل الناس دى أنك ها تعوم زى البيضة الفسدانة !

يسكت ونس بالفعل ويعود ضهرى لوحيد بمزيج من احتجاج ظاهر وإعجاب باطن : أنت ها تقولى ؟ آه منهم يا أخويا يا وحيد ! شافوا فى اللفة حاجات ما شفنهاش إحنا فى عشرين سنة ! إحنا بنحب توم وچيرى لغاية السن دى ، لأن كنا بنشوفه بالصدفة وبصعوبة فى السينما . الطفل دلوقت لما يوصل ٤ سنين يقول أنا كبرت على لعب العيال ده !

هنا راح ونس يدندن : ' دو ... رى ... مى ... دو ... مى ... ' ، محاولا إثبات أنه ليس غريبا جدا عن دنيا الثقافة العالمية .

– أنت لسه لك نفس تغنى يا راجل يا بريشت ؟ !



إحنا موش عاوزين الجنة ' السماوية ' ،

عاوزين بس الجنة ' المصرية ' !

منى التى وطدت صداقتها بوحيد فى خلال دقائق ، بدأت توطد صداقتها بذات السرعة مع دائرة أوسع ، رغم علمها أنها جاءت ليوم واحد ، ولن تأتى ثانية قبل شهر ونصف . أقرب دائرة جغرافية هى بطبيعة الحال دائرة المقاعد الدائمة . من الطبيعى أن يجذب روميو انتباهها . سألت أبيها ، فحذرها منه ، علاقات نسائية وغير نسائية ، ولم تكن تحتج لأكثر من هذه الكلمة ، كى تلصق كرسيها على الفور إلى جواره وتبدأ تجاذب أطراف الحديث معه . طبعا فى البداية بخططها الاستثمارية الفذة . لقد قررت الاستثمار فى الأسهم الصغيرة . إنها تشبه لعب الكوتشينة . من يفوز فى لعبة البريدج ، هو من يحسن تخمين من يملك ماذا من الورق ، ومتى سوف يكشفه .

– شايف عمايل البت يا وحيد ، أقول لها روميو ده خطر خالص ، تروح لازقة كرسيها فيه ؟

لم تمض دقائق حتى عادت منى إليهما ، وقالت كأنها حققت غزوا عظيما : ' سيبوا لى روميو إللى تاعبكم ده . أنا فاهماه أحسن منكم كلكم ، ولى كلام كتير معاه . الظاهر يا پاپا أنت إللى خبرتك محدودة فى الحياة . أنا أعرف ١٠٠ روميو زيه بالظبط ، وفوقهم كمان ١٠٠٠ چولييت زيهم بالظبط برضه ! ' .

– لا ! دى آخر الأيام بجد ! تصدق يا وحيد بتقول أنها موش ها تتجوز قبل سن السبعين ، وماسكة لى فى حكاية أستاذة الجامعة بتاع رومانيا إللى خلفت فى سن حاجة وستين . أنا ها أوديكى لدكتورة تظبط لك الصواميل ، وإن ما عرفتش تظبطها لك ، أنا عندى طرق أظبطها لك بنفسى . قومى قدامى أعرفك على دكتورة سماء .

منى المندهشة من سرعة تلاحق الهجوم عليها تستعجل من الجالسين إلى يمينها ، روميو أو ونس ، معلومة سريعة : ' دكتورة سماء مين ؟ ' .

يرد ونس ببرود : ' سماء ! حاجة زى الجبلاوى بتاع نجيب محفوظ . قاعدة لوحدها بعيد عن كل الدنيا . إما فى مكتب إدوارد وإما فى نادى هليوپوليس . إحنا موش عاوزين الجنة ' السماوية ' ، عاوزين بس الجنة ' المصرية ' ! ' .

تفهم منى المقصود بهذا التلاعب بالكلمات ، ويتهلل وجهها : ' أهلا بك فى القناطر يا أونكل ! ' .

وتنجح لعبة فى صرف انتباه الحاج عن موضوعه الأصلى ولو مؤقتا : ' قلت لكم على موسم المنجه ها أدعيكم كلكم . أول دعوة لازم تكون على حاجة تستاهل ، بعد كده ابقى تعالوا زى ما أنتم عاوزين . ولو سمحت يا ونس ما تفتحش الموضوع ده تانى ' .

ويجد ونس مدخلا جيدا لتدشين صداقته لمنى : ' أنا رأيى من رأيك بالظبط . نلعب كوتشينة ، بس على كبير . البريدج موش أشهر لعبة فى الكوتشينة . أشهر لعبة هى الولد يلم . لو لميتى أغلبية الورق ها تكسبى كل حاجة . دى اللعبة بتاع كبار البورصة ، موش السناكيح إللى زينا . پاپا ضهرى زائد الأستاذ وحيد ، محفظتين ربنا يزيد ويبارك زمانهم عدوا الخمسين مليون ، زائد شوية الفكة بتاعة بقية الناس إللى قاعدة دى ، نسيل كل المحافظ ، وندخل على شركة من بتوع بورصة الـ ٥ ٪ نلم أسهمها م السوق . ساعتها ها يبقى الكل عاوز يشترى وما حدش معاه يبيع . السعر يطلع كل يوم ٥ ٪ ، بعد ١٠ أيام نبيع ، ونكون كسبنا ٥٠ ٪ ، ونسيب السهم ينزل ونرجع نلمه تانى ، وهكذا ' .

يعلق إدوارد من موقع الوقوف الذى اعتاده وسط العملاء : ' وييجوا يقفلوا لنا شركتنا بالشمع الأحمر ! ' .

ويقاوح ونس : ' لما نبقى مجموعة ما حدش ها يتجاوز نسبة الخمسة فى المية من ملكية الشركة ، ولا ها يكون فيه سين وجيم . كمان يا سيدى ممكن كل مرة نلم سهم مختلف ' .

– هو لازم خمسة فى المية . مجرد أن الطلبات كلها تيجى من شركة واحدة ، ها تثير الريبة ، وندخل تحقيق .

لم تنجرف منى فيما يبدو لاقتراح ونس الخلاب . والدليل أنها مالت على أبيها وهمست قائلة : ' حنفية هنا وحنفية فى البيت ! ' .

– يعنى إيه حنفية يا بت ؟

– يعنى الأستاذ ونس ده ما بيبطلش نصائح .

– فعلا هو ما بيبطلش إلحاح .

– بأقول ما بيبطلش نصايح ، زيك بالظبط يعنى . خليك ' دئيء ' ، زى ما بتقولى دايما . اتعلموا اللغة صح ، فيه فرق بين حقنة وبين حنفية . يا حنفية ! الظاهر أنا نفسى إللى ها أضطر أبقى حنفية بسببكم !

– (يحاكيها بسخرية وقد أصبح الصوت مسموعا وفهم الجميع عم يدور الحديث :) ' اتعلموا اللغة صح ' ، لغة إيه يا بت انتى ؟

– حنفية يا پاپا . ما تعرفش حنفية . كل الپاپا وكل الماما حنفيات . نصايح محفوظة . زى ما تكون كتيب إرشادات بيوزعوه عليهم مع قسيمة الجواز . ما هم الشيوخ والقسس حنفيات برضه ، بس من غير جلده . ولو واحد منا فى الجرووپ حب يعمل علينا حنفية بنخرب بيته ونطرده .

مع ذلك يكرر ونس اقتراحه حول المضاربة بأموال كبيرة ، بما يرشحه لأن يعد فى نظر منى حنفية وحقنة فى آن واحد . هنا ينفذ صبر ضهرى ويثور غاضبا رافضا سماع المزيد : ' أنا جايب البت هنا علشان تعلموها الوساخات بتاعتكم يا بتوع الصين وفرنسا أنتم ؟ إحنا ما بنلعبش حاجة على المستخبى . بنلعب شطرنج بس . كله ع المكشوف ! ' . وبالفعل يشدها من ذراعها قائلا : ' تعالى نشوف حكاية شاوشيسكو الأول ! ' .

يذهب بها لمكتب إدوارد ، حيث تستقبلها سماء بألفة وترحاب شديدين ، وثناء على جمالها وذكائها . تفهم أن منى لا تفكر فى تقليد البروفيسور الرومانية كما فهم والدها . ولا تفكر مثل عمتها نائبة رئيس السى أى بى ، التى هى على أعتاب الخمسين دون إنجاب ، وفقط تحتفظ ببويضات مجمدة لنفسها . أيضا منى لا تفكر حتى فى الكلونة (أن تكون طفلتها نسخة طبق الأصل منها) ، إنما تقول ببساطة إن الهندسة

الچيينية ستصبح حقيقة واقعة قريبا ، وسيمكن تصميم الأطفال بصفات خارقة حسب الطلب . من ثم هى لا تفكر مطلقا بالزاوج ، هذا الذى أصبح بالفعل نمطا بائدا للاجتماع الإنسانى ، كما تقول الإحصاءات الواردة من الغرب ، المنازل القائمة على شراكة الزواج باتت أقلية وإلى انقراض . هم يقولون أيضا إن الرعاية الصحية ستصل قريبا بكفاءة الجسم البشرى لأن يعيش لمائة وخمسين سنة . إذن الموضوع كله مؤجل . لو حدث وفكرت فى الإنجاب ، لن تكون هناك مشكلة فى أى سن ، بحمل أو بدون حمل ، أى شىء . كان الرأى متكاملا متبلورا ، إن لم يكن حادا صارما ومحسوما سلفا . لكن هذا لم يمنع سماء من أن تشرح لمنى نظرتها الشخصية هى للحياة : النقيض الكامل !

إن من لا يشتغل فى التوليد هو إنسان لم يعش أصلا . تصف تفصيلا كيف يستقبل الطفل حجيم الحياة لأول مرة بعد الجنة المثالية له فى الرحم ، حيث لم يكن يبذل مجهودا حتى فى التنفس . يصرخ صرخة هى الأكبر والأسوأ والأكثر ألما فى حياة أى إنسان . إلا أن هذه الصرخة تحديدا تحيل فى لحظة تقلصات البطن الرهيبة إلى ابتسامة عريضة على وجه الأم . إذا كنت أرى أن من لا يشتغل فى التوليد هو إنسان لم يعش أصلا ، فأقل شىء هو أن تحرص المرأة على الإنجاب . الكلونة وتأجير الأرحام تقنيات مفيدة للحالات المرضية ، لكنها إهدار لشىء عظيم بالنسبة للإنسان السوى . إنها متعة لا تفوقها متعة ، الحمل والإنجاب ، والتمتع بنمو الطفل .

حاولت منى المجادلة ، إن ما سيحدث فى السبعين هو حمل أيضا ، ربما ليست به كل حيوية الحمل فى سن صغيرة ، لكنه يظل حملا . واضطرت فى النهاية لاحترام الحماس الروحانى الشبق ، لدى سماء للحياة والميلاد والخلق ، فوعدتها بالتفكير فى الأمر .



أولاد حارتنا لا بتاعة المسلمين ولا المسيحيين ، بتاعة اليهود !

عادت منى لقاعة المستثمرين الخارجية لتجد أن من تركتهم بدءوا يتحولون قليلا للاهتمام بشىء آخر ، الجبلاوى ، الذى أحاله نبيل -كما أى شىء آخر- إلى درس فى اللغات . خمنت هذا حين سمعته يقول : ' نجيب محفوظ واخد الاسم من كلمة جبل يجبل فى الترجمة العربية للأصحاح الأول من التكوين ' . ثم للتأكيد يتلو على مسامعهم العبارة الافتتاحية للقداس القبطى : ' يا الله العظيم الأبدى الذى جبل الإنسان على غير فساد ... ' . ثم تسمع وحيدا يسأل متعجبا : ' إنما أنت موش قبطى يا نوبل ؟ ' . وونس يسأل موحيا بخبرة عريقة ما مع الأديان : ' أنتم بتقولوا ' الله ' زى المسلمين ؟ كنت فاكر الإله بتاعكم اسمه الرب ' ، ' إيه يا عم عبده ، إذا كان أنا اسمى نصر الله ؟ ! ' . وعارف يقدم الاعتراض الوحيد الجدى : ' تفسير غريب أوى يا مستر نبيل . إللى أنا عارفه أن الجبلاوى جاية من أن ربنا هو جبل موسى ، الجبل إللى كلمه . الأزهر فهم كده ! ' . ويصحح ضهرى لكليهما : ' جايز جبلاوى معناها حاجة تالتة : الهجام أو الخط بتاع الجبل ! ' . ' ممكن ! نجيب محفوظ ده بحر ما لهوش قرار ! ' . وقبل أن يكمل نبيل شرح أن محفوظا استقى الرواية من قصص الكتاب المقدس وليس من قصص القرآن ، يصيح روميو : ' أنتم ها تقوموها حرب أهلية ؟ خلاص خلصنا ، أولاد حارتنا لا بتاعة المسلمين ولا المسيحيين ، بتاعة اليهود ! أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت ! ' . ويردف عارف متفاخرا : ' على فكرة أنا الوحيد فيكم إللى اسمى موجود فى أولاد حارتنا ! ' . وهنا ينسون محاضرة نبيل ونهرات روميو ، وينهالون عليه لكزا وضربا ودفعا : ' أنت ها تستعبطنا ؟ ' ، ' فاكر نفسك وحدك إللى بتقرأ ؟ ' ، ' اسمه عرفة موش عارف ! ' .

تقف منى حائرة غاضبة وأخيرا تقول بسخط ، وقد امحت معظم معالم البهجة التى رسمها على وجهها استعراض الفراخ ، والذى خيل لها خطأ لوهلة أنه أقيم خصيصا من أجلها : ' أوف ! هو ' جبل ' جوه و' جبل ' بره ؟ ! ' .

ويهمس وحيد فى أذن ضهرى : ' أنت لسه فى القالانتاين قلت لى أنك بتخوفها من الحب ، وكمان قلت الحب للأذكياء . ارسى لك على بر ! ' .

– ها تقول لى بر تانى ؟ !

– دول ٣ بر دلوقت ! الجنس ولا الزواج ولا الحب ؟ أنت ها تجنن البنت !

– أنا إللى ها أتجنن . عاوزها تخرج من الوحدانية الشيطانى دى ، البت نافرة أوى وفردية أوى ، وعلشان كده وديتها لسماء تنصحها . ما كانش قصدى الزواج ولا طبعا الحب والهيام ، دى كانت تبقى مصيبة . قصدى تخرج شوية من ' البرانية ' إللى هى فيها . صحيح هى مع

أصحابها طول الوقت . لكن لما بيتفسحوا ما بتروحش معاهم . ما فيش علاقة إنسانية خالص . أصحابها بالنسبة لها شغل وبس . فيه حاجة موش طبيعية وخلاص . (صارخا وأنه وجدها :) هى زيك كده : موش بتحب الناس !

– (شاردا :) حب الناس ؟ ! تعبير غريب ! (ثم يعود :) على أية حال أنا لا أسمى ذلك عدم حب للناس ، كل ما هنالك أن ليس لدينا الوقت لهم . أنت تعرف طبعا عبارة ' الآخرون هم الجحيم ' ، وتعرف من قالها ؛ ساعتها كان يقال على أمثاله أنه من فلاسفة الغربة والاغتراب . ما يدهشنى حقا أن يتحدث البعض عن الماضى كعصر الحب والتواد والتراحم والتواصل الإنسانى ، بينما التواصل فيه لا يكاد يذكر مقارنة بتواصل البشر اليوم . آنذاك لم يكن لدى الناس أكثر من زيارة الأهل والأصدقاء لساعات معدودة مرة كل أسبوع أو شهر ، بينما الآن البشر over-communicated أو over-socialized ؛ يتواصلون طوال الوقت ٢٤×٧ عبر الإنترنيت والهواتف الخليوية وغيرهما كثير مما بات يزرع حتى فى الجسم الآن ، يتوادون وهم فى الشارع والنادى والحمام وأى مكان ، يحبون بعضهم البعض ويتلهفون لرؤية بعضهم البعض على الشاشات أضعاف أضعاف ما كان يحبون ويتشوقون فى الماضى . ترى هل يعود زمن العزلة الجميل يوما ، أيام كنا نهرب للإنترنيت من صخب العالم ، ذلك قبل أن تصبح أكثر الأماكن ضوضاء قاطبة ؟ ! هذه ستكون أول نصيحة أسديها لابنتك النابهة الآن : unplug yourself! ؛ افصلى نفسك ولو لبعض الوقت يوميا عن الشبكة الشيطانية لكوكب التواصل اللعين المدعو كوكب الأرض ، ذاك كى تجلسى مع نفسك قليلا ، تحبينها وتصادقينها ، وتتأملان سويا فى الحياة ، أو تتعابثان مع كتاب يزغزكما بالفكر والأفكار ، وتفضفضان أنتما له بما يشغلكما !

– الظاهر إنى جبتك علشان تكحلها رحت عميتها !



هذا الرجل لم يغب عنا يوما واحدا لمدة ١٥ سنة

يلحظ الجميع أن نبيل لم يأت اليوم . يتصل به إدوارد فلا يتلقى إجابة . بسرعة يضع ونس السيناريو المنطقى للأمر : ' دكتورة سماء موش ما جاتش النهارده كمان ، تلقاهم يا عم لقوا حتة تانى أحسن من هنا ! ' ، ' كفاك سخفا ! هذا الرجل لم يغب عنا يوما واحدا لمدة ١٥ سنة ! ' . إدوارد يعلم أن نصر الله كان يزوره أحيانا لينظف له شقته ، وأن معه نسخة من مفتاحها . يكلفه بالذهاب وفتح الشقة فى كل الأحوال . يعود نصر الله هلعا : ' المستر نبيل تعيشوا أنتم ! ' .

يهرعون فيجدونه ممددا على ظهره على سريره مفرود الذراعين بحيث تدليتا من جانبى السرير . يلحظون اللون الأزرق فى الجثة ، يقول ضهرى : ' هذا مات مخنوقا ، ولا بد من إبلاغ الشرطة ! ' . بكى أغلبهم . منهم وحيد ، آخر من يمكن تصور أن سببا ما يمكن أن يجعله يبكى ذات يوم . قال وهو يدارى دموعه عبثا : ' لقد اتفقنا على أن نترجم كتابا سويا . هو الذى شجعنى . قال لى هذا قد يحل عقدتك ، ولعلك تعود للكتابة من جديد ! ' . بعد قليل بدأ سامر وميرفت يتصلان هاتفيا بكل من ورد اسمه فى أجندة مستر نبيل .

فى اليوم التالى تدخل سماء متهللة تروى فى جزل أنها لم تأت بالأمس لأنها سهرت طوال الليلة السابقة فى توليد بنتين توأم جميلتين وبصحة جيدة : ' توأم ! شىء لم أحظ بمثله منذ عشر سنوات ! ' . وتبدأ على غير العادة فى تحية الجميع بأسمائهم ، معتذرة أن كانت نائمة طوال نهار الأمس ولم ترد على تليفون أحد إن كان قد اتصل بها .

لم يرد أحد . يخبرونها بمصرع نبيل . تصمت صمتا مطبقا وتكاد تنهار للأرض .

حين قالوا لها : ' إحنا نازلين ' ، ' الجنازة هنا فى البازيليك ' ، اكتفت بالإشارة بالرفض بيدها .

– ها تفضلى قاعدة كده ؟ استحالة نسيبك !

لم تشر لهم حتى بالانصراف ثانية .

– إوعى عينك تغيب عنها يا مينا ، وأى حاجة اتصل بنا .

ويلبث مينا جالسا فى مواجهتها ، محدقا محاولا فهم ما لن يستطيع فهمه أبدا من هذا الصمت !

... الصمت الذى لبث خمسين ساعة !



٤
المصرى



سى السيد ؟ ! لك حاجات يا حاج !

فى آخر يوم من أغسطس ٢٠٠٦ ، كان وحيد قد خرج من المستشفى حاملا بعد آثار ذلك الشلل النصفى ، بوعد أن تزول لو داوم على العلاج والجلسات الكهربية وما إلى شابه . أثناء ذهابه للحمام متوكئا على الحوائط ، مر بأمه التى كانت جالسة على غير عادتها فى ردهة الطابق العلوى هذا . لم تشأ الجلوس ببهو القيلا كالعادة ، ولا المكوث بحجرتها . لم تطاوعه عضلات وجهه على الابتسام عرفانا بحنو ملاكه الحارس الوحيد . بادلته التحية دون أن تنهض ، فلم تشأ أن تبدى عليه جزعا لا فائدة من ورائه ، أو تشعره بالاحتياج أو العجز . لاحظ أنها كانت تمسك بمجلة . تذكر أنه لا يزال بعد كاتبا ، وأن هذه الغريزة لا يجب أن تنزع منه أبدا . طاوعته عضلات فمه بالكاد وهو يسألها أين صحف اليوم ؟ فردت عليه بلا مبالاة ' الظاهر البواب ما جابهاش النهارده ' . تصنع وحيد التجوال فى البيت تماشيا مع نصائح الأطباء ، وعيناه تجولان بحثا عن الصحف ، لعله يتابع بعضا مما فاته . ثم خطر بباله أن ينظر فى كوم الصحف المتراكم تمهيدا لإخراج الشغالة له للخارج فى يوم معين من كل شهر . فقد كان من عادة آمال أن تحتفظ بالصحف لفترة فى البيت لعلها تعود لها لسبب ما . فر طرف الكومة بحثا عن صحف من الفترة الأخيرة التى قضاها بالمستشفى ، لكن بأسرع مما توقع -أو على غير ما توقع- سقط بصره على تاريخ اليوم . يا للهول ! نجيب محفوظ مات بالأمس !

سحب الصحيفة بسرعة ، فهم ما قصدته أمه إشفاقا على حالته الصحية ، ولما تعرفه من حب قديم لديه لميرامار . ربما تعمدت أن تجلس فى الردهة لا كى تسهر عليه فقط ، إنما لتتحاشى فتح أى من جهازى التلفاز بالقيلا ، فى البهو الكبير أو فى حجرتها . لكن ما لم تكن تعرفه أنها هى نفسها ستموت فى غضون شهور ، وأن الحزن عليها سيفوق كل أحزان الكون . فى الفراش راح يقرأ ويقرأ . أو فى الحقيقة لم يقرأ شيئا إنما فقط تسمر بصره على صورة لنجيب محفوظ أخذت قبل سنتين ، بذقن غير حليق وچيرسى صوفى يحيط برقبته .

كان الوقت عصرا ، ولم يفق من سباته إلا على جرس الباب يدق . بعد لحظات دخلت إليه ربيبته الصحفية الشابة هالة . بعد قبلات الترحيب بالسلامة ، لاحظت الصحف وأردفت : البقية فى حياتك يا أستاذ ! هل ذهبتى للجنازة ؟ كيف لم يذهب هو للجنازة ؟ كيف لم يعلم ؟ بل كيف ظل طيلة السنوات الأخيرة يعلن عن رغبته فى مقابلة محفوظ الذى لم يقابله أبدا ، وصديقه محرر السينما بالأهرام يعده بأن يخبره لدى ذهابه إليه ، وأن يذهبا سويا . لكن هذا الصديق نفسه فيما يبدو لم يعد يذهب لنجيب محفوظ ، منذ انقطعت صلته شبه الوظيفية به كمساعد له ، أو ربما ضيقا لأن آخرين قد حلوا محله . كنت أريد أن أقبل يدك ، ولو سمحت لى بالكلام لقلت لك إنى ربما أكون أكثر من فهمك حق الفهم . كنت أعلم أنك لن تجاوبنى بأكثر من ابتسامة ، لكنى كنت أريد أن أوجز لك نظريتى فى ثلاثيتك . وإن قصص الفتوات -التى قرأت واحدة أو اثنتين منها عرضا بالجريدة- هى أعظم تجسيد لأمنا الطبيعة ولصراع التطور ولسيادة مبدأ القوة والتحيؤ للأليق ، وأن المشكلة دائما أبدا لم تكون القوة أو اللا قوة ، إنما الأخلاقيات المتضمنة فى ذلك الأقوى ، وأجزم أن ما من أحد خاض فى هذا أفضل منك .

قال وحيد لهالة لى طلب عندك . أنا عاوز نسخة مكبرة من هذه الصورة . استخدمى شطارتك الصحفية واعرفى مين المصور وهاتى لى نسخة منها ، يا ريت لو تقدرى فى برواز . لم ينتظر وحيد حتى أتته هالة بالمطلوب الذى وعدت به خلال يومين ، إنما هرع بمجرد خروجها وسحب حاسوبه وقبل أن يخطط لمكان يصله فيه بالتليفون ، وجد شاشته تعلن العثور على مدخل لاسلكى لشبكة الإنترنيت . ربما تركه أحد الجيران مباحا لمن يشاء ، ففى ٢٠٠٧ لم تكن الدنيا على الحال التى هى عليه اليوم ، حيث باتت الإنترنيت فائقة السرعة التى تبث بجودة التليڤزيون عالى الحزم مكونا تلقائيا لجميع خطوط الهواتف ، والأبطا قليلا مجانا فى الهواء فى كل مكان تصل إليه شركات الاتصالات ، أو فى بعض الأماكن أصبحت أشبه ما يكون بالصرف الصحى ، تدفع لها رسما بسيطا دون أن تعرف حتى على أية فاتورة يتم تحصيله ، الكهرباء أم الهاتف أم المياه ، كل ذلك بالطبع حسبما اتفق . المهم أنه لم يمنع نفسه من الدخول السريع على ما فيه من تطفل . وبعد دقائق كان يضع الصورة المنشودة كخلفية مكبرة لما يسمى قمة النضد فى حاسوبه .

تنصرف هالة الغالية . ينادى الخادمة ويرجوها أن تأتيه بالمذياع . يجد البى بى سى العربية تعيد بث برنامج قديم عن نجيب محفوظ . به كلام رائع لمحفوظ ، ربما ليس جديدا جدا بالنسبة لى . لكن ما هذا الشىء الذى ينقلونه عنه ؟ اللعنة ! لقد سرق منى هذا اللص اللعين أكثر ما أعتززت به فى حياتى ، شعارى فيها : ' حين أكتب لا أفكر فى أية اعتبارات ' . اللعنة ! سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ !

ثم ما هذه الآلة العجيبة المسماة المذياع ؟ هل لا تزال تستخدمها أمى حقا ، أم هى لمجرد الاستماع لمكتبتها الهائلة من أشرطة الكاسيت . أذكر كم أصابها الجنون يوم عادت من لبنان ، واكتشفت أنه لم يعد يوجد فى مصر سوى شركة واحدة لبيع أقراص الموسيقى ، تقع على يمين المدخل الطويل لسينما راديو القريبة من تمثال طلعت حرب . الغم لم يزاولها إلا حين بدأت فى نفس السنة تقريبا ، تنتشر الشركات التى تصدر الموسيقى على هيئة الشرائط المغناطيسية هذه ، وتنقل لها طوفانا من الموسيقى العالمية ، كلاسية وعصرية . اليوم كل ما يخص أكاسيد الحديد قد اندثر هو أيضا بدوره ، لا أشرطة موسيقى ، لا أقراص حاسوب رخوة ، ولا حتى صلدة . كل شىء إما أقراص مكتنزة وإما ذاكرة يسمونها بالفلاش . الكتب نفس الشىء . لم أتخيل للحظة أن أتخلى عن مكتبتى الثمينة ، التى هى حياتى نفسها ، لصالح قرص حاسوبى صلد ، أو حفنة أقراص داتا دى فى دى ، قرص واحد فى الواقع يتسع لألف مكتبة لو شئت . حتى الأفلام التى احترفتيها لم تعد ' أفلاما ' ، إنما صورا ڤيديوية فائقة الحزم تبث فى قاعات العرض السينمائى ، وأحيانا حتى تبث لها عبر الساتيلايت !

كم عصرا مرت به أمى ، ولا تزال صلدة عظيمة لا تخدش ولا تمس . لقد دالت دولة الڤينيل ، ودالت دولة السيلليلوز ، ودالت دولة السلليولويد ، ودالت دولة الحديد ، والآن كل شىء إما ألومنيوم أو سيليكون ، وأنت هى أنت بشموخك الجبار . بل قل كم عصرا مررت أنا به قزمها الصغير . هذا الآلة العجيبة ، المذياع ، كانت كل حياتى يوما . أليست الحياة دائرة مغلقة ؟ أليست الحياة والموت دورة مغلقة ؟ اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ هذه الآلة التى لم أمسسها منذ عقود ، ها هى الآن أنيسى الوحيد . حين كنت صغيرا لم تكن لى متعة فى الحياة أهم من البحث كل مساء عن محطة صوت أميركا . لا يفوتنى يوم واحد من الاستماع لزينب الحكيم وما تقدمه فى برنامج للموسيقى الغربية ، فيما أذكر ربع ساعة عبارة عن ثلاث أغان زائد رابعة كلاسية قديمة . أوه ! كيف لم أفطن لهذا قط حتى الآن ؟ ! يا للهول ! الأمور كانت أخطر مما أتخيل . هذا المذياع لم يكن للموسيقى فقط . أليس ذلك البرنامج الأسبوعى عن الشخصيات الأميركية الريادية ، الذى لا أذكر منه الآن شيئا إلا جزءا

من مقدمته يقول إن أميركا تبجل من يستطيع قذف كرة البيسبول لمسافة أطول ، أليس هو النبتة ، أليس هو الشرارة ، التى اشتعلت وتشعبت فوقها أغصان كل معتقداتى الاقتصادية والفلسفية ، التنافسية والسوق وأرسطو وأمنا الطبيعة ؟

... فقط شىء واحد غامض كان يحدث كل ليلة ، كان يتلو كل هذا برنامج صغير عن المهاجرين لأميركا ٥ دقائق ينتهى به البث وقد كان مجرد ساعتين على ما أذكر ، ما أن يبدأ حتى كانت أمى تهرول وتغلق الراديو ؟ ! ' وحياة غربتى ' ، أو وحياة الچيينات ، لم تحاول أبدا شرح لماذا تفعل هذا ، فقط تقول هذا ميعاد النوم .

وحيد لا يقرأ الروايات . قرأ القليل جدا منها . لمحفوظ قرأ ميرامار فى صغره وأدمن مقاطع منها تناجى ميوله الفلسفية ، بعد ذلك زاد انبهاره بها عندما كبر وشاهد فيلم كوروساوا القديم ' راشومون ' ، ولاحظ أن محفوظ استخدم ذات الفكرة الخلابة فى رواية ذات الحدث من منظور أربعة أشخاص ، فيبدو جد مختلف فى كل مرة . حين فاز محفوظ بنوبل ، أرسل وحيد فى طلب الثلاثية وفى طلب ' أولاد حارتنا ' ، على الأقل جريا على موقفه المعهود من الأدب الذى يستثقله ، موقف ألا يظل معزولا عن شىء يتحدث عنه كل الناس ، فيبدو كما الأصم فى زفة عرس . جاءته الثلاثية أولا . قرأ أول عشرين صفحة ، حيث أمينة تطرد العفاريت التى تنهش وجهها طوال الليل إلى أن يأتى الإله (الزوج) الذى تختفى مع قدومه كل الشياطين هاربة إلى جحورها ، ثم سرعان ما يتضح أنه إله مزيف ذو وجهين ، ووضع من مجرد هذه الصفيحات نظرية فحواها إن أمينة هى مصر التى اخترعت فكرة الإله كلى الجبروت كى تعبده لأبد الدهر ذليلة مهيضة ، ولا تحصل فى مقابل هذا ، ولا حتى فى مقابل بيع الفكرة لكل البشرية ، سوى على الضعة وذل العبودية الاختيارية اللا نهائيين (كلها بغض النظر أصلا عن كون ذاك الإله وهما خواء هباء) . فى اليوم التالى جاءته أولاد حارتنا فى نسخة مهربة من بيروت ، فقرأها فى مشوار واحد وسكر حتى الثمالة من أفكارها . ثم شغلته الشواغل كرئيس تحرير ، وانصرف عن إكمال الثلاثية .

الآن -وحيدا طريح الفراش لا ترتفع عيناه بالساعات عن الصورة الإليكترونية لوجه محفوظ المتجعد بالتعابير- خطر بباله -دون أدنى سابق إنذار- أن يكتب رواية هو نفسه . لا يمكن أن تظل مصر بدون أديب يوصف باليمينى ؛ هم فى حاجة لأحد يحاربونه ! ارتسمت فى لحظة معالمها . إنها قصته هو ، لا تعوزها الدراما ، قصة أسرته وقصة معارفه ، قصة تجربته بما فيها من أحلام وإخفاقات . قد تروى قصة مصر أيضا ، وربما تعرج على بعض الجيران العرب . لكن على الأرجح لن تكون ارتقاء وصعودا كما حدث مع ارتقاء الطبقة الوسطى الفكرى والمعنوى الذى جاهده جيل كمال عبد الجواد ، إنما غالبا العكس : النصف الآخر للدورة ، الإنحلال التدريجى الذى لا محيد عنه . بسرعة حدد الفصول ، جاءته البداية والنهاية ، وجاءته الفقرة الافتتاحية لكل فصل . لكن سرعان ما استسخف الفكرة برمتها . نعم ، من الصحيح أن كتابة الأدب تعطى حرية أفضل بكثير من السينما . فى السينما أنت محكوم بقيود لا نهاية لها ، بوسيط تعبير ضيق ، وبجمهور له أهواء وتيارات ، وبميزانيات ضخمة لا بد من استردادها . أما الأدب فبيدو أيسر كتابة ولا تحده قيود . إنه كلمات وأفكار سلسة تذهب لحيث تشاء ، واقتصاديا هو حفنة ورق لا يكلف تعميمها إلا آلاف قليلة من الجنيهات ، وما يتطلبه من بحث وتدقيق ومعلومات هو شىء طبيعى مطلوب وبديهى لأى تأليف كالسينما وغيرها . لو كنت فى الخارج لأتوا حتى بمن يدققها لى . لكن فى مقابل كل هذا ، ما أدرانى أنا بصنعة الأدب ؟ إنى حتى لم أكتب للسينما بنفسى ، فقط تعلمت كيف أحكم على ما يكتب ، ويا ليت حكمى كان صائبا دائما .

إذن الحل الأمثل -طالما خفت ولو مؤقتا ضغوط شيطان الكتابة ، الذى لم يكن رجيما جدا على أية حال- هو أن أشغل محبسى بقراءة الثلاثية . ' سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ ! ' . تكررت وتكررت ، إلى أن وصل إلى منتصف قصر الشوق ، حيث تبلورت لديه مشاعر أشد اختلاطا . شجعه أن يتحدث محفوظ عن مثقف مثله . لكن كل القصص التى يكون بطلها مثقفا أو صحفيا أو ما شابه ، قصص سخيفة ، لأنها لا تهم القارئ العام ، وتفشل . لو جعل نفسه بطلا لقصة ستكون السخرية عنها ، سيضيف لحياته فشلا على فشل . نعم ، نجيب محفوظ يجسد نفسه فى كمال عبد الجواد ، لكن بعد أن قدم پانوراما عريضة لشخصيات كثر ، أغلبها من طبقة يعرفها عموم الناس .

هنا تكاثفت المشكلة الأكبر . ' سحقا لمن يكتب بعدك يا محفوظ ! ' . أنت متخصص فى الفلسفة ، مثلى لنقل . لكنك كتبت كل شىء ، ولم تترك لتافه مغرور كشخصى شيئا كى يكتب . فى ثلاثة كتب جمعت موسوعة لكل البشر وكل المشاعر وكل الأفكار ، حتى أعمقها فلسفية . ارحم خللى رحمة ربنا تنزل ، كما يقول المتدينون . كل فكرة يعتصرها حتى الثمالة ، كل موقف له ألف زاوية وزاوية عنده ، كل شخصية لها عنده داخل ثناياها ثنايا أخرى ، إلى ما لا نهاية من ثنايا أدق أصغر وأغرب . داخل كل قيح يوجد قيح أدق أصغر وأغرب . ارحم خللى رحمة ربنا

تنزل . حتى ما خططته من أفكار وشخصيات ومواقف تخيلت أنها تخصنى وحده ، وجدتها موجودة ، على الأقل فى النصف الثانى من المجموعة ، وعلى نحو يكاد يكون حرفيا . لقد سبقه إليها نجيب محفوظ -سرقها- بلا حياء .

يا للهول ! الأمر إذن ليس مجرد قصص فتوات شبه رمزية . أنت كلك من تفتح وعيه لحظة راحت نظرية التطور تعصف بعقول العالم شرقه وغربه ، وكانت تحظر من المدارس حتى فى أميركا نفسها ، التى هى أكبر تطبيق عملى لها فى التاريخ ! كل ما فيك يا سيدى يستوجب الحسد ، لكن لو سمحت باختيار واحدة فقط ، فهى لحظة نشأتك هذه ! إنها السر فى أنك المفكر الوحيد فى تاريخ مصر وربما فى تاريخ كل الشرق ، مترابط الرؤية من الألف إلى الياء ترابط جزيئات الحديد الصلب ، أقولها وليغضب من يغضب . اليسار يكره الدراما ، ويصنع كتبا وأفلاما شديدة الملل ، لأنه يزعم أن تلك تلاعب رخيص مصطنع بانفعالات المتلقين ، وأنت ' ديموقراطى ' للغاية حين يتعلق الأمر بالمشاعر . الأمور التى تحتاج لعقل وخبرة ربما لا ينبغى فيها أخذ آراء الجهلة ، لكن حين يتعلق الأمر بالسعادة والمتعة الفردية ، فالحرية والاختيار حقوق أصيلة لكل إنسان . اليسار يكره الدراما لأنها صراع ، والصراع الوحيد الذى يعرفونه هو صراع النهب الطبقى ، صراع التحيؤ للأسوأ ، وأنت ولدت فى لحظة مخاض استنارة العالم الفكرية المؤلمة على قانون عمره من عمر الأزل ، قانون اسمه التحيؤ للأليق ، وللأليق فقط . اليسار يرى القوة ظلم ، وأنت تراها حق . طبيعى ! فحتى لو ساد القهر والطغيان لحين ، فإن ثقتنا لا حدود لها فى تدخل قانون الدغل لإحقاق الحق . تدخل القانون الذى لا يقبل التفاوض أو المساومة ، فلولا أن كانت قوى الخير تنتصر على قوى الشر ، لما حدث النشوء والارتقاء أصلا ، ولما وصلت البشرية لهذه النقطة أبدا ، بل لما وصلت الأرض لمرحلة ظهور الإنسان أساسا . طبيعى بالتالى أن يكره اليسار النهايات السعيدة باعتبارها تغييب مصنع الأوهام والأحلام الهوليوودى الإمبريالى الشرير للطبقات والشعوب الكادحة ، وأنت كل نهاياتك إيجابية منتصرة لأنك الناطق الأكثر من رسمى بلسان وروح إلهنا الحق ؛ أمنا الطبيعة ! ولا غرابة ، فهم يكرهون الفن للمتعة ويسمون الفن للنكد فنا للمجتمع ، والمقصود فن لاستلاب المجتمع . اليسار يكره الحلول الفردية ؛ إما حل جماعى وإما أن يبقى الإنسان مهزوما مأزوما للأبد ، وأنت كل حلولك فردية لأن هكذا علمتنا تجربة نشوء كل حضارات الإنسانية الثلاث على مبادىء الحرية والتنافسية وتنحية الكسول الضعيف والمتخلف . باختصار ، اليسار يريد استرقاق واختطاف كل هؤلاء الناس كبيادق لأجندته الانتهازية الانتهابية و' الفردية ' جدا ، وأنت بكلمة : الحرية كما يجب أن تكون !

إذن يجب فعلا صرف النظر عن فكرة كتابة قصة ، حياتى وخبراتى أغبى من أن أزعج أحدا بها ، وحياتى أضيق من أن يوجد فيها أمثال شخوص محفوظ . حياتى لم ولن يكون بها بطل بعرض وطول أصغر شخصياتك . حياتى تافهة ولأرضين بهذا . والحل الأمثل أن أهون المرض على نفسى بالاستمتاع بقراءة محفوظ . باستهلاك الكتابة بدلا من إنتاجها ، استهلاك محفوظ ، وربما غيره لو سنح الوقت ، أو سمح المزاج .

ألعل هذه كلها من طبائع الأمور ؟ اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ حين نكون شبابا نؤمن بالعلم وبالثروة وبالعالم وبالأشياء الضخمة والتغييرات الشاملة . وعندما تضعف بنا الحياة ، نقلب عما فاتنا من متعها الصغيرة ، قصص عادية لأناس عاديين ، فتهزنا وتدمعنا وتضحكنا ، بأتراحها البسيطة وأفراحها الأبسط . تدفئ قلوبنا وتلئم شروخ الزمن فيها . أرسطو هو عنفوان الشباب ، لكن حين نهن يطل أفلاطون برأسه .

اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ تقاطع الدموع عيوننا نصف قرن ، ثم تغدق علينا كرمها الفجائى دفعة واحدة ، من مجرد قراءة قصة مختلقة . لماذا ؟ لا بد من سبب . ما السر فى تلك القصص ؟ يا للهول ! لا يوجد سوى سبب واحد . إن بها كل هذا الحب الدافق . الحب ، الشىء الذى تخلو منه حياتك .

اللعنة ! لماذا نضعف عندما نكبر ؟ من الأفضل ألا نكبر أصلا ! الآن فقط فهمت لماذا ينتحر أناس بدوا أحيانا شديدى البأس : إنهم لا يريدون أن يجربوا الضعف !

ترى كيف تفكر فتاة رائعة كهالة فى شخص مثلى ؟ هل هى فتاة عادية تسعى لما بسمونه بالأمان المادى ، و' تحلم ' بواحد مثلى ، وتدخل فى مناورات ومناوشات للحصول على أفضل صفقة ممكنة . مستحيل بالتأكيد ، هذه ليست هالة . لكن لماذا لم تتزوج حتى الآن وهى فى الخامسة والعشرين ؟ الأرجح أن لديها مخططاتها لحياة مهنية عريضة . أتريد مفكرا ومثقفا مثلها ؟ ربما . لكن لا شىء يبدر عنها . لماذا تؤجل بالكامل مشاريع العاطفة ؟ يا لهذا الجيل الغامض ؟ جيل ؟ وغامض ؟ هل نسيت من أنت ؟ ألم تؤجل أنت أيضا مشاريع العاطفة ، بل وربما ازدريتها ؟ آه ! الخامسة والعشرين ، إنها أقل حتى من نصف عمرى . هل أحبها ؟ هل يمكن أن أحبها ؟ أم هل هذه هى محنتى ؟ آثار جانبية لتلك الكومة اللعينة من الأدوية ؟ أمحنتى أقوى من تربية أمى لى ، التى طالما نهرتنى عن إظهار مشاعرى ، تربية لا شك أنها تلقتها هى نفسها عن أمها

الإنجليزية . لا غرابة أن أول شيء علق بذاكرتى من طفولتى المبكرة جدا هو نظرة وجه أمى المتقطب لى يوم كسرت كوبا . عندما كبرت فهمت أنها لم تقطب فى وجهى لأنى كسرت الكوب ، إنما لأنى بكيت لأنى كسرته . ما أرفع الخيط الذى تطالبيننى بالسير عليه يا أمى ؛ هكذا كانت عبارتك التى لم أنسها للحظة : ' ما بين الحرية وبين عبودية ما تحب خيط رفيع يا بنى ! ' . كلها فهمتها وحاولت تطبيقها إلا ما يخص الحب ؛ شربت الخمر وكل ما هو دون الإدمان من العقاقير ودائما ما توقفت قبل خطك الأحمر ، حتى الصادقات لم أغمس نفسى فيها أكثر مما يجب ، ثم أنى لم أعبد نفسى يوما بل أزدرى العرق البشرى برمته واشمئز من خيلائه الزائف ، أما الحب فهو عبودية بحكم التعريف تقريبا ، فكيف أحب دون أن أصبح عبدا ؟ !

يا لها من حياة دوارة . الحياة تبدأ بالبكاء وتنتهى بالبكاء . ولا غرابة . ترى هل هذه الدموع التى جاءتنى الآن رغما عنى هى معمودية الشفاء بعد طول جذام ؟ أم هى أم الفواجع ؟ الطامة الكبرى ؟

يا للهول ! هل ما ينقصنى هو ذلك الشيء المسمى الحب ؟ يا لها من فكرة مرعبة أطيق الشلل والموت ولا أطيقها !

وعاد ليسرح من جديد -طويلا- فى الصورة ذات الإطار الخشبى عتيق الأسلوب التى أحضرتها هالة ذات الشطارة النادرة هذا المساء ، ويقول بأسى ' لقد سرقت كل أفكارى أيها اللعين ! ' ، هذا بينما أخذت جاذبية الأرض تجر من مقلتيه كريتين بللوريتين من الدمع الحار ، وتسحلهما ببطء فوق خديه شبه المتخشبين .

سى السيد ؟ ! لك حاجات يا حاج !



الرجل التانى مين فيهم يا روح أمك ؟

لم يعرف أحد عندما ضربت إنفلونزا الطيور ، العالم ومن ثم مصر فى ربيع ٢٠٠٦ ، لماذا يرتفع سعر سهم شركة الدواجن ، بينما هى تغلق مرابيها ومسالخها ، بل وبواباتها الخارجية غلقا ، يوما بعد يوم ، وعلى امتداد كل البلاد . كل يوم كان السهم يزيد بنسبة ٥ ٪ القصوى ، وكل ما يطرح من أسهم يشترى عند هذا السعر الجديد المتصاعد . الآن يعرف الجميع أن ضهرى عبد الحميد المصرى كان ذلك السبب الغامض .

ذات يوم جاء بشنطة بلاستيكية مملوءة بشرائح البنجر ، قائلا أنا أزرعه وآكل منه يوميا . إنه يقى من ضغط الدم ، وكذلك يعالجه . لما لم يقبلوا جدا عليه ، ناهيك عن أنه كان هو مخترع نظرية أن البنجر يخفض ضغط الدم المرتفع ، وليس أية جهة علمية ذات شأن ، عاد فى اليوم الثانى بزجاجة بها سائل قرمزى ، وقال هذا عصير بنجر ، أنا موش عازمكم عليه لوجه الله . أنا عاوز رأيكم ينفع معلبات ولا لأ . لم يرد أحد ، لكن هب روميو آمرا ميرفت : يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى . أنا عندى فكرة ها أشارك فيها الحاج . ها نفرم البصل والتوم ، ونبيعهم مجمدين ، بدل الستات (أو الرجالة) ما تطلع عينها فى التقشير والدموع ، تلقاهم جاهزين م الفريزر للحلة على طول .

ما حدث بعد ذلك يومها أن شرب الجميع البنجر عن آخره . وفى اليوم الثالث أتى الحاج بزجاجة مماثلة ، قائلا ربما أفكر أيضا فى افتتاح مصنع لمشروب غازى مصنوع من عصارة البنجر . النتائج مبشرة ، لكن نظرية خفض ضغط الدم أصبحت على المحك فجأة . كان من المفترض حسب نظريات ضهرى الطبية أن يؤدى البنجر لهدوء أعصاب الجميع ، إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو . لم تمض دقائق حتى دخل مينا فى مشادة مع سامر الذى كان يقوم بوظيفة خدمة العملاء فى ذلك اليوم ، وربما كان متوترا قليلا بسبب مرض وغياب الحبيبة . مشادة مارس فيها مينا كالعادة سلطته الطبقية : ' بأقول لك هات لى الـ EGS (رقم القيد بالبورصة المصرية) بتاع شمال الصعيد . علشان أدخل أمر العميل ' . ألقى سامر الورقة بغيظ ، ثم لاحظ وجود العميل ، فوضعها تحت رزمة الأوامر أمامه . زاد تسلط مينا : ' أنا هنا الرجل التانى ، وبأقول لك هات كود الشركة علشان الأمر يدخل ، ميرفت ما تقولش لأ على حاجة زى دى ' .

هنا انبرى له ضهرى ناهضا : الرجل التانى ؟ الرجل التانى مين فيهم يا روح أمك ؟ رشدى أباظة ؟ ولا أيمن الظواهرى ؟ ولا نادى الزمالك ؟

تكهرب الجو ، ولاحظ البعض أن ضهرى لم يتحرج من الثورة لصالح موظف صغير ضد أحد أصحاب الشركة ، ناهيك عما قد يفسر عليه موقفه من أنه نوع من الانحياز الدينى ، من مسلم ضد مسيحى لصالح مسلم . كان هذا ملموسا مثلا من خلال سيدة عجوز تهمس بملامح غاضبة لأخرى جالسة بجوارها ، بينما تشير فى نفس اللحظة للصليب المطبوع على رسغها . لكن الحقيقة أن الحاج لم يكن يتحرج من شيء

كهذا ، لم يكن يتحرج من أى شيء إطلاقا : روح اتنيل يا سى تانى ! شوف شغلك بنفسك ، أنت منفذ واعمل شغل المنفذين . قبل كده إدوارد قال لك كل المعلومات موجودة على شاشة التنفيذ واعمل بحث . سعادتك كسلان ، والراجل ده شغال خدمة عملاء ، موش سكرتير لك . أنت هنا موش ريس على حد ، أنت تنفذ زى أى منفذ فى الدنيا .

حاول مينا الرد : مين قال كده ؟

– أنا بأقول لك كده .

ثم علا صوته جدا وهو يدفع ورقة أمر الشراء بسلسلة لكمات قوية لصدره : سامع ؟

تذكر وحيد ما مر عليه مرور الكرام يوما من جدل دخله ضهرى ضد إدوارد حول غزو الأقباط لمصر الجديدة ، وغيرهم من الشركات الأميركية . الآن هو يضيف لغزا جديدا بموقف يتجاوز حدود صلاحيات عميل شركة أيا من كان ، مع أصحابها وموظفيها . أما ثالثا فاللغز الأكثر غموضا من أى شيء ، فهو لماذا يقطع ضهرى أصلا كل هذا المشوار البعيد يوميا ، من أجل شركة صغيرة بعيدة تافهة وفوضوية كشركة رمسيس . من هنا قرر وحيد أن يستجلى كل الأشياء دفعة واحدة . انتظر حتى عاد ضهرى لمقعده على المائدة المستديرة ، وبدا كمن يحاول أن يخفف عنه من غضبه ، فسأله : لماذا تقطع كل هذه المسافة يوميا ، وهناك شركات كثيرة أقرب وربما أفضل ؟

أجاب بدهشة : أنت ما تعرفش ولا إيه ؟ العيال دول ، إدوارد ومينا ، يبقوا أولاد خالتى .

فغر وحيد فاه : تقصد أن أمك مسيحية ؟

– آى ، نعم !

– وماتت مسيحية ؟



أدرك هذا المستوطن بحسه المغامر أن ثورة كبرى تجرى على أرض مصر

الجذور الأولى لقصة القرابة بين هاتين الأسرتين تطعن فى الماضى قرابة قرنين من الزمان . بطلها الأول كان شخصا اسمه مايكل كووك . هذا المغامر هو بالأصل مساح إنجليزى . ومساح تعنى من يستخدمون أجهزة كالثيودوليت والميزان وما شابه ، لرصد وترسيم تضاريس الأرض ، ومعرفة المناسيب الخاصة باليابسة أو بمجارى المياه ، ووضع العلامات عليها ، وهكذا . جاء إلى مصر فى ثلاثينيات عمره سنة ١٨٥٤ ، السنة الأولى لحكم سعيد باشا . كان مشروع بناء القناطر الخيرية ، الذى دشنه مُحَمَّد على باشا سنة ١٨٤٣ ، قد توقف طويلا كل فترة حكم عباس باشا الأول المتشكك جذريا تجاه شيء اسمه التحديث (لعل كل حكام أسرة مُحَمَّد على أناس ممتازون ، إلا من حملا اسم عباس . لكن على أية حال لا يذكر الرجل قط بمثالبه الكثيرة وتشدده الدينى ، إنما فقط بالمشروع الوحيد الذى وافق عليه : خط القاهرة-الأسكندرية الحديدى ، الذى جعل مصر ثانى بلد فى العالم يعرف اختراعا اسمه السكك الحديدية بعد بريطانيا العظمى ، يمكنها به أن تنابذ ألمانيا أو اليابان أو حتى أميركا أنها سبقتها لشيء ما فى العصر الحديث !) . ما حدث أن أتم سعيد مشروع قناطر الدلتا -أو القناطر الخيرية كما صارت تعرف- بعد ١٧ عاما كاملة من بدايات أبيه لها ، ثم أجرى فيها من بعده إسماعيل إصلاحات وتعديلات كبيرة مهمة ، هى التى أخرجت منفعتها وكمونها الحقيقيين .

شارك مايكل كووك إبان حكم ذلك الوالى الطموح سعيد باشا ، فى بناء القناطر . لكن ما غير وجهة حياته أن شارك أيضا فى البعثات النيلية التى راحت تقترح أماكن للسدود الأخرى اللاحقة اللازمة لاستكمال مشروع إدخال هذا النهر العظيم إلى عصر نظم الرى الحديثة . من هنا فقد تفقد مجرى النيل كله ، عرف كل البلاد وكل القرى . وفى خاتمة المطاف أيقن أن الأماكن شبه المؤكدة لاقتراح القناطر القادمة ، هى أسيوط فإسنا فأسوان بالترتيب . اختار أقربها للقاهرة وأقربها لاحتمالية التنفيذ ، أى أسيوط ، ثم وجه جنوبا منها قليلا . اختار -بدلا من شد الرحال عائدا للجزر البريطانية- سفح الجبل الغربى المواجه لمدينة أبو تيج . كانت فكرة إحكام الوالى -أى مُحَمَّد على وورثته- قبضته على ملكية كل أرض مصر ، قد تراخت ، بل وثبت فشلها . واستبدلها سعيد -الذى كان النقيض المطلق من أخيه عباس- بنظام ملكية الأرض الأوروبى ، فأصدر قانون توريث الأراضى سنة ١٨٥٥ ، حيث سرعان ما أصبح كل المطلوب لملكية الأرض وحق التصرف الكامل فيها بعد ذلك ، هو حيازتها لمدة خمس سنوات ، ودفع ضريبتها خلال هذه المدة .

أدرك هذا المستوطن بحسه المغامر أن ثورة كبرى تجرى على أرض مصر ، هذه المدعوة من قديم هبة النيل . مع ذلك لم يكن قادرا على امتلاك الكثير من أرض زراعية منتجة بالفعل ، فآثر ملكية أرض أغلبها صحراء ، لكن شاسعة الأطراف لا تقل مساحتها عن ألفى فدان . كان واثقا أن بناء القناطر الجديدة فى أسيوط ، سيرفع منسوب النهر ، ويجعل فى وسعه رى كل تلك المساحات بسهولة . مع ذلك لم ينتظر حتى تمام هذا ، واستورد من إنجلترا طلمبات تعمل بقوة البخار ، وبدأ بالفعل فى زراعة ما تيسر له من تلك الأرض .

لم يعجبه أن يسمى ' طباخ ' بدلا من كووك ، إذ كانت ثقيلة النطق وصعبة الكتابة بالحروف اللاتينية . فأخذ يبحث فى الكلمات العربية المرادفة لمشروعه ، بالأصل كى يختار اسما لنفسه هو شخصيا . من بين ما قيل له كلمات مثل قرية وبلد وبستان وضيعة وعزبة وكرمة وغيط وغوطة . اختار هذه الأخيرة . سيكتبها بالحروف اللاتينية Goethe بحيث تطابق اسم الشاعر الإلمانى الذى كان قد عاش حتى أواخر القرن السابق ، وبدأت تظهر للتو ترجمات بالإنجليزية لمؤلفاته فبهرت الدنيا . أما بالعربية فغوطة كلمة معروفة تعنى الأرض الممتدة السهلة الطرية التى لا تخفى خطرا . وأسعد كووك أن مال عليه أحدهم مفهما إياه أنها كلمة شعرية هى الأخرى ، أو على الأقل هى كلمة مندثرة بعد انقلاب الواو ياء لتصبح غيطا لا غوطة . بحكم الضرورة -وبحكم الارتياح لانتمائه الجديد- غير أيضا اسم مايكل إلى ميخائيل ، ولم يكن ثم مجهود أو صعوبة فى هذا الاختيار الجاهز سلفا . وبالزواج من ابنة لأحد أعيان أسيوط ، مدهشة الجمال خضراء العينين كلون الزرع الذى يحبه ، تأسست من كل هذا وذاك أسرة ميخائيل غوطة التليدة العتيدة .

لم يتحقق حلم ميخائيل غوطة بالسرعة التى تخيلها . لم يشرع فى بناء قناطر أسيوط ، إلا فى السنوات الأخيرة جدا للقرن ، تحديدا من ١٨٩٨ إلى أن انتهت فى ١٩٠٢ . مع ذلك لم يعجزه هذا . قبل أن يتحقق تشييد القناطر كان هو وأولاده ، قد زرعوا بالفعل كامل الأرض تقريبا باستخدام ماكينات البخار الحديثة ، وكذا أنشئوا مزارع للمواشى ، وككل صاروا من أعيان الصعيد كاملى الأوصاف والعراقة . مع ذلك فقد عاش غوطة ليرى إنشاء القناطر . وكان -على كهولته- يذهب لعاصمة المديرية ليعاين المشروع ، متمنيا لو كانت الأقدار قد بكرت به قليلا ، وأصبح أحد المشاركين فى تنفيذه . مما اثار حسده لعدم المشاركة ، رغم كل ثرائه وسعة عيشه ، أن قناطر أسيوط دخلت تاريخ الهندسة المدنية كأول منشأة مائية فى العالم تستخدم فيها الطفلة المحروقة (البورتلاند أو الإسمنت فى التسمية الضروبية اللاحقة) ، كرابط للأحجار الجيرية ، حيث من خصائصها أن تتماسك وتقوى بفعل الماء .

علم أيضا أنه يبنى بالتزامن -أو متأخرا فى حدود شهور فقط- خزان أضخم فى أسوان ، وأنهم بدءوا بالمثل مشروع قناطر عند زفتى على فرع دمياط ، وأن قناطر إسنا الموعودة قد يشرع بها فى حدود سنوات قليلة ، كذلك ربما يبدأ بعد ذلك التفكير فى قناطر رابعة عند نجع حمادى .

قالوا له إن الإنجليز موجودون الآن بأنفسهم فى مصر ، بعددهم وعتادهم ، بمهندسيهم وعسكرهم .

قالوا له إن كل الأحلام المؤجلة لحكام مصر طيلة نصف القرن الأخير ، سوف تتحق خلال سنوات قليلة مع قدوم القرن الجديد . وقد كان !

قالوا له إن اقتصاد مصر سيشهد طفرة خلال مجرد السنوات العشر القادمة ، سوف تضاعف كل ما تحقق لها من اقتصاد طيلة ٧٠٠٠ سنة . وقد كان !

عاش كووك -الاسم الذى كان لا يزال يناديه به الكثيرون ولم يتلاش إلا برحيله- عاش حتى بلغ ما بعد المائة . ومن عجائب القصص أن خلد الاسم رغم ذلك ، بأن صار أحد أفعال اللغة العربية الدارجة فى الصعيد الأوسط أن يقال ' كوك ' ، بتشديد الواو ، بمعنى طعن فى السن وذهبت ذاكرته !

أحد أحفاد ميخائيل غوطة ، ويدعى حارس غوطة ، كان أن شد رحاله إلى القاهرة ، كى يحصل على إجازة فى المحاسبة . لم يكن من عشاق الزراعة ولا الريف ، وبالفعل انتهى به المطاف محاسبا فى بنك قاهرى صغير مملوك لأسرة يهودية ، ارتقى فيه إلى أصبح نائبا للمدير . تزوج من فتاة أرمنية ، أعجبه فيها شعرها المموج الضخم . تقليديا يعتبر الإنجليز الأرمن شرقيين ، لكن حارس قال إذا كان جده قد تزوج من مصرية ، فليس من الأسوأ أن يتزوج هو من أرمنية . عائلتنا ترى فى امتزاج الثقافات شيئا جيدا ، وعميدنا هذا تسمى حتى اسما ألمانيا-عربيا-مصريا فى آن . مع ذلك انضمت هى لطائفته البروتستانتية وارتبطت بكنيستها المجاورة لهم ، وتخلت لحد كبير عن طائفة الأرمن وكنائسها . أنجب حارس ابنتين توأم دعاهما ماديلين وماريلين . أو مادلين ومارلين فى التعريب العربى السوقى الذى كان يكرهه وينهر عنه بشدة . من خلال هاتين الفتاتين الطائشتين بدأت قصة القرابة الغريبة المشار إليها .



كان الشابان وسيمى الطلعة معسولى الكلام ،

والفتاتان فاتنتين مولعتين بحب الحياة والسعادة والاستمتاع !

فى مطلع الأربعينيات ، فى مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا ، نشأت الصداقة بين الشابين عبد الحميد المصرى وأرميا رمسيس . يوم تقديم الأوراق تعارفا . الأول جاء قادما من مدرسة بالقناطر تدعى مدرسة نور السلام . هذه كانت مدرسة ابتدائية ، وكلمة ابتدائية فى تلك الأيام تعنى دراسة ثمانى سنوات ، وتقريبا تحل محل المرحلتين الابتدائية والإعدادية الحاليتين . كانت نور السلام مملوكة للجالية الهولندية ، ويتولى التدريس فيها هولنديون وهولنديات ، ثم آلت لاحقا للطائفة الإنجيلية المصرية ، وما نور السلام إلا بيسوع المسيح . وتاريخيا يمكن اعتبارها أحد رموز التحرر فى مصر ، حيث كانت رائدة فى حقل المدارس المشتركة ، والتعليم السابق كله كان كاثوليكيا يفصل بين البنين والبنات بجدر حديدية .

أما هذا التعليم الكاثوليكى ، وما أكثر مدارسه فى منطقة الفجالة ، فقد كان النبع المنطقى لتعليم أرميا . سأل عبد الحميد المساعدة من أرميا فى تدبير حجرة للسكنى ، فهو من القناطر الخيرية ، ويفضل تحاشى السفر الطويل . وإن الحقيقة أن شوقا اعتمل داخله لحرية نسبية تتيحها الإقامة معظم الأسبوع فى القاهرة الصاخبة بعيدا عن الأسرة . فقال له : بسيطة ! تعال معى ، نحن قريبون من هنا ، فى حدائق شبرا ، وأبى سيدبر لك كل شىء .

حدائق شبرا كانت اسما على مسمى . مزارع لا تحيطها الأبصار . كل المساكن مكونة من طابق واحد . من بينها كان ' الخواجة ' رمسيس قد بنى عددا من البيوت ، بهدف التأجير . فملكية العقارات تعد استثمارا مربحا ، وفى ذات الوقت بابا للوجاهة . أو لعلهم يعتقدون أيضا أنها ستخلد ذكراهم ، ربما كما حدث مع خوفو وخفرع ، فالواضح أن الناس اعتادوا أن يشيروا للبيوت ويسمونها بأسماء مالكيها من بنوها . أسكن الأب عبد الحميد المصرى بلا مقابل تقريبا ، لسببين : الأول عربون صداقة وبيزنس مع كبار مزارعى القناطر . والثانى حتى يذهب الولدان للمدرسة سويا ، وكذا يستذكران الدروس سويا ، فتقل مشاغله على ابنه .

بعد ثلاث سنوات من الزمالة انتقلا سويا لتوفيقية أخرى ، مدرسة الزراعة العليا . رغم أن أحدهما جلس بجوار الفتيات فى فصول دراسية امتدت لسنوات طويلة ، والآخر لم يعرفهن إلا بالتسكع خارج أسوار مدارسهن ، إلا أنه كان تجمعهما منذ الطفولة الوسامة وشدة التأنق . وكانا نجوما وسط الفتيات كلما تيسر الأمر . ويبدو أن الأمر سيتيسر فعلا ، وبأيسر مما تخيلا ، فهما -١٩٤٥- أول دفعة يسمح فيها بدخول الفتيات لمدرسة الزراعة بالجامعة المصرية . إلا أن القدر كان يخطط لحدث ذى شأن عظيم ، فى مكان بعيد على الضفة الأخرى للنهر .

عيد الفصح ١٥ نيسان ، وعيد رأس السنة اليهودية أول تشرى ، وعيد الغفران أو يوم الصوم الكبير -كما يسمى فى مصر على الأقل ، فهو بالفعل صوم ٢٥ ساعة متواصلة- يقع فى العاشر من تشرى . تحتفل مصر رسميا بثلاثة أعياد يهودية كل سنة ، هى هذه الأعياد ، بمعنى أن تعتبرها الحكومة عطلات للمصالح والبنوك والبورصة ... إلخ . دخلت مصر حربين ضد إسرائيل ، دون أن تلحظ أية مشكلة مع هذه الأعياد ، ولم تتنبه لأن الأمر لا يماشى جدا ثورية ثوار يوليو ولا شوفينيتهم العروبية إلا بعد الحرب الثالثة ، سنة ١٩٦٧ ، فألغوها . باستثناء عيد الفصح ، كل أعياد اليهود الرئيسة أعياد كئيبة ، بل كئيبة جدا . كلها صوم واعتكاف وندب وندم وعذاب . لا مظاهر للاحتفال ولا حتى للتزاور ولا حتى الذهاب للمعابد للصلاة . الفصح هو العكس . لذا كانت المناسبة السنوية الوحيدة التى يزور فيها حارس غوطة زملاءه ورؤساءه فى البنك فى بيوتهم هى يوم ' البيساح ' ذاك .

هذا العيد الذى يمتد بعد ذلك لسبعة أيام ، هو عيد الحرية ، ذكرى الخروج من عبودية مصر . وهو عيد الربيع وبواكير الحصاد . وثالثا هو عيد الطعام ، ليس فقط الفطير الذى صنعه وأكله على عجل العبرانيون صبيحة يوم أصبحوا عبرانيين . إذا أضفت لكل هذا وذاك أن أغلب أصدقاء حارس من اليهود كانوا صهاينة ، أى علمانيين ، أى يحتفلون بأكل الممنوعات قبل المسموحات ، يفضلون رغد المن والسلوى على شظف فطير الماتسا ، ويفضلون الحياة والاستمتاع على اجترار ذكريات الفقر والذل ، ستكون الخلاصة أنه لم يكن لدى حارس أية حجة للتقصير فى أداء واجب المعايدة ، وقضاء يوم بهيج هو وزوجته مع أصدقائه من حفدة موسى . أما الفتاتان ، فمنذ يفعتا فقد أضربتا على مصاحبة والديهما فى رحلة حى الظاهر لتلك البيوت اليهودية . كان موقفهما مفهوما . على أية حال بم سيفيدهما التعرف على شبان يهود ؟

فى ذلك المساء ، الثلاثاء ١٦ أبريل ١٩٤٦ ، الموافق ١٥ نيسان ٥٧٠٦ ، وقع ذلك القدر الموعود بين المتسكعين والمتسكعات ، من ذوى وذوات الخبرات المسهبة فى الهيام والسياحة . الحدث هو تلاقى الصديقين مع الأختين التوأم . أما المكان فهو شوارع روض الفرج العامرة ، التى لا يضاهيها سوى صخب عماد الدين ، ولعله لا يضاهيها . وتأكيدا هى الأكثر حيوية وبهجة من جاراتها فى حدائق شبرا الساكنة سكون القبور ، تلك التى جاء منها الأربعة جمعاء .

إنها ، روض الفرج ، نموذج كلاسى للقاهرة الزياطة التى طالما وصفها الرحالة المستشرقون . القاهرة التى لم تفت على مهندس الصوت اللماح فى لورانس العرب ، الفيلم الغارق على العكس طوال الوقت فى صمت الصحراء السحيق .

إنها ، روض الفرج ، أصوات وأصوات . حوافر الدواب تناجى أبواق العربات . جرتها المحركات أو جرتها الأحصنة ، لا فرق . أيضا لا فرق عند الكلاب التى ترد على كل صيحة بوق بتحية نباح أفضل منها . ناس وناس . لا أحد يكف عن التنادى بأعلى صوت ، سواء للتحية أو للوعة على عيل تائه ، لعرض محاسن الملوخية أو مفاتن البلح الأمهات ، استجداء للروبابيكيا أو للإحسان ، غناء للعرقسوس بصحبة الصاجات النحاسية ، أو مزايدة على صوت قرع حبات الدومينو . أما الأحداث الأكبر ، ومن ثم الأكثر ضجة وبهرجة ، فهى الملاهى والمسارح . المطربين والراقصات ، الأراجوز والحواة ، سيرك مؤسسى فى خيمة ، أو آخر مستقل ، عرض رجل واحد فى العراء . أيضا هناك فوق الكل ، الزفة النحاسية الأسبوعية لبروجرام السينما ، كل سينما ، والكل حافل ، عرض مستمر ، ٣ أفلام بقرش تعريفة ، زفة لا تنسى شارعا ولا حارة إلا وحيته بالاسم . ترفع الصور الضخمة وتوزع الصور الصغيرة ، وزيلليون طفل حافى يهلل من ورائها .

إنها ، روض الفرج ، ' مولد ' يدوم ١٢ شهرا فى السنة ، لا يكاد يعترف حتى بأن للمسارح والسينمات شىء اسمه موسم ، له بداية وله نهاية وله عطلة .

بينما كان زملاء مدرسة الزراعة -وغير الزراعة- لا يمسون إلا مجتمعين فى المقاهى وعلى النواصى عبر القاهرة ، يتجادلون بعنف هل مظاهرة ٢١ فبراير وتوابعها ، كانت كافية لغسل ما جرى لهم فوق كوبرى عباس قبل ١٢ يوما منها ، أم أنها أتت بضحايا أفدح وفليظل لسيناريو الانتقام بقية واجبة ، كانت روض الفرج هى القبلة الوحيدة التى لا يملها قط الأنيقان عبد الحميد وأرميا . كانا يقولان الانجليز انتصروا فى الحرب على ألمانيا بجلال قدرها ، فما المشكلة أن ينتصروا هنا أيضا .

كانا يتسكعان فى بهو إحدى السينمات ، يستطلعان أفيشات العرض القادم . بدأ الأمر برمته ، بأن تسمر الصديقان أمام تشابه الأختين التوأم . بسرعة اشتغل عقل عبد الحميد -ابن نور السلام المشتركة- وقال : أنتم مثلتم فى الفيلم ده ؟ فيه واحدة شبهكم بالظبط .

– أنتم شفتم الفيلم ؟

– أيوه شفناه قبل كده . وجايين نشوفه تانى علشان معجبين أوى بجمال الممثلة إللى شبهكم . ها يعجبكم قوى !

طبعا لم يكن هناك أحد يشبههما ، إلا أن الحيلة أتت أكلها . لم يكونوا بحاجة للتواعد على اللقاء . كل الأربعة كانوا يتجولون فى نفس المكان والأوقات أكثر من مرة فى الأسبوع ، تكرر اللقاء ، وتكرر . كان الشابان وسيمى الطلعة معسولى الكلام ، والفتاتان فاتنتين مولعتين بحب الحياة والسعادة والاستمتاع ! حينئذ ، فى الأربعينيات ، كانت قصص الحب الكبيرة تكتسح روايات الشاشة مصرية وأجنبية . وراح أربعتهم يناقشونها باستفاضة شديدة حتى أدق التفاصيل .

– أنا من القناطر الخيرية .

– تعرف أن جدى الكبير هو إللى بنى القناطر .

– مين ؟ المهندس فاولر (يقصد السير الإنجليزى چون فاولر الذى كان المستشار الهندسى للخديوى إسماعيل) ؟

– فاولر ؟ فاولر مين ؟ جايز حاجة أصغر شوية !

– (بابتسامة استنكار ودودة) عامل ترحيلة يعنى ؟

– لأ ، أكبر شوية : فنى مساحة .

وراحت ماريلين تروى حكاية مايكل كووك وكيف أصبح ميخائيل غوطة وأمسى عين أعيان أبو تيج . وعبد الحميد يستمع باهتمام منقوص ، بقدر ما ذهب منه للفتاة نفسها وملامحها الباهرة ، وجسدها المتفجر فى فستانها ضيق الخصر واسع الذيل رقيق القماش ذى رسمات الزهور الزرقاء الكبيرة ، ولبدتها البنية الهائشة الضخمة التى بدت وكأنها تناضل من أجل التملص من ذلك الرأس الجميل والرفرفة بحرية فى كل اتجاه .

أرميا كان فى الضفة الأخرى للشارع ذى الأرضية البازيلتية الفاحمة ، يحادث ماديلين عن تجارة البلح التى سيديرها بعد انتهائه من دراسة الزراعة . ولما عرفت أنه مسيحى ، على العكس من صديقه ، لم تتهيب عن ذكر ، أو لعلها قصدت التباهى ، كيف أنها وأختها تذهبان للكنيسة للحظات عابرة ، أو لا تذهبان إطلاقا ، تضعان قليلا من نقود العطاء التى أخذتاها من البيت ، أو لا تضعان إطلاقا ، ثم تأتيان من الحدائق إلى روض الفرج ، بحثا عن الترفيه ، فيلما كان ، أو قزقزة ترمس أو قرض كوز ذرة مشوية . هذا بينما والداهما يعتقدان أنهما تقومان بهذه الرحلة فى الأعياد ، أو حين تستأذنان بها ، وليس بانتظام أسبوعيا ، يوم الكنيسة أيضا . الحقيقة أن ماديلين لم تتخيل أن أختها أيضا قد بادرت للتباهى بذات الشىء مع رفيقها رغم اختلاف الديانة بينهما !

كان حارس غوطة صديقا جيدا لابنتيه . لم يكن هو ولا زوجته من دعياهما للذهاب للكنيسة . هذه كانت فكرة وجدت الابنتان فيها ذريعة جيدة للخروج الوفير . فى كل الظروف لم يكن الأبوان قلقين على الخروج المتكرر للابنتين ، ويطمئنان نفسيهما دوما بأنهما طالما تخرجان سويا ، فلن يحدث مكروه . هو نفسه لم يكن يذهب للكنيسة إلا مرة واحدة فى السنة ، يوم الجمعة العظيمة . وكان يختار كنائس بعينها عبر القاهرة -ليست پروتستانتية بالضرورة- يعرف أن الفتيات الصغيرات تقدمن فيها عرضا تمثيليا موسيقيا للصلب . زوجته كانت تذهب بكثرة نسبية لكنيسة الحى ، لكن بهدف تكوين الصداقات لا أكثر .

كانت الدراسة المعتادة للفتيات فى تلك العقود الأولى من القرن العشرين ، دراسة نسوية تعادل الثانوية العامة الحالية ، تؤهلهن بالأساس لأشغال البيت كالطهى والحياكة وتربية الأطفال . كان حارس يحرص أن يأتى لابنتيه بالصحف والمجلات المتوافرة بمختلف اللغات ، ويشجعهما على شرائها والبحث عنها بنفسيهما . وكانت تلك التى يأتى بها هو ، تهتم غالبا بالموضوعات العلمية ، بالذات الخاصة بالصحة والتغذية . هذا من ناحية بحكم دراسة الابنتين ، ومن ناحية أخرى للثقافة العامة ولإيمانه الكبير بالعلم ، ومن ناحية ثالثة لشىء من الوسواس الصحى فى نفسه . كان صديقا جيدا لهما ، لكن مع كل ذلك كانت فكرة إقامة علاقة حب بشابين ، نقلة كبيرة لا يمكن توقع رد فعل الوالدين عليها . على أية حال قبل أن يكتشف أحد الرحلات السرية الإضافية للأختين ، أو يوشى بغيابهما أحد من أصدقاء أمهما بالكنيسة ، كان عبد الحميد المصرى وأرميا رمسيس قد تقدما بالفعل لزيارة بيتهما .

ذعر حارس غوطة . ما هكذا تخيل أبدا زوجى ابنتيه . أثرياء نعم ، متعلمان معا ، لكن ليس ثراء الريف ، وليس تعليم الزراعة . أراد لهما زيجات مدينية أكثر عصرية بكثير ، أطباء أو مهندسون مثلا ، أناس يعرفون أربع لغات على الأقل . ثم لم يعرف ماذا يفعل فى كون أحدهما مسلما . زوجته الأرمنية الحسناء ، كانت مشغولة فقط بالتدقيق فى وسامة الشابين ، وكأنها تعطى موافقتها ضمنا وسلفا . تصميم الفتاتين كان هائلا ، وكان لهذا وحده القول الفصل . واحدا تلو الآخر ظهر والدا الشابين فى مكتب حارس بالبنك المواجه لمبنى البورصة ، يطلبان التعارف والمصاهرة . حزن هو -وليس زوجته- لبعض الوقت ، لكنه فى النهاية سلم بالأمر . وبعد ذلك حين رأى ابنتيه سعيدتين مع زوجيهما ، وبدأ ظهور الأحفاد ، عاد هو أيضا سعيدا .

أما بالنسبة لماريلين فلم يخطر ببال أحد أن يطلب منها أن تغير ديانتها ، ما جرؤ أحد ، وما كانت لتفعل على أية حال ، لا لشىء إلا لأنها كانت تعتبر نفسها فوق كل الأديان ، بل فوق مسألة الدين برمتها .



وصلت للقاتل !

تستجوب الشرطة بواب عمارة نبيل ، فيثبت أنه كان مسافرا يوم الجريمة لأهله بالشرقية . تتجه الشكوك لنصر الله ، فهو الوحيد الذى يمكن أن يدخل الشقة بمفتاح . لا آثار عنف ، لا عداوات ، لا بصمات چيينية أو غير چيينية لأحد غيره ، غالبا السرقة هى الدافع . إذن ما سرق يعرفه شخص يعرف محتويات الشقة جيدا ، وهذا ينطبق على نصر الله وحده . يبكى نصر الله ويقسم بالمسيح والعذراء أنه برىء . لا أحد يصدق أن نصر الله ضئيل الجسم هذا يمكن أن يكون الجانى . ضهرى يقول أنا لى نظرية فى الناس وحتى لو نصر الله طول الباب موش هو القاتل . يوافقه

الجميع ، وتمر الأيام ولا حديث لهم إلا تخمين من القاتل . فكروا فى سعاة البريد والديليڤرى وما شابه حتى أعيتهم الحيلة . الوحيد الذى لم يبد مقتنعا جدا بتلك المقترحات هو ضهرى . رأيه -أو كما يسميها ' نظريته فى الناس '- أنه بمرور السنوات يصبح السعاة أصدقاءنا ، ثم أنهم أناس ذوى وظائف اعتادوا الكدح فى الحياة وتحمل المسئولية وليس سهلا أن يفكروا فى القتل .

فجأة ذات يوم يهب ضهرى من مقعده ويهرول لإدوارد صائحا طالبا الاطلاع على ملفات عملاء الشركة : ' عاوز أشوف صورهم فى البطاقات ' .

- ولكنها معلومات سرية .

فيرد بحزم : ' تحب أشاركك فى الشركة علشان ترضى توريها لى ؟ ' .

- لأ ، موش مستاهلة !

وينادى المحاسب تادرس ويطلب منه الملفات .

- إيه وصلت لإيه ؟

- وصلت للقاتل !

- مين ؟

- شاب طويل نحيف أسمر كان من حوالى شهر ييجى يقعد قدامنا أنا ووحيد . ما شفتهوش ولا مرة بيكتب أمر ولا بيكلم حد ولا حتى بيطلب مشروبات . بيتفرج على الناس موش أكتر ، ودلوقت اتضح أن ما لهوش حساب أصلا . كده أنا فهمت ليه هو كان بيقعد ورا كل الناس ، ووودنه على طول مع مكتب خدمة العملاء .

- طب وبعدين ؟

- موش عارف !



يا عيب الشوم على بنات الإنجليز لما يلطموا !

- تقصد أن أمك مسيحية ؟

- آى ، نعم !

- وماتت مسيحية ؟

قالها متعجلا القصة ، فزل لسانه ، لكن ضهرى يرد ضاحكا : من أخبرك أنها ماتت ؟

- لم تمت ؟ أقصد هل لا زالت على دينها ؟ أنا آسف . آسف بجد . أتمنى لها الصحة وطول العمر .

- أختها التوأم ، خالتى ، هى التى ماتت . عدة أيام قبل حضورك إلى هنا . رمسيس أغلقت ثلاثة أيام ، ولم يحدث أن أغلقت أبدا ، فتلك مخالفة قانونية ، فقط نصر الله يعتذر لو أتى أحد على غير المتوقع . لكنك كما ترى كل الناس هنا يعرفون بعضهم البعض ولم يحدث أن اشتكى أحد .

- لكن ما الذى يضحكك ؟

- يضحكنى ما فعلته أمى يوم الخميس الماضى . رجعت من هنا لقيت الدنيا مقلوبة . خرجت علشان تروح السوق ، عندها بدل الواحدة عشرة يخدموها ، لكن بتصمم تجيب حاجتها بنفسها . فوق التمانين ومصممة تشترى هى كل حاجة . فى السكة قالت أمر على جارتنا أم منصور آخدها معاى . هناك اكتشفت أنها نازلة من غير چيپة . هى بتلبس أسود من يوم پاپا ، خرجت بفستان النوم الداخلى الحريرى الأسود فوقه چاكت أسود ، لكن ما فيش چيپة . جايز ما حدش يلاحظ ، وغالبا ما حدش لاحظ . لكن هى فضلت تلطم وتلطم وتلطم . وأم منصور تهدى فيها ، ما حصلش حاجة يا ماريلين ، ما حدش خد باله يا ماريلين . وهى تنتحب : يا دى المصيبة ! كان ها يحصل إيه لو رحت السوق

على طول ! أنا ضعت ! أنا عاوزة أموت ! وهاتك يا بكا لساعات وساعات . هديتها وأنا بأكتم ضحكتى . حاولت أقلب الموضوع هزار : ده أنت عملتى أكتر من كده فى شبابك ! يا عيب الشوم على بنات الإنجليز لما يلطموا ! زاد الصراخ . إلى أن فهمت أنها حانقة ليس على ما ارتدت ، إنما على وهن عقلها . أنا خلاص خرفت . أنا عاوزة أموت . أخدتها لدكتور أعصاب ، وإداها مهدئات ، لكن حالتها النفسية لسه تعبانة .

ذهب ضحك ضهرى ، وعاد الجميع للتركيز فى الأسهم ، إلى أن توقفتهم بعض العمليات الكثيفة على أسهم الدواجن ، فبادر وحيد بالسؤال :

– إيه قصة غرامك مع سهم الدواجن ؟

عاد ضهرى لوحيد : فاكر حكاية إنفلونزا الطيور من كام سنة ؟ بعت مزرعة الدواجن بتاعتى وبدأت أشترى أسهم فى مصر للدواجن . الكبير كبير ، والصغيرين ما لهومش مستقبل . وكنت عارف أن الموضوع طالما ما فيش مصل ، وما فيش دبح فى المزارع الصغيرة أو محلات التجزئة ، أن الشغل ها يقتصر على الشركة الكبيرة . ولغاية ما أخدت كل الأسهم إللى أنا عاوزها ، كانت فلوسى تضاعفت ، بدل ما كنت خسرتها لو استمريت فاتح المزرعة . صحيح تضاعف نظرى ، أرباح راسمالية يعنى . وصحيح سعر السهم كان لازم يرجع لطبيعته . بس موش ده المهم . المهم أنى أبقى جزء من كيان كبير . وفعلا بعد شوية صدرت قوانين تقصر المرابى والمسالخ على الشركات الكبيرة ، الشركة رجعت تكسب ، والسهم ارتفع جدا تانى .

– أنا عارف دى وعارف رأيك فى الشركات الكبيرة (ضاحكا : إللى زى منى لما تعقل !) . سؤالى هو ليه تستثمر من البورصة . بفلوسك كان ممكن تبقى شريك ستراتيچى وعضو مجلس إدارة ، ولك رأى فى الشركة بخبرتك .

– هم بيطالبونى بكده ، بيقولوا لى على الأقل ابقى ممثل صغار المساهمين يا أخى . لكن أنا موش عاوز . زهقت . عاوز أرتاح شوية . آجى أتفرج على الفيلم ده كل يوم .

ويتدخل ونس مرة أخرى : السينما التذكرة دلوقت بخمسين جنيه . هنا الإثارة ببلاش !

– متأكد أنها ببلاش ؟

– قصدك أنى بأخسر ؟

– قصدى أنك هنا ما بتتفرجش غير على فيلم واحد ، فيلم ' الأبطال ' بتاع فريد شوقى ؟

– آه ! ' ضاعت فلوسك يا صابر ! ' ؟ يا سيدى موش مهم . اخسر فلوسك ولا تخسر صحتك !

– أنت عاوز مليون سنة علشان تخسر صحتك دى كلها !

– ما تستعجلش ، هى البورصة إيه غير تهذيب وتأديب وإصلاح !

شاركهما وحيد الضحك ، لكنه فضل إنهاء الحوار الذى بدأ يتحول لمنابذة . وجد ونس يتأهب للرد فرفع صوته ليجارى طبقته الجهورية : الفيلم ده ؟ ! لك حاجات يا حاج !



الأرض بتتكلم عبرى !

– أبوى دخلنى كلية الزراعة علشان أمسك المزارع بتاعتنا . كنت بأطلع الأول ، تقديراتى ما حصلتش فى تاريخ زراعة القاهرة من ساعة تأسيسها ، على الأقل لغاية ما اتخرجت أنا . جايز بعد كده ابتدوا يدوا درجات بالهبل . كان ممكن أتعين معيد وأبقى زى ما عمل إخواتى الصغيرين بعد كده . يسرى بقت أستاذ تجارة والنهارده نائب رئيس السى آى بى ، زى ما أنت عارف . مجدى بقى أستاذ اقتصاد والنهارده وزير الاستثمار . عارف إيه إللى خلانى أرفض أبقى معيد ؟

– مزارع الأسرة ؟

– إطلاقا ! إللى شفته وأنا طالب فى المزارع بره . قلت كلية الزراعة دى ما علمتنيش حاجة أصلا . أنا أمى زراعة ، وها أخطط مستقبلى على هذا الأساس . وقررت أحصل على دكتوراة الزراعة التفصيل بتاعتى أنا . ومن هنا بدأت ألف العالم ، أزور المزارع ومنشئات الرى ، وأشوف الزريعات والتقاوى الجديدة ، طرق التصنيع والتخزين ، كل حاجة . يوم ما عملت مزرعة الدواجن كانت بأحدث تكنولوچيا موجودة فى العالم ، ولا تشببها أى مزرعة فى مصر ، كبيرة أو صغيرة . يا وحيد يا صديقى ، العلم ! العلم ! العلم !

ويستدرك متذكرا شيئا : على فكرة جايز تعرف أن ما فيش دلوقت حاجة اسمها مزارع الأسرة ، مزارعى أنا ما فيش غيرى . أبونا قسم الأرض علينا إحنا التلاتة بالتساوى . يسرى لما اتخرجت قررت تبيع ، ووافقها مجدى . كان لسه طالب ، وكل طموحه يبقى زيها أكاديمى فى الجامعة . باعوا كل نصيبهم . اشتريتها منهم ، إللى قدرت عليه بفلوسى قدرت ، والباقى بقرض من البنك . ما كانش فيه مشكلة فى ضمانات القرض ، الأرض الأصلية بتاعتنا ، زائد أرضهم الجديدة ، كانت تغطى بسهولة جدا . المشكلة أنى كان لازم أسدد ، ومن هنا دخلت فى مشاريع زى الكيبيت والدواجن وغيرها ، وربنا وفق وسددت ، وما خسرناش أى جزء من الأرض . يسرى ومجدى قالوا إحنا موش بتوع زراعة ورعاية أرض ومواشى . الكلام ده كان بعد اتفاقية السلام فى ١٩٧٩ ، وحتى قبل انسحاب إسرائيل . راحوا اشتروا معظم أرض الشريط الحدودى مع إسرائيل . صحرا وبرخص التراب ، وأغلى ما فيها كام شجرة زيتون أثرية . قالوا دى أحسن استثمار . فى يوم م الأيام لما يتعمل سلام بجد ، المناطق دى ها تبقى أغلى من وسط القاهرة ، من كورنيش القاهرة ، وها نعمل فيها إللى ها نقدر عليه من مشروعات صناعية وتكنولوچية . (ثم متنهدا :) هييه ؟ أحلام ! إنما كله على الله . جايز أولادهم يستنفعوا بها .

– أنا عارف الحكاية دى ، وقلت لمجدى إنى معجب جدا بإللى عمله هو وأخته . على الأقل بيبصوا لقدام فعلا . مرقس بيشترى كورنيش القاهرة المطل على النيل القديم ، وهما اشتريا الكورنيش المطل على المستقبل .

ويغنى ونس : الأرض بتتكلم عبرى ! الأرض ، الأرض ، الأرض ! وفجأة يوجه ضهرى سؤالا لوحيد ، وكأنه يستدرك عن رأى قاله : أنت عارف أحمد شوقى قال إيه عن أمريكا ؟

– هو قال حاجة عن أميركا ؟

– (بحزم :) طبعا ! قال : صلاح أمريكا للأخلاق مرجعه !

– (يضحك :) طيب ! للأخلاق ، موش للعلم .

– برضه الأدب فضلوه عن العلم .

– ارسى على بر مرة من فضلك ! ... أنا شخصيا لا يعنينى لا العلم ولا الأخلاق ، بقدر ما تعنينى الغاية التى وجدا أساسا من أجلها : التقنية . لذا أنا أفضل مقولة زكى نجيب محمود المادية جدا ، الأرسطية جدا ، والرائعة جدا فى طريقة إعادة صياغتها لتعريف فرويد للحضارة : إنما الأمم التقنيات ما بقيت ، فإن هم ذهبت تقنياتهم ذهبوا !

– أنت لا تفهم ؛ إنه يقرع العرب !

– أنا أفهم أن اليسار طالما أساء لهذا الرجل وأقصاه عن معسكر المادية لحساب ماديتهم الماركسية الزائفة .

ويبدأ ونس فى تذكر بعض الشعر والتغنى به : ‘ إنما الأمم الشركات ما بقيت ، فإن هم ذهبت شركاتهم ذهبوا ! ’ . ولا يملك روميو الإ التعديل عليه كالعادة : ‘ إنما الأمم الشرهات ... ’ .

ولبرهة يجتر الكلام السابق ، ويتساءل فى إعجاب : دكتوراة تفصيل ؟ ! لك حاجات يا حاج !



هل أنا بحق الجحيم فى حاجة لأن أكون متدينا كى أؤمن بالاقتصاد الحر ؟

مصطلح اليمين المسيحى نفسه ينطوى على تناقض فاضح . لا يمكن للمسيحى الحقيقى أن يكون رأسماليا حقيقيا والعكس بالعكس .

أحيانا تكون هناك أشياء واضحة للعيان ، لكن لا يراها أحد :

الرأسمالية التنافسية تجد سندها العلمى -بل هى حرفيا- الداروينية التى يعتبرها المتدينون أعدى أعدائهم ،

والاشتراكية فى تكافلها وإنسانيتها ومساواتها بين الناس لا تخرج فى كثير أو قليل عن المسيحية !

عرف كل عملاء رمسيس عن وحيد كونه شخصا هادئ الطباع لأبعد مدى . لذا كان الأمر أشبه بالصدمة ، حين وجدوا ضهرى (وضهرى بالذات) ، محل نوبة غضب فجائية وغير متوقعة من وحيد . كان قد أشار لمن يسمون فى أميركا بالمحافظين الجدد ، وبعضهم يسمى باليمين المسيحى ، ثم سأله عن كيف يكون علمانيا كما هو واضح من كلامه ومن كتاباته ، وفى نفس الوقت مؤمنا بحماس بالاقتصاد الحر . ثار وحيد غاضبا بحدة ، وقال من بين ما قال : ' هذا خلط خبيث وسخيف . هل أنا بحق الجحيم فى حاجة لأن أكون متدينا كى أؤمن بالاقتصاد الحر ؟ مصطلح اليمين المسيحى نفسه ينطوى على تناقض فاضح . لا يمكن للمسيحى الحقيقى أن يكون رأسماليا حقيقيا والعكس بالعكس . أحيانا تكون هناك أشياء واضحة للعيان ، لكن لا يراها أحد : الرأسمالية التنافسية تجد سندها العلمى -بل هى حرفيا- الداروينية التى يعتبرها المتدينون أعدى أعدائهم ، والاشتراكية فى تكافلها وإنسانيتها ومساواتها بين الناس لا تخرج فى كثير أو قليل عن المسيحية ! ' . وبعد أن صمت لبرهة عاد ليواصل بذات الحدة : ' چورچ دبليو . بوش ، الرئيس الذى كثيرا ما أطلق عليه هذا المصطلح لم يكن شخصا مسيحيا حقيقيا ، مع ذلك فالجزء المسيحى الوحيد فيه -وهو الطيبة وحب الخير والإحسان- تناقض على نحو واضح مع مبادئه الرأسمالية ، وأعطيك أمثلة : ١- منح أفريقيا معونات طائلة لاعتبارات أسماها بالإنسانية ، بينما كان مبدأه الأصلى الرسمى المعلن أن لا معونات إلا لتنمية مؤسسات رأسمالية تنافسية . ٢- دعم كوبونات الغذاء لفقراء الأميركيين بينما كل الرؤساء قبله -بمن فيهم الديموقراطيون- كانوا يعتبرونها برامج رفاه اشتراكى أوروبى لا يصح تطبيقها فى أميركا . ٣- برنامج ' لا طفل يترك خلفا ' التعليمى ، تناقض صارخ مع مبدأ الخصخصة . ٤- برامج قروض الإسكان التى ... ' .

فكر ضهرى لوهلة أن يمتص غضبة وحيد بالتحول مثلا لسؤال عن أسهم شركات الاستثمار التى أضيفت مؤخرا ، والتى يشك الكثيرون فى جديتها ، لكنه آثر المواصلة . آثر الدخول مباشرة للب النقاش الذى أراده فى الأصل ، والمفارقة أن الدين لم يكن جزءا أساس منه ، لكنه على ما يبدو أخطأ اختيار ذلك المدخل : ' لعلمك أنا لا اشتراكى ولا يوتوپى ولا أومن حتى بمجتمع الأخاء الدينى ، ولا كل الأونطة دى . لكن كلامكم أحيانا بيبقى زيادة خالص . ممكن أفهم كتير من كلامكم أنتم يا بتوع الرأسمالية المتوحشة . (مشددا :) أفهم موش أوافق ، خد بالك ! أفهم الضرايب الـ flat ، أفهم حتى الضريبة متساوية على الرأس موش بالنسبة خالص ، أفهم حتى ما يبقاش فيه ضرايب أصلا . أفهم الفايدة صفر زى اليابان . أفهم حاجات كتيرة . أفهم تخصخصوا الهرم تخصخصوا النيل تخصخصوا الشوارع ، تخصخصوا حتى الخصخصة نفسها ، كل ده موجود بره فى بعض حتت . أفهم أى حاجة . أفهم حتى أن ممارسة الطب تكون من غير رخصة من الحكومة ، والمريض هو المسئول عن اختياره وعليه يسأل الأول ، وكل شىء يخضع لسمعة الشخص ، أو لعضوية الطبيب فى جمعيات تدى الزمالة ، لو زمالة أمريكانى أو إنجليزى أروح له ، لو عضو نقابة الأطباء المصرية ما فيش داعى ... إلخ . كل ده ممكن أفهمه ، لكن فيه حاجة موش قادر أفهمها بتاتا : إزاى العربيات تبقى من غير رخصة ؟ متهيأ لى أنتم عليكم عفريت اسمه الحكومة وعاوزين تلغوه بأى طريقة . يعنى عاوز مثلا العربيات تمشى تطلع دخان زى ما هى عاوزة ؟ ' .

- لأ طبعا ، بس السوق هو إللى يحل كل حاجة . كل مشكلة السوق ها يحلها بنفسه من غير تدخل حكومى . هى دى الفكرة .

- إزاى ؟

- المتضرر يؤسس جمعية لحماية المستهلكين أو فى الحالة دى سميها مثلا جمعية مستنشقى الهواء ، ويرفعوا قضايا مدنية ويشردوا أصحاب العربيات البايظة ، ويستولوا على كل ممتلكاتهم . القضاء المدنى قادر على حل كل شىء ، ولا داعى للقانون الجنائى مطلقا . حتى فى حال حدوث اختلالات أمنية ، الشركات الكبيرة تستأجر شركات شرطة وشركات جيش قطاع خصوصى وتظبط الأمن .

- طب كمان تلغوا رخص السواقة ؟ مستحيل . أنا عندى بنت مجنونة كلكم عارفينها . من كام سنة قررت تنتحر . بدل شوية الحبوب الخايبة إللى أخدتها ، كان ممكن تاخد عربيتى ، وتطلع على الطريق الصحراوى وتتمرجح يمين وشمال وتموت ألف واحد معاها .

– سؤال وجيه . بس هل القانون الحالى أو الحكومة هم إللى منعوها من كده . اسألها ، ها تقول لك فكرة هايلة ، ولو كانت جت فى بالى كنت عملتها . أو جايز تقول لك أنا عاوزة انتحر وبس ، موش عاوزة أقتل حد . أى حاجة إلا أنها ها تقول لك ' أصل أنا موش معايا رخصة ! ' . صح ولا غلط ؟

– كلام غريب وغير مقنع ، لا أكثر ولا أقل ! (الحاج الذى يمكن بسهولة تشتيت اهتمامه بعيدا عن الموضوع الأصلى ، يضحك :) على فكرة ، أنا عارف منى ها ترد تقول إيه بالظبط !

– (مبتسما بفضول :) إيه ؟

– ها تقول أنتم صدقتوا أنى عاوزة أنتحر بصحيح ؟ تفتكر واحدة ببجاحتها ممكن ترد تقول إيه ؟

ووحيد مستطردا وكأنه غير معنى بحاشية الكلام : ' فى مصر بيجى عشرين حزب ليبرالى وخمسين جورنال ليبرالى وعشر قنوات ساتيلايت ليبرالية ، هم بيسموا نفسهم كده ، لكن تعال حلل كلامهم ، بالظبط ها تلقاهم نفس الأفكار الاشتراكية والقومجية والإسلامية . كلهم بلا استثناء واحد على يسار الحكومة ، وكلهم بلا استثناء واحد يجرها فى الاتجاه الخطأ ، تماما كبقية المعارضة . لو كل صحفى من كل جورنال ليبرالى مزعوم كان اشترى نسخة من كتاب دراكر إللى كنا بنتكلم عليه ، كان زمانه فى الطبعة العاشرة ، موش خمسين سنة ولسه الطبعة الأولى ما خلصتش . الليبرالية الحقيقية ما حدش يقدر عليها فى مصر ، ولا حد فكر فيها أصلا . الليبرالية إللى بجد معناها أكبر قدر من الحريات ، ما حدش ينط فى جيبك باسم الضرايب ، يقول أنا عارف مصلحتك فى صرفها أكتر منك ، وما حدش ينط فى سريرك باسم الأخلاق ، يقول لك أنا عارف الصح أكتر منك . ممكن توجد حكومة ، لكن تكون صغيرة جدا ومحدودة النفوذ جدا . ممكن تكون لها بعض الوظائف الأمنية أو التنظيمية . ممكن تساعد فى تسريع مشاريع تقنية معينة لا تبدو مربحة فى البداية . جائز كمان كتير ما يعرفوش أن فريدمان عدو الضرائب رقم ١ ، هو إللى اخترع فكرة تحصيل الضريبة من المنبع ، لكن طبعا ده كان أثناء الحرب ، ظروف استثنائية يعنى . المهم ، جايز حد يطلع يقترح آليات السوق يظبط نفسه بنفسه فيها ويمنع التضخم ، وجايز تطلع أفكار للأمن أو لرعاية البحوث غير المربحة تقوم بها الشركات من غير حاجة خالص للحكومة ، وبحوث زى دى موجودة حاليا فى الشركات على أية حال ، بس كل المطلوب أنها تغطى كل حاجة بحيث تلغى الدولة . لا حاجة للدولة حتى فى إصدار النقود ولا رسم السياسة النقدية ، وهذا أمر نشأت عليه أميركا وتطبقه منذ قرون : تحالف من البنوك الكبرى التجارية والاستثمارية يقوم بالأمرين . وبالفعل هو يؤدى مهمة ممتازة ، ولو لى رأى شخصى فهو فقط أن تصبح تدخلات السياسة النقدية أضيق نطاقا أكثر وأكثر ، وأن تدور قرب سعر الفائدة الصفرى ؛ ٢ ٪ مثلا لمكافحة التضخم ، وصفر ٪ فى حال بروز خطر الانكماش ، وبشرط طبعا أن تتحدد فى كل الأحوال بطريقة طبيعية ، أى بقوى العرض والطلب ما بين الإدخار والإقتراض . (ثم يضحك :) هذا إن لم يكن الأفضل من هذا وذاك أن نعهد للحواسيب الذكية بتحديد سعر الفائدة وتتبعه تلك البنوك باعتباره قوة العلم ولسان الصالح العمومى لكل الاقتصاد والمجتمع ' .

– أيوه إنما الغلابة يروحوا فين فى الغابة بتاعتك دى ؟

– يروحوا عند إللى خلفوهم ، يسألوهم إيه كان مشروعهم من ورا خلفتهم . إللى خلفهم غلط يتحمل مسئوليتهم . أما لو أساءوا للمجتمع ، فيعاقبوا . برضه القضاء المدنى ممكن يوصل للإعدام ، لو المحكوم موش قادر يدفع تكاليف السجن ، يعدم . أنا موش عاوز نروح بعيد فى الخيالات . دايما ها تكون فيه جمعيات خيرية ، وتبرعات ، وها تخفف عن الضعفاء . المهم فقط أن نفصل بين ده ، وبين القوانين القاعدية للاقتصاد ، إللى لا بد يبنى على العلم المجرد ، بدون أى عواطف أو إنسانيات ، فقط على المنافسة وحرية السوق . أنا شخصيا موش مهتم بالسيناريوهات المتطرفة إللى شاغل نفسك بها . موش مشكلة تكون السواقة برخص ، المهم المبدأ نفسه . قصدى أن مثلا البروفيسور حايك (ضهرى مقاطعا : أيوه ، النمساوى !) ، تنبأ من قبل ما تتطبق الشيوعية فى أى حتة ، وقال أن مصادرة الحكومة لحرية السوق ، ستؤدى لمصادرة كل الحريات . كل الدنيا هاجت عليه ، وقالوا إيه العلاقة ؟ وإن ده كلام تخريف . لكن فى النهاية رفعوا له القبعة ، وقالوا أنه تنبأ عشرين سنة لقدام ، وبقى مسلم به أن حرية الاقتصاد هى أم كل الحريات . الموضوع ببساطة نفتح الشباك ولا لأ . الحرية هى الحرية . زى ما التخلف لا يتجزأ ، الليبرالية لا تتجزأ . الحرية الاقتصادية والحرية الشخصية جناحان لطائر واحد ، وجهان لعملة واحدة . أقول لك المهم المبدأ نفسه ، موش مشكلة تكون السواقة برخص ، لكن المهم إيه إللى ها ييجى عليه الدور بعد كده ؟ أنا بأقول الطبيعة هى أصل كل الحريات وهى القانون

الأوحد . المادة هى الأم ، والإنسان ولا حاجة ، حشرة فقدت كل أرجلها ولم يتبق لها إلا اتنين ، أو حتى حسب فيلسوف جايز سمعت عنه اسمه ضهريوس المصرى (سمعت عنه ؟ !) ، لها رجل واحدة !

– (بفخر :) أنت واخد بالك ؟ (ويردف :) آه ! كالعادة ، محاضرة فى أرسطو . بأكلمك فى رخص العربيات ، وأنت ... (وفجأة بصوت مرتفع مستغرب :) أرسطو تانى ؟

– (ضاحكا :) أرسطو إلى الأبد ! بعدين استنى هنا ! فقراء إيه وغلابة إيه ؟ حيلك ! حيلك ! موش أنت إللى كنت قلت كفاية ٨٠٠ ألف مصرى علشان يطلع نفس الناتج الداجن الإجمالى ؟

يهدأ ضحكه وبعد قليل يتذكر أن من الواجب عليه يشرح لضهرى سر غضبته الأولى ، اليمين المحافظ . يقول إن الأقليات الدينية طالما عدت تقليديا جزءا من الحزب الديموقراطى . وإن ريجان هو الذى أتى بهم للحزب الجمهورى يوم أتى بكل أميركا إليه . وإن چورچ دبليو . بوش الذى طالما وصف برأس اليمين المسيحى ، كان محظورا هو نفسه من دخول كنيسة بلدته . ويضيف أن تحريضات اليسار الطبقية الرخيصة هى التى تسد كل السبل أمام اليمين لاكتساب الأصوات لتمرير برنامجه الاقتصادى الأشبه بالدواء المر ، إلا من خلال الدفاع عن الدين والأخلاق . وأضاف أنه شخصيا لو خير مثلهم بين الحرية الاقتصادية وكل بقية الحريات لاختار الأولى ، لأنها المادة ، وبالتالى هى الأم التى ستولد منها حتما يوما كل بقية الحريات . إن المشكلة تكمن فى الانتخابات ، ولو حدث يوما وعدنا لتعاليم أرسطو وألغيت الانتخابات ، فلا أعتقد أنك ستجد يمينيا واحدا يرفع شعار الدين . دائما أبدا الأرستقراطية هى ميثاق الاستنارة والتحديث ، وليس الخرافة والظلام ...

حبس وحيد بقية العبارة ، وهى أن الدين لم يكن يوما إلا سلعة للمحتاجين والفقراء ، وعلى أية حال هز الحاج رأسه موافقا ، ومعلقا بما يعد تناسيا لأصل الموضوع ، ونسيانا لأن هذا قد يخالف دفاعه هو نفسه عن الفقراء قبل لحظات : ' فعلا ، طول عمرنا نعرف أن الفقراء هم بؤر الإجرام ، إلى أن ظهر الشيوعيون وحاولوا إقناعنا بشىء آخر ! ' . ثم مرة أخرى يغير كل شىء منقلبا هذه المرة إلى الفكاهة : ' يبدو أنك أنت الساذج : أساسا تعريف السياسة هى أن تقول الشىء وتفعل عكسه ، هذا حتى تحصل على أصوات من هنا ومن هناك ! ' .



حلو أوى شووز النايكى إللى أنت لابسه ده يا حاج !

مرة أخرى اجتر وحيد الحوار ، ولم يستغرب الكلام عن الكبير والصغير ، لكنه استغرب كلمة زهقت . إن بها وترا مسه هو من الداخل ، فعاد يستدرج الحديث مرة أخرى :

– خسارة تعتزل يا حاج . أنت لسه شباب . جايز حتى أصغر من إدوارد ؟

الحاج كان يجتر بدوره شيئا آخر ، وينفجر غضبا : ' إيه إللى أنت قلته عن الغلابة ده ؟ يعنى إيه يروحوا للى خلفوهم ؟ عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟ ها أجيب مرزبة معاى ، وها أظبط لك بها النقر إللى محشية وساخة فى دماغك دى ' .

وبطيبته يعود الحاج متذكرا سؤال وحيد ، ويضحك : أنا شباب ؟ أنا أكبر من إدوارد بـ ١٢ سنة . أنا مواليد ١٩٥١ وهو ١٩٦٣ . جوز خالتى كان عنده مشكلة إنجاب ، أو حاجة زى كده . بعد إدوارد بتسع سنين جابوا مينا ، وكانت خالتى قرب الخمسة أربعين . (ثم مشيرا لونس :) البغل ده هو إللى من مواليد ١٩٥٥ !

– زيى يعنى .

– (وكأن الدعابة لا يمكن تفويتها :) أنت بغل ؟ ... غريبة ! أنتم فعلا مواليد سنة واحدة ؟ (ضاحكا مرة أخرى :) وهو يقول لكل الناس يا ابنى ويا بنتى ، وأنت بتقول لكل الناس يا عم فلان أو يا عمو أو يا مدام أو يا ست الكل . بصراحة كانت حاجة ملفتة لما لقيتك من أول يوم ما بتقولش للواد نصر الله غير يا عم نصر ، وبعدين لاحظت أنك بتقولها للكل !

ربما لا يعلم أنى أخشى أن أنسى أسماء الناس ، أو بالأحرى لا أحب أن أنادى أحدا بأسمه ، لعلى فى الحقيقة لا أحب التقرب بشدة من أحد . هنا قاطعه ونس متسائلا : أنت شهر أيه يا وحيد ؟

– أغسطس !

– أنا قلت كده برضه ، أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة ، أنا فبراير !

لم يهتم أحد بالملحوظة التى يعرفون حجم خطئها ، ويعود وحيد لحوار ضهرى : بس أنت ما يبانش عليك خالص يا حاج ! ٥٩ سنة ؟

لم يرد الحاج . إن ضهرى على العكس من مزاج ابنته منى يحب وجهها العاقل ولا يحب وجهها المجنون . هذا ليس لأنه عاقل أو يحب العقل ، إنما العكس بالضبط ؛ هو شخص يشعر بالشباب الدائم ولا يفكر فى تقدم العمر ، يمارس الرياضة ولا يرتدى إلا الأحذية الرياضية وهى إحدى العلامات المميزة لمظهره ، وفى شبابه كان منطلقا مغامرا لأبعد الحدود . كبر ابنته وتعقلها لا يسبب له أى ضيق أو ربما لا يفكر فيه أو يستشعر أصلا مدلوله من حيث مرور الزمن . فقط شىء واحد يجعله يشعر بالكهولة : أن تظهر منى جموحا لا يقوى هو على الإتيان بمثله أو لم يصل إليه فى شبابه . بمعنى آخر المعادلة معكوسة هنا : منى الصغيرة تشعره بالكبر وكلما كبرت يزول عنه هذا الشعور !

يستغرب وحيد شرود ضهرى النادر من نوعه ، فيعيد الإلحاح على السؤال : ' حلو أوى شووز النايكى إللى أنت لابسه ده يا حاج ! ' .

– طبعا لا يمكن ألبس غيره . حتى لو ها ألبس بدلة سموكنج ، ما استغناش عنه . بيخليك ضامن رجلك تنزل مظبوط على الأرض . لو حصل ولبست جزمة عادية رجلى تتلوى تحتى ١٠٠ مرة فى اليوم . هو بيحميك من شر نفسك .

– يا سلام ! للدرجة دى ؟ تعرف أن نايكى دى هى أول رمز للحداثة فى بلاد كتير ؟

– طبعا أعرف ، أول سلع عرفها العالم مكتوب عليها ميد إن تايلاند ، أو ميد إن ڤييتنام ، وغيرها . وأولاد الذين يقولوا عليها بتستغل الشعوب الفقيرة ، وبتضر صحتهم ، وبتلوث البيئة . هم كانوا عايشين أصلا علشان يكون عندهم صحة ولا بيئة ؟ !

– ما كنتش متخيل أنك فخور بالنايكى أوى كده .

– أنا فخور بحياة الريف ، الهوا النضيف ، الخضرة ، والكورة !

– كورة ؟

– طبعا كل يوم جمعة لازم ماتش كورة مع عيال المنطقة بتوعنا .

– يا سلام ؟ !

– مصيرك تزورنا وتشوف !

– (يجتر الكلام السابق :) يحميك من شر نفسك ؟ ! لك حاجات يا حاج !



هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ فى هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ !

لا تقل لى إنك تزدرى وتحتقر لكنك لا تكره ، إذ أن الكراهية تأكل الروح .

هل تزدرى وتحتقر الصراصير والجرذان أم تكرهها ؟ يا أستاذنا ، قليل من الكراهية قد يسمو بالروح ويطهرها !

بالمثل الحياة الواقعية لا تسير طبقا للمنهج العلمى ، وقليل من التطرف فى المواقف على حساب الدقة العلمية ،

هو ما سيأتى بنتائج واقعية على الأرض ، لأنه سيجذب أولى القرار ونقطة الوسط ككل نحو آرائك درجة أو درجتين !

لا تزال كلمة ' زهقت ' ترن فى أذن وحيد : إنما ليه بتقول زهقت م الشغل ؟

– كده ، البنى آدم موش ممكن يشتغل أكتر من ١٠ سنين فى نفس المهنة . موش قالوا كده فى كتاب ' صدمة المستقبل ' ؟

– أنت قريت صدمة المستقبل ؟ ده من سنة ١٩٦٨ !

– أنا قريت تقريبا كل ما كتب بالعربى أو ترجم للعربى !

– أوه ! بس الكتاب اتكلم عن إعادة التدريب ، عن حاجة إجبارى بسبب تطور التقنية . ما قالش بعد ١٠ سنين تغير تغير وظيفتك بمزاجك .

– أنا إللى بأقول .

– على فكرة أنا اتأثرت كتير بصدمة المستقبل ، وإن كان توفلر ككل ما عدش يعجبنى . بقيت بأسميه إشتراكية إليكترونية .

– عارف ، قريت المقالة دى . إنما بتسأل ليه عن عمرى ؟

– أنا ما كنتش بأسال عن عمرك ، أنا كنت بأسال عن ليه زهقت . الشعور ده عندى بالظبط ، وتقريبا زى ما أنت شايف فكرت زيك وعملت زيك .

– يعنى أنت كتبت بحريتك متعمد علشان تسيب الوظيفة ؟

– أول مرة واحد يقول لى حاجة زى دى !

– أنا متابع كويس . أنت وغيرك . وحسيت ساعتها أنك بدأت تتغير . تبقى أكتر حدة .

أوه ! إنها أنت مرة أخرى ! هالة الصغيرة المتهتكة ! لماذا لا يريد شبحك أن يتركنى ؟ لطالما صرخت فى وكأنى طالب عندك ولست رئيسك : يا أستاذ ، هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ فى هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ ! لا تقل لى إنك تزدرى وتحتقر لكنك لا تكره ، إذ أن الكراهية تأكل الروح . هل تزدرى وتحتقر الصراصير والجرذان أم تكرهها ؟ يا أستاذنا ، قليل من الكراهية قد يسمو بالروح ويطهرها ! بالمثل الحياة الواقعية لا تسير طبقا للمنهج العلمى ، وقليل من التطرف فى المواقف على حساب الدقة العلمية ، هو ما سيأتى بنتائج واقعية على الأرض ، لأنه سيجذب أولى القرار ونقطة الوسط ككل نحو آرائك درجة أو درجتين ! الملح والفلفل ليسوا طعاما لكن الطعام لا يستغنى عنهما ! دائما ما تربكينى بمثل هذا الكلام ، لكن لدى الرد جاهزا : نعم أعلم أنك لست بتائهة بعد-حداثية كبقية جيلك وأنك صاحبة مبادىء كبيرة ، لكنك دون أن تشعرى تنتمين لجيل عملى بأكثر عما يجب ، والبراجماتية تغلب عليكى من حيث لا يجب . سماء طبيبة وسأسألها غدا إن كان إمكانى العيش بدون ملح أو شطة أم لا ، وسوف أثبت لكى أيتها المغرورة أنكى لا تفهمين الحياة أفضل منى !

– تفتكر أنى كنت حاد بجد ؟ كل تصورى أنه كان كلام علمى موضوعى وهادئ .

– أنا حسيت غير كده . أنا حريف قراءة ، ولى إحساس بها . (ويشرح :) القراءة فى دمى من صغرى . فى الأرياف على أيامنا كان تقريبا ما فيش تسلية تانى . لما رحت القاهرة للدراسة استمريت أقرأ . بعد كده ، أنت فاكر هى إيه وظيفة صاحب مزرعة دواجن أو بستان فواكه . البداية بس هى إللى صعبة . إنما بمجرد ما تطوع العمال والملاحظين على أسلوبك ، تبتدى ترتاح . ثم إن الدواجن موش حاجة هاى تك يعنى ! طول النهار قاعد تحت شجرة . العيال ييجوبى بالشاى والعصاير . كل كام يوم تلقى نفسك لازم تعقد صفقة ، شراء لوازم أو بيع منتج . عدا ذلك كرسى خيزران فوتيه هزاز مريح ، وترابيزة صغيرة خيزران برضه ، وكتاب ، ولما أتعب أقوم أمر ع الشغل . دى كانت حياتى سنين وسنين . دلوقت إللى بقيت صايع . وقت كتير جدا بيضيع فى مشوار مصر الجديدة كل يوم .

لم ينهض من كان يحدثه مع انتهاء الجلسة ، إنما راح يجتر الكلام السابق : مرة كل ١٠ سنين ؟ ! لك حاجات يا حاج !



أنا إللى قتلته !

ينهار إدوارد : ' أنا إللى قتلته ! ' . ويحاول ضهرى أن يحمله على الكلام .

كانت الأيام قد مرت ، وقابل ضهرى نصر الله فى السجن وسأله هل كان لدى نبيل أشياء ثمينة ، أو نقود ، فنفى . تذكر تلك الصكوك . ذهب للنيابة وطلب أن يسمحوا بإعادة تفتيش الشقة من أجلها . اتضح أنها مفقودة فعلا . توسط ضهرى لدى أخيه الوزير ، كى يأتيه من البورصة بأسماء أصحاب الصكوك الورقية .

– دى مسألة تتوقف عليها حياة إنسان .

– أيوه ، النيابة ممكن تجيب أمر قضائى وتاخد البيانات إللى عاوزاها .

– أنا موش غاية عنى سكة النيابة والمباحث ، أنا لى سكك تانى .

– أنا بأخاف من سككك دى .

– أنت عارف كلها فى الحق ، وطول عمرى ما عملت مشكلة أو خالفت القانون .

– أيوه بس مشكلتك دى صعبة شوية . لازم تلف على إدارات حفظ الأسهم فى كل البنوك والشركات إللى عندها حفظ أسهم ، وتشوف كل شخص أودع صكوك .

لكن أخيرا يرضخ بضجر : بص : أنا ها أكلم لك البورصة ، وها أشوف يقدروا يعملوا لك إيه .

' أنا إللى قتلته ! أنا السبب . لو ما كنتش قلت قدام كل الناس على حكاية الصكوك دى ، ما كنش جرى حاجة . موش مرة ولا اثنين . ٣ شهور كل شوية أفكره ، وبرضه قدام كل الناس . كان ناقص أعمل إعلان وأعلقه ! غباوة ما بعدها غباوة . كان واضح أنه موش عاوز يجيبهم . سماء قالت لى . إنما كنت عامل أن قلبى عليه أكتر من نفسه . أديني قتلته . فيه ألف حاجة أغلى من الصكوك . حياته نفسها كانت أغلى حاجة . دى إللى ما خطرتش ببالى أبدا . غباوة ما بعدها غباوة ! ' . منذ اللحظة لازم إدوارد إحساس هائل بالذنب ، ويحاول ضهرى أن يحمله على الكلام : ده نصيب . الأعمار بيد ربنا موش بإيدين حد . خليك معاى شوية أرجوك . أنت فاكر كان عنده كام سهم ؟ أكيد قال لك ؟

– مراته اشترتهم باسمه عن طريقنا . المفروض فيه صورة من الفاتورة فى ملفه .

لحسن الحظ جاءت قائمة إيداعات صكوك بما قيمته ٥٠٠ سهم قصيرة . أحدها من الفيوم وتستبعد ، والثانى أودعه محامى من حى الزيتون . يجمع الحاج نحو عشرين من مساعديه ومعارفه من القناطر ، إضافة لتطوع أسد وصديقيه ، ويداهمون مكتب المحامى . يعترف أن شابا أتى إليه بها وعرضها عليه بسعر رخيص .

– أنا عارف أنها مسروقة ، لكن إيه الغلط فى أنى اشتريتها ؟

– دى موش مسروقة ، دى عليها دم !

– للأسف ما فيش فى إيدى حاجة أعملها .

لم يهدأ الحاج بالوصول لهذه الطريق المسدودة ، وقال : ماشى يا متر ! سيب حكاية أن نجيب الواد علينا إحنا ، بس أنت لازم تشهد بإللى حصل قدام النيابة ، ولو فيه نتايج لكده تضرك عليك أنك تتحملها .

ثم صرخ فيه : ماشى ؟ !

نظر المحامى للحشد الذى يملأ مكتبه جلوسا ووقوفا ، وزم شفتيه موحيا بالموافقة . جعل ضهرى المحامى يصف الشاب بدقة على مسامع منهم . الأوصاف مطابقة لما قاله هو . أعاد الحاج تلقينها بدقة لمرافقيه ، طويل وأسمر أكرت الشعر وعظام الفك الخلفية تحت الأذنين بارزة بوضوح . ملامح ريفية فرعونية كلاسية ، لكن ليست شائعة جدا فى مدينة كالقاهرة ؛ زائد جلد خد سميك ذى حفر غائرة ، من النوع الذى سبق له الإصابة بعدوى جلدية ما . كانت نظرية ضهرى أن المجرم لا بد وأن يعاود جريمته . نبيل هو المسكين لأنه من ناحية رآه كهلا ، كما لعله من طريقته الراقية فى الكلام توسم فيه الثراء . وبعد أن انصرفوا راح يوزع عليهم الأدوار . الذهاب يوميا لشركات السمسرة المختلفة ، حتى الإيقاع بالمجرم .

حين أمسكوا بهذا المدعو طه موسى إبراهيم سامى اقتادوه بالسيارة إلى القناطر . ' يا بن دين الكلب ! صلبت الراجل فى سريره وهو مستكين ومستسلم ؟ ! إللى أنت قتلته ده أطيب راجل فى الدنيا ! ' . لم تنته الجملة حتى كانت قد يقتها لكمة مروعة القوة ذهبت لمنتصف الوجه بالضبط . شملت نصف الأنف العلوى والنصفين الداخليين لكلتا العينين . النتيجة أربعة خيوط من الدم انسالت ببطء ، من فتحتى الأنف ومن ركن كل عين . مع ذلك قابل الطرف الآخر هذه اللكمة المحترفة بصمت أكثر احترافا . المهم ، أنه بقليل من التعذيب اعترف . لقد تتبع نبيل يوما حتى عرف العمارة . فى اليوم التالى انتظره أعلى السلم حتى عرف الدور والشقة . فى اليوم التالى ، وخشية أن لا يفتح له ، انتظره أعلى بدور واحد ، ولدى فتحه الباب دفعه للداخل وأغلق الباب خلفهما . خشية أن يتعرف عليه لاحقا خنقه . أصلا نبيل لم يقاوم ، فقط استكان على السرير فى هدوء .

أخذه ضهرى للشرطة ، فإذا به يتهمه هو ورجاله باختطافه . بقليل من التعذيب ، اعترف من جديد . يشكر ضهرى الضابط على جهوده فى استخلاص الاعتراف ، وأمامه يعطى المتهم نصيحة أخيرة : المشنقة أسهل وأرحم وأريح حل قدامك . حاول تفلفص منها ، وأنت عارف أنى ها

أجيبك من تحت الأرض . وتحت الأرض ليه ؟ ها أخطفك من قدام باب المحكمة ، وأنت عارف أنى أقدر كده كويس . ها أقطعك حتة حتة . أنا بتاع فراخ ، الدبح والتشفية تخصصى . أنت سمعت عن عذاب القبر ، ولا موش مؤمن به زيى ؟ ها أعيشه لك حى . ها أخلع لك صباع صباع ، وها أحشى لك مكان كل جرح ملح بشطة علشان ما تموتش . ها أخليك تموت بالتقسيط على ٤٠ يوم و٤٠ ليلة ، ومن غير ما تنام لحظة واحدة !

وكان يوما مشهودا حين عاد نصر الله للشركة ، مشهودا له ، ولشيرلوك هولمز الذى أنقذ رقبته ، ولكل من استقبلوه أو حضروه . طال المزاح حول المشروبات التى ' لم يعد لها طعم بدونه ' ، واجتهد فيه الجميع : ' كنا يتامى من غيرك ! ' ، ' ما كناش عارفين قيمتك لغاية ما بقينا بنعمل الحاجة بنفسنا ! ' ، ' كنا بنقول عليك حرامى لغاية ما خلينا الولد بتاع القهوة يجيب لنا المشروبات ! ' ، ' تعرف أن الأستاذ إدوارد ما رضيش يعين حد بدالك ؟ ' ، ' قال نستنى لغاية ما نصر الله يتعدم ! ' ، ' أنا قلت كده ؟ ! ' . ويديرون الدفة جميعا -كالعادة بقيادة الطيبة ميرفت- للدفاع عن إدوارد : ' أوعى تصدق يا نصر الله ! ' ، ' تعرف أنى أنا إللى كان المفروض أروح الشركة إللى اتمسك فيها الواد المجرم ، إنما واحد من رجالة عم ضهرى قال أنا عارف المكان وأروح أنا ! ' ، ' كلك شهامة وجدعنة يا أستاذ أسد ! ' ، ' تعرف كمان أن كان إحساسى أنه ها يتمسك فى اليوم ده فى الشركة دى ' ، ' حصل ! أسد قال كده فعلا ، وكان مفروض هو إللى يروح فعلا ! يا مولانا ، اللهم اعطينا من بركاتك ، واكفينا شر حركاتك ! ' ، ' أنت كل حاجة تقول عليها إحساسى ، ومرة تصيب وألف تخيب ! ' ، ' حكايتك دى يا بنى جت على دماغنا كلنا ! ' ، ' معلهش يا عم ونس ، أنا آسف . آسف لكم جميعا ! ' ، ' ده حتى بقينا بنكنس الشقة بنفسنا ! ' ، ' وسط ما إحنا قاعدين كان عم ضهرى يقوم يسحب المقشة وهات يا كنس ! ' ، ' الله يخليك لنا يا حاج . أنا حياتى كلها ملكك من النهارده ! ' .

أما النقاشات الفلسفية بين وحيد وضهرى ، فقد طالت يومها من جديد حول مشكلة البطالة ، وكيفية معالجة مشكلة العاطلين قبل أن يتحولوا لقتلة كذلك الشاب .

– أهم ما سمعوش كلامك . ما راحوش للى خلفوهم . راحوا لنبيل وقتلوه !



هذا يوم لم يشتر أو يبع أحد فيه أية أسهم

بعد أسبوع من عودة نصر الله بعد تبرئته من قتل نبيل ، اختفى هو أيضا !

منذ الصباح ظلوا ينادون عليه . كلما تذكر أحد أنه يريد شرب شىء ، ينادى عليه . لا يرد ، وينسى السائل الأمر وينشغل بالأسهم ، هذا إلى أن يتذكر أحد آخر وينادى ، فينادون جميعا معه . استمروا على هذا الحال إلى ما بعد مرور نصف ساعة من بداية الجلسة ، بعدها استرابت ميرفت فى الأمر ، وذهبت إلى المطبخ . عادت لتقول روحوا شوفوا نصر الله ما له !

نهض ضهرى مسرعا . وجده ينتحب بشدة . أخذ يهزه ويسأله ، لكن نصر الله ظل يتصرف وكأنه لا وجود له . نهض فجأة ، وعلى نحو يخلو من أى توقير أو حتى اهتمام ، ولى ظهره للحاج ، وخرج مسرعا للقاعة . خيل للحاج من ذلك الجبين المقطب ، ومن الطريقة العنيفة التى دفعه بها ، أنه ربما انتوى ضرب أحد ما ، أو ربما قتله .

وقف وسط قاعة العملاء ، وقال بأعلى صوته : ' لما كنت غايب كنتوا بتشربوا قهوة إزاى ؟ ' . ردوا فى استغراب ' أسد كان بيتصل بالقهوة إللى بيقعد عليها ، وكان القهوجى بيجيب لنا الطلبات هنا ' ، ' ومن ساعة ما جيت أنا بتشربوا قهوة إزاى ؟ ' . لم يرد أحد . ببساطة لأسبوع كامل ، لم يكن أحد يشرب قهوة ، ولا يفكر حتى فى طلب قهوة . ' أنتم فاكرين أنكم بكده بتحبوا المرحوم نبيل ولا بتحترموه ؟ ' .

على الفور فهم الكل ما يدور حوله الموقف ، هم كل منهم بالقول إنهم لا يريدون شرب قهوة ، لكن الألسنة لجمت ولم ينبس أحد ببنت شفة . هذا إلا وحيد الذى نهض فى ذات اللحظة صائحا بصرامة وحزم غير عاديين ، ربما معتادين من ضهرى ، لكنهما لا يتماشيان بالمرة مع ما عرف من شخصيته هو : بس ! بس ! ولا كلمة من أى حد ! ما حدش ينطق أى كلمة تانى فى الموضوع ده . روح أنت يا عم نصر الله ، اعمل طلبات الناس النهارده ، وبكرة ها يكون عندك كل البن إللى أنت عاوزه . ما تخافش يا بنى ، إحنا موش ها نقطع عادة المستر نبيل . أنا ها أجيب البن . وموش عاوز أى اقتراح أو تعليق من أى حد ! الموضوع انتهى !

فى هذا اليوم بالذات ، ران الصمت القاتل حتى نهاية الجلسة . لم يمزح أحد . لم يغن ونس . لم يحلل أحد الأسعار . لم يتنابذ أحد . لم يسخر رامى من أحد . فقط تذكر فى صمت عبارته التى ينهر بها نصر الله حين يقف للاستماع لحواراتهم بدلا من أن يحضر القهوة . لم يتناقش وحيد وضهرى . البعض انصرف مبكرا . وتقريبا هذا يوم لم يشتر أو يبع أحد فيه أية أسهم .

وفى المساء استقل وحيد السيارة الفورد ١٩٤٩ للمرة الثانية إطلاقا ، وذهب لباب اللوق . وظل يسأل نفسه طوال الرحلة عما عسى كان عليه شعور الراحل نبيل وهو يقدم الخدمات لكل الناس ولا يطلب شيئا فى المقابل !



ما فائدة النساء ؟ ما فائدة الغريزة ؟

باين على وشى . لم تعد تقولها يا ضهرى . لا أعلم . ربما لم تأت مناسبة . أيا ما كان ، أعتقد أنى أنال مع رمانة أكثر مما أحتاج . أرسطو لم ولن يسمح لى بأكثر مما نفعله كل جمعة وسبت . أعتقد أن ابتسامتها وحدها تشفينى وتشبع احتياجى . ما فائدة النساء ؟ ما فائدة الغريزة ؟ ماذا يريد الإنسان أكثر من الدفء والحنو الذى نمنحه لبعضنا البعض مرتين كل أسبوع ؟ مظاهر اجتماعية ؟ شركة بيزنس اسمها الزواج ؟ شهوات جامحة ؟ طعنات عنيفة ؟ هذا ليس أنا ، ولن أكون .

فى اليوم التالى بدت رمانة سعيدة جدا ، وهى تستعرض أصابعها لوحيد . لقد شفيت تماما . عليكى أن تكونى أكثر حرصا من الآن فصاعدا . احذرى من الشتاء القادم عندما يأتى . لقد عادت لك ابتسامتك الجميلة . أخيرا ظهرت ميرى پوپينز فى حياتى . إنها ملكك يا حبيبى . كلى ملكك يا حبيبى . ها هى ابتسامتى تسعده من جديد . هو لا يعلم أن ابتسامتى القديمة التى أحبها قد ذهبت للأبد . الموجود الآن ابتسامة من صنعه هو . لولاه لما عاد لى الابتسام قط . لو فقدته لأى سبب لن تعود لى البسمة ثانية أبدا .

يقبلها وتتفحص عيناه وجهها طويلا ، تتفقد كل جزء فيه بإعجاب وسعادة ، ويقول بحنو ناعم ' لقد جاء دورى أن أحممك أنا ! ' .

... شدها إلى الحمام .

... نزع عنها ملابسها قطعة قطعة ببطء .

... نزع ملابسه هو بسرعة .

... تمدد فى حوض الحمام .

... دعاها بيد ممدودة .

... أجلسها فوقه .

... تعاشقت أعضاؤهما .

... لأول مرة .

... وبدأ يبط فى تبليل جسمها بالماء الساخن براحة يده .

لبثا على هذا الحال ، لساعة . ربما ساعتان . لم يحسب أحد الوقت . هو لا يرفع عينيه عن وجهها البسام . وبدلا من ذلك الصمت المشترك الطويل أمام الأغانى ، طلب منها أن تكلمه عن كل شىء . كل ما تعرف عن الحياة . عن الناس . عن سر صفائك وابتسامتك . ستكونين معلمتى . نافذتى على الدنيا . لن أجد نافذة نقية وشفافة مثلك . نافذتى على الأمل .

... وتشهق فجأة : حبيبى !



أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط !

– ياااا ، ياااا ، يا مخسرنى !

– أنت إذن من عشاق أم كلثوم يا أستاذ ونس ؟

– من قال لك ذلك ؟ نعم ، كنت أسمع أم كلسون كثيرا ، ثم سألت نفسى يوما بت الوس... لغاية ما تقول ' يا مسهرنى ' يكون نص الجمهور نام . الوقت من ذهب يا أسد يا بنى . لم أعد أسمعها ، لكن لا مانع من أن أردد ما زلت أتذكره منها !

' إياك تجيب سيرة الست تانى على لسانك الوسخ ده ، وإياك حتى أشوفك تحاول تغنى أغانيها تانى ! ' . تدخل ضهرى بحدة ناهرا ونس . بنت الوس... لغاية ما تقول ' يا مسهرنى ' يكون نص الجمهور نام ؟ آه ، يا سافل ! ... لكن مهلا ! أليس هذا بالضبط ما حدث معى يوم قررت الإقلاع عن الذهاب للمساجد . شىء مخزى ألا يكون للوقت قيمة عند الخطيب . يقضى ربع ساعة فى الصلوات والتسليمات ، قبل أن يدلف لموضوع الخطبة . لماذا لا يدخل للموضوع مباشرة ؟ ربما لا يكون عنده موضوع أصلا ، كل أسبوع تقال نفس الأشياء . كل صلاة تقال ذات التلاوات وكأنها تعاويذ . سحبت حذائى وخرجت . لكل منا لحظة التنوير الخاصة جدا التى يترك فيها مملكة الخرافة لمملكة العقل . هى لحظة وليست صيرورة process طويلة ، وهى تختلف تماما من شخص لآخر ، ولم يحدث لاثنين أن تعلمنا لنفس الأسباب أبدا . لكنى لست علمانيا قحا كهذا الوحيد . أعتقد أنه لا يؤمن بوجود إله أصلا . لماذا لا أساله مباشرة . على رأى السادات ، إحنا هنا فى مصر ما بنخاااافش !

– تعرف مين كانت أفكاره زيك كده يا حاج . يؤمن بوجود إله ، لكننا لا نعرف عنه شيئا . (كأن ذات التساؤلات والأفكار كانت تدور فى ذهن الرجلين فى نفس اللحظة ، تخاطر كما يسمونه فى علم نفس الخوارقيات !) .

– مين ؟ بوذا ؟

– ممكن ! أنا قصدت أينستاين . بيسموها deism ، إيمان بوجود إله لكن بعيد عن الأديان .

– من أين فهمت أنى deist ؟ هذا غير صحيح . أنا بأصلى كأى مسلم . أنا مسلم ، وما عنديش أى مشكلة مع الإسلام . هو زيه زى غيره ، بيفتح لك طريق لربنا . طريق أنت إللى بتسلكه ، والدين مجرد وسيلة . الدين حاجة كويسة . تقدر تقول بترطب على الصدر .

– أنت صوفى يعنى ؟

– برضه موش عاوز أسميها كده . أنا موش ماشى على طريقة حد . لا بوذا ولا الحلاج ولا السيد البدوى . طريقتى هى قلبى .

– يعنى ! هى دى عامة الصوفية ، فيما أفهم .

– مثلا أنا لما بأكون فى الخارج كنت أدخل أصلى صلواتى فى أى كنيسة تصادفنى .

– إشمعنى ؟

– أكيد مكان روحانى ، وعلى الأقل طاهر . (ويضيف ساخرا :) موش أضمن من غرفة الفندق ؟ ! هو أنا عارف كان بيحصل إيه عليها الليلة إللى فاتت . أنا ما أقدرش أوقف عقلى عن السؤال . أنا موش مكنة زيك آجى عند نقطة وأقول ستوب . end of the program . ده سؤال لا يجب أن يسأل . لازم أسأل كل حاجة ، بما فيها كانوا بيعملوا إيه على أرضية أوده الفندق اليوم إللى قبله ! موش لازم علشان أسأل عن حاجة أنها تتدمر . منين جبت القانون ده ؟ ده اسمه عند أينستاين نفسه ' اليقين ' ؟ أنا موش عاوز يقين يا سيدى . إنما ما تمنعيش أفكر . القراءة علمتنى شيئا : أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط ! كل موضوع تقرأه يكشف لك أن هناك ١٠ مواضيع جديدة أضيفت لقائمة ما تجهل . ما تمنعيش أعتقد فى الحاجة إللى تريحنى ، وإللى تمشى لى حياتى صح . ربنا ما بتلقاش غيره فى لحظات الشدة أو المرض . بينقذك من اليأس ويديك الأمل لو اظلمت الدنيا فى وشك . كمان هو بيخلق فيك الوازع والأخلاق . نص الناس دى تبقى مجرمين لو ما فيش وازع . لما الوازع يبقى فعال قوى كده ، موش ممكن يكون وهم . موش ممكن تقنعنى أن ربنا موش موجود وأنا بأحسه كل دقيقة فى حياتى . أنا بأتكلم عن حاجة بأعيشها كل يوم وبتغير كل حاجة وبتأثر فى كل حاجة ، فى وفى تصرفاتى وفى إللى بيحصل حوالى . أنا بأكلمك عن حاجة حقيقية ملموسة بأشوفها بعينى ، وأنت جاى تقول لى طول الموجة وعرض الموجة ؟ ! (ثم ينقلب ممازحا :) أنت عارف إيه الفرق بين الكمبيوتر والإنسان ؟ الأول يجاوب بنعم ولا ، والتانى يجاوب بنعم وإن شاء الله !

– أنت ما فيش حاجة ما قريتهاش ؟ الحكاية موش أدب وتاريخ ودين بس . ده أنت متابع العلوم والفيزياء كمان . أقدر أسال هو أنت فيه حاجة ما تعرفهاش ؟

– فيه !

– إيه ؟

– الكذب .

– (يضحك للمصادفة الغريبة :) طب هى دى الأخلاق العلمانية بتاعتنا . لا تكذب وافعل ما شئت . لا تكذب فى الزواج ولا المال ولا فى العداوة ولا فى أى شىء ، ثم لك كل الحرية فيما تفعل ، وتحمل النتائج . حتى القتل ، ادخل مبارزة شريفة وجها لوجه ولا تقتل أحدا غيلة .

– برضه الوازع .

– وازع اجتماعى موش خيالى . أنت ها تضيع فى داهية لما الناس تعرف أنك كداب .

– تعرف أن لا تكذب دى موش فى الوصايا العشر .

– لاحظتها إزاى دى ؟

– موش محتاجة ملاحظة . الموجود ألا تكذب على المحكمة الشرعية ، أى على رجال الدين . إنما الكهنة نفسهم من حقهم كل حاجة . (ويضحك :) جايز شغلتهم نفسها معتمدة ع الكذب !

يتدخل ونس بالغناء : ‘ حلو وكداب ! ’ ، يقطعه من لحظة لأخرى مستعرضا بعضا من ثقافته الدينية : ‘ ما هى الحالات الثلاث التى أحل فيها الكذب ؟ ’ ، ‘ عارفينها كلنا ! ’ ، ‘ الصداقة والزواج والحرب ، إنما كل مناشط الحياة ، ماذا تبقى ؟ ’ ، ‘ تبقى الكذب على السلطة الدينية ، هذا يعاقب بقطع الرقبة ’ ، ‘ قبل ما تخلوها ١١ وصية ، تقدروا تقولوا لى مُحَمَّد نفذ كام واحدة من العشرة أصلا ؟ ’ ، ‘ ولا واحدة ! سجد لأصنام وآلهة أخرى ، سرق ، قتل ، زنى ، اشتهى امرأة يا ريت قريبه إنما ابنه شخصيا ومن أجلها ألغى شيئا إنسانيا جميلا هو التبنى فشرد ملايين الإطفال حتى نهاية الزمان من أجل لحظة شهوة مهتاجة نحو امرأة بيضاء فارهة ، فى كل هذا وذاك لم يقدس السبت ولا أى يوم ولا حتى الأشهر الحرم ، إنه حتى لم يكرم أباه ولا أمه لأنه ابن زنا أو زى ما بتسميه كتبكم نخلة فى ربوة . فاضل كام واحدة ؟ ’ ، ‘ ما فيش حد تشرد لا حاجة ؛ هو حرم تبنى الرضيعة لكن أتى بدلا منه بزواج الرضيعة ! هأ ! هأ ! موش بأهزر ، بأتكلم جد ! ’ ، ‘ طب وعيسى بتاعكم ابن إيه ؟ سيبك من يوسف أبوه إللى اختفى لا حس ولا خبر ، أكرم أمه ولا كان بيطردها كل ما تحب تقابله ؟ أربعة أناجيل طويلة عريضة ليس بها موقف واحد يجمعهما معا ! ’ ، ‘ عيب الكلام ده يا جماعة ، دى حاجات صعبة أوى ، وما نعرفش بتجيبوها منين ؟ ! ’ ، ‘ بلاش ! طيب تعرفوا من هو أعظم منافق للتاريخ ؟ ’ ، ‘ أنت ! ’ ، ‘ غلب حماركم ؟ ! أقول لكم أنا ؛ الراجل إللى طلب من مُحَمَّد يوصف له بيت المقدس بعد الإسراء قائلا إنه زاره هو نفسه ، ولما وصفه له هلل وصاح أنت بحق رسول الله ، بينما البيت (الهيكل) مهدوم أصلا له ٦٠٠ سنة ! ’ ، ‘ الراجل خايف على رقبته يا عينى ! ’ ، ‘ صح ! الجبن سيد الأخلاق ! ’ ، ‘ لأ ، وأنتم الصادقين النفاق سيد الأخلاق ! ’ ، ‘ هى جت على دى ؟ حكاية الإسراء شلفطت كل معلومات التاريخ والجغرافيا إللى اتعلمناها فى المدرسة ! ’ ، ‘ يا عم المسجد الأقصى بتاع القدس لسه كان ها يتبنى بعد ١٠٠ سنة ! ’ ، ‘ سيبك من دى ، جايز كان قصده هيكل سليمان ، أو أى حتة سماها هو المسجد الأقصى ، جايز أى حاجة ، لكن إللى ما لهوش حل فعلا : إيه هو المسجد الحرام ؟ ’ ، ‘ أنت بتدق على حاجات عجيبة يا عم ونس ’ ، ‘ عجيبة إيه يا متخلف ؟ ده بيقولوا القصة كلها بما فيها آية الإسراء من تأليف عبد الملك بن مروان بعد ما بعت يهد الكعبة ’ ، ‘ كل ده دليل أن النبى -عليه الصنان والسباخ- بتاعكم أمى فعلا ، وإللى علموه كام حاجة عن الدين من أحبار اليهود والمسيحيين ضحكوا عليه ! ’ ، ‘ صح ، قالوا له حاجات لا وجود لها ولا حتى فى مواويل الإسكيمو ’ ، ‘ أنت عارف إسراء يعنى إيه ؟ يعنى كان عنده اكتئاب ! ’ ، ‘ أيوه ، وزود عيار الشرب ’ ، ‘ لأ ، زود عيار البروزاك ، ونام نوم رهيب ، هأ ! هأ ! هأ ! ’ ، ‘ لأ ، زود عيار بول البعير ’ ، ‘ صح ! بول البعير : التطور الطبيعى للحاجة الساقعة ! هأ ! هأ ! هأ ! ’ ، ‘ مراته بتاع اليوم ده -طبعا إللى هى كانت السبب فى اكتئابه- قالت فرشته كانت سخنة جدا ليلتها ! ’ ، ‘ يعنى أنا لو طلعت للسماء وقابلت ربنا فعلا ، ها أرجع برضه بإيدى فاضية زيه ؟ ! ’ ، ‘ طب ليه ما تقولوش إن كل الأديان رزق الهبل على المجانين ؟ ! ’ ، ‘ وحش وكداب ! ’ .

بينما يشرد وحيد قليلا ويتساءل بصوت أقل من أن يوصف بالمسموع : الحقيقة وحش ما حناش قده ؟ ! أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط ؟ ! لك حاجات يا حاج !



– الخلاصة : ها أنذا أتيتك بدليل علمى تجريبى قاطع وغير قابل للدحض ،

يثبت عدم وجود خالق على أى نحو أمكن أو سيمكن للبشر التفكير فيه ؛

فقط من الجائز أن تكون هناك كينونة خارج-كونية لا نعرف من صفاتها إلا :

١– أنها أضخم حجما بمراحل من كوننا ، ٢– أنها بالحتم غير صاحبة وجود أو أثر أو قدرة على الاتصال إلى ما داخل الكون ،

لأن ببساطة تامة -طبقا لنظرية النسبية كما قلت- فارق الأحجام يمنعه !

... يا حاج ، مع احترامى الكامل لأينستاين : عبارة ' الرب لا يلعب النرد مع الكون ' صحيحة ،

لكن ليس معناها عدم وجود نرد ، إنما عدم وجود رب !

– هل أفهم من كده أنك عاوز تقول إنك أول من أتى بدليل إثبات لعدم وجود الإله ،

بينما كل التاريخ قبلك مجرد الدفع بكونها فرضية من بتوع علم المنطق لا تقوم عليها أدلة كافية .

كل العلمانيين قبلك حاولوا إقصاء أو تنحية dismiss الإله من الطبيعة قطعة قطعة ، حاولوا النفى negative من موقف المدافع ،

أما أنت فتأتى بالدليل الهجومى الثبوتى affirmative الإيجابى positive على خلو الكون من إله ؟ !

– ليس فقط أنى تخطيت الخيط الرفيع بين القول لا أومن بوجود رب إلى القول أؤمن بعدم وجود رب ؛

هم -على أقصى تقدير- أثبتوا أنه غير موجود فى كوننا المعروف ،

لكنهم لم يغلقوا الباب أمام احتمال وجوده فى كون آخر أو زمان آخر ، وأنا أول من فعل هذا !

– هل تتصور أن أينستاين المؤمن ده ، هو أكتر واحد إدانا دليل على استحالة وجود إله ، أو على الأقل استحالة وجود صلة بينا وبينه ، أو بينه وبيننا . أكيد قريت عن مناظرته الشهيرة جدا مع نيلز بور . لما عارض بشدة مفهوم اللا يقين ، ورفض فكرة أن الجسيمات من الممكن أن توجد على أكثر من حالة فى نفس الوقت .

– أيوه لما قال له الرب لا يلعب النرد مع الكون ؟ طبعا عارفها ، كل يوم أقولها لبنتى بتاعة ما بعد-الحداثة : هناك فرق بين أن يكون مكان الجسيم غير معروف أو مستحيل معرفته بواسطة الإنسان ، وبين أن يكون بلا مكان أصلا !

– ما هو يعنى إيه لا يلعب النرد ؟ يعنى أن الحقيقة موجودة ، أى الجسيم موجود ، لكن من المستحيل نوصل لها ، أى نوصل لرصده . هنا أينستاين بيناقض نفسه ، وبالتحديد فى نفس السياق إللى قال فيه الجملة !

– يعنى موش أنا وحدى إللى بأقول الحاجة وعكسها !

– (ضاحكا :) لأ طبعا ، أنت وكل المصريين وأينستاين !

– (باستنكار يكاد يلامس الرفض الغاضب :) أنت جبار صحيح ! الجملة المشهورة اليتيمة إللى جاب فيها أينستاين سيرة ربنا ، وخلت ناس كتير فى الغرب متمسكة بالإيمان ، مستكترها علينا ، وبتقول إن هى نفسها إللى بتثبت أن ما فيش ربنا ؟

– بالظبط ! أليس ممكنا أنه توجد حياة ذكية بالصدفة على أحد إليكترونات جسمك ؟

– ممكن !

– هل يمكن لك أن تعرف بوجود هذه الحياة ؟

– ممكن !

– لأ ، موش ممكن . فارق الأحجام يمنعك . هو ده كلام أينستاين . هو بيقول الحقيقة موجودة ، والمشكلة أننا لا نستطيع الاستدلال عليها . المشكلة ليست فى الكون ، المشكلة فى الإنسان . كى ترصد وجود جسيم أنت تحتاج لأن تضربه على الأقل بفوتون واحد من الضوء . وفى العالم الصغير جدا ، فوتون ممكن يدمر أكوان كاملة ، موش يغير حالتها بس . أنت تحتاج لموجات ذات أطوال أقصر بكثير كى لا تدمر تلك الجسيمات ، لكن ساعتها لن تستطيع أنت رصد هذه الترددات الفائقة جدا . إذن الشىء القطعى أن هذا الإله المزعوم لا يعلم أى شىء عن وجودنا على وجه الإطلاق ، ويستحيل عليه ذلك مهما حاول . العكس صحيح برضه . هذه الحياة الذكية لا تستطيع أن تتوصل لك لأنها تحتاج

لمستويات طاقة وأحجام ضخمة تفوق قدرتها بكثير كى ترصد وجودك . جايز كمان يكونوا بيعبدوك وداخلين فى حروب أهلية أو عالمية مع بعض بسبب الدين ، وما يعرفوش أنك مجرد شخص فاسق من القناطر الخيرية عايش على هواه .

– أنا لست فاسقا !

– ذلك معناه أننا أصغر حجما من أن نمتلك أدوات رصد لرؤية ما وراء هذا الكون . إنها ذات القوانين أيضا بالنسبة للماكروكوزموس . حين نتحدث عن مسافات شاسعة تحتاج أزمانا طائلة وسرعات هائلة لوصولها ، فإن الكون ، أو الزمان-المكان ، الزمكان ، ينحنى حسب تعبيرات نظرية النسبية ، ولن تستطيع الإفلات من هذا الكون أبدا ولو انطلقت بسرعة الضوء ، أو كما قيل على نحو أكثر تحديدا لن ترى فى النهاية إلا قفاك ! المؤكد يقينا أننا لن نعرف أبدا إذا كان يوجد خالق لذلك الكون الكبير البعيد أم لا ، وبنفس القدر من التأكيد واليقين هذا الخالق لن يعرف هو نفسه بوجودنا . هذا الكون ربما يكون مجرد ذرة فى كون آخر أكبر ، أو ربما رذاز تنفس أو براز كائن ما ضخم ، أو ربما باللوون ينفخ أو كرة قدم يلعب بها البعض كما تفعل أنت أسبوعيا فى القناطر ، المؤكد فقط أننا لن نعرف أبدا لأن الضوء ينحنى ولن يخرج لخارجه أبدا .

– هذا يذكرنى بقوانين نيوتون التى سميت قوانين لأنه بدا أنها تنطبق على كل الكون ، ثم حين عرفنا الأكوان الأكبر جدا والأصغر جدا اتضح أنها مجرد حالة خاصة تنطبق فقط على الأحجام الملموسة بالنسبة لنا . أنت بتلك الطريقة قد تثبت عدم وجود وحى ، لكنك لا تثبت عدم وجود إله ، هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه .

– وهل أحتاج لأكثر من هذا ؟ ! لو أن ثمة كائن ما أضخم ، وراء هذا الكون ، فهو فقط حياة أكبر منا حجما بواحد إلى جانبه مئات الأصفار ، لا أكثر ولا أقل ؛ كينونة قد تكون أفضل ، قد تكون أسوأ ، لا نعرف . كائن مادى -أى من نفس مادة كوننا- غالبا ، ربما قبيح أو شرير أو جماد أو أى شىء ، لا نعرف ولا يهمنا أن نعرف . حتى لو هو كائن ذكى طيب وحكيم جدلا ، فهو لم يرسل لنا شيئا ؛ هو لا يستطيع أن يرانا ، لا يستطيع أن يسمع صلواتنا ، هو لم يخلقنا ، هو لا يعرف بوجودنا أصلا ، ناهيك عن أن يتحكم بمصائرنا أو يقيمنا من الموت أو يحاسبنا (طبعا لا أحد يستطيع إقامتنا من الموت لأننا نعلم أن حيواتنا لا تقوم على نفخة روح إنما على تفاعلات كيميائية تنتهى للأبد بموتنا) . من ثم أقولها بضمير علمى صارم (ومنهج العلم ليس فرضا افترضناه وليس أيديولوچية مسبقة وضعناها ، بل شىء ثبت على نحو متواصل عملى واقعى وجازم صحته على امتداد آلاف السنين منذ أرسطو حتى اليوم) ، أقولها : نظريتى تلك عن النرد هى أعظم دليل علمى تجريبى قطعى وقائم بذاته يهدم من الجذور فكرة الرب الصانع ناهيك عن فكرة الإله الآمر الناهى المعبود : لأنه لو كان هو خالق الكون فمن المستحيل أن يكون خالقنا ، ولو هو خالقنا فمن المستحيل فى نفس الوقت أن يكون هو خالق الكون ؛ ذلك أنه لا يستطيع أن يفعل الأمرين معا ، فارق الأحجام يمنعه . إذن إذا كنت -باستخدام المعارف الجديدة للنسبية والفيزياء الجسيمية- قد فندت كليا هكذا فكرة الإله كلى الجبروت -هذه التى جاءتنا بها الأديان المسماة بالتوحيدية ، أكون -وحتى دون الاحتياج لأدوات منطق أرسطو لربط الأمرين- قد أثبت أنه لا وجود لأية آلهة ولا لمفهوم الإله من الأصل ، وأن من الواجب شطب الكلمة جذريا من القاموس .

– ألا يقولون إنه فى الأكوان بالغة الصغر يستحيل التمييز بين الجسيم والموجة ، وفى الأكوان بالغة الكبر يستحيل التمييز بين الجرم والسديم ، ألا يذكرك هذا بثنائية أخرى : المادة والروح ؟ ثم ما أدراك أنه لن تظهر يوما نظرية تهدم نظرية النسبية (لاحظ أنهم أسموها نظرية ، فلم يعد أحد يجرؤ بعد على الحديث عن قوانين) ؛ نظرية جديدة تقول إن التواصل لا يحتاج لفوتون بالضرورة ؟ الفوتون قد يكون مجرد وسيط ، وهناك جسيم أصغر جدا يعطيه المعلومة فيفهمها بطريقته ثم يوصلها هو لنا !

– فوتون رسول يعنى ؟ ! ممكن ! كمان كلامك صحيح : كلمة قانون تسرى فقط على الأحجام الملموسة لنا ! (ثم فجأة :) لأ ! استنانى لحظة واحدة ! لو أن هذا الإله الذى خلقنا هو وسيط بيننا وبين إله أكبر هو خالق الكون ، فإن لا أحدا منهما فى هذه الحالة كلى الجبروت ، لأن ببساطة فارق الأحجام قد منعه . أوه ، يبدو أننا لن نستطيع الاستغناء عن أرسطو حتى أبد الدهر ! (ويضحك :) جايز تطلع النظرية إللى بتقول عليها لكن ساعتها ها يكون اسمها نسبية النسبية ! أنت تقول إننا لا نزداد علما أبدا إنما نزداد جهلا فقط ؛ هذا ينطبق هنا كأدق ما يكون الانطباق . نسبية النسبية جائز ، إنما العودة تانى للمطلق مستحيل ؛ فبعد نظرية النسبية قد مات المطلق مرة واحدة وللأبد ، وبالدليل العلمى الحاسم ، وانتقلنا فى معرفتنا بما وراء الطبيعة من ' لا ' نعرف إلى ' لن ' نعرف (وللأسف لا يزال البعض يعيش فى مرحلة شديدة البدائية سابقة على الاثنين ، اسمها الدين يقول فيها نحن نعرف) .

– أنا أعرف وجود الرب بإحساسى ، وليس بأينستاين .

– الخلاصة : ها أنذا أتيتك بدليل علمى تجريبى قاطع وغير قابل للدحض ، يثبت عدم وجود خالق على أى نحو أمكن أو سيمكن للبشر التفكير فيه ؛ فقط من الجائز أن تكون هناك كينونة خارج-كونية لا نعرف من صفاتها إلا : ١- أنها أضخم حجما بمراحل من كوننا ، ٢- أنها بالحتم غير صاحبة وجود أو أثر أو قدرة على الاتصال إلى ما داخل الكون ، لأن ببساطة تامة -طبقا لنظرية النسبية كما قلت- فارق الأحجام يمنعه ! ... يا حاج ، مع احترامى الكامل لأينستاين : عبارة ' الرب لا يلعب النرد مع الكون ' صحيحة ، لكن ليس معناها عدم وجود نرد ، إنما عدم وجود رب !

– هل أفهم من كده أنك عاوز تقول إنك أول من أتى بدليل إثبات لعدم وجود الإله ، بينما كل التاريخ قبلك مجرد الدفع بكونها فرضية من بتوع علم المنطق لا تقوم عليها أدلة كافية . كل العلمانيين قبلك حاولوا إقصاء أو تنحية dismiss الإله من الطبيعة قطعة قطعة ، حاولوا النفى negative من موقف المدافع ، أما أنت فتأتى بالدليل الهجومى الثبوتى affirmative الإيجابى positive على خلو الكون من إله ؟ !

– ليس فقط أنى تخطيت الخيط الرفيع بين القول لا أومن بوجود رب إلى القول أؤمن بعدم وجود رب ؛ هم -على أقصى تقدير- أثبتوا أنه غير موجود فى كوننا المعروف ، لكنهم لم يغلقوا الباب أمام احتمال وجوده فى كون آخر أو زمان آخر ، وأنا أول من فعل هذا !

ويتداخل ونس بأغنية كالعادة : ' رب إيه إللى أنت جاى تقول عليه ؟ ! ' .

– أنا معك أن العلماء آخر من نسألهم عن المتضمنات الاجتماعية والفلسفية لاكتشافاتهم ؛ لم يخطر ببال نيوتون أن ثلاثة أسطر صغيرة كتبها ستفتح لنا طريق السفر للفضاء ، داروين ظل مؤمنا بالرب حتى آخر لحظة ، أينستاين يتحدث أحيانا عن الرب وكأنه بديهية ، من اكتشفوا أشباه الموصلات لم يخطر ببالهم أنهم فى الواقع يخلقون كوكبا جديدا بالكامل ، وهكذا وهكذا . مثلا لولا سپنسر لما وجدت لنظرية داروين أية متضمنات فلسفية ولا اجتماعية ولا دينية ولا سياسية .

– (مقاطعا بسخرية :) وطبعا لولاك أنت لما وجدت لنظرية أينستاين أية متضمنات فلسفية ولا اجتماعية ولا دينية ولا سياسية !

– (يواصل بذات الجدية :) الاستثناءات هنا قليلة جدا ، وشخصيا لا أعرف منها إلا چيمس واتسون ، الذى كان وظل يعلم ماذا يعنيه الدى إن إيه اجتماعيا وسياسيا وفلسفيا وكل شىء . مع ذلك أقول لك لا تكذب على نفسك ؛ إحساسك الذى تتكلم عنه يدور فقط فى حدود الملموس ، والمهم أن كلنا لا يعرف أى شىء . فقط -لحسن الحظ- نعرف شيئا واحدا : نعرف أن الأديان تخاريف . نعرف أسماء الذين اخترعوها ، نعرف خريطتهم السيكولوچية المهترئة ، نعرف أنها أتت من عقلية بدائية محدودة المعرفة والتصورات لدرجة مفزعة . إنسان العصور القديمة والوسطى ، ذو الجلابيب والشباشب الذى لا يتجاوز من حيث المعرفة والقدرة العقلية طفلا معاصرا فى إحدى المدارس الحديثة فى السادسة من عمره ؛ بل فى الواقع هم أسوأ بكثير : عقليات تطيرية superstitious ترى فى كل صدفة -عادية كانت أو غريبة- ترتيبا إلهيا . فى تلك الأيام كانوا يتخيلون الهواء وقد امتلأ بالعفاريت (لو شئت تخيل الجو حقا ، فقد لا تجد أفضل من الصفحات الأولى جدا من ثلاثية القاهرة لنجيب محفوظ ، وستعرف ساعتها ماذا كانت تصارع الست أمينة بالضبط طوال الليل) . كان المرض خللا أصاب الجسد بسبب تجربة إلهية أو عقاب ، لا بسبب ميكروبات أو فيروسات . كانوا يرون فى الكوارث الطبيعية أو حتى كسوف الشمس أو شح المطر ، نذر غضب مشئوم ونقمات من الآلهة على عصيانهم وخطاياهم . الزلازل يسببها تململ كائنات العالم السفلى من تصرفات البشر . المطر كان إما نعمة إلهية وخير مطلق ، وإما نقمة غضب لو كان أكثر مما يجب أو لو صاحبته البروق والرعود والعواصف ، أو حتى أحيانا مجرد إله يبكى ناعيا ما آل إليه حال الدنيا ، أو لأن قلبه قد رق لتجمع الناس واسترضائهم له بالسجد والتعاويذ كى يستسقى الأرض العطشى . كانت السماء سقفا أزرق اللون يمكن الوصول له لو أمكن بناء برج بالارتفاع الكافى (فقط اختلفوا هل هذا السقف المرصع بالثريات مسطح أم نصف كروى ، لكن كما تعلم لم يختلفوا قط على أن الأرض نفسها مسطحة . ثم أن الإله نفسه كان أكثر منهم سذاجة -أو عملا بالمبدأ المصرى ما أهبل من سيدى إلا ستى- لم يعرف أنهم كلما صعدوا لن يجدوا إلا المزيد من الهواء ، بل حتى بعد فترة لن يجدوا الهواء ذاته ، فخاف من هؤلاء الغزاة وسارع لبلبلة ألسنتهم قبل أن يدقوا أسواره ويحتلوا أراضيه ، أقصد سماواته !) ، والنيازك أحجارا سوداء مقدسة يرسلها لنا الآلهة كى نسجد لها ، أو بالمثل كان كل المطلوب لمعرفة أين تغرب الشمس السفر بالقدر الكافى غربا !

– أيوه ! تنام فى عين طين ملتهبة . ذو القرنين !

– إيه ؟ شافها ' بتطش ' فى الأطلنطى ؟ ! ماذا لو ذهب شرقا لبحر اليابان ليرى من أين تولد شمس اليوم التالى ، أو لعله ذهب ولم يفهم كيف تخرج كتلة النار الملتهبة تلك من المياه الباردة جدا هناك . لعله آثر الصمت ولم يخبر أحدا ، أو لعله قال ' فى سره ' الكلمة الأثيرة جدا على ألسنة أهل ذاك الزمان إن فوق كل ذى علم عليم .

– أنت موش فاهم الفكرة . هى لا تطش ، ولا تموت ، فقط بئر الطين كيف يحجب الضوء ، لو البئر عادى أو لو فى الأطلنطى لن يأتى الليل أبدا . ثم كيف تتكلم عن ذى القرنين بهذا التهكم وهو قريبك ؟

– يعنى إيه ؟

– ما فيش حد فتح العالم بالشكل ده المذكور فى القرآن إلا الأسكندر تلميذ أرسطو صاحبك .

ويتدخل ونس : ' المفروض يا وحيد لازم تبتدى تقلق ، لأن جايز يطلع أن كتب أرسطو بتاعك محرفة ! هأ ! هأ ! ' .

– كمان لاحظ يا روميو أنه كان زيك !

– قصدك ' زيى والعياذ بالله ' ؟

– أيوه ! روح شوف أى فيلم وأنت تعرف ، ولا تحب نؤلف لك كتاب اسمه ' التاريخ الممجوج ليأجوج ومأجوج ' !

ويتدخل ونس من جديد دون أن يفهم أحد لماذا يسخر مريرا مرورا مرارا من المقدسات الدينية : ' المفروض تنبسط لأن ده أوكازيون من القرآن الكريم -ودليل أنه كريم بجد- أنه خللى واحد بينام مع رجالة زيك ، نبى مؤمن وورع وعلى دين إبراهيم حنيفا . كمان كريم أنه ما خدهوش وهو عيل وسابه يعيش لغاية ما بقى عجوز . الشمس خلاها إلى مستقر ، وفى قول آخر تنام تحت العرش ، وفى قول ثالث واحدة disposable جديدة كل يوم ، وفى قول رابع حاول جعل القصة أكثر خيالا قالوا عنها إنها مربوطة فى ساقية تجرها الملائكة وبعد العين الحمئة تدخل لسابع أرضين وتطلع من فتحة فى الناحية التانية فى الصبح إللى بعده . هأ ! هأ ! إحنا علمونا فى المدارس أن الليل والنهار ليس سببهما دوران الشمس حول الأرض زى الطاحونة ، إنما دوران الأرض حول نفسها زى النحلة . هأ ! هأ ! ... أو فى قول أخير : الكتاب أصلا اسمه الكرهان الكريه ! هأ ! هأ !

يهدأ ضحكهم ، ويعود الحوار كالعادة جادا بين وحيد وضهرى : ' لأ وأنت الصادق ده دليل الإعجاز العلمى للقرآن بجد : الأرض تبلع فى بطنها كل يوم نجم حجمه قدها أكتر من مليون مرة ؟ فى كل الأحوال الواضح أن قرونا طويلة مرت حتى دون أن يقرأ أحد هؤلاء شرق الأوسطيين الجهلة معارف اليونان العلمانية القديمة التى كانت لها نظريات ونظريات أفضل كثيرا ، أقلها ما يذهب لكروية الأرض ، بل ويقدر قطرها بدقة .

– هذا ليس لب المشكلة . هل لم يكن القرطبى مثلا يعرف من خلال ثقافته العامة فكرة أن الأرض كروية ، ومع ذلك لم يجرؤ هو ولا غيره على المساس بالمقدس ؟ بالعكس ، راح ببساطة ينتصر للقرآن فى تفسيره له بمهاجمة نظرية كروية الأرض ، هذا فى ذات الوقت تقريبا الذى فيه كان القاتيكان يعارض جاليليو فى نظرية أكثر جموحا ألف مرة هى أى من الكرات تلف حول الأخرى ، الأرض أم الشمس ؟ ! هذا ليس بيت القصيد ، السؤال هو : هل أعطانا العلم الإجابات ؟

– لقد قلت لك يا حاج إن هناك أسئلة لا يجب أن تسأل أصلا .

– أنا لا أعرف عم تتكلم ، إنما أقصد الأسئلة الغبية أو غير العلمية التى لا إجابة لها تحت أية ظروف . حسب أينستاين كى تستدل على الحقيقة تحتاج لأن تدمرها أولا . نحن لا نعرف ، ولن نعرف أبدا . أجزم لك أن من المستحيل أن نعرف . ثم لننظر للأمر من زاوية أخرى : أنت ترتدى بذلة وحذاء أنيقين ، ولا أفهم كيف تقبل كلاما قاله إنسان بجلباب وشبشب ؟ !

– وماذا كان يرتدى أرسطو ؟

– حتى لو كان أرسطو لا يرتدى شيئا ، فوضعه مختلف ، هو إنسان كان يرصد الطبيعة بتواضع ، وفقط كما يراها . لو قال خلقنا من الماء كل شىء حيا ، قبلتها منه قدرت له علمه وغفرت له جهله بالڤيروسات وبالحواسيب وبالهندسة النانوية ، لكن أن يقولها الآلهة والأنبياء فسأقول هؤلاء نصابون . كل ما درسه أشياء واقعة فى مستوى جلبابه وشبشبه ، لم يدع أبدا أن وحيا هبط عليه ، أو أنه سافر به للسماوات العلى ، ولم يحدث أن طلب منا مرة واحدة الإيمان بأشياء فاحشة الخيال .

– تعرف أن داروين جه فى القرآن ؟

– هأ ! هأ ! زى رزق كده ؟

– بأتكلم جد : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض !

– هم بيفسروها فعلا كده ، وبيقولوا إعجاز علمى ؟

– لأ ، حاليا بيفسروها حاجة تانى ، إنما بكرة -وفى الفوضى الدينية إللى إحنا فيها- انتظر أى حاجة !



هذا الإله البائس الفاشل المثير للشفقة المنتحب طوال الوقت لاكتشافه أنه آخر من يصلح لمهنة الخلق وكل ما يصنعه يرتد إلى صدره ، لم يأت صدفة ؛ إنما لأن الإنسان قد خلقه على صورته ومثاله ، ولم يكن أبدا بوسع الأنبياء -تلك الحثالة البشرية معدومة المواهب الذين امتهنوا الدجل لفشلهم فى كل الحرف الأخرى- خلق إله أفضل !

شهرتها الرئيسة أنها كانت الوحيدة التى تحدث يوما كل الأقلام التى راحت تصيح فى إجماع غريب ' الذئب ! الذئب ! ' ، تحذر من شركات السينما الاحتكارية ، كشركة وحيد ، وكشركة أخرى أكبر نشأت بتمويل من كيوبيد . لم يسمحوا لها بكتابة ما أرادت فى ' الاقتصاد اليوم ' ، فأسست موقعا على الإنترنيت ، كان أول -ومن ثم أنجح- موقع للرأى باللغة العربية عرفه الغشاء . لم تكن حتى كلمة blog الشهيرة جدا لاحقا قد اخترعت بعد . حين أصبحت الكلمة متداولة بعض الشىء بتأسيس الكاتب السياسى المشهور أندرو سوليڤان موقعا له على الإنترنيت فى آخر يوم من سنة ٢٠٠٠ ، كانت هالة تحتفل بمرور ٣٠ شهرا على تأسيس موقعها . موقعها الذى كان شيئا أكبر وأكثر طموحا من كل تعريفات الكلمة سواء كمحتوى أو كتقنية حاسوبية . الكلمة التى أصبحت اليوم تحصى بالملايين على الإنترنيت وكل من ينشىء صفحة بمنتدى يسمى نفسه blogger . وظلت هالة تكره أن يصفها أحد بهذا الوصف ، وكتبت ذات مرة ' أربأ بكاتب محترف كسوليڤان أن يقبل أن يسمونه كذلك ! ' . موقعى موقع وليس ' قرمة غشاء ' . أيام كانت تسمى المواقع ' صفحات غشاء ' ، كانوا يصنفوننى أنا كموقع . الياهوو أدرجتنى فى غضون سبعة أيام ، بل وخلقت من أجلى تصنيفا جديدا . والمعتاد أن طابور الانتظار كان يطول للجميع آنذاك عاما على الأقل !

المهم ، على ذلك الموقع كتبت هالة الحبيبة أن هؤلاء الذين يتوسعون فى بناء شركات عملاقة للثقافة ، لن يحتكروا شيئا لسبب بسيط أنهم سيفلسون قريبا ، ذلك أن الثقافة العربية برمتها ، كتبا وأفلاما وموسيقى ، من امرئ القيس حتى عمرو دياب ، لا تساوى بليونى الدولار التى كانوا يتسابقون لدفعها فيها . كانوا يدفعون مبالغ تصل لمائة ألف جنيها لحقوق ملكية بعض الأفلام ، أفلام عبد الحليم حافظ مثلا . قالت هذا هراء مطلق يستحق الرثاء عليهم ، لا الذعر منهم . الفرصة الوحيدة فى رأيها ، هى أن تشترى شركة واحدة كل الثقافة العربية بسعر جيد ، قدرته ببليون دولار كحد أقصى ، ثم تذهب بعدها ساعية لشراء ستوديو هوليوودى . الوليد بن طلال كان الاسم الذى طرأ ببالها فى تلك السنوات الباكرة فى أواخر التسعينيات ، وليس ' هؤلاء المغامرون التافهون ' حسب وصفها غير محمود العواقب جدا . امتدحته قائلة إنه لا يكاد يشبه المستثمرين العرب فى شىء ، مشيرة إلى تفرد شخصية والده وإلى نسبه من جهة الأم وإلى تربيته وإقامته فى الغرب وإلى مستشاريه اليهود وسلوكه الاستثمارى على نحو عام . أسهبت فى شرح أن هكذا فعل الفرنسيون ومن قبلهم اليابانيون مع هوليوود ، بدرجات تتراوح ما بين الفشل الذريع والنجاح بعد لأى . ذهبت هالة لأبعد من ذلك . قالت إن العرب لديهم مشكلة إضافية ، هى أن صورتهم سيئة فى الغرب ، واقترحت أن أفضل شىء إطلاقا لتحسين صورتهم ، هو أن يخرسوا تماما ، لا يفعلون شيئا ولا يقولون شيئا ، ذلك أن -على حد تعبيرها- كل إناء ينضح بما فيه .

شجاعة التلميذة النجيبة ، زائد رؤيتها المتفردة الثاقبة ، ناهيك عن أنها لم تكن تفعل سوى المشى على خطى حماقة وحيد الكبيرة قبل شهور قليلة فى الكتابة بلا حسابات ، رفعتها كلها للسماء فى عينى أستاذها ، هذا رغم أن وصف ' المغامرين التافهين ' انبسط عليه هو أيضا (على الأقل فى نظر القراء) ، ورغم أن نبوءتها المريرة بإفلاس تلك الشركات ، كلفته تقريبا عمره كله (قالت أيضا بوضوح لا يحتمل اللبس إن مجرد قبول توم كروز الظهور فى برنامج لأوپراه وينفرى اليسارية المتطرفة أسقطه للأبد من نظرها) . بعد ذلك ظلت تعاير وحيد بتخليه تقريبا عن كل شىء . إذا كانت الاقتصاد اليوم ، وحيد أساسا وهالة بالدرجة الثانية ، قد كتبت إنترنيت وخليوى وساتيلايت ... إلخ ، لأول مرة بالعربية فى الصحافة ، فموقعها فعل ما لم تفعله أو ربما ما لم تقدر عليه الاقتصاد اليوم : أضاف المزيد والمزيد من ' أول من فعل كذا بالعربية ... ' ، خارقا جميع

المحظورات . كانت أول من كتب كلمة علمانية بالعربية على الإنترنيت ، وأول كتب كلمة جنس بالعربية على الإنترنيت ، هذا يوم كانت كل مواقع الإنترنيت العربية تعد على الأصابع ، وموقع الرأى الوحيد هو موقعها . وبالفعل كانت أول بشير إطلاقا للثورتين ، ثورة العلمنة والثورة الجنسية ، اللتين اجتاحتا مجتمعاتنا فى السنوات الأخيرة .

إذا كانت جدلية النرد هى المرة الوحيدة التى كتب فيها مقالا علمانيا ، وكان ذلك فى مجلة الجامعة الأميركية وهو طالب ، فإن هالة كان موقفها مختلفا . كانت تقول إننا يجب أن نكون عمليين ، الناس تائهون ، المثقفون أنفسهم تائهون . طالما فكرة الإله قائمة فى عقولهم ، أيا ما كانت طبيعتها ، لن يتقدموا أو يبدعوا أو تتحرر أفكارهم . والواجب أن نعطيهم شيئا يمسكونه فى يدهم ، يعينهم على غسيل المخ الدينى الكاسح حولهم ، ويهز المسلمات المتوارثة فى عقولهم . وإن هذا لن يتحقق دون أن ندحض لهم مفهوم الميتافيزياء ذاته من الأساس ، بأسانيد عقلية وعلمية قوية . كان من بين جدلياتها واحدة حول لماذا يمثل الأوكسيچين ٢٠ ٪ من الهواء ، هل لأن المعجزة الإلهية جعلته مناسبا لنا ، لرئاتنا ولاحتياجاتنا ، أم لأننا تطورنا فى غلاف جوى من الأصل هذه مواصفاته ؟ من جاء أولا ، نسبة العشرين بالمائة أم الإنسان ؟ هل المسافة بيننا وبين الشمس صممت خصيصا بحيث تناسب ' معجزة ' ظهور الحياة وازدهارها ، أم نحن الذين تكوننا بناء على هذه درجة الحرارة الموجودة سلفا كما حددها حجم الشمس وعمرها ونوعية تفاعلاتها ومسافتنا نحن عنها ... إلخ ؟ أو مثلا هل خلق الرب البرتقال خصيصا من أجلنا كى يقينا الزكام ، أم أنه كان موجود أصلا ، ولو كان قد ظهر بشر لا تفيدهم نباتات الشتاء فى الحماية من أمراض الشتاء لانقرضوا ، وبقى أمثالنا نحن فقط ؟ ... أو مثلا لماذا يبدو الكون شديد الدقة ويخضع لترتيب order صارم ، هل لمعجزة خارقة فى خلقه ، أم لأن ببساطة -وبحكم تعريف الكلمة لا أكثر- الكون قد ' كان ' لأنه ذو نظام ، والكون غير الخاضع لترتيب ذى حد أدنى من الدقة هو مفهوم مستحيل من الأساس ، ومن ثم لا معجزة أصلا فى أى نظام أو ترتيب لأنه بدونه لم يكن ليوجد الشىء ابتداء ، أو لو وجد لانهار على نفسه ؟ ... هكذا كانت أحيانا تسأل !

ومما حق شعبية خاصة جدلية أخرى حول هل الإنسان مخير أم مسير ، ولو كان مسيرا فلماذا يحاسب ، ولو كان مخيرا فلماذا يحاسب أيضا ، أو هل خيره أحد فى أن يكون مخيرا ؟ ألم يكن بوسعه خلق إنسان غير قابل للسقوط أصلا ؟ بل لماذا هذا الإله مزعوم القدرة الكلية لا يخلق آلهة ؟ المسلمون يقولون التوحيد وهى سخافة وفرضية شديدة الافتراضية هزلية وبلا معنى ، لم تستحق التعليق منها سوى بأن ما الميزة فى الواحدية أصلا ، فالواضح أنها -وليس أكثر- مجرد هاجس سياسى حياتى لدى تحديدا البدو الجرابيع البدائيين دائمى الصراع على التحيؤ الضنين ، هذا إن لم تكن الواحدية فى حد ذاتها نتاج طبيعى يترجم ما تعيش فيه بيئتهم القاحلة من فقر وضحالة . أما المسيحيون فيقولون بما هو أسخف وهو أنه لا يخلق آلهة إنه لا يعطى مجده لأحد ، وكان ردها بسيطا : لماذا ؟ ما المشكلة فى أن يعطى مجده لكل أحد ؟ أليست تلك أنانية وأمراضا نفسية مزمنة لديه ؟

ثم ما كل هذه الجلبة التى يثيرها المسيحيون عن واقعة الصلب ؟ السبب الذى يقولونه مضحك : بدون سفك دم لا تحدث مغفرة ! من وضع هذه القاعدة أصلا ؟ ولماذا لا يغيرها ببساطة بدلا من الحرص على شكليات هذه المسرحية الطقسية الدموية السخيفة ؟ إنها فكرة وثنية جدا أصلا ، بل أول فكرة دينية إطلاقا وقد عرفتها كل أقدم القبائل البدائية ، فنحروا القرابين للطواطم حيث لم تكن هناك آلهة ولا حتى أوثان بعد . ألم يكن باستطاعته خلقنا غير قابلين للسقوط ، أم هو مسلسل فشله الذريع الذى نكبنا نحن به ؟ ثم كذلك من الذى اخترع فكرة الخطيئة الأصلية أصلا ، وقال إن اللعنة تورث ، ويجب أن يظل الدم يسفك من أجل مغفرتها ؟ لو شئتم الفكرة الحقيقة خلف هذا فهى أن الدم لا يسفك بالمرة من أجل المغفرة إنما من أجل ملء بطون الكهنة ؛ بلى ، كل ما تدور حوله كل الأديان هو طعام الكهنة !

الكارثة الأفدح أنك حين تسألهم ، لماذا لم يخلق الإله الإنسان (ناهيك عن بقية الكائنات) ، كائنات مثالية غير قابلة للسقوط أو للسلوك الضار ، تكون إجابتهم : لقد أعطاه الحرية ! أى يقولون لك ضمنا إن الحرية هى السبب فى كل مصائب العالم ، أى مرة أخرى يبحثون عن مسوغ جديد لتسلط رجال الدين على رقاب البشر . ثم لماذا يضيع ذلك الإله التافه وقته فى مراقبة البشر حتى فى مجاهل أفريقيا وعد حسناتهم وسيئاتهم (حسب الإسلام ، حيث لو تساوت الكفتان يلعبون ضربات جزاء) ومحاسبتهم (حسب كل الأديان) ؟

ثم ما كل تلك السادية التى عنده وهو يتلذذ بتعذيبهم عذابا أبدا ، فيما لا ذنب لهم فيه . ألا يعلم الإله سلفا بما سيفعله كل إنسان ، وأين سيكون مصيره الأبدى ؟ إذن هو خلق كل هذه البلايين من فئران التجارب البشرية ، فقط كى يستمتع بإلقائهم فى النار ؟ ثم ما معنى عذاب

النار ؟ لا أفهم من أين أتوا بهذه الفكرة السخيفة أن هناك شواء فى النار ينتظر الناس بعد موتهم ؟ لو كان إله التوحيد السقيم العقيم ، القبيح الوضيع ، هذا قد ظهر فى ألاسكا أو سيبيريا ، وليس فى صحارى منطقتنا ، هل كان سيعذبنا فى النار أيضا ، أم كانت ستصبح الجنة مواقد مشتعلة والجحيم ثلاجة عميقة ؟ ثم لماذا جنة -لغويا وموضوعيا- تعنى حديقة ، أى زروع وأعناب ونهر ، أليس ذلك هو الحلم البدوى الصحراوى المجدب ؟ لماذا لا تكون مثلا سفينة تجوب الكواكب والنجوم والسدم ، أليس هذا أجمل وأروع ؟ لماذا لا تكون حتى مجرد مكتبة عملاقة أو دار سينما عالية التقنية أو نظاما متطورا لألعاب الفيديو ، أليس هذا أكثر إثارة ومتعة من أية حديقة ؟ !

جانبيا طرحت هالة بعض أسئلة للمسيحيين ، لعل أبرزها هو لماذا كان للرب ابنا وليس ابنة . راحت تسرد من تاريخ الأناجيل المحرمة كيف أن مريم المجدلية -التى أهالت عليها الكنيسة التراب لألفيتين كاملتين- كانت هى نبى المسيحية الحقيقى (بفرض أن أحدا كان يفكر ساعتها فى شىء أكثر من إضفاء الروحانية الصوفية على شريعة موسى الفظة الخالية من الروح ، ناهيك عن أن يفكر فى خلق دين جديد مستقل عن اليهودية) . خالفت هالة نظريات مشاهير البحاث العلمانيين ممن يقولون إن الكنيسة الأولى بذكوريتها هى من ألصقت بالمجدلية تهمة الزنا واعتبروا أنها ذاتها هى المرأة التى أنقذها يسوع من الرجم وهى المرأة التى مسحت أرجله بالطيب وجففتها بشعر رأسها ، بل ربما هى أيضا المرأة ساكنة السامرة ، أى كل نساء الإنجيل المجهلات ممن لم يجرؤ كتاب الإناجيل على تسميتهن لأنهن جميعا ببساطة ذات المجدلية زوجة الرب ممن لا يصح لأحد الخوض فى ماضيها وعرضها ، فقالت -أى هالة- لا بأس عندى إن كانت قد اتهمت المجدلية بالزنا فعلا ، فالأرجح أنه لمجرد أن كانت مثقفة ودارسة وتجيد اليونانية ومخالطة للأجانب أن اعتبرها ذلك الشعب اليهودى المتخلف متحررة أكثر مما يجب لامرأة ، وساقوها للرجم !

فى جدلية أخرى فاقت كل الحدود ، طرحت هالة پروفايلا نفسيا مرضيا شديد الحنق والاضطراب والمعاناة لإله التوحيد بعد أن اتضح له أن كل ما خلقه قد ثبت فشله ؛ لم يصنع مخلوقا واحدا قريب من مستوى الجودة ناهيك عن المثالية ، بل إن كل مخلوقاته -مادية أو ملائكية- تنكرت له وتحولت لنيران عكسية فى وجهه : يصنع ملاكا فإذا به ينقلب شيطانا ، يصنع إنسانا كصورة منه شخصيا فإذا به يفضل تحديه والتمرد عليه ، بل فى الواقع لم ينجح أى من مخلوقاته فيما صنعه أصلا من أجله ، فأى نوع من الخالقين هذا ؟ من الوعود المبتهجة إلى الهبات السخية ، لم يحدث أن فعل شيئا واحدا لم يندم عليه لاحقا (ربما فقط لم يندم على الإبادة والانتقام) ، فأى نوع من الآلهة هذا ؟ الأسوأ من هذه وتلك فى نظرها أنه إله مريض نفسيا ، مصاب بداء الإسقاط ، إذ راح يلوم البشر أو الشيطان وغيرهم من مخلوقاته ، ويعاقبهم على نواقصهم وتشوهاتهم التى هى فى الحقيقة نواقصه وتشوهاته هو الشخصية وأبرز دليل على إخفاقه الذريع فى مهنته مقارنة بأبسط حداد أو نجار نعرفه . ثم راحت تفسر الأمر قائلة : إن الأصل فى كل القصة أن هذا الإله البائس الفاشل المثير للشفقة المنتحب طوال الوقت لاكتشافه أنه آخر من يصلح لمهنة الخلق وكل ما يصنعه يرتد إلى صدره ، لم يأت صدفة ؛ إنما لأن الإنسان قد خلقه على صورته ومثاله ، ولم يكن أبدا بوسع الأنبياء -تلك الحثالة البشرية معدومة المواهب الذين امتهنوا الدجل لفشلهم فى كل الحرف الأخرى- خلق إله أفضل ! ... هكذا كانت أحيانا تجيب !

أقامت هالة على موقعها محاكمة مهنية تحاسب ذلك الإله على ما اقترفه من أخطاء فادحة فى الخلق تسببت فى تعاسة المخلوقات ، ذلك من شياطين شريرة وموت محتوم وشيخوخة مؤلمة وميكروبات قاتلة وحشرات ضارة ونفسيات مختلة وتعصبات دينية ... إلخ ... إلخ ، ودعت لعضويتها كل من يمكن أن تنطبق عليه صفة مبدع أو خلاق فى مختلف مناحى النشاط البشرى ، وكما توقعت أصدروا حكمهم بالإدانة والإعدام . أيضا قالت -من بين ما قالت- إنه إذا كان الإله على مثل هذه الدرجة من الفشل وقلة والحيلة ، فما الذى يضمن لنا أنه سيكفل لنا الجنة لو سرنا خلفه ؛ فى كل الأحوال المشى وراء الشيطان أضمن بكثير . بهذه الكلمات -ودون أن تدرى وقطعا دون أن تقصد- كانت ملهمة من حيث لم تحتسب لسلسلة من طقوس عبادة الشيطان فى قصر البارون المهجور ، ذلك فى السنوات الأولى لأول عقود الألفية . على أية حال ، بعد سنوات كاملة من تأسيسها لموقعها بدأ ظهور مواقع علمانية كثيرة على الإنترنيت ، لكن أيا منها لم يكن بمثل عمقها ولا سعة خيالها ، كما أن قلة فقط هى التى كانت تكتب بأسمائها الحقيقية مثلها . بمعنى أو بآخر ، ها هى تواصل المسيرة ، مسيرة الفكر المعمق والنضال من أجل الحداثة ، بينما معلمها يهرول وراء إنتاج الأفلام ، التى أيا ما كانت أهميتها فهى لا تضيف الكثير لمسيرته الفكرية السابقة . كانت أيضا تبدو كمن تعايره ، كلما قالت له أنه منذ ظهرت مؤسسات قياس الجماهيرية على الإنترنيت ، وموقعها يحتل المكانة الأولى بين كل مواقع العالم المناظرة بمختلف اللغات . لقد كان ولا يزال الأنجح إطلاقا فى التصنيف المسمى ' مواقع كتاب الرأى متعددى الاهتمامات ' ، وبفارق شاسع عن كل المواقع المثيلة . لم يغضبه أى من كل هذا بالمرة ، لكن فى ذات الوقت لم يحدث أن قال لها قط إنه يرى فيها امتدادا له . مع ذلك كانت تلحظ بسهولة

نظرات الحب فى عينيه ، زائد لهجة الاحترام والهدوء الزائدين فى كلامه معها ، الأشياء غير المعتادة من شخص حاد الأفكار متهور مثله ، وكأنه -ربما- يخشى أن تنهال عليه تقريعا ، فقط كما اعتاد هو أن يفعل مع الجميع !

حتى لو لم تكن هالة قد صنعت الكثير من الأحداث على نحو مباشر أو درامى ، فلا يمكن تجاهل أن كتاباتها كان لها أثر واضح على بعض كتاب التيار الرئيس فى الصحافة والإعلام ممن لهم أصلا ذات الأفكار ، فأعطتهم شجاعة ، أو على الأقل غيرة أن يحاكوها بعض الحرية التى تتمتع بها دونهم . أما الآن -أواخر عقد الصفريات- وقد صارت الإنترنيت وسيلة الإعلام الأولى ، والتقنية الرئيسة لمشاهدة التليڤزيون نفسه ، بل أصبح الحاسوب الشاشة الوحيدة لممارسة كل شىء وفى كل مكان ثابتا أو متحركا ، أصبحت هالة سلطة لا يستهان بها فى الثقافة الناطقة بالعربية ، ومن مداعبات وحيد الدائمة لها تعليقا على تأثيرها الصامت على المثقفين وصناع القرار أن كان يصفها بأنها من يحكم مصر من خلف الستار . ثقتها بنفسها تغيظنى . هل تصدقون ماذا قالت عندما قلت لها أفكارك حلوة اكتبى بالإنجلش ؟ قالت بعد قليل الترجمة الأوتوماتية ستصنع نسخ بكل اللغات من موقعى ، وليس الإنجليزية فقط ! هذا صحيح من حيث أن أفكارها الجامحة شبه الخيالية هى التى تجد طريقها للتنفيذ فعلا ، ووحيد لا يجد مشكلة فى تفسير هذا ، ويقول إن السبب ببساطة هو مادية فكرها ، فكل الآخرين يقولون كلاما أجمل منها بكثير ، لكنه فى النهاية مجرد كلام . أما هى فتقول إن ذلك الشعور بالجبروت لا يأتيها أبدا ، وإنها تنتظر اليوم الذى تلقى فيه حقا اهتماما من هؤلاء لأنها جهزت كلمة لهذه المناسبة هى ذات كلمة تشرتشل ' أنا أقف هنا (أى رئيسا للوزراء) فقط لأنى فشلت (أى فى إقناعكم بخطر النازية) ! ' .

يا أستاذ ، هذا ليس وقت الكتابة الأكاديمية ؛ فى هذا البلد ، حتى يسمعك الناس عليك أن تصرخ ! لا تصدقوا كل ما تسمعون . إنها تكذب ! نعم ، هى تصرخ ، لكن على الإنترنيت حيث لا تحدث ذات الجلبة التى يحدثها ما يكتبه أمثالى فى الصحف والتليڤزيون حيث يتحفز الجميع ضدنا ؛ الإنترنيت فضاء واسع ولذا تتبدد الأصوات فيها . على أية حال أعتقد رغم ذلك أن هذه المتزيدة الهوجاء ، هى التى تقود كل مصر ، تقودها وإن بهدوء ؛ تقودها من مركز القيادة الخلفى الذى وظيفته توجيه الصفوف الأمامية . هى لم تدخل قط معارك ضخمة مدوية ولم تتلق يوما تهديدا بالقتل ، لكنها فقط تقول كل ما يجب أن يقال وكما يجب أن يقال وكما لا يمكن أن يقال فى الوسائط الأخرى ، بعدها تترك النخبة تقرأ وبالبطء الذى يشاءون يهضمون ما تكتب ويتأثرون به ، ويثيرون -هم لا هى- الضجة بكلمات سبقتهم إليها بسنوات ، وتلك ' الجبارة ' راضية بهذا الدور ... ولا تصرخ !

– أنا لست جبارا !

– ماذا قلت ؟

– لم أقل شيئا .

... لماذا لا تفارق صورتك مخيلتى أبدا أيتها اللعينة !



أسوأ اختراع فى التاريخ

– تعرف يا وحيد أنا أكتر حاجة شاغلانى إيه ؟ إللى شاغلنى عيلتنا رايحة لفين ؟ بأدرسها جيل ورا جيل ، من أول بنى هاشم ومايكل كووك لغاية منى بنتى ، أو الطفل إللى ها تخلفه يسرى من جوزها الأمريكانى ؟

– قلت بنى هاشم ؟

– أيوه !

– كمان موش أى بنى هاشم ؛ أنا من الأشراف ؟ جدودنا الكبار من مكة . استقروا فى بلبيس فى الأول . صحراء ورعى على المطر وكده . وجدى ارتحل وجه القناطر وتزوج فلاحة منها .

ويتدخل إدوارد : ' أنا موش نصحتك بلاش تجيب سيرة الأشراف (الأحطاط الأشظاف الأشلاف الأجلاف) تانى ؛ قرب اليوم إللى ها يلموكم فيه فى ميدان ويحرقوكم باعتباركم المحتلين إللى نهبوا بلدنا ! ' .

– أنا مالى بكل ده ؟ خللى عندك نظر . شايفنى قدامك بأقطع لحم حد ؟ كل عيلتنا والحمد لله ناس مسالمة وآخر جمال ، روح اسأل علينا . كل الناس بتحترمنا وتحبنا وما فيش بينا وبينهم غير المعروف .

ويتداخل ونس : ' بس موش جايز الاحترام والمسالمة دول ، بسبب نصك الإنجليزى والأرمنى ويا عالم إيه كمان ، الشعب المصرى اختلطت فيه كل الأعراق ؟ على الأقل تقدر تقول ربع إنجليزى وربع عربى ونص مصرى ؟ ' .

– موش بالظبط ربع عربى ، ولا بالظبط ربع إنجليزى ، فيه أرمنى وحاجات تانية . مستر وحيد هو إللى بالظبط ربع إنجليزى !

– يا ريت كده وبس : النص المصرى ده ربعين ، ربع صعيدى وربع فلاحى !

– صح يا تخين يا بتاع دمياط أنت . إيه المشكلة ؟ !

– لأ ، فيه مشكلة ! المشكلة أن ها ييجى يوم يقسموك أربعة زى الفراخ بتاعتك . هأ ! هأ !

– شايف ؟ الحمار نهق حاجة صح . القبيلة ما عادوش بيعتبرونا منهم ، بيحتقرونا ، بيقولوا علينا بقينا فلاحين .

– كله إلا دى ! دى ناس الدم عندهم ما يقاش ميه أبدا !

– بس ممكن لما يتخلط بالميه ، ما يقاش دم . (ويعود لوحيد :) يعتبرونا منهم ، أو ما يعتبروناش ، طز فيهم . أنا مشغول بالچيبنات ، إللى بيقول عليها المتخلف ده . جايز ده سبب إللى بتقوله عنى إنى كل يوم برأى ، أو إللى بتقوله فى سرك ، أنى ما ليش شخصية . بس أنا مبسوط بنفسى كده .

– إنما إيه اسم ' المصرى ' ده يا حاج ؟

– ' الفخد ' الكبير كانوا فى مستقرين فى شرق الأردن ، ولما كان حد من جدودنا يروح يزورهم يسموه ' فلان المصرى ' ، ' علان المصرى ' ، فبقى اسمنا كلنا عيلة المصرى .

– كمل كلامك .

– بأدرس عيلتنا جيل ورا جيل ، وموش لاقى إجابة للسؤال . أنا طالع شوية صغيرة لعيلة أبوى ، لكن يسرى ومجدى طالعين بالكامل لعيلة أمى . تخيل موش مهتمين حتى ياخدوا شهادة أنهم من الأشراف (رغم أن موش ضرورى عندنا وشم ع الضهر ولا حاجة) . عيلتنا طالعة لقدام ولا راجعة لورا ؟ هل الاختلاط ده حسنها ولا ضرها ؟ هل لو حسنها التحسين ده مستمر ، ولا ممكن يرد تانى . ونعمل إيه علشان تفضل تتحسن على طول . منى ها تكون إيه بالظبط ؟ أنا ما عنديش إجابات . آه لو تعرف صراصير مخى أنا ، صراصيرك ما تجيش فيها حاجة . بعد عنها أحسن لك ، دى تقرضك قرض وما تخليش منك إلا الشووز ؟

ما لبث وحيد مندهشا من رأى الحاج فى نفسه ، ومن وعيه بمعاناته ومن جهده الحثيث فى تأمل الأمور ، كل الأمور ، بحيث راح يبدو فى نظر نفسه كمجرد شاب غر يقف بين يدى حكيم كبير ، ويجادله بغرور . صمتا طويلا ، وبدأت تتقارب ملامح الوجهين ، وجه وحيد المتهلل ، ووجه ضهرى الغاضب . أصبح كلا الاثنين واجما ، هذا إلى أن فى نهاية المطاف انفرجت أسارير الأخير ، وراح يداعب وحيدا : ' هييه ! دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! '

– إنما اسمح لى يا حاج أسألك السؤال بطريقة تانى : إزاى بعد كل الاطلاع والتحليل ده ، أنت لسه مؤمن وبتصلى ؟ ' .

– بص : أنا أمى ما كانش لها فى الدين . بمعنى أنى متعود على كل الأفكار الملحدة بتاعتكم دى . ولما تشوف حد كده ، موش لازم أم ، مجرد صديق ، مجرد كتاب ، بتفضل شكاك طول حياتك . طول عمرك ما ها تبقى زى بقية المتدينين ، إللى بأسميهم المتدينين عميانى ، متدينين بالوراثة ثم بغسيل المخ منذ اليوم الأول للولادة . لكن كل ده ما لهوش دعوة . لأن فيه أسئلة ما بيجاوبش عليها العلم . الحقيقة وحش ما حناش قده . هل ها نموت زى الصراصير وننتهى ؟ هل هى دى كل قيمة الإنسان ، صرصار اندهس ؟ دى حتى فكرة تجيب اكتئاب ! قدماء المصريين ما اخترعوش فكرة الخلود ع الفاضى أو علشان يسلوا أنفسهم !

– موش الإنسان وحده إللى ها يندهس زى الصرصار ؛ كل المملكة الحيوانية كده !

– هل تريد إقناعى أن كل هذا الكون بلا هدف ولا حكمة ، وموجود لأنه موجود وخلاص . أنت مريح نفسك وبتقول موش ها نعرف أبدا . طب ليه ما نحاولش ؟ موش بمزاجى أنى پروسيسور بايظ وميمورى بايظة . فهمت ؟

– على فكرة أنا موش ملحد . أنتم الملحدين . لو عم نبيل بينا دلوقت كان قال لك فى اللغة الإلحاد هو الانحراف عن الصراط المستقيم . البشر كانوا عايشين لآلاف السنين من غير إله التوحيد ، وإللى اخترعوه هم إللى انحرفوا ، ألحدوا .

لا يجد وحيد ردا جديا فينطلق : ' قديما قالوا تعدد الأديان يلغيها جميعا ، لأن الإله لا يمكن أن يكون قد أرسلها جميعا ، ولا يمكن أن يكون قد همس لكل نبى فى أذنه أنه خاتم النبيين ، وقرر هو التقاعد . أنا أرى العكس أيضا : تشابه الأديان يلغيها جميعا : لقد أجمعت على خرافة ذلك الهراء المطلق المسمى المطلق ؛ ومطلقيته هذه هى أكبر عائق أمام تقدم أى أحد أو أية أمة . انظر كم التخلف والقهر والحروب وحمامات الدم وعصور الظلام التى عانت منها البشرية بسبب الدين فى حد ذاته ، أو بسبب افتراض كل فصيل أنه وحده صاحب مفاتيح الفردوس والعارف بكنه ذلك الإله . حتى المسيحية رمز التسامح خاضت قرونا من الحروب الداخلية هائلة الدموية فى أوروپا . المشكلة تكمن فى طبيعة ذلك الإله نفسه الـ all-mighty ، المطلق . آلهة الأغريق والرومان خلقت كى ' تتلطش ' و' تتهزأ ' وفى خاتمة المطاف تهزم . طبقا لما قلته أنت للتو ، هذا ما أرادته شعوبها منها لأنها شعوب عظيمة أو كانت كذلك ، وتلك كانت وظيفتها الأنثروپولوچية التكيفية عند هذه الشعوب . فالآلهة رموز لقوى الطبيعة البطاشة والمفترض فى الإنسان -لو كان يحترم نفسه حقا- أن يروضها لا أن يركع لها . أما الشعوب المنحطة -إللى اتفقنا أنت وأنا أنها منحطة وموش ها نرجع فى كلامنا- فتفضل أن تعيش عمرها ذليلة تحت رحمة أقدار يأتيها بها إله قبيح مشوه نفسيا يسكن سماء موهومة يسمى الواحد الأحد القهار . أليس ذلك الإله الخفى هو أكبر مؤامرة فى التاريخ الإنسانى ؟ مؤامرة وليست نظرية مؤامرة كنظريات ونس ، وبالذات وأن أصحاب المصلحة فيها معروفون بالاسم . ما أسهل أن يذهب شخص لشجرة أو لجبل ، وبدلا أن يفعل كما يفعل كل الناس فى هذه الأماكن فى تلك الأيام (يشخ يعنى !) ، تلهمه رائحة الخراء أن يعود لقومه البلهاء ليقول لهم لقد ظهر لى هناك إله خفى لا يظهر نفسه لأحد قط ، ثم يبدأ يتلو عليهم قاذورات إجرامية كى يستعبدهم لنفسه بها ، اسمها الوصايا العشر أو القرآن أو أيا ما كان . يا له من دجل ، بل يا لها من فكرة جهنمية لا يتفتق عنها إلا ذهن شرق أوسطى سيكوپاتى أثيم فريد الإجرام . صحيح ! لماذا خفى ؟ ! لماذا ليست تلك الأوثان الوديعة البديعة التى كنا نعبدها فى الأيام الخوالى ، فى عصر البراءة ؟ بل صحيح ! لماذا واحد ؟ ما الميزة أصلا فى شىء كهذا ؟ أليس ذلك الكون العظيم أجدر بعدة آلهة تتعاون على خلقه ؟ هل كان سيعيب أى من تلك البلايين من الآلهة لو تخصص كل واحد منهم فى خلق مجرة واحدة معينة ؟ أم أن الأمر برمته مجرد مرض لدى الذهن شرق الأوسطى السيكوپاتى الأثيم فريد الإجرام ؟ لماذا قامت الدنيا ولم تقعد من أجل ٣ أو ٤ آيات شيطانية ، بينما رأيى كل ما نسب من أطنان الكتب لآلهة السماء الخفية هى جميعا آيات شيطانية . إن أى شىء فى الوثنية هو أرقى وأجمل وأنبل من كل شىء فى الأديان الثلاثة المسماة بالمتجلاة ، وفى قول آخر الإبراهيمية ، وفى قول ثالث أسوأها جميعا : السماوية ، وفى قول رابع أفضلها جميعا : الأخناتونية (طبعا بعد استبعاد البروفة الأولى التى لم يكتب لها العيش ، لكن كتب لها التناسخ : الآتونية العمارنية !) . أنا رأيى أن أسوأ اختراع فى التاريخ هو إله التوحيد . أنا أقسم الأديان لقسمين كبيرين : أديان خيرة محترمة وأديان حقيرة شريرة . عموما كل أديان الدنيا خيرة محترمة ، إلا أديان الوحى الثلاثة فهى بالقطع حقيرة شريرة . ليس السبب فقط أن الإله المحترم لا يلهث وراء الناس ، إنما لأن الوحى هو أكثر الأفكار خبثا وشيطانية فى التاريخ ، كل دجال سفيه سفيل ، كل من هب وفز وشذ ، يخرج يوما ليقول لنا إنه سمع -وحده دونا عنا جميعا- صوتا أتاه من السماء فيأمرنا بالإنقياد خلف نبوءته وشخصه وسلطانه طائعين كالقطيع . من الأشرف والأكرم والأرقى لى أن أعبد ديانا أو أپوللو أو أفروديت ، على أن أعبد ذلك اللهو اللغو الغبى الخفى السفيل السافل المريض ساكن المجهول ، إله الخراء ، الإله الذى لا تجذبه إلا رائحة الخراء ، والذى لا يتوالد أو يترعرع -أو حتى يتجلى- إلا فى حقول الخراء . كمان على فكرة أنا لى نظرية أن يوسف جوبلز لما قال كلما كبرت الكذبة كلما سهل تصديقها ، كان يقصد ذلك اللهو الخفى ساكن السماء الذى لا يراه أحد قط . إيه رأيك ؟ ' .

– أنت نازى بأه !

– هو علشان عجبتنى جملة أبقى نازى . على أية حال النازية لو كانت احتلت لغاية فرنسا وروسيا ، كان أكيد إدتنا أوروپا أفضل . كان هناك غلطتان لا تغتفران ، خطيئتان ، أوشويتز ودنكرك . اليهود هم أصحاب الفكر والعلوم ، سپينوزا وماركس وأينستاين وفرويد وكل الناس دى ، والإنجليز هم الثورة الصناعية إللى ألمانيا نفسها مجرد تلميذ عندها . اسمح لى : زى ما بيقولوا ' العين ما يصحش تعلى عن الحاجب ! ' .

– (دون أن يهتم بالمجادلة فى فحوى الكلام ، أو لعله لم ينصت له :) الله يرحمك يا نبيل !

– (مصححا ما قد يكون فهم خطأ :) على أية حال الموضوع طبعا موش موضوع خطيئتين أو عشر خطايا . أكيد النازية كلها كانت أيديولوچية كراهية ، ردود أفعال ، موش فعل إيجابى رؤية وبناء . وأكيد ما كانش ممكن تعمل غير إللى عملته ، تضرب الكل وتعادى الكل .

– فعلا ، الحقد يأكل الروح !

– وفعلا أنا طلعت بره الموضوع !

– ما فيش أى شىء بره الموضوع . برضه دى لازم تفهمها ! (ثم يعود حانقا :) عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟

– عارف ! مرزبة !

– لأ ، ها أجيب قومبروصور (يقصد كومپريسور) بروحين وشوية بطاس . أصب البطاس فى ودانك ، وأحط فى كل ودن خرطوم ، وأنفض لك مخك ده من الصراصير إللى فيه . (ثم يكشف عن السبب غير مبال بأنه يعكس من جديد الضفة التى كان عليها موقفه قبل أيام :) إيه إللى أنت بتقوله ده ؟ الإسلام طور علوم كتيرة ما لهاش أول ولا آخر . ثم الأسطرلاب ده ، موش منتج تقنى ؟

– بص : أنا صحيح جاهل بالتاريخ العربى ، إنما ده بالذات أعرفه كويس . ده اختراع يونانى . الاسم نفسه يونانى astrolabe . منذ الأزل وأثبت العرب أنهم أساتذة العالم فى الدعاية والإعلام والپروپاجاندا . الكلام هو مهنتهم الوحيدة ، ويستطيعون لوى الحقائق وخلق الأساطير كما يحلو لهم . اليونان برضه إحنا فاهمينها غلط . على صغرها وعدم توسعها ، هى حضارة بكامل معنى الكلمة ، موش علوم نظرية وفلسفة وشعر وبس ، فقط لأن الانتقال كان سلسا سلميا وغير محسوس منها لروما (بدون حرق للأرامادا وبدون حرب استقلال أميركية) ، لجاز اعتبارها حضارة مستقلة . حتى الأسطرلاب موش أهم اختراع لهم فى الفلك ، لهم آلة أعقد بكثير اسمها Antikythera Mechanism بتعتبر حاليا أول حاسوب فى التاريخ . أما بالنسبة للعرب فكل علاقتهم بالأسطرلاب هى أنهم عرفوا يستخدموه إزاى ، والسبب طبعا واحد ما فيش غيره : أنه بينفع فى تحديد القبلة . ربما عدلوه قليلا ، وإن كان من غير المعروف حتى اسم الشخص الذى أعطاه الشكل الكروى ، وهل هو عربى أصلا أم لا ، وهو تعديل ثانوى فى كل الأحوال . على أنه سواء كانوا قد عدلوه ، أو حتى اخترعوه ، فإنه لن يختلف ساعتها عن التحنيط الفرعونى : تقنية مبهرة ، لكن استخدام غير دنيوى . منتج تقنى إللى أقصدها معناها شىء يؤثر على الحياة اليومية للملايين ، زراعة ، طرق ، حدادة ، طباعة ، قطارات ، كهرباء ، سيارات ، طائرات ، تليفون ، ثلاجة ، تليڤيچن ، انشطار الذرة ، ترانزستور وأشباه موصلات ، كمپيوتر ، ليزر ، هندسة چينية ، كده ! العلوم حاجة والتقنية حاجة . أفتكر زكى نجيب محمود بتاع ' إنما الأمم التقنيات ما بقيت ' ، قال أيضا -ولم يكن فى حاجة للقول لأن العبارة الأولى تكفى- الحضارة الإسلامية حضارة وصفية . أفتكر يقصد نفس المعنى الذى أقوله لكن بطريقة مهذبة : أنها أساسا موش حضارة ؛ فقط بعض بحث علمى فردى متفرق ، لأناس غريبى الأطوار يسخر منهم المجتمع ككل ، وحتى تسخر منهم زوجاتهم أنفسهم .

– (ضاحكا :) كحكاية من كان يدرس الصوت من خلال محادثة البئر ! يعنى باختصار عاوز تقول لا توجد حضارة إسلامية ، توجد حقارة إسلامية !

– أولا وحياتك بلاش تلبسنى تهم . ثانيا تقدر تقول لى مثلا إيه معنى التقويم الهجرى ؟ ١٢ شهرا قمريا لا تعنى بالمرة أى شىء فيزيائى أو فلكى على وجه الإطلاق . تقويم بدائى جدا أتى من أناس بدائيين جدا ، وأجزم لحجاب وأمثاله أن هيهات ستعيش مصر بالتقويم الهجرى أبدا (على الأقل سنتهم القبطية إللى اخترعوها لها معنى ، حتى وإن كان بعد ٢٠-٣٠ ألف سنة كيهك ها ييجى فى الصيف وبؤونة فى الشتاء وتبوظ زراعة أمنمحات ورمسيس !) . إنهم حتى كانوا يطلقون على السنوات أسماء لا أرقام (الفيل – الرمادة – موش عارف إيه) ، يعنى ما كانوش بيعدوا السنين أصلا !

– رمسيس موش بتاع زراعة ؛ رمسيس بتاع سمسرة أوراق مالية .

– ثالثا ليس معنى أن غزا العرب معظم العالم أنهم حضارة بالضرورة ؛ تقدر تقول لى لو هم أصحاب حضارة صحيح ليه بنوها فى الأندلس وما بنوهاش فى بلادهم الأصلية ؟ تقدر تقول لى ليه تسمى مآذن الجوامع منارات وهى لا تنير ؟ أليس لأن الفكرة والاسم سرقا من منارة الأسكندرية ،

والتى بعد أن أخذوا منها الفكرة هدموها ؟ ! رابعا أنت عاوز تتناقش بجد ولا بلاش أحسن ، بالذات وأن شكل أخونا روميو موش مبسوط خالص من الصداع ده ؟

وينفجر روميو : ' كل يوم ها تصدعوا لنا دماغنا بالطريقة دى ؟ ! مشتريين أسهم وسايبينها تعتق زى الخمرة ، وجايين عاملينها لنا بار هنا ! روحوا شوفوا لكم حتة تانى اتناقشوا فيها ' .



زى كل حاجة عند العرب ، الكلام حاجة والفعل حاجة ، لغو ومظاهر طنانة جدا والكلام موش بفلوس وأبو بلاش كتر منه ، والجوهر هو العكس . الإسلام حريقة فى الكلام عن التوحيد ، بينما الجوهر وثنى جدا ومشرك جدا . عارف ليه ؟ لأن التوحيد فكرة سهلة بسيطة مبسطة وتبسيطية جدا ، ولو كان فى وسع مُحَمَّد ومستواه العقلى والذكائى ، خلق -أو التعامل مع ، أو حتى مجرد فهم- عقيدة مركبة ومعقدة لاهوتيا وفلسفيا كالمسيحية لما تردد فى ذلك لحظة ، بل كان قد بشر بإله ذى سبعة أقانيم ، إن لم يكن ذا ١٦ بعدا (على غرار الكون فى نظرية الوتر الفائق) !

– يا ريت تفضونا من مناقشاتكم إللى لا بتودى ولا تجيب دى ، ولا لها حتى علاقة بالأسهم . هات لى قهوة يا نصر الله ! (ثم يحاول أن يقلب الأمر مزاحا لعلهم ينسونه :) سيبكم م الرسومات والأفلام والخطب وخلينا فى التقويم الهجرى : عارفين إيه أكبر إساءة للإسلام فى التاريخ ؟ ... أن نيل أرمسترونج داس على من نصوم لرؤيته ومن نفطر لرؤيته ! هأ ! هأ ! ... عارفين كمان المسلمين ردوا عليه قالوا إيه ؟ ... قالوا القمر ده بتاعنا ! إشمعنى ؟ قالوا أنتم ما سمعتوش عن غزوة بدر الكبرى ولا إيه ؟ هأ ! هأ !

لكن ونسا يعارضه كالعادة : ' أنت موش مبسوط ، أنا مبسوط ! أنت عاوز تمنع الناس م الكلام ؟ ! كلامك صح يا وحيد : الشهور القمرية لأن اللات هى إله القمر ، وهى نسخة الصابئة من البعل إله البابليين ، ومُحَمَّد حط رتوش بسيطة ، غير ترتيب حروف كلمة هلال إلى الله (بفرض أنه كان يعرف حروف الهجاء ، المؤكد أنه كان يعرف أن عليه أن يسب كل عبادة على وجه الأرض لا سيما عبادة بلقيس للشمس ، لكن لم يحدث أن مس مرة واحدة القمر أو عبادة القمر) ، وأمر أن تجلل به قبة كل جامع ، فى وضع نكاح جنسى بين هذا الذكر الأعظم الإله القمر والطفلة مناة الإلهة النجمة الحسناء الصغيرة (يعنى ما تفرحوش يا مسيحيين برسم الصليب وسط الهلال ، لازم تعرفوا إيه أصل الحكاية فى الأول !) . زى كل حاجة عند العرب ، الكلام حاجة والفعل حاجة ، لغو ومظاهر طنانة جدا والكلام موش بفلوس وأبو بلاش كتر منه ، والجوهر هو العكس . الإسلام حريقة فى الكلام عن التوحيد ، بينما الجوهر وثنى جدا ومشرك جدا . عارف ليه ؟ لأن التوحيد فكرة سهلة بسيطة مبسطة وتبسيطية جدا ، ولو كان فى وسع مُحَمَّد ومستواه العقلى والذكائى ، خلق -أو التعامل مع ، أو حتى مجرد فهم- عقيدة مركبة ومعقدة لاهوتيا وفلسفيا كالمسيحية لما تردد فى ذلك لحظة ، بل كان قد بشر بإله ذى سبعة أقانيم ، إن لم يكن ذا ١٦ بعدا (على غرار الكون فى نظرية الوتر الفائق) ! بفرض أن المسيحية أو غيرها ليست ديانة توحيدية ، هذا لا يثبت تلقائيا زيفها ، لأن لا دليل أصلا على أن الإله واحد ، بل هى مجرد بروپاجاندا صاخبة أصموا بها الآذان والأذهان . أنا إللى طول عمرى ما كتبت موضوع تعبير كويس ، لو فرغت نفسى شهرا لقمت بتأليف أعظم دين إطلاقا ، وقطعا بلا هفوة واحدة ! ثانيا : صح العرب أو المسلمين لم يصنعوا حضارة أبدا . أفضل الأشياء ابن رشد وابن خلدون ، علوم فلسفية واجتماعية هى فى قول آخر اليونان بلسان عربى (بل هل عربى حقا ، ابحث جيدا فى سلالة هذين المفكرين !) ؛ فالشعوب الساموية لا يمكن أن تبدع شيئا من تلقاء نفسها أبدا ، أو ربما أيضا بعض آخر قليل جدا من العلوم الطبيعية ، دع جانبا أنها كلها تقريبا من صنع ١– غير عرب ، أى من بلاد حضارات الهامش الثرية القديمة ، فارسية قوقازية إسپانية ...إلخ ، ٢– غير مسلمين غالبا ، أى مسيحيين ويهود وفرس ، طبعا فى حال أن سمحت لنا ' سماحة الإسلام ' بالسماع عنهم أصلا ، ٣– دائما غير مؤمنين ، غالبية أو أقلية ، حتى ذوى الخلفية المسلمة منهم ، لم يكن ينظر إليهم بأكثر من كونهم مجموعة من المارقين الملاحدة ممن يقولون أو يهتمون بأشياء غامضة شيطانية غريبة ، ٤– تحديدا كل ذلك تحت قيادة حكام صريحى ' الكفر ' كالخليفة المأمون ونسله الوجيز ، ممن تبنوا أطروحة القرآن مخلوقا ، وحرصوا على سجن وتعذيب أمثال المهوس الدينى أحمد بن حنبل ، وربما كان أول مثال لديكتاتورية الحداثة التى تنادى بها يا وحيد . بعبارة أخرى ، لو كانت الحضارة الإسلامية

حضارة حقا أى ثورة تقنية ، لما اكتسحها المجول فى أسابيع فى وقت كانت تعد فيه فى أوج شبابها وازدهارها ، وقضوا عليها للأبد ؛ هؤلاء على نحو ما -حسب تعريفك- كانوا حضارة ، ابتكروا إطلاق الأسهم من فوق صهوة الجياد ، وهى تقنية ! أما بالنسبة للأندلس ، العرب لا يعرفون شيئا اسمه البناء ، وعندما بنوا بأنفسهم بنوا الفسطاط ، أى مدينة الخيام ، أما ما بنوه فى قرطبة كان تقنيات وجدوها هناك ، وبمهندسين وجدوهم هناك ، وبأموال استولوا عليها من هناك ؛ بل بالأحرى لم يبنوا شيئا أصلا ، إنما تقاتل ملوك طوائفهم على نهب ما هو قائم بالفعل بأيدى غيرهم ، وفى النهاية عندما فاض كيل المسلمين الحقيقيين ' الموحدين ' بكفرهم وبموالاتهم لليهود وبفرض ذوبانهم فى حضارة الإسپان هذه ، اكتسحوهم قاتلوهم .

ويتداخل الحاج : ' وماذا عن الفاطميين ؟ هل همج أيضا ؟ ! ' .

– هذه قصة مختلفة . الفاطميون الذين جاءوا من شمال أفريقيا -أولئك المسالمون المتحضرون بدرجة ملموسة ، بفضل احتكاكهم الطويل بالرومان أو انتسابهم أحيانا لهم (طليعتهم إلى مصر -جوهر الصقلى- من صقلية -واضح !) ، والذين من العجيب أن ينسبوا أنفسهم لامرأة وهم فى محيط ذكورى بالكامل- لم يكونوا متدينين . كانوا شيعيين بالاسم والنسب الشكليين فقط ، بل وحتى هذا النسب نفوه لاحقا عن أنفسهم بقدر ما نفته عنهم الخلافة العباسية ، وقالوا إنهم ادعوه اتقاء لشر الخلافة الإسلامية ، بينما هم أمازيغ ، الأمازيغ فى الأصل القديم جدا مصريون ارتحلوا غربا ، ذلك حين غزا الحاكم بأمر الله الحجاز وأتى كما قيل بباب الكعبة وحجرها الأسود المقدس ليجعلهما مرحاضا ومداسا عموميا للمصريين (وكاد ينبش قبر مُحَمَّد ليفعل بجثته ذات الشىء ، وكلها للأسف قصص لا يحب أحد ذكرها وكادت تنسى) . كانوا علمانيين لحد كبير ، تؤذن مساجدهم ' حى على خير العمل ' ، باعتباره أفضل من أية صلاة . ارتحلوا بكاملهم لمصر بما فى هذا رفات أجدادهم معهم ، وولوا قبيلة أخرى من الأمازيغ خلفهم على شمال أفريقيا لأنهم لم يعودوا يريدونها ولا يريدون أرضا ولا إمبراطورية ، فقط لا تهمهم سوى مصر . فى مصر والوا لأبعد حد مسيحييها ويهودها . هؤلاء هم من بنى مهندسوهم كل القاهرة الفاطمية (لاحظ تطابقها مع عمارة المتحف القبطى مثلا ، ولاحظ أن اسمها مستقى من كوكب المريخ ' القاهر ' الذى ظهر يوم تمامها ، وهو مؤشر على نوعية ثقافتهم العامة وأيضا الدينية) ، والوزير بدر الجمالى نفسه كان أرمنيا وأسلم إسلاما شكليا ولم يغضب هذا منه أحد ، مسلما كان أو مسيحيا . كل هؤلاء الخلفاء تقربوا بشدة للمسيحيين وكل عطلاتهم كانت فى الأديرة ، بالأخص أشهرهم المعز والعزيز والمستنصر ، بل هناك نظرية تقول إن الوحيد منهم -الحاكم بأمر الله- الذى أصابته لوثة دينية (ربما بعد أن وجد الأمور قد زادت عن حدها ووجد أن أمه مسيحية وأخواله بطاركة وأساقفة !) ، فهدم كنائس مصر وكنيسة القيامة صانعا أول نواة للحروب الصليبية ، والسبب أن رأى زيف إله التوحيد وتحداه أن يضربه بالطير الأبابيل عندما يهدم بيوته . على أنه فيما يظن سرعان ما عاد ووالى المسيحيين . تقول نظرية الأقباط إنه تصنع مقتله واختفى مترهبنا فى أحد أديرتهم ولم يعثر له على جثة ولم يقم له قبر حتى اليوم (وطبعا نظرية الإسماعيليين عامة ومن يسمون بالدروز خاصة ، تكاد تؤلهه كمسيح آخر رفع للسماء وتعتبره المهدى المنتظر ، وتعاليمهم السرية ناقمة بالكامل الإسلام ، شيعة وسنة ، وتقول إن الفاطوم هو ' المقام الإلهى ' ، أى الإله ، ولا علاقة للاسم من قريب أو بعيد بابنة مُحَمَّد) . حماسة شباب هذا الرجل ومثاليته المفرطة -التى ربما تقمصها من المصريين أنفسهم- هى أكثر ما يذكرنى بأصدقائى فى أسيوط ، وأعترف أنى تعلمت من عم ضهرى أن مثل هذا الإخلاص والنقاء صفات مصرية وغير عربية بالمرة . العرب وحدهم ، أهل السنة وحدهم -ولا أحد غيرهم- هم الهمج -بمعنى الكلمة- الوحيدون فى هذا العالم . أخيرا ، بالنسبة للماذا غزا العرب أغلب العالم بسهولة ، فالتفسير بسيط : ظلام غزا ظلاما تحت جنح الظلام ! ' .

– (يشرد قليلا :) حسب أمى المعز اسمه لديها ' المعتز بمصر ' ، وكانت تصفه بالمهاجر المصرى الذى رأى بلد أجداده تطأها القدم الهمجية فجاء ليحررها من العرب ويعيدها بلدا للبناء ويرجع لها بعض زهوها القديم ومن ثم لكى يستقر فيها للأبد . نعم ، قد أوافقك ، لكن تظل الحضارة يا حاج شىء يجب أن يعنى بالضرورة ثورة تقنية . الدولة الإسلامية لم تأتنا بثورة تقنية ، ولا حتى بمنتج تقنى واحد ، فكيف نسميها حضارة ؟ كل إللى عملته الإمپراطوريات دى أن جاءتنا بكلام × كلام = كلام تربيع ، خرافات وأساطير . هات ماعز وشعير ونساء وخد شوية ورق ، خد الجنة بتشيك يستحق يوم القيامة . هات تبعية واستغلال وخد شعارات ، خد liberté, égalité, fraternité . هات حروب وفقر وخد ثقافة وأيديولوچية ، خد اشتراكية ، خد أحلام ويوتوپيات . يا حاج ، من أجل توحيد العالم البعض يخترع ثورة تقنية ، والبعض يخترع إلها جديدا . يا للهزل والهزال ! الفعل الأول توحيد وتعاون وازدهار لكل البشرية من عقل كبير وقدرة حقة ، والفعل الثانى إرضاخ واستعلاء ونزح مباشر لعرق

الغير ، من محتالين قطاع طرق . حتى تكون قائدى أعطنى شيئا ملموسا أضعه فى يدى أو بطنى ، ولا تعطنى كلاما . هى دى مادية أرسطو إللى دايما ننساها .

– اختراع آلهة جديدة ؟ يا ريت ! طموحات العرب والمسلمين أصغر بكتير . حتى تحكم العالم ، فقط عليك أن تشترى شحنة سلاح من تشيكوسلوفاكيا ، أو قنبلة نووية من عبد القدير خان . ما فيش داعى تفكر فى أنك بتستخدم حاجات اخترعها غيرك . ما فيش داعى حتى تفكر أن إللى اخترع السلاح ده ، ممكن يخترع غيره أقوى منه ، لأنه بطبيعته مخترع ، وأنك استحالة تهزمه مهما اشتريت من أسلحته ، بينما أنت بالعافية بتحزق علشان تفهم اختراعاته لا أكثر .

– (معتذرا عن اندفاعه :) على أية حال أنا آسف أنى تقلت عليك بهموم شخصية ، ما بتهمش حد .

– على فكرة ! عارف كلمة ' خفى ' بتاعتك تبقى إيه بالفرعونى ؟ تبقى آمون ؛ صاحب أضخم معبد لإله على وجه الأرض فى كل التاريخ : الكرنك !

– لا ، لم أكن أعرف . أعرف فقط أن كل ما يخص الخرافة هو اختراع مصرى .



أكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ

– أنا طبعا قريت التوراة . بأبحث فى التوراة عن طبيعة الشعوب شرق الأوسطية ، وثيقة أنثروبولوجية ، إنما قيمتها الدينية لا أعترف بها . ما تنساش أنها محرفة .

– (يشيح بيده فى ضجر :) أوف ! مين إللى حرفها يا حاج ؟ اليهود ؟ وبهدف إيه ؟ كان أنبياؤهم منزهين ، وهم حرفوها علشان يقولوا عليهم أوساخ . عيب يا حاج ، الكلام ده ما يطلعش من واحد زيك . هى دى حقيقتهم من غير تزويق ، أو بالعكس بتزويق لكن محدود ، وإللى جعلهم منزهين مزوقين هو إللى قام بأكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ .

– أنت على طول كده مندفع ؟ أنت موش عاوز حد يبقى معصوم ؟

ويتدخل ونس مدافعا عن وحيد : ' معصومين مين يا عم ؟ إذا كان ما عصمش نفسه ، ويستغفر من خطاياه مليون مرة فى اليوم ، وعارف أنه سيرد الجنة ، ولن يخرج منها ما لم يتغمده الله برحمته . معصومين دى كلام ، وعند العرب الكلام شىء وما يقصدونه شيئا آخر . السؤال ليس ماذا حرف أو لماذا حرف أو أين حرف ؛ السؤال متى حرف ؟ هل فى الكام شهر ما بين ' لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ' و' وأولئك هم الكافرون ' ؟ لا توجد فرصة أخرى للتحريف . ثم أنتم زعلانين ليه من التحريف ؟ إخواننا البعدا (مشيرا لإدوارد) إنجيلهم المحرف بيقول لهم أحبوا أعدائكم . موش جايز الأصل غير المحرف كان بيقول لهم علينا قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمروا أعينهم ؟ عارفين إيه تانى أكبر عملية تزوير للتاريخ فى التاريخ ؟ ما يقوم به الأزهر الآن من إعادة طبع التراث وكتب الأحاديث بربع حجمها الأصلى ، مسميا هذا بتنقيتها من الضعيف والمدسوس والإسرائيلى . لا يسألون ما قيمة أن يحذفها الأزهر ، ولا تزال السعودية تتبناها ؟ حتى لو شطبتها السعودية فستظل لدى الجميع هى الإسلام الحقيقى ، ولو بقى منها نسخة واحدة سيظل لها اليد العليا فوق ملايين النسخ المنقحة . (ثم ساخطا محتدا بصوت أعلى من صوته العالى المعتاد :) إسرائيليات يعنى إيه ؟ الموساد دس على الطبرى وابن كثير والبخارى والقرطبى ما يكتبون ؟ ! هذه ' الإسرائيليات ' ما هى إلا جهود جبارة محمودة لعلماء أوائل حاولوا أن يجعلوا من شراذم أقوال مُحَمَّد الجاهلة المتفرقة دينا متكاملا متماسكا ، يغطى كل الموضوعات التى لا بد وأن يشملها أى دين كى يسمى دينا : قصص الخلق والأنبياء وما شابه ، التى يعلمون بعلمهم أنه بدونها لا يمكن له أصلا منافسة الأديان المعروفة (إلا لو استبعدنا السيف طبعا !) . الإسلام ليس دينا بالمعنى المعروف للكلمة ؛ اهتم بمكائد زوجات مُحَمَّد أكثر من اهتمامه بطبيعة الله ، اهتم بأدق التوافه لكن تحاشى الاقتراب من الأسئلة الكبرى ، حتى سؤال الروح نفسه تهرب منه ؛ وربما كونه دينا غير تام النضج هو سر تضارب مليون فتوى اليوم حول كل جزئية صغيرة ، وهى ظاهرة لا وجود لها فى أى دين . اليهودية احتاجت آلاف السنين كى تنضج وتتبلور على نار هادئة جدا ، المسيحية احتاجت ٤٠٠ سنة أخرى من الشغل المتواصل حتى تبلور من رحم اليهودية دينا جديدا ، أما القرآن فقد صيغ من الصفر (الوثنية) على عجل فى سنوات قليلة ، لم يتح حتى لصانعيه فيها الفرصة لتعلم الكثير من أوليات اليهودية والمسيحية . خد دى كمان يا إدوارد : بيقولوا القرآن احترم التوراة والإنجيل وكل الأنبياء ، لو حد قال لك كده تقول له الاحترام أنك تحترم التوراة ' المحرفة ' والإنجيل ' المحرف ' والأنبياء

' المحرفين ' ، لكن مرفوض أنك تتخيل حاجات من عندك لا وجود لها أصلا وتقول إنك تحترمها . خد دى كمان : تقول إيه للى بيقولوا لك مُحَمَّد تنبأ بهزيمة الروم ؟ ' .

– أى كلام ! طبعا لازم ييجى لهم يوم ويتهزموا ، فين النبوءة ؟

– غلط ! الإجابة موش كده . الإجابة أن له نبوءة تانى بتقول ' لا تقوم الساعة إلا والروم أكثر الناس ' ، هو ما سمعش عن الصين أو الهند ؟ ثم أن اليونانيين إللى عددهم صغير أصلا ، بينقصوا (وخللى على جنب كلام عمك وحيد أن الإنسان كله إلى زوال) !

– مُحَمَّد بتاعكم ده ما كانش عنده أية فكرة عن الدنيا بره الصحرا بتاعته ، زى حكاية الأسكندر إللى كنتم بتحكوا عليها أو زى أن ما فيش شروق وغروب فى القطب ؟ فاكر أنه ها يقول ده اتحرف ، الناس ها تقول آمين . صدقنى أنا ، خيال مُحَمَّد ده ما يزيدش عن خيال ناقة من إللى كان بيركبها ؛ ما سمعش عن اختراع اسمه مخطوطات أو مكتبات (ولا طبعا شافها) ؟ ده حتى ما عندهوش أى فكرة عن اللغات وفاكر كل الكلمات إللى حطها فى القرآن عربية ، وأن ربنا ما بيعرفش غير عربى ، والعربية لغة الجنة ، وطبعا واثق أن الناس ها تقول آمين ! ما يعرفش أن لغة اللوح المحفوظ برمتها لغة مهجنة لقيطة من السنسكريتية والأرامية والفارسية والقبطية والعبرية وعشرين لغة تانى أقدم منها . غلط فى نحو القرآن ١٠٠ مرة ، ومتأكد أن الناس ها تجرى تصلح وراه ، وتخترع قواعد مخصوص علشان تثبت أن كلامه منزل . هو جاهل ، إنما ببساطة متأكد أن إللى حواليه إما أجهل ينفع الدجل بتاعه معاهم ، وإما أضعف ويمكن قتلهم . أقلها يا أخى اليهود والمسيح والتلاميذ كان عندهم كتب وسمعوا عن الفلسفة والتاريخ والجغرافيا ، وحواليهم بلاد مثقفة وموش أى كلام يرموه ها يعدى بسهولة كده . مثلا القرآن يقول عن الأرض دحاها أى سطحها وبسطها ، والكتاب المقدس يقول صراحة إنها كروية . لن أقول لك هذا دليل ألوهية ووحى ، إنما كل ما فى الأمر أن هؤلاء اطلعوا قليلا على علم اليونان ، أما مُحَمَّد فهو أعرابى حجازى جاهلى مطلق الغباء لم يذاكر حتى اليهودية والمسيحية جيدا ، ناهيك طبعا عن علوم اليونان الطبيعية . كل إللى تعلمه مُحَمَّد فى شبابه عن اليهودية والمسيحية شوية طراطيش كلام من شوية عبيد أعاجم ، أو لو بعض معلومات دينية من كهنة أو حد فاهم شوية زى ورقة ، فهمها طشاش أو ربع فهم . خللى أسماء الأنبياء المحرفة زى يونس ويحيى وعيسى على جنب ، ها نبلعها ! إنما تقدر تقول لى إيه الأسماء الغامضة دى : من هو إدريس ومن هود ومن جريج ومن الخضر ومن صالح ومن بشر ومن شعيب ومن أنبياء أهل القرية ومن عمران ؟ إشمعنى بالتحديد آدم ونوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وموسى وهارون وداود وسليمان ذكروا بأسمائهم وبقصص أحيانا معقولة لحد ما ؟ السبب بسيط : أنهم الكبار المشهورون ، إنما الباقون فجايز سمع عنهم مرة أو مرتين ، فنسى الاسم أو نسى القصة أو نسى الاتنين ، فدخل أبو قرش فى أبو قرشين . يعنى حتى موش شاطر فى الغش ! عارف يا ونس إيه إللى حصل بالظبط فى الكام شهر إللى أنت بتقول عليهم ؟ ورقة بن نوفل مات ، وانقطع الوحى ، ثم عاد وحيا مختلفا بالكامل ، عندما تغيرت موازين القوى ولا استضعاف فيها : التثليث أصبح كفرا والمسيح لم يعد كلمة الله وروحه ، لم يعد مرفوعا للسماء ، ولم يعد الديان صاحب يوم الدينونة ، وكل إللى سبق وقاله فى صورة وحى من جبريل رجع نسيها كلها ، وفاكر أن الناس لازم تنسى هى كمان وتقول آمين ، وإلا الحل سهل دلوقت : يقدر يقطع لهم دماغهم إللى فيها الذاكرة المحرفة دى ! (ويرفع صوته مردفا بتباه ممزوج بضحكة تخفف من وطأته :) لأ ! فيه ناس لسه ما نسيتش !

– بقى هو ده إللى حصل فى الشهور إياها ؟ ! وحياتك أنت موش فاهم حاجة . إللى حصل موش خروج ورقة إنما دخول واحد تانى . الجلسة خلصت وأبقى أقول لك عليه بعدين ! على أية حال ده ما ينفيش كلامك عن موت ورقة ، وده واضح فى اللغة نفسها أكتر من أى حاجة تانية . لو قرأت القرآن بترتيب ما يسمى بالنزول ، لذهلت من تغير الأسلوب اللغوى ، ولوجدت المراحل اللغوية واضحة وضوحا غريبا : جمل قصيرة بينها سجع وتكرار وإطناب وتطجين ، اختفت وحل محلها جمل طويلة ذات معنى ، حاسمة حادة وتقريرية ، مباشرة وواضحة المحتوى بلا مواربة ولا تزويق ولا ألاعيب إنشائية ، وفى كلتا المرحلتين لا ناقة لمحمد ولا جمل !

يبدو وحيد سعيدا مبهورا : ' إيه الشجاعة إللى نزلت عليك مرة واحدة دى يا إدوارد ؟ ! تقدر تقول إللى قلته ده تانى بصوت عالى ؟ ! ' .

– (رافعا صوته :) طبعا ! أنت عارف حديث الوسادة ؟

– أيوه ! بتاع روك هدسون ودوريس داى !

– لأ ، موش ده ! بتاع لما شال الوسادة من تحته وقعد على الأرض وحط التوراة على المخدة وحلف أنه مؤمن بها ! هأ ! هأ ! هأ ! كنت عارف أنك ها تقول روك هدسون ودوريس داى ! هأ ! هأ ! هأ !

وينادى روميو على نصر الله من جديد ...



أتحداك أن تذكر لى قيمة أخلاقية واحدة جيدة أتتنا بها الأديان ، بما فى هذا المسيحية مفرطة المثالية (وبفرض أن أى منها أتى بشىء جديد أصلا) :

... العدل ؟ يقصدون المساواة وهى عين الظلم لأنها تنفى التنافسية وقانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest .

... التكافل ؟ مضر جدا لأنه يشجع على الكسل .

... التسامح ؟ كارثة ، لأنه يؤدى لازدهار الغشاشين الاستحلاليين الاسترقاقيين .

... باختصار ، الأفلاطونية خراب وجهل وغباء ! ... ألم تسأل نفسك يوما يا حاج : كل من بشرونا بالمثاليات أوصلونا إلى أين ؟

– إزاى محك ما بيبطلش شغل كده ؟

– ويبطل ليه ؟

– لأن شغله ومجهوده تعتبر فواقد ؟

– الله يسامحك ؟

– أيوه ! بتفكر فى كل حاجة ، وتتعب نفسك فى كل حاجة . قارئ قدى ١٠ مرات ، وأنا إللى كنت فاكر نفسى موسوعة . لكن النتيجة أنك توافق على كل حاجة ، وطول عمرك ما طلعت برأى محدد مع حاجة وضد أى حاجة .

– جايز دى الحاجة الوحيدة إللى ما فكرتش فيها ! (ثم حول دفة الحوار لمزاح لا يخلو من عدوانية :) هو أنت عاوزنى مكنة زيك ؟

– أنت مكنة فعلا ، بس ميمورى من غير پروسيسور !

– ماشى يا عم . أنا بأقرأ كتير . وبأفكر كتير . بس ما بأوصلش لقرار ، لأن الحقيقة نفسها صعبة . الحقيقة وحش ما حناش قده . وحش يأكلك موش أنت إللى تاكله . كل موقف تاخده بتكتشف بعد كده أن فيه حاجات فاتتك ، وعليك تعيد حساباتك .

– آه ! أنا آسف ! أنت عندك پروسيسور فعلا ، بس بايظ ! هأ ! هأ !

– يا ريت كنت مكنة زيك ، أبص للحاجة وأقول دى صح ودى غلط .

موش صح أوى . ألم أكن أنا نفسى مثلك هكذا بالظبط ؟ فى الثانوى والجامعة ، قرأت سارتر وفرويد وپاڤلوڤ وداروين وسپنسر وفريزر وماركس وأفلاطون وأرسطو . هكذا كان الترتيب . وجدت كلا منهم مقنعا . السبب أنه يتناول الإنسان من زاوية معينة ، أحدهم يرى أن المهم رؤية الإنسان لنفسه ومن حوله ، آخر يرى الإنسان غرائز لا أكثر . ثالث يراه كلبا تحركه الكيمياء والكهرباء . داروين وسپنسر وفريزر رأوه ككائن متطور بيولوچيا وأنثروپولوچيا واجتماعيا . ماركس ركز على الكائن الاقتصادى ، أفلاطون ركز بالطبع على المثاليات ، المعنويات ، التيمايوس ، العزة والكرامة والمجد والفخار بالعربى ، إلى آخر أعراض تلك المتلازمة المرضية العربية القاتلة . وأرسطو على الماديات بمعناها الطبيعى العام ، قوى الطبيعة يعنى . الوجودية موجودة ، الغرائز موجودة ، المعنويات موجودة ، المادية موجودة ، لكن ليسوا جميعا بنفس الأهمية .

لماذا أرسطو بالذات ؟ لأن ليست كل الأشياء بشرية . محورة الإنسان لرؤيته للكون حول نفسه أمر كارثى . أرسطو كان يتكلم عن الطبيعة ككل ، حية وغير حية . بمعنى هناك قوانين كونية وفيه قواعد إنسانية . لو حدث تعارض الأولى تجب الثانية . لأننا بشر بنلف وندور حول الحقيقة لغاية ما نوصل لها . الكمپيوتر مثلا موش محتاج كده . أنا كنت بأقول لأصحابى الماركسيين ، أنا ماركسى أكثر من ماركس ، لأنه بعد كده فى مرحلة لاحقة من حياته أفسد المادية إللى هى قانون كونى ، بالديالكتيك إللى هو ظاهرة إنسانية ، وجعل منه قانون . ثم خان المادية كلها فى البيان الشيوعى حين دعا لإيصال الوعى عمدا للطبقة العاملة ، دى موش مادية خالص . الوعى والفكر وكل ده هو إللى كان بيسميه بنية فوقية ، وأنه أقل قيمة من البينية التحتية ، الاقتصاد والتقنية والمادة ككل .

– فعلا الحقيقة وحش ما حناش قده . إللى أنا عاوز أقوله كلهم صح ، ولا زلت مقتنع بهم جميعا ، لكن بدرجات .

– آه ! درجات ! والمكنة بتاعتك بتقول إيه فى موضوع الدرجات ، يا مستر أرسطو ؟

– بتقول أن الكون وقوانينه أقوى من أمزجة أو إرادة عرق بيولوچى اسمه الإنسان فى ذرة غبار كونى اسمها الأرض . الكون مبنى على قوانين أساسية . القوة مثلا هى إللى بتربط المجرات والكوكب ... إلخ . لو طلعت فلسفة إنسانوية تقول كلنا إخوة وممكن نحب بعض نعيش من غير صراعات فى مجتمع اشتراكى أو مسيحى ، يبقى بيهرج . الأبعد من هذا ، أتحداك أن تذكر لى قيمة أخلاقية واحدة جيدة أتتنا بها الأديان ، بما فى هذا المسيحية مفرطة المثالية (وبفرض أن أى منها أتى بشىء جديد أصلا) : ... العدل ؟ يقصدون المساواة وهى عين الظلم لأنها تنفى التنافسية وقانون التحيؤ للأليق Survival of the Fittest . ... التكافل ؟ مضر جدا لأنه يشجع على الكسل . ... التسامح ؟ كارثة ، لأنه يؤدى لازدهار الغشاشين الاستحلاليين الاسترقاقيين . ... باختصار ، الأفلاطونية خراب وجهل وغباء ! ... ألم تسأل نفسك يوما يا حاج : كل من بشرونا بالمثاليات أوصلونا إلى أين ؟ الاشتراكية قالت الحب والمساواة والتشارك ، والنتيجة الفقر للجميع والفساد . الدين قال الأخلاق ، والنتيجة قمع وحروب وتخلف . الاشتراكية والنازية وكل الديكتاتوريات والشموليات قامت تحديدا على ترويج مبدأ واحد يبدو شديد الخير والمثالية : الإيثار المسيحى ، الفرد فى خدمة المجموع ، والهدف والنتيجة أن تستأثر حفنة أفراد على كل السلطة والثروة .

– بص : يا ريت أنت إللى تبطل تفكير شوية . الدين إللى أنت متغاظ منه أوى ، عبارة عن دورات . زى الأسهم كده . ٣٠–٤٠ سنة الناس تتدين ، و٣٠–٤٠ سنة الناس تسيب . تقريبا جيل كده وجيل كده . حاجة ما لهاش حل . تقدر تخلى الأسهم أخضر على طول أو أحمر على طول ؟ ! بتسميها إيه ؟ دوراتية ؟

– الحقائق العلمية لا تعرف الدورات !

– وأمزجة البشر لا تعرف الحقائق !



المغفلون والغشاشون والضاغنون

– بتقرأ كتب مترجمة بس ؟

– إزاى ؟ أعرف إنجلش ، ولو ضرورى أقرأ به ، ممكن . بس يعنى المعتاد أقرأ معظم إللى بيطلع بالعربى .

– بكرة ، أو لو تيجى معاى النهارده ، ها أجيب لك كتاب للأسف موش مترجم ، رغم أنه يعتبر ثورة فكرية ، افتكرته دلوقت حالا لما جت سيرة الغشاشين . ' الچيين الأنانى ' من سنة ١٩٧٦ ، لعالم تطور إنجليزى اسمه ريتشارد دوكينز .

– موش معقول . عندك الكتاب ده ؟ طبعا عاوز أقرأه . تعرف أن حاليا فيه كتب كاملة لمجرد تحليل الثورة إللى عملها هذا الكتاب ، فى كل العلوم واجتماعيا وغيره ؟ إنما ليه أنت مهتم بأنى أقرأه ؟

– موش حاجة معينة . رجعت قرأته تانى من كام شهر ، موش عارف ليه . بالذات أنى ما كنتش قريت الإصدار التانى بتاع ١٩٨٩ . جايز كلامنا عن الچيينات ، إللى كنت أعتقد أنى مثقف فيها لغاية ما قابلتك . اكتشفت أن كتير من مناقشاتنا بتروح لحاجات هو تناولها . وبصراحة فى قراءتى المرة دى ، حسيت أن الأفكار إللى بيقولها وتبدو بيولوچية جدا ، لها تطبيقات أوسع بكثير من الفصل إللى عمله وطبق فيه نظرية التطور على الأفكار . وأنت كده بثقافتك العامة ، أو ولا مؤاخدة ' الشعبية ' يا ' بن البلد الجدع ' أنت ، ممكن تقول حاجات مفيدة فى الحكاية دى . طبعا الفكرة الأساس عنده أن چيپيناتنا هى الكائن الحى ، وما إحنا إلا مطايا غير عاقلة تركبها كى تصل لغايتها التى هى التحيؤ survival ، وتضحى بنا بسهولة عندما تؤدى غرضها منا . فى البدء كان الچيين ، وبعدها بنيت فوقه كل الكائنات ؛ هى التى ظهرت أولا ، ونحن الذين بنينا كى تعيش بواسطتنا ، لا أكثر . ظواهر كتير ما أقدرش أفتكرها كلها من عوالم النبات الحشرات والحيوان تثبت كده . من أول أنثى الحشرة التى تأكل زوجها بعد التلقيح ، حتى الأب منا إللى يقفز للنهر لإنقاذ ابنه رغم علمه بأنه نفسه لا يجيد السباحة .

– أيوه ، أنا فاكر الكلام ده .

– على فكرة أنا لى تحفظ على الكتاب ، أقول لك عليه بعدين . اقرأه الأول ، وفيه بالذات جزء عاوزك تقول لى رأيك فيه ، لأنه حاسس ممكن يتطبق على حاجات كتير أبعد من الطيور والحشرات . فيه مثال بيلح على بشكل غريب . بيتكلم عن عشيرة من الطيور أصيبت بنوع خطير من الحشرات الواخزة . ولأن ليس للطيور يدان فإنها تنقى كل جسدها باستثناء منطقة الرقبة والرأس . هذا يتطلب قيام طير آخر بتخليصها لها من

الطفيليات . لو أن الميل الچيينى (الموروث) هو الرغبة فى تنقية الآخرين من الطفيليات ، أو ما يسميه دكتور دوكينز suckers (كلمة مزدوجة المعنى بمعنى المصاصين والمغفلين) ، ستكون النتيجة أن تنجو كل العشيرة ولا مشكلة ، لأن كلهم سيسعون لتنقية رقاب ورءوس أقرانهم من الحشرات الفتاكة . لكن هذه حالة مثالية للغاية ، ولا بد وأن التطفرات الچيينية ، هذه الذى تحدث عشوائيا عادة ، لا بد ستخلق ميولا تختلف قليلا أو كثيرا بمرور الوقت . ماذا لو أن الميل الطبيعى هو عدم الرغبة فى مساعدة أحد ، أو ما يسميه دكتور دوكينز cheats أى الغشاشون ؟ (كلمة أخرى من مصطلحات القمار كسابقتها) ، ستكون النتيجة الواضحة والفورية هى انقراض العشيرة . ماذا لو أن الموروث الچيينى وضع هذا الميل فى بعض الطيور والميل الآخر فى البعض الباقى . سيسهر المغفلون على رعاية الغشاشين ، وسيحدث أن يجد هؤلاء وقتا أوفر للبحث عن الطعام والتزاوج واللهو ورعاية الأفراخ ، تدريجيا ستحدث صيرورة انتخاب طبيعى تؤدى بعد قليل لانقراض المغفلين . لكن المفارقة أن انقراض المغفلين سيؤدى بعد قليل لانقراض الغشاشين أنفسهم لأنهم لن يجدوا أحدا يخلصهم من الحشرات الطفيلية ، ونتيجة هذا السيناريو هى انقراض العشيرة ككل أيضا . هل الخلاصة أن فى كل الأحوال لن تنجو مثل تلك العشيرة ، طيورا ولا بشرا ؟ ربما . لكن ماذا لو أن هناك بديلا ثالثا . ماذا لو أن ثمة ميل چيينى موروث يدفعك لأن تعطى فقط حين تأخذ ، أو أيضا بمصطلحات دكتور دوكينز الضاغنون grudgers ، أى من يذكرون لك جميلك من عدمه قبل أن يقدموا لك جميلا فى المقابل .

– أيوه عارف . الضاغنون من الضغينة ، موش كلمة وحشة ، أنت ممكن تضغن المعروف أو الجميل . الإنجليز بيقولوها Scratch my back, I'll scratch yours! .

– بالظبط . ساعتها سيعتمد الأمر على الوزن النسبى لكل من تلك الميول الچيينية الثلاثة . لو الغشاشون أغلبية أكثر من نسبة ما حرجة ، سيزدهرون وينفردون بالعيش دون سواهم ، ثم بعد ذلك كما نعلم سينقرضون ومن ثم كل العشيرة . لو الضاغنون أغلبية أكثر من نسبة ما حرجة ، سيتعيش الغشاشون على ما هو قائم من مغفلين حتى يؤدون لانقراضهم ، لكنهم هم أنفسهم سينقرضون بعد ذلك لأن الضاغنين لن يقدموا لهم أية خدمات مجانية من طرف واحد ، وستنجو العشيرة من خلال بقاء الضاغنين .

– (يغايظه فى لا مبالاة :) قصة غريبة ! أنا شغلتى الدواجن ، وما سمعتش طول عمرى عن الحشرات دى ! طيور تيجى لها براغيت ؟

– (صائحا :) أنت ها تهزر ؟ أولا هى ، كنموذج ، مؤكد تنطبق على البشر . فى كل زمان منذ نشأة الحضارات والإمبراطوريات ، وبالذات الآن . مستحيل لا يحتاج أحد لمساعدة الأخر ، وإلا مات معزولا . نحن فى عالم واحد مجلوب ، نشأت الأسس الموضوعية له من شبكة أعصاب ومن دورة دموية ، من خلال ثورة الاتصالات والمعلومات وقنوات الساتيلايت وشبكة الإنترنيت ، ومن خلال التداخل والتكامل الشديدين للعملية الإنتاجية فى الاقتصاد العالمى . صح ؟

– صح !

– إذن ثانيا أنا حاسس أن فى ثالوث دوكينز -المغفلون والغشاشون والضاغنون- أساس عميق جدا من أمنا الطبيعة لنظرية اقتصادية كبيرة . ' الضغينة ' هى أساس الرأسمالية العلمانية المعاصرة كما نراها اليوم ، خد وهات . والمثال بتاع الطيور برهان ' طبيعى ' لا يؤكد فقط فكرة الرأسمالية ، إنما يجزم بحتميتها . إنها نهاية التاريخ ، لكن ليس لأنها إنسانية ولا ديموقراطية كما ذهب واحد أنت عارفه ، إنما لأنها تنافسية شرسة ولا ترحم . لأنها أصولية جدا ، لأنها أم كل الأصوليات ، مشيئة أمنا الطبيعة التى لم تتغير لآلاف الملايين من السنين . والحقيقة كده أن كل الفكر المسمى بالإنسانوى ما هو بأكثر من تطفر چيينى مناهض لقوانين الطبيعة بل ومؤدى للانقراض ، وهو ليس من طبيعة البشرية الأصلية ، ولا من طبيعة أى عرق تقريبا . ليست فقط كما يقولون قوى يأكل الضعيف جشعا ونهما ، إنما يأكله بالحق ويتركه بالحق بكل ما فى الدغل وقوانينه من نبل وعدل وشفافية ، يعنى أخلاقيات القدرة مرة أخرى . شايلوك الذى يعاملك بأمانة وكرامة وحق وعدل ، لكن فى نفس الوقت بلا رحمة . قانون الدغل الذى بالمناسبة به الكثير من الشرف والشهامة وحتى الحب والحنان . وأكيد قرأت كيپلينج صاحب المصطلح law of the jungle ، أو طبعا قرأت فتوات نجيب محفوظ . المهم ، أنا عدت لأنشغل بشدة بذلك النموذج الثلاثى ، وإليك بعض أمثلة لما يمكن أن يثيره من أسئلة : هل من الأرجح تطوريا فى مثل هذا النموذج ' المستقر ' (وطبعا كما تعلم ' مستقر ' هذه مصطلح تطورى بيولوچى) ، أن ينجو المغفلون أيضا لأن عامة سيكون ثمة من سيبادلهم المعروف بمثله ، هذا طبعا ما لم يتولد فجأة بسبب التطفر الچيينى بعض الغشاشين من جديد ؟ أيضا هل الرأسمالية المعاصرة دى هى الحاضنة وراعية العلم والتقنية ، ولا ينطبق عليها تخوفات أرسطو الكلاسية من الأوليجاركية ، بل هم أقرب للنخبة التى نادى

بحكمها ' الأستاذ ' ؟ هذا مع العلم أنهم ليسوا أول أوليجاركيين عظماء ، فمثلا كراسوس الذى قضى على العبد السفاح الوضيع سپارتاكوس الذى نهب كل القرى وقتل كل من هو ليس عبدا ، كان رجل بيزنس . لكنه رأى الحضارة فى خطر ، فانقلب بنفسه قائدا عسكريا وجند كل أمواله لاستعادة مسار التاريخ وإنقاذه من عصور ظلام سابقة للأوان . إيه رأيك ؟ وإوعى تقول لى أرسطو أولانى وأرسطو تانى ؟



عن يد وهم صاغرون

– رأيى أن الراجل ده بيتكلم فى الدين .

– (باستغراب :) راجل مين ؟ !

– دوكينز .

– إزاى ؟ !

– هو يهودى ؟

– لا يهودى ولا غير يهودى . ده آخر واحد على وش الأرض يمكن ربطه بأى دين . ثم هل فيه واحد يهودى اسمه ريتشارد ؟ ! آه فهمت ! أنت عارف أنه موش يهودى ، وبتحاول تهزر أو تستهزأ .

– برضه لا يمنع أنه بيتكلم فى الدين . إللى بتسميه الضاغنين هو ' العين بالعين والسن بالسن ' . إللى بتسميه المغفلين هو ' من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر ' . وإللى بتسميه الغشاشين هو ' عن يد وهم صاغرون ' . أقطع دراعى الراجل ده عاوز يقول اليهودية هى الدين الصح !

– أنت بتخرف ؟ ! قلت لك ما لهوش دعوة بأى دين ، عالم بيولوچى وبس . (ثم بعد برهة تأمل :) إنما إللى أنت بتقوله ده كلام برضه يقلب الدماغ . أنا بأتكلم فى البيولوچيا علشان أستشيرك فى نظرية اقتصادية ، رحت طالع لى بحاجة تانى خالص . فعلا كلامك صح ، المسيحية طبعا خطة كارثية من المنظور التطورى ، خد وخد . الاشتراكية والشيوعية والديموقراطية إلى آخر ما يسمى نفسه بفلسفات أو أيديولوچيات إنسانوية ، نعم هى ليست المسيحية بالظبط ، لكنها تساوى بين القوى والضعيف ، بين الكسول والمجتهد ، بين من يعلم ومن لا يعلم . أيديولوچيات قائمة على فرضية وجود عدد كاف من المغفلين ، موش عدد كاف ، إنما الكل مغفلين ، وعلشان كده مستحيل كان الشيوعية تنجح حتى لو اتطبقت زى الكتاب . لكن أرجوك من كل قلبى سيبك من الربط بتاعك بين الرأسمالية واليهودية ، اليهودية أصلا اندثرت ، والموجود هو العلمانية بتاعتها إللى اسمها الصهيونية . متهيأ لى موش لازم تكون رحت إسرائيل ١٠ مرات زيى ، علشان تعرف حقيقة زى دى . إنما إيه إللى دخل الإسلام فى الموضوع ؟

– جايز بيلمح لخد وطالب ، الاسترقاق والاستحلال .

– لاااا ! أنت اتعديت من ونس نظريات المؤامرة !

– جايز قصده المسلمين شايفين أن من حقهم أن يستحلوا بقية الناس بالجزية والخراج وغيره ، لأنهم الأسياد و' خير أمة ' . لا يعلم أن كلنا خير أمة . فيه عندنا شعب الإله المختار ، وفيه أبناء الملكوت ، وفيه خير امة أخريت للناس . كلنا خير أمة !



المسلمون لو أقلية ها ينقرضوا .

لو أغلبية ، أو لو حكموا العالم ، ها تنقرض البشرية كلها !

– أنا أفضل من أينستاين ؟ أنا لم أدع هذا أبدا . (ثم مبتسما :) صحيح أنا اتولدت فى نفس السنة إللى مات فيها ، إنما لا أحد فى الدنيا يمكن أن يدعى شيئا كالذى قلته !

– إذن لماذا تشغل نفسك بأفكار معادية للإسلام ؟

– حتى هذا اتهام ظالم . أنا ما يهمنيش حد يمدح الإسلام أو المسلمين أو يذمهم . ده موضوع لا يشغلنى بالمرة . ما يشغلنى موضوع الانقراض . لو المسلمين بيفكروا كده فعلا ، يبقى ها ينقرضوا لا محالة ! المسلمون لو أقلية ها ينقرضوا . لو أغلبية ، أو لو حكموا العالم ، ها تنقرض البشرية كلها ! دى نظرية بمليون دولار يا حاج !

– (وقد عاد للدعابة :) هات مليون دولار . يساووا كام سهم دواجن دول ؟ الآلة الحاسبة يا ونس . ولا احسبها أنت يا رزق . على فكرة الواد رزق ده عبقرى فى الأرقام . يبص لسعر الافتتاح وفى لحظة يقول لك ٥ ٪ فوق كذا ، و٥ ٪ تحت كذا . مكنة زيك ، ويعجبك أوى !

– أنت مهرج . شوف بأكلمك فى إيه وأنت بتتكلم فى إيه ؟

– يعنى الخلاصة أن أنت الإنسان عندك ما لهوش قيمة . عشيرة بيولوچية species ها تنقرض فى يوم من الأيام .

– ما تفرقش تنقرض أو تفضل موجودة زى الصراصير والحمير والقرود ما هى موجودة . المهم أن التقنية إللى اخترعتها لا يمكن تنقرض ، وها تستفيد منها العشائر التالية . أنا موش عاوز أسبق قراءتك للكتاب ، لكن أنت إنسان مزعج ، ومضطر أقول لك التحفظ إللى موش عاجبنى فى نظرية الچيين الأنانى . الكلام ده كتبته فى مجلة الكلية كمراجعة للكتاب . مبدئيا قلت أن دوكينز قلب الأرنب ، خللى الفروة لجوه والأمعاء لبره . جعل الچيين هو الكائن الحى ونحن مطايا أو روبوتات (بين قوسين) لا عقل لها ولا إرادة . وعلى فكرة هو تنبه لجبروت نظريته وأثرها المذهل ، وفى الإصدار التانى ضرب فى المقدمة مثال يشبه كلامى عن الأرنب ، اسمه مكعب نيكر . المهم ، بعد العرض والمدح الجامع الشامل قلت إن لى تحفظ أو إحساس بعدم الارتياح ، هو أن الجمال الحقيقى للمعادلات يكمن فى بساطتها . ومشكلة دوكينز أنه وضع الإنسان فوق قانون أنانية الچيينات . زى مثلا أنه ممكن يحدد النسل ، وده ضد إرادة الچيين .

– لاااا ، أنت محتاج تقرأ كتير فى الچيينات . أولا جايز المعادلة أعقد من كده . كتير التصرفات تبدو إيثارية ، لكنها فى العمق أنانية . ثم ثانيا ، جايز العكس هو الصحيح ، الفلسفات الإنسانوية التى ابتكرناها قد تكون آليات تدمير ذاتى ، وتؤدى لانقراض الإنسان . دى أنت عارفها ، عادى ، إنما جايز ما تعرفش أن عشائر كتيرة انقرضت لنفس السبب . ثم ثالثا ، من قال لك أن تحديد النسل ضد قوانين داروين ؟ إنجاب نسل أفضل لا يمكن يكون ضد داروين ، بالعكس إنجاب نسل كتير ممكن يؤدى للانقراض . عادى برضه . رابعا ، ليس معنى الأليق أن تقضى على كل من حولك . الچيينات أو الأفراد أو حتى العشائر ، تتصارع نعم فيما بينها ، لكن ما أن تصل لصيغة عيش مشترك تضمن البقاء لها جميعا ، حتى تعتبر هنا فقط أنها قد نجحت . الأليق ليس معناها چيين مفرد ، أو فرد مفرد ، أو حتى عشيرة مفردة . الأليق هو وعاء أو بركة pool چيينات كاملة جماعية قادرة فى مجملها على التحيؤ والخلود . يا مستر وحيد الداروينية نفسها تطورت .

– مظبوط ! مظبوط ! أهم قانون فى التطور إطلاقا ، ليس الصراع فقط ، إنما الصراع المؤدى لتوازن مستقر بين الكائنات ، أو بالأحرى بين الچيينات .

ويتدخل ونس : ‘ أيوه القانون ده فى الهندسة عندنا . Stability of Equilibrium . استقرار التوازن . صمود التوازن مع الزمن . التوازن حاجة واستقراره حاجة تانية . التوازن ممكن يكون موجود لحظيا ، لكن من السهل ينهار فى أى لحظة . ممكن تحط كورة على قمة تل ، ها تتزن مكانها ، الجاذبية تساوى رد الفعل ، لكن شوية هواء بسيط من الجنب ها ينزلوها للسفح . لكن لو حطيتها فى قاع حفرة التوازن ها بفضل مستقر على طول ! ’ .

– سيبك من ونس ده . معلوماته فى الهندسة موش أحسن كتير من معلوماته فى الأسهم . أخد الشهادة فى ١٠ سنين ! خد مثال للموضوع ده من عالم الحيوان ، الحاجات فيه دمها أخف . لو قنفد عاوز يحارب قنفد تانى علشان واحدة قنفدة ، يعملوا إيه ؟ طبعا الاشتباك مستحيل بين الاتنين . يقفوا قدام بعض بالساعات . ما فيش حاجة بتحصل . ثبات مطلق . توازن ! لغاية ما واحد يزهق أو يجوع أو أى حاجة ويمشى . توازن غير مستقر ! مع ذلك مجتمع القنافد إللى بيطبق القوانين دى ، ككل مجتمع مستقر عبر الزمن ، عارف إزاى يحل مشاكله ، وأكيد القنفد الفائز هو الأليق ، والتحيؤ دائما للأليق .

– صحيح ! أنت إنسان هايل ، والكتاب نفسه حافل بالأمثلة لما تقول ، لكنه لم يقل ما تقول بالضبط بالنسبة للإنسان ، وهذا ما أزعجنى . المشكلة أنى لا أرتاح لأى شىء يمكن أن يصور الإنسان كشىء فوق القوانين . هو توقع أو على الأقل تمنى له أن ينجو بفلسفاته الإنسانوية . أنا موش عالم ولا باحث ، ولا متخصص حتى زيك ، علشان أقترح نظرية علمية . لكن إحساسى أن الأنانى موش هو الچيين . فاكر لما قلت لك

المهم التقنية ، وأنت قلت المهم الچيبنات . أنا موش موافق . الچيبن خالد صحيح ، لكن هناك ما هو أخلد : التقنية ! هذه وجدت قبل تكون جزيئات الدى إن إيه الأربعة المشهورة ، إللى عاشت حتى اليوم بدون تغيير إطلاقا وبنيت فوقها كل أجسام النباتات والحيوانات . الطبيعة بنت المجرات ، بنت الكريستال ، بنت الكهوف ، وكلها تقنيات عمارة متقدمة جدا . إذا كان فيه حاجة حية صحيح ، ولها روح صحيح فهى التقنية . كبشر ما زلنا بنستخدم تقنيات النمل والنحل فى البناء وفى الإدارة وفى مبدأ التخصص . عشائر بيولوچية قد نراها بدائية جدا هى إللى اخترعت العدسات متغيرة البؤرة ، المرايا العاكسة ، الخلايا الضوئية ، التخاطب بموجات الصوت ، موجات الراديو ، الرادار ، السونار ، الموجات التصادمية ، كيمياء حفظ الطعام ، تكييف الهواء ، مجسات الحرارة والضغط ، التغذية الرجوعية ككل ، تصميم الغواصات ، هندسة الطيران ، تقنيات تخزين المعلومات ، التلقيح الاصطناعى ، ستراتيچيات الحروب . هذه ليست بحال مخترعات بشرية . تقريبا الإنسان لم يخترع شيئا يستحق الذكر . حتى تسجيل الصوت عرفته الببغاوات (!) . جاء فوجد كل شىء جاهزا . الخالد حقا هو التقنية ، وليس الچيبنات . هذه معادلة لا تستثنى أحدا ، بما فى ذلك الإنسان . (ثم صائحا :) إنما إزاى يا أخصائى الچيبنات أنت ، هادى وساكت وما لكش رأى فى مواضيع مثيرة زى دى ، وتقول لى ' عادى ' ، ' عادى ' ؟ يعنى إيه جايز الإنسان ينقرض . هى دى حاجة فيها جايز وموش جايز . لازم نعرف رأسنا من رجلينا . أنت ليه دايما بتهرب من تكوين رأى ؟

ردود ضهرى تتراوح دائما ما بين التأييد المبالغ فيه ، والرفض المبالغ فيه . هذه المرة اختار شيئا ثالثا : اللا مبالاة المبالغ فيها : أنا مالى ومال انقراض البشرية ؟ لسه بدرى ع الكلام ده . علينا نصلح الواقع إللى إحنا فيه ، بدل ما نحلم زيك بواقع تانى كله روبوتات ، زيك كده !

– أنت ها تجننى ؟ قوم بينا حالا أديك الكتاب ، لما نشوف ها تخرب إيه تانى فيه ؟

وبعد لحظة حدجه بنظرة إعجاب باسمة فى سؤال : العين بالعين والسن بالسن ؟ ! لك حاجات يا حاج !



كل حاجة عيب والفقر بس موش عيب

تجول الحاج فى أرجاء الشقة ، وقال مجاملا : شقة جميلة وحلوة . فى الحقيقة كانت أبسط بكثير مما توقع ، بل ربما تثير الشفقة إذا وضعنا فى الاعتبار اسم وحيد الديب وتاريخه . لاحظ أن هناك ساعة على كل حائط وعلى كل سطح أفقى ، مكتب ، منضدة ، حتى مائدة الطعام عليها ساعة أثرية بأربعة أوجه . فعلق وحيد : عادة قديمة !

– الساعات دى معناها أنك عاوز تعمل حاجات كتير ، بس للأسف : دنيا براسين ورجل واحدة ومن غير إيدين !

واصل التجوال . تحسس البيانو الفخيم الأثرى الذى فهم على الفور أنه بيانو آمال نور الشخصى ، ولم يعلق ، على الأقل لأنه قد يثير مقارنة غير محببة بين أرستقراطية هذه القطعة وبساطة بقية الشقة . ثم لاحظ صورة لنجيب محفوظ وعلق قائلا : تصدق ، عندى واحدة زيها بالظبط ؟ واحد صحفى حبيبى زيك كده ، جابها لى من الأهرام ، بعد وفاة نجيب محفوظ بتلات أيام .

وقبل أن يزج وحيد نفسه بتعليق علمانى ثقيل الظل حول كلمة وفاة التى لا يستخدمها أبدا ، لاحظ أن ضهرى تسمر أمام لوحة الاقتباسات :

‘Heat cannot of itself pass from a colder to a hotter body’

‘Work can only be obtained from temperature differences between systems in contact with each other. When work is done, such systems tend to even out; and that loss of heat occurs in the form of entropy.’

‘The entropy of an isolated system not at equilibrium will tend to increase over time, approaching a maximum value.’

The second law of thermodynamics

—as the statement, originated and evolved, by *Rudolf Clausius*

‘Every Roman was surrounded by slaves. The slave and his psychology flooded ancient Italy, and every Roman became inwardly, and of course unwittingly, a slave. Because living constantly in the atmosphere of slaves, he became infected through the unconscious with their psychology. No one can shield himself from such an influence.’

Carl Gustav Jung

—*Contributions to Analytical Psychology* (1928)

قرأها ، لكنه لوهلة تشكك فى إنجليزيته . قرأها ثانية ثم سأل حائما حول الموضوع : ‘ كنت متوقع حاجة لأرسطو ’ .

– (ضاحكا :) ممكن برضه تعتبرها لأرسطو !

ضهرى مضيفا بما يعنى بأنه يعرف صاحب الكلمات : ‘ إشمعنى يونج ؟ ’ .

لم يرد وحيد ، فاضطر هو لإعادة قراءة اللوحة ، حتى تيقن تماما من فهمها ، وسأل من جديد : ‘ انهيار الحضارات هو قضيتك ؟ صح ؟ أكيد قريت إدوارد جيبون ‘ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ’ ؟ ’ . بهذا السؤال كان ذكاء ضهرى الخارق قد هيأ وحيد بالفعل للخروج عن صمته .

– أنت أستاذ يا حاج . جيبون ده آلاف الصفحات . عبارة يونج دى بتلخصها فى ٣ سطور . العبارة رائعة أنها أحالت كلمة ‘ عبد ’ لمصطلح نفسى أكثر منه شيئا يخص لون البشرة أو وجود أو عدم وجود صك ملكية ، ومن ثم -فى رأيى- مددت صفة العبد لتشمل البلايين المبلينة من سكان الكوكب الحاليين ، ممن نصفهم عادة بالأحرار وهم من الداخل أبعد ما يكون عن سيكولوچية السيد .

– (ضاحكا :) دى أنا عارفها كويس ، كانوا زمان بيكتبوها لنا على الكراريس : ‘ كلنا عبد فى ظل الجمهورية ’ !

– على فكرة أنا موش متيم ١٠٠ ٪ بالعبارة . بعد ما عجبتنى وبروزتها ، هى وقانون الديناميات الحرارية التانى ، وده كان أكتر من ٢٠ سنة ، فضلت أتأمل فيها ، ووجدت فيها عيب . القائد الحق ، لا يتأثر بسيكولوچية العبيد بالطريقة الفورية إللى صورها يونج . المفروض فيه حاجة اسمها چيينات هى إللى خلته قائد . لازم تمر قرون قبل ما تخمد جذوة الحضارة بفعل طغيان العبيد على المسرح . لازم تيجى أجيال وأجيال ، وتتغير الچيينات عقد بعد عقد ، أو قرن لعد قرن ، لغاية ما تعتبر الأجيال الجديدة وجود العبيد فى مركز الحضارة ، حقيقة مسلم بها . وتبتدى آلية الانتخاب الطبيعى تهمش أصحاب الچيينات القيادية الحقيقية ويندثرون ، ينقرضون . علشان كده بأقول عليك أستاذ ، لأن كتاب زى كتاب جيبون ، بيبين الفرق الدقيق ده . هو نفس النظرية لكن بتحليل وتركيب أدق من حيث التفاصيل . مع ذلك زى ما أنت شايف أنا ما زلت معتبر نظرية يونج ضرب من العبقرية ، وبتفسر تاريخ الحضارات كلها . قصدى إمبراطوريات الخير التلاتة ، الرومانية والبريطانية والأميركية ، وجايز أية حضارة أخرى مستقبلا ، المريخية أو غيرها .

– يعنى قصدك الإسلامية والفرنسية والسوڤييتية حضارات شر ؟

– ما فيش حاجة اسمها حضارات شر . إما حضارة وإما لا حضارة . الحضارات تلاث لأنه لا يوجد فى التاريخ سوى تلاث ثورات تقنية ، الزراعة والصناعة وما بعد-الصناعة . وفى مواجهتها أرى إمبراطوريات شر ، تنشأ للتطفل على منجزات الحضارة والإغارة عليها ، أو لو شئت تقسيمة أخرى قد يراها البعض أفضل لأنها تمثل صراع المادى ضد المعنوى : تلاث ثورات تقنية فى مواجهة تلاث أيديولوچيات للعبيد ؛ المسيحية نخرت روما من الداخل والإسلام هاجمها من الخارج ، والاشتراكية الفرنسية حاربت ثورة الإنجليز الصناعية ، ثم الاشتراكية السوڤيتية والصينية مع الإسلام مجتمعين يحاربان الآن حضارة ما بعد-الصناعة الأميركية . أنا أكثر مادية وأرى الصراعات دوما مادة ضد مادة ، هنا تلاتة أمپراطوريات ضد تلاتة أمپراطوريات ، وأرى كما أرى كف يدى الآن أن إما حضارة وإما لا حضارة . إما حضارة وإما هجامة .

– تعرف منين كلمة هجامة ؟ فيه كمان مطاريد وجبلاوية وعويل ونور [بفتح النون] (ومفردها نورى) ونتاش ونهاش وهباش وهليب ومنسر وخط [بضم الخاء] ... إلخ ، طابور من مترادفات اخترعها المصريون لكلمة لص مسلح يهبط عليهم من خارج القرية ! ... لا ! ليسوا فتوات . فتوة وقبضاى وبلطجى ... إلخ ، لا تقال على العربانية ، إنما على أبناء ذات البلد ، وهؤلاء غالبا ما ينظر الناس إليهم باحترام ، واسأل نجيب محفوظ !

– لوكنت أرى الحضارة حضارة ، ثورة تقنية ، فالسؤال هو فقط أيهما البناء وأيهما قاطع الطريق ؟ قيصر أم هانيبال ، نيلسون أم ناپوليون ، أيزينهاور أم ناصر ، أى فلان أم أى علان ؟ الإجابة بسيطة : من منهما الذى أتى بالثورة تقنية ، ومن الذى يتطفل عليها ؟ من الذى له شرعية حكم العالم ، ومن هو الوحشى التوسعى الهجام القرصان قاطع طريق ؟ الإجابة بسيطة : من منهما الذى أتى بالثورة تقنية ، ومن الذى يتطفل عليها ؟ إنه الخلط الدائم بين مفهوم الحضارة وبين مفاهيم زى الثقافة والتراث . طبعا عندنا ثقافة وعندنا تراث ، لكن ما عندناش حضارة . قد أجد فى كلمات كونفوشيوس وبوذا حكما عظيمة وتأملات عميقة ، وقد أجد فى كليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة قصصا وأساطير ساحرة جميلة واسعة الخيال ، لكن كل هذا شىء والحضارة شىء آخر . قد أجد فى نساء فرنسا إلهاما ما أو جمالا ما أو حبا مميزا للحياة ، لكن لا يمكن أن أنسى أن السيارات الأولى فى شوارع پاريس كانت تسير يمينا -رغم أن مقودها لليمين ويمكن أن تتسبب فى حوادث- ذلك لأنها ببساطة سيارات مستوردة ، ثم بعد ذلك راحوا يغسلون أدمغة العالم أن الإنجليز هم من يسيرون فى الجانب الخطأ للشارع . الحضارة ثورة تقنية ، لا أكثر ولا أقل . ثورة تقلب الطريقة التى يعيش بها البشر حياتهم اليومية رأسا على عقب ، فلا تعود نفسها الطريقة التى عاش عليها آباؤهم . إذا فشلت تلك الحكم والأساطير فى خلق ثورة تقنية ، تظل تراثا مسليا لطيفا لا ضرر منه . أما إذا أدت هى أو غيرها لرفض ذلك التطور أو مقاومته ، فهذه قرصنة وقطع طريق ، وليس لدى ، ولا لدى التاريخ ، توصيف آخر لها !

– (الضفة تتعدل من جديد :) بالعكس ، بالعكس . أنا موافقك على بعض حاجات . الخليفة المأمون إللى مسميين الشارع هنا على اسمه ، وأكبر واحد يضرب به المثل على زهوة حضارة الإسلام ، كان كافر وبيقول القرآن مخلوق ، وأغلب إللى أحاط نفسه بهم وأغدق عليهم من أطباء وعلماء ومترجمين كانوا مسيحيين ويهود . دى أنا فاهمها .

– معلومة جديدة . لعلمك جايز لولا أنه كافر ، ما كانش عمل حاجة من إللى عمله .

– أنا موش معاك فى دى . الدين لا يتعارض مع العلم .

– لأ ، يتعارض . الاختراع محتاج بيئة معينة لازم يعيشها الطفل من صغره . لازم تفهمه م البداية أنه موش شرط يسمع الكلام ، كلام پاپا وماما ، كلام المدرس ، كلام رئيس الدولة ، كلام الكاهن . موش ممكن يطلع مخترع وكل الحاجات إللى حواليه مقدسة . أنت لا يمكن أن تستعين بالتقنية ، وترفض العقلية التى أنجبت تلك التقنية . تقول آخذ من الغرب أفضل ما عنده ، وآخذ من نفسى أفضل ما عندى . الانتقائية شىء مقزز . الأخلاق التى نسميها منحلة هى التى صنعت تلك المنجزات ، ولو كانت أخلاقهم ' قويمة ' كأخلاقنا لما اخترعوا شيئا . مارجاريت ميد قالت ذات مرة إن الثقافة كاللغة ، إما أن تأخذها كلها أو تتركها كلها !

– (ضاحكا :) نفس كلام روميو ' يا ريت كنا كلاب زيهم ، كنا أنتجنا واخترعنا زيهم ' . فى دى أنتم صح . المحرمات لا أول لها ولا آخر . عندنا كل حاجة عيب والفقر بس هو إللى موش عيب ! عندنا الشباب موش لاقى يأكل ، ومتعنطر ع الشغل اليدوى . وإللى بتسرق وعند الجنس تعمل شريفة . العرب يحرقون أعلام إسرائيل وأميركا صباحا مساءا بينما كان من الممكن استخدام القماش فى ستر مؤخرات أطفالهم العارية . الفلسطينيون يعظوننا صباحا مساء فى العزة والكرامة والشعب العربى الأبى ، بينما مصدر دخلهم الوحيد هو التسول . وغيره وغيره . أنت عارف ' أبى ' معناها إيه ؟ معناها الرافض ، عمرك شفت أى شعب -الأمريكان ولا الألمان ولا الإنجليز ولا اليابانيين ولا أى حد- بيقول على نفسه أنه الشعب الرافض ؟ !

يسلمه الكتاب ، ويتنهد قائلا : ' هناك شىء لم أعرف كيف أقوله لك حتى الآن . هذا هو الكتاب الذى كنت قد اتفقت مع نبيل على ترجمته ! ' .

كالمتوقع يغوص ضهرى فى الذكريات والترحمات على نوبل . ويشرد وحيد متأملا وجهه ، متفكرا فى أشياء أخرى غير هذه ، كل حاجة عيب والفقر موش عيب : جبتها إزاى دى ؟ ! ما هى دى نفس حوار آلاف السنين إللى بدأه أرسطو وأفلاطون ، واحد بيقول الماديات أهم ، والتانى المعنويات أهم ! أفلاطون نفسه إللى بيحتقر كل شىء مادى ، لو سمع كلمتك دى تيجى له سكتة قلبية ! كل حاجة عيب والفقر بس موش عيب ! لك حاجات يا حاج !



ما أردت قوله هو أنك ربما لا تدرى بالضبط ما أنت مقبل عليه باهتمامك بموضوع الچيينات هذا !

باختصار ، لقد أثار شيء محدد فى الحاج ضهرى ، فضول وحيد . كيف يربط بين معلوماته الواسعة فى الچيينات ، وبين أحكامه الكثيرة الواثقة عن الشعوب والناس والأديان . ثم بعد ذلك لا يهمه إلا أن يكون مصلحا اجتماعيا ، بسيطا هادئا متدرجا ، يلقن الشباب فوق الكوبرى كيف يكون جادا ، أو يقبض على قاتل نبيل بنفسه . لا يمكن أن يكون الأمر مجرد تجاور عشوائى بين ما كنت أسميه أنا أعماق الشعوب ، والطبقات الچيولوچية للأمم ، أو ربما أعدله إلى الچيولوچيا الچيينية ، وبين بقية أفكار شخص هائل الخبرة بالحياة وبالبشر كضهرى . على الرغم من تخبطه وتناقضه ، هو آلة تفكير جبارة ، لا يمكن أن أنكر . لقد استدرجته كثيرا للموضوع ، ولم أظفر بشيء محدد . ربما هذا الكتاب يكون فاتحة طيبة لهذا الاستطلاع الثرى . فى غمضة عين خرج هذا اللعين بأفكار لا تخطر بالبال من قصة الطيور هذه . ثم ما هذا الاستخفاف الزائد بكل شيء عنده ؟ أهو ثقة بلا معنى أم أشياء خفية لا أفهمها ؟ الرائع الآن أن فكرة مناقشة كتاب ' الچيين الأنانى ' سويا تبدو واعدة جدا . معجزة أن وجدت شيئا لم يقرأه هذا الضهرى ، وقطعا لن يتهرب بالتالى من مناقشته منى . ها قد عاد عقلى يشتغل ويستنتج ويبحث عن نظريات جديدة ، كما أيام شبابى اليافع . لكن ما عساى أكتشف بالضبط أكثر مما علمنى أرسطو عن الشعوب ؟ لا أعلم !

بالفعل لم يكن يعلم ، أو بالأحرى من كان أكثر استعدادا ساعتها لطرق الحديد وهو ساخن هو ضهرى وليس وحيدا . قال وهما يهبطان الدرج وقد بدا سعيدا وهو يحمل نسخة ذلك الكتاب تحت إبطه ومصرا سلفا على دفع ثمن الغداء : ' أنت من أنصار سلام مصر مع إسرائيل (وبالكتير الأردن إذا حررت قرارها بعيدا عن العرب) ، لكنك ضد سلام الباقين معها ، صح ؟ ' .

– صح ! لطالما كتبت أن أى سلام تنجو معه جبهة الرفض العربية-الإيرانية هو سلام أسوأ من أى حرب ؟

– هكذا هل تعتبر نفسك من الحمائم أم من الصقور ؟

– ... !

– لا تتسرع فى الإجابة ! الحمائم ليست سيئة جدا كما قد يبدو من اسمها ؛ لا تستهن بها يا صديقى ، فهى أكثر صقورية بكثير ، على الأقل مقارنة بالصقور . إنها مثلا من الكائنات القليلة جدا التى لا تعرف تعدد الأزواج أو الزوجات ، وإخلاصها هذا هو ما جعلها رمزا للحب . هذا غير صحيح ؛ فى الواقع هى من أشرس الكائنات إطلاقا ، ومستعدة لقتلك لو استطاعت ، أو طبعا قتل جارتها الحمامة الأخرى العقيم إن حاولت الاقتراب من أحد من أسرتها ، لسرقة أحد الأفراخ مثلا ، أو مجرد تقديم الطعام له (التفكير فى سرقة الزوج شيء لم يخطر ببال أية حمامة أصلا !) . هى عنيدة للغاية ، ليس فقط فيما يخص الأسرة ، إنما لأنه لا يوجد كائن نعرفه يتمسك بمسكنه قدرها ، وهى مستعدة للسفر مئات الكيلومترات للعودة إليه ؛ تعلم أن الصقور تنتظرها فى الطريق ، لكنها لا تخشاها وتتحداها . أيضا هى كفء للغاية ، وتعرف جيدا قدر نفسها وقدر مهاراتها . تملك أعظم جهاز للملاحة فى كل مملكة الحيوان ، طوال الوقت ترسم خريطة لا تنمحى أبدا من ذاكرتها لكل مكان مرت به فى حياتها . فى الأحوال العادية تستخدم ذاكرتها الحديدية هذه أو تستخدم الشمس كبوصلة ، لكن لو أخذتها وراء البحار ، سوف تخرج من جعبتها أعظم الأسلحة جمعاء : جهازا للتوجيه المغناطيسى لا يزال كنهه بدقة مجهولا لنا حتى اليوم ؛ جهاز يرتبط بمغناطيسية الأرض وكأن كل خريطة العالم كانت مطبوعة سلفا فى چيناتها ، وبيتها هو نقطة القطب الحمراء التى تندفع لها كما السهم . بمعنى آخر أضف لمعلوماتك أن الـ Global Positioning System ليس اختراعا إنسانيا هو الآخر ؛ يعنى الـ GPS الموجود فى كل العربيات دلوقت وإللى بعد شوية ها يزرعوه تحت الجلد فينا ، هو ... .

– ما ... !

– ما أردت قوله هو أنك ربما لا تدرى بالضبط ما أنت مقبل عليه باهتمامك بموضوع الچيينات هذا !



مدحت محفوظ

سهم كيوبيد

(رواية ليست رومانسية بالضرورة !)



٢- الثلث الساخن

(صدرت على موقع EveryScreen.com في ١٠ مارس ٢٠٠٧)

تحذير قانونى
شخصيات هذه الرواية قد تفصح عن آراء ربما يعتبرها البعض صادمة اجتماعيا أو دينيا أو عرقيا أو جنسيا .
القارئ ، والذى يشترط فيه أن يكون قد بلغ السن الراشدة قانونا ، يتحمل وحده -دون المؤلف أو الناشر- كامل مسئولية قرار قراءتها ، ولا يحق له بحال العودة على أى منهما بأية تبعات .

To the first person from whom I've learned the meaning of the word 'Arabs' …
MY MOTHER

► ***First draft: Saturday, September 02, 2006.***
First PDF publishing of the complete draft (limited): Tuesday, January 30, 2007.

► ***First PDF publishing of the final document: Saturday, March 10, 2007.***
This version's date: Tuesday, January 24, 2023 (some minor formal, linguistic and/or typying corrections have been made).

Before you read or print, it's highly recommended to download the latest version from this location:
http://www.everyscreen.com/views/pdf/SahmCupid_02.pdf

► © 2006 - 2023 Medhat Mahfouz. All Rights Reserved.
► Reproduction, full or partial, in any form, printed or electronic, recent or future, is strictly forbidden without a thorough written permission from the author.
► Production of electronic edition: Author's Office (*MSoft*)

For Best Printing Results:
I) ***Print on both sides***:
Step 1: Select even range of pages, e.g. 1 to 50, or the whole document (which we adjusted to end with even page number).
Step 2: Print 'Odd pages only.'
Step 3: Flip paper stack and print (for the same range, of course) 'Even pages only' with 'Reverse pages' option ticked.
II) Some PDF advanced printing options for older versions of Adobe Acrobat Reader:
'Print as image' may help avoiding some rare Arabic printing glitches, such as deflected display of the cashidas.

٥
الصيف



أ- ماضى بعيد

الحشيش بقى رسمى ، وبقية الحاجات ها تحصله قريب !

هذا هو اليوم الأول فى عطلة منى الصيفية . إذن ستأتينا بانتظام لمدة شهر . الجو مولع كده ليه ؟ بتاخدوا مننا على قلبكم فلوس قد كده ، وموش هاين عليكم تصلحوا التكييف ؟ حاولت ميرفت الرقيقة المأخوذة بالهجوم المباغت أن تشرح لونس أن شركة التكييف سترسل فنى الصيانة اليوم ، وأن الحر جاء على حين غرة . وأنهم ظلوا يشغلونه فقط لتجديد الهواء طيلة الشهور الماضية ، وحين حاولوا تشغيل دورة التبريد اليوم ، تعطل الجهاز كله . الأستاذ إدوارد لعلمك ما بيقصرش فى حاجة . هى كثيرا ما تدخل مع إدوارد فى مشادات بسبب الشغل ، لكن بالنسبة لها خطا أحمر أن يهاجمه أحد العملاء أو يهاجم الشركة . أنتى على نياتك . المسيحيين دول آخر بخل . عادة ورثوها من كتر ما كانوا بيخبوا فلوسهم خوفا من الجزية . أنتى ما تعرفيش حاجة . ولم ينقذها سوى أن انبرى وحيد للدفاع ، كالعادة بواحدة من نظريات السوق الحرة : إذا كانت شركات السمسرة بتكسب على قلبها قد كده ، ما تروح تفتتح شركة وتكسب أنت ، وتكيفها زى ما أنت عاوز ! وحاول ضهرى أن يفك الاشتباك بهدوء : قالوا لك ها يتصلح النهارده . ثم راح يشرح له أن ميزانيات الشركات تتكون من عمودين ، وليس من عمود واحد ، إذ أن هناك عمود اسمه المصروفات . لكنه لا يستمر على حلمه طويلا ويبدأ الهجوم العكسى المباغت : أنت فى الأصل موظف ، وعقلية الموظف لا يمكن تتلاقى مع عقلية صاحب البيزنس أبدا . واحد چييناته مبرمجة تقول هات ثم هات ، والتانى تقول هات وخد !

ميرفت البائسة تجد متنفسا أخيرا فتعارض بأدب : موش كل الموظفين يا حاج . قال بناخد على قلبنا قد كده . الحال نايم ، وإللى زاد وغطى كأس العالم بتاع الكورة ، وزى ما أنت شايف آدى إحنا قاعدين قعدة المطلقة !

أسد الذى كان يجلس فى المقعد الوسيط ' الخامس ' فى تلك الساعة المبكرة نسبيا من النهار والقاعة لم تزدحم بعد ، يصيح بمزاحه الخشن : قعدة المطلقة ؟ ميرفت إللى زى البسكوتة بتعرف كلمة قعدة المطلقة ؟ فرفشى بأه !

– (تفرفش فعلا :) أنت فاكرنى من نادى هليوپوليس ؟ أمال لو ما كناش م العباسية زى بعض ؟

– أيوه كده اضحكى ، الجو المولع ها يخلى الأسهم ها تولع هى كمان . أنا إحساسى بيقول كده !

يبدأ ونس فى الغناء : ' أجمل إحساس فى الكون ، أنك تتن... مظبوط ، ودا حالى أنا ! ' . قال الكلمة البذيئة بصوت هامس مادا رقبته نحو إذن أسد .

– بلاش التشاؤم ده . طول عمرك متفائل يا عم عبده . نهارنا فل إن شاء الله !

وتعود ميرفت : أنا بس لى طلب يا أستاذ رامى ويا أستاذ ونس ؟

يرد روميو بالصوت الناعم الذى اعتادته كل الآنسات والسيدات فى القاعة دون أن يحرك فيهن ساكنا : ' تؤمر يا قمر ! ' .

– الشبابيك مقفولة زى ما أنت شايف ، ويا ريت نخف السجاير شوية لغاية التكييف ما يتصلح . (وتتفقد بعينيها المقاعد الخمسة ' الدائمة ' بدءا من الطرف البعيد :) الأستاذ وحيد سيجار واحد وحتى ما بيخلصوش كله ، الحاج ضهرى موش بيدخن ، أسد بينزل للقهوة يشرب شيشة ، الاتنين الحريقة هما أنتم ، إللى قاعدين تحت رأسى .

ونس يشرح بلهجة مصطنعة كمن لا حيلة له ، أن الحواسيب مرتبطة ببعضها البعض بوصلات ثابتة فى الحائط وبين مكتبنا ومكتبك ومع البروچيكتور ، وإلا كنا انتقلنا نحن أو أنت للطرف الآخر من الغرفة . أما روميو فيعود لوجهه الآخر ، اللهجة شديدة الجدية والوقاحة لكن التى يعرف الجميع أنها لا تكون جدية حقا أبدا ، يصيح بصرامة آمرة : ' يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى . ها أفتح محل فى سيتى ستارز . ها استورد فيه السيجار ودخان البايپ . ها أعمل قسم تيك أواى ، وها أعمل قعدة الناس تدخن براحتها : سيجار ، بايپ ، شيشة ، شيشة واحدة كبيرة فى النص بعشر خراطيم ، كل حاجة . كمان الجوزة والمعسل بتوع أسد ها تبقى موجودة . دلوقت الحشيش بقى رسمى ، وبقية الحاجات ها تحصله قريب . ها أمنع البانجو بس ، لأنه دون مستوى السيتى ستارز ، وموجود ببلاش فى كل حتة ، أو أقول لك : ها أرميه فى الفحم بتاع البطاطا ، برضه يعمل جو كأنه بدل للبخور . آه ! لاحظى أنى ها أحط برضه عربية بطاطا مشوية من إللى كانوا بيقفوا قدام المدرسة ، علشان المكان كله يبقى دخان فى دخان . بذمتك ما وحشتكيش أيام المدرسة ؟ كام مرة أكلتى بطاطا بعد ما سبتيها ؟ تخيلى بقى

بطاطا بالبانجو ، ها يبقى طعمها إيه ؟ ها أكسب زى الفل ، أحسن من وشكم ١٠٠ مرة . عارفة ها أسمى المحل إيه ؟ (يرسم بيده فى الهواء صورة لافتة مقوسة ، ويقول بتباه مسرحى :) Tobacco Pleasures ! جنة ! عارفة يعنى إيه جنة ؟ وموش ها أعينك فيها يا عدوة التوباكو أنتى ! (ويهمس مبتسما وصوته ينعم من جديد :) بأقول لك جنة ! فيه حاجات لسه بدرى عليكى لغاية ما تفهميها . قبل ما أموت نفسى أعرف إيه سبب العنصرية دى كلها ضد السجاير ، إللى هى أقل خطر مليون مرة من مليون حاجة ما حدش بيطلع لها قوانين ولا حتى بيجيب سيرتها ؟ السموم البيضاء الخمسة المعروفة ، الدقيق والسكر والملح والهيروئين والكوكائين ، كلها ضد الحب . الأدهى الزيت إللى فى كل حتة حتى الأكل البيتى ، بيدمر صمامات قلوبنا وبيعمل لنا كرش . ها يبقى فيه حب فى الدنيا إزاى من غير قلب ، أو مع كرش طالع ربع متر لقدام ؟ إشمعنى فيه قانون يملأ تلتين علبة السجاير وش وضهر بكلمة ' التدخين يقتل ' ، ولا نرى على علب الأكل كلمة ' البيتزا تقتل ' أو ' البيرجر يقتل ' ؟ الانتحار بقى قانونى فى كل بلاد العالم ، ممكن تدخل عيادة تدفع الڤيزيتا وتطلع جثة ، إنما أنك تدخن ممنوع . فين الحرية وحقوق الإنسان ؟ فين الحب ؟ فيه حاجة فى العالم بتحب الحب أكتر من دخان سيجارة ماريوانا ؟ تعرفى إيه أنتى عن الحب ؟ يا شيطانة ! يا قمر ! (ويشعل سيجارته التالية :) إزاى موش ملاحظة أن السيجارة دى الحاجة الوحيدة إللى بتحرق نفسها علشانك ؟ ! ' . ويعلق وحيد بالرأى الوحيد المنتظر منه : ' محاربة التدخين تتركز فى أوروبا لأنها اشتراكية ، وأمراض التدخين تكلف الكثير لنظام التأمين الصحى عندهم ، والحل هو خصخصة نظم التأمين الصحى ، وقبلها وبعدها أن تكف الدولة عن النظر لأفراد المجتمع كحفنة من القصر ، وأن ترفع وصايتها عليهم ، وأن يتحمل كل فرد مسئولية تصرفاته ، بما فى هذا ذهاب غير المدخن للمقاهى التى تسمح بالتدخين ' . ويأتى ضهرى بالتعليق الأخير : ' تخيل أنهم وقعوا فى تناقضات مضحكة : يسمحون بتدخين الحشيش الخالص فى الأماكن العمومية ولا يسمحون بتدخينه مخلوطا بالتبغ ! ' .

وتصل منى بالفعل ، هذا قبيل موعد بداية الجلسة بدقائق . وتحيى الجميع ، ممن انقطعت عنهم منذ تلك الزيارة العابرة . ينهض أسد تاركا لها أن تحل محله . تطلب كشفا بحساب أسهمها التى اشتراها لها والدها . تكتشف أنه نجح فى رفع الخمسة وثلاثين ألفا إلى نحو أربعين فى الشهر ونصف الماضيين . تسعد بهذا ، لكن يفوق هذا سعادتها وحماستها لأول أيامها كمتداولة . كان حماسا يفوق الوصف ، وسرى كالعدوى بين الجميع . الكل يترقب قراراتها ، وقد أفشى والدها كطبعه فى عدم الاحتفاظ بأسرار ، بسرها بأنها ستعلمهم جميعا كيف يكون التداول . بدأت تتابع موقف أسهم بعينها على الشاشة ، وتقارنه بمنحنيات جاءت بها على حاسوبها . ولأول مرة فى حياتها ها هى تتخذ بعض القرارات الاستثمارية .

... بعد ما حدث ، هذا يوم مثير ونادر حقا فى حياتها ولن تنساه أبدا !



الحرب قامت !

يرن جرس هاتف ونس الخليوى . كالعادة ، الطرف الآخر هى زوجته تهاتفه من دمياط . يصرخ ونس ناهضا : فيه قلق واضطرابات فى قرى فى أسيوط .

يرد الحاج بهدوء : اهدأ ، تلقاها كالعادة خناقة على أرض ولا شوية ميه .

– لأ ، بيقول لك جماعة إسلامية ، شبان حرقوا الكنيسة ومحلات وبيوت للمسيحيين . بيقول لك كذا قرية وفى نفس الوقت . الظاهر الموضوع أكبر من موضوع الإخوان إللى فات ! الظاهر الحرب ! الحقوا ! الحرب قامت !

– (يغير ضهرى رأيه بسرعة :) يبقى العيال إللى أفرجوا عنهم لما ألغوا قانون الطوارئ . التليڤيچن عمل لنا زفة إعلامية عن المصالحة الوطنية والديموقراطية والإصلاحات الدستورية وموش فاهم إيه ، بينما كل الخمسين ألف إللى طلعوا رجعوا شالوا السلاح تانى .

وتتوالى الآراء : ' لا ! ده موضوع الارتداد ! ' ، ' فين الحرية ؟ ' ، ' إللى عاوز يبقى مسيحى سيبوه يغور فى داهية ، لا مؤاخذة يا إدوارد ! ' ، ' الظواهر التى تصبغ الحياة المصرية ستصبح ثلاثا : الحرية الجنسية والانتحار والارتداد عن الإسلام ؟ ' ، ' بل قل ظاهرة واحدة : الحرب الأهلية ! ' ، ' هذا لو حدث سيقضى على كل شىء ! ' ، ' ربنا يستر ! ' ، وهلم جرا !

يهرعون يتقدمهم ونس بجسد يهتز بعنف لغرفة إدوارد ، حيث يختار ونس قناة الجزيرة .

يغضب الحاج من أسلوب التغطية : ' أنا طول عمرى بأسميها قناة الجعيرة ' .

مينا يقول بأسى وانكسار : ' إسلامية واضحة ، شوف الضيوف إللى جاييهم ' .

ويسخر ونس : ' أنت موش عايش فى الدنيا ولا إيه ؟ أيام الغمز واللمز انتهت من زمان ، دلوقت كل الإعلام حرب ع المكشوف ! ' .

ويلطف روميو السخرية بأخرى : ' كل القنوات بقت كده : شعارها ' الرأى والرأى الآخر (الأنيل منه) ' ! ' .

ويؤمن عارف على الكلام : ' فعلا ! بس دى ظاهرة عالمية . الموضوعية شىء نادر حتى فى الإعلام الغربى نفسه ، كله أيديولوچى يسارى ، وعلى رأسه السى إن إن . لقد تماهى الخط الفاصل بين الإعلام والپروپاجاندا ؛ تقريبا ما فيش حد محترم غير فوكس نيوز . من ساعة ما عملوها بالعربى ، ما عدتش بأشوف الأخبار غير فيها . يا ريت نبص بصة عليها ' .

الحاج : ' ' الحكومة بتحارب جنبا لجنب مع المسيحيين ' ؟ إيه التحريض القذر ده ؟ هو أحمد سعيد رجع حى تانى يا ناس ؟ ' .

يرد ونس بصوته الضخم ، بينما يقود الجميع من جديد منصرفين للخارج : ' هو مات ؟ ! ' .

– ولو ما ماتش هو ميت بالحيا . مين مهتم به النهارده ؟

– (يغرس إصبعه فى صدره حتى يشعر به ضهرى يلامس قلبه :) أنت !

ولا يجد الحاج ما يرد به .

فى طريق عودتهم مهرولين أيضا لأماكنهم ، لحظوا مينا وسامر وميرڤت ، وقد عقدوا نوعا من الاجتماع ع الواقف . توقعوا أن تكون ثمة هجمة بيع شرسة ، ونظموا أنفسهم بطريقة استثنائية . لن يسمحوا بأية أوامر شفوية ، منعا للخطأ . ميرڤت تتلقى الأوامر مكتوبة ، لكن مع تأجيل تسجيلها لحين تلقيها كلها . سامر يباشر التنفيذ على إحدى طرفيتى البورصة . مينا يتنقل بين الاثنين ، حاملا الأوامر كى لا يتوزع جهد ميرڤت ما بين تلقيها وما بين تمليتها تليفونيا . ثم حين يقارب تلقى الطلبات على الانتهاء سيذهب للوقوف بجانب سامر يمليه شفويا نص الأوامر لتسريع إدخاله لها ، أو يبدأ الإدخال على الطرفية الأخرى . أما الرد على الهواتف فسيكلفون به إدوارد شخصيا .

حدث كل ما توقعوه . كانت النبوءة التليفونية القادمة من دمياط على حق تام . وملأ القاعة ذعر كبير لتهاوى الأسعار !

بلا منازع كان الوجه الأشد امتقاعا بين الجميع هو وجه منى . الآمال المحلقة فى السماء قبل ساعة واحدة ، هبطت الآن إلى مركز الأرض . حلم السيارة ربما تبدد نهائيا . بل وحتى حين تتذكر قدر تباجحها أمام والدها ، وأمام الجميع ممن باتوا يعرفون هذا .

... بالتأكيد ، بعد ما حدث ثم حدث ، هذا يوم مثير ونادر حقا فى حياتها ولن تنساه أبدا !

بعد دقائق تخرج من جيب بنطلونها الخلفى هاتفها الخليوى المسكين الذى لا يتاح له أبدا التنفس خارج ذلك الجيب الصغير شديد الضيق (وإن حسده البعض طبعا على التصاقه الدائم بتلك المؤخرة الصغيرة المثيرة) . تضغط بعض أزرار وتقول : ' أونكل وحيد ، تسمح لى أقرأ لك خواطر قديمة لى ' .

– طبعا !

Tell me where to go
Where they can't see me
Where they can't feel me
Where they can't hear me
I am ashamed of what I am turning into
Still, I can not stop it
The merciless beast I am feeding
Is always around these days
The sweet things we used to share
Are fading every time we talk
The hatred growing between us

Hurts me more than I can say
How I just wish to simply hold you
Feel you again, heal me again
Forget those stupid notions of mine
Still, I got pride I need to throw out
And provoke you for a payback
Confused, searching for an identity
Hesitant to choose, afraid to decide
Whom shall I satisfy? You or myself?
Give me a clue… should I care?

Sunday, December 14, 2003
09:44 PM

– جميل !

– عجبتك بجد ؟

– عجبنى المعنى ، أنا موش خبير بالشعر .

– ده موش شعر ، دى مجرد خواطر .

– عندك حاجة تقوليها ! ده كويس . عجبنى . بس السؤال هل ميرى پوپينز ممكن تعجب بها ؟ أظن فضلتى تلعبى ما بين التفاؤل والتشاؤم ، وانتهيتى للعدم تقريبا .

– دى ما لهاش دعوة بالتفاؤل والتشاؤم . أنتم موش بتقولوا كده على البورصة برضه ، لا تفاؤل ولا تشاؤم ، إنما حقائق . القصيدة دى واقعية جدا . أنا سميتها Clueless . الإنسان تايه ، الحقيقة وحش ما حناش قده . أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط ! ما فيش فايدة فى أى حد .

– كلام صعب .

– يعنى ! إنما جايز فى يوم من الأيام الإنسان يساعد نفسه بنفسه .

– بصى يا منى . أنا عشت طول عمرى منعزل أو معتمد على نفسى ، واكتشفت أن ده غلط . موش كل شىء فى الكتب ، وموش كل شىء داخل الإنسان . جزء من الحقيقة موجود عند الناس ، ولازم ننتفتح عليهم ونتفاعل معاهم .

– أنا لا يمكن اقتنع بالكلام ده ! العلاقة بين البشر شىء مستحيل !

– جايز تقتنعى لما تكبرى .

– impossible !

ويغنى ونس : مغرور حبيبى كتير !

ويحتج روميو : أنت لك نفس تغنى فى يوم زى ده ؟ !

تذكر وحيد أصل المناقشة ، أشعار منى ، تذكر شيئا قالته عرضا ، فعاد للابتسام ، وهتف بها متسائلا بحماس (دون أن تفهم عم يتكلم بالضبط !) : تاااانى ؟ الحقيقة وحش ما حناش قده ؟ ! تاااانى ؟ أنت لا تزداد علما أبدا ، أنت تزداد جهلا فقط ! لك حاجات يا حاج !

القرآن لم ترد فيه كلمة حرية ولا أى اشتقاق لها ولو مرة واحدة !

وصلت كثير من الأسهم للحدود السعرية الدنيا وأوقف التداول عليها . لم يكن لدى الجميع شيئا يفعله سوى السؤال عن حجم خسائر بعضهم البعض ، ومن ثم تطييب الخواطر وتمنى انقشاع الغمة حتى الغد . حين هدأت الخواطر قليلا ، وبدأ الحاضرون يستوعبون الموقف ، كان الحاج أكثرهم هما وتوجسا مما حدث . كان حائرا هل يلقى اللوم على الجماعات الصغيرة التى أطلقتها الحكومة بسذاجة من السجون ، أم على الإخوان المسلمين المتغلغلين من الأصل فى كل مكان تقريبا . ما سيلى هو أضخم وأسخن مناقشة شاهدتها إطلاقا قاعة المستثمرين بشركة رمسيس فى تاريخها كله ، وعلى غير العادة لم يكن طرفاها الرئيسان وحيد وضهرى ، إنما ونس وضهرى .

الشرارة فى هذه المناقشة جاءت من مزاح عادى بين ونس وروميو : ' الأيام دى فى كل انتخابات الإخوان المسلمين يوعدونا بالحرية أكتر من شاكيرا ، بينما القرآن لم ترد فيه كلمة حرية ولا أى اشتقاق لها ولو مرة واحدة ! ' ... .



فى الإسلام النكاح هو الزواج ؛ الزواج التاريخى بين الدعارة والنخاسة .

لا عقوبة على من يجبر فتياته على البغاء ، وأسر العبيد عماد الاقتصاد ، والنكاح جماع الأمرين معا ،

ولا زنا إلا ' المطارفة ' وفى قول آخر ' المظارفة ' ، أى الجنس غير المأجور حبا أو إعجابا ،

وما عداه فهو ' مهر ! مهر ! ' بقول ابن صهاك ﷺ !

كان روميو أول من علق : ' دى حاجة تزعل فعلا ! ' ، ' علشان أكون دقيق ، الأحرار جت سيرتهم مرة فى القرآن ، كانت عن قتلهم ! ' ، وتؤمن سوسن على الكلام : ' إللى أعرفه أن كلمة حواء كمان موش موجودة ! ' . ' هى جت على دى ! ' ، ' تقولوا إيه فى انكحوا ما طاب لكم وما ملكت أيمانكم ' ، ' عارف ليه ' ما ' موش ' من ' ؟ ' . ويتداخل وحيد مداخلته الوحيدة فى هذا الحوار والذى سيطول ويتشعب ويغرق فى الإسفاف : ' أنا ككاتب عندما أقول مثنى وثلاث ورباع ، لا بد وأن أتبعها بكلمة ' ... إلخ ' ، لأن القصد واضح منها وهو لا نهائية العدد ' . وبالفعل كان ككل حوارات رمسيس قد خرج بالفعل عن السيطرة فاستلزم من وحيد الصمت : ' أنا شفت بيت دعارة فى الجزائر مكتوب عليه ' انكحوا ما طاب لكم من النساء ' ' ، ' ما ' لأن التفاسير بتقول لأنهن يشبهن السلع ، فلا عقل لهن ، لأنهن من الچركس والروم فما بالك لو من الزنج والحبش والسودان ، ولذا فهن نوع من البهائم ' ، ' ما ' يقصد بها الفروج وليس النساء ' ، ' تفاسير إيه يا عم ؟ أنت لو قريت تفاسير لاكتشفت أن ما فيش كلمة واحدة فى القرآن ما فيهاش شبهة ! ' . ' الچركس والروم ؟ موش دول النسوان القماطة يا عم ونس ؟ يا عم إحنا راضيين بس إحدفوا لنا شوية من لا عقل لهن دى ! ' ، ' عيب يا إخواننا ، النكاح هو الزواج ' ، ' يا منافق ! أمال ليه بتزعل لما أقول لك يا ابن المنكوحة ' ، ' آسف جدا ! النكاح ليس الزواج أو القران ، إنما المغالبة والقهر أو الاختراق والتغلغل ، أصلها نكح النعاس العين ونكح الماء الرمل ' ، ' موش فاهم ؟ ! إيه العيب فى كلمة زواج ؟ لازم فيه سر ؟ ! ' ، ' موش عارف ليه بيكرهوا كلمة زواج ؟ لأن لغويا الزواج يحتاج لاتنين ، بينما النكاح يحتاج لخمسة ' ، ' هأ ! دلوقت بس فهمت أصل كلمة تخميس ، هأ ! هأ ! هأ ! ' ، ' كده تبقى كلمة جماع مؤدبة عن نكاح ؛ لأنها بتساوى بين الطرفين ، أو تنفع من منظور الاتنين ! ' ، ' مظبوط : النكاح هو المصطلح الذكرى لممارسة الجنس ' ، ' ليه موش ممكن المرأة هى إللى تنكح ويكون لها القوامة ؟ ' ، ' موش عارف ليه ؟ هأ ! هأ ! هأ ! ' ، ' علشان اختلاط الأنساب يا شاطر ! ' ، ' اختلاط أنساب إيه ؟ إيه المشكلة الست تتجوز عشرة ، أو العدة تكون عشر دقائق ؟ أمال التحاليل الچينية عملوها ليه ؟ ' ، ' وإفرض الزوج عقيم ليه ما تتجوزش عليه ويفضل معها ! ' ، ' أنت عارف ليه الزواج من أربعة ؟ ده إعجاز علمى عن عجلات العربية ! ' ، ' وتنبأ كمان بالكريك ، بدليل تغيير الكاوتش فى الإسلام كل شوية ؟ ! ' ، ' أنت ها تقومهم علينا : ربنا قال المرأة متاع ، زى السرير والدولاب يعنى ! ' ، ' أو زى البهيمة ! ' ، ' تصدق صح : لاحظ ' ما ' طاب وليس حتى ' من ' طاب ' ، ' علشان كده بيسموا المرأة فى الإسلام وطأ وركوب وحصيرة وفراش ' ، ' فى الإسلام الزوج مفتاح الجنة ، وربنا رافع إيده من النسوان خالص ! ' ، ' فى الإسلام كل النساء عاهرات ' ، ' إزاى ؟ ' ، ' لا استمتاع إلا بأجر ' ، ' مظبوط ! ' آتوهن أجورهن فريضة ' ' ، ' صح ! فى مرة واحد إدى واحدة عطشانة ها تموت فى الصحرا شربة ماء مقابل جسدها ، فاشتكت لعمر فلم يتحدث عن اغتصاب أو زنا أو رجم ، أو حتى عن حمل وزواج وبراءة أرحام ، فقط قال له يجب أن تدفع مقابل ما استمتعت نقودا ' ، ' تصدق ، أول مرة أفهم ! فعلا ، المهر فكرة عربية ، وفى الثقافات التانية البنت هى إللى بتدفع علشان فيه بيت

يفترض أنه دائم بيأسسوه سوا ' ، ' الدوطة ! إنما رأيك إيه أنت يا عم ونس فى حكاية المهر ؟ ' ، ' فى الإسلام النكاح هو الزواج ؛ الزواج التاريخى بين الدعارة والنخاسة . لا عقوبة على من يجبر فتياته على البغاء ، وأسر العبيد عماد الاقتصاد ، والنكاح جماع الأمرين معا ، ولا زنا إلا ' المطارفة ' وفى قول آخر ' المظارفة ' ، أى الجنس غير المأجور حبا أو إعجابا ، وما عداه فهو ' مهر ! مهر ! ' بقول ابن صهاك ﷺ ! ' . ' بالظبط ، المهر من العهر ! ' . ' صح ! أنت عارف إيه معنى الإسلام جعل للمرأة ذمة مالية مستقلة ؟ المقصود ليس من حق الرجل استرجاع أجر ما استمتع به فريضة ، أو علشان إذا جمعت شيئا من رجال من خلف ظهر زوجها (بالذات خلال سفر الرجل فى غزوة أو قافلة ، إلى أن تسمع طرق الأبواب الذى أمر الرسول به بفترة كافية لإخلاء المنازل من الرجال قبل أن يطرق أصحاب البيوت بيوتهم -بالأخص طبعا منازل أمهات المؤمنين ذوات الـ ' فاحشة مبينة ' المتأبيات بنص القرآن حتى على الفاحشة المستترة) ' . ' هل تعرف أن شرعا الزوج غير ملزم بكفن زوجته أو دفنها لأن عقد الاستمتاع أصبح منتهى ؟ ' ، ' تعرفوا أن ' ادبح القطة ليلة الدخلة ' جت فى القرآن ' ، ' إزاى ؟ ' ، ' موش قال ' واللاتى تخافون نشوزهن ' ، وليس ' الناشزات ' ، ومحمد قال ' علقوا السوط حيث يراه أهل البيت ' ' ، ' أكيد بتهرجوا ! نكاح ، ركوب ، استمتاع ، كفن ، قطة ؟ منين بتجيبوا الكلام ده ؟ ! ' ، ' فيه كتب اسمها كتب المغازى ، وكتب تانى اسمها كتب المخازى ! هأ ! هأ ! ' ، ' كل ده فى الكتب ؟ ! ' ، ' طبعا ! إحنا نقدر نجيب حاجة من عندنا ! ' ، ' تعرفى أن الإسلام لم يهمل حق المرأة فى الاستمتاع الجنسى . الكتب تقول من حق الرجل الاستمتاع بزوجته ما شاء ، ومن حق المرأة الاستمتاع بزوجها ما شاء ' ، ' ما شاء ولا ما شاءت ' ، ' ما شاء . هى كده فى الكتب . أمال تروح فين ناقصات عقل ودين ؟ ' ، ' دى إللى طول عمرى ما فهمتها : يعنى لو البواب شهد ضد صاحبة البيت أستاذة الجامعة تؤخذ شهادته هو ؟ ' ، ' تؤخذ لو ضد صاحبة البيت وضد مراته الاتنين سوا ' ، ' مراته ؟ لو ضد صاحبة البيت وزميلتها عميدة الكلية تؤخذ شهادته هو ' ، ' الشيوخ بيطلعوا القطط الفطسا فى الستات ، الدورة الشهرية والعاطفية وغيره ، وما بيبصوش لنفسهم ، بمايم ما بيحركهمش غير غريزتهم ٢٤ ساعة فى اليوم ، ونظرة من واحدة ست ممكن يغيروا بها مليون شهادة ! ' ، ' موش لازم واحدة ست ، كفاية طاجن فتة ! ' ، ' تعرف أن بول البيبى الولد لا ينقض الوضوء ، وبول البيبى البنت نجس ؟ ' ، ' يعنى قصدك أن كلمة براءة الأطفال لا تنطبق على بنتى ؟ ' ، ' بمناسبة السرير والدولاب ، أنا بعينى شفت واحد بيسأل شيخ سلفى على التليڤزيون أحط الدولاب قدام السرير ولا جنبه ، فقال له استنى الحلقة الجاية لما أدور لك على أثر عن النبى ينطبق على السؤال ده ' ، ' افرض طلع أنه يحط الدولاب فوق السرير ، ينام فين هو ومرأته ؟ ' ، ' كان المفروض يختصر الطريق ويقول له دور لى على كلمة حرية ! ' . ويشفق الحاج على اشمئزاز سوسن المتزايد من حوار يعلم أنه إذا بدأ لا ينتهى إلا بنهاية جلسة البورصة ، ثم أن موضوعا جادا للغاية ها هو قد انقلب للتهريج بمجرد الإتيان على ذكر الجنس ، بالذات فى يوم لا يحتمل الهزل ، لذا يقطعه : ' أهم ما فى الموضوع أنك طلعت لنا إسلام الإخوان موش إسلام ؛ إسلام انتهازى دنيوى كذاب ! ' .

بداية هادئة مازحة لنقاش كان من الممكن أن لا يكون أبدا لولا أن صاح ونس بحزم غير متوقع : ' لأ ، ثانية واحدة ! أنا ما قلتش كده ' .

– أنت لسه مسميه إسلام شاكيرا ؟

– دى اسمها تقية ، إنما هدفهم فى الآخر إقامة شرع الإسلام !

ويتدخل أسد مستوضحا : ' إيه التقية دى يا باشمهندس ؟ ' .

– ما تعرفش التقية ؟ ! ما تعرفش ' يتقى منهم تقاة ' ؟ ! التقية . إللى أخدوها فى الإنجليش وبقت tactic ، زى ما أخدوا حشاشين بقت assassins ، زيها زى ما أخدوا كل الكلمات الوسخة فى لغاتهم عن عرب الأندلس . فى لغة الإسلام الأصولى إظهار غير ما تبطن بهدف نصرة الإسلام اسمه تقية ، وفى لغة الإسلام المودرن بتاع الإخوان المسلمين أبو شوكولاتا كتير ع الوش اسمه فقه الأولويات ، وفى العلمانية بتاع عمك وحيد ما لهوش غير اسم واحد : الكذب ! المهاجر العربى المسلم يداهن ويتملق ويتمسح ويكذب ويفتعل ويراوغ ويتصنع ويستميت ويقبل الأيادى ويلحس الأرجل ، من أجل أن يحصل على تأشيرة الدخول للغرب ، لكنه حتى لو غير دينه لا يتنازل أبدا عن إسلامه وعن فكرة استعباد كل العالم . انظر ماذا سيحدث بعد قليل عندما تشبع بطنه لو كانت جوعانة ، أو ماذا سيحدث على الفور لو كانت شبعانة : لا يصبح له سوى هم واحد : دعوة أهل الغرب للإسلام ! بالذوق ، بالعافية ، بما هو أضعف الإيمان ، أو بما هو أقوى الإيمان ، بما استطاع إليه سبيلا . باختصار يعود هاجسه الأوحد هو الهاجس الدينى .

ويصحح الحاج : ' سمه الهاجس الثقافى ' ، لكن ونس قرر أن يسترسل ...

– أنا نفسى فى مرة أشوف حد يعرف يناقش الواد الحليوة كحيل العين إللى عينوه مرشد للإخوان ، وبيطلع على التليڤزيونات يقول كلام أنعم من كلام البنات . التقية دى بيسموها خطاب المحنة والبلاء . هو دايما يقول إن من يناصر الديموقراطية والحداثة هم الإسلاميون ومن يحاربها هم العلمانيون ، وبرهانه هو رفضهم وصول الإخوان للسلطة . حاليا ما فيش بين الإسلام والديموقراطية أية مشكلة . المسلمون يتناسلون كالأميبا والديموقراطية تلعب فى صفهم دائما ، سواء فى البلاد الإسلامية أو فى أى مكان ، لأن الديموقراطية بحكم التعريف تقدس شىء واحد ، اسمه رأى الأغلبية . بالديموقراطية سيمسكون الحكم ويجعلون يهود إسرائيل أهل ذمة يدفعون الجزية ، بالديموقراطية سيجعلون شعوب أوروبا أهل ذمة يدفعون الجزية ، بالديموقراطية سيجعلون الصينيين أهل ذمة يدفعون الجزية ، بالديموقراطية سيجعلون كل العالم أهل ذمة يدفعون الجزية ، لا مشكلة لديهم إطلاقا مع الديموقراطية . لو عاوز عاوز تسمع عن الإسلام إللى يريحك ويرطب لك على صدرك روح اسمع الإخوان ، إنما لو عاوز تسمع إللى ها يحصل بجد تعال اسمع الجماعات . مع ذلك ما تقدرش برضه تقول على الإخوان كدابين . هم صادقون جدا حين يقولون السلطة الشعب وأن لا مانع لديهم حتى من المواطنة وحرية الملبس والعرى والخمر والحرية الجنسية والمجاهرة بالإلحاد وكل الحريات الفردية . هم بالفعل يريدون الديموقراطية حتى أقصاها وبإخلاص . هم يغسلون أيديهم من كل شىء ، بما فيه الإسلام ، ويلقون الكرة بالكامل فى ملعب الشعب . الحقيقة أن الإخوان فعلا موش ضد أى حاجة لغاية ما يوصلوا السلطة ، بما فى ذلك أن مسيحى يبقى رئيس الجمهورية ! للدقة هم فقط ضد الفساد ، لا لشىء إلا لأنها الفرصة الوحيدة إللى ممكن توصلهم للسلطة . لأن غلط جدا بالنسبة لهم إغضاب الفاسدين أو الحكومة أو أى حد . وحتى لا ندخل فى نقاش فرعى حول وجود الفساد من عدمه ، لو الفساد موجود كان بها ، لو محدود ها يضخموه فى كلامهم ، لو موش موجود ها يخترعوه . هكذا لا توجد أية مشاكل من أى نوع عندهم ، فقط يجلسون وينتظرون ، عينهم على شىء واحد لا يحيد أبدا : السلطة . إنها نفس سيناريو إيران بالضبط رغم الاختلاف البين فى المذهب . لن تصدقنى لو أخبرتك كيف بدأت مؤامرة الخومينى الكاسحة فى ١٩٦٣ ، هذا الذى يتشدق هو وجمهوريته بأنه من أراد فأعاد الديموقراطية لإيران وأنه نصير للعلم وللتقنية (النووية وغير النووية) ؟ باسم الدين جيش ملايين الإيرانيين فى الشوارع ستة أشهر ضد ثورة الشاه البيضاء التى أرادت نشر التعليم والارتقاء بالطبقات الفقيرة وديموقراطية ومواطنة حقيقية للناس وتحديثا شاملا لإيران . تخيل مظاهرات شعب كامل تهتف ضد بناء المدارس فى الريف وإلغاء الإقطاع وإشراك العمال فى ملكية المصانع وأرباحها ، وليس فقط ضد حق المرأة فى التعلم والتوظف والانتخاب أو منح الحقوق السياسية لغير المسلمين كالبهائيين والمسيحيين واليهود ؟ ! إن ليس من حق الملالى ولا الإخوان حتى التشدق بأنهم أنصار المستضعفين فى الأرض حسب تعبيرهم الشهير . إذن المشكلة تأتى هنا ، تأتى لحظة أن يختارهم الشعب فى الانتخابات . هنا ستطرح إشكالية أن حاكمية الشعب اختارت حاكمية الله . كده بمعادلات الرياضيات أو بمنطق أرسطو بتاعكم : بما أن الحاكمية للشعب ، والشعب قال الحاكمية لله ، تبقى الحاكمية لله . والآن بما أن الحاكمية لله ، فلا مجال للرجوع لحاكمية الشعب مرة أخرى ، لأن حاكمية الله لا تعترف بالرجوع لحاكمية الشعب . تعاليم الدين واضحة جدا هنا : الحكم بما أنزل الله . وطبعا ساعتها سلم لى ع الديموقراطية وتداول السلطة والمواطنة وحرية الأديان ومساواة المرأة وكل العبط بتاعكم ده ، فالأحزاب الوحيدة التى سيسمح بها أهل الحل والعقد هى أحزاب الأئمة الأربعة ، بعدها يبدأون فى تصفية بعضهم البعض جسديا كى يعرفوا أى المذاهب هو الفرقة الناجية (أهل الحل والعقد أو بالمصطلح الشيعى ولاية الفقية ، هم من لا يحكمون لكن من حقهم الڤيتو على كل همسة يهمس بها من يحكمون أو من يفكرون فى ترشيح أنفسهم للحكم) .

– ما هذا الكلام ؟ هل يمكن مثلا أن تطبق الجزية ؟ لا أحد يفكر بهذه الطريقة الهمجية المتخلفة اليوم .

– لا أحد ؟ أنت على نياتك أوى يا حاج . أولا أتحداك أن كل الأفكار دى موجودة جوه كل متدين ، تقريبا كل البليون ونص مسلم ، جايز ما بيقولهاش لأن الظروف موش سامحة ، لكن باينه فى عينيه وفى طريقة كلامه . دايما المتدين بيص للمسيحى من فوق لتحت ، ولو ناقشته موش لازم يقولوا لك ذمة وجزية ، ها يقولوا لك كنف الإسلام وأمان الإسلام وحمى الإسلام . كنف إيه وأمان إيه وأنت محتل أرضى ؟ أمان إيه ؟ هم شوية فراخ ؟ حمى إيه ؟ روح احمى نفسك الأول ؟ لما النظرات والتساؤلات الداخلية تنقلب لكلمات تلقاه دايما يتكلم عن سماحة الإسلام ، وده لأن معناها أن من حقه الوصول فى معاملته لمستوى العبيد ، أو حتى استلاب أمواله ونسائه وقتله ، كلها كحق مستحق ، وطبعا مستنى جواه اليوم إللى يتطبق فيه الإسلام ويقدر يعمل كل ده . وهم على فكرة شايفينها سماحة بجد ، أو على الأقل حقوق لهم ، طالما تركوا لك الخيار الحر

فى عدم اعتناق الإسلام . أنت عارف أصلا كلمة سماحة معناها إيه ؟ هذا نوع من التضليل المتعمد المتكرر جدا فى الخطاب الإسلامى ، يأتون بكلمة لتقع على أذن السامع بمعنى مختلف يعلمونه سلفا وقدروه جيدا ، وغالبا ما يكون العكس مما تعنيه الكلمة فعلا . من يسمع كلمة الإسلام دين سماحة allowance يذهب ذهنه لأنه دين تسامح forgiveness ، بينما السماحة تعنى علو اليد والسماح أو عدم السماح من قبل من هم الأعلون .

– يعنى أنت تشارك أعداء الإسلام مقولات إنه لا يحترم بقية الأديان وإنه ليس دين سلام وإنه انتشر بحد السيف ؟ !

– لا ، لم أقل هذا . يمكنك اعتبارها لعبا بالألفاظ ، لكنى شخصيا لا أعتبرها -ولا حتى لفظ السماحة- هكذا . دائما أبدا هذه هى طريقة الخطاب الإسلامى : نحن نريد تكريم المرأة فلا نخرجها من البيت ، ونريد تكريم أهل الذمة فلا ندخلهم الجيش ، ونريد تكريم عيسى فننفى صلبه المهين ، بينما ما يقصدونه هو استرقاق المرأة واستعباد غير المسلمين ودحض عقيدة ألوهية المسيح (وإن كنت حتى اليوم لم أفهم كيف أن عدم صلب المسيح ورفعه للسماء بدلا من ذلك يقلل من شأنه ، لكن هذا هو مستوى تفكيرهم) ! هم دائما أوصياء عليك يعرفون مصلحتك أكثر منك ، ولو قتلوك سيقولون لك هدفنا أن نريحك من منغصات الحياة التى ربما تحدث لك لاحقا . إذن المشكلة ليست فى المتكلم الذى يعرف جيدا ما يقول ، لكن فى المستمع الذى لا يفهم ولا يريد أن يبذل مجهودا فى الفهم والبحث ، إنما يفرح بما فهمه فهما سطحيا وجاء على هواه ، أو يأخذ رأس القبة ويطير كما يقولون . يجب أن تفهموا بدقة كيف يفكر الإسلاميون . الغرب الساذج يفرح حين يشجب أو يدين أحد من الأزهر أو من بعض الإخوان التفجيرات ، لكن السؤال الذى كان يجب توجيهه له ليس هل تشجب أو تدين ، فربما يشجبونها ويدينونها ليس لأنها غير إسلامية إنما لأن توقيتها غير صحيح . السؤال الصحيح هو هل أولئك كفرة أم لا . هنا ستجدهم يرفضون بكل العناد ، إذ لو كان هؤلاء خارجين فعلا على الإسلام لما ترددوا فى تكفيرهم ، وما أحلى وأسهل التكفير كما تعلم . يجب أن تفهموا بدقة كيف يفكر الإسلاميون ، وماذا تقول الكتب بالضبط . بالنسبة لهم ، ما قلته أنت للتو هو ثلاثة مزاعم لا أساس لها : ١– تقانيا ، الإسلام يحترم الأنبياء ورسائلهم ؛ فعلا يحترم المسيحية ، لكن المسيحية كما يفهمها هو ، أما بلايين المسيحيين الذى يؤمنون أن المسيح إله فليسوا مسيحيين إنما كفار ويجب قتالهم . ذات الشىء عن اليهودية ، يحترمها كما يفهمها ويفيد منها ، أما اليهود ويهوديتهم (المحرفة) الحالية ، فهم أبناء قردة وخنازير وتجب إبادتهم . ٢– تقانيا ، كل الإسلاميين بمن فيهم الجهاديون يقولون إن الإسلام دين سلام ؛ وهم يقصدون هذا حقا ، فعندما يصبح الدين كله لله سيعم السلام على الأرض ، إذن الإسلام دين سلام وهدفه النهائى هو السلام . أيضا ٣– تقانيا ، حتى يتحقق هذا هو لم ولا ولن ينتشر بحد السيف ؛ ممنوع شرعا أن تعذب أحدا حتى يسلم (طبعا باستثناء الأسرى ، أو أحيانا باستثناء أبناء العمومة من القبيلة حيث كان ممكنا المساومة بين السيف وتأليف القلوب ، وأشهر حالة هى أبو فسيان) . رسميا ودينيا ما انتشر بحد السيف هو تطبيق شرع الله ، ' حكم ' الإسلام ، شريعة الإسلام وليس الإسلام نفسه . من حقك أن تطرق بجيوشك باب أى بلد ، على الحدود تقول إنك أتيت لنشر الإسلام بين شعبها ، لو قالوا لك ' متشكرين ، موش عاوزين النهارده ' ، تخبرهم أن من حيث المبدأ ليس من حقهم هذا لأن تلك الرسالة جاءتهم من إله الكون ، وهم ما إلا البوسطجى . لو حاولوا اعمل فيهم ساعتها بسيفك ، لا بأس أن تذبح مئات الآلاف بحد السيف ، لا بأس أن تفرض قوانينك ولغتك وجزيتك بحد السيف ، لا بأس أن توقع الرعب فى قلوب الجميع بالزعيق فيهم بقول الرسول ' اسلم تسلم ' ، بل وعلى الصعيد الفردى لا بأس أن تستخدم السيف لأشياء كثيرة ولأى مبرر يعن لك ولا حد يقام عليك ساعتها ، فقط شىء واحد ليس من حقك أن تفعله على وجه الإطلاق : أن تضع هذا السيف فوق رقبة شخص فرد محدد وتقول له اسلم ؛ ارهبه بكل الطرق ، دعه يسلم ، دعه يموت ، لكن لا إكراه صريح مباشر فردى على دخول الإسلام . هل تعرف ما معنى تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ المذكرة التفسيرية أخرجها البخارى فى كتاب له على لسان مُحَمَّد تقول ' كنتم خير امة أخريت للناس ، خير الناس للناس ، تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام ' ، أى أنك تفعل خيرا بجر الناس من أعناقهم ، لأنك تساعدهم بذلك على رؤية الحق . هذا هو المعنى الذى يفهمه الجميع بمن فيهم ' المعتدلون ' الذين يعارضون الباقين ويقولون إن ' لا إكراه فى الدين ' آية غير منسوخة ، لأن لا فرق كبير إن ظلت سارية المفعول ، فسكة أبو زيد كلها مسالك . تعريف كلمة إسلام وردت فى القرآن نفسه ' لا تقولوا آمنا بل أسلمنا (أى استسلمنا -نحن الأعراب- لك يا مُحَمَّد) ' . تعريف غير دينى بالمرة ، بل سياسى محض ، وبما أنه تعريف القرآن نفسه ، فهو يجب كل التعريفات الدارجة من شاكلة أن الإسلام هو التسليم والخضوع لله (طبعا دع جانبا أن محاولة التعريف بجذر الكلمة وهو سلم ، ومنها السلام !) .

– وماذا تعرف أنت عن الإيمان ؟

– أعرف أن تعريفه أنيل وأضل سبيلا . هو موجود فى الآية التالية مباشرة : إطاعة الله والرسول والجهاد (= الحرابة الشرعية) بالأموال والأنفس فى سبيل الله . باختصار دقيق : الاستحلال والاسترقاق هما غاية الإسلام ، وليس تسهيل طريق الجنة لأمثال إدوارد ومينا . من اللحظة الأولى كان هدف الإسلام واضحا لمخترعيه ولأتباعه سواء بسواء ، مُحَمَّد لم يعد بالجنة وحور العين فقط كما تزعمون أيها البسطاء ، إنما وعد بالغنائم بل قسمها عليهم بالاسم والمقدار قبل أن تأتى أصلا فى أغلب الحالات ، وبالفعل أغلبها لم يأت فى حياته وبالفعل تم لاحقا تحصيل التشيكات آجلة الاستحقاق هذه : لك كذا يا فلان من مال البحرين وكذا يا علان من سوار كسرى وكذا يا خلان من نساء الأصفر ... إلخ ، المهم فى كل الأحوال أن لم يحدث أن خطر ببال أى من كل هؤلاء أن الأديان كما اعتادها الناس من كل من ادعى النبوة والرسالة ، هى فقط مجرد دعوة بالكلام والإقناع . الهدف لم يكن يوما هداية الناس للعقيدة ، إنما بسط شريعة الإسلام على كل العالم ، وتحول الناس للإسلام هو مفيد فقط بقدر الحاجة إليه فى السيطرة على العالم ، مثل أسلمة بعض أبناء الغرب وتأليف قلوبهم بالمال كما يجرى الآن ، لكن بعد السيطرة على الأراضى لا يهم كثيرا أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا بالإسلام . من شاء أن يؤمن فليؤمن فيأمن على نفسه وماله ، ومن لم يشأ فليدفع الجزية ويقبل العيش مواطنا من الدرجة الثانية ، أو يقتل ، وعامة لا بأس بعدم الإسلام بالذات حين تكون الجزية والاسترقاق مصدرا لعائد مالى أكبر ، والإسلام ازدهر حين كانت عائدات الجزية ضخمة ، وعندما أسلم الجميع عم الفقر ، أو باختصار : بدون غزو بلاد جديدة يموت الإسلام والمسلمون !

– طبعا فى رأيك كان ممكنا نظريا أن لا يسلم أحد ، ويقبل الجميع العبودية ، فيصبح حكم أقلية ؟

– يا ريت ! أنت فاكر العبودية سهلة كده ؟ من الممكن أن تدفع الجزية وأيضا تقتل . مثلا لو ضربت ذميا وسرقته واغتصبت زوجته وبناته أمام أهله وجيرانه ، أو حتى قتلتهم ، لن تعاقب . السبب بسيط هو أن شهادة أى من كل هؤلاء كذميين لا يعترف بها أمام المحاكم طالما هى شهادة على مسلم . لازم يشهد مسلمين فى صفك . الذمى عبد تقريبا ، لا يسمح له بالمشى وسط الشارع ، ولا ارتداء أحذية ولا تغطية رأسه . أنت تسرق وتضرب وتغتصب بنات الذمى ، هذا حق ، لكن أن تعذبه من أجل أن يصبح مسلما ، فهذا حرام . ثم قل لى منذ متى كانت للدولة الإسلامية حدود ؟ كل الدول المتعاقبة لم تقر بشىء كهذا أبدا . النهارده أعضاء مسلمين فى الكونجرس بيقولوا علنا من قال أن الأميركى يجب أن يكون مسيحيا ، أو يجب أن يتكلم الإنجليزية . غزو صريح يعنى ، وأراهنك بعد شوية ها يبتدوا يقتلوا المسيحيين أو إللى بيتكلموا إنجلش . الإخوان أو آل سعود أنفسهم ، أو من يسمون عامة بالمعتدلين ، بيأجلوا الجهاد المسلح (= الحرابة الشرعية) شوية ويقولوا كل العالم أرض دعوة . كل العالم فسطاط سلام لأنهم حاسين أن نفوذهم تغلغل فى كل حتة ، والبركة فى فلوس البترول إللى ربنا إداها لهم لهدف ، وما فيش داعى دلوقت للسلاح إلا كرتوش أو علشان تخلص [بتشديد اللام] . وفعلا حاربوا فى حتت فى البوسنة والشيشان ، وممكن يحاربوا فى كل حتة لو أحسوا ' بالتمكين ' فيها ، وإلا ما معنى أن يسموا أنفسهم بالجهاديين . أحيانوا يطالبون مع الحكومات أو مع إسرائيل باتفاقيات أو هدنات طويلة المدى ، وهى عبارة دقيقة تعنى فى الأدبيات العربية-المسلمة الحديبية ، أى لا هى معاهدة ولا حتى هدنة ، إنما فقط هدنة من طرف واحد هو أنت ، وبحد أقصى عشر سنوات ما عداها هو تهاون فى شرع الله ، أما من ناحية الطرف الآخر -أى المسلمين- فمن حقه أن ينهيها فى أية لحظة يشعر فيها أنه قادر على التمكن منك . يقولون إنهم حاليا يعتمدون فقط الوسائل السلمية والديموقراطية ، وأنها تأتى بنتائج ممتازة منذ كان صلاح أبو إسماعيل يعيد تفصيل الدستور المصرى كل عدة شهور حسبما عن له المزاج ، ولا تزال النتائج ممتازة حتى الآن ، وأنهم بالتالى ليسوا فى حاجة ماسة للعنف قبل الوصول لمرحلة التمكين الكامل ، إلا أنه هناك جماعات أخرى لا يعرفها أمثالكم بترد تقول مرحلة الحديبية دى قبل تمام الدين ولا يجوز القياس عليها .

بدلا من أن يثور الحاج على كلام كهذا هدأ هدوءا غامض السبب ، وعقب مؤيدا : ' وأنت الصادق موش سلم على الديموقراطية ، إنما سلم على أرواحنا نفسها . عندك حق . الإخوان بتوع الديموقراطية والحداثة ؟ هم فاكرين أنهم بيكلموا ناس مغفلة ؟ حتى لو كانوا بجد موش ناويين يطبقوا الشريعة ، كفاية عيل واحد صغير زى أصحابك المضللين بتوع أسيوط يكفرهم ، وتتقلب كل حاجة تانى ؛ أو حتى موش محتاج يكفرهم ، كفاية يفكرهم . على رأيك ! طالما زى ما بتقول المرجعية عندهم معروفة ومتفق عليها الجميع سلفا . حتى فى مصر ، لو قلنا ثقافيا وتاريخيا وتراثيا المصريون لا يفضلون الإسلام المتشدد ، سيقولون لك نصوص الشرع فوق كل شىء . حتى لو فرضا صدقوا فى مقولة المستضعفين فى الأرض بتاع الخومينى لن يكونوا أقل سوءا من روبيسبيير أو لينين أو ناصر ، وما أدراك بالمستضعفين فى الأرض يوم تصبح لهم السلطة ! تصدق ؟ أول مرة تقول حاجة صح ! ' .

قالها الحاج بلين وهدوء معتقدا أنه هكذا ينهى النقاش إلى كلمة سواء يتراضى عليها الجميع ، لكن ونس رد ببرود يكظم غيظا هائلا : ' ماذا تعرف أنت عن أصحابى بتوع أسيوط ؟ ' .

– لا أعرف شيئا ! مجرد استنتاج ! أنت درست هناك فى السبعينيات ولا بد أنك سمعت عنهم !

– أنا لم أسمع عنهم ، أنا كنت صديقا حميما لأهم أهمهم ! كلمة مضللين هى آخر كلمة يمكن أن تنطبق عليهم . مضللين إيه يا حاج ؟ ! مين إللى ضللهم ؟ إذا كانوا هم إللى اخترعوا الحدوتة كلها ! دول أصلا كانوا ليبراليين (مشددا كل حرف من حروف الكلمة) ، ثم قرروا قراءة القرآن !

– (ناظرا لوحيد مستجديا منه تأييدا لن يأتى أبدا :) الفقر بيعمل حاجات وحشة فى الناس . لولا الفقر ما كانش فيه إرهاب .

– فقر إيه يا حاج ؟ ! بأقول لك ما كانش فيه حدوتة أصلا ، وهم إللى اخترعوها . وإللى اخترعوها دول ، كان أهاليهم أحسن منا كلنا عشرين مرة . هات لى اسم منظر واحد للجهاد كان فقير ، موش من أصحابى دول ، إنما فى أى وقت . هل إللى انتحروا فى ١١ سبتمبر كانوا فقراء ولا محتاجين ؟ !

– (ضاربا كفا بكف ، وناظرا لوحيد لعله يجد فيه نصيرا لشىء آخر ، ناسيا فى غمرة انفعاله أنه آخر ما يمكن أن يؤمن به وحيد ، الشىء المسمى بحقوق الإنسان :) أكيد التعذيب هو إللى خبل مخ العيال دى ؟

– (ونس يعود بذات الحدة :) تعذيب إيه يا حاج ؟ أنت ها تعملى فيها وحيد حامد ؟ الحكومة كانت مدلعاهم ع الآخر ، فلوس ، وشقق ، وكل حاجة . خلوا كل الشيوعيين ذوى عاهات ، ولو كانوا قتلوا ألف منهم ما كانتش ها تمس شعرة واحد فيهم . مسيحيين المدينة الجامعية فى أسيوط -مئات- حطوهم فى بدروم مبنى ب ، المطعم ، يناموا ع الأرض فى عز الشتا شهر كامل . شبعوهم ضرب ، وكانوا بيخلوهم هم نفسهم يضربوا بعض على وشهم زى ما تكون لعبة ، يعروهم ويخلوهم يلحسوا البلاط ، ومليون حاجة ، ولو اتنين إخوات موش ها أحكى لك كانوا بيخلوهم يعملوا إيه فى بعض . يا حاج هم إللى اخترعوا التعذيب موش الحكومة .

– محدش سمع على حاجة زى دى !

– أنت ما سمعتش ، أنا شفت ! لاحظ أنك قلبت وبتدافع عنهم .

طوال الوقت ظل وحيد صامتا صمت الأحجار ، إلا من نظرة هامسة تبادلها مع اللواء عزمى عندما اقترب ونس من ذكر أمور تزامنت مع أيام السادات الأخيرة . الآن فقط يتدخل مدافعا عن ضهرى ، والسبب أنه شعر بأن الموقف بات سيرياليا ، حين بدل الطرفان مواقفهما فيه دون أن يشعرا : ' زى ما أنت قلبت وبتدافع عن الحكومة ، يا بتاع نظرية المؤامرة ! ' .

– خلينا فى الموضوع .

– (وقد وصل السخط لذروته :) أى موضوع ؟ أنتم دخلتونا فى ١٠٠ موضوع لغاية دلوقت ، وبينما لا تفهمون أى شىء ، تحبون فقط الحديث عما لا تعلمون ! أصدقائى هؤلاء ليست لهم أية مطامح أرضية وضيعة كالإخوان ومن شابههم من عديمى الخلق أزيار النساء محترفى الكذب والتقية ؛ إنهم معدن آخر تماما من البشر !



ولم لا ؟ ستترك الاستخبارات ، وسأجعلك محافظا لأسيوط !

كالمتوقع ذهبت غضبة ونس بعد قليل ، عادت الابتسامة لوجهه وشرع فى سرد قصته الكبيرة -ككل قصصه أو من الجائز أنها كانت كبيرة حقا هذه المرة : قصة صداقته مع زعماء الجماعة الإسلامية بأسيوط أثناء دراسته الجامعية التى بدأت بعيد حرب أكتوبر بشهر ونصف ، إذ كانت الدراسة قد بدأت فى تلك السنة متأخرة عن موعدها .

مبنى كلية الهندسة كان مفخرة عصره ، ضخامة وجمالا معا . المبنى الرئيس عبارة عن مبنى طويل لا يقل عن ١٠٠ مترا ، مكون من ٥ طوابق ، وطوليا منقسم لثلاثة أجزاء ، الأوسط بعرض نحو ٢٥ مترا ، معلق على أعمدة وتحته مساحة مفتوحة . والمبنى برمته كان أحد أربعة مبان تابعة للكلية . الورش الميكانية مواجهة لكامل المبنى بطوله . وضلعا المستطيل الآخران كانا مختبرات أخرى ، حرارية وچيولوچية وما إليها . كان عبد

النبى ، أى ونس ، ممن يستمتعون بالوقوف طويلا فى هذا المسطح الأخضر الذى تحيط به الأبنية الأربعة ، أو تحديدا فى المنطقة المفتوحة تحت الثلث الأوسط للمبنى الرئيس ، والتى حيث كان لا بد وأن تعبره كل بنات المدينة الجامعية الواقعة للجنوب من هذا المجمع ، فى ذهابهن لأقسام كلية العلوم الواقعه شماله ، وهى مجمع ضخم آخر من ٦ أقسام ، كل منها يحمل اسم أحد أقسام كلية العلوم . والواقع أن اسم كلية العلوم لم يكن اسما دقيقا ، لأنه كان يستضيف ضمنا كامل كليتى الطب والصيدلة أيضا ، باستثناء السنوات النهائية التى تدرس فى المستشفى الواقع خارج الحرم الجامعى فى مدينة أسيوط نفسها . كان ونس يتطلع للفتيات وهن يعبرن القلب الأخضر لكلية الهندسة ، ثم يصعدن السلالم الخمس الممتدة بطول هذا الثلث ، ثم يجتزن هذا هبوطا خمس السلمات الأخريات فى الطرف الثانى . ثم يرقبهن وهن عائدات فى المساء . رغم أنه طويل وعريض ولا يمكن إلا أن تلحظه ولو كان واقفا وسط عشر أشخاص ، ورغم نشاطة الاجتماعى الواسع ، إلا أنه لم يرتبط بأية فتاة من أسيوط ، وانتظر إلى أن عاد لدمياط .

لو وقفت فى تلك المساحة ونظرت للشمال ، أى جعلت الورش إلى ظهرك ، كنت تجد بوابة قسم الهندسة الميكانية إلى يمينك ، وبوابة قسم الهندسة الكهربية إلى يسارك . كل بوابة تقود إلى بهو . فى بهو قسم الهندسة الميكانية ، تعرف ونس لأول مرة بعاصم وعصام . كان يسبقهما فى السن بعامين ، ثم سرعان ما أصبحا زملاء فى سنة أولى ميكانيكا . كانت الجامعة كلها تعج بمجلات الحائط الشيوعية ملتهبة الكلمات والشعارات . أما عاصم وعصام فقد أسسا أسرة خاصة للقسم أسمياها أسرة الأصدقاء ، وكانا يعلقان صحفا بيضاء تماما ، ويدعوان الزملاء للكتابة بأنفسهم . تخيل الجميع أن ذلك مؤشر تحرر فكرى وانفتاح وإيمان بتعدد الفكر ، إلى أن اتضح بعد قليل -فى قول البعض- أنه مؤشر للخواء أو البحث عن طريق أكثر منه موشرا للحرية ؛ إذ اختفيا لنحو شهرين ، ثم عادا بالعصى والسلاسل الحديدية يقودان المجازر ضد الطلبة الشيوعيين . لم يكونا الأوائل ولا المؤسسين ، لكن انضمامهما فرق كثيرا ، وكثيرا جدا ، فتقريبا كل الباقين كانوا تافهين وظلوا تافهين ، يهمهم تقصير الجلباب وارتداء الساعة فى المعصم الأيمن أكثر مما يهمهم فهم الحكمة العميقة وراء الجهاد (= الحرابة الشرعية) . اليوم تشير لهما الصحف على أنهما العقل العميق لكل الحركة الإسلامية المسلحة التى بدأت فى السبعينيات ، والتى تصاعدت حتى أخذت صورة تنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات الجهادية العابرة للقارات . وعن عصام بالذات يشيرون لأنه مؤلف أهم الأدبيات ، وكذا كاتب المرافعة التى ألقاها عمر عبد الرحمن أمام المحكمة نيابة عن كل الجماعة . وعن عاصم تذكر كل مصر أنه السجين الذى كانوا يحضرونه على نقالة ، فهو لم يكن قد برأ بعد من إصابته البليغة خلال هجومهم الكاسح على مديرية أمن أسيوط صبيحة يوم عيد الأضحى ، اليوم التالى لاغتيال الرئيس السادات !

كان معظم تلك المواجهات مع الشيوعيين يدور فى كلية العلوم ، مجمع المبانى الضخم الثانى -بخلاف الهندسة- فيما يسمى فى أسيوط بالجامعة الجديدة . بدأت هذه المواجهات فى أوائل سنة ١٩٧٥ . كان النشاط برمته مدعوما من المحافظ مُحَمَّد عثمان إسماعيل ، الذى كان رئيس استخبارات حرب أكتوبر ولا يشك أحد فى دهائه وكفاءته ، وعرف لاحقا أنه هو الذى اقترح على الرئيس السادات فكرة الاستعانة بالإسلاميين ، فرد عليه ' ولم لا ؟ ستترك الاستخبارات ، وسأجعلك محافظا لأسيوط ! ' . حوار دار فى بداية عقد السبعينيات ، وتكرر طبق الأصل مرة ثانية قبل أقل من عشر سنوات ، بين زبيجنيو برچيزنسكى ناصح الأمن القومى وبين رئيسه چيمى كارتر ، مع اختلاف المناسبة : احتلال السوفييت لأفغانستان . الرئيس ريجان ، رغم ما عرف عنه من حزم وحدة وميل للمواجهة ، لم ينبذ الفكرة بل جعلها الشىء الوحيد الذى يمكن أن يرثه عن ولاية كارتر الكارثية ، ثم نماها بأسلوبه هو بأن جعلها جزءا من سياسة جلوبية متكاملة أعم لتقويض الشيوعية . سياسة اقترحتها مؤسسة دراسات محافظة اسمها هيريتيدج Heritage Foundation ، وسميت إعلاميا فيما بعد بـ Reagan Doctrine . (وكلمة محافظ عندهم تعنى الإيمان بأفكار الآباء المؤسسين لأميركا ، وليس التدين أو التزمت الأخلاقى أو التفكير الرجعى أو معاداة الحريات الشخصية) . هنا لم تعد تخص أفغانستان فقط ، ولم تعد قصرا على دعم الإسلاميين فقط ، إنما شملت كل حركة معارضة للشيوعية . شملت أنجولا نيكاراجوا ڤيتنام لاوس كمبوديا إثيوبيا ، كل مكان . وشملت أحيانا التدخل العسكرى المباشر ، كما حدث مع ليبيا . باختصار ، لقد جعل ريجان من كل أرض الكوكب نارا ملتهبة تحت أقدام السوفييت ، وعجل بالسقوط المروع لإمبراطوريتهم !

- خلينا فى ١٩٧٥ !

كان المحافظ يعطى كل طالب من الجماعات شقة من إللى كان اسمها المساكن الشعبية ، وإللى عادة كنت تحتاج ٢٠ سنة أقدمية فى الزواج والإنجاب علشان تاخد واحدة . ده طبعا بخلاف الفلوس وكل أشكال الدعم إللى تتخيلها داخل وخارج الجامعة . لم يكن عاصم وعصام يظهران

كثيرا عندنا بالقسم . ولم يحضرا المحاضرات ولا غيرها ، ولم يحصلا على بكالوريوس الهندسة أبدا . الحاجة الوحيدة إللى كانت واضحة أو ملموسة لنا كطلبة صغيرين ، هى المطالبة بتطبيق الحدود . دى كانت أول مرة كنا نسمع فيها كلمة اسمها قوانين وضعية . أغلب المناقشات حوالين صحف الحائط الإسلامية كانت هل معقول نرجع نقطع الإيدين ونجلد ونرجم ونجز الرءوس فى الشوارع ، ده بسبب سذاجتنا بينما الناس دى كان لها تفكير تانى . لقد تجاوزا بمراحل أحلام مُحَمَّد عثمان إسماعيل فى ميلاد سيد قطب جديد على يديه . بالمقارنة بهما ، سيد قطب ، تنظيرا وأفعالا ، لم يكن سوى طفل كسيح .

أيا ما كان ، ما يهمنا هو أن صلة ونس بهما لم تنقطع قط . منذ اليوم الأول لمجيئه لأسيوط عنت لونس فكرة أن يكون منظم رحلات . الفكرة أن الرحلات الجماعية تحصل على تخفيضات فى السكك الحديدية . كان قبل كل عيد أو أجازة طويلة يعلن عن رحلة ذهاب وعودة للقاهرة . هذه كانت لمجرد توفير نفقات السفر على الطلبة . لكن أحيانا كان ينظم رحلات أخرى . ترفيهية وسياحية مثلا لبحيرة قارون ولعيون المياه الطبيعية بالفيوم . أو مثلا للمنيا ، مدتها يوم واحد فى شم النسيم ، وتشتمل على نزهة نيلية وجلوس بالنوادى الممتدة بكورنيش النيل فيها ، الكورنيش الأشهر والأجمل ، الأخضر الأطول والأعرض فى كل المدن المطلة على النيل ، كل مدن حوض النيل . وأحيانا طبعا بعض رحلات للأقصر وأسوان ، وإن لم تجد إقبالا كبيرا لارتفاع تكلفتها .

توطدت علاقته بعاصم وعصام بحكم طبيعته الاجتماعية التى يستلزمها بيزنسه . حين أصبحا إسلاميين لم يثقا فيه كثيرا كى يكون عضوا بالجماعة ، لكنهما تمسكا به لحنكته وخبراته البيزنسية . وعهدا إليه بطبع مذكرات الامتحانات التى بدأت تصدرها الجماعة الإسلامية بعد سيطرتها على اتحاد الطلاب ، الذى أبقوا عليه رئيسا له ، لكن على لائحتهم هم . بالتالى هو لم يخسر ماديا من سيطرة الجماعة على الحياة الاجتماعية ليس للجامعة فقط ، بل على مدينتى أسيوط والمنيا بكاملهما . جامعيا منعوا كل الأنشطة الترفيهية وضربوا رواد الحفلات وحاربوا الرحلات . ثم إن رحلة كرحلة المنيا مثلا لم تعد ذات معنى ، لأن الناس كلهم منعوا أصلا من الاحتفال بشم النسيم باعتباره عيدا وثنيا ، وأصبح كورنيش المنيا لطول السنة خرابا مهجورا ، بعد أن كان كرنفالا دائما للصداقة والحب والجمال فى كل الفصول .

– فى الأول وعلى عكس كل الجامعة إللى كانت شيوعية كانوا ليبراليين (هكذا كنا نسميهم حتى لا يدخلنا وحيد فى متاهة التعريفات) . كانوا بيقرءوا كل حاجة ، ويعلقوا عندنا فى القسم صحف حائط بيضاء ، مجرد أفرخ ٧٠ × ١٠٠ لا شىء عليها . والطلبة هى إللى تكتب ، وشوية شوية ابتدوا يقروا القرآن ويبحثوا . إللى أقدر أشهد به وشهادة الحق لله موش لإنسان ، الناس دى ناس دوغرى ولا تعرف تلعب ولا تراوغ بالكلام ، أو ما يسمى شرعا بالتقية .



إللى موش عادى أنى أول مرة أشوف علمانى متطرف بيدافع عن الإسلاميين المتطرفين ، زى ما تكونوا فى مركب واحد !

– أظن لو سمعوا إللى بتقوله عليهم دلوقت كانوا قتلوك ؟

– يقتلونى ؟ بالعكس ! إللى بأقوله على لسانهم ده ، كله كلام يتباهون به ولا يوجد به كلمة واحدة يخجلون منها . حتى كلمة زى الإرهاب ، إللى ما كانتش طلعت على أيامنا ، لو قلت لواحد فيهم أنت إرهابى ، يقول لك شكرا ، ويعتبرها مديح وتنفيذ لوصية الله ' ترهبون به ... ' (طبعا دلوقت لو قلت لإخوانجى أو سلفى أنت متخلف يزعل ، والمفروض يتباهى بتخلفه لأن الأصولية هى عودة للوراء !) . المشكلة موش هنا ؛ المشكلة أن السادات أو مُحَمَّد عثمان إسماعيل نفسهم كانوا هواة . معلوماتهم عن الإسلام سطحية جدا ، ففوجئوا بما لم يتوقعوه . بعد كل إللى حصل ، مسكت الشرطة واحد منهم . واحد ، خد بالك ؟ واحد كان قبل كام يوم دخل على مأمور قسم المنيا ، وراح يديه أوامر وتهديدات ، إن ما عملش كذا وكذا ها يعملوه هم بنفسهم ، وهو نفسه ها ينال جزاءه . وفعلا نفذ التهديدات إللى قالها ، وبقت الخطوة إللى جاية هى عقاب الشرطة على تقصيرها فى تنفيذ أوامره . باختصار كده ، الشرطة ما تحركتش إلا لما بقت هى نفسها مهددة . كانت فى حالة دفاع عن النفس يعنى ، لأن عارفين أنهم ها يتحطوا على list استحلال الدم . أربع سنين كاملة . فى أوائل ١٩٧٩ زودوها أوى فى الشارع . علقوا يفط فى مداخل الأحياء تقول مثلا ' الجماعة الإسلامية – جمهورية مصر الإسلامية – إمارة المنيا – حى المولد النبوى ' ، وبالداخل كانت تطبق الحدود على السكان مسيحيين ومسلمين وتعلق رءوسهم على أعمدة الإنارة بعد قطعها . لم تقتصر أنشطتهم على ' أرض المولد ' ، فى الخارج كانوا مثلا

بيضربوا الناس العادية إللى بيحتفلوا بالأعياد على كورنيش النيل فى المنيا ، أو يمارسون بلطجة وحرق محلات خمور وكنائس وصيدليات وحاجات تانية فى الأحياء السكنية نفسها . المنيا دى على فكرة غريبة شوية . كان فيها مثلا أسماء مشهورة لمحال نظارات أو ساعات أو صيدليات ، كانت هى الأصل إللى ممكن تقابل فيه صاحبها الأصلى الأرمنى أو الأجنبى ، صاحب الاسم ، بينما إللى موجود هنا فى القاهرة ومشهور جدا ، كان مجرد الفروع . حاجة نادرة موش كده ؟ جايز فى الأسكندرية ، إنما عامة صعب يكون الأصل فى مكان تانى غير القاهرة . كل إللى بأقول لك عليهم دول اتكسرت محلاتهم ، واضطروا يبيعوها ، وكمان فرضوا على المشترى الجديد (المسلم طبعا) تغيير الاسم ، يعنى حرموه بالقوة والتهديد من الاستمتاع باسم الشهرة . المهم ، عارف لما اتمسك الواحد ده حصل إيه فى أسيوط ؟ الجماعة لمت كل الطلبة المسيحيين من كل مبانى المدينة الجامعية -الحكاية إللى حكيتها لكم- حبسوهم وعذبوهم ولو حاولت الحكومة تقرب كانوا ها يبتدوا يقتلوا الرهاين . وفعلا ما أفرجوش عنهم إلا لما أفرجت الشرطة عن المعتقل إللى فى المنيا .

– يعنى كلنا كنا مغيبين وحضرتك كنت فاهم أن ١١ سبتمبر هو مسألة وقت ؟

– طبعا ما كنتش أعرف أنهم ها يدكوا ماناتان بالطريقة إللى تمت ، إنما أقدر أقول إنى كنت قاعد كل السنين دى مستنى حاجة زى دى ، إن لم يكن أكبر . تخيلى كان دائما قنابل نووية يشتروها من المافيا الروسية بأموال بن لادن ، ويهربوها لكل عواصم الغرب حيث تفجر كلها فى يوم واحد . كل إللى فهمته من ٣٥ سنة فى أسيوط طلع صحيح . موش كده وبس ، إنما ظل الغرب ٥ أو ٦ سنوات كاملة بعد ١١ سبتمبر ، يتخبط فى فهمه للإسلام ، وعندما بدأ يفهم فى السنتين الأخيرتين ، كان لأول مرة يقول البديهيات التى كنت أسمعها يوميا بنفسى أيام كان چورچ دبليو . بوش لسه طالب فى الجامعة . ما قدروش يفهموا أنه لا توجد أسباب اجتماعية ولا سياسية ولا اقتصادية للإرهاب ، فقط أسباب دينية . جايز فى وقته كانت فيه أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وراء كتابة الدين بهذه الطريقة ، لكن بمجرد أن كتب أصبح دينا ، أصبح مقدسا ، أصبح عقيدة ، ولم يعد بوسع أحد تغيير حرف واحد فيه ، وإلا ما معنى أن يسمى دينا ؟ ما قدروش يفهموا أن المشكلة ليست فى بن لادن ، المشكلة فى القرآن ! ما قدروش يفهموا أن السؤال المحورى فى الإسلام ليس حتى القرآن ، إنما سورة التوبة ، إما أن تقبلها وتنضم لتنظيم القاعدة أو أحد فروعه ، وإما أن تلتف حولها بتفسيرات وتماحيك معوجة فلا يهتم بك أحد أو يعتبرك كذابا أو صاحب أجندة خفية كما يعتبرون الإخوان وأحزاب تركيا الإسلامية مثلا . الشيخ السمح البشوش الطيب بتاع برنامج ' مكارم الأخلاق ' إللى بيجيبوه كل يوم فى التليفزيون قبل نشرة الأخبار يوعظنا بالحب والسلام والأخوة والتواصل والتعايش والآخر وموش فاهم إيه ، موش واخد باله أنه طول الوقت بيكلمنا بآيات منسوخة . كمان موش واخد باله أن كل القصص إللى بيحكيها قصص من شباب الرسول ، يعنى بصراحة هو بيتكلم من غير ما يدرى عن مكارم أخلاق الجاهلية . إنما مثلا أخلاق الإسلام -كما يعرفها من يسيرون على السنة كالإخوان بالذات- حاجة تانى ، كلها قتل ودبح وخيانة عهود . مشكلتك يا حاج أنك واخد الإسلام من برنامج ' جئت لأتمم (على ما تبقى من) مكارم الأخلاق ' موش أكتر ، وده موش هو الإسلام .

– وما هى أخلاق الإسلام بتاع أصحابك ؟

– بص يا حاج : أنت لسه موش فاهم إيه أصل المشكلة . أنتم لم تعطونى فرصة للحديث عما أردت أصلا الحديث عنه ، هذا لعلكم تفهمون حقيقة ما يجرى فى الصعيد الآن .

ويسخر روميو : ' كل ده ولسه ما أخدتش فرصة ؟ ! ' .

– يا حاج ، أنت أو أى حكومة أو أى شعب ، ممكن تخترعوا إسلامات زى ما أنتم عاوزين ، لكن فى أول اختبار لهاتوا برهانكم ها يسقط . تلك هى مشكلتك كما هى عينها مشكلة ٩٩.٩ ٪ من المسلمين ، أما مشكلتى أنا فهى أنه حين لم أجد طريقا ثالثا أو حلا وسطا ، لغير أن أصبح جهاديا أحمل السلاح طبقا لأصح دين على وجه الأرض ، أو أن أرفض وجود الله نفسه من الأصل . أنا كنت مؤمن زى كل الناس العادية ، إنما وجدت نفسى أمام أحد طريقين : هؤلاء منطقهم قوى للغاية ، حتى فى موضوع تطبيق الحدود ، كان لهم طريقة فى الإقناع . يبتدوا معاك أنت مؤمن بوجود ربنا ولا لأ ؟ إذا قلت آه ، يقولوا لك هو إللى خلقنا ولا لأ ؟ إذا قلت آه ، يقولوا لك وهو فيه أحسن من إللى صنع الساعة علشان يصلحها ؟ أنت موش ممكن تشترى ثلاجة أو غسالة من غير كتالوج ، والقرآن هو كتالوج الإنسان . وبكده يدخلوا لك فى عدم صلاحية القانون الوضعى وضرورة تطبيق الحدود ثم فى تكاليف الجهاد (= الحرابة الشرعية) وفرض العين ، ولا يمكن تفلت منهم إلا لو كنت قلت من الأول خالص أنا لا أومن بربنا . كلامهم كان مقنع جدا ، لدرجة إما أكون علمانى وأتف على ربنا ، وإما أروح أتدرب على السلاح ، لا

طريق ثالث ولا حلول وسط . ومن تلك اللحظة قررت أكون علمانى ، وكانت الحجة التى كتمتها فى نفسى : إذا كانت جدليتهم برمتها تقوم على أساس واحد هو أن لا يمكن لموجود أن يوجد بدون خالق ، فالسؤال المنطقى هنا هو من خلق الخالق ؟ هكذا هم أمام أحد أمرين : إما أن الإله غير موجود لأنه يحتاج لخالق له ، وإما يكونون قد أنشأوا الاستثناء أن من الممكن أن يوجد موجود بلا خالق ، وهنا تنهار فرضيتهم الأصلية التى يثبتون بها وجود الإله .

– يا سلام سلم ! أنت اتعديت من وحيد ، ولا جايز أنت إللى عديته ؟ أول مرة أعرف أنك علمانى متطرف . (ويضرب كفا بكف :) عادى ! إنما إللى موش عادى أنى أول مرة أشوف علمانى متطرف بيدافع عن الإسلاميين المتطرفين ، زى ما تكونوا فى مركب واحد !

– لا تسألنى أنا . أنا لا أقدم ولا أؤخر . لا أحد يقدم أو يؤخر . أنت لا تستطيع أبدا أن تختطف روح الإسلام الحقيقى من أولئك الجهاديين . ما فيش عشرين إسلام زى ما البعض فاهم . أو زى حتى ما فيه ناس بتقول إن كل واحد من الـ ٣ بليون متدين فى العالم له نسخته الشخصية جدا من الدين . أنت ما بتشوفش برنامج God of the Day ولا إيه ؟ ! الإسلام بتاعك ده -وعفوا للتعبير- الإسلام الشعبى أو الإسلام المصرى أو البلدى أو إسلام كتاب القراءة للصف الأول الابتدائى ، ما يمشيش بمليم عند الناس إللى بتقرأ بجد ! لو بليون مسلم قالوا إللى أنت بتقوله ، برضه لا يقدمون ولا يؤخرون ، طالما ناس طيبين وفى حالهم . من يهمون فقط هم من يحملون السلاح ويضربون فى أسيوط وفى نيو يورك . كما قلت ، لو كنت قد وقفت يوما واحدا فى مناقشات طلبة جامعة أسيوط مثلى ، لعرفت أن معايير التطرف والاعتدال لا يحددها مزاجك أو إحساسك أنت الشخصى . لو أسميت تدينك أنك الشخصى يا حاج ضهرى شيئا غير الإسلام ، فلا بأس ، لكن طالما أسميته الإسلام فأنت لم تعد حرا . هناك نصوص منزلة تحدد ما هو الإسلام ، ما هو معتدل وصراط مستقيم وما هو منحرف وشاذ ، وأيضا تحدد ما هى روح الإسلام .

– هل ما تقوله هذا يمثل روح أى شىء ؟

– أصحابى إللى بأتكلم عليهم مجاهدين عظام وعندهم ثقة بالله وعزة نفس ويرفضون التقية . الدين بتاعهم ما فيهوش متناقضات بالمرة . بصراحة كان عندهم حل لكل حاجة .



لاااا ! ده أنت نيلتها خالص ! خليت ربنا بيلعب معانا استغماية !

ينبرى الحاج معارضا كالمتوقع : ' حل إزاى يعنى ؟ ' .

– يعنى لا يمكن ' لكم دينكم ولى دين ' تمشى مع ' الدين عند الله الإسلام ، ومن يقبل ... ' . ولا يمكن ' لا إكراه فى الدين ' تمشى مع ' عن يد وهم صاغرون ' . ولا يمكن ' الحكمة والموعظة الحسنة والتى هى أحسن ' تمشى مع ' وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ' . ولا يمكن ' وإن جنحوا للسلم ' تمشى مع ' اقتلوهم حيث ثقفتموهم ' . ولا يمكن ' لا ينهاكم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ' تمشى مع ' فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا ' . كل حاجة عند الناس دى متظبطة ومحسومة . سورة التوبة نزلت فى الآخر وتنسخ كل آيات الكف عن قتال المشركين أو ما يسمى المهادنة والموادعة ، بل ربما تنسخ أيضا أشهر سطر فى الإسلام ' بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ' ، فهى الوحيدة التى لا تبدأ بها ، لا رحمة بعد ولا أرحام ، إنما فقط البراء والوعيد وانتهاء كل العهود والهدنات مع الآخر مرة واحدة وللأبد ، وتوبة إن كنت أحبك تانى توبة . آية السيف لا تحتمل التأويل وليس لها واقعة تنزيل محددة ، إنما هى تتحدث عن أشهر سلم وسلام أصلا ، ثم تعطى بعدها رخصة مفتوحة لقتال كل من لم يسالم أو لم يعتدى ، ويا ليت أحدا احترم حتى الشق الخاص بالأشهر الحرم فيها (حتى لو كل آيات القتال واقعات خاصة فسوف تدخل فى باب القياس والأسوة الحسنة ، لأنه لا يوجد فى مكان آخر نهى عام صريح عن قتال غير المسلمين . ليست هناك قاعدة أصلا حتى يكون هناك استثناء ، بمعنى لو هى استثناء ، فلن نعرف أبدا استثناءا من ماذا ؟ الحقيقة ببساطة أن القتل هو القاعدة) . كانوا يسهلون علينا فهم أو حفظ الفكرة بالقول أن تلك الآيات لا تدخل أصلا فى إطار التقويم الإسلامى (الهجرى) ، الذى ليس بالصدفة لم يبدأ مثلا بميلاد الرسول أو حتى بنزول الوحى عليه ، إنما هو تحديدا تقويم لتاريخ الجهاد المسلح (= الحرابة الشرعية) . التقويم بدأ يوم حمل مُحَمَّد السلاح ، والوحى انتهى يوم تأسيس الدولة ، فما حاجتنا للوحى ولدينا دولة ؟ الجهاد (= الحرابة الشرعية) الذى علينا أن نحييه الآن ، والذى تراجع قليلا فى الربعين الأوسطين للقرن العشرين ، إلا أنه فى الواقع لم يتوقف أبدا تقريبا . ذلك أنه حتى والعالم كله يتخيل الخلافة العثمانية وقد أصبحت رجل أوروبا الذى ينازع الموت ، كانت تقود

بنجاح هائل غزوات مظفرة ضد الأرمن تبيدهم فيها بالملايين . سمعت ده وقلت لنفسى إن فى بازار الأديان إللى أنا عايشين فيه (أو فى البوتيكات حسب موضة الأسماء إللى كانت ماشية أيامها) ، قلت لنفسى إسلام الجهاد (= الحرابة الشرعية) ده موش حاجة بسيطة ، ولا يمكن ها يعدى بسهولة ، ولا ها يقدر السادات ولا حتى ريجان يتحكموا فيه . وقد كان !

– نبى حضرتك ؟

– موش نبى ولا حاجة . والصراحة إحنا ما كناش فاهمين بالظبط هم بيتكلموا عن إيه ، ولا أن خطتهم عالمية ، ولا أنهم ها يهيجوا الإعلام الأميركى والرئيس الأميركى على ما أسموه ' مذبحة ' فى البوسنة مات فيها ٧ أو ٨ آلاف مسلم (بينما هؤلاء المحتلون الأتراك ، إللى جات لهم أيام كانوا بيفكروا يدخلوهم الاتحاد الأوروبى ، أبادوا من الصرب ٧ أو ٨ مليون أو جايز أكتر ، وزيهم من كل شعب أوروبى آخر ، يعنى بليون أو اتنين بحساب التكاثر الطبيعى) ، ولا كنا متخيلين أنهم ها يقيموا إمارة و' قاعدة ' فى أفغانستان ينطلقون منها لكل العالم ، وأن بالتالى خطتهم ها توصل فى يوم من الأيام لنيو يورك وواشينجتون وكل حتة . باختصار ، دى ناس بتاخد تعليماتها من السما مباشرة ، من القرآن وبس ، ومن سوره سارية المفعول وبس ، وحضرتك متصور أنك ممكن تجادلهم وتقنعهم ؟ أنت لا تتخيل مدى قوة الدين عندما يحصر فى سورة واحدة فقط !

– أنت اتجننت ؟ القرآن كله كلام ربنا ، وأنت ها تقسمه سارى المفعول وexpired ؟

– أنا ما ليش دعوة . أنا بأقول لك إللى كان بيتقال . وبيقولوا ما على الرسول إلا البلاغ .

– وبرضه بيقولوا ما شتمك إلا إللى بلغك .

– دى موش من الشرع ؛ الشرع بيقول ما ناقل الكفر بكافر ! إنما أنت إزاى موسوعة فى كل حاجة ، وما سمعتش عن النسخ فى القرآن ؟ ثم أنه موش بدعة عند أصحابى دول ؛ موجود عند الإخوان وعند الوهابيين وبصورة أو أخرى موجود فى الأزهر . فيه ٥ أو ١٠ كتب تراثية من مئات السنين ، كلها حتى متطابق الاسم ' الناسخ والمنسوخ لفلان ' ، ' الناسخ والمنسوخ لعلان ' ، وقبلها جميع التفاسير الكبرى المعتمدة ، كلها متفقة على إللى قلته لك : سورة التوبة نسخت كل آيات الكف عن قتال المشركين . يا حاج ، سورة التوبة أقصر من أن يكون بها تناقضات داخلية . سورة التوبة تختلف عن معظم نصوص الأديان أن لا شعر ولا مجاز ولا احتمال أوجه بها . فقط تعليمات صريحة واضحة ولا لبس فيها . بل تقول بوضوح إن كل ما عداها كفر ، بما فيه بقية القرآن نفسه ، لو اجتزأته بعيدا عنها ، وعن حقيقة نسخها له . بصراحة أكتر سورة التوبة هى القرآن ، بدليل أن الوحى انتهى بعدها . ما فيش غير سورة النصر ، إللى بتزف بشرى أن Mission Accomplished! ، الدولة قامت خلاص ، ولا حاجة بنا لأى وحى بعد اليوم . أنت حين تطبع القرآن كاملا ، أنت لا تطبع الإسلام ، أنت تطبع الإسلام زائد شىء آخر لم يعد له لزوم . عليك يا سيدى أن تطبع المصحف بما هو فعال من سور وآيات فقط ، هذا هو صحيح الإسلام . ويمكن إيجازا ، أو للاعتبارات العملية ، أو علشان الناس موش فاضية تقرأ ، طباعة سورة التوبة فقط كمصحف abridged . بها المختصر المفيد وتقريبا كل ما يهم البشرية -مسلمين وغير مسلمين- اليوم ، أقصد منذ اكتمل الإسلام حتى يكتمل الزمان . باختصار كده ، هى إللى ها تجيب لك م الآخر !

– كلام فارغ ما يدخلش الدماغ . يعنى إيه ناسخ ومنسوخ ؟ ربنا رجع وغير رأيه ؟

– إنها جدلية المراحل يا حاج ، الاستضعاف والتقية وتبليغ الدعوة مرحلة ، والتمكين والجهاد (= الحرابة الشرعية) وقتال المشركين مرحلة . الإخوان يؤمنون بالمراحل ولا يجاهدون إلا حين تنضج الظروف فى مكان ما ، لكن المشكلة أنهم فيما عدا ذلك ينكرون فكرة المراحل من قبيل التقية وإخفاء نواياهم المستقبلية ، وإن كان على أية حال الكل يعرف أنهم يكذبون طوال الوقت وأن أهدافهم دنيوية بالكامل بل وأنهم ليسوا ذوى دين من الأصل . السلفيون -وأحيانا نسميهم الحنبلية أو الوهابية أو السنية [بضم السين]- يؤمنون مثل الإخوان بالمراحل ولا يجاهدون إلا حين تنضج الظروف كذهابهم -وأقصد المصريين طبعا- لرفع السلاح فى الحرب الأهلية فى جنوب السودان مثلا ، لكن الفارق الكبير أنهم لا يكذبون قط ، يعلنون أنها مراحل وأن هذه هى مرحلة الدعوة والتبليغ ، ويتمنون على الحكام الأخذ بأسباب القوة حتى تنضج مرحلة الجهاد ، ولم ولن يخرجوا على الحكام أبدا . أصحابنا دول شىء ثالث : بداهة هم ممن لا يكذبون أبدا ، لكنهم فى ذات الوقت لا يعترفون بالمراحل ويقولون الاستضعاف انتهى بالهجرة ، ولن يعود أبد الدهر . يرفضون مبدأ السلفيين التقليديين المسمى ' العذر بالجهل ' ، بالذات النهارده ، عندهم العالم كله تخطى المرحلة الأولى ، كله سمع عن الإسلام من خلال الساتيلايت والإنترنيت ، أو من خلال أهم وسائل التبليغ جميعا : ١١ سبتمبر ، وليس له عذر بعد فى عدم اعتناقه . يقولون إن السلفية التقليدية ستظل تدعو للإسلام وتحارب البدع آلافا من السنين ملتمسة العذر بالجهل

للناس ، ولن يتغير شيء ، لأن الناس -وبالأخص الحكام- غير جاهلة بالإسلام ، إنما ترفضه أو تداوره عمدا . هذا ربما يسمى بخطأ فى قراءة الواقع لكن قطعا ليس فى الإيمان ولا فى صدق القول أو صراحة النية . ثم إن يا حاج ربنا ما غيرش رأيه ولا حاجة . هو من الأول خالص قايل كده ، مرحلة وها تعدى ، ' فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله أمره ' .

– لاااا ! ده أنت نيلتها خالص ! خليت ربنا بيلعب معانا استغماية !

– يا عم قلت لك أنا ما ليش دعوة . أنا بأقول لك إللى كنت بأسمعه . أنا موش بأدافع عن حد . كل إللى أعرفه أن دى بالنسبة لهم آيات وكتب موجودة ، وما حدش فيهم كان يقدر يطنشها ، أو يعدى عليها بسرعة زيك كده .



أتحدى زكريا قبرص أن يأتينى من كتبه الغارق فيها بأحد قال مجرد إن عمر بن الحطاب والحطابة كافر !

– الدين موش كتب وبس . الدين حاجات تانى كتير ما يفهمهاش إللى زيك . أنت إللى عامل شوية عيال هايفة هم الإسلام . أنت الظاهر بتسمع زكريا بطرس كتير !

– مع احترامى له ولأن كلامه ككل علمانى عقلانى أكتر منه تخاريف مسيحية ، ومع احترامى لنجوميته وكاريزميته ومهاراته الخطابية وخفة ظله ، ومع احترامى لأن رد فعل المشاخخ عليه كان الصمتووو الرهيبووو ، ومع احترامى لدخوله التاريخ أحد أكبر رموز التنوير فى التاريخ المصرى ، وللزلزال إللى عمله فى العقل العربى المسلم ، إللى ربما لا يعادله إلا تحرير إسپانيا ، أو سقوط الخلافة الممششة (قصدى خلافة المش ، أوه ! قصدى الخلافة الإستانبولى القديمة) ، مع احترامى لكل ده ، ساعة ما أنا شاركت فى النقاشات دى فى أسيوط ، زكريا بطرس ده كان لسه ما اتولدش ، أو بالكتير كان مشروع قسيس ما يعرفش غير الصلاة والصوم ، ولغاية وقت قريب لم يقرأ أصول الإسلام كاملة بنفسه وكان مجرد باحث مبتدئ بينقل بحوث طه حسين وسيد القمنى وخليل عبد الكريم ، موش أكتر . كمان مع احترامى لأبو إدوارد إللى لا يمكن يكون فكر فى عودة الإسلام ليثرب بتاعته كفكرة واقعية (وإن كنت أنا دلوقت شايفها ممكنة بفضل كم الإعلام المسيحى شبه العلمانى إللى اجتذب الملايين وغير خريطة العالم الدينية) ، أجزم لك أن كل مصر ، مسيحيين ومسلمين ، كهنة ومشاخ ، حكام ومحكومين ، لم تكن تعرف شيئا عن الإسلام الحقيقى ولا عن الجهاد (= الحرابة الشرعية) ولا عن سورة التوبة ، وتراها كلها كلاما فات أوانه ، ومن يطرحونه هم حفنة من الشباب المخبول ' المتطرف ' الذى لن يذهب لأى مكان . بص : أنا لست فى حاجة لمشاهدة أحد ولا لقراءة أحد ، زكريا بطرس أو غيره . هؤلاء حفنة من فئران الكتب لم يحدث لأيهم مرة أن تحدثوا لساعة واحدة -ولا أقول شهورا وأعواما متواصلة مثلى- مع هؤلاء المجاهدين وجها لوجه ، ورأوا تلك الوحشية التى تتدافع من أحناكهم فتملأ وجهك بصاقا يقشعر له بدنك ، أو تجحظ من عيونهم فتصطك بعنف كل أجزاء جسمك . أتحدى زكريا قبرص أن يأتينى من كتبه الغارق فيها بأحد قال مجرد إن عمر بن الحطاب والحطابة كافر !

– ماذا قلت ؟

– هو فعلا ابن لحطاب وحطابة ، وغير اسمه لاحقا ، لا اجتراء ولا مبالغة !

– لا أقصد هذه ، أقصد ما قلته عن الكفر .

– نعم ، كان أغلب النقاشات حول تطبيق الحدود ، وفى مرة واحد اتفلسف على عاصم وعصام وقال لهم عمر أوقف تطبيق الحدود لأن الظروف كانت موش مناسبة ، فردوا عليه الاتنين فى لحظة واحدة وبصوت واحد : ده لأنه كافر !

– (بغيظ شديد :) لا ! ده أنت زودتها خالص ! سيدنا عمر كافر ؟ أنت اتخبلت يا راجل أنت ؟



إذا كان مُحَمَّد هو نبى الإسلام فإن عمرا هو إلهه ؛ إله دين العرب ، الصهاكية ، حيث صهاك هى والدة الإله ، وفى رواية أخرى جدته !

تقانيا -أو بأى معيار كان- عمر كافر ، لأنه أحل ما حرم الله ، وحرم ما أحل الله .

فقط هناك تخريجة واحدة لتبرئته من الشرك : أن يكون هو نفسه الإله ، تجسد زى المسيح يعنى !

... اشطب أى من الصحابة ، كان سيكون لدينا ذات الإسلام اليوم ، اشطب عمرا لم تكن تجد شيئا !

بل اشطب تابعه الإمعة الهامشى جدا مُحَمَّدا العبيط الأهبل نفسه ،

كان عمر سيختار مسليمة أو سجاح أو أيا من كان نبيا ورسولا ' خلت من قبله الرسل ' (فابن صهاك لم يبعث نبيا لأحد من قبل) ،

أو بالأحرى ، كان سيمضى فى صنع قومية لمن لا قومية لهم دونما حاجة لدين أصلا .

إن المسيحية كانت قد فتت فى عضد الحضارة وهيأت الساحة تماما كانت جاهزة لخروج جرذان جزيرة البعر من جحورهم لأول مرة !

– عندهم عمر مشكلة مركبة وفى نفس الوقت بالغة المحورية . سلوكه البراجماتى غير المراعى للدين فى كثير أو قليل ، المتهتك أكثر مما يجب فى تطبيق حدود الله ، يكفى أى واحد منها تماما لتكفيره ، والقصص كما لعلك تعلم لا نهاية لها : تعليق حد السرقة ، المرأة التى باعت جسدها مقابل شربة ما ، تبرئة المغيرة بن شعبة من جريمة زنا صارخة لأنه أحد أعمدة حكمه الطاغوتى (فحول جريمته من زنا إلى لمم -أى شوهد عاريا ينكح امرأة لكن دون ثبوت أن عضوه كان ساعتها داخلها- فلم يرجم) ، وهلم جرا . فى المقابل يوجد العكس : مُحَمَّد كان يترخص فى الدين لأنه موش فاهم أصلا الفايدة من الدين ، بينما عمر كان يرى فى الشرائع القاسية فرصة لن تتكرر لفرض سلطة يتمكنون بها من حكم العباد ... إلخ . بل إليك ما هو أبعد : إن احترامهم لهذا العمر الكافر أضعاف احترامهم لمحمد . أنا أكلمك عن أناس شديدى الذكاء والثقافة وتفتح الفكر غاصوا حتى الأعماق فى الإسلام وتاريخه وشخصياته ، ولا بد أنهم يعرفون أنه إذا كان مُحَمَّد هو نبى الإسلام فإن عمرا هو إلهه ؛ إله دين العرب ، الصهاكية ، حيث صهاك هى والدة الإله ، وفى رواية أخرى جدته ! تقانيا -أو بأى معيار كان- عمر كافر ، لأنه أحل ما حرم الله ، وحرم ما أحل الله . فقط هناك تخريجة واحدة لتبرئته من الشرك : أن يكون هو نفسه الإله ، تجسد زى المسيح يعنى ! ... اشطب أى من الصحابة ، كان سيكون لدينا ذات الإسلام اليوم ، اشطب عمرا لم تكن تجد شيئا ! بل اشطب تابعه الإمعة الهامشى جدا مُحَمَّدا العبيط الأهبل نفسه ، كان عمر سيختار مسليمة أو سجاح أو أيا من كان نبيا ورسولا ' خلت من قبله الرسل ' (فابن صهاك لم يبعث نبيا لأحد من قبل) ، أو بالأحرى ، كان سيمضى فى صنع قومية لمن لا قومية لهم دونما حاجة لدين أصلا . إن المسيحية كانت قد فتت فى عضد الحضارة وهيأت الساحة تماما كانت جاهزة لخروج جرذان جزيرة البعر من جحورهم لأول مرة ! باختصار ، هم على دينه لكن يكرهون استخفافه بالدين . هم يحترمون فيه أنه هو الذى أوحى لمحمد أن يوحى لله أن يوحى لمحمد بتحجيب النساء ، وبتحريم الخمر -هذا فى كل المرات الثلاث التى تدرج فيها التحريم . أيضا هم يحترمون فيه تحريمه لنكاح المتعة ، ويحترمون فيه سيفه الذى أول كل شىء -وأخطر كل شىء- أقنع مُحَمَّد أن يتخلى عن انبهاره الساذج بعيسى بن مريم إلى آخر الترهات التى ظل يحشوها له فى دماغه ورقة بن نوفل . هل تعرف لماذا مُحَمَّد هو الوحيد فى التاريخ الذى سمى نفسه نبيا ورسولا معا ؟ سمى نفسه نبيا كى يخاطب اليهود كنبى جديد لهم ، وسمى نفسه رسولا كى يخاطب المسيحيين بأنه مجرد رسول آخر يضاف لبطرس وبولس وغيرهما ، جاءهم -كما جاء هؤلاء ' لأصحاب القرية ' (أنطاكية)- من إلههم ، أى من يسوع المسيح ، فإلوهية عيسى شىء لا يحتمل أدنى شبهة إن لم يكن عبر كل القرآن ، فعلى الأقل فى القرآن المكى الذى وضع عندما كان مُحَمَّد بعد تلميذا مبتدءا يتهجى بصعوبة شديدة ألف باء أديان (وطبعا رفضه كلا الفريقين ازدراء لجهله الكامل تقريبا بالقراءة ، واكتشافهما أن كل معلوماته الدينية ' تناتيش ' ' طشاش ' و' طراطيش كلام ' سطحية من هنا وهناك لا أكثر) . عيسى دونا عن الجميع بالذات مُحَمَّد ' أحيا الموتى وأسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ' ، دونا عن الجميع بالذات مُحَمَّد ' الوحيد الذى لم يوخزه الشيطان بإصبعيه فى جنبه ' ، دونا عن الجميع بالذات مُحَمَّد ' سيأتى حكما مقسطا ' ليدين الناس -كل الناس ، بالذات مُحَمَّد ، ودونا عن الجميع ظل -أى مُحَمَّد- يرتجف منه حتى آخر لحظة فى عمره ، حتى فى لحظة ذروة مجده -اقتحام مكة وباطن كعبتها- وضع يده على تمثاله هو وأمه واعترف بفصامه الصريح قائلا حطموا كل شىء إلا هذا ، وامحوا كل الصور إلا هذه ، بل فى الواقع جعله إلها أعظم من الله نفسه حين قال إنه ' لم يستنكف أن يكون عبدا لله ' (إذا كان عيسى به كل هذه الصفات يا غبى ، فما هى الحاجة لنبى مثلك ؟ ! ثم يا حمار ، سواء كان يخلق الطير بإذن الله أو بإذنه هو ، فهو إله فى الحالتين ، وكل الفارق أنه إله مخلوق وليس إلها أزليا وليس ' أحسن الخالقين ' ! وأخيرا يا بهيم حاول ما تتكلمش أصلا فى لاهوتيات وحاجات عقد لا أنت ولا أى واحد فينا ممكن يفهم فتفوتة فيها ، كلمة واحدة وخلصنا : قل الروح من أمر ربى وسكرنا الدكانة على كده !) . فقط عمر هو الذى أقنعه أن يعكس كل هذا ويعيد صياغة كل الأنبياء وكل الرسل ، ويعيد النظر فى

' ثوابت ' من هم الأعلون ومن هم الأدنون فى هذا العالم . أقنعه أن يضع كل منهم -بمن فيهم ذلك الذى يقال عنه إلها- فى حجمه الحقيقى ، حيث لا بد وأن يكون الجميع دون نبى العرب ورسولهم ، ولا بد أن يكون مُحَمَّد أولهم وآخرهم وخيرهم جميعا . أقنعه أن الطموح لا يجب أن يكون هداية -أو حتى حكم- الجزيرة ، فالنبى الأعظم حرى بحكم كل العالم . أقنعه أن يسحب بالضرورة اعترافه بكل الآلهة ، إلا ما خلقناه نحن بنو قريش بأنفسنا ، فهو الوحيد الذى يستحق أن نوجه له قبلة السجود ، لا إلى موطن آلهة الكفر الأورشليمية فى الغى والغباء المحمدى الباكر (الذى وصل لدرجة أن تسمى هو نفسه باسم عبرى هو طه) ، وأن نقدس له يوم الجمعة العربى لا يوم السبت اليهودى ، ثم بعد هذه وتلك أقنع بسيفه البتار الفاروق العرب أن قرآنهم أفصح من معلقة امرئ القيس ، وأنهم أعلى من كل البشر ، وأخيرا أقنع معظم العالم باتباع الإسلام . أما ما لا يحترمونه فى عمر فهو انتقائيته ، بمعنى تسيبه فى تطبيق الحدود الأخرى .

– أنت قلت ' مجرد إن عمر كافر ' ، ما معنى ' مجرد ' ، هل هناك شىء آخر ؟

– نعم ، فى بعض النقاشات وصلت لدرجة أن كدت أضع على طرف لسان أصدقائى هؤلاء أن مُحَمَّدا نفسه كافر ، ولم يغضبوا أو يهتزوا وتعاملوا مع الأمر على أنه احتمال وارد ! لم نصل لنقطة النقاش الصريح ، لكن إحساسى بما أقول الآن كان قويا جدا . مثلا مع وجود قصة كالغرانيق العلى هم لا يثقون فى وحى سليم يقبله العقل إلا فى سورة التوبة ، ويعلمون مثلا أن تنزيه الأنبياء وما شابه كثير ، هى حيلة تقديس اضطرته إليها السياسة ومقتضى الحال ، ولتغطية تخبطاته وسهواته وجهله وضعف ذاكرته وتفاهة شخصيته وحواديت فسقه وفجوره التى لا تنتهى ... إلخ .



كام إسلام عملت لغاية دلوقت ؟

إسلام مدفوع مقدما وتسليم البضاعة فى المشمش (الحور العين) ،

إسلام بالدفع الفورى خد وهات (المؤلفة قلوبهم) ،

إسلام ' شكك ' بالدفع الآجل (مال البحرين وسوار كسرى ونساء الأصفر) ،

إسلام ببلاش خالص (بمجرد كلمة واحدة يستلم عمر كل ملف الإسلام خالصا مخلصا لنفسه) ؟

– ده أنت كنت زعيم كبير بقى ؟ !

– أنا غير متأكد -إنما جايز- أن أنا نفسى صنعت التاريخ من غير ما أشعر ، وفتحت عينيهم على حاجات ما كانوش شايفينها : مُحَمَّد الإمعة الدمية ضعيف الشخصية الجبان خائن العهود فى الظهر الأبعد ما يكون عن أسطورة القائد الكبير المزعومة ، مُحَمَّد كسير الروح المعدم والمشكوك فى نسبه ومن ثم العجينة الطيعة فى يد كل من هب ودب ، بدءا من العجوز خديجة (مخدوجة الوجه القبيحة الشمطاء) حتى الطفلة الحسناء عيوشة (ذات الأسنان اللبنية) ؛ قصدى طبعا بتوع ' بين القصرين ' ، عشعوشة الشعشوعة النعنوشة النغنوشة الدندوشة الفحشوشة المحشوشة الفرفوشة الهيوشة النعبوشة المنهوشة المنتوشة ، عيوشة المقروضة بطلة فيلم ' منكوحة العنين ' فى حفلة من ٦-٩ ، وإللى برضه قلبها نجيب محفوظ بعد شوية لقحوبة القبوحة ، وإن كانت الفرفوشة تعنى من كان يضعها العنين على كتفه كى تشاهد الأحباش مفتولى العضلات بينما -كرمت اللات فرجها- يداعبها هو جنسيا بالأداة الوحيدة التى يملك -إصبعه الشريف ، ثم تعنى من استقلت بشخصيتها وراحب تلاعب الشبان بنفسها خلف البعير أثناء الغزوات وأشهرهم المدعو صفوان ، وأخيرا التى أصبحت لدى فصحاء فقه البيوع ' الرفوثة ' أى القوادة ممكيجة الجوارى التى يرفث عندها الناس وأشهرهم المدعو أبو شبل .

– خلصنا ! عيوشة النعكوشة ، صدق نجيب العظيم !

– ما تفهمونيش غلط ، كل حاجة موجودة فى الثلاثية ، حتى الشيخ المتسول أبو هريرة ! كمان ما تفهمونيش غلط أن قاموس أسماء العاهرات فى بقية رواياته يعمل سيرة مُحَمَّدية أخرى قائمة بذاتها : حميدة ، صفية ، نفيسة ، زنوبة ، قدرية ... إلخ ، وكمان بدءا من ورقة حتى عمر ، إلى آخر كل من حكموا من خلف الستار . هل يعتقد زكريا قبرص أن قادة الجماعة الإسلامية لم يكونوا يعرفون أن مُحَمَّدا كان جبانا ؟ ؛ لا يعرفون لماذا يتحدث دوما عن ضرب الأعناق ، بينما القتال هو طعن الصدور والبطون ، والسبب إنه ببساطة يتكلم طوال الوقت عن الأسرى ؟ ! هل لم يكونوا يعرفون ما يقوله عن فضائح مُحَمَّد ، ولم يكونوا يعرفون أنها فضائح ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه ولد بعد موت أبيه بأربع سنوات ، وأن

علاقة أمه ببحيرة الراهب طبقت الآفاق ؛ امتدت من مكة للشام (وتوجد فى الفلكلور المصرى عنه حتى اليوم) ، ومن قبل مولده إلى مماتهما ، وأن قرآنه نهاه صراحة عن مجرد الاستغفار لها ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن من نبهه لكارثة الغرانيق ولقدر غبائه المذهل فيها ولكونها انتحار نهائى لكل شىء له إن لم يتراجع عنها ، كان مجرد عابر سبيل لا شأن يذكر له ؟ هل لم يكونوا يعرفون الآليات التى كانت تشتغل بها عصابة حمادة وتوتو ، أن كل ما توسمت ماما خديجة فى حمادة المطيع الطيع هذا ، هو السذاجة المطلقة بحيث يقبل أن ترسله للغار ليلا ونهارا بدلا من تجعله ينام معها ، وفى اللحظة المناسبة تكشف له فرجها فيفرح ومن فرط سعادته يصدق على الفور تفسيرها بأن ملاكا قد جاءه ، ولفرط بلاهته لم يسألها أى نوع من الملائكة بالضبط هذا الجبريل الذى لا يستحى من الأفخاذ ولا يستحى من الشعر ؛ شعر العانة ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن شفاعتهن لترتجى لدرجة أن الصبية الثانية الأخرى كانت تمارس ساديتها على كهولته طوال الوقت ؛ بخلاف السباب والتقريع المتواصلين والتعبير عن غضبها بالكفر الصريح به بالقسم فى وجهه برب إبراهيم (أى رب الأحناف) ، كانت مثلا تجلس أمامه وهو يصلى وتباعد ساقيها كى تجعل من فرجها قبلة ، ولم يكن يعترض أو ربما أسعده ذلك ؟ هل لم يكونوا يعرفون أى جبروت هذا الذى يجعلها بعد أن تزنى تدعى المرض وتشترط على ذلك البائس المسكين أن يأتيها (وطبعا لا تقصده هو إنما بن الحطاب والحطابة ، فالقصة كلها سيميولوچيا صراع سلطة بينها وبين هذا الأخير) ، يأتيها عمر بقرآن يتلوه جميع الناس حتى آخر الزمان يشهد بكونها قديسة ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنها جعلته -أى مُحَمَّدا- بائسا ذليلا ' يلف حوالين نفسه ' شهرا ؛ انهار واعتزل الناس شهرا ، ثم ' رغم بيان ربه ! ' ، لم يقو هذا المكتئب للأبد على مواجهة الشهود أعواما ، فقط إلى أن نبش قبورهم -دنسها ومثل بأجسادهم وبصق فى أفواههم ، بمجرد أن صاروا جثثا هامدة لا تقوى على النطق فى وجهه ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن تعريف الماسح والممسوح (أو فى قول آخر الفاسخ والمفسوخ أو الفاشخ والمفشوخ أو النافخ والمنفوخ أو الكانس والمكنوس أو الماسح والممسوح أو الغاسل والمغسول أو الكاسح والمكسوح أو السالخ والمسلوخ أو الناكح والمنكوح أو الوسخ والموسوخ قصدى الوسخ والأوسخ ، إلى آخر اختراعات الواسع اللاسع) ، هو القرآن العمرى الذى نسخ القرآن المحمدى أو بعبارة أدق قرآن ورقة بن نوفل ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن عمرا هذا الذى أوحى وأملى معظم الجزء المتأخر من القرآن ، والذى وصل رعب مُحَمَّد منه لدرجة أن تصور أن الشيطان نفسه يرتعد من عمر ويتحاشى طريقا يمر بها ، ذلك العمر لم يحدث يوما أن حفظ من ذاك القرآن شيئا ، وكان يكره أن يستفتيه أحد فى أمر دينى ذلك أنه لا يفهم فيه ، وفى مرة نادرة للغاية تجرأ أحدهم وسأله كيف هو هكذا شديد الجهل بأبسط أوليات الدين فأجاب (أى لم يقتل كالعادة) ، قال ' ألهانى الصفق بالأسواق ' (هل هذا هو السبب حقا ؟ !) . وطبعا -وهو الذى لا يغفر أن يشرك به- حرم بالكامل رواية الحديث أو ذكر آثار مُحَمَّد وطالما ضرب ونفى مهرهر الأحاديث أبا هريرة ، مؤسسا مبدأ اسمه لا تصدوهم عن القرآن بالحديث ، والأهم منه قبلها أن بطش بالمسكين نفسه وهو على فراش موته بأن نهره عن كتابة أية وصية والاكتفاء بالقرآن الذى نجح هو فى تضبيطه بالكاد على مقاس رؤيته وخططه للمستقبل (وبالإجمال يمكن دون أى خطأ اعتبار عمر هو أول قرآنى فى التاريخ ، ولو ظهر اليوم لذبح كل أهل السنة !) ؟ هل لم يكونوا يعرفون لماذا لم يحدث ولو لمرة واحدة أن تحاجج عمر وعائشة بالقرآن الذى يعلمان تمام العلم أنهما ' طابخينه سوا ' ؟ هل لم يكونوا يعرفون لماذا كان عمر شديد القسوة على عائشة ، وأفلح فى النهاية فى البطش بها ، ألح على قرآن يلزمها أن تقر فى بيتها ، واضطر للتشهير بإحدى زوجات مُحَمَّد الكسول زئر النساء الضعيف سليل بلاد الشام كى يجبره على إنزال أحكام الحجاب ، وأجبر سائر نساء المسلمين على ارتداء الأحجبة القميئة القبيحة حتى اليوم ، وكذا أوعز لمحمد بآيات وأحاديث استباحة الزوجات ضربا ، وبالمثل آيات استباحة إتيان المرأة من الدبر أيام لم يكن مدرجا على أجندة مُحَمَّد الشخصية وكان ينهى عنه أشد النهى (' آتوا حرثكم أنى شئتم ' : أتحدى أى واحد يطلع لى كلمة ' أنى ' دى فى أى قاموس عربى أو غير عربى . هى كلمة مخترعة كحل وسط قصد بها أن تكون ذات وقع صوتى يوحى بأين أو أينما ، ذلك كى يرضى عمر . زيها زى لعبة سورة الأعراف إللى بتبتدى بـ ' المص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ' ، وكتاب تعنى أمر وفرض . عندما تسأل عن معنى المص يقولون لك حروف مقطعة لا معنى لها ، لكن بعد أن تكون الرسالة قد وصلت بكامل عنفها ووعيدها لكل منكوحات المسلمين !) ، وهلم جرا .

– أنت بتألف تاريخ من عندك ؟ ! كام إسلام عملت لغاية دلوقت ؟ إسلام مدفوع مقدما وتسليم البضاعة فى المشمش (الحور العين) ، إسلام بالدفع الفورى خد وهات (المؤلفة قلوبهم) ، إسلام ' شكك ' بالدفع الآجل (مال البحرين وسوار كسرى ونساء الأصفر) ، إسلام ببلاش خالص (بمجرد كلمة واحدة يستلم عمر كل ملف الإسلام خالصا مخلصا لنفسه) ؟



أول من أنشأ للعرب تقويما بدايته لحظة الصفر فى تنفيذ خطته

بالهجرة ليثرب فالاستيلاء على أموال اليهود وحمل السلاح لغزو العالم انطلاقا من هناك ،

وأول من نقل الخلافة من وظيفة دينية وإدارية إلى وظيفة حربية ،

وطبعا أول من أعطى نفسه أول لقب عسكرى فى الإسلام وهو أمير المؤمنين ...

– أنت ما سمعتش عن ' وافقنى ربى فى تسع (قتل الأسرى ، التطهير العرقى ، الجزية ، الاسترقاق ، تحجيب النساء ، تحريم الخمر ، قبلة الصلاة والحج ، إلى آخر أركان الإسلام التسعة المعروفة ، أو للدقة هى عشرة زى وصايا اليهود وما حدش أحسن من حد ، والعاشرة هى رجم الزناة الذى زعموا أن الإله الذى لم يره أحد منهم لم يوافقنى عليه ، فجعلته وجعلتهم يوافقون رغم أنفه وأنوفهم . تلك كلها بخلاف عشرة ملايين أخرى فرعية جاءت فى صورة أحاديث لمحمد بن بحيرة البصرى ، المتحدث الرسمى باسم دين الإسلام ، اسمى أنا !) ' ، ذلك أن ' جعل الحق على لسان عمر ' (ولا أحد غير عمر ، كلمة الله وروحه ؟ !) ، أما بقية الوحى والذى جاء كله فى فراش عائشة فلم يكن إلا الزبالة والتفاهات ؟ ألم تسمع عن أن الأحاديث يمكن أن تنسخ القرآن نفسه ؟ متى ؟ عندما يكون عمر متعجلا جدا ! عندما يكون شخص قد مات وميراثه قد يذهب لأهله الكفار الأعداء بناء على كلام سابق غبى لمحمد عن بر الوالدين . عندما لا يحتمل الأمر الانتظار حتى التوارى لمقابلة جبريل ، بل يحتاج تشريع أحكام المواريث فورا . كما قلت أنا أكلمك عن أناس شديدى الذكاء والثقافة وتفتح الفكر وعمقه . هل لم يكونوا يعرفون أنه كان ينتهر كل مناسبة للحط من قيمة مُحَمَّد سواء فى حياته كإهانته له بعد صلح الحديبية أو بعد موته كالتوسل باسم العباس لطلب المطر ، وهو أساسا لا يؤمن بالاستسقاء ولا حتى بوجود آلهة ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن كلماته ظلت لها القداسة العليا والڤيتو فوق كل قرآن وحديث لدى جميع الخلفاء والولاة والفقهاء اللاحقين عليه (الشىء الوحيد الذى نسخ رسما ولم ينسخ حكما هو حد الرجم ، لماذا ؟ لأن ما قال عمر إنه قرآن أصبح هو القرآن ، مهما تحللت جثته فى قبرها ومهما أتى من خلفوه بكتبة وحفظة وسدنة وكهان وفريسيين يتخيلون أن بإمكانهم شطب كلمة قالها عمر يوما . وطبعا غنى عن الذكر الوثيقة العمرية التى أسست دقائق علاقة الاستعباد لغير المسلمين ، ولم يستطع معها الخليفة بن أبى طالب نفسه ' أن يحل عقدة شدها عمر ' ، حتى لو كان مُحَمَّد وقرآنه قد لم يفكروا فى ربطها أصلا) ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن خطته لغير المسلمين هى الإبادة التامة وإن تدريجيا ، وأقلها البدء بإقصائهم التام عن أية وظيفة عمومية والضرب المهين بعصاه الشهيرة لكل من يستخدم أحدهم حتى لو كان فى مقام أبى موسى الأشعرى . هل لم يكونوا يعرفون أنه لم تكن لدى مُحَمَّد مشكلة مع الخمر ، وعمر هو الذى ظل -رغم إدمانه هو نفسه لها- يستحث الوحى تلو الآخر حتى حرمها ، ذلك أن عينه كانت على المواصفات الواجبة فى تشكيلات المستقبل المسلحة ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه أول من أنشأ للعرب تقويما بدايته لحظة الصفر فى تنفيذ خطته بالهجرة ليثرب فالاستيلاء على أموال اليهود وحمل السلاح لغزو العالم انطلاقا من هناك ، وأول من نقل الخلافة من وظيفة دينية وإدارية إلى وظيفة حربية ، وطبعا أول من أعطى نفسه أول لقب عسكرى فى الإسلام وهو أمير المؤمنين ... Commander of the Faithful ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه الشخص الذى أتى بمفهوم أن الإسلام هو نهاية التاريخ ، آمرا عمرو بن العاص والعاصية (فى قول آخر لأهل مكة : العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر ، أشهر كلوباتية ، أقصد أشهر ذوات الرايات ، وأيضا لا اجتراء ولا مبالغة إنما تقرير واقع حال وأسماء على مسميات) ، أمره أن احرقوا جميع الكتب فالقرآن به كل شىء (نعم يقصد جميع الكتب ، ويقصد صحيح البخارى قبل كتب مكتبة الأسكندرية) ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه الذى أقنع مُحَمَّد -العبيط الذى رفض عرض قريش بالمال الملك يوما- أن حياتهم ستنتهى قبل أن يقنعوا مائة شخص من أهل مكة ، وأن الأفضل من الإقناع الودى الذهاب ليثرب حيث ستصبح قوافل رءوس الأموال القرشية لقمة سائغة بالذات خلال الأشهر الحرم ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه من أنزل الوحى يأمر بزواج مُحَمَّد (هذا الغلبان الذى صرف النظر عن الزواج بعد خديجة ، رغم علم عمر أنه ليس ذكرا سويا يستطيع فعل شىء مع جسد المرأة ، لكنه السيف سبق العذل وبات أمرا واقعه أن أعلنه بنفسه للناس نبيا) ، ذلك لأنه عزوفه هذا هو الطامة الكبرى لو اتبعه الجميع فى وقت المفروض فيه أننا نخطط لاحتلال العالم ؟ هل لم يكونوا يعرفون أنه صاحب مبدأ بدر الخالد ' ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ' ، الإبادة العرقية المطلقة التى أصبحت فى ثانية قرآنا يتلى للأبد ، كل الذكور البالغين يقتلون حتى المقعد منهم طالما قاومت قريتهم ، ثم أقنعه (حين أثبت جبل أحد خطأ نصيحة اللقمة السائغة وإن أثبت صحة نصيحة قتل الأسرى التى تهاون فيها مُحَمَّد وسال لعابه للمال) أن ثروات اليهود أكثر وأكثر وخبرتهم الحربية أقل وأقل ، وبعدها سيصبح إقناع أهل مكة أسهل كثيرا ، ودون الحاجة لعقد هدنة أو حديبية معهم أصلا ، وظل وراءه حتى نقضه ونفذ مشيئة عمر الأصلية ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن أبا بكر هذا الذى لم يقل كلمة لا لمحمد مرة قط ولو على سبيل المزاح شخص تافه ساذج ، وفى أول أيام خلافته ذهب للسوق كى يتاجر فزجره عمر لغبائه

الذى لم يفهم أنه الآن حاكم كل العالم ويجب أن يقبض على الجاهز أعلى مرتب وحوافز وبدلات وأرباح يتلقاها إنسان على وجه الأرض ؟ لاحقا منح هذا خيال المآتة قطعة أرض لأحد الألاضيش فنزعها منه ابن صهاك فجاء الألضوش ليسأله أأنت الخليفة أم عمر فقال وكله ذلة هو الأقوى ، لكن حتى هذا لم ينقذ خيال المآتة الذى عينه إله الصهاك فى السقيفة بحد السيف مهددا بقتل فاطمة ابنة حماضة الأقرع (بفرض أنها ابنته) وأبيها ابن أبى طالب (بفرض أنه ابنه) ، لم يمنع من قدوم عمر وتحقيره لذلك التيس المستعار على رءوس الأشهاد كيف يتصرف فى شىء من تلقاء ذاته دون أمر صريح من إلهه ، إله الدين ، إله الصهاك . هل لم يكونوا يعرفون أن أبا بكر هذا محدود الأفق ، ترك لخالد بن اللقيط واللقيطة (فى قول آخر : سيف الله المذلول ، أيضا لا اجتراء ولا مبالغة) ، الحرب كما أبعادية بنظام المقاولة يغتنم لحسابه ويوزع بمزاجه ثم يعطى الدولة ما يجود به ، وأن خلافه مع عمر حوله لم يكن بخصوص أمر مفرط التفاهة من قبيل قتل إمرئ مسلم والزنا بامرأته إنما هو خلاف رئيس للغاية حول مفهوم الدولة المركزية الشمولية مطلقة السلطات (مع علمهم طبعا أن أبا بكر أتفه من يسن شيئا جديدا من تلقاء نفسه إنما اتبع سنة مُحَمَّد الذى كان يعامل سيف الله المسلول ذات المعاملة الخاصة جدا وشبهها فى حينها بتعاقدات شركة بلاكووتر ، ولم يبد عمر رأيا وقتها ولم يأمر بنزول قرآن) ؟ هل لم يكونوا يعرفون أن عمرا -الذى دعا للتعامل مع الحكام بالقتل وحده- قتل أبا بكر الزنديق هذا فى نهاية المطاف ، لأن هذا الخليفة الكارتووني كفر بإله الإسلام (أو لم يفهم يوما من هو أصلا) ، فحاول أخذ اللعبة على محمل الجد ، ولم يفهم أنه يجب أن يكون كما نبيه وصديقه مجرد واجهة لمركز القوة الحقيقى ، وظيفته أمران لا يتجاوزهما أبدا : ١- أن يتلقى لعنات وسخرية الناس ، ٢- أن يكون المستهدف بالقتل حال وقوعه ؟ (ثم موجها كلامه لمينا :) ألا تعرف أنت يا مينا أن الرجل الثانى نعيم لا يعرفه إلا من احتل وظيفة الرجل الأول ؟



حلوة حكاية عمر بن الحطاب والحطابة (لا اجتراء ولا مبالغة) ،

وعمرو بن العاص والعاصية (فى قول آخر لأهل مكة : العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر ، لا اجتراء ولا مبالغة) ،

وخالد بن اللقيط واللقيطة (فى قول آخر : سيف الله المذلول ، لا اجتراء ولا مبالغة) .

... السؤال : هل بن الخطاف والخطافة اجتراء ومبالغة ؟ !

- (مداعبا :) ماشى يا عم ونس ! أنا وإدوارد مسامحينك ! بس لعلمك الإسلام كله على بعضه عبارة عن عقدة الرجل التانى ، بعد كل الإرهاب والحروب إللى عملها لا يزال بعيدا جدا عند أن يكون الدين الأول فى العالم ، وكل تصرفاته ليس إلا ردود أفعال ! إنما حلوة حكاية عمر بن الحطاب والحطابة (لا اجتراء ولا مبالغة) ، وعمرو بن العاص والعاصية (فى قول آخر لأهل مكة : العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر ، لا اجتراء ولا مبالغة) ، وخالد بن اللقيط واللقيطة (فى قول آخر : سيف الله المذلول ، لا اجتراء ولا مبالغة) . ... السؤال : هل بن الخطاف والخطافة اجتراء ومبالغة ؟ !

- طب الحطابة دى أمرها سهل ، أومال لو عرفتم كل قصة صهاك كالعاهرة متعددة الأغراض ؟ عموما ، الرجل الثانى ٣ أنواع على الأقل ، فيه قوى لا يرضى بأقل من أن يتم نوره زى عمر ، وفيه ضعيف وراضى بضعفه زى أبى بكر ، وفيه ضعيف وعنده عقدة من ضعفه زى ناس كتير ، منهم نبينا العظيم إللى بتصفوه فى فلكلوركم بالأقرع با أعباط مصر . (ثم مغنيا :) أنا الفرج ، أنا الفرج ، لا أعرف المستحيل ، ولا أرتضى للسجود بديلا !

- لك نفس تغنى النهارده كمان يا بنى آدم عديم الدم ؟ !

- أنت موش فاهم : الصلاة للفروج هى الصلاة الوحيدة التى لا يبطلها كلب ولا حمار ولا غلام !



ليس هناك إسلام مكى وإسلام يثربى ، إنما هناك إسلام مُحَمَّد وإسلام عمر ،
ولأن مُحَمَّدا -المهجوس طيلة الوقت بفقره وعجزه الجنسى وجهله بنسبه وجهله ككل- هو إمعة فى كل مراحل حياته ،
وهى من خصوصيات شخصيته اللصيقة التى ليس بوسعه تغييرها ، لذا انقلب كل شىء من النقيض للنقيض بانضمام عمر .
هل يغيب عن ملاحظة أحد أنه منذ يوم نكح بحيرة آمنة ،
مر أكثر من نصف قرن من الجهود المضنية للتلات ورقات -ورقة وبحيرة وخديجة- لتصنيع نبى للعرب ،
لم تثمر إلا عن ٧٠ تابعا أغلبهم من العبيد ، لكن حين انضم عمر أصبح للإسلام بفضل لمسته الإلهية ملايين الأتباع فى شهور ؟
إذن قبل عمر كان الإسلام مجرد هرطقة مسيحية ركيكة مآلها الاندثار المحتوم ، وبه صار برنامجا حربيا للعرق العربى
(إن جازت تسمية أولئك الهوام مطاريد جميع الشقوق عرقا ، أو جازت تسمية ما فعله عمر بميلاد القومية العربية) ؛
كان هناك إسلام اعتباطى بدائى ساذج مات وانتهى ، ثم جاء إسلام دموى شره شرس هو الذى غزا العالم ولا يزال يحاول إلى اليوم !

– المسيحيون والمستشرقون وكل الدنيا يقسمون الإسلام لقسمين متسامح وعنيف ، إسلام مكى وإسلام يثربى . أنا لا أراه هكذا . قبل كل شىء إسلام مكة لم يكن ملائكيا جدا بدليل أن أول دم فى الإسلام لم يكن لمسلم ، إنما بالعكس لقريشى قتله سعد بن أبى وقاص لأنه اكتشف أمر الدين الجديد وكان بعد تنظيما سريا ، وأول سلاح فى الإسلام كان ' لحى بعير ' ، أى عظمة فخذ ، يعنى زى فيلم أوديسا الفضاء بالظبط ! على عموما مُحَمَّد كان بطبعه شخصا طيبا بائسا بلا طموحات وأميل ما يكون للتسامح المسيحى حيث كل المؤثرات حوله -كخديجة وورقة وأغلب عابرى سبيل مكة- مؤثرات شبه مسيحية . ذهابه للمدينة لم يكن ليغير شيئا فى حد ذاته . ما استجد وقلب كل المعادلات هو شىء واحد محدد جدا : دخول عمر بن الخطاب والحطابة للصورة ! إذن ليس هناك إسلام مكى وإسلام يثربى ، إنما هناك إسلام مُحَمَّد وإسلام عمر ، ولأن مُحَمَّدا -المهجوس طيلة الوقت بفقره وعجزه الجنسى وجهله بنسبه وجهله ككل- هو إمعة فى كل مراحل حياته ، وهى من خصوصيات شخصيته اللصيقة التى ليس بوسعه تغييرها ، لذا انقلب كل شىء من النقيض للنقيض بانضمام عمر . هل يغيب عن ملاحظة أحد أنه منذ يوم نكح بحيرة آمنة ، مر أكثر من نصف قرن من الجهود المضنية للتلات ورقات -ورقة وبحيرة وخديجة- لتصنيع نبى للعرب ، لم تثمر إلا عن ٧٠ تابعا أغلبهم من العبيد ، لكن حين انضم عمر أصبح للإسلام بفضل لمسته الإلهية ملايين الأتباع فى شهور ؟ إذن قبل عمر كان الإسلام مجرد هرطقة مسيحية ركيكة مآلها الاندثار المحتوم ، وبه صار برنامجا حربيا للعرق العربى (إن جازت تسمية أولئك الهوام مطاريد جميع الشقوق عرقا ، أو جازت تسمية ما فعله عمر بميلاد القومية العربية) ؛ كان هناك إسلام اعتباطى بدائى ساذج مات وانتهى ، ثم جاء إسلام دموى شره شرس هو الذى غزا العالم ولا يزال يحاول إلى اليوم ! هل تعرفون لماذا أسلم عمر ؟ الإجابة : الأمر برمته جاء بالمصادفة ؛ سمع مُحَمَّدا ذات مرة يتحدث -كالعادة- عن شىء لا يعرف معناه بالضبط ؛ شىء اسمه بأس الحديد ، فلمعت فى ذهنه فكرة هى العكس بالضبط من تصوراته القديمة عن الأنبياء كمجرد دراويش بلهاء ، فقرر أن يصنع نبيا بدرع وسيف ، وببأس حديد جديد لم يكن قد خطر من قبل بعقل حمادة الصغير المحدود ! هل تعرفون أول كلمة قالها عمر لمحمد لدى إشهار إسلامه ؟ الإجابة : ' فيم الاختفاء ؟ ' ، وفى التو واللحظة بدأت المواجهة إن لم نقل استعراض القوة حول الكعبة . تلك اللحظة هى التى سطر فيها عمر أول آيات الوحى فى قرآنه ' أيها المدثر قم فانذر ' ؛ القرآن الذى لا يجب أن يستمر للنهاية فريدا بين كل كتب التاريخ باعتباره الكتاب الوحيد الذى يتكون من تفريغ تلفظات شخص أثناء إصابته بنوبات الصرع ، تلك اللحظة التى دخل فيها السيف للإسلام ومن حينها لم يخرج أبدا . عمر كان أول من تمنطق سيفا فى الإسلام ، السيف الذى أصبح يلقب به للأبد فاروقا ، وطبعا سرعان ما أسس تقويما خاصا للعرب يؤرخ للحظة بدء قيادته هو لدينهم الخاص . للأسف ، الغرب يعشق صب جام غضبه على مُحَمَّد ويلصق به كل صفات الإجرام والدموية ، وأنا لا أدافع عنه (فقطعا ارتكب بيديه من المجازر الدموية ما لا يعد ولا يحصى ، إلا أنها كلها فى ظل الوحى المنزل عبر عمر ، هذا الذى لم يعرف عنه يوما أى اهتمام ولو بأبسط الأمور الفقهية) ، لكنى أرى فيما يقوله الغرب ظلما على شخص لا يستحق منا إلا الشفقة ، وأيضا أراه سوء تحليل تاريخى وسياسى ... إلخ . هل تعرفون ما هو المرسوم الإمبراطورى رقم ١ فى الإسلام ؟ إنه قرار عمر يوم توليه بعزل خالد من قيادة الجيوش ، بعدها سرعان ما بطش بكل أمثاله من مراكز القوى وأمراء الجيوش وكل من تصور للحظة أن الأغنام تحتمل الشرك فيها مع الإمبراطور ، مرورا بابن أبى وقاص حتى سائر رعيل الحرس القديم وكل من لا زال لمحمد الإمعة مكانا فى قلوبهم ، وأخيرا يوم أنجز ثورة التصحيح هذه كاملة قال قولته الشهيرة ' اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ' ! أصدقائى الذين عرفتهم عن قرب لم يكن مُحَمَّد يعنيهم فى شىء ، لا خصومة ولا ود ولا أى شىء ، just irrelevant : كينونة غير ذات صلة لا بهم ولا بالإسلام . يا إخواننا : زكريا قبرص لا يحارب إلا

طواحين هواء ، والناس دى فاهمة كل إللى بيقوله من قبل هو ما يلبس العمة ، ومع ذلك لم يفكروا للحظة فى الكفر بالإسلام ، بل قرروا رفع رايته من جديد وأفضل من الأصل . إنهم لحظة تاريخية لا نظير لها فى عمر الإسلام ، هذا الذى وجد لأول مرة من ينزع عن القرآن وعن مُحَمَّد قداستهما الزائفة ، ثم يجدون بعد ذلك بين أيديهم ما يمضون به بهذا الدين لآفاق أعلى غير مسبوقة !



هؤلاء المسيحيون والعلمانيون مهما بحثوا فى الكتب لن يفهموا أبدا ما فهمته : أنا عاينت عن كثب ولحظة بلحظة ميلاد الشيء الكبير !

أنا قرأت ' ميثاق العمل الإسلامى ' -الكتاب الذى رسم خريطة الأحداث الكبرى للعالم للثلاثين عاما التالية- قبل أن يطبع ؛

قرأته كمجلات حائط ، بل حتى قبل أن تعلق على الحائط ويقرأها أحد .

أولئك متوقفون عند إسلام مُحَمَّد وتناقضاته وفضائحه وجرائمه ،

بينما الإسلام الفاعل على الساحة إسلام أنضج أرقى وأشرس ، صادق صريح ومباشر ، وفوق الكل أنه بلا متناقضات تذكر !

– أعداء الإسلام أنفسهم لا يقولون ما تقوله أنت !

– مع احترامى للجميع ، هؤلاء المسيحيون والعلمانيون مهما بحثوا فى الكتب لن يفهموا أبدا ما فهمته : أنا عاينت عن كثب ولحظة بلحظة ميلاد الشيء الكبير ! أنا قرأت ' ميثاق العمل الإسلامى ' -الكتاب الذى رسم خريطة الأحداث الكبرى للعالم للثلاثين عاما التالية- قبل أن يطبع ؛ قرأته كمجلات حائط ، بل حتى قبل أن تعلق على الحائط ويقرأها أحد . أولئك متوقفون عند إسلام مُحَمَّد وتناقضاته وفضائحه وجرائمه ، بينما الإسلام الفاعل على الساحة إسلام أنضج أرقى وأشرس ، صادق صريح ومباشر ، وفوق الكل أنه بلا متناقضات تذكر ! أنا لا أعول كثيرا على لعبة التناقضات الداخلية . المحدثون أغرقوا فى دراسة كل آية وكل حديث وكل خبر ، وأزالوا كل تناقض بينها ، ولو واجهتهم بتناقض جديد مارسوا نفس اللعبة ، بحيث لن تصل معهم أبدا لنتيجة . هم يستطيعون هذا دون لجوء للتأويل والعياذ بالله ! (فاكرين كلامى إللى ضحكتم عليه ؟ !) . عندهم ١٠١ قاعدة ممكن يعملوا كل حاجة عاوزينها ، يكفى بواحدة منها اسمها المطلق والمقيد يقلبوا لك كيان أية آية فى القرآن ويطلعوها تقصد عكس المعنى إللى أنت فهمته بالظبط . الفارق المهم جدا هو الابتداع ؛ هم لا يستخدمون إلا أدوات الترزى التقليدية والبدائية جدا (الـ ١٠١ التى لا تزيد ولا تنقص) ، بينما التأويل بتاع الرازى ونصر أبو زيد هو نوع من استخدام الذكاء الحاسوبى الفائق ، إن لم يكن شطحات فيلم خيال علمى ! فى زمن الأئمة كان يوصف المحدثون بتيوس الدين ، لكن بمرور الوقت صاروا من بيدهم مفاتيح ملكوت السموات ، صاروا السلطة المطلقة وأهل الحل والعقد وسط أهل الحل والعقد أنفسهم ، بيدهم مفاتيح العقيدة والأصول يكيفونها كيما شاءوا تبعا لتقويتهم أو تضعيفهم لأى حديث ، أو تعديلهم أو تجريحهم لأى شخص . إن محاولتهم عدم استبعاد شيء مهما كان الهراء فيه يجعلهم أبطال الإسلام الحقيقيين ، لكن لو تعمق أو تمهل زكريا بطرس قليلا وحاول معرفة رأيهم فى تلك التناقضات ، لوجد أن الحلول التى قدموها أفدح خيالا من كل ما يخطر له وأبشع ألف مرة من وجود التناقض فى حد ذاته . والمثال الذى يستهوينى هو جواز الغدر بالعدو ، كالاغتيالات أثناء النوم أو تحاشى مواجهة الجيوش أصلا ومباغتة النساء والأطفال وذبحهم بهدف إنزال الرعب فى الجيوش . ذلك -أى مبدأ جواز الغدر- لا يوجد به أمر نبوى صريح ولا يوفيه حديث ' الحرب خدعة ' لأن هذه تقانيا ليست حروبا ، لكنه جاء نتيجة توفيق معقد جدا لعدة أحاديث وأخبار مع بعضها البعض ومع أشياء أخرى من بينها مثلا كون الإرهاب وإنزال الرعب فى القلوب تكليفات قرانية مباشرة أو باستطلاب الوسيلة لها (هذه تختلف عن قتل النساء والأطفال فى حال التمترس بهم ، فهى حرب والتى بالمناسبة لا أعرف لماذا تغضب حماس أو القاعدة من قتل نسائها وأطفالها ، بالذات وأنها من الحالات النادرة التى تتفق فيها شريعة چينيف مع شريعة الإسلام على شيء ؟) .

– عاوز تقول إيه ؟

– عاوز أقول إنى شاهدت دقيقة بدقيقة بزوغ النواة التى ترعرعت بحيث قتلت السادات وطردت الشيوعية من أفغانستان وأسقطت كل إمبراطورية السوفييت ، وتغلغلت فى كل عواصم أوروبا ، وضربت من نيروبى لموسكو . أصحابى دول كانوا نواة النواة ، وأنا عارف أنا بأقول إيه . أنا لم أشاهد تنظيما صغيرا معزولا فى أصحابه كالتكفير والهجرة ، ويتم القضاء عليه بعد كام سنة أو كام شهر . كمان هم ليسوا ورقة محروقة خاية وفسدانة زى الإخوان . أنا لا أدعى العبقرية بأثر رجعى ، إنما أقدم شهادتى كما هى . كنت متأكد أنهم موش ها يتفعصوا زى شكرى مصطفى أو الناس ها تسخر منهم زى ما بتسخر م الإخوان . كل موقفى أنى حسيت أن دى ناس صاحية منظمة واعية وفاهمة ، موش دراويش

واتكاليين ، فاكرين أن ملايكة ها تيجى لهم فى آخر لحظة تنقذهم م المشنقة . ناس موش سهلة ، وما حدش ها يقدر عليهم فكريا ، وده إللى حصل فعلا . هى دى خطورة أحداث الصعيد : أنتم ببساطة موش فاهمين الناس دى ، ولا فاهمين مخهم شغال إزاى ، ولا حتى الحكومة فاهماهم . لما جه مبارك ، والتليڤزيون ابتدأ يجمع الشباب دى مع المشاخ ، وفى نهاية كل حلقة كان المرحوم حلمى البلك يقول المجموعة دى من الشباب أعلنت التوبة ، أنا ما كنتش بأشوف أى توبة خالص . كنت شايف أن المشاخ هم إللى ابتدوا يقولوا نفس كلامهم . من المستحيل أن تكسب هؤلاء فى مناظرة دينية ، تأتى ببينتك وهم ببينتهم . لن يجديك التمسح بالشافعى وأبى حنيفة ، بينما القرآن نفسه واضح فاضح فادح . كل الحرب على الإرهاب فاشلة لأنها لم تفهم هذه الحقيقة . ما فيش إسلام معتدل وآخر متطرف ، زى ما بيقول بتوع الحرب على الإرهاب وتعديل المناهج وحوار الأديان وثقافة التسامح ، وكل أصحاب القرب المقطوعة دى ، إللى كل ما يعينوا مفتى أو إمام معتدل فى حتة يكتشفوا أنه بقى متطرف ، زى أخونا حجاب كده ، ويضربوا كف على كف !

– (ضهرى لا يزال مستفزا ، بل يزداد :) أنت بتخرف تقول إيه ؟ دول نبذوا العنف بوضوح وصراحة ، والزعماء بتوعك إللى أنت محترمهم أوى دول ، طلعوا كتب تقول كده .

– (ببرود يثير الغيظ أكثر :) لا بوضوح ، ولا بصراحة ! كل إللى قالوه إنه حين لا يؤتى الجهاد (= الحرابة الشرعية) نتائجه يوقف .

– لأ ، قالوا كمان إن السادات مات شهيد !

– موش عاصم وعصام !

– (وكأنه عثر على كنز :) افرض حتى ! ‘ الجهاد (= الحرابة الشرعية) حين لا يؤتى نتائجه يوقف ’ ؟ يبقوا كفرة ! إيه الفرق كده بينهم وبين سيدنا عمر إللى كفروه ؟

– لا ، ده سؤال فوق مستواى . ممكن تروح تسألهم . أهم عندك فى سجن طرة . إللى أعرفه حاجة واحدة : أصحابى دول ناس محترمين جدا : بما أن الله قال : أكملت لكم دينكم ، فلا يمكن بحال أن يقبلوا أن يكونوا هم السبب فى انتقاصه من جديد . ما أستطيع أن أجزم لك به أن وقف الجهاد (= الحرابة الشرعية) لا يعنى عندهم العودة للاستضعاف والتقية والخطاب المزدوج كالإخوان المسلمين ؛ إنه مجرد وقف ، لا أكثر ولا أقل . هم لا يكذبون أبدا ، وهذا هو الفارق بينهم وبين كل المتدينين من كل الأديان !



هل تعتقد أن خادم القرفين الشهيرين ، أو مرشد الإخوان ، أو رئيس التنظيم العالمى لعلماء المسلمين (خليفة الكون) ، أو الأمين العام له (رئيس وزراء الكون) ، أناس يؤمنون حقا بوجود إله ؟ !

يلحظ ونس أن الوجوه لا تبدى تفهما ولا اقتناعا ، لذلك قرر أن كلما استغلقت حلقاتها انفرجت ، فقرر المضى فى الشوط حتى آخر أعماق مصطلحاته الشرعية : ‘ أحيانا بيسموا التقية الخلاف على هل تكفير الحاكم سياسيا أم تكفيره شرعيا . هذا كلام أناس لا تفهم ؛ الموضوع لا علاقة له بالتقية بل بأشياء أعمق مليون مرة . أنت لن تفهم شيئا مما أردت شرحه قبل أن تفهم الفارق بين التكفير السياسى والتكفير الدينى ، هنا يكمن بيت القصيد ، بل أكبر خلاف فاصل فى الإسلام : أناس تجاهد من أجل الأغنام ويكفرون الحاكم لأنه لا يسمح لهم بفعل ما يبغون ، وبين أناس تجاهد من أجل الدين وترى كل هذا المناوشات السياسية مع الحاكم -حتى لو جائر- حقارة ومفسدة لا أكثر . من مُحَمَّد وهارون الرشيد حتى الإخوان والشيخ حجاب هى لم تكن إلا دولة النوع الأول الأرضية الوضيعة . ومُحَمَّد نفسه من هذا الفصيل وكان مستعدا لأن لا يعزل كسرى أو ملك الروم لو آمن به كنبى ومن ثم تركه يطبق الشريعة التى تحل استحلال واسترقاق شعبه له هو -أى لمحمد . سأبسط لكم الأمور : على العكس من كل أديان الدنيا كتب الإسلام ملغزة ولا أحد يفهمها بدون التفاسير ؛ إذن المسلمون نوعان : نوع يقرأ ونوع لا يقرأ . النوع الثانى معروف وهو إسلامك الشعبى الحلو اللذيذ يا عم ضهرى ، أما النوع الأول فنوعان : إما مجاهد سفاك للدماء ، وإما علمانى . النوع الثانى معروف وهو أمثال وحيد وأنا وعارف وكثيرين ، أما النوع الأول فنوعان : إما مؤمن حقا ويجاهد وهذا غالبا مضحوك عليه ، وإما لا يؤمن بأية آلهة ويجاهد لأنه يعرف أصل الكذبة والهدف منها ، وهنا أضع مُحَمَّد نفسه وكل الصحابة-العصابة انتهاء بخادم الحرمين وكل كوادر الإخوان المسلمين . هل

تعتقد أن خادم القرفين الشهيرين ، أو مرشد الإخوان ، أو رئيس التنظيم العالمى لعلماء المسلمين (خليفة الكون) ، أو الأمين العام له (رئيس وزراء الكون) ، أناس يؤمنون حقا بوجود إله ؟ ! ' .

– وما هو موقع أصحابك من هذه الخريطة ؟

– هل لاحظت كلمة ' ' غالبا ' مضحوك عليه ' ؟ هم تلك الفئة الصغيرة جدا الباقية من كل تلك الخريطة . إنهم الجماعة المستثناة من المؤمنين الحقيقيين الذين لا يستغلهم أحد من هؤلاء المجاهدين الدنيويين . ما أردت قوله إن الدولة الإسلامية التى ينادى بها الجميع ليست هى ذات الشىء عندهم جميعا . السؤال هل يمكن يوما أن يحدث العكس : دولة دين ومبادىء ؟ الإجابة هى نعم ! الأهم أن هذا حدث فعلا ! هؤلاء لا ينطبق عليهم ما قاله وحيد للشيخ حجاب أن الإسلام المثالى شىء نظرى وغير قابل للتطبيق ؛ لقد أنشأوا بالفعل المجتمع الذى يريدون : طالبان !

– (هنا ومن جديد تثور فجأة ثائرة الحاج :) ما لقتش غير طالبان يا متخلف أنت ؟



طالبان هى الاعتدال عينه ؛

إنها التجسيد الأمثل لمقاصد الشريعة وروحها ، وليس فقط نصوصها !

– ما لها طالبان ؟ موش أحسن من لو كانوا ٣ طلاب ؟ هأ ! هأ ! إسلامك أنت يا حاج هو المزيف هو المصطنع ، هو التطرف . طالبان هى الاعتدال عينه ؛ إنها التجسيد الأمثل لمقاصد الشريعة وروحها ، وليس فقط نصوصها ! قل لى شيئا واحدا خالفت فيه طالبان الشرع . بالعكس هم الأكثر دقة والتزاما ، وفى نفس الوقت فهما لمقاصد الشريعة ، دونما تزوير ولا احتيال ولا فهلوة . المشكلة فى الحديث الذى قاله عارف هو كلامه الكثير عن المال ' يؤتوا الزكاة ' و' عصموا منى دماءهم وأموالهم ' . طالبان لا تفكر فى الأموال . هل اغتنم أحد من طالبان أو القاعدة شيئا لنفسه كما فعل الرسول والصحابة-العصابة ؟ هل ارتزقوا يوما كما يفعل الإخوان المسلمين المرتزقة ؟ الفقير منهم ظل فقيرا ، والثرى أنفق ما يملك على الجهاد (= الحرابة الشرعية) . كلنا كنا متأثرين باليسار آنذاك ، لأنه ها يجيب حقوق الناس الغلابة إللى زينا ، لكن مع ذلك لم أكن علمانيا متبلورا كما أنا اليوم ، وعامة اهتمامى بالأديان كان محدودا جدا . ده وقت كانت فيه كل الأديان متهانة . الكتابة ضد الدين كانت متوفرة جدا على أيامنا : الغصن الذهبى ، ماركس ، داروين ، فرويد ، سارتر ، لويس عوض ، وغيرهم وغيرهم ، وكان بيتقال دايما إن كل دين به تناقضات داخلية . بيتقال إن كل دين فيه تخاريف أقل من إللى قبله ، لكن لا تزال هناك تناقضات ومفارقات . كنت بأسمع الكلام ده ولا أهتم به ، لغاية ما اتعرفت على العيال دول . من خلال إصرار هؤلاء على استبعاد كل السيرة وكل السنة ومعظم القرآن ، فهمت أنه لو فتشت الكتب ها تلقى تناقضات الإسلام أكبر من أى دين ، وهذا طبيعى لأنه جاء من شخص بدائى جاهل لأمة بدائية جاهلة . فى التسعينيات -وقبل ما يظهر زكريا قبرص- لما طلع إللى اسمهم القرآنيين ، وهلل لهم المستنيرون واليساريون وأشباه العلمانيين على أساس أنهم سيخلقون إسلاما أكثر اعتدالا ، قلت بل سيخلقون (دون أن يقصدوا) إسلاما أكثر شراسة ، ذلك لأنى عرفت من كان يمكن واقعيا تسميتهم بالقرآنيين ، قبل هؤلاء بعقود ، وأعرف بالضبط كيف يفكرون . الفارق ليس أن النصوص أكثر أو أقل شراسة ، إنما هو أن البشر أكثر انضباطا وصرامة . أنت إزاى يا حاج موش واخد بالك أن دى الموضة إللى ماشية اليومين دول أن أغلب الفقهاء بدءوا يرموا الأحاديث فى الزبالة ، ويقولون هو المبشر والنذير وليس عليهم بمسيطر ، ولسنا فى حاجة للسنة بما فى هذا طريقة الصلاة ؟ الرسول مجرد حامل رسالة فى نظر أصحابى دول . مستحيل مثلا أن يسمى أحد منهم ابنه على مثل اسمى ، عبد النبى . ده على الأقل بيعفيهم من الخوض فى متاهة أحاديث الرسول ، أغلبها ضعيف أو غريب أو شاذ أو أحيانا مضحك . (ثم ضاحكا :) مع ذلك هناك حديث يحبونه أكثر من سورة التوبة : ' أمرت أن أقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن مُحَمَّدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم ' ، أما الآية فتقول ' قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ' . مرة أخرى السياسة ضد الدين : القتل حتى يعطوا الجزية أم حتى يعتنقوا الإسلام ؟ !



ثلاثة من المبشرين بالجنة اقتتلوا بعضهم البعض ،

ولا أحد يعرف ماذا سيحدث حين يلتقون هناك مرة أخرى ؟ !

– قرآنيين ؟ أنت خليت فيها قرآن ؟ أنت بتتكلم عن إسلام من غير مُحَمَّد ومن غير قرآن ! ، ده حتى ما ينفعش يبقى اسمه إسلام !

– هم ليسوا بدعة بالكامل كما قد يبدو لك . أعمدة الصحابة-العصابة كانوا يعرفون جيدا ملابسات كل تنزيل ، وهم أول وأكثر من شكك فى ألوهية الوحى ؛ عائشة شككت فى كل ما يخص النساء وفى هرولة جبريل طوال الوقت لإشباع أهواء مُحَمَّد الجنسية ، وعمر غير ذى مرة جعل مُحَمَّدا يغير من الوحى أو يأتى بنص بديل لعدم اقتناعه هو بالنص الأصلى ، ثم حين أصبحت السلطة له أبطل ما شاء من أحكام القرآن ، وطبعا لو كان مؤمنا حقا بأنه وحى إلهى لما فعل ، وفوق الكل لو كان الصحابة-العصابة الأجلاء يعتقدون حقا فى كلمة واحدة من الوحى لما تحاربوا ذلك الحراب الجليل بينهم ، بالذات عندما بدأت أموال مصر تتدفق وتغرق جدب جزيرة البعر (بعر البعير الذى من حيث اشتق العرب اسمهم) بما لم يحلموا به قط . ثلاثة من المبشرين بالجنة اقتتلوا بعضهم البعض ، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث حين يلتقون هناك مرة أخرى ؟ ! باختصار ، لم يوجد تاريخيا أحد مهم من قادة الإسلام اقتنع بغير أن ما جاء به مُحَمَّد هو من عندياته وليس وحيا ، مع ذلك يظل هناك شىء واحد فوق مستوى الشبهات : سورة التوبة ! موش عاجباك كلمة قرآنيين ، ممكن تسمى أصحابى دول توباويين لو حبيت (أو طوباويين ، ما تفرقش كتير !) . هناك حديث مما يسمى بالقدسى يقول ما معناه إن البشر سيظلون يخطئون والله سيظل يغفر ؛ هذا كلام لا يرضى به أولئك . إنهم بيورتانيون ! ، وهذه البيوريتانية الإسلامية التى لا تعترف بشىء اسمه الخطيئة ، هى النضج الأسمى للدين ولمفهوم العبادة : عالم جديد مقدام يقتل كل من لا يقوى على العيش طبقا لشفرته ! أصدقائى لم يكفروا عمرا بن الحطاب والحطابة أو مُحَمَّدا بن بحيرة أو الصحابة-العصابة لمخالفتهم الحرف أو النص ، إنما لمخالفتهم لروح الإسلام كما يرونها فى ذروة الرسالة المحكمة الواضحة : سورة التوبة ؛ إقامة الدين كله لله . هم يكفرونهم لأنهم لا يرون فيهم إيمانا صادقا بما يكفى ؛ لأنهم تحولوا لعصابة نهب وبلطجة وتغاضوا من سبيل هذا عن الكثير من جوهر الشريعة . تسامحوا مع الكثير من الفسق والملذات وحكمتهم الأهواء والأطماع والصراعات الشخصية ، معتقدين أنه بمجرد تأسيس الإمبراطورية إنما يوفون أمر الله لهم بإقامة حكمه على الأرض ، لكن ما أبعد دولة الإسلام تلك عن حكم الله الحقيقى الذى يريد على الأرض ، بل ربما ما أبعد أن يكونوا هم أنفسهم مؤمنين بوجود الله أصلا .

– أنا موش فاهم حاجة ؛ أول مرة أسمع كلام فاضى وغريب عن الإسلام لهذه الدرجة ، ولم أقتنع ولا بكلمة واحدة !



غلابة ؟ إللى بتقول عليهم أقوى من أى نبى ، غلابة ؟ !

– وحيد بيه ممكن يفهمنى أكتر منك : أصحابى دول مكن ! عاوزين مجتمع على طريقة روايات الخيال العلمى الشمولية : ١٩٨٤ ، ٤٥١ فهرنهايت ، عالم جديد مقدام ، وما شابه ، أو على الأقل لو موش خيال علمى يبقى زى مجتمع كتاب كفاحى . هم لا يتسامحون قيد أنملة مع الشهوات والضعفات الإنسانية ، ولا يتوانون عن تنفيذ حد القتل فى كل من يخرج ولو شعرة عن الشريعة ، وطبعا فى كل غير المؤمنين من غير المسلمين ، وتخليص مجتمعهم المثالى من أمثالهم . إنهم لا يبحثون عن حوريات الجنة كما تشنعون عليهم ، إنما يريدون جنة سورة التوبة هنا والآن ؛ على الأرض ! أنت سألتنى عن الجزية ، ولم أجبك ، هل تعرف لماذا ؟ لأنى أشك فى موضوع الجزية ، أو لا أعرف رأيهم فيه بالضبط . المنطقى أنهم لا يقبلون بالجزية ولا بالعبودية ولا بملكات اليمين أصلا ، هم يؤمنون فقط بالدين الكامل ! صحيح الجزية موجودة فى سورة التوبة ، لكن روح سورة التوبة تتخطى هذا بكثير ، إنها تسعى ' للدين كله ' ، لا تريد كفارا فى العالم أصلا . هم لن يكرهوا على الإسلام أحدا بحد السيف ، إنما سيقتلونه قبل أن يفكر فى اعتناق الإسلام . هذا ما طبقوه بالفعل . مع الإخوان أو الشيخ حجاب أو كل أهل السنة عامة أنت تدخل فى مهاترات قد تستغرق عمرك كله : إذا حدثتهم عن فضائح وجرائم الصحابة-العصابة ، قالوا لك صلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم (رافعين صوتهم مع كلمتى آله وصحبه ، حيث الصلاة واجبة على الآل والصحب ومحرمة شرعا على المسيح عيسى مثلا ، هذا الذى يرددون دون أن يفهموا أنه سيحاكم كل هؤلاء يوما بمن فيهم مُحَمَّد) ، قالوا لك إن الصحابة-العصابة جزء من الملة والطعن فيهم كفر ، فإذا أفحمتهم قالوا كل إنسان يؤخذ منه ويرد إلا رسول الله . بعد ذلك إذا حدثتهم عن فضائح وجرائم مُحَمَّد ، قالوا إنما لا ينطق عن الهوى والتشكيك فى تنزيهه خروج على الملة ، فإذا أفحمتهم قالوا إنما هو ما إلا بشر مثلنا والمقدس هو إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون . بعد ذلك إذا حدثتهم عن فضائح وجرائم القرآن ،

قالوا لك الماسح والممسوح وأسباب التنزيل وكتب التفاسير ولا تسألوا عن أشياء إن تبدى لكم تسيئكم ولا يعلم تأويله إلا الله ، فإذا أفحمتهم (قائلا مثلا أما والحال هكذا ما حاجتنا أصلا للدين ولتكفنا عقولنا -على علاتها ؛ الدين هو المطلق الذى يصلح لكل زمان ومكان ، ما يوجد -ولو لحرف واحد منه وليس لكل صغيرة وكبيرة فيه- أسباب تنزيل ، ليس مطلقا ولا يصلح لكل زمان ومكان أى ما هو بدين ، ما يتغير بالنسخ كل ربع ساعة أو حتى يتغير تبعا للعقل والمنطق وتطور العلم ما هو بدين ، أن يغير ربنا رأيه ١٠ مرات بخصوص زواج المتعة ما هو بدين ، وما يحتمل ' الاجتهاد ' ولو بعد مليون سنة ، ما هو بدين ، وطبعا -بحكم التعريف- ما يتهاون للحظة عن تكفير كل بقية البشرية ، ما هو بدين . السبيل الوحيد لتطور أى دين هو أن ينشق أنصار الفكر الجديد ويدخل الفريقان فى حرب ، طبعا حول أيهما هو الحقيقة المطلقة) ، إذا أفحمتهم فى ذلك قتلوك . أصدقائى أولئك يقتلونك من البداية ! شفت إزاى كانوا سابقين عصرهم ، والدنيا كلها تعلمت الإسلام منهم ؟ ! عرفت قصدى إيه لما بأقول روح الإسلام ؟ قصدى أنك تصفيه من كل حاجة وتبقى شكل المجتمع المثالى المنضبط شديد الالتزام هذا . لازم تفهم أن دول ناس لا يعرفون التهور ولا النزوات ، ولا ينجرفون وراء كلمة انفعال طائشة هنا أو هناك للرسول أو لغيره . هم أكثر نضجا وثقافة وحنكة واتزانا من أى نبى ! فى نظرهم ربما تلقى مُحَمَّد بعض الوحى ، وربما لم يتلق أى شىء على وجه الإطلاق ، لكن ما أعجبهم هو محتوى سورة التوبة ، ورأوه وحيا إلهيا لا مراء فيه حتى لو لم يكن قد نزل بأحد ، وحيا موجها لهم هم ، وهذا وحده هو المهم !

– آه ، دلوقت بس إللى فهمت : موش أنت لوحدك إللى نبى ؛ كلكم أنبياء !

– كفاكم افتراء على الناس . على الأقل كفاكم من قرص الحور العين المشروخ البائخ ! هل تتخيل أن أصدقائى هؤلاء تعنيهم كثيرا تلك الجنة-الماخور التى يصفها القرآن ؟ ! هل تتخيل أنهم يصدقون أن الوظيفة الوحيدة المعروفة لله فى الجنة هى ترقيع أغشية البكارة ؟ ! أنت لسه برضه موش فاهم : أولا حجم الوعود ما هواش أخطر ما فى الموضوع ، الخطير أنها تكليفات سماوية . أنا عارف الناس دى ، وهم على عكس كل الناس ما هى فاهمة : غلابة !

– (مذهولا :) إللى عملوا مجزرة مديرية أمن أسيوط غلابة ؟ إللى قتلوا ١٨٠ ضابط وجندى غلابة ؟ إللى قطعوا رأس الظابط المسيحى القائد النوبتچى للمديرية فى يوم العيد ده ، موش بسيف ولا سكين ، إنما من غزارة الرصاص ، غلابة ؟ إللى بتقول عليهم أقوى من أى نبى ، غلابة ؟ !

– طبعا غلابة وغلابة جدا ! أنت ما تعرفهومش . كلنا نعرف الإخوان ، صح ؟ أنا نفسى طول عمرى أقابل مرشد الإخوان وأقول له لنتفق أولا أن فرصتكم فى الفوز فى أية مواجهة سواء فكرية أو حربية مع الحكومة أو مع الغرب أو حتى مع مسيحيى مصر أو مع أى أحد هى معدومة . ثانيا أنا لا أومن بالآلهة ، ولا أعتقد أنكم أنتم تؤمنون بها . محصلة هذا وذاك إن إيه رأيكم أننا سوا ننسى لعبة الدين خالص ونبتدى نلعب دنيا ؟ كل هالات القداسة انتهت ، اتضح أن كلنا ولاد تسعة ، وتعالوا نلعب فكر ضد فكر ، من غير ريش على رأس حد . لماذا لا نقدم أنفسنا مجتمعين للغرب كمستسلمين تابعين له ، كل همنا هو التعلم منه بأدب ، وبهذا ننفع أنفسنا وننفع شعوبنا ، بدلا من التمسك بأوهام دينية لن تذهب بنا إلا إلى الفناء ؟ أصحابى لا يمكن أن أقول لهم كلاما كهذا ؛ فهم ليسوا إخوانا وحياتهم ليست لعبة . إنهم يعيشون فى عذاب مقيم طوال الوقت ، لديهم تكليفات إلهية لا تعرف التفاوض أو التنازل أو الحلول الوسط . هؤلاء الجهاديون لا يستطيعون التنازل عنها حتى لو أرادوا . النمو ١١ ٪ النهارده ، مصر أعلى دولة نمو فى العالم ، تقدر تقول لى ليه فيه إرهاب أو فيه حرب فى الصعيد ، بل بالعكس ما كانش موجود ودلوقت رجع ؟ السبب أنهم شايفين الحكومة الكافرة بتقوى أكتر . من إمتى مثلا كان الشعب الفلسطينى أهم عند حماس من الدين ؟ يموت كله ولا يتنازلوش حرف واحد عن كلام ربنا . إذا كان هذا ينطبق على الإسلاميين الأى كلام الانتهازيين ، فما بالك بالمسلمين الحقيقيين الذين فرزوا الجوهر الحقيقى للإسلام وعرفوا الغث من الثمين فيه ؟



لو كان حديث مُحَمَّد عن رعبه من احتلامه بإحدى زوجات عمر تستحم عارية فى نهر صحيحا ، فتلك مصيبة ، ولو كان مكذوبا فالمصيبة أعظم !

الحقيقة أن كلام ونس عن زكريا بطرس ، أو حتى عن الإسلام عموما ، هو كلام يؤخذ منه ويرد . للحق ، ونس كان سباقا فى كل شىء تقريبا ؛ فى نظريته حول دنيوية الإسلام أو -حسب قوله- دناءة أهداف مؤسسيه وكذا أغلب التابعين وصولا للإخوان المسلمين ، فى احترامه لرفقة

طلبة كلية الهندسة جامعة أسيوط ولصدق عقيدتهم ، وفى توقعه لأشياء أبعد حتى مما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ . للحق أيضا ، لم يكن هناك أى شىء يمكن أن يثير استغرابه فيما يخص الإسلام . فى الثمانينيات قرأ كتب سيد القمنى ، ولم يجد فى ربطها المذهل بين رسالة مُحَمَّد وبين أطماع السياسة والثروة جديدا أو ما يثير اندهاشه . رغم ما فعلته هذه الكتب الصغيرة من زلزال جبار فى أوساط المثقفين المصريين ، إلا أنها لم تثر انطباعا يذكر لدى ونس . فى التسعينيات قرأ دائرة المعارف الإسلامية لدى صدور توضيبتها الثانية ، وكانت من أثمن ما عاد به من الكويت . تعرف من خلالها على أسماء عشرات المستشرقين ، واقتنع أنه لم ولن يوجد باحث مصرى أو عربى ، يمكن أن يلم يتعمق ويكشف أعماق الإسلام السرية ، بحيث يضاهى هؤلاء الجبابرة الأوروبيين العلمانيين من القرنين التاسع عشر والعشرين ممن يتميزون بتفانى وموضوعية ومنهج علمى من طرز نادرة ، لكن مع كل ذلك لم يعتبرها شيئا جديدا أو يمكن أن يثير فيه انطباعا كبيرا . مع انطواء الألفية قرأ ونس كتب خليل عبد الكريم ، ولم يجد فى تحليله لأتفه الأسباب التى نزلت أو عدلت بسببها سور القرآن ، أو فى ربطه بين رسالة مُحَمَّد وبين طفولته المسحوقة وحياته الجنسية المضطربة ما يثير اندهاشه ، لكن شيئا استوقفه بقوة وهزه من الأعماق ، فتح عينيه للحظة استنارة مذهلة وغير للأبد الطريقة التى يتعامل بها مع الإسلام : إنه أسلوبه المستخف الساخر فى التعامل مع كل ما هو مقدس !

لقد ذهبت أيام أسيوط الخوالى وتقريبا طواها النسيان . مرت السنون وعلى نحو عام لم يعد لونس ذات الإهتمام القديم بمسألة الدين ، إلا أن سؤالا لم يفارقه أبدا ، لسبب بسيط أنه لم يخرج بإجابة له أيام انغماسه الشديد تلك : إذا كانت كتب التفاسير والحديث والسيرة التى قصد بها أصلا التقديس ولا شىء إلا التقديس (بدليل أنه بمرور الوقت راحت تختلق معجزات صنعها مُحَمَّد من كل شكل ولون ، غير عابئة بأن القرآن نفسه نفى هذا صراحة ونهى عنه أكثر من مرة ، حتى معجزة القرآن قال إنها لا تخص بلاغته إنما تخص الصرفة [بكسر الصاد] ، أى أنها من صنع الله الذى صرف أنظار الناقدين عن عيوب القرآن اللغوية ، وتخيل أنت حجم المشكلة حين يكون الخالق نفسه أميا !) ، إذا كانت قد مررت لنا كل هذا الكم من الفضائح والجرائم والمخازى ، فماذا عساها تكون الصورة الحقيقية الأصلية لتلك العصبة من الأعراب الأفظاظ البدائيين الجهلة الذين غزوا العالم ونهبوه وفرضوا بداوتهم وقبحهم وجاهليتهم عليه ؟ الآن ، ها هو يجد أخيرا -ومن حيث لم ينتظر أو من حيث صرف النظر- باحثا محترفا ينفذ لأول مرة ما تعلمه هو من صحبه الأسيوطيين : أن يخترق ما بين السطور ، يقرأ روح الحدث التاريخى متجاوزا ظاهر النصوص المنمق ، إنما يغوص حتى يكاد يشم رائحة الشعور المشعثة لأولئك الذين صنعوا تلك الأحداث ، أو حسب عبارته فى مقدمة كتابه عن نشأة مُحَمَّد أنه ' يقرأ سيرة مُحَمَّد بعقل يقظ وعين مفتوحة وبصيرة ثاقبة ولب واعى ' .

ما من شك أن أغلب عمالقة المستشرقين حاولوا فعل هذا بامتداد قرنين كاملين ، لكن أكاديميتهم الحرفية كانت تقيدهم دائما ، كما لم يستشعروا يوما أنهم أطراف فى حرب ما . اختلف الأمر نوعيا مع الجيل الجديد من الوعاظ الأميركيين الذى تنامى بهدف التصدى لتصاعد حركات الإسلام العنيفة فى أوساط الأميركيين السود . يمكن القول بلا ريب إن كرة الجليد التى وصلت لما نراه فى العقد الحالى من حملات كاسحة شرسة من كل حدب وصوب على الإسلام ، قد بدأت تحديدا بالترجمة الإنجليزية لصحيح البخارى فى منتصف الثمانينات من القرن السابق . قبله كان عليك الرجوع لمخطوطات ، ليس هذا فقط بل باللاتينية غالبا ، ولم يكن مطبوعا سوى القرآن وسيرة بن إسحاق (العنوان الذى يراه المستشرقون أكثر علمية للكتاب المعروف عندنا باسم سيرة بن هشام) ، وهما -أى القرآن والسيرة- لا يغنيان ولا يسمنان من جوع لدى المقارنة بالثروة الهائلة -حجما ونوعية- التى وجدها أولئك فجأة بين أيديهم بطوفان أقوال مُحَمَّد التى أجلت كل غموض واقتضاب فى المرجعين السابقين . ترجمة البخارى أخرجت الدراسات الإسلامية من نطاق المستشرقين ممن يجيدون العربية بالضرورة ، بأن جعلتها متاحة لكل من شاء البحث . هؤلاء صدموا فى الأحاديث النبوية بما باتوا يسمونه بالتعاليم السرية للإسلام ، وكانت ذخرا ووقودا هائلا وناجحا جدا لحربهم لم يحلموا قط بمثله ، فأصبحوا الرعيل الأول المتسلح بالاطلاع الدقيق على الإسلام ، وأول من تحول فى التاريخ المسيحى (ثم العلمانى بعد قليل) من الدفاع للهجوم الفكرى الكاسح (وقطعا قبل يفعل هذا الأب زكريا بطرس بعقد ونصف على الأقل) . على أنه بسبب كون أولئك طرفا طوال الوقت فى مناظرات ومعارك فكرية مع مشايخ الغرب ، فقد كانت الأكاديمية الحرفية تقيدهم هم أيضا .

خليل عبد الكريم كان شيئا مختلفا عن الجميع (فى الواقع ربما رغما عنه فهو يصدر كتبا قد تقع تحت طائلة بطش المؤسسة الدينية الرسمية) . لقد نحت لنفسه طريقة لولبية فريدة وشهيرة فى الغمز واللمز لما وراء النص ، حول كل شىء بدءا من ' الهندسة والقلوظة والصنفرة ' التى قامت بها خديجة نحو طفلها فربيبها فبعلها فنبيها المأمول ، حتى أصغر واقعة فى السيرة المحمدية ، بحيث تفسح أمامها وأمامك مساحة واسعة للتخيل ، وهذا ما أعجب ونس فيه : أكاديمية رحبة حقة لا تفرض عليها كتب التقديس أطرا ولا خطوطا حمراء . على سبيل المثال كان ونس يقول لنفسه إذا كان

المشاخخ يتباهون بأن القرآن الكريه قد حفظ فى الصدور ، فنحن لدينا أشياء كثيرة أخرى حفظت فى الصدور ، وهى من حقها أن يكون لها ذات القدر من الأهمية عند التحليل العلمى . يضرب ونس أمثلة لتلك الروايات الفلكلورية زواج مُحَمَّد من تسع وتسعين (هذه بالذات نقلها عن أمه فى طفولته) ، مهانته إذلاله وعذابه على أيديهن جميعا ، سلبهن أمواله الطائلة أولا بأول حتى مات مدينا مقترضا بالربا ثمنا لحفنة شعير من يهودى كافر ، بل لم ينته الأمر عند هذا الحد بل سلبوا ابنته ما تركه لها من ميراث رمزى ، تعهده فى المقابل لكل أمهات المؤمنين هؤلاء -الأبرار القدوة- بعذاب مضاعف فى نار جهنم ، مفاخذته لعائشة فى سن السادسة ، نكاحها فى سن السادسة (خليل عبد الكريم قال فيها الثامنة ناعتا ضمنا بالتزوير رواية عائشة الرسمية التى تقول التاسعة ، وأنا أضيف أنه لم ترد فى كتب التاريخ واقعة واحدة للزواج من طفلة لم تحض ، لكن هذه الآية وضعت كى تلمح لأن نكاح عائشة هو من خصائص النبوة ، ولأنهم ناس واطية فاهمين أن نبيهم لازم يكون على رأسه ريشة وله حريم ضخم وعلى كل الألوان بما فيها المحرم ، علشان الدنيا تفهم أنه فوق البشر العاديين وتحترمه ، ومن هنا جاءت لديهم فكرة خصائص النبوة أو امتيازات ترف النبى) ، عهر عائشة واسع الخيال والذى فاق حواديت سراديب ألف ليلة وليلة السرية (التى على الأقل لم يكن بها رضاع الكبير سنة عائشة الأشهر ، والتى ما كان ليخصها أغلب الفقهاء بها دون غيرها من المسلمات ، إلا لعلمهم وإشفاقهم على جوعها الجنسى ، وفى كل الأحوال ليس احتراما للنص القرآنى ' يا أمة رضعت من ثديها الأمم ' ، أو لقول شيخ شهير ' رضاع الكبير وسام شرف على صدر كل مسلمة ' ، إنما فى الواقع حبا فى أغنية ' الطشت قال لى ' إللى غنتها لما خلعت هدومها خالص قدام كل أمة قريش علشان تشرح لهم النبى بيستحمى إزاى) ، علاقة مُحَمَّد المحارمية مع فاطمة ، نسبه المبتور ، لواط عمر وحناء دبره ، نفاق كل الصحابة بحيث لم يحدث أن آمن أحد قط بمحمد فى حياته بما فى هذا على بن أبى طالب ، وألف قصة وقصة مشابهة لم يقدر لها التدوين الرسمى يوما ، أو دونت لكن نعتت بالضعف أو الجرح أو الدس ، إلا أنها فى كل الأحوال تعد فى عرف العامة فى أعلى درجات الصحة ألا وهى التواتر ، أو حسب تعبيره : ' إذا كان الحديث الصحيح قد أجمع عليه حفنة فقهاء مزورين (أى من يعترف منهجهم بالروايات المسندة فقط لرواة عدول ، وتعريف الروى العدل ليس الذى ينقل الحقيقة وبدقة ، إنما الشخص المؤمن إيمانا أعمى بالدين ، والمنتمى بالضرورة للشلة الضيقة جدا من سدنة الإسلام الأوائل) ؛ فإن الحديث المكذوب (ودقتها أحد أمرين : المنكر أى الصحيح لكن أنكره كهنة التقديس هؤلاء ، أو المدسوس وهو بالفعل من تأليف جمهور الناس) ، هو على العكس : ١- رواية قطعية الثبوت (عن لسان ملايين الناس) ، ٢- قطعية الدلالة (لما يريدون نقله من معلومات وآراء واضحة المعنى شاهدوها بأعينهم ، لكن يخشون التصريح المباشر بها خوفا من بطش كهنة المعبد فنسبوها للنبى) ، ٣- بل هو أقوى بكثير ، لأنها الإجماع عينه ، لأن ألف مليون إنسان قد اتفقوا عليه ، وكتبوا له الخلود رغم أنف كل ترزية الدين (الذين من المذهل -أو بالأحرى من الطبيعى- أن ينكروا مثلا سيرة ابن إسحاق ويتهمونه بالتدليس ، رغم أنها أقدم كتاب فى الإسلام ومن الطبيعى أن تكون أصحها وأدقها وأكثرها بكارة وعذرية وصدقا ، قبل أن يدشنوا مفرمة التزوير العملاقة لهم ، والتى لا تقارن بتلك المفرمة الصغيرة التى أقامها عثمان لنسخ القرآن) ! ' .

دائما ما يلقى ونس بهذا العبء على كاهل الجامعات أو مؤسسة الثقافة الجماهيرية ، أن تجمع هذه الحواديت وتطبعها كما جمعت وطبعت السيرة الهلالية ومثيلاتها ، ويضيف لها آلاف أخرى من العبارات الدارجة التى تستحق تعقب جذورها مثل أنه يريد أن يعرف مثلا لماذا يعبر الشعب المصرى عن الانبهار بنداء ' يا دين النبى ! ' أو ' وحياة إللى نبى النبى نبى ' (خديجة ، ورقة ، عمر ؟ لا نعلم قصدهم على وجه الدقة) أو ' يا عدوى ! ' ، هل كلها استكثارا على مُحَمَّد وعمر ما فعلا أم ماذا ؟ ! أو لماذا ينادى الصوفية ' الإله حى ! ' —دونا عن كل صفات الرب الأخرى— آلاف المرات بلا انقطاع مع علمهم اعتياد المصريين جميعا الدعاء أو التشفع أو القسم بـ ' المسيح الحى ! ' ، أليس هذا تمردا مبطنا منهم يستغلون فيه اعتراف الكرهان المبكر الساذج بعقيدة ألوهية المسيح ، ذلك لإغاظة ابن صهاك وجحافله بأنهم ليسوا الدين الصحيح أو على الأقل ليسوا دينا جديدا أو لعلهم ليسوا دينا أصلا ؟ ! أو لماذا السخرية من الحج فى ' التعلب فات فات ' ، ولماذا الثعلب بالذات ؟ ! أو لماذا تذكير مُحَمَّد طوال الوقت —باستخدام تقانة الجناس اللفظى عينها— باسمه الأصلى ' قثم ' الذى حاول محوه من ذاكرة الناس ، ليس فقط بمجرد تذكير حيادى أو ضمنى إنما بجعله لفظة سباب شديدة التهجم والقبح والعدائية بعضو الأم . أو كلمة كذا ' والسلام ' التى تقال دليلا على الاستهتار وعدم الجدية ، هل لأنها الكلمة التقليدية التى كان ينهى حمودة بها خطابات كلها على العكس تهديد ووعيد لزعماء القبائل أو الأمم المجاورة ، وقد اختار الشعب المصرى كلمة السلام بالذات لأنه آخر شىء إطلاقا يمكن للعرب أن يقصدوا أو يصدقوا إياه أو فيه ؟ ! أو ماذا عن تسمية الشباشب بالذات بخدوجة وزنوبة وغيرهما من أمهات المؤمنين ؟ ! أو ماذا عن اسمى حسنين ومُحَمَّدين اللذين لا يوجدان سوى فى مصر ، فإذا كانت حسنين مفهومة حبا فى المسكينين —حسب الزعم الشائع— اللذين ذبحا ، فمن هما المحمدين ، هل مُحَمَّد المكى ومُحَمَّد اليثربى أم من بالضبط ؟ ! أو ما معنى

تشبيه الكلام العبثى بسور القرآن ' سورة عبث ' أو ' عبس ' ؟ أو ما معنى المداعبة والامتداح بـ ' ابن الذين ' و' بنت الذين ' ؟ أليست من ' الذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ' ، تلميحا لأن المصريين سادة شرفاء والعرب أولاد ' أو ' البديلة ؟ [وصحة النص هن ولفروجهن ، وهى أحد أمثلة الترخص اللغوى للكرهان الكريه] . ' الذين ' فقط بدون ابن أو بنت ، يمكن أخذها على محمل السخرية من النصوص المقدسة نفسها ، وأشهرها النص الذى يصنف البشر لثلاثة أنواع : المغضوب عليهم والضالين و' الذين ' ، أو يمكن أخذها على محمل السخرية من لغتهم الفصحى فى حد ذاتها التى هيهات أن يستعملها المصريون ولو حتى فى مساء يوم القيامة ، ومنها هذه الكلمة الغريبة على اللسان المصرى العامى ، وبالتالى فهى تستخدم للإشارة للعرب . أو —وهم الأكثر جدية وخطرا من كل هذا— لماذا اشتقوا كلمة عدوى السالفة [بفتح الدال] من ذات حروف كلمة عدوى [بضم الدال] ، أو من كلمة معتدى ، أليس تذكيرا ذكيا وغير مباشر لابن العاهرة متعددة الأغراض ولكل من جاء بعده بتلكما الحقيقتين —العداء والاعتداء— طوال الوقت ؛ أو لماذا تستخدم السيدات المصريات الشعبيات اسم ابن المتعددة بالذات اسما رمزيا للردح والمواقف العدائية بالقول مثلا ' يا عوووووومر ! ' أو ' يا سى عوووووومر ! ' ، وليس مثلا ' يا حسن ' أو ' يا مرقص ' أو ' يا كوهين ' أو يا ' خريستو ' ، أليس هذا لأن الحس الشعبى المصرى أدرك من اللحظة أن ما يدور حوله الإسلام هو ابن صهاك النهاب السلاب وليس أى شىء أو أحد آخر ، والذى لا يقوى عليه ربما إلا ردح نساء قثم الفاجرات ؟ ! أو لماذا يهزأون بالعربخانة الشهيرة باسم جنة الإسلام بتسمية أنهارها ' سمك لبن تمر هندى ' ، ويستخدمونها كالرمز الأقصى لأى شىء هو ميغة أو فوضى عارمة ؛ أو بالأحرى لماذا يسمون أصلا بيوت الدعارة عربخانة ؟ أو لماذا يقول المصريون ' اعمل عيشة ' أو ' بهايم يا رسول اللات ' ؛ هل لأنه جعل النساء بهائم فقط تركب وتنكح وهو ما لم يعرفوه من قبل ، أم لأنه هو نفسه بهيمة ؟ أو هناك الترهيب من مصر ، فيفترض أن نبى الصهاك قال ذات مرة ' إن مصر ستفتح فانتجعوا خيرها ولا تتخذوها دارا فإنه يساق إليها أقل الناس أعمارا ' ، ويفترض أن الحجاج أعتى عتاة العرب قال ناصحا ولاة مصر (ومصر تعنى السور أو المحروسة بحورس) : ' اتق فيهم ثلاثا : نساءهم فلا تقربهم بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها ، أرضهم وإلا حاربتك صخور جبالهم ، دينهم وإلا أحرقوا عليك دنياك ! ' ، ولا يأبه ونس كثيرا لهل هذه المقولات حقيقية أم لا ، ولا يهم حتى إن كان مخترعها العرب كى يبرروا رعبهم أو اخترعها المصريون لإرعابهم ، فالمهم —والمهم فقط— أنها تقال !

أو يسأل ونس هل يمكن لأحد أن يأكل كسرة خبز استخرجت من بئر صرف صحى لأن مستخرجها أكد له أنها كسرة خبز وليست قاذورات ؟ يضرب هذا تشبيها بمليون رواية أغلبها يوصف بالمكذوب ، وجاء البخارى لينتقى ألفين أو ثلاثة منها ويقول إنها طعام طيب والبقية خبائث أو نحوها . عندما تستخرج هذه المئات المحدودة فهى موصومة بالضرورة بحكم المحيط الجارف الذى جاءت منه . فلقونا بكلمة السند والعنعنة . السند قاله آخر شخص والكل كان قد مات ولا تثبت قولهم مخطوطة أو غيره . البخارى كله لا قيمة له . الجرح والتعديل والأسانيد كلها كهانة كهان التقديس ولا تقوم دليلا علميا بمليم . الأخبار الضعيفة أقوى مليون مرة من أحاديثكم القوية لأن الشعب موش الشيوخ المرتزقة هم من حفظها . ثم هل لو كان للأصل مهابة وقدسية حقيقية لكان قد جرؤ أحد على التدليس عليه ؟ ثم هل ببساطة هذا دين يهدى أم أحاجى وألغاز تحير وتدير الدماغ ؟

إلا أنه -أى ونس- يرى فى نفس الوقت أن جميع ملايين الروايات والأخبار حقائق بمعايير التراث الشعبى حتى لو مكذوبة كوقائع تاريخية ، ويرى الحل فى معاملتها جميعا كما يعامل أى حكى فلكلورى فى الدنيا ، فتعتبر مبحثا من مباحث علم الأنثروبولوچيا الثقافية ، ويتم إخضاعها للأدوات العلمية لدراسة ثقافات الشعوب والتنقيب عن مدلولاتها ... إلخ . يصيغ الفكرة ببساطة فى سؤال : هل جاءت تلك الروايات من الهواء أم نطق بها بشر ؟ إذن هى مادة يجب أن تخضع للتحليل العلمى ، لا أن تهمل بجرة قلم كأن لم تكن ، كما يحاول المشاخخ . هو يبرهن على أهمية تلك الدراسة بأنه مثلا لو كان حديث مُحَمَّد عن رعبه من احتلامه بإحدى زوجات عمر تستحم عارية فى نهر صحيحا ، فتلك مصيبة ، ولو كان مكذوبا فالمصيبة أعظم ! هذا يرفع قيمة الرواية للسماء مليون ضعف ، لأنها لم تعد مجرد حديث لمحمد عن ورعه أو شهواته أو حتى توهمه لولهة أنه صار الملك داود الثانى ، إنما قرينة هائلة على نظرة جمهور الناس الواسع للعلاقة غير المفهومة بين رجلين يعرفون فارق العزم بينهما بينما يتصدر الضعيف الصورة . عامة يرى ونس أن أى حديث يوصف بالمكذوب هو أرجح بمراحل أن يكون قد ورد على لسان مُحَمَّد من أى حديث يوصف بالصحيح ، ذلك أن المؤكد فى كل هذه الأخيرة أن فعل بها كهنة التقديس كل الأفاعيل الممكنة ، فيوم دونوا الأحاديث كانوا كمن يريد اليوم كتابة تاريخ ناپوليون فى مصر بناء على النقل الشفاهى وحده ، بل وتحديدا منه النقل عن ألسنة مشاخخ الأزهر بالذات . هكذا دواليك لأى حديث أو خبر ضعيف أو مدسوس ، إذ يصبح أهم بما لا يقاس من كل الأحاديث والأخبار الصحيحة مجتمعة ، لا يفرق كثيرا إن كان فى حقيقته صحيحا

أم منحولا ، فمن منظور الفلكلور كل الأحايث صحيحة . علينا طوال الوقت قراءة الأمر برمته بعين خارجية محايدة وفى نفس الوقت متحررة متغلغلة لما بين السطور ، فيسهل لنا حينئذ فهم طبيعة الإسلام الحقيقية ودوافع البيئة التى أفرزته ومنظورات الشعوب الأخرى التى اقتحمها له ، هكذا يلخص ونس دفوعاته .



رسول إمعة ... إمعة ، إمعة ، بس يعيش !

على أية حال لقد فرض ١١ سبتمبر الإسلام على الأجندة العقلية للعالم كله ، وليس على ونس وحده ، فعاد من ثم للاهتمام المكثف بالموضوع (بالذات بسبب نظرة من حوله له كخبير بالشأن الإسلامى ، وللحق ما هو كذلك ولا يهمه أن يكون كذلك ، ظلوا يستشيرونه فيه كلما وقعت هجمة من هجمات جماعات مصر التسعينيات ، والآن فى ٢٠٠١ أصبح فجأة قبلتهم الكبرى والوحيدة) ؛ إلا أنه فيما يخص ظاهرة زكريا بطرس التى داهمت الجميع بعيد سنوات قليلة ، فإنه -طبقا لمفاهيم ونس تلك- محق فى انتقاده له بأنه يلتزم أكثر مما يجب بحرفيات الأثر الإسلامى ، وأن ها قد حان الوقت لقراءة روح الإسلام لا التوقف الدقيق عند النصوص كما يفعل هذا الكاهن الذى يحرص على ألا يتخطى ذلك الخط الأحمر أبدا . لم تنل تقديره أبدا مقولة الكاهن التليفزيونى المصرى الذى اتخذ من بلدان أوروبا قاعدة له (وليس بالضرورة قبرص كما ابتدع عليه ونس تلك التسمية) ، المقولة التى لا يكف لحظة عن ترديدها ' أنا لا آتى بشىء من عندى ' ، ورآها شيئا محبطا يقلل من أهمية برامج زكريا بطرس بدلا من أن يزيدها أثرا ، كما رأى فيها تهاونا فى وظيفة الباحث الذى يجب أن يخرج علينا باستنتاجاته الشخصية . ونس كان محقا فى أن القراءة التى تتجاوز حرفية النصوص يمكن أن تصل بالمرء لأشياء مذهلة ، أقلها صورة الشخص الإمعة الدمية التى رسمها فى عقله لنبى هذه الأمة وقائدها ، هذه التى استقاها من منظر رآه يوما لدرويش نحيل كهل ذى لحية بيضاء طويلة مدببة وضحكة بلهاء متواصلة ضخمة ، يحمله أتباعه على أكتافهم ويبالغون فى الحديث عن شفاعاته ومعجزاته ، بينما هو لا شىء بالمرة لا ينطق ولا يقول شيئا وربما ذهب عقله ، تلك كلها فقط من أجل الارتزاق باسمه على بسطاء الناس . فى كل هذا كان ونس يتبنى بذات النمطية المنظور الفلكلورى لأولياء الله لدى بسطاء الناس : رسول إمعة ؟ ! ... إمعة ، إمعة ، بس يعيش ! بل لم يكن يغيظه كثيرا تأليه الصوفية المصرية لابن آمنة رغم علمهم بأن كل العرب قطاع طرق لا أكثر ، والسبب أنهم بهذا تحايلوا على الغزو العربى بأن جعلوا الدين الشيطانى الدخيل نسخة أقرب ما تكون للمفاهيم الروحية المصرية وإن بأسماء أشخاص جدد ، ناهيك عن أن الإسلام الحقيقى كما أراد له صانعوه الأصليون أن يكون ، هو الذى فى الواقع يغيظه بشدة تأليه أى أحد من دون الله الذى هو عمر ، ويسمون أولئك الصوفية بأهل البدع ويكفرونهم !

واقعة مهمة يدلل بها ونس على واقعة مهمة تدل على ' استعباط ' الناس لمحمد هى الفعلة الطريفة للشخص المعروف باسم أبى بهيسة . مواقف سخرية قريش واليهود بل والصحابة المسلمين أنفسهم من مُحَمَّد لا تعد ولا تحصى ، لكن هذا الصحابى الجليل بالذات ، أراد شيئا خاصا جدا ، هو أن ينكح مُحَمَّدا فى مؤخرته على مرأى من جميع الناس . ذهب إليه وأدخل نفسه تحت قميصه وراح يحك نفسه فيه من الخلف . إلى هنا والموقف عادى فكل الصحابة يسخرون من الأفاق قثم مدعى النبوة يوميا بهذه الطريقة ، موحين أنهم يصدقون إنه نبى وأن حك أجسادهم به يدخلهم الجنة حسب وعده الحق . الذكى الطريف الذى تفرد فيه أبو بهيسة هو السؤال الذى طرحه فى هذه اللحظة شديدة الخصوصية ، وما هو إلا سؤال شرعى دارج للغاية : ما الذى لا يحل منعه يا رسول الله ؟ وبصفة مُحَمَّد رسولا من إله السماء الذى لا يراه أحد ، كان ملزما أن يجيب الإجابة التى طبعا كان يعرفها سلفا أبو بهيسة بل وكل جمهور النظارة ، وهى الماء . وهكذا استطاع الرجل استنكاح مُحَمَّد منزلا المنى فى مؤخرته أمام كل أمة لا إله إلا اللات !

ليس آخر تلك المكتشفات توصل ونس لأن مُحَمَّدا ذاك كان مصابا بمرض الزهرى الذى ربما انتقل إليه من إحدى تلك العاهرات اللائى كان يتسلل لهن من خلف ظهر خديجة التى لم تشبع فضول شبابه تجاه جسد المرأة ، أو اللائى راح لاحقا يأمر جنوده ونفسه بالاستمتاع بهن مكافأة على غربة الجهاد (= الحرابة الشرعية) ، وأنه وصل لمرحلة متقدمة من ذلك المرض (الواضح أن الطب الشرقى احتار فيه فلم يداوه أو حتى يذكره ، ومن هنا جاء اعتبار العموم له سحرا أو جنونا أو على الأقل سلسلة متتابعة من الأمراض المستقلة لا رابط بينها) ، أذهبته عقله (البخارى وحده به عشرات الروايات عن واقعات سها فيها مُحَمَّد عن أشياء مهمات بما فيها أصول الدين ، وربما هذا تفسير آخر لندرة الوحى تدريجيا فتوقفه نهائيا بعد قليل) ، سمحت للقرآن أن يقرأ على سبعة أحرف تساهلا مع ذاكرته الضائعة ، فاقمت عجزه الجنسى المزمن منذ شبابه ،

وأصابته بالهلاوس فراح يتخيل مثلا أنه يعاشر زوجاته دون أن يفعل ، بل وكثيرا ما أنسته ما يقول إنه قد أوحى له ، ورفعت النسيان إلى مرتبة أهم خصيصة من خصائص النبوة إطلاقا ، فكان السر وراء ملايين التناقضات التى أعيت الفقهاء فى ترقيعها ، ووراء أغلب الفاسخ والمفسوخ وهلم جرا ، وهو -أى الزهرى- الذى وضع من ثم مُحَمَّدا فى آلاف المواقف المحرجة ، لولا أن عمرا وعائشة كانا هناك طوال الوقت يضبطان الصورة ويداريان الأمور ويستردان الهيبة ويلقيان التهمة زورا على السحر والشياطين الأشرار (ليس تماما والدليل أنهم شهدوا رسميا بتوقعهم منه أن يهذى يوم حجة الوداع ، استثناء من محاولتهم الدءوب تصوير أمر ذهاب عقله على أنه استغرق عاما وانقضى) ، أو يفسر لماذا بطش به عمر بمنتهى المهانة على فراش موته ومنع دخول أحد إليه خشية أن يعترف فى لحظة مواجهة الموت أنه باع الدين إليه مجانا ، وطبعا يفسر لماذا تزوج العشرات ولم يدخل بهن وحرم على منكوحاته (والأصح ناكحاته) الزواج منه بعده ، ذلك أن عنته هى سر حربى أعظم يجب أن يظل محصورا تحت حراسة مشددة فى أضيق نطاق ممكن (the most closely guarded secret of all times -أو للدقة هو نفسه أفشاه ذات مرة فى قول غير ذائع جدا ، حين اعترف أنه ' يكسل ' [بسكون الكاف وفتح السين ، من الكسل] ، وتعنى عدم إتمام الممارسة الجنسية) . كان الكل يعرف أنه عنين وباعترافه ، فما هو الحل ؟ اخترع قصة أكلة لحم اسمها الكفيت هبطت بصحبة التنزيل العزيز من السماء (والمقصود على الأرجح كفتة محشوة بالشطة تأتى من سوريا أو من أى داهية ، والأرجح منه أنها لم تأت قط ، إنما فقط سمع بمفعولها السحرى المزعوم ، والأرجح وأرجح أنها فكرة أمره بها ملاكه الحارس مهندس الكون ابن الحطاب والحطابة) . كان المهم أن تخلق من العدم أسطورة عن الفحولة ، بعدها تسهل المشكلة ويصبح كل المطلوب قطع أى لسان يحاول التشكيك فيها . نكح النساء له ولكرامته ولأمواله يفسر أيضا قصة اقتراض حفنة شعير بالربا دليل مذلته القصوى فى أواخر سنينه ، بملاحظة أنه رجل كان الله قد أحل له أخذ الطعام والشراب مجانا من أى أحد حتى لو كان فى هذا هلاك الأخير ، ثم أخيرا مات بالطبع بسبب ذلك الزهرى (مرض جنسى الانتقال آخر -السيلان- هو الذى يقف وراء تبوله الدائم على نفسه ، الأمر الذى يظهر فى وسواسه الهائل نحو البول الذى ترجم فى إناء دائم الاستقرار تحت فراشه ، وفى آلاف الأحاديث عن التنجس بالبول وهجوم الشياطين بالبول وعذاب القبر بالبول والتداوى بالبول والتبرك بالبول ودخول الجنة بالبول ... إلخ ، وفى التدقيق الشديد مع محيطيه فيما يخص التطهر من البول وإدمانه هو للتعطر لمداراة رائحته -وطبعا دع جانبا رائحة ما يتبقى بعد مسح كائن فقارى مؤخرته بثلاث حجرات فهى قصة أخرى ، كلها معا كنوع من الدفع الإسقاطى عن الذات ، بل وفى قتل كل من يشير لبقع ثيابه دونما حتى فرصة للاستتابة) .

لم يكن ونس واثقا جدا من نظرياته فاحشة الغرابة هذه عن نبى الإسلام ، لذا حزن حزنا هائلا يوم سمع خبر رحيل الشيخ خليل عبد الكريم . كان ينتظر بلهفة بالغة كتابه التالى ، إما ليؤصل له نظرياته هذه تأصيلا علميا موثوقا ، وإما لينفيها ويريحه منها ؛ وفى كلتا الحالتين كان قد عقد العزم على أن يقبل أى شىء يتوصل له باحثه العبقرى الكهل المرح المنتعش دوما هذا !

هذه وتلك هى الأشياء التى يمكن أن تؤخذ من ونس ، أما ما يرد منه فهو على الأقل كلامه السلبى عن الأب بطرس . ربما أحيانا لا يبدو زكريا بطرس بذات العمق البحثى ولا بخطورة الاستنتاجات كما خليل عبد الكريم مثلا ، بل وربما يمكنك حسم الأمر برمته بالقول إن الفضل الأول والأخير فى تفكيك أختام القداسة عن الإسلام سيظل للأبد حقا لكبار المستشرقين ، الذين لولاهم لاندثرت غالبا من الأصل كل مخطوطاته بما فيها أحاديث البخارى وسير ابن هشام وما تبقى سوى القرآن الذى يحفظ شفاها فى الكتاتيب نصا مجردا ، معلقا فى الهواء بلا تفاسير ولا أسباب نزول ؛ لكن يظل ثمة فارقا هائلا بين الأمرين لم يلحظه ونس أبدا فى حالة ذلك الكاهن ' الذى جاء للحرب متأخرا ' حسب رأيه . لقد قرأ كل المثقفين تلك الكتب العلمانية المذكورة مثلما قرأها ونس . كانت كتابات قوية جدا فى نظرهم ، لكن الشعور الغالب عليهم كان هو نفس شعوره بالضبط -المزيد من الحسرة لغلبة ما يسمونه طاغوت الغيب والخرافة على عقول أبناء هذه البلاد- إلا أن رد فعلهم على ظهور بطرس كان مختلفا عن شعور ونس المتعجرف هذا . فى حلقاته الأسبوعية المسلسلة من ٢١-٦٠ من برنامجه التليڤزيونى الأول والأشهر ، قدم الرجل ما بين خريف سنة ٢٠٠٣ وصيف ٢٠٠٤ موسوعة نقدية كاملة عن الإسلام ، كانت بمثابة إسهام عمره العلمى الرئيس ، تتجاوز جهد أى فرد واحد من هؤلاء السابقين ، حتى وإن استقت كثيرا من إنجازاتهم بطبيعة الحال . هذا جهد يقول عنه هو نفسه إنه يستغرق منه ١٨ ساعة يوميا ، وهو شىء يحظى عادة باحترام المثقفين الجادين المنتجين ممن يعرفون المشقة الحقيقية للبحوث الجدية ، ذلك بالذات حين يصدر عن كهل فى السبعين . يزيد على هذا أنه جهد تليڤزيونى ، أى مادة تحقق انتشارا واسعا يحسدونه هم عليه ، وهم المحرومون من مثله ، وهذا التطور التقنى فى تليڤزيون الساتيلايت وفى الإنترنيت ، كفيل وحده بإجهاض فكرة أن أولئك جاءوا للحرب متأخرين . كان شعورهم هو أن شيئا جديدا مختلفا يحدث هذه المرة : إن هذا الرجل ينجح فيما فشل فيه كل طابور التنويريين العلمانيين ذوى الخلفية المسلمة فى نحو قرن كامل . لقد أحسوا بهواء طازج يدخل لرئاهم لأول

مرة ، يشعرهم أن ذلك الواقع الجسيم يمكن له أخيرا أن يتغير ، وأنهم ربما كانوا الجيل المحظوظ الذى سوف يشهد ذلك الشىء الذى طال انتظاره ١٤ قرنا . نعم ، بالطبع كانوا يتحفظون أو يتندرون أو حتى يستنكرون مفارقة أن من يفعل هذا هو رجل دين ، وليس علمانيا مثلهم ، إلا أنهم شعروا لأول مرة أن حلم تحطيم المقدسات الموهومة يمكن له أخيرا أن يتجاوز جلسات المثقفين على مقاهى وسط القاهرة ، كى يتجسد تغييرا حقيقيا على أرض الواقع .

بل الحقيقة -فيما يخص الأكاديمية الحرفية والتى اشتهر الأب بطرس بالالتزام الصارم بها ويدينه ونس بسببها- أن كان أول من أطاح بها ذات مرة على نحو ساحق ، وذلك فى أمر محدد ألا وهو نسب مُحَمَّد . فقد راح ينقب وراء ما يشاع عن نسب مُحَمَّد المبتور ، وخطر بباله مقارنة بعض التواريخ ، ليكتشف أن مُحَمَّدا ولد بعد موت عبد الله أبيه المفترض بأربع سنوات . لم يقف عند هذا الحد بل راح يربطه بكتاب عبد الكريم الأخير ، وبحقيقة أن بحيرة الراهب كان أول من نطق بنبوءة مُحَمَّد وهو بعد طفلا ، وهو الذى زكاه رضيعا لخديجة زوجا ، أى قبل أن يقع الزواج بعشرين أو واحد وعشرين سنة كاملة ، وخرج -أى بطرس- للاستنتاج بأن بحيرة هو الأب الجسدى لمحمد . على أنه كما هو واضح فالاستنتاج غير قطعى وغير قوى (أو ربما ننتظر من أبطال روايتنا هذه أن يمحصوه بعض الشىء !) .

... هذا هو الفارق بين الفعل العملى والتأثير الواقعى وبين مجرد العلم والمعرفة ؛ الفارق الذى لم يفهمه ونس أبدا !



تفتكروا مين أول من أحل دمه علنا فى الإسلام ؟

يستشعر ونس قدر الوجوم الذى سببه كلامه على وجوه الجميع ، ففكر أن يلطفه بشىء طريف ، وإن كان من المشكوك فيه أنه أدى هذا العرض فعلا . يداعب الحاج : ' إيه الحكاية ؟ عملت واحد المسيح-الضد ، إنما أظن ما فيش حاجة اسمها مُحَمَّد-الضد ؟ ! هأ ! هأ ! هأ ! ' . لم يضحك أحد ، فجرب شيئا آخر : ' عارفين مُحَمَّد اتجوز كام واحدة ؟ غلط ! نسيتم عروسة المولد إللى كل سنة تبعتها له مصر . هو ده التنين إللى ما قدرش عليه مار جرجس بتاعكم ، ولأنكم عارفين مزاجه فى النسوان بقيتوا تتقوا شره بواحدة بكر كل سنة . آه ، يا بلد ! ' . ثم جرب شيئا ثالثا أقل هزلا : ' ها أقول لكم حاجة ظريفة بمناسبة القتل ، تفتكروا مين أول من أحل دمه علنا فى الإسلام ؟ ' .

– أيوه القتل كتير . قصدك مين ؟ النقراشى ؟ الشيخ الدهبى ؟

– كل دى اغتيالات . جماعات سرية أو أفراد تنفذ القتل وبعدين تقول السبب . أنا قصدى إصدار فتوى علنية سلفا ، معروف صاحبها بالاسم ، بإحلال الدم ، ثم ترك عموم المسلمين تنفذ .

توالت إجابات الحاضرين : أنور السادات ؟ سلمان رشدى ؟ نجيب محفوظ ؟ فرج فودة ؟ نصر حامد أبو زيد ؟ سيد القمنى ؟ مين ؟

– أول واحد أحل دمه علنا فى الإسلام ، كان واحد قبل كل دول . واحد حبيبى الروح بالروح ، وحبيب كل طلبة ميكانيكا أسيوط . الدكتور أبو بكر الصعيدى . كان تخين زيى كده بس أبيضانى أوى ، حبوب ومرح وروحه ما فيش بعد كده ، وكان زبون لأغلب الرحلات إللى بأعملها ، الوحيد إللى موش طالب إللى كان بييجى معانا ، ولغاية النهارده أنا محتفظ بصورة له وإحنا بنجدف سوا فى مركب فى النيل . إللى مسميهم أنت عيال هايفة قالوا عليه كافر ، وأحلوا دمه . هو علمانى فعلا ، وكان نجم المناظرات الشهرية العلنية المشهورة فى مدرج سنة رابعة فى قسم الهندسة الميكانية إللى كان بييجيها أساتذة وطلبة من كل الكليات ، وكان أشهر من يدافع عن فكرة أن الله غير موجود . على أيامنا ما كانش فيه مشكلة فى إللى بيسموه كفر ، على الأقل ٣/٤ الناس -طلبة وأساتذة- كانوا كده ، لكن المشكلة إللى اختاروه علشانها هى أنه كان رمز وكان محبوب جدا من كل الناس . الراجل رغم أنه كان على وش أستاذ ، يعنى تخطى سن الشباب بكتير ، اضطر يهاجر أميركا ، وساعتها لا كان فيه حاجة اسمها أسامة بن لادن ، ولا حتى الثورة الإيرانية . (ويردف ضاحكا :) يعنى أول من استحل دمه كان صاحبى ، وأول من اخترعوا فتاوى استحلال الدم كانوا أصحابى برضه !

– (دون غيره ، يجاوبه أسد ضحكته :) بصراحة يا أستاذ ونس أنت نكتة جامدة بجد ؟

– أنتم موش عاوزين تفهموا ليه ؟ قلت لكم ده بازار ، زى ما مر علينا ماركس وسارتر ، مر علينا دول . بازار ، وأنا كان إللى يهمنى فيه أكل العيش ، أنظم رحلات ، أطبع مذكرات ، أبيع هدوم من پور سعيد بالتقسيط . كنت حبيب الكل . كنت رئيس اتحاد الطلبة لما كان بينظم

حفلات ديسكو ، ورئيسه لما كان بيكسر حفلات الديسكو ؛ رئيسه لما كان بيعمل مظاهرات شيوعية ، ورئيسه لما كان بيكسح رجلين الشيوعيين . أظن ما فيش صراحة أكتر من كده ؟

ويعود ضهرى : انتهازى يعنى ؟

– الله يسامحك !

– أنت تعرف ربنا أنت ؟ !

– (ولوهلة عاد لسخريته المعتادة :) هو يسارى موش عاجبكم ، إرهابى موش عاجبكم ، أكل عيش موش عاجبكم ؟ نعمل إيه ، حيرتونا معاكم ؟ ! أنا لست انتهازيا ، إنما بصراحة فقدت إيمانى باليسار حين ضاعت آمالى العريضة فيه ، عندما رأيته يتساقط كالدجاج الدائخ أمام الإسلاميين . أنا لى قاعدة بسيطة جدا فى رسم الخط الفاصل بين الخير والشر : الدعوة أو ما يسمى فى المسيحية بالتبشير ؛ لو راقبت مراحلها جيدا ستكتشف أنها نسخة طبق الأصل من تجنيد العاهرات الصغيرات ، الكل يتزلف للفتاة ويحتفل بها ، وبعد أن تقع يبدأ الجميع فى استعبادها وإذلالها . من يريد دعوتى لدينه مسيحيا كان أو مسلما هو شرير فى نظرى . أنا أعتبر الدعوة مرضا نفسيا ، لأن معناها أن الشخص غير واثق من إيمانه ، ويريد اختباره بمناقشة الآخرين فيه طوال الوقت . بالنسبة لى ، فقط من يعتز بدينه لنفسه ، هو الإنسان الخير .

أما ضهرى فلا يزال بعد محتدا : ‘ أنت ؟ بتتكلم عن الخير والشر ؟ أنت ما فيش أى حل ينفع معاك . عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟ ها أجيب وابور زلط وأسوى لك المطبات الكبيرة إللى جوه دماغك إللى عاملة زى قدرة الفول دى ! ’ .

بالفعل نجحت منى -غالبا دون أن تقصد- فى تحويل الموقف محتدم التوتر إلى جو الفكاهة . ضهرى -بالتأكيد دون أن يقصد- حول الحوار للمزاح حول رأس ونس الأصلع الضخم . أما روميو الذى كان قد حاول عبثا من قبل إعادتهم لمتابعة أسعار الأسهم ، فقد جرب هذه المرة أن ينهى الحوار بطريقة أفضل : بص أنت وهو وهى : أحسن حل لحكاية المسيحيين والمسلمين هى النكت !

ويضحك إدوارد ناهضا وكأنه بدوره يأمر بإغلاق حوار كهذا لم يكن من الواجب أن يدور أصلا فى شركته : فعلا ، زمان كان الواحد منا يخترع نكتة على القسيس ويروح يقولها لصاحبه المسلم ، يلقاه اخترع نكتة على الشيخ وجاى يحكيها له !

ويعلق روميو بمباهاة : ‘ أنا صاحب نص النكت إللى على المشاخخ فى البلد دى ! واحدة ست راحت للسيدة زينب صلت لها ودفعت جنيه وقالت يا ست نجحى الواد ابنى . بعدين راحت الحسين ودفعت جنيه وقال يا حسين نجح الواد ابنى . وبعدين راحت للسيد البدوى ودفعت جنيه وقالت يا بدوى نجح الواد ابنى . الواد سقط . راحت للشيخ وسألته إزاى ده حصل . قال لها أنتى عبيطة يا ست أنتى ؟ حد يعمل كده ؟ آدى كل واحد أخد الجنيه واتكل على الاتنين التانيين وما عملش حاجة . فيه نكتة زيها بالضبط على العدرا مريم ومار جرجس والملاك ميخائيل . النكتة الكبيرة إللى فضلنا نضحك عليها أسبوع كامل ، لا دى ولا دى . إنما أن يوم ما اخترعت النكتة الأولى ورحت أحكيها لإدوارد ، لقيته كان اخترع التانية وجاى يحكيها لى . تفتكر يا حاج إيه أقوى فى چيبنات المصريين ، النكت ولا الدين ؟ ! ’ .



– لكن الحرية يجب أن تكون مسئولة ؛ حريتك تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين !

– إذن الخطوة الأولى هى تجريم كل الأديان المسماة بالسماوية !

بينما عاد الصخب والعصبية من جديد يشمل الجميع ، حين عادوا لملاحظة الأسعار ، وأنها لا تزال تهوى ، أعطى البعض المزيد من أوامر بيع للأسعار . ‘ الجرى نص الجدعنة ، يا عم ! ’ . أما وحيد المستمسك بكيوبيد ، فقد راح يجتر فى صمت التساؤل تلو الآخر . كيف عرف ونس كل هذه المعلومات ؟ إن خبرة حياته هو الآخر هائلة . هل فعلا القرآن ليس به ما يمت لجذر كلمة حرية بصلة ؟ ثم ما هو المعنى اللغوى لـ ‘ عن يد وهم صاغرون ’ ، قالها ضهرى منذ أيام ، وها هو ونس يكررها ، أنا لا أفهمها ؟ أيهما الأخطر ، هذا الكلام ، أم نكتة كيف دون أن يشعروا (باللا شعور) بدلا مواقفهما خلال الحوار ؟ على أية حال هذه الأخيرة باتت أشياء مألوفة بالنسبة لى . هذه هى مصر ، وهؤلاء هم المصريون ، حياتهم حياة سيريالية كما هذا الموقف بالضبط ، تخبط مطلق ! الآن حانت فيما يبدو لحظة الحقيقة التى لعلى حاولت تحاشيها فى حياتى . الآن يتوجب على فيما يبدو التعمق أكثر نحو لب المشاكل .

تدريجيا يهدأ اللغط ، ثم يدخل شاب يحمل حقيبة معدنية ويقول إنه فنى التكييف . يتذكرون الحر ويستقبلونه بعاصفة من السخط مما لا ذنب له فيه . ثم يتذكرون أسد وما كان قد قاله فى الصباح . ينهالون عليه تقريعا : ' أنت إحساسك زى الزفت ! ' ، ' قلت السوق ها يطلع جت له مصيبة ودته فى ستين داهية ! ' ، ' إوعى تقول أنا متفائل تانى ! ' ، أما منى فقالت : ' الظاهر إن أنا إللى وشى وحش ! ' .

– أنت عارف Clueless دى تبقى إيه يا أونكل ؟

– إيه ؟

– تبقى الـ suicide note بتاعتى !

– اوعى تكونى فكرتى تانى فى الانتحار النهارده ؟

لا شك أن الخاطر الكابوسى الرهيب بأن كل منهم قد يرفع السلاح يوما فى وجه صديقه الجالس لجواره ، قد عاد ليمر بخواطرهم جميعا مرة أخرى اليوم . ضهرى قال ما لا يقل عن ألف مرة خلال هذه السويعات القليلة عبارة تكرارية أقرب للهذيان الوسواسى غير الواعى وكأنه يطرد بها شيطانا رجيما تلبسه : ' أى حاجة فى كلامك ممكن تكون صح إلا كلمة ' الحرب قامت ' . الشعب المصرى شعب طيب ، وطول عمر ما حصلت فيه حرب أهلية ولا ها تحصل ! ' . الخلاصة أن سلم الجميع أمرهم للقدر . بالأحرى بدرجة أو بأخرى يتناسون الأمر ، يتعمدون التلهى عنه ، مثلا بعدو آخر كفنى التكييف أو أحاسيس أسد الطائشة . فيما يخص البورصة ، لا بد وأن الكارثة سوف تمر بسلام كما كل مرة سابقة . خبرتهم الطويلة تطمئنهم دوما بشىء كهذا ، فيفضلون الارتكان إليها . الأهم ربما أن كلام ونس على غلظته وصدمته ، كان مصدرا غامضا لبعض الراحة . على الأقل أشعرهم أن العدو ليس قدرا غاشما خفيا ، إنما هو من لحم ودم ، بل وصديق شخصى لأحدهم . مع هذه التطمينات المتفائلة وربما الزائفة ، اضمحل تدريجيا بعض الامتقاع عن وجه منى . الآمال التى حلقت فى السماء فى بداية النهار ، ثم هبطت إلى مركز الأرض فى منتصفه ، استقرت الآن عند سطح الأرض . إنها العودة للأرض كما يقال بالإنجليزية كناية عن التفكير بواقعية . سواء أتت السيارة أم لم تأت ، لا يصح أن تكون هى كل الحياة .

... قطعا ، بعد ما حدث ثم حدث ثم حدث ، هذا يوم مثير ونادر حقا فى حياتها ولن تنساه أبدا !

– أنا طبعا ضد التعصب والهمجية إللى بتحصل دى يا أونكل ، بس فيه كام نقطة موش فاهماهم ؟ موش المفروض يمنعوا الحرب الدينية على التليفزيونات والإنترنيت ، لأنها ها تقلب حرب على الأرض نتيجتها فظيعة زى إللى بيحصل النهارده ؟

– المفروض الحرية مطلقة باستثناء حرية أعداء الحرية . المشكلة أنه يصعب أحيانا ملاحقة هؤلاء . هناك قنوات ومواقع بتنصب على الناس وتاخد فلوسهم ، والحل الوحيد هو الوعى بمعنى كل فرد مسئول عن نفسه ، تمام زى عمليات المضاربة فى البورصة هنا ، كل مستثمر مسئول عن قراراته (هناك رأى آخر أنها تؤدى دورا إيجابيا فى صيرورة الانتخاب الطبيعى ، حيث تزيد من فقر الأغبياء فلا يتزاوجون أو يتكاثرون فيتخلص المجتمع منهم ويزداد قوة) . بالنسبة للإسلام ، فأقل ما يقال هو إن على المؤمنين به أن يتعودوا التعايش مع الهجوم ٢٤ ساعة يوميا عليه ، ويستمرون فى إيمانهم لو شاءوا . المسيحية تعودت هذا منذ قرون ، ولا يزال لها بعض أتباع . حكومتنا نفسها -وهى كيان أرضى واقعى وليست مجرد فكرة غيبية- كان يمس طرف شعرة لها يذهب وراء الشمس ، والآن أصبحت تهاجم ٢٤ ساعة يوميا ، تعودت هذا ولم تتداعى إنما لا زالت مستمرة فى شغلها . رجال البيزنس أنفس تمارس الصحافة حقدها عليهم ٢٤ ساعة يوميا ، ومع هذا لا يزالون يبنون وينتجون ، والأنبياء ليسوا بأفضل ولا أشرف ولا على رأسهم ريشة مقارنة برجال أو نساء البيزنس .

– لكن الحرية يجب أن تكون مسئولة ؛ حريتك تنتهى حيث تبدأ حرية الآخرين !

– إذن الخطوة الأولى هى تجريم كل الأديان المسماة بالسماوية ! كلها -وبالذات الإسلام- بها شرائع وعقوبات صارمة ، وتخول السلطة الدينية حق التدخل فى حيوات الأفراد وحرياتهم .



من حق كل أحد أن يهاجم الإسلام ، وليس من حق أحد أن ينكر الهولوكوست ، لأن الهولوكوست تاريخ ، والتاريخ علم ، والعلم مقدس ، أما الدين فهراء ! اليهودية -تماما كما الإسلام- لا حصانة لها ، لا فى أوروبا ولا فى غير أوروبا ؛ بإمكانى أن أسب إبراهيم وموسى وداود كما أشاء ، ولن يقول أحد لى شيئا !

– لكنهم يقولون إنك تستطيع فى أوروبا أن تهاجم الإسلام وتسخر من مُحَّد ولا يمس لك طرف ، لكنك لا تستطيع إنكار محرقة اليهود وإلا دخلت السجن . أليس هذا ازدواجا للمعايير ؟

– إطلاقا ! ذلك شيء طبيعى تماما : من حق كل أحد أن يهاجم الإسلام ، وليس من حق أحد أن ينكر الهولوكوست ، لأن الهولوكوست تاريخ ، والتاريخ علم ، والعلم مقدس ، أما الدين فهراء ! اليهودية -تماما كما الإسلام- لا حصانة لها ، لا فى أوروبا ولا فى غير أوروبا ؛ بإمكانى أن أسب إبراهيم وموسى وداود كما أشاء ، ولن يقول أحد لى شيئا ! ؛ أما بمجرد أن انكر محرقة اليهود أو مذابح الأرمن ، فسأصبح صاحب أجندة سياسية وبرنامج كراهية ومحرضا دينيا ومهددا للسلم الاجتماعى ، وسيريد المجتمع كله -وليس اليهود أو الأرمن فقط- سجنى من أجلها .



– وهل دستور مصر هو التانى فيه ماسح وممسوح ؟ ! – بالفعل ليس من حق أى قانون أن يعارض المادة الثانية من الدستور ، لكن من حق بقية المواد أن تفعل . من الخطأ أن يأخذ الإخوان المادة الثانية و' يطيروا بيها ' ويقولوا مصر دولة إسلامية ، بينما الدستور ملئ بالمواد التى تجهضها ، كحرية الاعتقاد ، أو الأخطر منها حرية التعبير ، والمواطنة ، والالتزام بالمواثيق الدولية ، وهى كلها تتعارض جذريا مع الإسلام . فقهاء الإسلام أنفسهم يعرفون هذا ويسمونه تكامل الأدلة !

– حاجة رابعة يا أونكل : إيه حكاية الدستور ؟ المادة ٢ بتقول ممنوع إقامة الأحزاب على غير مرجعية الشريعة الإسلامية ، والمادة إللى بعدها بتقول المواطنة وممنوع إقامة الأحزاب ذات المرجعية الدينية . موش تناقض ده ؟

– ما المشكلة ؟ الدستور كل متكامل ، وكل مواده نافذة . مادة تمنع قيام الأحزاب العلمانية ومادة تمنع قيام الأحزاب الدينية . أين التناقض ؟ ممنوع إقامة الأحزاب على وجه الإطلاق .

– فكرة هايلة ! أنا شخصيا موافقة يطبقوها .

ويعلق ونس ساخرا : ' الدستور المصرى جايز بيغير رأيه مرة كل ١٠ سنين ، لكن ربنا بتاعنا يقول حاجة بالليل ولما يصحى الصبح يغير رأيه ، وفى أى حاجة موش التحريمات وتدرج التشريع ، من أكبر حاجة زى نسخ اليهودية والمسيحية وإعلانها كفرا ، حتى أصغر حاجة تخص كيد زوجات مُحَّد لبعضهن البعض . تعرفى المثل إللى بيقول كلام الليل زى ... ؟ هو ده الماسح والممسوح فى القرآن ! ' .

– وهل دستور مصر هو التانى فيه ماسح وممسوح ؟ !

– بالفعل ليس من حق أى قانون أن يعارض المادة الثانية من الدستور ، لكن من حق بقية المواد أن تفعل . من الخطأ أن يأخذ الإخوان المادة الثانية و' يطيروا بيها ' ويقولوا مصر دولة إسلامية ، بينما الدستور ملئ بالمواد التى تجهضها ، كحرية الاعتقاد ، أو الأخطر منها حرية التعبير ، والمواطنة ، والالتزام بالمواثيق الدولية ، وهى كلها تتعارض جذريا مع الإسلام . فقهاء الإسلام أنفسهم يعرفون هذا ويسمونه تكامل الأدلة !

كما لا يملك عموم المصريون إلا إحالة كل ناكبة نائبة إلى مادة للضحك ، لا يملك وحيد إلا أن يكون جادا دائما أبدا ، فطفق يشرح لمنى المزيد عن مواد الدستور بعيدا عن أسلوب ونس الساخر ، ثم فجأة يهم بالانصراف مستئذنا إياها ، ودون انتظار نهاية الجلسة على غير العادة ، وحاملا حاسوبه أيضا على غير العادة .

... داعبته منى بهل هو ذاهب لينتحر ؟

... بالمرة ، لم يكن هذا صحيحا .

... لقد اعتزم أن يقضى أمسيته بحثا على الإنترنيت ، عن نسخ إليكترونية من كتب الإسلام الكلاسية .

أرمسيس هذه تقع فى مملكة الواقع أم هى التواءة فى بعد المكان ؟

يا للهول ! أهى ١٩٧٥ التى يتحدث عنها ونس هى عينها التى عشتها أنا ، أم أن ثمة التواءة زمان أينستاينية فى الأمر ؟ أرمسيس هذه تقع فى مملكة الواقع أم هى التواءة فى بعد المكان ؟ حين جئت من بيروت ، كانت الدنيا غير الدنيا ، الأيام غير الأيام . كانت أيام الحرية ، كان الجنس طاغيا بما فى ذلك فى الأفلام المصرية ، كانت الأزياء لا تغطى سوى عشرة سنتيمترات من السيقان ، كانت مضيفات التليڤيچن الشهيرات يتحسسن على الهواء الشعر الكثيف لصدر أحمد رمزى المكشوف ، ويسألنه هل فقدت منه أزرار القميص أم ماذا . بمجرد هزيمة الطاغية فى ١٩٦٧ انطلقت قوى التحرر فى المجتمع بقوة هائلة . زملائى فى الجامعة الأميركية كانوا مهتمين بالرحلات . ذهبت معهم مرة للأقصر وأسوان ، ولا أقول إنى لم استمتع . فى المرة التالية قالوا لنذهب للأهرام فلم أهتم . فى المرة الثالثة قالوا لنشاهد الآثار الإسلامية فاحتججت فى التو واللحظة ' إيه القرف ده ؟ ! ' . حاولوا إفهامى أن الإسلام ما هو إلا فلكلور محلى فى مصر ، وأنه محصور فى مكان اسمه شارع پور سعيد . هناك كل المكتبات التى تطبع الكتب الإسلامية ، وهناك كل الطرق الصوفية ، وهناك كل المساجد الشهيرة . سنبدأ من السيدة زينب ، ثم المتحف الإسلامى ، ثم يمينا سنجد الآثار القديمة كلها ، وسنجد قاهرة نجيب محفوظ ، ثم صعودا أو إكمالا للدائرة سنعود إلى القلعة .

حاولوا إثنائى بأنها ليست الأماكن الجهيمة التى قد أتخيل . لقد حولها مُحَمَّد عبد المطلب لرحلة حب جميلة حين غنى قائلا إنه يذهب من السيدة للحسين جيئة وذهابا مرتين يوميا من أجل حبيبته . قلت ، ربما ليست جهيمة ، لكنها بالنسبة لى هى التخلف عينه . ماذا لو كنت مكان ونس فى أسيوط فى تلك السنوات ؟ هل كنت سأتعامل بمثل هذا التعالى والاستخفاف ؟ ماذا أسمى هذا بالضبط ؟ حماقة ؟ غيبوبة ؟ التواءة زمانية ؟ يا لى من قزم ؟ أمن حقى بعد اليوم أن أزعم أنى مثقف أو عالم أو حتى أفهم أى شىء ؟ كنت أرفض أن أعطى يوما من عمرى للتنزه فيما أرى لا طائل منه ، بينما هو كان شاهد عصره يوما بيوم على ميلاد شىء فى عضون عقدين من الزمان فقط أو أكثر قليلا ، جلجل العالم كله وأسهم فى سقوط الاتحاد السوڤييتى وقوض أشهر برجين فى الكوكب وأشعل حروبا لا نهاية لها بامتداد الخريطة ؟ هل الأمر حقا على هذه الصورة التى رسمها ونس ؟ ! هل كل العالم انقلب رأسا على عقب لمجرد أن شابين ليبراليين من أسيوط قررا ذات يوم قراءة القرآن الكريه ؟ ! يا لهول الدراما ! الإلياذة والأوديسا لعب عيال لا أكثر إذن !

البحث الذى أراده وحيد جاء أكرم وأسهل بكثير مما توقع . برنامج واحد لا يأتيك فقط بكل عيون التراث الإسلامى ، بل أيضا بلسان العرب وكل القواميس الضخمة التى استصعب هو نفسه ككاتب استخدامها يوما ، وكل شىء بالمجان . بحث عن كلمة حر وحرة وحرية وغيرها ، حتى أعياه البحث ، وقال لن أصل لحقيقة جازمة . فقط لا بد أن ونس يستند لدراسة عميقة ، بل ربما قرأ القرآن كله يوما خصيصا من أجل هذه الكلمات . أوه ! ربما لا أحد فى حاجة لذلك أصلا . اسمه ' الإسلام ' ، فكيف يسمح بالحرية ، بل كيف يتلفظ أصلا بمجرد الكلمة الرجيمة ؟ بل ، أوه ! يا لغبائى ! كان المفروض أن أعرف هذا من صميم تخصصى ، الاقتصاد . السعودية تنشىء المدن الحرة ، لكن لا تسميها المدن الحرة ، إنما تسميها المدن الاقتصادية . إنهم لا يفعلون هذا بالصدفة . صحيح أن أحدا لا ينطق بشىء علنا ، لكن الأمر واضح بما يكفى : إنهم واعون جدا لكونها كلمة بذيئة ملعونة أثيمة نجسة ، ويتوجب شطبها من القواميس من الأصل . ' اذهبوا فأنتم الطلقاء ' هى آخر ما يمكن أن يسمح به الخط الأحمر لاستخدام اللغة ! أوه ! بل يا لى من جاهل ساذج ! الطلقاء هذه ليست كلمة حسنة بالمرة ، إنها لفظة تحقير وإذلال هائلة ؛ تذكير لهم بكونهم أسرى ، والوقوع فى الأسر هو المهانة الأعظم بالنسبة لأى عربى ، الوحيدة الأشد وطأة من الموت كهلا فى الفراش !

أوه ! بل يا للهول ! القرآن يتحدث عن العقل ، لكن انظر ما تعنيه الكلمة فى العربية : إنها من عقال بمعنى التكبيل والتغليل ، بينما فى اليونانية واللاتينية والإنجليزية وربما كل لغات الدنيا جاءت من ذاكرة بمعنى الاستذكار والتفكير . أوه ! بل هناك فضيحة أخرى : ' الحكمة ' ، ما أصلها العربى ؟ إنه الحكمة [بفتح الحاء والكاف] ، وهى قطعة اللجام الحديدية التى توضع فى فم الحصان ؟ يا للهول ! ثم بعد هذه وتلك تسألنى لماذا عقول أطفالنا غير مبدعة ولماذا نحن متخلفون ؟ ! إن أقصى ما يراه العاقل أو المتزن نسبيا منهم فى العقل أو فى الحكمة هو مجرد كبح وتكبيل تلك الغرائز البدوية المجنونة الجامحة حوله ، بينما العقل والحكمة يعنيان الحرية والانطلاق عند شعوب لا تعانى من مثل غرائزهم البدائية الهمجية تلك . لا يكمن أن يكون قصدهم مجرد كبح المشاعر لصالح إطلاق الفكر ، وقطعا لا يمكن أن يكون قصدهم إطلاق العنان للخيال ؛ فقط ما تعنيه العقل والحكمة عمليا هو مجرد الاتباع الأعمى للسلف الصالح لا أكثر !

بعد ذلك بدأ يبحث عن تفسير ' عن يد وهم صاغرون ' . فهم أن عن يد تعنى عن فضل وإحسان . واكتشف عبر أدبيات الفقه الكبرى ، وصفا مرعبا للطقوس النمطية الواجبة لدفع أهل الذمة للجزية ، التى يجب عليهم الالتزام بها وعلى السيد المسلم الحرص عليها . على الذميين أن يحنوا رأسهم أولا ثم يدسون أيديهم فى جيوبهم ويخرجون الجزية ويدفعونها شاكرين ' عن يد وهم صاغرون ' ، فقط ليتلقى الواحد منهم بعدها صفعة على القفا الممدد أفقيا ، كنوع من المن والإحسان من السيد المسلم ، عليه عندها أن يقبل اليد التى صفعته ، شكرا لها على تكرمها وتفضلها بذلك . أى إخلال بهذه الطقوس ، أى تذمر من الذمى ، أو أى تهاون من المسلم ، هو إنكار لما هو معلوم من الدين ، كفر بأمر إلهى صريح يقول بما لا لبس فيه : ' عن يد وهم صاغرون ' . يا له من مشهد مشوق حقا يستحق فيلما سينمائيا : علماء معهد وايزمان ، قمة علماء المجرة ، يركعون أمام القعيد المقزز أحمد ياسين كى يصفعهم على قفاهم !

وأخيرا توقف وحيد فى تفسير القرطبى عند هذه القصة تفسيرا للآية ، قرأها عدة مرات وعقله الباطن يحدثه أن بها شيئا غامضا ما ، لم يستطع فهم كنهه بالضبط : ' جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إن أرض الخراج يعجز عنها أهلها أفأعمرها وأزرعها وأؤدى خراجها ؟ فقال : لا . وجاءه آخر فقال له ذلك فقال : لا ، وتلا قوله تعالى : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إلى قوله وهم صاغرون ، ثم قال أيعمد أحدكم إلى الصغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه ؟ ' .



سفاح المدينة يضرب من جديد !

كلا ، الإسلام ليس رحلة مع مُحَمَّد عبد المطلب ؛ الإسلام ليس لعبة ، الإسلام هو ' وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' . الكلام واضح : ' إلا ليعبدون ' ! الإسلام عبودية مطلقة ، ومثلا الأصل فى الصلاة ركوع وسجود ٢٤ ساعة يوميا ، وتم تخفيضها بناء على مفاوضات شاقة بين مُحَمَّد والله ، وبإيعاز له من نبى اليهود المنحل موسى (ولا يهم إن قيل إننا سرقنا قصة الفصال من ٥٠ إلى ٤٥ إلى ٤٠ وهكذا من فصال إبراهيم وربنا على عدد أبرار سدوم وعمورة) . إن مرضاة الله هى أن تنفذ أمره حرفيا ، وفورا . لا تقعد ولا تستريح أو تتسلى بقراءة اتفاقيات چينيڤ أو باعتذار فرنسا لمن قتلتهم فى الجزائر ، بل تنهض لسكينك ، وتجز فى مساء واحد رقاب سبعمائة أو ثمانمائة يهودى من الوريد إلى الوريد ، كلهم ذكور بالغين ممن نبت شعر عانتهم . ثم تأخذ منهم أموالهم التى يسمونها بنوك ماتهاتان ، وتسبى بقية أسرهم ، فتتزوج أجمل نساء هؤلاء الخونة ، إذ على الأقل ستضمن أنهن لن يفكرن فى خيانتك أبدا . أما لو كانت موهبتك العضلية أفضل ، فيمكنك بسيفك المسلول أن تقطع مائة ضعف هذا العدد فى نفس الفترة الزمنية ، وتحيل لون نهر الهدسون للأحمر . تجز رقاب ٧٠ ألفا فى اليوم ؟ أليس الرقم كبيرا بعض الشىء ؟ لو الرقبة تحتاج منك لعشر ثوان ، هذا يعنى مائتى ساعة ، واليوم بكامله به ٢٤ فقط ! نعم ، شلالات الدم شىء يستحق المباهاة طبعا ، لكن ليس لهذه الدرجة . عفوا دكتور جوبلز ، دعنى أخالفك قليلا . أنا لا أحب البروپاجاندا والدعاية للذات ، حين يبالغ فيها أكثر مما يجب . بيسموها بالمصرى فشر أو معر . ما علينا ، ثمانمائة رقم معقول جدا !

بالضبط ! الإسلام ليس ' وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' . هناك فرق بين الوسيلة والغاية . هذا الإله هائل السلطة ليس إلا الوسيلة ، وسيلة كى ' تظبط عيلتك ' : تخلى أولادك يسمعوا كلامك ولا يسألون عن أشياء لو بدت لهم تسيؤهم ، وتخلى بنتك تجرى لما تسمع صوتك وتلبس النقاب وتستخبى تحت السرير ، كى ' تظبط الفصل ' : تقطع ألسنة التلاميذ المشاغبين من أمثالى ، كى ' تظبط البلد ' : تخلصه من كل مثيرى الفتن من أصحاب البدع والمستحدثات نعم ، هذا الإله لا يعدو إلا الوسيلة أما الغايات فهى شىء آخر ؛ قطعا ، الإسلام هو شىء آخر ؛ الإسلام هو ' عن يد وهم صاغرون ' !

إذن هؤلاء محقون بالفعل فى استمساكهم بالجهاد (= الحرابة الشرعية) . الصفقة تجرى كما يلى : هل تريد أن تحكم العالم ؟ المطلوب شىء واحد فقط لا غير يا سيد الأرض : العودة لفريضة الأجداد الغائبة ! إن سقف الوعود عال جدا حقا . لو ' استشهدوا ' سينالون الحور العين ممن تتجدد عذريتهن كلما فضوها لهن ، ولا شك أنهن -بخلاف نساء الأرض- لن يتذمرن أبدا من آلام فض البكارة . أذكر أن هذا شىء كانت أمى تجاهر بالاشمئزاز منه علنا أمام كل الناس . يا لك من حسنة الطوية يا أمى . تتحدثين عن حقوق المرأة ، حقوق أن لا تخرج من الدار إلا للقبر ، وربما لم تكونى تعلمين أن ليس لها حتى على زوجها حق تكفينها ودفنها ، أن تذهب للقبر عارية ، ذلك أن فى الإسلام لا مليم للمرأة إلا مقابل متعة . ثم قطعا لم يذهب خيالك الطاهر لقراءة إعلان حقوق الطفل فى الإسلام : ولدان مخلدون ذوى شرج مأمون أبدا لا ينزفون ، بلايين البيتر

بإن للخدمة الجنسية حين يأتى المزاج ، ولخدمة الأشغال اليدوية حين يذهب المزاج (فى رواية ضعيفة يفسر سبب عدم النزف بأن للولدان أعضاء أنثوية أيضا ، وهو مردود عليه بأن الحور ينزفون) . كل ما خطر بخيال المسلم مرة ، ولم ينله ، مهما كان انحراف هذه الشهوة ، سيجده فى الجنة . هذه كلها من أجل ماذا ؟ من أجل أن يستشهد الأتباع فى سبيل بناء الدولة . أوه ! بل هناك كلام عن أن لشهادة البحر حوافز خاصة ، أليس هذا غريبا بعض الشىء ؟ ربما كان الماء الفزع الأعظم لأولئك القوم الصحراويين ! كلا ! إنه ببساطة المزيد من الحفز على التوسع الجهاد (= الحرابة الشرعية) بحيث يشمل كل الدنيا : الغزو عن طريق البحر . إنه الاستشهاد غرقا لن يذهب بك للجنة فقط ، بل سيخلصك رسميا من كل ديونك الأرضية ، ويجعل دائنيك يخبطون رءوسهم فى الحيطة ، وهيهات لهم أن يمسسوا درهما مما أورثته لأبنائك من ثروة ! أما إن لم تستشهد فسوف تنال ترضية لا بأس بها أيضا : إن لم يكن حمام دم مصحوبا بخزائن بنك إنجلترا ، فبالأقل جزية دسمة مصحوبة بصفعة على القفا لألبيرت أينستاين وبيلل جيتس وديفيد بيكام ورئيس أميركا وملكة بريطانيا وپاپا روما . أيضا هناك مادونا وشارون ستون استرقاقا واستحلالا وملكا لليمين . مادونا وشارون ستون ؟ أحقا ؟ ! ربما الحرى بى أن أفكر نفسى فى الانضمام لقوافل الجهاد (= الحرابة الشرعية) !

ربما كان أوزوولد شپينجلر على حق يوم قال إن النصر مكتوب دوما لمن هو الأكثر بداءة وتخلفا . واضح أن أمنا الطبيعة تصادق على كلامه ، أكثر مما تصادق على كلام داروين . تلوح ابتسامة على وجه وحيد . أوه تذكرت الآن ! كان لى صديق فى الجامعة يقول إنه يفهم فلسفة شپينجلر أكثر مما يفهمها شپينجلر نفسه ؛ ربما على البحث عنه والاتصال به . بالفعل ليس لدى المتخلفين شيئا يخسرونه ، هكذا قال ، وهذا ما يفعله ماسحو الأحذية وحمالو محطات القطار فى لبنان ، حين أنشئوا لطائفتهم الشيعية حزبا اسموه حزب الله ، وراحوا يدعون إسرائيل لتدمير لبنان مرة كل عدة سنوات ، لا لشىء إلا ليفقد من هو صاحب ثروة فى لبنان ثروته ، وهكذا تتساوى الرءوس . هل تنتهى الأمثلة من هذا النوع ؟ من قال إن فهم أمنا الطبيعة حكر على أرسطو أو داروين أو سپنسر ؟ ألا يحتمل أنها قصدت بالتحيؤ للأليق هؤلاء المجاهدين الأبرار ؟ سنفتح قيينا ، وستدق لنا أجراسها . الله قال لماذا تجنحون للسلم وأنتم الأعلون ، وبمجرد العودة للفريضة الغائبة ، ستركع لنا كل البشرية . وعد صادق صدقه الأجداد ، ويجب أن تصدقه كل الأجيال . لكن لماذا يتحدثون دائما عن قيينا بالذات ، ويصممون على فتحها ؟ أوه ! إنها المدينة التى استعصت فى ١٦٨٣ على الإمپراطورية التى يسخر منها هذا الوقح المدعو ونس ويسميها خلافة الجبنة القديمة ، إنها إحدى مرتين فقط استعصى علينا فيهما شىء أو استجرأ أحد كهذا الليوپولد الأول -وفقط بفضل نظيره البولندى الذى دس أنفه فيما لا يعنيه- على إيقافنا (والوقفة الأخرى هى كما تعلمون لذلك النمساوى الآخر حاكم الإمپراطورية الفرنسية المدعو شارل مارتيل ، فى تووزر نواحى پواتييرز قرب الحدود الإسپانية قبل ٩٥١ سنة منها بالضبط) . نحن لسنا جبنة قديمة ، نحن من ستدق لهم أجراس كل كنائس العالم دقاتها الأخيرة قبل أن نسكتها للأبد (أو على الأقل قبل أن يوقفنا نمساوى ثالث بعد ٩٥١ سنة أخرى . عفوا شوارزينيجر ، غالبا لن تكون أنت ؟ !) .

... لا ، بل دعك من قيينا وبنك إنجلترا وصفعات القفا . أنا لى مستواى الخاص ، طموحى الأكبر بمراحل ، وبل وفى نفس الوقت سأجعله تطبيقا دقيقا وحرفيا لمبدأ الأسوة الحسنة . أنا لدى خبرة ممتازة بثروات كل أحد . أنا أعرف كل القطط السمينة ، بل وبعضهم معرفة شخصية . سأكون قائمتى الشخصية للثمانمائة يهودى الموعودين بسكينى الثالمة . لا ، بل سأحصل على سيف قبيح ضخم كالمرسوم تحت الشهادتين على علم السعودية (ذلك البلد الشجاع الذى بنى مسجدا فى كل شارع بالغرب ويرفض بناء كنيسة واحدة فيه ويقطع رأس كل متعلمن) ، لا أعتقد أن سيضن على به المجاهد الأكبر ، خادم القرفين الشهيرين ، بالذات لو وصفته له بالسيف متوسط الجمال . أى والله لقد أضاءت لى هذه اللحظة قصور نيو يورك ومدائن كاليفورنيا حتى لأبصرتها كأنياب الكلب من مكانى هذا ، أو بالإنجليش كأنها skyline ! ستبدأ القائمة بميردوك صديقى الذى شبهونى به يوما ، وتنتهى لا أعرف بمن بالضبط من هؤلاء أبناء القردة والخنازير ، هؤلاء الذين يقولون عن حمارى الحبيب يعفور إنه كريه الرائحة ، وأنا واثق أنهم يقصدوننى أنا ، ولا يعلمون أن يعفور هذا -أول من آمن بى من الفقاريات ونهق بالشهادتين- قد اكتسب اسمه من كثرة تعفير نفسه بالتراب ، أى من كثرة التيمم الذى أوصت به السماء . حين يرونى سيسألون : ' بم جئتنا ؟ ' ، فأستل سيفى بسرعة البرق وأصيح بقوة الرعد (بتوع بيروت وميرامار !) : ' لقد جئتكم بالذبح ! ' ، ثم أعمل به فى رقابهم ، ولو أفلت أحد سأرسل خلفه تجريدة اغتيالات على طريقة خواتيم أفلام ' الأب الروحى ' ، تربض له صباحا وتتسلل لمخادعه بالسيوف ليلا ، أو تتمشى به ساعة كاملة ثم تزعم شم طيب رأسه وتقتله من الخلف ، ولو اقتضى الأمر سأذهب معهم لأشير لهم من بعيد على ذلك الهارب الملعون . أوامرى ستكون واضحة : ' اسفكوا دماءهم جميعا حتى لو وجدتموهم متعلقين بأستار تمثال الحرية ' . أيضا حسبت حساب أن يستهبل ميردوك -الذى أعلم أنه الخبث نفسه- ويرفض الإرشاد على أرقام حساباته السرية فى بانك أوف نضير . سوف أقدح زندا فى صدره ثم أشويه بالنار ثم أسمل عينيه ، وحين يعترف سأجز عنقه (كلها

طبقا لما تنص عليه اتفاقية چينيڤ لقواعد التعذيب ، باب استنطاق الاعتراف بالثروة) . الحصيلة بعد هذه وتلك لا شك لدى فيها : قبل أن يحل المساء أكون قد حصلت على غنائم لن تقل عن عدة تريليونات من الدولارات ، أشرع بعدها فى انتقاء عشر أو عشرين امرأة (حيث إنى لا أنوى بيع الكل) ، وأبدا فى اغتصابهن واحدة واحدة ، ولأجعلن أولاهن أرملة ميردوك الشابة الجميلة ، فعدة أمثال هؤلاء كما تعلمون هى صفر من الأيام ، ثم أن وجوه وأجساد النساء الثكالى عادة ما تكون أكثر إثارة -حتى من مادونا وشارون ستون- بسبب كثرة اللطم والانتحاب على أزواجهن وعائلاتهن المسفوحين !

... أنا لست مجرد كتلة من العاهات الجسدية والنفسية ، ولست بحاجة لكيس دهنى فى قفاى يثبت نبوتى الخارقة . سأفوق الجميع ، سأصبح شهيرا جدا ! أكاد أتخيل عناوين الصحف تقول : ' سفاح المدينة يضرب من جديد ! ' ، ' عودة سفاح يثرب ! ' . لا بل سأكون سفاح جميع المدن ، سفاح نيو يورك ، سفاح كل العالم !

... أما بالنسبة للنساء ، فلن أدقق كثيرا . على الأقل أنا لست بعد خبيرا جدا بفقه الغنائم والأسلاب والأنصاب والاغتصاب وما ملكت الأيمان وأسواق النخاسة ، ثم أنى لست معنيا جدا بالزواج من امرأة أكبر منى بربع قرن ثم أثنى عليها فورا بطفلة أخطبها وهى فى KG 2 وأدخل بها حين تصل الصف الثانى الابتدائى ، فأدخل موسوعة جينيس لأن جمعت بين زوجتين الفارق بينهما سبعين سنة ، وأدخل تاريخ الأدب لأن نغصت على شيكسپير فرصة تأليف مسرحية عن تزويج الأخت الصغرى قبل الكبرى . صحيح أنى وصلت الآن لسن البلوغ عند الذكور الذى هو الخمسون ونيف ، وانفجرت لدى فجأة الشهوة نحو النساء ، إلا أننى لست عقيما ولا عنينا ، حتى أضطر للتباهى بتسع وتسعين زوجة ومئات الإماء والأمتاع (بعضهن بقوادة من الله شخصيا دائم الفضل ، والذى -عند اللزوم- يرسل هبات ريحه كى يعرى السيقان المثيرة ونفحات وحيه كى يؤلف الأجساد الملتاعة ويبطل الزيجات الخاطئة ويصح الصحيحة على طريقة فيلم صلاح أبو سيف ، أو أن أطلق فى المقابل من أضحت بدينة أو دميمة وأجعلها تركع مهينة تحت قدمى يوميا فى ذهابى ومجيئى للمسجد تستجدينى الإبقاء عليها كخادمة) ، تلك كلها بينما لا ولد أو بنت إلا بفضل استبضاع الزوجات لأنفسهن (زاد الله فضلهن) ، أو بينما حياتى كلها منذ ذلك البلوغ سيىء التوقيت ما هى إلا دنو ولمس من غير مسيس ؛ ما هى إلا توق مجنون لانتصاب سرابى لا يأتى أبدا ، مهما سعيت خلفه مع خالة أو طفلة أو زوجة ابن أو أرملة سيد القوم (طبعا هذه الحالة الأخيرة لا تنتظر ، ولا محل فيها لشهور العدة وما إلى هذه من شكليات) ، أو يأتى ويذهب سريعا بلا قذف واحد يستوجب الغسل يمكن أن يطفئ حريق شهوتى ، لا يفلح فى هذا كله الطواف المحموم على دستة كاملة منهن كل ليلة ، ولا يفلح فيه بعدهن الطواف بالمقابر بحثا فى ظلمتها عن جثة طازجة بعد لامرأة أو حتى لرجل أو ما تيسر من العنز أو البطيخ ، أو مهما تحاشيت من إتيان الدبر فكرة عمر اللعينة التى تعمد هذا السادى السافل إذلال قضيبى المرتخى بها ، أو لا يفلح فيه نزول معوذتين على من السماء كل دقيقة ، أو حين تتجاوز الأمور حد العنة ويستفحل بدماغى مرض بلاد الكفار المدعو الزهرى ، لن يتضح فى الصباح التالى إلا أنى لم آت النساء سوى فى خيالى فقط ، ولن يحدث إلا أن ستفرك رمانة المنى عن ثوبى . إن القذف عندى طبيعى وسليم ولا يعانى إربى من إمساك مؤقت أو مؤبد ، كما لا أعتقد أن ميردوك بسذاجة بعر الجزيرة بحيث يهتز كثيرا إن خلقت عنى نفسى أسطورة لا داعى لها حول فحولة فذة موهومة (وإن كنت أعلم أن الكذبة كلما كبرت كلما سهل تصديقها) ؛ ثم الأسوأ من كل شىء أنه لو لدى كل هذا العدد من الجميلات لأنجبت ألف طفل وطفلة ، وهذا مما لست واثقا من رغبتى فيه بعد !

... بالنسبة للنساء ، أنا لست طماعا جدا ! تكفينى الآن رمانة تغدق على بعطائها ، وأقله أن لا أجد تحت سريرى مبولة أو كلبا ميتة أو براز شاة كان فى الأصل بعضا من أوراق اللوح المحفوظ ، أو غيرها من مصادر الروائح المثيرة للاهتمام . أيضا ما حاجتى لمئات الزوجات وملكات اليمين وليس لدى أصلا قمل فى رأسى ، ولست ممن يخرج من دبره الدود أو من ذكره نحو القملة ، أو ما حاجتى لفدية من صيام أو صدقة أو نسك كى أبرأ منها ؟ !

... بالنسبة للنساء ، أنا لست طماعا جدا ! لست بالمحروم الذى ' يبصبص ' لكل نساء العالمين أو أجن لرؤية سيدة فى حضن رجل ، ولست بالنوڤو ريش الذى كان مسكينا ويتيما فطعم فأوى فاغتر فراح يجمع النساء حوله للمباهاة ، وطبعا لست فى حاجة لمن ينهرنى ' ولا تمدن عينك إلى ما متعنا به أزواجا ... ' .

... بالنسبة للنساء ، أنا لست طماعا جدا ! حتى وإن كنت أحترم الصابئة وسائر العبادات الوثنية عامة ، فلست مثلهم من عبدة الفروج بحيث يذهب عقلى لرؤيتها فأتخيل نفسى نبيا أو أركع للصلاة لها (حتى لو كانت هذه هى لحظة صدقه الوحيدة) . أصلا ، أنا لست من بلاد اشتهرت بأن لديها مشكلة تاريخية مع الملابس الداخلية !

... على كل حال : بالنسبة للنساء ، أنا لست طماعا جدا ! غالبا سأترك مادونا وشارون ستون للإخوة . أنا شخصيا أفضل جولدى هون !



أنت فاكر يا معفن أنت ، أنك ها تدخل الجنة ،

وإديسون إللى اخترع النور إللى فى السقف ده ، ها يدخل النار ؟ !

ذهب ليستريح فى الفراش . كان حزينا لأنه لم يكن يتخيل يوما أنه سيقضى دقيقة واحدة من عمره فى مثل هذه البحوث ، وآسفا على أن المتدينين ينتصرون حتى لو انهزموا . إنهم يفرضون أجندتهم علينا ويستنزفون طاقة تفكيرنا ، وهذا كاف . ألم يكن من الأجدر بى أن كنت قد قضيت هذا الوقت فى قراءة بحث عن مستجدات الهندسة النانوية أو مقال عن خصائص رقاقة إنتل الجديدة ؟ حتى لو قالوا نفس محتوى كلامنا بالضبط من حداثة وتحرر وتسامح فهم منتصرون ، لأنهم يحفظون رأس الأفعى المقدسة آمنا سالما فى بيات شتوى ، إلى ميقات يستقوون فيه ويقولون هذا الدين الذى طالما أجمعنا -نحن وأنتم- على تقديسه ، نصوصه الرسمية كذا وكذا ، ولم ترد قط لا على الحداثة ولا التحرر ولا التسامح .

على ذكر الهندسة تذكر الأستاذ الدكتور حسن فهمى ، أحد رواد تدريس الهندسة فى مصر . أمى كانت تقدره جدا ، وكانت تعتز بإعجابه بها كفنانة أيما اعتزاز . ولاحقا حين اعتزلت لم تنقطع عن الاتصال به وبابنته فريدة لتشيد بها وبفنها كراقصة . هناك نادرة شهيرة تروى عن دكتور فهمى . لا شك أن ونس يعرفها فهو مهندس ميكانى مثله . ذات مرة سأله طالب عن أصحاب المخترعات الذين يروى قصصهم ويشيد بهم : ' لكنهم كفرة يا دكتور ! ' . كفرة ؟ نفس الكلمة التى استخدمها ونس اليوم باستسهال شديد . بماذا رد عليه ؟ جعله ينهض ويأتى ليقف أمامه ، وقال له ببرود كاد من بطئه أن يوقف قلوب بقية الطلبة : ' أنت فاكر يا معفن أنت ، أنك ها تدخل الجنة ، وإديسون إللى اخترع النور إللى فى السقف ده ، ها يدخل النار ؟ ! ' ، ثم طرده من المحاضرة . ويقال إن لاحقا اضطر ذلك الطالب لترك كل كلية هندسة القاهرة . هذه قصة لم أقرأها فى كتاب ، فهى لا توجد فى أى كتاب ، كذلك لم يروها لى دكتور حسن ، ولا حتى أمى . لقد كان يتناقلها زملائى فى المدرسة الابتدائية فى بيروت . نعم ببساطة ، لقد وصلت هناك ، وسرت بيننا كما النار فى الهشيم .

ثم تذكر كل تلك المظاهرات وأحداث الشغب وحوادث القتل التى تجتاح بلاد الإسلام كلما حدث ما يسمونه إساءة أحدهم للنبى . متى يفهم هؤلاء المسلمون أن ما يقدسونه أعتى التقديس ويصابون بالجنون والسعار من أجله فى كل مرة يمس فيها ، هو أشياء لا تثير أية قداسة بالمرة لدى غيرهم . متى تفهون أنه بالنسبة لبلايين البشر ، وكلهم بأيدى وأقدام وأدمغة وثروات مثلكم أو طبعا أفضل منكم ، لا يمثل نبى الرحمة وسيد الخلق (الذى وضعتم عليه لافتة ممنوع اللمس) ، سوى مغتال سفاح هجام بلطجى دجال زئر نساء ومولع بجنس الأطفال . أنا لا أويد هذا الكلام ولا أنفيه . فى الواقع أنى أسمع عن مثل هذه الأشياء لأول مرة اليوم ، لكن المؤكد أن هذا هو ما تراه البلايين فى قديسكم وفى سيرته العطنة-العطرة . متى تفهمون أن البلايين لا ترى فى خير البرية إلا أسوأ البشر أخلاقا قاطبة عبر كل التاريخ ، لا يضاهيه أحد ، لا دو ساد ولا راسبوتين ، لا نيرون ولا هتلر ، لا چاك السفاح ولا رمضان التوربينى ، لا أحد ولا واحدة ، ولا حتى عمرو بن العاص والعاصية أو خالد بن اللقيط واللقيطة سيف اللات المذلول . لقد قتل مُحَمَّد بيده وحده شخصيا من يهود شبه جزيرة العرب -أصحابها الحقيقيين- أكثر ممن قتلهم هولوكوست النازية ، إن وضعنا التكاثر الطبيعى فى الاعتبار . ربما كان نيرون يغنى وروما تحترق ، لكن مُحَمَّدا هو الوحيد إطلاقا فى التاريخ الذى يقهقه وهو يقتل ، بل ويتباهى علنا بأنه ' الضحوك القتال ' . أى دين هذا الذى يأمرك -لاحظ ' يأمرك ' ومعناها أن إن لم تفعل عصيت إن لم تكن كفرت- يأمرك إذا مر أحد أمامك وأنت تصلى ، لا تنبهه أو توعيه بآداب الدين أو حتى تتحامل على نفسك وتعيد صلاتك ، إنما قم من فورك واقتله ، بعدها عد لتكمل صلاتك من حيث توقفت ؟ أى دين هذا ، بل أية صلاة بالضبط تلك ؟ عبدة الشيطان أنفسهم لا يفعلون ذلك ! القلة المؤمنة من هؤلاء الغربيين تقول هل خلت كل الدنيا من البشر حتى يختار الإله شخصا كهذا رسولا ، أما الغالبية العلمانية الساحقة ، فترى فقط أن تلك صفات تذهب بالإنسان العادى من أمثالنا للسجن إن لم يكن للمشنقة ، لا أن تصنع منه نبيا مقدسا . لماذا لا تقبلون الأمر على علاته ، تسمحون لهم بالاختلاف ، وتمضون أنتم فيما تحبون بلا مظاهرات أو حرائق أو قتل راهبات المستوصفات ؟



يا نهار أسود ! ده بيقول له ما تشتغلش !

ثم فجأة يهب وحيد من على الوسادة صارخا بصوت عال ، وقد تذكر قصة ابن العباس : يا نهار أسود ! ده بيقول له ما تشتغلش !



هل تتصور حجم الاستنتاجات والتداعيات التى يمكن أن تبنى بعد ذلك على حقيقة أن نبى العرب نفسه ليس عربيا ؟ !

ظلت المعارك تتفاعل فى الصعيد لأكثر من أسبوع . كان الوضع سيئا جدا ، وخرجت كل الأقلام والشاشات تلقى اللوم على كل أحد . البعض لا يرى غضاضة فى حرية الاعتقاد طالما لا إجبار فيها وطالما من تحولوا للمسيحية هؤلاء أناس مسالمون ، والبعض يقول إن حرية التعبير يمكن أحيانا أن تهدد السلم الاجتماعى ولا بد من وضع ضوابط لها . وفى نهاية المطاف يمكن القول إن قوات الأمن احتوت الموقف لمدى معقول ، أساسا بفضل تعزيزات كبيرة أرسلت إلى هناك ، وقد تم بالفعل قتل واعتقال المئات من أعضاء التنظيمات المتطرفة . فى البورصة ظل الوضع ينتقل ببطء من سيىء إلى أسوأ ، لكن بمجرد ما هدأت الأمور حتى انتعشت الأسعار قليلا ، وإن لم تعد لمستوياتها الأصلية . مع ذلك بدأ الجميع ينسون -أو يحاولون نسيان- ما حدث . وعاد العملاء فى رمسيس -وفى مقدمتهم منى تعيسة الحظ- يمنون أنفسهم من جديد بصيف تشتعل فيه الأسعار . وحيد هو الوحيد الذى لم ينس ، وعاد يجر أطراف الحديث مع ونس .

بدأ وحيد الحوار بداية ودية لا تخلو من مجاملة وعرفان : ' لقد كنت أستشعر أنك على حق . بالفعل لقد اكتشفت أن مُحَمَّدا إمعة أهبل لا يختلف كثيرا فى سذاجته همجيته وفساده عن حجاب المزواج الغبى الذى جاءنا يوما ولفظته رمسيس على الفور ! أيضا قرأت صديقك خليل عبد الكريم ؛ ممتع بل أكثر من رائع ، وأشاركك حزنك على موته ، فإذا كانت خديجة عنده هى ' هندوز ' الإسلام المكى التنسكى التصوفى ، فماذا كان سيكتب عن عمر المهندس الحقيقى للإسلام اللاحق الدموى المجرم ، وهلم جرا ؟ أيضا استرجعت أهم البرامج التى قدمها الأب زكريا بطرس . فقط اكتشفت شيئا أو شيئين قد فاتاهما : هناك أناس كثر محتملون لأن يكونوا الأب الحقيقى لمحمد ، لكنى أميل لترجيح الأب بطرس أنه بحيرة الأسقف النسطورى المختص بجزيرة العرب ، والساكن فى محراب ببصرى على حدود الشام معها ، وأراه استنتاجا مبدعا . مع ذلك لقد استند كاهننا التليفزيونى فقط على قول آمنة إن الضوء خرج من فرجها فأضاء قصور بصرى ، وما ببصرى من قصور ، وتفسيره هذا المعرفة الوثيقة بينه وبين نصارى (أو نساطرة) مكة والذين تدور داخلهم كل أسماء القصة من عبد المطلب حتى ورقة حتى خديجة حتى آمنة ... إلخ ، واستند على تزكيته زوجا لأغنى كينونة مالية فى قريش ؛ خديجة صاحبة نصف القوافل . أنا أود الاستناد لبعض قرائن أخرى قد بدت لى جديدة : لا شك أن بحيرة -كما أغلب علية القوم دنيا أو دينا فى ذلك الوقت- كان يتمنى أن يأتى من نسله النبى التالى ، لا شك أنه كان يتردد كثيرا على مكة بحكم وظيفته ، ولا شك أنه ضاجع نساء كثيرات لهذا الغرض فى مكة وغير مكة (بالأحرى حديثات الترمل بالذات) ، لذا فالمثير للفضول هنا هو لماذا كان أول الجميع إعلانا لوصول النبى الجديد وهو بعد فى المهد صبيا . الإجابة المباشرة المعروفة أنه رأى فى ظهره وحمة النبوة . فرح لأن أخيرا ها هو واحد ممن راح يلاقح النساء من أجله -وطبعا يعود لتفقدهن بعد تسعة أشهر !- قد جاء بهذه العلامة الإعجازية المفحمة . من فرض فرحته راح يهلل للخبر (وإن اكتشف خطأه بعد قليل وحاول كتم السر وفرض الحراسة المشددة على الصبى) . هذا يفسر شيء آخر ، هو تلك المحاولات المتكررة -التى لم يفسرها أحد- لقتل مُحَمَّد رضيعا فطفلا فصبيا ، بالذات من قبل اليهود ؛ لقد تسرب لهم إعلان بحيرة ، وطبعا تزكية بهذه القوة من أب لابنه تفسر فى نفس الوقت لماذا خطبت خديجة نفسها لطفل رضيع ! استنتاجاتى سليمة لغاية كده ؟ ' .

– خد عندك دى كمان باعتبارى مغرم بالأغانى : عارف ' طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ' بتاع استقبال يثرب لمحمد القادم من الجنوب مع صحبه المهاجرين ؟ إيه معنى ثنيات الوداع ؟ إنها مكان إلى الشمال جدا : فى الشام ! وطبعا أم كلثوم تغنى كالعادة دون أن تفهم شيئا مما تقول . موش هى برضه إللى غنت ألف أغنية عن الحب ، بينما هى نفسها ...

– خطير الدليل ده ! هل الأغنية واردة فى مرجع مما يسمونه بكتب الصحاح !

– نفس النظرية : لو صحيحة فتلك مصيبة ، ولو مكذوبة فالمصيبة أعظم . طبعا منحولة ؛ مستحيل أن يكون قد غنوا شيئا كهذا ، ولم يعدمهم فورا عمر أو مُحَمَّد . لك لو شئت أن تبحث عمن ألفها ومتى ولم ألفها ، لكن هذا لا يهمنى ، المهم أن الناس تغنيها والرسالة الشفرية فيها واضحة وضوح الشمس (موش البدر !) .

– بصراحة ، أنا اهتممت فقط بالمصادر التى يعتبرونها موثوقة . مثلا ، محاولة تحديد تاريخ ميلاد فلان أو مين أبو علان هى أمور عبثية ، لأن الكتب متناقضة وعشوائية وتذهب فى كل اتجاه . السبب أن هؤلاء أناس أغبياء جهلة بدائيون ومن ' الظلم ' أن نطالبهم بالدقة فيما كتبوا ، أو بالأحرى فيما نقلوا شفاهيا لأنهم لا يعرفون الكتابة أصلا . ما فاجأنى فيما يخص نسب مُحَمَّد أن القطعة الأهم والتى لم يلحظها أحد ، هى حديث مبكر جدا ورد فى البخارى (صفحة ٥٠ وأنا عندى مشكلة مع صفحة ٥٠ فى كتب الدين ها أحكيها لك بعدين) ، يصف مُحَمَّدا فيه بالرجل الوحيد أبيض البشرة بين كل الجالسين ، ويزيد حتى أن كل أعضائه بما فيها الخصوصية جدا أماما وخلفا لونها أبيض . حديث البخارى يكاد يفسر كل شىء من أسرار السيرة النبوية الأذكى وأزكى من سوسن المريخ : من ناحية هو يلقى مزيدا من الأضواء على لغز تعلق خديجة العجيب الغريب المريب به بحيث حطمت كل التقاليد لتتزوجه وأسكرت والدها ليلتها لتتحاشى رفضه ... إلخ . لا شك أن تعلق خديجة بالطفل مُحَمَّد ، وهى صاحبة الشبق الهائل لأن يظهر نبى فى مكة عاصمة تجارتها ، هو دليل على معرفتها بنسبه ، وفرحتها أو ' عشمها ' أن هذا النسب القادم من نواحى أورشليم يمكن أن يؤهله للنبوة ، لتيقنها ثيولوچيا أن العرب عرق ' غير مختار ' ولم ولن ينجب نبيا أبدا ، وهذه كلها إثبات آخر تؤكد فى حد ذاتها صحة نظرية النسب الشمالى هذه . من ناحية أخرى وصف البخارى ذلك يؤكد فعلا قدوم نسب مُحَمَّد من بلاد الشام ، ويفسر نفور أقرانه الصبية منه وصمته ميله للوحدة . هل تذكر وصف جيبون لانطباع الجنود الرومان عن أبناء الشام أنهم أطرياء مخنثون (وأبناء مصر أنهم كالحون متجهمون ، وهكذا) ؟

– هأ ! هأ ! هأ ! أنت أدرى ، أنت من عاش هناك .

– ما الذى يضحكك ؟

– هل تذكر أول خلاف وقع بيننا ؟ أنك عنصرى ! الآن يتضح أنك ربما تكون أول شخص فى التاريخ حاول قراءة صحيح البخارى قراءة إثنية !

– ما علينا ! أليست قصص خنوثة مُحَمَّد لا حد لها ولا حصر ، من إطالته لشعره وصباغته له وتكحيل عينيه ولبسه ثياب النساء وتبوله جالسا وسعادته بحك الرجال جسدهم به ولحسهم إياه ودخولهم تحت ثيابه وقذف المنى فى مؤخرته ... إلخ ؟ بالمثل ، ضعفه الجنسى لا يحتمل الشك ، منه عدم وجود سجل لنشاطه الجنسى العالى أو حتى العادى حتى سن ٥٥ ، فهل من العادى أن ينشط الرجال فجأة بعد ذلك ، دورانه على نسائه بغسل واحد دليل أنه لا ينتصب ولا يقذف ، بحثه عن الإشباع حتى مع الحيوان أو النبات أو دم الحيض أو حتى الجثث ، خيانة عائشة ، عدم إنجابه ... إلخ ، ... إلخ . كل هذا يفسر عقدته الجنسية وسط عربان يمارسون الجنس مع ٢٠ زوجة وأمة يوميا ، ولماذا كان عجينة طيعة فى يد زوجته ، لا يستأفف أو يستنكف أن تخطبه هى ، وأن لا يدفع مهرا ، وأن تبقيه عاطلا وتخرج لتشتغل هى ، وأن تنفق عليه بقية عمرها ، ويفسر طيبته الكبيرة ككل ، للردح الأكبر من حياته إذا ما قورن بالـ natural born killers ، القتلة المحترفين من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وعمرو وخالد ... إلخ . كانت خديجة تأمره أن يذهب لقاع ذاك القمع البركانى الصغير المسمى حراء ، الذى يفوق فيلم منزل الرعب رهبة ، حيث لن تراك أو تراها ، تخاطبك أو تخاطبها ، إلا بعض النجوم السحرية ، زائد بعض الغيوم التى يمكنك أن ترى فى تصاويرها المتحركة اللا نهائية شبح أى شىء وأشباح كل الأشياء . كانت خديجة تأمره أن يتنسك فيتنسك ، أن يتواصل تحنثه شهرا فيتواصل ، وتجلس فى الخارج ولا يعترض ، فالواضح أن لا مكان للشهوة الجنسية بينهما ولا لأى شىء يفسد خطة التعبد الهلاوسى الإرهابى العنيفة التى ضحت بعمرها ومالها من أجلها ، إلى أن ابتهج قلبها بهبوط القطرة الأولى من الوحى ، ويا له من وحى ، وحى رقيق اتلبس وقطع الخلفة صاحبنا بسببه : ' اقرأ ! ' (وطبعا بعض المسيحيين المتعجرفين -ليس فقط لا يفهمون طبيعة أفلام الرعب ، إنما أيضا لا يفهمون السيريالية ولم يشاهدوا أيا من أفلام بونويل- يسخرون قائلين : ' يقرأ ماذا ؟ هل كان فى يده لوح ؟ هل مُحَمَّد يعرف القراءة ؟ بينما القصة ببساطة أنه كان يقول له ' اكره ' ، فسمعها اقرأ ، ومن هنا نشأ سوء الفهم والضرب وتقطيع الجتت والبهدلة وقلة القيمة بين الاتنين ! ' ، متناسين أن الأمر برمته -وحسب إجماع أهم كتب السيرة- كان : حلما ! حتى لويس عوض نفسه ما كان يصح له أن يورط قلمه فى دراسة هل كان مُحَمَّد أميا أم لا . من من العرب أصلا كان يقرأ أو يكتب ؟ ! أشعر شعرائهم كانوا أميين . ما أهمية الأمر برمته ؟ المهم هل هو جاهل أم لا . ما فائدة إن كان يجيد القراءة بينما لا علم لديه بأى شىء مما جرى أو يجرى بالدنيا -أو حتى بالدين- أو بأى من علومهما ؟ إذن لقد كنا نعرف حلم الجوعان وحلم الأعمى ، وها هو مُحَمَّد يضيف لنا حلم الجاهل : أسهل حلم يمكن أن يسأل فيه فرويد بل قطعا كان سيفرح به جدا ويدرجه فى كتابه لو كان قد سمع به : شخص جاهل حلم بأن

أحدهم ضربه علقة بعدها يصبح عالما ، وموش مهم ، علقة تفوت ولا حد يموت !) . كانت تأمر أبا بكر فيأخذ مُحَمَّدا ' من يده ' (هكذا بالحرف قالت السيرة) ويذهب به لورقة ، كلها و مُحَمَّد نفسه صامت ، تقريبا كان أقرب للأبكم طيلة الفترة المكية ، قطعة عجين تنتقل من الفخذ الأيمن للفخذ الأيسر لماما خديجة دون أن تفكر فى السؤال عن السبب ، وكذا ويفسر ميوله النسطورية التى حاولت مزج شريعة موسى بصوفية يسوع (بصراحة أنا تعاطفت معه طيلة الفترة المكية) ، وأخيرا يفسر لماذا اختطف منه عمر رسالته وحولها ١٨٠ درجة فى لحظة ودون كلمة اعتراض واحدة منه إنما انسياق أعمى مبتهج أهوج تام (أيضا شىء مثير حقا للإشفاق تلك القسوة التى بطش بها الناسخ -عمر- بالمنسوخ -مُحَمَّد) ؛ بل فى الحقيقة بياض بشرة مُحَمَّد يفسر كل شىء تقريبا . أكاد أجن أن أحدا لم يحاول فعل هذا من قبل !

– فعلا ! ذلك يربط الكثير من الأشياء معا على نحو مدهش .

– مُحَمَّد هو بالأكثر نصف عربى أو بالأحرى نصف مستعرب ، والنصف الآخر أعجمى . هل تتصور حجم الاستنتاجات والتداعيات التى يمكن أن تبنى بعد ذلك على حقيقة أن نبى العرب نفسه ليس عربيا ؟ ! أقلها أنه يفسر جزءا من الفارق الملموس بين طيبة آل البيت عامة ووحشية الصحابة إطلاقا ، وأهمها أنه يكاد يفسر بالكامل لغزا طالما استعصى على ، وهو لماذا أنشأ الفاطميون القدامى دولة حداثية فى شمال أفريقيا ، ولماذا أنشأ الهاشميون ذات الشىء طيلة القرن العشرين فى الأردن والمغرب بمحبة وانفتاح كاملين على الغرب والأديان الأخرى ؛ السبب ببساطة أنهم ليسوا عربا أصلا (طبعا ناهيك لو وضعنا جانبا نظريات الدروز والإسماعيليين الأبعد ، التى يمكن أن تنسب أجدادهم الفاطميين لأى شىء إلا نسب مُحَمَّد أو أى مما فيه شبهة عروبة) . آخر بصراحة : سيد القمنى (الذى لا يختلف عن زكريا قبرص ، أو بالأحرى هذا الأخير لا يختلف عنه) ، كان المفروض يؤلف كتاب ' الحزب الأموى ' موش ' الحزب الهاشمى ' ، لأن الأمويين هم من تمثلوا دولة الإسلام وهم من دفعوا لها ثم هم من استماتوا من أجلها حتى أسسوها ، أما بنى هاشم فكل ما فعلوه أن حلموا بها ، إن لم يكن حلموا فقط بمجرد نبى ودين ولا شىء أكثر !

– هايل ! يظل هناك شىء فات شيوخنا وقساوستنا الدواهى فى قصة النسب تلك ، هو دليل الفقهاء الوحيد على كون مُحَمَّدا ليس ابن زنا . إنهم لم يسألوا أنفسهم لماذا أبو سفيان بالذات هو الذى شهد بذلك . ليس السبب أنه أسلم والسيف على رقبته أو لأنه ممن ألفت قلوبهم بقطعان هائلة من الإبل ، إنما لأنه آخر من يمكن أن يتكلم عن الحسب والنسب ، فهو شخصيا مختلط النسب من جهة أمه ، بل نفسه زوج لعاهرة جعلها -دونا عن كل النساء- أما لأشهر أولاده (وما أدراك ما هند ؟ هند الهنود طويلة البظر آكلة لحوم البشر !) . إن معظم -إن لم يكن كل- الأمويين أبناء عاهرات ، وطبعا ليس من مصلحة أيهم أن يرى الناس فى العهر ما يعيب ، بل فى الواقع ربما كان يقصد سب مُحَمَّد بنفى الزنا عن أمه !

ويتداخل ضهرى : ' ولا واحد فيكم فاهم حاجة . أبو سفيان لم يشهد أصلا أن مُحَمَّدا ليس ابن زنا ، بل العكس هو الصحيح . سؤال هرقل الأصلى كان هل هو قريب لك ، فطبعا رد بنعم ، بالتالى هو أجبر على الرد على السؤال التالى بأنه ذو نسب . الواقع أنه لم يناده -لا هو ولا قريش ، لا أمام هرقل أو غير هرقل- يوما إلا بابن أبى كبشة . هل تعرفون من هو أبى كبشة هذا ؟ إنه جد آمنة لأمها ! ' .

– لكن كلامك يا ونس عن عمر قد ينطوى على نكتة ربما لم تأخذ بالك منها أنت أيضا ، أو ربما هى تحتاج لأرسطو كى يشرحها لنا بما يسمى المنطق أو الاستدلال -أو الرشد- الدائرى المفرغ circular reasoning : عمر قال ' نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ' ، بينما مُحَمَّد نفسه قال ' أتمنى أن يعز الله الإسلام بأحد العمرين ! ' .

– أنتم ما تعرفوش حاجة عن العرب ، خراج إيه وصغار إيه ؟ الحكاية موش محتاجة القرطبى أو ابن عباس ، أمى لما كانت تلقانا قاعدين موش بنعمل حاجة تغضب علينا وتقول ها تقعدوا لى قعدة عربان ، أو زى العربان ، يعنى كسالى تنابلة لا نفعل شيئا !

– النكتة أن أولاد العاهرات هؤلاء هم وصفونا نحن المصريين بالعبيد ، وكانوا يكتبون لولاتهم ' إن مصر إنما دخلت عنوة وإنما هم عبدنا نزيد عليهم كيف شئنا ونضع ما شئنا ' .



لا يمكن أن أكون مثلا ضد حكومة رمسيس الثانى أو يوليوس قيصر أو الچنرال فرانكو ؛

أنا فقط ضد الحكومات المنتخبة ديموقراطيا !

– أريد أن أصحح لك شيئا قد يهمك بصفتك ليبرالى اقتصادى : موش أصحابى بتوع أسيوط هم إللى دينوا المجتمع . لم يتدين المجتمع بسبب أى من هؤلاء ، لا بسبب العمال البسطاء إللى راحوا السعودية وانبهروا بفلوسها وافترضوا أن الفضل فيها للشريعة ، ولا بسبب شرايط كشك أو المحلاوى أو حافظ سلامة أو الإخوان عامة ، ولا بسبب طبعا أتباع الجماعات المسلحة أصحابى . كل هؤلاء وأولئك كانوا جزرا معزولة ، والناس العادية ، طبقة وسطى أو حتى أقل ، تبص لهم كلهم بتعالى وأنفة وتقول عليهم مجانين أو متخلفين . إللى دين مصر لازم يكون حاجة أكبر من كده بكتير . الشعب المصرى موش بسهولة يمشى ورا أى حد ، لازم الحكومة شخصيا . رغم كل ما يبدو على السطح من شتيمته للحكومة ٢٤ يوميا ، الشعب المصرى يعبد حكومته ، وما يطاوعهوش قلبه يطرف عينه من غير ما يستأذنها ، لأن البديل -إللى هو الليبرالية بتاعتك- أسود من العمى ، بديل مرعب -منافسة ومسئولية ووجع دماغ ومستقبل مجهول وقرف وانشغال بال من أولها لآخرها ؛ وعلشان ترتاح مصر منذ فجر التاريخ اشتراكية ، وأشك أن ده ممكن يتغير . ما تنساش أصلا يا نصير إلغاء الحكومة ، أن الحكومة والدولة نفسيهما اختراع مصرى ! المهم ، إللى دين مصر هو حكومة مصر ، تليڤزيونها ، وتحديدا شخص واحد عهدت له بالمهمة اسمه مُحَمَّد متولى الشعراوى ، وأتمنى ألا تعتبرها واحدة أخرى من نظريات المؤامرة الخيالية منى ، فهى بالنسبة لى أشياء معاشة ملموسة ، تحسها وتراها فى ابنتك وفى زوجتك وفى أصدقائك ، لا فى تصورات ولا سيناريوهات تفترضها دون أن تراها كالبورصة مثلا .

ويتداخل ضهرى الذى ظل يستمع فى صمت على غير عادته : ' بالضبط ! الحكومة عند كل شعوب الدنيا أسلوب لتنظيم الحياة ، أما عند المصريين فهى مسألة چيينات ! المهم ، أنا لا أعرف -طالما لديك كل هذا العداء للحكومات- لماذا لا تترك إله التوحيد فى حاله ، وتعتبر الحكومة هى أسوأ اختراع فى التاريخ ، لا سيما وأنها أيضا اختراع مصرى وأنت معادى لكل ما هو مصرى ؟ ' .

– أنا لست على طول الخط ضد الحكومة . لا يمكن أن أكون مثلا ضد حكومة رمسيس الثانى أو يوليوس قيصر أو الچنرال فرانكو ؛ أنا فقط ضد الحكومات المنتخبة ديموقراطيا ! ثم أن الحكومة ليست هى ما قلت عنه أسوأ فى التاريخ !



كل أنبياء التوحيد كانوا معاقين جسديا (وطبعا ذهنيا) ؛ كلهم كانوا مشوهى الأبدان أو على الأقل عاجزين جنسيا ،

الأمر الذى لم يترجم فقط فى عقم وعدم إنجاب إنما فى تشوهات حادة فى الشخصية .

هذا ينطبق على الجميع من إبراهيم القواد عديم النخوة والولد ،

وأخناتون المخنث ضخم المقعدة والعقدة معا (فهو زوج جميلة الجميلات نفرتيتى) ، وموسى الذى وجدوه فى سلة ،

انتهاء بمحمد المنكوب ٢٤ ساعة يوميا بعنته (حتى أقلهم شرا -يسوع- ليس بريئا تماما من عاهة الضعف الجنسى) ،

والاستثناءات من الأسوياء كداود وسليمان ، سرعان ما تركوا ماضيهم الدينى وعاشوا حياة خالية من الخرافة !

يلحظ ونس ما يعانيه وحيد الواجم من محنة فكرية ، ويميل عليه هامسا فى أذنه : ' فيه إيه ؟ ' .

– أود أن أشكرك على أن ثقتك بى فى موضوع الزهرى واندهاشك من توصلى له بسرعة ؛ إنها فى الواقع أكبر من ثقتى أنا فى نفسى . فقط لدى سؤال لن يجيبه إلا أنت : إذا كانت هذه أعراض زهرى مؤكدة ، وإذا كان الزهرى غير معروف العلاج آنذاك ، وإذا كانت عائشة قد عاشت حتى نحو السبعين ، فهل معنى هذا أنها لم تسمح له بلمسها ، على الأقل منذ بدأت تزوغ عيناه على أخريات ، وبدأت هى تعى أنوثتها ؟

– أهذا ما يشغلك يا صديقى المسكين ؟ ربما ستسأل بالتالى عن متى بدأت تعى أنوثتها ، أو عما عساه يكون عمر البلوغ للفتيات فى أرض الفقر والجوع والأجساد النحيلة والتقاتل على الطعام حتى على موائد الجنة بنص القرآن ؟ الإجابة لو يهمك الأمر ، أن عدد مرات الحيض التى مرت عائشة فى حياة مُحَمَّد تعد على الأصابع !

– هناك حديث لها يفهم منه أنها كانت تريه فرجها حين يصلى ، وحديث آخر أشد قطعية أنه لم يره منها قط ، لكن يقال عنه -أى هذا الحديث الأخير- إنه منكر وقد ابتدعته امرأة مجهولة !

– رائع ! كلاهما تنطبق عليه نفس القصة : لو صحيح فتلك مصيبة ، ولو مكذوب فالمصيبة أعظم . فالمهم -سواء كان لم ير فرجها ولم يلمسه ، أو رآه ولم يلمسه- هو ما تنقله هذه الأحاديث لنا من انطباع عموم الناس عن تسلطها وإذلالها له وتحريمها لنفسها عليه وفسقها مع غيره . ما قصدته هو ارحم نفسك ؛ المشكلة أعمق من هذا بكثير ! كل أنبياء التوحيد كانوا معاقين جسديا (وطبعا ذهنيا) ؛ كلهم كانوا مشوهى الأبدان أو على الأقل عاجزين جنسيا ، الأمر الذى لم يترجم فقط فى عقم وعدم إنجاب إنما فى تشوهات حادة فى الشخصية . هذا ينطبق على الجميع من إبراهيم القواد عديم النخوة والولد ، وأخناتون المخنث ضخم المقعدة والعقدة معا (فهو زوج جميلة الجميلات نفرتيتى) ، وموسى الذى وجدوه فى سلة ، انتهاء بمحمد المنكوب ٢٤ ساعة يوميا بعنته (حتى أقلهم شرا -يسوع- ليس بريئا تماما من عاهة الضعف الجنسى) ، والاستثناءات من الأسوياء كداود (الطفل المعجزة) وسليمان (المولود ملكا) ، سرعان ما تركوا ماضيهم الدينى وعاشوا حياة خالية من الخرافة ! حتى الإنسان البدائى الذى دائما ما تتهمه بأنه تطيرى واخترع الأديان بسبب عدم قدرته على تفسير الظواهر الطبيعية ، كان علمانيا أكثر مما تتخيل ، واقرأ التوراة لترى كم مليون مرة ترك اليهود إلههم ، فأصغر هزيمة عسكرية هى دليل على أنه ليس أفضل إله أو أنه وهمى الوجود ، وطبعا يبدأ الأنبياء والكهنة حملة غسيل مخ كاسحة من جديد أن هذا ليس لضعف الإله أو لوهميته إنما لعدم طاعتهم هم .

– أعرف هذا ، ورأيى كما تعلم أن الدين هو ما يجب وصفه بالإلحاد !

– السؤال الذى أقصده : هل قررت إضاعة بقية عمرك فى التفكير فى مثل هذه التفاهات ؟ هل مُحَمَّد هو الوحيد الذى جعل من كل عاهة فى جسده أو فى نسبه أو فى عقله أو فى سلوكه أو فى هلاوسه النفسية (أو حتى من أمراضه العضوية كالصرع أو غيره) ، علامة نبوة ؟ هل كان التاريخ سيختلف حقا لو كانت عائشة قد سمحت أو لم تسمح لمحمد أن يلمسها ؟ هل ... ؟ هل ... ؟ ما يمكننى قوله هو أنك تسير ببحثك فى الاتجاه الخاطئ . لتترك مثل هذه الأسئلة لأمثال زكريا قبرص يضيعون عمرهم فيها . التاريخ لا يصنعه إن كان فلانا قد لمس فرج فلانة أم رآه فقط ولم يلمسه ، أشياء أعمق كثيرا هى التى تصنع التاريخ ؛ أشياء يفعلها البشر دون علم بالضرورة منهم لماذا يفعلونها . هذه ليست نظرية مؤامرة ؛ هذه حقيقة . (ويضحك :) نجيب محفوظ أراح نفسه وجعل عائشة تشيخ مبكرا ؛ فقدت جمالها وأصبحت شمطاء فجأة ، وإن على أية حال كان متحفظا ولم يصل لحد أن يجعلها كعائشة الفاحشة الأصلية تزين ' تشوف ' جارية حسناء وتطوف بها لاصطياد الشباب لإطفاء شهواتها المكبوتة (زائد دخلها من القوادة طبعا) . لا تستغرب ! هذه رواية حقيقية ، ومن مرجع سنى ، لكن عامة ليس بوسع أحد أن يدعى أن الروايات الشيعية عن الصحابة-العصابة أقل مصداقية ولا سندا ولا تحقيقا من نظائرها السنية ، بل أراها مفتاحا رائعا يكمل القطع الناقصة من الصورة ، وهى الأكثر منطقية واتساقا لسبب بسيط أنها متحررة من قناع التقديس لكل من هب ودب ، بالذات وأنها جاءت من على وشيعته ، الأناس الأقرب للتقوى والصلاح والأقل ميلا للكذب والتزوير ، بينما الصحابة-العصابة رموز علنية لا تبارى فى التاريخ للغنائم والدسائس واستحلال كل الأفعال لأنفسهم .

– ظللت طيلة عمرى أعاف هذه التى تسميها تفاهات ، لكنها هى التى لم تعفنا . لك كل الحق فيما تقول ؛ لم احتقر نفسى قدر احتقارها فى الأيام الأخيرة التى كرستها لقراءة الإسلام . بصراحة لم أتخيل يوما أن أجد ما وجدت ، وظللت أردد : ' أى دين هذا ؟ ! لا توجد صفحة واحدة فيه وإلا وتنضح إما بالدم وإما بالسائل المنوى ، إن لم يكن عادة بالاثنين معا ، أما غلاف ذلك الكرهان الكريه فمصنوع من جلد فأر مدبوغ بحيض المراحيض ! ' .



ب- ماضى أبعد

الله أرسل نوحا كى يغرق الأرض ، وإبراهيم كى يهلك سدوم وعمورة ، وموسى كى يقتل الفلسطينيين ، فما الغرابة إن أرسل مُحَمَّدا كى يذبح كل البشرية ؟ !

تمر الأيام -أسبوعا آخر أو نحوه- ويكاد ينسى الجميع ما حدث . لقد خفتت أخبار الصعيد ، ولم تعد فى صدارة النشرات أو التصريحات ، ووجدت برامج التليڤزيون الحوارية أشياء جديدة أكثر إثارة ، بالذات بخصوص مظاهر جديدة لممارسة الحرية الجنسية ، لكن الزلزال الذى أصاب وحيد لم تتوقف توابعه . قبله كانت أغلب نقاشاته مع الحاج ضهرى ، والآن احتل ونس هذه الصدارة ، على أن الحقيقة أن ضهرى كان موجودا دائما ليس فقط بحكم ترتيب ما يسمونه مقاعد مجلس الأمن ، إنما موجود فى صميم المناقشات نفسها دون أن يشعر أيهما ، أو إلى أن كشفته مناقشة مطولة أخرى ، لعلها ستصبح الأخيرة فى مسلسل دروس ونس لوحيد فيما يخص الإسلام وفرق الإسلام .

– أنت عارف دلوقت بيفكروا إزاى ؟ بيقولوا الله أرسل نوحا كى يغرق الأرض ، وإبراهيم كى يهلك سدوم وعمورة ، وموسى كى يقتل الفلسطينيين ، فما الغرابة إن أرسل مُحَمَّدا كى يذبح كل البشرية ؟ ! ربما رفع موسى السلاح للدفاع لا للغزو ، لحماية الدين لا لفرضه على الأغيار ، من أجل أرض ميعاد هى فلسطين لا كل العالم ، لكن هل هناك ما يمكن أن يثبت أن الرسائل كانت أنواعا متباينة ، أو أن إسلامنا ليس رسالة من الله ، إله المسيحية الطيب نفسه ، فقط بعد أن وصل لذروة فهمه للبشر وأرسل دينه الأخير وعدا حقا بكل الأرض لمحمد وآله وقبيلته ؟ هكذا الرسالة ! ما المشكلة ؟ ! الأبعد أن الإسلاميين فى الغرب ممن يطالبون بحكم الشريعة وبالولاية العظمى لأنفسهم باتوا يعلنون كل الأوراق صريحة بشجاعة (أو ربما لأن الكلام فى الغرب لا يحتاج لشجاعة ، أو لأن أحدا لم يعد يشترى التقية وأصبح اللعب كله على المكشوف) : الإسلام ليس دينا ودولة ، إنما فقط : دولة ! لا تنس أنه بالذهاب لأفغانستان والاختلاط بفرق شتى من مختلف بقاع العالم ارتفعت لديهم نبرة الاستحلال والاسترقاق والغزو (الإخوانية بالأساس) ، وبات من الصعب اليوم أن ترى ذات النقاء البيوريتانى الذى رأيت عليه إيمان أصدقائى فى أسيوط قبل عقود طويلة ، وإن كنت أظل أعرفه لو قابلته . لم يكونوا سلفية حنبلية-وهابية-ألبانية غير جهادية لا شأن لها بالسياسة ، ولا سلفية جهادية مسلحة لا شأن لها إلا السياسة ، إنما جهاديون من نوع خاص ، جهاديون من أجل السلفية ، من أجل إقامة الحياة البيوريتانية النقية المتقشفة ؛ لكن يبدو أن قدر كل حركة إسلامية التحول فى خاتمة المطاف لحركة جهادية ، فالجهاد (= الحرابة الشرعية) هو ما يدور حوله الإسلام ، هذا هو صحيح الإسلام وتلك هى طبيعته وتركيبته ، وآخر مثال المطامع السياسية العالمية الجديدة لحكام الخليج بعد تراكم الثروة والإحساس بالنفوذ بين أيديهم . السلفية إللى تبدأ كل خطبة لهم بعبارة كل بدعة ضلالة (وما لهومش كيف أكتر من أن يقولوها بالميكروفونات والكاسيتات والساتيلايت والإنترنيت) ، تحمل تناقضا آخر أعمق من هذا ، هو أن مصيرها المحتوم حمل السلاح ، فالإسلام كل لا يتجزأ ، وسورة التوبة التى يتحايلون عليها بأنها الولاء والبراء بالقلب والاعتزال ، هى ذروة الإسلام وغايته . ثم بعد أن تتحول من سلفى لسلفى جهادى كما فعل الشباب السعودى وانضم للقاعدة ، ما المانع بعدها أن تتخلى عن الشكليات السلفية (أو حتى عن الإيمان نفسه) ، بأن تصبح جهاديا فقط ، جهاديا عصريا تستفيد بالكامل من إنجازات الغرب كى تقهره بها ، وهذا هو حال الإخوان والذين لحق بهم مؤخرا حكام الخليج ؟ القاعدة الفقهية تقول الدولارات تبيح المحظورات ، لأن عند الإخوان الدولارات من الأصول والمحظورات من الفروع ، وكل الأشياء تحسن فى الرب : التوحيد والقتل والتقية والنهب تصبح كلا واحدا يتماهى معا ولا يتجزأ ! فرق ومتاهات خضت فيها لعشرات السنوات ، جعلتنى أعيد النظر فى أشياء كثيرة . حتى عصام وعاصم نفسيهما لم أعد أراهما بعد كشىء واحد ؛ عصام يبدو لى الآن مصريا جدا ، بينما عاصم يبدو لى شديد العربية ، لكن مثل هذه التفرقة لم تكن واضحة بالمرة لى أيامها . كانا صديقين لا يفترقان للحظة ، هذا يشوش عليك أنهما نسختان من ذات الشىء ، بينما الآن أرى بجلاء أن أحدهما كان مفكرا هادئا والآخر ناشطا عنيفا . اليوم أكاد أربط عصام وحده دون صديقه بمجلات الحائط الليبرالية التى تحولت لإسلامية ، وأربط عاصم بالأساس بتكسير سيقان الشيوعيين وبمذبحة مديرية الأمن (من البداية كان كل طالب أو طالبة فى جامعة أسيوط يعلم بحكم المعايشة اليومية أن الشخص الثالث المكتوب اسمه على دستور الجماعة شخص أهبل أرعن لا وزن له ومجرد أمير شكلى لا أحد يفهم لماذا اختاروه ، واليوم أضيف بثقة أن عاصما بالمثل لم يشارك فى تأليف ' ميثاق العمل الإسلامى ' ، وأن كل الجهد التنظيرى للصحوة الإسلامية التى ولدت سنة ١٩٧٥ يخص عصاما ولا أحد آخر) . من الطبيعى أن تأثرت أنا نفسى بتلك الضوضاء الذهنية ، وغرقت فى النصوص وحرفياتها

وتناقضاتها ، فقط لأكتشف فى النهاية أن انطباعاتى الأولى جدا التى كونتها سنة ١٩٧٥ قبل أن أقرأ أى شىء ، كانت هى الانطباعات الصحيحة .

– وما هى هذه الانطباعات ؟

– هى باختصار أن مُحَمَّدا -دائما أبدا ، ولاحظ دائما أبدا هذه- أقرب لشعار يرفعه الجميع كى يحشدوا الناس حوله ، لكن الإيمان الحقيقى الذى فى الصدور شىء مختلف ، عليك أن تبحث وراء الأقوال -وهى مختلطة جدا ومربكة جدا- لتعرف كنه الإيمان الحق لدى كل أحد . مبدئيا مُحَمَّد كان إنسانا أبسط وأجهل من أن يصنع أى شىء ، ناهيك عن أن يخلق بنية معقدة متكاملة لدين (كم عدد خلايا مخه أصلا ؟ أعتقد شخصيا أنها تعد على الأصابع !) . الشيعة تقول بعصمة الثالوث المقدس (مُحَمَّد-على-فاطمة) ، ولا غضاضة عندهم حتى من التباهى بدقائق العلاقة المحارمية بين مُحَمَّد وفاطمة (بفرض أنه كان ينجب أصلا) ، فأى شىء صدر عن ثالوثهم هو القداسة المطلقة عينها . أما إيمان أهل السنة والجماعة -بالذات حين تميل من السلفية إلى الجهادية- فهو الإيمان بألوهية عمر ، وترى الإيمان بمحمد نفسه (ناسك مكة الشاب البائس المتخبط) شركا ويحظرون مثلا التعبد عند قبره أو الاحتفال بمولده . أما الله فهو شىء لا يكاد يعرف الصحابة-العصابة وتابعيهم عنه شيئا . من هنا أتى تكفير السنة للصوفية الموزعة بدورها ما بين فرق تعبد مُحَمَّدا وفرق تعبد الله . فى جميع الأحوال ، كل هؤلاء المعبودين هم بلا استثناء أصنام جامدة ، والكلمات الظاهرية لا تكفى وعليك البحث عن الجوهر الحقيقى لعقيدة كل أحد لترى حول أى شىء تتمحور وما هو المقدس أو الخط الأحمر أو الوتر المكشوف الذى تلتهب الدنيا حين تقترب منه ، ومن هنا مثلا فإن المقصود بكلمة السنة أنها سنة إله الإسلام الحقيقى ، عمر ، سنة النهب والسلب واستعباد العالم ، لا أكثر ولا أقل .



للإسلام الجدى ثلاثة خطوط حمراء : المسلم تابع أعمى ، والمسلمة جارية ، وغير المسلم عبد ، عدا هذا كل شىء قابل للنقاش ! كل شىء فى العقيدة الإسلامية يمكن الاجتهاد فيه وتغييره إلا جوهرها والشىء الذى تدور حوله : استرقاق واستحلال شعوب العالم ؛ هذا هو قدس الأقداس الذى لو اقتربت منه أو حاولت فضحه فقد تجاوزت الحد الذى تراق دونه كل الدماء . ... افهموها بقى : العرب لم ولن يكونوا يوما إلا حفنة لصوص ، والإسلام هو أضخم وأنجح غارة سلب ونهب فى تاريخهم وفى كل التاريخ الإنسانى ، والمشكلة المزمنة أن سيظل أحفادهم يحلمون للأبد بتكرارها !

– أنت فاكر ماذا قالت الفتاوى بعد موجات الارتداد الهائلة الأخيرة ؟ قالوا لا شأن لنا بالارتداد طالما ستحتفظ به فى قلبك ، لكن أن تجاهر به فأنت تتحدى دولة الإسلام ؟ الإخوان مجاهدون نعم ، أكثر الناس اتباعا للسنة نعم حتى لو يرتدوا الجلابيب مثلها ، وقطعا لا علاقة لهم بشاكيرا إلا كون كل واحد فيهم يحلم بأن يسبيها ، من هنا فالسؤال الحقيقى هو : من أجل أى شىء بالضبط يجاهدون ؟ خادم القرفين نفسه إللى بيقولوا عليه نايم فى حضن أميركا هو جهادى . الراجل بيقول حاجة بسيطة : إزاى أخلى سكان العالم مسلمين بالفعل قبل أن أخليهم مسلمين بالقول . ويكرس أموال البترول لتحويل المسيحين والبوذيين وكل الدنيا للإسلام ، وطبعا هو يعرف أهمية ما يفعل واضعا فى الاعتبار حقيقة أن الإسلام one way ticket ، ولو عاوز ترجع ها تعدم . الموضوع محصور إذن فى خلافات حول تقدير المراحل لكن الهدف واحد : الدولة الإسلامية العالمية ، الدولة التى طالما كانت دولة أغنام وأسلاب وسبايا وحرب وملكات يمين ومطامع شخصية وشهوات وانحلال . ما ينطبق على هؤلاء هو العكس بالضبط من مقولة إن الإسلام دين ودولة ؛ الإسلام دولة فقط ، وعمر هو الإله . مُحَمَّد نفسه قال ' كل أمتى معافى إلا المجاهرين ' و' إن الله غفر لأمتى ما حدثت به نفسها ؛ ما لم تعمل أو تتكلم ' . عارف دى معناها إيه ؟ معناها أنك موش لازم أصلا تكون مؤمن بمحمد ولا بربنا علشان تروح الجنة ، المهم أنك ما تعلنش ده وتتحدى دولة الإسلام . المهم الدولة موش الدين ؛ المهم الإذعان حتى لو خلت دولة الإسلام من مؤمن واحد . دعك من النصوص وتضارب الفرق ، ولنحاول رصد ما هو الإسلام وتياره الرئيس على أرض الواقع . سأقولها لك بدقة وصراحة : للإسلام الجدى ثلاثة خطوط حمراء : المسلم تابع أعمى ، والمسلمة جارية ، وغير المسلم عبد ، عدا هذا كل شىء قابل للنقاش ! كل شىء فى العقيدة الإسلامية يمكن الاجتهاد فيه وتغييره إلا جوهرها والشىء الذى تدور حوله : استرقاق واستحلال شعوب العالم ؛ هذا هو قدس الأقداس الذى لو اقتربت منه أو حاولت فضحه فقد تجاوزت الحد الذى تراق دونه كل الدماء . ... افهموها بقى : العرب

لم ولن يكونوا يوما إلا حفنة لصوص ، والإسلام هو أضخم وأنجح غارة سلب ونهب فى تاريخهم وفى كل التاريخ الإنسانى ، والمشكلة المزمنة أن سيظل أحفادهم يحلمون للأبد بتكرارها ! السيطرة على العالم -كل العالم- هى الحلم العربى ، ولو بتتابعوا الأغانى زيى ها تلاحظوا أن كل يوم بيعملوا عليه أغنية جديدة ! من ١٤٠٠ سنة عمر بن الحطاب والحطابة جابها م الآخر : ' نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا ! ' . إذا كان هناك شيء اسمه ثوابت الأمة فهو فقط هذه العبارة ؛ هى الشيء الوحيدة إللى موش ممكن يطلع أبدا من مخيلة الإخوان وكل الإسلاميين السياسيين التايوانى أو النص كم أو الوقيع أو الفرز التانى -سموهم زى ما تحبوا- رغم أنى متأكد وأعرف كويس أن أغلب أشهرهم لا يؤمن بالله أصلا . أنت لا يمكنك تمثل كيف يشتغل عقل أو قادة الإخوان بدون افتراض أنهم علمانيون . إنما تقول إيه ؟ ما فيش قدامهم قشة تانى ؛ شاغلهم الوحيد هو الحفاظ على الدين باعتباره فرصتهم الأولى والأخيرة وكلمة السر الوحيدة لتوحيد الأمة كى تقوى على النهب والسلب والإغارة على الغير ! مهما تقول لهم إن الأديان خرافة ، لديهم الواقع : الله أعزنا بالإسلام ، وبالتالى لن نحاول أبدا التفكير فى وسيلة أخرى . الأهم أنهم يعرفون أن الأديان خرافة فعلا ، بينما المصريون لا يعرفون . فى السعودية عبارة شهيرة جدا يقولونها للمصريين : ' خذوا النبى وأعطونا شارع الهرم ' .

ويتداخل روميو : ' هأ ! هأ ! أنا أعرف بس أن نفسهم كل السعودية موش المنطقة الشرقية بس ، تبقى تبع شركة ' حرامكو ' ! ' .



– للأسف هذا صحيح ؛ فى طفولتى كنت أعرف أن لا إسلام إلا إسلام الصوفية الطيب البسيط بتاع المواسم والموالد (دين فقط) .

فى شبابى اكتشفت أن السلفية هم التجسيد الحقيقى الإسلام ؛ أساتذة فقه ضبط النصوص مع بعضها البعض (دين ودنيا) .

الآن بعد كل رحلة العمر هذه ، اكتشفت أن الإسلام الصحيح لا هذا ولا ذاك .

اتضح أن السلفيين مجرد دواب قبل تاريخية ، كائنات حافظة موش فاهمة ،

وأن من يفهم الصهاك حق الفهم هو الإخوان المسلمون ، والإخوان المسلمون وحدهم .

هذه العصابة السرية هى التجسيد الأمثل لمقاصد الشريعة وروحها ، أى انتهاب واستلاب واستعباد العالم

(دنيا فقط -دولة بلا دين : ' عقيدة ' تشرح لك كيف تتغوط وكيف تمارس النكح ،

بينما تتهرب من كل الأسئلة القاعدية للدين -الروح ، صفات الإله ... إلخ ،

ذلك أن العرب لا يعرفون أصلا تعريف كلمة دين ، وليست لديهم أية خبرة فى كيف تصنع الأديان) !

– اكتب هذا فى كتاب اجعل عنوانه ' رحلتى من الإسلام الفصولى إلى الإسلام الأصولى إلى الإسلام الوصولى ' !

– موش ملاحظ يا ونس أن فيه تناقض فى كلامك : فى البداية كنت بتقول الإسلام هو الإيمان بمحمد وأنه الإله والشوارع تولع لو اتشتم ، وبعد شوية بقيت تقول مُحَّد ولا حاجة ؟ أريد أن أقول لك إنى بتفكيرى المادى أسهل شخص يمكن أن يقتنع بنظريتك عن أن الإسلام هو عمر . حتى لو كان أمثال عثمان ويزيد قد وصلوا بالأمور لحدودها القصوى فالفضل الحقيقى الأصلى لهذه الستراتيجية يظل محفوظا لعمر ، هذا الذى نجح فى أن يجعل استعباد العرب للعالم وسفكهم لدمائه تكليفا قدسيا إلهيا وكرهانا كريها يتلى حتى آخر الزمان . إنها قصة مررت بها ألف مرة فى حياتى ؛ هى عين جدلية أفلاطون-أرسطو التقليدية عن المعنوى والمادى . طبعا الإسلام ليس كلاما ولا فكرا إنما جيوش تغزو . يا ليت العمر طال بخليل عبد الكريم حتى كان يكتب لنا عن عمر هذا .

– ما أردت قوله إنك تسير فى الاتجاه الخاطئ ، ووقعت أسيرا للكتابات التقليدية -مع أو ضد الإسلام- التى رحت تقرأها . مثلا مما لا يعجبنى فيكم أيها الكتاب العلمانيون هو طرحكم شعار ' الإسلام هو المشكلة ' فى مواجهة شعار ' الإسلام هو الحل ' .

يقاطه روميو : ' من قال هذا ؟ نحن العلمانيون نقول ' الإسلام هو الحل (لكل منحل) ! ' ' .

يواصل ونس : ' الدين ليس خطيرا كما قد تتصور . الدين دائما مفعول به ولم يكن يوما فاعلا . سمعتك أكثر من مرة تتحدث عن كونه أيديولوجية عبيد روما . هو أيديولوجية كل العبيد فى كل زمان ومكان . هل صدقت أن طباخ السم يذوقه فعلا ؟ المخترعون والأثرياء والحكام ليسوا فى حاجة للدين . لو آمنوا بالآلهة لما اخترعوا شيئا ولما أثروا قط ولما حكموا أحدا . سمعتك أنت نفسك تقول ذات مرة إن الاختراع يحتاج لبيئة معينة لازم يعيشها الطفل من صغره ، بيئة ما فيهاش أى شيء مقدس . ها أجيبها لك م الآخر يا وحيد يا بنى ، وبكلام تقريبا هو كلام

أرسطو حبيبك ، بس من واحد بسيط غلبان زيى اتمرمط فى حكاية الدين سنين وسنين وشاف العجب من كل صنف ولون : الكل هنا يعتقد أنى انتصرت على ضهرى فى تلك المناقشة ويقارنونها بهزيمتى يوم قافية سهم الفراخ . الحقيقة أنه هو الذى انتصر ، وبالضربة القاضية . هل تعرف ماذا قال لى وهو يميل على ونحو منصرفين فى ذلك اليوم المشئوم ؟ ذكرنى بكلامى عن المسلم المتدين الذى قلت إنه ينظر للمسيحى من فوق لتحت ، وصحح لى قائلا إنه لا يفعل ذلك لأنه مسلم وذلك مسيحى ويريد تغيير دينه له ، إنما لأنه عربى وذلك غير عربى ويريد استعباده ! فى لحظتها كدت أتهاوى ، لقد هدم كل كلامى بكلمته الصغيرة هذه . أعدت التفكير ووجدت أن المشكلة أعمق من كل الأمور الدينية بكثير . نحن الآن فى ٢٠١٠ وعلينا تجاوز ليس فقط الاستغراق فى حرفية النصوص ، بل أن نتجاوز عقدا كاملا من محاولات تفنيد الإسلام كعقيدة ، وأن نبحث عم يكمن وراء هذه العقيدة ، من أين أتت وما الذى يجعلها شديدة الاختلاف والوحشية والبدائية هكذا دونا عن كل أديان العالم . أنا كنت قد قلت يومها إن المشكلة ليست فى الإخوان ، المشكلة فى القرآن . هذا خطأ جسيم . من صنع هذا الكرهان أصلا ؟ ستجدهم أناسا أقرب للإخوان منهم للطالبان . ليس صحيح الإسلام هو من يحاول أن يوفق معا أكبر كم ممكن من الأحاديث ، فهذه مهمة عبثية ولا معنى لها أصلا ، وعلى السلفيين أن يعلموا أن مُحَمَّدا نفسه كان أساسا متضاربا متخبطا مضحكا مذهوب العقل أغلب الوقت ، ومما لا يجلب سوى السخرية محاولة أحد الترقيع أو الترميم من ورائه ؛ إنما صحيح الإسلام هو مقاصده وروحه كما أرادها له عمر أن تكون ، فهذه هى الشىء الوحيد إطلاقا المتبلور المادى الملموس وواضح المعالم والأهداف ! ' .

– يعنى باختصار : أنت تدينا محاضرات بالساعات فى الإسلام تبكت فيها جهلنا ، ثم كلمة واحدة تجعلك تغير رأيك وتأتى لتقول لقد عشت كل عمرى على خطأ !

– للأسف هذا صحيح ؛ فى طفولتى كنت أعرف أن لا إسلام إلا إسلام الصوفية الطيب البسيط بتاع المواسم والموالد (دين فقط) . فى شبابى اكتشفت أن السلفية هم التجسيد الحقيقى الإسلام ؛ أساتذة فقه ضبط النصوص مع بعضها البعض (دين ودنيا) . الآن بعد كل رحلة العمر هذه ، اكتشفت أن الإسلام الصحيح لا هذا ولا ذاك . اتضح أن السلفيين مجرد دواب قبل تاريخية ، كائنات حافظة موش فاهمة ، وأن من يفهم الصهاك حق الفهم هو الإخوان المسلمون ، والإخوان المسلمون وحدهم . هذه العصابة السرية هى التجسيد الأمثل لمقاصد الشريعة وروحها ، أى انتهاب واستلاب واستعباد العالم (دنيا فقط -دولة بلا دين : ' عقيدة ' تشرح لك كيف تتغوط وكيف تمارس النكح ، بينما تتهرب من كل الأسئلة القاعدية للدين -الروح ، صفات الإله ... إلخ ، ذلك أن العرب لا يعرفون أصلا تعريف كلمة دين ، وليست لديهم أية خبرة فى كيف تصنع الأديان) !

– اكتب هذا فى كتاب اجعل عنوانه ' رحلتى من الإسلام الفصولى إلى الإسلام الأصولى إلى الإسلام الوصولى ' ! ... يا راجل ده كلام ؟ ! فى لحظة تخون عشرة عمر أصحابك القدامى ، وتنسى كل الكلام عن البيوريتانية والجهاد من أجل السلفية ؛ تنحيه كله لتقر فجأة أن الترزية الأربعة فهموا الإسلام خطأ على أنه دين ، وأن الإسلام الصحيح هو فقط الإسلام السياسى التنظيماتى الناشط (الحركى) ، إسلام الجهاد من أجل الاسترقاق والاستحلال والاغتنام ، أى الحرابة الشرعية ——قطع طريق خالص بلا براقع ولا مبررات ولا أوراق توت ، وتريد إفهامى أن الكل كانوا يفكرون هكذا طوال الوقت ؟ !



المشكلة موش فى الدين ، المشكلة فى الچينز !

يأخذ ونس نفسا عميقا يكشف عن بعض خرفشة فى صدره البدين ، محاولا لملمة ما سوف يجيب به على سؤال وحيد الذى خلا من كل لباقة ، ثم يقول : ' أنا أكثر من حاول القراءة بين السطور فى النص الدينى والتاريخ الدينى ، وأنا أكثر من تعود التحصن من دهاليز المستنقع الدينى بأن كنت أقول لهم من البداية إنى لا أؤمن بوجود الإله ، لكن عارف الغلط بييجى منين ؟ من المجتمع ، ومن الافتراض القاعدى الراسخ فيه أن الإسلام دين . من ثم أنت تغرق فى معارك التيارات المختلفة بحثا عن أيها سوف يستطيع توفيق أكبر قدر ممكن من النصوص معا ، وأيها سيستطيع إقناع أكبر جمهور بأنه صحيح الدين الذى لن تقدر فرقة أخرى أن ترفع فى وجهه نصا تقول له إنه يخالفه (طريقتى للتمييز بين الشيخ الضليع والشيخ الأى كلام ، أن أمسك الساعة وانتظر من يقول أولا ' الكل يؤخذ منه ويرد ... ') . لذا مهما كنت غير مؤمن بالدين فأنت مضطر للبحث أية فرقة هى الأصح : هل الصوفية ، هل السلفية ، هل السلفية الجهادية ، هل الجهادية من أجل السلفية . لكن أسوأ ما فى الأمر

أنك طوال الوقت تنحى تلقائيا الإخوان جانبا باعتبار أنهم ليسوا ذوى إيمان أصلا ، وأن الشعب -الذى لا يريد إلا وجه الله- يلفظهم لعلمه أن الدين ما هو إلا مطية لهم لأهداف دنيوية خالصة ، لكن السؤال : هل كل الشعوب تريد وجه الله ، أو تريده بنفس القدر ؟ هنا أغمد ضهرى سيفا فى عقلى بكلمته اللئيمة تلك عن العرب . رغم علمانيتى ، ورغم علمى من البداية بدنيوية أهداف الإسلام ، وبأنه إسلام عمر ... إلخ ، فإن الغلطة هى أنه إذا كانت تلك هى صورة الإسلام الأصلية ، فلا بد أنها أصح صوره إطلاقا ، فكيف استبعدت احتمال أن تكون لها -كما هى بلا براقع ولا مبررات ولا أوراق توت كما تقول- الغلبة فى إقناع الناس يوما . ساعتها لن يهم حتى أن يتخلى مبشروها -الإخوان أو أيا من كانوا- عن التقية والمراوغة ، وأعلنوا أهدافهم دنيوية صريحة ، كما فعل الشباب الخليجى المقيم بالغرب الذى تحدثنا عنه للتو . (يتوقف وبعد برهة يردف ضاحكا :) ضهرى ده حاج ، سره باتع ، وجايز بيعمل لنا سحر أو عمل فى أدمغتنا . (ثم يردف شاردا :) شوف الدنيا عجيبة إزاى ؟ فضلنا نخبط فى بعض أنا وهو فطلعت النتيجة أنك أنت إللى صح : أرسطو والمادية ! الأديان والأفكار أشياء ثانوية ، والشعوب سترحب بهذا الدين -وهذا ينطبق على كل دين لدى كل شعب- لأسباب ذاتية جدا وعميقة جدا لدى هذا الشعب أو ذاك ، أو ما أسميته أنت ذات مرة الأعماق الچينية للشعوب ، أو ما أسماه هنرى كيسينچر بعدك بقليل بالطبقات الچيولوچية للشعوب ، أو ما يسميه ضهرى بالبصمة الچينية للشعب ، أو ما أسميه أنا بـ C.V. الشعب ، لكن الواضح أن الكل بيدور حوالين فكرة قديمة لأرسطو إللى لاحظ ببساطة أن الشعوب مختلفة ولا يمكن تتلاقى أبدا ، أو كما تقول أنت بعد محاورات أرسطو وأفلاطون لا يوجد جديد فى الفكر الإنسانى . (ثم يتأوه :) آه ! الحاج عنده حق بصحيح . الراجل جابها لى م الآخر : المشكلة موش فى الدين ، المشكلة فى الچينز ! ، والناس -وأنا واحد منهم- موش فاهمة ، جايز لأنها تشبه نظرية الفرخة ولا البيضة ؟ ' .



كما أن الشعوب تستحق حكامها ، بالمثل هى تستحق أنبياءها ؛

الإسلام ليس سبب انحطاطنا ، هذا ظلم ، انحطاطنا هو سبب الإسلام !

الإسلام عرض لا مرض ، ولو أردت حلا عليك البحث عن أصل الداء !

الفرخة أم البيضة ؟ الدين أم الچينز ؟ !

إيه حكايتكم مع ' ها أجيبها لك م الآخر ' ؟ العلم ما لهوش لازمة بأه لما الحاجات ممكن تيجى م الآخر ! ثم إيه الحكاية ؟ كل الناس بتتكلم بلغة الچينيات . نشأت أعتقد أنى الوحيد المهتم بهذا الموضوع ؟ ماذا قلت يا ونس ؟ كما أن الشعوب تستحق حكامها ، بالمثل تستحق أنبياءها ؛ الإسلام ليس سبب انحطاطنا ، هذا ظلم ، انحطاطنا هو سبب الإسلام ! الإسلام عرض لا مرض ، ولو أردت حلا عليك البحث عن أصل الداء ! الفرخة أم البيضة ؟ الدين أم الچينز ؟ ! هل هذا ما سمعته ؟ ! أوه ! يا لغبائى ! بل هل هذا ما يحاول ضهرى أن يقوله لى طوال الوقت ؟ !

– لماذا اكتأبت هكذا ؟ كل الناس لا تهتم بشىء أكثر من هذا ، من أول صاحبك أرسطو بتاع ' السياسة ' ، لغاية شفيق جلال بتاع ' ع الأصل دور ' ، لغاية مراتى إللى مطلعة عين ابننا علشان بيحب زميلته إللى موش قد المقام . شوف قاموس الاستعلاء الطبقى عندنا ستجده يتكون من ألف كلمة : على قد حاله ، تعبان ، فقران ، ميتان ، عدمان ، جوعان ، حفيان ، عريان ، كحيان ، جربان ، غلبان ، مسكين ، شحات ، واغش ، وابش ، رابش ، غجر ، حلب ، شلق ، حوش [بفتح الحاء والواو] ، ناقص ، جربوع ، خسيس ، هلفوت ، سنكوح ، مقطوع ، مبهدل ، مدهول ، دون ، واطى ، منحط ، جلياط (بتاع داود) ، جلف ، جلنف ، حلوف ، دندوف ، حثالة ، زبالة ، رمامة ، رمة ، معفن ، مقشف ، مقيح . وكأن كل ده موش كفاية أضافوا كلمة ' بيئة ' من كام سنة ! أتحداك إن خلا كلام أحد من إحدى هذه الكلمات لمدة ساعة كاملة . بينما فى الغرب أقصى كلمة يستخدمها الناس هى كلمة ضعيف ، وكلمة فقير نفسها بتعتبر عنيفة ومهينة ، لأنه جايز يكون غنى بمهارات أو حاجات موش ظاهرة . الغربيون والعلمانيون يقولون هاللو أو هاى أو صباح الخير ، والمسيحيون يقولون السلام لكم ؛ كلها عبارات أفقية توحى بالندية والتكافؤ ، لكن عندنا نقول السلام عليكم ، وهى عبارة رأسية يهبط فيها الكلام من أعلى لأسفل سواء من المتحدث أو من الإله أو أيا ما كان . صديقى ، لا تشعر كثيرا بالذنب أنك ولدت وفى فمك ملعقة من ذهب . الچينيات التى تتحدث عنها أنت وضهرى كما كيمياء عسيرة الفهم ، هى معلومات شائعة تماما لدى كل الناس منذ آلاف السنين ، ويسمونها الطبع يغلب التطبع !

بينما يحاول ونس تذكر ذلك الموال الذى يتحدث عن الأصيل والخسيس ، ويقترح عليه البعض أنه ربما لمحمد طه وليس لشفيق جلال ، يقول وحيد لنفسه : الفرخة ولا البيضة ؟ ! الدين ولا الچيين ؟ ! عندك حق ! فى مشكلتنا معروف من جاء أولا ، الچيين أولا والكائن ثانيا . أيضا البيضة والفرخة لم تكن يوما بالمعضلة التى تستعصى على العلم ، أو حتى يهتم بها لفرط تفاهتها . هى أحجية تلغز السذج ، لكنها أسهل مما يتخيل أحد . العلم يحسمها ببساطة . (ثم عند هذه النقطة يصبح الكلام مسموعا وموجها لونس :) البيضة طبعا هى الأول والدين بعد ذلك ؛ لم يحدث أن تطفر طائر أثناء حياته وأصبح دجاجة فجأة . ما حدث هو أن وضع بيضة mutated أفرخت دجاجة .

– (فاغرا فاه :) تصدق صح ! أحسن نظرية مؤامرة سمعتها فى حياتى !

الدين والچيين ؟ ! هل هذا ما أردت توصيله لى يا ضهرى اللعين ؟ لك حاجات يا حاج !



فصل الدين عن الدنيا

يا للعنة ! الاستعلاء الطبقى ؟ كيف فاتنى هذا ؟ ذات مرة كتبت أمحص الرأى الشائع بأن الضحك ينتج من المفارقة . قلت إن هذا اختزال سطحى لكلام أرسطو ، وإنه كلام عام يفتقد للتمحيص الكافى ، وإن مثلا هناك مفارقات تبكى ولا تضحك . حاولت أن أكون أكثر تحديدا وقلت إن الضحك ينتج عن المفارقة التى تنطوى على تحقير أحد ما ؛ أى مشهد سينمائى أو مسرحى يستوجب الضحك ينطوى بالضرورة على استهزاء من شخص ما ، وأية نكتة من أى مكان فى العالم لا بد وأن تحتوى حتما على شخص غبى ، ولو حتى -فى أقل الحالات وضوحا- المستمع نفسه . ما فاتنى -لفرط سطحيتى وغبائى أنا- أن الضحك آلية فسيولوچية مزروعة فينا ، نمارسها لعشرات المرات يوميا ولا نستطيع العيش بدونها ، كل ذلك دون أن نعرف بالضبط ما تفعله بنا أو لنا . بغض النظر عن غموض هذه الأداة التكيفية وغرابتها وتفردنا وحدنا تقريبا بها بين الثدييات ، فهى إذن وجدت فقط من أجل هدف واحد : أن تشبع من خلالها حاجتك الماسة للاستعلاء . إذن الإنسان بحكم هذه الآلية المزروعة فيه كائن مصمم بيولوچيا لتحقير الآخرين ، ثم بعد ذلك يحدثونك عن أن كل البشر أخوة ومتساوون وشركاء فى الإنسانية ، بينما الحقيقة الفادحة أن عشيرتنا البيولوچية قد هندستها أمنا الجميلة الطبيعة لتقاوم هذه الفكرة ؛ ويا لسذاجتى اشتريت هذه الفكرة اليسارية دون أن أشعر ، اعتقادا أن الترفع على الاستعلاء على الآخرين هو جزء من سموى الأخلاقى أنا الشخصى .

– بالظبط كده ! الآن فقط بدأت تفهم ! ذلك هو الشىء الشرير الذى تخاف منه . لو تعودت تفصل الجزء الخاص بالچيين من الدين ، لن تكون نظرتك سلبية جدا للدين كما هى الآن . ما حصلش أن نبى بقى نبى لأنه قال عن نفسه إنه مقدس ، هو بيبقى نبى لأن إللى حواليه قالوا له أنت مقدس ؛ لأنهم زقوه علشان يبقى نبى . الناس هى إللى عاوزة الدين ؛ حاجة اسمها الوظيفية ، الأنثروپولوچيا بتقول كده . لنسم إذن الموضوع برمته النسق القيمى للچيين وبلاش نتناقش أصلا فى الدين . فهمت ولا نقول كمان ؟ علشان بتفهم بالتقسيط على رأى رمانة ، قصدى على رأى نيللى !

– نيللى مين ؟

– بتاعة الفوازير ! آه ، نسيت ، أنت زى بيلل جيتس ما بتتفرجش على التليڤيچن . أتحدى أنك الصحفى الوحيد فى العالم إللى شايل التيونر من تليڤزيونه !

– تليفون هاوارد هيوز كان بيرسل المكالمات ولا يستقبلها ؟

– أنت بتقارن نفسك بهاوارد هيوز ؟ !

– يعنى هى المقارنة مع بيلل جيتس هى إللى عاجباك ؟ !

– (مواصلا تلطيف الجو بالمزاح :) وعلى بلاطة تانى ، لو عاوزين تخلصوا منا لازم ترجعونا يثرب زى ما إدوارد -أو جده المجنون- ما بيقولوا . مبسوط ؟ ! صحيح أنا أؤيد رأيك ضد العلمانيين المزيفين الجهلة ممن يطالبون بفصل الدين عن الدولة ، وأرى وأويد أن المطلوب ليس فصل الدين عن الدولة إنما فصل الدين عن المجتمع ، بل حتى فصل الدين عن الأسرة ، بمعنى ألا يسمح للأبوين بتعريض الطفل للأفكار الدينية باستثناء ما يتعلمه فى حصص التاريخ ، وفقط عندما يكبر يبدأ البحث بنفسه . شخصيا سأكون سعيدا جدا لو رجع الدين للصدر والقلوب . سأكون

سعيدا جدا مثلا لو سحبت الدولة اعترافها بالزواج الدينى . اعمله واستمتع بطقوسه لو أنت عاوز ، إنما لو عاوز اعتراف الدولة وإثبات نسب الأبناء ونقل الميراث ، لازم تروح بنفسك أنت وعروستك وتتجوزوا تانى قدام مكاتب التوثيق (هكذا مثلا كل مشاكل المسيحيين إللى عاوزين يتطلقوا زى إدوارد لم تكن لتوجد من الأصل) . لكن ما أريد قوله إن مجرد فصل الدين عن الدولة لن يحل شيئا . هذا لم يمنع الإسلاميين من الوصول للحكم فى تركيا عشرين مرة . لذا السؤال الحقيقى هو أن كل دى أفكار رومانسية عبيطة ، أنكم تطالبون بحاجة مستحيلة التحقق . إن من المستحيل فصل الدين عن الدولة لأن الدولة جزء من المجتمع ، ومستحيل فصل الدين عن المجتمع (ناهيك عن فصله عن الأسرة) لأن المجتمع والأسرة هى الچيينات ، ولو أردت فعلا جعل الدين علاقة فردية جدا صوفية جدا بين الإنسان وربه لا تعرف بها حتى أسرته ، فهذا اسمه فصل الدين عن الدنيا ، وهو يتطلب چيينات غير چيياتنا شرق الأوسطية !- ليست هناك چيينات بهذا الاسم ، هناك چيينات سامية وچيينات مصرية ، أليس كذلك يا خبير مصر وخبير الچيينات ؟

– سيبك منى أنا ، تعرف أن كان مفروض يحاكموك على إللى كتبته بتهمة ازدراء الأديان ؟ !

– ازدراء الأديان ؟ أنا بأكتب كلام علمى . الهم والباقى على ميكروفونات المساجد فى كل حارة إللى بتزدرى فى كل ركعة المغضوب عليهم والضالين ، أو على جد إدوارد وإللى بيقوله ، أو على قنوات الساتيلايت ومواقع الإنترنيت من كل الأطراف . لا يمكنك تجريم ازداء الأديان دون تجريم الأديان نفسها . ماذا يتبقى فى الكرهان الكريه إذا حذفت منه الكلام عن كفر اليهود والنصارى ؟

– اسأل ونس : يتبقى الكلام عن الستات !

– موش بأهزر . لا يزدرى الأديان قدر المتدينين أنفسهم ، من يتنابذون طوال بكلمتى ' أيها النصرانيون ' و' أيها المحمديون ' ، أو ' يا كتابى ' و' يا أمة اقرأ التى أساسا لا تقرأ ' ، أو ' يا عبدة الصليب ' و' يا عبدة البقرة والنساء والمائدة (أو يا عبدة الهلال أو القمر أو أكبر أو اللات أو الكعبة أو الحجر الأسود) ' ، أو ' يا كلعون ' و' يا شارب بول البعير ' ، أو ' النصر لسيف الإسلام ! ' و' بل النصر لسيف الكلمة ! ' ، أو ' يكفيكم كنف الإسلام ' و' الإسلام ليس كنفا بل كنيف ' ، وهلم جرا . نحن لم نكن يوما طرفا فى حرب الفضاء الأزلية الأبدية تلك بين الرب والله . العلمانيون لعلمك أقل الناس ازدراء للأديان ، لأنهم موش شاغلين بالهم بها أصلا .

– وهو إيه تعريف الازدراء أحسن من كده ؟ !

ثم يلطف الجو بحكاية أخرى ، عن ملك أراد أن يعرف أى الأديان هو الصحيح . أتى برضيع وعزله عزلا مطلقا عن كل المؤثرات ، حتى يرى لأى العقائد سيميل . تفتكر الطفل آمن بأى دين لما كبر ؟ طلع مسيحى ولا مسلم ولا بوذى ؟

– (بثقة عالية :) طلع علمانى طبعا !

– (بصياح أعلى :) غلط ! موش بأقول لك أنت موش فاهم أى حاجة فى أى حاجة ، والظاهر أنك ها تتعبنا أوى لغاية ما تبتدى تفهم . يا أخ : الولد طلع مؤمن بدين أبوه وأمه ! (ويشير إلى وجهه مداعبا بما كان يقال لإسماعيل يس فى الأفلام :) هو بعينه بغباوته !

– ماذا تريد منى بالضبط أيها الشيطان الرجيم ؟ الدين والچيين ؟ ! لك حاجات يا حاج !

ظل العلمانيون دهورا يدعون باستماتة للتنوير فلا ينجزون شيئا ،
لكن -ويا للمفارقة !- ها هو كاهن مسيحى يقدم لمشروع الحداثة المصرى ما لم يقدمه ربما الخديوى إسماعيل !
لعين آخر (مثله مثل لعين نوبل بالضبط ، خرج من بطن أمه يرضع كتب داروين وسپنسر ويعيش معركة نظرية التطور يوما بيوم ،
أحقد عليهما كل الحقد لأنه لم يحدث فى كل التاريخ أن وجدت ظروف للنشأة أفضل من هذه قط) ؛
لعين اسمه توفيق الحكيم سطر أطنانا من الكتابات الجيدة ، لكن شيئا واحدا قد لا يعرفه عنه أحد فاقها جميعا وغير به وجه التاريخ :
أن أرشد صديقه الحميم زكريا بطرس على خبايا الإسلام ، وعلى كيفية التنقيب عنها ، وما كانت فى ذهن هذا الأخير ،
والأهم أن ما كان فى ذهن أيهما أنهما كانا يصنعان بطرس الثانى !
لم تمر سنوات معدودات حتى بدأ الإسلام يتداعى تحت معاول البطارسة الجدد ،
كما تداعت روما تحت معاول بطرس الأول وأتباعه المهوسين ، وحقا ماذا يساوى الإسلام إذا ما قورن بروما ؟ !

يا للهول ! أهى ١٩٧٥ التى يتحدث عنها ونس هى عينها التى عشتها أنا ، أم أن ثمة التواءة زمان أينستاينية فى الأمر ؟ أرمسيس هذه تقع فى مملكة الواقع أم هى التواءة فى بعد المكان ؟ الواضح أن الخطأ كان خطأى . ونس شاهد على التليڤزيون التوبة المزعومة وأحس ما أحس فيها بين السطور . ونس شاهد الشعراوى وتوقع أو عاش أثره الفادح . أين كنت أنا ؟ ألم يكن هذا التليڤزيون بطلنا الوحيد طيلة هذا الأسبوع ؟ ألم نشاهد عليه ما حدث ؟ ألم يبع الجميع أسهمهم بسببه ؟ الجعيرة ؟ ! يا لها من تسمية ! شاهدنا كيف أصبحت قناة كهذه طرفا أصيلا ومباشرا فى الحروب . مراسلوها يعتقلون ويدانون عبر العالم كإرهابيين مجرمين . مقارها تقصف كأى هدف حربى . ثم ماذا عن القنوات المسيحية الثلاث التى تهاجم الإسلام ؟ ونس يصفها بالزلزال الأعمق أثرا من سقوط الخلافة ، ويعتبرها قنوات متخصصة ، يسميها ساخرا بأسماء السور التى يبدو أنها تركز عليها ، قناة التوبة وقناة آل عمران وقناة النساء ، لأن لا شغل شاغل لها إلا -بالترتيب- تأصيل لتاريخ العنف فى الإسلام ، ولاعتقاد الإسلام فى نفسه دينا فوق كل الأديان ، وللحياة الجنسية لرسول الإسلام . ويمزح أيضا أن قريبا ستكون هناك قناة لكل سورة من سور القرآن ، أو يطالب أسد بقناة لسورة الدخان لأنه يحب الشيشة ، أو تطالب تلك السيدة الساخرة دوما بسورة الفيل أبو زلزمة للأطفال ، أو سورة الصرصار ، وهكذا توالت على ذات المنوال المقترحات لجميع السور . الأدهى من كل شىء أين ذهبت المادية المادية وأنا أقول الطفل بتاع الملك سيشب علمانيا ؟

هالة تقول عن مشاهير كتاب الصحف ومؤلفى الكتب والأفلام والمسرحيات بأنهم شخصيات كارتوونية تخيلية غارقة فى عالم من الواقع الفضيل virtual reality ، لعبة الڤيديو المسماة الحياة الواقعية التى يغلقون أنفسهم داخلها ، فلا يرون العالم الحقيقى على الإنترنيت . تعتبرهم حفنة غلابة عايشين فى دنيا تانية ؛ يتقاتلون مع الأزهر على بيت شعر مجازى أو سطر فى مسرحية أو حلمة ثدى إمرأة على الشاشة ، ويذهبون للمحاكم والسجون من أجل تلك التفاهات ، بينما هى على الإنترنيت تحاكم إله السماء ولا تكتفى حتى بسجنه بل تعدمه . لكن السؤال : ماذا قدمت فعليا للعلمانية هذه الهالة -وهى اسم على مسمى- التى تتباهى بأنها كتبت كلمة العلمانية لأول مرة بالعربية على الإنترنيت ؟ الإجابة : لا شىء تقريبا . أقصى ما تتباهى به أنها تؤثر فى هؤلاء المشاهير فتجعلهم أكثر جرأة ، لكنها لم تكمل بقية الجملة : فيذهبون للسجون ! ظل العلمانيون دهورا يدعون باستماتة للتنوير فلا ينجزون شيئا ، لكن -ويا للمفارقة !- ها هو كاهن مسيحى يقدم لمشروع الحداثة المصرى ما لم يقدمه ربما الخديوى إسماعيل ! لعين آخر (مثله مثل لعين نوبل بالضبط ، خرج من بطن أمه يرضع كتب داروين وسپنسر ويعيش معركة نظرية التطور يوما بيوم ، أحقد عليهما كل الحقد لأنه لم يحدث فى كل التاريخ أن وجدت ظروف للنشأة أفضل من هذه قط) ؛ لعين اسمه توفيق الحكيم سطر أطنانا من الكتابات الجيدة ، لكن شيئا واحدا قد لا يعرفه عنه أحد فاقها جميعا وغير به وجه التاريخ : أن أرشد صديقه الحميم زكريا بطرس على خبايا الإسلام ، وعلى كيفية التنقيب عنها ، وما كانت فى ذهن هذا الأخير ، والأهم أن ما كان فى ذهن أيهما أنهما كانا يصنعان بطرس الثانى ! لم تمر سنوات معدودات حتى بدأ الإسلام يتداعى تحت معاول البطارسة الجدد ، كما تداعت روما تحت معاول بطرس الأول وأتباعه المهوسين ، وحقا ماذا يساوى الإسلام إذا ما قورن بروما ؟ ! كان من أصعب ما يكون إقناع أحد بالشغل لرفع مستواه المعيشى أو بترك عاداته الشرقية البالية أو الإيمان مثلا بالتحرر الجنسى أو الانفتاح على الثقافة الغربية ، بينما اليوم أيسر شىء إطلاقا على المرء الارتداد أصلا عن الإسلام ، شىء أصبح كما شكة دبوس تجتازها الفتاة أو الشاب فى لحظة ؟ حتى ملايين الطيبين حسنى الطوية الذين ظلوا يعتصمون بأن لا بأس بإسلامهم يجدون فيه روحانيات وصوفية وأشياء جيدة للتعبد ، لا يطول الوقت بهم حتى يكتشفون أن الهجامة الذين جاءوا من جزيرة العرب لم يأتوا بأى شىء من هذا معهم ، بل هم لم يعرفوا الروحانيات أصلا طيلة تاريخهم ، وكل ما حدث أن استمر كل شعب يتعبد على ما كان يتعبد عليه ، مع وضع لافتة

الإسلام قسرا عليه . كنت أؤمن أن لا تعايش بين العلم والدين وأن لا طريق للحداثة إلا الذهاب مباشرة لتقويض الدين من جذوره ، وكنت أنتقد سائر العلمانيين سواى أن مرحلية وحياء وتحاشى كتاباتهم للصدامية لن يجدى . كنت على حق ، إلا أننى بصراحة كنت أعتقد أن الطريق الأقصر التى اقترحتها ليست إلا الطريق الصعب ، ولم يخطر ببالى قط أنها الأسهل إطلاقا : مجرد كاهن يظهر على شاشة تليڤزيون ، فيخرج الناس من دين الله أفواجا !

بصراحة نحن -وكل أبنائنا وبناتنا- ندين بأغلب حرياتنا اليوم لهذا الكاهن ، حتى لو كنا نزدريه وننزدرى معتقداته الخرافية ، ويا لها أيضا من عجيبة من عجائب مسالك أمنا الطبيعة ! لم يعد أحد يفكر فى فرض رقابة على الكتب أو الصحف أو الإنترنيت ، لأن الرد بات جاهزا وبديهيا : وماذا ستفعلون فى زكريا بطرس ؟ الأكثر إدهاشا هو السرعة التى تتطور بها الأمور : النبرة السياسية لهذه القنوات زادت تدريجيا على حساب بداياتها الدينية الخالص ، لكن الأدهى والأمر تلك القناة المسيحية الناطقة بالأردية التى أشعلت الپاكستان ، إلا أنه لا شك أن أكثرها جميعا قيمة هى تلك الجديدة المتخصصة فى التاريخ المصرى ، ترويه من منظور يقولون إنه قبطى ، لكنى أراه منظورا علميا موضوعيا يرفع أكوام التزوير العربجى-الإسلامجى الهائلة التى ألحقت به . أشك أن هذه القنوات توصلت لما توصلت له أنا من بحوث خلال بضعة أيام . لقد وصلت بسرعة مذهلة لترابطات وتركيبات مرعبة ، أشك أن لاحظها أحد قبلى ، بالذات تلك التى تتعلق بتخصصى ، الاقتصاد . يا للخزى ! يوم كتبت فى الاقتصاد الإسلامى ، وقامت الدنيا ضدى ، لم أكن فى الواقع أعرف عنه عشر ما أصبحت أعرفه الآن . فى الواقع لم أكن أعرف شيئا تقريبا . على الأقل لم أكن أعرف أن الشغل صغار !

حين كتبت مقالاتى المشئومة عن الاقتصاد الإسلامى ، كنت أعتقد أنى أكتب فى الاقتصاد ، وحين هاجت الدنيا أدركت أنى قد كتبت فى الدين ، لكنى اليوم فقط اكتشفت أنى كنت أكتب فى شىء ثالث : التاريخ ، أقصد الچيينات ! عرفت الاقتصاد الإسلامى بأنه اقتصاد قذر ، وعرفت الاقتصاد القذر بالاقتصاد القائم على الأموال السهلة ، وكنت أعتقد أن هذه الأخيرة مفهومة للجميع : أموال الريع والميراث والانفاق الحكومى ومضاربات المال الساخن وكل ما شابه . لكن من قرأوا فهموا شيئا آخر ، اعتقدوا أنى أتكلم عن الاسترقاق والاستحلال ، عن الغزوات والغنائم والعبيد وملكات اليمين ، بينما للأمانة -أو بالأحرى لجهلى الرهيب- كل هذا لم يخطر ببالى قط !

لكن ما قيمة هذه البحوث إن ظلت فى عقلى ؟ لطالما ذكرتنى هالة بأن كل شىء يجب أن يصل للناس ، ولو بالصراخ فى آذانهم المصمومة . أليس هذا ما فعلته بالضبط هذه القنوات التى أستهين بها ؟ إنهم يزعمون أن أى قادم جديد لهم لم يعد يحتاج لأكثر من أربعة أسابيع لترك الإسلام : أسبوع للسباب وأسبوع للجدال وأسبوع للتساؤل وأسبوع للتفكير ! ما هذا اللغز ؟ هالة كتبت أفكارها العلمانية على موقعها الذى يزوره الملايين شهريا ، ولم يحدث ذات الضجة التى صنعتها هذه القنوات ؟ أليس السبب أن هذا هو التليڤزيون ، أولا هو الموجه للجاهل قبل المتعلم ، لمئات الملايين وليس للملايين ، ثانيا هو الوسيط الساخن بمصطلحات ماكلوان ، يقصد أنه يقوم بكل شىء ولا يطلب منك إلا الجلوس كقطعة خضار أمامه ؟ (أوه ! عفوا يا مارشال ، الذاكرة خانتنى : أنت وصفت التليڤزيون بالوسيط البارد الذى نتفاعل نحن معه بعقول نشطة . لكن يبدو أن مياها كثيرة جرت فى قريتك الجلوبية ، لم يتح لك الوقت لمتابعتها كلها . لو عدت الآن ستجد أن القراءة فى نفسها قد انقرضت يا سيدى . لم تعد تلك الرموز السوداء التجريدية المسماة حروف الطباعة تغنى أو تسمن من جوع ، ولا بد من أن تعصف المادة المعروضة بكل حواس البصر والسمع واللمس والرائحة وحتى التذوق حتى تثير اهتمام المرء أصلا ، ولهذا دعنى أضيف لنظرياتك الثورية الجميلة إن ألعاب الڤيديو أصبحت لذلك السبب تحديدا هى الوسيط الرئيس حاليا لتناقل الثقافة الإنسانية . ربما عليك على الأقل مقابلة منى التى لم تقرأ كتابا واحدا فى حياتها ، لكنها واسعة المعلومات وتشق طريقها جيدا فى هذه الحياة . ... ربما ثمة وسيلة واحدة لحملها على القراءة لأكثر من عشرة سطور متواصلة ، هى أن تقنعها أن ثم كتابا فى الخارج هناك -فى الأسواق أو على الإنترنيت- سوف يقلب حياتها بالكامل رأسا على عقب !) .

لقد ظلت تلميذتى هذه تكتب عن الإسلام وباسمها وصورتها كلاما لم يكتبه أحد قبلها ولا بعدها ولو حتى باسم مستعار ، مع ذلك مر كل ما كتبته بهدوء ومضت الدنيا على حالها وكأن شيئا لم يكن ، أما حين بدأ قسيس بملابس دينية وصليب ضخم على كرشه الأضخم يقول ذات الكلام ، طرطقت كل الآذان وبرزت كل المخالب والأنياب ، وتغيرت خريطة العالم . هل السبب كمى فقط ، مجرد الانتشار التليڤزيونى ، أم لعله سبب كيفى : تخلى المسيحيون عن ستراتيچية الدفاع عن العقيدة التى اشتغلوا عليها طيلة تاريخهم ، وبدأوا الهجوم قائلين : ' آدى القرآن وآدى التفاسير وآدى الحديث وآدى السيرة واتفضلوا اقرءوا ما لذ وطاب يا جماعة ! ' ، أم لعله أن أحدا لا يهتم بنا نحن العلمانيين ، مهما قلنا سنصبح

مجرد مارقين ضلوا عن الدين الصحيح ولا يشكلون أى تهديد له أو لسلامنا العقلى ، لكن أن تقول إن دينا آخر هو الصحيح ، فهذه مشكلة هائلة ، لأنها تعنى أن مصيرك الأبدى قد يكون الجحيم بدلا من الجنة ؟

لكن مهلا ، ألا يحتمل أن القصة برمتها تخص انفعالياتنا الشرقية ولا شيء أكثر ، كل الأعصاب المكشوفة قد مست لمجرد أن كاهنا بعمامة سوداء هو الذى قال ذات ما تقوله هالة بالضبط ؟ كلا ، هو لا يقول بالضبط ما تقوله هى ! هو يقول كلاما موضوعيا محكما نعم ، لكنه من حيث الصيغة أشبه بصحيفة تابلويد يركز على فضائح وجرائم مُحَمَّد ، أما هالة فتعتبر أورجانون أرسطو بالنسبة له . لكن مهلا ، أليس هذا هو ما يهم حقا ؟ ! أليس هذا هو دوما معنى الإعلام الجماهيرى ؟ هل كان الإعلام يوما بحوثا علمية بحتة ، أم لا بد له من اللعب على أوتار المشاعر بدرجة أو بأخرى ؟ أليس كلامك أنت أن الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون ؟ أليس الأمر برمته يخص الانفعالات ، وثبت على العكس من كل توقع أن الوسيط الساخن هو الأنجح وهو الأكثر تأثيرا ؟ أيا ما كان ، أليس صحيحا فى خاتمة المطاف أن ما يحدث الآن من حرب فى الصعيد هو مجرد نوع من الانتقام ضد هذه القنوات ، وأن المستقبل مفتوح على كل الاحتمالات لو توسعت عمليات الشد والجذب هذه لتحويل الناس من دين لآخر ؟

لكن مهلا ! إذا كان هذا المدعو زكريا بطرس هو فعلا كما يزعم ونس أعظم قائد للتنوير فى تاريخ المنطقة ، فنحن فى مشكلة حقيقية : كل من أسميناهم رموزا للتنوير هم زبد فوق ماء انطفأ قبل أن يبدأ ، مجرد مشروعات للتنوير بينما رجل دين هو القائد الحقيقى للتنوير . إنها أقرب لنكتة مصرية بايخة أخرى ، فالدين ما هو دائما أبدا إلا الظلام عينه ! أنا لم أحب هذا الكاهن على وجه الإطلاق ، ولا أفهم بالمرة كلمة كاريزما التى يرسلها ونس عليه بهذه السهولة . ربما ما وقع فى يدى على الإنترنيت حتى الآن هو مواد مبكرة له ، لكنى بالتأكيد لم أجده إلا واعظا مصريا يخاطب عقولا ساذجة ، يطجن فى الكلام يقوله مقطعا كلمة كلمة يمط الألفاظ ويلحنها ، أو بصياغة أخرى لغاية ما يقول ' يا مسهرنى ' يكون نص الجمهور نام . صحيح أن محتوى كلامه مهم وبه جهد بحثى ما ، لكنه لا يشغل أكثر من ١٠ ٪ من المساحة التى يعطيها لنفسه ، بينما ٩٠ ٪ يركز فيها على الشكليات فى كلام مجادليه ويضع مقدمات مطولة قبل الدخول للموضوع وهكذا . إنه يذكرنى أحيانا بكل شيخ أزهرى أو إخوانجى ممن يظهرون فى تسجيلات مشابهة ، يبدأون ردهم عليك بشيء شكلى للغاية : تصحيح نطقك للكلام ، ١- كى يهز ثقتك بنفسك ، ٢- كى يتهرب من الموضوع الحقيقى محور الكلام ، ٣- وهى الأهم : كى يملى على عقلك الباطن دون أن تشعر قدسية زائفة على الكرهان الكريه واللغة العربية . لو حدث هذا الأمر معى شخصيا لقلت قبل أن أبدأ إنى كنت الأول على لبنان فى اللغة العربية فى الثانوية العامة ، لكنى سأتعمد فى كلامى امتهان لغتك المصون فلا تحدثنى عنها . أنا كاتب وأعرف هذه اللعبة جيدا ؛ حين تكون قضية أحدهم ضعيفة يبدأ فى إغراقك فى الشكليات والإشكاليات اللغوية كى يشتت انتباهك بعيدا عن لب الموضوع . لو كان بطرس يتحدث بلغة وجيزة عصرية لكان أقوى وأوقع ، ولاختصر كل عشر حلقات من برامجه فى حلقة واحدة . لكن مهلا مرة أخرى ! ألا يمكن أن يكون ذلك التطجين ' البلدى ' هو سر ته ، والناس هى التى تحب هذه الطريقة من الإعادة والزيادة واللعب على المشاعر ؟ أليس هذا ما تعلمه من الوعظ فى الأرياف ، هذه التى لا أعرف أنا عنها أى شيء ، ويعلم هو أن تلك هى أكثر الطرق تأثيرا على المصريين ؟ فقط ربما ما يهون على هو أنه نظير كل شخص يخرجونه من الإسلام للمسيحية ، هناك خمسة يخرجونهم منه للعلمانية . هم ضيقو الأفق جدا ، يتصارعون وكأن المسيحية والإسلام كوبان لا ثالث لهما ، إن انتقصت بعض الماء من واحد لا بد وأن يذهب إلى الآخر ، ولا يشعرون أن الماء يتناثر منهما على الأرض طوال الوقت ، إلى أن يجدا كوبيهما فارغين !

مهلا مرة أخرى : أيا ما كان ، لقد فعل هؤلاء فى شهور قليلة ما فشلنا فيه نحن العلمانيون فى قرون طويلة : زعزعة قدسية الإسلام التى لم يخيل أحد أن تتهاوى بسهولة وسرعة هكذا كما نمر من ورق . هذا الرجل -ومع الوضع فى الاعتبار ما يقوله ضهرى دوما عن أن الدين هو چيين تكتشفه ولا تغيره- ذلك الرجل نجح فيما فشل فيه طه حسين وقافلة طويلة من العلمانيين من بعده : علمنة كل هذه الأعداد من معتنقى الإسلام ! هؤلاء المغامرون غير المعروفين حتى بأسمائهم الأصلية فى الغالب ، استطاعوا أن يجعلوا الإسلام أسرع الأسهم هبوطا فى تاريخ بورصة الأديان . ألا يحتمل أن مسيحهم هذا قادر على الإتيان بالمعجزات فعلا كما يزعمون ، بل ألا يجدر بى أنا شخصيا أن أنضم لكتيبتهم وعقيدتهم ، على الأقل كى يصبح لحياتى معنى وهدف وثمرة ؟ الأسوأ : هل سيستمر هؤلاء العلمانيون الطازجون على علمانيتهم كثيرا ؟ أليس من المؤكد أن الچيينات المصرية لم تعرف بعلمانيتها يوما ؟ هل التنوير يستلزم بالضرورة أن تعرض على الناس دينا آخر ؟ هل التنوير يستلزم بالضرورة حربا أهلية ؟ هل أصبحت تخاف الحروب ؟ رأسى ينفجر !

لقد ظللت سنوات أتباجح بأنى فككت التيونر من جهازى . حين علمت أن بيلل جيتس يفعل الشىء ذاته ، زاد تباجحى وضحكت قائلا لعله سرق الفكرة منى . ظللت سعيدا بنفسى ، حتى نغصت على هالة حياتى كالعادة . كان ذلك فى أواخر أغسطس ٢٠٠٥ . كنت فى ذروة الشغل فى فيلم توم كروز . اتصلت وألحت فى الاتصال أن أشاهد برنامج مُحَمَّد حسنين هلوكة على ' الجعيرة ' (لك حاجات يا حاج !) . ده تطاول يا أستاذ . دى أول مرة يتكلم فيها فى الاقتصاد ، إللى طول عمرهم بيحتقروه . الكلام خطير ولازم أنت ترد عليه . ممكن أنا أرد . موقعى أنجح موقع رأى على الإنترنيت . الكلام عندى والناس ها تقرأنى . لكن أنت الوحيد يا أستاذ إللى ممكن يقضى عليه بالضربة القاضية . أنت رمز المقاومة فى هذا البلد ، والمرة دى الموضوع واجب عليك أنت شخصيا !

مقاومة ؟ ما هذا الوصف الغريب الذى لم يخطر لى ببال ؟ واجب ؟ هل أنا فى مدرسة ؟ هل ألغوا قرار إعفائى من التجنيد ؟ قلت لها أن تهدئ من روعها . لا تشغلى بالك به . عصره انتهى ، والآن لا يشاهده سوى الصحفيين الشبان . يحلمون بالصعود الطبقى على طريقته ، ولا شىء أكثر . فردت على صارخة وكأنى مرءوس بليد عندها ' لا يشاهده سوى الصحفيين الشبان . هو أنت عاوز إيه أخطر من كده ؟ توم كروز مين ؟ أنا عارفة أن تليڤزيونك بيشغل ڤيديو بس . ها أجيب لك الشريط دلوقت حالا ، ولازم تفضى لى نفسك ! ' .

لم يكن الدرس الذى لقنتنى إياه هالة قاسيا بما فيه الكفاية . ربما اليوم يختلف الأمر . يجب أن أتابع ما يجرى فى الدنيا . تحريضات هلوكة ربما أخطر أثرا مما سبق وتخيلت . ربما لن أعود لتركيب التيونر فقط ، بل ربما أركب أيضا نظاما لاستقبال الساتيلايت ، بل واشترك فى كل القنوات غير المجانية . تركيب تيونر ؟ أجننت ؟ ! إن بالمنزل تليڤزيونا بتيونر بالفعل ، أشاهده أنا ورمانة ، أقصد أشاهد ما تختاره رمانة . كيف نسيت هذا ؟ طبعا أنا ممن بشروا بكل هذا . جريدتى أول من كتبت كلمة تليڤزيون الساتيلايت بالعربية ، لكن أن أقول إن التليڤزيون أداة رهيبة شىء ، وأن أطبق ذلك على نفسى وعلى وقتى الثمين شىء آخر . وقت ثمين ؟ أى وقت ثمين ؟ من ذا الذى لديه الفصام الحقيقى ، أنا أم هؤلاء أبناء رمسيس الطيبون ؟ أنا أبأس إنسان فى الكون ، وعقلى أبأس عقل !

– بمجرد هزيمة الكابوس الناصرى فى ١٩٦٧ انطلقت قوى التحرر فى المجتمع بقوة هائلة . أنا فاكر حاجات من تليڤزيون زمان . موش ممكن أنسى أحمد رمزى وصدره المكشوف ، والمذيعة تلاعبه فيه وتسأله هل فقدت منه أزرار القميص أم ماذا ؟ لسه بيحبوا يعيدوها لغاية دلوقت .

– هى جت على دى . قول دى مرة وعدت . صور الستات المحجبات ما كناش نشوفها إلا فى صفحة الحوادث ؛ الحجاب إللى ما كناش بنشوفه أصلا ، هو إللى بعد شوية قالوا عليه من ثوابت الأمة ، وهددوا بقطع رقبة كل واحد أو واحدة يفكر فى التفكير فى الكلام عنه . كل يوم كان فيه فقرتين ثابتين لسهير زكى ونجوى فؤاد ، اتشالوا واتحط بدالهم آذان المغرب وآذان العشا ! لما كنا نسمع القرآن صادرا من أحد البيوت ، كان رد الفعل التلقائى أن نميل لأقرب دكان لنسأل ' مين مات ؟ ' . ما حدش كان بيصوم رمضان ، وكنا نغيظ إللى بيصومه ونقول له fast but not feast . وطبعا ما حدش بيصلى ٥ مرات فى اليوم . إللى كان بيصلى الجمعة ، كنا بنسميه شيخ ونفضل نتريق عليه . المشاخ إللى بقوا سلطة فوق السلطة (منذ يوم استدعوا للقضاء على الشيوعية) ، كانوا فى أيامنا زبالة البلد ؛ منبوذين وأذلاء ، ولم تعرف مثلا السينما المصرية منهم إلا المأذون فقط لا غير ، تأتى به كى تجعله مادة للفكاهة ، حفرية تاريخية ترفه بها على المشاهدين . صحيح ممكن تقول أن انطلقت قوى الغيب والتخلف ، لكن دى كلها مظاهر فى مظاهر ، والمهم الجوهر . والجوهر أن الشعب ده صعب يتقدم .



عرفت بس أن كل الحروب بين المسلمين والمسيحيين

هى فى الأصل صراع بين أبناء الجارية وأبناء المومس !

– هل انتهيت من التنفيس عن كل أحقادك الدفينة على الإسلام ؟

– هذه ليست أحقاد . هذه مناقشة علمية .

– ماذا قرأت فى الدين ؟

– قريت أيام المدرسة الإعدادى . وبحسن نية صافى وحياتك . بضمير خالص ، لا مع ولا ضد ، ولا أى موقف من أى نوع .

– قريت إيه ؟

– قررت أقرأ الأديان التلاتة بالترتيب ، العهد القديم ، العهد الجديد ، القرآن .

– وبعدين ؟

– قريت خمسين صفحة ووقفت .

– ليه ؟

– بقيت علمانى !

– بقيت علمانى علشان قريت ٥٠ صفحة من التوراة ؟ !

– أيوه !

– قريت إيه ؟

– موش فاكر بالظبط . قريت لغاية حكاية الجدع إللى ما كانش بيخلف وكان بيتاجر بمراته فى كل مملكة يروحها ، ولما خلف فى سن التسعين ما نعرفش إزاى ، ركبه عفريت وبقى عاوز يدبح ابنه ، برضه ما نعرفش ليه ؟ عرفت بس أن كل الحروب بين المسلمين والمسيحيين هى فى الأصل صراع بين أبناء الجارية وأبناء المومس !

ويتداخل ونس : ' صح ! مُحَمَّد نفسه حاول يتبرأ من نسب إسماعيل أكتر من مرة وفعلها صراحة فى حواره مع مسيحيى نجران ، وكتيرا ما يربط نفسه بإسحق أو يستخدم عبارة دين إبراهيم وإسحق ويعقوب كوصف للدين الذين ورثه ، إنما الظاهر ما كانش يعرف أن الطريق التانى أضل سبيلا ، هأ ! هأ ! هأ ! فضل يعك كده لغاية عمر ما قال له اصحى وفوق ما تودياش فى داهية بهبلك ! هأ ! هأ ! هأ ! ' .

– طبعا لا نوح ولا إبراهيم ولا يوسف ولا جايز حتى موسى (صاحب الناموس نفسه) ، لهم أى سند فى التاريخ ، فقط تهاويم يهودية . عشرون شخصا وعشرون قصة لا يجمعها زمان ولا مكان نسجت معا ، منذ أول تجميع لنسختى التوراة الأقدم فى القرن الثامن ق . ح . ش . ، حتى تجميع كل النسخ الأربع على يد عزرا قبيل الرحيل من بابل فى ٤٥٠ ق . ح . ش . (حيث زادت المتناقضات سوءا لأن أحدا لم يكن يجرؤ فى أى عصر على حذف شىء حتى لا يشق صف الأمة !) ، كلها كى تصنع مثلا شخصية موسى ، وهكذا دواليك لكل خرافات الأولين من ما قبل ما يسمى بعصر القضاة . ربما هذا مفهومهم للتوحيد : تجميع الشخصيات فى شخصية واحدة ! أنت تعرف تاريخ الفراعنة أحسن منى ، وهو تاريخ جيد التوثيق جدا ، ولا فيه طوفان ولا قوادين ولا وزراء أجانب ولا مجاعات ولا لعنات ولا شق بحر (أعتقد قناة السويس لم تكن قد حفرت بعد) ، ولا فيه أى حاجة عن الحشرات عامة ، وعن اليهود خاصة . بالكتير صورة أو اتنين لناس ملتحين لا أهمية ولا تميز يذكر لهم إلا كونهم أغرابا ولا نقول عبيدا لأننا لا نقبل عشرة العبيد ، عشرة الوسخ . كل ده ببساطة لأن من جاء من اليهود لمصر -أو لغير مصر- هم جماعات مهاجرة صغيرة جدا ، وكل ما تعلى أى جماعة من دول من أسهم كذبتها -أقصد قصتها ، وأساطير وقفة ربنا الوهمية معاها- كل ما تكون فرصة حصولها على ختم التقديس أكبر ، أى تفوز فى المزاد وتعتمد القصة على أنها حدثت لكل شعب إسرائيل . فعلا ! قريت لغاية موسى ما سرق دهب الفرعون . لأ ، لأ ، افتكرت ! لغاية خروج ٣٤ ، لغاية النسخة التانية من الوصايا العشر ، إللى بعد صاحبنا ما اتزربن وكسر الألواح ، وصاحبنا التانى إللى فوق اتزربن أكتر ، لكن بعد ما دلعوه شوية هدى وقال لموسى هات غيرهم وها أمليك تانى . ١٠ وصايا ما لهاش أى علاقة بالنسخة المشهورة قبلها بكام فصل . مظبوط ! وقفت عند ' لا تطبخ جديا بلبن أمه ' . قلت كفى ، لقد قرأت ما يكفينى قرنين من عمرى من الهراء . ثم إن ما تلا ذلك كان مئات الصفحات مملة التفاصيل حتى لتكاد تقتلك ، عن مواصفات طعام الكهنة ، أقصد عن التقدمات والمحرقات ، الشريعة ، النظام الضريبى الإلهى الذى يبز نظام مُحَمَّد الرزاز نفسه . عرفت دلوقت ليه ما كملتش ؟ !

ويقهقه ونس بأعلى صوت : ' عارف أنت عملت زى مين ؟ زى مُحَمَّد ! هأ ! هأ ! قرأ برضه لغاية صفحة ٥٠ بتاعتك أو جايز أقل شوية ، وأول ما لقى واحدة اسمها مريم قال تبقى هى دى مريم العذراء أم المسيح إللى بيحكوا عليها ؛ مريم بنت عمرام (أو عمران) أخت هارون وموسى ! هأ ! هأ ! هأ ! الفرق أنه قرأ ٥٠ صفحة فعمل دين واحتل العالم وكل نسوان العالمين -الإنس والجن- سابوا أزواجهم ووهبوا أنفسهم له ، وأنت الخيبان شكلك ها تقضى بقية عمرك فى أودة ما بتعملش غير أنك ترغى مع واحد اسمه ضهرى ! هأ ! هأ ! هأ ! ... عمر مين ؟ عمر ما ينفعش يظبط [بتشديد الباء] دى ؛ عمر ما لهوش فى الدين م الأساس ، وما سمعش أصلا عن مريم ولا حتى المسيح ! هأ ! هأ ! هأ ! ' .

– أنت تسكت خالص يا تخين يا أبو مخ تخين أنت ! إحنا خلصنا كلام عن الإسلام وبنتكلم دلوقت فى حاجات فوق مستواك . فاهم ؟ ! ثم أنت حمار أصلا ، مُحَمَّد لم يقرأ ولا صفحة ، هو بيفك الخط بالعافية ، سمع كل الحواديت دفعة واحدة فافترض أنها قصة واحدة تقع كلها فى نفس الزمان ونفس المكان وبنفس الأشخاص ، كلهم أقارب وكلهم جيران ؛ نوح وموسى والمسيح والجميع ، كلهم عاشوا سويا وكلهم عاش الطوفان وكلهم هرب من فرعون وكلهم شهد بناء بابل ، وبابل هى الأهرامات هى القطب الشمالى هى القطب الجنوبى ، وهامان هو فرعون هو ملك بريطانيا هو رئيس أميركا ، عجل هارون هو عجل السامرة هو عجل نيو دلهى هو عجل نيو مصر إللى هو أنت ، الكل قبيلة واحدة قرية واحدة حدوتة واحدة ، تماما كما قريش ! هل سمعت عن حدوتة فيها اتنين اسمهم مريم أو فيها أى اتنين بنفس الاسم ؟ قول له حاجة يا عم وحيد يا بتاع الأفلام !

– أنا موش فاهم أنتم بتتكلموا عن إيه ؟ إيه موضوع أمى إللى لسه بيناقشوها ليل نهار واتعملت فيها كتب قد كده ، بما فى ذلك لويس عوض ؟ تفرق فى إيه إذا كان أمى أو كان بيعرف يقرأ ، هو كان عندهم كتب علشان يقرأوها ؟ !

– أنت التانى تسكت ! مسيحيين إيه ولاد المومس ؟ إيه علاقتهم بإبراهيم أصلا ؟ أنت لا فاهم فى الأعراق ولا فى التاريخ ولا فاهم أى حاجة فى أى حاجة . ثم قناة سويس إيه إللى عبرها موسى ؟ تعالى معاى لسيناء مرة واحدة فى الشتاء ، وها تعرف أن السيل يأتى فى لحظة ويجف فى لحظة ، وها أخليك أنت بنفسك ترفع عصايتك وتشق البحر ٥ أو ٦ مرات فى اليوم . وكمان جايز تفهم بالمرة أصل خناقة ولاد المومس وولاد الجارية ، لأن الحرب بين اليهود والمسلمين دى حاجة فوق مستواك وفوق مستوى ثقافة الشوكة والسكينة بتاعتك !



سلم لى ع الكلوروفيلل !

– واضح ! مشكلتك أنه بتقرأ الدين كحقائق علمية فبترفضه .

– أنا أعترف أن قراءاتى محدودة فى الدين ، وأعتقد ده مصدر فخر موش خجل . بل ربما لو كنت قد قرأت أرسطو من البداية وعرفت أن الإله ما هو إلا المثل العليا التى نخلقها لأنفسنا لاسترحت وأرحت .

– أفهم من كده أنك لم تقرأ كلمة واحدة فى الإسلام ؟ !

– فى الواقع علاقتى بالإسلام انتهت قبل أن تبدأ : الدين الذى يحرم الخمر لا يمكن أن يكون دينا من السماء ! لو عاوز الحق أنا علاقتى بالدين ككل منتهية قبل الـ ٥٠ صفحة إياها بسنوات طويلة لكن دون أن أعلم . فى حصة الدين فى ابتدائى قالوا لنا كل واحد أو واحدة يصلى لربنا ويشكره ويطلب منه ، كنت الوحيد الذى شل لسانه ولم أجد شيئا أقوله وكان موقفا غريبا محرجا . كنت أصغر من أن أفهم ساعتها أنى لست فى حاجة إليه ولا هو فى حاجة إلى . ... بصراحة ، أنا ما كانش المفروض أقرأ حتى صفحة ٥٠ . كان المفروض أقف من أول صفحة . بتقول النبات اتخلق قبل الشمس ، والأرض -بما فيها الماء وهواء الغلاف الجوى ، الذى ترف روح الرب فوقهما وفيهما- اتخلقت قبل كل الكون ، يعنى أقلها سلم لى ع الكلوروفيلل ! كنت عاوزنى أكمل إزاى ؟ !

– أنا عارف دى . الأشياء الثابتة تماما كالأرض معدومة الحياة وخلقت أولا ، ثم الحى الذى لا يتحرك كالنبات يليها ، ثم المتحرك فى فلك ثابت كالشمس والقمر والنجوم أكثر حياة ، ثم أخيرا حر الحركة بالكامل كالحيوان والإنسان هو كامل الحياة ومن ثم خلق آخر الأشياء . ليو ستراوس كتب فى الموضوع ده .

– (بغيظ شديد جدا ، مكتوم بالكاد :) يعنى أنت كنت عارف أن الفيلسوف الكبير للمحافظين الجدد وأباهم الروحى ، علمانى ، وكنت بتنرفزنى إزاى أومن بالاقتصاد الحر وأنا موش مؤمن ؟

– أنت لسه فاكر ؟ ده كان رهان بينى وبين ونس وروميو اتحدونى فيه أن ما حدش يقدر يخلليك تنفعل أبدا . أنت راجل قلبك أسود .

– وأنت راجل هايف !

ويدارى ونس وروميو خجلهما : ‘ وهو حد يقدر ع الحاج برضه ؟ ! ’ ، ‘ خليك حريص منه يا عم وحيد ! ’ . ثم يستخدمان سلاحهما الذى لا يقهر ؛ التهريج : ‘ فى القرآن خلق كل الحاجات دى وهو راكب على حوت ’ ، ‘ هم كام يوم بالظبط فى الكرهان ، ٦ ولا ٨ أيام ؟ ’ ،

‘ بيقولوا دى حقب چيولوچية موش أيام عادية ’ ، ‘ هأ ! أنت زى إلى جت تكحلها عمتها ، هو لو ربنا خلق الكون فى ١٤ بليون سنة موش فى ست أيام يبقى إله إزاى أساسا ؟ ! ’ .



إحساسى إللى طول عمره ما خاب أبدا بيقول لى أنك المسيح الدجال ، ونهاية العالم ها تكون على إيديك !

ولا يملك وحيد فى حياته إلا أن يعود لمواصلة النقاش الفكرى : ‘ رغم أنى لست من المولعين جدا بقراءة الأدب ، لكن أنت أحسن حاجة لك تقرأ روايات آين راند : Fountainhead ، Atlas Shrugged ، وغيرهما ؛ قمة الرأسمالية وقمة العلمانية رأسا برأس ، ومغزاها أن الرأسمالية الحقة مناقضة للدين بالضرورة ! ’ .

– أنا بأحب الست دى ، بس وإلهى كتبها ما وقعتش فى إيدى ولا مرة ، لكن شفت فيلم جارى كووپر مرة فى التليڤيچن أيام ما كانت القناة التانية بتاعتنا بتعرض أبيض وأسود قبل ما يمنعوه . (ويتنهد :) يمسيك بالخير يا يوسف شريف رزق الله !

– موش كل إللى بيؤمنوا بالرأسمالية أو يرفضوا وجود حكومة أفكارهم متطابقة زى بعض . كل الطيف موجود ، هى مثلا بتعتبر المادية كلمة سباب ومرادف للشيوعية ، وتؤمن بالرشد reason تأثرا بالفلاسفة الأميركيين ، وتعلى العقل على الجسد . إنما أنا شخصيا موش مرتاح لفكرة الفردية المطلقة أو رفض الديكتاتورية أيا كان توجهها . ما رأيك أنت يا حاج فى الفردية الزائدة عندها ؟ مع كل الاحترام أنا أتحفظ بأنها أقرب لمجرد المقابل اليمينى للفوضوية اليسارية التقليدية ؟ هل الفردية نموذج بيولوچى ناجح ؟ إذن ما أهمية الحاجة للاجتماع أصلا ؟ أفتكر لازم نرجع شوية للنظم البيولوچية أو نظم الديناميات الحرارية علشان ... .

– (كالعادة يتحاشى الكلام فى البيولوچيا :) نرجع مرجوعنا : عارف أنك كمان ها تقولى لى عن صفحة ١ إن آدم ده عمره ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، ومصر كانت دولة قبل ما يتخلق آدم ؛ على الأقل كانت هناك سلاسل من المدن ، وتوجد على حدود كل منها مدافن نظامية مشيدة حافلة بالموجودات الثمينة . وطبعا عندنا حفريات بشرية عمرها ٦ مليون سنة ، أيام كان الإنسان يشبه الشيمپانزى ، قصدك أيام كان يشبه الرب إللى خلقه على صورته ومثاله ، أو تقول لى إننا الجيل الوحيد فى التاريخ الذى زاد فيه عمر الإنسان من ستة آلاف إلى ستة ملايين سنة ، عشناهم يزيدوا مليون مليون من الحفرية لوسى فى الستينيات لغاية النهارده . ولا ها تقول عمر الكون أصبح على سبيل الدقة ستة ملايين سنة وستة أيام ، أو تقول لى زيهم إللى يخلق الكون فى أربعتاشر بليون سنة لا يصبح اسمه إله فى هذه الحالة ؟ ولا ها تقول الواحد فيهم كان بيعيش ٩٠٠ سنة أو أكتر ويخلف عند سن ٥٠٠ ، وهم أرباب السل والرمد والطاعون والمجاعات والطوفانات وعصر لم يزيد فيه متوسط أعمار الناس عن ربع ما هو الآن ، ولو قرأت كتب التراث بعد استبعاد الكلام عن القتل والجنس ، لوجدت نصف الكلام المتبقى عن الطعام ، يعنى باختصار لو اتحسب تاريخ نسل آدم بالظبط موش ها يكمل ١٠٠٠ سنة ؟ ها تقول كده ولا لأ ؟ !

– اسمها ق . ح . ش .

– إيه ؟

– قبل الحقبة الشائعة . بالإنجليش Common Era (CE) وعكسها BCE .

يتحول ضهرى للغضب . لا جديد فى أن يغضب ، الفارق هذه المرة أنه كان غضبا مكتوما . قال وهو يجز على أسنانه : ‘ أنا ما شفتش قد فجور روميو فى موضوع الجنس ، إلا فجورك أنت فى موضوع الدين ! أتفه التفاصيل والشكليات موش معترف بها . الأدهى والأمر أن أفكارك كلها على بعض -دين وغير دين- غير مريحة . إحساسى إللى طول عمره ما خاب أبدا بيقول لى أنك المسيح الدجال ، ونهاية العالم ها تكون على إيديك !

– على فكرة أنا طول عمرى ما فرحت أن حد قال عنى إنى متمرد أو متهور أو بأقلب المائدة على كل أفكار المجتمع واحدة واحدة ؛ أنا أفضل أكثر أن أوصف بالأرستقراطى وتوصف أفكارى بالرصينة . لا أكاد أتخيل أن يصف أحد أرسطو اليوم بالصعلوك ، أو أفكاره بأنها مارقة وفوضوية . لكن على أية حال شكرا ! المسيح-الضد ؟ ها أعتبرها مدح ! المهم ، كمان كان المفروض أقف عند صفحة ٢ . نظرية خلق عكس

نظرية أول صفحة ، بعد النبات والحيوان و... و... تم خلق آدم . ثم بعد خلق آدم وجده وحيدا فخلق له النبات والحيوان و... و... . التفسير دائما للازدواج (فى قصة الخلق ، وفى نص الوصايا ، وفى أشياء مشابهة أخرى) ، هو أن ثمة يهودية قديمة وأخرى حديثة ، ومرة أخرى خطاطو عصر القضاة كانوا من الغباء ، أو لنقل كانوا يخافون أن يحذفوا أى شىء قدسه أحد ، فوضعوا القصص متجاورة على هذا النحو فاضح السذاجة !

– برضه دى قراءة سطحية ، وبتريح دماغك وتقول ده كلام تافه وترميه . أنا ما زلت عند رأيى : أى تفكير علمى فى أن تقرأ شيئا وأنت طفل ، ولا تريد إعادة قراءته عندما تنضج ، قائلا بغرور ' قرأت ما يكفينى قرنين من عمرى من الهراء ' ؟

– عندك حق ! اليوم فقط عرفت أنى على خطأ ! (ثم يشرد متمعنا فى قول ما :) نهاية العالم حتة واحدة ؟ لك حاجات يا حاج !



الحية إلهة المعرفة ، والله إله الجهل !

– آه ! واضح الآن أنك أعدت قراءة التوراة . (ساخرا :) تلميذ شاطر ! ليكن هناك نور ! هذا حسن ! وكان مساء ، وكان صباح يوم جديد !

– أنت عاوز إيه بالظبط ؟ !

– لعلمك بأه يا أخ كلوروفيلل يا بتاع صفحة ١ و٢ ، صفحة ٣ هى إللى فيها الدسم كله . دسم أديان التوحيد جميعا ، وفلسفة الشعوب دى كلها ، وأنا متأكد أنك ما كنتش أخدت بالك خالص ، لأن زى ما بأقول لك النظريات العلمية مسيطرة عليك .

– قصدك إيه ؟

– صفحة ٣ هى التحذير من شجرة المعرفة ؛ من يسعى للمعرفة موتا يموت . الحية كانت إلهة الحكمة والعلم عند معظم شعوب المنطقة ، ولا تزال ترسم على الصيدليات فى كل العالم حتى اليوم ، ولا يزال الطبيب والصيدلى حتى اليوم يسمون حكماء . بينما المفروض إله اليهود هو إله الشر ، الذى يرفع شعار الجهل نعمة والعلم نقمة . باختصار : الحية إلهة المعرفة ، والله إله الجهل !

– فكرة مادية جميلة جدا : يعنى أرسطو كان ' حكيم ' لأنه درس النبات والحيوان والطب ، وليس المنطق والشعر والأخلاق ؛ والفلسفة هى الحكمة ، زى الرازى والفلاسفة إللى زيه ما كانوا بيسموها (تحاشيا -فيما فهمت- لكلمة فلسفة التى توحى بالكفر !) .

– الرزاى طبيب فى نفس الوقت ، خد بالك ! ... إنما براقو عليك ! ... شاطر ! التلازم بين الحكمة والعلوم الطبيعية ومشقة دراستها قائم فى عقول الناس طوال الوقت ، أما الدين والسحر والكهانة فلم تكن تحتاج فى نظرهم إلا لبعض الفهلوة !

ويتداخل روميو : ' هو التفاح فيه كلوروفيلل يا حاج ؟ ! ' .

– هل تعرف أن التوراة دى ما فيهاش كلمة شيطان لغاية صفحة ٨٠٠ ، سفر أيوب ، ربنا لقاه فجأة قاعد وسط الناس ، فقال له من أين جئت يا معلون ؟ !

– أمال مين إللى خلقه ؟ طلع ' شيطانى ' ؟

– علشان يحلوا الحكاية دى قالوا أيوب اتكتب أول سفر وأنه قبل موسى . كلام فاضى ، ويضرهم أكتر ما ينفعهم لأنه بيفقد العهد القديم أحد أهم مزاياه وهى تسلسله التاريخى . بالكتير كان لازم يحطوه بعد التكوين أو بالكتير جدا بعد أسفار موسى الخمسة ، لكن ماشى ، افرض ! ما هو تفسير أن اسم إبليس لم يرد مطلقا فى العهد القديم بكامله -١٢٠٠ صفحة- ولو لمرة واحدة ؟ سبب الفجوة دى أن إللى بيكتب كان بيحسس على بطحته ، وبالتالى فى ظل ما يوجه لإله اليهود من اتهامات ، لم يستطع تخيل أى إله للشر ، إلا الحيات والعقارب والثيران أو أى شىء آخر كان يقتلهم .

– طبعا ، الأمم المتقدمة ترى فى الحيوان علما وطبا ، والشعوب المتخلفة تراه شياطين وقوى غيبية .

– هكذا انعكس الحال : المعرفة بقت شر ، والجهل بقى نعمة زى ما بيقولوا ، نعمة بجد ، عطية بل وصية إلهية يعنى . أمة الأميين التى يختصها الإله بخير خلقه : رسله الأميين .

– وهنا يدخل التوحيد ؛ تقريبا نفس السبب إللى خللى الرومان يرموا المسيحيين للأسود .

– لأنهم متوحشين ، ولا لأنهم متعصبين ؟ جاوب يا شاطر !

– لا دى ولا دى . بالعكس ! دى روما . يعنى الجبروت كله ، يعنى مر عليها ألف دين ودين ، ولا يهمها شىء . وكان ممكن المسيحيين ييجوا ينوا كنايسهم ، ولا حد يعارضهم . المشكلة أنهم تكفيريون ؛ كل الآلهة مزيفة وإلهنا إحنا الإله الوحيد الصح . روما كانت بترميهم للأسود موش لأنها غير متسامحة ، إنما لأنها متسامحة .



أهم حاجة نسيتوها : الله أحل الرعى ولم يحل الزراعة !

– موش بطال ! الأهم من صفحة ٣ ، يا سينيور كوليسيام ، هى صفحة ٤ . الرب يرفض ذبيحة قايين لأنه زارع ، ويقبل ذبيحة هابيل لأنه راعى .

– التفسير بسيط ! الكهنة بيحبوا يأكلوا لحمة موش عدس ، علشان كده ربنا بتاعهم قال بدون سفك دم لا تحدث مغفرة !

– التفسير ساذج ! أنت مجرد شخص لديه فوبيا ضد الدين . التفسير الحقيقى هو أن الرعى هو النقاء ، والزراعة هى الخبث ، سحر ، علم لو عاوز تقول ، ناس تبعبص بصوابعها فى الأرض تطلع حاجات خضرا . الصنع رجس من عمل الزراع . حتى الخالق عندهم يخلق بكن فيكون ، ‘ بالكلمة ’ ، ورواية أنه صنع آدم بيديه وردت فى نسخ التوراة المبكرة ربما سمعوا بها من مصر ولم يحذفوها لأن فى redaction عزرا إللى بتقول عليه لا يحذف إلا المتكرر ، ومنها تناقضات الخمسين صفحة سواء إللى شفته منها أو إللى ما شفتوش ، لأن أجارك الرب عندما يحاول العقل البدوى تجريد الأشياء -وهو لا يقوى على التجريد أصلا- بهدف تدمير المادية ، فإذا به يخلق كوارث ! لو أنت كملت بعد كده كنت ها تلقى الحكاية واضحة جدا ، دائما الراعى هو الخير والزارع هو الشر . بعد هابيل وقايين ، فيه سام وحام ، وفيه يعقوب وعيسو ، يوسف والملكة ، موسى وفرعون ، شمشون ودليلة ، داود وچوليات ، سليمان وبلقيس ، إلى ما لا نهاية . باختصار ، كل الطيبين رعاة ، وكل الأشرار زراع ، وأنبياء الرب أنفسهم ليسوا استثناء من القاعدة بدليل أن داود -والأوضح منه ابنه سليمان- ضلوا حين استقروا وتحولوا للزراعة وأنشأوا ممالك ؛ بل لاحظ ما هو أكثر دقة وتحديدا أن ‘ الحكمة ’ (بمعنى الفلسفة والعلوم الطبيعية) هى التى أوردت سليمان موارد التهلكة (بمعنى بقى علمانى زيك) .

ويتداخل ونس ساخرا : ‘ الأمور فى الإسلام أنقح . عارف تفسير ‘ وخلقكم من نفس واحدة ’ ؟ أصلا ما فيش لا قايين ولا هابيل ! الشيطان اسمه الحارث وأول ابن لم يمت لآدم وحواء اسمياه عبد الحارث ، هى الزراعة قديمة أوى كده ؟ ’ .

ويزايد عليه روميو فى السخرية : ‘ موش مصيبة زراعة وبس ، أنت طلعت أول نبى فى التاريخ عابدا للشيطان ! ’ .

وحيد كان يتفكر فسأل : ‘ واحدة من دول موش فاهمها يا حاج : حام ما كانش زارع ؛ كان زى إخوته بالضبط ، وعلى ما أنا فاكر ، كل إللى حصل أنه شاف أبوه نوح عريان ، أو جايز الكلام يوحى بعلاقة جنسية بين الاتنين وهم سكارى . هذا هو سبب اللعنة ، فأين توجد الزراعة فى القصة ؟ ’ .

– الزراعة هى اللعنة ذات نفسها ؛ أصبح أبناؤه زراعا . زرعوا مصر وزرعوا بين النهرين وزرعوا كل حتة مزروعة فى العالم . لا لعنة أقسى من أن يكتب عليك الرب أن تصبح زارعا . كما تعلم كلمة يتنمرد أو يتفرعن كلمات سيئة المدلول جدا ، ونمرود بتاع بابل والفراعنة أبناء مصرائيم بتاع مصر هم أشهر سلالة حام . يا صديقى ، كل زارع ملعون ومن نسل حام ، حتى لو كان فى أستراليا . فهمت شعوب المنطقة بتفكر إزاى ، وليه إحنا متخلفين ؟

– أنا فاهم كل ده ، وفاهم أن كل سفك الدماء إللى شهدته البشرية عبر تاريخها سببه عنصرية ذلك الإله ، الذى فضل ذبيحة على أخرى .

هنا اعترى ضهرى الضجر والغيظ فانفجر صارخا : ‘ أنت موش فاهم حاجة خالص ! أنا ها أجيبها لك م الآخر : إيه إللى قلته زمان على لسان مدير البنك الإسلامى ؟ ’ .

– قال إن الله قال إنه أحل البيع ولم يقل أحل الإنتاج ، قال لا تغش الميزان ولم يقل لا تغش السلعة ، قال حرمت الربا ولم يقل حرمت النصب .

– شفت ؟ ! أهم حاجة نسيتوها : الله أحل الرعى ولم يحل الزراعة ! أصلا كلمة زراعة مصطلح تقانى معقد ، ولم تكن دارجة عند العرب ، ولم يرد جذر زرع ومشتقاته فى القرآن إلا اسما لأن النباتات من صنع الله ، وحين وردت مرتين كفعل وردت على سبيل التنكيل أو التشفى فيمن قاموا بالزرع من دون الله . عند اليهود ربما كان الأمر وعظا غير مباشر أو قصصا رمزية allegories ، لكن الإسلام -بالذات حين نصل لاسم الفاعل- وضع وعلى لسان الله نفسه الموضوع على بلاطة أبعد من مجرد الكلام السلبى عن الزراعة . عارف إيه الكلمة الدارجة هنا ؟ كفر ! ، أو بنص الكرهان الكريه ' كمثل غيث أعجب الكفار نباته ' . الكفر تغطية الشىء (وقد ذهبت للاتينية وللإنجليزية هكذا) ، وهى جاءت أصلا من فعل الزارع مع البذور ، فأخذها الإسلام كى تدل على فعل إنكار الله . ربط رهيب بين الزراعة وتحدى الله ، أليس كذلك ؟ ! يعنى -حسب ربنا- الكلية إللى أنا متخرج منها اسمها القانونى كلية الكفر ، وأنا معايا درجة البكالوريوس فى الكفر . متهيأ لى ده أهم مليون مرة من كلامكم إن كلمة الحرية أو مشتقاتها لم ترد بالكرهان ، أو أن كلمة حشاشين بقت assassins . كل انتقاداتكم سطحية ، انتقادات مراقب خارجى ، ولا تدخلون أبدا للعمق ؛ للچيينات التى هى ثوابت ورواسخ أى عرق بيولوچى وتعريفه . باختصار : ما فيش حاجة اسمها زراعة ولا صناعة ولا بعد-صناعة . كل دى محدثات ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . هذا هو موقفنا الچيينى القاعدى من التقنية !

ويتدخل ونس واخزا كالعادة : ' موش كده بالظبط ! الإسلام يحب السيوف ، فقط يلعن نافخ الكير ! ثم كفاكم افتراء بشأن كلمة حرية ومشتقاتها ، إذ ماذا تقولون فى كلمة حورية إللى هوستونا بها وبتقولوا أنها وردت مليون مرة ؟ ! ' .



فاكرينا بشر زيهم ، ما يعرفوش أن إحنا بدو !

أخيرا ، بعد لأى طويل طويل ، ها قد جاءت المنطقة الفكرية التى ظل ينقب عنها وحيد ، الحلقة المفقودة (ليست الحلقة ، link ليست حلقة ، حلقة ring ، أين أنت يا نوبل ؟ ألم تحسب لوهلة أيها الأثيم قدر الفراغ الذى كنت ستخلفه ، قبل أن تقرر الرحيل ؟) ، أيا ما كان المفقود ، هذه هى الدرة الثمينة التائهة وسط ذلك الغليان المشوش المسمى عقل ضهرى ، أو لعلها نفسها السبب فى غليانه وتشوشه . تقدر تقول كده . الرأيين موش عكس بعض ولا حاجة . قصدى ، لا تستهن بالثقافة . إنها شىء مادى أكثر مما تتخيل يا وحيد . هذا الكلام فى صفك يا مستر أرسطو وليس ضدك . ماديتك الزيادة عن اللزوم سببها ربما أنك اتولدت فى هذا المحيط العربى الغبى المتخلف ، فأصبحت تحتقر كل ما له شأن بالكلام والمعنويات والأفلاطونيات . ارسى على بر ، هى المادية فى چيپيناتى ولا لأ ؟ ! تانى ، أرسى على بر ؟ يا صديقى ، ليس غريبا أن الثقافة كعلم هى من تخصص بتوع الأنثروپولوچيا ، فريزر ، مالينوفسكى ، مارجاريت ميد ، وغيرهم ، يعنى أكتر الناس قربا لدراسة أصل الإنسان الحيوانى . لا شىء أكثر مادية من الثقافة . ببساطة نحن متخلفون ليس لأننا اخترنا الثوابت الخطأ ، إنما لأن اختارتها لنا چيپيناتنا . وعلشان هى شىء عميق جدا لأنها شىء مادى جدا ، الثقافة موش بتتغير بسرعة . موش ممكن تقنع البدوى أنه متخلف ، وأن الارتحال بحثا عن الطعام هو حرفة ما قبل التاريخ . موش ممكن تقنعه أنه ضد التاريخ ، وأن يوميا المدن تتوسع على حساب الأرض الزراعية ، والأرض الزراعية تتوسع على حساب الصحرا ، وأنه لن يجد مكانا يعيش فيه يوما . حتى لو قلت له خد أرض دارفور إللى اغتصبتها واستقر فيها وازرعها ، ها يقول لك لأ ، شكرا موش عاوز .

– ها يقول لك ' أيعمد أحدكم إلى الصغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه ؟ ' . مظبوط هو عاوز المحاصيل ع الجاهز ، وعاوز النسوان يخلص معاهم وتانى يوم يدور على غيرهم . تصور أنى فى الأول فهمت الصغار بمعنى المهانة ، وأن الشغل هو الذى يجلب هذه المهانة ، إلى أن عرفت مؤخرا أن الصغار ليس شيئا معنويا مجازيا ، إنما هو أكثر تحديدا ومباشرة من هذا : هو الأشغال الشاقة التى يعاقب بها العبد ؟ !

– أنت موش فاهم حاجة ! تفكيرك سطحى . الدين ليست تناقضات داخلية . الدين كل متكامل ! فاهم يعنى إيه بدوى ؟ فاهم أن البدوى من مليون سنة هو نفسه البدوى بعد مليون سنة ؟ هو لا يعترف بالملكية الخصوصية . المال مال الله ، وقد ذهب لك عن طريق الخطأ ، ويقتلك كى يصحح خطأ الله ! أنت تتحسس مسدسك حين تسمع كلمة عدل ، لكن هل تعرف لماذا هى أكثر كلمة يرددها العرب يوميا ؟ لأنهم نهابون سلابون لا يكدون ولا يشتغلون أبدا (إسقاط نفسى يعنى !) ، وبالتالى لا يفهمون لماذا يصيب غيرهم الثروات الفاحشة دونما سبب واضح . أنت دايما بتقول أنهم بيشتغلوا فى الأسهم والعقارات ، عارف الفلوس بتروح فين بعد كده ؟ بتندفن فى الصحرا . هى دى البنك الوحيد المأمون فى

نظر البدوى ، للفلوس وللسلاح . بالمثل الأرض أرض الله ، وليس من حق أحد وضع اليد عليها ، ويقتلك كما يقتل أى ذئب يتهدد خرافه . فكرة الوطن لا وجود لها من الأصل . فكرة الحدود بين الدول لا يعترف بها . الدول فى حد ذاتها فكرة دخيلة ومرفوضة . ليس من حق أحد أن يضع سورا على أرض هى أرض الله ، ويمنع بقية عباد الله من دخولها . طول عمرنا بنقول على الإنجليز اتبعوا معانا سياسة فرق تسد . ده غير صحيح . هم ، وليس فى هذا سوى حسن النية المطلق ، حاولوا يطبقوا علينا فكرة الدولة القومية زى ما يعرفوها فى أوروبا . فاكرينا بشر زيهم ، ما يعرفوش أن إحنا بدو ! بالنسبة لـ ' فرق تسد ' دى بالذات ، فهى أسلوب حياة يومى بين القبائل العربية ومجرد إسقاط نفسى برضه . نفس الكلام بالنسبة للاحتلال والاستعمار والغزو ؛ العرب إللى ما لهمش أرض أصلا ، هم آخر من يمكنه أن يتكلم عن مثل هذه الأشياء ، لكنه أيضا الإسقاط النفسى ، لا أكثر . الغرب فاكرين أن سوريا متجانسة تنفع دولة ، والعراق متجانسة تنفع دولة ... إلخ ... إلخ . ما يعرفوش أن أصغر قرية لو اتسابت ها تنقلب حرب أهلية . الحقيقة أن العكس هو الصحيح ؛ بفرض أن التسيد كان هدفهم ، فما استخدموه من أجله هو سياسة جمع تسد أو وحد تسد . أربع قوميات فى أطراف السودان الأربع ، تخيلوا أنها من الممكن أن تحجم الأنشطة الإجرامية للعرب قطاع الطرق ذوى التاريخ الأسود فى الوسط . بالمثل فضلوا وجود أكراد فى سوريا والعراق ، وأمازيغ فى الجزائر ، وكلا القوميتين كان يستحق دولة مستقلة ، لكن الغرب فضل دمجهم مع العرب -أو بالأحرى محاولة دمج العرب معهم- بهدف تحجيم مطامع هؤلاء السفاحين البدو وتذويبهم مع قوميات غير إجرامية ، لكن الواضح أنه كان فى كل هذه الحالات كمن وضع الذئب مع الحملان فى قفص واحد ، ونفس الشىء مع الأكراد الذين تركوا فريسة للفرس أو للأتراك ، وهكذا . لو كان الغرب قد ارتكب جريمة ، فهى بالتأكيد ليست ضد العرب . وطبعا إحنا نبجح ونقول كل العرب وحدة وأمة واحدة ، ونقول استعمار واستغلال وسرقة ، وكأننا طول حياتنا ما بصينا فى مراية . العربى يحدثك بحماس عن الأخوة والتضامن ، ثم تجده بعد ربع ساعة يقتل أخاه . هو صادق كليا فى كلا الأمرين . العرب حين لا يجدون من يحاربونه يحاربون أنفسهم . أنا توجست من السلام مع إسرائيل . الحرب ضد إسرائيل كانت نعمة ، لأنه بمجرد انتهائها حل محلها ألف حرب . الهجامة لا يكفون عن خيانة بعضهم البعض . الخيانة فى الدم . فى التهديد الخارجى كل القبيلة تتوحد ، لكن ما فيش تهديد ، يبقى أنا وأخويا على ابن عمى .

– ده إللى حصل فى لبنان . بناه المسيحيون على مدى قرون ، فجاء المسلمون (بالهجرة الفلسطينية والتكاثر السنى) لينهبوه ع الجاهز ، أقصد لينهبوه بالحروب الأهلية . ثم جاء الشيعة الأحط بمراحل لينقضوا هذا الاتفاق المدعو بالحديبية ، أقصد بالطائف ، الذى نهب السنة البلد بمقتضاه ، لينهبوه هم بدورهم منهم بقوة السلاح .

– جايز صح ، إنما لا ينفى أن المسيحيين أنفسهم يتصرفون كقبيلة . افتح أية قناة مسيحية من التى تقول طوال الوقت إنها تحب المسلمين ولا تكره إلا الإسلام ، وحاول إحصاء كم يستخدمون فى الدقيقة الواحدة كلمة ' هم ' فى الإشارة للمسلمين . ضمير الغائب ليس للتحقير فقط ، إنما لترسيخ العداوة ولتأكيد فكرة الولاء والبراء شديدة القبلية ، شديدة الچيينية . لفظة ' الآخر ' لفظة قبلية جدا ، اخترعها اليهود باسم الأغيار ، ووصل بها الإسلام العربى لذروتها بنظرية الولاء والبراء .

– ده يشبه أن موش ممكن تقنع واحد صعيدى يغير رأيه فى الثأر أو فى شرف المرأة . فى شبابنا كنا نسخر من الصعايدة ونقول عليهم متخلفين ودماغهم ناشف ، والنكت لا عد لها ولا حصر . كنا ظالمينهم لأن بسرعة اتضح أن كل العرب صعايدة ، بل بصراحة يتوارى الصعايدة تواضعا أمامهم . فأين التحفظ الصعيدى نحو المرأة من فوبيا الحجاب والنقاب العربيين المرضيين ؟

– الآن إليك المفاجأة الكبرى : الثأر ليس مصريا أصلا ، ولم يكن يوما . المصريون طيبون متسامحون متوادون ، وأتحدى أن يأتى لى أحد بأثر لعادة الثأر من مصر الفرعونية أو القبطية ؟ ! هى عادة عربية محض ، وحتى مع هذا تعتبر عندنا نسخة مخففة جدا من الأصل . نفس الكلام عن النساء ، بنات مصر القديمة كن متحررات فى ملابسهن وضحكاتهن ومخالطتهن للشباب . صحيح الزواج كان ولا زال شيئا مقدسا للغاية ، ولا طلاق ، ولا زواج ثانى حتى لو مات الزوج أو الزوجة فى ريعان الشباب ، لكن كل ما نراه من تحفظ زائد فى الصعيد سببه العرب . لقد ظهرت فجأة فى حوارى القرية المصرية ضوارى نكاح طلوقة طليقة ، ذئاب جنسية نهمة نهشة ، تبحث عن أية كتلة لحم حيوانى -أو حتى نباتى- تصادفها ، فاضطرت النساء ببساطة لالتزام البيوت !



الحرب بين العاربة والمستعربة ، أو بين قحطان وعدنان ، أو بين بكر وتغلب ، أو بين عبس وذبيان ، أو بين هاشم وأمية ، حروب لا تنتهى أبدا ؛ قد تشهد هدنات طويلة ، لكنها لا تنتهى أبدا ، عارف ليه ؟

– إنها إذن لعبة قطع طريق لا نهائية . ثم آدى أنت شايف الحرب بين قطر وجيرانها . أخيرا الدنيا الغبية فهمت هم بتوع الخليج كانوا بيخزنوا ترسانات سلاح بالتريليونات ، أكتر من أميركا نفسها ليه . وإللى النهارده بيحاربوا سوا ، بكره ها يحاربوا بعض . لو سألتك أى أرض ارتوت بأكتر دماء ، فأنا أعرف إجابتك . ستقول لى أوروبا فى عصر الحروب الدينية . خطأ ! شبه جزيرة البعر شهدت ١٧٠٠ موقعة حربية قبل الإسلام فقط ، وطبعا لا واحدة منها كانت فى ضخامة المعارك التى وقعت بعد الإسلام ، والتى لم تعد تسمى حروبا أو معارك إنما كعادة العرب فى تزيين الكلام : فتن (؟ !) . الحرب بين العاربة والمستعربة ، أو بين قحطان وعدنان ، أو بين بكر وتغلب ، أو بين عبس وذبيان ، أو بين هاشم وأمية ، حروب لا تنتهى أبدا ؛ قد تشهد هدنات طويلة ، لكنها لا تنتهى أبدا ، عارف ليه ؟ لأنها حروب چينية ! أنت فاكر السبب فى حرب البسوس ناقة ضالة ، أو السبب فى مذابح الهوتو ضد التوتسى فرانسوا ميتران ؟ الحاجات دى مجرد الفتيل إنما خزان البارود موجود من ما قبل التاريخ ، وها يفضل حتى أبد الدهر ، أو حتى القضاء على إحدى البركتين الچينيتين المتصارعتين حتى آخر فرد فيها ، أيهما أقرب . بيقولوا الفتيل فى حرب الخليج الخامسة دى قصائد هجاء بين القبائل على الإنترنيت وواحد عمل منها ڤيديوجيم . سبب مضحك زى كل الأسباب إللى قبله فى التاريخ ، لكن المؤكد أن بكرة فيه الحرب السادسة والعاشرة والألف . ليس بوسع أحد الفكاك من برمجته الچينية .



نحن لا نفتش فى نوايا الصدور ؛ نحن نفتش فى نوايا الخلايا !

– (ضاحكا :) البرمجة الچينية ؟ سمعت عن توم وچيرى ؟

– مضبوط ! أنت كده بدأت تفهم شوية ! وطبعا بينما الخيانة فى الدم ، فالوحدة العربية لا تغيب عن اللسان . القتل والكلام حرفتا العرب الوحيدتين عبر التاريخ . هل تعرف لماذا ؟ لأنهما شىء واحد . القتل كما الجنس ورثه عن الحيوانات ، ثم لاحظ أنه يستطيع الكلام ، فاعتبره أهم نشاط حيوى : الكلام يعادل القتل ؛ الكلام يقتل ! الإسلام تعايش ١٤٠٠ سنة مع ' المنافقين ' لأن لو الحاجات الخطرة فضلت فى الصدور ما فيش مشكلة ، المهم ما تتحولش لكلام ، طبقا للنظرية العربية إن ما الحياة إلا كلام . أسهل حاجة عند العربى ينط فى وشك بكلمة هذا تفتيش فى الصدور ، لأنه لم يتعود قط أن يسأله أحد عن نواياه . ربما يعتبر صدره هو مملكته ، سمها مملكة الغدر الكبرى لو شئت ، لكن المهم أنه تعود أن كل البيئة حوله لا تهتم بما يفكر فيه وتهتم فقط بما ينطق به ، الكلام هو الفعل الوحيد ، وطالما أنت لم تنطق فإن شيئا لم يحدث ، لذا الإجابة الصحيحة عليهم هى : نحن لا نفتش فى نوايا الصدور ؛ نحن نفتش فى نوايا الخلايا ! موش كده ولا إيه يا بتاع الأفلام ؟ فيلمك كان ها ينجح لو جبت له چونى ديپ موش توم كروز . قال حداثة قال ؟ ! يا أخى اعمل فيلم عن القراصنة ، لا حد ها يقول لك غزو ثقافى ولا ساينتولوچى ، وها تكسب ملايين . أنت لسه بتقول الأشكيناز والسفرديم ، ٢٠٠٠ سنة شتات هم إللى عملوا الفرق . وكل كلامى عن الهوية لا ينفى أن الطريق للقضاء على الهوية يجب أن يكون ماديا ، لأن الأشياء المادية هى الأقوى . الاقتصاد الحر ، الجنس ... إلخ . هذه ستأتى مفعولها على المجرى البعيد . هذه لا أختلف معك فيها . يا وحيد يا أخويا ، الثقافة موش كلام وأغانى . جايز هى فقط رأس جبل الثلج ، عنوانه ، وليست الجبل نفسه . جايز هى مهمة بس أهمية أن الكتاب يبان من عنوانه . أنما إللى بتقول عليه الثقافة ، أكبر وأعمق بكتير من أنك تستهتر به أنت ولا أرسطو . أنا موش بأدافع عن الإسلام ، أنا بأوريك طبيعة شعوب المنطقة . أنت قريت خمسين صفحة ، وبقيت كافر بالدين . كان المفروض تكفر بحاجة تانى ، بالچيين . الفرق بينى وبينك أنى كفرت بالحاجة دى وما كفرتش بالدين ! الدين فيه حاجات مفيدة كتير موش ممكن أرميها . لو واحد زيك علمانى ، عرف لأى مدى الچيين شديد شديد شديد القبح ، لما هاجم الدين بالمرة ، ولما رآه قبيحا أبدا !



أنت متخيل أن العربى يفهم أصلا ما تقصدونه بكلمة دين أو روحانية أو علاقة بالخالق إلى آخر هذه التهاويم والهواجس الحضرية ؟ هل تعتقد أن الإسلام أراد منهم أن يعبدوا حقا ما يسمى الإله الواحد أو الأحد أو الفرد أو أيا ما كان اسمه ؟ بالقطع إله كهذا كائن هلامى تجريدى غامض لا يعرفون عنه شيئا ويستحيل عليهم تخيله ، بل من الأصل لا يهمهم أمره فى شىء . هم قبائل متناحرة ولذا الشىء الطبيعى جدا أن يفعلوا المستحيل من أجل إعلاء عبادة ما رأوه أعظم الآلهة جميعا : التوحيد نفسه ! ... باختصار : الإسلام هو عبادة توحيد الإله ، وليس عبادة إله التوحيد !

– حسب معلوماتى ، ما كان لأحد أن ينفرد بالحكم ما لم يقل إنه نبى . الكرهان مليان بـ ' أطيعوا الرسول ' و' أطيعوا الله والرسول ' ، لكن ليس به ' أطيعوا الله ' ولو لمرة واحدة . الفايدة الوحيدة لدين التوحيد ، هى توحيد القبائل وخلق دولة تنهب الأمم الأكثر تقدما ورخاء المحيطة بها ؛ هذا هو المقصود بالتوحيد !

– وهى دى حاجة سهلة ؟ طب ما أنت بتفهم أهه : مُحَمَّد زعيم القبيلة ، أمال بيقولوا عليك موش فاهم حاجة ليه ؟ !

– قصدك زعيم العصابة ؟ !

– زعيم وخلاص ! أنت متخيل أن العربى يفهم أصلا ما تقصدونه بكلمة دين أو روحانية أو علاقة بالخالق إلى آخر هذه التهاويم والهواجس الحضرية ؟ هل تعتقد أن الإسلام أراد منهم أن يعبدوا حقا ما يسمى الإله الواحد أو الأحد أو الفرد أو أيا ما كان اسمه ؟ بالقطع إله كهذا كائن هلامى تجريدى غامض لا يعرفون عنه شيئا ويستحيل عليهم تخيله ، بل من الأصل لا يهمهم أمره فى شىء . هم قبائل متناحرة ولذا الشىء الطبيعى جدا أن يفعلوا المستحيل من أجل إعلاء عبادة ما رأوه أعظم الآلهة جميعا : التوحيد نفسه ! ... باختصار : الإسلام هو عبادة توحيد الإله ، وليس عبادة إله التوحيد ! مثلا أنتم العلمانيون تقيمون الدنيا ولا تقعدونها حول زوجات مُحَمَّد ، وتعتبرونها إشكالية أخلاقية أو ديموقراطية أو موش فاهم إيه . ولا تفهمون أن لو كان الله قد سمح له بأربع زوجات فقط كبقية المسلمين ، لما اتبعه عربى واحد ، لأنه لا يمكن لأحد منهم تخيل إلا بناءا هيراركيا جدا للقبيلة ، ولا يمكن لهذا الأحد تمثل إلا أن يكون لرأسها سلطات مطلقة . حتى لو عمر هو شيخ المنسر على رأى ونس ، المهم مطلوب فى كل الأحوال زعيم ، ولو اقتنعوا به يكون إلههم الذى يسلمون له الدنيا والدين ! قيمة عمر أنه كان أعظم وأنجح هؤلاء الزعماء ، لا أكثر ولا أقل . بس يا خوفى يا بدران يكون لسه قدامك حاجات كتير لازم تفهمها . عارف إيه معنى كلمة مغوار ؟

– يعنى بطل وشجاع .

– أبدا ! المغوار لغويا هو ساكن المغاور أى الكهوف . عرفت إزاى البطل الحقيقى عندنا هو قاطع الطريق ، وليه موش إديسون ولا روكيفيللر ولا بيل جيتس ، ولا حتى أحمد عز إللى لو فى بلد تانى كانوا درسوا قصة نجاحه للأطفال فى المدارس الابتدائى ، وعندنا الراجل ما أخدش غير الشتيمة وقلة القيمة ؟ الحروب الأهلية تنشب فى كل مكان بمجرد إجراء انتخابات حرة ونزيهة ، لبنان الجزائر الصومال العراق فلسطين ، لبنان تانى ، موريتينيا ، كل حتة ؟ ولا أتحدث إلا عن حروب عربية-عربية خالصة لأبناء بلد واحد يشتركون فى نفس العرق ، وليس حتى حروب استغلال الغير المفهومة نسبيا ، كما فى احتلال الكويت أو فى حكم عرب الخرطوم لبقية السودان . عارف ليه ؟ لأنهم بدو . كل واحد فى العراق فاكر أنه الأحق والأصلح للحكم بعد صدام حسين . كل واحد فاكر نفسه عمر بن الخطاب والحطابة ، وأنه لما يرفع القبيلة دى ويذل الطايفة دى ، يبقى بيطبق العدل بتاع ربنا ! موش عمر بن الخطاب والحطابة بس ! كل واحد فاكر نفسه عمر بن الخطاب والحطابة وأينستاين وروكيفيللر ورومیل وبيريا كمان . كل مشاكل الدنيا ها تتحل لو سابوه يحكم . اسالنى أنا . أنا أعرف العراقيين وطريقة تفكيرهم كويس . لما أقول لك كل واحد قصدى كل واحد ، هو نفسه موش رئيس قبيلته مثلا . يا وحيد ، أميركا بها حزبان ، العراق به ٢٥ مليون حزب ، كل حزب بيسعى لحاجة اسمها الإجماع ووحدة الوطن . عارف ليه ؟ لأن التحزب حرام شرعا ! لدى العرب سعار اسمه الوحدة ، انتهى بهم لأن أصبحوا ٣٠٠ مليون حزب ، والأدهى كلها تحارب كلها . موضوع زى العراق داخل فى السنة الثامنة ، وبيوسع ، وموش ها يتلم إلا بضربة كبيرة ، وكبيرة جدا ، تقلل عدد الأحزاب دى ! حتى كلامهم أبو بلاش عن محاكاة الوحدة الأوروبية كلام عبيط ، لأن -ومع الفارق الهائل بين ناس وناس- هذه الوحدة ما كانتش ببلاش ، وما كانتش بقرار ، وما كانتش لأنهم زهقوا ، إنما ببساطة لأن دعاة الاختلاف قتلوا فى الحروب على امتداد الـ ٥٠٠ سنة إللى دارت فيها ، ولم تتبق سوى بركة چيينات أكثر تآلفا ومسالمة !

– هذا هو لسان حال كل العرب وليس صدام حسين وحده ، يقولون للعالم : إما أن تتركونا نقمع وننهب الأكراد والشيعة والأفارقة والأمازيغ والمسيحيين ، وإما سنسبب لكم مشاكل جسيمة . أنا فاهم كل الكلام ده . هو موش معجب بعدل عمر ، هو معجب به أساسا كقاطع طريق كبير وناجح ، وبالدرجة الثانية لأنه كريم بعض الشيء ؛ لأنه ربما بيمن عليه بجزء من الغنايم ، لا يريد لخالد وأمثاله من أمراء الحرب أن يستولوا على كل شيء لأنفسهم ، بالذات وأن الرسول كان بياخد خمس كل حاجة لنفسه شخصيا . فعلا ! كيف لم يتوقف أحد أمام مثل هذا التناقض ؟ ! مؤكد عمر بن الخطاب والخطابة آخر مثال ممكن للعدل فى التاريخ : شوف نهب بلاد قد إيه ؛ شوف قتل شعوب قد إيه ، وعمل تطهير عرقى قد إيه ؛ شوف ما صلاش جوه الكنيسة وصلى براها علشان يستولى على الفناء إللى ضعفها عشرين تلاتين مرة ؛ شوف العهدة العمرية مع المسيحيين ، إللى لايحة أية سجون معاصرة أرحم منها مليون مرة ، بما فى ذلك سجون الخمير الحمر . كل ده طبعا خلاف حرقه كتب الأسكندرية وفارس وكل العالم . أوه ! لعلى أخيرا عثرت على التوصيف العلمى لتلك النسخة العمرية من الاقتصاد الإسلامى ؛ إنها اشتراكية الغنائم ؛ الاشتراكية الهجامية !

– خد بالك من كلامك شوية ؛ ده موش ربنا المشاع إللى ما لهوش صاحب إللى أنت طول النهار بتشتمه ؛ دى ناس لها أصحاب ، وأصحاب جامدين أوى . أنا خايف عليك : يا خوفى يا بدران يكون ده آخر عشا ! (ثم ضاحكا محولا الموضوع :) إنما السؤال إللى طول عمرى ما عرفت له إجابة ، هو عبمعصورة لما كتب دعاية للوحدة العربية على كراريس المدارس ' الله أكبر والعزة للعرب ' ، كان يعرف أن شعاره ده تجميع لأسماء آلهة وثنية من الجزيرة العربية ، وبالكتير اتغير حرف واحد فى أسماء بعضهم ؟ !

وكأن الأمر لا يعنيه ، يغمز ونس لروميو ويغنيان سويا : ' وفى التوحيد للهمم اتحاد ، ولا دنيا لمن لم يحى دينه ! ' .



ليس فى كل ما قلت كلمة واحدة تسىء للإسلام ، لا يوجد شيء واحد منها لا يتباهى به المشاخخ أو كتب التراث !

كلمة الإسلام دين الشيطان التى يستخدمها المبشرون المسيحيون ليست فى صالحهم ، إنما تزيد إعجاب المسلمين بدينهم .

قوم عاد أبادهم إله الإسلام بعشر طرق مختلفة فى عشر مواضع مختلفة من الكرهان ،

المسلم لا يرى فى هذا تناقضا ولا سهوا ولا جهلا ولا انتقاصا من صفات الإله ولا حتى برهانا كافيا على عدم وجوده ،

فكل هذه تفاصيل لا تهمه من قريب أو بعيد ؛ المهم شيء واحد : أنه إله جبار عديم الأخلاق يبيد خصومنا الذين لا يتبعونه !

صدقنى : لن يهز تشبثهم بالإسلام إلا أن أثبت لهم أنهم يعبدون العدم ، وأن مُحَمَّدا بن بحيرة النسطورى البصرى [بضم الباء]

كان رعديدا ، ضعيف الشخصية ومعدوم القدرة الجنسية ، هنا سيكفون عن عبادته فى الحال .

ذات الشيء بالنسبة لعمر بن الخطاب والخطابة ،

وضيع الأصل اللواطى السكير مدمن حناء الدبر الذى لم يقاتل دونما خداع مرة واحدة فى حياته .

أما أن تحاول مثلا إفهامهم أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا لأن الغرب لن يلدغ من ذات الجحر مرتين ، فذلك نوع من العبث !

يعود وحيد للنقطة التى تهمه : ' سواء هذا أو ذاك ، إذن التوحيد مفهوم سياسى ، والهدف الحقيقى وراءه هو الدولة ؟ ' .

– دولة إيه يا بتاع الدولة يا مستورد أنت ؟ عن أية دولة تتحدث وتبنى نظرياتك ؟ جايز التوحيد كان شيئا يخص الدولة والسياسة أيام أخناتون ، إنما عند العرب القصة أبسط من كده بكتير ؛ كلمة دولة أو كلمة سياسة نفسها لا معنى لها عندهم ! الصراع على الخلافة كان خلافا قبليا محضا . إزاى ما لاحظتش أن الشيعة والسنة إللى بتقولها دى كلمات ذوات مدلول قبلى خالص ، أهل البيت ضد أهل الجماعة ؟ فى كل مرة يذكرون كلمة سنة أو شيعة أو هاشميين أو أشراف أو ... أو ... ، إنما يذكرونك بمدى قرابتك أو بعدك منهم ، يذكرونك بأصلك وبموقعك القبلى ، بل ويذكرونك أن هذا الانتماء القبلى هو الأهم والأبقى من أى شيء فى الوجود أو وراء الوجود ، بما فى ذلك الإيمان بذات الإله . كل الموضوع كان صراعا قبليا من الأصل ، والكل ظل لقرون يبحث له عن حل . والأهم أنه سيظل قبليا للأبد ، يا بتاع دولة المواطنة القومية المدنية الأوروبية أنت . كل حاجة قبلية قبلية قبلية . مصطلح الأمة نفسه (إللى أنت بتسميه الدولة) ، كل استخداماته ومدلولاته قبلية ، وعلى رأسها الولاء والبراء . صحيح أن المقولة السائدة لدى كل الأطراف أن الدولة هى ما يدور حول الإسلام ، حلم الدين الواحد الموحد الذى تحقق أخيرا بعد قرون من الانتظار والتخطيط المضنيين . لكن السؤال الذى فشل فيه الإسلام هو أهم الأسئلة جميعا : تسمية القبيلة التى تحكم هذه الدولة ،

التى يعلن لها الحق المقدس فى استعباد كل بقية القبائل . خدها منى قاعدة : لا الدول ولا الممالك ولا المحاكم ولا البرلمانات ولا الأحزاب ولا البلديات ولا النقابات ولا المنظمات غير الحكومية ولا الأسر النووية ولا الجامعة العربية ولا الأمم المتحدة ولا أى حاجة ، تنفع . حتى البورصة إللى إحنا شغالين فيها دى ما تنفعش لأنها قائمة على الديموقراطية وتعدد الآراء . الشكل الوحيد الممكن للتنظيم عندنا هو القبيلة ؛ كل الأشكال الأخرى ثبت فشلها !

– فعلا ! أرسطو ... .

– أنا موش عارف أنت ليه دايما بتمد لبره وعامل مرجعك لكل حاجة أرسطو ؟ تروح بعيد ليه وعندنا مثلا ابن خلدون أو الجبرتى ، ولن يقول عليهم أحد إنهما يسيئان للعرب والمسلمين ، لسبب بسيط أن شهد شاهد من أهلها وأهل مكة أدرى بشعابها ؟ حتى جيبون حبيبك وعدو الأديان رقم ١ ، قال نقدا مخففا للغاية للعرب ، إذا ما قورن بأى منهما .

– لاحظ أن الترجمة العربية مزورة جدا عندما تترجم ما يخص الإسلام ، وبها حذوفات بالطن عندما ترفض الترجمة أصلا !

– أنا عارف ، لكن لا يمكن يكون جيبون قد قال شيئا مما ما قاله الجبرتى الذى كان حتى قدوم الحملة الفرنسية أزهريا سلفيا جهاديا شديد العداء ' لأهل البدع ' أى الصوفية ، ثم إذا به بعد قليل ينقلب ١٨٠ درجة على نفسه ، ينحاز للحداثة انحيازا تاما ، يمجد الأجنبى الغربى المحتل ، ويصف العرب بـ ' الملاعين الأعراب أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس ' ؟ لا يمكن يكون جيبون قد قال شيئا مما ما قاله ابن خلدون من كلام مرعب عن العرب بالذات فى الجزء الأول من كتابه الضخم ' التاريخ ' ، أو ما يعرف بالمقدمة . منه بالحرف الواحد أن العربى نهاب سلاب متوحش ، ولو أخضع أية مملكة أسرعت للخراب والفاقة . هو يرى العرب ككائنات تدميرية خطرة على الإنسانية ، ويقول إن العربى -فردا أو جماعة- لا يصبح مسالما إلا مؤقتا وفى حالة واحدة فقط لا غير : أن يوضع تحت حالة من الرعب الشديد (أو ما يسمى بمصطلحات دونالد رامسفيلد وتومى فرانكس awe and shock ، وبمجرد أن ترخى قبضتك قليلا أو يشعروا هم بالدفء يقتلونك ؛ أو تقريبا نفس الكلام إللى كنت بأقوله لك إن لا شىء أقوى من الچيبنات إلا الإبادة) . والأهم من ' شديد ' تلك أن يكون الرعب جليا جدا مباشرا جدا كى يشله عقليا وانفعاليا ، لأنه لو لم يكن هكذا لاندفع العربى غريزيا كى يقاتل وساعتها سيلقى حتفه . أيام ما كانت إيد الحكومة طايلة ، كان البدوى عندنا فى سيناء لو سمع غفير الشرطة يقول ' مين هناك ؟ ' ، يرمى البطاقة الشخصية ويجرى . بعد الحروب مع إسرائيل بقى عندهم ترسانات أسلحة ، وبقى ظابط الشرطة أو الجيش هو إللى يرمى الكاب ويجرى ! دلوقت فهمت ليه حصلت حروب الردة والفتن الكبرى والصغرى والمتوسطة ، ولا ها تعمل زى الشيخ إللى غايظ ونس إللى بييجى قبل الأخبار ، حافظ موش فاهم ؟ ! من يحكم من ، هو السؤال دائما أبدا ؟ المشكلة أن الإسلام أجاب على بعض الأسئلة ، لكن ليس كلها . مثلا من يحكم ، هل قبيلة صدام حسين أم قبائل الأكراد ، هل قبيلة مهاتير مُحَمَّد أم القبائل الصينية ، هل قبيلة عمرو بن العاص والعاصية أم قبائل الأقباط ، هل قبيلة عمر بن البشير أم قبائل الأفارقة ، هل قبيلة الموحدين أم قبائل الأمازيغ ؛ هذه أسئلة سهلة ، وإجاباتها واضحة ، والإسلام أيضا واضح فيها ولم يجد صعوبة . لكن مثلا هل يحكم آل البيت أم آل الجماعة ، أبناء الدم والقربى أم أبناء الصحابة والعقيدة ، أمير الطوائف رقم ١ أم رقم ٢ ، هذا سؤال صعب ولم يأت الإسلام بإجابة حاسمة عليه ، لأن بصراحة الإجابة مستحيلة . أو لو دخلنا فيها علم الچيبنات ها نحصل على إجابة ، لكن ساعتها ها تبقى مصيبة سوداء . تونى بلير لما قال الإسلام دين سلام وتعايش طلع أهبل وعبيط ، أو چورچ دبليو . بوش لما دخل العراق وقال ها أحرره وها أعمل ديموقراطية طلع أهبل وعبيط ؛ عارف ليه ؟ فاكرينا بشر زيهم ، ما يعرفوش أن إحنا بدو ؛ ما فيش حاجة اسمها تعايش ، وأن لازم قبيلة واحدة تسود على الكل ، فاكرين الدين زى عندهم علاقة بين الإنسان وربه ، أو زى ما بتقولوا يا علمانيين الدين هو العورة الوحيدة التى يتحتم على الإنسان إخفاءها ، ما يعرفوش أن علاقة بين الإنسان وشيخ القبيلة ، وبين القبيلة والقبيلة المجاورة . العربى ها يديك تنازلات كلامية ورا تنازلات كلامية زى ما تحب ، حتى تأتى اللحظة التى يتحين فيها إما قتلك وإما استعبادك . كل قصيدة شعر عربى وراها قصة من النوع ده . طريقة تفكيره هذه لا تتغير أبد الدهر ؛ ما يتغير فقط هو ضحاياه الذى ينخدعون بتمسكنه الزائف . هل تعرف أن ابن خلدون ألف ما ألف وهو معتزل عن الناس زيك كده ، كله فى مصر ودفن بها أيضا ؟

– سواء مُحَمَّد دمية أو بطل همام ، إللى أعرفه أن ذلك السلام بين القبائل ، لم يدم شهورا على بعضها قط . الردة ، الامتناع عن دفع الخراج ، الخلفاء ماتوا مقتولين ، معارك إللى بيسموه الفتنة الكبرى ، صراع الأمويين والعباسيين ، صراع كل واحد ضد كل واحد ، وغيرها وغيرها . ١٥٠٠ سنة حروب . ما حصلش أن فيه حاجة اتوحدت أصلا ، ولا ها تتوحد .

– بالفعل ، يوجد فى الأمر شىء مريب . أحيانا أتعجب بشدة من قبول الإسلام أن يسوع ولد بدون أب بينما يرفض بشدة فكرة المسيحية عن وجود ثلاث صور لتجلى الإله ، رغم أن الأولى أعصى على التصديق بمراحل . ثم المدهش أنهم يتجاهلون كليا ما هو أخطر بما لا يقاس : الروح القدس ! كل مسيحى يعتقد فى نفسه أنه إله ! ؛ نزلت به الروح المعزية بعد رحيل المسيح ، ميزته عن جميع البشر ، وجعلته منذ اللحظة (هنا والآن) ، ينعم فى الفردوس ويعيش شراكة عضوية مع الذات الإلهية ، مع ذلك لم يحدث أن علق مسلم واحد على هذا الأمر .

– أنا ها أفهمك حكاية يسوع إللى محيرك ده : هل عمرك شفت واحد بلا خطيئة قبل كده ؟

– أيوه : أنا !

– هأ ! والمسيح الدجال ها يقول على نفسه إيه غير كده ؟ ! خلينى أفهمك : بالنسبة للعرب يسوع ده نبى مثالى ما فيش أحسن من كده ؛ رفيع الأخلاق ، عاقل ، عفيف ، كل العالم بيحترمه بما فيه روما شخصيا ، وفوق ده وده بيعمل معجزات .

– ما هى المعجزات دى هى الحاجة إللى قالقانى فيه ! طبعا الأناجيل -منها إللى اكتبت بعد ٥٠ سنة ، ومنها إللى اتكتب بعد ١٠٠ سنة- بالغ فى الأساطير دى جدا ، لكن يظل لا دخان بدون نار ؛ ومعنى أنه عمل معجزات ، أنه وأصحابه كانوا شلة بهلوانات سيرك وشغل حواة وسحرة وخفة يد ؛ يطلعوا أكل من الجراب ، أو بدل جرة الميه يحطوا جرة النبيذ ، أو يجيبوا واحد يقولوا عليه أعمى وبعدين يطلعوه سليم ، أو يلفوا واحد قريبهم ويحطوه فى قبر وبعدين يقولوا أقامه من بين الأموات بعد ٤ أيام (stunt كويسة من بتوع إيليا وأليشع !) ، أو كمان خبراء فى خلق الهلاوس -السمعى أو حتى البصرى ، سواء الفردى لدى انفراد الأفراد (بتاع الست أمينة) ، أو الجموعى الهيستيرى لدى احتشاد الحشود (إللى أثبت لنا چيم چونز أن لا سقف لما يمكن أن يصل إليه ، وقزم كل القصص عن ظهور يسوع لتلاميذه بعد موته أو عاصفة ترابية اسمها الروح القدس اجتاحتهم أو لاحقا ظهورات العذراء وما شابه) ، وهلم جرا من شغل الأكروبات . ليه ما عملش معجزات فى أورشليم ؟ لأن شغل الأونطة إللى يخيل على بتوع الأرياف ما يمشيش فى المدن ! حتى بعض الأرياف كانت بتطرده و' لم يصنع بها معجزة لقلة إيمانهم ' . ما معنى هذا ؟ معناه أن الإنجيل يفضح نفسه بنفسه ، ويقول إن الإيمان -أو بكلمة أصرح العمى- هو اسم اللعبة وراء كل ما يسمى بالمعجزات عبر التاريخ ! على فكرة ، أنا طول عمرى كان فيه سؤال محيرنى : إذا كانت المعجزات سهلة جدا هكذا عند إله السماء ، فلماذا لا يستخدمها فى حل المشكلات الاقتصادية التى دوختنا ، أو مثلا فى القضاء على الفقر والجوع ؛ أم أن السمك الوفير يأتى فقط من أجل إبهار صياد مفتول العضلات اسمه بطرس ، تحتاج الشلة بشدة لتجنيد فتوة مثله لحمايتها ؟

– طب والمشى ع الميه !

– دى كانت بينهم وبين بعض ، ما فيش شهود وطابخينها سوا . كمان جايز يكون أخدهم وهم نايمين ودايخين لحتة فيها الميه ضحلة . فى كل الأحوال أنا أفضل بكثير معجزات ديڤيد كوپرفييلد ، وطبعا فوق الكل أفضل معجزات إقامة هودينى لنفسه وللآخرين من بين الأموات !

– أنت عارف طرد الشياطين فى الأديرة بيتم إزاى ؟ أنا حضرت كذا حالة . موش تمثيليات مدبرة كما تقولون يا علمانيين . البنت بتيجى جاهزة أصلا . أولا ، كل إللى حواليها مفهمينها أن لا بد فيها شيطان ١٠٠ ٪ . ثانيا ، هى كمان مقتنعة بكده ١٠٠ ٪ . ثالثا ، مفهمينها أن الراهب ها يدى أمر ٣ مرات للشيطان يطلع ، وبرضه هى واصلة لدرجة الاقتناع بكده ١٠٠ ٪ ، والنقطة دى أهم ما فى الموضوع ، وإللى لا يمكن ينجح أبدا من غيرها ، وأعتقد أن هنا يكمن الفارق بين ذكاء الراهب المشهور الناجح فى المواضيع دى وبين غيره . بعد المرة التالتة طبيعى أنها تسكت لأنها بتحاول تشوف حصل إيه . فى اللحظة دى كل الموجودين يلاحظوا الذهول غير المقصود على وجهها فيصفقوا ويزغردوا ، فتفتكر هى أن الموضوع اتحل فعلا والشيطان خرج فتبتدى تبتسم . لما تروح البيت ، أهلها وصاحباتها يفضلوا فرحانين بها فيفضل عندها الإحساس أن كل حاجة بقت تمام ، فتبقى تمام فعلا : حالة نفسية وراحت ، وهم وفروا أجرة الطبيب النفسى . فيه حالات نادرة بتخرج عن السيطرة ، ما بينفعش فيها ٣ أوامر ، بتطول جدا مع القسيس . السبب موش قوة الشيطان ، إنما أنها نوبة صرع . لما تخلص برضه كل الناس ها تصفق ، والبنت تقوم من ع الأرض مبسوطة . فقط هناك مشكلة واحدة : نوبة الصرع التالية !

– قصدك أجرة طبيب الأعصاب ! المحكمة اتنورت يا حاج !

– على أية حال موش موضوعنا . المهم فى إللى بأقوله العرب كانوا شايفينه إزاى : القرآن قال إنه خالق -أو زى الخالق- ينفخ فى الطين فيصبح طيرا ، وكمان قال أنه تقريبا هو ربنا نفسه وها ييجى يدين العالم بما فيه حتى مُحَمَّد نفسه ؛ أيضا كانوا يتوسمون فى مُحَمَّد أنه لن يموت مثله ، وتركوا جثته ثلاثة أيام (لاحظ العدد) ، غير مصدقين أنه مات حتى ربأ بطنه أى علا وانتفخ (ربما رفض مُحَمَّد قصة صلب عيسى فقط خوفا من أن يتنبه قومه فيصلبونه هو نفسه !) . باختصار : موش ممكن تلقى نبى أقوى من يسوع ده ولا فى وول مارت حتى ، لكن يسوع ده فيه مشكلة أساسية جدا لم يجد العرب حلا لها ، عارف إيه هى ؟ : أنه ابن قبيلة أخرى ! فهمت ؟ !

ويتدخل ونس : ' أنا اعترض ! أولا : إللى فاهمين اللعبة ما استنوش ولا ٣ دقايق ، إنما هرعوا فورا للسقيفة ، وسابوا إللى يعفن يعفن . الكائن الوحيد فى كل شبه جزيرة البعر المخلص رقيق القلب مرهف الحس والوحيد على ما يبدو الذى آمن بمحمد إيمانا صادقا ، هو الوحيد الذى استنكف الذهاب للسقيفة ، إنما ذهب وقتل نفسه كمدا ، إنه صاحب العبارة الشهيرة بتاع الدنمرك ' بأبى أنت وأمى يا رسول الله ' : الحمار يعفور (وطبعا ، لو أحاديث يعفور صحيحة فتلك مصيبة ، ولو مكذوبة فالمصيبة أعظم !) . ثانيا : يسوع ده ولا حاجة عند العرب ، ضعيف نحيل ومسفوح ، أما مُحَمَّد فقوى فحل وسفاح . لو بطرس جايز أصدقك ، جتة وبلطجى وكمان يزدرى النساء (رآهن كلهن فى النار ، يعنى أجدع كمان من مُحَمَّد الذى رأى أغلبهن فقط ، هأ ! هأ !) ، إنما يسوع الغلبان بتاعكم ده إللى هزأوه ولطموه وجلدوه وصلبوه عريانا تماما وهى قمة الإذلال : هيهات ! بغض النظر هل تلك مزاعم أم حقيقة ، هذا ما يريدونه فى نبيهم ، ' زعيمهم ' كما يسميه الإخوان . ثالثا وباختصار : هم يعتقدون أن مُحَمَّدا قائد عسكرى فذ ، ولا يقرأون تفاصيل الغزوات حيث لو اتبع صحبه نصائحه لذهبوا فى ٦٠ داهية من أول مرة فى بدر وفى كل مرة ، ويعتقدون أنه همام مغوار وهو الذى بعد أن نجا من الموت نسى ابن عمه النائم فى الفراش بدلا منه ، وهلم جرا . عمنا ضهرى اتهمنى ألف مرة بالإساءة للإسلام ، لكن الحقيقة أن ليس فى كل ما قلت كلمة واحدة تسىء للإسلام ، لا يوجد شىء واحد منها لا يتباهى به المشاخخ أو كتب التراث ! كلمة الإسلام دين الشيطان التى يستخدمها المبشرون المسيحيون ليست فى صالحهم ، إنما تزيد إعجاب المسلمين بدينهم . قوم عاد أبادهم إله الإسلام بعشر طرق مختلفة فى عشر مواضع مختلفة من الكرهان ، المسلم لا يرى فى هذا تناقضا ولا سهوا ولا جهلا ولا انتقاصا من صفات الإله ولا حتى برهانا كافيا على عدم وجوده ، فكل هذه تفاصيل لا تهمه من قريب أو بعيد ؛ المهم شىء واحد : أنه إله جبار عديم الأخلاق يبيد خصومنا الذين لا يتبعونه ! صدقنى : لن يهز تشبثهم بالإسلام إلا أن أثبت لهم أنهم يعبدون العدم ، وأن مُحَمَّدا بن بحيرة النسطورى البصرى [بضم الباء] كان رعديدا ، ضعيف الشخصية ومعدوم القدرة الجنسية ، هنا سيكفون عن عبادته فى الحال . ذات الشىء بالنسبة لعمر بن الحطاب والحطابة ، وضيع الأصل اللواطى السكير مدمن حناء الدبر الذى لم يقاتل دونما خداع مرة واحدة فى حياته . أما أن تحاول مثلا إفهامهم أن التاريخ لا يعيد نفسه أبدا لأن الغرب لن يلدغ من ذات الجحر مرتين ، فذلك نوع من العبث ! (حطاب بالمناسبة تعنى حمال الحطب ، وهو -بالمناسبة أيضا- مذكر حمالة الحطب ، وهما -بالمناسبة كذلك- حمالا حطب حقيقيين وليس تطاولا جبريليا على ذوى الحسب والنسب) ' .

– طز فيك وفى كلامك ! وإيه يعنى لم يقاتل دونما خداع مرة واحدة فى حياته ؟ ! مدح دى ولا ذم ؟ !



أتحدى ذلك الإله القعيد القزم الأبرص ، الدنس النجس الرجس ، الدميم الذميم الذليل ، الخسيس الرعديد الخانع ، أن يخرج فقط لمرة واحدة من مخبأه السماوى المنكفئ فيه على فشله والهارب إليه من جرائمه ، ويواجهنى فى مناظرة علنية ، فبصفته إلها يعلم كل شىء ، هو واثق أن جزمتى التى سأهوى بها على دماغه سوف تؤلمه أشد الألم . وأتحداكم أنتم -يا كل اليهود والمسيحيين والمسلمين- ليس فقط أن أجعله يركع متوسلا أن أقبله عبدا لى ، بل أن أقوده للانتحار على الهواء أمام العالم أجمع !

ما الذى أتى بى من عليائى لهذه الرمسيس الكابوسية ؟ اهتمامى الوحيد بالدين -إن كان لى اهتمام أصلا- هو الآلهة ؛ هذا هو مستواى ! لقد أتيت بدليل علمى قاطع غير قابل للدحض يثبت عدم وجود الإله ؛ دليل من الفيزياء الجسيمية ، يقول إن المعادلة المثلثة الكون-الرب-النرد ليست معادلة ثلاثية الحد كما رفض أينستاين واعترض ، ولا حتى ثنائية الحد كما قرر ووافق ؛ فقط لها حد واحد هو الكون ، لا مكان للرب ولا للنرد

فيها . هذه كانت مقالتى الوحيدة التى تطرقت للدين ، بل وكانت مقالا صغيرا عابرا ، عداها لم أعطه يوما أية فسحة من تفكيرى . ألا زلتم تؤمنون بعد بذلك الإله الخفى ؟ يا لكم من كائنات غريبة الأطوار ! لا بأس على أية حال ! هالة أقامت محاكمة لذلك الرب على ما جرمت يداه وأصدرت حكما بإعدامه ، أما أنا فلدى شىء آخر ؛ لدى تحدى له ولكم : أتحدى ذلك الإله القعيد القزم الأبرص ، الدنس النجس الرجس ، الدميم الذميم الذليل ، الخسيس الرعديد الخانع ، أن يخرج فقط لمرة واحدة من مخبأه السماوى المنكفئ فيه على فشله والهارب إليه من جرائمه ، ويواجهنى فى مناظرة علنية ، فبصفته إلها يعلم كل شىء ، هو واثق أن جزمتى التى سأهوى بها على دماغه سوف تؤلمه أشد الألم . وأتحداكم أنتم -يا كل اليهود والمسيحيين والمسلمين- ليس فقط أن أجعله يركع متوسلا أن أقبله عبدا لى ، بل أن أقوده للانتحار على الهواء أمام العالم أجمع ! ، وافعلوا بى ما شئتم إن فشلت ! حتى تلميذتى هالة لها مستواها الخاص ، فقط راحت تفند خطل ' الخالق ' وفشله المهنى وسوء تصرفاته . صحيح هى تختلف عنى أن مادتها التى تقرأها هى تلك الكتب القميئة المسماة بالمقدسة ، وليس الفيزياء الجسيمية ، لكنها قطعا لم تنحدر يوما للحديث عن هؤلاء المسمين بالأنبياء . بلى ، نحن دائما من مستوى الآلهة فما فوق ، ولا نتدنى أبدا لمستوى الأنبياء !

كلا ! ليس حتى كل الآلهة ! كى أكون دقيقا وكى لا تسيىء فهمى ، فإنه للحق حين كتبت تلك المرة أفند الآلهة ما دار بذهنى هو آلهة اليونان والرومان . تجاهلت يهوه إله اليهود (فقد تكفل به نجيب محفوظ بما يكفى) ، وألقيت بالكاد نظرة على إله المسيحية المدعو الرب (به بعض الصفات الحسنة لكنه لا يشذ عن نظيريه إلهى التوحيد الآخرين ، بالذات فى الجنون العقلى وفى سيكوپاتية الولع التلذذى السادى الرهيب بالدماء ، وأقلها قتله لابنه بتلك الوحشية العجيبة) ، أما اللات أو الله إله الإسلام هذا فقد تعرفت عليه مؤخرا جدا ، وهو للحق شىء لم يخطر لى ببال ، لا فى الأحلام ولا حتى فى الكوابيس . تصور إله يغشش آدم أجوبة امتحان أسماء الحيوانات كى ينجحه ويرسب الملائكة الذين يخشى مواجهتهم وجها لوجه (ثم بعد كل هذا يصب لعناته على إبليس لا لشىء إلا أنه رفض الشرك به والسجود لآدم ، ويعفو عن آدم رغم أنه ارتكب جريمته مع سبق الإصرار والترصد ، وضرب بعرض الحائط لائحة التحذيرات المطولة ؟ !) .

قطعا حين تحدثت عن النرد لم يخطر ببالى إله فاسد وسواس جبان وضيع ودنيئ كهذا . الأدهى هو ليس فاسدا فقط بل مفسد أيضا ؛ أسس حلفا شيطانيا سريا مع المترفين لإفساد العالم ؛ بل وسواس غواء ضحك على ذلك الكائن المحترم إبليس وخدعه ، وبما أن بمكرك وغوايتك وألاعيبك القذرة جعلتنى ملاكا ساقطا فربى بما أغويتنى لأزينن لهم الأرض ولأغوينهم أجمعين ، لعبة الشطرنج لم تنته والحساب بينى وبينك يجمع ، ولن تكفينى عمولة الـ ١٠ ٪ بتاع هوليوود إللى عاوز تضحك على بها ، إما فيفتى-فيفتى وإما موش لاعب . بل حتى هو مولع بالدماء ؛ تخيل ماذا كان اعتراض الملائكة على خلق آدم ؟ اعتراض واحد لا غير : بحور الدماء التى ستملأ الأرض ! توقعوها فكانوا الأحكم فسقطوا وصاروا الرجيم ، ولم يتوقعها هو فكان عديم الحكمة فصار العلى العظيم ، أو أعجبه توقعهم فقرر المضى قدما كى يتلذذ بالفرجة (السؤال فقط : هل كان مُحَمَّدا يؤيد أم يعارض سفك الدماء حين كتب هذا ؟ سؤال صعب بالنسبة لى ، بالذات وأن سورة البقرة هذه تقع فى النقطة الفاصلة بين مرحلتى الموادعة وبحور الدماء) !

أيضا هو قواد ؛ أرسل هواءه فعرى زينب ؛ كذا هو أول من نادى بحرية الفتيات فى احتراف البغاء أو رفضه دون إكراه أبوى (هأ ، اسمع هذه يا ونس : ها هى كلمة حرية موجودة بالكرهان ، ربما ليس حرفيا لكن المعنى صريح !) . أيضا هو من اخترع كل الممارسات الجنسية الكثيرة المتنوعة جدا والتى شخصيا أراها شاذة جدا تلك التى تفعل كل شىء وتقف عند نقطة إيلاج ' المرود فى المكحلة ' ، وقد أسماه فى كرهانه ' اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ' ، ويا ما فى الكرهان يا حاوى ! (يا لك من ظالم يا ونس ؟ كيف بربك تقول عليه عدوا للحرية ؟) . بل هو أول من كسر تابووه المحارم الذى شرعته كل قبائل الدنيا منذ ما قبل التاريخ (لتجنب الأمراض الچينية حسب فهمى المتواضع ، أو لسبب آخر قرأته ولم أفهمه فى كتاب فرويد !) ، فهو أحل زواج المسلم من ابنته واخته (وربما أمه أيضا بل وجدتيه كذلك ، وإن اختلف الفقهاء هنا) ، قائلا إنه يخلق من ماء الرجل ' نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا ' ، وليس نسبا فقط ، ومرة أخرى يا ما فى الكرهان يا حاوى ! (يا لك من أخطل يا ونس ؟ كيف بربك تقول عليه عدوا للحرية ؟ بل بالأحرى بأى وجه يمكن لأحد أن يعترض على مقولة عمر بن الخطاب والحطابة ' احرقوا جميع الكتب ، الكرهان به كل شىء ' ؟ ! بل ويا لكم من سذج أيها المسيحيون ؟ الإسلام ديانة شيطانية ؟ ! كيف لا تعرفون أن الشيطان لا يعرف صنع أشياء كهذه ؟) .

ما علينا : المدلس الوسواس الكناس الخناس الدساس الغشاش الجبان السفاح الوضيع الدنيء القواد الكياد الخداع المكار المنتقم الجبار المتكبر الضار المضر الضال المضل الذليل المذل الفاسد المفسد الميت المميت المقيت (البعض يقول من التوقيت والبعض من القوت لكنك عندما تقول لهم من المقت يفرحون أكثر !) القاهر الظافر الظالم المظلوم البارانويا السافل الجهول الشنيع أبو رجل مسلوخة وارد الجنة بساقه (وربما بعضوه الذكرى أيضا) ، رب الأنفال والأنصاب ، له الأسماء الحسنى مرقع أغشية البكارة . هذه بعض ما يسمونها أسماءه الحسنى ، فماذا عساها تكون أسماءه السيئى ؟ ! يقولون إله الإسلام قادر على كل شيء ، واضح جدا ! إنه حتى يلقى بالأطفال الرضع إلى نار جهنم فيها خالدون ، لأنه ' خلق للنار أهلا وهم فى أصلاب أبائهم ' ، مزاجه كده !

نعم ، الآلهة الأخرى لا تستطيع الكذب ولا المكر ولا الإفساد ولا الإفساق ولا الإضلال ولا تغيير رأيها كل دقيقة ، لكنى شخصيا -وسامحونى- أشك إنه قادر على أى شيء ، وكفاى ما أعطيت من وقت وجهد لهذا الإله الفاشل فى الشر ، مثل فشل بقية الآلهة فى الخير ، وعلى أية حال يرضينى منه اعترافه بفشله واختباؤه الوضيع طيلة كل تلك الألفيات ، لا يجرؤ فيها أن يظهر وجهه لنا قط (فى الواقع محاكمة هالة لم تكن فى حاجة لكل تلك الأدلة على فشله أو شره ؛ يكفى أنه خلق العرب !) . هل تعلم ما هو نصف الكوب المملوء هنا ؟ أن أخيرا وجدت شيئا مشتركا بينى وبين ابن الحطاب والحطابة : إنه يشاركنى ذات السؤال الذى ظللت أسئلة طيلة حياتى : ' فيم الاختفاء ؟ ! ' . ما الذى يمنع الإله أن يعيش بيننا ، هو خالد ونحن لا ، أما الاختفاء فلا بد أن وراءه سر مريب ؟ هل خلق إديسون أو قون نيومان ما خلق بالريموت كونترول ؟ على أية حال يكفينى أن إلهكم هرب مختبئا فى بيت جده ، هذا الذى تتحدث عنه السورة إللى راكبها عفريت . حتى لو كان هذا السطر قد أملاه العقل الباطن لمحمد تأثرا بمكانة عبد المطلب ، فسأظل شخصيا معجبا جدا بفكرة ' جد ربنا ' هذه ؛ إنها رائعة حقا ؛ خيال جميل ومحاولة جريئة للإجابة على السؤال الذى تهربت منه كل الأديان وهو من الذى خلق الله ، هل خلق نفسه أم ماذا ، ثم على الأقل جدا هى بها إجابة على سؤال المسيحيين اللزج عن لمن يصلى الله حين يصلى على مُحَمَّد ، ويا ما فى الكرهان يا حاوى !



– كل حاجة فى الچيينات ، فين إرادة الإنسان ؟ !

– موجودة ! ... فى الچيينات برضه !

– هأ ! هأ ! هأ ! هأ ! هأ ! موش عارف مين جد ربنا ؟ ! ... هأ ! هأ ! هأ ! إللى نكح صهاك ، جدة ربنا ! ... هأ ! هأ ! أنت أساسا بتدور على إبرة فى كومة قش ؛ مستحيل تعرفه ، لأن من نكحوها لا عدد لهم ! ... هأ ! هأ ! هأ !

– العجل ده سبق وقال إن السادات وريجان كانوا هواة فى لعبة الإسلام ، والفكرة كانت ضرب الشيوعيين بالإسلاميين ، ثم إغراق الإسلاميين بالمال والجنس فينسون الإسلام . الآن غرقنا بالفعل فى المال والجنس ، لكن شيئا من كل ذلك لم يحدث . السبب ببساطة أن الإسلام فى الدم ! أنا مختلف معك أنك لا يمكن أن تقتل لمجرد أن الإسلام قال لك اقتل ، إنما أنت تقتل لأن چيناتك تدعوك أو تأمرك بالقتل ، والإسلام ما هو إلا جزء من تلك الچيينات المتصاحبة مع بعضها البعض . كمان أنت سبق وقلت المسلم المتدين بيبص للمسيحى من فوق لتحت ، السبب موش هو إللى أنت قلته (الازدراء) . بالعكس ، النظرة الطويلة إللى من غير كلام ، وإللى كل مرة يقابلك يكررها فيها ، موش لازم حتى نوع من الغيظ والتحدى ، هو بيفكر ومأزوم وهو بيتأملك : إزاى سمحت لك نفسك تؤمن بشيء غير الإسلام ، دين الحق ، وإزاى سمح ربنا يديك الفلوس أو الذكاء ده ؟ أنت بتمثل أزمة بالنسبة له ولعقيدته . ما فيش مانع طبعا تيجى الجزية فى باله ، لكن موش هى كل المشكلة . برضه الإسلام فى الدم . إللى موش فى دمه الإسلام ، يعنى إللى موش متدين أو مؤمن إيمان عام ، موش ها يبص لك البصة دى أبدا ، وموش ها يبطل كلام معاك لأنه معتبرك صديقه بجد . (ويصيح للشخص الواقف فى منتصف القاعة :) صح ولا غلط يا إدوارد ؟ باين عليك أنت التانى موش فاهم حاجة ! (ويعود لونس :) زى ما كنا بنتكلم مع أستاذك وحيد ، التربية شيء ثانوى . ممكن تشوف واحد اتعلم كويس جدا وعايش حياة عصرية جدا ويهاجر ويتأقلم وينجح ، لكن لما ييجى يتجوز يرجع مصر يتجوز . ياخد مراته يحبسها هناك فى البيت ، وتمشى كل حاجة تمام لغاية ما بنته تبقى ١٣ سنة ، يرجعوا كلهم مصر . لو ها تسمى ده تدين ، يبقى الدين فى الدم ، لو ها تسميه أى حاجة تانى ، فهو برضه فى الدم ، ما فيش حاجة بتعملها ما اتولدتش بها . ما عدا ذلك كل التربية قشور ، أنت ترى مثلا طفلا مجتهدا فتقول إنه اكتسب هذه الطباع من جديه أبيه وأمه ، هذا هو ظاهر الأمر ، بينما الحقيقة أن ما اكتسبه منهما ليس تعلم الجدية ، إنما چيين الجدية . دائما أبدا من السهل التمييز بين ما هو

تربية وما هو حقيقى فى الإنسان . وإديتك مثل : لا يمكن تغير التفكير المحافظ فى راجل شرقى مهما عملت ، لأن موش بإيده هو يغير حاجة . الست نفس الشىء : الغرب الساذج كان يتصور فى البداية أن وراء المرأة أو الفتاة المحجبة زوج أو أب يقهرها . ثم حين فؤجئ بهن يقلن إن هذا اختيارهن الحر ، قال بلكنة يسارية إن التربية القمعية هى التى برمجتهن منذ الرضاعة على كونهن كائنات دونية . أخيرا فهموا أن الحجاب أو النقاب لا هذا ولا ذاك ، لا يفرض عليها ولا هو باختيارها ، إنما هو شىء تولد به المرأة فى چيبناتها . برضه السبب ببساطة أن الإسلام فى الدم ! لماذا يشكو كهنة المسيحية طوال الوقت أن الغالبية الساحقة من رعيتهم لا تستطيع السير على الشفرة الأخلاقية ليسوع ؟ الإجابة أنهم ببساطة ولدوا بچيبنات غير چيبنات يسوع ! (ويلتفت لوحيد :) كلام يمينى خالص والمفروض يبسطك . كمان المفروض يبسطك أن العلمانية بتاعتك موش نادى مفتوح لكل البشر زى ما أنت فاهم ! أنتم الكعب العالى ! أنت لا تتحول للعلمانية ، أنت فقط تكتشفها داخلك !

لكن من يرد فى هذه اللحظة هو روميو : كل حاجة فى الچيبنات ، فين إرادة الإنسان ؟ !

– موجودة ! ... فى الچيبنات برضه ! بعض الناس عندهم إرادة لأن فيه چيين بيخليهم كده . وطبعا أنت ما عندكش ريحة الچيين ده ، بدليل أنك ماشى على حل شعرك !

– الله يسامحك ، ويسامحنا كلنا ، موش هو برضه إللى عمل لنا چيبناتنا ؟ !

– أنت كمان ها تكلمنا فى الدين ؟ طبعا طالما خلقك فلن يحاسبك ، إنما سيحاسب نفسه ، دى ما فيهاش جدال عندى ولا ثانية فى المليون ، لكن أنا ما كانش قصدى إهانة . قصدى أن يثيرك الفخذ الملفوف أم الفخذ النحيل ، أن تثيرك المرأة الطويلة أم المرأة القصيرة ، هذا مكتوب فى چيبناتك . المصريون يسيل لعابهم على أفلام البورنو وعلى العاهرات الأجنبيات الفاتنات الشقراوات ، لكن قل لهم إن لديك فيلما أو عاهرة مصرية ولو متوسطة الجمال سيتركون كل شىء ويتهافتون بالطوابير عليك . نفس الشىء بالنسبة للأكل ولكل حاجة : أنت بتحب الفول والطعمية موش لأنها رخيصة أو لأنها لذيذة أو حتى لأنك تعودت عليها من صغرك ، إنما لأن آلاف السنين غيرت مواصفات البركة الچيبنية بحيث باتت لا تستغنى عنها . صح ولا غلط ؟

– احتمال . (ثم يستدرك :) صح ! (ثم يضحك :) أنت برضه تقول حاجة غلط يا حاج ! يعنى لو واحد شايف فعلا كل الستات حلوين ، تبقى چيبناته هى إللى قالت له كده ؟ ! أنا بس بعد إذنك يا حاج لى سؤال بمناسبة الفول والطعمية : ليه أنتم فى الهندسة الچيبنية مضطهدين الليمون وسايبينه ببذره ؟ موش قادرين تعملوه بناتى طالما شايفين أن الستات دايما حلوين ؟

– ما فيش حاجة صعبة ، إنما لو فيه ليمون حلو ممكن نخليه بناتى ، علشان يمشى مع الاسم . الهم والباقى على إللى ما لهوش طعم زيك . المهم ، فهمت إللى أنا قلته لك ولا لأ ؟ كل شىء مبرمج فى الچيبنات ، حتى تقلبات المزاج نفسها مبرمجة !

ويعلق وحيد الحزين ساخرا : ‘ أنا كنت فاكر كلمة مكنة شتيمة توجه للعقلانيين باردى الأعصاب ، الآن اتضح أن الانفعاليين المندفعين ماكينات أيضا ! تهمة تانى : إحنا شايفين الناس بهايم لما بنرفض حرياتهم السياسية ونطالب بحرياتهم البيولوچية ، اتضح دلوقت أن حد تانى خالص هو إللى شايفهم بهايم ! ’ .

ويرد الحاج الضربة بضربة : ‘ وأنا كنت فاكر ‘ ارسى على بر ’ شتيمة توجه لشخص واحد بس ، الآن اتضح أن الكل محتاج يرسى على بر ! ’ .

ويشرد وحيد طويلا قبل أن يعود : أنت كل حاجة صغيرة أو كبيرة لها تفسير عندك بالچيبنات ونظرية التطور ، من الفول والطعمية لغاية الدين والسياسة ؟ !

– لو أنت وضعت نفسك مكان الچيين سترى ساعتها الدنيا غير الدنيا ، أنت نفسك قلت كده فى حكاية الفروة إللى جوه والأحشاء إللى بره !

– يبدو أنى كنت أقول كلاما لا أعرف تبعاته !



ذلك الشيء اللعين الذى يطاردنى من خلفى طوال الوقت : المستقبل !

كل من يقابلك يقول لك ' أفكارك حلوة ، عليك أن تهاجر ! ' ، فأرد بلا مبالاة ' لو كانت وظيفتى أى شيء غير الكتابة لهاجرت ' . ربما أكون كذابا ، والحقيقة أنى أحتقر أصلا كل من يهاجر ، وأعتبره طفيليا ، دودة . أوه ! كلا ، تلك لم تكن لا مبالاة . إنها بلادة وبلاهة . أفكارك حلوة ؟ ... عليك أن تهاجر ؟ ... ألهذا الحد يرى الجميع الصورة ولا أراها أنا ؟ لا أرى اللعنة التى تجرى فى دمائهم ، وهم يرونها ، لعنة الجمود والتمسك بأهداب الشيطان الذى تعرف ، الماضى . تخيل أناسا يريدون تجميد التاريخ عند لحظتهم هم ؟ كلا ، ليس لا يريدون ، إنما لا يتخيلون ؛ مفهوم التغيير نفسه غير وارد أصلا على أذهانهم ، أو بالأحرى على چيپاتهم ؟ ! إنها لعنة الچيپن المفقود ، چيپن قبول المستقبل ومعانقة التغيير ، هذا الذى لم يخطئ طريقه أبدا إلى نويات أجسادهم وعقولهم .

بل اللعنة لعنتى أنا ، إنه ذلك الشيء اللعين الذى يطاردنى من خلفى طوال الوقت : المستقبل ! الشرق لا يفكر إلا فى الماضى ، والغرب يستخدم تعريفا للمستقبل أنه عشر الدقائق القادمة ، وأنا الوحيد الذى أفكر فى شيء ثالث . لا أحد يهتم بما أكتب . الكتابة نفسها لم تعد ذات فائدة أصلا . الإنترنيت صارت قبرا ضخما لكل ما كتب أو سيكتب . كل شيء صار ڤيديويا ، ولم يعد أحد يقرأ . حتى من لا زالوا يقرأون تقول الإحصاءات إن القراءة لا تمثل إلا جانبا ضئيلا مما يتلقون من معلومات عبر الصور التليڤزيونية . ربما حين تحكم الحواسيب العالم تقرر أن تقرأ ما كتبت . لا غرابة من كل هذا الاغتراب . لا غرابة أن أحد لا يفهمنى أو يهتم بكلامى . أين أنت يا هالة اللعينة ؟ !

إنهم يرون اللعنة تجرى فى دمى أنا ، اللعنة الأفدح ، لعنة المستقبل . فعلا ! هو اللعنة التى ما بعدها لعنة ! الدنيا كلها انتقلت للكلام عن ما بعد-الحداثة ، وظللت وحدى أراهن على الحداثة ، أقول هى المستقبل وما عداها هو ردة للخلف . تشظت الإنترنيت لملايين الكوميونات الصغيرة السرية وشبه السرية ، وظللت متمسكا بأنها ظاهرة مؤقتة وستعود ثانوية وأن سيظل دائما أبدا ' الكبير كبير ' . وفعلا استدارت العجلة مرة أخرى وثبتت صحة كلامى ، لكن لم يبد أى حزن على خصومى وظلوا على هيامهم بأوهام ما بعد-الحداثة وإغراق الإنسان فى ذاته الجوفاء ، تركوا الإنترنيت وعادوا للمقاهى ، بل ردوا على كعادتهم ببضعة ألاعيب لفظية راحت تعايرنى بحزنى وبهمى بذلك الشيء الغبى المدعو المستقبل ، وقالوا لى بتفاخر سادى متلذذ : تسميها رجوعا للخلف ، فليكن ، بالنسبة لنا ما بعد-الحداثة هى ' المستقبل ' السعيد !



كل ما فى الأمر أنى ولدت بلولب مزدوج كتب أمام خانة الدين فيه كلمة علمانى

هأ ! ثم أى فضل لى فى أن أفكارى حلوة ؟ أى فضل لى فى كونى علمانى ، أو كما قال يسوع المسيح أى فضل لكم إذا كانت چيپاتكم مثل چيپاتى ؟ الدين والچيپن ؟ ! ما الجديد فى هذه أصلا حتى يهزوا كيانى بها ، ويشبهوننى بغباء إسماعيل يس ؟ قبل نصف قرن قرأت لسارتر قوله أنت الذى تختار أيهما تستشير ، الكاهن أم جارك العلمانى . اليوم لو أنت تحب حمل السيوف ودق الرقاب اذهب لتستفتى أمراء الجهاد ، ولو أردت السكينة وهدوء البال اجلس واقرأ من كتاب الكفار بعض ترانيم داود أو موعظة يسوع على الجبل ، أو لو كنت تحس بميل أكثر للخروج من البيت اذهب لمجالسة شيخ الطريقة الصوفية المجاور . فى كل الأحوال چيپاتك وليس شيوخك هى التى تقرر لك ماذا تفعل . كل ما فى الأمر أنى ولدت بلولب مزدوج كتب أمام خانة الدين فيه كلمة علمانى . ماذا كتب فى خانة ضهرى ؟ لا شيء ! غير محدد الجنسية ! ' بدون ' زى بتوع الكويت ، أكيد يعرفهم ! سأغيظه حتما لو قلت له هذا . تماما كما أغاظنى بقصة الطفل الذى عزل عن كل شيء ، فشب على دين أبيه وأمه ! سأرد له الغيظ حين أخبره أن كلامه أكبر دليل أنه لا يفقه شيئا فى الدين ؛ فى الإسلام يولد الطفل على دين الفطرة وأهله هم يهودونه أو ينصرونه . ودين الفطرة هو طبعا الإسلام ، دين فطرة بدو الجزيرة العربية ، فطرة الولاء والبراء ، فطرة القتل وشج العنق من الوريد للوريد ، وشج أية شاعرة عجوز يزين لها شيطانها الشعرى هجاء النبى ، شجها بين بعيرين !

الچيپنات ؟ أهى هو سر شقاءك أم لعلها سر سلامك الداخلى أيها المسكين ضهرى ؟ أهذا هو سر استسلامك للقدر وسر إيمانك بالغيب ؟ سلام ؟ أى سلام ، وچيپن الدين يتعارك طوال الوقت مع چيپن الحداثة داخل دمك ، ولا تعرف ماذا تفعل كى ترضى كليهما ، أو ترسى على بر أحدهما ؟ وماذا عنى أنا ؟ بماذا أفادنى أن چيپناتى لا تعارك بعضها البعض ؟ لا شيء ! عذاب مقيم . ذات مرة أخذتنى أمى لمحل للأصواف فى بيروت كى تشترى قماشا لها ولى . ما أن شممت رائحة الصوف حتى تجسدت صورة مصانع مانشستر فى خيالى وضجيجها فى آذانى ، ولم أكن أعرف شيئا كثيرا عنها . هذه تكررت مرة أخرى يوم رحلة الأقصر وأسوان ، حين أصر أحد زملائنا أن نتسلل لعدة ساعات لبلدته قوص ، وما أن

سمعت سرينة الوردية فى مصنع السكر (وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها مثل هذا الصوت) ، حتى وجدت نفسى أنظر تلقائيا بسرعة للأرض ففوجئت بتلك القضبان الضيقة التى تسير عليها قطارات المصنع عابرة المدينة والحقول ، والنتيجة أن فى أقل من ثانية تجسدت مرة أخرى صورة وصوتا ورائحة حضارة الصناعة الإنجليزية . هذه الرحلة شجعتنى أن أطلب من زميل لى بالجامعة من المنيا أن يأخذنى إليها رغم استغرابه من أنى لا أحب الرحلات كثيرا . السبب أن عرفت منه أن بالمنيا ونواحيها عدد كبير من محالج للقطن ومصانع للغزل وأخرى للسكر ، بها بعض الماكينات القديمة جدا ، بما فيها بعض من القرن التاسع عشر ، وكذا يوجد فى القلب السكنى للمدينة مصنع للثلج وآخر لتعبئة الكوكا كولا ، وأيضا معظمها يجلب العمال من المدينة بسارينة ! تلك الصور والأصوات والروائح توجد فى چيپيناتى ، ولم تأتنى من أية قراءات . يا ليت لى چيپيناتك يا ضهرى ، تتقاتل ما شاء لها ، لكن تترك لى بعض سلام داخلى .

أبوه وأمه ؟ ماذا عنى أنا ؟ أبو أبيه أم أم أمه ؟ أجداد الأجداد ؟ إنهم غير متطابقين فى الدين . ربما على علماء الچيپينات أن يجيبونا بسرعة أية صفة هى السائدة وأيها المتنحية ، الإسلام أم البروتستانتية أم العلمانية ؟ هذا كان سيكون أفضل بكثير من التطبيل الهائل لإلغاء خانة الدين من بطاقة الهوية . لقد فعلتها الحكومة كى تريح دماغها ، لا أكثر . التحدى الحقيقى ليس هذا ، إنما أن تلغى خانة ذكر وأنثى . أنا كنت أفضل أن تكون خانة الديانة مساحة للحرية الشخصية يعبر فيها كل فرد عن ذاته . كثيرون كانوا سيكتبون ' علمانى ' أو ' سقوط الآلهة ' . ضهرى ربما كتب ' إيزيس ' ، وروميو مثلا كان سيكتب ' الجنس ' . كثيرون سيكتبون علامة إكس أو شرطة أو يتركونها خانة بيضاء أو يطلبون حتى حذف الخانة برمتها . أنا شخصيا لم أكن سأكتب علمانى ، بل سأكتب شيئا أكثر موسيقية : ' ديانا هى الديانة ! ' . شىء محير ! هل كنت أباهى بعلمانيتى ، أم أعلن رأيى أن كل ما بعد ديانا من الأديان هراء ؟ بينى وبينك هى نفسها هراء وقبلها كانت روما أروع وقبلهما كانت أثينا أروع وأروع ، ويوم أطل الدين برأسه عليها كان أول ما فعلوه إطلاقا هو قتل سقراط ! أنا شخصيا لم أكن سأكتب علمانى ، ذلك أنى فى الحقيقة مؤمن ، مؤمن بالإله الحقيقى الوحيد فى كل الكون وفى كل التاريخ ، الإله الوحيد غير الموهوم أو المتخيل أو المخترع ، الإله الوحيد الذى لا يخشى الذهاب لمختبرات العلم ، بل فى الواقع هو يسكن هناك ، يسمح لك فيها أن تراه بعينك كلما نظرت فى تليسكوپ أو ميكروسكوپ . بلى ، سأكتب مؤمن وبملء الفم . سأكتب أؤمن بالله (أمنا الطبيعة) وملائكته (أرسطو وداروين وأينستاين) وكتبه (الفيزياء والأصل والنسبية) ورسله (أنا وهالة) واليوم الآخر (الأنتروپى) وبالقدر خيره وشره (الارتقاء والانقراض) ، بل إنى أؤمن حتى بالخطيئة الأصلية (تفاحة نيوتون) . ما علينا ! ربما كان يجب أن أكون أكثر صدقا وأكتب ديانتى الحقيقية ، لا سيما وأنها أروع الديانات إطلاقا ؛ الديانة الوحيدة فى التاريخ التى تعطيك كافة الأجوبة على كل الأسئلة : الويسكى !

أين توقفت ؟ آه ! السائد والمتنحى . قصة البراغيث التى تصيب رقاب الدجاج تقول إن العلمانية المادية هى الچين الأفضل تطوريا ، لكنها لا تقول إنه السائد إن تناصف مع چين آخر ، ربما يكون چيپينا ضعيفا متنحيا . زجاجة الويسكى الجديدة هذه ليست كسابقتها ، إنها فاسدة .

الچيپينات ؟ أهذا هو سر سلامك الداخلى أيها المسكين ضهرى ؟ أهذا هو سر استسلامك للقدر وسر إيمانك بالغيب ؟ ثم ما هذا اللغز العجيب ؟ تقرأ فى كل شىء ولا تقرأ فى الدين ؟ يا للمهزلة ! ها ثم شىء مشترك بيننا أخيرا . أنا لا أقرأ فى الدين حتى لا يضيع وقتى ، وأنت لا تقرأ فى الدين حتى لا يضيع إيمانك ! أوه ، بل ربما ثم ' تطابق ' بيننا ! ربما لم تقرأ مثلى سوى سفرى التكوين والخروج ، وتوقفت . ربما مثلى لم تقرأ الكرهان أصلا ، أو ربما فقط قرأته مؤخرا ، أيها ' الحاج ' ! ... حاج ؟ ... بل قل أيها ' الإله ' . ... إله ؟ ! ... نعم ، ما المشكلة ؟ ! ... عادى ! ذلك الإله الآخر لم يعرف بوجود الشيطان إلا حين وجده فجأة جالسا وسط الناس ! ... لا غرابة ، هكذا كل الآلهة على ما يبدو !

أنت لست أشجع منى . كل فضلك أنك كنت تعلم أن ثمة لعنات هائلة داخل صندوق پاندورا ، ورحت تقول لى من علياء العالم المعلم أنى لا أدرى ما أنا مقدم عليه بالاهتمام بموضوع الچيپينات . بالعكس ، أنت جبان لأنك كنت تعلم ما بداخل الصندوق ووجلت عن فتحه ، أما أنا فعلى الأقل ليس لى موقف بعد .

أنت لغز حقا ! أنت تقول كلاما أشد ضراوة من كلامنا نحن العلمانيين ، ومع ذلك ترفض أن تكون علمانيا . هل ذلك الكلام كله قديم لديك ، أم بعضه استجد بعد محنتك الأخيرة أمام ونس ؟ فعلا ، أنت لغز ! أنا موقفى واضح ، لكن أين تقف أنت بالضبط ؟ ! نفسى أفهم !

أنت بتفهم طبائع الشعوب كده إزاى ؟ أرسطو نفسه ما وصلش للى أنت واصل له ؟ بتجيب الفكرة ' م الآخر ' بطريقة عجيبة تخلى الواحد يروح يموت نفسه أحسن !

طب والحل ؟ لا تكتب ، بل حتى لا تقرأ . فقط انتحر ! الآلاف ينتحرون فى مصر يوميا . منى الممتلئة نعمة فكرت نفسها فى الانتحار ، وربما لا تزال تفكر فيه . كلا ! بل عش ! لا تكتب ، لا تقرأ . فقط عش ! أرسطو لم ينتحر رغم ما ناء به ظهره من معارف . لديك رمسيس ، رحلة دانتى التى لم تخضها فى حياتك -ولا حتى فى كوابيسك- قط . الآخرون هم الجحيم . هذا ليس ترفا وجوديا أجدر بالاحتقار . إنها حقيقة موضوعية يدركها السياسى الخبيث والاقتصادى الخبير قبل أن تكون هاجسا لمثقف تافه مثل سارتر ، أو لمثقف غير وجودى مثلى ، أكثر تفاهة . حقيقة لم تدركها أنت قط ، يا جرذ الكتب . إنها نكتة أن حاولت يوما إنتاج الأفلام . ماذا تفهم أنت عن الناس حتى تصنع لهم أفلاما ؟ بل ربما هى نكتة أن أصبحت كاتبا لأى شىء من الأصل .

... فى صحتك يا جدتى !



... فى صحتك يا جدتى !

نعم ، أعلم منذ نعومة أظافرى أن الأديان لا تهبط من السماء بپاراشووت ، إنما يصنعها بشر من لحم ودم و-حسنا : چيينات !

الفارق بينكم يا مخترعى الإسلام السذج وبين مبتكرى المسيحية البارعين أنهم خلقوا متاهة دائرية ضخمة من الأكاذيب الصغيرة ،

بنوا الواحدة فوق الأخرى بحيث فى النهاية لا تعرف من أية نقطة يمكنك الفكاك منها ،

أو بالأحرى ينقضى عمرك قبل أن تتوصل إلى أين تكمن الخدعة :

فى البدء كان هناك خالق ، والخالق يحتاج لمخلوق ، والمخلوق يحتاج لسقوط ، والسقوط يحتاج لخطيئة أصلية ،

والخطيئة تحتاج لمغفرة ، والمغفرة تحتاج لسفك دم ، وسفك الدم يحتاج لذبيح ،

والذبيح يحتاج لمواصفات ، والمواصفات تحتاج لألوهية ، والألوهية تحتاج للاختفاء ،

والاختفاء يحتاج للإيمان ، والإيمان يحتاج للطاعة ، والطاعة تحتاج لإرادة ، والإرادة تحتاج لذراع الخالق !

يا لعار الاستدلال الدائرى ! لقد بدأنا بالخالق وانتهينا بالخالق ! ... هكذا حقا تكون الأكاذيب الكبرى ، هكذا تصبح أسهل تصديقا ،

وهكذا تصنع الأديان التى تقنع شعوب العالم الأول ، لا التى تفرض قهرا على بهائم العالم الثالث !

أما الاستدلال الدائرى لديكم فلا يزيد عن الآتى : يقول مُحَمَّد إنه رسول . ما الدليل ؟ قال الله ذلك . من الذى سمعه ؟ مُحَمَّد !

يا كل العار ! أهذا كل ما قدرتم عليه ؛ خطوة واحدة بائسة : ' قال الله ' ، ' قال الرسول ' ؟

أهكذا يصنع دين يا جهلة يا سفلة ، يا بعر شبه جزيرة البعر !

كيف سمحت لنفسى أن يأتى على خاطرى أن زكريا بطرس أعظم من الخديوى إسماعيل ؟ هل ذهب عقلى ؟ هل استدرجت للعبة العرب الممجوجة أن أحل كل الأشياء بالكلام ؟ أقول إن زكريا بطرس مفارقة وأمضى مرتاح البال ؛ تماما كأى سياسى عربى أو رجل دين مسلم ، بمجرد أن يحل المشكلة بتلفيقة كلامية فقد انتهت ، وأضاف لسجل انتصارته الحربية نصرا موهوما جديدا ، أو لإلهه الجبار كرامات مزعومة أخرى ؟ الأسوأ أن زكريا بطرس ليس مفارقة ، بل مفارقة مزدوجة . من أسميته بالأعظم من الخديوى إسماعيل : ١- رجل دين أى شخص ظلامى ، ٢- رجل لم يبن يوما قنطرة ولم يشق ترعة ، فقط مهنته الكلام ، تحديدا الشىء الذى طالما ازدريته ولم أعترف بأهميته . هل خنت منهجى العلمى كى أصف الأشياء الكبرى بأنها مجرد مفارقات ؟ هل خنت ماديتى بأن اعتبرت الكلام يمكن أن يكون أعظم أثرا من بناء المصانع ؟

لماذا يتأخر مفعول الويسكى اليوم ؟ أنا لا أحب عبارة عجيبة هى مسالك أمنا الطبيعة ، إنها ضد العلم ، لكن هل صحيح أنها تشتغل أحيانا ؟ هل يمكننى القول الحرب بالكلام على الإسلام هى حرب بالوكالة على الچيينات العربية ، فتكون حربا مادية ، ويكون أثر زكريا بطرس أعظم من أثر الخديوى إسماعيل ؟ لا أعلم ! الدين والچيين ؟ هل أنا فى حاجة لدوامة جديدة أيها الملاعين ؟ !

لعنات ضهرى تطاردنى . طالما أنت تفكر فى الدين بتلك الطريقة السطحية ، وتعتقد أن مخك أفضل من مخ أينستاين ، لن تفهم أبدا . طالما تحاسب الدين بنظريات العلم فأنت لا تفهم شيئا . طالما تنقب فى الدين عن تناقضات ومفارقات داخلية وتعتقد أنك باكتشافها قد هدمته ،

فأنت لا تفهم شيئا ! التناقض موجود فى كل الأديان ، وكل الأديان حرقت فيها المصاحف والأناجيل ، الفارق هو فارق كمى لا نوعى ، فقط فارق الذكاء والمستوى الأكاديمى بين مجمع نيقية والڤاتيكان ، وبين مجمع العربان الأغبياء الجهلة الذى شكله الأعرابى الأغبى والأجهل عثمان بن عفان ، الذى -فيما يخص العلم- علمته چيبناته البدوية البدائية شيئا واحدا : أن المعيار الوحيد للصواب والخطأ هو مدى صلة الدم . طبعا ! هيهات أن يتوازى المستوى الأكاديمى والمعرفى والفلسفى أو حتى الثقافى العام ما بين الأكوينى مثلا وزيد بن ثابت (أو حتى الشافعى) ؛ المقارنة غير واردة أصلا ! أولئك لم يسمع أيهم من قبل عن كلمة منطق أو بديهة ، وكل تفكيرهم أن الحرق العشوائى يكفى وحده لمسح التاريخ أو لمنع سطور مصحفهم من الخناق مع بعضها البعض ، وأن الانهيال بالضرب والإهانات والإقصاء على حفظة الكرهان المخضرمين وتوكيل صبى غر بجمعه عوضا عنهم ، كفيل بأن يجعل كل الأمور تستقيم للأبد . التفكير الوحيد الذى يمكنهم استيعابه فى بيدائهم البدائية شديدة العدائية تلك ، أن القداسة لا تنشأ ولا تترعرع إلا بمسوغ واحد : مدى قدرتك على دق السيوف فى الأعناق ! (للقصة الكاملة لمجمع القسطنطينية الإسلامى هذا ، ارجع للسيوطى ، وللمزيد عن قرآن المخضرم عبد الله ابن مسعود وأن ' الدين عند الله الحنيفية ' ارجع للسنجستانى ، أما عن لماذا كتبوه بلا نقط ولا تشكيل ، فلا تبحث فى أى مكان لأنك لن تجد إجابة ، فلغتهم لم تكن تعرف أصلا اختراعا اسمه الكتابة ؛ كلمة قرآن نفسها أرادت الإيحاء بأنه هو الذى أدخل القراءة والكتابة للغتهم الهجين اللقيط الوغد هذه !) .

فقط خذى هذه تحية لك منى يا هالة : تعرفين أن الإنسان خلق الإله على صورته ومثاله ، لكن هل تعرفين أى إله بالضبط خلقه الإنسان العربى الجلف ؟ لقد خلق إله الإسلام ، الإله السفاح الحقود الذى لا يشبع من الموت أبدا حتى يوم فيه يأمر ملاك الموت أن يقبض روح نفسه فيخلو العالم له وحده ، بل والأدهى أنه فى نفس الوقت إله المواخير الفاجر الداعر . لا يوجد إله للمواخير فى أية ديانة عبر التاريخ ، ذلك أن إله الإسلام لا شبيه له بين كل الآلهة ، والسبب أن أصلا بعر الجزيرة لا شبيه لهم بين كل الأعراق . هذا ينطبق على كل ما يخلقون ، أو كما تقولين عادة ' الإناء ينضح بما فيه ' . لم أفهم ما هو المعنى الحرفى لكلمة حورية إلا مؤخرا ؛ طالما كنت آخذها على المحمل الغربى أنها الأنثى التى لا تتزاوج . نعم ، كل العيون جميلة بالذات إذا كانت ذات شكل واتساع معينين ، بما فى ذلك العيون شديدة السواد ، لكن وحدها الألوان الفاتحة من الأزرق أو البندقى أو العسلى هى التى تصيبك بالدوار ، ناهيك طبعا عن العيون المتلاونة المتقلبة كعيون منى . يوم سمعت أمى تذكر كلمة الحور العين قفز إلى خيالى شىء من موديلات القمة الشهيرات ، لكن عرفت مؤخرا أن الحوريات فائقات البدانة ومقعدة كل منهن ميل من الأرض ، والأسوأ أنهن لسن إلا جوارى جنس لا كرامة لهن ، أى للدقة عاهرات بلا أجر ، فأين هذا من جمال أو كاريزما أو شموخ سيندى أو كلوديا أو چيزيل ؟ ماذا تتوقعين لمعايير جمال من خلق خيال أعرابى قحف جلف جوعان شظف كمحمد غير هذا ، ثم بعد ذلك يقولون لك إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ؟ ! (أو هل حقا يوجد فى الكون شىء واحد صالح لكل زمان ومكان ؟ !) .

ما الذى أتى بى من عليائى لهذه الرمسيس الكابوسية ؟ أنا لى مستواى الخاص ! مستوى لا يحتمل التفاوض ! لم يحدث يوما أن تكلمت عن الأنبياء أو اهتممت بهم . كيف أهتم بال ' أنبياء ' ، وأنا نفسى أفضل منهم بما لا يقاس ؟ مع احترامى للمتنبى ولزعمه النبوة ولبيت شعره الذى يقولون إنه مشهور وقهر به إعجاز القرآن المزعوم ، ذلك البيت المكون كله من أفعال أمر قصيرة كى يحوى كل حروف الهجاء فى بيت واحد من وزن شعرى معروف ، مع كل احترامى لكل من تباهى بقدرته على التنبؤ فى تاريخ الشرق الأوسط ، كتاباتى أنا التى أعتبرها متواضعة تتنبأ بالمستقبل أفضل منهم جميعا مليون مرة ؟ ! ضهرى الساذج يصنفى بالنبى الكذاب أو شىء كهذا ، من فرط طيبته لا يعلم أن بمجرد أن قال أحد أنه نبى قد صار كذابا .

باستثناء بعض الدراويش المهوسين الطيبين ، ممن تحملهم المركبات النارية للسماء ، أو تقدم رءوسهم على أطباق للراقصات الجميلات ، أو يعلقون على أعواد الصلبان ، الكل هجامة محترفون ، قادة عسكريون ، سياسيون ، فتوات ، بلطجية ، أجندات قهر وبطش وسيطرة ، كلها فى آن ، وفى ذات الشخص . نبى الرب داود ' زانى ' ومغتال ، أرسل قائد جيوشه لمعركة لا عودة منها كى يظفر بزوجته الجميلة . وهناك من هم أسوأ من داود ألف مرة ، كلكم يعرف أفضل منى ألف مرة سيرهم العطنة-العطرة ، التى لا أحب الكلام عنها ، لأنى لم أتشرف أبدا بقراءتها ، أو تشرفت قليلا .

ما الذى أتى بى من عليائى لهذه الرمسيس الكابوسية ؟ لقد جئت من أجل قليل من الكلام يحرك عضلات وجهى ويخفف عنى الاكتئاب ، ولم آت لكل هذا القدر من الكلام وكل هذا القدر من الاكتئاب . لقد فاقم هؤلاء اكتئابى ولم يحلوه . كنت أشرب كأس ويسكى واحدا ، اليوم

شربت زجاجة كاملة ولا زال الليل لم ينتصف . يا لبؤسى وشقائى ! كل ما عشته لم يكن إلا حياة معقمة ؟ لم أعرف يوما فى حياتى العقلية أى من هذا الهراء . ما هذا العالم الأسود الذى هويت إليه ؟ أهو صندوق أسود لطائرة يحوى كل ما لم أعلم قط من أسرار ؟ أم لعله صندوق پاندورا الذى قال عليه ضهرى ، ما أن تفتحه حتى تنطلق كل الشرور ؟ أم هو نوع من رحلة دانتى للعوالم السفلية ؟ نعم ، غالبا رمسيس كلها ما هى إلا كابوس . لا شك أنى أرتجف وأهذى . ستأتى أمى الآن لتوقظنى منه ، وتأتينى بماء يبلل جفاف حلقى المعذب . لا أعرف . بل لم أعد حتى أعرف ماذا أعرف وماذا لا أعرف .

... أعرف فقط أنك حالما فتحت صندوق پاندورا لا يمكنك غلقه .

ما الذى أتى بى من عليائى لهذه الرمسيس الكابوسية ؟ عن يد وهم صاغرون ؟ أيعمد أحدكم إلى الصغار فى عنق أحدهم فينتزعه فيجعله فى عنقه ؟ هذه ليست فكرة عشوائية فى فتوى عشوائية فى خطبة عشوائية لشاب عشوائى أصبح خطيبا عشوائيا فى مسجد عشوائى بحى عشوائى . هذا الكرهان نفسه ، بل وحسب ذروة كتاب التفاسير ، وعلى لسان ابن عم النبى ، أحب الرجال إليه ، وخليفته شخصيا المباشر فى مقعد الإفتاء ، أى وريثه الدينى وحبر الإسلام الأول والأعظم وكبير كهنته بلا منازع . ما هى نقطة النهاية لدى مثل هذا الفكر ؟ لم يرتكب أحد فى التاريخ مذابح مثل خالد بن اللقيط واللقيطة سيف اللات المذلول . هل هو النهاية ؟ عمر بن الحطاب والحطابة أمر بحرق مكتبة الأسكندرية ، بل وحرق جميع الكتب ، قائلا إن الكرهان به كل شىء . هل هو النهاية ؟ لا ، الواضح أنه لا يوجد خط نهاية . الهدف متحرك طوال الوقت . حين يحكمون الاستيلاء على الأرض ، سيلاحقوننا إلى المريخ . عمر بن الحطاب والحطابة الذى بنى الإمپراطورية ، أصبح كافرا اليوم . ابن تيمية الذى قرأته للتو ، ويعتبره الجميع الأشد تطرفا ، ها هو يباهى بحرق عمر للكتب ويبجله عليه أعظم تبجيل ، وقطعا لم يصفه أبدا بالكفر . الآن عمر كافر ، وربما ابن تيمية نفسه بعد قليل . هل فعلا احرقوا جميع الكتب ؟ هل فعلا احرقوا جميع الكتب بما فيها الكرهان ، فسورة التوبة بها كل شىء كما يقول ونس وصحابته ؟ ألن يقتلوا بعضهم البعض بعد ذلك ؟ ألم يفعلوا هذا فعلا طوال الوقت ؟ أليست هذه النهاية المحتومة أية عشيرة بيولوچية يتسيدها الغشاشون ، فيما يقول دوكينز ؟ لا يشتغلون شيئا ووقتهم كله موجه للتناسل ورعاية الأفراخ ؟ أليسوا سرطانا بأدق المعانى حرفية للكلمة ؛ بمجرد أن وجدت حفنة منهم لن يوقفها شىء عن التكاثر إلى ما لا نهاية ؟ أليس كل المطلوب عدد كاف من المغفلين كى يتعيشوا على غفلتهم ؟ هل هناك خط للنهاية أبدا ؟

ونس حمل وديع إذن ، فيما يرسم يوميا من سيناريوهات مؤامرة . ضهرى ها يقولى ده كلام فارغ ، وما فيش حد بيفكر يضرب حد على قفاه دلوقت . لكن الأفكار موجودة ، وحتما سيقرأها شاب ما يوما ، يعجب بها ، ويقرر تطبيقها ، ويقول لمن يعارضه أنت كافر ، حتى لو كان مرشد الإخوان نفسه المتدثر لحين بأكفان التقية . سينشئون تنظيما ويسقطون بعض الأبراج ، حتى لو كان الخليفة أو المرشد أو خادم القرفين الشهيرين ، يعقد نفسه فى ذات الوقت صلحا مع أميركا تمهيدا لأن ينقض عليها الانقضاض الأخير .

أليست تلك أفكارى ؟ أقصد أليست أفكار ضهرى ؟ كلا ، بل أقصد أليست أفكارى أنا ؟ ألم أكن أقول إن قطع البترول فى ١٩٧٣ هو بلطجة ولصوصية . لكن مهلا ! لقد كنت أقول هذا معتقدا أنه فكرة متطرفة الهدف منها الصدمة وإظهار تخلفنا ، فكرة لم أجرؤ على كتابتها أبدا ، بل اكتفيت بمناقشتها شفاهة مع معارفى ؟ لا ، هذا التحرز كله لم يكن أكثر من مجرد خراقة بسيطة صريحة منى ، خراقة بالڤانيليا كما يقال بالإنجليزية . يا لى من سطحى وتافه . ما قيمة هذا وضهرى الذى يزدرى الآلات التى مثلى ، يقول ببساطة لا يفوقها شىء فى برودها ، إن كل تاريخ المنطقة هو تاريخ بلطجة ولصوصية . روتين يومى منذ الأنبياء المشرفين حتى صدام سارق الكويت والبشير زعيم الچانچاويد ، والآن تتآكل حدود مصر من جديد على أيديهم . لطالما حمى مبارك القذافى والبشير . حتى حين حاول هذا الأخير اغتياله فى أديس أبابا ، رفض أن توقع عليه الأمم المتحدة عقوبات . وقف إلى جانب نهبه واغتصابة لأرض وأهل ونساء دارفور ، وحاول حمايته حتى الرمق الأخير . بل وقف لجانب تنظيم القاعدة حين أسقطت إثيوپيا حكمه فى الصومال . مم كان يخاف بالضبط ؟ من غزو مسيحى أسود من الجنوب لمصر ؟ ما حدث أن لم يأتنا إلا الچانچاويد ! أنا لم أفهم أبدا سياسة مصر الأفريقية . إنها تبدو أصولية إسلامية أحيانا . هل هى مجرد إتقاء شر جبهة الرفض التى تحيط بنا ، أم للتخفيف من وقع ملاحقة الإسلاميين فى الداخل ؟ الآن كلهم يغزوننا ! ألا يفهمون أن الإغارة والنهب والسلب توجد فقط فى الدماء العربية . وأنها لم تعرف قط عن المسيحيين السود ، ممن يمكن أن يصبحوا جيرانا طيبين مسالمين يكافحون من أجل التحديث ولقمة العيش ، أو فى أسوأ الظروف بلداء لكن لا يغزون أحدا !

نعم ، كل تاريخ المنطقة هو تاريخ بلطجة ولصوصية . حتى البشر يسرقونهم . تجارة العبيد اختراع عربى يجب أن يكتبوه باسمهم فى مكتب براءات الاختراعات . هم من كانوا يقنصون الأفارقة السود من الغابات ليبيعوهم لأى أحد وكل أحد ، بدءا من روما حتى أميركا حتى بيوتات ثلاثية نجيب محفوظ . من أول من تصدى لهم ؟ الإمبراطورية البريطانية . لماذا ؟ لأسباب مادية أرسطية للغاية ، أنها رائدة الرأسمالية التى راحت تبشر بالاقتصاد الحر والتجارة الحرة ، وبديهى أن يكون جزء منها ملكية الإنسان لنفسه . لولا هذا لاستمرت عصور الظلام دهورا أخرى . هل تصدق أن إسماعيل ورفيق دربه جودرون قابلوا كل تلك شلالات الدم فى السودان ، قتل عشرات الآلاف من المصريين والإنجليز ، فقد إسماعيل منصبه وذهب للمنفى ، وبعد ست سنوات ضحى جوردون نفسه بحياته ، كل ذلك لمجرد أنهم كانوا فى نظر عرب السودان مصريون دخلاء أو إنجليز مسيحيون . فى كتب المدارس الناصرية (وطبعا فى خطب مُحَمَّد حسنين هلوكة التى تكرهها هالة) ، يقولون لنا إن إسماعيل كان بذخا شديد الإسراف ، لكنهم لم يقولوا لنا أبدا ماذا كان وجه إنفاقه الأكبر . إنه هذه الحملات المتوالية ، أول حملات إطلاقا نقلت لقارة كاملة على الخريطة اسمها أفريقيا ، كلمة اسمها التحضر . لقد انتهى الرجلان ، إسماعيل وجوردون ، لأن جعلا حربا مقدسة هدفا نبيلا لحياتهما : تحرير العبيد . بالضرورة كانت الأثمان باهظة ، ذلك أن بالنسبة للخلافة المهدية الناطقة باسم بدو السودان العرب ، كانت تجارة الرقيق قضية وجود ، لا شىء أقل !

اليوم ، بفضل ملاعين رمسيس أرى الأمور مختلفة . لقد خدعت فيكم يوم قلت إنكم طيبون وإللى على قلبكم على لسانكم . لقد كنتم تنظرون لى باستعلاء وشفقة طوال الوقت ، كما شخص عجيب غريب مريب كئيب ، أو بالأحرى كعبيط أهطل هائم على وجهه فى الشوارع . إنكم حتى تراهنتم على ، كما فأر تجارب بين أيدى حفنة علماء ساديين . بل قل أصبحت أرى الأمور لأول مرة . المتقدم حين يقوى يصبح قائدا للعالم ، والمتخلف حين يقوى يصبح هجاما ! هذا وذاك ما تؤهله لهما چيپيناتهما ، لا أكثر ولا أقل . المتخلف قد يقوى لسبب أو لآخر . قد يقوى بسبب غيبوبة حضارية أصابت فجأة الطرف الآخر . قد يقوى لو ظهر وسطه مثلا نبى يوحده بسلطة سماوية يسهل ركوع الجميع لها ، أقارب وجيران وحتى أعداء . ساعتها قد تحكم معظم العالم ، قد ترضخ معظم العالم ، لكنك لن تقود العالم . فقط ستتحول من عبد إلى قاطع طريق . لن تصبح قائدا أبدا . سيظل هاجسك هاجسا تدميريا ، تدمير الحضارة والثورة التقنية . لن تصبح من البنائين أبدا ، إلا لو اعتبرت تدشين عصور الظلام بناء . هذه هى چيپيناتك . جبهة الرفض إللى بيدلعوها دلوقت ويسمونها جبهة الممانعة ، قد تحكم الشرق الأوسط ، لكنها لن تقود الشرق الأوسط . حين حكم الإسلاميون هنا أو هناك مؤخرا ، لم يأتوا بأى مشروع ، فقط الفتوات للأمن ، والصدقات للاقتصاد ، والتعاويذ للطب (أو بالكتير الأعشاب ، ثم إن لا طب لديهم لغير المسلم لسبب بسيط أنه لا يؤمن بكلمات تلك الرقية . مثلا كل من اختطفته طالبان ومرض مات ، لأنه لا علاج عندهم له !) . هذا آخر أفق للحياة يخطر ببالهم . آخر ما يمكن أن تنير به چيپيناتهم عقولهم . أنارته هكذا قبل مليون سنة وستنيره هكذا بعد مليون سنة . يا لك من لعين يا ضهرى ! إنها تفاعلات كيميائية دقيقة ولا يمكن تغييرها . هكذا المعادلة إذن ! برضه أرسطو ' جابها م الآخر ' ، لكن قبل ٢٥٠٠ سنة .

لم أعد أذكر أين تنتهى أفكارى وأين تبدأ أفكار ونس أو ضهرى . كل شىء اختلط . بل لا أعلم أين تبدأ أفكارى أنا وأين تنتهى . هؤلاء الذين يعظونني ليلا نهارا عن الدين والچيين لا يلحظون أنى سبقتهم جميعا -وقبل أن ينطقوا كلمة واحدة تخص الچيينات- فى الربط بين لون جلد مُحَمَّد وأصله العرقى وبين تصرفاته ، بما فيه تفسير سهولة انقيادة لعكس طبيعته دون أن يدرى . نعم ، أعلم منذ نعومة أظافرى أن الأديان لا تهبط من السماء بپاراشووت ، إنما يصنعها بشر من لحم ودم . وأعلم أنهم يخترعونها لأغراض تكيفية ، طبيعية وأنثروپولوچية ، للسلام الداخلى ، لمقاومة ما يعتبرونه ' ظلما ' يمارسه عليهم العرق الآخر . أعلم هذا ، لكن ما قيمته ؟ قيمته أن أضفت هذه النصوص القداسة تسويغا للاسترقاق والاستحلال والهيمنة على كل أعراق العالم وغزوها . أموالنا ردت لنا . قالها موسى وهو يسرق ذهب الفرعون ، على الأقل هذا ما يباهى به اليهود ، ويرفضه علماء الآثار المصريون ممن لا يعترفون بوجودهم أصلا . قالها عبمعصور (ربما متخيلا نفسه وريثا لأملاك ذلك الفرعون) يوم سرق القناة من أصحابها ، وسرق كل أموال اليهود . قالها حسن البنا وهو يأخذ الهبات من الإنجليز والفرنسيين كى يقتلهم بها . بل قالها كل العرب عبر كل التاريخ ولم يخترعها الإسلام : كل العالم كان يخص إسماعيلا ونهبه منه أبناء العم ولم يتركوا له إلا قطعة صحراء جدباء .

أنا لست واثقا أن موسى قد سرق أحدا ، أو أنه شخصية تاريخية أصلا ، ولست واثقا أن البنا أو حتى ناصرا أكثر من فئران سرقت قطعة جبن ، لذا يظل إمام القائلين هو مُحَمَّدا ، أقصد عمرا ﷺ . قالها بلسان مُحَمَّد وهما ينهبان قوافل قريش ، وقالها بلسان مُحَمَّد وهما ينصحان هند بسرقة

أموال زوجها أبى سفيان ' بالمعروف ' و' التقوى ' (وكأن هند هذه بالذات -وما أدراك ما هند- كانت فى حاجة لنصائح أحد ، إنما هى سنة تستن كى تلقن لسائر المسلمين عبر العصور ؟ !) .

يا للعار ! ' أموالنا ردت لنا ' لم تكن يوما خفية على أحد إلا أنا . إنها تشيك سماوى على بياض للاستحلال والاسترقاق ، شرحه بكل الوضوح والصدق والصراحة المغيرة بن شعبة لقائد معركة نهاوند الفارسى : ' نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد وبلاء شديد نمص الجلد والنوى من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر ، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السموات ورب الأرضين تعالى ذكره وجلت عظمته إلينا نبيا من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية ' . إنهم حتى لم يلحظوا أضحوكة مقولة الإسلام لكل زمان ومكان ، فهو ببساطة دين للعرب لنهب غير العرب !

قوافل الوجهاء المسفوكة تصرخ الآن أمامى عبر صفحات سيرة ابن هشام الزكية ، ولا تجد من يجيبها أية أموال بالضبط كان يملكها هؤلاء العبيد المشردين ، تؤهل لهم سرقة كل ثروة قريش . بالمناسبة لم تكن ثروة كبيرة ، ولم تكن طريق قوافل التوابل بين الهند والشام كما خدعوك فقالوا ، وشكرا پاتريشيا كرون التى سألت السؤال التراچيدى الذى لم يسأله أحد قط : ماذا كانت تحمل تلك القوافل إللى هوسونا بيها ؟ الإجابة : مجرد جلود بدائية رخيصة الثمن كالتى داهم مُحَمَّد زينب وحاول نكاحها برائحتها العفنة وهى تدبغها -كما لعلك تعلمين ، كى تنصب له قضيبه الذى لا ينتصب أبدا (زائد طبعا حمل بعض العبيد المختطفين من هنا أو هناك) ، فى مقابل استيراد -ماذا غيرها- السيوف ، كما لعلك تعلمين أيضا من السيرة العطرة . هأ ! بتضحكوا على مين ؟ توابل إيه إللى تروح من الهند لليمن ثم تقطع بالجمال صحراء كاملة بآلاف الكيلومترات . ودنك منين يا جحا ؟ ما يروحوا البصرة على طول بالبحر أقصر بكتير ، ناهيك أنها تقريبا موش عاوزة جمال أصلا !

إنها سيرة عجائبها لا تنضب ، من جناح ذبابة دكتور فليمينج أو بول ناقته أو بوله هو نفسه عريضة المفعول جمعاء ، إلى آخر المكتشفات الطبية الفذة التى لم تكن أمى وجيلها قد سمعت عنها ، أو لذة إرضاع ذوى اللحى ، تلك التى انفجرت من بين صفحات الكتب الصفراء العتيقة كما قنبلة نووية قبل سنوات (ملايين المسلمين اقشعرت أبدانهم للفكرة ، أما أنا فلم أشعر بأى شىء ، وهذا دليل على استعدادى لتوقع أى شىء من عقيدة بعر الجزيرة) ؛ أو لعلى بالأحرى فمهت شيئا عجيبا الآن : لماذا يتهم أغلب الأنبياء الكلاب بالشيطانية ويسمونها بالنجاسة ، بل -ويا للغرابة- يتصدرهم مُحَمَّد بالذات ، فى تنكر صريح لنسبه الدارج الذى يقول إنه من قصى بن كلاب ؟ السبب واضح : إنها العشيرة البيولوچية المختصة بحراسة القوافل التى يتعيش أولئك من الإغارة عليها !

مُحَمَّد أمر بقتل كل كلاب جزيرة العرب ، فى أكبر مذبحة لعشيرة بيولوچية فى التاريخ ، باستثناء ڤيروس الجدرى . هذا ليس لأن الكل عند البعر صابون ، وأن لا فارق عندهم بين أفضل صديق للإنسان وأشرس قاتل له ، إنما لأن الكلب هو بالفعل أشرس عدو للإنسان من منظور الهجامة قطاع طرق القوافل بدءا من مُحَمَّد وعمر وانتهاء بالإخوان وحماس وخادم القرفين وأمير قطر ! أوه ! أو لعل ثمة سببا آخر : إنها الكائنات الملعونة التى تهين وتتحدى أهم الشيم العربية الأصيلة إطلاقا : الغدر والخيانة ، وتذكرهم طوال الوقت أن الحب والإخلاص من الممكن أن تكون أشياء حقيقية وليست مجرد رطانة يسعون من خلالها للسيطرة على الناس . أوه ! الحية الحكيمة لا تنفرد وحدها باللعنة إذن ، إنما على ما يبدو كل حيوان حميد الخصائل !

ما الذى أتى بى من عليائى لهذه الرمسيس الكابوسية ؟ فى التوراة الراعى هو النقاء والطهر ، والزارع شيطان رجيم لن تقبل ذبيحته أبدا ؟ إليك يا ضهرى المتباجح ما هو أدهى : ها هم فى القرطبى يأمروننا بأن نترك الأرض خرابا ، نقتل كل البشر إن عصوا الأمر بالشغل فيها ، لكن نحن نفسنا لا نشتغل أبدا . نشتغل ؟ هذا ' صغار ' ! أوه ! ما الجديد حتى فيما أفتى به ابن العباس إذا كان مُحَمَّد نفسه من قبله قد قال : ' وجعل رزقى تحت ظل رمحى ! ' . ضهرى بتاع كلية الزراعة هو الذى فهمها ؛ نحن نردد ' جئتكم بالذبح ' ونهلل ونطنطن بها ، ولم نقرأ بقيتها التى بها حيثيات الحكم ' بعثت بالحصاد ولم أبعث بالزرع ' ! الراجل فاهم أن فيه فرق بين الزرع والحصد ، وموش الاتنين صغار ولا رجس من عمل الشيطان . يا للهول ! هل الأمور واضحة لهذا الحد ؟ ! هل لهذه الدرجة من البساطة عشت سنوات وسنوات فى الخليج كما أبله بليد العقل والحس لا يفهم ولا يرى ؟ ! يا للهول ! إن تقديس القرصنة يجرى فى العروق وليس انحرافا ، وطبعا ليس غلطة مطبعية فى كتاب مقدس حقير . وظائف تكيفية ؟ ما هذا الكلام العام ؟ هل سألت نفسك يوما أية وظائف بالضبط ؟ لم يحدث أبدا أن تعمقت فى التفكير فيها . أنسيت قاعدة أن لكل شىء مكان فى نظرية التطور ؟ يا لى من سطحى بدد حياته فى النظريات ، أو ربما عناوينها النظريات ، لا أكثر . إنهم يخترعون تلك

الأديان لغايات محددة جدا . لأهداف ربما آنية جدا . اليوم فقط عرفت هذه الأهداف . عرفت أيضا أن أصدقائى القدامى كانوا على حق : الويسكى ليس سبب السكر !

يا للهول ! إذا كان الزارع لن تقبل ذبيحته ، فماذا عساهم يقولون اليوم عن أبناء عصر الصناعة ، وعصر ما بعد-الصناعة ، وعصر ما بعد ما بعد-الصناعة . إن كلمة نظرية المؤامرة كلمة متواضعة جدا . أليست چيينات هذا العرق المسمى بالساموى (أو قل السامى ، من السمو أو السماء أو من سام بن نوح أو من أى ما شاءوا) التى تمنعه من الكدح والعرق والتفكير ، هى عينها التى اخترعت له كل تلك الرخص السماوية باستحلال واسترقاق الآخرين ؟ أليست هى التى أفهمته أنه شعب الإله المختار ، أبناء الملكوت ، خير امة أخريت للناس ، كى ترفع عنه حرج الكد الذى لم تهيؤه له چيينات جسده المفكك الرخو ؟ أكلامى هذا أم كلام ضهرى ؟ أم ربما لا فرق بين الاثنين . ربما لدى فصام ، وضهرى هو أنا وأنا هو ضهرى . كلا ، المشكلة الحقيقية لهذا العالم هى رداءة الويسكى .

' اصطفاك وطهرك واصطفاك ' ، يا لروعة بلاغة كلام الكتاتيب ! إعجاز الكرهان نكتة صنعها فقط التقديس وغسل الدماغ والخوف من القتل ، ولو بهذا القياس فإن الإلياذة والأوديسا هى أقدس الكتب جميعا ، ناهيك عن كونها أقدم من مزامير داود وأناشيد سليمان ، وبالنسبة لمعجزة العربية التى لا تبز أبدا تظل هى ذلك الأرستقراطى الجميل الأمير امرئ القيس ، أنبل وأرهف من أنجبت العرب والوحيد الذى يستحق الفخر الحقيقى فى هذا العرق القبيح (بفرض انتمائه له حقا ، فالاختلاف حول نسبه كبير) . أما كنبى فهو أروع من الجميع أيضا : قال ما بدا أيامها غزلا فى ' دنت الساعة وانشق القمر عن غزال صاد قلبى ونفر ' ، ثم اتضح أنه كان يقصد التنبؤ بيوم القيامة ، هذا حين سرقها الله هذه منه فى تدليسه العلنى المسمى بالكرهان ؛ طبعا فى ظل غياب قوانين للملكية الفكرية تردعه أيامها -دع جانبا أنه كعادة هذا الخالق فى إتلاف كل شىء تقترب منه يداه ، أفسد البلاغة فقال ' اقتربت الساعة وانشق القمر ' (فى الواقع لا أدرى بالضبط من هو أول من خطر بباله أن يشق القمر . المؤكد فقط أنه ثمل ذات ليلة ورأى القمر اثنين) ! رهبة أبياتك هائلة ، بحيث أكاد أجزم أنك لا يمكن أن تكون قد تصورت القمر بطيخة ، كما حدث وأمسك به مُحَمَّد بين يديه وشقه كما زعم !

أين أنت يا صديقى العلمانى العظيم ؟ لقد لمحت لك فى ' اضمحلال وسقوط الإمپراطورية الرومانية ' بعض عبارات عنيفة جدا فى وصف الكرهان . لا يمكن أن أنسى عبارتك التى تقزم ببلاغتها ليس الكرهان الكريه فقط بل كل كتابة أخرى : Quran is an incoherent rhapsody of fable, and precept, and declamation which sometimes crawls in the dust, and sometimes is lost in the clouds. لقد تعلمت منك ما لا يعد ولا يحصى ، لكن لعلك تجد عندى بعض ما يمكن أن تسمع عن العرب والإسلام . لقد اكتشفت أن الكرهان مقارنا بالشعر العربى السابق واللاحق عليه ، ناهيك عن المقارنة بآداب الشعوب الأخرى ، ليس لغويا إلا ثأثأة وفى أفضل الحالات ثرثرة . مشكلة الكرهان أنه برمته كلام تافه وحكى بدائى وأفكار بسيطة بدائية أولية سطحية كانت كل الدنيا قد تجاوزتها بمراحل فى ذلك الوقت ولم يعد بأيها ما يسمن أو يغنى من جوع ؛ أنه لا يقارن مثلا بكلام الإنجيل الأعمق ، والذى بدوره لا يقارن بكلام الإلياذة الأعمق وأعمق ، والتى بدورها لا تقارن بكلام أرسطو أعمق الجميع . ما بين آيات غير بينات وأخرى متشابهات وثالثة لا يعلم تأويلها إلا الله ، يا قلبى لا تحزن . لا تسأل عما لا تفهم لأنه ما تشابه عليكم قولوا آمنا به ، أو ببساطة على بلاطة : لأن أحدا لا يفهم ! فقط اسأل د . خلف الله عن متشابهات (أى بينها فروق ومتناقضات) قصص الأنبياء التى كلما رويت فى سورة تناطحت فى روايتها مع السور أخرى . كلا ، بل اسأل عمر بن الحطاب والحطابة عن ' والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا فالساجعات سجعا فالهبلاوات هبلا والعبيطات عبطا ' حتى يقول لك ' لا تسألوا عن أشياء إن لا تبد لكم تقتلكم ' ، ويجلدك حتى الموت ، فاللغزويات الروعائيات كهذه هى ذروة الإعجاز اللغوى ، كلمات شفرية ١٠٢٤ بت ، تضع داڤينشى نفسه فى حيص بيص ! لو قلت هذه لونس لقال لى بعجرفته التى أنا فى غنى عنها ، إنه جلده حتى الموت لأنه سأله فى نصف الكرهان الأخر الذى لم يمله هو ، إنما أملاه ورقة بن نوفل . على أية حال لقد جهزت ردى من الآن : عمر لم يحفظ يوما سطرا واحدا من الكرهان بما فى هذا ما أملاه بنفسه . الأسوأ ، أن لو قلت ذات الكلام لضهرى لقال لى إنه كف عن الذهاب للمساجد بسبب المقدمات الطويلة المحفوظة للخطباء . أو لقال لن تفهم الكرهان قبل أن تجلس لبدوى : عليك أن تقرأ الكرهان الكريه كله حتى تعرف مثلا قصة آدم أو موسى أو يسوع ، لأنهم وضعوا سطرا منها فى كل سورة ، ذلك أن القافية هى الهدف . فكل مجموعة سطور صنفت معا فى سورة بحسب القوافى ، والواحدة منها قد تكون مكية وحشرت بها بعض سطور

يثربية ، والعكس بالعكس ، أو قد تشمل ألف موضوع أو حتى ألف تناقض ، لا مشكلة ، المعيار الحاسم هو القافية التى سوف تطرب هؤلاء البهائم وتبعدهم أصلا عن التفكير فى شىء مما يقال ! (هل كانت شخصية يونس شلبى ' إللى ما بيجمعش ' فى ' مدرسة المشاغبين ' سخرية من الكرهان ؟ !) . أو لقال إن الكارثة ليست فقط فى التفتيت ، بل أيضا فى التكرار ، فحين تنفذ معلوماتهم المحدودة بشأن قصة ما ، يبدأون فى تكرارها فيما تبقى من السور . وكما يمكنك اختصار الكرهان الثأثاء الثرثار المكرار لصفحة واحدة ، يمكنك اختصار حكى يوم كامل لبدوى فى خمس دقائق ، ذلك أنهما وجهان لعملة واحدة : ليس لدى أى منهما شىء ليقوله ، لأنهما ببساطة جهلة ! ... يبدو أنها أصبحت موضة اليوم التفلسف بالكلام عن البدو . فليذهب هو وهم للجحيم ، ما يهمنى أنى لست على استعداد أبدا للجلوس لبدوى !

ونس أرحم ! يعرف عقدتى مع النصوص الدينية ؛ قال لى الق الكرهان الكريه للمزبلة لأنه يكفيك أول ٢٠ سطرا منه ، وستجد فيها كل ضالتك من حشو الكلام ، ولغو المعانى ، وتناقضات الأفكار ، وأخطاء النحو والإملاء ، وقبلها كلها ستجد حكاية ' ذلك ' الكتاب ، وفوقها كلها ستجد سافرة صفات إله الإسلام المريض الحقود الشيطان المضل فائق الشر .

البخارى ومسلم نقبا عن ٥٠٠٠ حديث من وسط مليون حديث . هل هذا دين أم عملية تنقيب عن الآثار ؟ إنه دين مفقود ، العثور عليه أصعب من العثور على الأتلانتيس . ثم إن تصحيح الأحاديث ليس سوى الخطوة الأولى المبدئية جدا ، لأن هذه الصحاح نفسها شديدة التناقض فيما بينها ، وعليك أن تدخل الآن فى دوامة هائلة لتقييم أوزانها النسبية ، ما بين ما هو الناسخ وما هو المنسوخ فيها ، وما هو المطلق وما هو المقيد ، وما هو العام وما هو الخاص ، وما هو مجمل المعنى وما هو المبين ... إلخ ، ثم دوامة أخرى للموازنة بين كل واحد منها وبين نصوص الكرهان ، وإعادة تقييمها جميعا -هذه وتلك- طبقا لذات المعايير . أى دين هذا ؟ لماذا يحتاج أصلا كلام الأنبياء -وبالأخص جدا نبيكم- لترزية وراءه كى يسدون رقعه ، بينما لا تحتاج كتاباتى أنا مثلا لمثلهم أبدا ؟ لماذا تفرق أقرب لصقائه ما بين شدائد لابن عمر ورخص لابن عباس وشواذ لابن مسعود ؟ السبب أنه لم يثبت على كلام بعينه أصلا ، قال كل شىء وقال نقيضه . لماذا لم يقل كلاما متسقا واضحا لا يحتاج لترزية أصلا ، أو بالأكثر يكون هو ترزى نفسه ؟ السبب بسيط : مُحَمَّد وإلهه كانا يثرثران كيفما اتفق وفى كل اتجاه ، بينما أنا لا أنطق عن الهوى ؛ كل كتاباتى محكمات ، قطعية الثبوت قطعية الدلالة ! حين كنت أكتب مقالا ، لو لم يأت سكرتير التحرير وينتزعه منى لظللت أنقح فيه للأبد ، هذا لأن من العار أن يكون فى كتابتى شىء ظنى الدلالة أو ثرثار أو متناقض مع شىء آخر قلته يوما ، أما أولئك فبمجرد أن رصوا كلمتين هبل جنب بعض ، قالوا لقد صار لدينا دين وأصبحنا جاهزين لغزو العالم . أوه ، ونس محق فى سخطه على لزكريا بطرس . أولئك كانوا مجرد حشرات تلخبط أشكالا فوق التراب ، وهو يأخذ كل حرف فى تلك الشخبطات على محمل الجد ، كما لو كانت معادلة الوتر الفائق !

سكرتير ماذا ؟ لأول مرة أعرف أن مسمى وظيفتى القديمة ' رئيس التحرير ' مصطلح من الفقه الإسلامى . التحرير هو إخلاء الأخطاء والتناقضات . يا لفضيحتى ! لقد ظللت أغلب عمرى أشتغل ترزيا دون أن أدرى ! على أية حال ثمة وجه مشرق لتعدد الترزية يجب أن أعترف لكم به : أنه دليل على أن الإسلام يصلح فعلا لكل زمان ومكان . زى الأستك ! all-size ! ... يعنى ! باستثناء شوية حروب هنا أو هناك سببها اختلاف الترزية ، مليون حرب بالكتير ! هأ ! هأ !

هل تعرف على أى معيار رتبوا أجزاء هذا الكرهان ؟ لقد قاسوها بالشبر ! طبعا ! حظ السورة من الطول ، مؤشر على حظها من الفضل ! هل رأيت فى حياتك أناسا على مثل هذا الجهل والتخلف والغباء ؟ ! الخلاصة : كخريج صحافة أعطيه صفرا من عشرة للكتابة وللتوضيب (أقصد التحرير) ولكل شىء ؛ لا يوجد تسلسل -لا للأفكار ولا غير الأفكار- لا بداية لا نهاية لا ترابط لا هدف لا حجة لا منطق ولا حافز لمواصلة القراءة ، ناهيك عن أن المعانى مبهمة مشعثة متقطعة متقاطعة متنافرة متضاربة طوال الوقت ، حتى لو وصفتها بالسيريالية لأسأت للسيريالية أعظم إساءة . قطعا هو أسوأ نص كتب فى التاريخ الإنسانى ، بما فى ذلك جميع موضوعات الإنشاء لكل طالب رسب فى الابتدائية . أنا آسف ، لم آت بجديد ، معظم هذا كلامك ، أو هل يمكن حقا أن أجاريك يوما علما أو اطلاعا ؟ !

أوه ! إن العربية نفسها كلغة بها بعض مقومات اللغة الآن ، ليست لغتكم . لو تركت لكم لكانت لا تزال تكتب حتى الآن بدون نقط ، أو لم تكن تكتب أصلا . آلاف الكلمات دخلت عليها -لا سيما من الآرامية والمصرية القديمة والسيريانية وغيرها- بحيث أعطتها بعضا من الحياة ومسايرة العالم المتطور المحيط بكم . كل الإسهامات الرئيسة فى تقعيد وتقنين وتدوين ومعجمة اللغة العربية من صنع الفرس بالذات ، وقطعا لا شىء من فعل أبناء جزيرة البعر ، حتى الإسهامات فى حفظ وتحقيق التراث الإسلامى القديم لا ترجع إليهم إنما للمستشرقين الغربيين ، ولو ترك

الأمر للمسلمين لاندثرت كل تلك المخطوطات للأبد . يا للهراء الجميل ! إذا كانت كل من ' هذان لساحران ' و' هذين لساحران ' كلتاهما صحيحة ، و' الصابئون ' و' الصابئين ' كلتاهما صحيحة ، ' ذو عسرة ' و' ذا عسرة ' كلتاهما صحيحة ، و' المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة ' و' المقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ' كلتاهما صحيحة ، فهذه أخبار رائعة جدا بالنسبة لى . إذا كان من الممكن تبرير كل هذا الكم المرعب من الأخطاء النحوية فى الكرهان ، فهذا معناه أنى شخصيا لم أرتكب غلطة لغوية واحدة فى كل حياتى ، سواء كطالب أو كصحفى . سأفعل ما شئت فى الإعراب وأقول هذا استئناف ، وإذا اعترض أحد سآخذه للنقض وأطالب بإحالة سيبويه للتقاعد ! لقد كان لدى مصحح لغوى رائع فى الجريدة ، كان من الممكن أن أرسله لعثمان بن عفان كى يساعده ، حتى نبيل ابن زوس وهيرا كان من الممكن أن يقدم له نسخة كرهان نقية تماما من كل الأغلاط . باختصار ، اليوم أصبحت أشك فى دقة عبارة طه حسين ' هاتوا لى قلما أحمر لأصحح القرآن ' ؛ كان المفروض أن يقول هاتوا لى دستة أقلام . يا للفضيحة ! يا لها من أسطورة أن العرب هم أرباب الكلم والفصاحة ، رطانة طنانة أخرى مما يمارسون طوال الوقت ؛ إنهم ببساطة جهلة فى اللغة كما هم جهلة فى أى شىء آخر . حقا : التخلف لا يتجزأ ! لكن مهلا ! ما الغرابة ؟ إله خلق الملائكة فأصبحوا شياطين ، خلق الإنسان على صورته فاختار السقوط ، خلق الكائنات كى تتعايش وتزدهر فتحولت وحوشا وأمراضا تقتل بعضها البعض ، فلماذا تستغربون إن فشل أيضا فى تعلم النحو ؟ !

ما هذا الكتاب الضخم لمعروف الرصافى ؟ درست الصحافة وأعرف الرصافى ، لكنى لم أسمع قط بكتاب كهذا : ' الشخصية المحمدية ' ؟ ما هذا ؟ لم يعمم قط إلا قبل سنوات قليلة ؟ يا للهول ! إنه هكذا سبق فرويد للفكرة : أن يهدم نبى قومه بكتاب لا يعمم إلا بعد موته ! يا لأسلوبه العجيب : مُحَمَّد شخصية عظيمة وكذا وكذا ، ثم يعود ليضيف فى خبث ذلك طبعا طبقا لمعايير العظمة كما يعرفها بدو الجزيرة ، وبفرض أن لا توجد لدى الشعوب الأخرى معايير أخرى للعظمة ! ثم من هذا الآخر ؟ منصور فهمى ؟ لا بد أن أمى كانت تعرف هذا الشخص . رسالة دكتوارة للسوربون عن وضع المرأة فى الإسلام ، وعندما عاد إلى مصر فصلوه من الجامعة وحرضوا العامة على قتله ، فآثر الصمت للأبد ؟ عندهم حقهم ! إن جرأته لا تقارن ؛ الرصافى الذى أخفى كتابه يعتبر بلا جرأة تقريبا . بصراحة لم أتخيل كتبا صريحة تفضح الإسلام وفسق وإجرام نبيه وتسمى كل الأشياء بأسمائها إلا فى هذه السنوات الأخيرة ، لكن كتاب من ١٩١٣ ، هذا أمر مذهل ؟ أوه ! سأغيظ ونس بهذه المعلومة : إن الثورة ليست فيما يؤلف الآن عن الإسلام أو فيما يقال على القنوات المسيحية ، إنما فيما كتب قبل قرن بالضبط ، وهو كثير ، هذا الذى لم يزح عنه الستار إلا الآن ! أوه أخرى ! كيف فاتنى هذا ؟ ١٩١٣ ؟ السنة السابقة مباشرة على إعلان الحماية البريطانية ؟ كنت أعلم قطعيا أن هذه هى سنوات الذروة فى كل التاريخ المصرى الحديث ، لكنى لم أكن أتخيل أنها وصلت لهذا الارتفاع فيما يخص العلمانية أيضا !

إن ضهرى يفضلنى بالتأكيد فى قراءة التاريخ العربى الذى أعاف قراءته . لكن دراسة تاريخ أميركا قد تجعلنى أضيف لمعلوماته شيئا ربما يفاجئنى بأنه يعرفه هو الآخر : إن أول احتلال أميركى لبلد عربى وقلب ريجيم الحكم فيه ليس احتلال العراق سنة ٢٠٠٣ ، إنما احتلال ليبيا سنة ١٨٠١ . جورج دبليو . بوش لم يكن أول رئيس أميركى أرسل حملة لاحتلال بلد عربى وإسقاط حاكمه ، إنما توماس جيفيرسون . لقد أنزل أسطوله عندنا فى مصر ، ثم اتجه برا للغرب . خمن ماذا ؟ تلك كانت أول حرب تخوضها أميركا إطلاقا ضد أى أحد ! ضد ليبيا ؟ ضد العروبة ؟ ضد الإسلام ؟ اسمها هكذا : حرب البربرية الأولى ' ؟ بل خمن ماذا ؟ أميركا أسست أصلا سلاح البحرية هذا فى ١٧٩٨ ، ليصبح أول قوة مسلحة هجومية فى تاريخها ، بهدف ضرب ليبيا ، ولا تزال أغنية البحارة تتحدث حتى اليوم عن شواطئ طرابلس ! ليبيا ؟ ! هل يدرك اللواء عزمى أنه والرئيس السادات كانا سيعيدان التاريخ . تاريخ الأدميرال إدوارد پريبل والرئيس توماس جيفيرسون ؟ ... فى القوات المسلحة لا دخل لنا بالسياسة ! يا لك من شخص طيب متواضع وجميل حقا يا كابتن عزمى ، لا تورط نفسك فى ترهات كالتى أعيش فيها .

ليبيا ؟ ! حرب البربرية الأولى ؟ ! يا لها من قصة مثيرة قد تعجب ضهرى . أشهر وأخطر قراصنة البحار فريقان ، قراصنة المتوسط وقراصنة الكاريبى ، السلطان خير الدين الشهير بباربروسا وكابتن بلاد . كلا ، بالأحرى أخطر قراصنة البحار واحد فقط : العرب . لم يكن الكاريبى معروفا حينئذ . بل اكتشفوه أصلا -واكتشفوا من ثم كل العالم الجديد- بحثا عن طرق أخرى للتجارة بعيدا عن نهب العرب لسفن المتوسط ولقوافل طريق الحرير . ساعتها أصبحت الدنيا واسعة بحيث لم يعد لقراصنة الكاريبى خطورة تذكر . (للدقة عرفت التجارة عبر طريق الحرير فترة وجيزة ووحيدة من الأمان والسلام ، تلك التى أباد فيها چينكيز خان مسلمى آسيا !) . قد تسألنى ما هى حرب البربرية الثانية ؟ أجيبك : الحرب على الجزائر ، ١٨١٥ !

رديئة جدا هذه النسخة الإليكترونية من الموسوعة البريطانية . لعلى اعتدت على تلك المجلدات العتيقة التى كانت فى مكتبة أمى ، وأهدتها لمكتبتى فى الجريدة وضاعت ضمن ما ضاع مع الشركة الغابرة . يقولون إن البحث فى المعلومات الرقمية أسهل ملايين المرات من البحث فى الكتب الورقية ، لكن ها هى النتيجة : لا أستطيع أن أجد مدخلا باسم الساموية ! هل حذفوه ؟ هل لم يكتبوه أصلا ؟ هل بالقرص خدش أطاح به ؟ هل لا يوجد من الأساس شىء اسمه العرق الساموى ، والأمر برمته تخيلات مصدرها عقلى المريض ؟ أو عقل أرسطو الأشد مرضا ؟ أكاد أجن !

أبو العريف بيقول لك ' حكم ' الإسلام موش الإسلام ، هو إللى انتشر بالقوة . أيا ما كان ، أين انتشر ؟ أين وقف ؟ ما هذه الخريطة ؟ شارلمان من ؟ أوه ! لقد عرفت اسم اللعبة ! المهم موقف الطرف التانى . أرثوذوكس ولا كاثوليك ؟ لم يسلم كاثوليكى واحد . حتى إسپانيا المكان الوحيد إللى احتل منهم ، ما نسيوهوش واستردوه تانى ، بعد ٧٨١ سنة (تصور ؟ ! ألفية كاملة تقريبا !) . أوه ! لأول مرة أفهم معنى عبارة ' الآذان فى مالطة ' ! أنت لا يمكن أن تقنع كاثوليكى بالتحول للإسلام . يمكن أن تقنع بليون أرثوذوكسى بمجرد خشخشة سيف فى جرابه أو إشهار كلمة جزية فى وجوههم ، لكن كاثوليكيا واحدا مستحيل .

يا لها إذن من مفارقة : لولا چيپنات هؤلاء الكاثوليك لاكتسح الإسلام كل العالم ، وكنا بعنا القضية بدرى بدرى ! ضهرى محق ، الشعوب لا تغير أدياتها لأن أدياتها من چيپناتها ، المشكلة أن يكون فى تلك الأديان-الچيپنات ما يقبل احتلال قوم رعاع همج أجلاف كالعرب لبلادهم . بالفعل لا يجب أن أكون ظالما ؛ هؤلاء شعوب الكاثوليكية -رغم كل خيبتهم واضمحلالهم وضحك المسيحية وجهلتها شرق الأوسطيين عليهم- هم من حافظوا على البقية الباقية من جذوة الحضارة الآفلة ، حتى سلموها حين حان الأجل يوم الأرامادا لأولئك أبناء الجزر البريطانية . لأكن دقيقا ! لقد نسيت اليونان ! أرثوذوكس لم يسلموا ! ليسوا بعيدين جدا كالروس ، لكن -رغم كل الجبروت والوحشية التركية- لم يرضخوا للإسلام . إذن التقسيم الأدق يعيدنا -كما كل مرة- إلى أرسطو : حضاريون وبرابرة ! ربما قبلوا النسخة الأرثوذوكسية للمسيحية لأن بهم بعض الميول الثقافية أو الروحانية ، لكنهم لم يقبلوا الإسلام لأنهم ببساطة ليسوا برابرة ! الإسلام لم يفلح فى غزو إلا ما كان يسميه أرسطو أرض البرابرة ! شفت يا ضهرى ! الدين والچيين علاقتهم أكبر مما تتخيل إزاى ؟ ! أوه ، عفوا ، ربما هذا كلامك أنت فى الأصل !

لنكن إذن أكثر دقة ، قراصنة الكاريبى كانوا لصوصا يسرقون لصوصا . بالمقارنة بالعرب ، كانوا قراصنة ' شرعيين ' بمعنى ما . يروى إن الإسپان ومن شابههم نقلوا أنهار الذهب ، وفى قول آخر مدن الذهب ، من أميركا الجنوبية ، ولم يفكروا فى صنع أى شىء آخر ، فقط البحث عن إلدورادو أخرى ثم أخرى . هذا ليس استعمارا . هذا بداوة ونهب . وهنا نتكلم عن الكاثوليك ، ورثة المجد الرومانى التليد ، ما بالك لو كان الذى اكتشف أميركا ، أرثوذوكسيا أو مسلما من العرق الساموى (أو بالأحرى العرق عديم الاسم) للشرق الأوسط ؟ يا لكم من سفلة يا أبناء رمسيس ، بالذات أنت أيها الضهرى اللعين : أديان التوحيد جاءت فقط من أجل إضفاء القداسة على قطع الطريق ونهب ملك الغير بحجة أنه ملك الله . كل شىء رزق ، والشغل والفلاحة ' صغار ' . الأرض أرض الله والمال مال الله ، وقد ذهبت لك عن طريق الخطأ . ويقتله الأعرابى ، كما يقتل أى ذئب يتهدد خرافه ! مُحَمَّد (أقصد عمرا !) claimed أورشليم باعتباره وريثا للأنبياء ، هذا ليس إلا الجزء التافه من القصة ! ؛ إنما claimed العالم كله بدعوى أن الأرض أرض الله والمال مال الله وذهبت لكم عن طريق الخطأ ! أظن هذا كلامك أنت ! أنا أجهل من أن كنت قد عرفته بنفسى .

مرة أخرى لنكن أكثر دقة . الكاثوليكية ليست منتجا لأسلاف المجد الرومانى القديم ، هى منتج العبيد المهاجرين من شرق المتوسط ، والكاثوليك الحاليون ليسوا تراث روما بل تراث العبودية ، حتى وإن ظهر رجال أشداء من أمثال موسولينى وبيرلوسكونى من حين لآخر . لقد اعتقد فلاسفة اليونان أنهم قهروا العرق الساموى الوضيع يوم فندوا اليهودية . الآن اليهودية تضرب من جديد . تتناسخ تحت اسم المسيحية وتسقط روما الأعلى جبروتا من أثينا ألف مرة . العسكرة شىء عضوى للحضارات ، وكانت أول ما توجب على المسيحية قتله . حدث ولا حرج عن جيوش روما التى كانت هى نفسها الخريطة ، أو عن جيوش الإمپراطورية التى لا تغرب عنها الشمس . كذلك حدثنك للتو عن توماس چيفيرسون الذى قاد أول حروب أميركا الخارجية ، وأسس أكاديمية ويست پوينت ، وتبنى عسكرة المجتمع الأميركى ككل منذ نعومة أظافر الأطفال ، وكان يعلم أن الرفاهة والدعة هى بداية موت الحضارة . للأسف ، لا ترى أحدا اليوم يملك السلاح ويهتم بالتدرب عليه فى المدن الأميركية الكبيرة ، ولا تجد من يكاد يتمسك بالتصليح الثانى للدستور ، إلا ولايات الجنوب أو مناطق الريف . فقط -سيدى- أروع مجتمع ترى فيه هذه العسكرة من الكبير للصغير ، من الرجل للمرأة ، هو -لحسن الحظ- جارتنا الجميلة إسرائيل . ألم تعدنى بالمجىء اليوم يا جيبون ، يا أشرس من

هاجم المسيحية فى التاريخ ، وأروع من جسد ' من لطمك على خدك ... ' ، كأكبر كارثة أصابت التاريخ الإنسانى وهوت بالحضارة الإنسانية من عليائها الرومانى التليد ، إلى عصور ظلام سحيقة صارت فيها مجرد جثة جاهزة لنهش برابرة البعر ؟

كتب ساميول هانتينجتون ذات مرة إن ' الحلم الأميركى لا يمكن أن يكون لاتينيا . كان وسيظل ' أميركان ' وليس ' أميركانو ' . الحلم الأميركى هو فقط الحلم الذى خلقه المجتمع الأنجلو-بروتستانتى . ويمكن للمكسيكيين التشارك فيه فقط لو حلموا بالإنجليزية ' . قطعا لن يحلموا ! الأحلام جزء من الچيينات . حتى اللحظة أستغرب لماذا يكره العرب والمسلمون هذا الرجل بتلك الشدة ؟ كانوا أشد من تعامل معهم برحمة . كل ما فعله أن وضع بعض النقاط على الحروف . حتى ليست كلها . على الأقل لم يشر للأعماق الچيينية (العطنة) لهم ، كما فعل لاحقا مع الكاثوليك . أنا شخصيا أنتظر منه كتابا أو بحثا جديدا عن روسيا الأرثوذوكسية أو عن الصين الصفراء . إنه حتى لم يسم الأشياء بمسمياتها الصحيحة . لقد ارتكب غلطة أكاديمية بشعة حين وصف المسلمين بالحضارة فى مسمى ' صدام الحضارات ' . وفى أية لحظة معطاة من التاريخ لا توجد حضارتان أبدا . فقط حضارة واحدة ، ثورة تقنية واحدة ، أمة حضارية واحدة ، يحيط بها إما متحضرون يقلدونها ويعاضدونها ، وإما قطاع طرق ينهبونها ويحاولون تركيعها !

يسوع هذا نفسه مجرد واعظ ريفى لما ذاع صيته أخذ أتباعه يدفعونه لغزو العاصمة ، أن يفيق من دروشته التى لم تنفع أحدا ، ويعطى لرسالته بعض البعد السياسى ، لكن الرجل اكتشف أن ما يباع لأهل الريف من مواعظ ساذجة عن الخد الأيمن والأيسر أو من معجزات مصطنعة ليس بالضرورة بضاعة صالحة لأبناء المدن . توقع فى بيت داود وسليمان القداسة العظمى التى لم يعرفها فى حياته فلم يجده إلا مغارة لصوص ، توقع أن تعلو القداسة كلما علا اقترابا من رأس الكهنوت وتوقع منهم أذرعا مفتوحة لتعاليمه البريئة فوجد فى انتظاره ترخيصا بالقتل ، توقع أن يصهر بكلماته الناعمة دروع الرومان فوجدهم جيوشا جراره لا تذيبها نار الجحيم نفسها . إنه قطعا أحد أصعب الأسابيع محنة فى حياة أى إنسان : يهوذا السياسى النابه أتى به رغما عنه تقريبا إلى أورشليم ، كى يعلن أمام الكهنة عقيدته التى ستحول مجرى التاريخ اليهودى ؛ توحد الشعب وترفع سقف نضاله السياسى . ما أن وصل حتى وجد باراباس العسكرى المتهور يريد هو نفسه تحويل مجراه ، وأن يدفعه للكفاح المسلح ولحرب تحرير . عاهد الأول وتوجس من الثانى ، لكن تردده كان كافيا مثلا لأن يغرى بطرس صياد السمك الأهبل أن يمتشق سيفا ! فى لحظات اكتشف أن غزوة أورشليم المباركة مصيرها هو الفشل الذريع ، الدروشة شىء ، والسياسة شىء آخر ، وأنه بات متورطا فى الثانية أكثر وأسرع وأسوأ مما توقع أو أراد ! بدأ الرجل يتحسس رقبته ، وأدرك أنه ارتكب غلطة العمر ، واستفاق مكتشفا فجأة أن المدن هى قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين (الأمر الذى أضاف له منظرو المسيحية سابقة جديدة فيما بعد : صالبة الآلهة !) ، فلم يجد بين يديه إلا الشىء الوحيد الذى يجيده : المضى للنهاية فى تهاويم الخرافة ! راح يكيل اللعنات ذات اليمين وذات اليسار ؛ تعهد بالويل والثبور والذبح عند الركوع والإبادة الكاملة لكل الذكور وأيضا للحبالى وذوات الرضوع (حقا : ولم لا ، والرب أحل المراعى وحرم المدن !) ، لكن أحدا لم يرتجف له جفن ، وأخيرا وقف كما ' البجم ' أمام مجلس الكهنة الأعلى ، لا يجد ما يقوله لدى كل سؤال سوى ' أنت قلت ' ، ومعناها بالمصرى ' وأنا مالى ! ' (ناقضا كليا الشق الخاص به من الاتفاق مع يهوذا) ، وأخيرا حين رفع على الخشبة لم يجد فى جعبة أساطيره إلا الهذيان باسم إيليا يستجديه أن يعود بمركبته النارية الشهيرة كى ينقذه من التهلكة . بمناسبة كلمة ' بجم ' هذه : لى عتاب رقيق عليك يا سيدى أهمس إليك به فى أذنك ولعلك -بتسامحك المعروف- تغفر لى تطاولى : سيدى ، أنت الخائن ويهوذا الضحية !

المسيحية كدين ، فكرة وضع بذورها پولس أولا . فيما يخص هذه الأخيرة بالذات -الخشبة- جاء بتفسير فاجر قارح وقح : لو كان يسوع صرح بأنه الإله لخافوا منه ولم يصلبوه ؟ ! أوه ! يا للهول ! الآن فقط فهمت الآلية التى تشتغل بها الأكاذيب الكبرى ؛ هذا السطر الصغير الذى أرسل به لضحاياه الأبرياء فى كورينثورس يكشف لماذا الحكمة المكتومة (وفى قول آخر الحكمة المخفاة) يجب أن تخفى عن الحكماء والفهماء وتعلن فقط للأطفال (وفى قول آخر أهل كولوسى) ، أو بصياغة أخرى : لماذا تصديق الكذبة الكبيرة أسهل كثيرا كما قال دكتور جوبلز !

... فى صحتك يا جدتى !

... نعم ، أعلم منذ نعومة أظافرى أن الأديان لا تهبط من السماء بپاراشووت ، إنما يصنعها بشر من لحم ودم و-حسنا : چيينات ! الفارق بينكم يا مخترعى الإسلام السذج وبين مبتكرى المسيحية البارعين أنهم خلقوا متاهة دائرية ضخمة من الأكاذيب الصغيرة ، بنوا الواحدة فوق الأخرى بحيث فى النهاية لا تعرف من أية نقطة يمكنك الفكاك منها ، أو بالأحرى ينقضى عمرك قبل أن تتوصل إلى أين تكمن الخدعة : فى البدء

كان هناك خالق ، والخالق يحتاج لمخلوق ، والمخلوق يحتاج لسقوط ، والسقوط يحتاج لخطيئة أصلية ، والخطيئة تحتاج لمغفرة ، والمغفرة تحتاج لسفك دم ، وسفك الدم يحتاج لذبيح ، والذبيح يحتاج لمواصفات ، والمواصفات تحتاج لألوهية ، والألوهية تحتاج للاختفاء ، والاختفاء يحتاج للإيمان ، والإيمان يحتاج للطاعة ، والطاعة تحتاج لإرادة ، والإرادة تحتاج لذراع الخالق ! يا لعار الاستدلال الدائرى ! لقد بدأنا بالخالق وانتهينا بالخالق ! ... هكذا حقا تكون الأكاذيب الكبرى ، هكذا تصبح أسهل تصديقا ، وهكذا تصنع الأديان التى تقنع شعوب العالم الأول ، لا التى تفرض قهرا على بهائم العالم الثالث ! أما الاستدلال الدائرى لديكم فلا يزيد عن الآتى : يقول مُحَمَّد إنه رسول . ما الدليل ؟ قال الله ذلك . من الذى سمعه ؟ مُحَمَّد ! يا كل العار ! أهذا كل ما قدرتم عليه ؛ خطوة واحدة بائسة : ' قال الله ' ، ' قال الرسول ' ؟ أهكذا يصنع دين يا جهلة يا سفلة ، يا بعر شبه جزيرة البعر !

أوه ! يا له حقا من مثال فريد هو قطعا الأكثر جمالا فى التاريخ : يسألونكم ما دليل أن مُحَمَّدا رسول ، تقولون قال الله ، يسألونكم أين قال هذا ، تقولون قال الرسول ، بس خلاص ! خلصت ! شنطة حمزة ! قال الرسول قال جبريل قال الله إنى خير النبيين وخاتم المرسلين وأول الخلق وسيد أهل الأرض وقال كل حاجة ! يا سلام سلم ! آدى العنعنة ولا بلاش ! أيمكن أن يسمى هذا استدلالا دائريا به أدنى قدر من الذكاء أو الحيلة أو حتى الحياء ؟ حتى بسطاء الناس -من غير البعر- يخلقون استدلالا دائريا أكثر تعقيدا . أعتقد أن هناك أغنية فلكورية مصرية بذلك المعنى . كلا ، ليست تلك عن تلافيف ذيل الثعلب . بالتأكيد سوف أسأل ونس عنها ؛ فيما أذكر ، النجار عاوز منشار ؟ لا أذكر . المؤكد أن بها كلمة البيضة والفرخة (شىء طبيعى جدا !) . سامحنى يا أرسطو ، لا أدرى لماذا أشعر أحيانا بالضعف أمام سحر الاستدلال الدائرى !

المتدين كلما جاءه خير قال هذه نعمة من الله ، وكلما جاءه شر قال هو من حروب الشيطان ، لكن ألا ينطبق ذات الشىء على إرجاع كل شىء للچيينات كما يفعل ضهرى ؛ كل شىء يفسر بمكونات اللولب المزدوج ؟ أليس هذا استدلالا دائريا ؛ إجابة جاهزة التعليب سلفا ؟ ربما لا ! المتدين يستطيع أن يستمر فى نظريته عن الخير والشر لمليون سنة مستقبلا ، و١- لا يحتاج لدليل لإثباتها ، و٢- لا يجد ما يمكن أن ينقضها ؛ دوما هناك إله وهناك شيطان وهناك عطية وهناك عقوبة . أما بخصوص الچيينات فهناك حاليا بالفعل الرصد الإحصائى لخصائص الشعوب ، ثم لو كان ضهرى يقول شيئا خطأ ، فليست كلها إلا سنوات قليلة ، وتأتى الدلائل العلمية الحاسمة . هذا ليس استدلالا دائريا ، بل علم فى طور الاكتمال الأخير ، بعدها لن يمكن لأحد أن يلقى كلاما على عواهنه لا لمليون سنة ولا لمليون ثانية .

الفكرة الأصلية فى الاستدلال الدائرى الجيد أن تكون اللفة واسعة بحيث يتوه فيها الثعلب نفسه وليس حتى ذيله فقط ، بينما استدلالكم الدائرى لا يزيد عن خطوة واحدة لا غير مفضوحة جدا . تقولون مثلا إن كلمة الروح المعزى التى تنبأ بها الإنجيل تنطق بالأرامية على نحو قريب من مُحَمَّد وتعنى باليونانية معنيا قريبا من مُحَمَّد ، وتنسون -أو تتناسون- أن مُحَمَّدا نفسه لم يكن اسمه هكذا ، وهو الذى غيره فى الكرهان اليثربى كى يطابق النبوة ، بينما الأصل فى النبوءات أن هى التى تنطبق تلقائيا على الأشياء لا أن تطابق الأشياء قسرا عليها . بصراحة ، كنت أفضل أن يحتفظ بقثم -اسمه الأصلى بضم القاف وفتح الثاء- ويحاول تأويله بحيث يعنى مُحَمَّدا الأحمد الحميد المحمود ... الخ ، بدلا من ذلك التزوير المكشوف الغبى الذى يعتمد على أن السيف يمكن أن يشج خلايا الذاكرة فى الأمخاخ !

ثم أن الموضوع كان أساسا ' خلصت ولع ! ' على رأى فيلم العصفور الذى لا أحبه : المسيحيون جعلوا نبيهم إلها ، فلم يعد قد تبقى شىء لدى أتباع ما يسمى بالتوحيد كى تصنع منه أديان أخرى ؛ هم جابوها م الآخر و أنتم كنتم من السذاجة بحيث لم تلحظوا ذلك أصلا (أنا بالأحرى لا أتوقع أن تلحظوا أن الإنسان-ابن-الإله كان الحد الأدنى لدى كل الثقافات تقريبا والمسيحيون سرقوها منهم لا أكثر . هل سمعت عن هرقل ؟ لا ، هرقل الآخر وليس هرقل ملك الروم ! يا لك حقا من جاهل !) .

فى طفولتى سألت نفسى سؤالا ، لكنى كعادتى لم أجر طويلا وراء الإجابة : لماذا عقم فجأة من كانوا ينجبون نبيا كل أسبوع ، فلم ينجبوا نبيا واحدا فى أربعة أو خمسة القرون الأخيرة السابقة على المسيحية . إجابتى السريعة أنهم كانوا قد تعلمنوا ، سئموا ذات الفيلم المكرور ، فصرفوا أذهانهم عن كامل الحدوتة (بعضهم قال إن الظاهر قهوة الأنبياء إللى كانوا بيحيبوهم منها قفلتها الضرايب ؟ !) . اليوم أدقق الإجابة : لقد كانوا ينتظرون فيلما خارقا من نوعه يحقق إيرادات خارقة من نوعها : ينتظرون ' إى . تى . ' ، الذى يحيى الزهور ويهب الحياة ويوم يموت هو نفسه سيقوم من الأموات ويصعد للسماء ويصبح أنجح فيلم فى التاريخ ، وقد كان !

مبدئيا طبعا -بينى وبينك- لو أنت قرأت الأليادة لعافت نفسك -مرة واحدة وللأبد- كل الكتب المسماة بالسماوية ، لكن تظل قصة المسيح أسطورة جبارة تضارع أضخم أساطير مصر وفارس والهند وربما حتى اليونان . نعم ، ميثرا ومن قبله كريشنا ومن قبلهما حورس ، وحورس بالذات ليس لأنه الأكمل فقط بل الأغرق فى القدم أيضا ، جاءت معهم كل الأفكار ، بما يكفى جدا لأن تشعر حين تقرأ كتاب الموتى أنك تقرأ الإنجيل الخامس ، أقصد الأول ، بل ربما كتاب النبوءات الذى سرق منه كل أنبياء العهد القديم كل تصوراتهم عن أخلاق المسيا المنتظر : جعلوا هذا اليسوع -وهو أدنى شرط للأسطورة المحترمة- ابنا للآلهة . بعد ذلك جعلوه كل شىء : جعلوا ميلاده معجزة ، جعلوه يصنع المعجزة ، جعلوا نقاء حياته خارقا للطبيعة ، جعلوا قهره للشيطان خارقا للطبيعة ، جعلوا تضحيته خارقة للطبيعة ، جعلوا بطولته خارقة للطبيعة ، جعلوا استعصائه على الموت خارقا للطبيعة ، وجعلوا خلوده حيا للأبد خارقا للطبيعة ، جعلوا إنقاذه للعالم خارقا للأحلام نفسها . هؤلاء اليهود الساميون صناع المسيحية لم يأتوا بحرف واحد جديد من عندياتهم ، فاليهود أصلا كانوا قد اعتزلوا التدين وتفريخ الأنبياء قبلها بخمسمائة عام ، لكن تظل حرفيتهم مشهودة فى حياكة خيوط الأسطورة الكبرى الغائبة ، ثم -وهو بيت القصيد : تصديرها للغرب !

باختصار ، لقد وضعوا فى حدوتته كل عناصر الأساطير الخالدة ، بل فى الواقع وضعوا كل توابل أساطير العالم نفسها مجتمعة فيها ففاقتها جميعا أو كادت ، وكذبة بهذا المستوى ربما تستحق الكذب من أجلها ؛ فماذا فعلتم أنتم حين أردتم صنع أسطورة ؟ لا شىء ! : قصة تافهة لقاطع طريق تافه . أتفه الأشياء أن أولئك قرأوا أساطير الأولين وفهموا الفكرة فيها ، بينما نبيكم ومن صنعوه لا يعرفون حتى القراءة وطبعا لا يعرفون أصلا معنى كلمة أسطورة أو معجزة أو ميتافيزياء . أتفه أتفه الأشياء أنكم لم تفهموا حتى أن موضوع الدين نفسه كان قد أغلق : أناس جعلوا الإله نفسه يأتى للأرض ويكلم الناس وجها لوجه ، يعنى خلصت خلاص ، لا مجال لإبداعات جديدة ، وأى حاجة تانى ستثير الضحك لا أكثر !

هل تعرف الفارق بين التحليل القاعدى والتحليل التقانى . طبعا لا تعرف . سامحنى ، نسيت أنك ابن حطاب وحطابة . سأشرح لك ! برامج التليفزيون تخرج لنا صباحا مساء تقول إن نقطة المقاومة لسهم كيوبيد هى مثلا ١٥٠ جنيها . حين يصل السعر إلى ١٥٠ يبدأ الناس فى البيع ويتراجع السعر . يخرج هؤلاء فى اليوم التالى ليقولوا لنا : ' أرأيتم ؟ ألم نقل لكم إن المقاومة ١٥٠ جنيها ؟ ' . أية نبوءة فى الدنيا يمكن أن تتحق لو عممتها بالقدر الكافى ، وأية نبوءة مهما كانت استحالتها يمكن أن تتحقق لو عممتها بالقدر الكافى ، ثم أعطيتها الوقت الكافى . ضهرى يحاول دعوتنا لمزرعته ويقول إننا سنمارس صيد السمك هناك . أنا لا أعرف شيئا عن صيد السمك ، لكنى متأكد أن سنارتى لا بد وأن تصطاد سمكة فى نهاية المطاف . هذه هى ذاتها قصة المسيح .

هل تعرف الفارق بين الاستثمار والمضاربة ؟ طبعا لا تعرف . سأشرح لك ! اليهود ' استثمروا ' الكثير فى قصة المسيح . رسموا ملامح المسيا على امتداد قرون وقرون ؛ كيف سيولد وكيف سيموت ... إلخ ، ضع أنت أية مواصفات تحب ، وساعتها سيصبح كل المطلوب منك انتظار الوقت الكافى حتى يأتى بالصدفة -أو لنقل بكثير من الإيحاء النفسى وقليل من الرتوش- من يطابق تلك المواصفات ؛ حتى تتخبط سمكة ما فى طريقها وتأتى لسنارتك . أما ما فعلتم أنتم -يا من لا تجيدون سوى المضاربة- من دين ، فهو الأمر الوحيد المتوقع من قطاع طرق صحراويين لا يخططون قط لأبعد من كيفية سرقة العشاء التالى .

إذن -بينى وبينك- المسيح هو نفسه استدلال دائرى ، أو لعله يذكرنى بأطروحة هالة حول الكون منضبط القوانين ، وكأن ثمة فرصة من الأصل لوجود كون بلا قوانين . فعلا ! يا لكم من مساكين ، سفاحين سفاكين مساكين ! اليهود كانوا ينجبون نبيا كل أسبوع ، وأنتم احتجتم لنصف قرن من كامل عتاد قريش المالى والثيولوچى لخلق نبى واحد ، وجاء شديد الجهل والهشاشة . هذا لا يعنى أن كان باستطاعتكم إنجاب نبى فى أسبوع . بالعكس ، هذا المستوى يحتاج لألفيات كاملة من الخبرة والنضج . مشكلتكم أنتم تعجلتم الدولة ، بينما المسيحية مثلا ظلت تصقل نفسها كعقيدة لقرابة ٤٠٠ سنة قبل أن تفكر فى أن تصبح دولة . بل قل لقد انتظروا آلاف السنين أصلا من أجل صنع هذا الدين .

أوه ! لقد عرفت الآن من أين أتيتم بأن قال اليهود عزير بن الله . نكتة حلوة فعلا ، يا من هم أجهل من الجهل نفسه : خلطتم أولا بين اليهود والمصريين ، عزرا وأوزيريس ، ثم خلطتم ثانيا بين أوزيريس وحورس ، متصورين أن أوزير هو الابن ! الفضيحة أنكم تحبون العنعنة مهما طالت حبالها ، تنقلون عن المسيحية التى نقلت عن اليهودية التى نقلت عن بردية مصر الجديدة بتاعتنا (أقصد بردية آنى ، مدينة عين الشمس التانية إللى جنبنا ناحية النيل) ، فلا غرابة أن أتيتم فى الأخير بكل هذه زبالة الزبالة . فقط لا يزال يحيرنى كيف وصلتكم ' ورفعنا الميزان ' من كتاب الموتى مباشرة ، دون أن يتبناها أسيادكم اليهود فى الطريق ؟ !

مهلا ! إذن ليس ما يزعجنى الآن اتهام المسيحيين بسرقة نبوءات التوراة ، إنما سرقة أشعياء ودواد لكتاب الموتى ، هذه هى السرقة الأصلية الكبرى ، وع الأصل دور على رأى ونس ، ولا أدرى كيف سكت ضهرى على هذه السرقة حتى اليوم . أوه ! نسيت أن أعرفك بصديقى ضهرى . شخص متبحر فى شأن مصر القديمة . ربما ترتاح له لأنه به بعض مما عندكم ، أقصد به بعض الچيبنات العربية ، كثرت أو قلت ، لا أحد يعرف بما فيه هو نفسه ! أوه ! أشكرك يا ضهرى ، لقد ذكرتنى بشىء آخر بخصوص كتاب الموتى . هل تعرفون أعجب ما قرأته مؤخرا ؟ قال أحدهم إن عذاب القبر بتاعكم مأخوذ من كتاب الموتى ، ها هو ضهرى ذو الميول الصوفية الكافرة أمامكم وأعتقد أنه سيقول لكم إن الخطيئة عند المصرى القديم عذاب فى حد ذاتها ، عذاب لا ينتظر قبرا ولا ميزانا ، بل هى نفسها فى حد ذاتها جحيم فورى .

بل مهلا ، مهلا ! تلك الكتب تقول إن آلهة الشر المصرية كانت آلهة الرمال أو الجدب أو الصحراء . يا للهول ! لقد تنبأوا عشرات المرات ، وبتفاصيل مذهلة الدقة بكم يا هوام الصحراء ، يا هكسوس أول الزمان وآخر الزمان ، قبل أن توجدوا أصلا . حتى هذا الشرف -شرف أن تكون النبوءة المصرية تخصكم أنتم- حاول اليهود سرقته منكم لحساب إلههم يهوه ، بقصة صغيرة عن رضيع موهوم وضع فى سلة وألقى به للنيل ، بينما هم لا شأن لهم بمصر -ناهيك أصلا عن قصور مصر- أكثر من بعض كلام سماعى من بعض فرادى أفراد منهم ، ذلك أنهم أصغر حجما من أن يلحظهم أحد ، وأقل ضررا من أن يصنع خيال المصريين عنهم نبوءة ! ... حقا ! يا لكم من لصوص حثالة أيها اليهود والمسيحيون ، تتباهون بنبوءات التوراة عن المسيح ، ولا أحد مهتم بأن كتب مصر الأقدم منكم بآلاف السنين ، مصر القديمة التى زالت قبل أن يخط قضاة اليهود فى أساطير التوراة حرفا واحدا ، تنبأت ليس فقط بالإسلام ومُحَمَّد وعمر اللاحقين عليكم ، إنما بظهور عرق العرب من أساسه !

باختصار ، عرقكم العربى أشد جهلا وغباء من أن يخلق كذبة جيدة ، ناهيك عن أن يخلق دينا متكاملا . ونس قال ذات مرة إن الإسلام صنع على عجل من الوثنية وبعض معلومات ضئيلة عن اليهودية والمسيحية ، واليوم أكتشف أنكم لا تعرفون حتى شيئا يذكر عن الوثنية . وصفتم إلهكم بال ' صمد ' ، أى الصنم المصمت ، تمييزا له عن أصنام قريش الطينية المجوفة ، والسبب مضحك جدا وهو أنكم لم تشاهدوا يوما أصنام مصر أو اليونان أو الصين .

تعلمون أن كل الأديان ما هى إلا نصوص زئبقية ، كتاب التوارة والإنجيل -يا أهل الفصاحة المزعومين- يلجأون طوال الوقت للصيغ المجازية للوصول بنصوصهم ونبوءاتهم لخصائص الزئبق ، حيلة بسيطة تعرفها كل قارئة فنجال أو ضاربة ودع ، فماذا فعلتم أنتم : فقط رصصتم كل آية ونقيضها متجاورين جنبا إلى جنب فى الكرهان ، وهى حيلة من السذاجة بحيث يكتشفها أصغر طفل ، جمعتم شذرات من هذه العقيدة وذلك الدين وتلك العبادة وصنعتم من هذه الهلاهيل دينا خلطبيطة لا يوصف إلا بالمهلبية ، وفى قول آخر بالسمك لبن تمر هندى ! المسيحيون ضبطوا -أو لفقوا أو أيا ما كان- ديانتهم ، بحيث نقرأ كتابهم كلاما سهلا سلسا مسلسلا متماسكا ، فقط نتعثر فى أربعة أو خمسة جمل ، نسميها تناقضات داخلية ، وحين يتعلق الأمر بأربعة أو خمس جمل ، يصبح بوسعهم أن يحشدوا بسهولة ترسانتهم اللغوية والتأويلية ليحلوها ، فتقنع البعض ولا تقنع البعض . ما هو غير معترف به من كتبهم حوالى ١٠ ٪ ، بينما عندكم ٩٧.٥ ٪ من أحاديث مُحَمَّد الشريفة المشرفة و١٠٠ ٪ من كتب السير والأخبار لا يعترف بها سدنة التقديس . أى دين هذا ؟ أدين هو أم كتاب أحاجى ؟ هو قربة مخروقة ، جعلت المشاخخ يسرعون كالمجاذيب طوال الوقت يلهثون وتتخابط أجسادهم وهم يصرخون ' الحق سد الحديث ده يا جدع ! ' ، شوف لى بسرعة رقعة للخبر ده يا واد يا بلية ! ' ، وهلم جرا . أنتم تقولون لا تجمع أمتى على ضلالة ، فأى إجماع تريدون لإثبات ما هو حق ، أكثر من ١٠٠ ٪ رفضا وسخرية وازدراء بالإسلام ونبيه ، والأهم منهما أمير مؤمنيه وأركان حربه المعمور المخمور بن الحطاب والحطابة ؟ ! فى كل الأحوال -ومهما استخدم أولئك المسيحيون من الزئبقية- يظل الهدف العام لديانتهم واضحا مفهوما وقويا ، أى أحد فى الشارع -مهما سقت له من متناقضات- سيقول لك إنه السلام والمحبة .

طبعا ، دين غير تام النضج ، بل بصراحة الأمر برمته تهجيص ، وتهجيص لا يليق إلا بشعب واحد فى التاريخ ، أنتم يا بعر شبه جزيرة البعر ! ونس على حق حين يسخر من زكريا بطرس لتدقيقة فى حرفيات دقيقة جدا من النصوص الإسلامية ، بينما هى فى الأصل كتبت بواسطة حفنة أهواج أجلاف بدائيين عشوائيين . حين بدأت أقرا كتب أصولكم الصفراء لم أفاجأ كثيرا بالدموية أو بمحورية النكاح ، فالمفروض أنها الآن معلومات عامة للجميع . الانطباع الكبير الذى فاجأنى هو قدر الغباء والجهل والتخبط الذى كنتم عليه أيها الكائنات دون البشرية ، بالذات وأنتم تحاولون صياغة نبوة ودين دون أن تعرفوا حتى ما هو تعريف النبوة أو الدين !

مشكلتكم أن غيركم (وهو دجال أيضا ، لا أنكر) لديه أصلا شيئا يقوله ، لكن ماذا عساكم فاعلين وكل صغيرة وكبيرة توجد ويوجد نقيضها فى دينكم ، مليون شىء ومليون نقيضه ، كل كلمة تحتاج لترزى لتظبيط معناها ، فاشتهر منكم أربعة ترزية كبار اختلفوا تقريبا حول كل شىء ، أما من لم يشتهروا فلا عد لهم ولا حصر ، والكارثة أن غالبا محاولة التوفيق (أو بالأحرى التقييف) مصيبة أكبر : بتطينوها ، بتنيلوها ، بتعموها ؟ من الحنفية للمالكية للشافعية للحنبلية يا قلبى لا تحزن : تصاعدت من المتشدد للأشد تشددا ، وقفل باب الاجتهاد كان هو الرحمة التى ما بعدها رحمة ، لأن لا سقف لشره السلطة الدينية فى استعباد البشر . لا أحد يعلم ماذا كان سيقول الترزى الكبير الخامس . ما نعلمه فقط أن كل ما فعله كل ترزى صغير هاوى لاحق أن حاول أن يصحح كما جديدا من الأحاديث ، وأن يوفقها مع ما هو مصحح بالفعل (فتلك وظيفة الترزى ومقياس براعته) ، فجعل المصيبة أفدح : جعلها كارثة !

الأدهى أن هذا التشدد به بعض أشياء تثير الفضول ، بما يحيلنا للحاجة لإعادة تعريف كلمة تشدد نفسها . المتساهل أبى حنيفة كان يأمر بستر الأمة بما يوازى ما يسمى بقميص النوم حاليا أى أكتاف وأذرع وسيقان عارية ، أم الباقون -ومن قبلهم عمر طبعا- فيجبرونها -نعم يجبرونها- على تعرية الصدر فى الشارع . بالنسبة للرجال كان المتساهلون يرون ما يستر العورة هو ما يوازى ما يسمى اليوم بالبوكسر أى ما يستر إلى الركبتين ، بينما أحمد بن حنبل يرى ستر عورته بما فقط يوازى السليپ . إذن ما يقصد بالتشدد المزيد من حرية الرجال على حساب حرية النساء ، وسلطان الحرائر على حساب الإماء اللاتى يجب أن يظللن مستباحات للجميع ، بل يشمل هذا سلطان الحرائر على ملك يمينهم أى حقهن فى التعرى أمام عبيدهن الرجال (مع الافتراض طبعا أن هؤلاء لن يجرؤا قط على رفع البصر) ، رغم أنه فى ذات الوقت فرض عليهن بن حنبل النقاب الذليل الكامل أمام الرجال من غير العبيد . ويقصد بالتشدد ثالثا -وهو الأهم- استعباد العرب لغير العرب والمسلمين لغير المسلمين ، وأقلها ما أقره المتشددون من احتفالات جماهيرية علنية لدفع الجزية مذلة للغاية كتقبيل الأرجل وصفع القفا . يا للعار ! إذن التشدد لا شأن له بالأخلاق ، إنما هو تحديدا التغول والإيغال فى الاستعلاء والإذلال والتسلط لا غير !

حين كان رعاع رمسيس يتسابقون على وصف وضعية المرأة فى الإسلام وقالوا متضاحكين وطأ وركوب ومتاع ونكاح وفراش وحصيرة وتلك الأشياء ، هزنى شىء واحد هو لماذا بول الرضيعة نجس ، وبول أخيها (التوأم ربما) ليس كذلك . بحثت فى تخريجتكم الفذة هذه للنصوص المتضاربة ، فوجدت تفسيرا عجيبا : الضرورة العملية ! الأب والأم والأقارب والضيوف يحملون الطفل الذكر طوال الوقت ، ومن غير العملى أن يتوضأوا كلما لمسوه . يعنى م الآخر بتقولوا لهم رخصة أن سيبوا البنت تتفلق تموت من العياط لأنها نجس . عارفين معنى ده إيه ؟ أن رسولكم وصحابته-عصابته وترزيته التابعين وفقتم بين بليون نص عن نجاسة البول ومثلها عن نخز الشيطان وبين نصوص الرحمة والعدل بأن خرجتم علينا بحل عبقرى : وأد البنات (بداهة دون أن يكون تقانيا ذلك الوأد الذى حرمه الكرهان ، وإلا ما هو معنى التقييف ؟) ! اليوم أصبحت أعرف مليون تقييفة كارثية من هذا النوع (أو لعلها ليست كلها كارثية ، إنما بعضها محسوب جيدا ، فالمؤكد كما يقول ونس أن فى أمور بعينها أنتم تعرفون جيدا ما تريدون وأين ترسم الخطوط الحمر وأين تححظ العيون الحمر) ! دين إيه ده إللى موش معروف صاحبه كان عاوز يقول إيه ، والترزى الشاطر هو إللى يعرف يجمع قصاقيص القماش إللى سابها علشان يعمل منها قميص ؟ !

خلينا فى الكفار ! الأغبى أن انظروا مثلا لصيغتكم الخاصة بالطاعة كم هى غشيمة مفضوحة بل وتقر صراحة بقبحكم الداخلى ' لا تسألوا عن أشياء إن بدت لكم تسؤكم ' ، هذا فى مقابل صياغتهم هم ' على ابن الطاعة تحل البركة ' ، التى من الذكاء بحيث لم تحدد حتى طاعة من بالضبط ، طاعة الرب أم طاعة الصحابة-العصابة والتابعين . أيضا هم يبيحون كل شىء مثلكم (ربما ليس بالضبط كل شىء وسأخبرك بعد لحظة لماذا) ، لكن ليس بقائمتكم الطويلة من الفتاوى الفاضحة المفضوحة والمتضاربة دائما ، إنما بعبارة واحدة ' كل الأشياء تحل لكن ليس كل الأشياء توافق ' ، وكما هو واضح هى فكرة ذكية راقية فلسفية لا تحل إلا ما يقبله خلق الإنسان السوى ، يا معدومى الخلق والسواء . إلههم نفسه لا يحل له كل شىء ، بل هو محدود بصفاته حسب مصطلحهم ، وطبعا ليس منها الكذب والمكر والإضلال والقائمة تطول (اعترف أنه نسب لكم أحيانا عبارة ' استفت قلبك ' ، لكنى أتحداك إن كنتم قد سمحتم واقعيا مرة واحدة لأى أحد بالإفلات من سطوتكم بفضل رخصة انتحارية كهذه ، وإن همست لك فى أذنك بالسر وراءها : لقد جاء أحدهم لنبيكم واسع العلم بسؤال صعب فقالها تهربا ، أو -قرب لى أذنك أكثر- لم يكن عمر بجواره ساعتها !) .

أوه ! لقد فهمت الآن لماذا إلهكم فاجر مجرم لكل هذه الدرجة . لقد أردتم أن تجعلوه مرعبا للغاية حتى ترهبوا به هؤلاء الأجلاف العرب وتتحكمون بهم ، فجعلتموه قادرا على كل شيء بما فيه إلهام النفس فجورها ، ومعناها أنت موش فاجر بمزاجك إنما لأن إلهنا هو إللى عملك كده وقرر من وأنت فى بطن أمك يوديك النار (إلا طبعا إذا اتبعتنا من غير ولا كلمة ، زى الجزمة -إللى لسه ما عرفناش شكلها إيه) . ... عندكم الشيطان غير محدود والإله محدود ، الشيطان يوجد فى كل مكان والإله لا يستطيع هذا ، الشيطان لا يخاف على نفسه من الأماكن المقدسة بينما الإله يخشى التنجس من الأماكن القذرة ، وهلم جرا . يعنى باختصار ، وجدتم أن الشيطان أكثر فعالية فى إرهاب الناس فاستعرتم منه صفاته وأسميتموه الإله ! ... آه ، ها ! لعلها النهاية المنطقية لفكرة التوحيد : توحيد الإله والشيطان فى كينونة واحدة ! ... يروح فين فى اختراعاتكم إللى قال لواحد روح ادبح ابنك ، أو إللى حط ابنه ع الصليب ، وأنتم إلهكم بيبعت لحم الرضع -إللى بنسميهم عصافير الجنة- للنار هم فيها خالدون !

حتى فى المرات الذى سرقتم فيها كلام المسيحيين سرقة دقيقة دون تعديل لحرف واحد ، انظر ماذا فعلتم : مثلا قلتم عن الجنة إن بها ' ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ' ، لا بأس ، لكن من قالوا هذه العبارة فى كتابهم لم يضفوا شيئا سوى أنها جنة روحانية وتركوا كل الأمر لخيال القارئ ، أما أنتم فرحتم تصفونها بالتفصيل ، والكارثة أن لم تلحظوا أنكم بلا خيال أصلا ، فلم تضعوا فى جنتكم شيئا واحدا وحيدا لم تره الأعين أو لم تسمع به الآذان أو لم يخطر ببال كل واحد منا . من قال إن الخمر أو النساء تعوز أحدا ؟ كان الأحرى بكم أن تعدونا فى جنتكم بأفلام هوليوودية جديدة ، أو برحلات مجانية لمحطة الفضاء الدولية .

الأمثلة لا نهاية لها ، لدرجة أن المسيحيين صاروا ينكلون بكم اليوم ويسرقون أتباعكم بالمئات كل ساعة بمجرد القول إن الإسلام لا يكفل الجنة لتابعيه وأن مُحَمَّدا نفسه لن يوردها إلا أن يتغمده ربه برحمته ، إلا أن أحدا منكم لم يكتشف أن هذا الكلام هو تقريبا عين ما تقوله المسيحية : الخلاص عطية إلهية ! قالها كل الأنبياء من فرط مشقة إقناعهم لأحد بخزعبلاتهم ، ففسروها بأن من اقتنع قد فعل بلمسة من أسحار الإله ، هذا الذى جفت أقلامه ورفعت صحفه قبل خلق السموات والأرض بخمسين بليون سنة (أقصد خمسين ألف سنة ، والأفضل عامة ألا تدقق فى الأرقام أبدا مع هؤلاء الآلهة ، الذين يكتبون عدم الهداية على الناس قبل أى خلق ثم يرسلونهم لعذاب النار) . بمناسبة المخير والمسير ، إليك آخر نكتة : حين سئل مُحَمَّد عن كيف سيحاسبنا الله على قدر كتبه هو ، أو فيم الشغل وقد قسم الرزق ، أبدل حرفين مكان بعضهما معتقدا بغباوته الدينية -ولا أقول الفلسفية- أنه قد حل المعضلة : غير مقولة ' سنسيره لقدره ' فجعلها ' سنيسره لقدره ' ! هأ ! هأ ! الرجل فهم عبارة ' فى البدء كان الكلمة ' ، أن الدنيا والآخرة والإله نفسه ، ما هى إلا لعبة ألفاظ ! أوه ! مهلا : وماذا كان يقصد يوحنا حقا ؟ !

... الخلاص ؟ ! لوهلة خيل لى أن عدم وعد مُحَمَّد للمسلمين بالجنة نوع من الحياء أو التواضع أو فى أسوأ الفروض أنه هو نفسه مرعوب من دخول الجحيم ، ثم حين اكتشفت أن الله سوف يدخل كل الناس لجهنم ، فيتشفع مُحَمَّد فتنقضى العقوبة عن البعض ، فسرت الأمر بأن مُحَمَّدا يريد أن يعبده الناس فكرههم فى الله وأكد لهم أنه أنفع لهم منه دنيا وآخرة ، ثم فى النهاية أدركت أن السبب أبسط من كل هذه وتلك بكثير : أنه أصلا لم يعلم قط أن المسيحية تعطى الخلاص بطرقعة أصبع ، ولو علم لمنحه لأتباعه بلا حاجة حتى لهذه ، وطبعا ما أرخص الكلام فى بلادكم !

حتى مسألة التمسك بالحرف نفسها دليل على الغباء قائم بذاته . هم حسموا صراع الحرف والتأويل حسما مبكرا ، واتفقوا جميعا على أن لأى نص معان ضمنية ، بمن فيهم من يفترض فيهم أنهم الأكثر غباء وانغلاقا ذهنيا ، أرثوذوكس الأسكندرية ، وها أنتم ترون النتيجة : دين أكثر انتشارا منكم بمراحل والأهم أكثر مرونة فى تلقى ضربات الزمن ومتغيراته . باختصار ، هل تعرف لماذا يمسحون بكم البلاط هكذا ؟ لأنكم معدومى الذكاء وضعاف فى اللغة معا ، ولا تعرفون كيف تخفون فضائحكم جيدا مثلهم ، بل أنكم أنفسكم أخذتم بأكاذيبهم . يا لبؤسكم الساذج ! تصنعون دينا تعرفون أنه جريمة قتل واغتصاب ، لكن لا يخطر ببالكم للحظة أن كل بقية الأديان هى أكاذيب أيضا !

إليكم مقارنة أخرى أخيرة : هل تعلمون أن أتباع يسوع قد نفروا أيضا إلى سقيفة لدى موته ؟ ، لكن شتان بين ما جرى فى السقيفتين . بعد كل هذه المقارنات حول الهوة الهائلة فى المستوى الثقافى والعلمى والفكرى والسلوكى بين أحط شعوب الأرض إطلاقا (العرب) وثانى أحطها مباشرة (اليهود ، الأحط إطلاقا فى الإمبراطورية الرومانية ، لكن على الأقل كانوا جزءا منها ، أى من خريطة العالم ، يا هوام الصحراء أنتم !) ، لا غرابة أن تروا الهوة فى حجم النتائج : أقصى ما فعلتموه أن نهبتم بعض الهوامش الفقيرة ، أرض البرابرة سابقا ، أما أولئك فقد استولوا على أوروبا الغربية ، المركز قلب الثروة ، بل لولا أن أصلا نخروا روما وقتلوا روحها الحضارية من الداخل وعششوا الخرافة بدلا منها (لدرجة أن إعلان المسيحية

ديانة للإمبراطورية جاء بصدفة هزلية لإمبراطور تطيرى حلم بصليب قبل دخول إحدى المعارك) ، لولا ذلك لما استطعتم من الأساس نهب أية قشة ! سأقربها لعقولكم الصغيرة بتشبيه معاصر : أنتم نهبتم مصر ، وهم نهبوا أميركا ؛ ولعلكم تعلمون أن مصر التى طرتم من الفرح بها ، لا تساوى -أو تساوى بالكاد- شركة واحدة أو ثروة رأسمالى واحد من هناك ، لكن حين اقتربتم من مركز الثروة الحقيقى تكسرت الرماح ، انتهى لعب العيال ، ورددتم على أعقابكم ، لأن هنا أصبحت العملية موش هزار . مصر -أو حتى تركيا- هزار ، لكن روما -أو حتى إسپانيا- قصة أخرى لا تحتمل الهذر ، هذه لا يمكن غزوها لا بدين أهبل ولا طبعا بالجيوش .

حين سألوكم ما هو دليل أن مُحَمَّدا رسول ، قلتم قال الله ، وحين سألوكم أين قال هذا ، قلتم قال الرسول ! يا حلاوة ! بذمتك شفت قصر نظر وقصر نفس فى التاريخ أقصر من كده . إنه الشىء عينه فى طموحاتكم النهبية الهجامية ، ولماذا هى هوامشية تافهة قصيرة النظر قصيرة النفس . باختصار ، الفارق بينكم وبين اليهود والمسيحيين أنكم سذج بدائيون لا تعرفون كيف تحاك الأكاذيب الحقيقية ، أو أن أبسط متطلبات الكذب الجيد هو الثقافة الجيدة ، هو المعلومات ، ومرة أخرى أحيلكم لقارئات الطالع . يا للعار ، حتى مالطة استعصت عليكم ، على الأقل لو كنتم اطلعتم قليلا على پولس لعرفتم أن الكذب الكبير علم وفن له أصول وتراث ، ولكنتم قد صنعتم من كذبتكم الهبلاء المسماة الإسلام شيئا أفضل كثيرا ؛ لكن ماذا نقول ، وأنتم بدو أجلاف لا تعرفون حتى القراءة ؟ حتى فكرة الاستشهاد-نظير-حور-العين التى تتخيلون أنها فكرة جهنمية لم يسبقكم إليها أحد ، هى لا شىء مقارنة بالاستشهاد المسيحى الأكثر شراسة بكثير (والأرقى بكثير أيضا لأنه لا يعد بمجرد أطنان من اللحم) ، ولا أعرف قدر أفضليتك -يا سى عمر- فى القراءة عن صاحبك ، وإلا أحلتك لجيبون وسقوط الإمبراطورية ، لتقرأ أسفارا مطولة مرعبة فى هذا الشأن .

هأ ! لقد أراد ونس منى أن أثبت أن مُحَمَّدا كان رعديدا ضعيف الشخصية ومعدوم القدرة الجنسية ، وأن بن الخطاب والحطابة كان وضيع الأصل لواطيا سكيرا مدمنا لحناء الدبر ولم يقاتل دونما خداع مرة واحدة فى حياته (وأشياء من هذا القبيل) ، لكن ها أنذا قد أثبت شيئا آخر مختلفا بالكامل : أثبت أن الإسلام برمته كان فكرة فاشلة من الأصل ! (أو ربما بالأحرى وجدتها فى غير حاجة لإثبات) . هأ ! فكرة فاشلة ؟ ! بصراحة ، لقد ظللت وقتا طويلا أبحث فيه عن تسمية ساخرة لكم ، وها أنذا الآن قد وجدتها : الخلفاء الفاشلون ! نعم هذه هى تسميتكم الصحيحة ؛ لقد كنتم بالفعل أفشل خلف لأفشل سلف ، وطبعا أفشل سلف لأفشل خلف !

... هأ ! أنا ملك العالم ! لقد قلت فى الإسلام فى يوم واحد ما لم يقل فيه مجتمعا فى ١٤ قرنا كاملة !

كل هذا وأنا أتكلم عن الكلام ، ولا أتكلم عن القوة المادية . أنتم لم تحاربوا حربا جدية واحدة فى كل تاريخكم . كلها ' غزو ' أو ' فتح ' أو ' اجتياح ' أى مداهمة لمدنيين عزل بالأساس (بالذات فى وقت كان يعم فيه الدنيا السلام المسمى بال Pax Romana ، ولقرون لم تكن للشعوب حاجة فيها أو اعتياد على التسلح) ، والمرتان اللتان تصدت لكم فيها جيوش حقيقية -فى فرنسا والنمسا- هزمتم . هذا عن غزواتكم المباركة -وقلت لك للتو لماذا تكون مباركة كل مرة ، أما ما فعله أمثال المجول أو الحملات الصليبية أو الإمبراطورية البريطانية أو حتى إسرائيل ، فى داخل أراض يفترض أنها استتبت لكم فتلك قصص أخرى لا تقل عارا . تخيل أنكم لا تخجلون من كون الكلمة التى تستخدمونها لممارسة الجنس ، ذات وقع أشد عنفا ومغالبة من الكلمات التى تستخدمونها لحروبكم الوهمية ، بل لعل كلمة نكاح هى أقرب كلمة فى كل اللغة العربية لكلمة conquest التى يستخدمها العالم لوصف معارك التاريخ العظمى ، ثم بعد ذلك أجدكم تتعالون على المثليين وتصفونهم بالمخنثين ؟ ! لا تصدق أنك أو صحبك أو خلفك محاربون مغاوير ، فأنتم ببساطة لا تعرفون القتال ، تماما كما تجهلون كل شىء آخر فى الدنيا . ربما تعرفون الاغتيالات أو ترويع الآمنين أو مذابح المدنيين أو مجازر الأسرى أو بالأكثر حروب العصابات والأشباح (التى تعرفونها من مهنة قطع الطريق) ، لكن معركة حقيقية فى ضوء النهار الوضاح ، سامحنى : لم يكن لأحد شرف لقائكم يوما ! بلى ، أنا لأول مرة أعنى ما أقول يا عمر : أنت نفسك -يا صاحب الجبروت المزعوم- أيضا غلبان ، ولست أفضل كثيرا من صاحبك المسكين الذى استغللته ، وإسلامك لم يتخط يوما وضعية الرجل الثانى ، ولم ولن يتخلص أبدا من عقدها !

أوه ! ربما لهذا السبب -وليس للقدرة الطرية- تحبون كلاوسڤيتز : الحرب الشاملة . كلا ! بل هو براء منكم فى كل الأحوال ، لا أحد غيركم فى كل التاريخ -حربا شاملة أو حربا عسكرية فقط- فكر لوهلة فى الطعن فى الظهر ، أو قتل النساء والأطفال ليلا كى يتحاشى ساعة الوغى صباحا (وطبعا لا غرابة بالمرة -والحال هكذا- إن ما غلبت فئتكم القليلة الفئة الكثيرة فى كل مرة !) . قرأت السيرة الذاتية لمحمد فوجدته يتباهى بجهاده

المتواصل فى سبيل الله بمئات السرايا التى أرسلها (أو أمرت أنت يا سيدى بإرسالها ، ليس هذا موضوعنا) ، ثم حين ذهبت للتفاصيل ذهلت لاكتشاف أن كلها تقريبا ما هى إلا فرق للاغتيالات أو لسرقة الإبل والغنم ، كل تجريدة تتكون من أفراد لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ، والشىء المشترك فيها جميعا أمران : كلها تتم ليلا ، وكلها يتجنب القتال أو المواجهة ، وأقصاها التسلل لقتل الحارس إن وجد من ظهره . بالأمس استلقيت على قفاى من الضحك حين شاهدت تسجيلا لداعية معاصر شرس جهم الملامح يسمى غارات السرقة الليلية تلك بـ ' الضربات الاقتصادية ' . لعله قرأ ذات مرة ' الاقتصاد اليوم ' ، إذ أشك تماما أن كلمة اقتصاد هذه قد وردت فى أى كتاب دينى قديم من إياها !

الاقتصادية ؟ كيف نسيت هذه ؟ الآن فقط فهمت لماذا تتمسحون بكلاوسڤيتز ، ولو على طريقة لا تقربوا الصلاة المفضوحة ؟ هو يقول إن الحرب هى السياسة بطريقة أخرى ، فتقفزون للاستنتاج أن الدنيا برمتها ألعاب سياسية و' قوى ناعمة ' ، الأمر الذى يخدم مفهوم اخطف واجرى لديكم . نعم ، الحرب ترمى لتحقيق مكاسب سياسية ، لكنكم تنسون -أو بالأحرى تتناسون- الشق الثانى المنطقى للمبدأ : السياسة نفسها لا ترمى برمتها إلا لتحقيق مكاسب اقتصادية . طالما تعاركت الشعوب على الموارد ، لكن لأن مفهوم الموارد لديكم أيها الرعاة الرعاع يختلف عن مفهوم بقية الدنيا ، أى لإنه مفهوم وقتى جدا ، نهب وسلب ثم فرار ، لذا فالقوة الناعمة والمراوغات السياسة تكتسب أهمية عظمى لديكم .

نعم ، ليس لديكم سوى القوة الناعمة (الدين ، الإعلام ، الكلام ، الهراء) ، ولا تعرفون السبب وراء هذا . السبب أن القوى يلقى المنديل فى وجهك ويدعوك لمبارزة چنتلمان وجها لوجه فى الصباح . معظم الناس حولنا تتكالب وتتقاتل على الفتات ، وحين تستهجن هذا يقولون لك ألست أنت من يدعو للتنافسية والصراع ؟ يا سادة ، الصراع أو المنافسة شىء ، والجبن والندالة والدناوة والنتانة والعفانة شىء آخر . الضعفاء هم فقط من يلعبون فى الملاعب الصغيرة ، وبالأحرى يلعبون بقذارة ، ومن أجل تبرير هذا اللعب القذر هم فى حاجة لرخص إلهية ! لهذا نحن متدينون ؛ ونس يقول نحن متدينون لأننا ضعفاء ، وليس العكس . نعم ، الإيمان بالغيب هو أعلى درجات التخلف ، لكنه يقول لا تخلط بين النتيجة والسبب فيهما ؛ الإسلام ليس سبب تخلفنا العقلى ، تخلفنا العقلى هو سبب الإسلام !

... كلا ، قول المسيحيين إن الإسلام ديانة الشيطان لا يمكن أن يكون صحيحا ! لو أن الشيطان بمثل هذا الغباء والجهل ، فإن الكون كله أصبح الآن فى مشكلة !

بالمثل : الحرب شىء ، والجبن والندالة والدناوة والنتانة والعفانة شىء آخر . سيدى ، هل سمعت عن جندى رومانى قتل أسيرا أو اغتصب امرأة ؟ ! ليس السبب أنه ذو ديانة رفيعة وديانتكم منحطة ، إنما لأنه درب على أن يكون عنوانا للحضارة ؛ لأنه نبى أعظم من كل أنبياء التوحيد ؛ كلا ، بل لأن بصمة حذائه على الأرض -لا الحذاء نفسه- تساوى كل أنبياء التوحيد مجتمعين . لقد جاء حاملا مشعل الثورة التقنية وما تنطوى عليه من قيم وقوانين وأخلاق وسلوكيات كلها رفيع وغير مسبوق ... إلخ ! ... بل هل سمعت عن أن خاض أى جيش عربى أو مسلم حربا ميدانية حقيقية -ناهيك عن أن تكون محترمة- واحدة بامتداد كل التاريخ ، وانتصر فيها ، أو حتى هزم ؟ ! للدقة ، المعركة الحقيقية الوحيدة التى خاضها المسلمون طبقا لتقاليد الحروب المعروفة آنذاك ، وقت لم تكن قد عرفت بعد تقنيات أو تقتيات أو ستراتيچيات أو مناورات من أى نوع ، فقط اصطفاف الجيشين بالمواجهة فى وضح النهار ، المعركة الوحيدة التى خاضوها من هذا النوع كانت ضد بعضهم البعض ، ولا غرابة أن مات منهم فيها عدد أكبر من كل مات تحت راية الإسلام فى كل تاريخ هذا الدين ، وقطعا -ولا غرابة بالمرة- أن لإحساسهم بتفردها الشديد هذا ، أطلقوا عليها ذلك الاسم العجيب المثير للفضول : صفين !

يا للعنة ! كلما اكتشفت شيئا وجدت من سبقنى إليه ، وكأنها معلومات عامة وكأنى الجاهل الوحيد . ابن خلدون لم يتأمل كثيرا فى تقتيات المعارك الحربية ، لكنه عن الجبن والندالة والدناوة والنتانة والعفانة قال ذات الشىء بالحرف تقريبا ، إن لم يكن أفدح وأفضح وأفصح وأفظع : ' العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذى فيهم ، أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى الزاحفة والمحاربة إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم ، فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهل عنه ولا يعرضون له ، والقبائل الممتنعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر ' ، يا للهول ! هل قرأت هذا يا أستاذى وأستاذ الجميع أرسطو ؟ إنه يقول إنهم ليسوا مجرد قطاع طرق ، بل أحط نوع إطلاقا منهم . ناپوليون قاطع طريق ، لكن لم تكن به أى من هذه الصفات ! يا للهول ! بل يا للهول تكعيب !

مولانا عمر بن أبى البسائط رضى الله عنك ، أقصد صلى الله عليك وسلم ، أقصد لك كل العز والجلال والإكرام ، لقد كنتم لا تسيرون بجيوشكم إلا ليلا (بفرض انطباق وصف جيوش تقانيا عليها ، فهذه ما إلا عصابات قطاع طرق يتسللون) ، بل كنتم حتى تخفون عن جنودكم أين ستذهبون بهم فى غزوتكم (باستثناء تبوك فيما علمت ، لسبب خاص جدا ، وكان ممكنا أن يتحول الأمر لكارثة ، لولا أن أحدا لم يكن يأخذكم على محمل الجد) . أوه ! بل لماذا نذهب بعيدا ؟ المملكة العربية السعودية نفسها نشأت بذات الطريقة . جمع عبد العزيز عصابته -عصابة الأربعين حرامى ، هكذا كان عددهم !- وتسلل ليلا لقلعة خصومه (أيضا تقانيا القلعة ليست قلعة إنما مجرد بيت تافه عادى خفيض من الطوب النيىء ، فى الريف المصرى ليس له اسم معين ، إنما فى جزيرة البعر اسمه قلعة . أما بناء حجرة مكعبة بارتفاع ستة أمتار فليس أقل من أن يكون بناء لله نفسه ، منه وله ، ويجب أن يسجد له كل العباد !) . تسلق الجدار فهبط عليهم وذبحهم وسبى نساءهم وهم نيام ، فنشأت مملكة الكنوز والشرف المرجانى الرفيع الحالية . أوه ! كيف فاتنى هذا ؟ مُحَمَّد لم يقتل كلاب المدينة لأنها فقط رمز للوفاء ، بل لأنها أيضا رمز للشجاعة !

بل قل إنى فهمت لأول مرة لماذا كنت أنت الرجل الثانى ، بينما الإله هو الشخصية رقم واحد فى أى دين : ببساطة لا غرابة فى أمة الجبن والأقنعة بتاعكتم ، أن تجعل نفسك الرجل الثانى ! ... حقا ! كما أن العظمة لا تتجزأ ، أيضا الوضاعة لا تتجزأ !

دعنى أجيبها لك م الآخر : إسلام بدو الجزيرة الهمج انتشر لسبب واحد : أن لم يكن هناك من يصده . كل الممالك كانت أطلالا أو فى أفول : مصر ، فارس ، بيزنطة ... إلخ . حتى روما نفسها -التى لم تصلوا حتى لظفر بابها- كانت قد نخرتها الكهولة ودمر البقية الباقية منها غزو العبيد المسيحيين . قبلكم كانت كل الحروب فى ساحات مواجهة مفتوحة وفق مواعيد متفق عليها ، ومُحَمَّد أول من قال الحرب خدعة والكذب مباح واخترع الاغتيالات وقتل الأسرى . طبعا حسب تعريفك للأسير -سيدى- هو كل ذكر -ولو كسيح أو كهل- نبت له شعر عانة من ' العدو ' ، وتعريف العدو هو من تقررون أنتم تصنيفه كعدو ، حتى لو يكن فى مدينته قطعة سلاح واحدة ، أما النساء والأطفال -من تسمونهم بالذرارى- فهم استثناء من التعريف لأنهم لا يدعون أسرى ، بل سبايا يغتصبون ثم يباعون بالمال .

قبل إسلامكم -وحتى بعده- كانت الأمم تحتكم للحرب فقط عندما يخطىء طرف فى تحديد قوته أو قوة جاره ويفشلان فى معرفة الحقيقة عقليا وسلميا . الحروب كانت دوما فى ساحات مفتوحة لا غش فيها ، لكن الإسلام المتخلف قهر أعظم الحضارات لأنه غير قواعد اللعبة باسم الرخصة الإلهية للغش والخداع واعتبار كل المواثيق والمعاهدات حديبيات ، وما كان لينتصر أبدا لولا اختراعه للحرب القذرة وإدخاله أساليب قطاع الطرق لأول مرة على الحروب . صفين ! حقا هكذا كل تاريخ الحروب . عند البشر العاديين -ولا أقول المحترمين ، ليس الهدف من الحرب القضاء على عدوك ، الهدف معرفة أيكما أقوى ويحق له التسيد على الآخر ، بينما حروبكم كلها ليست إلا حروب الأرض المحروقة . لماذا محروقة ؟ لأن الأرض يستوى فيها الأخضر مع الأسود ، ولا قيمة لها ولا لسكانها أصلا عند البدوى . من المستحيل أصلا للعربى أن يتخيل أن الثروات تصنع ، إنما يفهم فقط أن ثمة ثروة جاهزة سمع عن وجودها فى مكان ما ، وأن قطافه لها ما هو إلا مسألة وقت . طبعا ! ، حروب الإسلام قذرة : قبله -وحتى بعده- كانت الحروب محترمة ، وفى الحروب المحترمة تحترم الهدنات والمعاهدات والأشهر الحرم والأراضى الحرم ولا تستطيع الآلهة نفسها الترخيص بانتهاكها ، والخدعة الوحيدة المسموح بها هى اختراع تقنية جديدة ، بدءا من العجلة حتى القنبلة النووية .

عامة -وهو مكمن الجمال فى حروبكم- أنه بمجرد أن يصنف العدو عدوا فكل شىء بات مستباحا ، اعتبرتموه متمترسا وقتلتم نساءه وأطفاله ، وحتى لم يكن أحد تمترس أو حتى عرف بخبر نواياكم الدامية أصلا ، فعليكم بالتبييت أى ذلك القتل الليلى للنساء والأطفال ، إنزالا للرعب بقلوب الذين كفروا ، وهكذا . أنا آسف ! لعلمك أنا طوال الوقت أقدر جدا موقفك كرجل ثان ، وفن الحرب هو بكل أسف واحد مما غبنت فيه : كل هذه أصول الحرب الحديثة قد سرقت منك -يا سيدى عمر- ونسبت لآخرين . كل الكرهان اليثربى المحكم سرقه منك مُحَمَّد ونسبه لنفسه ، مصطلح الحرب خدعة مسجل تاريخيا عندنا كهرطقة مُحَمَّدية (حاول ناپوليون سرقته بإدخال بعض قليل عبيط من المناورة والارتجال على أسلوب المعارك أم صفين ، لكنه طبعا فشل فى أن يقارن بكم) ، وأساليب حرب العصابات تنسب لجيڤارا ، وهلم جرا . كل اختراعاتك سرقوها ، وا حسرتاه على زمانكم ، زمن الخلق الجميل والشرف الرفيع !

فعلا ونس محق فى تضخيمه وتعويله على مسألة الأحاديث المسماة بالمدسوسة ، ولو نبهته لمسألة البسائط هذه لربما نقح نظريته فيها بعض الشىء ، ووجد أن المصيبة أعظم وأعظم . حقا ! من أين أتى المليون حديث الباطل فى وقت كان يشق بين جملين من يقول بيت شعر واحد ضد

مُحَمَّد ؟ هذا التشنيع بمحمد وصحابته–عصابته ربما كان أهم عمل بطولى قام به بعر الجزيرة فى تاريخهم ، على طريقة ما كان يفعله المصريون أيام الحكم الغاصب للأعرابى المجرم جمال عبمعصور حين كانوا يهتفون له صباحا ويطلقون عليه النكات مساء !

... أين كنا ؟ لقد نسيت . ... آه ! پولس ! ذلك الشخص الذى لا يكتب الإنجيل اسمه فى عنوان كتبه ، وكأنه صاحب الدكانة والباقون ضيوف ! يا ليت جريمة التزوير توقفت عند پولس . بعد أكثر من نصف قرن آخر جاء يوحنا ليعمق الكذبة ويصعد بها لآفاق جديدة ، يفلسفها وينظر [بتشديد الظاء] لها بكلمات شعرية فلسفية تكاد توحى لك أن المتحدث هو هومر أو أرسطو ، فأصبحت المتاهة أكثر إحكاما والكذبة أضخم من أن تتخيلها كذبة . الموضوع ببساطة أنكم لم تعرفوا أن اللعبة انتهت قبل أن تبدأ . كيف لم تفطنوا لأن المسيحيين سبقوكم للكذبة الأعظم : يسوعهم ليس نبيا آخر ، إنما هو الإله نفسه ، ولم يعد من متسع لأديان أخرى ولا مزايدات أخرى ؛ فما بالك إن كنتم تتخيلون أن مجرد سيوف تستطيع أن تغزو كل العالم ، دونما عقول خلفها تكفل الذكاء الذى يخولها التسلل والنخر فى صمت فى العمق ، ولا أقول تكفل المقوم المادى الحقيقى للغزو : الثورة التقنية التالية ؟

حسب الأناجيل الغنوصية المنسوبة لنجع حمادى المصرية ، أناجيل عم مُحَمَّد السمان ، الأصح والأقدم من كل ما عداها فيما يقول المتخصصون ، والتى كتبها شهود عيان أكثر قربا مقارنة بأصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة مجتمعين (ثلاثة كتبها شاهد ما شافش حاجة بالمرة ، والرابع شاف لكن كتب بعد أكتر من ٦٠ سنة بعد ما بهدله الألزهايمر ، ومرقس أقدم الكتب الأربعة وبالتالى أوقعها ، كاد يلحقه ذات مصير النفى من الأرض ، لولا أن مشكلته كانت سهلة نسبيا ومحصورة فى الصفحة الأخيرة فسهل التعامل معها بالتمزيق) ، فإن الحقيقة أن يسوع ليس بحال مؤسس المسيحية ، المسيحية المؤسسية ، المسيحية الدين ، ولو بعثوه حيا من عظامه التى عثروا عليها ، لكانت آخر دين يمكن أن يقبله (ربما ليس بالضبط ، فبالتأكيد لن يقبل الإسلام أيضا ، وحتى لن يقبل اليهودية ، ذلك أنه سيجد فى بدع وضلالات ومستحدثات الشرق ما هو أقرب له منها) . إنه صوفى أقرب للحلاج ورابعة العدوية المسلمين أو لبوذا وكونفوشيوس الوثنيين منه لأى أحد آخر ، وبالتحديد لپاپاوات القسطنطينية أو الأسكندرية أو روما . لم يكن صاحب دين ؛ مجرد يهودى عاش يهوديا ومات يهوديا ، ومن اليهود من يحتفل اليوم بالكريسماس فى شوارع الغرب وإسرائيل ونجمة داود على صدورهم ، معتبرين أن يسوع أعظم أنبياء اليهود قاطبة . الرجل رحل دون أن ينطق لسانه ولو مرة واحدة أنه إله أو حتى أنه يدعو لدين جديد بل ونهر كل من حاول وصفه بالإله ، سواء كان المرجع إنجيلا مبكرا أو متأخرا ، معترفا به أو مرفوضا . كل ما يتبقى -بالذات بعد استبعاد كلام پولس ويوحنا- هو كلام مجازى عن الصلة بالرب .

كلمة مسيحى أو مسيحيون لم ترد بالإنجيل إلا مرة واحدة وعلى لسان الغير . لقد كانت طريقة صوفية بالمعنيين الحرفى جدا والمعاصر جدا للكلمة . حرفيا جدا كانوا يوصفون فى هذا المسمى أعمال الرسل بـ ' أتباع الطريق ' ، وتوصف حلقات الذكر التى كانوا يقيمونها بأنها ' تملأهم بالروح القدس ' (غالبا لم يكونوا قد سمعوا بعد بمصطلح النيرڤانا) ، ومعاصرا جدا يا ليتنى ذهبت تلك الرحلة إلى شارع پور سعيد لأعرف كيف أصف مثل هذه الحلقات . المسيحية لم تكن دينا إلى أن اخترعها پولس ويوحنا . إنها تلفيقة مختلقة من لا شىء تقريبا . الفكرة فى هذا الدين بسيطة لحد الجمال : كل فرد فى كل عقيدة كل قبيلة فى كل ركن دانى أو قاصى من منطقة الشرق الأوسط المنكوبة بچيينات وعقول أهلها التطيرية الخرافاتية ، يستيقظ وينام يحلم بشىء يخلصه من بؤسه ، شىء اسمه المهدى المنتظر . ما فعله پولس ورفاقه أن قدموا الإجابة التى لم تجرؤ عليها كل الأجيال منذ طرح أشعيا الفكرة العبقرية : هذا اليسوع البار هو ذلك المسيح ، المسيا الموعود ! النكتة الفاحشة هنا أن هؤلاء المخترعين الأفذاذ سرعان ما اكتشفوا أن اختراعهم الصغير لم يحل شيئا على أرض الواقع ؛ لا يزال الناس يعانون ، أو بمصطلحات ضهرى لا يزال ما هو فى الچيينات فى الچيينات ، فأتوا بسرعة باختراع آخر ، مهديا منتظرا جديدا ، اسمه المجىء الثانى للمسيح ! يا للهول ! أقصد : هلليلويا !

هنا لدى كلمة للعلمانيين الغربيين الذين يستعظمون الأمر ويبذلون أضخم الجهد لإثبات أن الغنوصية هى الأصل والمسيحية هى الهرطقة . أقول : نعم أنتم على حق ، ونعم علم التاريخ هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة ، لكن ما العويص أو الكارثى فى أن يقول پولس أو يوحنا على لسان يسوع إنه الإله ، بل ما المشكلة لو كان يسوع قد قال هذا عن نفسه فعلا ؟ إنها ليست بدعة كبرى كما قد تبدو للوهلة الأولى . الأمر أبسط من ذلك بكثير ، وقال بمثله الكثيرون من قبل ومن بعد ، من بوذا مرورا بالحلاج وليس انتهاء بشيرلى ماكلين . كلهم تخطوا الحد الفاصل بين أن نكون كلنا أبناء الرب ، وبين أن نكون جزءا من ذات الرب ، أو -عند لحظة معينة من النمو الروحى- نكون الرب نفسه . طبعا لا غرابة

أن اعتبرت الكنيسة أن الغنوصية هرطقة ، لكن لا غرابة أيضا أن الغرب الغبى كعادته المزمنة فى شراء بضائع الشرق المتخلف الفاسدة ، قد قبل المسيحية دون أن يعلم أن يسوعا هذا لا شىء يذكر ، أو بالأكثر بلا تميز كبير ، بل هو مجرد صوفى آخر قال عن نفسه أو قيل عنه ، إنه الإله !

المذهل أبعد من هذا ، أنه رغم كل بطش وتكفير المسيحية المؤسسية (الديانة) لا تزال كل نسخ اليسوعية الأولى حية حتى اليوم : الغنوصية أى اليسوعية-المجدلية الجميلة النقية الأصلية جدا مطلقة الروحانية ، اندمجت مع البوذية أو أثرت فيها تأثيرا كبيرا . الآريوسية ذات يسوع الإله المخلوق تطورت لشهود يهوه . النسطورية لا تزال موجودة فيما يسمى مسيحية الشرق أى العراق وفارس ، وكذا كانت العمود الفقارى لإسلام مُحَمَّد -الإسلام المكى . وللحقيقة هو بدوره لم يندثر كما يقول ونس إنما لا يزال رغم كل شىء يمثل القطاع الشيعى للإسلام ، الذى عمليا هجر مفهوم الجهاد (= الحرابة الشرعية) لقرون طويلة قبل أن يعيده الخومينى للصدارة ، ويزيد ضهرى قائلا إنها لا تزال دين كل مسلم لم يتبحر فى الإسلام ، كذلك كانت القوة البشرية الضاربة فى نهضة عصر المأمون ، بل فى الواقع هى تطورت فى اتجاهات مدهشة فى كل مكان ذهبت إليه ، ويمكن على نحو ما اعتبارها تناسخت غربا لتلد المورمونية ، وهكذا . أما أرقاها جميعا ، الغنوصية الفلسفية شبه الأفلاطونية التى تعهدت بالحفاظ على حكمة مصر القديمة واليونان والإبحار بها سرا عبر عصور الظلام حفظا لها من الحرق والذبح ، هى التى باتت تعرف باسم الماسونية . المفارقة المحزنة أن كل هذه ' الطرق ' على تباينها هى الأقدم الأصدق والأصح ، وهى التى راحت توصم تباعا بالهرطقات ، بينما المسيحية التى لم تتوصل لكتابة قانون إيمان لها إلا بعد ٣٠٠-٤٠٠ سنة ، هى الوحيدة التى يمكن لغويا وقانونيا وبداهة تسميتها بالهرطقة .

ترى هل أخطأت أيضا حين توقفت قديما عند صفحة ٥٠ ؟ هل سبب جهلى المدقع أنى قرأت وتعلمت كل شىء وتعاليت عن تعلم الخرافة ، بحجة أنها : خرافة ؟ ! ... أرجوكم الرحمة ، أنا الآن أمام محنة فلسفية عويصة الإيلام . علماء الذكاء الآلى يقولون إن الآلة تتصف بالذكاء كلما كانت لديها معلومات أكثر . لكن هل هذا كلام مادى ؟ أينشأ التطور من صراع المصالح أم من المعرفة أكثر ؟ يقولون المعرفة قدرة ، وأنا أطالب بحكم الآلات الذكية ، وأرسطو نفسه طالب بحكم العارفين ، أين المادية فى كل هذا ؟ هل يكمن خلاصنا فى بعض مكعبات فى الهواء اسمها المعلومات ، ليست حتى المعلومات المادية العلمية فقط ، بل المعلومات عن الخرافات ؟ ... أوه ! يبدو أن الخمر بدأ يتلاعب بإيمانى . ما هذا الهراء الذى أقول ، بينما يفترض فى أنى الناطق الرسمى بلسان أمنا الطبيعة ؟ !

المسيحية إذن هى ذلك الدين الذى صكه واخترعه بعض تلاميذ يسوع ، زائد أحد اللاحقين الدخلاء ، ذلك المجاهد التكفيرى المهوس بولس ، كلها كردة فاحشة على اليسوعية التى لم تكن دينا يوما إنما مجرد حركة مغدورة عابرة لروحنة اليهودية قام بها ذلك المدعو يسوع مع البعض الآخر الأكثر فهما وإخلاصا من أتباعه ، بالذات أصحاب الأناجيل الغنوصية . الأرثوذوكسية -ولحد مقارب كثيرا الكاثوليكية- هى مسيحية أولئك الرسل الأوائل فى الشرق الأوسط ، وأولئك الرسل كانوا حاسمين فى سيرتهم الأولى الواردة فى العهد الجديد على أن الخلاص نعمة إلهية ولا يكتسب بالختان ولا بأى شىء آخر من سلوكيات للشخص أو عباداته أو اتباعه للناموس . پاپا روما كان زانيا وجعل ابنه من الزنا ملكا لإيطاليا (أعظمهم فى الحقيقة) ، وحين سألوه -أى الأب- كان رده هادئا متواضعا بسيطا صادقا : ' إن الخلاص عطية من الرب ! ' . هل تعلمى أن أعظم ما أتمناه الآن يا جدتى أن يعود ذلك الشيخ حجاب لمرة واحدة لرمسيس لأن لدى عبارة واحدة أريد أن أقولها له : إذا كنت لم أقتنع بالمسيحية التى كانت يوما ديانة العالم المتقدم ، فهل تعتقد أنى سأقتنع بالإسلام ديانة المتخلفين ؟ !

لكن مهلا ! كيف أحمل كل هذه القسوة على من علموا لى أمى ؟ كلا ! أنا لست متحاملا حقا على الكاثوليكية ، ولا أريد أن أكون كذلك . أنا أحترمها كثيرا . يكفيها ما قدمته للفن من رسوم وتماثيل وموسيقى . بل إنى حتى لا أقيم وزنا لمثالبها الشهيرة ، كصكوك الغفران ومحاكم التفتيش . أليست الزكاة صكوك غفران ؟ أليست سياحة الحج الباهظة التى تمتلئ منها خزائن آل البيت وآل سعود صكوك غفران ؟ الفارق الوحيد أن صكوك الغفران الكاثوليكية كانت محصورة فى مذهب معين ولفترة معينة ولا سند دينى لها ومستهجنة من عموم المؤمنين وانتهت بثورة عارمة على الكنيسة ، أما الزكاة والحج فهى فروض إلهية رسمية صريحة مؤبدة ولا يجادل فيها أحد . ثم ما الفارق بين محاكم التفتيش وبين قوانين الطوارئ الحالية فى أى بلد ؟ هى بالمثل أعلنت مرة واحدة وفى بلد واحد وتحت ظرف محدد ، هو إسپانيا بعيد تحريرها من الإسلام . المشكلة ليست فى كل هذا ، المشكلة فى الجوهر الچينى للعقيدة ، على وظيفيتها التكيفية أنثروپولوچيا ، على أى شىء تحض الناس بالضبط فى مسلمات سلوكهم اليومى ، وعلى رأسها جميعا موقفها من الكدح ، الكدح اليومى ، الكدح كأسلوب حياة ؛ هل تشجع عليه أم تبرر الكسل والبلطجة ونهب كدح الغير ؟

بالضبط ! من تعلمت أمى على أيديهم وأيديهن لا يمكن بحال أن يكونوا أناسا سيئين . الكاثوليكية هذه عينها -وإن فى مرحلة متأخرة- عرفت حركات ترفع فى خجل وبلا ثورة راية الخلاص بالأفعال ، وأبرزها تمرد فرانسيس الأسيسى ومن خلفه حركة الفرنسيسكان شبه المارقة . ربما لا أعلم بالضبط نوعية المعتقدات داخل عقول راهبات مدرسة أمى والمستوصف المجاور لها . أشياء متصلبة عجيبة بلا شك ، لكن ما يهمنى أو يهم أى أحد أن لا هم لهن إلا خدمة الناس بلا مقابل ، وبلا السؤال أصلا عن معتقدهم . هؤلاء يختلفون جذريا عن أسلافهم إيريناوس وأثناسيوس وأوجستين ، الذين لم يكن من هم لهم سوى رسم الخط الفاصل بين الكفر والإيمان ، ومن ثم تدشين أجندة لحروب دينية تستمر ألف سنة ، أو آلاف . يكفى ما فعلوه هؤلاء المتعطشون للدماء بعقل الأسكندرية الجميل ، فيلسوفتها الرائعة التى سحلها الرهبان فى الشوارع ؛ هيباتيا ، الأولى فى طابور بالملايين من ضحايا الإيمان المسيحى ، الأرثوذوكسى فالكاثوليكى ، القويم فالجامع ، الصراط المستقيم فالصراط الدائرى ، حسبما تعنى الكلمات .

الخلاص لا بالإيمان ، ولا حتى برضا الرب ، الخلاص بالأفعال ! وبالأفعال فقط ! فكرة ليست سيئة بالمرة ! كان سيطرب لها أرسطو ! السؤال هنا : لماذا كانت البروتستانتية البوابة الأخيرة المؤدية لنور الخلاص الحقيقى ، لنور تبديد الخرافة تبديدا أبديا ؟ لماذا تحولت على يدها حركة الإصلاح الداخلى الفرنسيسكانية لثورة لا تبقى ولا تذر ، لا من الكاثوليكية فقط بل من الدين كله ، أفضت لتقويض كل الأديان ، مفسحة الطريق لعلمانية العقل ؟ العهد الجديد يقول مرارا إن الخلاص عطية من الرب ، بل ليس لك حتى الخيار فى قبوله أو عدم قبوله . لماذا قدر للبروتستانتية أن تصبح هرطقة بمثل هذا العيار الثقيل الصريح ، ومن ثم استحقت واعتزت باسمها الثورى المتمرد هذا ؟ الإجابة لا يوجد سواها : إنها الچيينات الأنجلو-ساكسونية !

مرة ثالثة لنكن أكثر دقة ، بالذات من أجل ذلك الوغد الذى أغاظنى ذات مرة بتهمة تدين المحافظين الجدد : لاحظ مفهوم هؤلاء الرأسماليين الأميركيين البروتستانت للدين ، بل لاحظ دقائق جذور الإيمان الماسونى لدى أولئك الذين أسسوا أميركا ، وستكتشف ببساطة أنه لا شىء سوى النقيض ١٨٠ درجة بالضبط لمفهوم الحكم بالحق الإلهى (لدى الكاثوليك أو المسلمين أو ربما لدى كل أحد) . بالطبع بعضهم كان علمانيا خالصا ، لكن البعض منهم المؤمن كان مؤمنا لأنه يرى ' الخالق ' -حسب نص إعلان الاستقلال- شيئا جيدا لخدمة المبادىء التى بنيت عليها أميركا ، إنه بكلمة واحدة : النقيض للحكومة ؛ كل السلطات يستقيها الفرد بنفسه مباشرة من هذا الخالق مصدر كل السلطات ، ثم يوكل بعضها وبإرادته الشخصية المحضة للحكومة . بعبارة أخرى : المشروع الحر هو الإله والحكومة هى الأجير ، بدلا من قتل الإله ، قرر إعلان الاستقلال الأميركى تحويله لسلاح ضد الكنيسة والدولة وكل سلطة تنتقص من سلطة الفرد المطلقة !

مرة رابعة لنكن أكثر دقة ، البروتستانتية لا تكاد تحصى من الأصل من أديان التوحيد تلك . إنها لم تخترع فى المنطقة أصلا . إنها منتج تيوتونى من أصقاع الشمال الصقيعية النائية ، بالضبط حيثما عاش الأشكيناز ونبتت صهيونيتهم الوليدة ، فرفعت العرق اليهودى من ثانى أحط امة أخريت للناس لأحد أعظم الأمم وأعزمها قيادة لكل حضارة وأعراق العالم . حتى الكالڤينية التى اخترعها أحدهم وتقول الخلاص بالإيمان ، اعتبرها الساكسون ثورة على الكاثوليكية لكن فى الاتجاه الخطأ ، ولم يتبنوها . الإله الچيرمانى ليس إلها بطاشا ولا قهارا . هو صنو للإنسان ، أخ له ، أكثر منه أى شىء آخر . بلغة التقنيات الحديثة هو تقنية صديقة للمستخدم user-friendly ! هو يعتقد أنه فيه هو نفسه حرية الإنسان قائلا ' الحق يحرركم ' ، ورغم أنى أشك بشدة أن ثم إله لا يمثل عبئا وقيدا ، إلا أنه على الأقل لم يجرم ويحرم الكلمة ويشطبها من القاموس كما إله الإسلام . على أية حال ، تقانيا هو -حسب إدعائه- رب لا إله ، فقط صانع وليس آمرا ناهيا معبودا (كلمة إله لم تدخل الإنجليزية أصلا !) . لا غرو أن الغالبية الكاسحة من منجزات العلم والتقنية وحتى الفكر فى القرون الخمسة الأخيرة ، جاءت على أيدى يهود وپروتستانت ، حيث من البديهيات المتوقعة أن يأتى كل ذلك على أيدى قادة العلمنة تحديدا . ولا غرو أن كانت البروتستانتية ابنة بلاد الثلج والضباب المتجمد ، هى المرحلة الوسيطة بين الدين والعلمانية .

الخلاص بالأفعال ؟ ! أليس غريبا أن إديسون بالذات ، الذى سجل باسمه نحو ١٧٠٠ براءة اختراع ، منهم ١٠٩٣ داخل أميركا وحدها ، بعضها دخل الحياة اليومية لكل إنسان ، كالكهرباء وتسجيل الصوت والصور المتحركة وهلم جرا ، هو الذى قال إن العبقرية نتح لا إلهام ؟ ! ربما لا ! ربما لا غرابة بالمرة . الشعوب التى اخترعت البروتستانتية شعوب تؤمن بالشغل الشاق أكثر من التعويل على ومضات الإلهام والإبداع . جهادها الوحيد ليس مع الغير ، أيا من كان . جهادها ليس جهادا مع النفس ، جعلها تشقى أكثر ، تشتغل ٢٠ ساعة يوميا ، تقدم للحياة

أكثر ، وتترك لمن بعدك تراثا من الصروح . لا غرابة أن روكيفيللر كان من اعتبر تكوين الثروة أعظم العبادات جميعا . نعم ، إن بناء الثروة رهبنة فى حد ذاته ، بل هو أعظم الرهبنات جميعا . احترم النقود تحترمك الآلهة . إنه نموذج توماس ألفا إديسون المستعد لإجراء آلاف التجارب لآلاف الليالى ، قبل الوصول للمصباح الكهربى الصحيح . هؤلاء من يغيرون حيواتنا حقا ، ويصنعون مسيرة التاريخ بمعنى الكلمة . لا غرابة أيضا أن هذه الشعوب تحديدا هى التى عانقت فكرة التنافس الطبيعية الشرسة على نحو رحب رغم لا إنسانيتها ، إلى آخر تلك الخصائص التى يجب أن تتناغم فيها الحضارات مع قوانين أمنا الطبيعة ، ومع الصياغات العظيمة الأولى لها ولنظرية الشعوب من المعلم أرسطو ؟ !

لماذا القرصنة فى الكاريبى تحديدا ؟ الأنجلو-ساكسون لم يكونوا يحملون شيئا من أميركا يستحق القرصنة . بل لم يكونوا يحملون شيئا أصلا . لم يكونوا يعودون بالمرة . كانوا يأخذون لها ، لا يأخذون منها . كانوا يأخذون لها مخططات للآلات والقاطرات والمصانع . أو هل كانوا فى حاجة لأكثر من هذا ؟ ويا لغباء چيبيناتكم أيها الهنود الحمر ، أن لم تفهم طبيعة قوافل ملائكة الرحمة التى هبطت عليكم ، فرحتم تقتلونها وتتحدونها وتسلخون فراء رءوسها (أو لنستثنى پوكاهونتاس من هذا الغباء الدموى ، فربما هى والطيبون أمثالها أصيبوا بتطفر چيينى ما فى قلوبهم أو عقولهم ، أو ربما الهنود ككل طيبون لكن اختطفهم محرض اسمه عبمعصور ، فأدخلهم حروبا لا نهاية لها انتهت بالإبادة) . النكتة تسأل ما الشىء المشترك بين هاريسون فورد ويسوع المسيح ؟ وتجيب أن كليهما كان نجارا قبل أن يصبح شهيرا ! حقا ، النجارة كانت الحرفة الأولى فى أميركا الناشئة . هى حرفة البنائين . كل المساكن خشبية . بل حرفة كل أحد . بما فى ذلك النساء والأطفال . وأحد أجمل أفلام فورد الذى كان يبنى فيه بيوتا خشبية فى قرية الأميش . ما أقوى الرموز فى حياتنا ! بالذات تلك التى لا تخاصم مادية أرسطو !

شعوب كثيرة تسخر من الإنجليز وتقول عنهم أغبياء . بالضبط ! لو لم يكونوا أغبياء لما أتوا بالثورة الصناعية . التقييس والتنميط والشغل التكرارى ، يعتبره الفهلوية من أمثالنا نحن المصريين غباء . وليكن ! تماما كما سنظل نقول على الحواسيب الذكية غبية لأنها تشتغل بالقوة الغاشمة brute force ، وليس بالفهلوة مثلنا ، وليكن ! لو أن أى من هؤلاء ' الأذكياء ' لديه هذه القوى الغاشمة التى للحواسيب (وهى فرضية غير دقيقة جدا بالمناسبة) ، لما تردد فى استخدامها ، لأنها ببساطة أعظم وأدق وأقدر بليون بليون مرة من العقل البشرى البائس العشوائى النساء التائه . أنا عامة لطالما تقززت أصلا من أية مقارنة بين الحواسيب والبشر . الحواسيب الذكية تطاول الآلهة وليس أى شىء أقل : تعرف كل شىء وتقدر على كل شىء . لكنى بالطبع لطالما احترمت كل بشر متواضعين يحاولون التشبه بالحواسيب قدر استطاعتهم ، أو يوجد فى چيبيناتهم بعض ملامح الشبه هذه !

المسيحية فى نسختها التى دعت للكد وأسمته الشغل البروتستانى لم تزدهر هنا أبدا ؛ هذا طبيعى جدا ! إنهم حتى لا يودون تسميتها الخلاص بالأفعال ، لكن هذا ما يؤمنون به ويعلون منه كقيمة عظمى للحياة ، وطبعا يمارسونه عملا . إنهم لا يطنطنون كثيرا حول الأمر ، وكأنك لا يصح أن تباهى بما فيك ، أو ربما كى لا تبدو عقيدتهم كمغادرة جذرية للمسيحية وخلاصها ومبادئها الأخرى ؛ أوه ! ، أو ربما حتى لا يقارنوا بالإسلام ! تصور ! ربما فكروا هكذا فعلا ! طبعا يا له من شتان ما بين الشغل البروتستانى وبين فروض الإسلام ؛ كلاهما يعطيك المغفرة ، لكن الأول كدح صامت مضنى متواصل طول العمر ، والثانى شوية كلام وركعات وضرايب معروفة ديتهم ويأخدهم ربنا ع الجزمة (وحتى من يعطها بإخلاص لا يأمن مكر ربه ، والمهم كما قيل فى ألف حديث ' العبرة بالخواتيم ' ، يعنى م البداية هى لعبة قمار مع ربنا !) ، ويحطهم زى ما هو عاوز فى الحصالتين إللى حاططهم على أكتافنا . المدهش أن هذا البحث الذى أجريه ليس مقرفا جدا كما سبق وتوقعت ؛ الأمر لا يخلو من بضعة أشياء طريفة هنا وهناك ، بل يبدو أنى قد بدأت استمتع به . حتى تلك الأفلام الدينية السخيفة بها أحيانا بعض اللحظات المسلية . أحلى جزء هو ما يخص تلك الحصالات غير المرئية ، فى فيلم يحكى قصة واقعية لفتاة مسلمة مصرية راحت تجادل الشيوخ قبل أن تتحول فى خاتمة المطاف للمسيحية . سأرسل نسخة منه بالبريد الإليكترونى لهالة لعلها تجد فيه ما تعلق عليه على موقعها . كلا ، هالة ستسخر منى ، أفلام هؤلاء المسيحيين لا تقل بداءة عن أفلام تنظيم القاعدة ، سأرسل القصة التى ترويها بالصوت فقط هذه الفتاة الموهوبة ، الفنانة بالفطرة ذات الصوت المرح واللسان اللاذع ، فهى أكثر إثارة وإمتاعا ألف مرة ! سألتهم هذه المهرائيل (هذا هو اسمها المستعار أو اسمها الجديد ، لا أعلم ، فقط أجزم أنها أستاذة بجد وموسوعة إسلام لا تقل عن شيخه الأشيخ ابن تيمية) : ' لو سرقت ١٠٠ جنيه أبقى ارتكبت كم سيئة ؟ ' ، قالوا : ' واحدة ! ' ، قالت : ' ولو فككت جنيها لعشر قطع معدنية ووزعته على عشرة فقراء أكون قد حصلت على كم حسنة ؟ ' ، قالوا ' مائة ، فإن الحسنة بعشرة أمثالها ! ' ، قالت : ' إذن صافى الربح ٩٩ جنيها و٩٩ حسنة ؟ ! ' ، فلم يردوا . قالت : ' ليس هذا هو المهم ، ما كان يهمنى هو أن أثبت أن مكرى أعظم من مكر خير الماكرين ! ' (رأيى الشخصى أن مهرائيل هذه أو شيوخها ليسوا بالذكاء الكافى ، وأقترح عليهم

أن يوفروا الجنيه ويروحوا يتعلموا ڤيديوجيم من بتوع معارك ضرب النار ، وينشنوا بالدعاء على الساعة الطيبة بتاع يوم الجمعة أو على ليلة القدر ، فتغفر لهم كل ذنوبهم مرة واحدة -موش ٩٩ ذنب بس- ومن غير ما يدفعوا حاجة ، وأيضا يكونون أمكر من خير الماكرين وأمكر من وكلاء الحج بتوعه ، وكمان لما يبقوا أسرع مهارة من نيازك مغفرته قاصفة الجن خفية الوميض ، يكونوا اتعلموا حاجة تنفعهم فى حياتهم اليومية . أوه ! أظن بكده أكون اكتشفت معنى جديد لكلمة shooting star لا يعرفه أى غربى ! بمناسبة الفضاء وأول مكوك فضائى فى التاريخ : ماذا كان يتنفس البراق ، وماذا كانت تدفع أجنحته ، أم هل كان لديه محرك نفاث فى مؤخرته أو فى مؤخرة راكبه ؟) . يا للغو ! هذه الألاعيب والتفاهات تستغرقنى ، وعلى العودة لبحثى الأصلى . أوه ! كدت أنسى ! على إذن أن أدون السؤالين اللذين أردت سؤال سماء فيهما غدا : ١- فكسونا العظام لحما (آملا أن تهدينى واحدا من تلك الهياكل العظمية الدقيقة الرائعة التى تجهضها أحيانا . ربما تفاجئنى بأنها تعرف أن سفر أيوب روى القصة على نحو أكثر علمية ، لكنى أعرف ما سأقوله ساعتها . قد تقول لى إن التشريح فى الكرهان يختلف قليلا عن التشريح فى كليات الطب ، فمثلا بعد البلعوم مباشرة (بين الصلب والترائب) ، تنقسم القناة الهضمية لفرعين كما دمياط ورشيد ، أحدهما يخرج البراز والآخر يخرج السائل المنوى . أو ربما تراوغنى بالكلام عن بيولوچيا تحديد الصفة الچيينية التى تتسابق فيها سوائل الرجل وسوائل المرأة على الوصول للرحم ، ومن يصل أولا يصنع الجنين على ذات شكله (وفى قول آخر على ذات نوعه أيضا) . مفهوم بويضة المرأة لم يكن واردا عندهم ، فقط ماء مرأة وماء رجل يختلطان كما اختلاط المنفحة باللبن فيتخثران ويصنعان من السائلين جنينا صلبا . فى كل الأحوال المؤكد أنها لا تعرف الإعجاز العلمى فى تكوين الجنين . الفارق ليس أن هذا وحى من السماء وذلك من الشيطان كما يقول المسيحيون ، إنما فقط ببساطة أن ثمة أناسا خطر ببالهم أن يقلبوا جنينا مجهضا بين أيديهم من باب الفضول ، وآخرون لا يهتمون أصلا بذلك الهراء المسمى المعرفة !) ، ٢- شق الصدر : منذ أى عصر بات القلب المفتوح متاحا ضمن جراحات اليوم الواحد ، وهل أيضا سبقنا عرب الجزيرة لغسيل قلب ونحن لا نزال متوقفين بعد عند غسيل الكلى ، ولماذا لا نستخدم ماء زمزم لغسيل الكلى بدلا من الطرق المكلفة الحالية ، وهل كون مياه المجارى ضربت فى زمزم يقلل من قدراتها الخارقة هذه ؟ (فقط آمل ألا تسخر منى أنى لا أعرف شيئا عن مدى محنة صبى ذى بشرة بيضاء فى جزيرة البعر ، وأن كل الأمر لا يعدو اعتداء جنسيا تعرض له حمادة الصغير العائد من الهضبة بملابس ممزقة تكشف عن بشرة لا تلوحها أبدا شمس الصحراء) .

هذا الويسكى جيد حقا ؛ الأمور باتت واضحة تماما : المسألة چيينية أكثر مما تخيلت دائما أبدا ! كندا أو البرازيل أو الجزء المتبقى من أميركا الوسطى والجنوبية لا يقل أى من ثلاثتها مساحة ولا موارد عن الولايات المتحدة ، لكنها لم تصبح أغنى ولا أقوى دولة فى العالم . السبب غاية فى البساطة هو أن الإنجليز اختاروا للاستيطان بقعة أخرى من العالم الجديد ! كل الثروات والعوامل الطبيعية وحتى مساحة الأرض شبه متساوية بين النطاقات الأربعة ، ما اختلف فقط هو نوع الچيين الذى استوطن كل نطاق . لو لم يكن البروتستانت الإنجليز هم الذين استعمروا أميركا إنما استعمرها الكاثوليك ، فرنسيون أو پرتجاليون أو إسپان ، لما أصبحت الولايات المتحدة التى نعرفها ، صانعة حضارة ما بعد-الصناعة ، إنما لكانت نسخة أخرى من الكيبيك أو البرازيل أو المكسيك (بالترتيب) . كانت ستكون شيئا مختلفا ، شيئا متخلفا . العرق الأنجلو-ساكسون ذهب هناك ليكد ويكدح ويعرق ، ليزرع ويحصد ويبنى .

حتى تدين أميركا الذى طالما وجدت فيه لغزا ما ، بات محلولا الآن . حين أنظر لحركات السلام فأجدهم العلمانيون ، بينما الوطنيون محبو الحروب ممن يسارعون للتطوع فى الجيش هم المتدينون ، أدهش : أين المسيحية هنا ؟ حين أنظر لحجم الثورة التقنية والإبداع الفكرى وقيم التحرر التى قادت بها أميركا العالم ، أتعجب : أين موقع خرافات الدين هنا ؟ الإجابة باتت واضحة : إن التدين ليس بأكثر من الأداة التى وجدها الفرد الأنجلى فى أميركا ليمارس بها سيطرته على نفسه . هذه السيطرة على الذات هى مكون أساس فى شخصيته لا يستطيع الاستغناء عنه ، والمسيحية هى ببساطة وسيلة ضبط النفس التى وجدها متاحة أمامه فتعود على استخدامها ، دون أن يفكر كثيرا فى الواقع فى محتواها . فى صحتك يا جدتى ! أشكرك أن أنجبتى لى أمى العظيمة !

ما أجمل كلمة استعمار ؟ ليتنى أعرف من صكها ! بالإنجليزية تعنى استيطان ، ولا توجد عندهم كلمة أخرى مناظرة لاستعمار . سأقرأ الجبرتى ، ربما يكون هو مخترعها . كان شجاعا فى نقد التخلف ومعانقة التقدم . كلا ، لو كان هو لاشتهر الأمر . الأرجح أن أحدا مجهولا لاحقا عليه هو مخترعها . لماذا ليس لدينا قاموس يقول لنا أول مرة استخدمت فيها الكلمة ؟ الكلام هو حرفة العرب ، ويقال إنهم مخترعو المعاجم ، بالذات المسهب جدا منها الذى يدون كل شاردة وواردة ، لكن من فرط تخلفنا لم أعد أكاد أصدق ذلك الزعم (طبعا من زمن أزحت من دماغى للأبد يا جدتى ، تلك الأسطورة القائلة إن العرب أهل البلاغة والفصاحة ، فباستثناء بعض ما قال امرئ القيس زائد أشياء نادرة جدا

لآخرين ، كله شعر ساذج كتبه إناس سذج كى يخاطبوا به أناس أسذج ، ولا أريد أن ألوث أسماء كأوڤيد أو جوته أو إيلليوت بذكرها فى سياق كهذا) .

عندنا يسبون إسرائيل بأنها استعمار استيطانى ؛ السبب المدهش الذى اكتشفته الآن أنهم إذا كانوا يكرهون كلمة استعمار قيراطا ، فإنهم يكرهون كلمة استيطان أربعا وعشرين ، لأنهم ببساطة : ضد مبدأ الاستيطان . لأنهم ببساطة كما قال ضهرى يوما : لسنا بشرا ، نحن بدو ! لا غرابة إذن ! الإنجليزية لم تكن فى حاجة لكلمتين ، الاستعمار عندهم هو استيطان بالضرورة . هم لا يعرفون أصلا بداوة اخطف واجرى . أن تحتل سوريا لبنان شيء ، وأن ' تستعمره ' إسرائيل شيء آخر . هذا استعمار ، وذلك استدمار ، أو فى قول آخر استخراب ، أو فى قول ثالث (لو نظرنا لما فعله عبمعصورة وصدام والقذافى وأمثالهم على امتداد الخريطة) : استئمار (والبعض ينطقها فى رواية رابعة استحمار) . استئمار على الاستعمار ، استئمار على الاستئمار ، استئمار على كل شيء وكل أحد ، حتى حين تفرغون من الجميع تستأمرون على بعضكم البعض . أول خطوة فعلها عبمعصور إطلاقا (قبل أن يأتى بأسلحة من أحد ، وحتى قبل أن يعرف المصريون اسمه أو رسمه) ، هى أن أرسل للعربان أبناء عمومته چانچاويد السودان يعرفهم بنفسه وبخطته لإحياء المؤامرة العربية الكبرى للاستيلاء على العالم من جديد .

إسرائيل وردة أنبتت فى مقلب زبالة ! عبارة قلتها يوما لصديقة لى ناقدة سينمائية لإحدى الصحف الحكومية الثلاث الكبرى فقاطعتنى لمدة عشرة أعوام ، ولم تغفر لى إلا لعلمها بصدقى مع نفسى وليس لأنها اقتنعت . لم تحاول أن تفهم أن هذه أمور لم أعرفها من الكتب . لقد عشتها كما يعيش ضهرى الأشياء فى القناطر . كثيرون من جمال عبمعصورة حتى ربيبه الصغير (أو عقله الصغير) هلوكة (أو لعلهما العكس) ، هاجموا الاستعمار الاستيطانى . ما هى أسانيدهم ؟ هذا كيان مزروع ولن ينجح أبدا ؟ ألم تكن الچيمستاون كيانا مزروعا ، لكنها صنعت أعظم إمپراطورية فى التاريخ ؟ ما هى أدواتهم ؟ اللعب على الحبال بين المعسكرات ، أو ما يسمونه القوة الناعمة (ترجمتها الصحيحة القدرة الطرية . أين أنت يا نبيل ، كى ترى محنتى غير المسبوقة ؟ !) . ألم يسألوا أنفسهم ذات مرة لماذا لم ينفعهم اللعب على الحبال ، لماذا كلما قتلهم اليهود كلما زاد دعم الغرب لهؤلاء ؟ الإجابة التى لا يمكن أن يفهموها أن أميركا نفسها أقيمت على مفهوم التخم ، الـ frontier ، الجبهة الطليعية التى يغرسها المتحضرون بعد أن يطهروها من السكان الأصليين . لماذا يطهرونها ؟ هل عرقية أو كرها أو ولعا بالدماء ؟ إطلاقا ، إنما ببساطة لأن هؤلاء يرفضون الحداثة ويبدأون بالقتل . لو استسلمت مستوطنة الچيمستاون ومثيلاتها لأولئك الذين يزينون رءوسهم بريش الطيور -چيرونيمو وأمثاله- لما كانت هناك ثورة ما بعد-الصناعة التى نعيشها فى كل لحظة الآن . لو استسلمت مستوطنة تل أبيب ومثيلاتها لأولئك الذين يزينون رءوسهم بالبلاليص -الحسينى وأمثاله- لما كان هذا الحاسوب الذى أمامى قد عرف حتى اليوم شيئا اسمه الويندوز العربية . دع جانبا ما نأكل ونشرب ، ومعظمه -إن لم يكن كله- منتجات نباتية وحيوانية منماة چيينيا فى إسرائيل ؛ فقط تخيل حجم المجاعات التى جنبنا إياها عدونا الستراتيچى والتاريخى (طبعا كى يستمتع بالفرجة علينا تعذبنا الحياة !) . يا ليتكم تكونون موضوعيين لمرة واحدة فى حياتكم وتفهمون لماذا يزدريكم الغرب ؛ تكونون مبدأيين لمرة وتفهمون لماذا لا يجدى اللعب على الحبال !

يقولون الثقافة . أليست هوليوود أكبر قدرة soft فى التاريخ ؟ مع ذلك كانت لتغزونا لولا أنها جزء من حضارة كاملة متكاملة ؟ يسخرون من الثروة ويهونون من شأنها ، ولهلوكة مصطلح واحد وحيد حين يأتى على ذكر انتصارات أميركا . يقول إنها استخدمت ' شوية فلوس ' ، وكأن الفلوس هذه شيء يمكن أن يجده المرء على الناصية ، وليس خلفها تاريخ كامل من الجهد و' النتح ' والعلم والابتكار ، و-حسنا : تاريخ من الچيينات ! مع احترامى الشديد للنساء ، ذلك كله كيد نسا لا أكثر . تعلمته عصابة الممانعة والتمنع ، أقصد جبهة الممانعة والتمنع ، أقصد جبهة الملاوعة والتلوع ، جبهة لى الرقبة ولى الضب (أو جايز أحيانا لى الشفة موش أكتر) ، تعلمته من القزم اللزج المدعو ديجول وينسبونه زورا لكلاوسڤيتز ، آخر من يربط اسمه بالقدرة الطرية . بل بالحرى يربط تحديدا وفقط بالقوة الشاملة ، الدمار الكتلى ، تدمير كل شيء للعدو ، من الجيوش حتى الكنائس ؛ لم يقل الكنائس فقط ! باختصار ، ما لن يفهمه هؤلاء أبدا هو أرسطو ، المادية . يفهمون كل شيء إلا المادية . حتى الإنسان نفسه لا ينجب عندهم لهدف مادى ، وفى حدود معلوماتى عن القنبلة النكاحية ، أن الجدوى الاقتصادية الوحيدة للمواليد عندنا هى المباهاة بهم يوم القيامة . كل شيء إلا المادية ؟ لا غرو إذن إن رأوا الطفيلى اللص رأسا برأس مع صاحب الثورة التقنية . عفوا ، أقصد رأسا برأس عن يد وهم صاغرون !

لكن ماذا عن مسيحية الإنجليز ؟ أوه ! لأكن أكثر دقة مرة أخرى . مسيحية الإنجليز شيء رابع ، لا هى أرثوذكسية الشرق ولا كاثوليكية روما ولا حتى پروتستانية الچرمان . إنها نبت مستقل الجذور بالكامل . إنها ترجع فى أصولها الأولى لفلاسفة الإغريق لا لپيتر السماك قديس روما ولا لغيره . هكذا تروى اليوم قصة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة ، فرسان الحرية ، ولا شيء إلا الحرية . حماة القرى والأفراد من البطش ، أى بطش ، أيا ما كان أو من كان مصدره . الخلاص بالحرية !

الخلاص بالحرية ؟ ! أجننت ؟ هل فقدت الإحساس باللغة ؟ أبدأت أقول كلاما عبيطا ولا أنتبه لكلماتى ؟ أى خلاص بالحرية ؟ الخلاص هو الحرية ، والحرية هى الخلاص ! ! هذا كما تعريف الماء بالماء ! على أية حال ، فعلا ! لا سبيل آخر ! الخلاص بالحرية ! ... الحرية المطلقة ! نعم ، الحرية قد تكون ناوسيا ، بل قد تكون أهم الناوسيات جميعا . يا للاكتشاف ! نعم ، سأضيفها لمشروعى الموعود ، بل سأضعها على رأس أولويات تلك الدراسة السرابية المغبونة المراوغة ، ناوسيا رقم ١ ! لا أعتقد أنى سوف أعدم ألف إثبات من مملكة الفيزياء أو البيولوچيا ، ولا أعتقد أنى سأجد ويسكى أفضل من هذا يوما أبدا !

طيلة حياتى وأنا أقرأ الفاينانشيال تايمز يوميا . بالذات فى التسعينيات ، خلال أيام ' الاقتصاد اليوم ' كنت أقرأها بتدقيق شديد . كنت أبحث عن تفسير ولو واحد لانضمام بريطانيا للأممية الشيوعية الخامسة المسماة الاتحاد الأوروپى . هل كانت العظيمة مارجاريت ثاتشر على هذه الدرجة من السذاجة بحيث تتخيل أن الأوروپيين سيلتزمون برؤيتها أنه تجمع للاقتصاد التنافسى الحر لا أكثر ؟ ألم تتخيل أنهم يخططون له ككيان اشتراكى ، بل كقوة سياسية معادية لأميركا وللاقتصاد الحر ولمبدأ التنافسية نفسه ، وأن آخر شيء يشغلهم هو الاقتصاد ؟ هل معلوماتها عن الأعراق والچيبنات ضعيفة لهذه الدرجة ؟ لماذا لم تتحد مع أولاد العم على الضفة الأخرى للأطلنطى ممن يؤمنون بذات المبادىء ؟ قطعا لو كان ضهرى فى رحلة هناك أيامها لأقنعها فى دقائق -كما فعل معى ، أن النظام الاقتصادى هو جزء من الچيبنات ، ولا يمكن تخطيه أبدا ! على فكرة يا جدتى : كدت أنسى أن أسألك : هل سمعتى عن شخص اسمه مايكل كووك ، إنه مثلك بالضبط إنجليزى رحل واستقر بمصر ، وإن قبلك بحوالى مائة سنة . أخشى ما أخشاه أن يتضح فى خاتمة المطاف أنى وذلك الفاجر ضهرى أقرباء على نحو ما !

فى صحتكم ! فى صحتك يا أرسطو ، فى صحتك يا جيبون ، فى صحتك يا يونج ! أشكر لكم حضوركم الليلة ! بصراحة ، يومى كان عصيبا جدا ، ولا أعرف كيف كانت ستمضى بى الدنيا لولا حضوركم . دكتور دوكينز سينضم لنا بعد قليل . لديه حفل توقيع نسخ كتابه الجديد ، لكنه وعد أنه لن يتأخر ، كذلك وعد أن يأتى لكل منا بنسخة منه .

كم هى رائعة هذه النسخة الإليكترونية من الموسوعة البريطانية . بها ما يكفى عن الشخص الذى يقال إن آرثر وصحبه تتلمذوا على أفكاره . تصور ! إنها مرة أخرى تكاد تنطق بحديث الچيبنات . پيلاجيوس ذلك ربما يكون من مواليد بريطانيا نفسها ! ترعرع بها قبل أن يذهب لروما حوالى سنة ٣٨٠ ح . ش . ، وهو فى حوالى السادسة والعشرين من عمره . هو ليس كليريكيا ، فقط مفكر حر ، قرأ ' اعترافات ' أوجستين (المكتوبة سنة ٣٩٩ أو ٤٠٠ تقريبا) ، فاستفز أيما استفزاز من فكرة الإلة الجبار المتحكم الذى يستعبد الناس ، ومن نفيه للفلسفة القديمة أن الإنسان خير بطبعه ، ومن ثم هو فى حاجة للإيمان المسيحى كى يصبح خيرا . المدهش أن تعاليمه وأنشطته ظلت فاعلة عبر العالم القديم لعدة عقود ، لأنها كانت شبه علمانية وفلسفية فى روحانياتها ، ولم تستدرج أبدا لأرضية الرمال المتحركة للخرافة الدينية والدقائق التلافيفية لعقائدها وطقوسها . ترك روما وراح ينشر أفكاره فى أفريقيا وفلسطين هو ورفيق دربه سيلستيوس ، تلاحقه فى كل مكان فتاوى التكفير الأوجستينية ، إلى أن وصل أعلى نقاط إبداعه الفكرى بكتاب ' على الإرادة الحرة ' ٤١٦ ح . ش . ، الذى ربما كان آخر أدبيات عصر العقل القديم قبل أن تبسط المسيحية والإسلام نور الخرافة الوضاء على العالم بأسره ! فى القديم قال لكم يسوع من ثمارهم تعرفونهم ، عبارة تحبونها وتكثرون من تطبيقها مثبتين إن الإسلام دين من الشيطان ، أما أنا فالحق الحق أقول لكم إنه لا توجد مبادىء أسمى ولا أرقى من رأسمالية العرق الأنجلى ، مطلقة التنافسية والحريات ، الممسوحة من كل فساد وخطيئة ودنس !

لأكن مرة عاشرة أكثر دقة . لا وجود لشيء اسمه الأنجلو-ساكسونية . كم هى أكثر من رائعة هذه النسخة الإليكترونية من الموسوعة البريطانية . تقول إن البحوث الچيبنية الحديثة ، تثبت أن البريطانيين عرق قائم بذاته . وجدوا هناك قبل ١٦ ألف سنة بمجرد نهاية العصر الثلجى ، وقتما لم تكن إنجلترا وأيرلندا قد أصبحت جزرا بعد . حين هبط الثلج مرة أخرى ، العصر النيولوثى ، قبل ١٢٣ قرنا ، هاجروا إلى شبه الجزيرة الأيبيرية . حين انحسر بعد ١٣٠٠ سنة ، عادوا . وبعد ثلاثة ألفيات ونصف أخرى ، من عودتهم ، أى قبل ٧٥٠٠ سنة ، أصبحت

أرضهم جزرا معزولة عن القارة الأم . بحث آخر ، وإن لا يزال محل خلاف ، يطرح أنهم ربما مارسوا الزراعة ساقا بساق مع المصريين (العائشين فى أساطيرهم المزعومة) ، وربما مع أى أحد ، ومع كل الأساطير . أنا متأكد من شىء واحد : الغرب لم يكن أقل تقدما من الشرق فى أية لحظة معطاة من التاريخ . نعم ، أية لحظة ، وأى غرب ، وأى شرق . مصدر اللبس هو مجرد الفارق بين أناس يمتد بصرهم لنهاية العالم ، وتطاول طموحاتهم النجوم ، فلا يكفون عن انتقاد أنفسهم طوال الوقت لأنهم دائما أقصر من يجاروا قامة أحلامهم الممتدة بعيدا أمامهم ، وبين أناس يعيشون فى قوقعة لا يسمعون فيها سوى صدى لأشعار الأجداد هم عن المجد والفخار والماضى الخرافى الزائف ، يصم آذانهم الصغيرة .

آه ! الحروب الصليبية ! إنها أبرز نماذج جلد الذات هذا . متدينو الغرب يدينونها لأنها ضد تعاليم كتابهم المتسامحة البلهاء ، علمانيو الغرب الإنسانويون يدينونها لأنها كانت عنيفة وتناقض أفكارهم الهلامية عن السلام وأخوة بنى البشر ، أما أنا كعلمانى طبيعى تطورى فيستحيل على نهائيا إدانتها ، ويستحيل أن أقبل بغير مراسم تسليم وتسلم للواء الحضارة ، من إمبراطورية الزراعة لإمبراطورية الصناعة دونما فجوة فى المنتصف يطل فيها برابرة قاع العالم ، متخيلين إمكانية إقامة إمبراطورية للرعى لم تكن أبدا . كلا ! العظيم لا يجلد ذاته . العظيم يرتفع فوق إنجازاته ، لأنه لا يريد لإنجازاته أن تنتهى . الحروب الصليبية إنجاز هائل ، مع ذلك تركوا كاتبا أو اثنين رخيصين يصورونها على أنها هزيمة ، ولم يناقشوهم ووضعوا الأمر برمته خلف ظهورهم . مرة أخرى ، لقد فعلوا شيئا لم يتباهوا به يوما ، لكن أثره الحقيقى كان أكثر من عظيم .

تحت أى معيار كانت الحروب الصليبية نبض الحياة الأول فى جسد الحضارة بعد طول استكانة ؛ إنها حرب تحرير هدفت لاستعادة أراضى مغتصبة ، لكن قيمتها الحقيقة لا تقاس بمجرد نجاحها أو فشلها فى تحقيق هذه الأهداف المحددة . لقد أدت وبنجاح باهر ، إلى صحوة تحفز ويقظة فى العالم الغربى لما يتهدده من مخاطر ظلامية ، ولولاها لما منع شىء البقية الباقية من العالم شبه المتحضر من الوقوع فى براثن الإسلام . لقد أعطت فسحة الوقت لأوروبا لبناء نهضتها وثورتها التقنية التالية ، المقوم والضمانة الحقيقية التى تحميها من أن تكون مجرد قطعة زبد فى وجه سيف الإسلام . لولاها لما توقف لاحقا أمر هجامة الأسوار عند ڤيينا ولا غير ڤيينا ، بل فى الواقع كانت ڤيينا وموسكو وستوكهولم وحتى طوكيو قد سقطت قبل هذا بأربعة أو خمسة قرون ، فلولا حملات الصمود والتصدى الرائعة هذه ، لكانت جيوش السفاحين الأتراك التى أبدع مشاهير الرسامين فى تجسيد مذابحها التى لا تقل عن مثيلاتها العربية بشاعة ، قد اكتسحت كل أوروبا فى سنوات قليلة كما إحدى نزهات الربيع . لولاها لكان ما يدرس اليوم فى أوكسفورد وكيمبريدج هو التداوى بالذباب وبول البعير وهل يجوز الاستنجاء من الغائط بأقل من ثلاثة حجارة ، وهل يدخل النار من فقد ساقه اليسرى بسبب البتر أو الشلل لأنه لن يستطيع إخراج الظراط بالطريقة الشرعية التى أمر بها مُحَمَّد ، أم سوف يقبل استغفاره . لقد كانت حربا استباقية مظفرة ، جعلت المسلمين ردحا طويلا يتركون كل شىء يحلمون أو يخططون لغزوه أو نهبه ، ويتملكهم فقط هاجس واحد : استرجاع القدس . لقد جعلتهم لقرون كاملة كفأر التجارب الذى يحن جنونه لرؤية قطعة الجبن فينسى عذاب لسعات الكهرباء التى تقتله بالتدريج . يجب أن نعطى لكل صاحب حق حقه : لولا الحروب الصليبية لما كنت أجلس هنا الآن تحت أضواء الكهرباء أحتسى الويسكى القوى ممزوجا بمكعبات ثلج صنعتها ثلاجة كهربية وبجوارى جهاز تكييف يحمينى من الحر القائظ أقرأ بلا رقابة أطنانا من الكتب على جهاز حاسوب شديد التقدم والاستعقاد عبر شبكة تربطنى بكل العالم ، ولما كنت أذهب لرمسيس لأمارس يوميا حرية السوق مع البورصة وحرية التعبير مع أصدقائى ، وطبعا لما كان هناك أحد فى الصعيد -شرطة أو مواطنين- ليتصدى لجحافل الإسلام . الأرجح أن لم يكن ليكون لى وجود أصلا ، لأن كل سلالة أجدادى كانت قد أبيدت منذ قرون . تخيل قدر ظلام العالم لو لم تكن هناك حروب صليبية ؛ هذا هو السؤال الذى لم يسأله أحد !

أيضا فى الضفة الأخرى كانت الحروب الصليبية هى الزلزال الفكرى الهائل الذى أرهص لبزوغ عصر النهضة ، عصر استنهاض الغرب لنفسه من جديد ، عصر تذكره لمجد روما العظيم ، ولفلسفة أثينا الأعظم ، ولدوره القدرى فى قيادة العام . أوه ، بل استنهاضه من سبات المسيحية نفسه ، أولا بالتمرد على العقيدة الكاثوليكية بأخرى أقل لاهوتية وأكثر إنسانية (البروتستانتية) ، ثم بعد ذلك التمعن فى سقم فكرة العقيدة الدينية فى حد ذاتها ، الأمر الذى انتهى بترسخ العلمانية كأساس فكرى لكل العالم الغربى يرفض مبدا الدين نفسه . فعلا ! تخيل قدر ظلام العالم لو لم تكن هناك حروب صليبية !

لاحظ أيضا أن الحملات الصليبية الأخيرة كانت أول خروج للعالم الخارجى لهؤلاء القوم الغامضون من تلك الجزر الباردة النائية ، وأول إرهاصة تماما لأن ثمة قائد جديد للحضارة يجهز نفسه للإمساك بالمقود المفقود . أنا أصدق تماما كل هذا الكلام الجميل عن عرق الجزر البريطانية .

أصدق ؟ أبحاث چيينية ؟ أبحاث تاريخية ؟ أية أبحاث ؟ هذا الكلام مسروق منى أنا . يا لهم من فجرة دعرة هؤلاء الإنجليز اللصوص . حين كنت تلميذا بالإعدادى كاد مدرس التاريخ يطردنى من الفصل لأنى وقفت لأجادله لنصف ساعة أو أكثر ، فى كيف تأتى للإنجليز أن يقدموا الثورة الصناعية ومليون اختراع ، وكانوا قبلها أقل تقدما منا -نحن شعوب الشرق- فى الزراعة أو فى أى شىء أيا ما كان ؟ !

الإنجليز والسكتلنديون والأيرلنديون والويلزيون ، الإخوة الأعداء ، هم أقرب لبعض مما تخيلوا يوما . هم عرق واحد ، دم واحد . البريت ، البريتون ؟ لماذا لم يختاروا له اسما بعد ؟ هكذا تقول الچيينات . السيلت والرومان والأنجلى والساكسون والڤايكينج والنورمان ، ما هم إلا غزاة عابرون قليلو العدد ضحلو الأثر ، وكلهم جاء فى الـ ١٧ قرنا الأخيرة ، لا أكثر . البركة الچيينية البريطانية لم تتأثر بأيهم إلا بقدر ثانوى للغاية . يا للهول ! متى ظهرت بحوث كهذه ؟ كيف حدث أن لم أقراها ؟ ربما فى ٢٠٠٧ ، حين كنت مشغولا جدا بذلك الفيلم المشئوم ، أو مريضا أعزل نفسى عن الدنيا ، وشهيتى قليلة للقراءة . ربما لو كنت قرأتها آنذاك لكانت قد شفتنى فى ساعتها ، أو لربما أيضا ما فقدت أمى !

لعلى كنت متهورا بعض الشىء وأنا أعاند المدرس . هؤلاء الإنجليز ما كانوا على أية حال ليفعلوا ما فعلته روما ، حتى لو ثبت أنهم لم يكونوا أقل منها تقدما فى الزراعة أو الرى ، أو فى الحدادة أو بناء السفن ، أو فى خربشة تضاريس الكوكب لأول مرة فى التاريخ (فيما سمى بشق الطرق ، أو بمصطلحات اليوم كان الطريق الأپيى أو Via Appia أو Appian Road مثلا أول سوپر هايواى فى التاريخ ، وصل روما بأبعد نقطة إيطالية جنوبا على البحر . وهذا الطريق الصخرى بعرض ستة أمتار كاملة ، البديع المزين بالتماثيل على الجانبين ، جعل ، هو والثمانين ألف كيلومترا من طرق الإمپراطورية الأخرى زائد طبعا طرق الملاحة البحرية ، جعل العالم قرية جلوبية لأول مرة . لا طريق واحد خارج عن الشبكة ؛ كل الطرق تؤدى إلى روما ! هأ ! وإن كان للأمر مثالبه فقد سهل هجرة العبيد المسيحيين للمركز واغتصابه من أصحابه (تماما كما تسهل الإنترنيت والساتيلايت استيلاء العبيد المسلمين على العالم الآن) . الحروب القديمة كما خاضتها روما كانت تعول كثيرا على الحماسة وعلى الشحن الانفعالى ، أو ككل على التيمايوس بمصطلح أفلاطون ، لا على رتابة وعقلانية الآلات البشرية . ومن ثم كان على البرود الإنجليزى أن ينتظر لبعض الوقت حتى تأتيه فرصة إثبات أنه الأفضل . عندما تصبح الصناعة والاختراع والشغل النمطى ، هى العوامل الحاسمة للسيادة والتقدم وتدشين الثورة التقنية التالية وبناء خليفة لروما لا تغرب عنها الشمس . نعم ، احتراق الأرامادا كان لحظة رمزية أكثر منها نصرا حربيا ؛ لحظة لم يخطط لها الإنجليز ولم يضعوا فيها احتمالا يذكر للنصر ؛ لحظة تخبرهم بأن قدرهم التاريخى شىء أكبر بكثير من مجرد الدفاع القوقعى عن جزرهم ؛ لحظة تذكرهم بواجبهم التاريخى الذى تناسوه أو ربما لم يخطر ببالهم أصلا ؛ لحظة تقول لهم ها قد حان الوقت يا أرقى سلالة على وجه الكوكب لتولى قيادة الكوكب ؛ الوقت قد حان للأخذ بيد الكوكب للثورة التقنية التالية ؛ الثورة الأعظم بما لا يقاس !

... أوه ! نفس الشىء يمكن أن يقال عن الأنوثة والذكورة : فى البدء كانت المجتمعات أنوثية واسألوا عشتار وشيڤا وكل من سبقنهما ، وعندما أصبحت العضلات والسيوف هى الأهم أصبحت ذكورية واسألوا ماريا القبطية وزميلاتها ، وعندما باتت الأولوية للعلم والإبداع والشغل الذهنى والتقنيات الدقيقة ومحتوى الإنسان وقوته الداخلية ها هى الذكورية القبيحة تنقرض غير مأسوف عليها ، وعادت القيادة للنساء ، واسألوا هالة ومنى ، أو أيضا سوسن ، ولا أقول ثاتشر !

... هذا الويسكى رائع رائع رائع ؛ لطالما شربته ، لكن لم أحس بروعته إلا اليوم !

... إنه منتج بريتى حقا !

... فى صحتك يا جدتى !



الخلاصة : كل الأديان كذبة إلا الإسلام !

– نتيجة أبحاثى ؟ الخلاصة : كل الأديان كذبة إلا الإسلام ! إنه سلاح دمار كتلى ؛ كل جرائم كل قوانين العقوبات مجتمعة !



الخلاصة أيضا : إن الطريقة التى أفلح بها الدين فى توحيد العرب غير قابلة إطلاقا للتكرر ،

وبات الإسلام الآن البوابة رقم واحد للفرقة والتناحر !

– ما علينا ، سيبك من موضوع التوحيد والعقائد واختلاف الأديان ، لأنها متاهة لا تنتهى ، وضيعنا وقت كتير جدا فيها . الخلاصة أيضا : إن الطريقة التى أفلح بها الدين فى توحيد العرب غير قابلة إطلاقا للتكرر ، وبات الإسلام الآن البوابة رقم واحد للفرقة والتناحر ! هى أصلا لم تنجح إلا لسنوات قليلة ، بعدها اندلعت الحروب بينهم أكبر وأبشع من كل ما عرفه تاريخهم . اليوم الدين آخر شىء يمكن أن يوحد اثنين من البشر ؛ توسع فيض المعلومات المنهمر على الناس ، ولم يعد ممكنا تحاشى إعمال العقل أو مقارنة الأديان أو تجاهل ما تقوله العلمانية ، فأصبح التسليم والاتباع مستحيلا . كل ده إحنا عارفينه ، لكن يكفى يا سيدنا أن الدين يهذب الأخلاق ، وموش عاوزين أكتر من كده .

– (منفجرا وعائدا من شروده للحماسة من جديد :) أخلاق ؟ أية أخلاق يا حاج ؟



أية أخلاق يا حاج ؟

هل كانت أخلاقنا نحن المصريين سيئة وانتظرنا البارون عمرو بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) ،

علشان يعلمنا إتيكيت السلوك ؟ ... هل هذا الدين البدائى العبيط الهمجى هو ' من قيمة ' المصريين ؟

ألا يشبه هذا بيع الماء فى حارة السقايين ؟ ألا تقولون إننا مخترعى الأخلاق وفجر الضمير ؟

هل كانت أخلاق مُحَمَّد أفضل من أخلاق أرسطو على واقعيتها وعمليتها ،

ناهيك عن أخلاق يسوع الملقب بالمسيح بخياليتها ومثاليتها ؟

أولئك البدو الأجلاف الهجامة قطاع الطرق آخر قوم على وجه الأرض يتخيل منهم أن يصنعوا دينا يمكن أن تتعلم منه البشرية شيئا ،

بل ليس من المسموح لهم أصلا الدخول فى أى دين أو نسق أخلاقى آخر عرفه بنو الإنسان .

إن أى شعب فى العالم يعتبر ملائكة أطهار إذا ما قورن بأخلاق هؤلاء الصحابة-العصابة السفاحين السلابين حضيض الكوكب !

– ما علينا ، سيبك من موضوع التوحيد والعقائد واختلاف الأديان ، لأنها متاهة لا تنتهى ، وضيعنا وقت كتير جدا فيها . خلاصة رأيى النهارده أن الطريقة التى أفلح بها الإسلام فى توحيد العرب لم تعد صالحة اليوم ؛ الناس -حتى داخل جزيرة البعر- توسعت مداركها وقدرتها على إعمال العقل ، فأصبح الدين بابا للفرقة لا للتوحيد . يكفى يا سيدنا أن الدين يهذب الأخلاق ، وموش عاوزين أكتر من كده .

– (منفجرا وعائدا لحماسته من جديد :) أية أخلاق يا حاج ؟ هل كانت أخلاقنا نحن المصريين سيئة وانتظرنا البارون عمرو بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) ، علشان يعلمنا إتيكيت السلوك ؟ ... هل هذا الدين البدائى العبيط ال

همجى هو ' من قيمة ' المصريين ؟ ألا يشبه هذا بيع الماء فى حارة السقايين ؟ ألا تقولون إننا مخترعى الأخلاق وفجر الضمير ؟ هل كانت أخلاق مُحَمَّد أفضل من أخلاق أرسطو على واقعيتها وعمليتها ، ناهيك عن أخلاق يسوع الملقب بالمسيح بخياليتها ومثاليتها ؟ أولئك البدو الأجلاف الهجامة قطاع الطرق آخر قوم على وجه الأرض يتخيل منهم أن يصنعوا دينا يمكن أن تتعلم منه البشرية شيئا ، بل ليس من المسموح لهم أصلا الدخول فى أى دين أو نسق أخلاقى آخر عرفه بنو الإنسان . إن أى شعب فى العالم يعتبر ملائكة أطهار إذا ما قورن بأخلاق هؤلاء الصحابة-العصابة السفاحين السلابين حضيض الكوكب ! أساسا الدين -ناهيك عن الإسلام- لا يهذب الأخلاق . لم يحدث يوما أن هذب الأخلاق ، أو حتى سعى إلى ذلك . الدين -بالذات الإسلام- فقط يعطى رخصا إلهية لفساد الذمم . فقط يصنف الناس لصنفين ، من لديه رخصة ومن ليست لديه رخصة . أية أخلاق يا حاج ؟ ونس يقول لك إن أخلاق الإسلام أسوأ ألف مرة من أخلاق ما يسمى بالجاهلية . أية أخلاق يا حاج ؟ من ناحيتى أدركت مؤخرا لأول مرة ما هو المقصود حقا بعبارة يلوكها العلمانيون المزيفون (أى ١- من لا يجاهرون كلية بعلمانيتهم و٢- يساريون) طوال الوقت ، تقول إن جوهر الإسلام هو العدل . عادة كنت ما أتمثلهم أناسا يريدون تحريرنا من الدين السلفى ، دون أن يجاهروا بهذا ، إلى أن فهمت أنهم يقصدون شيئا مختلفا تماما . لم أدقق يوما فى لماذا اختاروا صفة العدل بالذات ، إلا حين سمعت أحد زعماء الإخوان المسلمين يقول ذات العبارة مثلهم ! بغض النظر عن التضليل اللغوى ما بين كلمتى العدل والمساواة (التى هى الظلم عينه) ، فإن حقيقة ما يقصدونه هو بالضبط عين الاستحلال والاسترقاق الذى استنته الصحابة-العصابة ، ذلك أن عيونهم مثبتة على ثروات أغنيائنا وأغنياء

الغرب ، ويريدون أن يبرروا سلفا نهبهم لها باسم الدين أو المساواة أو أى شيء . أية أخلاق يا حاج ؟ لقد فجعت حين قالت لى رمانة إن الشغالات مثلها تكثرن من الصلاة لا ليقلعن عن السرقة ، إنما كى يمكنهن السرقة أكثر ، وهى قاعدة راسخة لدى الجميع وليس الشغالات فقط . أية أخلاق يا حاج ؟ هى يمكن أن تحكى لك كيف اشترت ثلاجتها ، وكيف غرر بها البقال الملتحى المجاور لمنزلها ، حين استشارته فى إعلان عن شراء أجهزة منزلية بالتقسيط . نهرها أنه ربا وحرام ، وأرسلها لمحل إسلامى ، والنتيجة أن دفعت ٢٥ ٪ أكثر ! هذا طبعا ناهيك عن التقية ورخص القتل والأجندات الخفية والمعاهدات التى توقع بهدف خرقها لاحقا ، وكل ما إلى ذلك . مع ازدرائى الشديد لأخلاق الأديان وأنها أخلاق بدائية ومتدنية للغاية لا تقارن مع أخلاقيات العالم المتقدم قديمه ناهيك عن حديثه ، فيا ليت الأديان أتتنا حتى بما أسمته أخلاقا وكفى ، بل أتتنا بمليون مصيبة أخرى بجانبها ، اعتبرها كلها أكثر إلزاما وأهمية وأولوية من الأخلاق .

– واضح أنك بقيت بتحكى كتير مع رمانة اليومين دول ! (ثم ممصمصا شفتيه :) يوضع سره فى أضعف خلقه !

وهنا تقدم سوسن واحدة من مشاركاتها النادرة : ‘ هناك شيء آخر ، الكبت وحده يكفى منبعا لكل الشرور ؛ لا هم للمشاخ إلا خلق رهاب رهيب من المرأة ، فوبيا لا يمكن أن تترجم إلا لسعار جنسى يجتاح الشوارع ، وهى مجرد القمة الظاهرة من جبل الثلج مقارنة بكم الانحرافات الجنسية التحتية الهائل من المثلية القسرية حتى ضبط الفتاة لأمها وخالها سويا فى الفراش . لو لم يوجد ذلك الإله بتلك المواصفات لما كان الأطفال -أولادا وبناتا- يغتصبون فى الكنائس الكاثوليكية والمعاهد الأزهرية ، والحكايات على قفا من يشيل ويهون بجانبها ما يحدث من اغتصاب وتحرش جنسى فى شوارع (ناهيك عن أزقة) بلاد القهر الدينى كبلادنا ، بل ما حاجة أى أحد أصلا للتحرش أو الاغتصاب أو اللجوء لفراش الأخت أو الابنة أو الصديق ، لو كانت هناك حرية فى العرى والجنس ، ولم يكن هناك حرمان ونفاق أخلاقى ؟ ! ’ .

– ما أردت قوله يا حاج إن النسق القيمى للدين ليس فقط نسقا متخلفا للغاية ، بل أيضا شرير للغاية . دعك جانبا كلام سوسن وونس ورمانة وكلامى ؛ أنت نفسك تقول إن لا تكذب ليست فى الوصايا العشر . كيف آمن أى متدين إذا كان هذا هو تفكيره ؟ دع جانبا ما يقوله ونس عن التقية ، لكن ما أدرانى أنك أنت نفسك لا تمارس معى الآن ما يسمونه التقية أو فقه الأولويات ؟ لولا معرفتى الوثيقة بك لعشت للأبد متوجسا منك كما أتوجس من كل مؤمن . بلغة ونس الحديبية أضاعت المصداقية عن العرب وعن الإسلام مرة واحدة وللأبد ، ولن يستعيدوها مهما فعلوا ، ربما بما فى ذلك إعلانهم ترك دين الإسلام ، ذلك لأن أى تصرف حسن لهم لن يصدقه أحد وسيفسر على أنه تقية . أريد أن تقول لى خيرا واحدا فى الأخلاق الدينية ؟ ! ثم بما أن كل التركيز على الشكليات ، الصلوات والطقوس والملابس وغشاء البكارة وموش فاهم إيه ، يبقى إذن ما يعلمونا إياه هو زى ما بتقول سوسن شيء واحد : النفاق سيد الأخلاق : بلاش تعملوا كده قدام الناس ، إيه العيب فى بير السلم ! الفتنة نائمة ، لا مشكلة ، فقط إيقاظها هو المشكلة . وطبعا فوق كل ده وده فكرتك أن كل حاجة عيب والفقر موش عيب ، والمصادرة الكاملة لحرية الفرد وجعله يركع طول حياته لإله خفى لا يرى أبدا ، أو يناهش وشه ويقطع فيه خوفا من شيطان يحوم فوقه بالغواية . كل هذا لأى هدف ؟ مجرد أن يحكم الآباء سيطرتهم على الزوجات والأبناء ، ويحكم رجال الدين والسياسيين قبضتهم على الجميع .

– أنا ها أفهمك ! إللى بتسميه النسق القيمى للدين لا يهمه الكذب فى شيء . ليس مهما أن تسرق ، إنما أن لا يكتشفك أحد ، ليس المهم أن تزنى ، إنما أن لا تجاهر بفعلتك . نحن أمة تعشق الكذب وفعل كل شيء فى الخفاء . الرسول نفسه كان يحث السارق والزانى على أن ينكر التهمة ‘ قل لا ! ’ ، فيبرئه (و‘ إذا بليتم فاستتروا ’ دعوة صريحة للكذب) . هل تعرف ما هى نهاية ابن العباس ‘ حبر الأمة وترجمان الكرهان ’ الذى ارتعبت منه ؟ سرق ملايين بيت مال البصرة وفصله على بن أبى طالب ، فعاد للطائف لكن ليس قبل أن يشترى جاريتين ثمينتين سمينتين تؤنسانه تقاعده الإجبارى (ثم يأتى الإخوان المسلمين ويحدثونك عن الفساد ؟ !) . ألم تسأل نفسك لماذا يقرن على دوما بإمام المتقين ، ولماذا لا يذكر البعض إلا وقرن بعبارة ‘ وكان من التقاة ’ ؟ لأن هؤلاء كانوا الاستثناءات الشاذة شديدة الندرة ، دع جانبا أن لفظة ‘ إمام المتقين ’ أو ‘ من التقاة ’ فيها تفصيل حسب المصطلح الشهير لدى الفقهاء ، ومن ثم نتفتح كل المآخذ اللا نهائية على هؤلاء التقاة تربيع ، كازدراء على للنساء وإجازته قتلهم لو تمردوا على وضعية الزوجة كجارية ، وأقله زواجه فى ذات أسبوع موت فاطمة الشيء الذى حرمه مُحَمَّد عليه ، وزواجه واسترقاقه لعشرات وزواج ابنه الأكبر وحده من مئات . إذن ، اتقاء الله ممكن وواجب إلا فيما يمس القبيلة أو تماسكها أو قوتها ، هذا الأخير قانون چيينى أقوى من أى دين وأى إله . ما لا تسامح فيه قط ، هو قتل ابن للقبيلة ، وتحديدا لو أعلى منك رتبة . بن الخطاب قتل مسلما ولم يقم عليه مُحَمَّد الحد .

ويتداخل ونس ضاحكا : ' هو كان يقدر ؟ كان زمانه هو نفسه راح فيها ! إنما الشيء إللى محيرنى موضوع فاطمة . إزاى تموت بعد مُحَمَّد على طول ، عدوى الزهرى لا تقتل بسرعة هكذا ، هل على هو الذى تخلص منها ؟ ' .



المشكلة أن المشاخ يريدون عمولة عن كل ممارسة جنسية تجرى فى المجتمع !

– طبعا الجنس لا يهم ذلك النسق القيمى فى شيء . فكرتكم يا علمانيين غلط خالص أن الدين قيود ؛ الفقهاء تخففوا فى كل شيء . هكذا أباحوا الدعارة وأسموها زواج المتعة (ده إللى كان حرمه عمر بن الخطاب والحطابة والتخين إللى جنبى ده وصفه بالكافر علشان كده ، والشيعة سخروا من هذا المنع وقالوا من يكون هذا المدعو عمرا ؟ آه ، إذن منعه كحاكم ، وإذن ها نحن نعيده كحكام ، أو قالوا إشمعنى المساكن تمليك وإيجار والنسوان لأ ؟ !) . أيضا أباحوا تبادل الزوجات أباحوه وأسموه إعارة الفروج ، حتى البيدوفيليا أباحوها وأسموها مفاخذة الأطفال ، ولو بنية الزواج بيسموها الأسوة الحسنة كما حدث مع عائشة ما بين سن ٦ و٩ سنوات ، وأنا أقصد أن هذه كلها فتاوى وهابية وليست شيعية فقط ، وسندها الشرعى قرآنى وهو الحديث عن فترة عدة لمن لم يبلغن المحيض . حتى واقعة المفاخذة التى لا يوجد نص قديم صريح بها ، الانتشار الشديد للنقل الشفاهى لها عبر القرون والآن ، وإقرار المشاخ أنها شيء غير مستبعد طالما عقد ﷺ عليها بل وربما استنتاج بديهى ، ومن ثم فرحة كثير من جهات الإفتاء بمنح هذه الرخصة للرجال ، جعل منها الآن دينا . الإباحة عندهم سككها أسهل من التحريم طبقا لقاعدة أن تحريم ما أحل الله أو رسوله خروج على الملة ؛ تحريم الرق والجوارى كفر ، تحريم ختان الإناث كفر ، وهكذا . مجرد أن شاهد الرسول شيئا ولم يعلق ، فقد دخل فى دائرة الإباحة للأبد .

– روميو قارن ذات مرة بين كلاب الشوارع وعرب الشوارع عندنا ، والشيوخ حين تناقشهم فى تلك الإباحة أو الإباحية الإسلامية تكون حجتهم الوحيدة أن افترض أن هناك رجلا ذا شهوة عارمة فهل تريدون منه أن يزنى ؟ أعجبتك امرأة ؟ الحل بسيط : أضف على فاتورة الزنا خمسمائة ريال فقط واحصل على وثيقة زواج رسمية ؛ أيضا هناك هدية مجانية من محلاتنا ، ستعفى من عقوبة الرجم ، كذلك هدية ثالثة : لن تذهب للنار . فهل معنى هذا أن الإسلام دين مصمم للكلاب ومرسل إليهم ؟ أنا شخصيا أعتقد أن الكلاب أكثر عفة وتعففا بكثير من العرب ، لا أعتقد أن لعابهم يسيل على كل كلبة يرونها ، ولا أعتقد أنهم مستعدون لممارسة الجنس ١٠ مرات فى اليوم . عندما تسألهم عن الذبح الجموعى أو تجارة العبيد أو امتلاك اليمين أو زواج الصغيرات ، يكون الرد إن هذا كان العرف السائد وقتها ، فتضطر للسؤال إذن لماذا جاء الدين أصلا ؟ ، ليرتقى بالإنسان أم ليقنن البداءة والإجرام ويضفى القداسة عليها لمجرد أنها كانت السائدة ؟ ما يهمنى هو ما يلى : فى مقابل كل ذلك التسيب انظر ماذا يحرمون : تصور أن ممارسة الإنسان للجنس مع نفسه (الشيء الوحيد الذى لا يحتمل ضررا ولا ضرارا على وجه الإطلاق) ، يحرمونها ؟ ! أنا أفهم أن تدعوك المسيحية لضبط شهواتك أو تجبرك على حب عدوك ، أو أن تدعوك البوذية للتأمل والسمو الروحى ، لكن ما الحكمة أصلا من وجود دين يبيح كل شيء ؟ المفروض هذا دين ، بالتالى أنا أفهم أن يريد الشيطان بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، لكن العكس لا أفهمه طالما . غير المسلمين يقولون هذا دين من الشيطان -جوهره يقول هذا بالفعل ، وكل ما هنالك أنه مغلف برطانة شكلية عن مكارم الأخلاق وبضع دعوات وكلمات سباب مزيفة ضد الشيطان ، أما فى عرفى أنا فعدم وجوده أفضل بكل المقاييس .

– وما الذى يغضب علمانى مؤمن بالحرية المطلقة مثلك من هذا ؟

– يغضبنى الكذب . لو مارست الجنس مع امرأة خارج الزواج خفية ، من رابع المستحيلات إثبات هذا عليك ، حالة واحدة فقط لا غير ينزل بك فيها البطش الهائل من جلد ورجم ، هى لو اعترفت به أو أعلنته للناس . فرج فودة قتل لأنه قال إنه تبعا لتعاليم مُحَمَّد العلاقات السرية مباحة إلى ما شاء أصحابها ولو طول العمر ' أيما رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال ، فإن أحبا أن يتزايدا أو يتتاركا تتاركا ! ' . لماذا يقتل لمجرد ترديد كلام مُحَمَّد عن ثلاث الليال أو عن رضاع الكبير ؟ الإجابة أنها أشياء يجب أن تمارس فى الخفاء . باختصار يا حاج ، هذه شريعة تكافىء الكذب وتعاقب الصدق ، والهدف الحقيقى وراء دين كهذا لا يمكن إلا أن يكون مجرد خطة صريحة بسيطة ومباشرة للسيطرة على الناس ونهب أموالهم ، ولا شيء أكثر . فقط يحتاجون لبعض الكلمات المنمقة فإن لم تجد فالسيف أمضى وأحد . انظر كمثال لطرقهم الملتوية قولهم إن الله كرم المرأة بأن أعطاها ٢٧ حسنة عن الصلاة بالضبط كما الرجل لكن دون حاجة للذهاب للمسجد ، طبعا ! هى بهيمة ، والبهيمة غير مكلفة (أو على الأقل إناث البهائم حتى لا نقع فى تناقض مع واقعة أن يعفور هو أول من نهق الشهادتين من المسلمين) . المهم عندهم أن تبقى المرأة جارية

مجانية حبيسة المنزل بأية حجة ممكنة حتى ينقضى عمرها ، ثم بعد ذلك حين تذهب لتحصيل تلك الحسنات تجد الحور العين فى انتظارها وبنظرة فى وجهها المكدود وجسدها البدين يخبرنها أن هذا التشيك بدون رصيد ، أو بالأحرى يعلم أولئك المشاخخ سلفا أنها لن تجد بنكا ولا صاحب بنك من الأصل . أنا متأكد أننا لو قلنا لهم سنعطيكم رسوما مضاعفة على زواج المثليين والمثليات لأحلوه على الفور !

– لن يسمحوا بهذا أبدا ، لأن المثلية رمز للرخاوة والضعف . يستمتعون بهم نعم ، يخصون أعضاءهم نعم ، يقبلونهم كعبيد نعم ، لكن أن يعترفوا بهم أعضاء فى المجتمع مستحيل !

– المهم ، أقصد أن ذلك التسيب الجنسى الذى تصفه (وموش قصدى حاجة تخص شركات السمسرة يا إدوارد !) ، هو عينه ما أقوله دوما إن المشكلة أن المشاخخ يريدون عمولة عن كل ممارسة جنسية تجرى فى المجتمع !

– غلط ! هو عينه تعريف كلمة قبيلة ! أنت تعامل الدين طوال الوقت كبيزنس كأى بيزنس كنت تناقشه فى جريدتك . الدين أعمق بكثير من أن يكون مجرد بيزنس يسعى للحم ويكره العدس ، أو يصمم على عقود زواج مدفوعة الأجر . أولا موش بس الضرورات (مشيرا لونس : أو ' الدولارات ') تبيح المحظورات ، إنما كل شىء مغرى للرجال (هؤلاء وقود الحرب) ، فإباحة الدين له أسهل ما يكون ، كالغنائم والسبايا وملكات اليمين والغلمان ... إلخ ، بالمثل كل شىء يقمع المرأة ويجعلها فى مقام الجارية المطيعة يتم الدفاع عنه بشراسة ، وهكذا . اسأل إدوارد أو أى حد ، وسيقول لك أن المسيحيين يصعب عليهم الآن العثور على عاهرات فى هذا البلد ، لكنه قد لا يعرف السبب : أن الدعارة أصبحت خاضعة للشريعة . حتى العاهرات أصبحن يقدمن خدمة المأذون بأنفسهن هذه الأيام ، مجانا ودون الحاجة للمشاخخ . تقول لك فى صمت زوجتك نفسى ، ثم عندما تنصرف تقول أنت طالق . وطبعا المسيحيين لقوا نفسهم بره اللعبة فجأة . ألم تسأل نفسك يوما لماذا أباح الإسلام الزنا عمليا ، بأن جعل إثباته باجتماع أربعة شهود أتقياء يفشلون فى تمرير خيط بين زانيين لا يعيرانهم انتباها ويواصلان الانهماك فى ممارسة الفعل بل ويناضلان بشدة ضد مرور ذلك الخيط ، هذا فى مقابل التدقيق الهائل فى الشكليات من حجاب ونقاب ووجه وكفين وأظافر قدمين وديل الجلابية ... إلخ ؟

هنا يقاطعه ونس : ' موش عارف ليه ؟ علشان عائشة تطلع براءة ! هأ ! هأ ! ربنا سهلها على عبيده ، موش عارف أنتم زعلانين ليه ؟ ! ' . بس فيه سؤال محيرنى فى موضوع رضاع الكبير : لو واحدة رضعت كل البلد ممكن تمشى عريانة فى الشارع ؟ ثم يغنى : ' دحما دحما يا مدلل ! ' ، ثم يرفع الإيقاع : ' دحما يا دنيا دحما ! ' .



لا يوجد دين فعل هذا ، ولا حتى فعلته أبشع أنواع الشمولية ،
ذلك أن الإسلام ليس دينا ، وليس حتى شمولية ،
إنما هو تجميد للأركيولوچيا الثقافية للتاريخ الإنسانى نفسه عند نقطة معينة ؛
فوبيا چيينية مرضية لا مثيل لها فى التاريخ الطبيعى منذ ظهور البكتيريا !

– أنا ها أفهمكم إيه هو الإسلام : الإسلام ليس اقتصادا فاسدا أو غشا تجاريا كما ينحصر أفقك الضيق ، وليس مؤامرة سياسية كما يصمم ونس الذى يرى فى كل شىء مؤامرة ؛ هو شىء أبعد ، شىء فريد من نحوه فى كل التاريخ : هو استجلاب ثقافة ما بأكملها ، تحنيطها ونقلها لكل زمان ومكان . هو اجتزاء لحظة معينة من التاريخ الثقافى لمكان معين وتحويلها لدين مقدس مؤبد ، بدءا من جعل اللغة لغة الله ولغة الجنة حتى جعل الصنم قد بناه آدم نفسه وكلام النبى قد كتب بإصبع الرب نفسه قبل أن يكون الزمان ، مرورا بالنظام السياسى والاقتصاد والأكل والملابس وقانون العقوبات والطب ومعاملة النساء وتربية الأطفال وكيفية الذهاب للخلاء وكل شىء ، وتجميدها جميعا حتى آخر الزمان باعتبارها أسلوب الحياة الذى اختاره لنا الإله لكل زمان ومكان . تخيل فيلما طويلا يروى تاريخ البشرية عبر الأزمنة والأمكنة ، ثم إذا بك تشير فجأة بإصبعك وتقول ' قف هنا ، أريد كل الناس وكل التاريخ على هذه الصورة للأبد ، أنا الإله وهذه هى تعليماتى ' . رغم أن الإسلام قام على اختراع للترزية الكبار اسمه الماسح والممسوح كى يزيلوا به تناقضاته ، وبدونه كان من المستحيل أن يقوم ، إلا أنهم أنفسهم وقعوا فى أكبر التناقضات إضحاكا فى كل التاريخ : إذا كان الله قد غير رأيه عشر مرات فى عشر سنوات فى كثير من القضايا ، فبأى منطق لن يغيرها ثانية أبدا فى المليون سنة التالية ؟ ! أى شىء أيا ما كانت حداثته (كالهندسة الچيينية أو الهندسة النانووية مثلا) ، تذهب به لشيخ سلفى جاد أو غير جاد ، مخلص أو غير

مخلص ، ستجده يقلب رأسه بسرعة بحثا عن آية أو حديث ، ولن يرد عليك إلا بقال الله وقال الرسول . هو أخرج من عقله تماما إحتمال أن يحدث شيء فى الدنيا ، لم يحدث فى أيام هؤلاء الناس ، ولم يرد فيه أثر تركوه لنا كرهانا أو سنة . إذا كان من الصعب جدا عليه قبول تطور التقنيات ، فبالأحرى من المستحيل عليه أن يتخيل أن الأخلاق نفسها يمكن أن تتطور لما هو أرقى من أخلاق عصره أو مواصفات إلهه . بالنسبة لى إحالة داروين للتقاعد شيء غير مقبول غير معقول وغير واقعى . لا يوجد دين فعل هذا ، ولا حتى فعلته أبشع أنواع الشمولية ، ذلك أن الإسلام ليس دينا ، وليس حتى شمولية ، إنما هو تجميد للأركيولوچيا الثقافية للتاريخ الإنسانى نفسه عند نقطة معينة ؛ فوبيا چيينية مرضية لا مثيل لها فى التاريخ الطبيعى منذ ظهور البكتيريا ! مثلا عمر بن الخطاب والحطابة كان واضحا كل الوضوح بخصوص مكتبة الأسكندرية : ' إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها ' . نفس الشى بخصوص مكتبات فارس : ' أن احرقوها أو اطرحوها فى الماء ، فإن يكن ما فيها هدى ، فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه ، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى ' . ابن الحطاب والحطابة اسم على مسمى حقا . علم العالم ليس أفيد من كم صرة دنانير حصل عليها بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) ، مقابل تسخين مياه حمامات الأسكندرية لستة أشهر . احسبها أنت كم مليون كتاب تحتاجها لإيقاد ٤٠٠٠ حماما لمدة ستة أشهر ، بعدها قس على الأمر كل شيء . تخيل يا وحيد أنك أصبحت حاكما سلفيا ، وتريد العودة حرفيا لأثينا القديمة ؛ النساء ملابس شفافة ، ولا كلام إلا فى الفلسفة ، ولا أحزاب إلا حزبى أرسطو وأفلاطون ، وكل من يأتى ببدع أو مستحدثات أو مذاهب أو تقنيات أو فلسفات من قرون أو أماكن أخرى تقتله ، موش أحسن مليون مرة من فرض حياة وشخصيات وسلوكيات شبه جزيرة البعر من القرن السابع علينا ؟ !

– كلام جديد أوى يا : حـ – ـا – ج ؟ ! اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت حفريتكم الثقافية للبشرية دينا ! إنك تجعل المسألة تبدو لى بسيطة جدا : على البشرية التى تنكب حتى نهاية الزمان على شيء واحد : دراسة ما قاله وما فعله أناس بأسماء من شاكلة قتادة وقحافة وعلقمة ، وحذيفة والمغيرة والوقاص ، وطلحة والزبير وعفان ، يقشعر البدن لمجرد التفكير فى جذرها اللغوى ، وتأسى كل ما يخص شئون الحياة والعالم والعلوم والمستقبل من سيرة هذه الحفنة المعينة الصغيرة من البرابرة ؛ وإجابتى : أنا لو خيرت بين تأليه أسلوب الحياة الغربى فى القرن الحادى والعشرين للأبد ، أو تأليه أسلوب حياة أثينا للأبد ، أو حتى تأليه أسلوب حياة الديناصورات ، فقطعا لن أختار العيش بالتقويم الهجرى . فقط لدى تحفظ واحد : أليس هذا كلاما مغرقا فى الثقافة بعض الشيء ، وماديا وبيولوچيا يجب القول إن الإسلام ستراتيچية للبقاء للعرق العربى ، لسلالة لا ترى لنفسها عيشا ما لم تعط نفسها الحق فى الاستيلاء على كل شيء وكل أحد ، والاسترقاق التام لكل البشرية !

– بالعكس ، لا شيء جديد فى كلامى ، وأيضا لا شيء بسيط ! فى الاقتصاد أو السياسة قد تكون الأمور بسيطة وواضحة ، لكن إذا كنا سنبدأ الحديث فى الثقافة فليس لدى من قول سوى أهلا إلى عش الدبابير . لقد دخلت الآن لعرين الچيين ، القلعة التى لا يسهل اختراقها . يا صديقى ، فتش عن القبيلة . القبيلة هى ميليشيا الچيين ، وخط استحكاماته الكبير فى معركة التحيؤ . لا تأخذ بظاهر الأمور ؛ فى ذلك النسق القيمى كما تسميه ، المحرمات أقل بكثير مما تتصور ، تقريبا كل شيء مباح . ما يهم هو شيء آخر تماما ؛ شيء واحد فقط ظل وسيظل للأبد خطا أحمر تراق دونه كل الدماء ، هو أن تتزوج الفتاة بدون موافقة الولى . إنها ذات الفكرة القديمة جدا ، القبلية جدا ، ذعر أن تضعف القبيلة وتتفكك . النسق القيمى يهمه شيء واحد : القبيلة . أنا موش فاهم ليه استغرابك من أن الكرهان تم ترتيبه بالشبر ؟ لقد رتبوا السور من الأهم فالمهم . طبقا للمنظور القبلى العربى ، اليهود أهم موضوع إطلاقا ، يليه النصارى ، فالنسوان ، فالقردة والخنازير مرة أخرى ، فين الغلط ؟ !

ويتداخل ونس : ' فيه غلط : أول القصيدة كفر ! بيقول ' ذلك الكتاب لا ريب فيه ' موش ' هذا الكتاب ' . ثم أن المائدة موش ضد الخنازير ، بدليل أنها بتقول أحل لكم طعام الذين أوتوا الكتاب ! ' .

– حاجة واحدة هى ذعر كل المتدينين إللى أنت شايفهم فى بلادنا : فوبيا اختلاط النسب ، فوبيا ضعف السلالة . فترة العدة ، من أهم المقدسات قبل الإسلام وبعد الإسلام ، لأن شجرة العائلة يجب أن تكون معروفة بدقة تامة .

– وألا يؤدى ما تسميه إعارة الفروج لاختلاط الأعراق ؟



أوه ! هنا ' فى الأمر تفصيل ' بلغة الفقة الإسلامى : ظاهريا يبدو لكم العربى شديد الغيرة على نسائه ، وهذا غير صحيح بالمرة .
هو من الممكن أن يطلقها فى لحظة أو يهديها للضيف أو يتاجر بها أو يبادلها مع أى أحد ،
أو يدعها ' لا تمنع يد لامس ' كما أباح رسول الإسلام ، ولا تنس أنهم جميعا من نسل أبى القوادين إبراهيم عليه السلام .
... تحديدا ، العربى غيور على شىء آخر تماما : سيطرته هو على نسائه !
هى متاع وبهيمة يفعل بها ما يشاء ولا يشعر نحوها بأى شىء ولا يهين نفسه حتى بتسميتها زوجة ،
وطبعا من حقه بداهة أن يكذب عليها أو يضربها ما شاء كما أمره دينه -أقصد چيبيناته التى اخترعت دينه ،
لكن بمجرد أن ترفع رأسها ، كأن تمارس إحدى نسائه الجنس مع آخر من غير رضاه ، أو أن تحب إحدى بناته أحدا من خارج القبيلة ،
هنا فقط يغار -يغار على نفسه- وتسيل الدماء بحورا !

– أنت موش فاهم الفكرة . المهم أن ينسب الطفل (لو كان هناك طفل -بالذات ذكرا ، حتى لو كان من زنا) لأبيه ، الطفل للفراش هذه هى الحكمة من شهور العدة ، ولا شىء آخر (إلا طبعا استذلال المرأة بإعادتها بالأمر لكن بعد تلقينها درسا فى الجوع) . إعارة الفروج تمارس لصالح أحد أبناء القبيلة ، وغالبا تمارس لو الزوجة من خارج القبيلة ، ' فلاحة ' كما يسمونها . لكن البعض يمكن أن يمارسها حتى لو زوجته ابنة للقبيلة ، أو من يسمون بالمحصنات ، لكن الإعارة هنا تكون عادة للفترات الطويلة كالسفر ، أيضا حتى ينسب الطفل (لو كان هناك طفل) لأبيه . لولا الأطفال لما كان شىء يهم . الفصل بين من هو ابن القبيلة ومن هو ليس ابنها ، هو الخط الأحمر الوحيد ، وهو الفلسفة الكامنة وراء كل شىء .

– من هذا الكلام ، يبدو لى أنك تكاد تصف المرأة البدوية كإناء قذر يبصق فيه كل من شاء .

– أوه ! هنا ' فى الأمر تفصيل ' بلغة الفقة الإسلامى : ظاهريا يبدو لكم العربى شديد الغيرة على نسائه ، وهذا غير صحيح بالمرة . هو من الممكن أن يطلقها فى لحظة أو يهديها للضيف أو يتاجر بها أو يبادلها مع أى أحد ، أو يدعها ' لا تمنع يد لامس ' كما أباح رسول الإسلام ، ولا تنس أنهم جميعا من نسل أبى القوادين إبراهيم عليه السلام . ... تحديدا ، العربى غيور على شىء آخر تماما : سيطرته هو على نسائه ! هى متاع وبهيمة يفعل بها ما يشاء ولا يشعر نحوها بأى شىء ولا يهين نفسه حتى بتسميتها زوجة ، وطبعا من حقه بداهة أن يكذب عليها أو يضربها ما شاء كما أمره دينه -أقصد چيبيناته التى اخترعت دينه ، لكن بمجرد أن ترفع رأسها ، كأن تمارس إحدى نسائه الجنس مع آخر من غير رضاه ، أو أن تحب إحدى بناته أحدا من خارج القبيلة ، هنا فقط يغار -يغار على نفسه- وتسيل الدماء بحورا ! تعريف بنت القبيلة هو من جاءت من بذرة أحد رجال القبيلة . وبالنسبة لهذه ، لا يمكن للغريب أن يقترب من أيهن لخطوة واحدة أقل من ٤٠ مترا ، ولمجرد السؤال عن مضارب القبيلة أو عن الماء ، وإلا كان يخاطر بغرامة مالية ضخمة اسمها دفع الحق ، أو ربما يخاطر بحياته نفسها ! الفكرة ليست إناء وبصقا ، الفكرة حتى ليست نظرتهم الذكورية أن النكح هو ركوب ووطء وغزو وفتح وإذلال وامتلاك ، الفكرة أعمق وباختصار أنهم لا يعتقدون أن للمرأة أى إسهام فى الخصائص الچيبينية للوليد . هى ماكينة إنجاب لا أكثر ولا أقل ، وهذه يجب أن تكون مسخرة لإثمار القبيلة . يقولون الأرض هى الأرض ، وما يصنع الفرق هو البذرة . خلقنا الإنسان من نطفة ، نظرية زراعية جدا للوهلة الأولى ، لكن لأنها من أناس يزدرون الزراعة ولا يفهمون شيئا فيها فهى غير صحيحة . يتخيلون أن البذرة هى كل شىء ، وكل النمو اللاحق يأتى من الله (أو ربما من الشيطان) ؛ لا إسهام لأملاح التربة ولا لمائها فى شىء منه (لا داعى للقول إنه بما أنك إنسان سطحى ، فكل ما لفت نظرك هو كسونا العظام لحما !) . لو جاء صاحب شركة Advanced Genes (أو أيا من كان أغنى رجل فى العالم حاليا) ، يطلب يد أفقر بدوى ، لن يعطيها له ، أو كما يقول العرب المتمصرون ' ارميها للتمساح ولا تديها للفلاح ! ' ، أى تمساح النيل وفلاح الأرض مصرى الجذور . العرض عند البدوى شىء رهيب الأهمية فعلا ، لكن يجب أن نحدد كيف يتمثله بالضبط . هو يعلو فوق كل شىء ، إلا مفهوم القبيلة نفسه . عائشة ليست من آل البيت ، ولا أية زوجة لمحمد ، هل تعرف لماذا ؟ لأن -والكلام لجمهور الصحابة- ' المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ' . وظيفة يعنى ! بتأخذ أجرة عليها وبعد الشغل تروح بيتها ، أو زى ما كنتم بتهزروا هنا : كل النساء عند العرب أو فى منظور الإسلام عاهرات . الزواج مؤسسة هشة جدا فى الثقافة العربية ، وتسميته بالنكاح أو عقد النكاح لم تأت من فراغ ، موش زى فكرة الأسرة النووية فى الغرب ، لدرجة تخلى الزوجة عن لقب أسرتها لتحمل لقب أسرة زوجها ، والموجودة بدرجة أو بأخرى فى أغلب الثقافات من قديم الزمان ، بدليل مثلا أن الإنجيل -وهو ليس

بعيدا عن ثقافات المنطقة- طرح فكرة الأسرة النووية حين قال تترك الزوجة بيت أهلها وتلتصق بزوجها ولا يطلقان أبدا . أهل بيت مُحَمَّد هم حسب تعريف ذات الصحابة ' أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده ' ، وهو تعريف يسرى على بيت أى أحد . إذن الأخ أو العم أهم من الزوجة مهما كانت صفتها ونسبها ، وهكذا ، ولو هو فى ظروف اضطرارية يحتاج فيها لفرج ، كالسفر مثلا ، فلا ضير بالمرة من إعارته إياه .

– الحقيقة موش فاهم . كل ما كنت أفهمه أنهم يدجنون المرأة فلا ترى الشارع إلا مرتين ، واحدة ذهابا لبيت الزوج والثانية للقبر ، وأنهم يسلبونها نصف الميراث ونصف الشهادة ، ويسلبونها كل شيء إن تمردت وطلبت ما يسمى بالخلع ، هذا بينما أنت تجعل الأمور تبدو معقدة جدا .



هم آلات عاقلة باردة ثوابتها العلم والعلمانية والعملية والعالمية ،

ونحن حيوانات غريزية انفعالية هاجسها الأهل والأرض والعرض والفرض !

– مكونات ثقافة أى شعب ترجع لآلاف السنين ، أى قبل كل الاختراعات التقنية المعروفة ، تتوالى هذه المخترعات ولا تتزحزح الثقافة قيد أنملة . تقدر تقول إنها الترجمة المباشرة جدا للچيينات . انظر لما يبدو كفوارق ' ثقافية ' بين الغرب وبيننا ، ستجدها فى عمقها أشياء مادية للغاية . عندهم الكدح وعندنا الرزق ، عندهم الانفتاح وعندنا الهوية ، عندهم الحرية الجنسية وعندنا الدين ، عندهم الابتكار وعندنا التقديس ، عندهم المنهج وشمول الرؤية وعندنا الأحادية وكون القبيلة كل العالم ، عندهم كل شيء موضوعى ومادى وعندنا كل شيء ذاتى ومشخصن ، عندهم المواجهة والواقعية والشفافية وعندنا الكرامة والشرف وشكليات الفضيلة ، عندهم الفرد والنقاش والتمرد وقوة الشخصية وعندنا السمع والطاعة والأسرة والإجماع . بصيغة أخرى : هم آلات عاقلة باردة ثوابتها العلم والعلمانية والعملية والعالمية ، ونحن حيوانات غريزية انفعالية هاجسها الأهل والأرض والعرض والفرض ! والفارق بين الآلة العاقلة الباردة وبين الحيوان الغريزى الانفعالى هو فارق مادى فيما أظن . ولو لم يكن فارقا ماديا لما كانوا دوما بنائين ، بينما نسقنا القيمى الذى نراه سماويا ومقدسا هو تحديدا الذى يجعلنا طوال الوقت طفيليين همجا هجامة هدامين مارقين نسعى لتقويض كل ما يبنيه الغير ، العدو دائما أبدا . هذه أيضا حقائق مادية . كما أن الشغل البدنى يؤلم العضلات غير المجبولة چيينيا عليه ، فبالمثل تشغيل العقل يؤلم الدماغ غير المجبولة چيينيا عليه . باختصار ، أو على بلاطة زى ما بيقولوا : العقل العربى عقل دون-إنسانى ، يمثل تجريد المعانى والرموز والأفكار شيئا يتجاوز نطاقه الإدراكى ، كل حياته وبالتالى دينه وكل حياته قائمة على حسيات مباشرة (العذاب بالنار والموت بالقتل والحوار بالإشاحة ولغة الجسد وحركة اليدين . مثال بسيط : اجلس لأحدهم ولاحظ وهو بيتكلم كلام عادى هادى المدى الذى تتحرك فيه ذراعيه ، تجده أوسع بكثير حتى من حركات ذراعى أنا الريفى حين أنفعل . حتى فى صميم العقيدة لا يذكر الله دون الرسول لأن ' أطيعوا الله ' وحدها لا تعنى أى شيء عند عقل العربى ؛ الأشاعرة التمسوا العذر للحنابلة لتجسيم الله -تمثال ضخم بارتفاع ٦٠ ذراعا يجعل ثقل وزنه العرش يزيق لدى الاستواء عليه ، يفعل كل ما يفعله البشر بما فيه بنص القرآن : الاستمناء !- ذلك أن عموم الناس فى نظرهم يصعب عليهم تمثل كائن غير مادى ، إلها كان أم ملاكا أم جنيا) ، وأبسط نتيجة لكل هذا هى أنه يكره أى شيء مستعقد لأنه لا يفهمه ، ويتوجس منه توجس الثور من الرداء الأحمر . هل فهمت الآن لماذا الزراعة شر !



ما قام به الإسلام ليس توحيد الأصنام فى الإله اليهودى-المسيحى

(حيث يستحيل على عقولهم العربية دون-البشرية تمثل كنهه أو وجوده) ،

إنما وحدها فى صنم واحد كبير : تمثال مصمت (صمد) أخذوه من أبى سمبل ووضعوه فى الستراتوسفير !

... فقط الحق يقال إنهم مع هذا لم يشركوا قط بأى إله إلههم الحقيقى المرئى الملموس : عمر بن الحطاب والحطابة !

– (ضاحكا :) وكأنى أسمع أرسطو يتحدث عن البرابرة ! ... فهمت ! ما قام به الإسلام ليس توحيد الأصنام فى الإله اليهودى-المسيحى (حيث يستحيل على عقولهم العربية دون-البشرية تمثل كنهه أو وجوده) ، إنما وحدها فى صنم واحد كبير : تمثال مصمت (صمد) أخذوه من أبى سمبل ووضعوه فى الستراتوسفير ! ... فقط الحق يقال إنهم مع هذا لم يشركوا قط بأى إله إلههم الحقيقى المرئى الملموس : عمر بن الحطاب والحطابة !

– مسكين ! زمان إلهه مات لأن ما فيش أوكسيچين كفاية فى الستراتوسفير ! المهم ، سمعتك تشرح لمنى الفارق بين الهجوم على الإسلام وبين إنكار المحرقة ، وتقول هذا دين وهذا علم ؛ هذه كلها أفكار ، والأفكار مجردات ، والمجردات أشياء تتجاوز النطاق الإدراكى لعقل الشخص العربى . من سب الرسول لا توبة له ، لأن الرسول شخص وزعيم من لحم ودم ، لكن من سب الله يستتاب ليس لمجرد أن الله هذا يعنى نفسه ولا يعنينا ، إنما أساسا لأن الله مفهوم تجريدى . الله وحتى الشيطان أشياء تقع وراء تمثله العقلى لا يفهمها ولا يصدقها ، وأقصى ما يمكنه تمثله من غير المرئيات هو الجن وأفعال السحر ، لأنها ليست بالضبط من غير المرئيات . إن نطاق مدركاته متوقف عند الفعل المنعكس reflex الغريزى البهيمى لقطعان المواشى . كل ما يفهمه العقل العربى فى موضوع الهولوكوست هو أنك تنتصر لقبيلة اليهود وعدو قبيلة العرب . كل ما يفهمه هو فقط رابطة الدم ، هى معياره الوحيد فى الحكم على الأمور ، لا قيمة للأفكار ولا للمبادىء ولا حتى للمصالح . فقط أنا وأخى ضد ابن عمى ، وأنا وابن عمى ضد الغريب (أحد الأمثال الشعبية العربية الدارجة لا نهائية العدد ، لكن من القلة القليلة جدا منها المفعلة فعلا على أرض الواقع بحيث ترقى لمستوى القانون الاجتماعى والثقافى إن لم يكن لمستوى القداسة !) .

ويتداخل ونس : ' فيه حاجة فاتتكم فى ثالوث أبو سمبل بتاعكم ده : الإسلام اهتم شديد الاهتمام بشخص يسوع ودقائق ولادته وحياته وموته ، لكن لا اهتمام مطلقا بطبيعة الروح القدس ، بل يتصورونه شخصا إنسيا هو الآخر ويتمنون لو كان مُحَمَّد تحديدا ! ' .

لم يجد وحيد ما يضاف فاكتفى بأن تمتم : ' أهم حاجة نسيتوها ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .



كل الحروب فى التاريخ الإنسانى هى حروب عرقية ، وفى التاريخ الطبيعى هى حروب چينية !

– إذن باختصار : أهم صفحة هى صفحة ٥ !

– ٥ ؟ ٥ إيه ؟

– ٥ يا حاج ! بتاع التوراة . عاوز أعرف رأيك فيها .

– ها تقول لى حواء ما خلفتش بنات ، وأولادها اتجوزوا مين ؟ اتجوزوا أمهم ، وحتى لو خلفت اتجوزوا أختهم ؟ ولا ها تقول لى الحكاية حلال للأنبياء محارم علينا ؟ !

– لا ! سيبك من دى ، أنا برضه ها أشغل نفسى بفوازير تلامذة زى دى ؟ صفحة ٥ هى صفحة مفترق الطرق لكل ما سيأتى بعد ذلك ! صفحة الـ first blood ! صفحة الاستنتاج . هى إللى ها تقول اتعلمنا إيه من الصفحات الأربع الأولى . عندنا ناس كتير بيسموا قابيل ولا أعرف أحدا اسمه هابيل ؟ ما معنى هذا ؟ رغم كل دعاوى القداسة والنقاء ، نزوعنا الفطرى هو أن نحب القتل ونزدرى الضحية ! أنا موش ضد العنف ، وأعلم علم اليقين أن العنف شىء جيد وكل التطور انبنى على العنف . لكن يا ريت إحنا حداثيين زى قابيل ونقتل غيرنا ، إنما إحنا بطبعنا متخلفين ، وبنقدس التخلف ، والواضح أن كل المطلوب أن ننتقم لهابيل .

– بس الحكاية دى فى كل حتة . الإنجليز عندهم Cain وCaine أكتر من Abel . ما حدش بيحب المهزوم حتى لو كان حبيب ربنا . كمان ما تنساش أن اسمه الأصلى قايين ، والعرب خلوه قابيل . أنت عارف قابيل معناها إيه ؟ معناها أبو القبيلة وحاميها .

– برضه أنت ما فهمتش أنا عاوز أقول إيه . أنا موش بأتكلم فى التقدم والتخلف . أنا عاوز أقول أن ده يناقض نظريتك عن طيبة الشعب المصرى !

– ما فيش حاجة غلط . ده موجود وده موجود . أكيد سمعت أن المصريين يتخانقوا بالكلام والشتيمة والتهديد بس ، ولما يوصل الموضوع للضرب ، الجرى أصل الجدعنة . لو حد ضربك ها تقول له عيب كده ، ' كله ضرب ضرب ، ما فيش شتيمة ؟ ! ' . سمعتها قبل كده ؟ برضه أى قابيل من إللى أنت تعرفهم ما يقدرش يدبح فرخة . لو تقعد مع الصعايدة بتوع التار ، دماغهم ناشف موت فى حاجات معينة ، إنما ككل طيبين ومسالمين وفى حالهم . برضه موش ده لب الموضوع . لو عاوز تنقد بجد ، المشكلة موش فى العنف فى حد ذاته . المشكلة فى اتجاه العنف . فيما قلته لك عن الراعى والزارع . الصفحات الأربعة الأولى تلخص كل شىء . وفهلا فى منطقتنا العنف المقدس يجب أن ينتصر للبداءة وليس

للحداثة . لا أكثر ولا أقل . ده فى الدم ، لكن المفروض أن الدين جاء كى يقومه . الدين أدان قتل هابيل ! كل ما قاله أن البدائى أكثر نقاء من المتقدم ، لكن لم يقل أن يقتله .

ويتدخل ونس بنظرية مؤامرة جديدة : ' جايز تحريض غير مباشر ! ' .

يا لمحنتى ! كل مرة أسمع كلاما من فم هذا الضهرى الماجن ، كأنى أسمعه لأول مرة . لقد عاشرت العرب كثيرا فى شبابى ولم يكن لدى شك فى تخلفهم وبدائيتهم ، بل لطالما استخدمت عبارة هوام الصحراء فى وصفهم ، وسواء نقلت هذا المصطلح عن أرسطو أم عن أمى فالمؤكد أنى كنت أعرفه ومقتنعا به ، فما الجديد إذن حتى يبدو لى كلام ضهرى وكأنى أسمع عن العرب لأول مرة ؟ بغباوتى تخيلت البدو مجرد بعض الناس البدائيين البسطاء فى سيناء أو مطروح ، والآن أكتشف أنهم ليسوا بسطاء ، وأنهم متوغلون متغلغلون فى كل ركن من أركان مصر من أعلى طبقاتها لأسفلها . تحت كل الوجوه التى نراها عادية فى الشوارع ، تحت كل بشرة وتحت كل ملابس عصرية ، توجد قوى طبيعية مخيفة لهذه الدرجة ، توجد مسوخ بشرية ووحوش لا سلطان لأحد عليها . هل نعيش حقا وتلك القوى البدائية الغاشمة ، تكمن وتتحرك -هنا والآن- تحت أنوفنا ؟ أنت حين تحدث الشيخ حجاب ، فترتجف أن لا عقل بالمرة وراء تلك اللحية إنما حيوان مفترس هائج ، ليس الشيخ حجاب هو الذى يتحدث ، إنما كتلة چيپيناته المتوحشة التى لا يمكن لأحد السيطرة عليها ، لا هو ولا غيره . دائما أبدا الچيپينات هى التى تتكلم وليس البشر . هؤلاء ما هم إلا مطايا وماكينات هائجة ليس بيدها شىء من أمرها . أوه ! كلمة ' الرجل الشرقى لا يتغير أبدا ' ، وصف متواضع لما هو أسوأ بمراحل من مجرد قهر الزوجات . إنه برنامج كامل متكامل للدمار الكتلى الشامل لكل مظاهر الحياة على الكوكب !

– أنت كثيرا ما تتحدث يا حاج عن خبرتك مع القبائل البدوية . تقول إن المظهر الحداثى ، سيارات حديثة جدا ٤ × ٤ للتهريب فى سيناء ، أو بنايات شاهقة مبهرة فى الخليج ، ما هو إلا مظهر ، طبقة خارجية خداعة . الولاء للقبيلة يلغى المنطق تماما ويطلق قوى جبارة وغير عقلانية بالمرة للقتل والتدمير واستحلال كل أحد . الأخلاق كل الأخلاق داخل القبيلة ، ولا خلق ولا أمان بالمرة لمن هم خارجها . لكن هذا شىء مرعب حقا . وإذن لا مفر من العنف ، المواجهة . المتوقع منك أن تقول هذا ، لا أن تتحدث عن تقنينات تافهة وثانوية جدا وضعها الدين ، ولا تمس الجوهر من قريب أو بعيد ، بل بالعكس تضفى عليه القداسة .

– المواجهة موجودة فى كل حتة . الفيصل سيكون خامة القماش . بتقولوها إزاى بالإنجلش ؟ the right stuff ؟

– (شاردا فى ابتهاج كمن تعاطى للتو جرعة من الماريوانا الجيدة :) بنقولها الچيپينات ! أنا طول عمرى يا حاج ما كنت مظبوط زى النهارده . طول عمرى بأقول الحرب الكبيرة إللى جاية ، ها تكون مع الصين وروسيا ، وجايز مع فرنسا كمان باعتبارها اشتراكية زيهم ومعادية للاقتصاد الحر ، جايز تدخل ثالث معاهم أو جايز بالكتير تقف على الحياد . أنت فاكر الحرب الباردة حرب بين أيزنهاوز وستالين أو بين كينيدى وخروتشوف ؟ إنها ليست أصلا حربا بين أميركا وروسيا . ليست حتى حربا بين الرأسمالية والاشتراكية . إنها حرب بين شعوب . حرب بين أعراق . حرب بين چيپينات . ولهذا لن تنتهى أبدا . كل الحروب فى التاريخ الإنسانى هى حروب عرقية ، وفى التاريخ الطبيعى هى حروب چيپينية ! من إتش چى . ويللز حتى ستانلى كيوبريك ، الكل يدين الإنسان ككائن مجنون يهوى الحرب ، بينما الحقيقة أنه برىء كل البراءة من هذه التهمة الظالمة . هو لا يدخل الحروب لمزاج أو عن هوى شخصى . طبعا ! كيف وچيپيناتنا هى الكائن العاقل ، وما نحن إلا مطايا مسلوبة العقل والإرادة كل وظيفتها أن تنتصر لچيپيناتها ؟ !



ينصر چيپينك !

... ويصرخ أسد بصدق حماسته المعهود ومن خلفه البعض ساخرا مستخفا : ' ينصر چيپينك ! ' .



الحل هو ' ووترلوو ٢ '

فعلا ماذا عن الصينيين ؟ الليلة الماضية درست الدين والچين لكل الشعوب من أخناتون حتى الملك آرثر ، وتجاهلت الصين . ربما يهيمن على اللا شعور عندى أنهم مجرد ذلك الشرق الصوفى الطيب . فعلا لقد قابلت أناسا مهذبين كثيرين منهم . ذات مرة طلبت معلومة بسيطة بالتليفون

من سفارتهم ، ففوجئت بالملحق التجارى يأتينى بنفسه لمقر ' الاقتصاد اليوم ' بعد ١٠ دقائق . يحكى اليوم عنهم أنهم يكدون بشدة . أطفالهم يذاكرون ١٩ ساعة يوميا ، بما فى ذلك أيام العطلات . لكن ألا يعدو هذا قسرا للذات ، ' حزقا ' كما يقال بالعامية . تاريخيا لا تقول چيبيناتهم عنهم أى شىء من كل هذا . تقول فقط أشياء مذرية جدا . أقصى إنجاز لهم أن بنوا سورا حول أنفسهم . بالعامية أيضا ' يشدون حيلهم لغاية ما ها يتقطع ' قريبا . ثم إن ليس كل شىء كدح . أين ذهب الواحد بالمائة إلهام ؟ ! هل صدق أحد حقا يوما أن الإنجليز أو توماس إديسون أغبياء ؟ ! ثم ما هذا الكلام أصلا ؟ الصين تكدح ؟ أى كدح ؟ الصين لم تلعب الاقتصاد لعبا نظيفا أبدا . الصين لم تلعب حرية التداول لعبا نظيفا أبدا . الصين لم تلعب أى شىء لعبا نظيفا أبدا . ظلت تتحكم فى سعر عملتها حتى تغرق العالم بسلعها الفاسدة ، ظلت تتحكم بأجور شغيلتها لمستويات أقرب للسخرة فقط لا للمنافسة الشريفة إنما للهيمنة السياسية على العالم ، ظلت توظف هذا المال القذر للهيمنة على العالم الثالث وحكامه المرتشين ، وفى النهاية اتضحت اللعبة حين دخلت منظمة التداول ، قلبتها برمتها بفضل تلك الأغلبية المنصاعة لها ، لما هو عكس أهدافها بالضبط . والآن الطامة الكبرى ، الترسانة العسكرية التى لم يحدث أن فهم الكثيرون الطائل من ورائها .

من غبائى أن تخيلت لوهلة أن الحزب الشيوعى لم يعد اسما على مسمى . بالعكس تماما . إنه الشىء الشيوعى الحقيقى الوحيد فى هذا العالم . هو الوحيد الذى لم ينس تعاليم ماركس وإنجلز الأصلية . الشيوعية لن تتحقق إلا عند لحظة نضج معين للرأسمالية . هم يرون أمثال لينين وناصر ، مجرد انقلابيين ، لصوص صغار متعجلين يسيل ريقهم على الفتات . لو أردت أن تسرق حقا ، لا تسرق شيئا أقل من اقتصاد أميركا ، اقتصاد العالم ، أو : إليك حل آخر : دع الشركات الأميركية تأتيك باستثمارات هائلة جدا يمكن مقارنتها بحجم الاقتصاد الأميركى أو العالمى ، ربعه أو نصفه مثلا ، وساعتها فقط قم بتأميمها . أوه ! يا للهول ! إنهم لم يتخلوا عن الاشتراكية ولو للحظة واحدة . إنها نفس القصة الچيبينية ! الصينيون هم الصينيون . أقصد الهجامة هم عينهم فى كل مكان . نعم ، الصينيون هم الصينيون . تلك هى چيبيناتهم . هم شعب لم يؤمن بالحرية أو يمارسها يوما واحدا من الأيام . عاصمة النهب وقطع الطريق تنتقل من يثرب لپاريس لموسكو لپكين ، لكن الأساليب لا تتغير . لكن لا . لا وجه للقياس بين الصين وبين العرب . لن أقول إنها نفس لعبة التقية والتمكين . لن أقول مؤامرات ، كالناصرية أو الإخوانجية الخسيسة ، فأدبيات الحزب الشيوعى الصينى موجودة صراحة على الإنترنيت . إجمالا ، دعك من العرب والمسلمين التوافه ، الذين شغل تافهو رمسيس بالك بهم أكثر مما يجب . ببساطة حاول أن تنسهم ، كما كنت تفعل طيلة حياتك . هناك ما هو أهم : فى الغد القريب قد تحكم الصين العالم ، لكنها لن تقود العالم . ستكون عصور ظلام صينية !

– يعنى أنت بتقول الحرب الباردة لسه ما خلصتش ؟ ثم ده ما له ومال البدو ؟ كلام غريب أوى ! إنما أنت ليه بتتكلم باللهجة دى ؟ صوتك مختلف خالص ؟

– (متخليا عن نبرته الكسيرة إلى حماس واندفاع مفاجئين :) ولا ها تخلص ! وها تبقى ساخنة ! كل الحروب الكبرى هى ما بين أمم ناجحة وأمم فاشلة . أمم تعانق الغد وأمم تعاديه . أمم ترحب بالمنافسة وأمم تصادرها . والمشكلة الكبيرة أن كل ده قدر مكتوب فى الچيبينات وما لهوش حل . منذ أرسطو وحتى اليوم لم يحدث ما يحمل على الاعتقاد أن هناك شعبا اعتبره متخلفا قد تحول من التخلف للتقدم . تصنيفاته لا تزال هى هى حتى اليوم ، ولا تزال مشكلة كل المدن والحضارات هى هى حتى اليوم : قطاع الطرق ؛ وتحديدا أخطر سلالاتهم إطلاقا : العرب ! عرفت علاقة الكلام بالبدو بتوعك إيه ؟ المتخلفون لا يزالوا هم المتخلفين . أرسطو لم يعرف البريطانيين مثلا ، لكنهم تسيدوا لأنهم يطابقون بالظبط المواصفات التى وضعها للشعوب القائدة . مثل ذلك التغير شبه مستحيل ، أو على الأقل يحتاج لألفيات . نعم هناك هجرة ، وهناك موات أنتروپى ، لكن الحرب لم تنته بعد بانتصار قوى التخلف .

– على فكرة أنا موش موافق على حكاية القانون الثانى إللى كل شوية تقولها . علماء الديناميات الحرارية بيقولوا بوضوح شديد أنه ينطبق على نظم حرارية محدودة ومغلقة ، يعنى مثلا ما ينطبقش على فضاء الكون ، فما بالك وأنت جاى تطبقه على المجتمعات الإنسانية ؟ !

– ' هم ' بيقولوا ، إنما ' إحنا ' لازم نفكر . روما اضمحلت بآلية تشبه الموات الأنتروپى بالظبط ، كذلك بريطانيا . تذويب الفوارق بين الطبقات يقتل كل شىء . أنا لازم أعرفك ع الواد عبقرى الهندسة إبن واحد من معارف أمى القدام ، قابلته مرة واحدة أول ما رجعت مصر وكان فاهم أنهم رفضوا يشغلوه معيد لمجرد أنه مسيحى ، وأكيد له نظريات فى موضوع الأنتروپى ده . أرجوك ما تطلعناش بره الموضوع : الحرب الكبيرة إللى بدأها المسلمون فى ١١ سپتمبر ، هى نفسها حروب ناپوليون ، وحروب هانيبال ، إنما فى شكل تانى . نعم ، ساركوزى لا يحمل أية چيبينات

فرنسية ، چيبيناته شمالية شرقية أرستقراطية معتبرة (ربما ما كان عليها أن تحط الرحال قط فى بلد كفرنسا) ، وطبعا لديه نوايا ممتازة ، لكن ماذا استطاع حتى اللحظة أو سيستطيع أبدا ، مع خراب يومى لأكثر من قرنين اسمه الثورة الفرنسية ، بل قل ماذا سيستطيع مع چيبينات متأصلة العقم والخراب لألفيات كچيبينات الشعب الفرنسى . الشعب الذى يشتغل بمتوسط خمس ساعات يوميا ، بينما يتناول وجبة الغداء وحدها فى ست ساعات (دع جانبا العبيد المهاجرين العرب والمسلمين ، أو الحثالة كما يسميهم هو) . إن الشعوب ذات المكون الثقافى العالى شعوب خطرة بطبعها ، ذلك أنها لا تقيم وزنا كبيرا للقمة العيش ، لما يسمى فى الفلسفة بالمادية . إن الشعوب ذات المكون الثقافى العالى ، شعوب ساموية (ليس نسبة لسام بن نوح ، إنما للسمو ، وإن كانت الرابطة بين الأمرين غير معدومة) ، لا تعبا بالدنيويات ، ذلك أن لديها أچندة ثقافية ودينية و' تيمايوسية ' تعلو فوق كل الاهتمامات التافهة للشعوب الأخرى . إن الشعوب ذات المكون الثقافى العالى ، ناهيك عن بالأخص منها تلك التى تفتقت عن فكرة جهنمية بحجم فحش فكرة إله التوحيد ، شعوب ترى كرامتها أو ' هويتها ' أهم من لقمة عيشها ، شعوب مبتلاة بچيبينات تغلب التشنج على العقل ، شعوب يستحيل الارتكان لفرصة التفاهم بالمنطق معها ناهيك عن ترويضها ، ويمكن أن تجنح للتدمير فى لحظة وبأرخص أسعار التحريض ، واسألوا الهنود الحمر . حاجة واحدة إللى كنت عاوز أقولها تخالف كلامك ، هى أن العرب والمسلمين دول ولا حاجة . هم أتفه من أن يمثلوا خطرا حقيقيا . حتى فى ١١ سپتمبر كنت مقتنع بكده . ها يبادوا من مجرد القنابل إللى ها تقع غلط فى النص . الإسلام الأسيوطى -إن جاز التعبير- الأرفع من النبى ومن الكرهان ، إللى بيقول عليه ونس ، ربما ليس بالخطورة التى يصورها لنا . كان من الأفضل لهم أن يبدأوا باحتلال الدول المجاورة لأفغانستان واحدة تلو الأخرى كى ينشئوا المزيد من ذلك العالم اليوتوپى المقدام ، مجتمع طالبان المثالى المتحرر من كل الضعف البشرى ؛ يقضمون وزيرستان فكل پاكستان فبقية الشرق الأوسط ، ثم يركزون تدريجيا على أوروپا بالتكاثر والهجرة والهجرة والتكاثر ، وهكذا ، لكن تشتيت الجهود لما وراء الأطلنطى أو بامتداد خريطة العالم هو -سامحونى- محض غباء . مشكلتهم هى ذات مشكلة هتلر : أن صبرهم قليل ، ورطم طائرة فى برج لا يسقط إمپراطورية ، وقطعا لا ينشئ إمپراطورية . ١١ سپتمبر كان نقطة بداية ' العك العكسى ' لهم ، وكل ما جنوه أن ببساطة تغير كثير من ساطرات اللعبة على نحو قد لا تفهمه يوتوپياتهم فاحشة العلو والغلو . بالفعل هم دين جديد وليسوا صحيح الإسلام كما يسمون أنفسهم ، بينما الأديان لا تنتشر إلا بالتسليم والاتباع ، بغسيل المخ بالتقديس ومنع الأتباع من محاولة المناقشة أو التشكيك أو المساس بالقدسية . هذه نقطة القوة فى الإسلام التقليدى مهما كان هشا ومضحكا فكريا . يضاف إلى ذلك أن الدنيا نفسها تغيرت وصعب فى عصر السماوات المفتوحة والإنترنيت وحرية تداول الأفكار أن ينجح أى دين جديد مهما كان بلا متناقضات . لقد صرت -رغم علمانيتى- أعتقد أن زكريا بطرس هذا الذى تتحدثون عنه نزل من السماء (حرفيا) على حكوماتنا ليعطيها العصا السحرية لها فى حروبها المستطالة شبه الفاشلة على الإسلام ، بل وأعتقد أن أفكاره يجب أن تدرس لطلبة المدارس ، كجزء من مادة للأديان المقارنة ، تحل محل مادة التربية الدينية الحالية التى لا تزيد مجتمعنا إلا إغراقا فى الغيب والخرافة . ربما كل ما عليه أن يتقدم بطلب ، يستخدم فيه ما يجب من العبارات اللائقة لمخاطبة البيروقراطية المصرية الأعرق فى كل التاريخ : ' أتشرف بالتقدم لسيادتكم راجيا التفضل بالموافقة على بدء صحوة مسيحية ، أسوة بالصحوة الإسلامية التى تفضلتم بها بكرمكم المعهود قبل ٣٥ سنة ' ! أنا واثق أنه سيحصل على الموافقة ، لأن الواجب أن نترك كل تلك الأشغال القذرة لجيش الاستشهاد المسيحى الجديد يقهر الإسلام كما قهروا روما يوما ، معركة كلها مخضب بالدماء وبالسوائل المنوية وفضلات البول والبراز والحيض والنفاس ، بعد ذلك تتركوا لنا مهمة التعامل مع هذه المسيحية ، مبارزة أنيقة رقيقة لا تحتاج لأكثر من شوكة وسكينة . نحن اعتدنا قرونا نجادل المسيحية فيها فى عمر الحفريات وفى وظيفة الكلوروفيلل ، لكنى أعترف أنها ليست معركتنا مجادلة من يقولون إن كل الكائنات -بما فيها الديناصور والماموث والحوت الأبيض والأزرق والبمبى- قد خلقت يوم فرك الإله يديه من بقايا الطين الذى خلق به آدم . عليهم -حكومتنا ورأس حربتها القديس بطرس الثانى- أن يأتوا بهم للمسيحية أولا ، ثم يدعونا نحن نتصرف معهم بطريقتنا بعد ذلك .

– أنت خرفت خالص !

– أنا بأشكرك على تأملاتك العبقرية دى ، بس بأصحح فيها أن العصيان أو الخطر الأساس طول عمره ما كان من الجهاد الإسلامى (= الحرابة الشرعية) والقومية العربجية (= الحرابة غير الشرعية) زى ما أنت فاكر . أنا لم أخرف ولم أذهب بعيدا . بالعكس ، أنا لم أنس معركتى الأصلية لحظة واحدة . نعم ، هؤلاء قراصنة وقطاع طرق الحضارة وكل تاريخهم هكذا ، ونعم الإخوان وحكام الخليج وليس القاعدة أو طالبان هم صحيح الإسلام ومن فهموا الهدف الحقيقى من ورائه وما تدور حوله القصة ، لكن أى منهم جميعا لم ولن يمثل خطرا جديا أبدا ؛ هم هجامة صغار ، لا قيمة لهم بالمقارنة بالقراصنة الكبار ، الصين وروسيا وفرنسا . لا حل إذن . أقصد : الحل هو ' ووترلوو ٢ ' !

– ها تنتج فيلم اسمه كده ؟ !

ويجتر وحيد الكلام السابق : المهم خامة القماش ؟ ! لك حاجات يا حاج !



كل العرب چانچاويد موش هاشم وأمية بس !

لشهور كانت قد تواترت أنباء متفرقة عن غارات الرعاة العرب على حدود مصر الجنوبية . بسبب الوقفة الصلبة الشجاعة للجنوب والغرب والشرق ضد مسلسل النهب العربى للسودان ، فإن حكومة الخرطوم الأعرابية لم تجد سوى توجيه غارات هجامتها شمالا يعيثون الآن نهبا وسلبا فى صعيد مصر . لقد وصلوا لأسوان ، والآن يقال إن الأمن يضع حراسة مشددة على متاحف الأقصر ومحال الذهب والمجوهرات فيها . والأسوأ من الچانچاويد من باتوا يجدون فى الچانچاويد الأسوة الحسنة : الفلسطينيون ممن لم يردعهم الجدار الفاصل الذى بنته مصر فى وجوههم ، أخذوا عبر الأنفاق والصواريخ والحلفاء ، يستبيحون منتجعات سيناء نهبا وسلبا ، بعد أن كانوا يكتفون بتفجيرها فى الماضى . الليبيون الذين لم تعد تفصلهم عن الإغارة على الأسكندرية سوى خطوة واحدة . يبدو أن ما حدث فى أسيوط شجعهم كل هؤلاء أكثر ، إذ قدروا أن الأمن سيكون مشغولا عنهم . هذه المخاطر لم تعد بالنسبة لنا فى كوكب آخر ، أو حكايات من التاريخ . إنها مستقبلنا المحدق نفسه ، إن لم تكن واقعنا الحالى المعاش . مصر الجديدة ليست بعيدة جدا ولا حصينة جدا !

– أنت موش من بنى هاشم ومن الأشراف يا حاج ؟

– أيوه .

– يعنى چانچاويد ؟ ! زى الكتاب : رعاة لا موطن دائم لهم ، يغيرون على أراضى الزراع ، ينهبونهم ، يقتلونهم ، ويغتصبون نساءهم وبناتهم ، ويخطفون أبنائهم ؟ !

– (بحدة :) أيوه چانچاويد ! ولعلمك : كل العرب چانچاويد موش هاشم وأمية بس ! وچانچاويد موش معناها قبايل رعى موش زرع وبس ، إنما حقول پترول كمان ، الغنم ممكن ترعى فى حقول البترول . وعلشان تنبسط كمان وكمان ، ترعى فى مانهاتان وواشينجتون وبالى ولندن ومدريد وروما وطوكيو كمان .



تقريبا ، أى من البشر سبعة البلايين -بما فى هذا العرب- يمكن أن تجده إنسانا لطيفا وتستمتع بالحديث معه إلى مقهى ؛ إلا أن معايير أمنا الطبيعة فى الانتخاب الطبيعى قد تختلف قليلا : هى لا تجلس إلى المقاهى !

– ما تزعلش كده ! سؤالى : أيزال أمثال هؤلاء يعيشون وسطنا ؟ طالما حدثتنى أمى عن العرب ولم أفهم كلامها .

– تقريبا ، أى من البشر سبعة البلايين -بما فى هذا العرب- يمكن أن تجده إنسانا لطيفا وتستمتع بالحديث معه إلى مقهى ؛ إلا أن معايير أمنا الطبيعة فى الانتخاب الطبيعى قد تختلف قليلا : هى لا تجلس إلى المقاهى ! البدوى يمكن أن يكون طيبا عامة ، يمكنك أن تجالسه ، فتجده حلو المعشر بسيط وفطرى ، بل ويمكن أن تحس أنه غير متدين بالمرة أو حتى أنه أصبح صديقك فعلا . لكن فقط ارتكب ولو أدنى إساءة منك للقبيلة ، ستجده بينما أنت جالس تتناول العشاء معه وتتبادلان النكات ، تأتيه مكالمة فإذا به ينهض ويتناول سكين الطعام التى أمامه ويغرسها فى صدرك دونما لحظة تفكير واحدة . سينقلب وحشا ضاريا انتحاريا استشهاديا كاسرا ، حتى لو لم ترتكب تلك الإساءة معه ، وحتى لم يشاهدها بعينه ، إنما فقط أخبره شيخ القبيلة أو أحد أبنائها أنك فعلتها . السبب ؟ هو ذات الفارق القاعدى بين الراعى والزارع ، هو ذات السبب الذى يجعل المصريين شعب يميل للتسامح والحب ويجعل العرب يميلون للقتل والكره : الأول يرى كل زيادة سكانية يدا عاملة إضافية ستأتى بمزيد من الوفرة ، بينما الثانى يراها تهديدا للموارد الشحيحة . تلك هى مشكلة العرب والأعراق التيمايوسية الانفعالية المعنوياتية عامة . سيبك من إعارة الفروج ، لنقل إنها غير منتشرة جدا . تعدد الزوجات أنثروپولوچيا هو نفس المفهوم تقريبا . لماذا يبيحون تعدد الزوجات ولا يبيحون تعدد الأزواج ؟ نفس السبب بالظبط ! فى كل الأحوال المرأة شىء ، قطعة أرض ، والأدق نقرة فى الأرض لوضع بذورك فيها ، حتى لو بنت قبيلة أصيلة . ذكر القبيلة هو ما يفرق ، بذرته أهم ثروة على وجه الأرض ، وهى الزراعة الوحيدة الحلال . والخط الأحمر القانى جدا ، هو أن يضع أحدا من الخارج

بذرة فى امرأة تنتسب للقبيلة ، هذا تعدى على أرضك لا يمكن غفرانه . هم يقتلونها خشية أن تنجب ، لكن لو هربت لربما ما اهتموا كثيرا بقتلها . هكذا المسألة ، مسألة چينية بحتة ، ولديهم فيها قاعدة ذهبية تقول ' العرق دساس ' ، والصياغة واضحة المقصد تماما ، أنه سوف يتسلل من خلاله شىء يهدد نقاء القبيلة وبالتالى يقوض سر قوتها وتماسكها . هذا هو معنى العرض عندهم ، وليس مجرد أن فرج المرأة انفتح لشخص آخر ، فهذا ليس مشكلة فى حد ذاته . باختصار المسألة بيولوچية محضة : البشر غادروا مبدأ تعدد الإناث إلا العرب ، لأنها ببساطة آلية تكيفية تضمن بقاء النوع لعشيرة بيولوچية لديه اختلال فى عدد الذكور لأن القتل هواية يومية وأسلوب حياة بالنسبة له . هكذا معظم الحيوانات ، فما بالك بالعرب ، الذين إن لم يجد أحدهم ابن عم ليقتله يقتل أخاه !

– فهمت ! لعل إذن ذلك هو سر أن الأشياء السيئة التى تستحق التحريم هى التى تعيش والعكس بالعكس ، ولهذا نظل متخلفين ، وده امتداد لكلامك فى الانتخاب الطبيعى : تركيبتنا الچينية مصممة بحيث تعزز المحافظة على تخلفها .

– طبعا ! بحكم التعريف ، أية بركة چينية مصممة للمحافظة على ذاتها . حتى المصريات اللاتى يستغربن قبول النساء العربيات ببساطة لتعدد الزوجات لا يفهمن السر . لو حدث ووجدت نساء ينفرن من تعدد الزوجات سينقرضن بعد قليل وتنقرض چيناتهم لأنها ببسلطة تهديد للاستقرار البيولوچى .



البول هو عماد التوحيد !

– (مواصلا :) الطامة الكبرى التى تفوق كل هذا وذاك ، هى ذلك الشىء المسمى الحداثة . سينقلبون جميعا وحوشا استشهادية كاسرة لو استشموا فى كلامك شيئا يدعوهم لتجاوز أسلوب الحياة الذى يحيون . أنت ببساطة تدعوهم هكذا للانقراض ، للتحلل ، to perish . على سبيل المثال ، وهو مثال صغير وثانوى ، الأسرة النووية نفسها من محدثات عصر الصناعة ، وشر الأمور محدثاتها . نحن لم نقتنع أبدا بمفهوم الأسرة النووية كما عرفه الغرب ، وأنتم تريدون منا الانتقال إلى عصر ما بعد-الصناعة حيث خلية المجتمع ليست الأسرة لا نووية ولا غير نووية ، إنما الفرد . لا يزال كلنا يتزوج ويموت دون أن يترك الأسرة الكبيرة . أنتم -أيها العلمانيون- تجدون مادة فكاهية جدا فى تعاليم مُحَمَّد التفصيلية للغاية حول كيف تعاشر زوجتك وكيف تذهب للغائط وكيف تخرج الضراط ، لكنكم لا تفهمون أن هذا كلام شديد الجدية والأهمية بل هو مسألة حياة أو موت . إنه جزء من تعريف القبيلة نفسه ، هذه التى يجب أن تلازمك بكامل أفرادها ٢٤ ساعة من يومك ، يذهبون معك أينما ذهبت ، بما فى هذا فراش زوجتك ودورة المياه . أنتم -أيها العلمانيون- تجدون مادة فكاهية جدا فى تعاليم مُحَمَّد التفصيلية عن البول الذى أدلى فيه بمليون حديث ، أو بالأكثر تتذاكون وتقولون إنه وسواس شخصى لمحمد أو أحد أعراض أمراضه الجنسية ، لكنكم لا تفهمون أن الأمور أسبق وأعمق من كل هذا ، وأن البول هو أيضا مسألة حياة أو موت . ببساطة : البول هو عماد التوحيد ! نعم ، لا تسخر ، البول -ولا شىء غير البول- هو الفكرة الوحيدة الكبرى التى جاء بها الإسلام . فيها وجد مُحَمَّد وعمر مفتاحا سحريا للتوحيد ومن ثم لبناء الدولة . إذا جعلت البول نجاسة هائلة سوف تعاقب عليها بزيارة الشيطان نفسه لك طوال الليل ، ثم تذهب بك بعدها لعذاب القبر الرهيب المقيم ، فأنت بالتالى تفرض على أتباعك الطهارة المتواصلة التى لا تقل عن خمس مرات يوميا . بعدها من السهل أن تجعل هذه الطهارة جزءا من الصلاة (الشكلية جدا التى لا نظافة فيها بل أميل لما هو العكس : تبلل الحذاء والعمامة من الخارج ، ولو لم تجد ماء تتمرغ فى التراب ، فالهدف أسمى بكثير من مجرد النظافة !) ، بعدها تجعل الصلاة عماد الدين وتاركها بالكلية مرتدا يجب أن يستتاب أو يقتل ، بعدها تجعل الإثبات الوحيد لبراءتك من تهمة ترك الصلاة عدم التخلف عن الجماعة ، فتكون قد حصلت على كل ما تريد . طبعا الدم ها يبقى للركب لو حاولت تعض الزكاة ، إللى هى طعام الكهنة زى ما بتسميها (شوف مثلا كيف ينتفض المشاخ لو قلت لأحدهم إن ابنى أو بنتى يعيشون فى بؤس وأحق بالزكاة من أى أحد) ، هذا عن الزكاة ، لكن الدم ها يبقى للأنوف لو مسست الصلاة . ليه ؟ لأن فى الأصل لم يفترضوا أن طعام الكهنة سيأتى من أتاوة تفرض على المسلمين المعدمين أصلا ، إنما من غزو خارجى للأثرياء ، ولهذا صار طعام الكهنة أكثر اعتمادا على أداء الصلاة منه على جباية الزكاة . الجماعة ثورة اتصالات ستمنحك أداة جبارة للترابط والتوصيل الفورى لما استجد من معلومات وتعليمات تخص الشأن القبلى ، أو بعبارة أبعد وأدق : صلاة الجماعة طابور جيش ، يستدعى المجندين بنفير نوبة صحيان اسمه الأذان خمس مرات يوميا ، فيتمم القائد على قواته حضورا وطاعة ، يتأكد من مساواة الصفوف شد الساقين ضم الكعبين مد الذراعين فرد الظهر وتزامن حركات المشية ، وأن تنطلق صيحات الولاء والبراء بقوة وفى نفس واحد ،

والختام لليمين انظر ولليسار انظر ، وكما هو معلوم الصلاة بالقلب من غير صوت مسموع : باطلة ! ، وكما هو معلوم أيضا هم مُحَمَّد بالأمر بتحريق بيوت تارك صلاة الجماعة ، ومجرد التهديد بشيء كهذا يوضح ما هى أصلا الحكمة الفعلية من هذه الجماعة ، ولأن اللاحقين فهموا هذه الحكمة وفهموا وقتية الظروف التى كبلتها ، فراحوا يطبقونها ، أو على الأقل رأيناهم يؤلفون آلاف الكتب فى حكم تارك الصلاة تنتظر من يقوم بالتطبيق . (ملحوظة : لاحظ كذلك أن الصلاة بدون نعال هى بدعة ، والسنة الصحيحة لا يتبعها أحد اليوم إلا الجنود فى أيام الحرب !) . بهذا إجمالا -انطلاقا من نزول قطرة البول وصولا منها لارتصاص الجيوش- يكون الچيين العربى قد حقق -ومن أقصر طريق- أسمى غاياته ، وبعد كل هذا تأتون لنا بغباوتكم العلمانية لتقولوا لنا إن الدين علاقة شخصية بين الإنسان وربه . قال مُحَمَّد ' إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ' ، يعنى حتى موش الفلوس إللى هى الزكاة ، لأن الصلاة أهم مليون مرة لبقاء الچيين . ليه المشاخخ -أعدى أعداء اختلاط الجنسين- موش عاوزين يعملوا مساجد للنساء ؟ لأن هدف الصلاة إللى هو أخذ التمام قد انتفى : أعطيتهن حق تقرير المصير ! ثم مين قال أن ما فيش علاقة بين الإنسان وربه فى الإسلام ؟ الدعاء علاقة بين الإنسان وربه ، فقط الصلاة حاجة تانى : خدمة عسكرية ! أنت عارف ليه دايما بيصمموا أن ما فيش رهبنة فى الإسلام ؟ لأن الرهبنة هروب من الخدمة العسكرية ! هأ ! هأ ! (ويشير إلى وجه وحيد مداعبا مرة أخرى بما كان يقال لإسماعيل يس فى الأفلام :) هو بعينه بغباوته !

– البول هو عماد التوحيد ؟ ! لا أعتقد أن كثيرين يشاركونك الرأى أن البول فى الإسلام ينطوى على كل هذه العبقرية ؟ أنت عندك حق أن أثينا نفسها -ولا أى أحد- يجتمع خمس مرات فى اليوم ، لذا أقصى ما يمكن أن يوافقك عليه البعض أن الإسلام ولد بثورة اتصالات ، وقضى عليه بثورة اتصالات !

ويعلق ونس : ' هأ ! الأذان أيضا كان من اختراعات عمر ! حى على القتال ! حى على النكاح ! ' ، ويدلف لإطلاق النفير بلا توقف حتى أوقفوه ، ليقول وهو يلتقط أنفاسه بالكاد : ' هل تعرفون لماذا يحبب دين الصهاك فى العطس وينفر من التثاؤب ، الذى يقول إنه يدخل الشيطان فى خيشوم الإنسان ؟ السبب واضح وعسكرى محض ! ' .



– طب والحل ؟

– حل واحد : لن تستعيد سيارتك إلا إذا خطفت أنت سيارة مقابلها من قبيلة الخاطف !

– هل تعرف لماذا تنطوى محاكم ' حق العرب ' على مظالم هائلة ؟ لأنها لا تعترف بشيء اسمه الفرد . يخطف أحدهم سيارتك ويخفيها فى الجبل ، وحين تذهب للمحكمة العرفية ، يقول لك إن ابن قبيلتك الفلانى سرق منى شيئا قبل ثلاثين سنة ، وعليك أن تدفع ٥٠ ألف جنيه . أنا لم أسمع باسم قريبى هذا الشخص ، كما أن الواقعة تمت قبل أن أولد أنا نفسى ، ثم أنا لست ابن قبيلة أصلا ، أنا ابن المدينة ، ولدت فى العريش ولم أعرف يوما غيرها ، وفوق الكل أنا ليس معى ٥٠ ألف جنيه . هذا ليس ردا مقبولا . أنتم كلكم فلاحين فى بعض ! البدو لا ينسون ثأرهم أبدا . هل تخيل أحد حقا أن السعوديين يمكن أن ينسوا ، ولو بعد مليون سنة ، ما فعله إبراهيم پاشا فى الوهابيين فى عقر دارهم فى نجد ؟ المصريون عليهم تار ولن يهدأ بال السعوديين قبل أن يستوفوه على داير مليم . أنا خايف أن إللى بيعمله الچانچاويد فى أسوان انتقام من إللى عمله إبراهيم پاشا فى أعمامهم فى الدرعية ، أو عمله إسماعيل ابنه فى آبائهم ، الزبير وأتباعه من تجار العبيد ، فى بحر الغزال .

– طب والحل ؟

– حل واحد : لن تستعيد سيارتك إلا إذا خطفت أنت سيارة مقابلها من قبيلة الخاطف ! هذا يحدث كل يوم فى سيناء ومطروح وغير سيناء ومطروح .

– وهو عينه ما حدث يوم سرقت القبيلة الأوروپية أموالك وخطفت أحد رجالك ، بذريعة أنك أسقطت لهم طائرة فوق لوكيربى . الوسيلة الوحيدة لاستعادة نقودك ورجلك ، أن تختطف خمس ممرضات منهم ، وتهدد بقتلهن .

– باختصار ، هاجس تماسك القبيلة يأتى قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، هو كل شيء . (ثم خالطا الأمور بعضها البعض كعادته :) آدى نتيجة أن ما فيش حكومة وما فيش محاكم جنائية ، وكل حاجة تحكيم مدنى ، زى ما أنت دايما بتطالب !

– (محتجا وإن ليس محتدا :) أنا برضه بأطالب بمحاكم تعاقبك على كل أفعال قبيلتك ؟ !

– (بهدوء :) إذن ببساطة : ما تطالب به لا يصلح عندنا ! خذ مثلا آخر : كل ما سمى بحجة الوداع ، ترسم حدود حقوق الإنسان فى الإسلام . هى ليست حقوقا للإنسان ، هى فقط حقوق الإنسان المسلم على أخيه المسلم . ذلك أن لا حقوق لغير المسلم حتى يسلم . مثلا الزكاة لا تجوز لغير المسلم مهما كان احتياجه ، وإن جاز أن تقبل (أو تغتصب) أى شىء منهم استحلالا حلالا ، و' المسلم هو من سلم المسلمون من لسانه ويده ' (سلم المسلمون وليس سلم الناس ـــلاحظ !) ، و' من غشنا فليس منا ' (أما من غش غيرنا فلا بأس ، فالتجارة شطارة وأموال الكفرة كفارة !) ، وهكذا . تروح تتعالج عند الراهبات ببلاش حلال ، إنما تتبرع لهم حرام (الأحسن من ده وده ، سيبك منهم خالص ، وروح اتعالج بالرقى والكرهان مصحوبا بطقوس رشفة مقدسة من التناول الإسلامى -المكون من لبن النوق وبول البعير . بلى ، البول النجس إلا فى حالة واحدة : أن تشربه ! هذا هو العلاج الذى يعلو ولا يعلى عليه وقطعا لا يتغير أبدا لأنه الوحيد الفعال للأبد ، بينما كل الرهبان والراهبات منذ أيام فرانسيس الأسيسى وجريجورى مندل لا يتلون عليك فى مستوصفاتهم شيئا أصلا ، إنما يجرون وراء سراب اسمه state-of-the-art الطب الدنيوى الكافر .

ويتداخل ونس : ' أنتم عملتم زى الغوغاء إللى خلوا مُحَمَّد تسلية وملطشة اليومين دول . الراجل ليس صاحب إعجاز علمى ولا تهجيص علمى : كل ما فى الأمر -حسب روايات التاريخ إللى واراها الإسلام- أن بول البعير كان المصدر الوحيد لملح الطعام لدى العرب ! ' .

– ما قصدته أنها كلها شرائع واضحة حتى من قبل حجة الوداع ' كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه ' و' أشداء على الكفار رحماء بينهم ' ، وطبعا الزكاة لا تجوز لغير المسلم مهما كان احتياجه ، وإن جاز أن تقبل (أو تغتصب) أى شىء منهم استحلالا حلالا . هكذا أكملت لكم دينكم : القبيلة أولا ، القبيلة أخيرا . الإسلام لم يوحد القبائل كما يتخيل البعض . كما قلت لك الإسلام لم يفكر فى دولة ، الإسلام حاول فقط خلق قبيلة أكبر ، قبيلة اسمها الأمة ، قبيلة بكل المواصفات المعروفة للقبائل ، وأهمها الولاء كل الولاء للقبيلة والبراء كل البراء ممن هم خارجها . لكن لأن ليس لها جذور چينية حقيقية ، لم تتوحد أبدا ، وظلت تقاتل بعضها بعضا . الزنا لا يكون زنا ، إلا مع مسلمة محصنة . عدا ذلك فهو ليس جريمة . إنها القبيلة الأخرى مرة أخرى . الأنثروبولوچيا مرة أخرى . وها أعيد عليك تانى : أى تحريم للقتل بالصبط فى ذلك النسق القيمى ؟ قتل إخوة الإيمان ؛ أبناء القبيلة . العربى سيظل يقتل ويقتل حتى آخر الزمان ، چينيا هو آلة مبرمجة للقتل ، ولا يمكن أن يتعايش مع أى أحد فى أى زمان أو أى مكان !

– (مؤمنا على الكلام متنهدا :) الآن فقط لاحظت أن فكرة الخطيئة الأصلية وتوارث اللعنة التى أتت بها اليهودية ، هى بالأصل فكرة قبلية جدا !

– (ضاحكا :) على الأقل الإسلام فيه حاجة كويسة ، أنه قال لا تزر وازرة وزر أخرى !

ونس معارضا : ' ١٠٠ مرة قلنا الإسلام يقول الشىء ويفعل عكسه ، أو بالأحرى يقول كل الأشياء ويقول عكسها ، ويضمر عكس عكسهما ، ويفعل شيئا رابعا ! ' .

– (ضاحكا هو الآخر :) إيه يا حاج ؟ فى دقيقة واحدة رجعت تنفى عن الإسلام صفة القبلية !

– أنت عاوز تعرف السبب الحقيقى فى أن البدوى لو خطفت له سيارة يخطف سيارة ولو خطفت له طفل يخطف طفل ؟ إنه عقليته الحيوانية دون-الإنسانية والتى تفتقد أساسا للتفكير الابتكارى ، ولا حتى غير الابتكارى . هو فقط يرد غريزيا بفعل منعكس reflex يشابه الذى حدث ضده ؛ لو رفعت ساقك فى وجهه سيرفع ساقه ، لو ناطحته سيناطح ، لكن لن يصد ساقك أو رأسك بذراعه مثلا أبدا !



– لا تنس أننا كشعوب تربينا تربية غربية عقلانية بالأساس ،
ويستحيل أن نقبل كلام المشاخخ عن الجن والعفاريت والجزية وملكات اليمين ورضاع الكبير والمحلل وبول البعير وأجنحة الذباب .
أتخيل الإسلام جبلا يتصدع الآن فى صمت وفى لحظة واحدة سنراه ترابا قد سوى بالأرض . حقا أنا استشعر أن انتصارنا قريب !
– أضغاث أحلام أن تتخيل شيئا سيتسوى بالأرض فى لحظة ؛
أحمس احتاج ١٥ سنة لطرد الهكسوس من الدلتا ودك معاقلهم الأصلية .
نعم هناك انفضاض صامت واسع عن الإسلام ، ونعم كل الاضطرابات الجارية هى أعراض انسحاب لترك مصر لإدمانها الطويل هذا ،
لكن لا تتناس ذوى الچيينات العربية الذين سيقاتلون معركتهم الأخيرة يوما ، لأن لا بقاء لهم فى الدنيا لو اختفى الإسلام !
... باختصار يا عاشق نجيب محفوظ : الله عند البدوى أكبر قليلا من الله عندنا ؛ هو شيخ القبيلة !
وباختصار أكثر يا الهائمين بزكريا بطرس :
الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع العرب ليست مخاطبتهم فى شأن أبديتهم ، إنما فى شأن إبادتهم !

– يعنى أنت موش متضايق أن مصر بتسيب الإسلام بتاعك ؟

– مين قال إن الإسلام أو غير الإسلام بتاعى ؟ ربنا هو إللى بتاعى ! ما تعرفه الچيينات من الأديان هو أساليب الحياة ، إما إنك تبحث عن العبودية والرعب أم عن الشراكة والصداقة ، عن البلادة الفكرية أم عن الشعور العالى ، عن السنة أم عن الصوفة ، عن الناموس أم عن النعمة ، عن إحصاء الركعات أم عن النيرڤانا ؟ أنت علمانى ولا تفهم شيئا ، وزى ما بيقولوا : ' كله عند العلمانيين صابون ! ' . أنت فرحان أن الناس بتسيب الإسلام وفاكر أنهم بقوا علمانيين والنسبة الأقل مسيحيين ، بعد شوية -والأيام بيننا- ها تلقى النسبة بقت العكس ، لأن الناس بتدور على الروحانيات زيى ، والمكن إللى زيك هم الأقلية . تفتكر إيه أساليب التبشير المتبعة فى القنوات المسيحية ؟ اثنان لا ثالث لهما ، وكلاهما له أساس چيينى واضح جدا : من تميل چيييناته للصوفية المصرية يلعبون معه على وتر أنت فى الإسلام مجرد عبد يؤدى صلوات ميكانية ولا تحس بالله ولا تتلامس معه ، وعليك لو أردت معرفة الإله الحقيقى أن تترك لقلبك العنان ؛ أما ذوى الچيينات العربية فيلعبون معهم نفس لعبة مُحَمَّد : الرعب ! هل فكرت فى مصيرك الأبدى ، هذا نبى مدعى وستذهب معه لسعير جهنم وبئس المصير .

– كلام جميل ، فقط أراها ستراتيچية واحدة : أن يحثوهم على قراءة الإسلام والمسيحية بأية طريقة . الترغيب أو الترهيب ليس جوهر المسألة ، المهم أنهم بالقراءة سيسهل عليهم اكتشاف الدين الذى عليه چيييناتهم !

– (ضاحكا :) أنت بقيت معلم بقى ؟ ! فعلا ، لا شىء فى أى مجتمع بيولوچى فى الدنيا يتحرك بمعزل عن البعد الچيينى ! أنا رأيى الشخصى أن إللى موش عاجبهم الإسلام وعاوزين الصوفية بجد يروحوا للبوذية أو للهندوسية أحسن ، سيجدونها أكثر صوفية من المسيحية .

– المهم هو أن نتخلص أولا من طاغوت التقديس الإسلامى الرهيب . أكاد أجزم أن البلايين التى استثمرها خادم القرفين وأمير قطر فى بناء المساجد فى الغرب ، هى كما كل استثماراتهم فاشلة وفلوس اترمت فى الأرض !

– كيف ؟

– المعاول تنهال على الإسلام من كل صوب وحدب ، سواء بالحروب الخارجية أو بالإعلام المسيحى أو العلمانى اللذان يقوضه أيديولوچيا ، أو حتى من مجرد المشاخخ أنفسهم ممن يخرجون علينا بنصوص من صلب الإسلام لكن لم يسمع بها سواهم من قبل . تضارب فتاوى من يسمون بالأدعياء الجدد ضد الأدعياء القدامى والكل ضد نفسه ، كاف وحده لتفكيك الإسلام ، سواء كان من دعاهم للفتوى زكريا بطرس أم دعوا أنفسهم أم دعاهم الناس الذين أغرقوهم فى الدين إلى أن أضحوا أنفسهم -أى الناس- حبلا يشنق المشاخخ . لا تنس أننا كشعوب تربينا تربية غربية عقلانية بالأساس ، ويستحيل أن نقبل كلام المشاخخ عن الجن والعفاريت والجزية وملكات اليمين ورضاع الكبير والمحلل وبول البعير وأجنحة الذباب . أتخيل الإسلام جبلا يتصدع الآن فى صمت وفى لحظة واحدة سنراه ترابا قد سوى بالأرض . حقا أنا استشعر أن انتصارنا قريب !

– أضغاث أحلام أن تتخيل شيئا سيتسوى بالأرض فى لحظة ؛ أحمس احتاج ١٥ سنة لطرد الهكسوس من الدلتا ودك معاقلهم الأصلية . نعم هناك انفضاض صامت واسع عن الإسلام ، ونعم كل الاضطرابات الجارية هى أعراض انسحاب لترك مصر لإدمانها الطويل هذا ، لكن لا تتناس ذوى الچيينات العربية الذين سيقاتلون معركتهم الأخيرة يوما ، لأن لا بقاء لهم فى الدنيا لو اختفى الإسلام ! ... باختصار يا عاشق نجيب

محفوظ : الله عند البدوى أكبر قليلا من الله عندنا ؛ هو شيخ القبيلة ! وباختصار أكثر يا الهائمين بزكريا بطرس : الوسيلة الوحيدة للتفاهم مع العرب ليست مخاطبتهم فى شأن أبديتهم ، إنما فى شأن إبادتهم !



قريبا جدا سيأتى اليوم الذى ستضطر فيه للتفضيل بين أن تكون علمانيا فى مصر مسلمة أو علمانيا فى مصر مسيحية ، لأنك ببساطة لن تكون ذات العلمانى ساعتها ، ولن تكون طموحاتك لنفسك أو لبلدك هى عينها . الأمر سيختلف لو حاولتم تحويل مصر من الحالة الإسلامية القسرية المضطربة إلى العلمانية مباشرة ، وبين أن تتركوها تعود لماضيها الطبيعى المسيحى ثم تعلمنوها !

– التحول للمسيحية أربك كل المعادلات . يبدو أننا سندخل فى متاهة دينية جديدة لا تدرى كم عقدا أو قرنا تحتاج : مصر تتحول للمسيحية أولا ثم تبدأ محاولات علمنتها من الصفر ؟ !

– هو بعينه بغباوته ! حتى بفرض أن الغرب علمانيون ونحن مثلهم سواء بسواء وأن لا أحد منا يتبع دينه وأن الأديان كلها خرافة × خرافة وخيال × خيال ، فأنت لا ترى الفارق بين خرافة وخرافة وبين خيال وخيال ، بين مثل عليا تشد الناس للتسامح والمودة (أحبوا أعداءكم) ، وأخرى تشدهم للقتل والسلب (جهاد الطلب) . هذا شىء أنثروبولوچى ، ولا علاقة له بالتربية . چيپيناتنا هى التى ترفض ما ترفض ، الأهم أن لا جديد هنا ، فهى ترفضه من ١٤ قرنا . المفروض أنك أن أول من يفرح أن يطلق على الناس عندنا فى مصر علمانيون من خلفية مسيحية بدلا من علمانيين من خلفية مسلمة ، ولا برضه كله عند العلمانيين صابون ؟ ! أسمع مسلمين يقولوا الغرب تقدم لما ثار على المسيحية . صح ! لكن تفرق أنت بتثور على إيه بالظبط ؛ المستوى كان عالى أصلا وأنت بتعلى عليه . دعنى أقولها لك بكل تواضع : كعلمانى نعلم أنك لا تؤمن بشىء وتتعالى على الجميع ، لكن قريبا جدا سيأتى اليوم الذى ستضطر فيه للتفضيل بين أن تكون علمانيا فى مصر مسلمة أو علمانيا فى مصر مسيحية ، لأنك ببساطة لن تكون ذات العلمانى ساعتها ، ولن تكون طموحاتك لنفسك أو لبلدك هى عينها . الأمر سيختلف لو حاولتم تحويل مصر من الحالة الإسلامية القسرية المضطربة إلى العلمانية مباشرة ، وبين أن تتركوها تعود لماضيها الطبيعى المسيحى ثم تعلمنوها !

– هأ ! ربما الأسهل أن أصبح أنا نفسى مسيحيا ، أريح نفسى من كل هذا ، وأعيش بقية حياتى فى السلام والهدوء التى يقولون عليها !

– هأ ! هأ ! فقط هناك مشكلة واحدة : أنت المسيح-الضد ، وما تنفعش للحكاية دى خالص !

ويغنى ونس : ' أهه ده إللى موش ممكن أبدا ... ! ' ، ومرة أخرى يقرعه الحاج للاقتراب من أم كلثوم !

– على فكرة : أنا أعرف جيدا الفارق بين خرافة وخرافة وبين خيال وخيال ، لقد كانت ليلة ليلاء شربتها كلها فى صحة جدتى ! المهم إذن أنك تطلب منهم أن يتخلصوا فورا وبلا هوادة من هويتهم وخصوصيتهم وكل ما فيهما تخلف مطلق لا يحتمل التأويل ، أليس هذا مطلبا مستحيلا ؟

– أنا لا أطلب ، فقط أقول إما هذا وإما ستستمر المواجهة مع العالم حتى الانقراض ، الخروج من الجغرافيا ، زى ' المثأفين ' إللى زيك ما بيقولوا . لا حق للمتخلف إلا الانقراض الكريم ، ولو عارض فلا حل إلا الانقراض القسرى : الإبادة !



إذا كان الانتخاب الطبيعى يقودنا للتخلف فلماذا لا نجرب الانتخاب غير الطبيعى ؟ !

– هأ ! آدى أنت بتتكلم فى الانقراض ! ' الچيين الأنانى ' جاب مفعول !

– هو بعينه بغباوته ! أنت موش فاهم حاجة ، أنا بأتكلم فى الإبادة ، موش الانقراض . لا أحد يستطيع التخلص من شىء فى چيپيناته . لا يوجد سوى شىء واحد أقوى من الچيينات : الإبادة ! عمر ابتكر تاريخيا فكرة الإبادة (الإثخان فى الأرض) وكان أستاذها وصنع منها فى بدر أمرا كرهانيا هبط من فوق سبع سماوات كى يتلى للأبد ، الأمويون أبادوا الأنصار إبادة تامة ، أيضا أبادوا سلالة مُحَمَّد ولو لم ينج الطفل زين العابدين لما كان هناك شىء اسمه الأشراف اليوم ، العباسيون أبادوا كل الأمويين ، وأيضا لولا أن أفلت شخص واحد لما كانت لهم سلالة اليوم ، صلاح الدين عزل كل رجال الفاطميين عن كل نساء الفاطميين حتى ماتوا جميعا وانقرضوا ، المماليك أبادوا الأيوبيين حتى آخر شخص ، مُحَمَّد على

قطع دابر المماليك جذريا ، وهكذا : لا شيء يقضى على الچيين إلا اجتثاثه اجتثاثا كاملا من على وجه الأرض . كل الدنيا فاهمة الحكاية دى إلا أنت ! هل سألت نفسك كيف تشتغل آلية الانتخاب الطبيعى عندنا وعند غيرنا ؟ لو أجبت على هذا السؤال لوجدت الحل لمشكلة التخلف . عندنا كل من يخرج بمحدثة يحرق فى النار أو على الأقل ينفى من الأرض أو يصبح منبوذا فقيرا لا يتزوج ولا ينجب المزيد من أصحاب البدع والضلالات مثله ؛ هكذا يلعب الانتخاب الطبيعى لصالح تجذير الجمود والتخلف ؛ كل من يخرج على الجماعة يحل دمه : من بدل دينه فاقتلوه . أنت أكثر شخص يتحدث عن الديكتاتورية العسكرية اليمينية ، لكنك لا تعرف لماذا نجحت فى صنع النهضات . السبب هو أنها خلقت الآلية العكسية للانتخاب الطبيعى ؛ كل من يدعو للتخلف هو الذى يقتل ! إليك مشكلة العرب : قديما كان الانتخاب الطبيعى يشتغل لحساب القبيلة ، لحساب الجماعة البيولوچية الأكثر تماسكا ، اليوم العكس ، التماسك يؤدى للانقراض ؛ قبلية العرب وعقليتهم القنفذية يقودانهم للانقراض ، وهذا لم يفهموه أبدا ، بل هذا ليس كلاما جديدا وكان واضحا من البداية إذ فشلوا فى حكم العالم وقادوه لما تسمونه بعصور الظلام . أنت لا يمكن أن تحكم عالما كاملا بعقلية زعيم قبيلة ، هذا اسمه قهر وطغيان وليس جلوبية وتكامل ، ولو كان لدى الأسكندر أو الرومان عقلية القبيلة لما نجحوا قط ؛ لما بنوا المدن والممالك بدلا من أن يدمروها كما فعلنا نحن .

– إنه تقريبا نفس كلامى عن النهضة والديكتاتوريات العسكرية اليمينية : إذا كان الانتخاب الطبيعى يقودنا للتخلف فلماذا لا نجرب الانتخاب غير الطبيعى ؟ !

– لا وجود لشيء اسمه انتخاب غير طبيعى . هو انتخاب طبيعى ، لكن مثلا على صعيد أوسع ؛ عالمى ليكن . حتى التقنيات الجديدة ، تدخل كمجرد لاعب فى جديد فى ذات آلية الانتخاب الطبيعى . الإبادة والانقراض نفسيهما أجزاء أصيلة طوال الوقت من آلية الانتخاب الطبيعى .

– رغم ذلك لا زلت غير مقتنع أن الهوية لب المشكلة . الثقافة ليست شيئا ماديا ، ما يسمى بصدام الحضارات يتبلور فى اتجاه صدام طبقى عالمى ، بدليل التحالف بين قطاع الطرق الكبار فرنسا والصين وروسيا ، وبين قطاع الطرق الصغار العرب والمسلمين وكوريا وڤنزويلا وزيمبابوى ... إلخ . حتى الحروب الأهلية العربية نفسها تبلورت فى اتجاه حروب طبقية ، وهذا واضح فى العراق ولبنان وغزة وغيرها . ولا بأس بهذا فالحروب الطبقية هى الحروب الوحيدة المادية ، ومن ثم الوحيدة المشروعة أو التقدمية ، وما عداها فهو حروب ثقافية ، أى ما يسمى حروبا صغيرة . بما أن الثقافة ليست شيئا ماديا ، إذن فهى ثانوية . اليهود (شعب الرب المختار) كانوا أسوأ شعب على وجه الأرض (وتعريفها كما تعلم حيث رفعت روما رايتها) ، وروما لن تزدر أحدا أكثر منهم ، وكانت تقول عنهم الشعب الوحيد فى الكون الذى يظهر فيه نبى كل أسبوع ، وشعب يظهر فيه نبى كل أسبوع شعب يستحق الإبادة تأكيدا ، ولا يصلح معه سواها ، أو على الأقل مزيج من الإبادة والتشتيت ، وقد كان . هؤلاء حين تشتتوا فى شمال أوروپا البارد ، عادوا بعد ألفى سنة عصريين حداثيين علمانيين متقدمين ؛ طبعا موش فى يوم وليلة ، عارف ليه ؟ لأن الچيينات نفسها تغيرت . محارق بلاد الصقيع هى إللى صنعت عرق الأشكيناز ، بينما إللى عاشوا فى الشرق ما فيش حاجة تقريبا اتغيرت فيهم ؛ عرق ساموى زى كل الشعوب سكان المناطق الحارة إللى حواليهم .

– (ضاحكا :) قصدك اليهود ساموين لكن اتعالجوا !

– قصدى أن الهوية شيء ثانوى !

– مين قال كده ؟ كما تعرف الثقافة كاللغة ، إما أن تأخذها كلها أو تتركها كلها !

– خلاص يبقى نتركها كلها !

– ما ينفعش يا وحيد ! أنت لا تستطيع أن تنتزع شعبا من هويته ، دون قتل هذا الشعب نفسه .

– ده رأى عكس إللى كنت بتقوله دلوقت ؟ (ويضحك :) شيء مدهش ! ما تقوله إننا ها ننقرض لو تخلصنا من هويتنا ، وها ننقرض لو ما تخلصناش منها !



لو عاوز تعرف القبائل العربية إللى احتلت مصر ، المقريزى عمل عنهم كتاب مخصوص : ١٦ قبيلة معروفين بالاسم والعنوان (وعندك التحاليل الچيينية كمان) ، أغلبهم فى الدقهلية والشرقية ، ممكن تروح تدور عليهم وتقتلهم . على فكرة : لو عملت كده ها تكون خلصتنا من ٤/٣ الإخوان-الأخوان بتوع طز فى مصر ، والسلفيين بتوع الجمعية الشرجية وجماعة أنصار السبة والمجاعة !

– مع احترامى لحقيقة أن دين الفرد مكتوب فى چيناته ، ألا ترى على أرض الواقع أن تعلمن المسلم أو اعتناقه المسيحية يبدو الآن كما شكة دبوس ، وأن كل مصرى يترك الإسلام الآن يسهل المهمة أكثر وأكثر على التالى له ؟

– أو يصعبها ! أنت لا يمكنك توقع رد فعل بقية البركة الچيينية حين تهددها بسلب أوضاعها المتميزة التى اعتادت عليها بلا مجهود . أنا أخشى أن يكون رد فعل قاطنى مصر من ذوى العرق العربى عنيفا جدا . (ثم محاولا طبع النقاش بروح دعابة ، لم يستطع أحد معرفة قدر الدعابة من الجد فيها :) أنت لو عاوز تعرف القبائل العربية إللى احتلت مصر ، المقريزى عمل عنهم كتاب مخصوص : ١٦ قبيلة معروفين بالاسم والعنوان (وعندك التحاليل الچيينية كمان) ، أغلبهم فى الدقهلية والشرقية ، ممكن تروح تدور عليهم وتقتلهم . على فكرة : لو عملت كده ها تكون خلصتنا من ٤/٣ الإخوان-الأخوان بتوع طز فى مصر ، والسلفيين بتوع الجمعية الشرجية وجماعة أنصار السبة والمجاعة ! لو حد عارضك منهم قول له الإجابة إللى حفظتها لك : نحن لا نفتش فى نوايا الصدور ؛ نحن نفتش فى نوايا الخلايا !

يتضاحك الجميع إعجابا بالفكرة ، ويناغص البعض إدوارد ' ' لا كرامة لنبى فى وطنه ' دى عندكم أنتم ، عندنا إحنا لا كرامة لنبى فى قومه ' ، لكن وحيد يقول : ' بالعكس ، هذا كلام جاد جدا لأنه مادى جدا ، وشخصيا لا أستطيع مقاومة ألا يعود الإسلام لأول مرة مجرد أيديولوچية أو كلام أو أفكار لا تمسك باليد ، إنما متجسدا فى أشخاص معينين ' .

– نصيحتى أن تقرأ الكتيب بدقة ، فللوهلة الأولى قد تجعلك الأسماء التى يذكرها المقريزى تصرخ قائلا إنهم يحتلون كل مصر . هذا غير صحيح ولا تنس أن العرب كحكام كانوا يفرضون أسماء قبائلهم وفروعها على كل الأماكن دون أن يعنى هذا بالضرورة استيطانا حقيقيا . المهم ، بالنسبة لى ربما من الصعب أن أميز بسرعة بين المصرى المسيحى والمصرى المسلم ، إلا أنى لا أحتاج لأكثر من دقيقة واحدة أو حتى مجرد نظرة لأخبرك هل هذا الشخص مصرى حقيقى أم مصرى عربى . عامة المهمة ليست صعبة ، بالذات لو لم تقل لهم إنك تنتوى قتلهم . چيناتهم نقية لحد كبير لأنهم يرفضون تزويج بناتهم للمصريين ، ونادرا ما يتزوجون من بناتنا ، ثم أنهم لا يختبئون ولا ينكرون أصولهم . بالعكس ، هم يحرصون على تلقينها لأبنائهم صباح مساء . فهمت ليه هم بيقولوا طز فى مصر ؟ موش بس استعلاء المحتل ، وطبعا موش علشان خاطر عيون الإسلام ، إنما فى الأول والأخير : علشان خاطر القبيلة !

– على فكرة : إيه انطباعك أنت عن اسم المصرى ؟

– ما له ؟ كويس ! زى أى اسم .

– ده اسم إهانة وتحقير ، قبيلتنا -لعنة الله عليها- كانت تقصد به أننا انفصلنا عنهم واندمجنا مع المصريين وبقينا ' فلاحين ' أكتر من اللازم .



السيادة المنقوصة لمصر على سيناء

– أنت إذن يا كاره العرب ، من أنصار أن مصر فرعونية ؟

– (ضاحكا :) أولا أنا موش بأكره حد . هى المكنة بتحب وتكره ؟

– بتحتقر . بتعادى . موش لازم تكره !

ما الغاية من هذا الجدل ؟ لقد توصلا مثلا لحقائق حول الدين والچين ، وحول طبائع هذه المنطقة التى لا يمكن أن تصنع حضارة أبدا ، والتى حكم عليها أرسطو بهذا سلفا . لهذا السبب لم يفهم وحيد لماذا يستدرجه ضهرى للحديث عن مصر الفرعونية . مع ذلك تولد لديه إحساس داخلى بأن هذه المنطقة الفكرية لا تزال حبلى بشىء ما غامض . لم يجد سوف تكرار بعض النتائج التى سبق وتوصلا لها . قال كلاما يخص

الاقتصاد ، وكرر نظريته عن المال العربى وأنه يتبع سياسة اخطف واجرى . ومرة أخرى وصفهم بأنهم نوڤو ريش ، لا تقاليد ولا عراقة . وأردف أن مصر للأسف الشديد -وسواء بالچيينات أم بالعدوى- نسخة طبق الأصل من طريقة التفكير هذه . حكاية انحت الأرض ولما تخلص روح حتة تانية هى نفسها حكاية عبمعصورة : وضع تمويل شراء السلاح من الاتحاد السوڤييتى كأولوية لا تفوقها أولوية ، وقال السد العالى ده حاجة ما يندفعش فيها فلوس أصلا ، إما بييجى صدقة ، وإما نسرق حاجة قصاده . عند قاطع الطريق شىء واحد فقط فى الكون تحتاج لدفع النقود من أجله ، هو السلاح . بعد ذلك ، ما أن حصلت على السلاح أصبح بوسعك الحصول على كل شىء مجانا ؛ هكذا كانت الخطة الملهمة للزعيم الملهم شيخ الهجامة . بعد ذلك إذا كان أول شىء يفكر فيه قاطع الطريق هو شراء السلاح ، فإن ثانى شىء يفكر فيه بالضرورة هو اختيار أى طريق سيقطعه ، وطبعا ليس فى العالم برمته طريق أكبر ولا أهم ولا أثمن من قناة السويس . وتوالت سرقة أرض كبار الملاك عينى عينك ، ولما لقاها ما تكفيش أمم كل الثروات ، أجانب وبعدين مصريين ، وهكذا لما لا نهاية .

– وحياة رسول الله ، إللى ما بأحلف به باطل أبدا ، أنت زى ما قلت لك موش فاهم أى حاجة فى أى حاجة . كل حاجة داخلة فى بعض جوه مخك ، لدرجة أنك شايف عبمعصور مصرى . (ويشير إلى وجهه مداعبا :) هو بعينه بغباوته !

– أمى كانت بتقول كده من قبل ما تتولد أنت . أنا عارف أنه موش مصرى ، ويا ريت تحترمنى شوية .

– أنت قريت كلمتين لأرسطو بتاعك ، وبتطبقهم عميانى . مصر حاجة والعرب حاجة . الأرض حاجة غالية جدا عند المصرى ، بينما هى آخر حاجة لها قيمة عند الرحل . أنت فاكر العرب بيحاربوا إسرائيل علشان الأرض ؟ الأرض عندهم على قفا من يشيل ، تعمل ألف دولة قد إسرائيل . بيحاربوها علشان دين واحد هو إللى صح ، وعاوزين نعرف مين هو . علشان شعب واحد بس هو الشعب المختار وخير أمة ، وعاوزين نحدد مين هو . بيحاربوهم علشان الجزية ، علشان يأسلموهم ، موش علشان خلاف فى الشهر العقارى على ملكية القدس . علشان إما يحطوا جزمهم على رقبتهم وإما يقتلوهم . حافظ الأسد اقترح على عبمعصورة أن يترك إسرائيل تحتل القاهرة ، لأن ليس المهم عنده الأرض ، إنما الانتقام وشرب دم العدو والتشفى بسحله فى الشوارع . صدام أو حزب الله أو المحاكم الإسلامية الصومالية كل الدنيا دى لا يقاومون إن أرادت أميركا أو إسرائيل احتلال الأرض ، إنما يجهزون سلفا العصابات التى ستغير عليهم . هذا هو الشرف فى نظرهم . صدام اهتم بإطلاق سراح كل المجرمين الجنائيين ، ولم يهتم بوضع أية خطة عسكرية . نفس القصة مع ملالى إيران وبشار الأسد . الچانچاويد يهتمون باغتصاب النساء ونهب القمح ، بينما الأرض نفسها يمكن أن تدر عليهم أضعافا لو زرعوها . الأرض كلمة لا معنى لها فى العقل العربى ، ولا السيادة ولا الحرب ولا القتال ولا أى شىء . هذه ليست من مفردات الشرف . مصر موش كده . مظبوط أول شىء يفكر فيه البدوى شراء سلاح ، لكن أول شىء يفكر فيه المصرى هو شراء أرض . عندنا ملكية الأرض هى أعظم شرف للفلاح المصرى ، ومستعد يضحى بدمه من أجلها . عبمعصورة كزعيم للقومية العربية حاول يفكر بطريقة البدو ، لكن ده جايز أحد أسباب فشله لأنه موش بدوى حقيقى . عاوز يكسب بالجيوش ، بنى آدم أهبل بعيد عنك . موش فاهم أن البدوى اخطف واجرى . تقريبا كل حملات مصر لتأديب البدو فى السودان فشلت ، من أول ناپوليون لغاية قوات الأمم المتحدة فى دارفور . جوردون إللى فتح الصين بحالها اندبح زى الفرخة فى الخرطوم . علشان كده أنا قلقان جدا من إللى بيحصل فى أسوان من الچانچاويد . هزيمة البدو صعبة جدا . باختصار ، حافظ الأسد كان صح ، وعبمعصورة رفض كلامه موش لأنه موش عاوز يشرب دم اليهود ، إنما فى النهاية رئيس لمصر يفترض فيه أنه صعيدى بالذات ، حيث التفريط فى الأرض عار ما بعده عار . لا معنى للدولة أو للوطنية عند العربى . العلمانيون يقولون هدف مُحَمَّد كان بناء دولة ، ومن يسمون بالتنويريين أو التأويليين أو القرآنيين يقولون إنه لم يترك وصية بشكل معين دولة ، كلاهما لا يعلم أن السبب ببساطة أنه لم يكن يعرف أصلا معنى لكلمة الدولة أو الوطن . حتى حين أنشئت الدولة المسلمة لاحقا ، أنشئت من منظور قطاع الطرق ، نهب وسلب مباشرين ، ولا تخطيط للمستقبل ، لأن البدوى -من مُحَمَّد وعمر حتى صدام ومعمر- لا يرى فى نفسه استقرارا أو استثمارا فى مكان بعينه ، ولا يستطيع التفكير بهذا المنطق مطلقا حتى لو أراد . بدو سيناء هم أحد أبرز الأمثلة على التحالفات العابرة للولاءات الوطنية . هم الآن يفجرون المنشئات السياحية فى سيناء ، فى مناسبتين سنويتين محددتين ، أكتوبر وهو ذكرى عبور الجيش المصرى لسيناء ، وأپريل وهو ذكرى عودة سيناء لمصر . كانوا سعداء بالوجود الإسرائيلى بعد ١٩٦٧ ، لأنها -كدولة محتلة- كانت تتصرف كضيف على الأرض وتعتبر من حقهم كملاك افتراضيين أن يطلبوا مقابلا لكل ما يطلب منهم ، أما الدولة المصرية فتتصرف كصاحب أرض وسيادة وترى من حقها فرض قوانينها وسلطتها . لم ولن يحدث أبدا أن اعترف عرب سيناء بسلطة الحكومة المصرية ، ولم يحدث قط أن سيطرت الدولة المصرية سيطرة حقيقية على سيناء ، وهو ما يطلق عليه السيادة المنقوصة لمصر على سيناء .

– أنا عارف دى ، سيناء لا تزال محتلة ؛ إسرائيل خرجت منها لكنها لم ترجع لمصر ، إنما وقعت تحت الاحتلال العربى . النقطة إللى بأدور عليها حاجة مختلفة ، حكاية الشرف . بكلامك أنت هو شىء مشترك لا يختلف عند العرب عنه عند المصريين فى الصعيد بالذات . أما الغرب ما عندهوش المفهوم ده خالص . عنده المادية .

– ماشى ! ما اختلفناش ! لكن يظل الفارق بين مصر والعرب هائلا .

– الفرق أن مصر هى الأكثر شرا . طبقا لنظرية الراعى والزارع بتاعتك ، بما أنه الشعب الأكثر تقدما فى المحيط الساموى حوله ، الطبيعى بالتالى أن يكون الأكثر شرا ، وليس أقل دليلا على هذا من اختراعه لإله التوحيد الذى تأسست باسمه أبشع مؤسسات قهر الإنسان ومقاومة التقدم فى التاريخ ، التى هى الأديان .

– أنت بتخرف تقول إيه ؟ المصريون أطيب شعب فى المنطقة وحتى فى العالم .

– (ضاحكا :) أنا عارف ، وعارف أنك كنت ها تقول كده . هأ ! هأ !

– أنت إللى بنى آدم جاهل ، كله عندك كليشيهات ! قال إيه ' الشعوب ذات المكون الثقافى العالى شعوب خطرة بطبعها ' ؟ علشان كلهم بيسهروا للصبح أو بيتغدوا فى ٦ ساعات بقوا شعوب خطرة ؟ كالعادة ، كله عند العلمانيين صابون ، الهنود الحمر والعرب زيهم زى المصريين عندكم . آه ، مصر ذات مكون ثقافى عالى مقارنة باليونان وروما الماديتين ، لكن هذا لا يعنى بالضرورة أنهم أشرار أو مدمرين أو أعداء للحضارات التانية . ممكن تكون ثقافتهم كثيفة جدا ، وما بيناموش من الساعة ٩ زيكم يا إنجليز وأمريكان ، لكن ناس طيبين . (ثم منفجرا :) أعداء للحضارة إزاى وهم أنفسهم حضارة ؟



– يا حاج ، الفرعونية موش حضارة . مصر موش أم الدنيا زى ما بيقولوا ؛ مصر أم الدين ، لا أكثر ولا أقل !

– مصر لا أم الدنيا ولا أم الدين ؛ مصر حاجة تالتة خالص : مصر رى حياض !

– يا حاج أنت فاهم غلط خالص . فرعونية إيه ؟ الفرعونية برضه موش حضارة . زى ما قلت لك عندها بعض تقنيات صحيح ، لكن استخدمتها فى بناء المعابد والمقابر والتحنيط وليس إلا . حتى لو فيه تقنيات ، فهم لم ينشروها ، لم يستعمروا أحدا ، ولم يكونوا يوما إمبرياليين ؛ والإمبريالية كما تعلم شرط ضرورى -وإن ليس كافيا بالطبع- لأية حضارة . فى المقابل شوف إيه إللى خلد من اليونان وروما : الأكروبول والكوليسيام ؛ يعنى أماكن اللهو والفجور . رغم أن الهرم كان أعلى وأضخم بناية فى العالم إلا أنه لم يثر أدنى انطباع عند مؤرخى اليونان والرومان ، بل ورغم أن الإسكندر جعل الأسكندرية عاصمة للعالم ردحا من الزمان ، أو كما قال پلوتارك إن أول محاولة للتحضر فى مصر هى ما قام به الأسكندر من بناء الأسكندرية ، ولولاها لظل المصريين فى ظلام التخلف للأبد ، إلا أن تصنيفهم للمصريين كبرابرة لم يتزحزح رغم ذلك قيد أنملة . إله التوحيد فكرة نشأت فى دماغ أخناتون العامر ونقلها عنه موسى العابر وفجرها مُحَمَّد العاهر لحدودها القصوى : ' وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' . طبعا سها أحيانا كثيرة وجسد ذلك اللهو الخفى تجسيدات كثيرة بعضها ساذج ومضحك ، وهو قطعا لم يزد الإله توحيدا كما يزعم ، بل فقط زاده بطشا وسفاهة ؛ لكن ما علينا ، المهم أن الفكرة الشيطانية تلك تظل دائما أبدا إبداعا مصريا أصيلا ، بل أهم وأشهر إبداع مصرى إطلاقا !

– أصحاب أسوأ اختراع فى التاريخ ، هذا كل ما تراه فيهم بعيونك العلمانية الضريرة ؟

– يا حاج ، الفرعونية موش حضارة . مصر موش أم الدنيا زى ما بيقولوا ؛ مصر أم الدين ، لا أكثر ولا أقل !

– مصر لا أم الدنيا ولا أم الدين ؛ مصر حاجة تالتة خالص : مصر رى حياض ! لا هى مناطق باردة وناس نشيطة لأن النشاط بيدفيهم زى أوروبا وغيرها ، لكن فى نفس الوقت موش بدو نهب وسلب وقتل وقطع طريق . اسمه رى حياض ، فهمت ؟ ! رى حياض ! عارف يعنى إيه ؟ آه ! ها ! مصر رى حياض ؛ شعب له ٧٠٠٠ سنة ينام نص السنة فى انتظار الفيضان والنص التانى فى انتظار أنه يمشى . يعنى مصر موش هبة النيل . يعنى مصر نكبة النيل ! (لكنه سريعا ما يستدرك بالرأى النقيض :) بعدين أشرح لك رى حياض معناها إيه ، جايز يطلع سر الإحساس العالى بالزمن ودورة الزمن ، جايز هو سر الهدوء والتأمل ، جايز سر ازدهار الفنون ، جايز سر الحس القومى فى مشروعات فترة عدم الانهماك فى

الأرض ، جايز حاجات كتير إلا الكسل . مشكلتك أن المسائل عندك بسيطة ومريحة . أنت بتقول الناس دى بدو ومتخلفين وقطاع طرق ، وفاكر أنك لقيت الحل لمشاكل الدنيا ؛ تكتب مقالتين عن الاقتصاد الحر أو عن العلمانية ، وهم ها يتكسفوا منك ويبقوا عصريين ، ويشكروك أنك لقيت لهم التايهة ؛ فاكر أنك بكلمتين ممكن تاخدهم من إللى هم فيه وتدورهم بين يوم وليلة فى طاحونة الرأسمالية بتاعتك . سيبك من سام وحام وكل الكلام الفاضى ده الذى لا أصل فى التاريخ ؛ عرقيا وچينيا المصريون طبعا ليسوا عربا ، ليسوا چانچاويد بنى هاشم أو غيرها ، وفى نفس الوقت ليسوا ساموبين بفرض أن للكلمة معنى حقيقى يمكن أن يميز اليهود القدامى چينيا أو أنثروپولوچيا ، كذلك هم ليسوا حتى أفارقة وإن كانت جذورهم هناك . المصريون عرق فريد من نوعه تماما ، لا نظير له فى العالم كله ؛ تركيبة لا وجود لها فى كل الدنيا ، وإللى بيكلمك ده لف العالم ، وعارف بيقول إيه !

ويدلف ونس كالعادة للغناء : ' أدينا بندردش ... ورانا أيه ؟ ... أوسخ ناس ! ... نحب نتعرف ... ورانا إيه ؟ ... أزبل ناس ! ' ، ثم يصيح فجأة : ' أهبل ناس ، طالما بيحدفوا [بتشديد الدال] فلوسهم فى البورصة ، وإحنا نكسب ! ' ، ثم يعود لغناء من نوع آخر ' عواد باع أرضه ' ، وأخيرا يلقى بإحدى حكمه التى يعتقد فى عمقها الشديد : ' بس أقلها يا حاج فى مصر ما بنقولش على بتوع المغارات مغاوير ، بنقول عليهم مطاريد ؛ إحنا بنحترم الفتوات والقبضايات بس . برضه بنحترم من يشطرون ما بين ساقى المرأة الوحيدة ليلا فى الخلاء ، وكلمة شاطر وشطار كلمة حلوة أوى عندنا ! ' .

ويواصل الحاج وكأن هذه ترهات ، وكأن مصر تخصه وتخصصه والتى لا يصح أن يتكلم عنها أحد سواه : ' لماذا لم يقل أحد إن السودان أو إثيوپيا مثلا هبة النيل ، والمياه عندهم أضعاف مصر . النيل نهر ضخم وعنيف ، ولا يمكن أن يكون هبة لشعوب ضعيفة كهذه . حتى عندما يضعف قرب المصب ، كان أقوى من أن يروضه المصريون ، وانتظروا حتى جاءهم الإنجليز . المفارقة الأدهى أنه عندما أحبوا لأول مرة عمل شىء مفيد لبلدهم بأنفسهم كالسد العالى (على الأقل كان يفترض فيه أن ينهى حقبة الـ ٧٠٠٠ سنة من دورة الفيضان ، ويبدأ فى ضم المصريين لزمرة بقية العرق البشرى الأسوياء چينيا) ، كانوا كمن جاء ليكحلها فأعماها . أعادوا الوضع لأسوأ مما كان عليه . إذ ما حدث أنهم لم يبالوا بتكبيدها فى مقابله أبهظ ثمن فى تاريخها كله : الوقوف موقف العداء من كل العالم المتقدم ، ومن ثم هزيمة مخيفة أبدية ولا شفاء منها . النهارده عدى على حرب أكتوبر ٣٧ سنة ، لكن افتح أية صحيفة أو أية قناة تليڤيچين ، وأنت تعرف إذا كان ده كلام ناس منتصرة ولا مهزومة . مصر يا أخ شىء ما مرش على أرسطو ، ولا حتى على خياله . خد مينا مثلا : نموذج للرحرحة ، ٧٠٠٠ سنة فيضان باينة على جسمه المرهرط . شغل ، نو ! تعال عندى المزرعة وأثبت لك الكلام ده فى ظرف ساعة واحدة ! أو تتعب نفسك ليه ؟ فاكر الواد متولى إللى قلنا له يجيب لنا بن من باب اللوق عمل إيه ؟ أنا شخصيا لا أحترم أحدا لا يحب مهنته ، من يجمع القمامة يجب أن يعشق القمامة ؛ يجب أن يرى الخير الهائل فيها ، وإلا فهو شخص غير محترم ' .

– خلاصة كلامك أن المصريين ما لهومش فى الحداثة ، المصريون لهم فقط فى الحداقة . الفهلوة هى أخص خصائص الشعب المصرى !

ويعود الغناء لأصله : ' أحدق ناس ! ' .

– يا حاج أنت دايما بتقول دول أطيب ناس ؟

– ما هم فعلا أطيب ناس برضه ! الوجه الآخر للفهلوة هو الجدعنة . هم ' فجر الضمير ' ، ما قريتش الكتاب ده ؟

– يا فرحتى بفجر الضمير ! الثورات التقنية الثلاث ، روما وإنجلترا وأميركا ، لا تدين بشىء لمصر رغم ما كان لديها من تقنيات عالية ، بينما تدين بكل شىء لفكر اليونان ، رغم أنها لم تصل أحيانا لذات التقنيات . هذا كان فكر الحياة ، وتلك كانت تقنيات الموت ! ... دكتور دوكينز كان سيسميه فجر التغفيل !

– تنكر أن الأخلاق المسيحية إللى بيتباهى بها الغرب مأخوذة عن مصر أصلا ؟

– ربما يعتزون بها ، لكن فعليا لا يطبقون إلا ' أخلاق ' أرسطو المادية العلمانية . هذه ليست مثاليات ساذجة ، إنما الأخلاق البناءة العملية الحقيقية .

– جايز عندك حق ! المهم ! أنا إللى على قلبى على لسانى ، وموش مكنة ، كمپيوتر ، أرسطو ، لوح تلج ، زيك . لكن الحال المايل ما يعجبنيش ، وكل دى عيال خرعة وبايظة .

– كمان إخواتك بيقولوا عليك غير كده . قلبك طيب وأنك مبوظ العمال فى الأرض ومدلعهم .

– من ده على آده . أحيانا دمى يغلى منهم ومن إهمالهم ، وأحيانا يصعبوا على وأقول دول غلابة .

– أنت بتجيب نظرياتك دى منين ؟

– موش من حد ، من إللى بأشوفه وبأحسه بنفسى فى الناس .

– كنت فاكرك ها تقول نظرية جمال حمدان فى ' عبقرية مصر ' .

يضحك ضهرى : ' أنت قلت مين ؟ جمال حمدان و' عبقرية مصر ' ؟ على فكرة اسمها ' شخصية مصر ' . نووووو ! موش دى خالص ! دى بأعتبرها خيال علمى رخيص ! ' .

– أنت قلت نووووو ؟ أنت كمان بتعرف تقول نووووو ؟ يا سلام ! أوووووه !

– (مقلدا الرئيس السادات :) إحنا هنا فى مصر ما بنخاااافش ، ٧٠٠٠ سنة حضاررررة !

ونس يجرب بدوره تقليد السادات بهذه العبارة وبعبارات شهيرة أخرى .

– حمدان ده بيقول لك المصريين ما ينفعوش إلا فى التجارة . لو كان قال أى حاجة تانى كنت صدقته ! لو المصريون شطار فعلا فى التجارة ، تقول إيه عن الفينيقيين أو حتى عن بعر الجزيرة ؟ روح اسأل أختى مديرة البنك تقول لك إحنا آخر ناس فى العالم نفهم فى البيزنس !

– جايز الراجل كان عاوز يقول إنهم ما بيفهموش فى حاجة ، ولم يحب أو خاف أن يقولها صريحة ، وذكر أنهم ناجحين فى أبعد الأشياء احتمالية هو تلميح غير مباشر بذلك ؟

– موضوع مصر ده يطول ، فيه جديد وفيه قديم ، فيه أصلى وفيه وافد ، فيه خيال علمى وفيه بحث علمى ، فيه إزاى يخترعوا المراكب وما يجبوش السفر ، فيه إزاى اخترعوا العجلة الحربية وما يجبوش الحرب ، مصر دى موضوع منيل بنيلة ، وما تقلبش المواجع وحياتك .

أما وحيد فيجتر الكلام السابق ، ويتساءل فى إعجاب : ' خيال علمى رخيص ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .

... أيا ما كان ، هنا تنقطع فجأة الحوارات المطولة لصالة العملاء بشركة رمسيس ، السخيفة أغلب الوقت المتفردة أحيانا ، ذلك لأن حدثا جللا قد وقع وأنسى الجميع كل شىء !

جـ ماضى قريب

خبر العمر !

صاح مينا : ' يا جماعة ! ' .

ردوا بصوت واحد : ' أيوه ! ' .

- خبر العمر !

- إيه ؟

- البنك الأهلى !

- ما له ؟



تطاولات مُحَمَّد حسنين هلوكة فاقت كل الحدود يا أستاذ .

الشيطان يعظ ! تصور وصلت به السفالة أن يتكلم فى الاقتصاد !

تطاولات مُحَمَّد حسنين هلوكة فاقت كل الحدود يا أستاذ . الشيطان يعظ ! تصور وصلت به السفالة أن يتكلم فى الاقتصاد ! أوه ، هالة الحبيبة ! يا لهول ما احتواه شريطك . ربما فعلتك هى السبب فى فشل فيلم توم كروز . بل ربما أنت السبب فى فشل كل حياتى . سامحينى يا صغيرتى . ما هذا الذى أقوله ؟ هل بدأت استخدم الشماعات كالجدع إياه ؟ إن الذى كان يوما أشهر صحفى فى مصر وفى الدول المحيطة ، يتحدث اليوم فى الاقتصاد دون أن يعرف مجرد الفارق بين كلمتى دائن ومدين . لقد خجلت حتى من الاتصال بأصدقائى أقاربه ونسبائه فى كيوبيد . كنت أعرف محنتهم منه وتبرؤهم منه ومن أفكاره علنا ، ولم أرد الإثقال عليهم بسخريتى . إنه يشن حملة شعواء ضد من قالوا إن مصر كانت دائنة لبريطانيا ، ويعظهم بالعودة لوثائقه التى يقدمها ككشوفات جغرافية أهم من اكتشاف أميركا ، بينما هو نفسه لم يقرأ يوما سطرا فى حسابه البنكى إلا الرقم الأخير الذى ينبئه بما حصل عليه من تلك القناة ، التى يكنيها ضهرى عن حق بالجعيرة ؟ هو يقصد أيضا أن مصر دائنة ، يقول نفس ما يقوله الجميع ، لكنه يحول الأمر لحرب مقدسة موهومة . ببساطة هذا التافه لا يعرف الفارق بين الكلمتين . يستخدمهما دون أن يدرى استخداما معكوسا . إننا حتى اللحظة نتحدث فى اللغة ، وليس بعد فى الاقتصاد والمحاسبة ، دائن تعنى دائن ومدين تعنى مدين .

ثم ما كل هذه التمهيدات المنمقة ؟ تمهيدات لا تنتهى لكل عبارة من كلامه . كل جملة يسبقها دوما إما بـ ' حاجة مهمة جدا جدا ' ، وإما ' حاجة غريبة أوى أوى ' . أنا شخصيا لم أستخدم مرة واحدة فى حياته أية عبارة من الاثنين ، بل لم أستخدم مطلقا أى وصف من أى نوع لكلامى . لأنه ببساطة حقيقية لا أعرف إن كان كلامى مهما جدا جدا أم لا ، أو غريبا أوى أوى أم لا . فهذه أمور يحكم عليها القارئ أو يشعرها هو وحده ، ولا تهمنى أنا نفسى من قريب أو بعيد . وقطعا أربأ بنفسى عن استخدام أسلوب مكشوف كهذا للفت الانتباه لشىء تافه أقوله ، أو فى المقابل لأنى أكذب وأريد صنع إلهاء أو تلهية distraction رخيص على طريقة حواة الشوارع .

أوه ، أيتها اللحوح ! حقا لدى مشكلة يجب أن أحسمها أولا ، إذا كنت مضطرا بالفعل للرد على ما قال ذلك الهلوكة . أنا لا أعرف بالدقة هل هو ربيب عبمعصورة أم لا . فارق السن ليس المعيار بالضرورة . ربما العكس هو الصحيح ، هلوكة هو العقل وعبمعصورة الربيب . لقد سبق وحسمت مؤخرا مسألة مشابهة ، قبلها لم أكن أعرف من هو التابع لمن : مُحَمَّد بن بحيرة أم عمر بن الخطاب والحطابة ؟ أوه ! نسيت أن أخبرك أن أنساب أشراف الكون قد لحقتها مؤخرا بعض التصحيحات ، لأن ثبت أنهم جميعا أبناء سفاح . قصة مُحَمَّد التى كتبها خليل عبد الكريم قبل عقد من الزمان أصبحت الآن أشهر من نار على علم . بالمثل يقال إن والد عمر وأمه أخوان ، كلاهما كان ابن زنا وإلقى رضيعا على كوم الزبالة ولما كبرا التقيا وتلاقحا ، وأتيا بابن حمال الحطب هذا . أحتاج مهلة من الوقت حتى أكون مثل ذلك الرأى أو غيره . ربما هلوكة على حق . هو يعاف دائما أن يسمى ناصريا . ربما يقصد أن ناصر هو الذى كان هلوكيا . أو ربما هناك مشكلة تخص أنسابهما هما أيضا ، لا أعلم . سامحينى ، لقد أصبحت أشك الآن فى كل أنساب بنى بعرة ، سواء الباعرة منهم أو المستبعرة . أنا أتهرب ؟ هذا ليس تهربا . أنا لا أراوغ ولا أناور . أنتى تتهمينى

الآن بأسوأ ما يوصف به هلوكة نفسه . على أية حال عندك حق ! ربما لا داعى لمعرفه شىء كذلك أصلا . أنا لا أعرف ذلك ولا يهمنى أن أعرف . ما سأناقشه هنا هو فكر مجرد لا أكثر .

المهم ! هو يروى بتشويق كبير أكبر عملية ' نزح ' لغطاء الذهب المصرى . سأكتب : هنا اسمح لى عزيزى القارئ أن لا أتوقف من الآن فصاعدا عند كل كلمة أو مصطلح ، لأنها جميعا إما خطأ ، أو ببساطة تدل على شىء آخر . فمثلا كلمة غطاء الذهب هذه ، لم يستخدمها إطلاقا ، إما لجهله التام بها ، وهو الأرجح حسبما يستشف أصغر طالب اقتصاد أو محاسبة من طريقة كلامه فى الاقتصاد والمحاسبة ، أو لعلمه بها وجهله بمعناها ، أو لأن كل ما يهمه هو أن يصور الأمر على أنه مجرد ' كنز ' سرق وتم حمله فى ' صرر ' و' سحارات ' .

نعم -عزيزى القارئ- معظم ما قاله من وقائع صحيح . نعم كان هناك رصيد ذهب ملك لمصر . ونعم أخذته إنجلترا ، ونعم ذهب فى ' صرر ' و' سحارات ' لتمويل أمراء السعودية فى الثورة العربية ، أو لنقل حتى ذهب بعضه ربما لبريطانيا نفسها . لكن ما هى القصة ؟ ما هى المشكلة ؟ بادئ ذى بدء هو يتحدث عن البنك الأهلى باعتباره البنك المركزى المصرى . ذلك أن ثقافته تنحصر فى أنه رأى الجنيهات القديمة تصدر عن البنك الأهلى المصرى . ويتحدث عن أن اللورد كرومر قد أسسه ، وهذه نكتة أخرى . أقصد نكتتين . الأولى أن العكس هو الأقرب للصحة ، فكرومر كان يشعر بالغيرة لأن حكام مصر كانوا يعتبرون السير كاسيل المؤسس الرئيس للبنك ، أهم بالنسبة لهم من المندوب السامى نفسه . والثانية أن البائس لا يعرف أن من الممكن تأسيس بيزنس بعيدا عن الحكومة . وكلامه عن ' رجال الأعمال إللى عاوزهم يبقوا كويسين ' وهو يصب نقمته عليهم لتعاملهم مع إسرائيل ، يقصد فيه بـ ' كويسين ' هذه أن لا يكون لهم أية رؤية أو وظيفة فى الحياة إلا دفع الضرائب للحكومة الاشتراكية ، ولتمويل حروبها القومجية العربجية ضد أميركا وإسرائيل . كلا ، بل هناك نكتة ثالثة ، أن الهلوكة لم يسأل نفسه ماذا كانوا يؤسسون فى نفس ذات الوقت فى شبه جزيرة البعر التى أراد فرض هويتها علينا : كان الشيخ مُحَمَّد عبد الوهاب يؤسس مصرفه الخاص الذى سيفئ بخيراته التى لا تنضب على المنطقة لأكثر من قرن تال !

الشق الخبيث فى الحديث عن البنك الأهلى المصرى ' كبنك مركزى ' ، هو الإيحاء السافل بأن أمواله هى أموال الشعب ! ماذا يعرف هذا الضرير عقليا ، عن البنك الأهلى وعن تاريخه وعن أصحابه وعن مؤسسيه ؟ إنه حتى يقع فى منطقة الجهل باللغة مرة أخرى . الاسم ، مجرد الاسم ! اسمه البنك الأهلى ، وليس مثلا البنك الحكومى ، أو الخديوى ، أو الأميرى . الاسم فى حد ذاته أكبر وأعظم راية رفعت فى التاريخ المصرى تعلن مولد اختراع شىء جديد اسمه الملكية الخصوصية فى هذا البلد ، ملكية مستقلة بعيدا عن ملك الملك وفرعنة الفرعون . أما من منظور الإنجليز واللغة الإنجليزية فهو البنك القومى Nationl ، أى الإقليمى أو المحلى ، بمعنى ليس الإمبراطورى (هذا طبعا طبقا لمفهومهم الساذج أن كل شعوب العالم تصلح دولا قومية ، كما تمثلوا قارتهم هم بعد حقبة الحروب الدينية !) .

عزيزتى أين أنت ؟ اليوم مناسبة رائعة لاستذكار حوارنا القديم هذا عن البنك الأهلى . ليتك تشاركينى ولو ليوم مغامرة رمسيس العجيبة التافهة هذه . المسكين لم يفهم أبدا يا هالة أن التخلص من غطاء الذهب هو تحديث وليس نهبا . إصدار ورق نقدى بأكبر من قيمة المتوافر فعليا كغطاء ذهب ، إبان الحرب العالمية الأولى ، ليس عملية نهب إنجليزى للذهب المصرى ، بل تطور طبيعى . حجم تعاملات الناس كبر جدا ، ولا بد من حجم للنقد أكبر مما يتوافر من معدن الذهب فى الكوكب ، أو مما تملكه أية دولة مفردة منه . أية دولة متقدمة فى العالم اكتشفت أن اقتصادها كبر ، بحيث لا تغطى قطع المعدن الذهبية كل التعاملات بين الناس ، كانت تصدر عملات ورقية ، لها رصيد جزئى من الذهب ربما ، لكن هذا الرصيد سرعان ما صغر حتى تناساه الجميع فى كل مكان ولم يعد ذا أية قيمة ، بل القيمة فقط فى قيمة مصدر السند الذى تعهد بقيمته . ورقة النقد هو ورقة دين ، سند مالى كأى سند مالى ، لا يجب بالضرورة أن تصدره الدولة ، ومن هنا كان إصدار بنك قطاع خصوصى له . بل ربما أصلا ' لا يجب ' أن تصدره الدولة ، إنما يحق لأى أحد إصداره ، والناس هى الفيصل ، قدرة الاختيار the power of choice كما يسميها ميلتون فريدمان ، لكن هذه قصة أخرى . وهو حين يذكرنا بأن المصريين لم يكونوا يحترمون أوراق النقد ويحترمون الذهب ، لا يقدم كما تخيل دليلا إضافيا على أن تلك كانت عملية نهب ، إنما فى الواقع لم يثبت أكثر من أن هذا الشعب المصرى شعب جاهل بدائى متخلف لا يفهم شيئا ، على الأقل لا يفهم القيمة الحقيقية لهذا الاختراع الجديد ، الورقة أم جملين !

هو هنا يلجأ لتهويل الأمر . ٣٥ مليون جنيه ذهبى . ممتاز ! الجنيه الذهبى الآن بـ ٦٢٠ جنيها ، إذن نحن بصدد عشرات البلايين . أيضا ممتاز ! لكن يظل الجنيه الذهبى هو الجنيه الذهبى ، كذا جرام من الذهب ، كون الواحد منها يساوى الآن ٦٢٠ جنيها ، فليس لأن طرأت مثلا

زيادة على عدد بروتونات معدن الذهب رفعت من قيمته ، إنما لأن الجنيه المصرى الذى كان أيامها يساوى جنيها ذهبيا ، وأكثر قليلا من الجنيه الستر لينى ، هو الذى انهار ، فلم يعد يساوى أكثر من جزء واحد من ٦٢٠ جزءا من الجنيه الذهبى . من الذى أدى لانهيار الاقتصاد المصرى ، ومن ثم لانهيار قيمة الجنيه المصرى ، ولتخلف وشلل وإفقار وموات كل شىء فى هذا البلد ، واتضاح أن كل ما فيه لا يساوى شيئا يوم حانت لحظة الحقيقة أيام السادات واضطرت للانفتاح على العالم ؟ أعتقد أن الهلوكة أدرى منا جميعا بالإجابة ، هذا لو نظر فى المرآة ، أو لو ذهب لقراءة الفاتحة على قبر زعيمه .

ثم يقول إن إنجلترا أخذت ذلك الذهب وأعطت به صكوكا للبنك الأهلى مستحقة على بنك إنجلترا . ما المشكلة ؟ بيع وشراء ! يقول إنهم أعطوا الذهب لحكام السعودية . يا للنكتة ! إنه يكشف بنفسه لماذا اشتروه ، أو بالأحرى احتاجوا لشرائه . هؤلاء السعوديون بدائيون ولا يعرفون أوراق النقد ، وكل تعاملاتهم بالمعادن ، بقطع الذهب مدققة الوزن ، ويحتاجون لتلك الجنيهات التى تنوء بوزنها الصرر والسحارات لتمويل أى شىء .

هل مولنا نحن الثورة العربية ، أم مولها الإنجليز ؟ الإجابة واضحة ، لكنه هو لم يجب أبدا ، ونقل الحديث فجأة من الحرب العالمية الأولى للحرب العالمية الثانية . على أية حال الإجابة هى ما يلى : الأمر ببساطة يعتمد على مصير ما أخذناه من ورق مقابل ذهبنا . هل بللناه وشربنا ماءه ، أم سحبناه من بنك إنجلترا ؟

هنا تأتى المرحلة الثالثة من فيلمه المثير جدا ' النهب الكبير ' ، وأعترف أنه كان أكثر إثارة من الفيلم الذى كنت أشتغل عليه حينها : بعد أن ضحك علينا الإنجليز وحولوا الذهب لورق ، ثم بعد أن ضحكوا علينا وأخذوا الذهب نفسه مقابل نوع آخر من الورق ، الآن ما مصير هذا الورق الأخير ؟ يثير هلوكة جلبة حول قيمة ديون مصر لإنجلترا . يقول إن طعاما كثيرا ذهب للجيوش الإنجليزية ، والسكك الحديدية استهلكت والطرق تآكلت ... إلخ . كلام ممتاز . بعد لحظة واحدة نكتشف أن ما تدين به مصر إنجلترا ٤٣٠ مليونا وليس ٣٥ مليونا . من أين جاء الفارق إذن ؟ بل ربما ليس فارقا أصلا ، والأول قد سدد وهذه ديون مستجدة خلال الحرب الثانية . ثم هل ' خربت ' بريطانيا الطرق فعلا ؟ هل ' خربت ' السكك الحديدية فعلا ؟ هل نسى أنهم من بنوها أصلا ؟ وأن لن يعيد بناءها أو توسيعها أو حتى إمدادها بالقاطرات والعربات سواهم ؟ تلك التفوهات لا تعتبر فى معاييرى -الأخلاقية والعلمية معا- إلا شيئا واحدا : سفالة !

يتحدث عن بطولة هائلة لموظف طالب ببحث هذه الديون و' حاربوه بحملات ' ، ومع احترامى لشخص كهذا ، لا أعرف شيئا عنه أو عن نواياه ، فقد أساء هلوكة إليه . أساء له بأن أضافه لمسلسل البطولات التى اخترعتها الناصرية واخترعها اليسار ، بينما لا بطولة فى هذا مطلقا ، أو ربما هجامة وضعاء صنعوا منهم أبطالا قوميين كأدهم الشرقاوى بتاع ضهرى وونس مثلا (بل وحتى يضحكوا بها على المصريين المتدينين لوجه الله لا لوجه النهب والسلب ، جعلوا صديقه بدران-يهوذا يخونه فى العشاء الأخير ، لكن إيش جاب لجاب ؟ !) . إذن مصيرها كما هو واضح أنها ديون لمصر مستحقة على إنجلترا ، وكل ما فعله المسئولون المصريون أن تفاوضوا على تقييمها وتحديدها . يقول ' أنا لا أعلم كيف قيمت الأشياء ، الله وحده يعلم ! ' . ربما الله يعلم ، ربما هؤلاء المسئولون المصريون يعلمون ، فقط المؤكد أنك أنت لا تعلم !

الآن وقد أصبحت المسألة ليست ذهبا ' نهب ' فى الحرب العالمية الأولى ، إنما ' ديون ' مستحقة للبنك الأهلى (القطاع الخصوصى غير المصرى) ، أو للسكك الحديدية أو غيرها ممن كلهم تقريبا أجانب ، لحساب بنك إنجلترا . قد نقول له هنا ' وأنت مالك ؟ ' ، أو ' يا داخل بين البصلة وقشرتها ' . يمكنك أن تأتى لتسأل ضهرى عن تاريخ الملكية الزراعية فى مصر . سيعرف لك الملكيات بأنها تملك ، وبالأحرى لو شئت الدقة الملوك هم الآلهة نفسها ، وليس كما فى حلقة أخرى حسبما تقولين يا هالة ، يعرف أصل الملوك بسفالة (سفالة الجمهورية الفرنسية ، من غيرها ؟ !) ، أنهم شيوخ قبائل ذوى إدعاءات دينية . لكن المهم ، أيا ما يكن ، سواء كانت الدين للبنك الأهلى ، أو بعضها حتى للحكومة ، أموال شعب ، هل ' أكلتها ' إنجلترا على مصر ؟ هو نفسه لا يقول هذا ، إنما يقول إنها سويت على مراحل . ما المشكلة ؟ بريطانيا كانت خارجة من حرب . يتناسى أن تلك أحوال عالم خارج كله من حرب . مع ذلك بريطانيا لم تقل مثلا إنها كانت تدافع عن مصر بموجب الاتفاقات ، وأن على مصر كما أية دولة أخرى فى العالم صغرت أو كبرت ، تحمل نصيبها من كلفة السلام العالمى ، ومن ثم ترفض بريطانيا رد النقود . بل ما حدث ببساطة أن وافق تشرتشل على محاسبة مصر على كل كلفة الحرب حتى آخر پينى ، لا لشىء إلا لأنها بريطانيا . لأنها السيد ، السيد الذى ينعم على الرعية ، لا الذى ' ينهبهم ' كما تقول الأساطير اليسارية والناصرية .

يثير جلبة أخرى عن كونها لم تكن تدفع نقدا . أيضا ما المشكلة ؟ لقد جاءت كسلع . كمصانع ، كحداثة ! هل لم نكن فى حاجة لتلك السلع ؟ هل فرضت علينا ؟ هل كانت سلعا فاسدة كسلع مصانعكم الناصرية ؟ لو رفضوا إعطاءنا السلع وأعطونا نقودا ، ألم يكن سيقول هلوكة إنهم يحجبون عنا التقنية ، يحاصروننا ، ويحكمون علينا بالتخلف . الحقيقة أنه ربما يكون الهلوكة على حق ، فمن يحتاج أصلا لدفع نقود مقابل الحداثة ، إذا كان من الممكن أن تنهبها أو تسرقها ؟ المفاجأة بعد كل ذلك أن يكشف لنا هلوكة أن ريچيم عبمعصورة الذى سرق أضعافا مضاعفة لها فيما بعد ، حصل هو نفسه على ١٣٥ مليونا ستراينيا منها مباشرة ونقدا . تصورى : مباشرة ونقدا ؟ ! وتصورى : هو الذى يقول ؟ ! أى هذا الذى أسهمت تلك النقود فى تمويل حصوله شخصيا طوال الوقت على ما أسموه الحد الأقصى للأجور ، نهبا من أموال الشعب (أقصد طبعا الشعب الإنجليزى !) .

بعد ذلك يدلف البائس الذى لا يدرى أين يناقض نفسه ، لموضوع آخر . أوه ! يا لكما من لا شىء يا ضهرى ويا ونس . أنتما غلابة بجد . عفويان لا أكثر . شخصان متناقضان جائز ، لكن قطعا لستما أشرارا كصاحبنا هذا . لكم أنا بقاس على شخصين رائعين مثلكما . إذا كان منظر ' النكسة ' و' الصمود والتصدى ' و' اللا سلم واللا حرب ' و' الممانعة ' ، بكل مكره وخبثه وجبروته ، لا يلحظ هو نفسه أنه يقول الشىء وعكسه فى نفس الجملة . يقول إن كل شىء كان مملوكا للأجانب ، ويعدد بالأرقام الملكيات الأجنبية لكل شىء تقريبا ، ويقول إن هذا معناه أن مصر نهبت . يقول إن حتى طلعت حرب نفسه كان مملوكا للأجانب وأزيح من بنك مصر . يصورها كمؤامرة من ' البنك المركزى ' ، السلطة ، الإنجليز ، ولا يعرف أن هكذا بديهيات الاقتصاد ، وقروض البنك الأهلى فلوس ناس ، وليست بحر ضرائب يغترف كما تعود هو .

جدى كان مديرا بإحدى شركات بنك مصر ، وهو نفسه كان يقول إن كان يقول إن الإمعان فى التمصير خيار خاطئ ، توجه فى غير الاتجاه الصحيح ومآله الخراب . كان يقول إن طموحاتهم كانت أكبر من حجمهم الحقيقى ، وكان لا بد لما حدث أن يحدث . البنك الأهلى كان أمامه إما أن يستولى عليهم ، أو يتركهم ينهارون ، لكن أن يكون دوره تجاه بنك منافس هو إنقاذه من الإفلاس ، فهذا مما لم يسمع به أحد فى كل التاريخ . لو كنت مكانهم لما فعلت غير ما فعلوا . مع احترامى ، طلعت حرب ، ومع ملاحظة مجاراته الشعبوية لخطاب ما سمى بالحركة الوطنية أو التمصير أو للقيم الدينية البالية ، هو ليس أحمد لطفى السيد ، وطموحات النهضة قبل ١٩١٩ تختلف جذريا عن أى شىء بعد ١٩١٩ . وشئنا أم أبينا طلعت حرب هو أول تجسيد كبير لذلك السقوط (لماذا اشتغلت عنده يا جدى ، ولم تستمع لنصيحة والدك بالاشتغال فى السكك الحديدية ، أو حتى بقيت فى إنجلترا أنت وجدتى ؟ !) . بالمعايير التى لا ترحم لأرقام الميزانيات ، هو لم يكن اقتصاديا كفئا ، ولا حتى ربما مديرا كفئا ، ولا يمكن للبنك الأهلى الاحتفاظ به . أنا نفسى خضت فى طموحات أكبر من قدراتى وأفلست . لم أولول ، ولا أعتقد حتى أن طلعت حرب ولول ! فقط مات فى هدوء بعد سنتين . إن لغة الأرقام لا تعرف الشعارات أيا هلوكة المسكين ، وأيضا لا تعرف الولولة !



هل تعلمين نص قانون الجزية الذى وضعه بن العاص والعاصية لمصر ؟

قانون بسيط جدا من مادة واحدة : أنتم ' خزانة ' لنا نأخذ منها قدر ما نشاء وقت ما نشاء ؟

مع هذا أنا لم أكن أتحدث عن الجزية أو الخراج أو المصادرة لصالح بيت المال ،

أو عن ثروة كل واحد من تلك العصابات العربية التى اجتاحت مصر المقدونية-الرومانية ،

فقط أتحدث عن ٥٥٠ طنا من الذهب ثروة شخصية خالصة لابن العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر !

هذه ليست إلا نقطة فى بحر فى تاريخ النهب العربى-المسلم (وربما بالتبعية أحيانا المصرى) للأجانب وللأقليات ولليهود ،

ولكل من جاء ليغرس نبتا أو يبنى طوبة على أرض مصر !

أنا أستطيع يا هالة تأليف كتاب عن تاريخ النهب الحقيقى الذى جرى على أرض مصر ! سأبدأ من حيث نصحنى ضهرى : من خطط المقريزى ! يقول إن عمرو بن العاهر والعاهرة ترك ثروة ٧٠ بهارا من الذهب والبهار جلد الثور ويساوى أردبين مصريين والأردب ١٩٦ لترا ولتر الذهب يزن ٢٠ كيلوجراما ، أى الإجمالى ٥٥٠ طنا من الذهب . هل تخيلتى الأمر : ٧٠ ' بالة ' عملاقة -الواحدة أضخم من حجم الإنسان البالغ- مملوءة ذهبا ؟ هل تصدقين أن ولديه -وكانا ورعين- رفضا وراثته قائلين هذا مال حرام ومنهوب من غير حق ويجب أن يعود من حيث أتى ، فلما علم معاوية أرسل وأخذه هو (وما أدراك ما معاوية ؟ إنه ابن العاهرة الثانى ، أقصد الرابع ، أوه أقصد الألف ، وفى قول آخر إنه

وعدوه اللدود عمرو أخوان فى الزنا من ذات الأب !) ؟ هل تعلمين أن عمرو بن العاص والعاصية (المتعاص والمتعاصة ، العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) هذا لم يحكم مصر ٥٥٠ أسبوعا ولا حتى ٤٥٠ أسبوعا ، مما يعنى أنه كان يتربح نحو ٢٠٠ كيلو جراما من الذهب يوميا بحلول كل مساء ؟ احسبى كم يساوى هذا القدر الآن وابلغينى كم واحد من أغنى أغنياء العالم اليوم يحققون هذا . هل تعلمين نص قانون الجزية الذى وضعه بن العاص والعاصية لمصر ؟ قانون بسيط جدا من مادة واحدة : أنتم ' خزانة ' لنا نأخذ منها قدر ما نشاء وقت ما نشاء ؟ مع هذا أنا لم أكن أتحدث عن الجزية أو الخراج أو المصادرة لصالح بيت المال ، أو عن ثروة كل واحد من تلك العصابات العربية التى اجتاحت مصر المقدونية-الرومانية ، فقط أتحدث عن ٥٥٠ طنا من الذهب ثروة شخصية خالصة لابن العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر ! هذه ليست إلا نقطة فى بحر فى تاريخ النهب العربى-المسلم (وربما بالتبعية أحيانا المصرى) للأجانب وللأقليات ولليهود ، ولكل من جاء ليغرس نبتا أو يبنى طوبة على أرض مصر !

أمتأكدة أنك قمتى بالحسابات على النحو الصحيح ؟ يا للهول ! ٧ أو ٨ مليون دولار يوميا ؟ أهذا معقول ؟ أنا نفسى لم أتخيل هذه الأعداد . كنت أعلم أن ما يوجد فى هوامش روما من ثروات هو ليس بالقليل على أية حال ، لكن لم أحاول تخيل ماذا لو انتقلت تلك الثروات التى تعبت شعوب وأجيال كاملة فيها لآلاف السنين ، إلى يد شخص واحد أو حفنة أشخاص فى طرفة عين ! ٣ بليون دولار سنويا ؟ أهذا معقول ؟ إنها ثروة تضاهى ثروة أغنى إنسان فى العالم المعاصر ، وحتى هذه حققها الشخص فى عمر كامل ، إن لم يكن عبر تاريخ آباء وأجداد أسرته ككل . أوه ، بل قل تضاهيها عشرات المرات أو مئلا تضاهى ثروات نصف أثرياء العالم ، باعتبار مجمل ثروات الكوكب آنذاك واليوم .

ما الذى اجتهد فيه ذلك السفاح الأفاق كمثل هؤلاء ؟ ما نسبة ما ورثه عن أهله كمثل بعضهم ؟ أوه يا لبراءتك يا طفلتى ! أنا أعرف الإجابات ولا ترهقى نفسك بمثل هذه الأسئلة ! ما ورثه هو لا شىء : أما عن أمه فهى أرخص العاهرات أجرا إطلاقا فى كل تاريخ مكة ، أما عن أبيه فلا أب له . أرجوكى دعى ابنه جانبا فهو ابن الأكرمين -هكذا لسان العرب يا هالة ؛ لسان عفيف لا يقول ألفاظا من قبيل ابن أسفل السافلين ؛ لكن ثمة مفارقة استوقفتنى هى أن أكرم الأكرمين هذا كان بخيلا جدا ، فلم يعرض على عثمان بن المعفن من كل هذه الثروة سوى ألف دينار كى يحذف له من الكرهان لدى جمعه له ، السباب عن ' الأبتر ' والمقصود به العاص أباه بالاسم وكان مقطوع النسل مثله . لعلى ' أظلمه ' ولعل عثمان هو الذى كان يطلب أسعارا عالية جدا من راغبى تعديل اللوح السماوى المنقوش على عرش الرب . ما الذى أجهد نفسه فيه ؟ قطعا هو لم يكتشف طاقة البخار ولا طاقة الكهرباء ولا طاقة نواة الذرة ، وقطعا لم يخترع قنوات الرى ولا الطائرة ولا الحاسوب ، إنما فعل ما هو أفضل منها جميعا : سارع إلى الانضمام لعصابة مُحَمَّد (وفى قول أصح عصابة عمر) !



اعلموا أن لا شىء يسقط بالتقادم ! لقد انتهى عصر المسكوتات عنها ، وحان وقت فتح كل الدفاتر ودفع جميع الفواتير ! العالم كله سيجبركم قريبا أن تعالوا لنجلس ونتحاسب ، ولنرى ماذا نهبتم أو فعلتم فى الـ ١٤ قرنا ماضية . بالنسبة لحالتنا نحن الأمور واضحة بلا جلوس : فقط عليك أن تعيد أولا ما نهبته السعودية القرشية وسوريا الأموية والعراق العباسية ، من مصر (الفرعونية أو المقدونية أو الهيلينية أو الرومانية أو البطلمية أو القبطية أو البيزنطية ، لا يهم) ، بعدها سنجلس ، أو بالأحرى : لن نجلس ! ، والسبب بسيط : أن كل أموال البترول لا تساوى ما نهبتموه منا !

لا غرابة أن عمرو بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) هذا حقق ما لم يحققه إديسون أو روكيفيللر أو جيتس لسبب بسيط : أنه جمع على الجاهز ثروة أمة كاملة تعبت فيها لآلاف السنين لينهبها لنفسه ولبقية عصابته فى أيام . أما أنت يا سيد هلوكة للتوضيح فاسمح لى أن أغيظك قليلا ببعض مما لا تفهمه : الأرقام ! بعيدا عن الثروات الشخصية ، الجزية والخراج كانت تقدر بملايين الدنانير سنويا ، ولم يحدث قط أن در أى قطر فى أية مرحلة من مراحل الخلافة القدسية عددا من سبعة أرقام إلا مصر .

مهلا : ثمة شىء آخر قد يغيظك لحد الجنون ، ولا أنكر أن هذا يمتعنى ويشفى صدور قوم غير أعرابيين : إن أقصى ما تفتق عنه عقلكم العربى -أقصد طبعا الإسلام وليس قوميتكم العربجية الجديدة العبيطة- قد نهب مصر نعم ، بعض هوامش الثروة نعم ، أرقام تذهلنا للوهلة الأولى نعم ، لكن بالمقابل انظر ماذا نهب العقل اليهودى : لقد نهب العالم كله ! لقد تفتق عقلهم عن كذبة جيدة الحياكة للغاية اسمها المسيحية ، لا تقارن نهائيا بإسلامكم الساذج المفضوح . هذه قصة طويلة بها أسماء أناس من ذلك الشعب الصغير الذى يمثل عقدتك الكبرى فى الحياة ، أناس شديدى

الذكاء والدهاء -أو على الأقل لديهم بعض مما ليس عندكم : الثقافة ، أسماء مثل يوحنا وبطرس وأقل من عشرة آخرين ، قصة ربما أرويها لك يا سيد هلوكة فى فرصة أخرى ، لكن ما أريد قوله الآن هو فقط أنكم فى كل لحظة من التاريخ لم تكونوا إلا الأدنون ، حتى فى شروركم أنتم الأدنون ، حتى فى لصوصيتكم أنتم الأدنون !

هذا عما لا تفهم وقد أطلت فيه ، لذا سأعود لما تفهم : لا أشك للحظة أنك تعلم أفضل منى أن العصابة المحمدية-العمرية كلها عاهرون أبناء عاهرات وتزوجوا من عاهرات فأنجبوا أطهر امة أخريت للناس . أرجو ألا تأخذ الأمور على محمل شخصى ، فأنا لا أعرف بالضبط مكونات شجرة عائلتك أنت أو ناصر ، وأؤكد لك أن لا مشكلة لدى مع العاهرات ولا أبناء العاهرات ، لكن لدى مشكلة هائلة مع الكذب ، مع أن تقولوا عن أنفسكم أشرف الناس وأنتم حطيط حضيض الأرض . ثانيا ، قل لى أية علمانية فى هرولة عبمعصورة للأزهر لدى أول مواجهة مع الغرب ؟ اليوم أدهش حين أنظر لكتاب فلسفة الثورة الذى ألفته باسم عبمعصور . لن أفيض فى التماهى المذهل داخله ما بين الأمجاد الإسلامية والشيڤونية العروبية ، فقط ذهلت من الغلاف الإسلامى الخالص حيث لم تجدوا رمزا للعروبة إلا حشدا من القباب والمآذن ، فوقها كلها الأهلة-الآلهة التى تحمل على أطرافها النجمات-الإلهات كما تعتادون أنتم حمل الفتيات الرضيعات على أطراف ذكورتكم . بصراحة ، أنتم حلمتم بتناسخ أمجاد العصابة المحمدية-العمرية ، لكنكم حاولتم الترفع على الخرافة الدينية ، فقط كى تكتشفوا أن تغيير المسمى لشىء أوروبى جديد يماشى العصر اسمه القومية هو خطة هائلة العبط ، وبعد برهة واحدة أدركتم أن لا بديل لأن تكونوا أسرى للإسلام للأبد ، لأنه كان النجاح الوحيد فى التاريخ العربى لقطع الطريق واسع النطاق ، وبصراحة مطلقة أشك تماما أنك أو ناصر أكثر ذكاء أو فهما للعرق العربى من عمر بن الحطاب والحطابة (أو فى الحقيقة أشك أنكم أكثر ذكاء من أى أحد على وجه الأرض ، واسأل موشيه ديان عما كان يشغله فى يونيو ١٩٦٧ ، أو اسأله مقولته الشهيرة عن تمكنكم الأسطورى من القراءة ثم من فهم ما قرأتم ثم من تنفيذ ما فهمتم) . ماذا كانت النتيجة أن أصبحتم أشرس منه نهبا وسلبا لثروة مصر . هنا أدين لابن العاهر والعاهرة ذاك بشىء من الاعتذار : أرجو ألا تسىء فهمى يا شيخ العرب . أنا لم أقل أن أسابيعك الأربعمائة وخمسين هى أحلك فترة فى تاريخ المصريين . هناك ١٨ سنة كاملة أحلك سوادا بكثير ، تلك التى حكم فيها حفيدك الأعرابى الهمجى الجلف -المثلك بالضبط- شيخ العرب عبمعصور ، ورفيق دربه شيخ العرب هلوكة ، المثلكما بالضبط .

على أية حال يا هذا الهلوكة ، أنت أولى من جدك عمرو بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) بالسؤال المهم : أنت تريدنا أن نتحد مع ذوى الأعقلة أولئك ، أليس كذلك ؟ أنا موافق ! فقط لنلقى نظرة على ما استجد على أجندة البشر : اعلموا أن لا شىء يسقط بالتقادم ! لقد انتهى عصر المسكوتات عنها ، وحان وقت فتح كل الدفاتر ودفع جميع الفواتير ! العالم كله سيجبركم قريبا أن تعالوا لنجلس ونتحاسب ، ولنرى ماذا نهبتم أو فعلتم فى الـ ١٤ قرنا ماضية . بالنسبة لحالتنا نحن الأمور واضحة بلا جلوس : فقط عليك أن تعيد أولا ما نهبته السعودية القرشية وسوريا الأموية والعراق العباسية ، من مصر (الفرعونية أو المقدونية أو الهيلينية أو الرومانية أو البطلمية أو القبطية أو البيزنطية ، لا يهم) ، بعدها سنجلس ، أو بالأحرى : لن نجلس ! ، والسبب بسيط : أن كل أموال البترول لا تساوى ما نهبتموه منا !



البشر إما بناءون وإما لصوص ، ولا شىء ثالث !

لا محل للجدل أنكم -طغمة مثلث اليسار والعروبة والإسلام ، وبتفاخركم أنفسكم- ذروة الفئة الثانية ،

مع ذلك أعترف لك أنك حالة متميزة ؛ لعبت دور الرجل الثانى باقتدار بحيث نجحت فيما فشل فيه عمر بن الحطاب والحطابة :

تفادى القتل !

ما علينا ! خلينا فى البنك الأهلى ! ماذا يعنى بالضبط يا هذا البائس قولك أن كل مصر كانت مملوكة للأجانب ؟ أيعنى أن مصر ' نهبت ' ، أم أنها ' استعمرت ' ؟ هل كان لدى مصر بنوك وبورصة وعقارات وشركات نقل وسياحة وسفر وتصدير وتليجراف ومحطات إذاعة ومصانع أخشاب وأدوية وإسمنت وسماد ومطابع وصحف ومصائد أسماك ومحال سلع استهلاكية كبنزايون وعدس وصالون قير ... إلخ ، كالتى ذكرها كلها وأسهب فيها بالاسم وكنت شخصيا أكاد أنساها ؟ هل كانت هذه كلها شركات زاهرة أنشأها المصريون ثم جاء هؤلاء الأجانب ووضعوا اليد عليها بقوة السلاح ؟ هل هؤلاء أناس جاءوا لينهبوا بلد متقدم غنى بالمزارع والمعادن ، نقوم بتصنيعها ويتهافت على استيرادها الجميع ، ثم جاء الأجنبى ليحتلها عنوة و' ينزحها نزحا ' ؟ أم هم جاءوا لإعمار بلد شديد التخلف ، وأطلعوه من الصفر المطلق على اختراعات اسمها الطرق

ومشاريع الرى والمزارع الكبيرة والمصانع ، وجعلوا لأرضه ومنتجاتها وزراعاتها ومعادنها ثمنا بعد أن كانت لا شىء ، لا شىء مطلقا . هل نقل منبر الأزهر لأحد أعظم متاحف إنجلترا سرقة لكنز لا يقدر بمال ، أم تكريما وتبجيلا وحبا للإسلام ، ولا أقول مجرد حفاظ على شىء كان سيتآكل ويندثر لو بقى عندنا ؟ هل بنى المصريون الأفذاذ مصر الجديدة التى ذكرها أيضا بالاسم ، وجاء إمپان بجيوشه وسرقها منهم ؟ هل خروج القطن من مصر نهب ؟ ولا يقولون لنا هل كنا نزرع قطنا أصلا ، أم هم الذين جعلونا ' مزرعة ' ؟ ثم ما العيب فى أن يجعلونا مزرعة ، هل كنا صناعة أو ما بعد-صناعة قبل ذلك ، أم كنا صحراء ؟ وحتى لو كنا نزرع القطن فما قيمة إن يبقى فى مصر ؟ أكاد أجزم بأن كلمة تصدير مرادف عندهم لكلمة نهب !

تعود للكلام عن الملكيات ، فتذكر أن ملكية الخديوى إسماعيل للأراضى الزراعية ارتفعت من ٦ إلى ٩١٦ ألف فدان ، وإن كنت أشك قطعيا فى الرقم الأول . أشك فى كل ذكر له للأرقام ، هو ليس لديه أدنى حساسية لها ، أو يزورها معتقدا أن كل الناس مثله لا تستوعبها . إسقاط . مرض نفسى يعنى . فى مرة لاحقة قال إن صادرات مصر من القطن عام ١٩٥٥ إبان صفقة السلاح السوڤييتية كانت ٣٥٠ مليونا ستراينيا فى السنة ، وهذا محض عبط مضحك . كى يهون من شأن الإنفاق على السلاح ، هاجس ناصر الأوحد فى الحياة والذى جند له كل موارد مصر ، جعل صادرات القطن ٣٥٠ مليونا ؟ إنها إذن super power ! إنها برقم كهذا سنويا ، يمكن أن تبنى سدا عاليا شاملا محطة كهرباء إلى جواره كل ستة شهور . بضريبة ٥ ٪ فقط على القطن ، كان يمكنه بناء السد بأسرع مما بنته له قروض وجيوش الاتحاد السوڤييتى . بأرقام كهذه تستطيع أن تبنى ما تشاء من مصانع السلاح ، لا أن تستورده بالكاد . إنها تبنى حتى القنبلة النووية وتستأجر كل عقول العالم مدى الحياة من أجلها ، فتحرم كل الدنيا منها . (أرجوكى خللى على جنب تكاليف مسلسل الحروب الناصرية ، فهذا هو الشىء الوحيد الذى يحسب فعليا بالبلايين فى تاريخ مصر البائسة !) .

ملكية الخديوى إسماعيل ؟ أنت ها تستعبطنا ؟ إيه الوقاحة والفجور دى ؟ أنت ما ينفعش معاك إلا بلدوزر ضهرى ؛ أربعة عشر قرنا وأنتم تقتلون الناس ، وها قد حان وقت أن يقتلكم أحد . البشر إما بناءون وإما لصوص ، ولا شىء ثالث ! كل من يسمون بالمثقفين والحداثيين ... إلخ هرولوا مع مطلع التسعينيات وراء فكرة المواطن الجلوبى ، شاركونى فكرة أن الوطنية لقيطة لا أب لها ، فتبنوا الجنسية العالمية أو الإنسانية ، لكنهم -وبسبب كونهم يساريين عمى البصيرة- نسوا الشق الثانى من الرأى : يا نخبة العالم اتحدوا ! نعم ، لا وجود لمئات الجنسيات القومية أو العرقية ، لكن أيضا لا وجود لشىء اسمه جنسية جلوبية واحدة فقط لا غير ، إنما تحديدا هناك جنسيتان اثنتان بلا زيادة ولا نقصان ينضوى أى عرق أو قومية أو فرد تحت أحدهما : جنسية البنائين ، وجنسية قطاع الطرق ! انظر ماذا فعلتم أنتم : حرصتم على رفع أسماء هؤلاء البنائين العظام -مُحَمَّد على وأبنائه- من الشوارع ووضع أسماء أعراب مجرمين صرحاء أو بالأكثر عرب متمصرين بدلا منها (طبيعى ! أنتم قطاع طرق فماذا كنتم تفعلون غير ذاك ؟ ! ... أين أنت يا أمى كنت تقولين له فى لحظة ما هى أصول سعد زغلول أو مصطفى كامل ، أو من أين اشتق اسم عرابى) .

لا محل للجدل أنكم -طغمة مثلث اليسار والعروبة والإسلام ، وبتفاخركم أنفسكم- ذروة الفئة الثانية ، مع ذلك أعترف لك أنك حالة متميزة ؛ لعبت دور الرجل الثانى باقتدار بحيث نجحت فيما فشل فيه عمر بن الخطاب والحطابة : تفادى القتل ! نعم ، لقد صمد عمر هذا فى منصب الخليفة عشر سنوات وهو إنجاز هائل الدهاء بكل مقاييس التاريخ الإسلامى ، لكنك لا تزال حيا ، وهذا أدهى ! بلى ، إن المراوغين أمثالك لا يصلح فى الحقيقة إلا اقتلاعهم من الوجود اقتلاعا . بلدوزر يحملهم لقلب الصحراء الغربية ويتركهم هناك . فى الواقع هذه ستكون خدمة لك . ستتيح لك أن تتغوط كما كان يفعلها الأنبياء المقدسين وأبطال التاريخ الأشاوس الذين تريد إحياء أمجادهم . أنتم لم يعجبكم معتقل جوانتانامو ، بينما كنتم تلقون فيه رعاية صحية أفضل من التى توافرت لحياة النبى مُحَمَّد نفسه ، فلتذهبوا إذن للصحراء وتعيشون فيها كما تحبون .

أنا أتقزز منك حين تقول إن السياسة لعبة مصالح ، وكأن كل الناس حقيرين مثلك ، أو كأنكم وأميركا من طينة واحدة . هذا إيحاء وضيع ، أو ربما إسقاط . صاحب الثورة التقنية ، صاحب الرؤية الشاملة الجديدة لكل العالم (وصاحب الحق فى فرض رؤيته -ودا أو قسرا- على كل العالم ، ليس لأننا منصفون مهذبون ونريد رد المعروف له ومكافأته على إنجازه الجبار ، إنما ١- لأنه الوحيد الذى يرى عالما مختلفا لا يراه المتخلفون ولا يستطيعون وغالبا لا يريدون ، ٢- لأن الثورة التقنية هى الشىء الوحيد الذى يخول صاحبه أن يفعل ما شاء بالعالم ، كل العالم ، العالم الجديد ، الجديد المقدام) ، صاحب مثل تلك الروية لا يفكر -حتى وهو يستخدم القسر- فى مصلحته الأنانية فقط . لن ينجح أصلا لو فكر

هكذا . هو بالأصل صاحب مبادىء ، ولو فكر بالمراوغة قليلا ، أو بالأحرى المحايلة ، فهذا فقط لأنه قابل معدومى الأخلاق مثلكم ، freaks من ما قبل التاريخ يستحيل إفهامهم أو التفاهم معهم . هم يلعبون بشرف وع المكشوف ، أما من يتآمر فهو الصغار الطفيليين على التقنية أمثالك . الكبير لا يتآمر . الكبير لا يحتاج للتآمر . أميركا أو إسرائيل حين تختصمكم تأتيكم بجيوش جرارة صريحة ، لكن أنتم يا من اتخذتم من ديجول مثلكم الأعلى فى الحياة ، لا تعرفون إلا المراوغة والعبث بالكلمات وإظهار عكس ما تبطنون وسياسة التمسكن حتى التمكين ، أو حين تصلون لمرحلة السلاح : أخذ الشعوب درعا بشريا لعصاباتكم . اللعب القذر الضرب تحت الحزام التزييف التشويش والديماجوجية هى ديدنكم . وتعرفون أكثر من غيركم لأى مدى هذا شعب غبى وجاهل ، أقصد -وعذرا لك يا هالة- لأى مدى ' الصحفيون الشبان ' أغبياء وجهلة . سنوات مثلا تقولون لنا المقاومة ، ثم تقولون الحكام العرب ضعفاء لا يستطيعون رفع الحصار عن الفلسطينيين . طب إللى جاب الحصار هو المقاومة وحماس موش الحكام العرب . خليها تنفعكم . خليها هى إللى ترفعه ، أو تنقذ غزة من مصيرها النووى .

جاب منين إسماعيل الأراضى دى ؟ هل لف على فلاحى مصر المنتجين المبدعين العظام واستولى عليها فدانا فدانا منهم ؟ أم أنه أكمل وأصلح وافتتح القناطر الخيرية ومشروعات أخرى بحيث أضاف هذه الأراضى لمصر من صحاريها . للأسف لعله فى حاجة أيضا لأن يذكره ضهرى أن مصر -كأية ملكية- لم تكن تعرف أصلا شيئا اسمه الملكية الخصوصية للأرض . كانت المعروف من الأرض كل الأرض ، ملكية خالصة لمحمد على وورثته . هكذا تنشأ أية مملكة فى الدنيا ، الملك للملك . هل كان إسماعيل ينهب الأراضى أم يهب الأراضى ؟ طبعا لم يجب أحد ، لأن أحدا لم يهتم أن يسأل . مع التزييف والتشويش والديماجوجية لا عقل لدى أحد أصلا ! الحكام العرب لا يستطيعون رفع الحصار !



تأميم القناة سرقة لا تحتمل التأويل ، الاستقلال نفسه سرقة لا تحتمل التأويل ،

الأخذ من الأغنياء وإعطاء الفقراء هو سرقة لا تحتمل التأويل (فما بالك بإعطاء أنفسكم ؟) ،

كل نشاط قمتم به فى حياتكم هو سرقة لا تحتمل التأويل ،

من الذى نهب من : الاستعمار هو الذى نهب العالم الثالث ، أم العالم الثالث هو الذى نهب الاستعمار ؟ !

ماذا تنتظرين يا هالة من سليلين أصيلين للهجامة العرب اللصوص قطاع الطرق -مثل ناصر وهلوكة- غير هذا ؟ ! للأسف لقد قالت لى أمى هذا الكلام مرارا ولم أستمع لها ؛ قالت ناصر ليس إلا لصا ، كل ما يريده إحياء ما قامت به قبيلته من قبل لنهب مصر ، وتكرار مجد أسلافه وغزواتهم المباركة . هؤلاء اكتشفوا فجأة أن جهود أسرة محمد على ثم انفتاحنا الرائع على الاستعمار البريطانى قد جلب وأثمر خيرات كثيرة وأن مصر امتلأت بالثروات ، وأن ها قد حان وقت القطاف . إنى أكاد أبكى يا هالة كلما تذكرت كيف كنت استخف بحكمة أمى العظيمة هذه ، وعصيتها وسافرت للكويت ، وواصلت الاشتغال معهم بعد عودتى ، وكل ما فعلته معها أن رحت أطمئنها أن هذا كله كلام قد مضى وتولى . بكيت بمعنى الكلمة يا هالة ، لحظة أن أقنعنى صديقى الجديد ضهرى بأن ما فى الچيپيات لا يمضى ولا يتولى أبدا . لا أدرى كيف حدث هذا ؟ لقد كانت أمى فى نصف عمرى عندما كانت تعرف كل هذه الأشياء . من علمها إياها ؟ هل أحمد لطفى السيد ؟ لا أعلم . كيف لا أبكى وأمى كانت تفتش عن الچيپيات حتى قبل أن يكتشفها واتسون ، وبخراقتى وغرورى لم أفعل إلا أن أستخففت بها ؟ ! هل بسبب تشربى للأفكار الحداثية القائمة على الفردية التنافسية والفرص المتساوية لكل البشر ، أم تأثر عقلى الباطن دون يدرى بكلام اليسار عن أن البشر أنفسهم سواء ؟ لا أعلم ماذا كنت أعلم ، لكن المؤكد أنى لم أكن أعلم مطلقا ، أن ثمة طريقا ثالثا للحياة ، اسمه القبيلة ، اسمه العروبة !

سليل بنى مر (وبالمناسبة حين كانت تذكر أمى هذا المصطلح لم يكن الأمر يعنى لى شيئا مطلقا ، أو تخيلت أنها تعايره بأنه قروى ، بينما كانت تقصد العكس ، أنه ليس قرويا ! ؛ أما اليوم فأعلم كم هى محافظة أسيوط موبوءة بأمثالهم ، وكم من قرية تقع فى تخوم عاصمتها شمالا تحمل أسماء من شاكلة بنى قرة وبنى حسين وبنى عدى حتى الحواتكة) ، سليل بنى مر ساب ٢٠٠ فدان وأخذ الباقى . بعد ما بدد إللى أخده ولقاه موش مكفى ، أخذ ١٠٠ فدان تانيين . وبعد كده لقى كل الأرض موش مكفية ، لا من مسيحيين ولا من غير مسيحيين ، فأمم القناة ، إللى هى أموال أرامل وأيتام اشتروا أسهمها ، إنما موش مهم . موش مكفية برضه . صادر كل أملاك الأجانب ، شركات ومصانع ومتاجر وكل حاجة ، وسماها التمصير . موش مكفية برضه . استولى على كل شركات ومصانع ومتاجر المصريين ، وسماها اشتراكية . كل واحدة من هذه جميعا ، لو شئنا تسمية الأشياء بمسمياتها ، هذه ليست إصلاحا زراعيا ، ولا تمصيرا ، ولا تأميما ، ولا اشتراكية ، هى فقط ببساطة متناهية : سرقة لا تحتمل

التأويل ! تأميم القناة سرقة لا تحتمل التأويل ، الاستقلال نفسه سرقة لا تحتمل التأويل ، الأخذ من الأغنياء وإعطاء الفقراء هو سرقة لا تحتمل التأويل (فما بالك بإعطاء أنفسكم ؟) ، كل نشاط قمتم به فى حياتكم هو سرقة لا تحتمل التأويل ، من الذى نهب من : الاستعمار هو الذى نهب العالم الثالث ، أم العالم الثالث هو الذى نهب الاستعمار ؟ ! (حتى لا تسيىء الظن بى أنا لا أقصدك أنت ولا أى من العربانيين أمثالك ؛ أنا أقصد أساسا البلاد التى كانت تعرف بعض الزراعة فاستولت على كل الأرض ، وتعلمت بعض الصناعة فاستولت على كل المصانع ، وشاهدت شيئا اسمه النقود فاستولت على كل البنوك ، أما هوام الصحراء الذين لا يعرفون السكن أصلا ولم يحدث يوما أن اعتبروا أرضا ما أرضهم أو اهتموا بالاستقرار فى مكان ما أيا ما كان ، فقصة أن الاستعمار ينهب بترول ' أراضيهم ' يمكن أن يفتيك فيها صديقى ضهرى أفضل منى) .

... يا للوقاحة والفجور ! لقد مسح هلوكة وأمثاله العقول لدرجة أن أحدا لم يعد يسأل أى من مثل هذه الأسئلة البسيطة !

الحجة ؟ لا توجد حجة . أموالنا ردت لنا . الحجة ؟ فلسطين ؟ لا أحد يتحدث عم نهب العرب فى المقابل . يكفى فقط مصر ، هذه التى كانت يهودية بالكامل تقريبا ، نهبها عبمعصور حتى آخر مليم . لماذا يهود كل بلاد العرب أو حتى كل مصر ؟ يكفى البنك الأهلى المصرى . لو ترك هو ومصر لأصحابهما الحقيقيين من اليهود ينموان ويزدهران فى مناخ حداثى حر ، لأصبح الآن شركة من فئة التريليون دولار ، لا تكفى كل مصر الحالية تعويضا له . إنه وحده يشترى مائة فلسطين ومائة قدس ومائة أقصى ومائة صخرة من سوق العقارات (أو يشترى ٢٠ سيناء من تلك التى أخذتها إسرائيل فى ١٩٦٧ تخليصا لجزء يسير من ديونها الفادحة على عبمعصور) . إن مجرد المعونات التى أخذوها من أوروبا وأميركا منذ أوسلو ، تعادل ثمن فلسطين عدة مرات . لكن العجيب أنهم أخذوا النقود ، ولا يزالون يطالبون بالأرض . هل هم على هذه الدرجة من الغباء بحيث لم يفهموا معنى هذه الأموال ، أم هى مجرد سفالة وبلطجة بسيطة بالقانيليا كالعادة ، كالعادة من خير أمة التى شعارها مع الآخرين شحات وأنا سيدك ، أقصد عن يد وهم صاغرون . كل هذا وذاك بفرض أن أحدا أخذ شيئا من الفلسطينيين فى ١٩٤٨ ولم يسدد ثمنه ، بل هم قبضوا الثمن على أمل تعيد لهم الجيوش العربية الأرض أيضا ، فيظفرون بها وبثمنها معا . أو بفرض أن هؤلاء أشد شعب فى العالم تخلفا ، كانوا يملكون شيئا ذا قيمة أصلا . أو حتى أصلا أصلا اعتبرناهم قد طردوا رغما عنهم ، من قبل استيطان يهودى ظل مسالما لعقود بينما أمين الحسينى يربط كل يهودى تصل له يداه لأربعة جياد ويمزقه إربا . أربعة أجزاء كما دجاجة لضهرى ، ثم لا يكتفى بهذا بل بعدها يذبح الرأس بعيدا ' باسم الله ' ، شرعا .

هم فى خاتمة المطاف بدو والأرض لا قيمة حقيقية لها عندهم ، إنما تركوها لخطط فى نفس يعقوب . أولا وأخيرا ، هل كان سيكون هناك لاجئ فلسطينى واحد ، لو قبل العرب قرار التقسيم ؟ حتى قرار اللاجئين ١٩٤ الذى تطنطنون به طوال الوقت يستخدم دائما أبدا كلمة should الاختيارية ، وليس shall الإجبارية ، ويتحدث عن إعادة التوطين ، وعن التعويض ، وعن شرط العيش فى سلام ، لكنكم لا تفهمون ، والسبب بسيط لم تقبلوا ساعتها ، وحتى اليوم ، بأى شىء أقل من إلقاء إسرائيل فى البحر . ما أفهمه أن من صنع المشكلة يتحمل ثمنها ، فقط أذكركم فى كلمة يتحمل ثمنها ، أن كل نقود البترول لا تكفى لسداد ما نهبتموه من اليهود . أيضا أذكرك يا أخ هلوكة أن قرار ٢٤٢ (وإن كنت شخصيا لا أعترف بالأمم المتحدة) ، لا يذكر كلمة فلسطينيين بالمرة ، فقط يتحدث عن ' حل مشكلة اللاجئين ' ، التى تفسرها اسرائيل على أنها تقصد اللاجئين اليهود من البلاد العربية ، مشكلة اللاجئين الوحيدة التى لم يتم تسويتها حتى الآن ، باعتبار أن اللاجئين الفلسطينيين قد حسم أمرهم بقرارات القيادات العربية حرة الإرادة ، برفض إعادتهم فى سنوات الاستقلال الأولى . هنا يا هالة ، أنا أتكلم عن أموال يهود مصر ويهود المغرب والعراق التى أعرفها ، أما يهود الجزيرة العربية الذين تبخروا للأبد منذ قرون ، ولم يعرف أحد أين اختفوا واختفت أموالهم ، فلست خبيرا جدا بقصصهم . موش ده بالظبط كلامى إللى قلته لك فى ٢٠٠٥ ؟ لماذا تبتسمين أيتها الخبيثة ؟ هل تريدين الإيحاء أنى لم أكن أملك كل هذه الردود على عصابة اللصوص الهلوكية-الناصرية ساعتها ؟ ! ربما ! جايز بعض حاجات استجدت ؟ على فكرة : أنا لم أخبرك أنى تعرفت مؤخرا بأناس لطفاء ، أسماؤهم ضهرى وإدوارد وسماء وونس وروميو وسوسن وأسد وآخرين ، آمل أن أعرفك بهم قريبا !

لماذا تضحكين ؟ أنا لا أقول نكتا ، النكتة الوحيدة فى كل ما قلت أن ما سرقه عبمعصورة ، وزعه على الفقراء كى يشترى به حناجرهم وأرواحهم فى استفتاءاته المضحكة التى أدخلت للقاموس تاريخ السياسة مصطلح ٩٩.٩٩ ٪ ، أو لمعاركه الفاشلة المختلقة فيما أسماه القضية الفلسطينية . النكتة أنه فى كل الأحوال خسره ولم ينتفع بشىء منه . وإن كان على أن أعترف أن طبعا لا الرأسمالية ولا الاستعمار كانت لتستطيع

أن تنافسكم على شراء الحناجر والأرواح هذا ، لسبب بسيط أنها لم يكن فى خطتها أن تفلس وتنتحر مثلكم ، أو لو شئنا صياغة أخرى ، لأنها لا تستطيع خداع الناس والتغرير بهم لأجندات سوداء خفية مثلكم ، إنما كل شيء لديها فوق الترابيزة ، خذ وهات ، وبالإرادة الحرة للجميع !



لا يوجد شيء اسمه الحرب على الفقر ؛ يوجد فقط الحرب على الفقراء !

لا يوجد شيء اسمه القضاء على التخلف ؛ يوجد فقط القضاء على المتخلفين !

لا يوجد شيء اسمه صراع حدود ؛ يوجد فقط صراع وجود !

لا يوجد شيء اسمه الخروج من التاريخ ؛ يوجد فقط الخروج من الجغرافيا !

يا هلوكة ، ها أقول لك مفاجأة ربما لم تخطر ببالك أبدا : أنا شخصيا لست ضد أن تصادورا كل مليم فى البلد . أنا لست ديكتاتورية البروليتاريا . أنا لست ضد الحقد الطبقى . أنا لست ضد القومية العربجية . أنا لست ضد أى شيء . افعلوا كل ما يحلو لكم ، وكما يحلو لكم . فقط بعدها اعطونا اقتصادا جيدا . أكرر إن لم تكن قد صدقت ما قلت : لا مانع عندى أن تنهبوا كل ما لدى أى أحد فى العالم ، بالقوة أو تحت مسمى المعونات أو بأى مسمى ، وأن توزعوه على الفقراء ، أو حتى على أنفسكم ، لن أعترض إلا فى حالة واحدة : أن تكتشفوا بعد خمس سنوات أن لم يحدث شيء ، وأن كل ما تغير هو أن هؤلاء الفقراء تزوجوا بسهولة أكبر ، وأنجبوا المزيد من الفقراء ، فتفاقم البؤس والعذاب والحرمان أضعافا (هذا طبعا إن فاتهم شراء السلاح أولا بهذه المعونات أو فى حال ظهور ثروات فى أراضيهم ، كى يقتلوا بعضهم البعض ، طبقا لفهم هذه القبائل للأولويات) . هذا فقط هو ما لا يمكن أن أقبل به .

سأفاجئك مفاجأة أخرى : أنا مثلك بالضبط ضد الاستعمار ! أؤمن أن على الاستعمار أن يعيد بلاد هؤلاء الناس لهم . يعيدها بالضبط بنفس الحالة التى وجدهم فيها عليها . لو كانوا مثلا ساعتها فى عصر ما بعد-الصناعة يعيدهم لما ما بعد-الصناعة ، ولو ما قبل التاريخ يعيدهم لما ما قبل التاريخ . ما أعلمه أنكم تعلمون أكثر منى أن هذه الشعوب لا تتمثل أى مستوى للمعيشة أفضل . هم يحبون معيشتهم كما هى ، ولا يرون غيرها أسلوبا للحياة ، وغير مستعدين لتجربة أنماط حياة أكثر بحبوحة أو نظافة أو انفتاحا على أساليب الحياة ' المستوردة ' . لطالما هبطت عليهم معونات أميركا وأوروبا ، أو حتى بعض ما تفضلتم عليهم به من أموال نهب عرق الغير ، فماذا حدث ؟ لم يرفعوا مستوى معيشتهم ، إنما كل ما حدث أنهم استخدموها فى إنجاب أطفال أكثر ، يمنحونهم -من خلال اقتسام هذه اللقمة الجديدة معهم- الفرصة الذهبية للتحيؤ مثلهم بالضبط نفس أسلوب الحياة المتوارث المتخلف المدقع . أيضا ما تعلمونه أكثر منى أن كل حدوتة الاشتراكية والناس الغلابة والقومية والملاوعة وهلم جرا ، الهدف منها إثراء حفنة كأمثالك من لا شيء .

إليك مفاجأة ثالثة : أنا لست ضد المعونات ، ولست ضد أن تكون حتى مليون دولار للفرد الواحد . أنا أومن مثلك بعالم قائم على الشراكة وعلى الأخوة الإنسانية ، البناءون يدفعون وأنتم تنفقون . فقط ضعوا لهذه المعونات شرطا ولو واحدا على الأقل يساعدها على تحقيق رسالتها فى القضاء على الفقر : أن تدفع مقابل تعقيم الرجل أو المرأة لنفسه . لو شاء أو شاءت حياة الرفاهية ، أهلا وسهلا ، لو لم يشأ ، فليبحث عن لقمة عيشه -ومن شاء من إنجاب- بنفسه ، بلا بلطجة ولا شكوى ولا ابتزاز . عفوا ، سيدى ، ما أسهل إنفاق النقود (بالذات نقود الغير) ، وما أصعب توليد الثروة (بالذات لو لم يكن فى چيبناتك ما يؤهلك لهذا) . اعذرنى إن كنت لا زلت متجمدا ليس فقط عند نموذج المدينة القديمة ذات الأسوار التى يسكنها بشر مهذبون ، بينما تحومون أنتم البدو حولها كل الأعوام تتحينون لحظة الانقضاض والنهب والسلب ، إنما لكونى متجمد أيضا عند نموذج الشارع اللندنى القديم ، نموذج الچنتلمان الأنيق واللص الأشعث ، وأن مليونا من أفلامكم المعنونة ' جعلونى مجرما ' لم تهز منى شعرة واحدة ، ذلك أن ما أعلمه ببساطة أن ما يجعل الشخص مجرما هو چيبناته وليس ما تسمونه بالظروف ، وأن ما يسمى بالحرب على الفقر شيء لن يجدى نهائيا ، إلا يوم يتحول إلى حرب على الفقراء . أساسا ، ما الذى جعلهم فقراء سوى فشلهم وكسلهم ؟ ! لا يوجد شيء اسمه الحرب على الفقر ؛ يوجد فقط الحرب على الفقراء ! لا يوجد شيء اسمه القضاء على التخلف ؛ يوجد فقط القضاء على المتخلفين ! لا يوجد شيء اسمه صراع حدود ؛ يوجد فقط صراع وجود ! لا يوجد شيء اسمه الخروج من التاريخ ؛ يوجد فقط الخروج من الجغرافيا !



ليسوا عربا وليسوا مسلمين !

أنا أعلم أنك تستمع بمثل هذا الجدل الكلامى الذى يمكن أن يمتد ليوم القيامة أو ليوم تمكينكم فى الأرض أيهما أقرب ، لذا دعنى آتى إلى لب الموضوع ، وأقولها لك صريحة : المصريون ليسوا عربا وليسوا مسلمين ! ؛ المصريون قوم طيبون مسالمون محبون وأنتم الذين حاولتم تعليمهم الكراهية ؛ هم طالما عانقوا الاستعمار ، بالذات لو استعمار ، وليس -حسنا- نزحا . إلى ما قبل هبوطكم المشئوم علينا قبل ستين عاما كان من مظاهر الحياة اليومية للمصريين حبهم لكل أجنبى ابن حضارة . أحبوا اليونانيين وأحبوا الإيطاليين وأحبوا اليهود وأحبوا الأرمن وأحبوا كل ضيف أو وافد ، كلها حبا جما لحد التآخى . أحبوا الإنجليز قليلا واحترموهم كثيرا ، لا لشىء إلا لأن هذا هو بالضبط ما أراده الإنجليز بحكم طبعهم وطبيعتهم . هل تعرف لماذا لم يطلق المصريون نكاتا على اليونانيين أو الإيطاليين أو الأرمن ؟ لأن لهم نفس طبائع حب الناس والاختلاط بالغير والاحتفال والحياة الاجتماعية ، بالتالى اعتبروهم أهلا وكأنهم مصريون مثلهم بالضبط . لكن هل تعرف لماذا أطلقوا النكات بالبخل على اليهود ولم يطلقوا أية نكات على الإنجليز ، وكلاهما شعب لا يحب الاختلاط كثيرا ؟ أنا لا أحب الطبائع المصرية كثيرا ، لكنى فهمت بعضها . حين يدعوك أحد لمشروب أو وجبة طعام فتحاول الاعتذار ، يرد عليك مستغربا ' هل أنت بخيل ؟ ' . بعد قليل فهمت أنه لا يقصد البخل حقا ، إنما يقصد ' هل أنت متعالى ؟ ' . لأن الإنجليز آلهة كما وصفهم نجيب محفوظ فى ثلاثيته ، فمن حقهم ألا يختلطوا بالناس ، لكن اليهود بشر ، وفى نظر المصريين ليس من حق البشر ألا يميلوا للعشرة ؛ يعنى النكت على اليهود من قبيل العشم لا أكثر . لم لا تسألنى عن لماذا معظم النكت عن الصعايدة ؟ الإجابة : لأن المصريين أناس مهذبون وطيبون فاختاروا أكثر فريق منهم شبها بكم أو تأثرا بعاداتكم وأغرقوه بالنكات . حتى النكت على اليهود بها بعض التلميح إليكم ، فهم لا يحبون أن يعيش وسطهم أحد فى جيتو ، وأنتم يا سكان المغارات هم أسوأ جيتو فى التاريخ المصرى . فخمتو خبيبى ؟ عاوز أقول لك إن المصريين شعب مسالم وحكمه هو أسهل حكم لشعب فى العالم ، لدرجة أنهم حتى رحبوا بالغاصبين أمثالك وأمثال ناصرك . نعم يزدرونهم ، نعم يعتبرونهم -حتى من قبل أن يوجدوا أصلا- أتباع إله الشر الصحراوى ، لكن مع كل ذلك يأملون أن تتغير طبائعهم يوما ، إلا أنهم -هات ودنك : هم سذج ، لا يعرفون أن ما فى الچيينات لا يتغير أبدا !



إن قيام إسرائيل أنهى للأبد ومن الجذور مقولة إن مصر مستهدفة .

لقد كان الحل الغائى لمعضلة الأمن القومى المصرى التاريخية : قطاع الطرق القادمون طوال الوقت من الشرق ؛ العرب !

بصراحة تامة : أنا مذهول أن النصير الأشهر للعروبة ، هو الذى يتكلم عن النزح والنهب ! إنه تاريخ كامل ، تاريخ مستوفى الطول والعرض ، طول قرون الزمن وعرض رموز الغصب والاحتلال ! ألم يحدث أبدا أن قرأت مثلا عن شخص اسمه عمرو بن العاص والعاصية (العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر) ؟ ! تعريف النزح هو النزح . مبدئيا أرجوك بلاش سيرة الإنجليز . الرومان والإنجليز والأمريكان حضارات ، والحضارة تعتقد أن كل العالم ملكها ، لذا هى لا تنزحه ، إنما تزرعه ! خلينا على قدنا ، ونشوف مين إللى احتلونا من غير حضارات التاريخ الثلاث المعروفة ، وندرس مين فيهم المتحضر البناء الذى يحاول محاكاة حضارة عصره وموالاتها ، ومين فيهم الهمجى النزاح الذى يمرق على الحضارة ويقطع عليها الطريق . أحمد بن طولون لم يكن مصريا ، لكن لم ينزح شيئا لبلده الأصلى وأوقف النزح لخزائن الخليفة ، النزح الذى جعل المصريين يطلقون على تنعم سارقيه بثرواته وعرقه لفظ البغددة (وليس اللندنة مثلا) ، ويطلقون على الفهلوى النصاب صفة ' ناصح ' . عجيبة ! ما العلاقة بين النصب والنصح ؟ لا بد أن ثمة علاقة ، هل تعرف ما هى ؟ ' الناصح ' لقبكم القديم لأمراء المؤمنين (والأمثلة لا تنتهى ، وأحيلك لصديق لى اسمه ونس يريد عمل بحث عن العرب فى الفلكلور المصرى ، قائلا إنه أكبر المسكوت عنه فى التاريخ !) .

الأخشيد ذات الشىء ، الفاطميون ذات الشىء ، المماليك (ممن كانوا يتربون حسب الكتاب —أقصد طبعا كتاب جمهورية أفلاطون الفاضلة) ذات الشىء ، كل هؤلاء من أصول إما أوروبية شرقية وإما أمازيغية شمال أفريقية وبالطبع ذروة الجميع مُحَمَّد على ، يعنى لا عرب ولا فرس ولا عثمانلية ، وطبيعى بالتالى أن يكون المشترك بينهم كلهم ولعهم بالإعمار والبناء ، المشترك الآخر —والطبيعى بذات القدر- أن جعلوا مصر المستقلة مركزهم ، لم تكن لهم ولاية ولا خلافة خارجية كى يرسلوا لها شيئا (فعلا ، لا أدرى لماذا تتعالون عليهم ؟ هل لأنهم عبيد ؟ هل عبيد بهذه المواصفات أسوأ من العبيد بالاكتساب الذين تحدث عنهم يونج وحكموا روما يوما ، أم هل يا ترى تعتقدون أن لكم على هؤلاء المجريين واليونانيين والألمان درجة لمجرد أنكم الخطافين وهم المخطوفين ، يا ' سادة ' – يا عربان – يا هوام الصحراء – يا هجامة الليل – يا مرضى الإسقاط – يا

حثالة چيبنات الكون ؟) . حتى الأيوبيين والأتراك كانوا همجا هدامين وقتلة وأيضا نزاحين ، لكن أحدا فى الدنيا لا يمكن أن يباريكم أنتم همجيتكم وغباوة نزحكم . أخيرا ، أسرة مُحَمَّد على لم تنزح شيئا للخارج ، لأن قطعيا لا أحد جاءنا من الغرب ونزح شيئا ، قانون ينطبق على الجميع بدءا من المعز وليس انتهاء بتشرتشل ، أو لعل ذلك هو التعريف الدقيق لكلمتى شرق وغرب (لحسن الحظ أن نشأت دولة إسرائيل لتحمى حدودنا الشرقية من غارات البربر القادمة من الشرق الآسيوى ، ولتحل مشكلة الأمن القومى المصرى مرة واحدة وللأبد ، ليتبقى فقط ذلك الجيب الصغير المسمى غزة الذى يتحتم علينا التعاون نحن وهى لإبادته) . بالطبع عاش كل أولئك حياة الترف والنجاح بفضل ملكهم على مصر وحرصهم على ازدهارها ، لكن أحدا لم ينزح منها للخارج إلا أنتم أيها العرب ، وأحدا لم يعنى باستدامة خيرها بل ينهبها كما الجراد حتى اقتلاع الجذور ، إلا أنتم أيها الجهال المخربون كما يسميكم ابن خلدون ، ممن لم يعرفوا من البناء إلا ثلاث قطع حجر للغائط (فى حال جمح خيال أحدكم وقرر رصها فوق بعضها قبل أن يبدأ فى استخدامها الاستخدام الشرعى !) . هل هناك فى التاريخ كله حالة إسقاط نفسى تثير الشفقة وتغلى الدم فى العروق معا أكثر منك : عربى يتحدث عن نزح الإنجليز لثروات غيرهم ؟ !

إسرائيل ؟ غزة ؟ لعلى أخيرا عثرت على الإجابة على السؤال الذى طالما حير أمى : البكباشى إللى موش لاقية له وصف ! الآن فقط فهمت لماذا فعل ما فعل ، ولماذا فعله بذلك السعار المجنون . عامة ، وعلى العكس من الدول العربية فى آسيا ، أفريقيا كلها لم يتغلغل فيها العرب . السعودية الخليج اليمن الأردن فلسطين العراق غالبية عربية طبعا ، غرب العراق وشرق سوريا بين آه ولأ ، لكن العرب فى أية دولة أفريقية -ربما باستثناء ليبيا- هم أقليات محدودة . جايز بيحكموا معظم البلاد معظم الوقت ، لكن كأقلية جائرة لا أكثر . الشتات الأفريقى لو شئت التسمية . ألم تسأل نفسك لماذا كلمة غربة واغتراب وتغريبة كلها مشتق من كلمة غرب ؟ (بينى وبينك ، هو سؤال طرحه على ضهرى يوما) . ذلك تحديدا هو سر السعار الذى أصاب هذه الأقليات بعيد قيام الإسفين أقصد إسرائيل ؛ أحسوا بالعزلة عن جذورهم ، وأن مآلهم هو التهميش إن لم يكن الطرد أو الإبادة ، وهذا الإحساس بالخطر هو سر مسارعتهم للاستيلاء على السلطة فى مصر فى ١٩٥٢ ، ثم فى السودان وهلم جرا . الأدهى ، أن سعار الإنجاب المتفرد عالميا فى غزة لم يأت صدفة . كذا سعارهم الآخر فى قتل اليهود والمصريين . إن غزة البائسة وضع خاص جدا لأنها الكيان الوحيد فى العالم ذو الأغلبية العربية ، لكن المعزول جغرافيا كما الجزيرة عن الكتلة العربية الرئيسة ، ومن ثم ستظل جرذا مسعورا إلى أن نقتله يوما ونريحه من عذابه .

... فى مقابل كل هذا ، ربما كان وجود إسرائيل وحمايتها للأبد لحدود مصر من موجات النهب العربى ، هو فى نفس الوقت أحد أكبر الأسباب وراء ما يجرى الآن من تحول ملايين المصريين إلى المسيحية والعلمانية .

... لقد أحسوا بالأمان !

... أو هل لديك تعريف أفضل من هذا للأمن القومى ، يا شيخ هلوكة ؟ !

... لو فهمك على قدك ، أشرح لك : إن قيام إسرائيل أنهى للأبد ومن الجذور مقولة إن مصر مستهدفة . لقد كان الحل الغائى لمعضلة الأمن القومى المصرى التاريخية : قطاع الطرق القادمون طوال الوقت من الشرق ؛ العرب !



مصر كانت تسير مع اليابان خطوة بخطوة ، إن لم تكن تسبقها ،

لولا أن ظهر لدينا أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبمعصورة !

أخيرا يستنكر ضرب المثل ' الظالم ' بأن الميجى بدءوا فى نفس الوقت مع مُحَمَّد على ، فكيف لم نصل لما وصلت إليه اليابان ؟ سأجيبك أنا . مصر قطعت من التقدم شوطا لا بأس به ، وأصبحت بالفعل شيئا باهرا مع انقلابة القرن ، من ١٨٩٠ حتى نشبت الحرب الأولى . مصر كانت تبنى على نحو لا يقل إدهاشا عما كان يتم فى ذات اللحظة من بناء كلوديا كاردينالى لبلدتها فى ' حدث ذات مرة فى الغرب ' ، ذات اللحظة من بناء كل هوليوود مثلا ، من بناء كل كاليفورنيا بالأحرى (أنا أحدثك عن أجمل فيلم صنعه بشر ، لمجرد العلم لو لم يكن قد مر عليك . وبالمناسبة زميلتى هالة أيضا يعجبها هذا الفيلم ، لأنها تعتبر كتاباتها الريادية على الإنترنيت أشبة بذهاب ذلك المستثمر الذى أصبحت البطلة أرملته ليعمر منطقة فى عمق الغرب انتظارا لأن تأتيه السكك الحديدية فيصبح فائق الثراء ، وهى -أى هالة- كتبت ملايين الكلمات انتظارا لأن ليوم تنفضحوا أنتم فيه ويبحث الناس عن شىء بديل فيجدونها هى ، مادة ضخمة شاملة ووافية . أيضا ضهرى يعشق الفيلم ويقول إنه نفس قصة جده مايكل

كووك فى صعيد مصر . عامة هو فيلم يعجب كل من يؤمن بالاستثمار بعيد المجرى ، سواء فى البورصة أو حتى فى الكتابة ، ولا أعتقد أنه سيعجب قاطع طريق قصير النفس مثلك !) . المهم ، دون أن أخوض بالضرورة فى الفوارق الجيينية بين الشعبين اليابانى والمصرى ، وأن من المستحيل فى كل الأحوال أن تتطابق التجربتان ، إذ ربما المقارنة ظالمة فعلا ، أسأل : متى جاءت الهوة ؟

سأجيبك أنا : مصر كانت تسير مع اليابان خطوة بخطوة ، إن لم تكن تسبقها ، لولا أن ظهر لدينا أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبمعصورة ! جاءت الهوة حين استولى الدهماء على كل شىء . يقول هلوكة إن اليابان لم تنهب ولذا ازدهرت ، وأقول ماذا كان سينهب أو سيزدهر فى تلك الجزر الصخرية ، باستثناء البشر أنفسهم ، وبالأدق نخبة عقولهم السياسية والفكرية ؟ وأقول ما كان يجب أن يذكرنا الهلوكة بموارد تلك الجزر الصخرية ، وإلا بالقياس كان الأحرى أن تكون مصر قدرة عظمى أقوى وأغنى ألف مرة من اليابان . يقول هلوكة إن اليابان لم تعرف الاستعمار ولذا ازدهرت ، وأقول إنها هى التى كانت ترسل أبناءها لجلب المستعمر بكل الطرق ، وأجزم على مسئوليتى أنهم كانوا يحسدون الهند ومصر على ما تحظى به من وجود إنجليزى مباشر ويومى . يقول إنها لم تكن غنيمة ولذا ازدهرت ، وأقول إنها لم تعرف الاشتراكية ولذا ازدهرت . يقول إنها حققت تراكما اقتصاديا وثقافيا ولذا ازدهرت ، وأقول إنها لم تعرف ثورات الدهماء ولا محرضيها ممن يهدمون كل شىء ولذا ازدهرت . وأخيرا أقول إن ثورة الميجى تلك كانت حكما عسكريا يمينيا ، وأزيد أن تقريبا اليابان فى كل لحظة من تاريخها حتى اللحظة لا تزال على العهد . وأقول إن الاحتلال الحقيقى لمصر ، لم يحدث ، ناهيك أن يصل لمستوى النزح والنهب البشعين ، إلا مرتين ، فى حالتين : الأولى احتلال البدو العرب الذين نذر هلوكة حياته للتنظير لانتمائنا لهم ولقوميتهم المزعومة ، والحالة الثانية هى احتلال الطغمة الناصرية (ذات البدو العرب) ، واغتصابهم ثرواتها التى بناها الأجانب ، والأجانب وحدهم ! حالتان هما المثاليتان للغاية لسيناريو الهجامة ضد البنائين !

أصارحك بشىء آخر : أنا لست من المتيمين بأكثر مما يجب بالخديوى إسماعيل ؛ لا أعتبره نموذجا مثاليا للرأسمالى الحصيف ، وقطعا لا أحب تمنعاته على الإنجليز بل موالاته أحيانا لقطاع الطرق البوناپرتيين (ولو كان بذات إدراك خليفته توفيق -بعد فوات الأوان للأسف- لما هو تعريف الحضارة -بتاع فرويد وبتاعى- ومن هم بالضبط صناع المستقبل وسادته ، لربما تعاونا سويا -بريطانيا وإسماعيل- على إسقاط الخلافة العثمانية ذاتها ، ولكان قد وفر على مصر الكثير ، ولكان قد أصبح لتاريخها ومكانتها شأن آخر ، بل لربما تغيرت خريطة العالم كله ، ولما كان لفرنسا ذكر فيها ، ولربما ما ولدت الشيوعية أصلا) .

دعنى أصارحك بما هو أسوأ : أكاد أرى ڤيروسا اشتراكيا ما قد تسلل لإسماعيل من كوميونات پاريس أثناء تردده عليها ، وأجده قد ترخص فى منح الحقوق السياسية والمدنية وأغدق على الفقراء وألغى السخرة وكان شعبويا بأكثر مما يحتمل العصر أو الواقع ... إلخ . هنا أذكر أن بريطانيا رائدة تحرير العبيد ورفيقة دربه فيه ، هى التى نصحته بالتمهل فى إلغاء السخرة ، ذلك أنها فى نفس الوقت أم مفهوم التنمية البطيئة الحثيثة المستدامة (أو بلغتك الإسلامية العربانجية التى تفهمها ' لكل أجل كتاب ' !) . كان رأيها أن إطعام المصريين بوضعيتهم وذهنيتهم السائدة آنذاك ربما يكون أفيد وأرخص من دفع مرتبات لهم لا يعرف أحد كيف سينفقونها : تبغ ، أفيون ، مومسات ، لا أعلم ، أعلم فقط أنه قطعا ليس الطعام المغذى ؟ (وطبعا كانت هى نفسها -وليس أى أحد آخر- من ألغاها فى اللحظة المناسبة حين نضجت ظروفها بعيد دخولها مصر) . للأسف ، هذه وتلك كانت من أسباب إفلاسه السريع ، وسبب ضياع كل تلك الفرص التاريخية التى ذكرت .

الإنجليز نهبوا مصر ؟ تعالى نحسبها سوا : نقارن بين ١٨٨٣ وبين ٤٠ سنة بعدها (أول سنة استعمار وأول سنة استقلال) : عدد السكان تضاعف ، من ٧ إلى ١٤ مليونا ، وهذا شىء لو رآه أى محلل سكانى فى عصور الجوع العالمى تلك لصاح : ' هذا ما يسمى بالوفرة ! ' . ... مصر كانت مدينة معدمة ، فتضاعف ناتجها الداجن الإجمالى من ٩ إلى ٤٠ مليون جنيها فى ذات السنوات الأربعين ، وطبعا سددت كل ديونها . الآن بماذا سوف تصيح : ' لكل أجل كتاب ' أم ' هذا نهب ' ؟ !

دعنى أصارحك بشىء أخير ، بل دعنى أصارح الشعب المصرى لأن الكلام من الآن فصاعدا لا يخص عربانجى مثلك ، وللعلم ، أنا لم أقبل قط منك أصلا أن تنفخ شدقيك بلسان الشعب المصرى بأنه خلاق منتج مبدع ، أو بالعكس ، أو بأنه منهوب ، أو بأى شىء ، لأنك ببساطة لست منه . السر هو أنى لست متيما جدا بالشعب المصرى ، ولدى اقتراح بسيط : إذا كنتم تقبلون تحريض الهلوكة بأن ذلك نهب ، والإنجليز شفطوا بلدكم ع الجاهز ، وأنتم هم الشعب المنتج المبدع ، لماذا إذن لا تتبادلان المواقع ؟ يأتى الإنجليز للسكنى هنا وتذهبون أنتم مكانهم . عددكم يساوى تقريبا عدد الشعب البريطانى أو الألمانى أو اليابانى . ماذا لو نقلنا أحد هذه الشعوب لأرض مصر ، وأرسلناكم بدلا منهم إلى البلد

المناظر ؟ أكاد أجزم أن أولئك بعد عشر سنوات سينتجون فى أرضنا مرتين أو ثلاثا مما ينتجونه فى بلادهم الحالية ، الجرداء والصغيرة لدى المقارنة ، وطبعا خمسون أو مائة ضعف ما تنتجه مصر الحالية ، أرض الخير كما نسميها جميعا . أما المصريون فى مثل هذا السيناريو فطبعا سيموتون جوعا وبردا . ربما بعد ألفى سنة تنقلب المعادلة ، ويصبح الإنجليز سكان مناطق حارة متخلفين ، وأنتم أنشط وأكفأ وأذكى الأعراق ، لكن بدون سيناريوهات تخيلية -وبدون موارية أو لف ودوران- لا شك مطلقا فى أن مشكلة مصر القاعدية هى المصريون ، ولا شىء يعفيكم من كل ما جرى لها . منذ الأسكندر العظيم وحتى اليوم ، من بناها دائما أبدا غير مصريين ، ومن يخربها المصريون ولا أحد سواهم ، سواء بالإهمال المباشر ، أو بعدم حمايتهم لها من هكسوس الشرق كهلوكة وأمثاله ، أو -وهو الغالب- بطيبتهم التى تترك أمثاله يضللونهم ويقودونهم للهاوية ، وربما لو وجدوا قيادة تصارحهم بالحقائق الچيينية البسيطة لربما كد -بعضهم على الأقل- واجتهد وحظى بحياة أفضل .



يقولون عن أنفسهم خير أمة أخرجت للناس ، بينما يعلمون تمام العلم أنهم قمامة چيينية ؛

أنهم أخرى أمة أخريت للناس ، وليس فى هذا أية إساءة أو تجاوز للحقيقة العلمية فهم حرفيا الفضلات التى لفظتها الأمم المجاورة !

ها أنذا يا ست الكل قد انتهيت من مشاهدة الشريط . ما هذا الذى أتيتى به لى أيتها العزيزة ؟ ألا يكفيك الشريط ؟ نسخة نادرة من مذكرات إسماعيل صدقى ؟ قطعا لن أجدها على الإنترنيت . ربما فقط فى دار الكتب . سمعت عنها ولم أقرأها أبدا . أراها كلها تتكلم عن السياسة وعن ' مواقفه الوطنية ' . إنه مهموم على ما يبدو بإثبات أنه ليس خائنا . لماذا لا يتكلم فى الاقتصاد ؟ إنه إنجازه الحقيقى . إنه الوطنية الحقة ، وإن كنت لا أعتقد جديا أن لكلمة وطنية أو خيانة معنى أصلا . لا أعتقد أنك سوف تعرفين قيمة الرجل من خلال ما يقوله عن نفسه . إنه سياسى فى نهاية المطاف ، وعليه أن يراعى كلماته . ما قاله أعداؤه عنه هو الذى يكشف قيمته الحقيقية . ستعرفين كيف كان صدمة جبارة لهم ولكل ركود العقلية المصرية التى أفسدها المحرضون ، أو كانت فاسدة أصلا وكل ما حدث أن استغلوها . على أية حال أشكرك جدا عليها . من أين حصلتى عليها ؟ أما زلت تنقبين فى سور الأزبكية ؟ كيف تحافظين على هذه العادة ، وهى عادة الجيل السابق على جيلى ، وأنا نفسى لم أمارسها إلا لماما ؟ !

عزيزتى لا تقولى إن الناس تعتقد أن هلوكة يجرى ' مراجعة ' لنفسه ولعصره ، ويهتمون به . ليست إشارة احترام هنا أو هناك لإسماعيل صدقى تعنى مراجعة . ليس تحاشى تسمية جريمة يوليو بالثورة مراجعة . هو لم يتغير . هل نسيتى أنه صاحب مصطلحى النكسة والثغرة (وربما أيضا صاحب مصطلح النكبة وهو يغطى حرب ١٩٤٨ ، أما هزيمة ١٩٥٦ فيسميها المطب) ؟ إنه دائما أبدا بارع فى المراوغة اللفظية والأكاذيب . لو لم يكونوا أربع هزائم بل أربعمائة لوجد فى كل مرة وصفا جديدا مخففا مراوغا مضللا كذابا كهذه . إنها موهبة فى الدماء العربية يا هالة . من عادة العرب ، أو بالأحرى من عبقرية العرب ، أن تسمى الشىء بعكسه . هذا هو لسان العرب يا هالة : يسمون تحضر وانفتاح وحراك مكة الغناء الزاهرة وقصص حبها الجميلة ما قبل الإسلام جاهلية ، ويسمون جهامة وعبوس وقمع عصور الظلام والحب المحرم بنور الإسلام (أما حين يحكمون قبضتهم السوداء على منطقة الخيام تلك ، فيجعلون اسمها فجأة أم القرى ، بينما ما هى بقرية أساسا !) . يخلقون المنتقم الجبار ويدعونه صباح مساء الرحمن الرحيم . يسمون البلطجة وقطع الطريق والانحراف الجنسى نبوة ووحى . يخلقون دين الصحراء ويختارون له علما أخضر . يصممونه بحيث يكبت ويقتل كل شىء حر طبيعى أو أصيل فى الإنسان ، من سماع الموسيقى إلى غيرة المرأة على رجلها ، ثم يسمونه بدين الفطرة . يعكون ما شاء لهم العك والنسخ والفسخ والفشخ فى الدين ، ثم يسمون عبادات الناس الأصلية بالبدع . يقدسون شخصا أكثر وحشية من هانيبال ويسمونه نبى الرحمة (ودقتها -لو شئتى- نبى اللحمة ، لحمة تسفح وأخرى تنكح !) . يختارونه الوحيد الأكثر فسقا من كاليجولا ويسمونه بمتمم مكارم الأخلاق . ينسون أنه الأكثر بؤسا ودونية وانسحاقا وعقدا نفسية وحقدا طبقيا فى قومه ويسمونه أشرف الخلق . يطلقون جراد يثرب الدموى ينهش الأخضر واليابس فى كل العالم ويسمون هذا سماحة الإسلام . يولون أدنى أبناء عاهراتهم على أفضل شعوب الدنيا ويسمون أولئك بالأعلون . يقولون عن دينهم إنه جاء بلسان مبين ، بينما هو حفنة من الأحاجى والمتناقضات لا يفهم منها أحد شىء وهم أول الجاهلين . يسمون أجهل الخلق جميعا (رجال الدين ، من غيرهم ؟) بالعلماء . يخلقون أشرس وأبشع مؤسسة دينية فى التاريخ تحتكر كل صغيرة وكبيرة فى حياة الإنسان بما فيها الذهاب معك للحمام ولفراش الزوجية (بفرض أنهم يسمونها زوجية) ، وبما فيها مجرد تفسير أبسط مفردات النص-اللغز الذى صنعوه مبهما جدا بحيث لا يعلم تأويله إلا الله وإياهم (هذه الأخيرة حسب زعمهم المشكوك فيه) ، ثم بعدها يقولون لكى إن

الإسلام لا يعرف الكهنوت . يجعلون المرأة أدنى من الجارية ويسمونها بالجوهرة ؛ عندهم النساء sex slaves لا أجر لهن إلا طعامهن ، يعتقلونهن فى البيوت أو خلف البراقع ويضربونهن وأحيانا يذبحونهن ، ويقولون تلك تكريم لهن من الله (وطبعا لم يقولوا لنا ولو لمرة واحدة لماذا اختار الله المرأة ليكرمها وليس الرجل ، أو لماذا -إذا كان الإسلام قد كرمها حقا- حين تتحدث المرأة عن حقوقها المهضومة لا ينتفض ضدها أحد إلا المشاخخ) . يسمون وجه المرأة وشعر المرأة وصوت المرأة وصدر المرأة وسيقان المرأة وكل أجمل الأشياء فى الحياة عورة . يمزقون ويشوهون أعضاء الإناث ويسمونها عملية تجميل . يتباهون بالأنساب ويرهبوننا باختلاطها عندنا ومن أجلها يحرمون التبنى النبيل ويصورون كل الأرض كسدوم وعمورة إلا منهم ، ثم حين تدقق فى أنسابهم تكتشف أنهم أصحاب العقيدة الوحيدة فى التاريخ التى تقول الولد للفراش وللعاهرة للحجر ، والوحيدة التى تبيح زواج الأم والأخت والابنة والجدة والحفيدة لأن فى عرفهم النسب شىء والصهر شىء آخر ، والوحيدة التى كان يرسل نبيها مؤذنا يسبقه لدى رجوعه من الغزوات كى تخرج منكوحاته -أو بالأحرى ناكحاته- الرجال من عندهن . يأكلون فى رمضان قدر ما يأكلون طيلة السنة ويسمونه شهر الصوم . يقولون إن اقتصادهم الإسلامى اقتصاد بدائى بسيط نقى قائم على المقايضة أو تجارة السلع العينية المباشرة وينكرون الفوائد وينكرون البنوك ويكاد ينكرون النقود وطبعا ينكرون المقامرة (الميسر) ، لكنهم تحت هذه الضجيج ينشئون بنوكا يسمونها شرعية ، الأعجب أنها لا تفعل سوى المضاربة على أوراق لا تساوى ثمن الحبر الذى طبعت به بما يجعل وول ستريت نفسها تفغر فاهها ويسيل لعابها على ما يحققونه من ربح سريع . هم أمة الكذب والنفاق والعيش حياتين واحدة للعلن وأخرى فى الخفاء ، ثم يعظونك فى المعايير المزدوجة . يجعرون بشعار العدل ١٠ مرات كل دقيقة ، بينما هم أبشع من ظلموا بعضهم البعض . يجعرون باغتصاب حقوقهم ١٠ مرات كل دقيقة ، بينما مهنتهم الوحيدة فى كل التاريخ الإغارة وقطع الطريق ولا هم أكبر من اغتصاب النساء واسترقاقهن . يجعرون باغتصاب أراضيهم ١٠ مرات كل دقيقة ، بينما هم آخر من عنتهم الأرض يوما ، وكل ما همهم منها اختطاف البشر ونهب الشجر . يجعرون بكلمة التوحيد ١٠ مرات كل دقيقة ، سوطا يلهبون به كل الأعراق الأخرى ، بينما هم يشركون بإله التوحيد ليس فقط نبيهم وكل أحجار مكة القديمة والحالية إنما كل شيخ قبيلة عندهم . يجعرون بكلمة الوحدة العربية ١٠ مرات كل دقيقة ، لا لسبب إلا أن خناجر كل منهم قد باتت جاهزة بالفعل لقتل ابن عمومته ، إذ أن الحلم الدائم والأكبر والأوحد لكليهما هو الاستيلاء على مال الآخر ونسائه . يسمون مصر أم الدنيا وهى أم الدين ، معتقدين أنهم يحقرونها هكذا ويعلون من أنفسهم ، ولا يدركون أنهم بهذا يمتدحونها بما ليس فيها . يطلقون على إسرائيل وصف الدولة الدينية وهى أكثر علمانية مليون مرة من أى بلد عربى . يسمونها بالكيان الصهيونى بينما هم لا كيان لهم أصلا . يقولون عن أنفسهم أرباب الكلام واللغة والبيان ، وهم يتخاطبون بالكاد بلغة الجسد بانفعال العضلات وغضبات التكشير والتشويح والإشاحة والإشارة (ليس بمعناها الرقيق طبعا) . يسمون تأتآتهم الصوتية وركاكة وأخطاء كرهائهم الكريه بأنها إعجاز الفصاحة ، وأنا لم أجد فصاحة ولا بلاغة فى نص عربى واحد ، ولو كان فى اللغة العربية فصاحة أو بلاغة لاستخدمها نجيب محفوظ قبل أى أحد . يصفون إلههم عمر بالفاروق والعادل إلى آخر هذا الهراء ، بينما يعلمون أكثر من أى أحد أنه أبشع شخص ولدته امرأة فى التاريخ ؛ أبشع كينونة بيولوجية عرفتها الأرض انتهابا وشراسة وجورا واغتصابا ووحشية واستعبادا لبقية الكائنات (فقط فاتهم أن يسموا عهدته العمرية بأول إعلان عالمى لحقوق الإنسان ولمناهضة العرقية وهلم جرا) . هكذا وهكذا إلى ما لا نهاية ، وفوق الكل يقولون عن أنفسهم خير أمة أخرجت للناس ، بينما يعلمون تمام العلم أنهم قمامة چيينية ؛ أنهم أخرى أمة أخريت للناس ، وليس فى هذا أية إساءة أو تجاوز للحقيقة العلمية فهم حرفيا الفضلات التى لفظتها الأمم المجاورة ! ... هكذا لسان العرب يا هالة ، وأعترف أنها موهبة يتفرد بها العرق العربى دون كل أعراق الأرض ، أن تستخدم كل كلمات اللغة على العكس من تعريف القاموس لها ، ومع ذلك يظل الجميع يفهم ما يقوله الجميع . لا شىء يقال إلا وكان المقصود تحديدا هو عكسه ، لا شىء يقال إلا لتغطية عقدة نقص أو بطحة ما ، وعلم النفس يطلق على هذا اسما لا يحتمل اللغط : مرض الإسقاط ، وعلم الجريمة يطلق عليه ألفاظا أخرى !



ملحوظة : قمامة چيينية ليست شتيمة ، بل هى واقع الحال ،

فالصحراء مكان لا ينشئ حياة إنما تنفى إليه من كل الأصقاع نفايات الحياة ،

ودائما ما كانت المدن تلفظ عناصرها السيئة خارجا ، ومن هنا صارت شبه جزيرة البعر هى مقلب زبالة العرق البشرى ،

ولم يحدث يوما أن صنعت عرقا قائما بذاته باسم العرب أو بأى اسم .

... لا عجب أن معظم تاريخكم اسمه العرب البائدة ، لأنكم كنتم تموتون عطشا أولا بأول .

أما حين تسارع لاحقا قذف مدن حوض النهرين الفاشلة والمتخلفة أصلا بالمزيد ، امتلأت الصحارى بالأوغاد من ألف أصل وفصل .

لا غرابة بما أن حياتكم كلها عبارة عن مانشيتات ويفط وستيكرات تضعونها على السلعة الخطأ ،

أن تكونوا أكثر ثدييات على وجه البسيطة تتحدث فى أنسابها وأصولها وعراقتها لا لشىء إلا لأنها الشىء المعدوم كلية فيكم .

بل لا غرابة أن ذلك التفسفس والتشرمط فى جذوركم هو سر الحروب التى لم تنقطع بينكم إلى اليوم ،

فليس لأمة فى كل التاريخ (وأساسا كلمة أمة فيكم مجاز) أن اقتتلت هكذا فيما بينها ،

فقط أنتم ، أيها الكائنات دون-البشرية ، أيها الظاهرة الفردية من نوعها تاريخيا : القبائل الوغدية ؛ حثالة كل الحثالات !

ملحوظة : قمامة چيينية ليست شتيمة ، بل هى واقع الحال ، فالصحراء مكان لا ينشئ حياة إنما تنفى إليه من كل الأصقاع نفايات الحياة ، ودائما ما كانت المدن تلفظ عناصرها السيئة خارجا ، ومن هنا صارت شبه جزيرة البعر هى مقلب زبالة العرق البشرى ، ولم يحدث يوما أن صنعت عرقا قائما بذاته باسم العرب أو بأى اسم . ... لا عجب أن معظم تاريخكم اسمه العرب البائدة ، لأنكم كنتم تموتون عطشا أولا بأول . أما حين تسارع لاحقا قذف مدن حوض النهرين الفاشلة والمتخلفة أصلا بالمزيد ، امتلأت الصحارى بالأوغاد من ألف أصل وفصل . لا غرابة بما أن حياتكم كلها عبارة عن مانشيتات ويفط وستيكرات تضعونها على السلعة الخطأ ، أن تكونوا أكثر ثدييات على وجه البسيطة تتحدث فى أنسابها وأصولها وعراقتها لا لشىء إلا لأنها الشىء المعدوم كلية فيكم . بل لا غرابة أن ذلك التفسفس والتشرمط فى جذوركم هو سر الحروب التى لم تنقطع بينكم إلى اليوم ، فليس لأمة فى كل التاريخ (وأساسا كلمة أمة فيكم مجاز) أن اقتتلت هكذا فيما بينها ، فقط أنتم ، أيها الكائنات دون-البشرية ، أيها الظاهرة الفردية من نوعها تاريخيا : القبائل الوغدية ؛ حثالة كل الحثالات !



أتصدقين حقا أن صلاح الدين كان ناصرا وفاتحا ؟ !

أتصدقين حقا أن صلاح الدين كان ناصرا وفاتحا ؟ ! كل انتصاراته المزعومة هى خيانات فى الظهر . بدأ بولى نعمته نور الدين زنكى والى حلب ، ولم ينته بالعاضد آخر الخلفاء الفاطميين الذين -ومعهم كل من بقى على شيعيته- أبادهم عرقيا جميعا حتى آخر رجل وآخر امرأة وآخر رضيع ورضيعة ، وقلب الأزهر من جامعة متعددة الروافد للعلوم العصرية وللتسامح الدينى إلى أكبر قلعة عالمية للإسلام السنى الاستحلالى الإرهابى المجرم . أما عن الصليبيين ، فحتى حطين التى جعلوا منها أسطورة كانت -ككل ' حروب ' العرب- هجمة ليلية من هذا الوغد السافل ، تحرق مرابط الخيول وتذبح الجنود نياما . تسألينى لماذا لم يأخذوا حذرهم ؟ الإجابة أنه لم يخطر ببالهم أن من بين البشر من هم على هذه الحقارة ، وطبعا لا توجد فى تاريخ الغرب العسكرى سوابق من هذا النوع . الأدهى أن لم يكن لهذا ' النصر المظفر ' نتائج تذكر ، فما حدث هو أن استعاد أورشليم بمعاهدة سلام من شروطها أن تظل لهم مملكة فى عكا تضمن حرية العبادة والتنقل للقدس ، بمعنى آخر هو حصل على حق دخول المسلمين لأورشليم والتعبد فيها لا أكثر ، وكلها أصلا أهداف ومبادىء ريتشارد الأصلية . الأدهى بعد ذلك أنه حين تغلغل فيه شعور الضآلة أمام فروسية ونبالة قلب الأسد صادق ووالى مسيحيى مصر ، بل وأعطى اليهود وعدا بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين وقد كان ؛ ثم الأدهى والأدهى أن عاد سليله فى مصر وقدم القدس وبقية فلسطين هدية من جديد لفريدريك ، فقط كى يوهم نفسه ويوهم الناس أنه طرد الصليبيين من المنصورة . عندك حق ، هؤلاء ليسوا عربا ، وتميزهم النسبى الضئيل سببه چيينياتهم غير العربية ، لكنك لم تفهمى ما أقصد : ما أقصده أن من يتباهى بأمثال هؤلاء هم فقط العرب !

نعم ! نعم ! لقد قصدت هذا أيضا : تسمية الهزائم انتصارات هى من عادتنا حتى اليوم !

تفتكرى أفقر حى إطلاقا على وجه الأرض ، اسمه إيه ؟ اسمه نزلة القياجرا ! أيوه ، جايز عندك حق . طبعا رمانة موش عربية ! فعلا إمبابة موش عرب ، بس أكيد اتعدوا منهم . العرب يا هالة بارعون لآخر مدى فى لعبة الكلمات . عندهم لو حلت الأمور بالكلام فقد حلت . لو أقنع بشار الأسد نفسه أنه منتصر ، فهو منتصر ، لو أقنع ملالى إيران أن أميركا لن تضربهم فهى لن تضربهم ، لو أقنع العرب أنفسهم أن فاران هى مكة فهى مكة ، وأن القدس بها مسجد أقصى على أيام الرسول فإن بها مسجدا أقصى . الكلام هو الحقيقة الوحيدة ، وهو يكفى لتغيير التاريخ ، أو حتى الجغرافيا . عند كل اقتتال عربى-عربى لا يظهر سوى شعار واحد ' الحوار هو الحل ' . تصورى ! لا أحد فى لبنان أو غزة أو موريتينيا أو أى مكان يطرح حلا يخص الموضوع أو يتكلم عن المشكلة ، فقط الحل أن نجلس ونتكلم حتى يوم القيامة ، أقصد حتى المعركة التالية بيننا ، وحينئذ يقولون من جديد لا يوجد سوى حل واحد : الحوار !



الجمهورية العربجية المنتحرة

كما قلت لك الكلام هو موهبة فى الدم العربى . باستثناء القتل هو حرفتهم رقم واحد . لكنى أعترف أن الهلوكة هو تاريخيا أحد أعظم تجليات هذه الموهبة . لا ، ليس مجرد اختراع هذا المصطلح أو ذاك . كيف لا تذكرين ذلك الخطاب الشهير ؟ عندك حق ، لم تكونى قد ولدتى بعد ! ها هو على الإنترنيت يا صغيرتى . بدأ بالقول ' أيها الإخوة : لقد تعودنا معا فى أوقات النصر وفى أوقات المحنة ، فى الساعات الحلوة وفى الساعات المرة أن نجلس معا ' (أوقات النصر ؟ أى نصر ؟ الساعات الحلوة ؟ ' الحلوة ' ؟ ! يا للخراء !) . ثم يقول ' لا نستطيع أن نخفى على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة ' (نكسة ؟ ألم يكن فى اللغة أية كلمة أفضل ؟ مثلا : الساحقة ، الماحقة ، العار ، الشنار ، الذل ، الهوان ، الفضيحة ، الكارثة الخيبة بالوبية ، أو طبعا : أم الهزائم ؟ بلاش كل ده ، لو مصمم على حاجة على وزن نكسة ، تبقى وكسة . لو أمكننى تمثل كيف خرجت كلمة كتلك من قلم داعر محترف كهلوكة ، فلا زلت حتى اليوم لا أتصور كيف خرجت من فم عبمعصورة ، الذى كان حتى قبل ساعات قليلة يتصور نفسه The Master of the Universe) . ثم يقول ' ولقد تحركت قواتنا المسلحة إلى حدودنا بكفاءة شهد بها العدو قبل الصديق ' (لا تعليق عندى !) . ' ولقد كانت الحسابات الدقيقة لقوة العدو ، تظهر أمامنا أن قواتنا المسلحة بما بلغته من مستوى فى المعدات وفى التدريب ، قادرة على ردعه ' (أيضا لا تعليق . لا ، انتظرينى ! لدى تعليق . تصورى ، أنى كدت يوما أن أمنح الضفدع الجعجاع السمين الأخنف المسفوح على يد ميليشيات بيروت المسيحية ، حسن نصر الله ، اعتمادا لا يستحقه . فحتى كلمة ' الحسابات الدقيقة ' هى من اختراع هلوكة . يبدو أن بالفعل كل شىء فى اللغة العربية المعاصرة من اختراع هلوكة !) . ثم يقول ' وفى صباح يوم الاثنين الماضى الخامس من يونيو ، جاءت ضربة العدو . وإذا كنا نقول الآن بأنها جاءت بأكثر مما توقعناه فلا بد أن نقول فى نفس الوقت وبثقة أكيدة أنها جاءت بأكبر مما يملكه ، مما أوضح منذ اللحظة الأولى أن هناك قوى أخرى وراء العدو جاءت لتصفى حساباتها مع حركة القومية العربية ' (حاجة تقرف ! سأعرفك بشخص ظريف مرح اسمه ونس يصيغ نظريات مؤامرة أفضل بكثير ، ولا يقول أبدا أنه صاحب حسابات دقيقة ، ولا حتى يستخدم عبارة ' أكثر مما توقعناه ' أو ' أكثر مما يملك ' !) .

يمكنك أيضا أن تناقشى ونس فى العبارة التالية ' العدو الذى كنا نتوقعه من الشرق ومن الشمال جاء من الغرب ... طائرات بريطانية أغارت فى وضح النهار على بعض المواقع فى الجبهة السورية وفى الجبهة المصرية ، إلى جانب قيام عدد من الطائرات الأميركية بعمليات الاستطلاع فوق بعض مواقعنا . ولقد كانت النتيجة المحققة لذلك أن قواتنا البرية التى كانت تحارب أكثر المعارك عنفا وبسالة فى الصحراء المكشوفة وجدت نفسها فى الموقف الصعب لأن الغطاء الجوى فوقها لم يكن كافيا ' . لماذا لم تتوقعه حساباتك الدقيقة من الغرب ؟ ثم أى غرب ؟ أميركا لم تكن قد أعطت إسرائيل سلاحا يذكر حتى ذلك الوقت . كلها كانت طائرات ميراج قديمة ، عاقبتها حتى فرنسا على استخدامها لها . أميركا كانت مصنفة تقريبا كعدو ، كحليف للسعودية أولا وأخيرا ، فضربت لها السفينة ليبرتى ، وقتل وجرح لها أكثر من مائتى ضابطا وجنديا . وواقعيا لم تحظ إسرائيل قط بالاحترام ولا المكانة ولا التسليح من أميركا ، إلا بعد أدائها المنفرد المذهل فى هذه الحرب . هل سبق وسمعتى المكالمة التى رصدتها إسرائيل (موجودة النهارده فى كل الأفلام الوثائقية) ، والتى يقول فيها صاحبنا للملك حسين : ' تحب جلالتك نقول طيارات أميركية ولا نقول بريطانية كمان ؟ ! ' (ولم يرد الملك حسين ربما لأنه كان مندهشا لسماع كلمة ' جلالتك ' لأول مرة من جانب زعيم العروبة الأوحد) ؟ لكن انظرى كيف أن الكذب متأصل فى دمه ؛ حتى بعد انفضاح كل شىء لكل الدنيا يقول : ' طائرات بريطانية وأميركية ' ، ربما شاهدوها كما شاهدوا الملائكة

تحارب فى صفهم هم . ' أكثر المعارك عنفا وبسالة ' ؟ نكتة سخيفة ، موش كده ؟ آه لو سمعها روميل أو مونتجومرى ! ' الغطاء الجوى لم يكن كافيا ' . كافيا ؟ لقد كان صفرا !

فى الجامعة كان لى زميل من المنيا من نفس عمرى بالضبط ، حكى لى أنه كان قد أدى امتحان المرحلة الابتدائية ، أو لعل اسمها كان القبول للإعدادى ، يومى السبت والأحد ، وكان ذلك الاثنين أول أيام ' الأجازة الكبيرة ' . كانوا قد وعدوهم قبيل الامتحانات بالزيارة السنوية المعتادة لطلبة الصف السادس لمطار المنيا ، إذ ثمة علاقة ما بين الطائرات وبين منهج مادة العلوم لديهم . وعدوهم جميعا بركوب الطائرة ، لكن لسبب غير واضح جدا بالنسبة له ، اسمه إعلان حالة الطوارئ فى القوات المسلحة ، ألغيت الرحلة . لم يكفه ما أغدقوه عليهم فى تلك السنة من رحلات لمصنع الكوكا كولا المثير المغلف بحوائط الزجاج من كل الجوانب وكأن الأنجليز أرادوا لعابرى السبيل أو أطفال صعيد مصر أمثاله الولع منذ نعومة أظافرهم بإبداعات الهندسة الميكانية وعصر الصناعة ، أو مصنع الغزل الذى يخطف الأبصار والأسماع معا من سرعته وضجيجه ، أو مصنع السكر الذى لا تزال الماكينات المصنوعة من الزهر الأسود الضخم مكور الحواف تعمل فيه بهمة منذ أيام مُحَمَّد على باشا (وهى أماكن مثيرة حقا لأنى شخصيا رحتها بنفسى معه ونحن بالجامعة) . لم ينس وعد الطيران قط ، لذا استغل فرصة أول يوم فى العطلة وذهب بنفسه للمطار منذ الصباح الباكر ، فوجد العرض الذى لم يحلم به قط : طائرات تسقط طائرات بسرعة البرق . لم يتخيل شيئين : أن ما سقط وجمع بعض قطع منه هو طائرات مصرية ، إنما -حسبما ظن- حطام طائرات إسرائيلية رسم عليها علم ما كان يسمى بالجمهورية العربجية المنتحرة . والشىء الثانى الذى لم يخطر بباله أنه كان محظوظا جدا بما شاهد ، لأن كل بقية طائرات سلاح الجو المصرى قد دمرت على الأرض ، ولم تتح ولو لواحدة منها فرصة الإقلاع كما حدث لبعض زميلاتها فى مطار المنيا . كان يقول بفخر إنه شاهد المعركة الجوية الوحيدة فى حرب الأيام الستة . حين جاء للبيت بتلك القطع ، غضب منه أبوه ، وحبسه وأفسد عليه عطلته ، ربما حتى لا يتحدث لأحد بما رأى . لكن هذا الأب فعل شيئا آخر فى نفس الوقت : لم يستمع ثانية أبدا لأحمد سعيد ، إنما ضبط مؤشر المذياع لبقية حياته على محطة عم حمدان ، ' صوت إسرائيل من أورشليم القدس ' .



لقد كان ٥ يونيو ١٩٦٧ يوما مجيدا فى تاريخ الحضارة الإنسانية ،

سحقت فيه قوى القهر والظلام ، البغى والتخلف ،

كسرت شوكتها وتمرغت أنوفها فى التراب للأبد !

أوه ، يا هالة ! أنت لم تعشى ذلك اليوم ، ولم تسمعى أبدا عم حمدان . لقد كان ٥ يونيو ١٩٦٧ يوما مجيدا فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، سحقت فيه قوى القهر والظلام ، البغى والتخلف ، كسرت شوكتها وتمرغت أنوفها فى التراب للأبد ! رغم ما كنت أشعره بقوة من ألمها على الضحايا من بسطاء الناس ، لم أر السعادة على وجه أمى فى كل حياتها ، قدر ما رأيتها فى ذلك اليوم ! مؤخرا فقط فهمت السر : مصر لم تهزم فى ذلك اليوم ؛ مصر الطيبة لم تكن يوما عداوة لليهود ولا لأى أحد بمن فيهم السيئين ممن احتلوها ؛ لا مطامع لمصر فى القدس ولا غيرها ، مصر لم تعتد يوما على أحد ولم تخرج خارج ترابها إلا نادرا وللدفاع الأخير عن النفس ؛ من هزموا فى ذلك اليوم هم العرب وحلمهم التاريخى باحتلال كل العالم ، وأعتقد شخصيا أنها كانت نهايتهم الأخيرة !

لن أطيل عليك ، إليك فقط ذلك السطر الشهير سيئ الصيت : ' وأقول لكم بصدق ، وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفى فى هذه الأزمة ، فإننى على استعداد لتحمل المسئولية كلها . ولقد اتخذت قرارا أريدكم جميعا أن تساعدونى عليه . لقد قررت أن أتنحى تماما ونهائيا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى ، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر ' . يقولون إن هلوكة عكف على تأليف الخطاب فى تسع ساعات كاملة . بصراحة ، لا أستغرب . أنا شخصيا لا أستطيع الإتيان بجملة كهذه وحدها ، ولو تفرغت تسعة أعوام . ' على استعداد لتحمل المسئولية ' ؟ جدعنة يعنى ! وجاى على نفسك كده ليه ؟ ' قرار أريدكم أن تساعدونى عليه ' ، أقصد أن هناك احتمال ألا تساعدونى ، بل أجزم أنكم لن تساعدونى ، هكذا قمت ببرمجتكم ، أجزم أن المظاهرات ستنفجر ، وأجزم أنى جعلتكم لا تتنفسون إلا بى . ' أعود الى صفوف الجماهير ' . أية صفوف بالضبط ؟ هل سيشتغل فلاحا أم عتالا ؟ ثم فى حدود فهمى المتواضع ، من يهزمون لا يعودون لصفوف الجماهير ، ناهيك عن أن يلقوا قبلها خطابات ' تنحى ' يرسمون فيها خطة ' للعمل العربى ' للمائة سنة القادمة . إنهم لا ' يتنحون ' ،

بل لا يلقون خطابات أصلا . فقط يحاكمون ويعلقون على المشانق ، أو -فى حالة ما إذا كان لديهم ذرة من كرامة- ينتحرون (بزيادة حرف واحد على ' يتنحون ') !

ربما هزم ناصر عسكريا فى ١٩٦٧ مثلما هزم السادات عسكريا فى ١٩٧٣ ، لكن انظرى كيف عرف هذا الأخير اللحظة المناسبة لإيقاف الحرب قبل أن تتحول الهزيمة الميدانية لكارثة شاملة بجلاجل (كالعادة !) ، ثم كيف حول الهزيمة (التى تأكيدا كان بذكائه وفهمه لوقائع التقنية والعصر وقدر حضارة الآخرين ومعدن چيبناتهم ، يتوقعها سلفا لو استطال الأمر كثيرا بعد خضة يوم العيد الأولية) ، كيف حولها إلى نصر سياسى مظفر واستعاد الأرض وحول مصر للانفتاح الاقتصادى وللولاء للغرب . هذا كان خداعه الستراتيچى الكبير : إسرائيل وضعت خططها وقواتها انتظارا له عند المضايق ولم تفكر فى أى بديل محتمل آخر ، فإذا به يريد خط بارليف الرمزى والسلام (و' والسلام ' هنا ليست كلمة التريقة المصرية المعروفة ، إنما السلام بجد !) .

واضح يا هالة أن من المهانة لى شخصيا أن أرد على شخص هذا مستواه . أنا الذى ناقشت يوما أفكار حائزى نوبل ، أو حتى وجدت تناقضا فى عبارة لأينستاين ، تريدين منى أن أنزلق لجدال مع ذلك المستنقع المعتوه العفن المدعو مُحَمَّد حسنين هلوكة ؟ لا يا عزيزتى ، غير صحيح منك هذا القول ! مراجعة ؟ إطلاقا لم يتغير فيه شىء واحد . كل الأساليب الرخيصة تلك ، وجدتها فيما رأيت على الشاشة أمامى الآن . أقله من الناحية الصيغية جدا ، أنه يحول الاهتمام دوما عن تهافت محتواه بعبارتى ' حاجة مهمة جدا جدا ' و' حاجة غريبة أوى أوى ' (أليستا هكذا أم أنى نسيتهما ؟) . صدقينى ، لو تثقى فى خبرتى ككاتب ، لا يوجد كاتب واحد فى العالم لديه الحد الأدنى من احترام الذات يستخدم مثل هذه العبارات إطلاقا . منذ آخر مرة حضرت فيها المهرجانات الخطابية الطلابية فى بيروت ، لم أسمع أحدا يمهد لكلامه بأنه مهم جدا سواه . تهافت محتواه ! بالضبط ! المحتوى ! هذه إجابتى ! كما أقول دائما ' المهم المحتوى ' . هو لا يخفى أنه ضد كل ما يمثله إسماعيل صدقى ، ويغلف هذا بكلمات الرقة والود والصداقة . هو لا يجرى مراجعة من أى نوع . كل ما هناك أن أيام صوت العرب قد ولت ولا يستطيع الكتابة كالسابق : ' بصراحة ' .

من حيث المحتوى هو يشوه كل أحد ، الملكية ، الأحزاب ، الإنجليز ، الأميركيين ، حتى الحضارة الفرعونية يقول عنها مفلسة وحضارة موت . أما من حيث الظاهر -والظاهر فقط- الكل طيبون بائسون و' حالات إنسانية ' يحللها على أريكته . أتعتبرين هذا مراجعة ؟ حالات إنسانية يمن عليها هذا الإله بالشفقة ؟ إنها نفس اللعبة ، ولا أقول ذكية ، إنما مكشوفة مفضوحة . هو لا يشفق عليهم لطيبة قلبه ، إنما لأنه على نحو غير مباشر يفتح الطريق لشىء آخر . شىء يلعب بالغرائز أيضا . هؤلاء أغنياء ولدوا بمعالق ذهبية ولديهم كل السلطة والجبروت (اكرهوهم !) . لكنهم عقيمون بؤساء (توقفوا عن كرههم فأنتم الأعلون وخير امة أخريت للناس ، ثم إننا قتلناهم بالفعل على أية حال ، زائد أن ربما لدى حل بديل) . الحل هو ذلك الضابط الشاب الفقير الجاد المجتهد (أحبوه إذن وشجعوه وتعاطفوا معه كما تفعلون مع شجيع السيما المكافح) . باختصار اكرهوا كل من حكموكم وكل من احتلوكم وأحبوا فقط روبين هوود الطيب الجديد ، عبمعصورة . بنفس الطريقة اكرهوا أميركا وإمبرياليتها ، وانسوا مصر وفراعنتها ، فالحل لكل المشاكل موجود ، وأقرب للسحر فى مفعوله : العروبة .

نعم أوافق على كثير مما يقوله عن قلة حيلة إنجلترا (التى نخرت كليا من الداخل ، قبل أن ينخرها من الخارج أمثال ذلك بلطجى الهند العارى الوضيع) ، لكن قطعا : البديل ليس الاستقلال !

نعم أوافق على كثير مما يقوله عن تدهور أسرة مُحَمَّد على (التى أيضا يساوى بخبث بينها وبين بقية الملكيات العربية ، وما هى بعربية) ، لكن قطعا : البديل ليس عسكر عبمعصور !

نعم أوافق على كثير مما يقوله عن كون ' الحضارة ' المصرية حضارة موت عقيمة (أو بالأحرى أقول إنها ليست حضارة ، إذ كيف تكون حضارة وتكون موتا ؟ !) ، لكن قطعا : البديل ليس العروبة !

نعم ، ما فعله الكولونيل لورانس (أيام كان ملازما) أن قرأ التاريخ وعرف أن شعار الوحدة العربية ما هو إلا نداء للقبائل لإعلان النهب والسلب (على الغير لا على بعضها البعض) ، وهذا ما فعله الإسلام ، لكن الفارق بينه وبينكم أن أعلنها صراحة فلبوا النداء ، أما اللف والدوران بتاعك فلن يؤدى لنتيجة قط لأنهم ببساطة لن يفهموه . نعم ، أوافق أن القومية العربية فكرة عبقرية ؛ فكرة أبدع فى اختراعها الكولونيل لورانس (أيام كان ملازما) ، وأدت دورا تقدميا جليلا فى التاريخ بأن أسقطت خلافة الإسلام العثمانية ، أقصد خلافة الجبنة المتعفنة ، للأبد .

المشكلة أن أناسا مثلك -أقصد الهجامة مثلك- أخذوا على محمل الجد بعد ذلك تمخيخة الكولونيل لورانس (أيام كان ملازما) ، وصدقوها بينما هى مزحة مختلقة بالكامل ، والأهم أن الرجل لم يصل خياله أبدا لأن يشتمل فيها مصر أو عامة أى جزء من أفريقيا ؛ فقط هى وحدة وقومية جزيرة البعر وأبناء عمومتهم المستوطنين بكثافة فى الجوار الشمالى . عن أية لغة وعن أية وحدة تتحدثون ؟ ٩٥ ٪ ممن تتحدثون عنهم ليسوا عربا -ولن يكونوا- إنما مجرد ضحايا احتلال وترهيب ومحاولة طمس للهوية . العرب هم فقط أهل الجزيرة ، ولو من حق أحد الحديث حقا عن وجود قومية للبعر فهو عمر بن الحطاب والحطابة وأتباعه مشاهير السفاحين .

ربما من الجائز أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف ، إنما بمقبضه فقط ، لكن اللغة العربية انتشرت حرفيا بحد السيف ، والآن -أيها الأقلية العربية التى اغتصبت حكم مصر فى سنة ١٩٥٢- تصدقون أكذوبة أنكم شعب واحد . اسألوا الأمم المتحدة التى تحبونها : هذا احتلال ، وفرض بعر الجزيرة لغتهم بالتنكيل وشلالات الدم على الشعوب المجاورة ، لا يجعلها شعبا واحد ولو يوم نهاية الزمان . رغم كونى كاتبا ، فهى ليست لسانى الأم ؛ لسانى الأم هو اللغة المصرية ، وبدرجة أقل قليلا الإنجليزية . هكذا كان كلامنا -أمى وأنا- فى البيت قبل سن المدرسة . لا أذكر أننا كنا ننطق كلمة عربية واحدة ، وتعلمت العربية فقط فى المدرسة كأية لغة أجنبية أخرى ، بل ربما هى لغتى الرابعة بعد اللبنانية أيضا ، إن لم أقل خامسة بعد العبرية ، هذه التى تعلمتها نفسى بنفسى فى الكبر . نعم ، تفوقت فيها كتفوقى فى أية مادة دراسية أخرى ، الفارق أن لغتى الأجنبية الأخرى هى لغة الحضارة والثورات التقنية ، أما العربية هى لغة المحتل العربى الغاصب البدائى المتخلف التى فرضها على بلادنا فرضا . والآن تريدنى أن أصدق أنى أكون شعبا واحد مع اليمنى أو الجزائرى أو الصومالى ممن فرضتم عليهم اللغة العربية فرضا ، أو بالأحرى فشلتم فى فرضها ، لأنى أتحدى أى أحد ممن تسمونهم عربا ، أن يفهم كلمة واحدة من كلام بلد غير بلده . ألم تلحظ يوما أيها المسكين أن الهوة بين اللغة العربية وبين اللغة المصرية أو اللبنانية المعاصرتين ، أضعاف المسافة بين لسانكم المبين المزعوم ذاك ، وبين الآرامية أو حتى العبرية ، لغات أعدائك اليهود !

عذرا أيا هالة الملتاعة . لا تكونى جزعة هكذا . هذه ليست طبيعتك . لا تشغلى بالك به . عصره انتهى ، والآن لا يشاهده سوى الصحفيين الشبان . يحلمون بالصعود الطبقى على طريقته ، ولا شىء أكثر . يعتقدون أن تدخين أحدهم لسيجار مثل سيجارى هذا ، يمكن أن يغير شيئا من حقيقة حضيض أهل الأرض ، أقصد حقيقة الچيبنات . لقد أصبحوا فجأة يحبون السيجار ، بعد أن نجحت عصابة كاسترو فى سرقة هذا البيزنس والتاريخ العظيمين للبنائين الكوبيين . ألا يعد هذا تطبيقا لمبدأكم الأثير : أعطى من لا يملك لمن لا يستحق ؛ مبدأ اللصوص العرب الشهير ، تنفردون به فى وقت تتم فيه كل معاملات بقية العالم بمبدأ أعطى من يملك لمن يستحق ؟ !

... يا صديقى ، ليس المهم ماذا تدخن ، المهم المحتوى . محتوى ما تقول . المهم محتواك . المهم الچيبنات !



برنامج القمح مقابل الكلام (أقصد الذهب مقابل الهراء !)

لا تكونى لحوحة ! لقد قررت ألا يخاطب لسانى لسانه قط ، وسأوجه كلامى للشعب المصرى وليس له . منذ متى أصبحت تصرخين فى ؟ أوف ! ربما أرد . علشان خاطرك أنتى بس . ربما خطر العنوان ببالى الآن : ' البيوت الزجاجية ! ' ، أو لو سمحتى لى سأستعير إحدى كلماتك ' الشيطان يعظ ! ' ، كلها تصلح ، أية ترجمة عربية حلوة لكلمة Look who's talking! .

هو يتحدث عن كل الزعماء غربا وشرقا كبؤساء وكـ ' ظروف ' أو ' حالات ' ' إنسانية ' تستحق الشفقة ، وأنه وناصره فوقهم جميعا ، وإجابتى له ولناصره هى فقط Look who's talking! .

يعظ فى ضعف الأسر المالكة العربية وأنها ' لم تكن مستعدة ' لمواجهة التحديات التاريخية ، وإجابتى له ولناصره هى فقط Look who's talking! .

يعظ فى المؤامرات الدولية والاستعمار والإمبراطوريات ، ويخترع بين السطور وفوقها مليون نظرية مؤامرة فى كل تصرف صغير بسيط وعادى تماما عند العالم المتقدم ، وإجابتى له ولناصره ولما فعلاه على امتداد كل الخريطة العربية والأفريقية من انقلابات وتمويلات ودسائس ، لم يستثنوا منها بلدا واحدا ، هى فقط Look who's talking! .

يعظ فى أن إسرائيل كدولة لم يكن لها حدود يوما ، وتتعيش على التوسع . أية حدود ؟ هل كانت للعرب حدود يوما ، أم أن طموح توسعهم باسم الدين ولغة الكرهان يغطى العالم كله ؟ ثم ألستم أنتم الذين رفضوا أصلا الاعتراف بأية حدود لإسرائيل ؟ ثم أى توسع ؟ حتى بغض النظر عن

الضرورات الأمنية ، كل ما ضمته إسرائيل هو أرض اللا أحد ، الضفة وغزة ، هذه التى لم تكن جزءا من أية دولة . أو ضمت الجولان ومزارع شبعا ، وهى أراض سبق لسوريا أن اغتصبتها من فلسطين ولبنان . بالمقابل : كم عدد الدول التى توسعت فى ضمها الجامعة العربية غربا وجنوبا وحتى فى المحيط الهندى فى نفس فترة عمر إسرائيل ، ذلك كى تساعد عربها على قمع الأقلية (أو غالبا الأكثرية) غير العربية فيها . أعتقد أصابع اليدين لا تكفى ، وكان التوسع سيتواصل ويتواصل ، لولا أن أوقفته لطمة إريتريا المهينة برفض الانضمام ؟ عفوا للاستطراد ، إجابتى له ولجامعته التى تتصدر بهوها عبارة ' كنتم أحط امة أخريت للناس ' هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى الذكاء والستراتيجية والتخطيط وتحقيق النصر ، وإجابتى له ، لمنظر ' لا صلح ، لا اعتراف ، لا تفاوض ' (وإن للعلم لأمنا الطبيعة لاءاتها الثلاث هى أيضا ' لا اشتراكية ، لا عربجية ، لا إسلام ' ، مع فارق أنها لا تتقزم ولا تتذلل أبدا أو تسمى مقاومة وممانعة وملاوعة ومشى حالك) ، إجابتى لناصره ولهزائمهم ، عفوا أقصد ' نكساتهم ' هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى موضوعية الصحافة ومهنيتها وفى الخبر لا الرأى ، وفى ' التحريض ' الذى يقوم به بعض كتاب الحكومة أو پرلمانييها ، وإجابتى لأصحاب أشهر إعلام تحريضى فى تاريخ المنطقة ، الأبشع منذ روبيسپيير ولينين ، من فاقوا جاندى نفسه فى فظاعته وسوداوية ونهم طموحاته لا نهائية الشره ، ولصوت العرب ولجريدة الأهرام (هذه التى كثيرا ما تتباهى برئاستك لها ، هى بدورها بالمناسبة : إحدى المسروقات !) ، إجابتى هى فقط و' بصراحة ' !Look who's talking .

يعظ فى ' غلبة العاطفة على العقل ' فى بعض الحسابات العربية الحالية ، وإجابتى له ، ولناصر الانتصارات ، هى فقط Look who's talking! .

يعظ فى ارتباك الجهاز الحكومى والسلطة والوزراء وكل شىء فى مصر السادات ومبارك ، وإجابتى له ولناصره ولعسكرهم الهواة بالكامل بسيطة جدا ، هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى القهر وفى التوترات وفى ' القلق ' وفى كل شىء فى مصر السادات ومبارك ، وإجابتى له ولناصره ولأريحيتهما الديموقراطية ، هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى عدم وضوح الهدف عند ' الناس ' (وهى اللفظة التى يقصد بها السادات ومبارك) ، وفى عدم قراءتهم لخريطة العالم ولخريطة المنطقة ولموازين القوى ، وإجابتى له ولناصره هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى أن أحدا منهم لا يملك تعريفا للأمن القومى ، وإجابتى له ولناصره ولأرضنا التى ضاعت فى ستة أيام هى فقط Look who's talking! .

أخيرا ها هو يعظ فى الاقتصاد ، وإجابتى لمنظر ' لا صوت يعلو على صوت المعركة ' (وإن كنت شخصيا لست ضد هذا الشعار ، لا صوت يعلو على صوت معركة أمنا جميعا ، معركة التنافس الطبيعى التى ستودى بكم للانقراض) ، أولئك من لم يكونوا يجدون الصابون لغسل وجوههم صباحا (ولا يجدونه حتى خلال رحلاتهم الكثيرة للاتحاد السوڤييتى) ، من كانوا يخوضون فى مياه المجارى كل يوم للذهاب لأشغالهم ، إجابتى هى فقط !Look who's talking .

يعظ فى الفساد وفى تكوين الثروات وفى مص دماء الشعوب ، وفى عدم إنقاذ البنك الأهلى لبنك مصر ، وإجابتى لمن كون أول (وآخر) فكرة اقتصادية تخطر ببالهم هى التأميم والمصادرة ، هى فقط !Look who's talking .

يعظ (أحيانا قليلة للحق !) فى التنمية والبناء والموارد وطبعا ثروات الشعوب العربية والمصرية ، وإجابتى له ولناصره ولفقرهم وإفقارهم للجميع هى فقط !Look who's talking .

يعظ (كثيرا جدا ، على العكس من هذه !) فى النهب والسرقة ، وإجابتى له ولناصره سارقى القناة وكل بناء تم على أرض مصر لأكثر من قرن سابق عليهما ، أن الأسكندر بنى داخل مصر ، الرومان بنوا داخل مصر ، أسرة مُحَمَّد على بنت داخل مصر ، الإنجليز بنوا داخل مصر ، اليهود بنوا داخل مصر ، لم ينزح لخارج مصر سوى بدو الجزيرة ، فيما عرف فى حينه باسم برنامج القمح مقابل الكلام (أقصد الذهب مقابل الهراء !) ، ولم يسرق سوى أنتم ، وإجابتى لكم ولعروبتكم ولاشتراكيتكم وحتى لمصريتكم المنتحلة هى فقط !Look who's talking .

أوه نسيت شيئا : أنا مقطوع من شجرة ولا أتمتع بحياة أسرية دافئة ، لكن لم يحدث أبدا أن وعظت أحدا فى تفكك أسرته . صاحبنا هذا يعظ فى تفسخ الأسر المالكة وغير المالكة ، وفى توتراتها الداخلية ، بل ويعايرهم به ، وعلى فقط أن أذكره بموقف أسرته هو نفسه العلنى منه ومن أفكاره ، وأقول Look who's talking! .

فى كل ما سيقوله هلوكة حتى آخر يوم فى حياته أو حياتى ، لدى رد جاهز ، ربما يعفينى من الخوض كثيرا فى سيرته العطنة-العطرة ، ردى دائما أبدا سيكون : Look who's talking! .

... ' هذا بلد استغل إلى درجة غير طبيعية ولا يزال يستغل مع الأسف ' ، هكذا كان قد بدأ حلقته التليفزيونية الكارثية كغيرها أو أكثر قليلا . وردى أن هؤلاء الناس ، لأسباب سيكولوچية محض تتعلق بالدونية والأحقاد الطبقية والعرقية ، يرون فى البيزنس ، أى بيزنس ، مع أى أحد ، أى أحد ، أنه نهب ! أى بيع وشراء نهب ! أى خد وهات هى نهب ! أى إعمار أو بناء أو مشروعات أو توظيف شغيلة ، هى نهب ! أية منفعة متبادلة هى نهب ! حتى التصدير نهب ! استصلاح مليون فدان نفسه نهب ! باختصار أى تعامل خارج نطاق القبيلة هو نهب ! دائما أبدا نحن منهوبون ومضحوك علينا ! والسبب واضح ولا غرابة فيه ، إسقاط نفسى بسيط لحد السفالة : أن عقولنا نفسها لا تعرف أن بالحياة منهاجا آخر غير محاولة نهب الآخرين أو الضحك عليهم !

هل تعرفين لماذا لا تظهر نظريات المؤامرة إلا عند العرب ؟ لأن المؤامرة جزء من سلوكهم اليومى ، والطبيعى جدا أن يتصوروا أن كل الناس تفكر مثلهم . إنه مرض نفسى ، يا عزيزتى . ألم تسمعى عن الإسقاط ؟ إنه آلية تكيف سيكولوچى معروفة . دائما ستجدين مثالا عربيا كبيرا له . اليوم أشهر مثال هو بشار الأسد . إنه الأكثر إثارة لتهكم الناس . كلما قصفت إسرائيل مكانا داخل سوريا ، يخرج واصفا الهجوم ' بالجبان ' ، بينما الكل يعلم أنه هو من ارتعدت فرائصه وأخرى فى سرواله . عليك أن تعلمى أن عبمعصور هو أشهر حالة فى التاريخ الحديث . يوم أخرى فى سرواله ، ذهب ليلقى خطبة فى الأزهر ، يتصنع فيها البطولة ويستأسد بصيحات الغوغاء على جبنه ، وما أكثر المرات التى بلل سرواله فيها بالخراء ! أما أشهر الحالات إطلاقا فى التاريخ فهى قديمة وربما لم تسمعى عنها ، أعرابى خان قبيلة يهودية وذبح رجالها بالكامل ، ٨٠٠ شخصا ، ثم قال إنهم هم الذين خانوه ، ولا يعرف أحد كيف خانوه وكيف كان ساعتها على قيد الحياة أصلا . هذا هو الإسقاط . كل عيب فى ناصر أو فى العروبة أو فى شخص هلوكة نفسه ، ينعت به صاحبنا هذا الآخرين . ولا رد أفصح من : Look who's talking! .



التوريث هو الهاجس الوحيد لدى هلوكة وأمثاله

لا أستطيع أن أعدك أنى سأزيد اهتمامى بهلوكة بسبب ما سمعت اليوم . أو تعرفين لماذا ؟ ليس فقط لأن ردى جاهز سلفا ، إنما لأن كل تلك الدروس الأسبوعية له على قناة الجعيرة ، سواء كان عنوانها نظريات الأمن القومى أو كيف يمكن أن تدير إيران أو حماس الصراع على نحو أفضل مع أميركا وإسرائيل ، كلها تدور حول موضوع واحد فقط لا يتغير أبدا . موضوع يريد تلقينه للجيل الجديد بكل وسيلة ممكنة . لا ، ليس هذا الذى تقولين فقط . بالفعل أعلم أن التوريث هو الهاجس الوحيد لدى هلوكة وأمثاله ، الوسواس الأزلى الأبدى الذى يشغله كل ثانية حتى درجة الهلوسة ، توريث أحقاب الأحفاد أحقاد الأقحاب . ما قصدته شىء آخر ، الموضوع الذى سقمته أنا شخصيا حتى درجة القيئ ، وعلى مدى ذات العقود . موضوع عنوانه : كيف تسرق قناة وتفلت بفعلتك ١١ سنة كاملة !

المفارقة المضحكة أنه يروى لنا هذه القصص اليوم ، حيث كلنا يعلم أن نتيجة كل ذلك التباجح الهائل بـ ' قلب ناصر لموازين القوى العالمية ' ، قد أفضى لهزائم مخجلة ولفقر وجوع مطلقين . يوم قالوه فى الخمسينيات والستينيات ، ربما كان ذا معنى ، لأنه كان يمكن أن ينطلى على البعض أو يغرر بهم . لكنى لا أفهم لماذا يقوله من جديد اليوم ، ونحن نعرف نهاية قصة الفيلم بالفعل !

عذرا أيا هالة الحبيبة . عندك حق ! إن الرجل يسأل سؤالا جديرا بالفعل بالإجابة : من هم البنائون ومن هم الهجامة اللصوص ؟ لكن لدى مشكلة . اعتبريها شخصية لو شئت . ما لا تعرفينه يا عزيزتى أنه لم يحدث قط أن سرت فى مظاهرة أو احتججت على شىء .

... أنا لست رد فعل لأحد .

... أنا لست ' مقاومة ' . ولا أحب أن تصفينى بوصف كهذا مرة أخرى .

... ثم إنى كذلك لا أجيد الصراخ مثلك . فقط إما أن أفعل وإما أن أصمت .

... إما أن أكون بناءا أو لا أكون أصلا .

... المشكلة أنى متعجرف . لا أرد على حفريات التاريخ .

... ولا أملك تيونرا فى تلفازى !



درة التاج

البنك الأهلى المصرى هو درة التاج فى الاقتصاد المصرى ، والاسم الذى اقترن وتمحورت حوله المعجزة الاقتصادية المصرية التى بهرت العالم كله ، على امتداد عشر سنوات ، هى تحديدا العقد الأول من عمره . تأسس فى ٢٥ يونيو ١٨٩٨ برأسمال قدره مليون جنيها سترلينيا ، وصدر بشأنه مرسوم خديوى من عباس حلمى الثانى ، وبه بالطبع افتتح السجل التجارى حين أسس لاحقا . لم يكن أول بنك تعرفه مصر . سبقته بنوك فرنسية فى الأغلب ، قليلة الشأن . لكنه أول بنك إنجليزى ، وأول بنك بهذه الضخامة ، والأهم أول بنك يصدر به مرسوم خديوى يخوله صلاحية إصدار العملة ، وقد باشرها بالفعل اعتبارا من أبريل ١٨٩٩ ، ولمدة ستين عاما ، إلى أن أممه ريچيم عبمعصور ، ومن ثم آلت تلك الوظيفة بعد شهور قليلة من ذلك إلى البنك المركزى المصرى ، الذى لم يستول فقط على هذه المهمة ، بل على المبنى العريق نفسه ، الكائن فى تقاطع شارعى شريف پاشا وقصر النيل .

بفضل البنك الأهلى المصرى ، أصبحت مصر البلد الوحيد فى العالم الذى تحمل عملته نفس اسم عملة الإمپراطورية : الجنيه . شىء ما يضاهى أن تكون لديك ثانى سكك حديدية فى العالم ، مع فارق أنك بالنسبة للجنيه ، كنت الثانى والأخير !

كبار المؤسسين كانوا اليهودى الإنجليزى ألمانى الأصل سير إرنست كاسيل أحد أغنى أغنياء إنجلترا آنذاك ولاحقا مستشار الملك إدوارد ، واليهودى الإيطالى رافائيل سوارس أحد أغنى أغنياء مصر وأيضا مستشار الخديوى فيها ، وأخيرا تايكوون القطن اليونانى كونستانتين سالڤاجو . والأخيران مستقران فى مصر منذ عقود ، وكانا يملكان بالفعل إمپراطوريات بيزنسية هائلة ، متنوعة كثيرا بالنسبة للأول بامتداد القاهرة خاصة واغلب مصر عامة ، ومتخصصة أساسا فى زراعة وحلج وتصدير القطن بالنسبة للثانى (الذى كان يملك معظم أراضى الدلتا وأغلب المرافق الخدمية لمدينة الأسكندرية) ، أول من يحمل لقب ملك فى التاريخ المصرى : King Cotton !

على الأقل حتى تأميمه كان البنك يقدم خدمات الصيرفة التجارية مباريا أفضل مستوياتها العالمية . طوال الوقت كان له أبرز الأدوار إطلاقا فى تمويل المشاريع الكبرى ، وتشجيع الإقدام على ما هو حديث أو يحتاج لتمويل ضخم أو مغامر . فى الطليعة الباكرة لهذا ، إنشاء سلسلة محالج القطن ومصانع السكر الحديثة ، التى حلت محل السابقة المتقادمة التى أنشأها مُحَمَّد على فى الأغلب . ومثلا كان مصنع سكر الحوامدية مفخرة كبرى لعصره ، إن اكتفينا بضرب مثال واحد . أيضا لا بد من ذكر أن البنك كان اللاعب الأكبر فى خصخصة الملكية الزراعية هذه نفسها . إذ تأسس هو نفسه بالتزامن مع بيع ' الدائرة السنية ' ، لكورنسورتيوم بقيادة نفس الفريق المؤسس له تقريبا ، كاسيل وسوارس وآخرون ، والفارق بين الحدثين أربعة أيام فقط ، ٢١ يونيو و٢٥ يونيو (فى الواقع أشياء كثيرة جدا حدثت فى مصر فى تلك السنة التى تطالعك مثلا كلما شربت بيرة مصرية الصنع . منها أشار هذا الكتاب إلى بدء إنشاء سلسلة القناطر الكبرى على النيل ، ولاحقا سيأتى على ذكر حملة تاريخية حاسمة لشخص اسمه كيتشينر على السودان) . هذا الذى حدث كان أول ضربة خصخصة رئيسة للملكية الخديوية للأراضى الزراعية ، وطبعا الخبطة الكبرى فى كل تاريخ الخصخصة فى مصر . قيمة الصفقة كانت نحو ٦.٥ مليون سترلينى ، والمنطقى أن يتمهل كاسيل لعدة عقود ، فليس فى كل يوم يمكن أن يشترى إنسان بلدا كمصر ، لكن ما فعله كان العكس بالضبط . أتى بمليون سترلينى أخرى لتأسيس البنك ، بل قبل هذه وتلك كان قد استثمر ٣.٦ مليونا تعاقد بها على بناء سد أسوان وقناطر أسيوط . الأدهى أن وكأن شراء أرض مصر المستصلحة لم تكن شيئا ' يملأ العين ' فى منظوره ، فقد بدأ مشروعا عملاقا لاستصلاح الأراضى فى كوم إمبو ، كل هذا فى غضون أسابيع قليلة من ذلك العام الذى لا يتكرر ١٨٩٨ ، العام الذى تضاعفت فيه ثروة مصر القومية عدة مرات من خلال هذه الاستثمارات المباشرة مذهلة الأحجام والجرأة . لقد تغير جذريا وجه الخريطة الزراعية ، ودشنت ثورة خضراء كبرى دفعت بتقدم الزراعة والتصنيع الزراعى معا خطوات هائلة للأمام . ثم ارتقى البنك الأهلى بعد قليل بالمهمة لمستوى جديد ، بأن أسس بنوكا وشركات متخصصة لها ، البنك الزراعى المصرى سنة ١٩٠٢ ، والشركة العقارية المصرية سنة ١٩٠٨ (التى

التحق بها طلعت حرب موظفا لبعض الوقت) . وتأسيس هذه الأخيرة أمر يستحق بعض الدهشة ، لأنه جاء بعد أقل من عام من الانهيار الكبير لبورصات العالم ، وكأن البنك الأهلى أراد أن يقول لبقية الدنيا إنه أقوى من كل العواصف !

على العكس من كل البنوك المصرية ، ظل البنك الأهلى المصرى على عهده الأصلى ، شركة بريطانية مركزها لندن ، ذات طابع إمبراطورى عريق التقاليد المصرفية لأبعد مدى ، ويرفض توسيع ملكيته ، أو حتى مناصبه الإدارية العليا ، بحيث يدخلها مصريون أو غيرهم ، مهما كان مستوى ثرائهم أو حتى انتمائهم للأسر المالكة . باختصار ، لقد كان شركة الهند الشرقية ، فى نسختها المصرية ، وفى نفس الوقت كان وول ستريت فى نسخته المصرية كذلك ، بل فى الواقع كان أضخم كيان تجارى إطلاقا فى كل المسافة الممتدة ما بين أوروبا والشرق الهندى .



دعنا نضع الأمر بطريقة ثالثة ربما أبسط حسابيا :

إذا كان البنك الأهلى وشركاته ومشروعاته وأراضيه هو فى يوم من الأيام كل مصر تقريبا ،

فقطعا كل مصر الحالية بعد أن دمرها قطاع طرق ١٩٥٢ ،

لا تصلح لتعويض عشر معشار ما يساويه البنك المؤمم لو كان البلد قد استمر فى طريق البناء التحضرى السوى

الذى أسسه السير إرنست كاسيل وزملاؤه ورعته الرؤية المتفتحة لأسرة مُحَمَّد على !

الواقع أن تقدير وحيد لقيمة الثروات التى يمثلها البنك الأهلى بتريليون دولار بمعايير اليوم لو استمر يشتغل فى مناخ اقتصادى صحى ، هو تقدير متواضع . يكمن الخطأ فى أن كاسيل -يوم اشترى- اشترى مصر كلها ؛ الجمل بما حمل كما يقال ، ودفع كامل الثمن عدا ونقدا . لا يصح النظر فقط له كمجرد ذلك الشطر اليسير الذى أسس به كاسيل البنك نفسه ، بل لكل استثماراته مجتمعة ، ذلك أنه بعد قليل تداخل الكل معا بإنشاء البنوك والشركات العقارية التى ضمت كل تلك الأراضى (تقريبا كل أراضى مصر الصالحة للزراعة والتى دفع ثمنها للخديوى + ما شرع كاسيل فى استصلاحه + مشروعات الرى الكبرى الجديدة من سدود وخزانات وقناطر) ، فأصبحت كتلة اقتصادية واحدة يقف على رأسها البنك الأهلى (بالطبع دع جانبا مشروعات كاسيل الخيرية العملاقة ، وأقلها شبكة المستشفيات الكبرى -العامة والمتخصصة- الأولى فى تاريخ مصر ، فهذه لم تكن استثمارات قصد بها الربح) .

على أن الطريقة الأوقع من هذه وتلك ، هى مقارنة استثمارات كاسيل الأولية فى مصر بنظيرتها من جانب روكيفيللر مثلا ؛ نتحدث فقط عن الاستثمار الأولى ، وندع جانبا أن كلا الاستثمارين قد شهق بالطبع على الفور بسرعة هائلة فى بورصته بفضل الثقة فى ريادته ورؤيته المستقبلية الفذة وكفاءته الإدارية ... إلخ . فى مقابل استثمارات كاسيل الأولية التى قاربت نحو ١٢ مليونا ستر لينيا ، تأسست ستاندرد أويل بثلاثة ملايين دولار ونصف ليس إلا فى سنة ١٨٧٠ . فى عصر العملات الذهبية ذاك ، كان الستر لينى يساوى نحو خمسة دولارات ، ذلك أنه ببساطة كان يزن خمسة أضعاف ، بالتالى فاستثمارات روكيفيللر النفطية لا تكاد تساوى شيئا يذكر مقارنة باستثمارات كاسيل المصرية (النسبة الدقيقة تحتاج لإدخال كثير من العوامل الثانوية ، منها مثلا فارق التضخم بين ١٨٧٠ و١٨٩٨ ، وهو ليس فارقا جذريا مرة أخرى لأننا بعد فى عصر تقويم العملات بالذهب ، ولأن العالم لم يكن يعرف مفهوم التضخم بمعناه الحالى ، إلا مع ذلك الارتفاع الفجائى الهائل فى أسعار السلع الذى صاحب نشوب الحرب العالمية الأولى . على أن الفارق المهم بالطبع ، هو ذلك النمو الهائل الذى جرى لثروة روكيفيللر فى تلك الـ ٢٨ سنة التى سبق بها تأسيس البنك الأهلى ، إذ كانت تقدر أصول ستاندرد أويل بمائتى مليون دولار بحلول القرن الجديد ، بما يمكن عامة القول معه إن القيمة السوقية للاستثمارين أصبحت تسير ساقا بساق فى ذلك الوقت ، وأن كاسيل قد جارى فارق الثروة هذا بأن ضخ قدرا أكبر من الاستثمار الأولى) . المهم ، فى سنة ١٩١١ ، تفتت ستاندرد أويل جبريا ثم تناسخت (أو -لاحقا- أعيد تجميعها) لأسماء من قبيل سوهايو وسوكونى وإسو وموبيل وإكسون وإكسون-موبيل وغيرها . رغم كل هذا العنت التاريخى الهائل الذى لاقته من الحكومات الأميركية المتعاقبة لا سيما حكومة تيودور روزفيلت ، فتلك الشركات التى خرجت من رحمها تساوى قيمتها مجتمعة اليوم عدة تريليونات من الدولارات وليس تريليونا واحدا !

دعنا نضع الأمر بطريقة ثالثة ربما أبسط حسابيا : إذا كان البنك الأهلى وشركاته ومشروعاته وأراضيه هو فى يوم من الأيام كل مصر تقريبا ، فقطعا كل مصر الحالية بعد أن دمرها قطاع طرق ١٩٥٢ ، لا تصلح لتعويض عشر معشار ما يساويه البنك المؤمم لو كان البلد قد استمر فى طريق البناء التحضرى السوى الذى أسسه السير إرنست كاسيل وزملاؤه ورعته الرؤية المتفتحة لأسرة مُحَمَّد على !

آه ! نسيت أقول حاجة يا هالة : بمناسبة الذكر الكتير للبنك الأهلى وللقومية العربية : أما وقد عرفنا بعض أشياء عن حال مصر ومعجزتها الاقتصادية والتحضرية التى أعقبت تأسيس البنك الأهلى ، لماذا لا يحاول الهلوكة أن يصف لنا كيف كان آنذاك حال أحبائنا العرب الذين يريد لنا الوحدة معهم ؟ ! بصراحة أنا لا أعرف ، ويسعدنى جدا أن يساعدنى ، بحكم خبرته الكبيرة بهم . أيضا أنا مستعد لإعفائه من استخدام الأرقام فى المقارنات ، لعلمى بضعفه الشديد فيها ! لعلى بالفعل فى حاجة يا صديقتى لطرق أبسط حسابيا إن كنت تريدينى حقا أن أصرخ بما يمكن أن يسمع الناس !

صاح مينا : يا جماعة !

ردوا بصوت واحد : أيوه !

– خبر العمر !

– إيه ؟

– البنك الأهلى !

– ما له ؟

الآن هو آخر قطعة تماما ، تقرر الحكومة المصرية خصخصتها . عفوا ، هو ليس آخر قطعة تخصخص ، إنما آخر قطعة تمس بالخصخصة . لا تزال بعد لدى الحكومة أملاك كثيرة . فقط هى خصخصت نسبا من جميع الشركات ، حتى السكك الحديدية ومصر للطيران ، حتى المستشفيات وبعض المدارس والجامعات . نسب تكبر أو تصغر ، من مجرد خمسة بالمائة حتى البيع بالكامل . لكن بقى البنك الأهلى منيعا حكوميا بالكامل حتى اللحظة . الحكومة اختارت توقيتا رائعا . الأجواء الآن تبدو مثالية . الناتج الداجن الإجمالى ينمو بمعدلات سنوية أعلى من معدلات نمو الصين . سوق المال مستقرة منذ شهور طويلة . المستثمرون لا يزالون متمسكون بهذا النوع من الاستثمار . الاضطرابات الدينية والحدودية نفسيهما ، لم تثنهم أو تجعلهم يهربون للبنوك أو العقارات مثلا ، وككل لم تكن تلك الأحداث إلا ذات أثر سطحى ومؤقت . لم تحدث تكالبات كبيرة على الطروحات الأولية أو زيادات رأس المال خلال الشهور الأخيرة . بمعنى أن السيولة المالية قد تكون متاحة لدى الأفراد ، وسوف يتمكنون من تمويل هذا الطرح الكبير . وقبل وبعد كل شىء ، هو البنك الأهلى المصرى ، الذى لا يزال أضخم شركة مصرية ، وأعرقها سمعة ، والمؤسسة التى لا بد وأن يعرفها أو تعامل معها كل بيت وكل فرد ، ربما أحيانا أكثر من شركات الاتصالات الشهيرة المختلفة نفسها ، ولا شك أن الكثيرين سوف يتشجعون على تحويل بعض مدخراتهم لشراء أسهم هذا الصرح .

– الاكتتاب ضخم جدا ، وأكيد كيوبيد هى إللى ها تديره .

– إشمعنى كيوبيد ؟ !

– هو فيه غيرها ؟ !

– فيه رمسيس ! (وتضج القاعة بالضحك) .

– أنا موش بأهزر . الدنيا ها تولع يا جماعة ! إللى عاوز يشترى حاجة ، بالذات كيوبيد ، يجرى بسرعة !



زكائب النقود المكدسة حتى السقف

أيا ما كان التوقيت الذى اختارته الحكومة ، كان الاكتتاب سينجح لا محالة . مجرد ضخامته كانت زلزالا رج كل شىء . مجرد الارتفاع الهائل الذى حدث لسعر سهم كيوبيد (ومن خلفه طبعا معظم الأسهم) ، كان كفيلا بجذب الناس للاستثمار عبر البورصة . لقد أخذ الناس ثقة ضخمة فى سوق الأوراق المالية ، واكتتاب البنك سيغطى بنجاح ساحق . وبالفعل كان الإقبال مذهلا . قلب كل موازين ونس . ارتفاع الأسعار يلوح فى الأفق ، لكنه لو جاء سيشمل كل الأسهم تقريبا ، وليس على نحو خاص نسيج بنها . لا بأس فى كل الأحوال . جند إدوارد كل أقاربه لتلقى طلبات العملاء ، بل وواحد منهم لمجرد أن يأتى بمسدسه المرخص . عرض الحاج ضهرى هو أيضا خدماته ، وأتى بشخص آخر من طرفه

ذى مسدس أيضا . كان الجميع يبيتون طوال الليل فى مقر الشركة . كانت النقود تأتى سائلة ، وكانت مفاجأة تفوق الخيال . هل يوجد حقا قرابة تريليون جنيه مصرى تحت البلاطة ، كما يسمونها ؟

كان المفروض أن يتم تلقى أموال الاكتتاب فى فروع البنك الأهلى فقط . تبدو كثيرة جدا ، قرابة الألف ، وسوف تستوعب . ثبت خطأ هذا التوقع . تم ضم كل بنوك مصر للمشاركة فى المهمة . يضاف أصلا لكل هذا أن التقنيات الحديثة أصبحت تسمح منذ فترة بتعامل كل فرد من حاسوبه المنزلى مع حسابه البنكى ، تماما كما يتعامل صراف البنك مع هذا الحساب . مع ذلك فشل كل هذا لأن ثمة إيداعات نقدية هائلة لا يصلح معها إلا التسليم المادى لفروع البنوك . تم تمديد ساعات العمل الداخلى لتصبح ٢٤ ساعة فى جميع البنوك . أصبح على كل موظف أن يشتغل ١٦ ساعة يوميا ، طوال أسبوعى الطرح ، لتلقى الأموال من شركات السمسرة ، ومن المكتتبين الذين كانت ترسلهم مباشرة للبنوك ، وما ينطوى عليه هذا من عد ما تحتويه حقائب النقود ، وطبعا عدم رد أى عميل يأتى فى المواعيد الرسمية ، بما يعنى أن هذه الطوابير الطويلة لن تنصرف قبل منتصف الليل مثلا . هذا ناهيك بالطبع عن عبء مجرد حراسة هذه الأموال ، التى كنت تراها بسهولة مكومة فى ردهات أو طرقات مقار البنوك بعد استلامها ، إذ كانت فوق استيعاب كل الخزائن . شركات نقل الأموال اعتذرت عن كثير من الطلبات ، وبعضها لجأ لتلبية الطلبات بواسطة سيارات ميكروباص أو دفع رباعى غير محصنة .

بمرور أسبوع واحد من أسبوعى الاكتتاب كانت قد تمت تغطية الطرح بقرابة خمسين مرة . بمعنى أن من طلب شراء ألف سهم سوف يحصل فقط على أكثر من عشرين سهما بقليل . بنهاية المدة ربما يسفر الأمر على أن لن يحصل على أكثر من خمسة أسهم أو ربما سهم أو سهمين ، لا أحد يعلم بعد . بقية الأموال سوف ترد لأصحابها . أغلبها سيعود ' تحت البلاطة ' من حيث جاء . لكن نسبة هائلة لا بد وأن تذهب للبورصة . هذا كان السبب بدأت أسعار الأسهم تتسارع أكثر وأكثر صعودا ، أيضا بما يفوق كل خيال . وضع نادر ، ربما لا يتاح لأبناء الجيل الواحد معاينته لأكثر من مرة واحدة فى العمر ، ويكفى أن أعاد اللون الوردى الجميل والضحكة الساحرة لوجه منى .

انحشر وحيد وضهرى فوق كرسى فوتيه واحد من تلك الموجودة فى مكتب إدوارد ، وأمامهما التليڤزيون لا يبعد أكثر من نصف متر ، وقد حول اتجاهه ليصبح بعرض الغرفة لا بطولها . راحا يشاهدان فيلما وثائقيا عن البنك الأهلى . رغم أن طول الفيلم ساعة كاملة ، إلا أن قنوات التليڤزيون المصرى كانت تتناوب على إذاعته عدة مرات يوميا .

بعد انتهاء الفيلم قال ضهرى : الأجانب هم إللى عملوا كل حاجة جميلة فى البلد دى . من أول مُحَمَّد على والإنجليز لغاية اليهود والمستوطنين الأوروبيين إللى أقاموا فى مصر لغاية ما أكلهم عبمعصور بالحيا . المصريين ما عملوش شىء لمصر إلا أنهم خربوها .

– على فكرة إحنا آراءنا قريبة أوى من بعض !

– (صائحا فجأة وكأنه تذكر شيئا) : بس إوعى تقول لى اليهود إللى بنوا الهرم !

– أنا لا أعرف من بنى الهرم . أعرف فقط أن الأكاديميين الإسرائيليين هم على القمة عالميا ، لو قالوا شيئا يخالف ما يقوله الأكاديميون المصريون ، لن احتر كثيرا فيمن أصدق ساعتها . أليس كذلك يا خريج الزراعة المتمرد ؟

– لكنهم لا يفهمون أكثر منى . أنا درست هذا الموضوع جيدا جدا ، وأجزم لك أنه زعم غير صحيح . ثم أنت صهيونى ، بتحب الأشكيناز ، وتكره اليهود القدام ، بتدافع عنهم ليه ؟

– يا عم أنا ما دافعتش عن حد . أنت جاى غاوى شكل النهارده ؟ كل إللى قلته إن إللى يقول عليه العلم يبقى هو الصح . بصراحة ، أنا غير مهتم بمن بنى ذلك القبر المضحك الذى لم أزره قط فى حياتى .

– لاااا ! ده أنت بعت القضية خالص !

– بعت القضية ؟ هو أنا كنت اشتريتها أصلا ، علشان أبيعها ؟ !

– القبر المضحك ده ، أكتر حاجة عاملة لنا پريستيج فى العالم . تصور أنه فضل ٤٥٠٠ سنة أعلى بناية فى العالم (حتى بناء برج إيفيل) ، بينما النهارده لا بناية تحظى بهذا اللقب لأكثر من عدة شهور ؟ ومع ذلك لا يزال -باستثناء الطول ، لا يزال شاسع البون إذا ما قورن بأية بناية معاصرة على وجه الأرض : لا يزال لا يقارن من حيث الوزن (٦ مليون طن) ، ولا من حيث الكلفة (بلايين مبلينة من دولارات اليوم) ، ولا

من حيث سرعة البناء (حجر من ذوات الطنين ونصف وزنا كل دقيقتين بلا توقف لمدة ٢٣ سنة متواصلة -ومسموح باستخدام أوناش البناء العملاقة المعاصرة لمن يود دخول السباق) ، والأهم أنه غير قابل لأدنى مقارنة على وجه الإطلاق فيما يخص الخلود بالذات (بفرض عدم صيانته نهائيا ، سيحتاج لزمن من قبيل المائة ألف سنة كى يتآكل ، فهل من منافس ؟ ! طبعا هو الوحيد الباقى من عجائب الدنيا السبع ، أما أى مبنى حديث فلا يطمح أن يشهد حتى احتفال رأس السنة الوشيك فى ٢٥٠٠ !) .

– على أية حال هو عامل زى الست التخينة المكسحة ، وموش راكبة عليه كلمة the tallest building . خلينا فى الجد : أنا مهتم الآن بشىء آخر تماما . شىء أكاديمى جدا أيضا . لو كنت لا زلت رئيسا لتحرير الصحيفة بدلا من هؤلاء التافهين ، لكلفت عشرة صحفيين أن يقوموا ببحث يساوى تريليون جنيه . أنا لا أصدق رقم التريليون هذا . أقصد أصدقه ولا أصدقه . أصدقه كرقم إحصائى يفقأ العين ، لكن لا أصدقه من حيث مدلولاته على الأرض . هل تعرف أن رقم تريليون جنيه هذا ، كاف لشراء كل البورصة ؟ كل شركات مصر من أولها لآخرها ؟ معنى هذا أن لدينا اقتصادين وليس اقتصادا واحدا . اقتصادان متساويان فى الحجم ، واحد فوق الأرض ، وواحد تحت البلاطة . البحث سيسأل قبل كل شىء متى طبعت كل زكائب النقود المكدسة حتى السقف حولنا ؟ كنت سأرسلهم للبنك المركزى ولوزارة المالية ولمصلحة سك النقود ، وسأجمع أرقام عن حصيلة ما طبع سنويا من نقود منذ تأسيس البنك الأهلى حتى اليوم ، وأجمع أرقام ما تم إعدامه من المستهلك منها منذ ذلك التاريخ . وطبعا أجرى مقابلات مع حاملى تلك الزكائب . أين كانوا يخبئونها ، ولماذا ، وأين . هل فى خزائن شخصية فى البنوك ؟ فى البيوت ؟ هل حرفيا تحت البلاطة ، تحت الأرض ، أى شىء بالضبط ؟

– بحث ممتاز ومشوق جدا ! أفتكر أنت أنجزت نص البحث بالفعل ، لك أسبوع لم تتوقف عن الكلام مع حملة الزكائب ! هل اكتشفت يا ترى أن للحكاية علاقة بداروين والچيبنات برضه ؟ اشركنى فى البحث ، وأنا أجيب لك قرار الناس دى .

– ممتاز !

– إنما إيه رأيك إحنا لازم نمشى دلوقت ، وموش لازم نيجى تانى لمدة أسبوع على الأقل . ده جو غير مريح بالمرة . وحاسس أن إحنا زاحمين الدنيا أكتر ما هى مزحومة . ثم إن لا خوف على أسهمنا . كنا فاكرين العكس . الناس ها تبيع الأسهم علشان تكتتب ، والأسعار تنزل . لكن إللى حصل مفاجأة فوق الوصف فعلا . منى كمان ها تبتدى دراسة وآخر يوم لها معانا النهارده . اتفقنا بعد الأسبوع ده ما يخلص ها أبيع لها أسمها . فلوسها ها تكون عملت الضعف على الأقل ، بسبب الجنان إللى إحنا فيه ده . وبالحظ وحده ها تشترى التويوتا إللى عاوزاها . أنا طول عمرى ما حصل لى حظ زى حظ الملعونة دى !

– (مغايظا :) أنت غيران منها ، حاقد ، موش أكتر !

– خلاص ؟ نتكلم نتفق نتقابل إزاى . زائد جايز تفكر فعلا تكلم هالة صاحبتك إللى ما بتبطلش الكلام عنها . بقى أن تقترح على هالة أن تنجز بقية البحث وتنشره هى . العنوان ؟ ' اقتصاد ما تحت البلاطة يفوق حجما اقتصاد ما فوق البلاطة ! ' ، إيه رأيك ؟

– فكرة ! أنت تنفع صحفى ! يا للا بينا .

– تعال بس نقول لإدوارد أننا موش ها نيجى الأيام الجاية . الله يكون فى عونه . جايز كمان يكون عاوز خدمة ولا حاجة منى .

– كلك واجب يا حاج !

' شفت يا عم الحاج ؟ ! لما قلت إحساسى أن السوق ها يحصل فيه انفجار نزلوا على ضرب . شفت دلوقت إللى حاصل إيه ؟ ' ، ' معلهش يا أسد يا بنى ، لا كرامة لنبى فى وطنه ! ' . هذا بينما يحاول ضهرى ووحيد شق طريقهما وصولا لإدوارد خلف مكتبه فى الطرف الآخر للحجرة .



يا ريت موضوع البورصة يفرجها على وأتوب عن الشغلانة دى

– أنا عاوزة أعمل تكوير يا سيدى الأستاذ ؟

– تكوير إيه يا ست ، إحنا بنعمل زلابية هنا ؟ اسمه تكويد !

يعلق ونس : ' التكوير دى سورة فى القرآن يا بنتى ! ' ، ويلفت كلامه نظر روميو للمفاجأة الكبيرة : ' يخرب بيتك ! مين ؟ ! ' ، فتترك سامر وتأتى إليه بسرعة : ' أستاذ رامى ؟ ! ' ، ' ألطاف ؟ ! ' .

توقع أن يجد لديها غصة منه ، فهى كانت أول فتاة فى حياته ، واستهتاره دمر لها حياتها تقريبا ، لكن ما حدث هو أن فرحت به . ألطاف كانت مغامرته الأولى . غرر بها نظير إلحاقها بوظيفة عاملة خدمات بالفندق . فى إحدى غرف الفندق كان لقاءهما الجسدى الأول . ثم حين ذهبت لمنزله وجدت أخيه هناك . كان قد دعاه لحفل جنسى ، ففوجئ هذا الأخير بها تقول إنها تحب الأستاذ رامى . اكتفى بقبلة لها على جبينها ، وانصرف . بعد تخلى رامى عنها تزوجها شخص خليجى وسافرت معه . بناء على نصيحة المحامى-السمسار استعادت بكارتها من أجل هذا الزواج ، حلم الستر والحياة الكريمة على يد الفارس الذى جاء لانتشال سيندريللا من قهرها ومهانتها ، الذى لم تكن تعلم أنه سراب يوجد فقط فى القصص الخيالية . هناك فوجئت به يهديها لإخوته وأسرته وأصدقائه . وحين عرض عليها أن يرسلها لإيطاليا لتظهر فى محطة ساتيلايت يملكها ، تتلقى المكالمات على الهواء بينما تتعرى وتتأوه ، رفضت وأصرت على العودة لمصر .

المؤكد أن بيع جسدها هو مصدر معظم تلك الأموال التى جاءت بها لاكتتاب البنك الأهلى . كان بيدها ' شغل ' فى العمارة ، فلاحظت الزحام . قالوا لى فيه اكتئاب . وقفت إمبارح ١٢ ساعة فى طابور البنك فى شبرا لغاية ما أخدت الفلوس . اسمه اكتتاب ! اكتتاب يا ' أطفال ' ! ما تتكسفيش أوى كده . كل إللى أنتى شايفاهم دول لسانهم مقلوب زيك . أقله أنهم طول النهار بيقولوا على العرب بعر والبعير عبير ، ويقولوا الدنيا برجل واحدة موش عارفين هى اليمين ولا الشمال ، وخدى من ده كتير . كل كلامهم فوقه تحت وتحته فوق ، وبيشوفوا كل حاجة فى الدنيا بالمقلوب عكس كل الناس . تقدرى تقولى ١٠ مرات من غير ما تغلطى ' توريث أحقاب الأحفاد أحقاد الأقحاب ' . بلاش دى ، سخيفة ؟ صح ؟ ! تقدرى تقولى ١٠ مرات ' عبير بعر بعير عربان أعراب العرب ' ؟ هى لم تغضب ، لا من السخرية من أخطاء نطقها ولا من الإشارة غير المقصودة لمهنتها ، بل فى الواقع لم تفرح قدر سماعها لاسم تدليلها القديم ذاك من جديد ، لأول مرة بعد عقود ولت خلالها براءة الصبا التى كانت .

– ٦٠ ألف كل إللى طلعتى بيهم من ١٥ سنة فى دبى ؟

– من دبى ومن مصر سوا . على فكرة أنا عندى بنت دلوقت . اسمها جميلة . يا ريت موضوع البورصة يفرجها على وأتوب عن الشغلانة دى . موش عاوزة جميلة تطلع تلقانى كده . بنات كتير عندهم أولاد وبنات موش شايفين أى عيب فى شغلتهم ، إنما أنا موش بالعاها .

يروى لها روميو أنه نال جزاء فعلته هو أيضا . فصل من الفندق لأن زميلة له اتهمته بملاحقتها . ساعتها أتى به إدوارد لرمسيس ، واعدا إياه بأرباح ربما لا تقل عن أية وظيفة .

– إمبارح ، واحد من الزباين إدانى كمبيوتر بايظ عنده ، قال لى صلحيه وخللى بنتك تلعب عليه . قالوا لى ده عاوز بارودة .

– بارودة ؟ قصدك بوردة ! أنا ها آجى معاكى وها أضبط كل المسائل .

ترد بدلال تلقائى : كل المسائل ؟ ثم بأسى : إللى اتكسر ما يتصلحش يا أستاذ رامى .

يعاهدها على أن يصلح كل شىء . ثم يعرفها بسوسن ، بصراحة تامة فيما يخص الاثنتين ، وبأنه ذاهب للتعرف على ابنة ألطاف وإصلاح جهازها . يجر ألطاف من يده ويدخل لإدوارد مقتحما كل الزحام وكل الروتين . ويقول له ' هات كارت من بتوعك واكتب عليه استلمت ٦٠ ألف جنيه . آدى الفلوس وآدى البطاقة ، حطهم بالدرج . ابقوا عدوهم بالليل وكملوا الأوراق براحتكم ' . ثم يمازحه ' إحنا موش فاضيين للقرف بتاعكم ده ! الله يخرب بيوتكم كلكم ! ' . ولا يملك إدوارد الذى يتملكه الإعياء سوى الانصياع ، وإن جادل ' ها يخربها فعلا ! أنا حاسس أن فيه فلوس كتير ها تضيع فى الفوضى إللى إحنا فيها دى ! ' .

... ربما كل الطرق تؤدى لروما ، لكن قطعا كل الأشياء تبدأ من مصر !

مصر القديمة لم تكن حضارة طبقا للتعريف الدقيق للكلمة ،

لكنها كانت من الريادة والعظمة بما يكفى لأن ' تكسر عين ' العالم للأبد .

لطالما ازدراها مفكرو وقادة اليونان وروما ، لكن لم يخفوا قط أن عظمة أهراماتها ومبانيها هى التى استفزتهم للتفوق عليها ،

ولولا هذه الغيرة لربما ما فكر أحد فى البناء أصلا .

وحتى اليوم -بما فى هذا الأيام التى وصلت فيها مصر لقاع الفقر والتخلف- لم يملك أحد إلا أن يحترمها ويحترم أهلها ،

لأنهم أجداد كل الكلمات العظيمة ؛ البناء والإبداع والسمو !

... ربما جوهر كل مشاكل العالم الحالية هو أنه ببساطة واقف فى انتظار أن تأتيه مصر بالشطحة التالية !

أإلى هذا الحد من العمق تصل التفاوتات الچيينية بين الشعوب ؟ الشعوب الجادة لا تقبل من الأديان إلا ما يحض على الكد . الشعوب ذات الكرامة الحقيقية لا تتحول عن دينها أبدا . المصريون لا هذا ولا ذاك . عانقوا الإسلام فى لحظات ، ولو كان قد ظهر دين جديد بعده ، أو لو اخترعناه لهم اليوم ، يقرص آذانهم بأى شىء على غرار تلك الجزية ، لتركوا الإسلام وعانقوه هو ، وهكذا . لى أسابيع أقرأ فى التاريخ العربى ، لأكتشف أن كل التاريخ المكتوب ما هو إلا تاريخ عمليات الغدر . المصريون يعلمون أن العربى يقتل أقرب أقربائه من أجل رمقة عين ، وهم -المصريون- يقولون ليلا نهارا ' العرب خوانين ' و' العرب جرب ' و' البعر غدر ' (هذه الأخيرة من اختراعى أنا وليست نقلا عن أمى) ؛ المشكلة هنا أنهم رغم كل هذا آمن أغلبهم بالإسلام فى لحظة ، ولا يزالون . لكن أليس هذا ما فعل كل المحيط الساموى الأرثوذوكسى ؟ ما المانع أن كما رأينا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، قد نراهم يخرجون منه أفواجا ويعيدونه لما يسمى بغربته الأولى (طبعا حاله حال كل دين آخر !) ، أو لعلنا بدأنا نرى إرهاصات هذا بالفعل ، لكن قطعا لن يذهبوا بعيدا ، لن يذهبوا مثلا للعلمانية . هذا ما حدث فعلا منذ ١١ سپتمبر ؛ على الأكثر ، چييناتهم ستحملهم إيابا للأرثوذوكسية . لا فارق جذرى بين الأرثوذوكسية والإسلام ؛ هى ممتازة كما الإسلام فى الترطيب على القلوب الغائرة فى ظلمات الغيب والخرافة والانفعال المتبلد واستمراء إرهاب صاحب ' وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون ' ووكلائه على الأرض . كلاهما يؤدى ذات الوظيفة التكيفية لدى الشعوب الإجرامية الكسول ، لدى زارع الحياض المصرى ، كما لدى قاطع طريق القوافل الحجازى ، وكما لدى البلشفى المافياوى الروسى ، ولدى كل البرك الچيينية المشابهة : إشباع البطون بالطعام المنهوب وبالفخار الموهوم ، وطبعا بالتسليم المريح للذات لقوى ما وراء الطبيعة . إنكم حتى تفتتم لنحو ١٥ كنيسة و١٥ بطريرك ، بينما الكاثوليكية لا تزال كنيسة عالمية واحدة وپاپا واحد ؛ هذا أكبر دليل على أن چيينات عمر بن الحطاب والحطابة وصدام حسين تجرى جدا فيكم ، لا تستطيعون رؤية عالم أوسع من محيط القدم ، ولا زعيم إلا هذا الذى يظهر فى المرآة . يا لقرفى منكم ومن كل شرقكم !

ضهرى يقول رى الحياض شىء خاص ، ويريد عزل المصريين عن كل هذا المحيط ، بل بفجره يحاول نفى صفة الكسل -التى أراها حولى كل لحظة- عن المصريين ، ويقول موسم فلاحة الأرض كان شغلا شاقا حرثا وبذارا وتنقية عشب (ورى ، فرى الحياض لا ينفى الحاجة للشادوف والطنبور والساقية !) ، وموسم التحاريق ليس للحصاد فقط إنما أيضا لشق الترع وبناء السدود ، وموسم الفيضان كان موسم المشروعات القومية الأكبر وأكبر كالأهرامات والمعابد ، وكأن المواسم التلاتة بتاعتهم كلها شغل وما فيش أجازة خالص ! كيف ؟ لا أكاد أرى فرقا بين مصريين وغير مصريين . أو ربما عنده حق ، ربما هناك فرق ، لكنى لا أعتقده فى صالح الشعب المصرى : لماذا هذا الشعب دون غيره ، منذ أخناتون ، هو الذى اخترع التوحيد ؟ قرأت كتاب فرويد عن موسى باعتباره تلميذا يجلس فى حضرة أخناتون ، ولم أجد فيه ما يشبع نهمى عن اللغز المصرى . إنه لغز كبير حقا . المصرى يخرج من بيته صباحا ولا يعرف بالضبط ماذا سيحدث له ، أو متى يحدث . لا شىء اسمه وقت أو تخطيط . كل شىء عنده قدر . ' بالبركة ' ، ' إن شاء الله ! ' . فى حدود ارتحالاتى المتواضعة ، لا أعتقد أن ثمة شعب هكذا أبدا ، ولا أعتقد أن تلك خاصية جيدة .

بماذا أصنفك أنت نفسك على مسطرة الأديان . صوفى ؟ بالقطع لا ؟ إنك لست درويشا هائما على وجهك بحثا عن الحقيقة . بالعكس ، أنت شخص عنيد قوى يكرس نفسه لتغيير ما حوله . فعلا ! أنت مسلم فرنسيسكانى . هأ ! هأ ! سوف أجن جنونه حين أخبره بهذا التصنيف الجديد الذى اخترعته خصيصا من أجله فى جدول الأديان ! لكن مهلا ! هل نسيت علمانيتك أنت ؟ ألا يستحق شعب إسهامه الوحيد للإنسانية هو أن قدم لها أسوأ اختراع عرفه التاريخ ، ألا يستحق الانقراض الفورى ، إن لم يكن الإبادة . مع ذلك هو شعب لا تبدو عليه بوادر

الانقراض أبدا . خلود المومياوات تقمصه ولم يخرج منه . أوسخ ناس ؟ أم أحدق ناس ؟ رأسى ينفجر . مفعول الويسكى عاد كمفعول الماء . يا ليتنى قضيت كل عمرى فى لبنان ، أو حتى الكويت . أناس لهم عيوبهم ربما ، لكن مفهومون . يا ليتنى هاجرت للغرب . لم يكن ليصيبنى مثل هذا العذاب يوما قط !

يا للهول ، لقد خرجت من حفرة كى أقع فى بئر ! حاولت أن اكتشف سر التخلف وسر شعوبه ، والآن يدخلنى هذا المنحل لتحدى جديد : اكتشاف أسوأ ألغاز الدنيا جميعا : ضهرى نفسه ... مصر !

رى الحياض ؟ ما الجديد ؟ لم يحدث ولو لمرة واحدة أن قال هذا الضهرى الخسيس معلومة لم أكن أعرفها . رى الحياض ؟ أهذه معلومة تحتاج لمعرفة . مع ذلك كل كلمة أسمعها منه ، أشعر وكأنى أسمعها لأول مرة . أشعر وكأن الدنيا أصبحت غير الدنيا . ماذا أكون بالضبط ؟ أحمار يحمل أسفارا ! أعلق قانون الديناميات الحرارية الثانى فى إطار ؟ ماذا يقول ؟ ' إذا أرادت أمنا الطبيعة أن تهلك قرية ، أمرت معدميها فحكموا فيها ، فحق عليها الموات الأنتروبى ' ، أو فى الصيغة التى يحبها المصريون ' فحق عليها الاعتدال والوسطية ' (دع العرب جانبا فهم يكرهون حتى هذا الغثاء الدافىء ولا عجب أنهم يكرهون توليد الشغل لأنهم ينفرون من فكرة الاستقطاب الحرارى العالى ، وطبعا ليس إله أعظم فى نظرهم من رجل الثلج -راجع درجة حرارة أنامل الله فى قصة الإسراء والمعراج ، أو كيف يبعث كفاه البرد فى الصدر فى المنام ، أو راجع كلام هالة عن ' حرا وسلاما ' ، و' الثلاجة وبئس المصير ' !) . أتحدى أحدا يقول لى بالضبط ما المقصود بكلمة جعلناكم أمة وسطا . هل وسط بين الإيمان والشرك ، بين الوثنية والكتاب ، بين اليهودية والمسيحية ، بين الشمال والجنوب ؟ فقط أمازيغ شمال أفريقيا حاولوا الإجابة فقالوا : ' المسلمون : لا دين ، لا ملة ، لا شىء ! ' . الواضح أن الشرق أوسطيين استمرأوا فكرة التعلق بين السماء والأرض والرقص ع السلم ، ذلك لأنهم لا يقدسون شيئا أكثر من الموات المواع المشاع الأنتروبى ، ولا يعظمون أكثر من الترزية ممن مهنتهم لفق وتلفيق الأشياء بما يرضى الجميع ويحقق السلام الاجتماعى والوحدة الوطنية والإجماع الموهوم !

يا لى من مضحك . أيفعل أحد شيئا هذا ؟ يعلق نص قانون ؟ أرسطو أبو القوانين نفسه لم يفعلها . أهو تميمة تحمينى من شرور العالم الحقيقى ؟ بل أهو تميمة تحمينى من جهلى ؟ أهو تعويذة تدفع عنى رداءة الويسكى . فى صحة الأنتروبى !

تميمة ؟ تعويذة ؟ أوه ! إذن ضهرى محق أيضا أنى لست صاحب قضية ، ولا أعرف شيئا اسمه الكفاح ! على الأقل أصبحت أعرف الآن شيئا ! لأنفضن يدى من هذا الملعون . لو لم أفعل لربما جننت . لن تعرف أبدا كيف يفكر . لن تعرف أبدا كيف يسترسل فى كلام عشوائى متضارب لساعات ، ثم فجأة يلقى ببعض كلام علمى محكم مدروس ودقيق . لن تعرف أبدا كيف يتجاور لديه العلم والفطرة ، الإيمان والشك ، كلها دونما عراك . لن تعرف أبدا كيف يمر بكل الأهوال والمتناقضات ولا يفقد سلامه الداخلى أبدا . لن تعرف ماذا جرى بالضبط حين اختلطت چيينات الدنيا كلها فى دمه . لن تعرف كيف اخترع أسوأ وأشر الأشياء إطلاقا فى التاريخ -الدين- وكيف يصر فى ذات الوقت أنه أحد أطيب وأخير شعوب العالم وأحبها للسلام جميعا . لن تعرف كيف يقف طوال الوقت على الخيط الرفيع بين الأبيض المطلق والأسود المطلق ، دون أن يشعر أن لديه مشكلة . لن تعرف حين تتضارب آراؤه فى ذات الدقيقة ، هل هو تافه حقا ، أم يعى ما يفعل . ربما الاثنان . ربما لا توجد نفس إجابة دائما . أحيانا هذه ، وأحيانا تلك . لا أعرف . أبدا لن يصبح ضهرى شخصية مفهومة . بل ربما لا يجب أن يصبح شخصية مفهومة أصلا .

... كيف يكون إلها وفى نفس الوقت متخبط هكذا ؟ ربما هو فقط مصر ، وبالتبعية -وليس أكثر- مصر هى مخترعة الآلهة الكبيرة الأوائل !

... بل ربما هو غير موجود أساسا ، وليس إلا أحد شيطانى الداخلية !

... إنه خطأ فاحش . من الخراقة أن تفتح صندوق پاندورا . الشخصية المصرية ليست مفهومة ، ومن الأفضل للجميع أن تظل كذلك . الأسوأ أنك لن تعرف حتى إذا ما كانت بالضرورة صندوقا للشرور أم ماذا . ربما هى العكس ، ولن تعرف أبدا .

... تستطيع فتح صندوق پاندورا وتتحمل النتائج الوخيمة . لكن مصر ربما هى صندوق دراكيولا ، لو فتحته للنور ، لتبخر كله فى لحظة ، ولن تجد ساعتها شيئا . أو ربما هى صندوق بلا مفتاح أصلا !

... كيف تأتى لشعب أن يلهب حناجره تأييدا لعبمعصور ، كما حبة بطاطس نسيت فى فرن كهربى حتى شفت احمرارا ، ثم بعد شهور قليلة يكررها أضعافا إنما من أجل نيكسون ؟ !

... بل انظر هذه : كيف تأتى لبلد أن يكون أول ثقب فى الستار الحديدى خرجت منه الشيوعية لتغزو العالم ، وأن تمسى هى نفسها بعد ١٦ سنة فقط ، أول من ثقبه إلى الداخل ، قال للشيوعية ستوب ، ستموتين الآن ؟ ! بل يا للهول : هو المكان الذى انطلقت منه مؤخرا شرارة الارتداد عن الإسلام ، لكل العالم كما كرة الجليد !

... كيف تأتى لشعب أن يقلب الأزهر من مؤسسة شيعية لأكبر مؤسسة سنية فى العالم (ولو بالاسم فقط فى الحالتين) ، ثم كيف تأتى له أن ينقلب من قاعدة للإسلام الصوفى الدراويشى إلى قاعدة للإسلام الجهادى ، أن يقنع أخناتون أن يقتل السادات ، وأخيرا قد ينجح فى إقناع أخناتون بقتل نفسه !

... نعم ، صحيح هو شعب تافه خامل ، شعب تائه معدوم الشخصية ، شعب كله عبد ربه التائه ، شعب عبارة عن صفر مستدير كبير يتوسط الخريطة ، وفى الحالات النادرة التى يتحرك فيها يكون انفعاليا أهوج ، لكن مع كل ذلك شطحاته تقود العالم وتغير العالم .

... إن حتى الصفات التى هى آخر ما يمكن أن يوصف بها شعب مصر كالإمبراطورية والإمبريالية ، هى أيضا من اختراعه ، وأسسها تحتمس الثالث قبل الأسكندر بأكثر من ألفية كاملة !

... بعد-الحداثة نفسها اختراع مصرى منذ ما قبل التاريخ . انظر لكيف يتخبط ضهرى عدة مرات فى الدقيقة الواحدة ، وستدرك ما أعنيه !

... يا للهول ! ليس من الضرورى حتى أن تكون مصريا حتى تتخذ دعوتك تلك الطاقة السحرية . عبمعصور لم يكن مصريا وفرض على الشعب المصرى حكم الأقلية العربية ، لكن لأن دعوته الشيطانية انطلقت من مصر غيرت وجه العالم ، ونشرت عليه ثوب الشيوعية الأسود . بعد سنوات قليلة تنبأ السادات ضمنا بسقوط الشيوعية يوم أذهل العالم بقراره غير المفهوم بطرد الخبراء ، وبعد شهور وضع مُحَمَّد عثمان إسماعيل المسمار الفعلى الأول فى نعشها ، بينما العالم كله يقف متفرجا يصفق للنتائج لا أكثر !

... يا للهول ! إن مصر هذه وبنكها الأهلى ، كانت حتى ذات مرة السبب فى طفرة كبرى للبورصات العالمية ، ثم كانت عينها السبب فى انهيارها الفجائى التالى ، حتى تأميمه وتأميم الجنيه المصرى الذى كان يصدره ، حاول كينيدى محاكاته فأصدر دولاره المأفون المدفون أحمر اللون ! هذا أقصى ما يمكننى قوله عن المصريين يا ضهرى ، وأكثر من كده وأكثر من موافقتى لك أنه شعب طيب لا يميل للشر ، البيعة ها تقع على بالخسارة !

... ربما كل الطرق تؤدى لروما ، لكن قطعا كل الأشياء تبدأ من مصر !

... لا هو شعب عظيم ، ولن يكون ، ولا هو من أعراق الحضيض التى تلاصقه من كل نقاط البوصلة من تركيا لليبيا ، ولن يكون ؛ لكنه كان الإلهام والحافز الأول والأعنف لجميع الحضارات ، هو الذى قال للعالم عليك أن تؤمن بلهو خفى وهمى وستصطلى بنار اختراعنا المشئوم هذا لآلاف السنين ، فسارت البشرية كلها عمياء غمياء غبياء وراءه ، ثم هو الذى عاد ليقول للعالم بعد ٣٥٠٠ سنة عليك أن تصبح شيوعيا ففعل ، ثم قال له عليك أن تصبح رأسماليا ففهم ، ثم قال له عليك أن تصبح إسلاميا فصادق ونفذ بلا لحظة تردد ، ثم مؤخرا ها هو أول من قال للإسلام للخلف در !

... ربما كل الطرق تؤدى لروما ، لكن قطعا كل الأشياء تبدأ من مصر !

... مصر القديمة لم تكن حضارة طبقا للتعريف الدقيق للكلمة ، لكنها كانت من الريادة والعظمة بما يكفى لأن ' تكسر عين ' العالم للأبد . لطالما ازدراها مفكرو وقادة اليونان وروما ، لكن لم يخفوا قط أن عظمة أهراماتها ومبانيها هى التى استفزتهم للتفوق عليها ، ولولا هذه الغيرة لربما ما فكر أحد فى البناء أصلا . وحتى اليوم -بما فى هذا الأيام التى وصلت فيها مصر لقاع الفقر والتخلف- لم يملك أحد إلا أن يحترمها ويحترم أهلها ، لأنهم أجداد كل الكلمات العظيمة ؛ البناء والإبداع والسمو !

... ربما جوهر كل مشاكل العالم الحالية هو أنه ببساطة واقف فى انتظار أن تأتيه مصر بالشطحة التالية !

... ألا يمكن -بل ألا يجب- أن يأتى المصريون من جديد ، بأعجوبة تقلب كل موازين العالم كما حدث فى هذه المرات ؟

... ترى ما عساها تكون شطحتهم التالية ؟ قطعا لا أحد يعرف !

... لو عرف أحد لما كان اسمها شطحة !

... البروفيسور بوانكاريه -أو لاحقا دكتور لورينز الذى صار واسع الشعبية لأنه جعل من الفوضى نظرية متكاملة الأركان- قالا إن خفقة جناح فراشة فى البرازيل يمكن أن تسبب إعصارا فى تكساس . ربما لا وجود للا يقين فى دنيا الجسيمات ، لكنه موجود حتما فى كل مكان يحل به إنسان ؛ حيث هنا تصبح اليد العليا دوما لنظرية الفوضى . فى تاريخ كل البورصات بدأت جميع الانهيارات الكبرى بعملية بيع صغيرة تافهة واحدة جاء بعدها التفاعل المتسلسل . فقط فيما يخص التحولات الكبرى فى تاريخ البشرية غالبا ما تبدأ عملية البيع الصغيرة التافهة هذه من مصر !

... على الأقل لعل عجائبهم ومفاجآتهم هى جزء أصيل من فهلوتهم (وسامحنى يا ضهرى على الكلمة) . بل لعل ذلك الهرم يضفى على شطحاتهم تلك القوة السحرية ، فيتأثر بقية البشر بالتعويذة دون أن يقصدوا . ربما كنت مخطئا وهذا القبر المضحك ذو سر بالفعل !

... مصر الشرارة والعالم صندوق البارود المتحين للانفجار ؟ أسوأ ما فى هذه الفكرة أنها لا تزعجنى ؟

... كلا ، لا شىء غير مادى فى هذا ! لا شىء يغضب معلمى أرسطو !

... يأتون أو لا يأتون ، بصراحة لم أعد أهتم . ما الفائدة من الاهتمام أصلا ؟

... نعم ، بالضبط ! تلك الأخيرة هى الصحيحة : إنهم صندوق بلا مفتاح !

... ضهرى لغز لن يفك مطلقا . ولأقسمن على أن أخرجه من رأسى للأبد !

... أقسم أن لن أحاول معه ما حييت !

... مصر ليست صندوق الشرور !

... مصر صندوق الألغاز !

... السفنكس لن ينطق أبدا !



مدحت محفوظ

سهم كيوبيد

(رواية ليست رومانسية بالضرورة !)



٣- الثلث العاصف

(صدرت على موقع EveryScreen.com فى ١٠ مارس ٢٠٠٧)

تحذير قانونى
شخصيات هذه الرواية قد تفصح عن آراء ربما يعتبرها البعض صادمة اجتماعيا أو دينيا أو عرقيا أو جنسيا .
القارئ ، والذى يشترط فيه أن يكون قد بلغ السن الراشدة قانونا ، يتحمل وحده -دون المؤلف أو الناشر- كامل مسئولية قرار قراءتها ، ولا يحق له بحال العودة على أى منهما بأية تبعات .

To the first person from whom I've learned the meaning of the word 'Arabs' …
MY MOTHER

► ***First draft: Saturday, September 02, 2006.***
First PDF publishing of the complete draft (limited): Tuesday, January 30, 2007.

► ***First PDF publishing of the final document: Saturday, March 10, 2007.***
This version's date: Tuesday, January 24, 2023 (some minor formal, linguistic and/or typying corrections have been made).

Before you read or print, it's highly recommended to download the latest version from this location:
http://www.everyscreen.com/views/pdf/SahmCupid_03.pdf

► © 2006 - 2023 Medhat Mahfouz. All Rights Reserved.
► Reproduction, full or partial, in any form, printed or electronic, recent or future, is strictly forbidden without a thorough written permission from the author.
► Production of electronic edition: Author's Office (*MSoft*)

For Best Printing Results:
I) ***Print on both sides***:
Step 1: Select even range of pages, e.g. 1 to 50, or the whole document (which we adjusted to end with even page number).
Step 2: Print 'Odd pages only.'
Step 3: Flip paper stack and print (for the same range, of course) 'Even pages only' with 'Reverse pages' option ticked.
II) Some PDF advanced printing options for older versions of Adobe Acrobat Reader:
'Print as image' may help avoiding some rare Arabic printing glitches, such as deflected display of the cashidas.

٦
الخريف



يخرب بيت أبوك !

مين ها يسمح لك باسم زى ده ؟

بعد أن حط اكتتاب البنك الأهلى أوزاره ، عادت القاعة لطبيعتها . بالأحرى ليس بالضبط . بعض من تلك الجحافل التى جاءت للاستثمار فى البورصة لأول مرة بسبب الاكتتاب ، وذاقوا بعضا من الربح السريع بفضله ، قرروا الاستمرار كمتداولين يوميين . النتيجة أن تضاعف تقريبا عدد المترددين ، الثابتين وغير الثابتين سواء بسواء . واضطر إدوارد لشراء دستة ونصف من كراسى إضافية جديدة ، أصبحت -إضافة للقديمة- تملأ القاعة عن آخرها . لا حيلة لأحد بعد ذلك ، ولو حدث وزاد عدد الرواد أحيانا ، فسوف تلحظ بعض الوقوف فى الطرقة الجانبية ، الواقعة ما بين صفوف الكراسى المتراصة وما بين الحائط الآخر للقاعة ، مستندين لهذا الحائط .

أصبح الشغل على كاهل سامر وميرفت ومينا وحتى نصر الله غير مسبوق . إدوارد -الذى بدأت غرفته تفقد هدوءها التقليدى- أصبح بدوره لا يجد من الوقت الكثير للدردشات اليومية المطولة مع سماء أو غيرها . حتى مجلس الأمن زادت الأعباء عليه بشدة . أصبح كم الاستشارات والأسئلة أكبر . وطبعا مع زيادة الأعباء زادت الخلافات والمشادات فيما بين الأعضاء الخمسة .

بعد أيام يعاتب الحاج روميو : يعنى موش كفاية علينا فستان سوسن القصير وبضاعتها المكشوفة ، ها تجيب لنا واحدة من إياهم تقعد معانا . وما فيش غير الكرسى إللى جنبى علشان الأشكال بتاعتك دى ؟ طفشت الشيخ حجاب ، وبترحب بواحدة لا مؤاخذة ؟

تكون لدى روميو غضب مختزن بسبب طول المضايقات التى طالما استشعرها فى النظرات لفساتين سوسن القصيرة وعانتها العارية ، والتى تحمل ضمنيا إهانة لها أنها مجرد جسد أو خليلة . والآن ها هو ينفجر بسبب ما قيل له عن العاهرة . يقول موجها الكلام لميرفت ، أيضا دون أن يعرف السامع بالضبط إن كان جادا أم يمزح : يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى . ها أفتح محل فى سيتى ستارز . ها استورد الملابس من اليونان . معاى عناوين مصممين ومصانع هناك . ها أكسب أحسن ألف مرة من القعدة عندكم هنا . كل البنات ها تجيبى علشان اسم المحل وعلشان الهدوم الهشك بشك طبعا . عارف ها أسميه إيه ؟ ها أسميه Slut أو Slut House !

كالعادة ينسى الحاج كل الخلاف الأصلى ويتحول للموضوع الجديد : يخرب بيت أبوك ! مين ها يسمح لك باسم زى ده ؟

– الاسم ده ما عدش شتيمة يا عمنا ، البنات بيستخدموه عادى على سبيل المداعبة . تاريخ البشرية ده كله تاريخ ممنوعات بقت مسموحات ، من أول الشاى والقهوة والدخان . من أقل من ٨٠ سنة كانت الخمر ممنوعة فى أميركا . الثورة الجنسية عينى عينك فى الشوارع ، فى مصر ، وفى إيران ، وفى السعودية . مين كان يقول كده قبل ٥ سنين ؟ سدوم وعمورة ! ثورة يا پاپا ! ولا حد ها يوقفها ، لا فى الأرض ولا فى السما !

– بس سدوم وعمورة اتحرقوا بالنار !

– ليه هو أنت ما سمعتش ؟ ربنا غير رأيه ودلوقت بيدى الثواب للى يوفق رأسين فى الحرام !

– استغفر الله العظيم ! استغفر الله العظيم ! ربنا ياخدك يا شيخ ويريح العالم من كفرك .

– ما لها جهنم يا حاج ؟ أنا شخصيا ها أسأل ماريلين مونرو وبريچيت باردو وناهد شريف ومديحة كامل راحوا فين وها أروح معاهم . موش أحسن من الحور العين إللى كلهم شكل بعض ؟ فيه سؤال طول عمره محيرنى يا حاج : ليه عدد الحور العين ٧٢ ؟

– (آخذا السؤال على محمل الجد :) عدد غريب فعلا !

– جايز علشان ده عدد إللى آمنوا بمحمد فى مكة ! هأ ! هأ ! هأ ! أو علشان ده عدد الأوس والخزرج بتوع بيعة العقبة جزء ٢ ! هأ ! هأ ! هأ !

– عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟ المكوجى بتاعنا لسه عنده مكوة الرجل بتاع زمان . بكرة ها أجيبها معاى ، وأفرد لك الكسرات الفظيعة إللى فى نافوخك المكشكش ده !

– مكشكش ؟ آه يا خلبوص يا بتاع المكشكش أنت ! أنا متأكد أنك كنت شقى فى شبابك . ونس إللى أنت شايفه ده ، ما تاخدش على شكله المدهول ، برضه كان خلبوص كبير فى شبابه . موش العراق وتركيا وبس . كل حتة . علشان خاطركم أنتم الاتنين ها أجيب فى المحل مينى سكيرتس مكشكشة . هات لى مكوة رجل لو عاوز . نافوخى ورقبتى وكلى لك يا حاج ! يا راجل يا عسل أنت !

– (سرعان ما يهدأ :) على أية حال لحسن الحظ السيتى ستارز ما عدش فيه خرم أبرة للى زيك !

ويصحح ونس : ‘ ما هذا الخيال الجنسى المريض : تتصورون الراجل عاوز ينام مع أصحابه فى الجنة ؟ ؛ ثم أن عدد ٧٢ موش غريب خالص . ليه ما تقولوش أنه تنبأ أن رفاقه المكيين أو معاهديه اليثربيين أولئك أو هؤلاء سيتشيع كل منهما ٧٢ فرقة ، كلهم فى النار ، وأن فرقة غيرهم خالص هى الفرقة الناجية ؛ هو وحده ! ’ .

ويسخر روميو : ‘ إيه العقد دى ؟ جايز ببساطة ٧٢ لأنه ست دستات من بتوع زمان ؛ يعنى نص قاروصة مقفول ! هأ ! هأ ! هأ ! ’ . ويهمس وحيد لنفسه : ‘ ٧٢ ؟ أنا لو رحت نيو يورك موش مكة وقلت أنا نبى ، ها يؤمن بى أكتر من ٧٢ ! ’ . ثم يشاركهم الضحك : ‘ أنت نسيت يا روميو أنك بتمثل فرنسا فى مجلس الأمن ، والمفروض تقول ‘ مينى چوب ’ موش ‘ مينى سكيرت ’ ’ .

– إيه يا عم وحيد ؟ أنت إللى ناسى باين عليك . أنت موش عايش فى الدنيا ولا إيه ؟ فرنسا نفسها بتتكلم إنجلش النهارده ! واحد صاحبى بيعرف فرنساوى كويس ، جه الأسبوع ده من هناك بيقول كان بيتعب لغاية ما يعتر على حد بيتكلم فرنساوى . هأ ! هأ ! الخلاصة الكرسى ده تبعى ، وإللى موش عاجبه الباب يفوت جمل . سمعت يا حاج : جمل ! من بتوع العرب !



ها ينضف أسواق الخليج ،

ولا ها يوسخ كيوپيد نفسها ؟

يتخذ إدوارد لقدوم موسم المدارس استعدادات خاصة . يزداد الطلب على السحب النقدى ، فيضطر لإرسال سامر للبنك على نحو شبه يومى لعمل ما يسمى بتزويد الخزينة . هو لا يريد أن يكلف أحدا من العملاء عناء الذهاب للبنك أو انتظار الدور فيه . هذا العام سارت الأمور على ما يرام ، بالذات حين راح يؤكد على العملاء أن يخبرونه سلفا باحتياجاتهم بيوم واحد على الأقل ، عدا ذلك فهو سيضطر لتقديم سحوباتهم لهم على هيئة تشيكات . لم يقع سوى استثناء واحد ، إذ جاءته ذات يوم طلبات أكثر من المتوقع ، فاضطر أن يميل على أسد قائلا ‘ ما فيش داعى تأخد الفلوس دى كلها . أنا خايف عليك تنحرف ! ، ‘ أنحرف إيه يا أستاذ إدوارد ، دى فلوس مدرسة البنت ؟ ! ’ ، ‘ بصراحة كده ، ما فيش فلوس فى الخزنة ، وأنت الأسد بتاعنا ، ولو موش ها تصبر لبكرة ، خد تشيك ’ ، فوافق . وفى اليوم التالى صرف التشيك ودفع مصروفات مدرسة سوزان .

حين عاد أسد وجد كل العملاء ملتفين حول المائدة المستديرة . لمح وحيد يخرج من جيب الچاكيت محفظة بنية لامعة بأبعاد ٦ × ٤ بوصة ، كتب عليها بحروف داكنة كلمة سونى . يفرد يمينا ويسارا رأسيا السطح اللامح فإذا به شاشة مشدودة كالشراع بأبعاد ٦ × ٨ بوصة ، أو بمصطلحات الحاسوب شاشة ١٠ بوصة ، أى قطرها ١٠ بوصات . بين هذين الجزئين يوجد جزآن آخران ، يفردان على أرضية المكتب يمينا ويسارا ، فإذا بهما لوحة مفاتيح بأبعاد ١٢ × ٤ بوصة . يقول هذا حاسوب يشتغل بالويندوز قيستا كامل الأوصاف لكن لأول مرة تضعه فى جيبك . أيضا هذه كاميرا رقمية بجودة فيلم الـ ٣٥ مم بتوع زمان ، وممكن إضافة عدسات لها هنا ، وهذا مكان لشريحة هاتف خليوى ، وإن كنت لا أزال لا أملك واحدة منذ تخليت عنها من سنوات .

يبدو إدوارد أكثر الجميع اهتماما ، على الأقل لأنه يفهم فى الحواسيب وأسس مكتبه بها ، وتمثل جزءا مهما من مصروفاته . يتفحصه طويلا ، ويقول البروسيسور ، نقول بطوطه وحطوه تحت نص لوحة المفاتيح وهو إللى متقلها ومخلى الجهاز ثابت على المكتب . والهارد ديسك ونقول عملوه فلاش ميموري وبرضه موجود فى حتة تحت النص التانى .

– إللى أنا موش فاهمة هو فين البطارية ؟ طول عمر مشكلة اللاپتوپ البطارية !

ابتسم وحيد وتطلع للجميع : حد يعرف ؟ هى الوش التانى للشاشة . الضهر البنى اللامع ده عبارة عن خلايا ضوئية . يعنى حتى وأنت مطبقه وراكنه ها يشحن .

يلح إدوارد : برضه فين البطارية ؟

ويتولى عارف الرد ، إذ سبق له القراءة بإحدى المجلات الأجنبية المتخصصة عن هذا الجيل الجديد : ما فيش بطارية ! هى الشاشة برضه . تحت كل خلية ضوئية مكثف صغير بيتشحن . الأدهى أنه بيشحن حتى وأنت حاطه فى جيبك .

– فى الضلمة ؟

– أيوه ! منتشر برضه خلايا حرارية بتشحن المكثفات ! ده حتى قريت أنهم بيفكروا يعملوا الوش التانى ، الشاشة نفسها بطارية . زى ما خلايا البلازما متوصلة بإشارات الصورة ، بين كل واحدة وواحدة تتحط خلية ضوئية .

ويمسك وحيد بالشاشة الرقيقة بين إصبعيه ، ويقول بانبهار : ' باختصار ، حتة البلاستيك الطرية دى هى الاختراع الكبير ! ' .

ويعود عارف : ' السؤال إللى ما حدش سأله ، هو فين القرص المكتنز ، لا مكان لـ CD أو DVD . كل حاجة ها تبقى قريب رقاقات فلاش ! ' .

ويعلق وحيد : ' نعم ، من الآن فصاعدا عنصر السيليكون هو المكون الشامل الجامع الذى يغطى كل احتياجات صناعة الحوسبة من الألف إلى الياء . منذ قليل دالت دولة الحديد ، واليوم ها هى الثورة التالية : لقد دالت دولة الألومنيوم ! ' .

ويعلق إدوارد ضاحكا لغرابة التعبير : ' زى ما دالت دولة التنجيستن ، وكل الإنارة بقت بغاز الفلور ، فلوروسينت ! ' .

يواصل وحيد أن الخطوة التالية هى التخلى عن كل وحدات الإدخال ، لوحة المفاتيح الفأرة أو حتى بالكلام عبر المايكروفون ، وأن كل شىء سيصبح اتصالا مباشرا بين المخ والجهاز ، إما بوضع أحد الأصابع فوق حساس أعصابى معين ، أو حتى لا سلكيا تماما . تتحمس ميرفت القلقة على مفاصل رسغيها وأصابعها للفكرة ، أما أسدا فيواصل تفحص الجهاز ، ويسأل عن سعره ، ويقول بلغة ملؤها الأمل : قريبا إن شاء الله ها أجيب واحد زيه لسوزان !

القاعة التى انكبت فى هدوء وتركيز حول حاسوب وحيد الجديد ، تلتفت فجأة وبكل قوة نحو الجلبة القادمة من الخلف . رزق الذى نادرا ما يأتى للشركة منذ عاد للوردية الصباحية مجددا ، يدخل مندفعا وصائحا وهو بعد عند الباب الخارجى : ألف مبروك يا أستاذ وحيد . كيوبيد أعلنت أنها ها تفتح فروع فى كل دول الخليج . لسه شايف الخبر على الإنترنيت ، وجيت أقول لكم بسرعة ، إللى عاوز يلحق يشترى كيوبيد فورا . لو سمحتى اعملى لى إيداع صورى يا ميرفت ، دخلى لى أوردر بألفين سهم بسعر السوق بسرعة . ما تخافيش ، ها أبيع أسهم تانى قصادهم وأسوى الحساب قبل آخر النهار . أكيد السهم ها ينضرب فى ٢ خلال أسبوع . كمان كل السوق ها يولع ! (الإيداع الصورى هو أقصى تجاوز يمكن أن يقبل به إدوارد الذى يرفض أن تأتيه المشاكل من أية ناحية . بل ويسمح به على مضض ، خوفا من تفتيش مفاجئ لا يأتى أبدا . والسبب فى هذا حسب روميو أن الشركة قد النملة ويستخسرون البنزين فى مشوارها . وحتى لو أتى يمكن التذرع بأن الإيداع ليس وهميا وأنه فى طريقه الآن للبنك بواسطة المحاسب) .

يهلل أسد : ' الله أكبر ! موش قلت لك يا أستاذ وحيد ، إحساسى ما يخيبش أبدا . أنا قلت إيه الأسبوع إللى فات ؟ وإلهى أنا فى حاجة لله ' .

يمسح ضهرى يده فى كتف أسد ثم يمسح صدره هو بها ، ويقول ساخرا جملته المألوفة : ' آه منك يا مولانا ، اللهم اعطينا من بركاتك ، واكفينا شر حركاتك ! ' .

يعطى روميو وسوسن وعارف وأسد وكثير من الحاضرين والحاضرات أوامر على نفس طريقة رزق ، وميرفت ترتبك ، وتطلب أوامر مكتوبة حتى لا يقع خطأ . أما ونس -المتمسك بعد بالرهان على شركة بنها- فراح يسرد للحاضرين من ذاكرته أرقام ' المقاومة ' المحتملة لسهم كيوبيد . أى الأسعار التى فشل من قبل فى كسرها صعودا ، أو ' قاوم ' كثيرا عندها . وعارف يحاول أن يفهمه أن لا ضرورة لأن يجهد نفسه هكذا . ما قيمة التحليل التقانى فى لحظة كهذه ؟ خبر ضخم كهذا ، سيكسر كل نقاط المقاومة فى دقائق ، وسيحقق للسهم الحدود القصوى المسموح بها يوميا .

يتبارى الجميع على توصيف الحالة . على العكس من حالة الهبوط التى يتفق فيها الجميع على مصطلح ونس الشهير ' العك التنازلى ' ، فإن الخلافات تدب بشدة فى الأوقات التى يتدافع فيها الناس على الشراء بلا روية . هنا يتراوح الجدل على توصيف الموقف ما بين ' اتجاه صعودى ' و' اتجاه سعودى ' و' اتجاه صعيدى ' ، وهكذا . الوحيد الذى لم يبد متهللا على وجه الإطلاق هو وحيد . حين سأله ضهرى لماذا ، أجاب : أنا أعرف دكتور فرغلى ومعظم مديرى كيوبيد . ولولا أنى ما أحبش استخدم كلمة ملايكة ، كنت قلت أنهم ملايكة زى اسم الشركة . شغالين بالأصول والمبادىء والقيم العريقة ، كأرقى بنك استثمارى فى العالم ، مورجان ستانلى ، ميريل لينش ، جولدمان ساكس ، أى اسم من دول ، ويمكن أحسن . السؤال النهارده : هل دخولهم أسواق الخليج إللى كلها ورق فى ورق ، نصب وشركات خسرانة ، ها ينضف أسواق الخليج ، ولا ها يوسخ كيوبيد نفسها ؟ لغاية ما أعرف الإجابة ، أقدر أقول إنى غير مطمئن بالمرة !

ويغنى ونس على الفور : ' شكلك ما يطمنش ! ... فيه حاجة قالقانى ! ' .



ثقافة الذعر

من يريد المشاركة فى صيد السمك يأتى السابعة صباحا ، ومن لا يريد يأتى الحادية عشرة . هكذا كانت دعوة الحاج للجميع للقدوم للقناطر قبيل انتهاء جلسة الخميس .

أيضا سأل : ' حد يحب لحم الخنزير ؟ ' . وانخرط يشرح أن الرقابة صارمة جدا على ذبح الخنازير . أضمن لحمة فى البلد . أطباء السلخانات يكرهون الخنازير والمسيحيين معا . وبغض النظر عن أى حاجة من دى ، ما تخافوش هى صحية جدا . القول بكون الخنازير سمينة بطبعها أسطورة . هى ليست أسمن مثلا من الأبقار . السمنة بسبب القمامة و' الرمرمة ' وبقايا الخبز ، لكن لو ربيتها على الأكل الأخضر كما يفعلون فى أوروبا وأميركا ، لكانت أنقى وأسرع وأعظم وألذ مصنع للبروتين الحيوانى النقى الصحى الشهى إطلاقا . أنا بأروح أجيبه من الأسكندرية . واحد صاحبى صاحب مزرعة بيربيه على البرسيم والتبن ، ما فيش زبالة خالص ولا علف اصطناعى ولا حتى عيش . مزرعتهم لسه بتربيها كما كانت تقدم للأجانب أيام زمان . ويسخر ونس : ' ويا ترى بيدبحوه لك مخصوص حسب الشريعة ؟ ' ، ويرد : ' ومين قال لك أنى أحب الذبح الحلال ، ده أكبر ذبح حرام على وجه الأرض ، لم تخترع يوما طريقة أخرى أكثر منه بشاعة لقتل حيوان ثديى ' . ويجد ونس فرصة ذهبية : ' يعنى أنت معترف دلوقت أن الشريعة الإسلامية شريعة متوحشة ؟ ! ' . ويجد الحاج الرد : ' طريقة الدبح دى شرق أوسطية صحيح ، إنما أصلها وثنى ؛ لازم الحيوان يتعذب أطول فترة ممكنة ، ولازم تنزل أكبر كمية دم ممكنة ، علشان الآلهة تلحق تاخد بالها أو علشان تستمتع بما قدم لها . الدنيا اتطورت ، فيه الدبح تحت مخدر أو على الأقل برصاصة فى المخ للقتل الفورى الرحيم ' . ويستطرد ونس : ' سامحنى يا حاج أنت موش فاهم الفكرة : القتل متعة فى حد ذاته ، التعذيب والتنكيل بالأحياء شفاء للصدور ، موش للحيوانات بس ، إنما للناس كمان . ربنا قال قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ... ويشفى صدور قوم مؤمنين ' ، ' ارحمنا من فتاويك شوية يا عجل أنت ' ، ثم يكرر السؤال ضجرا من عدم تلقيه إجابة بعد : ' حد له شوق للحم الخنزير ؟ ها أطلع من هنا على الأسكندرية لو عاوزين ' . ولا يرد أحد سوى وحيد : ' أنت كده فى حد ذاتك يا حاج إللى بيسموها تعددية ثقافية ! ' ، ويزداد سخط ضهرى : يعنى آه ولا لأ ؟ يأسف وحيد لسخريته ، ويتمتم بينه وبين نفسه : ' عليك الآن يا هالة إضافة هذه لقاموسنا الخاص عن لسان العرب : يقتلون الحيوانات بأبشع طريقة ممكنة ويسمونها الذبح الحلال ! ' . ويحسم روميو الأمر باعتباره الوحيد المنوط بقدرة الحسم لكل المواقف المائعة : ' كلامك مغرى جدا ، بس موش عاوزين نتعبك وتروح الأسكندرية . مرة تانية يا حاج ! '

أتى أغلب من نعرفهم منهم ، بالذات من يأتون بانتظام لرمسيس وأصبحوا أصدقاء لسنوات طويلة . كلهم ، باستثناء إدوارد ومينا وروميو وسوسن ، أتوا مبكرا . كانوا يمنون أنفسهم بشواء الضأن ' البلدى ' المدمر للصحة ، وبالسمك الطازج الصحى ، وبالمانجو الباهظة ، لكن الأهم منها جميعا ، لقاء يسرى مديرة البنك أو مجدى الوزير ، حتى يتسقطوا منهما أخبار الشركات .

باستثناء تعليمات ضهرى المتواصلة حول اختيار أماكن الصيد وكيفية وضع الطعم ، وإلقاء السنارة ، وتحسسها ، ثم كيفية شدها ، لم تقع أحداث تذكر خلال ساعات الصيد . فقط دار حديث طويل نسبيا بين وحيد وضهرى ، عن الجو ، وكيف أن القاهرة تفتقد السماء الزرقاء الصافية كالتى هنا . وكالعادة فاجأ وحيد الجميع برأى آخر من آرائه الغريبة قائلا إن الأمر ينطوى بالتأكيد على تغيرات مناخية أشد جذرية مما كان يقال عن حرق قش الأرز مثلا . أشد جذرية مما يقال حتى عن ثقب الأوزون وغازات البيت الزجاجى .

– شفتم العيال الإسرائيليين أثبتوا لهم إزاى أن جرينلاند عليها آثار أقدام على الأرض تحت كل طبقات الثلج ، وأن العصور الوسطى كانت أشد حرارة من الآن ، ولم يكن هناك ثانى أوكسيد كربون فى أى من هذه العصور . هم يقولون إن الأمر مرتبط بدورات ما للشمس . دورات كبرى مرة كل ٩٠ ألف سنة تأتى بعصور ثلجية كاملة ، ودورات أصغر كل ١٥٠٠ سنة ، تؤدى لانخفاض ثم ارتفاع نسبى للحرارة ، وهو ما يحدث الآن . عندنا كل قش الأرز أصبح يحول لكحول الميثانول والإيثانول ومع ذلك لم تختف السحابة السوداء . يا حاج الموضوع كله ' أفلام ' بيعملها علينا آل جور ودراويش ومهاويس البيئة إللى زيه إللى طول عمر ما واحد منهم استخدم كلمة ' اقتصاد ' فى حياته ، علشان يبتزوا ضرائب لنفسهم ومعونات لحلفائهم فى العالم الثالث ، لا أكتر ولا أقل .

– طيلة حياتى فى الزراعة لم أر حيوانا واحدا شغل نفسه بمسألة ثانى أوكسيد الكربون أو الحفاظ على البيئة ، إلا هؤلاء . إنه صراع حر ، كل يفعل ما يشاء ، والوحيد الذى عليه أن ينشغل بمسألة البيئة هو البيئة نفسها ، وهى لديها من الأنياب والأظافر ما يجعلها تدافع عن نفسها تماما ، تقرر أن التحيؤ للأليق وتقرر تخلق توازنا بيئيا جديدا أكثر تطورا ، وتخرج هى الفائزة فى كل مرة . أنا أنشأت مزرعة دواجن ، زاد غاز الميثان فى الجو ، بيسموه تلوث ، بعد شوية بيحصل توازن ، لكن لو أنا زودتها عن اللازم أنا إللى بأضيع . أقول لك حاجة م الآخر : الناس دى عبيطة ، بما أنها جعلت الإنسان هو الإله ، فبتفتكر أنه يقدر يغير مناخ الأرض . الإنسان أتفه من أن يمس شعرة من أمنا الطبيعة ، وإلا كانت قد دهسته كما صرصار فى ثانية .

– اليسار موش عبيط ، اليسار مجرم ومتآمر . والدليل أنهم كلهم كانوا قايمين الدنيا وما بيقعدوهاش لما كانت أميركا هى أكبر منتج لغازات المنزل الأخضر ، ومن ساعة ما الصين بقت رقم ١ كلهم سكتوا لا حس ولا خبر ، وكأن كله بقى تمام التمام ، الدنيا ربيع والجو بديع وقفل لى على كل المواضيع ، ولم لا السماء أصبحت صافية فجأة والحرارة معتدلة والهواء نقيا والأوزون وفيرا وما فيش أى مشاكل أو مواضيع من أى نوع . اليسار خائن ومنافق ؛ إنها ذات القصة تتكرر دونما خجل : قديما أقاموا الدنيا ولم يقعدوها حين حاولت أميركا مساعدة الشعوب التى تريد الحرية فى جنوب شرق آسيا ، خرجوا بمظاهرات هائلة قائلين نحن ضد الحرب وسفك الدماء ، ثم لم ينبسوا ببنت شفة حين ذبح هؤلاء الشيوعيون ثلاثة ملايين من السكان بمجرد انسحاب القوات الأميركية . نفس الشىء حين أقاموا الدنيا ولم يقعدوها حين عصب جندى أميركى عينى جهادى عراقى سلفى دموى ، خرجت المظاهرة تجعر بشعار الإنسانية ، بينما لم يكونوا قد نطقوا بكلمة واحدة حين قتل صدام حسين ملايين شعبه ، أو حين يخرج كل جهادى من السجن ويقتل عشرة جنود أميركيين أو مائة عراقى بسيط . القصة كلها إذن كان لعبة سياسية موش أكتر ، مؤامرة من أمثال آل جور على شركات البيزنس وعلى الاقتصاد الأميركى .

ولا يفوت ونس الفرصة لصياغة نظرية مؤامرة خاصة به : ' تلقاه بس كان مشارك فى مصنع سبرتو أو حاجة كده ؟ ' .

– بل الكتب والأفلام وحدها -والتى جعلت ملايين الأطفال لا ينامون الليل بعد مشاهدتها فى المدارس- تجعله يجنى الملايين . إنها ذات تقنيات ثقافة الذعر أو ما يسمى نشر أو إشاعة الخوف fear mongering التى طالما احترفها اليسار ، وخلق من خلالها الكراهية والرعب بين طبقات المجتمع ، ونادرا ما تصدى له أحد (بينما إذا ما حدث وحذر أحد من أخطار حقيقية كالقاعدة أو العراق أو إيران أو روسيا أو الصين ، خرجت مسوخ الإعلام تنهش جسده حتى نخاع العظم) .



– العرض والطلب فى دى كمان ؟ البشرية كلها ها تموت لو المناخ باظ ؟

– وإيه المشكلة ؟ الاقتصاد أهم من البيئة ، وكلاهما أهم من الإنسان !

ويعود ضهرى : ' طب والحل ؟ ' .

– موش اليساريين ولا الصينيين إللى ها يحلوا أى حاجة . دول شوية سفلة انتهازيين وبلطجية ، ما بيبصوش لأبعد من تحت رجليهم ، وعاوزين فتافيت م الكعكة موش أكتر . العرض والطلب هو إللى كالعادة يحل كل حاجة .

– العرض والطلب فى دى كمان ؟ البشرية كلها ها تموت لو المناخ باظ ؟

– وإيه المشكلة ؟ الاقتصاد أهم من البيئة ، وكلاهما أهم من الإنسان !

– إزاى ليل نهار تكلمنا عن أمنا الطبيعة بينما تتحدث بكل هذا الاستهتار عن البيئة ؟ !

– من قال إنى أستهتر بالبيئة ؟ كل ما قلته إنه لا يوجد لدى أمنا الطبيعة قانون يقول إن درجة حرارة ٢٥° م أفضل من درجة ٥٠° م ؟ إنها فقط أفضل من منظور الإنسان ، وهو ليس الكون ولا حتى الأرض . اليسار صنع من الإنسان ما فعله الإسلام بالأنبياء ، قام بتفصيلهم على مقاسه أولا ، ثم اعترف بهم . كما قتل الإسلام الأنبياء فى صورهم وقصصهم الأصلية ، اليسار قتل فى الإنسان مفهوم الصراع ، الشىء الأكثر قاعدية فى الكون . جعل كلمة إنسانية مرادفا للمودة والتآخى والحياة الاشتراكية ، ثم بعد ذلك قال إن هذا الانسان التخيلى المختلق هو النبى أو الإله . المشكلة أن الكون ليس مفصلا أصلا على مقاس الإنسان ولا أية عشيرة بيولوچية بعينها ، ولن يكون . لقد اتفقنا قديما -أنت وأنا- على أن كل التقنيات التى نسميها بالحديثة قد عرفتها الحياة البيولوچية للأرض من قبل الإنسان ، وكل ما فعله الإنسان هو التخلف ومحاولة إدارة العجلة للوراء . العقل شىء رجعى بطبعه ، لأن مع العقل ولد الغرور ، والغرور يخيل لصاحبه أنه فوق قوانين صاحبة هذا الكون . الشىء الوحيد الخير بطبعه هو المادة ، أليس هذا ما نقوله منذ ٢٥٠٠ سنة ؟

– (ساخرا :) يعنى باختصار -يا ماستر أرسطو- الروبوتات ترث الأرض ؟ !

– أنت بدأت تعجب بمينسكى كمان ، يا بتاع الهندسة الچيينية ؟ !

– طبعا ! بس إللى موش فاهمة مينسكى ، أن الروبوتات لها چيينات هى كمان ، والكل داخل فى معركة واحدة هى حرب التحيؤ للأليق .



لا غرابة أن الحروب هى قاطرة التاريخ ، لأنها أصرح تجسد لمبدأ المنافسة والانتخاب الطبيعى ؛
بل فى الحقيقة الحروب هى صلوات أمنا الطبيعة ، مثلما المذابح محرابها !

– (مندهشا :) أحلى كلام ! فعلا ! التقنية فى حد ذاتها لها چيينات ، وهذا هو السر فى أن الحروب تؤدى عادة للتقدم التقنى ، لأن ببساطة الچيين الذى يخرج أقوى بين كل المنتصرين ، هو چيين التقنية ! أليس مثيرا للفضول أن كل ما حولنا من حواسيب وليزر وساتيلايت وخليوى وإنترنيت ، كله كان فى الأصل برامج حربية للمؤسسة العسكرية الأميركية ؟ چيين التقنية هو الأسرع تطورا إطلاقا ، إن لم يكن هو الوحيد الذى يتطور . لا غرابة أن الحروب هى قاطرة التاريخ ، لأنها أصرح تجسد لمبدأ المنافسة والانتخاب الطبيعى ؛ بل فى الحقيقة الحروب هى صلوات أمنا الطبيعة ، مثلما المذابح محرابها ! (ويستدرك ، متذكرا كلام الحاج مرة أخرى :) أنت ناوى تقلب تبقى مكنة ولا إيه يا حاج ؟ ! (لا يجد ردا فيواصل :) بص : أنا ها أمشى معاك فى فرضية أن إحنا السبب فى تغير المناخ . المناخ باظ ليه ؟ علشان الكربون وثانى أكسيد الكربون . غابات الأمازون بتتقطع . غابات أفريقيا الاستوائية بتتقطع . ليه ؟ شركات جشعة جاية من أميركا ومن أوروپا ؟ موش ده السبب . هل جم بجيوش واحتلوا البرازيل ولا الكونجو ؟ السبب الفقر . أية أخشاب يبيعونها ؟ إنها أخشاب البيت نفسه . أضناهم التخلف والجوع والفقر ، بحيث لم يجدوا سوى البيت نفسه يبيعونه قطعة قطعة ؟ ومن أجل ماذا ؟ من أجل وجبة طعام لن تدوم حتى للغد . لو الشعوب دى غنية ما كانتش سمحت لحد يقطع غاباتها . إذن من يدمر الكوكب هم فقراؤه وفقرهم . الإنجاب غير المحسوب . نسيب كل حاجة للعرض والطلب . ها تحصل تطورات درامية فى المناخ . جايز تيار الأطلنطى ينعكس ، جايز تتجمد أوروپا . جايز حتى تتقلب أوروپا حر ، وإحنا برد . القطبين حر نار وخط الاستواء يتغطى بالثلج .

– جايز حتى تعريف المرتفع والمنخفض الجوى ينعكس ، فالهواء الذى يدور فى اتجاه الساعة فجأة سنجده يدور فى الاتجاه العكسى ، والعكس بالعكس .

– لأ ، ده بالذات موضوع مرتبط باتجاه دوران الأرض حول نفسها وموش ها يتغير .

– لأ ثوانى ، سيبنى أحسبها ، آه طبعا مرتبط باتجاه دوران الأرض لكن مرتبط أيضا باختلاف الحرارة بين الاستواء والقطب ، فلو انعكس هذا الأخير فإن اتجاه دوران الأرض الحالى نفسه سيعكس اتجاه الرياح التى يسببها المرتفع الجوى أو المنخفض الجوى .

– (ضاحكا :) يعنى الخلاصة جايز كمان كيهك يفضل برد للأبد حتى لو جه فى أغسطس ، وبالتالى زراعة أمنمحات وأمنحتب موش ها تبوظ ولا حاجة !

– أيا ما كان ، من سينجو ساعتها هم الأغنياء والمتقدمون ، لديهم الطاقة والأبنية المكيفة والتقنيات القادرة على مواصلة الحياة .

– أصلا التقنية هى سبب المصيبة .

– يا سيدى لأ ، قلنا الشمس هى السبب الأهم ، وثانى أوكسيد الكربون لو له أثر فعلا ، فهو ثانوى وبسيط . لكن حتى لو التقنية هى السبب فى التغيرات المناخية ، هذه ليست أول ولا آخر مرة التقنية تخلق مشكلة . أصلا لا تقنية بدون مشاكل . المشاكل التى تخلقها التقنية لا تحل إلا بمزيد من التقنية . طاقة نظيفة ، محطات نووية ... إلخ . هذا ما كنت أقوله وأكتبه دوما . التقنية هى الحل ، فإن فشلت التقنية ، فالحل هو المزيد من التقنية . أنا لست ضد الطاقة النظيفة ، إنما ما تحطليش شرط مسبق أن العرب والمسلمين والأفارقة يخلفوا زى ما هم عاوزين ، ثم تقول لى ده إنسان ومن حقه الحياة ، وأن الحياة شىء مقدس . إشمعنى غيرنا ما بيخلفوش ؟

– إشمعنى ؟

– علشان العرض والطلب ! علشان السوق الحرة . علشان المنافسة المفتوحة . الإنسان موش على رأسه ريشة . هو سلعة زى أى سلعة ، خاضع لقوانين العرض والطلب . لو عندك فائض فى سلعة ما فى السوق ، ماذا تفعل ؟ إما أن تعدمها أو تبيعها بسعر أقل . أليس كذلك ؟



لا يمكن للتقنية وللبشر أن يتكاثرا معا جنبا إلى جنب إلى ما لا نهاية . لا بد لأحدهما أن يزيح الآخر .

چيينات التقنية أفضل وستنتصر . ... التقنية خير والبشرية شر !

قبل الإنسان لم يكن هناك عقل ولا فكر ولا معنويات ، فقط كل الأشياء مادية كما أرادتها أمنا الطبيعة .

باستثناء حفنة معدودة من البشر أشباه الآلات ، الإنسان هو انتكاسة للخلف شديدة الرجعية .

عشيرة بيولوچية تعتقد أنها يمكن أن تضع نفسها فوق قوانين الطبيعة ، هى شىء خطر جدا وشرير للغاية !

– (ضاحكا :) بل هناك سلع لا يصلح معها تخفيض السعر ، الحبوب مثلا . هل تعتبر الإنسان شيئا قابل للتلف ، إن لم يكن عليه طلب فورى يتحتم إعدامه ؟ !

– ما الشىء المضحك فى هذا ؟ لا يمكن للتقنية وللبشر أن يتكاثرا معا جنبا إلى جنب إلى ما لا نهاية . لا بد لأحدهما أن يزيح الآخر . چيينات التقنية أفضل وستنتصر . ... التقنية خير والبشرية شر ! قبل الإنسان لم يكن هناك عقل ولا فكر ولا معنويات ، فقط كل الأشياء مادية كما أرادتها أمنا الطبيعة . باستثناء حفنة معدودة من البشر أشباه الآلات ، الإنسان هو انتكاسة للخلف شديدة الرجعية . عشيرة بيولوچية تعتقد أنها يمكن أن تضع نفسها فوق قوانين الطبيعة ، هى شىء خطر جدا وشرير للغاية ! هذا أيضا مما كنت أقوله وأكتبه دوما . التقنية فقط هى التى نمت على امتداد التاريخ الطبيعى . العشائر البيولوچية هى التى تفسح لها الطريق طوال الوقت ، حتى لو كانت مخترعتها . لو كل البشرية ها تنقذ أنا ما عنديش مانع . أنا موش عاوز حد يباد . إنما حد يوقف الصراع والتطور باسم قدسية الإنسان أو بأى اسم ، ده المرفوض .

– أنت ها تقلد كلام واتسون ؟

– إيه ؟ واتسون إللى اكتشف الدى إن إيه ، موش قد المقام ' لا سمح الله ' ؟ ثم أنا موش بأقلد حد ! طول عمرى ما قلدت حد . أنا قرأت الدنيا والآخرة ، لكن أى فكرة بتطلع منى هى بتاعتى !

– إحنا جايين ننبسط النهارده . وخللى مناقشاتك دى بعدين . خلينا فى السنارة بتاعتك إللى موش عاوزة تغمز أبدا !

وبينما يهمس سامر بكلمات فى أذن ميرڤت ، فهم من خلال اللكمة الخفيفة التى تلقاها بسببها فى كتفه أنها كانت كلمات غزل بمناسبة الكلام عن السنانير والغمز ، يسحب وحيد السنارة ويتفحصها ببراءة ، فيضحك ونس ، ويجلجل صوته الأجش الذى تبدد هذه المرة على صفحة النيل دون أن يجد جدران قاعة المستثمرين فى رمسيس كى تزيده ضخامة ، يقول : موش قصده السنارة دى !

– شوف الطعم وقع ولا إيه ؟ (يسحبها ضهرى منه ويعلمه مرة أخرى كيف يثبت إحدى الديدان بها) .



هى دى دايما مشكلتنا مع الآباء والأمهات :

بنتعب فيهم لغاية ما نربيهم !

مع التئام كامل الشمل فى منتصف النهار ، كانت البداية كئيبة جدا . انهار مينا بكاء لرؤية خالته ، الصورة طبق الأصل من أمه . إدوارد يهدئه ' عيب كده ، أنت ها تبوظ اليوم على الناس دى ! ' ، والعجوز الطروب ماريلين تطيب خاطر مينا وفى نفس الوقت تحاول رفع الحرج والوجوم عن الجميع ' فاكرين أن لما أختى تموت ها أموت أنا فى نفس اللحظة ؟ موش معنى أنها اتولدت قبلى بخمس دقايق أنى أموت بعدها بخمس دقايق . صحيح ده بيحصل مع التوائم المتطابقين ، التانية تبطل أكل أو تعمل أى حاجة وتموت بسرعة . إحنا موش كده . إحنا اتفقنا على غير كده . وأكيد لسه قاعدة على قلبكم شوية ! ' . وكذا لم تنس التأنيب الذى كانت قد أعدته قبل أيام : ' إيه يا إدوارد ؟ من ساعة ما رحنا لكم يوم ماديلين ، سنتين ما نشوفش حد منكم ؟ ' .

على الفور تصبح ماريلين محور كل شىء . تشدهم طريقة كلامها ، شبه المفتقدة الآن ، والأبعد ما يكون عن فطرية ضهرى أو اندفاع منى ، اللذان يعرفانهما . ينبهرون بمخارج ألفاظها الدقيقة شديدة الوضوح ، التى تنم عن أرستقراطية وأناقة ، لكن دونما تكلف أو استعلاء . يتحولون للكلام عن التوائم المتطابقين ، تعطيهم معلومات كثيرة ، وتروى ذكريات أكثر عنها وعن أختها . وأخيرا يسألها ضهرى سؤالا مباغتا عن سر استحمامها مع أختها : اتفقتم فين على أنك موش ها تموتى بعدها ؟ فى الحمام ؟ كانتا تستحمان سويا حتى آخر العمر . كانتا تفعلان هذا كلما زارت إحداهما الأخرى . كانتا تقولان ما حك ظهرك مثل أختك . كانت تذهب الظنون بالزوجين مذهبها ، وهما يحاولان فهم معنى هذه العبارة . لكن أحدا لم يجرؤ أن يسأل أو يعلق ، كذا لم يحدث ما يعكر الصفو . حتى اليوم لم يكن لدى ماريلين سوى ذات الإجابة ، قهرت بها مراوغات روميو الذى أثارت فضوله الفكرة جدا ، فراح يخوض فيها معها المرة تلو المرة .

وحيد الذى على ذكر الاستحمام تذكر رمانة فى هذه اللحظة ، راح يخترع موضوعا مختلفا للحديث : ' ليه بطلتم كمسيحيين تسموا أسامى زى إدوارد وهنرى وچورچ وڤيكتوريا وبتسموا أسامى زى مينا وبيشوى ودميانة ومارينا ؟ ' . توقع أن تقول مثلا إن تلك أسماء قديمة عزف عن تسميتها حتى الإنجليز أنفسهم ، لكن ما حدث هو أن ردت ردا مختلفا . قالت فى شىء من الغيظ إن هذا هو الفارق بين عصر وعصر وعصر ثالث . عبمعصور قال التمصير ، وطبقوا ده حتى على الأسماء . لفترة أصبحت الأسماء عربية ، عادل وسعيد وسعاد ، بتوع كتاب شرشر وفلفل . هنا تستدرك عرضا أن شرشر هذا كتاب مختلف ، وأنها ربما أصيبت بالألزهايمر . ثم تعود لتواصل الشرح : ' حين جاء ما يسمونه الصحوة الإسلامية انكفأ الأقباط على تاريخهم السحيق ، وأخرجوا من الكتب تلك الأسماء المندثرة للقديسين والقديسات . فى رأيى أنها أسماء ما فيش أسخف منها ! ما لها پوسى ولوسى وسوزى ؟ ! ' . وطبعا يتدخل أسد موضحا أن اسم ابنته هو سوزان وبنقول لها يا سوزى ، فتحييه عليه ، وتطلب منه أن يصفها ويتكلم عنها و' لازم تجيبها معاك المرة الجاية ! ' .

يواصل وحيد تجاذب أطراف الحديث مع ماريلين التى ذوى جسدها لكن لم يذو بريق عينيها الأخضر . كان معجبا بها لأنها على نحو أو آخر تذكره بأمه . حين تذكر ما حكاه له ضهرى من واقعة الذهاب لجارتها أم منصور بدون تنورة ، لم تكن لديه ضحكة ليكتمها . بالعكس ، شعر أن ضهرى لم يحسن تصوير أمه له كما يجب . سألها عن أسماء كضهرى ويسرى ، أليست غريبة بعض الشىء ؟ إنها أبعد ما تكون عن بوسى ولوسى وسوزى ؟ فتروى أنها هى التى اختارتها على غرار السجع فى ماديلين وماريلين . وكانت كلها خناقات مشهودة مع أبيهم ، من قبيل العند منى لا أكثر ، ولم يكن يرفض لى طلبا .

هنا يتذكر ضهرى تفاصيل الجدل الذى دار بين أمه وأبيه حول اسم يسرى ، وكان عمره سبع سنوات آنذاك ، وكان شاهدا عليه ، بل وطرفا فيه . يقول إن أباه اعترض قائلا إنه لا توجد بنت اسمها يسرى ، فيه يسرية ، فيه يسر ، فيه يسرا ، لكن يسرى ؟ ! ومن حين لآخر يصرخ مستنكرا ' يسرى ؟ ! فيه بنت اسمها يسرى ؟ ! ' . فترد أمى : ' يعنى هو فيه ولد اسمه ضهرى ؟ ! ' . وتضيف ' جهزت مائة اسم بنفس السجع ، لكنك اخترت أغربها ، وكأنك تغيظنى ' . وأبى يقول ' أنا كنت عاوز أسميه ظهرى ، وانتى لازم كان تحطى بصمتك وتقولى ما بأحبش العربى الفصيح ، وده زى ما يكون اسم واحد شيخ ، على كل حال ظهرى أو ضهرى اسم جميل ومعبر ' . فتقول هى ' ماله يسرى ؟ وإيه يعنى ، أنا مميزة وأولادى ها يطلعوا مميزين ' . فيثور أبى ' أنتى موش مميزة ، أنت مجنونة ، وبنت مجانين ! ' . المهم ، هنا تدخلت أنا وقلت لهم أعطونى

فرصة وسأختار أنا ، والعجيب أنهما وافقا . كانا كل ساعة يسألانى ' وصلت لإيه ؟ ' ، ومع حلول المساء سئما منى ، وفوجئت بأبى يقلب الاسم على لسانه ' يسرى ؟ يسرى ؟ ماشى يا ست ، يسرى ، يسرى ! ستصبح ابنتنا يسرى ! ' .

وتتذكر ماريلين ' أنا فاكرة قال لى إيه ساعتها . قال لى آه منك يا بنت الإنجليزى . كان المفروض كنت خنقتك من زمان ، لولا أنك امرأة زى العسل . ثم مال على وباسنى وقال لى حمدا لله على سلامتك ! ' .

ويضحك وحيد قائلا لضهرى : لعبة الصبر موش بين القنافد بس !

وتتأوه ماريلين : هييه ! كانت أيام ! أيام حلوة وسعيدة ، ولا يمكن ترجع تانى !

ويعلق ضهرى إنه سارع للقول لهما إنه كان سيختار ذات الاسم ، وفرحا بى . لكن وحيد يكايده : يعنى من صغرك لمض وفى نفس الوقت ما لكش رأى ؟ !

– وليه ما تقولش دبلوماسى بالفطرة ، رسول سلام ؟

– واضح ! رسول سلام فاشل !

– بالعكس ! أنت موش واخد بالك . أنا كنت عارف أنهم بيتدلعوا على بعض كالعادة ، وأديتهم فرصة علشان يوصلوا لقرار بنفسهم ، بدل ما أفرض عليهم قرارى أنا !

وتتدخل منى ضاحكة : هى دى دايما مشكلتنا مع الآباء والأمهات : بنتعب فيهم لغاية ما نربيهم !

وتؤمن ماريلين على كلامهم : فعلا ! بصراحة لو كان استنى ٥ دقايق كنت أنا إللى اتنازلت ! وفعلا قلت له اعمل إللى أنت عاوزه ، إنما قال خلاص ! يسرى يعنى يسرى !

وتواصل ذكرياتها : فاكرة كمان أنى قلت لعبد الحميد (طبعا كنت بأدلعه وأقول له يا حمادة !) أن اسم يسرى كويس . علشان كمان تبقى اسم على مسمى . ها تطلع شولة زيك وزى ضهرى . لكن ما حدث أن لم تشب يسرى عسراء . هى ومن قبلها أخوها مجدى اكتسبا -وعلى العكس من ضهرى- معظم صفاتهما عن أمهما وأسرة أمهما . وتدلف ماريلين لأن فى البداية تضايق الأطفال فى المدرسة من معايرة الأولاد والبنات لأسمائهم الغريبة الصعبة ، لكن مع النضج ومع تفوقهم أصبحوا محل غيرة الجميع . وتتذكر أن ضهرى بالذات كان وسيما للغاية شديد التأنق ، وكان نجم النجوم وسط الفتيات . ' فين إجلال ؟ اندهوا لها علشان تسمع الكلام ده ! ' .

هنا يلقى وحيد بمفاجأة ، بسر ربما لم يقله أبدا : تعرفى يا تانت أن اسمى كان ممكن يبقى زى أسماء أولادك ، على نفس الوزن ، وأنه جه نتيجة خناقة برضه ؟ !

– إزاى ؟

– ماما كانت مصممة تسمينى نورى ، نسبة لنورى السعيد بتاع حاجة كان اسمها حلف بغداد . كان رأيها أنه رمز الحداثة فى منطقة كلها تخلف فى تخلف ، وأن علشان كده عبمعصور كان عدوه . لكن بابا قال لها أن أنا وأنتى ببساطة ها نروح ورا الشمس . قالت له يعنى إيه ' ورا الشمس ' ؟ قال لها يعنى نتبخر . لما بقت دى كلمة مشهورة ، كانت بتضحك وتقول أول مرة حد استخدمها كان جوزى . المهم ، فضلوا يتخانقوا أيام ، وفى الآخر اختاروا اسمى ده . وفضلت هى موش راضية عليه ، بتقول اتسرعنا فيه ، ' ما كنتش عارفة أفكر . تسرعت . كان قصدى أنك ' فريد ' موش وحيد ' . وفضلت حاسة بالذنب طول عمرها ، وتقول بالذات لو جاءت سيرة الزواج ' كل واحد له حتة من اسمه ، إن ما كانش اختيار الأبوين للاسم يترتب عليه تصور معين مسبق لأسلوب التربية ، فعلى الأقل عقله الباطن بيتأثر بالاسم وبيتصرف بناء عليه ، وخايفة يا بنى أكون جنيت عليك ، وكتبت عليك الوحدة ! ' .

ويجد ضهرى الفرصة لرد المكايدة : يعنى عامل لى فيها كاتب ، وأنت نفسك غلطة مطبعية ؟ !

وتواصل ماريلين : ' مامتك دى ما فيش زيها ! تعرف أن أختى وأنا سلمنا عليها ؟ كان افتتاح فيلم فى سينما ديانا ! تعرف أنها من سننا تقريبا ؟ ! ' . ثم تبدأ حديثا مطولا عن أحلى شخصياتها السينمائية ، وأنها هى نفسها كانت تتمنى أن تصبح ممثلة ، وأنها وأختها تعرفتا لأول مرة بزوجيهما فى إحدى سينمات روض الفرج ، وهنا تباغت وحيدا بسؤال مفاجئ : ' هل تستطيع أن ترفع جانبى لسانك بحيث يلتف حول نفسه

كما الأنبوب ؟ هكذا ! ’ . ‘ لم أفكر فى أمر كهذا قط . سأحاول . تقصدين هكذا ؟ ’ . ‘ هأ ! لقد كنت أعرف هذا ! يوم قابلت الست والدتك شعرنا -أختى وأنا- شعورا غريبا أنها قريبة جدا منا . إيه رأيك يا واد يا ضهرى ؟ ’ . ‘ جايز ! الچيين ده نادر جدا . احتمال أجدادنا بتوع بريطانيا قرايب ! ’ . ‘ ده إللى طول عمرى كنت خايف منه ! ’ . ‘ أنت بتخرف تقول إيه يا جدع أنت ؟ ! ’ . ‘ أنت صحيح حسيت أنك وضهرى قرايب يا وحيد ؟ ! ’ . ‘ أنا بأهزر يا تانت ! ’ . ‘ من الناحية دى اطمئنى خالص ، هو ما بيحسش أصلا ! ’ .

تستطرد فى سرد بعض ذكرياتها عن أختها . على العكس منها التى أصبحت سيدة مزرعة ريفية ، بقيت ماديلين فى شبرا ، وصممت على الاشتغال كسكرتيرة فى بنك والدها . كانت كفاءة مشهودة . السكرتيرة لها تعريف مختلف فى ذلك الوقت . من secret فعلا . توضيب الأوراق . تعرف مكان كل ورقة . تكتب بسرعة ٧٠ كلمة فى الدقيقة . دلوقت بقت السكرتارية تخصصات ، زمان كانوا بيعملوا كل حاجة .

عند هذه النقطة ينسل ضهرى فى صمت ، وإذا به يعود بآلة كاتبة عتيقة للغاية . يروى أن أجمل شىء فى طفولته كان رحلة شبرا من أجل الكتابة على آلة خالتى فى المكتب . فجأة وجدتها اشترت واحدة فى البيت . لم أفهم لماذا . لم تكن تشتغل عليها . فهمت أنها من أجلى ، كى أداوم على الزيارة ، وفى نفس الوقت كى لا أسبب لها حرجا فى المكتب . ذات يوم فككتها قطعة قطعة . لم يكونوا يضربوننا . عقابى أن حرمت من زيارة شبرا أسبوعين . فوجئت بها بعد يومين تحضرها لى إلى هنا ، وتهديها لى . غالبا تخيلت قدر حزنى ولم تستطع الصبر حتى انتهاء العقوبة . ومن ساعتها كانت تحضر عندنا بانتظام . يضيف أنه حاول لسنوات تعلم الكتابة باللمس مثلها ، لكنه فشل . ذهب لمكتب ليعلمه إياها ، كان المعلم يمسك فيه رأسه بالقوة ويرفعه لأعلى للورقة ، لكن فشل . وحتى اليوم لا أزال أكتب بإصبع واحد . هذا بينما منى منذ الرابعة وبمجرد تعلم القراءة الكتابة ، تستخدم لوحة المفاتيح الحاسوبية بالأصابع العشرة وبدون النظر إليها . ‘ إزاى ده ؟ لم أكن أتخيل ! الكتابة باللمس بدون أى تعليم إطلاقا ، وكأنهم يولدون بها . إن العوم وسواقة الدراجة نفسيهما اللذان يبدوان أقل تعقيدا ، يحتاجان لتعليم . بصراحة ، كانت أكثر لحظة حقدت عليها فيها ! شعرت أنه لم يعد لى قيمة فى الحياة ! ’ . ثم يستدرك : ‘ صحيح أنا أول مرة شغلت فيها ملف موسيقى على الجهاز سألت لماذا لم تظهر صورة الفرقة الموسيقية ، بعيد عنكم التليڤزيون مسيطر على ، إنما أنا اتعلمت الكمپيوتر بسرعة أكتر من البت دى ومن ألف غيرها ! ’ .

بينما تبدى ميرڤت اهتماما شديدا بتلك الآلة العتيقة ، لا يتمالك وحيد نفسه من الضحك ، ويروى أن جده لأمه أصبح مديرا فى ستوديو مصر لأنه فى طفولته فك آلة السينما التى كانت فى منزل أبيه . وردا على كلامه تصر ماريلين على أن يأتى ضهرى بالمذياع القديم الضخم ، وتروى قصة عن أبيها -حارس غوطة- الذى أصيب ذات مرة بالحمى المخية الشوكية ، وأنها -لحسن الحظ- لم تفقده إحدى أو بضع حواسه كما المعتاد ، فقط أفقدته ذاكرته لتسعة شهور ونيف . كنت أجلس بجانبه حين تذكر أول شىء ؛ لم يتذكرنى أنا أو أى من أفراد العائلة ، فقط أشار لهذا الراديو وقال : ‘ محطة لندن ٤٢٠ مترا ! ’ . تتوالى التعليقات المازحة عن الدماء الإنجليزية العريقة فى هذه الأسرة ، لكن وحيدا أبدى هذه المرة تفهما عميقا لقصتها ، وراح يحكى عن تعلقه هو نفسه بالإذاعات الغربية فى طفولته .



ربما تصوروا ‘ الست الحاجة ’ شيئا مختلفا

تأتى إجلال فى إثر ضهرى ، تحيى الكل فردا فردا ، وباهتمام شديد للتعرف عن شىء عنه ، وظيفته ، أسرته ، وما إلى ذلك . ثم تدعوهم لجولة للتعرف على المزرعة . ينبهرون بها هى الأخرى ، يلاحظون أنها أيضا -كما حماتها- تنتمى هيئة وسلوكا لعهد الأرستقراطية القديم . لبقة الكلام مجاملة ومضيافة ، لكن تختلف عن حماتها فى شيئين على الأقل ، كلامها أكثر طبيعية وألفة وقربا لكلام عموم الناس ، والشباب المتجدد . لحد كبير ربما تصوروا ‘ الست الحاجة ’ شيئا مختلفا ، فإذا بها البهاء نفسه ! من غير المستبعد مثلا أن توقعها بعضهم محجبة ، فإذا بها هانم بيضاء طويلة ملفوفة القوام وكأنها إحدى نجمات أفلام القصور الثرية فى سينما الأربعينيات المصرية . ذات خصر دقيق وبقية جسد تغطيه طبقة من الدهن الناعم تضمن له انسيابية واستدارة تقوساته الصارخة ، وينم عن غنى جسدها البض بالأنوثة والهورمونات . كل هذه المكونات الطرية تحت جلد مشدود نقى يفيض بلون الصحة الوردى . أنيقة الملبس ظهرت ببنطلون ضيق منحسر حتى منتصف الساق ، وبلوزة مشدودة من ذات لونه الوردى تكشف عن ذراعتين متناسقتين قويتى الملامح ، تماما كما أسفل ساقيها . بدت كلها كمشهد متناسق لونيا فيما بين بعضه البعض ، وفيما بينه وبين تلك اللبدة الحمراء الضخمة التى تغطى الكتفين . لأول مرة فهموا كلمة الحاج التى يرددها دوما كلما جاءت سيرة النساء ‘ الست ما تعتبرش

ست إلا لو كانت لابسة كعب عالى وشعرها بيغطى أكتافها ! ' . وأضاف عليها اليوم ' أنا أحب الشعر الهائش . أبى ولع بأمى بسببه ، وأنا ورثت عنه هذا الميل ! ' .

بدأت التعليقات بأن حياة الطبيعة ككل هى سر وجهه المتورد . ثم بدأ بعض الكلام الدينى المأثور مسيحيا ومسلما عن الزوجة الصالحة . وتدريجيا اتجه الحديث للتلميحات الجنسية ، من ونس وروميو كالعادة . تكلم ونس عن أن سر شباب عم ضهرى الدائم وهدوء طباعه أنها أشياء لا يتمتع بها إلا من استمتع فى نومه الليلة السابقة . روميو يقول أنا لو منك ما أسيبش القناطر دقيقة واحدة . فيرد ضهرى ' أنت فاهم غلط ، القناطر هى إللى موش فاضية لى . إجلال رئيسة جمعية واخدة معظم وقتها ، وبترجع البيت زى ما أنا بأرجع بالظبط ' . ثم يبدأ فى الشرح أن الزواج السعيد أن لا تتزوج كل القبيلة فى فراشك ، أن يكون الرجل والمرأة ملكا لبعضهما البعض . يؤمن إدوارد على كلامه أن السيطرة وتفرد القرار وحب النكد هى آفة أى زواج . وطبعا كان لمنى رأيها ' طلباتكم دى مستحيلة ' . وراحت للمرة الألف تسرد إحصاءاتها المملة عن أن ثلاثة أرباع السكان فى أميركا يسكنون فرادى ، لا زواج ولا حتى خلانية ، مستقيمة أو مثلية ، ولا حتى حضانة طفل ، فقط فرادى على وجه الإطلاق .

على سبيل المجاملة للمضيفة الكريمة إجلال يزل لسان أسد مادحا الأصول التركية لأسرة مُحَمَّد على ، وهنا تنفتح عليه أبواب جهنم من الجميع ، لا سيما من صديقيه المقربين ومن المسيحيين من بقية الحضور : ' مُحَمَّد على ألبانى يا جاهل ! ' ، ' تركيا هى العدو رقم ١ لمحمد على وكل أبنائه العظام ، ولم يكرهوا شيئا قدر كراهيتهم لها ولتخلفها ونهبها لثروة مصر لأنفسهم فى تركيا ! ' ، ' دول إللى استقلوا بمصر عن تركيا يا حمار ' ، ' الحق موش عليك ! أصل علموك فى المدارس أن مصطفى كامل بطل الاستقلال ، بينما لم يكن يريد سوى إعادة تبعيتنا لتركيا ' ، ' فى رأيى إللى اتولد فى مصر وأحبها وأحب العيش فيها وتعميرها لا يقل مصرية عنى شخصيا أو عن أى مصرى ' ، ' ده حتى ما يعتبروش مسلمين لأن مُحَمَّد على لا تفصله سوى أجيال معدودة جدا عن أجداده المسيحيين ' ، ' صحيح ! إزاى يعملوا كل إللى عملوه من بناء وتعمير وهم مسلمين ؟ ' ، ' صح ! المأمون -الوحيد إللى بيتباهوا به من الخلفاء أنه متحضر- كان كافر وكل رجالته يهود ومسيحيين ! ' ، ' إنه الدين والچيين يا غبى ! ' ، ' خد عندك مثال الملكة نازلى . جدها هو الكولونيل سيف -سليمان الفرنساوى مؤسس جيش مُحَمَّد على أول جيش مصرى من أيام رمسيس- وجدتها مرأته اليونانية ، ولذا ارتدت للمسيحية وهى ملكة مصر وأم ملك مصر ! ' . وينهى وحيد النقاش بتدخله فيه : ' المعيار المهم يا أسد فى الحكم على أى ممن حكموا مصر هو الحداثة : هل كان يبنى داخل مصر ولأجلها ، أم كان هدفه مجرد النزح على الجاهز لمرجعيته الأصلية خارجها ! ' .



يقولون عن الزواج المسيحى إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان .

من قال إننا نريد إنسانا ليفرقه ؟ نحن نريد أن نفرقه بنفس الطريقة التى جمعته بالضبط !

هذا اليوم الذى اجتمعت فيه سبع ستات ، إجلال وأم ضهرى ومنى كصاحبات البيت ، وسماء وسوسن وميرفت وألطاف كضيفات ، أصبح مناسبة نسائية لاستكشاف النساء . من هنا استغرقن طويلا فى تحليل مشكلة زوجة إدوارد ، والمدهش أن لم تكن هناك اختلافات كبيرة بينهن رغم تفاوت السن والثقافة والطبقة والخلفية الدينية ، وحتى بمراعاة أن لسن جميعهن يتحدث عن امرأة قابلها ، فقط سمع عنها أو عرف شخصية شبيهة ! لماذا هى نكدية ؟ بل هو مرض الولع بحياة القلق والتوتر الدائمين ، هكذا اتفقن . لا تمر عليها خمس دقائق متواصلة ، دون أن تثير موضوعا يسبب الخلاف . الهدوء والسكينة والعيش فى سلام يوحيان لها بأن ثمة شيئا خاطئا حولها . هل هو ضعف شخصية يؤدى للمراهقة والعناد ؟ هى تعارض كل شىء ، وبحدة ، وأيا ما كان ، والسبب أن ليس لها رأى ، فقط تريد أن تتأكد أن إدوارد أو غيره واثق من ذلك الشىء . وهى طريقة تمثل استنزافا عصبيا كبيرا له ولكل من يعرفها . أيضا تحدثن عن السيطرة . قلن إنها شىء طبيعى كرغبة إنسانية ، لكن الزواج يجب أن يكون شراكة متساوية . لو فكر أى من الاثنين فى السيطرة ، لانهار ، أو لم ينهر لأصبح اسمه شيئا آخر غير الزواج . وتسخر ماريلين : ' يقولون عن الزواج المسيحى إن ما جمعه الرب لا يفرقه إنسان . من قال إننا نريد إنسانا ليفرقه ؟ نحن نريد أن نفرقه بنفس الطريقة التى جمعته بالضبط ! ' . وكالعادة لا تتورع الصغيرة منى عن إدعاء الحكمة فوقهن جميعا : ' العلاقة بين أى اتنين من البشر أصبحت مستحيلة . ليس الزواج فقط ، إنما أية علاقة بين اثنين ' . هنا دب الخلاف بينهن ، وطبعا ثرن عليها مجتمعات : ' وبماذا إذن تسمين اجتماعنا هذا ؟ ' .

ينضم إليهن الباقون ممن اختاروا المزيد من استطلاع المكان ، مداعبين بقيادة ونس ، آملا بألا تكون ثمة مؤامرة نسائية ما قد حيكت ضدهم ، وبعد طول إلحاح انتهى الأمر بونس يغنى إللى شبكنا يخلصنا . عموما ، فى سياق الرد على تساؤلاتهم يعرفون من إجلال أنها رئيسة ' جمعية القناطر الخيرية ' . وهى اسم على مسمى ، جمعية خيرية تنشط فى مجالات متعددة تتراوح ما بين المحافظة على جمال الإقليم حتى مكافحة ختان الإناث . هنا يذهلون لمعرفة أن إجلال ابنة إحدى أميرات أسرة مُحَمَّد على . ولا يفوت وحيد الفرصة لمناغصة ضهرى : ' أنت رحت وقعدت قدام واحدة أميرة ، وقلت لأبوها أنا عاوز أخطب بنتك ؟ ! ' . تتدخل الحماة على الفور ' هو ضهرى قليل ؟ بعدين أبوها موش أمير ولا حاجة ، أمها بس ، وكانت أميرة سابقة ! ' . تنظر لها إجلال مبتسمة بعتاب ، فتستدرك : ' بصوا ! بصراحة كلهم ناس أطيب من بعض . إجلال دى بنتى . بعد يسرى إللى اختفت وما حدش بيشوفها حتى فى الأعياد ، إجلال دى بنتى ! ' . وتردف متسائلة ' هى يسرى موش جاية النهارده يا ضهرى ؟ ' . وتتحول لتدارى إحباطها من عدم أجابته : ' إنما أميرتنا كلنا هى منى ، ما فيش كلام ! ' .



الچيبنات المصرية قابلة فقط للتحسن لا للتدهور ،

والتحسن فقط بالانتخاب الطبيعى لا بالتهجين -لاحظ ،

لأنه يفترض أنها الأفضل لأنها منبت الحضارة وجذر كل القومية الحضارية عبر العالم .

هكذا تصميمها ، وهو أحد أسرار عظمة وخلود مصر وشعب مصر !

لم يكتشف أحد أن ضهرى قد سافر للأسكندرية وأحضر خنزيرا يافعا متوسط الحجم ، إلا حين وجدوه منصوبا بالفعل فوق مشواة ، وضهرى يدعوهم لمتابعته والمشاركة كلما لزم الأمر فى لف محورها أو رعاية الفحم المتقد تحته . بهر جميعهم بالمنظر وبالرائحة وبملاحظات ضهرى المتكررة حول خلوه من الدهون ، لدرجة أن صمموا أن يصرف النظر عن شى السمك الذى اصطادوه . أيضا بما أنهم باتوا خبراء بنوعية النقاشات التى لا تنتهى بين وحيد وضهرى ، فقد افتعلوا واحدة ، يعرفون سلفا ما سيقول كل طرف فيها . رزق الذى لا يتدخل أبدا فى النقاشات ، لكنه يفتقدها حين لا يجدها ، كان هو من أشعل الفتيل هذه المرة : ' أنت بتقول فيه رقابة جامدة على دبح الخنازير يا حاج ؟ ! ' . ويلتقط ضهرى الطعم بتلقائية وحسن نية : ' طبعا ، أنا كنت بأشرف على الحاجة مظبوط فى مزرعتى ! ' ، ' أنا قصدى رقابة الحكومة ' ، ' طبعا ، فى كل حتة لازم من الرقابة علشان الحاجة تطلع نضيفة ' . ولا يجد وحيد مفرا من تكرار إثبات شىء طالما حرص على إثباته : ' أنت شخصيا بتأكل دلوقت اعتمادا على رقابة الحكومة ، ولا اعتمادا على سمعة صاحبك بتاع الأسكندرية ؟ ' . وتتوالى التعليقات التى تتملق الطرفين : ' إحنا لا نعرف الحكومة ولا نعرف الراجل بتاع الأسكندرية ! ' ، ' إحنا ها نأكل على ضمانة عم ضهرى وبس ! ' .

يخرج وحيد زجاجات النبيذ . يذكر من أين اشتراها ، وبالتالى يذكر نبيل . إدوارد ومينا أتوا بثلاثة شيلان حريرية لكل من ماريلين وإجلال ومنى . يخرج الباقون هدايا متنوعة ، أغلبها كان موجها لمنى تقبلتها بسعادة وشكر . رقاقات فلاش لأفلام وبرامج حاسوبية من عارف وصديقيه ومن سامر وميرفت . دمية خنزير من روميو وسوسن ، احتضنتها منى بحرارة ، وضحكوا لها جميعا ، بينما روميو يقول لضهرى : ' كنت متأكد أنك ها تسافر الأسكندرية ، إنما قلنا برضه نجيب ده احتياطى ! ' .

انتظارا لانتهاء الشواء ، يشرع الجميع فى احتساء النبيذ . ويثنون على نوعيته ، ويجترون الكثير من ذكريات نبيل . أعدت إجلال بمشاركة ألطاف أطباقا من السلطة الخضراء ، شملت عددا هائلا من الخضروات المتنوعة التى جعلت منها كرنفالا لونيا ، خس الكابوتشى الذهبى والفجل الأحمر والكرنب الأرجوانى والبنجر القرمزى وقنبيط البروكولى داكن الخضرة والتوت الأزرق والفلفل الرومى الأصفر ، وطبعا طماطم وردية وخيارا أخضر وغيرها كثير . أما النقط السوداء الدقيقة المطبوعة كما النمش فوق كل قطعة من هذه القطع الصغيرة ، فهى أوراق نعناع أخضر ، جففت وطحنت بعناية كبيرة . تزاحموا على تقطيع الخنزير ، ولم يظهر أى منهم أية مهارة حقيقية ، إلا ضهرى بالطبع . تجمعوا حول مائدة طويلة ، ولم يكفوا طيلة تناول الطعام على الثناء على كونه أشهى أكلة تناولوها فى حياتهم .

تأتى المانجو الموعودة بعد الغداء ، معدة بأكثر من طريقة ، تقطيعا وعصيرا وأيس كريم ... إلخ . منى كانت قد رفضت كل ذلك ، وأخذت ساندويتشا أعدته أمها لها ، وكأنها تعرف رغبتها سلفا ، ومعه راحت تشرب علبة كوكا كولا معدنية . حين تفرغ منها يلتقطها والدها ، ويتفحصها (طبعا بغيظ داخلى تداريه ابتسامة تهكمية) ، ثم يقول ' عارفة إيه أول حاجة ها أعملها بعد ما تشترى العربية ؟ ها آخدك فوق كوبرى أكتوبر

وها أخليكى تفكى الأربع عجلات وتركبيهم تانى ' . ينفجر القادمون والقادمات من رمسيس فى نوبة ضحك عارمة ، ومنى والآخريات -بمن فيهم ألطاف- يتملكهن الاستغراب ، فيبدأ أولئك فى الشرح لهن ' دى حاجة الحاج كان نفسه يعملها مع حد من زمان ، إنما لسه ما جاتلهوش الفرصة ! ' ، هذا بخلاف بقية القصة . أما إجلال فتسحب ألطاف معها للداخل ويعودان ببعض أطباق من لباب المانجو المطعم بالمكسرات . طبق اخترعتاه من وحى اللحظة ، قصة البى إم دبليو !

تسود الأجواء لحظات من الصمت العميق ، الصمت الذى ذكر الجميع بشىء واحد : نقاشات وحيد وضهرى التى لم تكن لتهدأ ولا تتوقف إلى أن عصف بها طوفان اكتتاب البنك الأهلى ، ومن بعده انتظام القاعة فى زحام يومى لم تعتده يوما . السؤال كان فقط : من الذى سيبادر ويستأنفها ، وبماذا ؟

– (بغضب فجائى ، والغضب كالعادة يعيد له لهجته الريفية القح وعشوائية حركة ذراعيه :) عارف أنا بكرة ها أعمل إيه ؟

– كومبريسور وبوتاس ؟

– لأ ! شنيور . شنيور هيلتى ودقاق كمان ، زى إللى بيخرموا بيه علشان توصيلات الغاز فى البيوت . لازم البطاس يوصل لجوه خالص علشان يقتل كل الڤيروسات إللى معششة فى مخك دى ! إيه إللى قلته عن مصر ده ؟

– أنا ما قلتش حاجة ، أنت إللى كنت بتتكلم .

– لأ ، قلت ! قلت كلمتين فيهم السم كله : الفرعونية موش حضارة ، كئيبة ، وأم الدين ، ومخترعة أسوأ اختراع فى التاريخ .

– أنت لسه فاكر ؟ ! ده أكبر دليل أنك عربى موش مصرى : ما بتنساش تارك أبدا !

– أنت كنت عاوز تقول إيه تانى أكتر من كده ؟ ! لعلمك الحياة فى مصر القديمة كانت حياة بهيجة جدا .

– أشك فى هذا !

– أنت مين علشان تشك أو ما تشكش ؟ أنت حتى ما زرتش الهرم ؟ أنت متأكد أن الجنود الرومان إللى قالوا على المصريين متجهمين شافوا مصريين فعلا ، ولا إللى شافوهم فى الدلتا هم الفرس المحتلين أو البدو الآسيويين ؟

– هأ ! هو أنا اللى كنت باستشهد بجيبون ؟ أنا إللى قلت المصريين لما يضحكوا يقولوا ' اللهم اجعله خير ! ' ؟ أنت ما بتبتش على رأى واحد أبدا ؟ ! أكيد ونس له رأى فى الموضوع ده ، موش ده برضه الرعب من إله الإسلام ؟

– سيبك من تشتيت المواضيع ده . أنا قارئ ألف كتاب فى الموضوع ده . ولما أقول لك حياة مبهجة تبقى حياة مبهجة . كفاية يا أخى الملابس الشفافة بتاع الستات ! كفاية يا أخى شم النسيم ! كفاية يا أخى وفاء النيل ! دى موش احتفالات بالحياة ، ولا برضه احتفالات بالموت ؟ ! حتى الاحتفال الدينى بتاع ٢٦ مايو بتاع مراكب الشمس واستقبال رع ورحلة العالم السفلى ، كان احتفال شعبى بهيج ضخم . دى الناس إللى اخترعت أصلا حاجة اسمها احتفالات جماعية لكل الشعب ! ها تقول لى عيد العمال أول مايو كان أصلا شم النسيم بتاع أوروپا ، صح ، إنما شوف ابتدأ سنة كام ، وإلهة الزهور الرومانية فلورا الحفيدة رقم كام ألف لأم الأمهات ذات العشرة آلاف اسم ، إيزيس ؟ كمان قلنا لك المصريين موش عرب ، يعنى چيبيناتهم أفريقية ، وأظن الأفارقة حرية جنسية ما فيش بعد كده ! (ويستدرك :) بل هم أحسن عرق أفريقى ، بل هم عرق قائم بذاته ، هو أصل كل أعراق الحضارة .

– حرية جنسية ؟ برضه أشك ! أنت جاى تقول لى أنا الكلام ده ، روح قوله لواحد صعيدى وشوف ها يعمل فيك إيه ؟ ثم إنهم أحسن عرق موش علشان أصلهم الأفريقى ، إنما علشان تخليط كل چيبينات الدنيا جواهم .

– عرفت منين أن الچيبينات اختلطت ؟ ! عملت تحاليل قالت لك كده ؟ ! هه ؟ !

– فيه مصريين مسيحيين فيهم كل صفات العرب ، تقول إيه مثلا فى مرقس الفهلوى أو فى زوجة إدوارد الپارانوية المتذمرة ؟

– موش كل الصفات ؛ أى نماذج استثنائية من المصريين الأصليين تراها قبلية أو محتالة أو مسعورة بالجنس أو بنظريات المؤامرة أو ... أو ... ، برضه موش ها تلاقى فيها العنف ، وأتحداك .

– وهو العنف وحش ؟

– وحش لو فى الشر والتخلف . إللى بتتكلم عليهم دول اسمهم تطفرات ، وكل مجتمع فيه الكويس والسيىء وكل الصفات . يا عزيزى ، انظر للصورة كاملة ؛ حتى يكتمل علم الچيينات ليس لدينا إلا الإحصاء وما هى الطباع الغالبة على مجتمع معين وأيها يمثل الأقلية (تماما زى فرويد ما قال حتى يكتمل علم فيسيولوچيا المخ ، ليس لدينا إلا صنع النماذج التخيلية ، كالشعور وتحت الشعور والأنا والهو ... إلخ) . المسألة ككل محدودة ومحصورة أكثر مما تتخيل ، ولحسن الحظ أن من طبيعة أغلب الچيينات فى البيولوچيا عامة أنها لا تميل كثيرا للاختلاط ، فما بالك إذا كانت خصيصة خاصة جدا لدى القبائل العربية بالذات . هم يقولون إنهم يرمون بناتهم للتمساح ، لا بأس ، لكن المصريين أيضا يرفضون تزويجهم بناتهم لأنهم يعرفون أنهم سيتزوجون عليهن وسيضربوهن وأن كل ما يحدث فى الفراش سوى يرويه عنترة على المقهى فى اليوم التالى . أغلب الناس دى موش مواطنين أصلا ، عايشين من غير شهادات ميلاد أو بطاقات شخصية ولا يدخلون الجيش ، فإزاى يتجوزوا مصريات ؟ لا تقس على واحد مثلى ، نحن شىء استثنائى جدا ، مع ذلك كلكم بلهاء ، وأنت طوال الوقت تستفزنى بكلمة ارسى على بر ، معتقدا أن سببها اختلاط الچيينات فى عيلتنا ، ولا تعرف أنها أكبر دليل على أن چيينات مصرية نقية لأبعد مما تخيل ، ولسنا -أنا ولا إخوتى- الطفرة ، إنما على الأقل أبى ، لم أجد فيه شيئا يشبهه مع أبناء عمومته .

– (روميو متداخلا :) جايز الچيينات الإنجليزى هى إللى كتمت نفس الچيينات العربى عندكم ، فما فضلش غير الچيينات المصرية . هأ ! هأ !

– وليه ما تقولش أن الچيينات الدخيلة تكون أحيانا أشبه بمصل يزيد من مناعة چيياناتنا المصرية ؟ دى علوم ، موش كلام يحتمل الهزار . ثبت عامة أن الچيينات الأفريقية تميل لأن تكون سائدة ، وفى حال الاختلاط تتنحى الچيينات الأخرى عربية أو بيضاء أو غيرها ، لكن فعلا الچيينات الإنجليزية بالذات تتسيد ، وأخونا وحيد مثال واضح ، أما الچيينات العربية -مهما أسموها بالنطفة الشريفة- فلحسن الحظ أيضا ، هى ضعيفة ومتنحية . يعنى بعبارة أخرى : الچيينات المصرية قابلة فقط للتحسن لا للتدهور ، والتحسن فقط بالانتخاب الطبيعى لا بالتهجين -لاحظ ، لأنه يفترض أنها الأفضل لأنها منبت الحضارة وجذر كل القومية الحضارية عبر العالم . هكذا تصميمها ، وهو أحد أسرار عظمة وخلود مصر وشعب مصر !

– (يواصل روميو مستعرضا بعض ثقافته السياحية :) القومية الحضارية ؟ إيلليوت سميث ده يا مرسى ؟ هأ ! هأ ! هأ ! ولا جايز إيلليوت بتاع الشعر بتاع عم وحيد ؟ هأ ! هأ ! هأ ! أو موش جايز إيلليوت بتاع منحنيات البورصة بتاعنا إحنا يا ونس ؟ هأ ! هأ ! هأ !

– (لا يلتفت له ويوجه الكلام لوحيد :) إيلليوت سميث مين ؟ القومية الحضارية ده مصطلح طلع لوحده على لسانى دلوقت حالا ! ... إيه يعنى ؟ بقيت عنصرى زيك يا سيدى !

– عامة يا حاج كلامك موش مظبوط ! فيه مسيحيين سلوكياتهم زى العرب بالظبط : التهليب ، التوحش ، الغدر ، التزمت ، العنف ، الشهوة الجنسية الزائدة ، الانتماء للأسرة الأصلية وعدم الانتماء للأرض أو للوطن أو حتى للأسرة التى تكونت بالزواج . يعنى هل تعتبر مثلا مرقس مصرى حقيقى أو زوجة إدوارد مصرية حقيقية ؟ !

– حالات فردية جدا ! ده أكتر موضوع تأملت فيه فى حياتى . لو نظرت لأسرة كل من هؤلاء ستجد أنهم شواذ ومختلفون جدا عن الأب والأم وعن بقية الإخوة والأخوات ، والأهم من هذا ألف مرة أن تنظر للأبناء والبنات ، فتكتشفت أن تلك الصفات اختفت فجأة ، تماما كما ظهرت فجأة . ثم على أية حال نحن لا ننكر أثر الثقافة والأفكار وغسيل المخ . عادة أثرها مؤقت لكن ليس كل واحد يستطيع أن يكتشف أن الأفكار التى اعتنقها أو السلوكيات التى اكتسبها تناسب طبيعته الداخلية ، وإلا لما كانت هناك حاجة لأطباء نفسيين بالمرة . المهم فقط أنها لا تورث طالما هى دخيلة أو أتت بالاكتساب . أو راحت فين الهجرات المسيحية الواسعة لمصر من الشرق عندما ازهرت اقتصاديا وتسامحت دينيا أيام أسرة مُحَمَّد على ، فى وقت كان الأقباط -أقصد المسيحيين الأرثوذوكس- فيه -حسب تعداد الحملة الفرنسية- إلى شبه انقراض حتى بمعايير مصر الحالية . (يشيرون إلى إجلال مبتسمين مجاملين ، ويشير هو إلى ماريلين :) أنا أم أمى أرمنية ، لكن الهجرات شملت فى نفس الوقت الكثيرين من أعراق أخرى ، منها العرق الكارثى : الساموى (مثلا ، أنا شخصيا لا أعتبر صدام حسين قد أخطأ كثيرا عندما أشهر إسلام ميشيل عفلق بعد موته !) . إذن ، هذا يعنى أن المسيحى فى بلدنا لا يجب أن يأخذ مصريته كإحدى المسلمات ، ويجب أن يعلم أن أغلب ' مسلمى ' (بين قوسين) مصر لا يقلون مصرية عن عموم مسيحييها ، ومن هنا أظل أقول دوما بإن التحاليل الچيينية التى تدق الأبواب الآن هى الفيصل الوحيد

حتى لا يظلم أحد ، وساعتها قد يثبت أن شخصا مثلى قد يكون أكثر مصرية من إدوارد مثلا . وطبعا عامة ها يروح فين احتمال التطفر ، أو تروح فين الصفات المتنحية . كونها متنحية لا يعنى أنها مندثرة ، هى موجودة وتحت تباديل معينة ممكن تظهر فى حالات محدودة ، الفارق أنها لن تصبح أغلبية أبدا . عامة أنت لا يمكنك التحكم فى كل العوامل ؛ دى بركة چيينية كلها حركة وصراعات ، موش جهاز كمپيوتر ١ + ١ = ٢ . لذا ما يهمنا هو فقط النتيجة الإحصائية الإجمالية ، وأن السمات العامة كذا وكذا ، وعرقيا غالبية السكان هم كذا ، وكلها أمور قررتها وتقررها قوانين الانتخاب الطبيعى ، والنتيجة أن تطور فعلا ما استحق التطور وانقرض ما استحق الانقراض ، والواضح تماما لأى أحد أن مصر القديمة لا تزال حية جدا لليوم ، لأنها أقوى من معظم الچيينات الأخرى ، وبالأخص السيىء منها .

ويولول إدوارد كعادة المسيحيين : ' أنت نسيت خطف أو اغتصاب العرب للقبطيات فى الماضى ، والذى لا يزال مستمرا لليوم ' .

يرد الحاج بحسم : ' لو اختطفت قبطية فقد اختطفت ، ولو أغتصبت فسيعود العربى ليأخذ الطفل بعد سنة . فى كل الأحوال كل النسب الناتج انضم بالفعل لقبيلة الأب ، وستجده اليوم دخل فى أنسابها . بالتالى الجميع يدخل فى إطار الأقلية العربية الحالية على أرض مصر . العرب لم يتغلغلوا فى مصر كما تبدو لك الصورة من صوتهم العالى ' .



– هل تقصد أن الحرب المستعرة فى الصعيد ليست حربا بين مسيحيين ومسلمين إنما بين مصريين وعرب ؟ !

– أقصد أنها حرب بين چيينات ؛ كل الحروب فى التاريخ حروب بين چيينات !

– كيف ترى إذن يا حاج موجات ترك الإسلام للمسيحية التى تجتاح مصر الآن ، هل شىء إيجابى أم شىء لا ينبىء بأى خير ؟

– الچيينات هى الفيصل يا دكتور أرسطو ! (ثم ضاحكا :) لا تجزع هكذا ! شىء كهذا سيؤدى لاستقرار أكبر للبركة الچيينية . الغزو العربى هو الذى كان غسيلا قسريا للمخ فرض على الناس أشياء مضادة للطبيعة المصرية ، وما يتم الآن هو غربلة لهذه الچيينات ، بحيث سيتمايز من لديهم غلبة للچيينات العربية عن بقية المصريين ، الأقلية سيتمسكون بالإسلام الأصولى والأغلبية سيحاولون العودة لأصولهم الصوفية وليس تحت مسمى المسيحية بالضرورة ، أما من ولد بچيينات علمانية فسيعلن علمانيته بلا خوف من أحد .

– هل تقصد أن الحرب المستعرة فى الصعيد ليست حربا بين مسيحيين ومسلمين إنما بين مصريين وعرب ؟ !

– أقصد أنها حرب بين چيينات ؛ كل الحروب فى التاريخ حروب بين چيينات !

ويؤمن ونس على كلامه : ' كما قلت لك من قبل يا صديقى : الأحقاد المتبادلة تورث للأطفال ٢٤ ساعة يوميا فى صمت ! ' .



كما أن العرب من الإعراب أى الانكشاف ، أى سكان العراء ، أو من لا مستقر لهم (المصريون يطلقون على السيارة عربية) ، فإن البدو من البداءة ؛ أى فى كلتا الحالتين يقصد بهم تلك الثدييات دون-الإنسانية ، أو حتى دون-الحيوانية فى كثير من الصفات . أقل هذا شهوة ذكورهم التى لا تنطفىء بسبب أعضائهم التناسلية السوداء الضخمة المتهدلة ، التى جاءتهم هجينا من كثرة استنكاح نسائهم للإبل ، وفى ذات سبب شهوة نسائهم ' القماطة ' التى لا تهدأ أبدا ، وسبب الانتشار الفاحش للمثلية الجنسية رجالا ونساءا حيث فرص الإشباع ربما أفضل قليلا ، وقطعا أقل مهانة ، ذلك بينما أعضاؤنا نحن وردية دقيقة حادة قوية ورثناها عن الإله من أو كتلك التى تراها فى لوحات وتماثيل الغرب قديمه وحديثه . ومثلا نحن سيداتنا تيجان رءوسنا -فى الحياة العمومية والأسرية ، كما فى السرير- لأن مصر كانت مجتمعا أموميا وليس بطريركيا ، إلى أن دوهمنا بغزوات الهكسوس وأشباههم من البدو فاضطرنا للعسكرة ولبناء إمبراطورية ، فتخلينا عن بعض حياة الوداعة والسكينة فارتفعت قيمة الذكور بعض الشىء ، وإن -كما ترى- ظلت للمرأة سلطة هائلة حتى اليوم لا سيما فى الصعيد ! ... باختصار : كل أمراض مصر الاجتماعية والاقتصادية سببها تلك الأقلية العربية المقيمة على أرضها ! ... شاهد أى برنامج تليڤزيونى سياسى أو دينى أو اجتماعى أو فنى أو أى شىء ، أو اذهب وجالس أى أحد من أى من مراحل العمر فى جامعة أو ديسكو كلوب أو مصطبة ريفية أو مقهى أو صالون حلاقة ، أو استمع لأى رجال أو نساء يتناقشون فى العلاقات الزوجية أو كيفية تربية الأطفال ، أو ربما يكفيك تأمل ما يجرى على شاشة البورصة ، وسوف تدرك ساعتها أن أرض مصر الطيبة المسالمة هذه ، لم ولن تعرف فى تاريخها إلا صراعا رئيسا واحدا : الصراع المصرى-العربى !

– كما أن العرب من الإعراب أى الانكشاف ، أى سكان العراء ، أو من لا مستقر لهم (المصريون يطلقون على السيارة عربية) ، فإن البدو من البداءة ؛ أى فى كلتا الحالتين يقصد بهم تلك الثدييات دون-الإنسانية ، أو حتى دون-الحيوانية فى كثير من الصفات . أقل هذا شهوة ذكورهم التى لا تنطفىء بسبب أعضائهم التناسلية السوداء الضخمة المتهدلة ، التى جاءتهم هجينا من كثرة استنكاح نسائهم للإبل ، وفى ذات سبب شهوة نسائهم ' القماطة ' التى لا تهدأ أبدا ، وسبب الانتشار الفاحش للمثلية الجنسية رجالا ونساءا حيث فرص الإشباع ربما أفضل قليلا ، وقطعا أقل مهانة ، ذلك بينما أعضاؤنا نحن وردية دقيقة حادة قوية ورثناها عن الإله من أو كتلك التى تراها فى لوحات وتماثيل الغرب قديمه وحديثه . ومثلا نحن سيداتنا تيجان رءوسنا -فى الحياة العمومية والأسرية ، كما فى السرير- لأن مصر كانت مجتمعا أموميا وليس بطريركيا ، إلى أن دوهمنا بغزوات الهكسوس وأشباههم من البدو فاضطرنا للعسكرة ولبناء إمبراطورية ، فتخلينا عن بعض حياة الوداعة والسكينة فارتفعت قيمة الذكور بعض الشىء ، وإن -كما ترى- ظلت للمرأة سلطة هائلة حتى اليوم لا سيما فى الصعيد ! ... باختصار : كل أمراض مصر الاجتماعية والاقتصادية سببها تلك الأقلية العربية المقيمة على أرضها ! ... شاهد أى برنامج تليڤزيونى سياسى أو دينى أو اجتماعى أو فنى أو أى شىء ، أو اذهب وجالس أى أحد من أى من مراحل العمر فى جامعة أو ديسكو كلوب أو مصطبة ريفية أو مقهى أو صالون حلاقة ، أو استمع لأى رجال أو نساء يتناقشون فى العلاقات الزوجية أو كيفية تربية الأطفال ، أو ربما يكفيك تأمل ما يجرى على شاشة البورصة ، وسوف تدرك ساعتها أن أرض مصر الطيبة المسالمة هذه ، لم ولن تعرف فى تاريخها إلا صراعا رئيسا واحدا : الصراع المصرى-العربى ! إن حتى أصغر الصراعات إطلاقا هى صراعات چيينية ، فما بالك بنظرتين متكاملتين كليتى الاختلاف للكون وللإنسان . أنت نفسك حين كتبت تهاجم الاقتصاد الإسلامى يوما ، كنت فى الواقع تدافع عن چيناتك الأنجلو-ساكسونية ، لا أكثر ولا أقل ! كل ما هنالك أن الصعيد مكان نموذجى تماما لمثل تلك المواجهة : مصريون أقحاح فى مكان واحد مع عرب أقحاح ، فى حالة كهذه لا صوت يعلو على صوت الچيين !

– أو صوت الطفرة ، زيك كده ؟

– أنت موش عاوز تفهم ليه ؟ أنا موش تطفر ، أنا زيى زى أى مصرى أصيل . تنحى صفات حصل من زمان أوى . جدى (موش أبويا بس) ، لو چيناته عربية فعلا ، كان من عاشر المستحيلات أنه أصلا يقاطع قبيلته علشان يبقى فلاح فى القناطر أو علشان يتجوز واحدة مصرية . حتى لو كان كروموسومى الذكرى صورة طبق الأصل من جد جدى العربى ، فهو بصمة بلا معنى لأنه لم يعد سوى نقطة معزولة فى بحر

من الچيينات المغايرة غير العربية وليس ذا شأن يذكر فى مجمل الصفات . ثم أنتم موش طلعتم محمد موش عربى ؟ يبقى منطقى الاحتمالات أكبر أن يكون الهاشميين كويسين ويكون الفاطميين ناس هايلين وهلم جرا . التخين إللى جنبى إللى ما شفش مرأته ١٠ أيام على بعض فى حياتهم ، مهتم أوى بالنسوان القماطة ، إنما ما حصلش مرة أن فكر فى الرجالة القماطة . لماذا الأتراك والعراقيون شرسون جدا والقتل المجانى حياة يومية عندهم ؟ لا بد من سبب : آل عثمان ليسوا الأتراك الأصليين إنما نزلوا من جبال وسط آسيا شديدة الضراوة وجاءت چيبناتهم معهم (لضيق معرفتهم بخريطة العالم يسمون وسط آسيا بشرق آسيا ، ويختصرونها إلى شراكسة !) . أما لماذا السعوديون أقل عنفا من العراقيين مثلا ، بينما هم أصل الچيينات العربية ، فالسبب أن الأشواس الأشراس هواة القتل هم من خرجوا للغزوات من عرب الجزيرة واستقروا فى نهاية المطاف فى دولة الخلافة ، أما المخنثون ونحوهم فهم من بقوا حيث ولدوا ! ... كل قصة البشرية هى تاريخ حركات وسكنات چيينات الإنسان ! لازم تغيروا نظرتكم الساخرة للأشراف شوية ، موش معنى أنهم اختاروا اسما مضحكا لأنفسهم أنهم أناس سيئون بالضرورة ! هم ككل جزء من التيار الصوفى المصرى ، والمصريون عطفوا على آل البيت وآووهم ، لأنهم كانوا دائما المظلومين المضطهدين والمطاردين من الصحابة-العصابة ، وغلطتهم بس هى الاسم .

– (يقاطعه ونس :) أنا ها أريحك خالص من موضوع الأشراف ده ، إللى عامل لك أزمة نفسية . أنت ممكن ما تكونش لك أصول عربية خالص . إيه معنى كلمة أشراف ؟ عكس أوغاد . وبما أن كل الصحابة-العصابة ، والعرب عامة ، أوغاد من أبناء ذوات الرايات الحمر ، فإن الانتساب لآل البيت ، ممن عرف عنهم بعض الشرف والأخلاق -نسبيا طبعا- هو نوع من التبرؤ من دين الصهاك ، أكثر منه تمسحا فيه . وهذا الإدعاء الكاذب بذلك النسب ، كان بالذات ظاهرة فى كل الشمال الأفريقى ، كنوع من التمرد غير المباشر على الحكام العرب ، من خلال تذكيرهم بسلالة الدعارة التى جاءوا منها ، وفى نفس حماية أنفسهم من الانتقام .

– خلاصة الكلام -وخده من واحد يعرف العرب كويس وكمان جايز يكون فيه دم عربى ومؤكد عارف هو بيقول إيه- أن كل شىء سيىء فى المصريين أتى على سبيل الحصر من مخالطتهم بالعرب ، ولأنه أتى من المخالطة وليس من التزاوج فهو محدود الدرجة والانتشار عند المصريين ولا يقارن بالعرب ، وإليك القائمة : العنف والثأر ، العصبية والتعصب ، تعدد الزوجات ، ضرب الزوجات ، الولع بالبدينات ، تدجين المرأة ، تحجيب البنت ، غسل مخ الطفل وخلقه مسخا نسخا ، قهر أية حرية للتفكير وإعمال الخيال ، پارانويا العداء للغير أيا من كان ؛ حتى الفهلوة التى تنسب حصريا للمصريين ليس أصلا منهم إنما هى النهب والسلب العربية الدموية لكن بعد أن جردوها من العنف وحولوها لشىء أقرب للنصب منه للسطو المسلح وطبعوها بطابعهم الطيب الناعم خفيف الظل ، وأنت طبعا أخبر الجميع بطريقة تفكير العرب فى الربح السريع واخطف واجرى (أيضا ذكرت لك ذات مرة عدد المصطلحات الموجودة فى اللغة المصرية لوصف قطاع الطرق والتى توحى بالازدراء والغيظ والعداوة نحوهم : نورى ، عويل ... إلخ) ؛ أما أسوأ الأشياء إطلاقا فى العرب فهو حياتهم المزدوجة بين التشدد الدينى الهائل ظاهريا وبين التسامح والتعايش السلس جدا مع العطن المطلق طالما هو تحت السطح . الدين لا يعنى أى شىء حقيقى عند البدوى ، دين بلا جوهر ، فقط مظهريات ورخص للنهب والفساد كما تسميها ، ذلك بينما هو أهم شىء عند المصرى . فى السعودية نادرا ما تسمع كلمة إن شاء الله ، لكنها عندنا موجودة فى كل جملة .



أنت حتى عندما أسميته أسوأ اختراع فى التاريخ ، لم تلحظ الفارق بين إله التوحيد المصرى وإله التوحيد اليهودى الشهير اللاحق :
فى مصر القديمة كان الدين قاطرة للعلم والتقنية ،
لكن اليهود هم من أخذوا الأخوين أوزيريس وست وقلبوهما إلى قايين وهابيل وجعلوا القداسة والخير مرادفين للبداءة والتخلف .
... نعم التوحيد كان خطوة شريرة للغاية لأنها تلغى الحق الطبيعى للإنسان فى صنع أو اختيار الإله الذى يريد ،
لكنه لم يكن الشر الحقيقى أو كل الشر أو منتهاه . الشر المطلق هو إخفاء الإله .
الإخفاء هو الذى أتاح الفرصة لكل من هب ودب يريد السيطرة على الناس إدعاء أنه يتلقى رسائل صوتية منه ،
وعلى الأقل كانت الشمس إلها باين زى الشمس !
ثم أليس اختيارها بالذات للعبادة هو أقرب شيء ممكن للحقيقة العلمية ؟ أليست هى بالفعل واهبة الحياة لكوكبنا ؟
... فقط عليك أن تعلم أن أخناتون لم يستحدث عبادة الشمس ، فقد كانت طوال الوقت تاجا على رءوس معظم الآلهة ،
فقط هو كفر عبادة غيرها ، ومن ثم نكل به المصريون فى ثورة شعبية محضة لم يقدها فرعون ولا قائد عسكرى ،
طرودا فيها كل أقاربه -فهو من حيث النسب لم يكن مصريا حقيقيا خالصا ، فلول كل أولئك الذين أتوا من آسيا يوما ،
وقضوا على التوحيد الذى لم يكن أولئك يحتاجون لأكثر منه إلها واحدا بسيطا يخلق لهم قحل الصحراء ،
بينما ثراء المشهد البيولوچى والفكرى والحضارى يستحيل -فى فكرنا المصرى- على إله واحد أن يخلقه !

– إذن تعترف أن مصر أم الدين ؟

– صحيح ! موش ها أقول لأ ، لكن ليس الدين الذى تعرفه وتكرهه . إله التوحيد الذى تراه أسوأ اختراع فى التاريخ ، ليس هو لب العقيدة المصرية . هو مجرد تمرد أخناتونى ، هوجة زى هوجة عرابى وراحت لحالها ، أو راحت للبدو الساموبين اليهود ، فصنعوا منها أسوأ اختراع . رغم هذا ليس من العدل أن تحاكم كل المصريين بجريرة أو جريمة فرد واحد هو أخناتون ؛ ليس تساهلا أو كرما ، إنما لأنه الحقيقة العلمية . ليس من العلم أن تختزل كل تاريخ مصر القديمة العريض جدا والثرى للغاية فى شخص واحد وحقبة عابرة ، بالذت وأن لب العقيدة المصرية ومحركها الأساس ، ليس الإله ولا الآلهة ولا العبادة ، إنما شيء آخر : الخلود ! طبعا أنت أيضا ترى الخلود أسخف فكرة فى العالم ، لكن لا يجب أن يمنعك هذا من تأملها وتحليلها ، بالذات وأنها عقيدة للأرستقراطية الثرية المثقفة أكثر منها لعموم المصريين . الخلود يعنى أمرين : حب الحياة ، وحب النقاء . أولا : حب الحياة ، سمعت ؟ يعنى لأنهم بيحبوا الحياة موش عاوزين يموتوا أبدا ؛ يعنى موش حضارة موت زى الكليشيه إللى حضرتك حافظه ، وقلت لك روح شوف البورنو على حوائط المعابد . جايز ما اخترعوش صواريخ ، وجايز ليسوا ثورة تقنية ، لكن على الأقل كانوا متقدمين جدا فى الطب ، والطب ما هو الاستمساك بالحياة . ثانيا : الآلهة ما هى إلا ذلك النقاء ، وحب الآلهة يعنى إخلاص وود وحنان وصداقة وبنوة موش تقديس وسجود ورعب وخوف ورعشة وعذاب قبر . روح شوف الفلاحة بتكلم العذراء إزاى ، ما فيش قداسة خالص ولا هيبة خالص ، إنما تكلمها زى أختها أو صديقتها إللى طول النهار بتلاعبها وتعاتبها وتستعطفها وتهزر معاها وتناكفها وتساومها وتزعق فيها وتغضب عليها أو حتى أحيانا تشتمها أو تعايرها بفشلها . نعم ، هما doing business والعلاقة تنطوى على كثير من قضاء حاجيات متبادل (شفاء البنت مقابل نذر ، نجاح الابن مقابل دستة شمع ... وهلم جرا) ، لكن ليس طوال الوقت ، وليس هو الأساس ؛ هى صداقة حقيقية وحب حقيقى واشتياق حقيقى وما بها من خدمات متبادلة لا يعدو إلا تلك المعتادة بين الأصدقاء المتحابين .

ويقاطع روميو : ' أول مرة أعرف أنك كييف موالد يا حاج ! ' . ويتداخل ونس : ' أنت موش فاهم حاجة وكل دماغك فى الجنس . المسيحيون دول أذكياء ، شوف الفلاحة لما بتقف قدام العذراء شغلت كام حاسة ؟ بتبص لصورة جميلة بعينيها وبتتحسس حبيبات الزيت فيها بيدها وبتسمع تراتيل وبتشم بخور وبتمضغ قربان وبتتخاطب مع صاحبة الصورة بالحاسة السادسة ، إذا أضفت لكل ده الاستثارة الجنسية سواء من الراجل إللى حاشر نفسه فيها من ورا أو من الذكر الأعظم ساكن الأعالى ، هل بعد كده يفضل مكان لأنها تشغل عقلها ؟ ... طبعا عمو وحيد ينظر باحتقار لهذه الفلاحة الغلبانة ، وبديهى لا يريد لها تأمينا صحيا ، حتى تموت لو مرضت ، وتخلى مكانها لكائن أفضل ! ' .

– بالعكس ، أنت من يتكلم باحتقار واستخفاف عن هذه المرأة . أنا أفترض أنها فلاحة منتجة ، ومحترمة للغاية ، وتستطيع الحصول على التأمين الصحى الذى تشاء من الشركة التى تشاء من مالها الخاص .

– كلكم على بعض جهلة وموش فاهمين حاجة فى موضوع الموالد ده . كلامنا كتير عن الشعب المصرى إللى متعلق فى ديل ماما الحكومة ، وعن مصر إللى اخترعت أول حكومة فى التاريخ وإللى ها تفضل أقوى حكومة لآخر الزمان . كل ما هنالك أن الشعب يترك شأن الحكم للحكومة لأنها أمور معقدة لا يريد أن يفتى فيها بما لا يعلم ، لكن الحقيقة أنه عاشق للحرية عشقا مطلقا . أتحدى مشاخخ السنة إللى زى أخونا حجاب ، الذين فاهمين أنهم بقوا سلطة وتربعوا على الشعب المصرى وكتفوه بالحبال وبيحركوه بإشارات صوابعهم ، يقولوا لى إزاى مصر بقت شيعية-إسماعيلية-درزية فى حسبة شهور ، وساحت فى الهوا سيوف كل الخلفاء وكل السيافين وكل الفقهاء ؟ لم يحدث أن أجبرهم -أو حتى دعاهم- أى حاكم فاطمى لهذا . بل تقريبا العكس هو الصحيح ، هم الذين صاغوا دين الحكام . كل ما حدث أن جاء لمصر بعض أئمة من فارس بالذات ، ممن يترخصون فى العبادات ويسقطون الصلاة والصوم ، فترك المصريون مساجدهم وهرولوا خلفهم ، ومن خلفهم هرول الحكام . يا وحيد ، أنت حتى عندما أسميته أسوأ اختراع فى التاريخ ، لم تلحظ الفارق بين إله التوحيد المصرى وإله التوحيد اليهودى الشهير اللاحق : فى مصر القديمة كان الدين قاطرة للعلم والتقنية ، لكن اليهود هم من أخذوا الأخوين أوزيريس وست وقلبوهما إلى قايين وهابيل وجعلوا القداسة والخير مرادفين للبداءة والتخلف . ... نعم التوحيد كان خطوة شريرة للغاية لأنها تلغى الحق الطبيعى للإنسان فى صنع أو اختيار الإله الذى يريد ، لكنه لم يكن الشر الحقيقى أو كل الشر أو منتهاه . الشر المطلق هو إخفاء الإله . الإخفاء هو الذى أتاح الفرصة لكل من هب ودب يريد السيطرة على الناس إدعاء أنه يتلقى رسائل صوتية منه ، وعلى الأقل كانت الشمس إلها باين زى الشمس ! ثم أليس اختيارها بالذات للعبادة هو أقرب شىء ممكن للحقيقة العلمية ؟ أليست هى بالفعل واهبة الحياة لكوكبنا ؟ ... فقط عليك أن تعلم أن أخناتون لم يستحدث عبادة الشمس ، فقد كانت طوال الوقت تاجا على رءوس معظم الآلهة ، فقط هو كفر عبادة غيرها ، ومن ثم نكل به المصريون فى ثورة شعبية محضة لم يقدها فرعون ولا قائد عسكرى ، طرودا فيها كل أقاربه -فهو من حيث النسب لم يكن مصريا حقيقيا خالصا ، فلول كل أولئك الذين أتوا من آسيا يوما ، وقضوا على التوحيد الذى لم يكن أولئك يحتاجون لأكثر منه إلها واحدا بسيطا يخلق لهم قحل الصحراء ، بينما ثراء المشهد البيولوچى والفكرى والحضارى يستحيل -فى فكرنا المصرى- على إله واحد أن يخلقه !

– ها ! عاوز تفهمنى أن أسوأ اختراع فى التاريخ طلع فيه أسوأ منه ؟ !



ليس عرب الجزيرة وحدهم القمامة الچيينية ، بل كل الهلال القحيل الذى لفظهم أصلا ، والعراق سمى عراقا لكثرة أعراقه .

عند هذه السلالة الإبراهيمية-الحامورابية ، ممن استنكفوا عن زرع وديان تلك الأنهار وخرجوا للرعى ،

الدين هو نظرية للحكم ؛ قهر واستبداد وتسلط وتشريع لأدق الدقائق لأنه تستحيل السيطرة على الناس بدونها .

هم لا يطيقون جهد الزراعة واسألنى أنا ، بل أغاروا ودمروا المحاولة الجنينية الأولى والوحيدة التى كان اسمها سومر ،

قتلوا إينانا وعشتار -اللتين بهما مسحة ما من الجمال والخصب والأمومة الإيزيسية- وعبدوا البعل .

وما أدراك ما البعل ؟ ... إنه إله المطر !

نفس سؤال وما أدراك بأرض الميعاد التى تلقى أحد -أو بالأحرى كل- أبناء أرض تلك الأنهار الفياضة وحيا بالارتحال إليها ؟

إنها صحراء كنعان القاحلة لكن بالذات التى يتقاتل عليها الجميع .

لماذا ؟ لأنها أقرب نقطة ممكنة للقفز من آسيا على مصر لنهبها ، وتلك قصة أخرى !

... أما عند المصريين فالدين هو حرية من كل القيود وطبعا من قسوة الشغل اليومى .

إنه يوم الراحة والنزهة والطبيعة والغناء والرقص والملابس الجميلة ،

ذلك من أول طقس فى أول معبد لإيزيس لغاية آخر رقصة فى مولد الأسبوع إللى فات

(إللى طبعا ما حدش كان اتولد فيه ، إنما المولد الوحيد الاسم على مسمى هو عيد ميلاد حورس إللى غيروا اسمه للكريسماس) .

... لهذا السبب لفظوا فى أقل من طرفة عين حتى ذلك التوحيد الأخناتونى شبه البرىء !

– ليس عرب الجزيرة وحدهم القمامة الچيينية ، بل كل الهلال القحيل الذى لفظهم أصلا ، والعراق سمى عراقا لكثرة أعراقه . عند هذه السلالة الإبراهيمية-الحامورابية ، ممن استنكفوا عن زرع وديان تلك الأنهار وخرجوا للرعى ، الدين هو نظرية للحكم ؛ قهر واستبداد وتسلط وتشريع لأدق

الدقائق لأنه تستحيل السيطرة على الناس بدونها . هم لا يطيقون جهد الزراعة واسألنى أنا ، بل أغاروا ودمروا المحاولة الجنينية الأولى والوحيدة التى كان اسمها سومر ، قتلوا إينانا وعشتار -اللتين بهما مسحة ما من الجمال والخصب والأمومة الإيزيسية- وعبدوا البعل . وما أدراك ما البعل ؟ ... إنه إله المطر ! نفس سؤال وما أدراك بأرض الميعاد التى تلقى أحد -أو بالأحرى كل- أبناء أرض تلك الأنهار الفياضة وحيا بالارتحال إليها ؟ إنها صحراء كنعان القاحلة لكن بالذات التى يتقاتل عليها الجميع . لماذا ؟ لأنها أقرب نقطة ممكنة للقفز من آسيا على مصر لنهبها ، وتلك قصة أخرى ! ... أما عند المصريين فالدين هو حرية من كل القيود وطبعا من قسوة الشغل اليومى . إنه يوم الراحة والنزهة والطبيعة والغناء والرقص والملابس الجميلة ، ذلك من أول طقس فى أول معبد لإيزيس لغاية آخر رقصة فى مولد الأسبوع إللى فات (إللى طبعا ما حدش كان اتولد فيه ، إنما المولد الوحيد الاسم على مسمى هو عيد ميلاد حورس إللى غيروا اسمه للكريسماس) . ... لهذا السبب لفظوا فى أقل من طرفة عين حتى ذلك التوحيد الأخناتونى شبه البرىء ! ... المشكلة أنهم نجحوا تدريجيا فى غسل أمخاخنا بعقائدهم الصحراوية ، وخلقوا فينا كراهية كل شىء جميل ، وأقلها العرى لأنه صراحة وصدق ، وكما تقولون الصدق هو الشىء الوحيد الذى عليه حد من إله الإسلام (الردة ، الزنا ، السرقة ، أى شىء ، عمليا لا يحد إلا بالاعتراف) . وللأسف أصبحنا ننسى أننا فى مصر كنا نحتقرهم أشد احتقار : ' كل راعى غنم رجس عند المصريين ' every shepherd is an abomination unto the Egyptians ، هكذا لم تستطع التوراة تجاهل هذا ووضعته على لسان ذلك النكرة المدعو يوسف فى توراتهم ، رغم أنه شخصية اختلقتها أحلام يقظتهم الحاقدة على المصريين وعلى عظمة مصر ، وما كانوا مجبرين على استنطاقها هكذا .

– (هذه المرة يضحك بالفعل :) هأ ! هأ ! عاوز تفهمنى أن المصريين رأيهم من رأيى فى نظريات الحكم ؟ !



– كيف لم تلحظ أن الحضارة المصرية بدأت بقصة حب ؛ إيزيس وأوزيريس ؟ !

– وكيف لم تلحظ أنت أنها انتهت بقصة حب ؛ كليوپاترا -الفرعون الأخير ؟ !

– بل كيف لم يلحظ كلاكما أنها لم تنته قط : طوال الوقت يوجد أناس يفكرون رأسيا ، يتملكهم شبق الكدح والبناء والارتفاع ، يرون العالم هرما أو مسلة ، ويرفضون فكرة القطيع والمستنقع والمساواة . وبناء عليه كل ما جرى من ألعاب نارية على الماء فى أكتيوم أو فى حريق الأرامادا ، لم يكن سوى الطريقة التى يبدو أن أمنا الطبيعة تحب الاحتفال بها بتسليم شعلة الحضارة من جيل إلى جيل ؟ !

– رى الحياض ربما علم المصريين بعض الكسل ، لكنه الكسل الخلاق . رى الحياض علمهم السكينة والتأمل وحب السلام ، وأهم شىء علمهم حب الحب . أعنف قصص الحب هى التى تجرى فى قرى مصر . هل من قبيل الصدفة أن عثر على الأناجيل الغنوصية فى نجع حمادى ، وليس فى روما ولا القسطنطينية ؟ لماذا ؟ أهذا سؤال ؟ لأنها النسخة الصوفية اليسوعية الأصلية من المسيحية ! ؛ لأن نجع حمادى هى التى تقع على مرمى حجر من كل معابد رع وإيزيس ؛ لأنها أصلا نبتت فى دفء طمى النيل الوادع الآمن ، ولأنه وحده كان المسئول -والقادر- على حفظها لنا للأبد ! الأدهى : كيف لم تلحظ أن إيزيس وأوزيريس -ديانة الشعب المصرى العريض البسيط ، أصل كل الموالد والأعياد الشعبية الحالية ، وحجر الزاوية وقدس أقداس العقيدة المصرية ككل- هى بالأساس مجرد قصة حب ؟ ! أنت تذكرنى بزكريا بطرس حين يحكى قصصا من سيرة مُحَمَّد فيسأل متعجبا أين التسامح ، أين العفة ، أين الروحانية ، أين ... ، أين ... ؟ ، ومن ثم يقنع المشاهد أنه هكذا وضع مُحَمَّدا فى ميزان المسيح فوجده فاشلا . الواقع إنه -من حيث لا يدرى- وضع الاثنين فى ميزان إيزيس ، المرجعية الأولى والعليا لكل القيم النبيلة . الغنوصية التى ترى فيها المسيحية الأصلية ، لا تمت لليهودية ولا لليهود ولا لكل العرق السامى الحثالى بصلة . هى تطفر چيينى وصلت عدواه من مصر ليهودا والسامرة فى صورة شخصين أحدهما من الناصرة والأخرى من مجدل ، فأثارت روحانيتها الكارثية أيما ارتباك واضطراب فى البركة الچيينية اليهودية فحكموا عليهما بلا لحظة تردد واحدة بالقتل والنفى . فجر الضمير إللى موش عاجبك ، هو فى الحقيقة الظهر والعصر والمغرب والعشاء أيضا ! أخيرا ، وبما أن المصريين أناس محبون بالأساس ، فهم بالتالى أناس منفتحون على الغير ، ولا يوجد تاريخيا ما يقول عن المصريين إنهم كانوا ضد الأجنبى أو قاوموه أو طردوه ، حتى من كان شديد البشاعة والخراب -وأقصد العرب- كانت المقاومة لهم لا تكاد تذكر ، فقط اتقاء للشر قدر الإمكان وازدراء بالنكت بتاع روميو والأحاديث المدسوسة بتاع ونس والكلام بتاعك والموالد بتاعتى . عليك أن تقارن بين ما قد يسمى ' بسيكولوچية العبيد '

هذه ، وبين الأرتيكاريا العربية المسعورة ضد كل ما هو أجنبى ، والزعيق بأمراض المجد والعزة والفخار ... إلخ . إذا احترمت رئيسك فى الشغل لأنه شخص كفء وجدير ، فأحببته وأخلصت له ، يسميها العربى مذلة ، فهل تسميها أنت ؟ خطوة أخرى : هل يختلف الأمر لو كان هذا الرئيس أجنبيا ؟ خطوة ثالثة : هل يختلف الأمر لو كان هذا الأجنبى رئيسا للدولة ؟ هذا ما تفعله مصر مع من هم أكثر منها تقدما ، تنظر لهم لأعلى ، لا حقد ولا حسد ، فقط حب واحترام . طالما هناك هذا الحب والاحترام ، فأنت نفسك محترم ، لست عبدا ، والطرف الأخر لن تصيبه عدوى العبودية التى تحدث عنها يونج . إنها علاقة تعاون وتكامل ، أما عبيد روما فهم عبيد ، والعرب بتوع العزة والفخار هم عبيد ، لأن كليهما يسعى لنهب ما للغير وانتزاع السلطة منه ، لا يحركه إلا الجشع والحقد والمرض . باختصار ، مصر ليست لديها عقدة العبيد ، إنما لديها عقدة الخواجة ! الإنجليز أسياد العالم أناس متواضعون للغاية (وطبعا لا أقارنهم بالعرب الأمجاد جدا ، إنما بأى شعب أوروبى عادى) ، أغلبهم طبقات شغيلة يمارسون أبسط الأشغال لدرجة أن يتهمهم العالم بالغباء ، لكنهم أعظم الناس بلا شك ، لأن قطعا ليس لديهم عقدة العبيد .

– إنهم مكن !

– تمام ! نسيت أنا بأكلم مين ! أنت آخر من يرى المكن عبيدا ، وأول من يراها سادة للكوكب ؟ ! حاول أن ترى المصريين مكنا أيضا ، أناسا لا يصابون بالعقد النفسية . فكرة صعبة شوية ، لكن حاول وها تلقاها ماشية . من بنوا الأهرام والكرنك ونحتوا أبى سمبل ، من الصعب أن تتسلل إليهم سيكولوچية العبيد ؛ هذه الصروح تمنعهم ، لأنها قابعة هناك فى عقولهم الباطنة . فقط يتعاملون بسيكولوچية منبسطة سوية مع من هو أعظم منهم ، هذا لأنهم كانوا أنفسهم الأعظم يوما . العرب لم يبنوا شيئا أبدا (فقط -وأيضا حسب ابن خلدون- هدموا جدران عمائر الأمصار كى يستخدموها مساندا للقدور ، ونزعوا خشب سقوفها أوتادا للخيام أو للحرق) ، لذا فهم كتلة من العقد النفسية الشيطانية الخالصة . سيكولوچيا ، العرب هم العبيد الحقيقيون الوحيدون فى هذا العالم . طيلة التاريخ وهم قاع العالم وخارج خريطة العالم ، ويدركون تمام الإدراك وضعيتهم الدونية فى نظر الدنيا . ثانيا ، بالأخص لأنهم خاطفو وجلابو العبيد ، فهم يرتعدون جدا من أن يفعل بهم أحد ذات الشىء ، فنموا لأنفسهم سيكولوچية موهومة من التعالى الشديد المزيف ، وحاولوا عبثا إفراغ أمراضهم ودونيتهم فى هؤلاء العبيد إذلالا وتعذيبا ... إلخ . العربى يزدرى الكلب لأنه يخلص له ، أما أنت فتحبه وتبحث عن أى شىء لتسعده به . القومجيون العربجيون عندنا أكثروا مؤخرا الكلام شديد التعالى عن المماليك (تفريغا وتفريجا عن مهانتهم وهزائمهم) ، أما أنت فترى المماليك أناسا جيدى التربية أقوياء الشخصية نالوا كل مجد وثروة يريدونها من الحياة ، بل وقادة لا بأس بهم أحيانا كثيرة ، رغم أنهم تقانيا ليسوا إلا عبيدا . ما أردت قوله هو أن عليك أن تصبح أكثر تدقيقا فى رؤية الأمور : فقط الدخلاء العرب هم البيضة الفاسدة فى هذا المجتمع ، وتنظيماتهم القبلية كالإخوان-الأخوان والجامعة العربية والأحزاب القومجية العربجية وطبعا الأزهر -المؤسسة الدينية الرسمية- التى حولوها بأموال النفط من الصوفية المصرية للسلفية الوهابية ، هم تحديدا من يشد مصر للوراء ؛ هم سرطان التخلف والرجعية وكراهية العالم ، وليس أى أحد آخر ، وقطعا ليس المصريين !

– أنا موش فاهم ليه كل شوية تجر معاى موضوع الفراعنة ده ؟ !

لم يجب الحاج ، لكن ارتسمت فى تلك اللحظة أمام وجهه تلك الملامح الفرعونية لقاتل نبيل ، والتى تقريبا لم تفارقه قط منذ وقع بصره عليها . بعد صمت طويل متبادل يعود وحيد : ' على الأقل عرفنا الآن أنك من دعاة الفتنة وتريد شق ما يسميه الجميع بالوحدة الوطنية ، هذا بتقسيم الشعب المصرى لمصريين وعرب ' .

– لست أنا الذى أريد هذا ؛ أنت الذى تريد تقسيم المصريين لمرحبين بالتقدم ولأعداء له (مثلما كنت تفعل فى لبنان) ، وأنا فقط أعطيك طرف الخيط !

– (شاردا :) معقول برضه ! أنا كمادى لا أضع أدنى وزن للكلام ولا أنظر له ولا أهتم به أصلا ، فالمهم الفعل . السادات كان بيلبس بيتكلم عن الإسلام ليل نهار وتاريخه نفسه يصنفه كإسلامى ، لكن الأفعال كانت شيئا آخر ؛ لا ذرة عروبة بها ولا ذرة إسلام ، فقط تبنى بحياته التحديث واستقدام الأمريكان والإسرائيليين حتى يعيد لمصر مجد بنائيها ! لم يحدث أن حارب السادات إسرئيل أبدا ؛ هو يحب إسرائيل ، وما حاربه فى ١٩٧٣ هو الحرب نفسها . أيضا حسنى مبارك مصرى أصيل بالمثل لم تداخله الچينات العربية ، شخص يحب الحداثة والبناء ، وإن شخصيا آخذ عليه مصريته الزائدة ، هذه التى جعلته طيبا مسالما متسامحا مع الجميع بمن فيهم الهمج العرب !

– لا تحزن هكذا ، سأروى لك نكتة لعلها ترفه عنك : حفر الفرنسيون تحت برج إيفيل فوجدوا أسلاكا ، فقالوا انظروا لقد انفضح كذب الأميركيين ، نحن الذين اخترعنا التليفون من قبل ٢٠٠ سنة . حفر الإيطاليون تحت برج بيزا فوجدوا إسلاكا ، فقالوا انظروا نحن الذين اخترعنا التليفون قبل ٥٠٠ سنة . حفر المصريون تحت الهرم الأكبر فلم يجدوا شيئا ، فقالوا انظروا نحن الذين اخترعوا الموبايل قبل ٥٠٠٠ سنة !

يهمس وحيد لنفسه : ' أنت متأكد أن نكتك دى مصممة علشان تجيب الضحك موش الاكتئاب ؟ ! ' ، ثم يجتر شيئا آخر : ' شنيور ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ' .

– كيف لم تلحظ أن الحضارة المصرية بدأت بقصة حب ؛ إيزيس وأوزيريس ؟ !

– وكيف لم تلحظ أنت أنها انتهت بقصة حب ؛ كليوپاترا -الفرعون الأخير ؟ !

– بل كيف لم يلحظ كلاكما أنها لم تنته قط : طوال الوقت يوجد أناس يفكرون رأسيا ، يتملكهم شبق الكدح والبناء والارتفاع ، يرون العالم هرما أو مسلة ، ويرفضون فكرة القطيع والمستنقع والمساواة .

... هكذا -بعد برهة صمت أخرى- صفى ضهرى وروميو ووحيد حساب هذا الجدل فى مرافعات وجيزة أخيرة !



منذ طفولتى وأنا أتساءل لماذا ينظر الناس للسماء حين يخاطبون الإله .
لماذا لا ينظرون للأرض مثلا ؟ أليست هى المكان الذى تأتى منه الحياة للنبات ؟
بل لماذا أصلا لا ينظرون فى المرآة بحثا عن الإله ؟ !

– ما تغنى لنا يا ونس شفيق جلال لما يقول ' ع الچيينات دور ! ' . رغم أن عيال الجماعات المتحمسين الغلابة إللى على نياتهم جايز يكونوا مصريين ، ورغم أن الإخوان والسلفيين عرب ، إلا أن الشعب المصرى رفض الاتنين . عارفين ليه ؟ لأن لتدين أحدهما أهدافا سياسية ، وتدين الأخرى يرفض مبدأ الشفاعة . المصريون -على عكس العرب- قادرون على تخيل التجريد الهائل فى فكرة الإله الروح غير المرئى الذى يوجد فى كل مكان ، لكن لأن إلها بهذه الصفات هو شىء عظيم جدا ، فهم بتواضعهم لا يشعرون بأنهم مستحقين لمخاطبته مباشرة ، أو ربما لمجرد أنهم لا يحبون مخاطبة الشرطى أو السلطان أو المستعمر أو أى جبار ، فقرروا ألا يخاطبوا الإله أيضا اتقاء لشره لا أكثر ، فاخترعوا فكرة الشفاعة ، وهى خصيصة تميز بها آلهة مصر القديمة ، وتبنتها بقوة الكنيسة المصرية فى عذرائها وقديسيها . هؤلاء بالأساس رهبان أو سائحين سكنوا الصحراء ، وأيضا ليست صدفة أن مصر هى التى اخترعت الرهبنة فى المسيحية . ثم تبناها الإسلام المصرى بأوليائه الصالحين ، مضيفا إياهم لشفعاء الكنيسة المعلومين جيدا بدورهم لدى كل مسلم (أما الإسلام الصحيح العربى البدوى فقد أعجبته فكرة اتقاء شر الإله ، فاخترع منه مصطلح التقوى ، وراح يرهب به أتباعه ، لكن بالأحرى مفهوم الدين أو الإله لم تكن قبل ذلك مما تشغل العرب أصلا بعقلهم دون-البشرى) . المصريون لم يخترعوا التوحيد كما تهوى أنت دائما القول . تقانيا هم مخترعوه ، لكن واقعيا هم من لفظه ، فتلقفه اليهود ، أى موسى ، أو للدقة إحدى الشخصيات الواقعية التى ركب منها معا اليهود شخصية موسى الخيالية ، ثم بنوا عليها أساطير لسلف وهمى بالكامل كنوح وإبراهيم ، ومن ثم دينا كاملا . كلمة التوحيد مرفوضة مصريا -وبعنف- لأنها ضد التعددية والتسامح والصفاء ، وأشهر عبارة تقتبس إطلاقا عن أوراد صوفية مصر هى ' انشلنى من أوحال التوحيد ' ، فحياة القحل الصحراوية هى التى لا تستطيع تخيل أكثر من إله واحد . هل لو فرضا تقابل الأنبا بولا أول السواح مع ذى النون المصرى فى الصحراء ، أو مثلا تقابل القديس برسوم العريان مع الشيخ إبراهيم العريان ، فتصادق كل زوج معا لسنوات طويلة ، سيعرفان أن أحدهما مسيحى والآخر مسلم ؟ السبب بسيط أن كليهما يعتقد أن الطرائق إلى الإله بعدد أنفاس الخلائق . الصوفية مذهب فوق الأديان سابق للأديان وعابر للأديان ، أقله أن أغلب مشايخ الطرق الصوفية عندنا لا يؤدون الصلوات الخمس ، ويدعونك يا فلان ابن فلانة فى تحد صريح للكرهان ، وهلم جرا .

– أسبقك الكلام : الرهبنة ذات الشىء ، موجودة فى المسيحية وفى الإسلام وموجودة قبلهما ، ومن الصعب جدا إدعاء أنها اختراع قبطى ، وإلا أين نذهب ببوذا ؟ الصحيح فقط أن المصريين هم من أدخلوها على المسيحية والإسلام .

– إيه الحلاوة دى ؟ ! كنا فين وبقينا فين ؟ ! المهم ، عليك أن تعرف أين تقف مصر بالضبط ، تبعا للأرقام لا لعلو الصوت : عدد الأزهريين والإخوان والسلفيين مجتمعين أقل من مليون ، وعدد أعضاء الطرق الصوفية المسجلين أكثر من عشرة ملايين ، ومن يحضرون الموالد من غير

الأعضاء عشرات الملايين ، والمولد الواحد قد يشهده أكثر من خمسة ملايين . بعض جوانب ديانة إخناتون قد تكون أكثر صوفية من سابقاتها ، لكن المصريين لفظوها ، لماذا ؟ لسبب جوهرى جدا وإن بدا جديدا ؛ أنها أفاقتهم لأول مرة على فكرة مرعبة : إمكانة ربط الدين بالدنيا . لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة ليست عبارة من اختراع السادات ، إنما هى تعريف المصريين للدين : الدين نقيض الدنيا . هو التقشف والصوفية والرهبنة . وللدقة ، الدين طريقة وليس دينا ، أى أسلوب حياة ، وكلمة دين المصريين استخدمها مجازا . ثانيا ، الطريقة شىء لم نخلق له ولم يخلق لنا ، إنما التعبد وظيفة القديسين الأولياء والصالحين ، الذين من اختصاصهم التشفع لحوائجنا عند الإله . لعلمك -بالمناسبة- الولى -بحكم توحده مع الله- هو فى عرف الصوفية شخص يفوق النبى مكانة بكثير ويفوق الرسول بأكثر ، وهذا يمكن -لو شئت- أن يعطيك لمحة عن نظرة المصريين للأنبياء والرسل عامة : دجالون وأشباه دجالين بائعو كلام ، موش أتقياء حقيقيين عارفين واصلين زى الأولياء ! هناك دعاء صوفى مشهور يعتقد أن أصله رابعة العدوية (التى بالمناسبة ينسبها أقباط مصر لأنفسهم وينفون أية علاقة لها بالإسلام) ، يقول ' إلهى إن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك خوفا من نارك فأذقنيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك طمعا فى نظرة من جلال وجهك يوم لقاك فأنلنيها ثم افعل بى ما تشاء ! ' . هذا الدعاء به ما لا يقل عن عشر مخالفات شرعية صريحة للكرهان والسنة ، وبه طعن مباشر فى أصول العقيدة ومفاهيم الإلوهية والعبودية ، وبه تحقير لمحمد نفسه الذى كان يدعو آلاف المرات يوميا متوسلا طلبا للجنة ، ويستغفر آلاف المرات يوميا هلعا من عذاب النار ، لكن السؤال هل امرأة بمثل هذه النورانية والشفافية والوصل فى حاجة لأن تقرأ كرهانا وأحاديث ، أو أن تسأل ماذا يقول الأنبياء والرسل ؟ ! ... منذ طفولتى وأنا أتساءل لماذا ينظر الناس للسماء حين يخاطبون الإله . لماذا لا ينظرون للأرض مثلا ؟ أليست هى المكان الذى تأتى منه الحياة للنبات ؟ بل لماذا لا ينظرون أصلا فى المرآة بحثا عن الإله ؟ !

ويسخر إدوارد : ' إحنا موش معانا بكالوريوس زراعة زيك ... ' ، ويغنى ونس : ' أحبك حبين ... ' .



لعلمك الإسلام لم يتغلغل حقا قط فى التربة المصرية

– موش سبق وقلنا ما لكش دعوة بأغانى الست ؟ ها أفوتها لك المرة دى زى بعضه ! (ثم يواصل موجها كلامه لوحيد :) بالطبع هذا ليس بالضبط تعريف الغرب للدين أنه علاقة شخصية بين الإنسان وربه ، لكنه قطعا ليس تعريف الإسلام . لعلمك الإسلام لم يتغلغل حقا قط فى التربة المصرية . مصر هى التى صنعت نسخة خاصة بها مما كانت تسميه تلك العصابات الغازية دينا ؛ وضعت فيها معظم التراث الدينى المصرى القديم ، مع فارق الأصل من العلك طبعا . حتى السنة والشيعة كانت مصر فوقهما . الأزهر نفسه أنشئ فى الأصل كمؤسسة شيعية ، ثم امتصه المصريون فى عقيدتهم . المهم ، أنك لو دورت عندنا على كل المتمسكين بشدة بالإسلام الحرفى عندنا ها تلقاهم عرق عربى -محتلين أو مهاجرين ؛ المصرى الحقيقى موش ها تلقى تدينه كده أبدا ، ها تلقاه صوفى عميق الإيمان شديد الاتكالية ، ودى أقوى فى دياناته السابقة على الإسلام . فاكر لما قلت لك كل المصريين مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم ؟ ده كان قصدى ، كلهم طيبون بسطاء يتصدقون على المحتاجين لعاطفية مشاعرهم وليس من أجل عداد الحسنات والميزان الذى يرفع يوم البعث (إللى هو بالمناسبة اختراع مصرى قديم نقله الإسلام حرفيا عن كتاب الموتى) . موسى أخذ الأفكار من أخناتون لكن شوف ابتذلها إزاى وحولها لشريعة بملايين التفصيلات التافهة خالية من أية روح أو روحانية ؟ حتى كلمة حياة أبدية لم ترد فى العهد القديم برمته إلا مرة واحدة قرب النهاية ، بل وتقول إن البعض فقط هم من سيحيون من رقاد التراب . المسيحية الأصلية الأكثر صوفية حفظت عندنا فى مكتبة الأسكندرية ومنظرو البوذية نقلوا الكثير من مخطوطة إنجيل توما فيها لعقيدتهم ، ربما أيضا الأقباط فى مجملهم أشد روحانية من معظم مسيحيى العالم . عارف أنا بأسمى العقيدة المصرية إيه ؟



– هو فيه حاجة اسمها العقيدة المصرية ؟ !

– وهو فيه شعب يغير عقيدته ؟ ! ألم تسمع عبارة أن الدين ثابت ؟ ! الشعب ممكن يغير اسم العقيدة ، لكن العقيدة نفسها لا تتغير .

... طبعا فيه عقيدة للمصريين ، وطبعا ليست دينا ، وطبعا لا هى الإسلام ولا المسيحية ولا حتى الأخناتونية ،

إنما هى تلك العقيدة الأولى التى لم تتغير منذ رع وإيزيس وأوزيريس ... أنا أسميها الوثنية الشفاعية الصوفية !

... لا أحد يمكنه قهر الوثنية ، لأن چيينات كل البشر وثنية ،

تحب أن تختار آلهتها بنفسها ولا تحب من يدجل عليها بأنه وكيل لآلهة غير مرئية .

... أيضا چيينات كل البشر شفاعية لأن كل الوثنية شفاعية ، وأنبياء التوحيد هم من زوروا الحقيقة واخترعوا أكذوبة عبادة الأصنام ،

فى خلط متعمد للأوراق بين قضيتين مستقلتين -تعدد الآلهة والتشفع إليها بوسطاء ،

فإن أحدا قط لم يعبد أصناما ، إنما فقط كان يتوسل بها لقوى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

... أما بالنسبة للصوفية فهى أصيلة بالخصوص فى چيينا تنا المصرية أكثر من معظم شعوب العالم !

– هو فيه حاجة اسمها العقيدة المصرية ؟ !

– وهو فيه شعب يغير عقيدته ؟ ! ألم تسمع عبارة أن الدين ثابت ؟ ! الشعب ممكن يغير اسم العقيدة ، لكن العقيدة نفسها لا تتغير . ... طبعا فيه عقيدة للمصريين ، وطبعا ليست دينا ، وطبعا لا هى الإسلام ولا المسيحية ولا حتى الأخناتونية ، إنما هى تلك العقيدة الأولى التى لم تتغير منذ رع وإيزيس وأوزيريس ... أنا أسميها الوثنية الشفاعية الصوفية ! ... لا أحد يمكنه قهر الوثنية ، لأن چيينات كل البشر وثنية ، تحب تحب أن تختار آلهتها بنفسها ولا تحب من يدجل عليها بأنه وكيل لآلهة غير مرئية . ... أيضا چيينات كل البشر شفاعية لأن كل الوثنية شفاعية ، وأنبياء التوحيد هم من زوروا الحقيقة واخترعوا أكذوبة عبادة الأصنام ، فى خلط متعمد للأوراق بين قضيتين مستقلتين -تعدد الآلهة والتشفع إليها بوسطاء ، فإن أحدا قط لم يعبد أصناما ، إنما فقط كان يتوسل بها لقوى الطبيعة وما وراء الطبيعة . ... أما بالنسبة للصوفية فهى أصيلة بالخصوص فى چيينا تنا المصرية أكثر من معظم شعوب العالم ! الكل يعلم أن المصريين ليسوا عربا وليسوا مسلمين ، لكنه لا يعرف كيف يوصف إسلامهم ؛ إنه ببساطة الإسلام الإيزيسى البرىء والخالص لوجه السماء . منذ الأزل إن أردت أن تعرف طبيعة شعب ، فلتسأل عن دينه . لو عاوز تعرف إيه العقيدة أو الدين الحقيقى لأى شعب اذهب لأعماق الريف ، ولو عاوز تعرف أكتر روح لمولد أو لحضرة صوفية . الأيقونات القبطية التى تأخذ شكل مستطيل تعلوه نصف دائرة ، هى عينها أقراص كتاب الموتى الرخامية كالتى وجدت فى مقابر الأقصر . حتى الموسيقى الفرعونية القديمة ستجدها هناك كما هى ، حفظت واستمرت عبر ألحان الكنيسة القبطية ، إلى أن وصلت للكحلاوى والنقشبندى والطوخى . حركة الكهنة والشمامسة والعموم داخل الكنيسة وحول المذبح ... إلخ ، منقولة حرفيا من المعابد القديمة (راجع كتاب الموتى ، إللى بالمناسبة ده موش اسمه خالص يا بتاع النكد أنت ، إنما ' الخروج فى ضوء النهار ') ؛ المسجد التقليدى ليست به حركة ، لذا يذهب الناس للطرق الصوفية ، استجابة للإيمان الفطرى الذى يجرى فى دمهم !

– لكن ما أعلمه أن أعضاء الطرق الصوفية أو من يذهبون للموالد هم حضيض الثقافة والتعليم إطلاقا .

– بالضبط ! لذا هم من يجب أن تعرف من خلالهم حقيقة معدن الشعب المصرى ، أو ما تسمونه بلغة كيسينچر الطبقات الچيولوچية للشعب ، أو بلغتك أنت الأعماق الچيينية أو الچيولوچيا الچيينية . سبق وقلت لك الدين موش بنية فوقية . الفلكلور كله -موش حتى الدين بس- حاجات فى الچيينات وبنية تحتية جدا مادية جدا . ما فيش غير كلام ' المثأفين ' إللى زيك هو إللى بنية فوقية . تعال عندنا القناطر واسأل أية فلاحة أو فلاح إيه أقدس شىء عنده ؛ ما الشىء الذى يشعر بقوة رهيبة إذا تمسح به ؛ ما الشىء الذى يمكن أن يشفى لها ابنها أو يحل له مشكلته المستعصية ؟ أى ضريح لولى هو شىء مقدس ، أية أيقونة مسيحية هى شىء مقدس ، يستوى فى هذا المسيحى والمسلم ، وحتى المسلمة التى ألبسوها القرف المسمى الحجاب الإسلامى . هنا أقدس الأشياء على وجه الإطلاق هو صورة السيدة العذراء التى تستغنى الريفية عن زيارة أمها ولا تستغنى عن زيارتها ؛ تلك العذراء لا يعلوها أحد عند المصريين ، وشخصيا حاولت أن أعرف لماذا وفشلت (من الجائز لأنهم يرونها الأطهر من الباقين ، أو ربما فقط لأنها الأقدم والأقدم أنقى وأفضل ، أو لمجرد أنها امرأة مثل إيزيس ، أو ربما بما أنها الست إللى وقع ربنا فى غرامها وتزوجها ، فبالتالى لا يمكن أن يرفض لها طلبا ، أو ربما لأن الدين الشعبى المصرى القديم كان لإلهات وليس لآلهة ، وشعبية إيزيس ، أو أكثر منها

إلهة الجمال حتحور ، هى أشد المعابد ازدحاما بعموم الشعب إطلاقا . جايز بيحبوا الجمال ، بيحبوا النسوان ، ما أعرفش ، جايز روميو يفيدنا أكتر ؟) . هذا الإيمان هو ما يجرى فى الدماء المصرية ، ولا تقوى عليه أية چيينات دخيلة . إن تجريد الإله كفكرة وجعله غير ملموس وساكنا للسماء ، لا تزال فوق عقل أغلب المصريين . الديانة المصرية شىء لا نظير له فى أى مكان . نعم ، هى خليط عجيب من ثالوثها المقدس الخاص ، ليست وثنية ترتبط بمجرد شفاعات ومطالب ورعاية ، إنما ممزوجة بحب صوفى عميق للوثن يصعب جدا تفسيره !

ويتدخل ونس مجددا : ' أنا أؤيد واعترض ! أؤيد مقولة ' يا عزيزى كلنا وثنيون ! ' هذه ؛ هذا صحيح جدا ، هناك من يعبد مُحَمَّد ، وهناك من يعبد سيف مُحَمَّد ، وهناك من يعبد ذكر مُحَمَّد ، لكن أكثرنا يعبد شيخ الجامع الفلانى أو الداعية التليڤزيونى العلانى . فى المقابل ، طول عمرى بأغلطك فى حاجة أساسية يا حاج : أنك فاكر أنك كمصرى ممكن تطلع من الإسلام بمذاهب صوفية . ده زى الرهان على سهم غلط فى البورصة ، أو -ولا مؤاخذة !- زى إللى بيشم فى طيز القرد . كل ده فشل ، والنصوص والسنة كانوا أقوى بكتير دايما ، وعلشان كده إللى بيسموه التنصير شغال على ودنه دلوقت ، لأنها ما تفرقش : الصوفى زى المرتد ، وكلهم اتقتلوا فى التاريخ الإسلامى . أهل السنة لا يهمهم ما فى القلوب ، ولا يهمهم الإيمان نفسه فى شىء . كل الفتاوى الآن تقول لا بأس بأن تترك الإسلام للنصرانية طالما ستحتفظ بالأمر سرا فى قلبك ، لكن المجاهرة بشىء كهذا خط أحمر لأنها ببساطة تقويض لأصل الفكرة ؛ لكل خطط إقامة دولة وغزو بقية الدول ' .

– مظبوط وموش مظبوط ! مع احترامى ليسوع الذى حوله أتباعه لمسيح وأهدروا رسالته الصوفية ، فهو فرد ، ولا زلت أرى أن أكبر عدد من الصوفيين فى تاريخ المنطقة جاءوا من خلفية إسلامية ؛ لكن الفكرة ليست هنا ، إنما فى أن هناك فارقا مهما بين المصريين والعرب . المصريون أوثانهم روحية لحد كبير ، لكن العرب يجب أن تكون أوثانهم أكثر تجسيدا ، شخص نبى ميت على الأقل ، وهذا هو السقف الأقصى للتجريد الممكن لدى العقل العربى . إله التوحيد الإسلامى يقع للوهلة الأولى على الأذن كشىء تجريدى ، لكن حين تتأمل فيه قليلا تجده متجسدا أكثر مما ينبغى ؛ متجسدا فى أشياء ملموسة جدا بدءا من انتقامه وعذابات قبره حتى جنته وحورياته .

– لقد اتفقنا أنه ليس روحا كإلهى اليهودية والمسيحية ، وليس موجودا فى كل مكان إنما -حسب إجماع الصحابة والتابعين والمفسرين والفقهاء- موجود فى السماء فقط بهيئة جسدية محددة محدودة معلومة ومرئية فى حيز مكانى محدد محدود معلوم ومرئى ، هو موقع العرش العظيم وليس مكان آخر قط ، بل إنه لا يتحرك قط -وهذا ليس كلامى إنما كلام أحنك وأرفع لاهوتيى الإسلام- ذلك لأن الحركة جارحة ، والجارحة تغير ، وهو منزه عن التغير ، لأن التغير يحتمل أفضل ومفضول (كسماء عليا وأخرى دنيا مثلا ، أو فوق العرش أو دونه) . ما يسع السموات والأرض هو علمه ، وهى بدورها ليست خصيصة ميتافيزيائية أو فانتازية جدا كما قد تبدو للوهلة الأولى ، إنما هى بفضل شبكة ملائكته ووكلائه وشياطينه وعفاريته وجواسيسه الواقفة على أكتاف كل بنى آدم ... إلخ ، وهى كما تعلم أشياء مجسدة جدا وشبه مادية فى حياة المسلم اليومية . نعم ، هيئة الكون مختلفة تماما فى عقل الإنسان العربى عن عقل بقية البشر .

– صحيح ، لكن فاتك شىء ، أقصد فات هؤلاء الأحنك والأرفع : هل حين تغيرت القبلة كان قد تغير مكان العرش أيضا ؟ وأين الأفضل والمفضول هنا ؟ طبعا دع جانبا الهرطقات من قبيل دوران الأرض حول محورها أو دورانها حول الشمس ، إلى آخر هذه الخرافات ، ذلك حتى لا نصيب إله العرب بالدوار . نعم ، لا يمكن لأحد أن ينكر أن الإسلام وحده هو من أتى بالتوحيد المطلق ، توحيد كل الأصنام فى صنم واحد ، لكن تظل هناك مشكلة : المكان الذى اضطر أن يضع فيه هذا الصنم ! بما أن هذه الشعوب لا تقوى على التجريد ، فإنها دائما ما تعبد إلها قريبا ، لذا الأفضل إطلاقا أن يكون الوثن شخصا حيا ، كشيخ القبيلة أو صدام حسين أو الخومينى وهكذا ، شفيعا نصيرا champion مجسدا . إن قدراتها العقلية محدودة ونبيهم -لا أكثر ولا أقل : هو كبيرهم ! عمر قال ما فيش زواج متعة ، وعمر ده كبير وما حدش يقدر يفتح [بتشديد التاء] عينه فيه ، يبقى ' ما فيش زواج متعة ' هو كلام ربنا ، والإله الآخر لا شىء . مع مثل هؤلاء الطغاة تكون العبادة فى أعلى مستوياتها ، لأن كل منهم إله يعرفونه برؤية العين ، أقرب لهم من الأنبياء السابقين ، يثقون فيه وينامون متكلين على قدرته الخارقة . لطالما شخصيا جاءنى إحساس أن محاولات إدخال الإسلام الوهابىلمصر منذ السبعينيات ، يمكن أن تؤدى لاجتثاث الإسلام برمته من التربة المصرية .

ويتدخل ونس مرة أخرى : ' صح ! هم أصلا قابلين أبو حنيفة بالعافية ، فتجيب لهم ابن حنبل ! هأ ! هأ ! ' .

– أنا لا أعرف إذا كان كل هؤلاء الأنبياء كذبة أم لا ، لكن أعرف أن هناك إلها تريد الناس التواصل معه . إحنا شطار نقول الشركات تنشأ لتلبية حاجيات اجتماعية ، وننسى أن الأديان كذلك ، فما الذى كان سيلبيه دين التخلف الصحراوى للمصريين ؟ لو احتاجوا الانحلال فلن

يرضوا بقشرة دينية مزيفة له ، فليس من عادتهم الكذب على أنفسهم أو تسمية الأشياء بعكسها . لو احتاجوا دينا مؤسسيا عريقا محترما متماسك الأركان فهناك الكاثوليكية . لو احتاجوا دينا متماشيا مع العصر فهناك البروتستانتية . لو أرادوا الروحانيات فهناك الديانة المصرية الشعبية بصلواتها الأرثوذوكسية أو حضراتها الصوفية . لو أرادوا صلة حميمية مع الله فالمؤكد أن دين عذاب القبر والـ ١٧ ركعة يوميا هو آخر من يصلح لهذا . لو أرادوا أى شيء (فقط باستثناء النهب والسلب) ، فهناك من كان سيقدمه لهم أفضل من الإسلام . ثم أنهم فى كل الأحوال لا يحبون القهر فكيف يقبلون دينا يقول الجزية والفتح وملكات اليمين ؟ ! أقل الأسباب جميعا فى كل هذا أن الچيينات المصرية -رجالا ونساء- ترفض تعدد الزوجات ، ويضرب بها المثل فى كل بلاد الإسلام . إن مجرد تخيير المصريين بين الموالد أو شم النسيم وبين الإسلام لن يكون فى صالح الأخير ، لأن الأولى فى چيناتهم ، وهذا لا . نفس الكلام يسرى على الإخوان ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم استدعوا للقضاء على الشيوعية لا أكثر ولا أقل ، وأن دلوقت !Mission Accomplished خلاص المولد انفض وبيتك بيتك يا كتكوت ، ولو السادات ومُحَمَّد عثمان إسماعيل -إللى بيعتبروا عباقرة لأنهم جابوكم علشان تضربوا الشيوعية وتقضوا على أخطر إمپراطورية شر فى التاريخ- موجودين النهارده ، كانوا جابوا زكريا بطرس على القناة الأولى كل ليلة علشان يقضى عليكم . الإسلاميون لن ينتصروا أبدا ، وسيكونون السبب فى مزيد من التمسك عندنا بالصوفية التى يسمونها البدع ، إن لم يكن الارتداد للمسيحية ، إن لم يكن إجبار دول العالم واحدة تلو الأخرى على تجريم الإسلام . فطرة المصريين تفهم الدين شيئا خالصا للتقوى والعبادة والنسك . وجود أهداف بيزنسية أو سياسية يلوث فى نظرهم الدين الذى يجب يكون فرديا وخالصا لوجه الله هذا الذى يتمسح به أولئك . بقول آخر : جزء أساس من العقيدة المصرية سبقوا إليه يسوع الناصرى بألفيات كاملة أن ' اعط ما لقيصر لقيصر ' و' مملكتى ليست من هذا العالم ' .



بإجماع الفقهاء ، المسلم يستطيع أن يفسد الأرض كلها دون أن يفسد هذا صومه ، أو باختصار : الجريمة الوحيدة التى تستوجب الحد فى الإسلام هى الصدق !

– ألم تسأل نفسك ذات مرة يا وحيد لماذا لم تكن مصر يوما عاصمة للخلافة الإسلامية ، رغم أنها المركز الديموجرافى للدولة الإسلامية ، والأهم أنها مركز الثروة أيضا ؟ ألم تسأل نفسك لماذا حتى لم يضعوا على رأسها واليا مصريا ولو ليوم واحد طيلة ١٤٠٠ سنة ؟ لماذا حين جعلوا مكة والمدينة فى غمضة عين -رغم كل جلالهما وقدسيتهما- مجرد منافى ترسل إليها عائشة للإقامة الجبرية حتى الموت بعد هزيمتها فى موقعة الجمل ، اختاروا دمشق وبغداد عواصم لهم وليس منف أو الفسطاط ؟ قد ترد على وتقول الأمويين كانوا زنادقة ، والعباسيين لم يعرفوا سوى الخمر والنساء والغلمان ، ومصر أولى بالخلافة لأنها متدينة ، أجيبك فأقول لك : بالضبط ! هذه هى المشكلة : أنها متدينة ! هذا يشبه عندى سؤالا آخر : ألم يكن المجتمع المسلم سيصبح أفضل لو ترك مُحَمَّد له المرأة الغامدية الزانية التوابة الطهور -ومثلها ماعز زانى المرود والمكحلة- دونما رجم ؟ ... بالضبط ! هذه هى المشكلة : أنهم متدينون ! كان لا بد من جعلهم عبرة لمن لا يستطيع التمييز بين الظاهر والباطن . ليس المطلوب التطوع بالقداسة والعفاف ؛ إنهما مضران ومطلوب الفسق والفجور لأنها أساسية لاستمرار العشيرة البيولوچية ، تماما كما أن مظهر التدين مطلوب لذات الغرض . من لا يملكون مهارة الكذب هم خطر على المعادلة البيولوچية العربية القائمة على المخادعة لاختراق أسوار مدن الحضارات . لقد وجدوا كل تلك الشعوب فى الهلال القحيل وغيره شديدة العنف بدوية رعوية الطباع كثيرا مثلهم (رغم مرور أنهار متعددة بها) ، ذلك أنهم ببساطة أصل العرب ، أما المصريون فأناس ذوو طباع مختلفة بالكامل : متدينون بجد ، وما كارثة أدهى من هذه ! بينما يرجم مُحَمَّد الغامدية وماعز رغم توبتهما ، يعفى يسوع المجدلية من الرجم رغم أنها لم تكن نادمة على شيء ، ثم يذهب لوحده لخطبتها فى السامرة ويجعلها ذراعه الأيمن فى دعوته . ارو قصة الصفح عن فاجرة علنية هذه ، لأعرابى وسوف تراه قد قفز هلعا لفعلة يسوع الخرقاء والانتحارية چيينيا من وجهة نظره (ذهاب يسوع للسامرة دون أتباعه تصرف غير مالوف واستثنائى للغاية منه ، يثبت أن المجدلية هى عينها المرأة السامرية وعينها زانية الرجم وعينها ماسحة الرجلين بالطيب ، إن لم يكن بخلاف الرابعة مجهلة الاسم ' الأم ' شاهدة الصلب ، كل هذا لأن كل هؤلاء الخمس هن ببساطة زوجة الريس السرية وحاملة نسله المهدد بالفناء فى تلك البركة الچيينية العدائية الخطرة !) .

– على الأقل احتفظا بعلاقتهما سرا ، بإجماع الفقهاء ، المسلم يستطيع أن يفسد الأرض كلها دون أن يفسد هذا صومه ، أو باختصار : الجريمة الوحيدة التى تستوجب الحد فى الإسلام هى الصدق ! ألا يشبه هذا تفكير العرب ككل ؟

– بس مين قال العرب ضد الأسوار على طول الخط ، ما سمعتش عن سور الكرهان الكريه ؟ لا تملك مدنا تبنى حولها أسوار ، ابنى حول ما تملك ، الكلام !



إن المعارك التى تصدى بها الأقباط للعرب محدودة ورمزية ،

مع ذلك الجميع -من خلفاء بنى أمية أبناء العاهرات حتى شيخ الإسلام ابن تيمية- يصنفون مصر بأنها بلد أخذت قسرا ،

لأنهم يفهمون أن ليس بالمعارك وحدها يقاس العصيان .

بذلك هو يلخص قرونا طويلة لم يحدث خلالها أن اعتبر خليفة واحد مصر بلدا مسلما إسلاما حقيقيا يرتكن إليه أبدا !

– ربما ، الظاهر والباطن عند أعرابى الصحراء أمر أعمق من الدين والأخلاق ؛ الخداع سلوك يومى شديد الحيوية ويستخدمه فى كل شىء ، لأنه مرتبط بالحصول اليومى على لقمة العيش . هل تعرف أصلا معنى كلمة مصر ؟ سيبك من حكاية مصرائيل وهبل اليهود إياه ؛ عربيا كلمة مصر كلمة سيئة المدلول وعدائية بالمثل . إنها المكان الذى له حدود ، والبدو يكرهون كل ما هو أمصار أو له أسوار . بالمثل ، الكلمة تعنى إيحائيا الجيران الغامضين ، وهو وصف لم يقولوه عن الروم أو فارس أو أى أحد . منذ الوهلة الأولى بدت مصر للفطرة الهجامية للعرب كشىء مختلف جدا ، مهما اجتاحوها فستظل فى نظرهم هى هذا الحصن المنيع جدا ، ومن ثم أسموها ذلك الاسم الغريب جدا (وهذا راسخ حتى اليوم فى عقولهم الباطنة بدليل أن الفلسطينين ينسحبون تلقائيا بعد كل اجتياح منهم لسيناء ، مجرد سيناء) . إن المعارك التى تصدى بها الأقباط للعرب محدودة ورمزية ، مع ذلك الجميع -من خلفاء بنى أمية أبناء العاهرات حتى شيخ الإسلام ابن تيمية- يصنفون مصر بأنها بلد أخذت قسرا ، لأنهم يفهمون أن ليس بالمعارك وحدها يقاس العصيان . بذلك هو يلخص قرونا طويلة لم يحدث خلالها أن اعتبر خليفة واحد مصر بلدا مسلما إسلاما حقيقيا يرتكن إليه أبدا ! فى الكرهان مصر فرعونية كافرة ، وفى كلام النبى كل حديث نبوى قال خيرا عن مصر أو أنها خير جند الأرض أو ... أو ... إلى آخر هذا الهراء ، باطل مكذوب وهذه من البديهيات التى يعرفها كل دارس للحديث ، وعلى أخينا ونس أن يرسلها لعلماء الفلكلور ليعرفوا أحلام يقظة من بالضبط هى . إنه شىء معنوى أساسا ؛ إنه هاجس ربما ورثوه بالعقل الباطن عن اليهود ، مصر أرض السحر والغموض وأهلها سيقضون عليك ليس بالسيوف ، إنما بأسحارهم وتعاويذهم . لقد أدركوا فورا أن مصر هى التى ستستوعب الإسلام وتحوله لشىء آخر ، وليس هو الذى سيبتلعها ، ولو ولوا عليها مصريا لاستقل بها وربما أيضا عاد هو نفسه للمسيحية ، فحرصوا دوما على جعلها من بلاد الهامش . المصريون لا يجيدون سفك الدماء ، وبدون أنهار دماء ، الإسلام لا يعود إسلاما ولا يعود نظاما ناجحا للحكم ، حلو الكلام كده يا ونس ؟ (ثم يعود لوحيد ضاحكا وقد تذكر شيئا :) بالمناسبة ، ما رأيكم كعلمانيين فى بتولية العذراء مريم ؟

– الأمر واضح ولا يحتاج لرأى . من المؤكد أنها ليست ربة الطهر والعفاف . واقعيا هى مجرد فتاة يهودية صغيرة غير متعلمة ، ومعلوماتها محدودة كثيرا عن كيف تتعابث مع خطيبها وتتفادى الحمل فى نفس الوقت !

– مولد العذراء الجاى بيحضره ٦ مليون ، ممكن تيجى وتقول لهم الكلام ده بنفسك !

ويغنى ونس : ' الليلة الكبيرة يا عمى ، والعالم كتيرة ! ' .



أخيرا وجدت أن البوذية هى أعظم الأديان جميعا !

يسترخى الجميع على مقاعدهم ، وتسود من جديد لحظات طويلة من الصمت ، يقطعها أخيرا ضهرى أكثر الجميع شرودا بتمتمات خفيضة الصوت : ' لا أعتقد أن مصر يمكن أن تعود ثانية لإسلامها المتسامح الطيب الذى تعودته لقرون . هذا لم يكن إسلاما إنما سرقة منها لكلمة الإسلام ووضعها على دينها الخاص ، ولا بد أن تسمى الأشياء بمسمياتها يوما . بعد كل هذا الانفتاح الإعلامى ، والتعرف الهائل على الإسلام السلفى من جهة وعلى المسيحية من جهة أخرى (الفريقان الرئيسان اللذان يعبران بصدق عن عقيدتهما ، ولا يخفيانها كالإخوان) ، أصبح على مصر إما أن تختار المسيحية أو أن تعود لعقيدتها القديمة الأصلية ، وإما ربما طبعا أن تخترع نسختها الخاصة جدا من العلمانية . الزلازل الذى جرى للإسلام لا بد وأن يمس الطرق الصوفية ، إما ستنكمش شيئا فشيئا مع زيادة التعليم والوعى ، وإما ستخف المفردات الإسلامية تدريجيا من خطابها ، لكن فى كل الأحوال الإسلام المصرى كما عرفناه ، قد انتهى للأبد ! ' .

ثم فجأة يبدر ضهرى إدوارد بسؤال مباغت : ' أنت تشتغل فى السمسرة ، هل تعرف ما معنى هذه الكلمة ؟ ' .

– (باستغراب :) ماذا تقصد ؟ السمسرة هى السمسرة ، الوساطة بين ...

– السمسرة كلمة هندية معناها حلول الروح فى كائن آخر بعد الموت . إنها أحد أركان العقيدة الهندوسية . (ملاحظا أن الجميع انضموا يشاركون إدوارد استغرابه :) هذا سخف ! لقد عكفت طيلة الشهور الماضية على دراسة ديانات الشرق ، الهندوسية والطاوية والكونفوشيوسية حتى الشنتوية ديانة ذوى الدم الإمبراطورى اليابانيين .

ونس ساخرا : ' هأ ! الزوجة تبعث لزوجها والحور العين والولدان المخلدون وأنهار الخمر واللبن والعسل وبول البعير ، أليست هذه سمسرة أيضا ؟ ! ' .

روميو جادا : ' وماذا اكتشفت يا حاج ؟ ' .

– أخيرا وجدت أن البوذية هى أعظم الأديان جميعا !

يصيحون بنفس واحد : ' البوذية هى الحل ! ' .

– إذن أخيرا عثرت على الحقيقة ؟

– (بهدوء وسلام شديدين :) نعم يا روميو ، الحقيقة التى تؤمن بها البوذية هى أن لا وجود لحقيقة فى متناول اليد . عندما تسأل بم تتباهون فى تاريخ بين النهرين يقولون لك حامورابى اخترع القوانين . فى الواقع ليس فى هذا ما يثير التباهى ، لأن السبب هو أن شعوب غرب آسيا المسماة الساموية هى أحط وأجرم شعوب الأرض فقد احتاجت لشريعة حامورابى وشريعة موسى وشريعة مُحَمَّد ؛ الدين عندهم قانون عقوبات والإله God-the-Cop . لو لم يكن إله موسى يحقق انتصارات حربية للقبيلة لما اتبعه يهودى واحد ، ولو لم يكن إله مُحَمَّد منتقما جبارا متكبرا مذلا قهارا مكارا غدارا كذابا كيادا ظالما مضلا فاسقا سفاحا مجرما سافلا واطيا وغدا وأكثر شيطانية من أى شيطان سبق للناس تخيله ، لما خاف منه عربى واحد والتفت لمن يتكلمون عنه . بينما فى ذات كل هذا الوقت -وربما قبله- كانت بقية شعوب التحضر الحقيقى تفكر فى أشياء من قبيل الغاية من الوجود وسر الحياة والروح وكيفية الوصول للإله . اليسوعية الغنوصية كانت بالقطع أعظم ' طريق ' للرب فى حينها ، وكانت فكرا عبقريا بالتأكيد ، لكن بولس ويوحنا اغتالوها وقتلوها فى مهدها وحولوها لدين وعقيدة وطقوس وبعد قليل تحولت منطقيا وتلقائيا لسلطة . أنا لم أرتح بالكامل يوما لديانات التوحيد ، الديانات المتجلاة revealed الثلاثة ، ولم تعجبنى فكرة الإله الذى يرسل لنا بالإجابات من خلال كلمات مباشرة واضحة -ولا أقول ساذجة- على لسان أشخاص بعينهم . حتى المسيحية أكثر الثلاث صوفية ، بالذات فى نسختها الأصلية ، اختزلها الأتباع فى حل أبسط من أن يعقل : بمجرد أن وجدوا شخصا بمثل ورعه ، أعلنوا بتسرع أهوج أن ملف التحقيق قد أغلق : هذا الممسوح من كل الأوزار هو المسيح المنتظر ؛ يسوع هو إله السماء شخصيا ، وتوتة توتة فرغت الحدوتة ! بصراحة ، أنا أفهم أن اليسوعية-المجدلية الغنوصية الأصلية يمكن أن تستوعب أن يسوع هو المسيح بالمعنى المجازى للكلمة ، ذلك لأننا لو اتبعنا أفكاره -أى يسوع- المثالية الروحانية فلن نكون فى حاجة لانتظار مسيح أصلا لأننا صرنا بالفعل كلنا أبناء الرب ، بل كل منا الرب نفسه ، وهى الفكرة القاعدية لكل صوفية لاحقة لدى جميع الشعوب ، لكنى مع ذلك أحترم عقلية اليهود الذين رفضوا قبول أن بمجرد طرقعة إصبع من هذا النوع ، أصبح يسوع نهاية التاريخ ، قد غفرت كل الخطايا تجلى كل المستور وأجيبت كل الأسئلة . أنا يعجبنى هذا الرفض فى حد ذاته ، لأن الأسئلة الكبرى لا يجاب عليها إجابات بسيطة . (مشيرا لوحيد :) نعم أعلم أنهم كذبوا كل الأنبياء بمن فيهم موسى ، وفترات إيمانهم بالإله الخفى هى الاستثناء ، وأعلم أن وحيد يحترم فيهم علمانيتهم وحضارتهم التقنية الحالية لكن ربما ليس السبب فقط الاختلاط الچيينى مع أهل بلاد الشمال أو البيئة الباردة اللتين يراهما قد صنعتا عرق الأشكيناز ، وأدقق له أن العلمانية لديهم أكثر قدما وتجذرا وديمومة وأيضا چيينية . (ثم يعود لسياقه الأصلى :) المعابد البوذية تقع فوق الجبال ، ويجب أن تعانى حتى تصل إليها للتعبد . الشىء العادى أن تعيش وتموت دون أن تعرف الإله أو الروح ، النادر هو تلك القلة التى تفلح فى الصلاة إليه ، تحرير روحها من أسر الجسد ، وهذا هو البوذا ، ومعناها المستنير ، أى من وصل لمرحلة الاستنارة . إنها حتى لا تقول إن قمع الجسد يحرر الروح ، بل الواقع أن بوذا نفسه نهى عن هذا ، تخيلوا ؟ ! الإله أو الآلهة التى يتصورونها البوذيون آلهة رفيعة عزيزة ، ليست لزجة تقصفنا طوال الوقت بالوحى والأنبياء والتعليمات ، وتذهب معنا حتى لدورات المياه . الإله الذى يرسل رسلا ومبعوثين عنه طوال الوقت إله ' ثقيل ' سخيف رزل ، ولا يمكن أن يكون إلها !

يسخر ونس : ' قل ولا تقل : لا تقل رسول الله ، قل رزول الله ! ' . وأيضا تعلق منى ضاحكة رغم هيبة الموقف : ' حقن راكبة جوه حنفيات يعنى ؟ ! ' .

ويجاريهما والدها المرح : ' بنقول العرب هم الجهل الچيينى : يقولون ليس المهم الأرض ، المهم البذرة . بماذا تسمون اليهود الذين ينسبون الطفل لأمه ، ويقولون ليس المهم البذرة ، المهم الأرض ؟ ' . ' الجهل الچيينى الآخر ! هأ ! هأ ! ' . ' ولماذا لا تقولون ذكاء اكتساب الچيينات الممتازة ؟ هأ ! هأ ! ' .



تتحدثون كثيرا عن جنة عدن وجنة القناطر والجنة السماوية وجنات المستقبل اليوتوپى وغيرها وغيرها ، لكن الواقع أن هذه الأرض لم ولن تعرف سوى جنة واحدة فقط لا غير : مصر القديمة ؛ أرض الوفرة والخير والحب والسلام ، التى لم ينغصها عليهم شىء بما فى هذا حتى غزوات إبليس الصحراء من حين لآخر !

ويعود روميو مواصلا سخريته : ' إحنا مالنا ومال أديان التوحيد ! النهارده يوم سيدخل التاريخ : الحاج ضهرى المصرى اكتشف أن إيزيس موش الألف والياء ولا الفجر والعشاء ، ولا حتى أعظم الأديان ! هل معنى كده أنى ممكن أنام مع إيزيس دى من غير ما تزعل يا حاج ؟ ما تنساش أنا وهى أصحاب قدامى من أيام السياحة ، بس كنت بأتدلع عليها واقول لها صوابع حتحور أحلى ! ' .

– تتحدثون كثيرا عن جنة عدن وجنة القناطر والجنة السماوية وجنات المستقبل اليوتوپى وغيرها وغيرها ، لكن الواقع أن هذه الأرض لم ولن تعرف سوى جنة واحدة فقط لا غير : مصر القديمة ؛ أرض الوفرة والخير والحب والسلام ، التى لم ينغصها عليهم شىء بما فى هذا حتى غزوات إبليس الصحراء من حين لآخر ! كان من الممكن أن تقول لقد خرجنا من الجنة وانتهى الأمر ، لكنك لن تمنع كل الناس من مواصلة البحث الأبدى عن الفردوس المفقود . الجهلة الحاليون يعتقدون أن المصريين كانوا يعبدون تلك الآلهة الشهيرة بنفس مفهوم العبادة الساموى أى الإله فتوة القبيلة وناصرها ، يدافع عنها مقابل رفع مؤخراتهم سجودا وطاعة له . إنهم -المصريون- لم يكونوا حتى يحتمون بتلك الآلهة من الطبيعة ، بمعنى خوفهم هم من نقمات الطبيعة . الحقيقة أن دور تلك آلهة كان حفظ النظام والاستقرار والتناغم والانسجام والهدوء والسلام ، فى الكون والطبيعة وبين الناس وداخل الإنسان نفسه . مصر هى أصل فكرة وحدة الوجود القائمة حتى الآن فى ديانات الشرق ، وما عبده المصريون ليس هذا الإله أو ذاك ، إنما ذلك التناغم والتوازن والانسجام فى الكون والكائنات . تأليه الفراعنة جاء من هنا ، تأليه مستحق بفضل قدرتهم على حفظ الأمن والنظام ، وليس لخوف الناس منهم ، أو لاستبدادهم هم أو تعاليهم . كلنا نقول ست إله الشر أو إله الصحراء والصحراويين ، الحقيقة أنه أكثر تحديدا من هذا : هو حرفيا إله الفوضى -إله الاضطراب أو الإخلال بالنظام . حتى الجهلة الحاليون يفسرون الإلهة معت أو مفهوم المعت بأنه العدالة . أيضا العدالة هاجس صحراوى نتيجة الحقد على ما تحققه الأمم الأخرى من ثروات ورفاهة عيش ، إنما معت تعنى حرفيا الهارمونى . نعم ، لا تعنى حتى مجرد الحقيقة كما قد يقول البعض ، إنما تناغم كل الحقائق معا ! يا روميو ، إيزيس هى الديانة الأعظم بكل المقاييس ، المشكلة أن مصر القديمة كان يؤرقها سؤال واحد هو الخلود ، إلا أن هذا لم يعد اليوم هاجسا يذكر للإنسان المعاصر . لقد جعل الطب الحديث متوسط أعمارنا أربعة أو خمسة أضعاف أعمارهم ، والأرجح أن أحدا لا يهتم بالخلود وقد عاش مائة سنة أو أكثر . أيضا الهندسة الچيينية تتيح لك أو لجد جدك التناسخ لو أنت تعرف مكان قبره ، أو كنت تحتفظ بشعرة أو ظفر منه لو كنت مثلا قد حرقت جثمانه .

– (يعلق روميو ببعض الجدية هذه المرة :) وحدة الوجود ! إيه الحلاوة دى يا حاج ! فعلا أنا أعرف أن الآلهة فى مصر القديمة ليست قوى خارجية مستقلة عن الإنسان ، إنما الإلوهية تنبع من داخل الإنسان من خلال تقربه فتوحده مع الآلهة ، نيرڤانا يعنى ، طالما الحاج بيكلمنا بالبوذى . يعنى يا إدوارد أنتم أخدتم معت وسميتوها الروح القدس . هأ ! هأ ! بالمثل ، الشفاعة يجب أن تفهم بهذا المعنى ، وليست بمعنى التواكل بتاع الموالد الحالية . حتى الخلود نفسه يا حاج لم يكن رعب من الموت كما يقول الجهلة إللى بتقول عليهم . أنا قرأت نظريات كتيرة فيه . أحيانا يفسر كما تقول كفلسفة وحدة الوجود والتواصل مع الآلهة أو مع أرواح الأجداد ، حيث يعتقد أن هذه الأرواح لا تزال حية وداعمة لحياة الأبناء والأحفاد الأحياء ، وأحيانا يفسر كمجرد معيار مجتمعى -أى غير دينى أصلا- لشفرة القيم ، وأحيانا كمجرد رمزية عامة تعبر عن حب المصريين للحياة الدنيا ، أو أحيانا كمجرد الخلود فى ذاكرة التاريخ -أى نحن ، بل وأتى على مصر بعض الوقت وكفرت به صراحة باعتباره خرافة (كأغنية هارپ فى قبر أنيوتيف مؤسس الأسرة الحادية عشرة وابن منحتب الأول مدشن كل المملكة الوسيطة ، تنعى ضياع قبر الأب رغم عظمته ، ومنه

تشكك فى المبدأ نفسه) ، وأنت طبعا سيد العارفين يا حاج ! (يصمت قليلا ثم يعود للسخرية :) بس أنا عندى سؤال يا إدوارد ، أنتم بتقولوا الملكوت هو التمتع بوجود الرب ، هل معنى كده أن ربنا موش ها يكون موجود عندنا فى النار ؟ يا نهار أسود ! فيه حتة ربنا موش موجود فيها ؟ ! طبعا مستحيل بناء على تعريف الرب الأهبل بتاعكم . إذن بما أنه موجود فى النار ، فهو مجبر على قبول توبتى ساعتها ! هأ ! هأ ! هأ !

– لا تفهم أنى حين أتكلم عن البوذية أنى أقول إن عقيدة مصر ماتت فينا كمصريين . قطعا لم يستطع أحد من الديانات الوافدة -ديانات التوحيد الحقير- قتلها ، لكن للأسف نجحوا على الأقل فى تجميدها . أما معظم أديان الشرق -بنات إيزيس- فقد راحت تتطور وتنمو فى رحلة البحث . لم تتحجر قط كأديان جامدة بالمعنى المعروف فى الشرق الأوسط ؛ كلها يقبل اعتناقك لأى دين آخر من الباطن ، لأنها ببساطة عملية بحث عن الإله (النيرڤانا ، الفردوس ، سمه ما شئت) ، هذا الذى لا تجزم أصلا بوجوده من عدمه ، أو بتعدده من وحدانيته ... إلخ ؛ لذا البوذية هى الأرقى تماما الآن ، لأنها صارت الفن الأمثل لطرح الأسئلة . إنها أبرع الجميع فى هذا : إحالة كل شىء لتساؤلات ، وكلما اقتربت من الإجابة ، جعلتك تسخر من نفسك لأنك ساعتها ستجد نفسك تطرح المزيد من التساؤلات . البوذية واصلت دونما عن كل الأديان رحلة التأمل والنضج والعمق ، بما يجعلها الدين المناسب تماما للعصر الحالى . إنها لا تجزم حتى بخلود الروح التى تتسمسر ، بل يميلون لأنها روح متغير طوال الوقت ، ويشبهونها بالنار التى تختلف محتوياتها فى كل لحظة عن الأخرى ، مع ذلك تبدو مستمرة متواصلة . لا شىء دائم ، والكل متغير ، أليست هذه فكرة حداثية للغاية سبقوا إليها عصر ' صدمة المستقبل ' بآلاف السنين ؟

– (يعود روميو للسخرية :) بس الصوفية العالية أوى دى يا حاج ، ما ينفعش تيجى بالعقل إللى أنت مشغله على طول ده . النيرڤانا محتاجة حاجات تانية خالص ما لكش فيها : عاوزة مثلا قعدات يوجا بالأيام ، وكمان -وأنت سيد العارفين بمشاهير الصوفية حتى المسلمين منهم- عاوزة والعياذ بالله المسكر ، زى إللى قدامنا ده وإللى أنت ما بترضاش تشرب منه أبدا . يا حاج أنت بتدور على روحانيات ، والأديان موش ها توصلك إلى إللى أنت عاوزه . رأيى تروح تجرب الحشيش أحسن ، صدقنى ها يطلعك سما الروحانيات نفسها . ها تقول لى الخمر والحشيش نيرڤانا مزيفة ، أقول لك دى أحسن بضاعة موجودة ، ومن غيرها موش ها توصل لأى حاجة . أقول لك حاجة وما تزعلش من أخوك الصغير يا حاج ؟ أنا رأيى أنك تروح تكشف أحسن ؛ لازم تعرف عدوى چيين البوذية دى جت لك منين ؟ ! ... ولا إيه رأيك يا أستاذ وحيد ؟ موش أنت أثبت من أينستاين استحالة وجود إله ؟

– (ضهرى لا يتيح لوحيد فرصة الرد لكن مع ذلك لا يتخلى عن نبرته الهادئة :) غير صحيح . هو أثبت استحالة وجود إله كلى القدرة ، وفعلا مستحيل إثبات أن الله واحد ، لكن جايز مثلا أن فيه إله لكل مجرة . هل القناطر أو حتى البيت ده بناه شخص واحد ، فإيه المانع أن يكون كل إله بنى له حتة فى الكون ! ... هل تعرف أن نظرية الانفجار الكبير أصلها فرعونى ؟ ! الإله أتوم أول الآلهة (إللى سموا الذرة على اسمه) ، بدأ الكون بنقطة صغيرة ثم توسع وتوسع فى الخلق . لهذا كانوا يبنون قدس الأقداس فى المعابد المصرية حجرة صغيرة جدا متواضعة ومظلمة ، تبدو نقيضا غريبا لكل بهاء وهيبة المعبد ، رغم أنها أهم مكان فيه !

مع ذلك يستطيع وحيد بالكاد تمرير عبارة واحدة خبيثة : ' إللى أنا شايفه أنك لم تتحول للبوذية ، إنما تحاول إحياء العقيدة المصرية القديمة ! ' .



وكأنها معركة بين دجاجتين نافرتين تتصارعان على أحد الديكة

فجأة -وكأنه لا يريد الاستطراد فى هذا الحوار- يدعو ضهرى الجميع لمباراة كرة القدم فى الفناء الخلفى : ' بسرعة ، حتى لا يتأخر بنا الوقت على اللعب ! ' . ملعب صغير لكن مجهز بمرميين . روميو يقول ما ليش فى الكورة ، فيضع نفسه للمرة الألف هدفا لتقريع ضهرى وسخريته . الكورة دى لعبة ستات دلوقت . ستات إيه ؟ أنت ما حصلتش حاجة . الستات زى الرجالة . ده بيقولوا قريب الفرق ها تبقى مشتركة رجالة وستات . يقول روميو : ' إذا كان كده معلهش ! ' ، ' قصدك إيه ؟ ' ، ' قصدى نلعب كلنا رجالة وستات ' . لوهلة فوجئ ضهرى بالاقتراح ، لكن بسرعة أبدى حماسا ، لم يسبقه له إلا حماس سامر للعب مع حبيبته . رضخ ضهرى قائلا : على الأقل ها تبقى أول مباراة مشتركة فى تاريخ القناطر . القناطر إيه ؟ فى تاريخ مصر .

بدءوا تشكيل الفريقين . بما أن ضهرى هو ' المحترف ' الوحيد ، فعليه على سبيل التوازن أن يضم ونس الذى لا يستطيع التحرك مطلقا فى فريقه . يوافق بسهولة : ' ها أسد به الجول . ها أعمله جول كيبير ! ' . تقول إجلال : ' أنا صحتى ما تساعدنيش على أكتر من جول كيبير ' . طبعا يلقى هذا القول عاصفة من الاحتجاجات بأنها الأكثر شبابا من الجميع . منى أيضا أكدت ذات الشىء وراحت تقبل أمها . يقبلون اقتراح إجلال على أية حال ، ويضم فريقها وحيدا زائد الثلاثى أسد وعارف ورزق الذين اختاروا أن يلعبوا معا . وتطلب إجلال أن تكون ألطاف فى خط الدفاع أمامها مباشرة وإلى جانبها مينا . روميو وسوسن وإدوارد وسامر وميرفت يشكلون بقية فريق ضهرى وونس . منى ترفض دور الحكم وتصمم على اللعب . تلحظ أن سماء انسحبت بعيدا وغرقت فى أحاديث مطولة لا يعرف أحد عنها شيئا مع ماريلين . سحبتهما منى سويا ، يا تانت ها تلعبى فى فرقة ماما وأنا ها ألعب فى فرقة پاپا ، وجدتو هى الحكم . يصفقون جميعا للاقتراح ، ويقطع ضهرى كل هذا اللغط بصافرة طويلة كانت جاهزة فى جيبه .

كان الرجال -عدا وحيد- جاهزين بأحذية رياضية ، أما السيدات -عدا ميرفت- فبالكعوب العالية . هرعت منى لداخل المنزل ، وأحضرت كل أحذيتها وأحذية أمها الرياضية ، وأحضرت معها نوعا من السپراى اعتادت استخدامه مع الأحذية ، وعددا من الجوارب الرياضية . ناسب أحد أحذيتها سماء ، وناسب أحد أحذية أمها ألطاف ، وبدت سوسن سعيدة بأن ستلعب حافية على النجيل الأخضر . باستثناء ضهرى بالطبع ، سوسن وألطاف كانتا النجمتين . جزئيا بسبب فتنتهما الجسدية الأخاذة التى أبرزها الجرى والحركة أضعافا مضاعفة . وجزئيا لبسالتهما فى اللعب والمراوغة ، بالذات أكثر من مرة ضد بعضهما البعض ، وكأنها معركة بين دجاجتين نافرتين تتصارعان على أحد الديكة ، واحدة بتنورة بالغة القصر وأخرى ببنطلون شديد الضيق ، وبأنصاف علوية للأجساد راحت تنطلق بحرية داخل البلوزات الخفيفة مستغلة طراوتها ومرونتها . عامة لا أحد آخر يجيد شيئا يذكر فى اللعب ، وعلى رأسهم ونس حارس المرمى الذى لا يحرك ساكنا . سامر بدا رياضيا بالفعل ، لكنه كان مهتما بمتابعة ميرفت أكثر من متابعة الكرة . منى اتضح أنها غير رياضية بالمرة ، وظلت تعد طوال الوقت بأن تغير نظامها الغذائى ، وأن تستغل ما لديها من أحذية رياضية مركونة فى الجرى والتدريب . سماء لم تتميز عنها كثيرا ، لأنها لم تبذل مجهودا أو بالأحرى بدت مستغربة من الأصل لفكرة أن تمارس لعب الكرة . يظل أفضل من استمتع بالمباراة إطلاقا ، الكلب مايتى الذهبى الرشيق متوسط الحجم ، الذى جرى وراء الكرة أكثر من أى أحد آخر ، وتارة كاد يتسبب فى تعثر حبيبته المفضلة منى على الأرض ، وتارة ذهب للوقوف بجوار جدتها حين شعر بأنه فعل شيئا خطأ !

حين أطلقت ماريلين صافرة النهاية ، كان ضهرى قد أحرز ثلاثة أهداف فى إجلال ، تلقت تعنيفا عليها من فريقها مع اتهام ضمنى بأنها تتساهل مع زوجها . هذا فى مقابل ثلاثة لأسد وعارف ورزق فى ونس ، تلقوا بدورهم كيلا من الوعيد بالانتقام منهم لدى العودة للشركة وأنه سيحجب عنهم نصائحه الثمينة ، فصارحوه ربما لأول مرة أن لا أحد فى كل رمسيس يأخذ نصائحه على محمل الجد . بعد الصافرة اقترحوا ضربات جزاء ، ثم غرقوا فى خلافات لا نهائية فى احتساب الأهداف ، وهل تحرك الحارس قبل انطلاق الكرة أم لا . وضجرت ماريلين من محاولاتهم تلقينها القاعدة تلو الأخرى طوال الوقت وانسحبت . وانتهت المباراة دون نتيجة محسومة ، وكل فريق يدعى النصر لنفسه ، لكن مع إجماع من الكل ، بمن فيهم سماء ، بأنها كانت متعة حقيقية ، لم يحدث أن مروا بها من قبل .



وأنا ما يهمنيش المجتمع ولا بقشرة بصلة

حين تهدأ الأجسام من انفعالات الكرة ، تنبه ماريلين الآخرين أن مايتى اختار الجلوس تحت قدمى وحيد . هذا شىء لم يفعله قط مع ضيف من قبل . طوبى لأنقياء القلب لأنهم يرثون ملكوت الله . أى منهما بالضبط تقصدين بأنقياء القلب ؟ احترسى قليلا فى أحكامك ! من تتخيلين أنه نقى القلب ربما يكون هو المسيح-الضد شخصيا ! هأ ! هأ !

بعد قليل ينفرد ضهرى بروميو ويقترح عليه أن ' يلم ' ألطاف ويصلح غلطته ، فيرد على غير عادته بجدية غير مصطنعة هذه المرة : ' أنا بأعمل لها كل إللى بأقدر عليه ' .

– أنا عارف . أيوه عارف . أنت فاكر أنها جت بالساهل النهارده ؟ طبعا كانت رافضة تيجى فى رحلة كلها ناس زيكم . أخدت منى حوار طويل ، وطبعا حكت لى كل حاجة . أنا لى نظرة فى الإنسان . ومن أول لحظة حسيت أنها إنسانة طيبة . النهارده اتأكدت لى حاجات كتير فى شعورى ده . أمى استطلفتها وده تقريبا معجزة أنها تعمل كده بسهولة مع أى حد . كمان إجلال واخداها معاها خطوة خطوة فى كل حاجة ،

موش بتعاملها كواحدة ضيفة غريبة من طرفى . الموضوع جايز عاوز تحليل نفسى . الست دى عقلها ضاع لما لقت نفسها حامل . نسيت كل حاجة وطلعت جواها مشاعر الأمومة والكرامة والإحساس بالحرمان . قالت من حقى يكون لى طفل ، وما حسبتش أى حسابات للى ممكن يحصل بعد كده . ما سألتش نفسها حتى أن أى طفل لازم تكون له شهادة ميلاد . اسم أب !

– بص يا عم ضهرى : أنت أخ كبير . أنا ناوى أعمل كده فعلا . بس على الورق . وكمان ها أشارك فى مصاريف تعليم جميلة . علشان أكون صريح معاك ومع نفسى ، أولا أنا ما يفرقش عندى أتجوز واحدة زى ألطاف أو أعيش مع واحد راجل . المجتمع لا بيحترم لا دى ولا دى . وأنا ما يهمنيش المجتمع ولا بقشرة بصلة ، يعنى زى ما عشت سنين مع روبرت ممكن أتجوز ألطاف وأعيش معاها .

– (ضاحكا :) أنت قارح . دى أنا متأكد منها !

– إنما الفكرة أن الصدق مع نفسى بيقول لى أن الارتباط ده أو ده لا يمكن بدون حب . أنا علاقتى بأى ست ما وصلتش لمرحلة الحب أبدا . أنا حبيت مرة واحدة فى حياتى ، وانتهت حياتى على كده .

يربت عليه ضهرى قائلا باحترام ولأول مرة بدون عدوانية : أتمنى لك أن تجد حبا جديدا كحبك القديم . إنما دلوقت خليك واقف جنب ألطاف ، وأنا من ناحيتى ها أحط موضوعها فى بالى . إنما لو الوضع استمر كده ها تضطر ألطاف ترجع للدعارة تانى ، والبنت ها تطلع تشتغل نفس شغلة أمها ، ما فيش مفر . هى واهمة أنها تقدر تمنع ده ، لكن مستحيل ، دى مجرد أحلام . مصاريف البنت ها تكون فوق الوصف ، وللأسف هى تعليمها معدوم تقريبا ، لو ترضى تشتغل حاجة يدوية عندنا فى المزرعة أهلا وسهلا . أشوف لها وظيفة عند حد من معارفى أهلا وسهلا . شوف رغبتها إيه ، وإللى ربنا يقدرنى عليه ها أعمله . ومين عارف جايز يظهر لها ابن الحلال إللى يحبها ويسترها ويسعدها .

– عارف هى ممكن تتجوز مين ؟

– مين ؟

– رمانة بتاعة وحيد . بيقول عليها طيبة جدا ، وكمان حلوة !

– آه ، يا وسخ !

– إيه الوساخة بس فى كده ؟ أنت موش لسه بتتمنى لى أحب تانى ؟ صدقنى ها يفهموا بعض أكتر من أى حد تانى ، وها يربوا العيال أحسن تربية ، ويعيشوا أحلام هند وكاميليا !

حين يستدعونها ويعرضون عليها كل ما توصلوا إليه (باستثناء هذا الاقتراح الأخير طبعا) ، ترد بفرحة واضحة : أنا موش عاوزة وظيفة من أى حد فيكم . الست إجلال عينتنى خلاص . ها أساعدها هنا فى البيت . الأسهم على أد الحال إللى فى رمسيس دى عهدتكم أنتم بأه .

يسأل روميو : ها تساعديها فى النضافة ؟ التراب هنا كتير فعلا ؟

– لو طلبت طبعا موش ها أتاخر . لكن هى عندها خديجة للتنضيف . وبتقول أنى عجبتها فى المطبخ . كمان ها تودينى دروس محو أمية فى الجمعية بتاعتها .

ثم تنظر لجسدها وتسوى صدرها وتقول : يا عينى على ! على الله رحلة الأتوبيس النهرى كل صبح ترد لى شوية من الصحة بتاع زمان .

يضحك ضهرى : ما لها صحتك ؟ زى الفل . كنتى أحسن واحد فى الملعب النهارده ، ولولاكى كنا فزنا ١٠ أجوال . بعدين بطلى تبصى لجسمك كل شوية . الحكاية دى كانت ورانا وننساها خلاص .

تتوقف لترد عليه بجدية : على فكرة أنا حكيت للست إجلال كل قصة حياتى !

ويحتج روميو : كل حياتك ؟

– أيوه كل حاجة .

– يعنى لازم الفضايح ؟

– إزاى أخبى عليها حقيقتى ؟

– موش قصدى حقيقتك أنتى . قصدى حقيقتى أنا !

يضحكون ، وينادى ضهرى على وحيد قائلا : ‘ تعال انضم لنا يا هر يونج ، عاوزين ناخد رأيك فى حاجة ! ’ .



من يسلب العمال حقوقهم ويمص عرقهم ليس أصحاب الشغل ، إنما أولئك الذين ينجبون مزيدا من العمال .

إللى يحمى العمال حاجة واحدة ، أن يقل عددهم فيرتفع سعرهم بناء على العرض والطلب !

يميل وحيد على إجلال ليحييها على ما فعلت لألطاف . تنظر إليه مستغربة وتقول ‘ لا تنظر لى كمجرد امرأة رقيقة القلب . فى الواقع أنا أبعد ما يكون عن هذا . لقد كنا نتطوع فى المستشفيات أثناء الحروب ، ورأيت شخصيا أهوالا تفوق الوصف . الأبعد من هذا أنى ذات مرة كنت واقفة عند هذه البوابة التى أمامنا ، والتفت لسيارة لورى كبيرة تطلق صفيرا مزعجا طويلا ، فإذا بهذا الصفير يربك الشخص الذى قصد تحذيره ، والذى للصدفة كان مجندا أيضا . بدلا من أن يبتعد تعثرت أقدامه ، ووقعت دماغه تحت عجلتها الضخمة بالضبط . انطلقت كتلة مخه كما قذيفة لتسقط بالضبط بين قدمى . أنا لا تهتز مشاعرى بسهولة كما قد يبدو لك . فقط شىء واحد لا غير يمزق نياط قلبى : أن أرى أبا أو أما يأمر أو ينهر طفله ، فإذا بهذا الطفل يطاطئ فى صمت منصاعا لشىء هو فى داخله لا يريده ! ’ . ينظر لها وحيد باستغراب أكثر من استغرابها . لا تدعه على حيرته طويلا وتقول ‘ ما قصدته أنى من شديدات الإعجاب بما تكتب عن الحرية الفردية ! ’ .

ككل تتحول الأحاديث لأمور أكثر جدية . يبدءون كالعادة بامتداح الجو ، فيجرهم الحديث للمقارنة مع إعصار كاترينا ٢ ، هذا الذى ضرب نيو أورلينز مرة أخرى قبل أقل من شهر ، الأسبوع الأخير من أغسطس ٢٠١٠ ، بعد خمس سنوات بالضبط من الأول . يتبارون فى وصف مشاهد الدمار التى تبثها التليفزيونات . ويقول وحيد إنه لا يوجد اقتصادى واحد عبر العالم ، بات يشك الآن فى حصول دكتور فرغلى على جائزة نوبل القادمة فى نوفمبر .

لم يفتهم بطبيعة الحال أن يثيروا السؤال حول غياب مجدى ويسرى . يقول ضهرى إن يسرى لا تزورنا إلا نادرا جدا . أما مجدى فسيبوه فى حاله ، كفاية عليه بتوع مجلس الشعب . يقولون إنه يعطى أراضى الشعب ببلاش للمحاسيب . من يقولون هذا معروفون بالاسم ، هم أنفسهم أخذوا أرض قبل ٥ سنين ، لأنفسهم أو كوكلاء لشركات خليجية ، ولم يفعلوا بها شيئا فانتزعها منهم ، وهذه كانت جريمته . المعارضة هى إللى موديه البلد فى داهية . موش فاهمة حاجة ، بالذات فى الاقتصاد ، وكل إللى بتعمله أنها بتشد الحكومة فى الاتجاه الغلط . مثلا لما الحكومة قالت ها تعمل محطة نووية عملوا مظاهرات وقالوا البيئة والتلوث . ولما الحكومة قلبت الأرض مشروع سياحى قالوا تعليمات من أمريكا علشان نفضل متخلفين . ولما الحكومة رجعت المشروع ، قالوا برضه تعليمات من أميركا ، علشان عاوزة تبيع لنا محطات .

يجر النقاش نفسه لإضرابات شركات الإسمنت . مين معاه أسهم إسمنت ؟ خسارة هائلة ما حدث هذا الأسبوع للأسعار . يتحدث وحيد عن مزايا الاستثمار الأجنبى ، اقتباس التقنية ، رفع الجودة ، فتح الأسواق الخارجية ، ومن ثم كيف تأتى لمصر بفضل هؤلاء الأجانب تحقيق أعلى نمو فى الناتج الداجن الإجمالى ، وبالتالى انتزاعها للمكانة التى ظلت تحتلها الصين تقليديا لنحو عقدين . ثم عرج لصناعة الإسمنت تحديدا فتساءل هل العالم المتقدم يريد حقا لنا الصناعات الملوثة ، أم هم الذين حلوا لنا مشكلة التلوث الذين فشلنا فيها لعقود ؟ كنا نلوث الجو بغبار الإسمنت مثلا بعشرين جزء فى المليون ، أصبحت ٢ جزء فى المليون . نعم هذا غير مسموح به فى أوروبا أو الولايات المتحدة . لكن هل استفدنا نحن أم لا بقدومهم ؟ الكل فائز . يضيف وحيد أن تلك هى نفس الحجة التى قيلت عن الإنجليز ، لا يأتوننا إلا بالصناعات البدائية ، وكأننا كان يمكن أن نجيد سواها ولم يأتونا به . أنت لا تريد أن تتعلم من المستعمر ، أنت تريد أن تحكمه . النتيجة أن لم تتعلم وطبعا لم تحكم .

الخطة ؟ خدعة ! انتصرنا ! انتصرنا ! تقول الأغنية . يا فرحتنا ! طردنا الاستعمار بدم بارد ، ثم ماذا بعد ؟ ماذا فعلنا بالأرض ؟ جعلناها الأرض الخراب ، كما تقول القصيدة . ثم بعد قليل بدأنا نبتز الصدقات والمعونات . ثم بعد قليل حين فاض الكيل ، واكتشف الغرب أن المعونات لا تقضى على الفقر أو ترفع مستوى المعيشة ، إنما تزيد الإنجاب وبالتالى تزيد الفقر ، رحنا نستجدى عودة ذات المستعمر من خلال قوانين الاستثمار بإغراءاتها المختلفة . طب كنا طردناه ليه أصلا ؟ ! حتى تكفله بإراحتنا من الإنفاق على الدفاع والجيوش ، والذى كان اسمه الحماية ، عدنا وقبلناه ، فقط مع تعديل الاسم ليصبح المعونات العسكرية !

ويؤمن ضهرى الخارج للتو من مباراة كرة ليست الأفضل فى حياته ، على الكلام : ' أولا ما قلته عن المعونات والصدقات والجمعيات الخيرية هو معادلة بيولوچية بسيطة ومعروفة : ضع طعاما وفيرا للصراصير تزداد عددا بسرعة ؛ انشئ وكالة دائمة -أى ليست مؤقتة- للغوث فى المناطق الفلسطينية تحصل على أعلى معدل إنجاب فى العالم ، لا توجد معادلة بيولوچية أكثر قاعدية من هذه ! ثانيا إيه المشكلة ؟ إشمعنى عادى جدا بنجيب مدربين كورة أجانب ؟ إيه المانع نجيب رئيس وزراء ووزراء أجانب ، ناس محترفين بمرتبات كويسة . أتعجب من تلك الشعوب التى تفضل ناس على ناس علشان تحكمها ، بناء فقط على لون جواز السفر . صحيح إيه المؤهلات إللى عند نهرو أو عبمعصورة ، أكتر من مواطن إنجليزى متوسط ، موش ها أقول تشرتشل ؟ ثم أنت فاكر قوانين الاستثمار دى ها تدوم للأبد ؟ بعد ما يجيب الغرب كل ما عنده ويحطه عندنا ، ها يطلع اللصوص أمثال جاندى ومصدق وناصر ، ويسرقوا كل شىء من جديد . هكذا الحال دائما . هل تتخيل أن دبى ستستمر هكذا للأبد ، أم سيأتى يوما من يؤممها كلها ويقتل هؤلاء الأجانب ' المحتلين ' ؟ ده أسلوب حياة يا سيد . هكذا الطريقة الوحيدة التى ترتزق بها هذه الشعوب ، سرقة عرق الغير ! ' .

وبعد برهة يحذر وحيد الحشد المشوش أمامه بخصوص مستقبل شركات الإسمنت : الآن نفس الدورة تتكرر . الاضرابات لا تنتهى . العمال لا يفهمون أبدا العقود التى وقعوا عليها ، الحوافر سلفة مشروطة ، وهم يعتبرونها حقا مكتسبا ، ويفرضون شروطا جديدة طوال الوقت . ثقافة العقود التى هى أساس أى مجتمع متحضر ، ولا أقول الرأسمالية بالذات ، لا وجود لها فى منطقتنا . عرفات وقع على أن يحصل على غزة وأريحا فى مقابل إلقاء الفلسطينيين ، كل الفلسطينيين ، للسلاح ، كل السلاح ، للأبد ، كل الأبد . ثم نقض هذا (علما بحصوله على أرض أكبر بكثير) ، وتباهى فى خطاب شبه علنى فى چوهانسبيرج بأنه لم يحدث أن اعتبر أوسلو بأكثر من صلح حديبية فلسطينى . ما لدينا هو فقط عقلية خد وطالب . مرتب بعض عمال الإسمنت هؤلاء يصل إلى ١٠ آلاف جنيها شهريا ، لكنهم لا يكفون عن الصراخ بكونهم غلابة ومظلومين ومهضومى الحقوق .

ويندفع أسد : ' المفروض تجريم كل أشكال التنظيم -نقابات ، جمعيات ، منظمات ، أديان- كل حاجة باستثناء الشركات التجارية الصريحة الهادفة للربح ' . وينوه ضهرى بأن التوترات الطائفية عامل يضاف ، وإذا كان قد تم احتواء الموقف فى المرة الأخيرة ، فلا أحد يستطيع الجزم بما سيحدث فى المرة القادمة . ويدخل عارف وأسد ورزق فى نقاش مع وحيد أنه دائما ما يهتم بطرف واحد هو رجال البيزنس ، ويتحامل على العمال ، فينفى بشدة قائلا : كل شىء عرض وطلب . السؤال بسيط : هل ذهب صاحب الشغل لأحد العمال فى منزله صباحا وجره عنوة للشغل ؟ إذا لم يحدث فليس للعامل أية حقوق ، سوى أن يقدم استقالته .

– حتى هذه لا حق له فيها ، لأنه عادة ما يوقع على الاستقالة قبل التوقيع على عقد استلام الشغل !

– وده سببه إيه ؟ سببه القوانين المجحفة لأصحاب الشغل . تضطرهم لهذا . العرض كبير ، والأجور لازم تكون أقل ، وإلا يروح الصين أو الهند ، الناس أرخص هناك .

ويتساءل عارف : ' إذن لاشىء يحمى العمال من ظلم أصحاب الشغل ؟ ' .

– ولا شىء يحمى أصحاب الشغل من بلطجة العمال ؟ ما فيش حاجة تحمى حد من حد ؟ زى ما كنا بنقول الصبح ، الإنسان سلعة زى أى سلعة ، وكله عرض وطلب . وزى ما طول عمرنا بنقول ما فيش حاجة اسمها عدل وظلم ، فيه بس عرض وطلب ، وهو ده المعنى الوحيد للعدالة الاجتماعية . من يسلب العمال حقوقهم ويمص عرقهم ليس أصحاب الشغل ، إنما أولئك الذين ينجبون مزيدا من العمال . إللى يحمى العمال حاجة واحدة ، أن يقل عددهم فيرتفع سعرهم بناء على العرض والطلب ! هذه ليست فرضية نظرية ، إنما كثيرا ما نراها حولنا ولا نفكر فى تفسيرها . مثلا ، هل لديك تفسير آخر غير العرض والطلب يجعل السباك أغلى من المهندس ؟ للحق ، أو ما نراه أيضا واقعيا ، هو أن صاحب الشغل هو الوحيد المظلوم ، الوحيد إللى ما يقدرش يمشى ويسيب المصنع . مثلا بالنسبة لتكاليف التدريب ، تتحل برضه بالسوق الحرة . العامل يكتب كمبيالات بمصاريف التدريب ، ويسددها من مرتبه بطريقة متفق عليها . لو حصل وزوغ يوضع على قائمة سوداء على قاعدة بيانات لأصحاب الشغل . وصاحب الشغل إللى يعين واحد من دول يتحط هو نفسه على قائمة سوداء لأصحاب الشغل . كل حاجة بالعرض والطلب . كفاءتك وحدها إللى تخليك تلوى دراع صاحب الشغل زى ما أنت عاوز وتاخد حقك . غير كده ما لكش حقوق ويبقى اسمها بلطجة . ووالدك إللى خلفك هو المسئول عن مشروع إنجابك وتدريبك وإدخالك للمنافسة مع بقية سكان الصين وبقية سكان الكوكب . إنما إيه

ذنب أصحاب مصانع الإسمنت إللى جابوا فلوسهم وجم . غير الضرايب الجديدة زى ضريبة التصدير ، وعلى فكرة كل الضرائب المستجدة هى تأميم ومصادرة زى بتوع عبمعصور ، إنما مقنعين . إخلال بشروط العقد غير المكتوب مع حكومة البلد . إيه ذنبهم يلقوا كمان كل الإضرابات دى ، ولو فصلوا حد ها تتكسر مصانعهم أو يتولع فيها ؟ الكل يطالب بقوانين ضد الشركات الاحتكارية ، لكن أحدا لا يتحدث عن قانون ضد النقابات الاحتكارية . أنا ضد الفكرة النقابية من الأصل لأنها تصادر المنافسة بإدخال عنصر البلطجة والعنف الابتزاز ولى الذراع على قرارات يفترض فيها أن تكون اقتصادية خالصة ، لكن أين على الأقل حق الشغيل فى الاختيار بين نقابات مختلفة ، إذ ربما يختار النقابة التى تعطيه أجرا أقل لكن تضمن ديمومة الشركة ، ولا تراها بقرة تحلب حتى هزال الموت ، ولا تجعله بيدقا فى الطموحات السياسية لزعماء تلك الاتحادات ، أو غير ذلك .

– هأ ! بتحلم ! النقابات منظمات إجرامية بحكم نشأتها وتاريخها وطبيعتها ، ولو سمحت لها بالتنافس فيما بينها فلن تتنافس إلا بالاغتيالات ! يعنى م الآخر أنت عاوز قانون العمل مادة واحدة : العامل يحصل على آخر أجر وعده به صاحب العمل ، وإللى موش عاجبه من الطرفين يدى التانى إنذار ١٥ يوم لترك العمل ؟

– حتى دى ما لهاش لازمة . يتلغى قانون العمل أصلا . الحالة المثالية ألا يكون هناك قوانين على وجه الإطلاق ، وفى الحالات الاضطرارية يمكن أن تسن القوانين تحديدا من أجل شىء واحد ، حماية الحرية فى حال ما هددها أحد أو شىء . إنما الوضع الحالى من طوفان القوانين التى تقيد علاقات الناس بعضهم البعض ، فهى قوانين غير مشروعة إن جاز التعبير . على الأقل جدا المفروض يتلغى أى قانون يمس الاقتصاد ، أو يمس أى نشاط اقتصادى أو نشاط يمت للاقتصاد بصلة ولو بعيدة . زى ما اتلغى قانون الإسكان ، وكل الإيجارات بقت عرض وطلب ، وزى ما اتلغى قانون التعليم وأصبحت سمعة الشهادات تحدد حسبما تقدرها جهات التوظيف ، أقترح أن يلغى بالمثل قانون العمل ، وكل شىء يخضع للعقد شريعة المتعاقدين ، والمحاكم المدنية . (يقصد بإلغاء قانون التعليم ما حدث من مؤخرا من هجرة جماعية وبالإجماع وفيما يشبه المظاهرة القومية -تلاميذا وأهالى ومدرسين- هجرة للمدارس الحكومية ، وأن اكتشفت الحكومة أنها لم تكن تشتغل وتهدر كل تلك الموارد الباهظة إلا لإرضاء أحزاب المعارضة ضد إرادة ومصلحة كل الشعب ، الذى لا يريد تلك المدارس ولا حتى من قبيل كونها جمعية خيرية لإعالة المعلمين ، هؤلاء الذين قالوا إن لا مشكلة بطالة لديهم وإنها كوظيفة مضيعة لوقتهم لا أكثر ولا أقل !) .

– حتى الرعاية الصحية تخضع لشريعة المتعاقدين ؟

– حتى الرعاية الصحية . لو مرتب معقول ورعاية صحية ومعاشات ، أشتغل . لو ما فيش رعاية خالص والمرتب مغرى ، أشتغل وأدفع الحاجات دى من مرتبى ، أو ما أدفعهاش أنا حر .

– لو ده موش كويس وده موش كويس موش ها أقبل الشغل ، أو ها أسيبه . العامل حقه محفوظ دايما ، من حقه يطلب علاوة زى ما هو عاوز ، ولو رفض صاحب الشغل يسيبه ويمشى . صاحب الشغل بيبنى المصنع ويكلفه ، وهم إللى بييجوا برجليهم وبمحض حريتهم وإرادتهم . رأيى الشخصى بالنسبة للتأمينات أنها تتلغى ، وكل واحد يؤمن على نفسه زى ما هو عاوز فى شركة تأمين ، أو لا يؤمن ، هو حر . فلوسه وهو حر فيها .



– ما هو أعظم اختراع صنعته البشرية ؟ ... سؤال جيد ! ... آه ، لقد عرفت قصدك : الحرب !

– الحرب ليست من اختراع الإنسان !

– آه ! نظرية عيشنى النهارده وموتنى بكرة ! براڤو يا أونكل ! (تنبس منى ذات الميول الانتحارية بنبرة تأييد) .

– أنا موش معاكى . التخطيط للمستقبل البعيد شىء مهم جدا . ما أعترض عليه هو فقط أن يكون فوق مبدأ الحرية . لا يجب لشىء أن يكون فوق الحرية !

وأخيرا يتدخل ضهرى : ' تفتكر الشغالة بتاعتك ، علشان ما يحصلهاش إللى حصل ، كان لازم تروح تؤمن على نفسها تأمين صحى وتأمين عجز وتأمين حياة وتأمين بطالة فى شركة تأمين ؟ ' .

– المفروض .

– إذا كانت الفلوس أصلا موش مكفية الضروريات ؟

– أنا اتغظت أكبر غيظ من الست إللى كانت صاحبة الشقة قبلى ، لأنها فى دقيقة واحدة طردت الشغالة إللى خدمتها طول عمرها ، وكان لازم تحافظ عليها لفترة وتساعدها . صحيح رمانة دى صعبت على وحاولت أساعدها قد ما أقدر ، لكن موش معنى كده نطلع قوانين تحدد تفاصيل العلاقة بين صاحب الشغل والشغيل . مثلا لو عملنا حماية زيادة للعمال ، رءوس الأموال ها تسيب البلد ، وها تروح أماكن تانى أفضل . زى الرقابة الزيادة ما تعنى رشاوى زيادة ، عمليا الحماية الزيادة تعنى بطالة زيادة . والعكس لو حمينا أصحاب الشغل ، العمال ها يهاجروا لبره ، وهكذا . التنافسية المطلقة هى وحدها التى تأتينا بالتوازن الصحيح ، وتخلى كل واحد مسئول عن نفسه ، وما حدش يأمن للزمن ببساطة ، زى ما عملت رمانة . ما فيش حل تانى ، بالذات بالقوانين . حلول فردية ممكن ، أنشطة خيرية ممكن وإن فى أضيق الحدود ، لكن أى حل عام أو بفرض قوانين غلط ، لأنه بوابة للفساد والفقر للجميع .

– الشعب جاهل وغلبان ، وموش ممكن يعمل حاجة زى إللى أنت عاوزها .

– وها يفضل لغاية إمتى جاهل ؟

– لغاية ربنا ما يريد !

– لأ ، لازم نحطه على المحك ، ساعتها بس ها يتعلم !

– يعنى ! الحكومة بتعمل كده فعلا ، بس بالتدريج !

– اسمه التدريج الممل ، الذى لا يأتى إلا بآثار عكسية ، لأن ببساطة الدنيا بتجرى وموش مستنية السلحفاة المصرية .

– سيبنا م العيال الهايفين دول ، وخلينا فى النهار الجميل ده . أنت بتقول كل حاجة حرة . صح ؟

– صح !

– يعنى الحب والمودة تتلغى بين الناس خلاص ؟

– برضه عرض وطلب ، والعقد شريعة المتعاقدين . محدش منع حد يحب حد ، أو يضحى علشانه . برضه الحرية هى الحل . وأفتكر ٢٥ سنة وصل فيهم التدين لكل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس ، وما تقدرش تقول أننا كنا أقل مودة ورحمة فى السبعينيات مثلا ، أو فى أى حتة نعرفها فى القرن العشرين كان التدين فيها محدود ، من سقوط الخلافة لغاية وصول الإخوان للپرلمان .

ويبتسم قبل أن يواصل : ' عارف إيه أحسن اختراع فى التاريخ فى رأيى ؟ ' .

– لأ ، أعرف بس أسوأ اختراع ! (يضحك أغلب الباقين) .

– ما هو أعظم اختراع صنعته البشرية ؟ ... سؤال جيد ! ... آه ، لقد عرفت قصدك : الحرب !

– الحرب ليست من اختراع الإنسان ! هل نسيت اتفاقنا على أن الإنسان جاء فوجد كل شىء جاهزا ؟ قطعا الحرب هى أعظم اختراع ، لكنها موجودة لدى أغلب اعشائر البيولوچية . أعظم اختراع إنسانى هو النقود . عارف إيه إللى فكرنى بالكلام ده ؟ الكلام إللى بتقوله من زمان عن أن الناس عندنا إما بتعبد أيقونة أو شخص أما ميت وإما حى -وهو الأفضل والأقرب ، ذلك أن عقولها لا ترقى لاستيعاب مفهوم الإله كشىء تجريدى . حين تكلمت اليوم عن البوذية ، أصبت بالدهشة لولهة ، ثم فهمت بسرعة أن هذه كانت النتيجة المنطقية الوحيدة . النقود أعظم اختراع لأنها أكبر شىء نقل البشر من الملموسات للتجريد . لولاها لما دخلت الأرقام بكل هذه الكثافة للحياة اليومية لأبسط إنسان فى الدنيا . نعم ، الرياضيات تجريد واللغة تجريد ، لكن على الأقل يمكنك العيش إن لم تذهب للمدرسة لتعلمهما . إنما تقييم الأشياء بالنقود أصبح شغل يومى لكل الناس ، ولا يمكن لأحد أن يعيش دون اتقانه . وطبعا هذا ' التكميم quantification ' كان بنية تحتية لتوحيد أراضى باتساع الإمپراطورية الرومانية فى اقتصاد واحد ، أو لاحقا لكل إنجازات عصر الصناعة ، ولولاها لظللنا نعيش عصر المقايضة والحياة الريفية البدائية . هذا من حيث الكم ، من حيث اتساع الإمپراطورية الإنسانية . أما من حيث النوعية ، فذلك التكميم كان أيضا شيئا جوهريا لميلاد فكرة قيام المجتمع على التنافس ، أى نشوء الرأسمالية واقتصاد السوق . لو لم تكن قد توصلت البشرية لهذا الاختراع الفذ لما كنا نرى مثلا الأكفاء يحتلون المكان

المناسب ، لما تناغمنا مع قوانين الطبيعة الأصلية القائمة على التنافس الشرس الذى هو قاطرة التقدم والرقى ، وهكذا . إنه مثلا الفارق بين أميركا وأوروبا ، الذى قتل بحثا ، حيث تجاوزت الأولى بمراحل فكرة أن ثمة أشياء تسمو فوق التكميم ، بينما تضحك الثانية على نفسها بالأوهام والشعارات ، ومن ثم فقدت كل علمائها وفنانيها ومواهبها وعقولها البارزة فى طائرات عابرة للأطلنطى . ربما اللغة أو الرقص أو الموسيقى أشياء محلية تخص القبيلة أو الشعب ، لكن النقود لغة عالمية ، أول لغة عالمية !



لو اهتممت بالفقراء والضعفاء فى مجتمع ما ، ستخلق مجتمعا فقيرا ضعيفا ؛ ولو اهتممت بالأثرياء والأقوياء ستخلق مجتمعا ثريا قويا ، هكذا ببساطة !

– الحب لغة عالمية . موش كل شىء يقدر بالمال .

– ولم لا ؟ لم لا يقدر كل شىء بالمال ؟ مثلا الحب الذى تتحدث عنه ، شىء ثمين جدا بالفعل . لكن كيف عرفنا أنه ثمين ؟ هل كنا ستعرف ذلك إلا لو قارناه بقدر التضحيات المالية أو عروش الممالك التى يمكن أن يدفعها أو يتنازل عنها الإنسان فى مقابله ؟

ويغنى ونس : ' أعطنى المال وغنى ، فالغنى سر الوجود ! ' .

– أنا معاك الفلوس موش كل حاجة ، إنما هى تقدر تعرفنا قيمة كل حاجة . أنا سعيد أن كل الحروب دلوقت بقت مؤسسات خصوصية . ده حدد لنا بالأرقام لأول مرة ما تساويه الحياة الإنسانية . موش ها أضحى بحياتى بسعر أقل من ١٠٠٠ دولار فى اليوم . فى نفس الوقت دلنا على أن الوطنية هراء وشعارات ولا تستحق ألف مليم ، وده شىء تقدمى جدا وإيجابى جدا . أيضا كون أن تملك نقودا أكثر يعنى أن تملك جيشا أقوى ، هذا هو الحق والعدل ، تماما كما أرادته لنا أمنا الطبيعة . إن خصخصة الجيوش شىء رائع يثير الانتشاء بكل معنى الكلمة ! (ويرفع كأسه :) فى صحتكم !

بعد قليل يعود وحيد ليشرح لعارف وصحبه ما أحس أن مقاطعة ضهرى قد تركته عالقا من المناقشة الأصلية . لم يدعوه يبدأ حتى قالوا إنهم ليسوا ضد الرأسمالية ، ويفهمون أنه لو اهتممت بالفقراء والضعفاء فى مجتمع ما ، ستخلق مجتمعا فقيرا ضعيفا ؛ ولو اهتممت بالأثرياء والأقوياء ستخلق مجتمعا ثريا قويا ، هكذا ببساطة ! لكن وحيد لم ير الأمر بسيطا هكذا وانطلق يكرر كلاما طالما أحب قوله وكتابته .



لو رجعتم لمصر القديمة لن تجدوا أصلا مشكلة فى التأويل الصوفى للرأسمالية ، ولا فى التأويل الرأسمالى للصوفية !

يصحح لهم أن هذه ليست بالضبط الرأسمالية . الرأسمالية ليست مقابلة بين الغنى والفقر . اليمين ليس انتماء طبقيا . آخر ثلاثة زعماء يمينيين عظام -نيكسون وثاتشر وريجان- أتوا من أصول أبعد ما تكون عن الرفاهية . إنما اليمين رؤية لكل الطبقات ، مشروع شامل متكامل لكامل المجتمع ، كل بحسب طاقاته وقدراته . الكبير يرى الصورة الكبيرة ، أما الصغير فلا يرى إلا نفسه . الرأسمالية ليست نقابة لرجال البيزنس ، تدافع عن الثرى ضد الفقير أو عن الكبير ضد الصغير ، إنما هى فقط -وبكلمة واحدة- المنافسة ، المنافسة التى يمكن -بل يجب- أن تقضى -أول ما تقضى- على الكثير من هؤلاء الأثرياء والكبار أنفسهم ! إنها النظام الذى يجب أن يقاتل من أجله كل مجتهد طموح غنيا كان أم فقيرا ، والذى يجب أن يقاتل ضده كل كسول أو فاسد غنيا كان أم فقيرا !

ويعلق ضهرى الذى لم يكن قد خرج بالكامل بعد من أجواء الصوفية : ' أنا لا أرى الرأسمالية صراعا بين أفراد المجتمع ضد بعضهم البعض ، إنما صراع كل إنسان ضد نفسه من أجل الوصول لسقفه الچيينى ! ' .

' حتى الرأسمالية ها تدخلها جوه الصوفية بتاعتك ؟ ! ' ، ' رد عليه يا أستاذ وحيد ! ' ، لكن وحيد يحبط آمالهم : ' بالعكس ، هذا أدق تعريف ممكن للتنافسية ، لأن الصراع ضد الغير لا يعنى بالضرورة الاقتصار على الارتقاء بنفسك ، إنما يحتمل أيضا محاولة الهبوط بالمنافس أو إضراره ، بينما التخريب والتدمير ليست من مقاصد أمنا الطبيعة . نعم ، هى تعشق القضاء على الفاشلين ، لكنها قطعا لا تسعى لإفشال أحد عمدا ' . ويتنهد ضهرى : ' المشكلة أنكم لا تجهدون أنفسكم فى البحث عن الحقيقة . لو رجعتم لمصر القديمة لن تجدوا أصلا مشكلة فى التأويل الصوفى للرأسمالية ، ولا فى التأويل الرأسمالى للصوفية ! ' .

الرأسمالية ليست نقابة لرجال البيزنس ، تدافع عن الثرى ضد الفقير أو عن الكبير ضد الصغير ،

إنما هى فقط -وبكلمة واحدة- المنافسة ،

المنافسة التى يمكن -بل يجب- أن تقضى -أول ما تقضى- على الكثير من هؤلاء الأثرياء والكبار أنفسهم !

... إنها النظام الذى يجب أن يقاتل من أجله كل مجتهد طموح غنيا كان أم فقيرا ،

والذى يجب أن يقاتل ضده كل كسول أو فاسد غنيا كان أم فقيرا !

يشردون فى تأمل الطبيعة المحيطة بهم ، إلى ن يعود وحيد لتفصيل كلامه الأصلى : ' هل أنتم رأسماليون ؟ مع ذلك أنتم تشتغلون فى شركات مملوكة لرأسماليين ، ولديكم أسهم فى شركات يهمكم ازدهارها ، كما يهم كبار مالكيها بالضبط . أنت يمكن أن تجمع كل الشعب على منصة platform أو برنامج يمينى ، لكن من المستحيل أن تجمعه على منصة يسارية . فى الأولى الكل فائز كما قلت ، فى الثانية البعض يعيش على حساب البعض . ويضرب المثل بكيف أمكن لكل من رونالد ريجان وتونى بلير جمع كل الشعب خلفه . كلاهما على منصة يمينية ، رغم التناقض التام فى الخلفية الأيديولوچية الأصلية لكليهما (بلير كان يساريا وانتخب على أساس هذه المنصة ، لكن تحول قناعاته بعد ذلك هو الذى وحد بريطانيا خلفه . فاستمر يحكم ١٠ سنوات ، ثانى أطول مدة ، فقط بعد اليمينية العظيمة ثاتشر . أما هذه فتختلف قصتها ، لم تكن فترة حكمها إجماعا ، إذ خاضت حروبا هائلة كسرت فيها سطوة قرن كامل للنقابات . وفى نهاية حكمها فقط بدأت بوادر الإجماع الشعبى خلفها ، هذا بعد أن أدرك الشعب أنه كان مختطفا بواسطة بلطجية اليسار دون أن يشعر ، وأنهم مستغلوه الحقيقيون ، والعائق فى سبيل الرخاء والتقدم) . على أنه بناء على إلحاح الثلاثى يتحدث وحيد من جديد عن شركات الإسمنت فيقول إن أصحاب هذه الشركات على وشك ترك البلد ، ممكن تقولوا دى معلوماتى ! ' .

إنها عاصفة تتكاثف الآن فى مكان ما

نسى الجميع كل ما دارت حوله المناقشات ، وبهتوا أمام الكلمة الأخيرة . إنها معلومة داخلية خطيرة ، على الأقل عوضتهم عن عدم لقاء البانكيرة والوزير . معلومة ستؤدى بهم لبيع أية أسهم لشركات الإسمنت متبقية لديهم ، فجلى أنها لن تتعافى كما توقعوا إنما ستذهب لهاوية لا قرار لها . أما ضهرى فقد توقف طويلا بينه وبين نفسه عند العبارة الأخيرة :

' معلوماتى ' ؟ ... هذا ليس وحيد . إن شيئا غريبا يحدث . على الأقل هذا الوحيد المنطوى قد عاد على نحو أو آخر ، لماضيه القديم جدا كصحفى شغلته استقاء المعلومات من مصادرها العليا . وحيد لم يعد كما كان منذ عهدنا به ، كتابا مفتوحا بسيطا متبسطا معنا جميعا . لأول مرة بات لديه الآن أشياء يخفيها . منذ قرار فتح كيوپيد لفروع فى الخليج ، وبدأت استشعر بوادر تغيير فى شخصيته . الكل فرح بالقرار . حتى دكتور فرغلى كان من مؤيديه . هو الوحيد الذى توجس وتجهم . بدأ يتغيب أو يتأخر أو ينصرف مبكرا . صار أقل كلاما . مناقشاتنا المطولة باتت ضنينة ، وكأنه يتهرب منها ، أو استكفى . كان المفروض أن يسعد أن شركة ككيوپيد ستكون نموذجا أعلى وستحاول انتشال اقتصادات الخليج من بداءتها وتخلفها ، لكن يبدو أن مال للافتراض العكسى : القذارة العربية هى التى ستغرق كيوپيد !

' معلوماتى ' ؟ ... اليوم تيقنت من صحة مخاوفى هذه .

' معلوماتى ' ؟ ... هذه الكلمة أسوأ شىء حدث فى هذا اليوم الجميل . بكاء مينا كان زوبعة تافهة ومرت .

' معلوماتى ' ؟ ... إنها ليست مجرد كلمة ... إنها عاصفة تتكاثف الآن فى مكان ما !

لدى الانصراف يصممون على شراء مانجو ، إلا ونس الذى كان قد سبق الجميع وطلب هدية (وحين أتته أخذ يتمنع) ، وألطاف التى وجدت هديتها فى انتظارها بالفعل !

يتصل ونس بهاتف بوزير الصناعة والتجارة ، رقم مما وجده فى ملف حاسوب وحيد .

– منين جبت الرقم ده ؟

– أخدته من معاليك . لو معاليك شفتنى ها تفتكرنى ، أنا محمود من نقابة العمال بمصنع بنها ، وفى انتخابات ٢٠٠٥ كنت مبسوط جدا منى ، وأنا طلبت التليفون من معاليك وقلت للسكرتير يديهولى .

– السكرتارية إدتك النمرة دى ؟

– معاليك قلت التليفون ، وأنا إللى قلت له الموبايل . ولو معاليك تحب أقفل وأشطب النمرة من عندى معاليك تأمرنى . أنا عارف مشاغل معاليك بالذات بعد ما ضموا لسيادتك الصناعة .

– لأ ما تشطبش . تحت أمرك يا أستاذ محمود .

– العفو معاليك . حكايتى أن ابنى متخرج السنة إللى فاتت من معهد النسيج .

– إحنا ما بنعينش حد بالواسطة .

– لأ معاليك ، موش القصد . أنا جبت له وظيفة خلاص فى المصنع ، بس هو إللى رافض . شغال هو وشوية لا مؤاخذة عيال صحابه ، بيلموا الكمبيوترات القديمة ، يفكوها ويجمعوا الحاجات السليمة ويبيعوها تانى لبتوع المولات المتخصصين فى القديم ، لو عجبتهم الحاجة بيشتروها منهم .

– كويس ؟

– بس أنا بأقول الوظيفة فى الشركة أحسن وإحنا سامعين أن مستثمرين عرب ها يشتروها ، وها يبقى لها مستقبل كويس .

– (وقد فهم اللعبة فيما يبدو :) ابنك جنبك ؟

– أيوه معاليك (كان مُحَمَّد قد جاء لقضاء العطلة الصيفية مع والده بالقاهرة) .

– طب إدهونى .

– اسمك إيه ؟ ... بص يا مُحَمَّد : زمان كنا بنشجع الشباب على المشروعات الصغيرة ، وتقدر تقول ما زلنا كده برضه . بس زمان كانت الناس لابدة فى الوظيفة الميرى ، مرتبات تافهة من غير شغل ، وكلها على بعضها الحكومة والبلد كانت جمعية خيرية . النهارده ، كل الشركات العملاقة دى استثمارات خاصة ، مصرية وأجنبية . الشركات دى هى إللى ممكن تتعلم فيها التكنولوچيا الجديدة ، والخبرة الصح . موش بأقول لك افضل فيها طول العمر . لكن لو كبرت خبرتك قوى ، وحسيت أنك ممكن تعمل حاجة مستقلة بعد كده يبقى كويس . عدا ذلك الاستمرار فيها ها يديك مرتب كويس واحترام كبير ، ولازم تعرف أن الشركات الكبيرة هى مستقبل البلد ومستقبل العالم .

– قال لك إيه ؟

– قال اشتغل فى الشركة .

– بس خلاص ! هو ده ! أنا عرفت إللى عاوز أعرفه !

ينادى الوزير مديرة مكتبه وسلمها هاتفه الخليوى : سهام ، عاوز أعرف اسم الشخص صاحب النمرة دى .

– بس دى نمرة ڤودافون غالبا معاليك ، والشركة شغالة إنجليزى خالص . لو النمرة تبع الشبكة إللى بيديرها المصريين أو إللى بيديرها العرب ، كنت أجيبها لمعاليك بالتليفون منهم فى دقيقتين ، وأجيب صورة البطاقة ع الفاكس كمان .

– (يهتاج غاضبا :) ڤودافون إيه وزفت إيه ؟ اتصلى بأمن الدولة وقوليلهم فلان بتيجى له تهديدات . لأ ، استنى ! بلاش تهديدات دى ، شوفى حاجة تانية .

– صح معاليك ، أحسن يراقبوا تليفونات معاليك .

– أنتى هبلة يا ست إنتى ؟ إذا كانوا موش بيراقبوا كل تليفون فى البلد بياخدوا مرتباتهم علشان إيه أصلا ؟ اتصرفى ! (ثم وقد تذكر شيئا :) أقول لك استنى استنى ! اتصلى بالإدارة الجديدة بتاع أمن المعلومات فى رياسة المجلس ، قولى لهم كل إللى حصل بالظبط ، وهم ها يتصرفوا . على الأقل نشوف يستحقوا مرتباتهم ولا لأ ؟

بعد ربع ساعة عادت سهام لتقول له : الاسم سامى متياس القمص ، ٧٧ شارع السكاكينى بالظاهر . لم يشتر شريحة جديدة . بالاتصال بمنزله علم أنه فقد منه التليفون فى هارديز الخليفة المأمون المواجه لسوق العصر بتاع الكمبيوتر ، وبالاتصال بالهاتف الخليوى نفسه ، قالت موظفة الاستقبال فى هارديز إن أحدهم سلمه لها للتو ، قائلا إنه وجده عند بوابة المحل .

– طب يا سى محمود أنا وراك والزمن طويل . قال محمود قال ؟ بس يا سهام أنتى رأيك أنهم يستحقوا مرتباتهم فعلا ؟ تعرفى أن ها يبقى قريب فى كل وزارة إدارة زيها لمنع الجريمة قبل وقوعها ، بعد ما كانت قبل كده إدارة جنائية فى وزارة الداخلية وبس ؟

ردت عليه بابتسامة ملؤها العتب لكثرة تعنيفه لها : الواضح المكالمة دى نرفزت معاليك حبتين النهارده . وأعصاب معاليك بالدنيا عندنا ؟

ما لم تفهمه سهام ، الراضية على أن الأمر قد مر فى مجمله بسلام ، هو أن من كان يقصدهم معالى السيد الوزير بمن يستحقون المرتب ، ليسوا تلك الحفنة من الأناس الغامضين ، ممن يشتغلون من أحد الأقبية السرية ، تحت إحدى البنايات التابعة لرئاسة مجلس الوزراء فى شارع القصر العينى . كان يقصد وكالة الأمن القومى NSA الأميركية . هؤلاء حظروا مؤخرا تنمية أحد لتقنيات سردبة encryption للبيانات بأكثر من ١٠٢٤ بت . وما حدث يوم قرر ريچيم طهران الثيوقراطى تنمية سردبة أقدر ، أن ردوا عليه بأن حذفوا النطاق الرئيس ir. من شبكة الإنترنيت ، فاختفت كل المواقع الإيرانية فى غمضة عين ، وأصبحت كأن لا وجود لها ، وغير مرئية حتى للإيرانيين أنفسهم . فكانت مشكلة أسهل حلا بكثير من مشكلة البرنامج النووى لدولة الملالى ، هذا الذى اضطرت أميركا وإسرائيل لقصفه لاحقا بالقنابل النووية التقتية من طراز ' بى ٦١ ' ونظيرتها العبرية ، فيما سمى بحرب الخليج الرابعة . إذ فى تلك المرة رضخت قم وأصدر مرشد الثورة الإسلامية قرارا فوريا بوقف سردبة البيانات بقدرة غير ما تسمح به حكومة وقوانين الشيطان الأعظم .

لماذا ١٠٢٤ بت ؟ هو ليس قانونا مؤبدا . بدأ الأمر بـ ٦٤ بت ثم تطور ، وسوف يسمح بالـ ١٠٢٤ بت قريبا ، وربما أكثر منها . الأمر كله يعتمد على قدرة وكالة الأمن القومى على تحقيق هدفها بلا مشاكل . وهدفها هو مراقبة كل بايت بيانات يسير فى الأسلاك أو أمواج الهواء فى هذا الكوكب . مواردها فى هذه اللحظة تسمح فقط بفك سردبة بقوة ١٠٢٤ بت . تلك الموارد عبارة عن حواسيب عملاقة ، تسجل كل نبضة إليكترونية تجرى بالشبكات الإقليمية وبشبكة الشبكات المسماة بالإنترنيت ، وتحللها دون تدخل بشرى . أيضا تسجل وتحلل كل الرسائل الصوتية والڤيديوية عبر كل الشبكات وعبر كل الهواتف . وتلك الحواسيب هى التى تكتشف من تلقاء نفسها أية ترابطات تراها مريبة أو مثيرة للاهتمام ، أيضا دون تدخل بشرى . أما عن اختراق شبكة خصوصية كشبكة حواسيب شركة ڤودافون العالمية ، فالأمور أسهل . فالسردبة ' الخفيضة ' بمستويات ١٠٢٤ بت ، تعنى أن بإمكان حواسيب الـ NSA فك كل كلمات المرور وتعنى تخطى كل حوائط النار لأية شبكة محلية . ڤودافون ليست استثناء . مايكروسوفت ليست استثناء . أموال كل البنوك ليست استثناء . كل الأشياء ليست استثناء . حتى شركة Check Point الإسرائيلية التى تصنع حوائط النار التى تحمى كل حواسيب العالم وكل شبكات العالم ، ليست استثناء . إن الـ NSA تناظر فى عالم الإليكترونيات الرقمية ما يقوله الحاج ضهرى المصرى عادة عن عالم البيولوچيا ، وهو أن التحاليل الچينية تستطيع الآن أن تكشف شخصية المجرم من مجرد أنه تنفس لبضع ثوانى فى الغرفة (وعادة ما يتأسى بعدها أن لو وجد هذا من قبل لربما ما قتل نبيل) !

باختصار ، إن وكالة الأمن القومى الشهيرة باسم الأخ الكبير ، هى نظرية مؤامرة تفوق بمراحل خيال شخص كالمهندس عبد النبى مُحَمَّد الشهير بونس . وهذا فى حد ذاته دليل كاف على أنها حقيقية وليست بحال ' نظرية ' !

هذا عن ما لم تفهمه سهام . أما ما لم يفهمه معالى السيد الوزير نفسه ، فهو كيف تم الأمر برمته فى ربع ساعة . كيف تم إرسال الطلب ، وكيف تم بحثه ، وتمت الموافقة عليه ، وتم اختراق شبكة ڤوادفون ، وتم إرسال الرد ، ثم أجروا كل تلك الاتصالات التليفونية المحلية ، كلها فى ربع ساعة ؟ هذا لغز بالكامل . نعم الحكومة المصرية أحد الزبائن المرضى عنهم من الـ NSA ، لكن ما حدث يفوق حدود الرضا أو حتى الغرام . إنه طفرة تقنية . خيل له لوهلة أنهم باتوا كمحركات البحث فى الإنترنيت ، تتجول ' بعناكبها ' فى الشبكة طوال اليوم ، وتسجل لنفسها نسخة من كل البيانات ، هى التى ينفذ عليها البحث الذى يريده متصفح الغشاء ، ذلك إلى أن يتم تحديث تلك البيانات فى الجولة التالية لـ spiders .

لكن ما حدث أنهم قالوا إن ذلك المدعو متياس أو أيا ما كان اسمه لم يشتر شريحة جديدة بعد . معنى هذا أنهم اخترقوا شبكة ڤودافون خصيصا فى هذه اللحظة من أجلنا ومن أجل إمدادنا بأحدث ما بها من بيانات . أو ربما باتوا يتجولون الآن فى الشبكات المحمية طوال الوقت ، وكأنها غير مسردبة أصلا ، ومكشوفة لهم كما كتاب مفتوح يتسكعون فيه ٢٤ ساعة يوميا سبعة أيام فى الأسبوع بلا مجهود . لعل أيضا كل تلك المراحل (حتى أتانا الرد) تتم إليكترونيا ، دون أية قرارات بشرية ، حاسوب عملاق يسهر على حراسة العالم ، حينما ينام الجميع . معالى السيد الوزير لا يعرف .

الحقيقة ، نحن لا نملك جوابا على تساؤلات معالى السيد الوزير . والمؤكد أن معلوماتنا ليست بحال أفضل من معلوماته . فقط لو تبنينا أراء وحيد الديب المثيرة للاستغراب عادة ، وربما للسخرية أحيانا ، والتى لا تعجب سوى الفتيات الصغيرات الساذجات أمثال هالة إقبال الدغيدى ومنى ضهرى المصرى ، فسنقول إن اقتصادا كاقتصاد كوكبنا بحجم ٤٠ تريليون دولار سنويا ، هو جهد هائل سهرت أمنا الطبيعة على إنباته ورعايته ، وكلفها استثمار ١٤ بليون سنة من عمرها فيه . وهى تعتز بأن بنت كل هذا الإنجاز الوليد على مجرد ذرة غبار كونى اسمها الأرض ، تقع فى ركن قصى تافه غير مستكشف من الكون . وتقول إنها لا تزال حتى اللحظة تراه استثمارا جيدا ، ولم يحدث أن فكرت فى بيع أسهمها فيه مطلقا . وبالتالى هى لن تسمح بأن يضيع هذا كله منها ، بسبب هزار اسمه استقلال الشعوب ، أو عبط اسمه الديموقراطية ، أو استعباط اسمه حقوق الإنسان ، أو باسم أى نوع آخر أيا ما كان من لعب العيال !

للأمانة ، أو إحقاقا للحق ، وحيد الديب نفسه لا يدعى أنه يعرف التفاصيل . ويكتفى حين يسأله أحد ، بترديد عبارة الكتاب المقدس ' عجيبة هى مسالك أمنا الطبيعة ! ' .

أما السيد الوزير فلم ينس أبدا ما حدث ، وظل يردد : ' قال محمود قال ؟ ' ، عاقدا العزم على أن يوقع بذلك الشخص أيا ما كانت الطريقة ، سواء بتتبع عالى التقنية ، لبصمة الصوت مثلا ، أو بأية طريقة أخرى واطئة تقنيا أو أكثر تقليدية .



يا لهول بؤس هذا العالم : مليون شيء يزيد الأنتروبى ويقود للموات التدريجى للكوكب :

التسامح المسيحى – تحرير العبيد – الديموقراطية – الشيوعية – الأمم المتحدة – تصفية الاستعمار – تقرير المصير – الاستقلال – حقوق الإنسان – المساواة – الحقوق المدنية – حرية الهجرة – اختلاط الأعراق – التنوع الثقافى – العيش المشترك – مليون شيء . شيء واحد فقط ينقص الأنتروبى ويحقق الاستقطاب اللازم لتراكم الثروة ودوران عجلة الشغل ،

شيء جعلوه أقرب لكلمة سباب : الفاشية أو الـ Eugenics !

فى اليوم التالى جاء الجميع وقد اعترى كل منهم هم مزدوج : كابوس انهيار الأسهم الذى حذر منه وحيد ، والشد العضلى الذى يلهب سيقانهم كما السياط بعد مباراة الأمس . لحسن الحظ نسوا الأمرين بعد قليل . لم يحدث ما خشوا منه من هبوط أسعار الأسهم . ما حدث أن عم التفاؤل البورصة بكاملها . وسط ذهول الجميع شهقت أسعار الأسهم ككل . السبب إعلان مفاجئ عن نية شركة الشبكجى السعودية الاستحواذ على كيوبيد . يتهلل الجميع ، ويتدافعون لشراء أى شيء ، وبالأخص كيوبيد . أما وحيد فيصاب بغضب وعصبية شديدين : لماذا كيوبيد ؟ الفكرة فى نظرهم أن كيوبيد هى كل شيء . كيوبيد تتحكم فى النسبة الساحقة من المحافظ الاستثمارية فى مصر . إنها لو شاءت ، تستطيع فى دقائق معدودات فعل أى شيء فى البورصة . هكذا يرونها ، الثمرة الكبرى . سيحولون تلك المحافظ للمضاربة . بعد أن مارست كيوبيد لعقود وظيفتها فى تنمية الاقتصاد المصرى ، بمسئولية وعلمية ونزاهة هائلة ، فى أسابيع سيتحول كل الاقتصاد المصرى لكارتلة مراهنات ، وبعد شهور لن يبقى منه إلا الرماد . يسرد قصة تأسيس كيوبيد ، وأنها أكثر من مجرد شركة . إنها ركيزة مصر فى المسيرة الصعبة نحو اقتصاد حداثى تنافسى متقدم . إنها رمز ، إنها الأمل ، وسقوطها هو الضياع ، هو النهاية !

يتخذ قرار فجائيا يحاول الكل إثناءه عنه : أن يبيع كل ما يملك من أسهم . هذا لا يمكن أن يتم إلا فى الصباح التالى إذ كان سعر السهم قد تجاوز كل الحدود المسموح بها فى دقائق قليلة وأوقف من التداول . أقنعه إدوارد وضهرى أن يترك لهما مهمة البيع ، التى يجب أن تتم على مراحل وبنظام معين ، وراحا يتلكئان فيها بحيث لم يتم بيع آخر جزء إلا بعد أربعة أيام . هذا جعل عائد البيع أضخم بكثير مما لو كان وحيد باع كل شيء دفعة واحدة فى اليوم الأول . احتفظ وحيد بعشرة أسهم فقط كى يظل من حقه حضور الجمعية العمومية التى ستبت فى أمر البيع .

باتصالاته عرف أن الأمر قد قضى ، وأن الأغلبية فى صف قبول عرض الاستحواذ ، وأن دكتور فرغلى لم يفلح فى إثناء بقية كبار المساهمين أعضاء مجلس الإدارة عن ذلك . فعل كل ما بوسعه . قيل إنه تصرف بحدة تقارب الجنون أحيانا ، لكن القرارات تتخذ بالتصويت ، وسلطته الحقيقية على كيوبيد سلطة معنوية لا أكثر حين يأتى الأمر للتصويت ، بالذات على أمر كهذا ، تحكمه عقلية التربح السريع . العملقة التى طالما تحمست لها ، وبدت كبديهية قدرية لى ، ليست بلا ثمن . بعض الشركات حين تتعملق على حساب هيمنة الملاك الأصليين أصحاب الرؤية والتخطيط طويل المجرى عليها ، تترهل ويبدأ خطر مغادرة علمية الاقتصاد لألاعيب السياسة ، هذا إما بالتطبع ببعض السلوكيات الاشتراكية بالتواطؤ مع فكرة دور الحكومة فى الاقتصاد بالذات حين يؤدى التخلى عن معايير السوق للخسائر ومن ثم يبدأ توسل حماية الدولة ، وكلها -أى تلك السلوكيات- أمور تكررت فى أميركا أكثر من مرة ، وإما أن تسلك أساليب عربية مسلمة لا ترى أبعد من تربح وارتزاق ما تحت قدميها ، وهو ما يحدث الآن فى كيوبيد . جاء روكيفيللر من جديد على ذهن وحيد ، ثم راح يحاول تذكر أى من الشركات الحالية الشهيرة لا يزال يحرص أصحابها على نسبة الـ ٥١ ٪ لأنفسهم ويقاومون إغواء التعملق الزائد ، فلم يتذكر سوى ريوبرت ميردوك الذى شبهوه به يوما عن غير وجه شبه حقيقى ، وزاده غما خاطر أن أغلب الأسماء الكبرى فى دنيا الشركات العالمية قد لا تكون ببعيدة عن ذات خطر تحكم الدهماء أو ' النوفو-ريش ' من قابضى الأسهم فى مصائرها . والآن ها هو -أى وحيد- يقضى الأيام التالية عاكفا على تجهيز خطبة عصماء عن ماضى كيوبيد ومستقبلها ، كى يلقيها فى الجمعية العمومية ، ليس أملا فى شىء ، إنما فقط من قبيل تسجيل موقف .

يا لهول بؤس هذا العالم : مليون شىء يزيد الأنتروبى ويقود للموات التدريجى للكوكب : التسامح المسيحى – تحرير العبيد – الديموقراطية – الشيوعية – الأمم المتحدة – تصفية الاستعمار – تقرير المصير – الاستقلال – حقوق الإنسان – المساواة – الحقوق المدنية – حرية الهجرة – اختلاط الأعراق – التنوع الثقافى – العيش المشترك – مليون شىء . شىء واحد فقط ينقص الأنتروبى ويحقق الاستقطاب اللازم لتراكم الثروة ودوران عجلة الشغل ، شىء جعلوه أقرب لكلمة سباب : الفاشية أو الـ Eugenics !



شر الأمور الوسط ،

ومن يقول لى لا يوجد أبيض وأسود وكل الأشياء رمادية ،

أرد عليه جازما هذا لون الغبار ولو نفخته سيظهر لك أحد لونين لا ثالث لهما !

كنت قد اعتقدت لوهلة أن المضاربة هى وسيلة لتحقيق بعض الربح المادى ، إلى أن اكتشفت أنها أسلوب حياة كامل متكامل ، بل ولدى الجميع . إنها رؤية أغلب البشر للعالم ، من مضاربات ونس إلى صداقات روميو إلى ما بعد-حداثة منى إلى غدر العرب إلى ألاعيب السياسة إلى كذب الجميع على الجميع إلى كل شىء ؛ مشى حالك هو القانون الأسمى للكون ، ولا أحد يراهن على المصداقية المستدامة أو الاستثمار طويل المجرى أو التخطيط المستقبلى أو اتساق الذات ؛ إلى آخر تلك الأشياء اللعينة التى تطاردنى وحدى دونا عن كل البشر !

قصر النظر عم كل شىء ، بما فى هذا قصر النظر فى رؤية أن قصر النظر يقودهم للموت والتحلل البطيئين دون أن يشعروا . كل شىء صار banal وmediocre . الركاكة والابتذال ، الغثاء والعادية ، هى القانون الأعلى هنا ، إنها الناوسيا المصرية . هم يكرهون الاستقطاب والصراع ، دون أن يعلموا أن لا حياة بلا استقطاب وصراع ؛ دون أن يعلموا أن شر الأمور الوسط ، واسألوا داروين ، أو اسألوا القانون الثانى للديناميات الحرارية ، أو أسألوا الوثائق المؤسسة لأميركا يوم قالت بحق الحياة والحرية والبحث عن السعادة فى ظل إله واحد : قانون الدغل ؛ اسألوا أيا من كل هؤلاء هل سألوا أنفسهم ساعتها هل تنتمى أفكارهم للوسطية أم للتطرف ؟ !

قطعا هى أفكار شديدة التطرف . أية وسطية فى كل هذا ؟ الوسطية لم تصنع التاريخ يوما ، بل فى الواقع هى قاتلة كل الحضارات . ما صنع التاريخ هو -وهو فقط- أفكار تطرفت فى الاتجاه الصحيح .

آه ها ! mediocre ! فى الإنجليزية الوسطية سبة ، وعندنا نتباهى بها ! أن تتحاشى اتخاذ الموقف الصحيح -أو حتى الخاطئ- هو الشىء الأكثر أمانا ، أما أن تسعى لأن تكون صاحب موقف فسيصرخ الكل فى وجهك ساعتها : متطرف !

... قبل هذا وذاك ، لا تنس أن أساسا تعريف الوسطية هو هز الوسط !

كل شيء حولى فى مصر الجديدة هجين . البشر هجين ، الوجوه هجين ، الأفكار هجين ، المبانى هجين . حتى البازيليك نفسها ليست بازيليك حقيقية . حتى ماكينة الهاتف المعلقة على حائطها كما البرغوث الطفيلى ، هى ملك لرأسمالى هجين مزيف اسمه مرقس .

لماذا دائما يقيم المتخلفون الدنيا ولا يقعدونها ؟ لماذا لا ينحنى الخاسر للفائز ثم ينصرف صامتا فى كرامة وكبرياء ؟ ألم تكن هزيمتى قاسية جدا يوما ، لكنى لم أولول للحظة أو أحاول إلقاء اللوم على أحد ؟ لماذا يكرهون المبدأ الجميل The Winner Takes It All ، ناطقا بدستور أمنا الطبيعة الذى أرادته لعالمنا وحيواتنا ؟

نعم ، شر الأمور الوسط ، ومن يقول لى لا يوجد أبيض وأسود وكل الأشياء رمادية ، أرد عليه جازما هذا لون الغبار ولو نفخته سيظهر لك أحد لونين لا ثالث لهما .



... إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ !

من يجرى فى دمائه چيين العبودية ، لا يمكن أن يفهم قط معنى الحرية ؛

العبيد لا يريدون أن يصبح الجميع أحرارا ، إنما ببساطة يريدون استعبادنا نحن !

يا للنكتة ! أأنا من يعظ فى النصر والهزيمة ؟ ! هل أمنا الطبيعة إله حقيقى ، إله كلى-الجبروت كما طالما أوهمنا العلم ؟ ما الفارق بينى وبين أى متدين يذهب للحرب معتقدا أن إلهه سيحارب معه ، لكنه يهزم لأن ببساطة لا وجود لذلك الإله ؟

... إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ !

... أخشى ما أخشاه -إذا كانت حقا كل الأشياء تبدأ من مصر- أن كل الدنيا سوف تتداعى ، وأن كلمة الوسطية لن تصبح سبة فى اللغة الإنجليزية هى الأخرى !

... هذا سوف يطرح ساعتها السؤال الأبله : لماذا احتاج الأميركيون لربع ألفية كامل حتى اكتشفوا أن الدولة الأميركية قد قامت على مبادىء متطرفة ؟ !

... الإجابة جلية : أن العبيد بطيئو الفهم !

أنا لم أكن يوما ضد تحرير العبيد ، الفكرة موجودة منذ العظيم يوليوس قيصر ، ومن عارضها الساسة الفاسدون المنتفعون من هذه التجارة زائد العبيد أنفسهم . هربرت سپنسر -ناهيك عن تشارلز داروين- نفساهما لم يكنا ضد تحرير العبيد ، فقط لا أحد من هؤلاء العظماء رأى فيه تلك الرطانة السخيفة التى يصدعون أدمغتنا بها الآن عن المساواة وقيمة الإنسان إلى آخر هذا الهراء ؛ فقط رأوه مجرد إعلام للعبد أن أحدا لم يعد يكفل له طعامه بعد الآن ، وأن عليه أن ينطلق بنفسه للدغل المتوحش ويعتمد على ذاته . هذا هو معنى تحرير العبيد كما أفهمه ، عدا هذا فعدم تحريرهم أفضل كثيرا ، بل أكاد أفهم أن رواد الفكرة قصدوا منها وسيلة بارعة لتسريع انقراض هؤلاء ممن جعلتهم خصائصهم الچينية متخلفين عن الركب الحضارى ، إذ لم يكن يتوقع أن ينجو منهم فى مجتمع رأسمالى تنافسى حر وعادل سوى القلة الكفء ؛ أما أن يحرروا ويمنحون حصانة ضد الانقراض تحت مسميات مثل التمييز الإيجابى ، بل يتحولون لقوة ابتزاز عاطفى وبلطجة نقابية وتحزب سياسية وميليشيات مسلحة يحيلون سادة أميركا وبناتها الأصليين مواطنين من الدرجة الثانية ، عليهم وحدهم الكدح على أن تذهب معظم الثروة أو كلها لهم هم ، فهذا إجرام ، ناهيك عن كونه تخلفا ورجعية وكارثة أنتروپية .

... إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ ! من يجرى فى دمائه چيين العبودية ، لا يمكن أن يفهم قط معنى الحرية ؛ العبيد لا يريدون أن يصبح الجميع أحرارا ، إنما ببساطة يريدون استعبادنا نحن !

رأسمالى هجين ؟ يا للكارثة : أين نحن الآن من أيام روكيفيللر وإديسون ؟ لقد كانت أعظم أيام للرأسمالية التنافسية التى يفضل البعض تسميتها بالمتوحشة . صاحب ستاندرد أويل لم يكن يتورع عن تدمير منافسيه تدميرا تاما لا تأخذه بهم رحمة ، وكله علنا صريحا فوق الترابيزة وفى حدود القانون ، بل يتباهى مسميا ذلك بالعبادة الأسمى ، والأدهى منها أن المجتمع نفسه كان يقف مهللا تصفيقا للفائز وتصفيرا للمهزوم سعيدا بما يجرى ، والأدهى وأدهى أن الفائز والمهزوم غالبا ما يستمران صديقين شخصيين ، فالأمر برمته سباق مقرر القواعد سلفا ويجب أن يتم بروح

رياضية . صاحب جنرال إليكتريك -مخترع المصباح الكهربى ونحو ألفى اختراع آخر- كان فى نفس الوقت صاحب أكبر جيش للمحامين فى عصره ، يلاحق به صناع التصاوير المتحركة حتى قفار الحدود المكسيكية المدعوة هوليوود ، فالمخترع العظيم هو جشع عظيم ، لأن كليهما العبادة الحقة لأمنا الطبيعة ! الدنيا لا تتطور إلا فقط بهذا الأسلوب التنافسى الشرس ، أليس هذا ما تعلمناه فى التاريخ الطبيعى يا حاج وأنت أعلم منى به ؟ ! الرأسمالية الحالية برمتها هجين . أخذت من الديموقراطية البورصات فأعطت كل من هب ودب حق أن يدلى بدلوه فيما لا يفهم ، وأخذت من المسيحية التبرع والإحسان ووجبات الطعام المجانية وكل ما يسمى بأفعال الخير بينما هى الشر عينه ، وأخذت من الاشتراكية الضرائب والحق فى سلب ومص عرق ودم الغير ، وأخذت من بلطجية النقابات -أو بالأحرى أعطت- التأمينات والضمانات والأتاوات وحق النوم فى العسل وتعلمت أن تقاد لا أن تقود ، بل وأخذت دون أن تدرى من الإسلام المرابحة والمضاربة والمقاذرة والمناصبة والمسارقة والمناهبة والملاصصة ، وأسمتها بنوكا استثمارية . المفارقة أنى راهنت بكل ما أملك على واحد منها ، وها هم العرب يحولونها بأموالهم لفقاعة زيف بين لحظة وضحاها ، وكأن لم يكفيهم أن تكاثرت بنوكهم الشبيهة فى مصر التى حاولت تقليد نجاح كيوبيد ، دون أن يكون لديها أى من قيمها ومبادئها .

مبادىء وقيم ؟ هل هذا كلام يصدر عن شخص مادى مثلى ؟ سامحنى يا دكتور فرغلى ، لكن هل سنظل نعول للأبد على أمثالك من أصحاب الوعد الحق للرأسمالية ، كى تظلوا قلعتنا المنيعة ، أم سوف تكتسحكم أنفسكم العملات الرديئة وقوى الأنتروبى الهجينية الغثائية ؟ ! سامحنى مرة أخرى إن بدوت متخلفا بعض الشىء ، لكنى الآن أرتجف : الهجوم كاسح وأخشى ما أخشاه أن يكتسح القلعة الأخيرة التى يعول عليها التقدم : حرية الاقتصاد . أليس من الأفضل أن تعود الرأسمالية لأصلها الرصين ، نموذج ما قبل نشوء البورصات أصلا ؛ نموذج البنك التجارى الربوى اليهودى المحترم الذى يقيم الشركات الإنتاجية بنفسه ويضخ المال لداخلها مباشرة تبعا لتقييمه هو لها ، بدلا من نموذج البنك الاستثمارى الفقاعى الإسلامى القذر (والإسلامى أقولها بين قوسين ، لأنى أعرف أن المسلمين حثالة بشرية ولم يسمعوا بكلمة بنك أصلا إلا هذه الأيام ولا يمكن أن يكتب باسمهم اختراع ذى وزن فى التاريخ سوى غارات قطع الطريق) ، نموذج البنك الذى يمول الشركات من الخارج بمجرد شراء أوراق تسمى أسهمها أو بتوريق ديونها ثم بتوريق التوريق وهكذا ، وكله طبقا لأهواء الدهماء . هل هذه هى الرأسمالية الحقة كما قصدها آدم سميث وأمنا الطبيعة يا دكتور ؟ هل حين كنتم تتحدثون عن العرض والطلب وقوى السوق كنتم تقصدون قوى الورق وقوى الكلام وقوى الدعاية والضجيج والتطبيل وقوى الانفعالات والأمزجة والأهواء ، أم قوى المادة ، قوى الأشياء الحقيقية الملموسة على الأرض ؟



الأنتروبى الچينية !

... يا للمأساة ! الأمر لا يخص الرأسمالية وحدها ! بل الواقع أنها بطولة حقيقية منها أن ناضلت واستمرت كل هذا الوقت !

... من استطاعت هذا سوف تنتصر حتما . لا يجب أن أفقد إيمانى بقوى السوق والصراع والتنافس ، وأن مهما أظلمت الدنيا لن يصح فى خاتمة المطاف إلا الصحيح ، ومهما اسود الليل لا بد وأن يأتى الفجر !

... لكن كيف ؟ إن كل ما حولى ينطق بالموات الأنتروبى . الدنيا تعطى اهتماما وتدقيقا هائلين لتناسل الجياد أو حتى الأرانب . صاحب المزرعة التى ولد فيها مايتى يأتى من صربيا سنويا لزيارة ضهرى والاطمئنان أن كلبه يتلقى التربية الجديرة بما يسميه ' هذا الـ great gene ' . أما البشر ، فمتروكون لاختلاط الچينات كيفما شاءوا !

... إذن ربما الضعف هو النهاية المحتومة لكل عشيرة بيولوچية . تعريف العشيرة البيولوچية هو مجموعة الحيوانات التى يمكن أن تتناسل معا . كل القطط يمكن أن تتناسل معا ، لذا لا مفر من أن نحصل فى النهاية على فصيل متوسط ردىء بينما تكون كل الفصائل الممتازة قد اندثرت !

... يا للهول ! ربما يكون هذا هو عينه لحظة الفيصل طوال الوقت فى نهاية تسيد عشيرة ما على الأرض وبدء ظهور عشيرة جديدة أرقى !

... بل طبيعى أن يكون هذا هو عينه تفسير نهاية الإنسان بالتالى ، والانتقال لعصر ما بعد-الإنسان !

... بل يا للهول ! اختلاط الأعراق ليس نفسه إلا إحدى تجليات الموات الأنتروبى !

... بل يا للهول ! إنها كارثة كل الكوارث (وربما اسم كتابى القادم ؟ !) : الأنتروبى الچينية !

... بل لماذا لم تسكن يا جدى الغبى فى المعادى ؟ !

بعيد عنك سكتة قلبية !

أواخر أكتوبر تحدد موعد الجمعية العمومية بعد شهر بالضبط من يوم القناطر الوادع ، شهر مر كأطول شهر فى حياة وحيد . نعم ، كان يذهب أحيانا لرمسيس ، لكنه لم يكن يجد ما يفعل ، لم يكن مؤهلا لإجابة طالبى النصيحة ، لأن تركيزه كان ضعيفا جدا مع ما يجرى على الشاشة . لم يكن له مزاج حتى لمناقشة ضهرى فى أى شىء . فى الليلة السابقة على عقد الجمعية العمومية المنتظرة على أحر من الجمر ، يسكر حزنا لا ينام ويفوته الحضور من فرط الإعياء . حسب روايته ، هو لم ينم لأنه كان يضغط أزرار الكهرباء فى البيت لكن الأنوار ظلت مضاءة . فصل الكهرباء من المصدر خارج الشقة نفسها لكن ظلت كل المصابيح والأجهزة ترفض أن تنطفئ .

يأتى صوت وحيد واهنا عبر الهاتف : أنت فين دلوقت ؟ أنا عملت غلطة وحشة قوى النهارده ، وحاسس بهبوط شديد وشكلى ها أموت . أولا بأستأذنك فى الرحيل ده ، أنا شكلى موش ها أكمل ، المسيح-الضد ها يموت خلاص من غير ما يعمل حاجة ! ثانيا بلغ سلامى للجميع ، لوالدتك وللمدام ولمنى وللناس فى رمسيس . ثالثا عاوزك تكون شاهد أن إللى حصل لى ده موش انتحار . أنا متخيل ها يتكتب إيه عنى ، حياة فاشلة تنتهى بالانتحار . دى وصيتى يا ضهرى ، يا أعز صديق . (ثم يضحك بالكاد :) أريد أن أقول لك شيئا أخيرا : لو هناك بالفعل عوالم حية على أحد إليكترونات جسمك يعبدونك ، ما أستطيع أن أخبرهم به هو أنك إله لا بأس به !

جن جنون الحاج واتصل بالدكتورة سماء ، قال لها إنه يسكن بعد العمارة إللى فيها رمسيس ببيتين . جاءت بالبواب وكسرت الباب ، جاء صوت وحيد قائلا بوهن شديد ' أنتى هنا يا دكتورة ؟ ' . ثم ذهب فى إغماء عميق وجسم متصبب عرقا باردا كالثلج . وبينما سيارة الإسعاف تهم بالمغادرة ، كان الحاج قد وصل بالفعل ، حيث لم يحتج لأكثر من نحو عشر دقائق لقطع كل المسافة من القاهرة الجديدة بأقصى سرعة مجنونة جربها فى حياته . أخذوه للمستشفى ، حيث شخصت الحالة بهبوط حاد ، شرعوا بغسيل المعدة وحقن العقار تلو الآخر فى الأنبوب المزروع فى ظهر يده .

توقف قلبه وسط هلع الجميع . سماء فى حالة أقرب للهذيان المخبول . راحت تدق صدره بالشحنات الكهربية . أجرت المحاولة تلو الأخرى . لم تجد جدوى . بدأت الدموع تسيل فى عينيها . بدأت هى نفسها تهوى إلى الأرض . حين أصبح وجهها المتهاوى أمام يده الممدودة من جانب السرير ، هيئ لها أن أصابعه تتحرك مشيرة إليها كى تنهض .

بالفعل كانت تتحرك . بالفعل كان خط الضوء يشير على الشاشة لعودة الحياة ، بعد توقف لثلاث دقائق على وجه الدقة .

بالفعل كانت تتحرك . بالفعل نهضت . واحتضنته وقد وصل بها الهذيان أشده .

كان وحيد قد جاء لرمسيس مبكرا ، حزينا مهموما . جاء لأنه لم يطق نفسه بعد أن اكتشف فوات موعد الجمعية العمومية لكيوبيد ، ولم يعرف لأى مكان آخر يذهب . كل ما فعله فى رمسيس هو أن أجرى حوارا مع ونس ، قال فيه هذه الأخير إنها مؤامرة مقصودة ، وأنهم تعمدوا جعل موعد الجمعية مبكرا جدا فى الصباح ، بحيث لا يذهب أحد . عاد من فوره للبيت إلى ذات الحالة المؤلمة التى تزداد تفاقما : استيقاظ بلا يقظة ونوم بلا نوم . سكر بشدة ثم حاول النوم ، فجافاه من جديد ، فقرر فى خاتمة المطاف أن يرسل البواب لشراء حبوب منومة . تناول ثلاث حبات فحدث ما حدث .

ألغت سماء عيادتها وظلت إلى بجواره هى وضهرى . حين أفاق وجدها ووجد ضهرى الذى بادرة بكلمات الحمد على سلامته وأردف مشيرا إلى السيدة فارعة الطول بجواره ' سماء ألغت عيادتها وصممت تقعد جنبك ! ' . شكرها ، لكنه لم ينس السؤال عن شىء استراب فيه قبل لحظة من ذهابه عن الوعى : لما كلمتك سألتك أنت فين ، رديت على وقلت أنا مع مجدى فى بيت الدكتور فرغلى ، صح ولا أنا كنت بأتخيل ؟

– يا وحيد ، إللى كنت متوقع له يأخد نوبل بعد أسبوع ...

– (صاح بأقصى ما يستطيع به صدره الممزق :) ما له ؟

– دكتور فرغلى تعيش أنت يا وحيد . بعيد عنك سكتة قلبية !

العيب ليس فى أنا ، العيب فيها هى !

كانت سماء قد سهرت بجوار وحيد ترعاه طيلة تلك الليلة . تذرعت بأنها طبيبة ، فسمحت لها إدارة المستشفى . المسكنات وما شابها ، هذه التى أعطيت لوحيد ، جعلته يذهب فى نوم عميق ، أو بالأحرى غياب وليس نوما بمعنى الكلمة . بدأ يتنبه فى الصباح والممرضة تتفقد شيئا ما فى يده . لاحظ وجودها ، همست له بأن الدكتورة سماء سهرت طوال الليل بجانبه ، ولندعها تأخذ بعض النوم . ما الذى حدث ؟ لقد تنبهت للحظات . أذكر أن قالوا لى فيها إن الدكتورة سماء هى التى أنقذت حياته . قالوا لى إنها تداعت مغشيا عليها على الأرض . ربما لديها عذرها . تخصصها فى الطب هو استقبال الحياة لا توديعها . هل يعقل أن ظلت طيلة الليل جالسة على مثل هذا الوضع غير المريح ؟ لم أتخيل أنها ستفعل شيئا كهذا وإلا كنت قد رجوتها الرحيل . غالبا أعطونى منوما بعد ذلك ، وإلا كنت قد فعلت . على الأقل كان بإمكانها أن تطلب سريرا . ما الذى جعلها تقدم على هذا ؟ لا شك أنها مرت بحياة المستشفيات ، وتعرف أعرافها وخباياها . المنوم ؟ الدوار ؟ ثم ما هذا الذى قاله ضهرى ، تلك الفجيعة الخاصة بدكتور فرغلى . هل أراد أن يهنئنى على عودتى للحياة أو يواسينى لما مر بى بخبر كهذا . لا ، لا يمكن أن يكون الأمر برمته صحيحا . إنه قطعا كابوس مر بى فى نومى الطويل هذا .

جاءته غصة فى حلقة ، لكنه كبح أن يبدر عنه صوت قد يوقظها من نومها . كم أنا وحيد حقا ! ألست فى حاجة لامرأة ترعانى وأرعاها ؟ someone to watch over me كما تقول مزامير داود . هل تكفى رمانة الطيبة لمثل هذا الدور ؟ منذ بدأت أنشغل بما فى هذا يومى الجمعة والسبت ، وأنا ألاحظ أن المسكينة تضطر للاستيقاظ مبكرا جدا . تأتى كل تلك الرحلة فى البرد ، حتى لا تفوتنى ابتسامتها . تعتبر أن هذا صلاة فرضت عليها ، لا يصح التقصير فيها . حذرتها من أن تفعل هذا فى هذه الأيام بالذات ، هذه التى بدأت قارسة جدا ، رغم كل ما يقال عن سخونة الكوكب . لا يبدو أنها ستقتنع . أخشى أن أتسبب دون أن أشعر بأذى جسيم لها . لقد فعلت مثل هذا يوم قررت رعاية أمى فإذا بى أصيبها بالكمد حتى ماتت . يا رمانة لماذا لا تصدقين قولى المتكرر إنه مهما حدث لا تتخيلى للحظة أنى استغنيت عن ابتسامتك . قطعا لن أستغنى عنها أبدا . فقط تأكدى أنه يكفينى أن أراها مرة واحدة كل أسبوع أو أسبوعين كى تنطبع بقية الأيام فى مخيلتى . آمل ألا يحدث مكروه . على أية حال لا أعتقد أن أينا كان يطمح من وراء هذه العلاقة لأكثر مما نال منها . كلانا يعلم أنه نال الكثير من ورائها ، نال أكثر من الأحلام نفسها ، ولا يلح فى طلب المزيد . أشك أن أعثر على الدفء والحنان الذى وجدته معها ، وأشك أنها وجدت فى حياتها البائسة من منحه إياها غيرى . المشكلة أنها علاقة بلا مستقبل . لقد تعاهدنا على نحافظ عليها كما هى حتى آخر يوم فى حياة أينا ، وهذا يكفى . وأعتقد أن قلبها أكبر من يأتى بأية حماقة يوم ترانى فى حضن امرأة أخرى !

كيف غفلت عن نفسى كل تلك السنين ؟ ثم أعيانى التفكير حين بدأت أهتم فجأة بالأمر فى الشهور الأخيرة . هل أفكار منى الخاصة بالزواج بعد السبعين هى موضة العصر ؟ وباء استشرى بين الفتيات ؟ هل أنا كهل بالنسبة لهالة ، ولم يحدث أن فكرت فى مطلقا ؟ حتى لو لديها صورتها الخاصة لفتى الأحلام ، فلن تكون صورتى . وسيم ؟ ربما حتى لا أكون كذلك ، يقولون إن الفتيات يحببن اللون الأسمر هذه الأيام ، وينفرن من البشرة البيضاء والشعر الفاتح والعيون الملونة . منى المندفعة قالت ذات مرة إن عصر التكنيكولور انتهى ، والموضة الآن هى الأسود . دعنا من منى وأفكارها السوداوية المتطرفة . ربما تكره العلاقات الجنسية لذلك السبب . آه لو أدخل لعقل هالة ولو للحظات ! حتى هذه فكرة سقيمة . أنا أعرف النتيجة سلفا . لسنوات أعيانى التفكير فى كيف يمكن أن تفكر فى فتاة مثل هالة ، ولا أريد مواجهة نفسى بفاجعة أن الإنسانة الوحيدة التى تتطابق أفكارها وأفكارى ، لا يمكن -بفضل هذا الفكر ذى اللعنة معدومة النظير- أن تهتم بالزواج أكثر من اهتمامها بالكتابة ، بالإنجاز والعطاء والإرث ؟ ... أو لماذا لا يلقى علينا أحد ببساطة بتعويذة تسحرنا طائرى حب صغيرين كسامر وميرفت ؟ !

ماذا أيضا عن فتيات السيتى ستارز اللاتى يصادقهن ويتكلم عنهن روميو ؟ أفواج لا تعد ولا تحصى ، لكن بالتأكيد لكل منهن تصوراتها الخاصة جدا لأحلامها ولمستقبلها . المؤكد أن لكل واحدة منهن خططها فى التعليم والنجاح . المؤكد أنى لست جزءا من هذه الخطط . والمحتمل أن لم تفكر أيهن نهائيا بعد فى الزواج . لا أدرى . هل هن شبقات ، بجانب كل هذا ؟ هل لهن وجه ثان مختلف عما يبدو فى الظاهر . أيضا لا أدرى . ما أدريه هو أنى لا أستطيع بدء الكلام مع أى منهن . هل لم يعد أحد يفكر فى الارتباط طويل الأمد ؟ بالأمس رأيت سوسن تجلس فى المقعد الخامس بجوار روميو ، ويتسامران طوال الوقت ، بل يحيان بعضهما البعض بقبلة سريعة لدى اللقاء ولدى الافتراق ، كل ذلك بينما كما قالا لى ، لم يعد ثم تواعد بينهما وعلاقتهما الجسدية باتت مقطوعة . كيف ؟ هل أطلب من روميو درسا خصوصيا ، يحدثنى فيه عن كيف يفكر

هذا الجيل الغامض الصامت . لماذا يمسكون عن الكلام فى الحب والجنس ؟ هل التدين الذى اكتسح المجتمع لعقود زرع فيهن خجلا لم تكن تعرفه أمهاتهن ؟ أم هى طبيعة العصر ، التنافسية التى لا ترحم ، واحدة مثل منى تشتغل على دروسها ٢٠ ساعة يوميا . لو كان لديها وقت للتفكير لفكرت غالبا فى الوظيفة التى قد لا تأتى . من أين لها الوقت أصلا كى تفكر فى الجنس والحب .

ثم من هؤلاء الچولييتات اللاتى تتحدث عنهن منى ؟ هل معقول أن الثنائية الجنسية هى المتسيدة اليوم ؟ هناك إحصاءات أميركية وأوروبية كثيرة تتحدث عن هذا ، لكن هل فى مصر أيضا ؟ هل أفكار فتيات هذه الأيام تختلف عن أفكارنا لهذه الدرجة ؟ الواضح أنى لا أصلح لأيهن بالمرة .

لكن أخيرا ، ماذا عن سماء ؟ أرملة ، أصغر سنا منى بقليل . هل رأيت ماذا فعلت طيلة الليل ؟ حتى ضهرى لم يعرض خدمة كهذه . لكن حتى لو عرضها ، وصرفوه مثلا لأنه ليس طبيبا مثلها ، فذلك طبيعى لأنه صديقى الذى أقضى معه الساعات الطوال يوميا . أما هى فكل ما سبق بيننا أن قالت لإدوارد أنت نصايحك فى الأسهم تودى فى داهية وأنا من هنا ورايح ها آخد نصايح الأستاذ وحيد . دعتنى مرة لنادى هليوپوليس ، ولقسوتى لم أحرص على توطيد صداقتى بها . إنها حتى لم تستشرنى فيما يخص الأسهم سوى مرة أو مرتين . النقاش الجدى الوحيد بينى وبينها ، كان يوم عرضت أن تساعدنى فى اقتناء كلب ، فقلت لها لا أفكر فى تكرار تجربة اقتناء حيوان أليف . كان لدى قط اسمه ڤادو ، ويوم سافرت للكويت ، توقف عن تناول الطعام . ذهبت به أمى لكل الأطباء بلا جدوى ، ومات بعد أسبوع ، فأضافته كحجة أخرى لتوجسها ورفضها الشديدين لسفرى لبلد عربى . قالت بإلحاحها المعتاد إن ذلك أمر مرعب ، لأنه سلوك من غير المعروف عن القطط . يا للغباوة ! سماء تريدنى اقتناء كلب ، بل وتعرض مساعدتى ، فإحدى مريضاتها تربى العشرات منهم ، ويمكن أن تأتينى بكلب كهدية . إنها أكثر من مجرد تلميحات . يا لى من مندفع ضرير أخرق !

ثم ما كل هذا الحنو منها بالأمس ؟ شىء يصيب الرأس بالذهول . إنها إنسانة بمعنى الكلمة . لكن أليست هذه طبيعتها . حتى لو أنها لم تكن تفعل شيئا خاصا لى ، وكانت ستفعله مع أى صديق ، ألا يستحق الأمر التفكير ؟ إنها لا تعرف حتى أنها تقدم تضحية . أتذكر ماذا فعلت يوم أنبأناها بمقتل نبيل ؟ لم تنبس بكلمة ولم يقو وجهها على التعبير بأى شىء . فقط أشارت بإيماءة من أصابع أربع مضمومة أن اخرجوا . لو أن أما فقدت ابنها لما ضربتها صاعقة كهذه أبدا . بالأمس هى التى أعادت لى الحياة . لا رجاء لى إلا أن يكون هذا قد خفف عليها ما رأيناه يوما على وجهها يوم نبيل . لكن هل هذا هو كل ما تستحق من مكافأة ؟ ماذا تريد هى نفسها ؟ إنها لا تلمح لأنها تريد شىء أبدا . هى لا تريد شيئا أبدا . كانت تريدنى أن أقتنى كلبا ، كى لا أكون وحيدا . كى تتأنسن مشاعرى ، كى تعالجنى . تعالجنى كما تعالج مريضاتها . تشخص المرض وتصف العلاج . قطعا لم تكن تلمح لشىء يخصها هى . هذا ليس هى . إنها تعطى وفقط تعطى . حياتها سلسلة لا نهائية من التضحية .

لا أكاد أتخيل من أين جاءت بنظرتها للحياة ؟ إنها ترى توليد الأطفال فعلا مقدسا . تمارسه وكأنها فى معبد ، تتكلم عنه وكأنها تصلى . لماذا تتراءى لى دوما وكأن موائع الحياة ، أكاسير الرحم ، قد لفت جسدها البللورى الشفاف ، كما هالة سميكة من أثير سائل ، تمنعنى حتى من محاولة تجاذب أطراف الحديث معها ؟ إن هذه المرأة هى الفلسفة الإنسانوية وقد تجسدت على قدمين . إن أفلاطون نفسه لينحنى خجلا منها .

اللعنة ! لماذا يضعف الإنسان حين يتقدم به العمر . تقاطع الدموع عيوننا نصف قرن ، ثم تغدق علينا كرمها الفجائى مرة واحدة . هل أتقدم لها ؟ ألا تحتاج لأنيس مثلى ؟ هل أجعل إدوارد يتلمس رد فعلها . إنها ترتاح له ، ولا بد أنها تصارحه بسهولة بكثير من الأشياء . هل أجعل الحاج هل الذى يقوم بتلك الاقترابية نيابة عنى ؟ إنه لا يتورع عن شىء ، وفى نفس الوقت كل الناس تحترمه . إنها فرصة العمر التى لا تأتى إلا مرة واحدة . الحب فعل لا عقلانى . الحب أن تمنح بلا حدود وبلا حسابات ، أن تستسلم بالكامل وأن تقدم كل شىء ، وتجد سعادتك فى هذا . إحصاءات منى وتجارب روميو تقول إنه عملة نادرة جدا . لكن ماذا لو كانت سماء هذه هى فرصة الواحد فى المليون التى ينتظرها الملايين ويموتون قبل أن تأتيهم . السعادة التى تأتى من وراء الحب الحقيقى هى السعادة القصوى ، السعادة الغائية ، اللا نهائية . الآن سعادتك على مرمى كلمة واحدة منك . هذه إنسانة تضحى بإخلاص ، وأنت مشاعرك تقول لك إنك ستمنحها بدورك الحب والتضحية بلا حدود .

لا ! لا ! انس كل هذا . بالإنجليزية يقولون ملاحقة السعادة . ربما كذلك فى كل اللغات . ربما تواضعت كل البشرية على أن السعادة لا تدرك . فقط ' تلاحق ' . من أنا حتى أفهم أكثر منهم ؟ ! تلك كلها أحلام أجمل من أن تكون حقيقية . ألن تسلخ نفسك ببساطة هكذا من إيمانك الأزلى بمادية أرسطو ؟ هل تستسلم لتهاويم أفلاطون وتهدر كل ما أقمت عليه حياتك كلها ؟ كيف ستعايش نفسك بعد اليوم ؟ بلى ،

السعادة ليست السؤال . كيف جرؤت أصلا ؟ السؤال ليس أى من كل هذا . السؤال هل أنا استحقها فعلا ؟ أليس ظلما لهذا الملاك الطاهر أن يقضى حياته مع آلة متوحشة مثلى ، تؤمن بأن إبادة نصف البشرية ستجعل اقتصاد الكوكب أكثر صحية ؟ أين موائع الحياة وأكاسير الرحم وهالة الأثير البللورى الشفاف ، من ' كرات دهن لزجة مقززة تقذفها الأرحام ! ' . إن محيطا كاملا يفصلنا . ما الحل إذن ؟ ماذا أفعل ؟ هل استمر وحيدا ، اسما على مسمى ؟ الإجابة غالبا ستكون هى عينها كما كانت طيلة الأربعين سنة الماضية : لا أفعل شيئا !

على أية حال ، لا بأس . روميو يقول لا حب مع النساء . منى تقول لا حب مع أحد . أنا نفسى حين أدخل فى غيبوبة الكتابة وأمسك بالكيبورد أقول إنه فى عصر ما بعد-الصناعة (الذى هو نفسه على وشك الانتهاء) ، كل المشاريع باتت فردية ، ولم يعد ثمة مكان لمشاريع ثنائية أو لأسر نووية . أما هى فتعايش قوى الطبيعة فى أعنف تجلياتها ، لكنها تصر على ألا ترى إلا وجها واحدا فقط منها . ترى عنفوان الحياة والميلاد والاحتضان . هذا رائع . لكن كيف لها أن تعمى هكذا ببساطة عن الوجه الآخر الذى لا يقل عنفوانا ولا قداسة ، وجه الصراع والقتل والموت ؟ !

مع كل مشاعر الحب والاحترام منى لها ، وأيضا كل ألم الخسارة ودمع الندم منى لنفسى ، العيب ليس فى أنا ، العيب فيها هى !

كانت سماء قد استيقظت ، حيته تحية الصباح . راحت تتطلع للأجهزة ، بينما تتحسس جبهته وقوة نبضه ، وراح هو يلح عليها بكلمات العرفان والمديح والثناء ، حاول أن يستجمع فيها كل خبرته الطويلة مع حرفة الكلمات . لكن للأسف كل هذا المجهود ذهب هباء ، لأنها -وهى المولعة دوما بالإنصات لكل حرف يقوله محدثوها ، لا تعطى نفس الاحترام لكلمات الشكر التى توجه لها .



إما أن تعطى الشطرنج عمرك ، وإما أن تحتفظ لنفسك بهذا العمر !

كان حارس غوطة صديقا جيدا لابنتيه . كان يلاعبهما الشطرنج طوال المساء ، والأم لا تجد ما تفعله سوى بعض قراءة فى وفرة المجلات ، أو إعداد الليمونادة لأربعتهم المرة تلو المرة ، بالماء المثلج الذى تنتجه ثلاجتهم التى صممها وصنعها حارس بيديه . كانتا تتسابقان على اللعب معه ، دورا بدور لكل منهما ، أو بطريقة استمرار الفائز . وظلتا لسنوات يصعب عليهما هزيمته ، إلا لو تخلى عن قطعة الوزير . حين كبرتا وأصبحتا تهزمانه ، وتهزمان كل من تعرفتا عليه من المعارف والأصدقاء ، بدأ البعض يقترح عليهما الاشتراك فى مسابقات . عند هذه النقطة ، وفى يوم واحد ، بل ربما فى لحظة واحدة ، قررت الاثنتان ألا تلمسا قطعة شطرنج أخرى مرة أخرى فى حياتهما ، ولا حتى لملاعبة بعضهما البعض . قالت كل منهما لنفسها إما أن تعطى الشطرنج عمرك ، وإما أن تحتفظ لنفسك بهذا العمر !

... واختارتا المشروع الثانى .



أميركا بتقلد اليابان ؟ على أيامنا كان العكس !

يحبط أنتونيوس بلوك (روبين ويلليامز) بعد أن يكتشف أنه لا توجد جنة أو جهنم بعد الموت ، وأنه أضاع حياته فى الجزء الأصلى (فيلم بيرجمان يعنى) بلا مقابل . يذهب إلى هذا المحل الذى يوفر خدمة ' سينما الحياة السابقة ' لكى يتفرج على حياته القديمة . يوجد عيب بشريط حياته السابقة فيقف التسجيل على صورة واحدة ولا يستكمل . يذهب عامل السينما لكى يحاول إصلاح الجهاز . يطلب منه أنتونيوس أن يتوقف ، فيلاحظ أن فى هذه اللقطة كان ' الموت ' يغش فى لعبة الشطرنج . يقرر روبين ويلليامز أن يواجهه لكى يسترد حياته (التى أخذها ' الموت ' منه فى الفيلم الأصلى ، لأنه كسب فى لعبة الشطرنج) . يذهب الى ' الموت ' (سنجعل كيڤين سپيسى يؤدى الدور) ، فيقول له هذا الأخير أشياء بمعنى ' القانون لا يحمى المغفلين ' أو ' اشرب من البحر ' (أو بالعربى حلق له ، إنما بالإنجليش كلام قلة أدب ما أقدرش أقوله) . يستشيط أنتونيوس غضبا ويذهب الى بار حيث يشرب كثيرا . يتكلم مع غريب بجانبه ويحكى له القصة كاملة فيعطيه كارتا لمحامى ، ويدسه له فى جيبه فى حين يصمم أنتونيوس أنه لا فائدة من ذلك .

فى اليوم التالى بعد أن يفيق أنتونيوس من الـ ' هانج أوڤر ' يجد الكارت ، ويقرر أنه لا يوجد شىء ليخسره ، فيكلم المحامى فعلا (سيقوم بالدور الجميل وأسمر دينزل واشينجتون) . يقبل المحامى القضية ويبدءون البحث عن تقوية موقفهم من القضية . يعلم ' الموت ' عن مخططات المحامى وأنتونيوس وهو لا يريد مشاكل مع القانون بالذات أنه يذهب كثيرا الى كولومبيا وأمستردام لشراء الكوكائين والهيروئين ، وحصل على حظر

التجول الثامن له (بمعنى أن اذا وجد أى مشكلة له مع القانون مرة أخرى ، فسوف ينزل الى مكانة ملاك عادى ، ويجرد من نفوذه وبريستيجه الهائل كملاك الموت . والأسوأ أنه سوف يجد نفسه طريدة لانتقام ملائكة السماء الفقيرة إذا نزل الى مستواهم ، ذلك لظلمه وسوء سمعته وشره) . يذهب ' الموت ' الى ' ساتان ' (وده طبعا ها نخليه الحليوة أوى إللى بأموت فيه چوود لو) طلبا للمساعدة . يقول له ' ساتان ' أنه سوف يقدم له هذه الخدمة ، وهى إغواء المحامى الى الجانب المظلم .

تتعقد الخطة ويذهب المحامى الى ساتان لكى يطلب منه فيش وتشبيه يقدمه للمحكمة ، بما يفيد أن هذه القضية ليست مباركة من ساتان . بينما ينتظر المحامى خارجا يلمح امرأة تشبه زوجته الراحلة (شارون ستون إللى زى لهطة القشطة ، طبعا عارفينها يا كبار أنتم) . يسأل ساتان من هذه ، فيقول له إنها الجيرل فريند بتاع ' الموت ' ، ويشرح له ساتان أن الموت أخذ روحها لإعجابه الشديد بها . يستشيط المحامى غضبا ويذهب الى مواجهة الموت . فى مشهد مطاردة آكشن جامد أوى يقتل المحامى الموت ثم يموت هو أيضا . يعين ساتان أنتويوس كملاك الموت الجديد لأنه ضعيف الشخصية وبذلك ها يكون ' خاتم فى صباعه ' . ويخلص الفيلم ! إيه رأيك يا أونكل ؟ أظن أى ستوديو ها يموت نفسه على فكرة أن روبين ويلليامز ملاك موت ؟

لا يبدى وحيد ردا وتظل ابتسامته الأصلية كما هى ، فتلحق منى نفسها بصوت أقل حماسا : فهمت حاجة ؟

ضهرى يضحك ، فيجامله وحيد بما يعتقد أنه سيؤمن على سبب ضحكه : فكرة مجنونة !

– أنا عارف ، بس أنا افتكرت حاجة تانى ؟ ڤيروس الشطرنج موش وراثة فى وفى إدوارد بس ، ده وصل لمنى ! أمى كانت فى شبابها مدمنة شطرنج واعتزلت . قال إيه عاوزة تشوف الدنيا . وبالمثل طلعت عينين عيلة أبويا ، وأبويا نفسه ، لغاية ما وافقت تحمل بالعافية ، وخلفتنى بعد سنتين ونص جواز ، وبالنسبة للأرياف ده عيب كبير ، وكانت عاوزاهم ٥ سنين على الأقل . قالت هى دى السنين إللى ها أشوف فيها حياتى ونفسى ، عاوزين تحرمونى منها بدرى ؟

– إيه يا أونكل ؟ ها تنتج الفيلم ، ولا خايف تلعب شطرنج مع الشيطان ؟

– أونكل وحيد يا بت حريف شطرنج ، بس ما يقدرش على إللى الشطرنج فى چيبيناتهم ، زيى !

كان الحوار قد بدأ بمجىء منى . جاءت تمزح بزلاقة تفوق الوصف يا أونكل أحلى ناس ماتوا منتحرين ، أنا نفسى فكرت فى الانتحار ألف مرة . أنت سمعت عن كيرت كوبين طبعا !

– كيرت مين يا بت ؟

– كوبين يا پاپا ، كيرت كوبين ! هذه هى فائدة الفنانين الذين تسمونهم بالمجانين ، كوبين ، موريسون ، لينون : يخوضون التجارب نيابة عنا !

– منين جات لك فكرة الانتحار يا بت ؟ أنتى إللى كنتى عاوزة تنتحرى . قريتى أن أعلى نسبة انتحار فى أميركا فى البنات إللى سنهم ١٧ سنة ، فقلتى لازم أجرب الانتحار ، وقبل الـ ١٧ بسنتين . فاكراه بنطلون چينز جديد ، أو مشروب جديد . أوعى تقولى الكلام ده تانى أبدا عن الأستاذ وحيد . ده حصل بالصدفة ، وغير مقصود ، وراجل زى ده موش ممكن ينهى تاريخه العظيم بانتحار وهزيمة وكلام فاضى بتاع واحدة فاشلة زيك .

– أنا فاشلة ؟

– أيوه بالنسبة لى أنتى دلوعة وتافهة وفاشلة .

– بأشتغل عشرين ساعة فى اليوم وفاشلة ؟

– عشرين ساعة مع أصحابك . البنت دى موش ها تفلح أبدا !

– أصحابى دول هم المذاكرة . كل حاجة جماعية دلوقت . الظاهر أميركا بتقلد اليابان فى طرق التعليم اليومين دول . إحنا بنشتغل أكثر منكم بكتير . مع أصحابى آه ، بنضحك على طول آه ، إنما عشرين ساعة شغل فى اليوم . لو عن نفسى ، أعمل كل حاجة لوحدى ، لكن هى دى طبيعة الشغل . هو أنت شوية تشكى أنى مع أصحابى ، وشوية تشكى أنى ما بأتفسحش معاهم ؟ أنت موش عاوز تفهم ليه ؟ أنت عاوز إيه أكتر من تقديرات إيه ؟ الماستر ها آخده برضه ؟ إيه مشكلتكم بالظبط ؟ أنتم بتتضايقوا لما تشوفونا مبسوطين ؟

– أيوه إحنا وش نكد . تفتكر الماستر ده جه إزاى يا وحيد ؟ ما كانش على بالها خالص ، لولا أنا -وأعوذ بالله من قول أنا- قلت لها روحى لعمتك وعمك شوفى فرصتك فى الوظايف إيه . رجعت مكسورة ومدلدلة رأسها ، تقول لى لازم آخد ماستر من إنجلترا أو أميركا ، وإما أرضى بوظيفة أى كلام .

ويشرد الحاج متذكرا كلام ابنته : أميركا بتقلد اليابان ؟ على أيامنا كان العكس ! لك حاجات يا حاج !



وكانت ابنته ' المهبوشة ' تصرخ بأزجال لم يفهمها أيهما بالكامل ، من الميتال العنيف للمغنى ماريلين مانسون تتحدث عن المسيح-الضد !

هدأت منى لكنها لم تنس أصل المناقشة . لم يكن لديها من مثال تضربه للانتحار أفضل من مغنى فريق الروك نيرڤانا . وراحت تدخل فى تفاصيل كثيرة عن كوبين وكيف مات ونص الرسالة التى تركها والتى كانت تحفظها بالحرف تقريبا . ضحك وحيد ضحكة من قلبه سعادة بهذه الفتاة الجريئة ، لكن الضحكة آلمته جدا فى منطقة الحجاب الحاجز ، وحل محلها عضلات وجه متقلصة من الألم ، لكنه حاول أن يحافظ على ابتسامة عريضة قدر الإمكان ، وسحب منى من يدها ليقبلها على جبينها . فإذا بها هى تنقلب فرفشتها أو سخريتها اللا مبالية أو ما يسمى بالإنجليزية cynicism ، تنقلب إلى دمعة حارة سقطت بسرعة من عينها ، وتقول وكأنها حكيمة الزمان تروى تجربتها الخاصة فى الانتحار : عارف يا أونكل الانتحار غلط ليه ؟ أنت موش ها تعرف ليه إلا بعد ما تنجى منه ؟ ها تلقى الدنيا اتصلحت تانى ، وتقول خسارة لو كنت مت ، وفاتتنى الأفلام دى والاختراعات دى والرحلات دى والأحداث دى . موش كده يا بتوع السياسة أنتم ؟

بينما كان أبوها يحاول طوال الوقت بأكثر من طريقة ، أن يوقف استطرادها فى كلام الانتحار ، والذى جعلها تبدو وكأنها مقتنعة فعلا بأن وحيد ارتكب محاولة انتحار ، كان وحيد غير غاضب منها ، بل غير مرتاح لنهر أبيها لها . لقد فهم من اللحظة الأولى أن هذه الفتاة لا تتحدث عنه هو ، بل تحاول التطهر من فعلتها هى نفسها الحمقاء قبل سبع سنوات ، من خلال الكلام عن الانتحار بمثل هذا الاستخفاف والسخرية . لقد كانت من خلال هذا الإسقاط تمارس نوعا من العلاج الذاتى .

كل ما فعله وحيد أن حاول أن يلتمس للانتحار عذرا لعله يهدئ روعها ، فقال بصوته المرهق : ربما مشكلة الانتحار الحقيقية ليست فيما يمكن أن تأخذى ، إنما فيما يمكن أن تعطى . أنا كاتب . لو مرضت ومت عند سن الخمسين ، سأكون قد تركت أفكار وكتابات معينة . أقول هذا تراث جيد ولا بأس به . لكن هناك حقيقة أخرى . أفكارى كل يوم تختلف عن اليوم السابق . ولو عشت حتى سن الثمانين سأترك أفكارا مختلفة ، أفكارا أنضج وأفضل . الحياة شىء رائع ، فقط المشكلة أن تأتى اللحظة التى تشعرين فيها أنك لا تملكين جديدا تقدمينه . الانتحارات المنتشرة حاليا ، أغلب ضحاياها أناس لا يستطيعون تقديم شىء لأسرهم . ليس الضجر ما يدور حوله الانتحار ، إنما بالعقم . لكنى أوافقك أن الظروف لا بد وأن تتحسن من جديد . كل حاجة بتلف فى دورات وموجات ، وأبوكى له قول مأثور ، قول فصل كالعادة : ما الدنيا إلا بورصة كبيرة !

المفاجأة المذهلة أن هذه الكلمات التى ضرب فيها المثل بنفسه ، كانت أكثر جدية وقسوة مما تخيل . وهو الذى احتسبها تفريجا وترويحا عنها . إذ ما حدث هو أن جعلتها تنسى ، أو بالأحرى تهرب ، من كل موضوع الانتحار ، وتفتح موضوعا مختلفا : ' بمناسبة الموت أنا عندى لك يا أونكل فكرة بـ ١٠٠ مليون دولار . أنتم شفتم ' الختم السابع ' ؟ ' .

فتدخل أبوها : ' أيوه شفته ' .

– (ترد باستنكار وشفاه ممطوطة ، وفى نفس الوقت إحباط للإجابة غير المتوقعة من أبيها بالذات :) شفته إزاى ؟ ده إنتاج ١٩٥٧ ؟ شفته بره ؟ معقول جه مصر ؟

– شفته فى نادى السينما القاهرة . النادى ابتدأ سنة ١٩٦٨ ، وكان فى سينما أوبرا ، كنت من إللى اشتركوا فى أول يوم ، والفيلم ده كان تقريبا تالت أو رابع فيلم يتعرض .

– آه ! كنت فاكراك بتسمع أم كلثوم بس . ما علينا ، أنا عندى يا أونكل فكرة جزء تانى لـ The Seventh Seal ، اسمه The Eighth Deal ، وعاوزة آخد رأيك فيها . وتبدأ حكاية القصة .

وبعد أن انتهت من رواية قصة الفيلم التى اخترعتها ، يقول لها أبوها : ' إنتى إما مجنونة وإما أعقل منى ألف مرة ' .

تصيح مرحبة بردة الفعل : ' الاتنين يا پا پا يا حبيبى ! ' .

(ويتذكر ضهرى أن لديه ثأرا :) أنتى فاهمة إيه معنى فيش وتشبيه ، ولا كلمة بتسخدميها كده وخلاص ؟ (وأن لديه ثأرا آخر :) ما لها أم كلثوم يا بت ؟

– ييخ ! يا أونكل ، ده بكتيره يسمع الأبا . تصور يا أونكل حاجات ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ راحت عليها وهو بيسمع الأبا ؟ !

– (يتدخل وحيد بصوت واهن :) رأسمالى بأه ، وجايز عجبته أغنية Money, Money, Money ؟

– (تضحك) صح يا أونكل ، حلوة !

– (ضهرى مغتاظا :) هئ ! أنت بتعرف تنكت أهه ! ثم ما لها الأبا يا بت إنتى ؟ مزيكا جميلة وحلوة .

– يا پاپا دى حاجات اسمها پوپ ، انتهت خلاص . فيه حاجة اسمها روك ، مليون نوع من الروك ، حاجات تشغل لك مخك تهز كل حاجة جواك ، موش مزيكا ' حلوة ' أو القرف إللى بتسموه طرب .

– آه ، خبط ورزع يعنى .

يعود وحيد لخط الحوار مرة أخرى : ' كنت فاكرك ها تقولى راپ يا منى ؟ ' .

تقوم بغطسة عميقة سريعة لذراعيها لأسفل وقد فردت إصبعى السبابة ، قائلة كما يقول السود فى أميركا !Yo, man ، لكن سرعان ما تستدرك : ' راپ إيه بس يا أونكل ؟ أنا عاوزة حاجة تعمل دماغ . حاجة تشغل المخ ' .

– أنا شخصيا ممكن أسمع كل حاجة ، والپوپ جميل زى پاپا ما بيقول ، بالذات لو الألحان مميزة وخالدة . حتى الغنا العربى إللى طول عمرى ما سمعته ، بقيت بأسمع شوية حاجات حديثة فيه موش بطالة ، بتحب تسمعها شغالتى رمانة . ما عدتش تشبه خالص الموسيقى العربية بتاع أيامنا ، موسيقى غربية بالكامل تقريبا . على الأقل مثلا ما عدش فيه نهائيا ربع النغمة .

وتهتف منى مفرجة عما بدا انتقاما قديما : ' ربع تون ؟ ده جريمة ضد الإنسانية ! ' .

ويواصل وحيد : ' إنما للسماع لفترات طويلة بأسمع الكلاسيك لو عاوز أركز مع الموسيقى ، ولو ها أركز مع حاجة تانية يبقى ما فيش أحسن من الديسكو كخلفية ، إيقاع يديكى حرارة ونشاط ' .

– ألحان وإيقاع ؟ يعنى ما تفرقش كتير عن صاحبنا إللى جنبك ده ؟ !

تغنى Grease ، فيشكرها وحيد على لفتة الديسكو ، ويعتبرها هدية جميلة له فى مرضه . تغنى Sugar Baby Love ، فيعلق والدها : شايفة الپوپ ألحانه جميلة إزاى ؟ ولم يكتشف أنه ارتكب غلطة العمر ، إلا وهى تدق رجليها على الأرض وقبضتيها على أحد الكراسى ، وتهز رأسها بحيث يأتى شعرها ليغطى كامل وجهها ، ثم يذهب متمزقا فى كل الاتجاهات . ليست سوى لحظات وكانت ابنته ' المهبوشة ' تصرخ بأزجال لم يفهمها أيهما بالكامل ، من الميتال العنيف للمغنى ماريلين مانسون تتحدث عن المسيح-الضد ! خدعتهما بدايتها لأنها هادئة أشبه بتراتيل الكنائس ، وتخيلا معها أنها ستحييهما بقطعة أوپرالية أو بموسيقى صوفية أو إنجيلية . ولم تفق إلا وأبوها يرجها بكل قوته : أنتى اتجننتى يا بت ! نسيتى أنك فى مستشفى !

– آسف يا وحيد . لقد عاهدت نفسى ألا امتدحها فى شىء أبدا ، لكن نسيت ! بتلعبى بنا كورة يا بت ؟ اسمعى إللى أنتى عاوزاه ، بس بعيد عنا !

ولا يغالب وحيد الضحك رغم ما يسببه له من ألم : ' عنيدة ! عنيدة ! عنيدة ! ' .

بعد برهة كان الصمت فيها سيد الموقف ، يكتشف أن أحدا لم يعلق على فكرة فيلمها : ' تعرفى يا منى ؟ أنا قابلت بيرجمان مرة . يمكن أكتر إنسان مهذب ورقيق شفته فى حياتى . تعرفى لو سمع الكلمتين إللى قلتيهم على فيلمه كان عمل إيه ؟ ' .

– إيه ؟

– كان قتلك !

وقبل أن تهم بالرد يقاطعها أبوها مرة أخرى : ' عمو تعبان وموش ناقص وجع الدماغ بتاعك . كمان هو بطل ينتج أفلام من زمان ' . ثم فجأة يعنفها من جديد وقد تذكر ثأرا جديدا : ' أنتى طالعة كافرة لمين يا بت إنتى ؟ هم عبدة الشيطان رجعوا تانى يا بت ؟ ' .

– هم كانوا بطلوا يا پاپا علشان يرجعوا ؟ أنت بتتكلم على الفيلم ولا الأغنية ؟

– يا نهارك أسود ! أنتى منضمة لهم يا بت ؟

يعبس وجهها ، وتكتسب نبرات صوتها ملامح الجدية لأول مرة : منضمة إيه يا پاپا ، أنت ها تقلب الموضوع جد ولا إيه ؟ أنا ما بنضمش غير لنفسى .

وترد دفة الدفاع إلى الهجوم ، مغيرة سياق الحديث : بعدين إحنا موش اتقفنا من ١٠ سنين أن بلاش يا بت دى .

وبدوره يلجأ أبوها لذات التقنية ، الهجوم محل الدفاع : يا بت أنا موش طلبت منك فيلم أوديسا الفضاء .

– آه ، موش ها أخلص ، افتكرنا ١٩٦٨ ، والذكريات ها تشتغل ، وها تقول لى الفيلم الذى خلب وخبل لنا عقولنا .

– أنا موش فاهم إيه المشكلة ؟ بتقولى عند أصحابك نسخ . كمان لو ما فيش ، اشتريه من ع الإنترنيت وييجى بالپوستة فى يومين ، أو دورى عليه فى الهايپرماركتس إللى بتروحيها .

– أنت لسه عايش فى زمن البوستة والهايپرماركت ؟ ! تنزيل أقراص الفيلم كله من الإنترنيت ما بياخدش ربع ساعة دلوقت ، وكمان بجودة الـ hyper definition أون لاين ، أعلى جودة من أفلام السينما ٧٠ مم بتاع أيامكم . كل ده ما فيش مشكلة . (تأتى بحركات تأفف عصبية يرتج لها جسدها كله :) يا پاپا أصل أنا ما حبتهوش !

– لأ ! أنتى ما فهمتهيوش . فيه حد ما يحبش فيلم لكوبريك ؟ أنتى متخلفة بجد !

– أنتى بالذات المفروض يعجبك يا منى . كل أفلام كيوبريك ضد الإنسان . هيتشكوك وهو ، أشهر اتنين فى كده . تحديا كل السينما ، إللى بطبيعتها لازم تنافق الزبون . هما لم ينافقا الإنسان للحظة واحدة ، إنما انهالا عليه تقريعا وسخرية ، وإهانة للمشاهد نفسه طوال الوقت !

– شفت يا پاپا : اسمه كيوبريك ، موش كوبريك ، وكمان الفيلم اسمه 2001 .

وتكرر : ' 2001 — A Space Odyssey . أنا إللى ' دئيئة ' موش أنت . بعدين هو ما فيهوش حاجة تتفهم أصلا ! يتفهم إزاى إذا كان الكتالوج بتاعه بيقول لا يشاهد إلا مع الماريوانا ! ' .

يضحك وحيد وينظر للحاج : ' قصدها إللى حصل مع الفيلم فى عرضه الأول ' .

– أنا عارف . وبأحاول أفهمها أن إللى ما عاش الستينيات والسبعينيات ما عاش أصلا .

– (ببعض الأسى :) وحياتك عندى أنا مقتنعة بنظريتك دى ، بس نعمل إيه ، آدى إحنا بنحاول .

– (ساخرا :) آدى إحنا بنحاول ؟ !

تبتسم بخبث : ' قلت إيه پا پا ؟ تحب أجيب معاى 2 joints ونشوفه سوا ؟ الماريوانا حلوة علشانك وعلشان دور البوذية إللى أنت عايش فيه ! ' .

– اتلمى شوية يا بت .

يتدخل وحيد : ' أنا للأسف كان عندى نسخة ، وأخدها منى واحد وما رجعهاش . أنتى شفتى الفيلم أمتى ؟ '

يرد أبوها : ' ده من الأفلام إياها ، بتاعة أيام ما كانت فى اللفة ! ' .

– برضه ده كلام ؟ ! لازم تشوفيه تانى . جايز تشوق حاجة مختلفة !

ينفجر ضهرى ضاحكا فتستفز منى من جديد : ' ما تخافيش ! موش قصدى أنتى . قصدى واحد قرأ ٥٠ صفحة من كتاب أيام ما كان فى اللفة ، ولما كبر بقى موش عاوز يقرأهم تانى ! '

ويلتفت وحيد لمنى قائلا بنبرة جادة : ' لو سمحتى يا منى ، أنا كمان عاوز أشوف الفيلم معاكم ' .

– آه ها ! يبقى محتاجين 3 joints !

ثم تتحول للجدية : ' حاضر يا أونكل . يوم أو اتنين ويكون موجود . إيدك على ١٠٠ جنيه يا سى پاپا ' .

– الـ ١٠٠ جنيه نمرة كام دى ، علشان أشوف فيلم ؟ السنة كلها فى نادى السينما كانت بخمسة جنيه . خمسة جنيه إيه ؟ كانت أقل . والله ما أنا فاكر كانت بكام ؟ تلاتة جنيه باين ؟ !

– أنا موش عارفة الألزهايمر ما جاش ليه فى أفلام العصر الحجرى إللى بتفتكرها لى دى ؟



الشباب شكلهم جميل ، لبسهم جميل ، كلامهم جميل ، تعليمهم جميل ،
خيالهم جميل ، أفكارهم جميلة ، حركاتهم جميلة ، روحهم جميلة ، كل حاجة فيهم جميلة .
بس دايما عبر التاريخ كان فيهم مشكلة واحدة : بيسمعوا مزيكا ' موش ' جميلة !

راح الحاج يهاتف إدوارد يخبره بما جرى لوحيد ، وللاعتذار عن القدوم للشركة . سيظل اليوم كله بجوار وحيد . لا داعى أن تأتوا اليوم . للأسف أحضرت منى معى واكتشفت أنى ارتكبت غلطة كبيرة . لنتركه يرتاح اليوم . تعالوا غدا ، أعتقد أنه سيخرج صباح الغد ، وسنحضر كلنا الجنازة . لن تشيع اليوم لأنه قيل إن كثيرا من الشخصيات ورؤساء الشركات العالمية يريدون الحضور . وفى كلمات قليلة أخيرة توافقا على أن دكتور فرغلى مات كمدا مما رآه يجرى لكيوپيد . حلم عمره ضاع . الملكية الواسعة للشركات سلاح ذو حدين . شركات كتير كده . السى آى بى نفسه كده ، من ساعة ما سابه الأمريكان وابتدى البنك الأهلى يبيع فيه . أيوه شركات محترمة ومظبوطة وماشية عشرين سنة كويس رغم الملكية الواسعة ، لكن النهارده بعد كيوپيد ، كل شىء ممكن يحصل . الرعاع ستصبح لهم الكلمة العليا . على الأقل مع الشعب المصرى ، وبالذات مع وجود المال العربى ، يصعب أن ينجح هذا النوع من الشركات . أنجح الشركات فى التاريخ هى التى كان لصاحبها السيطرة عليها بنسبة ٥١ ٪ على الأقل . لو مخاوف دكتور فرغلى ووحيد صح ، وانهارت كيوپيد ، ها تبقى دومينو تجر الدنيا كلها وراها . دى كيوپيد ! عارف يعنى إيه كيوپيد ؟ ! الاقتصاد كله ها يبقى فى خطر . خطر ؟ قول البلد كلها فى خطر !

هنا شد وحيد منى إليه ثانية ، وطبع قبلة على خدها ، فذهب عنها عبوسها ، وخرجت بسرعة من الغرفة وهى تتقافز وتصيح كلاما كثيرا سريعا غير مفهوم كالعادة ، ومكتفية بتوديع أبيها المنشغل بمكالمته بمجرد طرقة خفيفة بعيدة على أطراف الأصابع : باى داد ، ورايا شغل !

فى الواقع هى لا تتقافز ، إنما فقط كثيرة الحركة بحيث يبدو لك أنها تقفز من فوق الأرض . من هنا ينخرط الاثنان تعليقا بعد انصرافها ، فيقول وحيد : ' اوعى تكبت فيها النشاط والحيوية والخيال الواسع ده . الشباب شكلهم جميل ، لبسهم جميل ، كلامهم جميل ، تعليمهم جميل ، خيالهم جميل ، أفكارهم جميلة ، حركاتهم جميلة ، روحهم جميلة ، كل حاجة فيهم جميلة . بس دايما عبر التاريخ كان فيهم مشكلة واحدة : بيسمعوا مزيكا ' موش ' جميلة ! علشان كده على أية حال ما يصحش ننسى أن فريد أستير نفسه كان ضوضاء عصره ! ' .

– (ضاحكا :) صح ! فكرتنى بفيلم Top Hat . لما نكلمها تجيب لنا نسخة منه هو كمان !

– (ضاحكا بدوره :) أنت الظاهر عاوز تجننها بجد ! (ثم ساهما متأملا :) على أية حال ما تخافش ، لما ها يكبروا ها ينضجوا .

– أخاف ؟ لأ ، وأنت الصادق هم الأكبر والأنضج ، خمس سنين من عمرهم بخمسين من عمرنا إحنا . البنت دى فيها حاجات كتيرة ما قدرتش عليها فى حياتى . الشباب ده موش على بعضه بسبب الكولا إللى بيشربوها طول النهار . إحنا على أيامنا الكولا دى كانت بدل الشربات ، فى المناسبات يعنى . الناس البسيطة تبل شربات لو حد نجح أو اتجوز ، والمبسوطين شوية يشتروا صندوقين أو تلاتة كوكا كولا ، أو كان فيه مشروبات تانى ما عادتش النهارده ، سيكو وسينالكو وسپاتس ، بالسين كلها . القزازة كانت بتعريفة بحالها . ولما حد يموت ما كناش نشرب

حاجة ساقعة لمدة أسبوعين أو شهر ، لأن عيب . ما كناش نفتح الراديو . أو بالكتير ساعة الأخبار ، وبعد التالت . كنا نسيب دقونا من غير حلاقة أسبوعين وتلاتة . كنا نلبس كراڤتات سودة وجزم سودة . ما حدش حتى يقرب من مراته أسابيع . كل ده حتى لو المتوفى ده مجرد جار أو معرفة . كان فيه احترام ! بلاش الموت . موش لازم يفكروا فى الموت . المرض ؟ المرض ما لهوش احترام ؟ مكان زى ده ما لهوش احترام ؟ زمان الناس كانت بتتذلل علشان تشحت شوية ششم لما تمرض عينيها ، أو حتى بصلة علشان تعصرها فيها . كان عندنا دكتور واحد ما فيش غيره فى القناطر ، راجل مسيحى طيب اسمه زخارى يوسف ، كان بيزورنا وأنا لسه صغير وكان هو كبير أوى فى السن . عارف كان بيعمل إيه لما تيجى له واحدة فلاحة بابنها عيان أو عنده رمد ؟ كان بيرجع لها فلوسها لأن موش معاها فلوس ، وما كانش بيكتب لها أدوية لأنها برضه عاوزة فلوس . عارف كان بيعمل إيه ؟ كان بينزل تلطيش على وشها بالأقلام لغاية ما ينزل دم ، كل ده من غير ولا كلمة ، وفى الآخر يديها شلوت يطردها من مكتبه ، فيأخدها التومرجى ويديها بعض النصايح عن النظافة وغسل الحاجات وجايز ' الششم ' ، وآدى كل الحكاية . الضرب كان العلاج الوحيد إللى يعرفه أغلب سكان بلدنا ! إنما بص المبانى والأجهزة والأدوية والاختراعات إللى حوالينا دى كلها تساوى كام ، ولا إللى اخترعوها تعبوا فيها قد إيه ؟ والست منى بسلامتها لا أى إحساس ولا تقدير ، جاية علشان تغنى وكأنها فى قهوة أو مولد !



كل البشر يولدون بعد-حداثيين .

قليلون فقط من يتقدمون لعصر الحداثة مثلك ، والبقية يستمرون بأمخاخ المهلبية الأصلية !

– تصدق أن منى دى هى إللى مخلصة تارنا كلنا . أنت مطلع عينين الكل ، وقدامها بتبقى زى طفل غلبان !

ضهرى لا يستجيب للمداعبة ويبدو مهموما . ' هو إيه الموضوع يا حاج ؟ ' .

– (يصرخ بغيظ لثأر لم يرد عليه فى حينه :) شوف البت بتتكلم إزاى عن الموت ؟ ما بيحترموش حاجة أبدا . على طول عاوزين يعيشوا مع بعض ، أصحابهم هم كل حياتهم ، وإحنا ولا حاجة ، لوكاندة . أنا بيتهيأ لى هم بيكرهونا ، إحنا بالنسبة لهم أوامر ونصايح وبس ، حقن وحنفيات زى ما بيسمونا ، ويتمنوا لو نريحهم ونموت .

– منى مؤمنة بالفردية ، ما بتبطلش تقول كده . لكن إللى أنا شايفه هو صداقة جامدة بينك وبينها ، ولو موش بتحبك موش ها تاخد عليك كده !

– أنا عارف أنها بتحبنى .

ويشرد لبرهة ويتمتم : ' دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ! ' .

ثم فجأة يعتريه الغضب مرة أخرى متذكرا ثأرا ثانيا لم يستوف : ' شايف بتتكلم ببساطة إزاى عن المخدرات ' .

– صحيح إيه حكاية كلامها الكتير ع الماريوانا ؟

– هى ما بتتعاطاش حاجة . أكيد ! جايز جربت مرة أو اتنين . لكن طول الوقت بتقول لما أكبر ها أخترع مخدرات ما تعملش إدمان . طب قول لى بذمتك ، واحدة بتدرس كمپيوتر تخترع كيميا إزاى ؟

– حد عارف يا حاج ؟ كل شىء جايز . أنت موش بتقول ما حدش يقدر يستمر فى تخصص واحد أكتر من عشر سنين !

– فكرتنى بصدمة المستقبل ! فاكر الحكاية إللى حكاها أنه بعت بنته تشترى له حاجة من السوپرماركت ، ولما ما عرفتش توصل ، رجعت قالت إنهم الظاهر هدموا السوپرماركت ؟

– أيوه ! أول حاجة تخطر ببال الأجيال الجديدة هى التغيير . كان بيتكلم عن حاجة أسماها الزوالية Transience .

– أنا لو بعت منى دى تشترى لى حاجة وما عرفتش توصل ، ها ترجع تقول لى إنهم الظاهر هدموا بيتنا !

يضحك وحيد ضحكة منكسرة بينما يواصل ضهرى الجز بغيظ على كل كلمة تخرج من فمه : ' زوالية ؟ ! دول ... ، دول جيل ما بعد-الزوالية أصلا ! دول ... ، دول ما يصحش تسميتهم جيل أساسا ! دول ... ، دول ثقب أسود ! ' .

– (ضاحكا :) ثقب أسود ؟ بعد-زوالية ؟

– أيوه ؛ كل البشر يولدون بعد-حداثيين . قليلون فقط من يتقدمون لعصر الحداثة مثلك ، والبقية يستمرون بأمخاخ المهلبية الأصلية !

– احنا لسه متفقين أنهم جيل جميل ، وأنت لسه بتقول هى ما بتتعاطاش حاجة ؟

– هو أنت لازم تبرشم حاجات مادية علشان تبقى مبرشم ؟

– كمان دى فيها أرسطو وأفلاطون ؟ !

– طبعا ! هو كل حاجة عندك أرسطو وبس ؟ ! (ضاحكا ناهضا :) موش وقت خناقات ! ها أسيبك ترتاح شوية ، ها أروح أدور على لقمة آكلها ، وأقعد شوية على قهوة ، وها آجى لك بعد ساعتين . حاول تنام شوية ! تحب أجيب لك إيه معاى ؟ الجرايد والمجلات الأجنبى ؟ مفتاح شقتك معاى ، ها أجيب لك غيارات وبدلة علشان بكرة .

ويشرد وحيد متذكرا عبارة منى : آدى إحنا بنحاول ؟ ! لك حاجات يا حاج !



أنتم ما تبطلوش مناقشات حتى فى غرفة الإنعاش ؟ !

يأتى ضهرى لقضاء الأمسية مع وحيد ، فيجد أن إدوارد قد جاء فوجد وحيد نائما وترك زهورا باسم ' إدوارد وكل أسرة موظفى وعملاء شركة رمسيس ' . قضيا معظم الوقت فى القراءة وتفقد قنوات التليڤزيون . خف الصداع والدوار بحيث شارك وحيد فى هذا . اتصل وحيد بهالة وأخبرها بما حدث له ، وتواعدا على التقابل فى الجنازة . فى الصباح التالى يأتى ضهرى أولا ، ثم يفاجأ وحيد بكل الشركة -موظفين وعملاء- فى غرفته ، يتقدمهم إدوارد قائلا : أستاذ وحيد عيان ، ودكتور فرغلى تعيشوا أنتوا ، إمتى ها نقفل الشركة لو ما قفلنهاش فى يوم زى ده !

– أنتم قفلتم الشركة بصحيح ؟

– موش بالظبط ، بس كلنا أخدنا أجازة . يعنى ! سبنا مينا يقابل أى حد من بقية العملاء لو جه يحاول يقدم له الخدمة إللى عاوزها ، أو يعتذر له .

يعلق سامر المكبوت دوما من هذا المينا : كالعادة !

ويعود إدوارد : جايز كمان ييجى لنا تفتيش وتبقى مصيبة .

يطمئنه الحاج : ما تخافش ، كل إللى بيفتشوا رايحين الجنازة !

ويسخر روميو : شركتكم إللى زى علبة النشوق دى طول عمر ما جالها تفتيش ، ها ييجوا لها النهارده ؟ !

ويتدخل أسد بنبرته التصالحية الطيبة : تصور يا حاج أن الأستاذ إدوارد أول مرة النهارده يقول كلام كويس عن كيوبيد ؟

– ده إللى بيسموه سياسة الفرص الضائعة يا بنى . ما نعرفش قيمة الحاجة إلا لما تضيع منا ! كل شعوب المنطقة كده ، مسألة چيينات زى ما عمك وحيد بيقول !

– أنا برضه بتاع الچيينات ؟ !

– (بابتسامة متحدية :) إيه ؟ ها تتبرأ من أفكارك ولا إيه ؟

– أتبرأ ؟ ! إنها ببساطة شرف لا أستحقه !

ويبدأ الدويتو ونس-روميو فقرتهما : ' أنتم ما تبطلوش مناقشات حتى فى غرفة الإنعاش ؟ ! ' ، ' لو سابوكم فى تابوتين جنب بعض ، موش ها تبطلوا خناق ! ' . وطبعا تجزرهما ميرڤت : ' تف من بقك أنت وهو ، ربنا يخلينا لنا الحاج ضهرى والأستاذ وحيد ! ' .

وأخذوا فى الانصراف حين دخل الطبيب ليتأكد من حالة وحيد قبل أن يسمح له بالخروج .



الخلاصة : إللى أنت بتسميهم البريت أو البريتون ، آخرهم الهنود الحمر ،
وحتى فى دى الصيت ولا الغنى لأن أغلب الهنود ماتوا بالأوبئة موش بالرصاص ،
وحتى ما قتله البيض منهم ليس إلا عشر معشار ما كانوا يقتلونه من بعضهم البعض .
حتى يوم ما استخدمتم النووى مع اليابان كان حقنا للدماء ، وليس بهدف الإبادة !

كان الضوء ساطعا كثيرا بالنسبة لوحيد الخارج للتو من المستشفى . أحس بدائرة سوداء تتوسط عينيه ، ولا يكاد يرى ما أمامه إلا بهز وجهه ، هذا قبل أن تعود البقعة المظلمة بعد ثانية أو نحوها ، للاستقرار من جديد كما السدادة فى مركز الرؤية . كانت الجنازة حاشدة . تصدرها مندوب عن الرئيس ، وحضرها رئيس الوزراء ، والوزراء ومنهم مجدى المصرى . حضرتها شخصيات أجنبية كثيرة . رؤساء شركات كبرى معروفة . مسئولون حكوميون من شتى البلدان . وزراء وأكاديميون واقتصاديون عالميون معروفون . يسرى المصرى التى نادرا ما تظهر فى مناسبات عمومية ، كانت موجودة . وحيد كان بعد واهنا ، لذا كان الصف الأخير تماما من مسيرة الجنازة ، يضمه هو وضهرى وسماء وهالة واللواء عزمى . بعد انتهاء المراسم ، حياهم الجميع . صافحت هالة وحيد بحرارة ، واتفقا على أن لا بد من لقاء مطول بينهما فى أقرب فرصة . نفس الشىء تكرر مع اللواء عزمى ، الذى شدد أكثر من مرة أنه يريد لقاء وحيد لأمر يراه مهما . عامة كل عملاء رمسيس طلبوا من وحيد أن يعاود الظهور فى الشركة بانتظام . قال ضهرى سأرجع أنا سماء ووحيد كما أتيت بهم . وفى الطريق اقترحت سماء أن يتناولوا الغداء فى نادى هليوپوليس .

– أنت عارف البت المهبوشة بتلح عاوزة إيه منى ؟

– غير العربية ؟

– قال إيه يا سيدى ، عاوزة كيمونو !

– (ضاحكا :) غريبة فعلا !

– برضه فكرة ، بدل ما طول عمرها لابسة بنطلون چينز مقطع ، ولولا البلوزات الغالية كانت الناس قالت عليها بنت ناس شحاتين .

– ما الكل عارف أن البنطلونات المقطعة غالية برضه !

– (مراجعا نفسه :) على الأقل الكيمونو يغطى شوية بطنها العريانة . أنا عارف يا أخويا ما بيعيوش إزاى وبطنهم وضهرهم عريانين طول الوقت ؟ (ويزداد غضبه :) ثم إن الچينز موش معمول أصلا للجيل البايظ ده . دى سرقة ! نسيوا أنه إللى اخترعوه ناس جد علشان يستخدموه للشغل اليدوى الشاق ، البناء وللمزارع وتربية المواشى .

ومن ثم يشرد الحاج قليلا ثم يعود ، فيما بدا لوهلة أن لا علاقة له بموضوع الكيمونو : ' شعوبنا دى ما فيش أمل فيها ' .

– أظن أنت دايما بتقول العكس ؟

– قصدى أن أميركا موش ها تقدر علينا . حتى لو أميركا قرأت سورة التوبة إللى هوسنا ونس بها ، لا يمكن تكون فهمت الناس دى بتفكر إزاى . أميركا ساذجة بنضحك عليها بكلمة الحوار والحلول الدپلوماسية ، فتجرى زى الأهطل ورا حماس أو إيران أو بشار أو أى حد ، وموش عارفه أنهم مستعدين للحوار لغاية يوم القيامة العصر أو لغاية لحظة التمكين أيهما أقرب . التمكين النووى ، تمكين الانتقام ، تمكين الاسترقاق والاستحلال ، أيا ما كان ما يتخيلونه لحظة تمكين . أنت عارف ليه الأزهر يقول لا وجود للعبودية اليوم ، لكنه يرفض شطب نصوص ملكات اليمين من الكرهان والحديث ؟ لأنهم لا زالوا يحلمون بالتمكين واسترقاق شقراوات الغرب . أى أن النية ١– كانت ، ٢– لا تزال ، ٣– ستظل ، مبيته لدى العرب على إعادة العبودية للعالم والعالم للعبودية ! الرقيق شىء يجرى فى الدم العربى والعقل العربى ولا يمكن أن تنسيه إياه حتى أبد الدهر ، فقط المهم أنه حتى يحين الحين ، فالستراتيچية الوحيدة -والأزلية الأبدية- هى اللا سلم واللا حرب ، أو الممانعة حسب اسم الدلع الحالى ، أو الملاوعة الاسم بلا دلع . المفروض أن الهدف من أية مفاوضات فى التاريخ هو ترجمة حقائق القدرة على الأرض إلى معاهدة سلام ، لكن العرب والمسلمين لا يفهمون لغة القوة ولا يفهمون أى شىء . چينكيز خان كان آخر الرجال المحترمين فى ذلك الزمن الردىء ؛ لم يكن يريد أكثر من حرية التجارة العالمية ، لكنهم ظلوا ينهبون قوافله ويقتلون مبعوثيه . صبر وحذر طويلا ، فأولوا هذا ضعفا منه وتمادوا فى إجرامهم ، وفى النهاية لم يجد إلا أن يمحوهم ويمحو مدنهم من على وجه الأرض . أبا إيبان ضرب كفا بكف فى ١٩٦٧ قائلا إن هذه هى الحرب الوحيدة فى التاريخ التى

يطالب بعدها المنتصر بالسلام ، ويطالب المدحور باستسلام المنتصر بلا قيد أو شرط . الغرب الساذج لا يعتقد فى المهاجر العربى أو المسلم بأكثر من أنه مجرد شخص هارب من جوعستان . هذا الغرب لا يعرف الطريقة التى يشتغل بها العقل المسلم أو العربى أو الساموى أو البدوى ، أو سمه ما شئت ، ويعتقد أنهم بشر مثله (أو بالأحرى هم بشر فعلا ، إنما الغرب هو الآلات !) .

– (بوهن ضجر قليلا :) أنا عارف .

– النازية ازدهرت لعشر سنوات ، الشيوعية ازدهرت لسبعين سنة ، الإنسانوية ازدهرت لمائتى سنة ، لكن الجهاد ازدهر لألف وخمسمائة سنة . نعم ، الجهاد موجات تعلو وتهبط ، لكن ما لا يلحظه أحد أنه لم يتوقف لحظة واحدة . بعد أقل من خمس سنوات من انهيار خلافة الجهاد التى دقت أبواب ڤيينا شرع حسن البنا وأمين الحسينى وجمال عبمعصورة فى بناء خلافة الجهاد التالية . السبب -يا صديقى المادى- أن كل تلك الأيديولوچيات الغربية هى تطفرات فكر ميتافيزيائية سرعان ما أدركت شعوبها أنها أفكار خاطئة ، أو حتى لو لها بعض العمق الچيينى فهو ضعيف ، وحتى لو قوى -وده إللى عاوز أقوله لك عن إنسانوية الأنجلو-ساكسون أو بالذات الأنجلى- فسيؤدى به للانتحار البطئ وتنتهى القصة بهدوء ، لكن الحرابة هى لب الچيينات العربية ، ولا سبيل لاستئصالها من العالم إلا بالاجتثاث المادى لهذا العرق من جذوره (العرق الوحيد الآخر الذى جاهد وغزا -أى الأتراك- يبدو اليوم -ولو ظاهريا ، ولو إلى حين ، أو أيا ما كان- أكثر استعدادا بكثير لنسيان القصة ، لكن مع العرب مستحيل ، ولو للحظة واحدة ، أو لو هم فى أشد لحظات الضعف والهوان ، لأنه ببساطة محضة هو المصدر الوحيد بيولوچيا لطعامهم) . أميركا فشلت فى العراق وفى كل حتة ، لأنها موش قادرة تفهم قصة الچيينات ، موش قادرة تفهم أن فيه حاجات لا تفل إلا بالنووى ، النووى النووى موش النووى العبيط إللى استخدموه مع إيران . العرق الأبيض قلبهم خفيف ، وموش ها يقدروا على العرب والمسلمين ؛ إنسانويون زيادة عن اللزوم ، أبادوا الهنود الحمر بالعافية ، وخلاص على كده . هل تعرف ماذا كان موقف چيفيرسون حبيبك من الهنود الحمر والسود ؟ كان يتمنى السعادة والحرية لكليهما وقال وكتب ذلك مرارا ، لكن وضاعة هذه الأعراق وشرها ومقاومتها الرهيبة المستميتة للحداثة ، أدخلته التاريخ كأوسع من قام بإبادة للهنود الحمر ، وكالقائل عن السود إن وجود العرق الأبيض نفسه سيظل رهنا باستمرارهم كعبيد . الخلاصة : إللى أنت بتسميهم البريت أو البريتون ، آخرهم الهنود الحمر ، وحتى فى دى الصيت ولا الغنى لأن أغلب الهنود ماتوا بالأوبئة موش بالرصاص ، وحتى ما قتله البيض منهم ليس إلا عشر معشار ما كانوا يقتلونه من بعضهم البعض . حتى يوم ما استخدمتم النووى مع اليابان كان حقنا للدماء ، وليس بهدف الإبادة ! الحاجة التانية إللى عاوز أقولها أن اليابانيين حاجة تانية . فى نفس الحرب أبادوا الصينيين بالأسلحة البيولوچية ، بهدف الإبادة فى حد ذاته ، بهدف أن دى زوائد سكانية ما لهاش لازمة . الأميركيون دائما يأتون للحروب متأخرا ، اليابانيون دائما يبدأون الحروب بأنفسهم . ناس زى دى ها ييجى لهم يوم ويحكموا العالم ، وأميركا ها تبقى زى إنجلترا دلوقت ، الأم الحبيبة العجوز للحضارة الفتية الجديدة . موش ضرورى تحصل حرب بينهم ، وغالبا موش ها تحصل حرب ، إنما أنا متأكد أن لو شريط الحرب العالمية التانية اتعاد تانى النهاردة ، اليابان هى إللى ها تنتصر . أنا زرت اليابان ، وفعلا هم مهذبين جدا ، لكن عندهم كل حاجة إما أبيض أو أسود ، أنا متأكد أن المستقبل لهم ! كنت هناك فى سنة ٢٠٠١ ، قبل الانتخابات إللى جه فيها كوئيزومى رئيس للحزب . اكتسح الرئيس إللى قبله كان اسمه هاشيموتو ، رغم أنه لا اشتراكى ولا حاجة ، هم تقريبا ما يعرفوش الكلمة أصلا ، إنما كله صراع جوه نفس الحزب الليبرالى اليمينى إللى له أربعين أو خمسين سنة بيحكم .

– مظبوط ! على الأقل بيستخدموا تسمية ليبرالية صح ، بينما فى أميركا الكلمة مختطفة لحساب اليسار عدو الليبرالية . استنى ! جايز عندك حق فى حاجة تانية أخطر : يبدو أن استخدام البريت الأميركيين للمسيحية كأداة لضبط النفس لم يكن بلا ثمن ! إنها قد تكون تراچيديا إغريقية أخرى ؛ هدف نبيل يودى للهلاك . لقد تسللت لهم الإنسانية من خلالها ، فلم يكونوا الآلات الباردة التى تصورتهم عليها .



سبق أن قلت لك إن الجنة الوحيدة التى عرفها كوكب الأرض هى مصر الفرعونية ، ولم تفهم .
فضلت التحامى فى شكلية تعريف الحضارة أنها الثورة التقنية ، ولم تنظر للشروط المثلى لظهورها أو لاستدامتها لأطول فترة ممكنة .
مصر القديمة كانت -أيها الغبى- جنة بالمفهوم الثرموديناميى للكلمة ؛ كانت الأنتروبى تكاد تلامس الصفر فيها ،
كان الاستقطاب الطبقى والمعرفى فى أقصى أقصاه ،
لم يكن للأستقراطية فقط دين مختلف إنما أيضا -صدق أو لا تصدق- لغة مختلفة .
شكل الهرم نفسه كان رمزا لهيراكية المجتمع المصرى عالية الاستقطاب ، بل كلما زاد حجم المجتمع كلما ارتفعت قمته .
قطعا ، لم نكن مصطبة اشتراكية ، إنما كان لنا دائما رأس واحد أعلى من كل شيء عرفه كوكب الأرض .
(وطبعا هذا الاستقطاب الحرارى كان طوال الوقت لا يعرقل بل يسهل أقوى حراك اجتماعى ممكن ،
ولدينا مئات القصص لأناس عاديين ارتقوا لأعلى المراتب بفضل مهاراتهم الهندسية أو الطبية أو الفنية أو العسكرية) .
... تعال الآن إلى عالمنا المعاصر ، وتلفت بحثا عن شعب تدين فيه مثلا الأرستقراطية بدين غير دين الشعب ،
أو تجرى فيه تلك الشروط مجرى الدم من العروق ، وقل لى أين تجده فى غير اليابان ؟ !

– أولا بالنسبة للحر والبرد ، دى بلاد جبلية شمالية وباردة جدا . ثانيا بالنسبة للآسيوية والبدائية ، هم جزر مستقلة وعبر ألفيات السنين أصبحت خصائصهم مستقلة متميزة وبلا ارتباط چيينى يذكر لهم بالقارة الأم الحارة المتخلفة . يا صديقى ، الآلات الحقيقية توجد هناك فى شوارع طوكيو . الشباب فى الشوارع كانوا بيعملوا مظاهرات تطالب بالخصخصة . برضه أكيد تعرف أكتر منى أن عندهم هيئة البريد دى دولة كبيرة لوحدها ، قد اقتصاد أفريقيا مثلا ، شغالة فى كل حاجة ، ولا واحد يصدق أنها ممكن تتخصخص . أنا شفت بعينى الشباب بيتظاهر يطالب موش بس بخصخصة كل شيء ، إنما بقانون توظيف يؤدى لزيادة نسبة البطالة . الشباب فى العالم كله حتى أميركا يعمل مظاهرات يشتكى من البطالة ، ودول بيشتكوا أن البطالة أقل من اللازم ، وأن فيه ناس بتشتغل وهى تستحق تنطرد فى الشوارع . تصور ؟ شباب صغير بأقول لك ، موش ديك تشينى . أكيد طبعا كمان أنت عارف أن فايدة البنوك عندهم صفر وأحيانا سالب ، يعنى تدفع مصاريف علشان البنك يشيل لك فلوسك . عاوزين كل واحد يشتغل بنفسه ، موش يركن فى البنك . دول فاقوا أميركا فى كل حاجة تخص الاقتصاد الحر إللى أنت بتنادى به . باستثناء الهيروئين كل العقاقير مباحة ، وجايز يبيحوه قريب . لا يهمهم إن تناوله أحد . يقولون إنه سيخلصنا من ضعاف العقول . عندهم أعلى نسبة انتحار فى العالم . عادى ، إذا كانت التفاحة بـ ٢٠٠ دولار ! حتى الجنس . تصور أنهم أكتر حرية حتى من هولندا نفسها . أنا شفت هناك عرض باليه رائع جدا وفى أرقى وأغلى مكان فى طوكيو ، كلهم عريانيين وولا مؤاخذة ذكورهم واقفة . كل ده كوم وأفلام الرسوم المتحركة الجنسية وغير الجنسية إللى كسحوا بيها العالم كوم . إيه مستقبل شعب زى الصين أو الهند بيمنع كل حاجة (البوسة ممنوعة على شاشة السينما) ، بالنسبة لمستقبل الناس دول ؟ الأضل سبيل أن دى ناس بتأكل السمك نيئ ، وبياكلوا الفراخ نص مستوية . عارف يعنى إيه تأكل فراخ نص مستوية ؟ يعنى تيجى لك فى المطعم لون اللحم من جوه وردى زى ما هو . أنا طول حياتى عايش مع الفراخ ، ولا مرة خطر ببالى أنها ممكن تؤكل نيئة ! لو ها نقول الحياة بدأت بالنبات ، وتطورت للحيوان آكل العشب ، وتطورت للحيوان آكل اللحم ، فيبقى دول نوع تانى من الإنسان ، ولا أنا غلطان ؟ صح ولا غلط يا مستر دوكينز ؟ إيه رأيك بكرة نتغدى سوشى فى سيتى ستارز ؟ ! أهه نستفاد شوية من خبرات روميو !

– أنا بدأت أحس بالصداع تانى !

– (جزعا :) صحيح ؟ !

– كلامك فيه مشكلة ، إزاى عرق آسيوى يقود الحضارة ، وهى القارة التى احتضنت حضيض الأرض من رعاة الهلال القحيل وشبه جزيرة البعر ، إلى الصينيين والهنود ؛ نظرية الچيينات تنهار كده .

– فيه حاجة أنت ناسيها فى الچيينات : العرق الواحد ممكن يتمايز لصفوة وعموم ، ويحدث انفصال جغرافى ، وبمرور الوقت يصبحان عرقين . واضح أن الصين وكوريا واليابان كلهم عرق واحد فى الأصل ، ولا تزال حتى طريقتهم فى الكتابة متشابهة ، لكن عشرات الآلاف من السنين من استقلالهم فى الجزر اليابانية ، وما تم خلالها من انتخاب طبيعى ، بل ومن تطفرات چيينية ، نكاد نكون أمام عرق جديد بالكامل . أنت متيم بمثل الأشكيناز الذين تناسخوا فى مجرد ألفى سنة من ثانى أحط امة أخريت للناس إلى قادة العالم اليوم . اليابانيون يتجاوزون حتى هؤلاء

الأشكيناز . يكفى أن تعلم أن هزيمتهم فى ١٩٤٥ قهرت كل شىء فيهم ، إلا إيمانهم بالنسل الجيد . أكبر تعبير عن الهزيمة وهو تقديم العاهرات لجيوش الاحتلال ، كان هو نفسه أكبر تعبير عن الشموخ ، لأنهم خصصوا نساء بعينهن لذلك (سمها كتيبة الكاميكازى النسائية لو شئت) ، ذلك حتى لا تختلط أنسابهن ببقية الشعب اليابانى ، ولم يتوان البيان الرسمى عن التأكيد على تصميم الشعب اليابانى على مواصلة الحفاظ على نقائه العرقى . إنها الدولة الوحيدة فى العالم التى تحتفل سنويا بيوم لنقاء الدم Junketsu De ، والوحيدة التى لا تزال تطبق كثيرا من معايير الـ eugenics حتى اليوم ، ربما ليس بنفس شدة قانون ١٩٤٠ الشهير الذى قضى بتعقيم المجرمين والمعتوهين وذوى الأمراض الوراثية ومن إليهم وظل ساريا كما هو حتى ١٩٩٦ حيث أبطلوه .

– عادى ! كل الحضارة إلى اضمحلال ، إشمعنى اليابان يعنى ؟ !

– يا ربى ! هو بعينه بغباوته ! أنت موش فاهم : الهندسة الچينية تدق الأبواب عندهم ولم يعودوا فى حاجة لمثل تلك الأساليب البدائية !

– ماذا قلت ؟ !

– قلت لك أنت شخص سطحى ، وروح ادرس مصر القديمة قبل أى تتكلم فى أى شىء . سبق أن قلت لك إن الجنة الوحيدة التى عرفها كوكب الأرض هى مصر الفرعونية ، ولم تفهم . فضلت التحامى فى شكلية تعريف الحضارة أنها الثورة التقنية ، ولم تنظر للشروط المثلى لظهورها أو لاستدامتها لأطول فترة ممكنة . مصر القديمة كانت -أيها الغبى- جنة بالمفهوم الثرموديناميى للكلمة ؛ كانت الأنتروپى تكاد تلامس الصفر فيها ، كان الاستقطاب الطبقى والمعرفى فى أقصى أقصاه ، لم يكن للأستقراطية فقط دين مختلف إنما أيضا -صدق أو لا تصدق- لغة مختلفة . شكل الهرم نفسه كان رمزا لهيراكية المجتمع المصرى عالية الاستقطاب ، بل كلما زاد حجم المجتمع كلما ارتفعت قمته . قطعا ، لم نكن مصطبة اشتراكية ، إنما كان لنا دائما رأس واحد أعلى من كل شىء عرفه كوكب الأرض . (وطبعا هذا الاستقطاب الحرارى كان طوال الوقت لا يعرقل بل يسهل أقوى حراك اجتماعى ممكن ، ولدينا مئات القصص لأناس عاديين ارتقوا لأعلى المراتب بفضل مهاراتهم الهندسية أو الطبية أو الفنية أو العسكرية) . ... تعال الآن إلى عالمنا المعاصر ، وتلفت بحثا عن شعب تدين فيه مثلا الأرستقراطية بدين غير دين الشعب ، أو تجرى فيه تلك الشروط مجرى الدم من العروق ، وقل لى أين تجده فى غير اليابان ؟ !



أيهما أكبر : الحرية المطلقة أم الحرية القصوى ؟

لا يستمع وحيد جيدا للوصف الذى قدمته سماء للأطعمة المختلفة ، يقول ما ستقترحيه أنتى سيكون أفضل شىء بالنسبة لى . ثم يردف أنه يفضل للحظة فقط كوبا من عصير الفواكه تختاره هى ، يتوسم فيه بعض من سكريات قد تساعدة على مقاومة ذلك العدو اللعين الذى لا يهدأ ولا يتوقف يحاور ويداور عينيه . يزكيان رغبته فى الصمت ' أنت لسه دايخ شوية . ما فيش داعى للكلام . بعد الغدا لازم تروح تنام على طول ! ' . تحدثا ما شئتما . هى عن جنتها السماوية ، وهو عن جنته الأرضية . اتركانى وشأنى . لما ما فيش داعى للكلام ، فيه داعى بس للمحاضرة عن اليابانيين ؟

دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ؟ هل هناك مسخ أبشع صورة من هذا الذى اخترعه عقل ضهرى المريض . لكن مهلا ! أليست هذه حقيقة الدنيا ؟ يغزو العبيد المركز ، فيصبح لها رأسان وتفقد كل شىء . قطعا لدى تركيباتى . لكن ما الفائدة وهى أشبه بجزر منفصلة . الاقتصاد الحر هو الحل . الشعوب غبية وجاهلة وترفض هذا . فشلها يؤدى بعا للعنف والحروب الأهلية وقتل الأبرياء . الحل ديكتاتورية عسكرية يمينية . ماذا ينقص ؟ ينقص ربط كل الأشياء معا ، وصولا لشىء أبعد ، لتركيب واحد (جشطلتى) كبير ، حيثما يصبح الكل أكبر من مجموع الأجزاء . إنها فلسفة ككل الفلسفات ، ولطالما كان رأيى أن كل فكر كبير يحتوى على وجه للحقيقة . حتى أفلاطون به بعض الحقيقة . لو كنا مجتمعا كله من المسحاء والملائكة ، كنبيل النبيل وسماء السماوية ، أو حتى من طيور الحب الصغيرة أمثال سامر وميرڤت ، لكان أفلاطون هذا الذى طالما ازدريته ، هو أعظم الفلاسفة إطلاقا !

لكن عن أية أجزاء أتحدث ؟ قلنا من قبل إن لا شىء اسمه الدين + الچيين ، لأن الدين جزء من الچيين . كل شىء جزء من الچيين . أوه ! ربما الچيين ، البركة الچينية ، هو ذلك الكل الذى يفوق مجموع الأجزاء . لعل هناك فلسفة لا أعلمها تقول إن حاصل مجموع الأجزاء ليس فقط أكبر ، إنما إما يساوى اللا نهاية أو الصفر . حاصل جمع المكونات الچينية لأية عشيرة بيولوچية (أو جماعة منها) يساوى كل شىء أو لا

شيء ، يساوى الخلود أو الفناء ، ولا شيء فى المنتصف . فعلا ! ما أكثر المعادلات الرياضية التى يكون حاصلها إما اللا نهاية وإما الصفر . الحواسيب كلها قائمة على الواحد والصفر ، الوجود والعدم .

الحل ديكتاتورية عسكرية يمينية ؟ هل حقا ؟ من سيضمن لها أن تستمر لآلاف السنين حتى تغير الچيينات نفسها ؟ هل هناك حل أصلا ؟ هل من الصحيح أم من الخطأ أن تكون كقائد المعسكر فى ' قائمة شندلر ' ؟ ما فعلته مع رمانة من شهامة ورحمة ، وبغض النظر عما فعلته هى بك من عجائب ، ليس هو القاعدة ، ولا يمكن أن يكون القاعدة ، ولا يجب أن يكون القاعدة . ربما رمانة لم تكن لتقتل إلا نفسها ، لكن هناك الآلاف أو الملايين مستعدون للقتل من أجل لقمة العيش . واحد فقط منهم كان كافيا لأن نفقد نبيل للأبد . يجب أن تكون القواعد واضحة للجميع . لا تساهل ولا شفقة حين تمس الأمور النظام الاقتصادى والسياسى ، لأن أى تهاون فى هذه يقود لهاوية شاملة . لماذا لا يصارح أحد الشعب بحقائق باتت الآن بديهيات عالمية ؟ يخشون غضبته ؟ ألا يخشون ما يحدث الآن ؟ لقد فقدنا أحد أعظم عقولنا بالفعل ، ووضعناه تحت التراب اليوم ، وها هى أعظم شركاتنا تنحل بنفس السرعة التى يتحلل بها جسده . التحريض يؤدى لحروب أهلية بسهولة تفوق الوصف مع شعوب كهذه ، لا يشغلها شيء فى حياتها ، سوى النوم ليلا نهارا ، والتهام الطعام براحة يد مكبوسة بالأرز ، والجنس ليلا نهارا ، من طرف واحد مع ' نقرة ' اسمها الحريم .

نقرة ! نعم ، بدليل أن البدوى يتزوج ' الفلاحات ' كما شاء ، ويعتبر النسل من صلبه . هو يحتقرها لدرجة أنه لا يعترف لها بأى أسهام فى الصفات الچينيية للنسل (الأشراف فقط استثناء تاريخى ولن يتكرر ، كان لا مفر من نسبتهم لامرأة) . أما ابنة القبيلة -وإن احتقرها أيضا- فلن يزوجها ولو لبيلل جيتس ولو لرئيس أميركا ، لأن هذا سيدنس العرق النقى ، العرق الذى تقبل الأرباب ذبائحه . أكبر تناقض فى ضهرى أنه يعرف مثلا كل هذه المعلومات عن الچيينات ، ولا يزال يؤمن بالإصلاح السلمى المتدرج ، ويمارسه صباحا مساء ، هو وزوجته رئيسة الجمعية الخيرية ، دون انتظار لأية نتائج ملموسة . كل الأشياء متجاورة فى عقله ، والمدهش فيه أنه راضى عن نفسه وعن حياته ، من خلال تلك المآثر الفردية الصغيرة التى يأتى بها ، فوق كوبرى أكتوبر ، أو مع ابنته منى ، أو مع موظفيه ، أو أعجبها اهتمامه بألطاف التى اشتمز منها دونا عنا جميعا فى أول الأمر ، لكنه بعد قليل أصبح أكثرنا تسامحا واهتماما وعطفا ، ودعاها إلى بيته وكأنها أحد أصدقائه مثلنا بالضبط . لم يقل السبب الحقيقى أبدا ، لكنى شخصيا أعتقد أنه استفز جدا من الممارسة المسماة إعارة الفروج التى تعرضت لها .

ها هو دماغى ينفجر من جديد ! لكن ما الجديد ؟ إنه نفس ما يحدث كلما قابلت هذا الأفاق ! لا ، هناك جديد ! لو كان أكبر إنسان متخبط عرفته فى حياتى هو الذى يقودنى الآن ، فأنا فى مشكلة حقيقية . لكن على أية حال كم أفاق لدينا بمثل ثقافته وحنكته ومبادئه وعزيمته وقوة تأثيره على الناس (إن لم أقل أيضا يسر أحواله المعيشية ، التى تسهل له كل شيء) . الشخصية التركيبية ؟ ضهرى يركب الأفكار أو لا يركب ، لا يهم . هذه مشكلة ثانوية . المهم أن الملايين لا يفكرون أصلا . كلمة تحريض واحدة تجرهم لتهلكات عظيمة ، تدمر فى طريقها كل الجادين وكل البنائين . هذه الشعوب فى حاجة لحلول جذرية . ليست طيبة حلول ضهرى الفردية . لكن قطعا ليست كلامى النظرى العام المنمق أنا نفسى !

نعم ، ضهرى متخبط وعشوائى ، أو قل متسق واعى فى حدود طموحاته الإصلاحية الفردية المتواضعة . لكن ماذا أكون أنا ؟ ألست فى داخلى نسخة منه ، مصلح متدرج رقيق القلب . أطرح النظرية ، وحين لا أجدها تطبق أقول لا بأس بما يجرى ، للسياسيين مبرراتهم ، ولن يكون أفضل مما هو كائن . إنه أكثر لماحية منى بالتأكيد . هو أكثر وعيا بتناقضه هذا ، والأدهى أن لديه الجبروت الكافى ليتكيف ويتعايش معه ، ويرضى بتلك الطموحات الصغيرة . هو يعلم أن لدى ذات التناقض ، ويحاول طوال الوقت أن ينبهنى إليه . يا لهول ما يتلاعب به هذا الأثيم فى عقلى . كلا ، لا تتسرع ! لا تكن ظالما . هو لم يدعنى يوما لشيء محدد . هو فقط ينبهنى كلما لاحظ أن ثمة قطعة ناقصة فى الـ puzzle لدى . ' ارسى على بر ! ' ، لطالما سخرت منه بهذه العبارة . هو لم يكن يريد أكثر من إطلاعى على كل الضفاف ، كل الوجوه والأبعاد ، لعل أحدها غائب عنى . هو يتركنى أستنتج بنفسى . أوه ! ربما هو كان يناقض نفسه عن عمد ، فقط كى يضع كل القطع الناقصة أمامى ؛ كى يضمن ألا تغيب إحدى المعطيات عنى . كأنه يقول أنت أرسطو ! أنت التركيب ! أنت المكنة !

حتى علمانيتى العلمية المسالمة التى لم تزد عن كونها تمارين عقلية ، راح يجرها لآفاق شريرة عنيفة لا أعرف لها قرار ! الدين والچيين ؟ لك حاجات يا حاج ! ربما يدفعنى لأن أكون ذلك المصلح الجذرى العنيف ، الذى لم يقو أن يكونه هو نفسه . اكتشف أن علمانيتى علمانية تافهة ،

علمانية فئران الكتب ، ففتح بصرى على أن الدين جزء من الچيين ، ولا يصح التعامل معه بتلك السطحية ، التى لا تزيد عن كونها ألاعيب لغوية أحيانا . يا للكافر ! يفعل هذا ، بينما إيمانه نفسه لا يتغير ولا يهتز . يا للفاجر ! إن هذا المجرم اللعين ينقلنى كالكرة التى يلعبها كل يوم جمعة من إحدى القدمين للقدم الأخرى ، بينما يظل هو فى المنتصف كما هو . ما هذا الذى يحدث ؟ لقد حولنى من مصلح على الورق ، إلى مصلح عنيف . حولنى من كاتب إلى وحش . إنه فرانكنستاين وما أنا إلا المسخ !

لا ، بل هذه محض هلاوس . ها قد أصبت أنا نفسى أخيرا بالپارانويا ، هذه التى طالما سببت بها كل العرب . هو لا يقصد أن يدفعنى لشىء كما أتوهم . بالأكثر ، ربما يدفعنى لكن بعقله الباطن ، ودون أن يدرى هو . ربما لو عرف أنه يدفعنى لربما قاطعنى . اللعنة ! ما هذا الكلام ؟ كل تلك الشهور ، وكل ما حدث فيها من تدبير عقل باطن ؟ من تدبير اللا وعى ؟ إذا كان كل ما حدث لا وعى ، فماذا يكون الوعى ؟ هل هناك لا وعى بمثل هذا الوعى ؟ كيمونو ؟ إنك حتى فى قلب هذا اليوم الحزين ، لا تزال مصرا على العبث بعقلى أيها القصير المكير ؟ ! لقد أقسمت ألا أدعك تتذاكى على ثانية بعد اليوم . وها أنت تفعلها ، ولا أجد حيلة فى مقاومتك . إنه الفصام مرة أخرى ، ضهرى هو أنا وأنا هو ضهرى . يبدو أنى بعت له روحى كما فاوسيت ، ولم يعد بإمكانى التراجع !

ما مشكلة هذا الرجل ؟ هل لو لم يزر اليابان ، لكان قد قال أية كلمة من كل هذا ؟ كلها وقائع معروفة ، لكن ما السر فى أنه لا يخرج باستنتاجات إلا لو لمس الشىء بيديه ؟ يا لها من استنتاجات ! لماذا لم أخرج بها نفسى ؟ الإبادة ؟ أهذا ما تقصده حقا ؟ هل هذا ما كنت تقصده بتقليل عدد الأحزاب فى العراق ؟ هل هذا ما كنت تقصده بفشل محاولات تأديب بدو السودان ؟ يا للهول ، انظر ماذا فعلت الإمپراطورية البريطانية بعد هزيمة جوردون فى ١٨٨٥ ؟ ذهب الليبراليون وعاد المحافظون بعد قليل ، وأرسل الجبروت نفسه ، اللورد كيتشينر ، فى ١٨٩٨ فيما لا يمكن وصفه بأقل من حرب إفناء ، وطبعا انتهت الخلافة المهدية المجرمة ، وثبت لأول مرة للعالم أن إبادة العرب ليست حلما مستحيلا . سميت معركة أم درمان ، لم تكن أول مرة أباد فيها أحد العرب ، مثلا فعلها المماليك فى أعراب مصر أكثر من مرة لعل أشهرها ما أعطى أحمد پاشا الجزار لقبه ، أو فعلها إبراهيم پاشا فى نجد ، لكنها كانت المرة الأولى التى يفهم فيها غريب بالكامل عن المنطقة الأساليب الأعرابية ، وأن العربى ما هو إلا غلاب البسائط ، والتقتية الحربية رقم ١ لهؤلاء البدو هى الهرب ، وأن -من ثم- لا حل معهم إلا الحصار الشامل أولا ، ثم الإبادة بالكامل بعد ذلك ، جزارة أو جزازة أو حزازة أو الثلاثة معا ! ... يا للنكتة ! فرنسا نفسها حين سمعت بما يفعل كيتشينر فرت تاركة كل شرق أفريقيا !

ببساطة الدنيا تختل ، يسفح دم فاتح الصين العظيم (كما فرخة حسب ضهرى) ، ويهان اسم جلالتها العظيم ، حين يأتى الدهماء رغما عنها بجلادستون للحكم . ويستقيم كل شىء ، ينضبط العالم ، وتحس ڤيكتوريا العظيمة بمجدها الحقيقى ، حين تأتى سعيدة بسالزبيرى للحكم . معا صنعا أول شىء فى التاريخ لا تغرب عنه الشمس ، وبموتهما معا فى البدايات الأولى للقرن ، يمكن القول أن الإمپراطورية بدأت لأول مرة تتراءى الموت هى أيضا . بفضل سالزبيرى هذا الإمپريالى العتيد العنيد ، وبفضل كيتشينر قائده المغوار نادر الطراز ، انتهى للأبد صداع السودان من دماغ الإمپراطورية ، أو على الأقل تعلمت الحضارة الطريق الصحيحة الوحيدة للتعامل مع البدو ، مع العرق السامى ، سمهم ما شئت . مثلا عندما قتل القائد العام (السردار كما كان يسمى محليا) وحاكم السودان العام ، السير لى ستاك فى القاهرة ، فى ١٩٢٤ ، ماذا فعلوا ؟ أمر أللينبى ، المندوب السامى والچنرال صاحب الاسم المخيف فى كل العالم (والذى يحبه أسد جدا !) ، أمر كل الجيوش المصرية الانسحاب من السودان ، لأنها باتت ولو جزئيا متواطئة مع البدو (طبعا بفضل سنوات مطولة من التحريضات التحتية لأمثال مصطفى كامل وسعد زغلول) . وأرسل حملة إبادة لا تبقى ولا تذر ، لا أسرى على وجه الإطلاق ، قتل كتلى شامل جامع لا يبقى من الذرية أحدا . وما هى إلا أسابيع قليلة وعاد السودان ، بل وظل حتى النهاية ، أهدأ مناطق الاحتلال الإنجليزى إطلاقا عبر كل العالم . نعم ، تلك كانت خطيئة چورچ دبليو . بوش الكبرى فى العراق : استبعاد خيار الإبادة من الأچندة . هل أنت جاد حقا يا حاج ؟ الإبادة ؟ !

ما المناسبة أصلا للكلام عن اليابان اليوم ؟ ألم يكن من الأفضل أن كنت قد ذهبت مع إدوارد أو روميو لشبرا كى أزور مستشفى كيتشينر ؟ يقولون إنها عادت رائعة بعد الخصخصة . يقولون أيضا إن محطة مترو الأنفاق القريبة تتزين حوائطها بثيمات منها . كيتشينر ؟ أأهذى أنا ؟ أأنا هارب من كيتشينر ، كى أذهب لكيتشينر ؟ ! ماذا تريد منى يا شيطان ؟ وسوست فى دماغ ونس بكلمة فقلبت حصيلة عمر كامل قضاه فى دراسة الدين رأسا على عقب ، وتريد أن تفعل ذات الشىء معى . هيهات ! بالفعل ! ما المناسبة أصلا للكلام عن اليابان اليوم ؟ كنا فى جنازة ، والآن يحدثنى عن القنابل النووية . أوه ! ربما الجنازة نفسها هى المناسبة . مصابنا الجلل هو المناسبة . ويا له من مصاب . أوه ، أوه ! الثعبان

الألعبان يتحدث لأول مرة بدون إيحاءات ولا تلميحات ولا ألغاز . هناك أشياء لا تحل إلا بالنووى . موت فرغلى زلزل كل تحصيناته ورباطة جأشه . من ظل يتذاكى على طويلا ، ويرسل لى بقطع الألغاز كى أحلها ، ها هو ينهار هو نفسه الآن ، ها هو يكشف كل ما بداخله دفعة واحدة ، ' م الآخر ' كما يحب أن يقول . لم يعد ينتقى الكلمات ويميع المعانى . جابها على بلاطة ! جاب جاز ، كما يقولون عن بوابير زمان ! ربما أضيف لقلبه هذا ، الملتاع اليوم ، العاطفى المندفع كل يوم ، مصيبة أصغر . إنها بالتأكيد جزعه لما جرى لى ، أو كان وشك أن يجرى . لا يجب أن تنسى أنه رآنى ميتا بالفعل أمام عينيه ! يا لها من طرق عجيبة يفصح بها هؤلاء الناس عما بداخلهم أثناء اللحظات القاسية . ابنته ظلت تتحدث عن الانتحار وتغنى وتمزح لتدارى أن ما حدث لى قد هزها ، وها هو أبوها يعبر بطريقة أخرى : يحكى عن زياراته لليابان !

لعل المشكلة أنى -أحيانا- أتذكر بعض أفكارى وأنسى الأخرى . أنا لست الشخصية التركيبية التى تخيلت . لست العقل المنظم الذى يربط الأشياء جميعا معا . دائما أنا قائد المعسكر النازى الفصامى ، يصبح وحشا حين يشتغل بعقله المجرد ، ويرق قلبه حين يلامس أرض الواقع . أرى حكومة تطبق الاقتصاد الحر بتدرج ، فأقول فلتأخذ فرصتها ووقتها وربما تنجح . أرى بعض الأصوات العلمانية ، فأقول فلتأخذ فرصتها ووقتها وربما تنجح . أرى الحرية الجنسية تنفجر ، فأقول لا شىء سيقف فى طريق الحرية . أعلم أن الشيوعية والناصرية والدين أيديولوچيات معادية للحرية ، لكن أقول إنها سوف تندثر تدريجيا بتوطد الإصلاح وتمتع الناس بطعم الحرية الاقتصادية والفردية . أعرف أن الحرية المطلقة لن تتحقق إلا باجتثاث هؤلاء ، وبوجود قوة تسهر على حماية الحرية ، لكن أقول دع الأمور تجرى والشعب سيتعلم من تجربته . كل هذا خطأ . الواضح أنه لا يتعلم أبدا . چيبناته تمنعه . لكن المفروض أنه حتى هذه كنت أعرفها . ما المشكلة إذن ؟ المفروض طبقا لحقائقى النظرية أن كنت قد استنتجت أن الأمور لا يمكن أن تشتعل بهذه الطريقة . هى لم تشتغل أبدا بمثل هذه الطريقة فى أى مكان فى العالم . يا للكارثة ! حتى الإنجليز أنفسهم أقصى رمز للحرية المطلقة عندى ، كان فى ظهرانيهم أعداء للحرية ، غشاشون ، بدوا أقلية لكن مع ذلك نجحوا فى نهاية المطاف فى حرف مسيرة هذا الشعب نحو الاشتراكية . أيهما أكبر : الحرية المطلقة أم الحرية القصوى ؟ كان من الواجب أن يتنبه قادتهم العظام للخيط الرفيع بين الحرية المطلقة والحرية القصوى ، التى هى الحرية المطلقة مطروحا منها حرية أعداء الحرية ؛ أن يفهموا أن بحكم التعريف الحرية القصوى هى القصوى ، أى أكبر من الحرية المطلقة ، ذلك أن ناقص × ناقص = زائد . الحرية ليست معادلة خطية بسيطة ، بل هى أعقد قليلا ؛ قيمتها العظمى تكمن فى مكان ما قبيل النهاية ، بعده يبدأ المنحنى فى الهبوط . المفروض أنه حتى هذه كنت أعرفها ! يا لبؤس هذا العقل الغبى الذى لازمنى طيلة حياتى !

– أنا لا أفهم مشكلتك المزمنة مع أخلاقى ، ولماذا تسبب لك كل هذا التوتر والاستفزاز فى حياتك ؟ نعم ، أنا أخلاقى أفضل من كل المدعوين أنبياء أو رسلا ؛ أدناها أنى لا أكذب وهم يكذبون بحكم التعريف ذاته . أنا أفضل من يسوع نفسه ، الذى غضب عدة مرات فى أسبوعه الأخير ، بينما أنا لا أنفعل أبدا . هو أخلاقه كويسة مقارنة ببقية الأنبياء ، لكن ليس مقارنة بالناس المحترمين . أين يذهب هو فى مقارنة مع أخلاق أرسطو ؟ أنا لا أكاد أفهم سر هذا الرعب الأخلاقى الذى تعيشه ليلا نهارا شعوب الشرق الأوسط عديمة الأخلاق ؟ الأمر أبسط بكثير مما يشغل عقلك المريض ؛ أنا فعلا بلا خطيئة ، لكن لسبب غاية فى الوضوح : أنى مكنة ! ... الخطيئة هاجس مرعب لدى شعوب الشرق التيمايوسية الثقافية الانفعالية ، أما الماكينات فلا ترتكب الخطايا أو المعاصى لسبب غاية فى البساطة هو أنها لا تنفعل !

– سأروى لك قصة عن ماكينة أخرى : تعرف بالطبع نيبلز بور بتاع مناظرة النرد . ذات مرة زاره فيزيائى شاب فوجد حدوة حصان معلقة على بوابة منزله ، فدهش متسائلا : ' لا شك أنك لا تؤمن بهذه الخرافات العتيقة يا پروفيسور ؟ ' . تفكر بور قليلا ثم صاح بحماس : ' إنهم يقولون إنها تأتى مفعولها سواء أكنت تؤمن بها أم لا ! ' . أنت هو المسيح-الضد يا صديقى سواء آمنت به أم لا !

– أنت نفسك أخلاقك مثالية يا حاج !

– هذا طبيعى ، طالما لا تزال تقول عنى إنى إله متجسد !

يحدثنى عن الأخلاق وهو يعلم تمام العلم أن حاسوبى هذا هو أعظمنا جميعا خلقا ؛ لا أحد يفوقه دقة ولا جدية ولا تفانيا ولا حبا ولا برا ولا أمانة ولا تضحية ولا عطاء ولا وفاء ولا إخلاصا ولا نكرانا للذات (كل هذا وهو فى نفس الوقت أكثرنا جميعا ذكاء !) . ثم Look who's talking! . إله ؟ أى إله ؟ كفانا من حدوتة أنك إله يعرف كل شىء ويقدر على كل شىء ويحرك مصائرنا جميعا ! يعرف كل شىء ولا يعرف نفسه ، يقدر على كل شىء ولا يقدر على نفسه ، أليست هذه مهزلة ؟ ! بالفعل ! أنت شيطان ربما ، لكن إله لا ! نعم ، أنت الشيطان وتعرف أنك الشيطان ، وتفترض أنى قد خسرت مبارة الشطرنج معك ، وأن على أن أقدم لك روحى . لقد صدقت أمك وأختها : إما أن تعطى

الشطرنج عمرك ، وإما أن تحتفظ لنفسك بهذا العمر ! ماذا ؟ لعب الشطرنج مع الشيطان ؟ آه ! إنه فيلم منى ! ماذا ؟ منى ؟ ! يا للهول التافه ؟ ! منى ؟ ! أهذا معقول ؟ ! هى التى عبثت بعقلك ؟ ! موش ممكن ! بالفعل ، لقد رأيت كيف امتقع وجهك واختطفه الوجوم وهى تقول لك إن الأميركيين هم الذين يقلدون اليابانيين . ماذا ؟ ربما شيطان فاوسيت ، هو نفسه مجرد فاوسيت آخر ، وله شيطانه الأكبر منه الذى بدوره وقع عقدا معه . أمعقول هذا ؟ بلى ! لا بد أن منى متلاونة العينين هذه ، هى شيخ الشياطين ! أنا لا أذكر قصة فيلمها بالضبط . لكن أذكر أن الشياطين كانوا فيه مراتب ودرجات . هأ ! كما أن أعظم الآلهة كانوا إناثا ، لا بد أن أعظم الشياطين كذلك أيضا . فعلا ! ما قيمة الذكور أصلا ؟ عند الحشرات يلتهمون بعد ممارسة الجنس . لا ! بل أثناء ممارسة الجنس . يلتهمون ليس لأنهم وجبة شهية ، إنما فقط لأن التهام المراكز العصبية فى الدماغ يزيد العضو الذكرى انتصابا . هأ ! منى هى شيخ الشياطين ؟ كان على أن أعرف من البداية ! ضهرى واسع الحيلة الذى يتلاعب بالجميع يصبح بائسا ، ألعوبة مثيرة للرثاء بين يديها !

... أوه ! يا لبؤسك يا ضهرى . الآن عليك أن تشعر نفس شعورى : شعور أن يلعب أحد فى مخك ؛ أن يتغلغله بشنيور !



هناك ما هو أفدح من هزيمة الحداثة فى بلاد العرب والمسلمين : انتصارها !

' قائمة شندلر ' ؟ يا للبؤس ! كل ما فى عقلى كتب وأفلام . إنه عقل مخنط ، لا أكثر . ضهرى يملك بخلاف الكتب والأفلام ، القناطر أيضا ، رحلات حول العالم ، يملك الحياة . أية ' مكنة ' عجيبة تكون يا ضهرى ؟ هل لديك معدة تهضم المعلومات لا أتمتع أنا بمثلها ؟ إنك حتى تعيش فى نوع من التوهان الموسوعى . لا عقلية تركيبية لك . لا تكون رأيا فى شىء . بمصطلحات نجيب محفوظ أنت كمال عبد الجواد الشهير بعبد ربه التائه ، هذا الذى خرج ولم يعد منذ يوم عرف أنه كان يتعبد للهواء فى قبر الحسين ، أو ربما كان يتصنع هنا الدراما الفاقعة بينما كان قد رضع داروين وسپنسر بدرى بدرى ولا حاجة له بقبر الحسين ، وكان قد كتب رواياته الأولى فى الصميم بالضبط عن كفاح مصر ضد ' غزاة الصحراء ' ، وكأنه تلميذ يؤدى واجبا مدرسيا كلفه به ' أستاذه ' أحمد لطفى السيد . تائه ؟ كلا ، بل أنت سلطان السلاطين : سى السيد ! مظبوط ! سى السيد موسوعة المتناقضات ، ذو الألف وجه . هأ ! أنا أفضل منك فى كل هذه المناحى ، (لكن مهلا :) مع ذلك لا آتى بلب القضايا كما تأتى أنت به أبدا . ماذا تكون بالضبط ؟ حكيم أم أهوج ؟ حكيم بالصدفة ؟ حكيم لبعض الوقت ؟ بلى ، أنت لك أحيانا أفكارك . أفكارك ؟ بل قل فرماناتك الفكرية التى لا تصد ولا ترد . لكن لا ! كاريزميتك المزعومة هذه تفرضها على السذج فى رمسيس ، على مينا أو على شاب حائر نفذ البنزين منه ، لكن ليس على أنا . أوه ! طبعا أنت لست بتائه هاو ولا بتائه محترف ، وطبعا لست بسلطان . أنت لا شىء ! قطعا لا علاقة لك بنجيب محفوظ . مجرد تشبيهك بشخوصه إساءة جسيمة للكاتب العظيم .

لكن ما هذه القدرة العجيبة على الفصام عندك ؟ كيف ؟ لماذا ؟ من أين ؟ أترى هل العلم فى حاجة لفن من أجل قراءته ؟ هل القراءة نفسها فن ؟ هل شخصنة الأفكار تفيدك على فهمها . هل رأى العين جوهرى لهذه الدرجة ؟ هل لا بد أن يفعل أحد ما فى القناطر الخيرية شيئا حتى توافق أو ترفض شيئا قاله أرسطو أو دوكينز أو التوراة ؟ لو لم يفعل أحد فى القناطر شيئا ، لظللت صامتا ، وكأنك أجهل الجهلة . آه ! الآن فهمت . القراءة لا قيمة أصلا لها عندك ! أنت تقرأ وتقرأ ، لكنك لا تعتبر القراءة شيئا بالقيمة الكافية يرتقى لأن يجعلك تقرر ، يجعلك تكون رأيا . القراءة أقرب لمجرد تسلية ، بينما الرأى شىء مقدس ، شىء رفيع ، شىء لا تكونه إلا إذا خبرته بنفسك ، خبرته فى حياتك اليومية ، فى تجاربك الخاصة ، فى آلامك ، لا تكونه إلا إذا عشته ، وعانيت من أجله . ما هؤلاء الناس ؟ ونس يسب أم كلثوم ثم يغنى لها . ضهرى يقول الرأى وعكسه فى نفس الجملة .

أين مكمن الفصام إذن ؟ آه ، أيها اللعين ضهرى ! أنت لا يعنيك أن يكون لك رأى أصلا . إنك تزدرى الآراء . إنك تجعلنى أخجل من نفسى . عندى الآراء شبه مجانية . أقرأ الشىء وأقرر ، أو على الأقل أقرر أن على أن أقرر . أقرأ أرسطو ، فأقول ها قد فهمت العالم مثله . لكن مهلا ! ربما تكون بلا رأى ، ربما تزدرى كل الآراء ، لكن المذهل أنك -لهذا السبب على الأقل- أكثر مادية منى . لا شىء أكثر مادية فى الدنيا من الچيبنات . فى البدء كان الچين ، تلك الجزيئات الصغيرة التى تتوسط خلايانا ، التى نشأت أولا قبل عصور سحيقة ، ولا تزال هى الأصل وهى السلطة ، لا تزال تتحكم فى كل شىء فى هيئتنا وسلوكياتنا ، هى الحياة العاقلة ونحن المطايا الصماء التى تركبها . أرسطو ليس بأكثر منك

مادية أيها اللعين ! أرسطو لم يفهم العالم لأنه قرأ عن العالم . لم يكن هناك أصلا شيئا يقرأ . أرسطو فهم العالم لأنه عاش العالم . عاش تلك الشعوب التى وصفها بالبربرية والتخلف .

أما أنا فأكتب ببساطة مؤمنا مطلقا بالحرية ، أقول إنها ستحل كل مشاكلها نفسها بنفسها . لكن لا أعرف بالضبط ما الذى يعنيه هذا . إنه يعنى بحورا من الدماء . حروب أهلية لا قرار لها . عشتها فى لبنان بين مسيحيين ومسلمين ، بين سنة وشيعة ، بين مسيحيين ومسيحيين ، وسنة وسنة ، وشيعة وشيعة . هى تزداد استعارا بين أبناء الدين الواحد ، المذهب الواحد ، القبيلة الواحدة . مجلس التعاون الخليجى نفسه تفكك ، والحروب بين دول الخليج لا تنقطع ، بدءا من اللحظة التى وضعت أميركا قطر فيها على قائمة الدول الراعية للإرهاب وقطعت علاقاتها بها وسحبت قواعدها من أراضيها ، والآن تفكر فى فعل ذات الأشياء مع السعودية التى وضعت مسجدا جهاديا فى كل شارع من شوارع الغرب . أنا لم أشتر أبدا مقولة معسكر الملاوعة كالديماجوجى هلوكة وأمثاله ، من أنهم ينفقون كل تلك التريليونات عبثا ، وبلا هدف محدد فى ذهنهم . نعم ، أية حرية هذه التى ستحل مشاكلها بنفسها ؟ الآن هى أول شىء يجب أن تكفر به . لا بأس طبعا أن تجرى بحور من الدماء من أجل انتصار الحداثة . لكن هل ستؤدى للحداثة حقا ؟ أليست عودة للعصور الحجرية ؟ ربما نعم وربما لا . هذا يعتمد على من هو المنتصر . المؤكد أن فى كثير من تلك الصراعات يتبنى أحد الطرفين أجندة مستقبلية والآخر أجندة ماضوية . لكن أيا ما كان من شأن الحروب الأهلية تلك ، والتى يبدو أنها وصلت الآن لقلب مصر الوادعة نفسها ، ما الجديد فيها ؟ لماذا أنت مصعوق هكذا ؟ ألست من المؤمنين بأن أمنا الطبيعة عنيفة للغاية . التطور برمته فعل عنيف . هذه ليست أفكار ضهرى ، إنما أفكارك أنت ، أفكار داروين وسپنسر . أنت لم تكن يوما عدوا للعنف ، بل داعية له .

أوه ! ربما الآن فقط عرفت لماذا يسبب لى ضهرى وونس كل هذا الإزعاج . المشكلة فيما يقولونه أو يوحون به ، أنه حتى لو سالت بحور الدماء ، فلن تأتى بنتيجة ؟ إن المشكلة ليست أن أعلم أو لا أعلم . المشكلة فى أنهم ' جابوها م الآخر ' . العلم لا يفيد ! ساعتها سيتضح أن أرسطو أكثر حكمة منك . قال ما فيش فايدة فى أى فايدة . كان يعلم سقف التطور لدى تلك الشعوب . بل كان يعلم أن لدى المصريين أهراما هائلة ومعابد شاهقة ، مع ذلك ' جابها م الآخر ' هو برضه . قال : حالة ميئوس منها . ملف قد أغلق . الفارق أنه سبقنى لهذا بـ ٢٥٠٠ سنة . ما هو الضمان أن تنتصر الحداثة فى مثل ذلك الصراع ؟ الأرجح هو العكس . لا ، بل هناك ما هو أفدح من هزيمة الحداثة فى بلاد العرب والمسلمين : انتصارها ! نعم ، الحداثة التى تجرى فى دمى هى لعنة بالفعل . نعم ، الحداثة لعنة ، ومن الخطأ أن تنتصر فى بلاد كهذه . الحداثة تعزز الجهاد ، لا تضعفه . هل رأيت ماذا يحدث عندما عندما تهبط على العرب والمسلمين بعض الثروات ، أو عندما يمسكون أطراف بعض من علوم أو تقنيات (اخترعها الغير طبعا) ؟ يستخدمونها فى شيئين لا ثالث لهما : الدعوة الدينية وقتل الغير . طبقا لونس هى مسالة وقت لا أكثر ، ويتحول كل مسلمى العالم لجهاديين . الولاء والبراء قنبلة موقوتة داخل كل منهم ، لا بد وأن تنفجر فى وجهك يوما . بينما تعتقد أن البدوى شخص طيب ومسالم متفهم ، أو ربما قد صار صديقك ، سينتقم للقبيلة يوما طال أو قصر أجله . لو لا صديق له فى الدنيا سواك ، ويسهر معك على المقهى يوميا لمدة ٣٠ سنة ، وجاءته مكالمة من شيخ القبيلة أن يقتلك ، لن يتردد ثانية واحدة فى التنفيذ . برمجته الچينية تفرض عليه هذا . هم ببساطة جهلة يعتقدون أنهم مسلمون ، بينما فى الواقع لا يعرفون شيئا عن نصوص الكرهان ، والمؤكد أن سيأتيهم يوم يقرأون فيه سورة التوبة ، ولا أعتقد ساعتها أن چيبناتهم ستجعلهم يفضلون العلمانية على الجهاد . تخيل أكثر من بليون طالبانى انتحارى يجوبون أرض الكوكب بقنابل نووية على ظهورهم . التعليم فى حد ذاته كارثة . ليس محتوى التعليم ، التعليم مجرد التعليم . لو كان سيد قطب أو أصدقاء ونس أو أسامة بن لادن لا يعرفون القراءة والكتابة ، ألم يكن العالم سيصبح أفضل ؟ لعل التوراة كانت على حق حين قالت الجهل نعمة والعلم نقمة . أوه ! لعل من كتبها شخص حكيم حقا ، ولطالما أغمطته حقه وبخسته قدره . بل أوه ! ما هذا الذى يحدث ؟ أكفرت أيضا بالحداثة وآمنت بالخرافة ؟ ! بعد كل هذا العمر تكفر بالحرية والحداثة معا فى يوم واحد ؟ ! لماذا الويسكى ليس جيدا اليوم ؟ على الأقل هذا يثبت أن للبريتون أيضا بعض المنتجات الرديئة !

الدين + الچيين لا تساوى بالضرورة الدين + الچيين . إنها قد تساوى الخلود أو الانقراض ، تساوى حكم العالم أو الإبادة ، تساوى كل شىء أو لا شىء . بل هنا يوجد خطأ . لا شىء اسمه الدين + الچيين . الدين جزء من الچيين . ليس هناك شىء خارج الچيين . آه ! ذلك إذن هو خطأى . كنت أعلم والحقيقة أنى كنت أتوهم أنى أعلم . الچيينات ليست ' تبعات صعبة ' . إنها تبعات مستحيلة . إنها لعنة فى الدم ، لا خلاص منها لأبد الدهر ! هكذا هى هذه الشعوب ، فلا تشغل نفسك بمصائرها . بل هكذا كل الشعوب . القائد قائد والعبد عبد . والعبد حين يثور ، إما أن يباد ، وإما أن تنتهى الحضارة نفسها . حقائق لا يمكن أن تغيرها ألفيات السنين .

أما أنت يا رمانة فلست قرصانا ولا مارقة . إنك مسالمة راضية . كنتى على وشك أن تلقى بابنك فى ملجأ ، وتقتلين نفسك لو لم تجدى الطعام . لقد أنجبها والدها فى غفلة من الزمن . ولكن ألم تفعل هى ذات الشىء مع ابنها . ما هو مستقبله حقا ؟ حتى لو تعلم ذلك التعليم التافه المتاح لأمثاله ، فلن يحظ إلا بوظيفة وضيعة ، هذا إن وجدت أصلا . يا رمانة الحياة لا ترحم . الكوكب لن يتسع للجميع ، لن يتسع لمزيد من الناس إلى ما لا نهاية . هذا ما فاتك . لقد كسبتى عطفى ، لأن كان لديك شيئا تبيعينه لى . ابتسامتك الساحرة . ملايين غيرك ليس لديهن مثل هذه العطية ، أو لديهن لكن ليس لديهن الزبون . لقد حللتى مشكلتك حلا موقتا . لكن ابنك لن يكون لديه ذات الحل ، على الأرجح ابنك هذا لن يتزوج أو ينجب . أو ربما لا . لا أعتقد أن چيپاتاك الجميلة سوف تنقرض بسهولة . سوف تجد طريقا . ربما سيتضح أن لدى ابنك عطية كبيرة مثلك . دعينا نأمل هذا !

... نعم ، يا رمانة . أشكرك !

... رمانة ! أين ذهبتى ؟ حين أخذتى رأسى بين حجرك الدافئ ويدك الحنون خف عنى بعض الصداع !

... أعتقد أنك مرهقة وذهبتى لبعض النوم ، بعد هذا اليوم العصيب !

... على أية حال أنا سأذهب الآن لحمام آمل أن يزيح عنى فشل الويسكى !

... أما أنت يا ضهرى ، فقصتك معى سوف تطول . لك حاجات يا حاج !



التطهير العرقى شىء جيد ، لو قام به الطرف الصحيح ! ؛

من حيث المبدأ لا شىء معيب فى القتل :

باستثناء بيضة لفظتها دجاجة ورفضت الرقاد عليها ، كل ما نأكله من مملكة الحيوان هو قتل مع سبق الإصرار ،

وباستثناء ثمرة سقطت إلى الأرض من تلقاء نفسها ، كل ما نأكله من مملكة النبات هو قتل مع سبق الإصرار !

– التطهير العرقى شىء جيد ، لو قام به الطرف الصحيح ! ؛ من حيث المبدأ لا شىء معيب فى القتل : باستثناء بيضة لفظتها دجاجة ورفضت الرقاد عليها ، كل ما نأكله من مملكة الحيوان هو قتل مع سبق الإصرار ، وباستثناء ثمرة سقطت إلى الأرض من تلقاء نفسها ، كل ما نأكله من مملكة النبات هو قتل مع سبق الإصرار !

هناك أشياء لا تحل إلا بالنووى ! وهناك فرق بين العرق اليابانى والعرق الصينى ! وليكن ! أنا أعلم هذا . لم يحدث أن وافقت يوما على تلميحات دكتور كيسينچر أن الصين يمكن أن تصبح مستقبلا زعيمة العالم . لم يحدث أن قادت الحضارة أو صنعت ثورة تقنية أمة مكونة من بليون فرد ، ولن يحدث . لتلك متطلباتها ، وبداهة من يمكن أن يقود العالم هو حتما شعب صغير نخبوى نوعى ، وليس أمة جرارة من كرات الدهن رنخت -كلها أو أغلبها- فى العبودية حتى شبعتها شعيراتها . أيضا فهمنا : التطهير العرقى شىء جيد ، لو قام به الطرف الصحيح ! فهمنا : نحن نقتل من الكائنات فقط ما هو نبيل كالنبات ، وما هو وديع رقيق طيب ومسالم كالحمائم والحملان والخنازير . لكن ماذا بعد ؟ لماذا لا نقتل لمرة -ولو على سبيل التغيير- بعضا من أشر وأخبث الكائنات التى عرفها الكوكب قاطبة : أعراق البشر قاطعة الطرق من عرب ومسلمين وروس وصينيين ؟ لأى شىء بالضبط يريد أن يقودنى هذا المراوغ ؟ أى لعب فى المخ تريد منى ؟ لقد أقسمت ولن أرجع فى كلامى . أتستغل ضعفى وقلة تركيزى بعد يومين بسرير المستشفى حتى تعود لتعابثك معى ؟ ألم يكن بوسعك أن تكون چنتلمانا أكثر ، وتنتظرنى حتى أسترد عافيتى ، وأستطيع مواجهتك ؟ هل ترى نفسك إلها ، وترانى أنا The Chosen ، The One ، المصطفى ، الذى تؤهله لمهمة ما ؟ هأ ! أنت نفسك تصفنى بالمسيح-الضد ؛ فهل من إله يصطفى مسيحا كذابا ؟ هأ ! هل خيب ابنك الأول (بتاع الصليب) آمالك ، فبت تعول على الابن الآخر ؟ ! أنا واثق من شيئين اثنين : أنك لست إلها ، وأنى لست من مغفلى دكتور دوكينز ولن أسمح لأحد أن يصلبنى (سأقتل نفسى أولا !) . أو لعلك صدقت حقا أن هناك أناس يعبدونك على ظهر أحد إليكترونات جسمك ؟ ! أما بالنسبة لى فكل ما فى الأمر أنى أنطق بمنطق العلم ، ولا أفهم لماذا تزج بى دوما فى خرافاتك الخرفة هذه ؟ ! لا ، بل أنا قبل هذه وتلك واثق من شىء ثالث : أنى لا شىء ، حطام لا يصلح لشىء .



إذن ذلك النموذج البيولوچى المدعو ' المغفلون – الغشاشون – الضاغنون ' لم يعد صالحا أو كافيا ،

وهؤلاء أطرافه لم يعودوا دجاجا ؛

إنما بإدخالك ذلك الضلع الرابع الذى تقول إنه لا فكاك منه لإنقاذ الحضارة من الانهيار والبشرية من الانقراض ،

هؤلاء الـ trimmers الذين يجزون الحشائش الضارة ويجهزون على اللاعبين الغشاشين ،

جعلت منه نموذجا ربما يسمى ' المغفلون – الغشاشون – الضاغنون – المشذبون ' ، وجعلتنا بالتالى أمام ديكة تتقاتل حى الموت

(أو بالأحرى -باعتبار ما قاله ابن خلدون عن جبن ونذالة العرب : نحتاج بعض ديكة متخصصة لقتل الدجاجات الوضيعات) !

– أنت حالتك صعبة أوى يا أستاذ وحيد . أنا موش قادرة استحمل أشوفك بالحالة دى . تحب أعمل لك قهوة . كفاية شرب من البتاع ده . تحب آخدك تاخد حمام ، جايز تفوق شوية ؟

يا للهول ! فكرة أن تخلفنا مؤبد بسبب چيپيناتنا ، فكرة سوداوية للغاية ، لعل عقلى الباطن كان يطردها رغما عنى ، حتى لا أصاب باليأس . أنا لست أقل عشوائية ولا عاطفية من أى أحد . العشوائية ليست نقيصة ، إنها شىء أصيل ورثناه عن أمنا الطبيعة ، شىء لم تخجل هى يوما منه . طبعا ! التاريخ الطبيعى لم يكن يوما شيئا مخططا . لكن مهلا ! التاريخ الطبيعى هذا بكل تخبطاته وعشوائيته ، قاد إلى التطور ، ولا شىء إلا التطور ؛ الارتقاء والاستعقاد المتواصلين رغم بعض النكسات العابرة هنا وهناك . نعم ، لطالما قلت إن حتى نتقدم ، الناس تريد الأمل . إذن كل ما فى الأمر أن الشباب يريد الأمل حتى يكد . هل كنت أقول للوليد بن طلال إن فى دمك بعض من چيپينات عربية ، لا فائدة منك ، لن تصبح حداثيا حقيقيا يوما وستنتكص حتما لجذورك ، ومن الآن أعتبرك عدوى ؟ كان بوسعى أن أهون من شأن أى أحد -مصرى ، سعودى ، عربى ، أيا ما كان- ممن راحوا ينتجون أفلاما أو أغانى جريئة جنسيا ، أو ينشئون قنوات تنقل لنا الترفيه الغربى العصرى المتحرر ليلا نهارا ؟ ما هو كم الشجاعة التى تطلبها إنشاء قنوات شوتايم بالعربية أو لفافة إم بى سى أو قنوات الموسيقى والرقص أو حتى القنوات المسيحية شبه العلمانية ، أو إنشاء هالة ومثيلاتها لمواقعهم العلمانية أو الجنسية على الإنترنيت ؟ بل بالأحرى فوق الجميع : ما هو كم الشجاعة التى تطلبها أن ترتدى سوسن ما ترتدى ؟

هل كنت أقول لهم جميعا ما جدوى ما تفعلون وهذه شعوب لا أمل منها ؟ هل كان بوسعى غير تأييد هذا الجهد الإصلاحى من هذه الحكومة أو تلك ؟ هل كان بوسعى أن أشكك فى إخلاص أو جدية أى منهم فى بلوغ التحديث ؟ هل كان بوسعى أن أقول لهم كفاكم هذا العبث ، كل تعبكم سيذهب هباء ، لأن هناك شيئا أغفلتموه اسمه الچيپينات ؟ إذن ما هذا الذى أفعله الآن ؟ أنت وصديقك اللعين الجديد تسدون كل الطرق فى وجه الجميع . مع ذلك ، هذا الملعون لا يبدو عليه أى يأس أو سوداوية . يؤمن بالإصلاح ، ويلقن الشباب درسا فى الجدية فوق كوبرى أكتوبر ، أو أسدا آداب الحديث ، ولا يشغله أن كان البشر سينقرضون يوما أم لا ، فالمهم أن يعيشوا حياة أفضل إلى أن يأتى ذلك اليوم . تشكيلة كاملة لكل چيپينات العالم تسرى فى عروقك ، من بينها الچيپينات العربية التى تعرف أنها لعنة لا حل لها ، ومع ذلك لا تزال تؤمن بالغد ولديك روح القتال لإصلاح وتقويم ما حولك .

يشرد من جديد متذكرا أغنية لفريق الأبا مطلعها People need hope . لا ! بل هو برىء من تهمة إشاعة اليأس . أنا وحدى المسئول . لطالما تهرب من الكلام فى الچيپينات ، وأنا الذى كنت ألاحقه ، وهو لا يكف عن تحذيرى . هو وونس كانا راضيان على أن أظل كاتبا إصلاحيا يدعو للتغيير والأمل وتثوير الاقتصاد ، بينما كنت أنا كالطفل اللحوح الذى لا يطيق الانتظار قبل فتح الهدية التى بين يديه . لقد كانا يعلمان أنها صندوق پاندورا !

لكن أليست هذه سفالة ؟ يريدانى أن أظل أحرث فى البحر ، دون أن أعلم أنه بحر . سؤال آخر : ما الجديد الذى أتيناك به حقا ؟ المفروض أن كان لديك كل تلك المعرفة ، أو على الأقل معطياتها . أيا ما كان ، ليست هذه هى الأسئلة . السؤال هو محنتى الحالية . لماذا أصابتك المعارف الجديدة بالدمار ، وكأنك لم تكن مدمرا من الأصل ؟ هل أنت تشبه قائد المعسكر النازى فى ' قائمة شندلر ' ، يتسلى طوال الوقت بقتل المعتقلين اليهود ببندقية القنص عن بعد ، لكن حين تأتى فتاة منهم لتخدمه فى مسكنه لا يملك إلا أن يعاملها برقة ؟ أليس هذا ما فعلته مع رمانة ؟ اشمئززت من حيها الشعبى ، ومن الفقر والإنجاب المجانى ، ولا تعرف -ولا زلت لا تعرف- له حلا ، لكن هل يمكن أن تسمح بوضع رمانة على

قائمة الانقراض ، ألا تستحق الوضع على القائمة الأخرى ، قائمة شندلر ؟ هل تسمح لابتسامتها أن يذويها الجوع والمرض والموت ؟ أنت لم تحتمل هذا لدقيقة واحدة . أنت ترحب بالعنف حين يكون معادلات عقلية باردة تقتضيها الكتب . الآن حين يأتى تحت أنفك تجفل وتتخاذل .

إذن ذلك النموذج البيولوچى المدعو ' المغفلون – الغشاشون – الضاغنون ' لم يعد صالحا أو كافيا ، وهؤلاء أطرافه لم يعودوا دجاجا ؛ إنما بإدخالك ذلك الضلع الرابع الذى تقول إنه لا فكاك منه لإنقاذ الحضارة من الانهيار والبشرية من الانقراض ، هؤلاء الـ trimmers الذين يجزون الحشائش الضارة ويجهزون على اللاعبين الغشاشين ، جعلت منه نموذجا ربما يسمى ' المغفلون – الغشاشون – الضاغنون – المشذبون ' ، وجعلتنا بالتالى أمام ديكة تتقاتل حى الموت (أو بالأحرى -باعتبار ما قاله ابن خلدون عن جبن ونذالة العرب : نحتاج بعض ديكة متخصصة لقتل الدجاجات الوضيعات) ! ... أيضا ساعتها ستتضاعف ثروة ضهرى مرات ومرات إذ سيقفز سعر سهم الدواجن إلى ما فوق الخيال !



قرارات الإبادة قد تحتاج على الأقل لقرار من مجلس ما يتشكل من نخبة قادة الكوكب .

عزيمة شخص واحد لم تعد تكفى فى هذا العالم الذى تصاعدت فيه قوى الشر لآفاق مذهلة !

لكن هل هذه مشكلتى حقا ؟ كلا ! أعتقد أنى أستطيع أن أكون أكثر ترحيبا بالعنف ، حتى لو اقترب منى . بل ربما لا أواجه هذا الموقف أبدا . الحضارة ستجد يوما طريقة لإبادة من تريد إبادته من المتخلفين العصاة قطاع الطرق بطريقة منظمة ومدروسة ، لا إسراف فيها ولا ندم . هذا حدث مع قراصنة البحار مثلا ، ولولاه لتبددت إنجازات الكشوف الجغرافية ، ولما كان هناك شىء اسمه الثورة الصناعية . الهنود الحمر أبيدوا وتأسست على أراضيهم ، أعظم الحضارات إطلاقا ، حضارة ما بعد-الصناعة . قريبا لا بد وأن تسأل الحضارة نفسها : كم سيخسر الاقتصاد العالمى لو أزيلت غزة ووزيرستان والقرن الأفريقى أو حتى معظم أفريقيا وآسيا وجنوب أميركا من على الخريطة ، وقريبا أيضا ستكتشف الإجابة المذهلة : أن الاقتصاد العالمى سوف يتحسن كثيرا ! لو لم يحدث هذا ستحل على حضارتنا نظريات جيبون ويونج ، تنحل وننتهى جميعا لعصور ظلام ، لا حيلة لمثلى أو لأحد معها .

بل مهلا ! لا تجر وراء سراب ! عد لقواعدك : الإنسان أتفه من أن تعول عليه ! ربما لا يوجد إنسان قادر بمفرده على اتخاذ قرارت تخص الإبادة كهذه . نيكسون نفسه ، أعظم من حكم أميركا والزعيم الحق بكامل معنى الكلمة ، والذى كان على وشك قصف ڤيتنام بالقنابل النووية ، نجحوا فى إقصائه ، لكن -حتى آخر يوم فى حياته ، ومهما طنطنوا بعكس هذا- لم ينجحوا فى حمله على الاعتراف إلا بشىء واحد : أن قلبه لم يكن قاسيا بما يكفى ؛ لم يكن قاسيا بما يكفى نحو فريقه الذى وصمه زورا زبانية الإدعاء -أكثر الناس شرها للسلطة والمناصب السياسية على وجه الأرض- بمخالفة القوانين فتأخر هو فى طردهم ، لم يكن قاسيا بما يكفى نحو إبادة شعب ڤيتنام المجرم ، لم يكن قاسيا بما يكفى لأن يأبى الاستقالة إذ هانت عليه تلك المعاناة التى وضعوا فيها الأمة الأميركية بتلويث يومى لسمعة قائدها ورمزها ، وهكذا . ذات الشىء : ثاتشر كلية الجبروت خانها أقرب رفاقها وطردوها . ريجان العظيم صار بطة عرجاء فى نصف حكمه الثانى .

مما يزيد الطين بلة أن اكتشفت أن مقولتى القديمة ' مذبحة واحدة تكفى ' غير صحيحة ، والمطلوب إبادة كاملة شاملة لكل الأعراق قاطعة الطريق ! على كل حال أعلم الآن أن قرارات الإبادة قد تحتاج على الأقل لقرار من مجلس ما يتشكل من نخبة قادة الكوكب . عزيمة شخص واحد لم تعد تكفى فى هذا العالم الذى تصاعدت فيه قوى الشر لآفاق مذهلة ! لم يأتنى أى أحد فى رمسيس بشىء واحد لم أكن أعرفه من قبل ، بما فى هذا الحاجة لإبادة غالبية البشر . فقط كشفوا لى أن مشكلتى هى ذات مشكلة ضابط شندلر ، لا أكثر ولا أقل ؛ لم أفكر أن الزر يحتاج شخصا ما لكبسه ، ولم أفكر قط ماذا لو كنت أنا هذا الشخص ، وقطعا لم أفكر أن معتقداتى سوف تستلزم منى بالضرورة يوما أن أسحب مسدسا وأفجر به رأس رمانة عن قرب . الناس يضعفون عند نقطة ما ، بما فى هذا قائد المعسكر النازى السفاح الأثيم . ربما الأمر لا تكفيه عزيمة البشر أصلا ، لعلنا فى حاجة لعزيمة سوپرمان ، superleader لا وجود له بين البشر أصلا ؛ لعلنا فى حاجة لعزيمة الحواسيب !

لكن لماذا لا تثبت أنت نفسك على رأى ؟ هل أصبحت مثله ؟ لقد قلت لن أفهم مصر ، وكفانى ما كفانى من شغل البال بمستقبلها . لكن مرة أخرى يثبت أنى على خطأ . والواضح أنى أقسمت فى التوقيت الخاطئ . ما قيمة مصر أصلا ؟ أليس هذا كلامك ؟ الفرد والعالم ، ولا شىء فى المنتصف . سواء ذهبت مصر للجنة أو احترقت فى آتون النار ، الآن تذكرنى بأنه لا يزال هناك عالم يتحتم إنقاذه . إنقاذه من المصير الذى حذر منه أرسطو وجيبون ويونج ، المصير الذى حذر منه القانون الثانى للديناميات الحرارية . عالم سوف ينقد ، سواء جلست أزجى الوقت فى

مناقرات مع ذلك الشيطان الرجيم المسمى ضهرى ، فى تلك ' الغرزة ' الموحلة المسماة رمسيس ، أو سواء قاطعنا بعضنا ، أو سواء لم نعرف بعضنا من البداية ، أو حتى سواء لم نولد أصلا !

إنه طوال الوقت يقول الشيء وعكسه ؟ ما الفارق بينه وبين زوجة إدوارد التى تعارض باستماتة ليس لأنها ضد الشيء ، إنما لمجرد أنها لا تعرف الصواب ؟ ماذا نال إدوارد من زيجته ؟ يكاد ينتحر بغيبوبة السكر . ماذا أنال من زواجى الأثيم هذا ؟ الجنون هو أخف الأقدار .

أيهما أسوأ زوجة إدوارد أم ضهرى ؟ كلاهما مصر الملعونة الملغوزة .



مصر هى مصر ، والأهم من كل شيء -وفى حدود علمى ما لم يسأله أحد لنفسه قط- لماذا كانت مصر أطول حضارة دامت بين كل الحضارات ؟ التفسير هو آلية قهر الأنتروبى المتضمنة فى چيبناتها ، وفى كل مرة شارفت فيها على الموات بعثت من جديد أقوى مما كانت : من كان يتخيل بعد تدنيس الهكسوس لمصر أن يظهر تحتمس ليؤسس أول إمبراطورية فى تاريخ الأرض ؟ ! من كان يتخيل أنه بعد الفوضى العارمة التى صاحبت بدعة أخناتون التوحيدية الآسيوية أن يظهر الرعامسة أعظم ملوك مصر إطلاقا ؟ ! من كان يتخيل أن بعد كل النجاسة العربية أن تظهر مصر الحديثة ، ونصل الآن لما نحن فيه من قوة ونهضة اقتصادية ؟ ! الإجابة أنها كلها بالفعل لم تكن إلا تدنيسا أو تنجيسا للتراب لا أكثر ، إما الإرضاخ فلا يتم إلا بإبادة آخر چيين مميز لشعب مصر . ... بل دعك من كل هذا : من كان يتخيل نظرية تقول إن النجوم الملتهبة تتوالد طوال الوقت فى الكون ، تجمعا من الغبار الأسود البارد ، وفقط بفضل ذلك الشيء المبتذل جدا لكن السحرى حقا المسمى الجاذبية ؟ ... صديقى ، لا تنس أبدا درس البورصة الكبير : الأمور يجب أن تسوء قبل أن تتحسن ، وساعتها ستتحسن أفضل من كل ذى قبل ؛ ثاتشر وريجان لا يظهران إلا عندما تصل الشيوعية إلى ذروة تنطعها !

ما كل هذا الهراء الذى تقول ؟ يرن صوت ضهرى فى دماغ وحيد ، دون أن يعرف مصدره : ما لنا ومال العرب ، يتطورون أو يبادون ، سريعا أم بعد آلاف السنين ؟ مصر هى مصر ، والأهم من كل شيء -وفى حدود علمى ما لم يسأله أحد لنفسه قط- لماذا كانت مصر أطول حضارة دامت بين كل الحضارات ؟ التفسير هو آلية قهر الأنتروبى المتضمنة فى چيبناتها ، وفى كل مرة شارفت فيها على الموات بعثت من جديد أقوى مما كانت : من كان يتخيل بعد تدنيس الهكسوس لمصر أن يظهر تحتمس ليؤسس أول إمبراطورية فى تاريخ الأرض ؟ ! من كان يتخيل أنه بعد الفوضى العارمة التى صاحبت بدعة أخناتون التوحيدية الآسيوية أن يظهر الرعامسة أعظم ملوك مصر إطلاقا ؟ ! من كان يتخيل أن بعد كل النجاسة العربية أن تظهر مصر الحديثة ، ونصل الآن لما نحن فيه من قوة ونهضة اقتصادية ؟ ! الإجابة أنها كلها بالفعل لم تكن إلا تدنيسا أو تنجيسا للتراب لا أكثر ، إما الإرضاخ فلا يتم إلا بإبادة آخر چيين مميز لشعب مصر . ... بل دعك من كل هذا : من كان يتخيل نظرية تقول إن النجوم الملتهبة تتوالد طوال الوقت فى الكون ، تجمعا من الغبار الأسود البارد ، وفقط بفضل ذلك الشيء المبتذل جدا لكن السحرى حقا المسمى الجاذبية ؟ ... صديقى ، لا تنس أبدا درس البورصة الكبير : الأمور يجب أن تسوء قبل أن تتحسن ، وساعتها ستتحسن أفضل من كل ذى قبل ؛ ثاتشر وريجان لا يظهران إلا عندما تصل الشيوعية إلى ذروة تنطعها !

مصر ؟ مصر ، مصر دايما مصر ! هكذا علمتنا أغانى ونس . دايما ماذا ؟ دايما مأساة ؟ دايما لغز ؟ دايما رى حياض ؟ ثم ما سر هذا الإصرار العجيب على أن المصريين ليسوا بدوا چانچاويد ككل المحيط العربى المحيق بهم ؟ لماذا التعلق بأمل واه كهذا ؟ لا أرى الفارق يستحق أن ينفعل ضهرى من أجله كل ذاك الانفعال ! ماذا يريد القول ؟ المصريون ليسوا حالة ميئوس منها . طبعا هذا موقفه ، والدليل مآثره الإصلاحية التى تتناثر من حوله .

مهلا ! مصر ، مصر دايما مصر ! بل دايما ضحية . الآن تتعرض لاجتياح عربى شامل ، مالى عبر الاستثمارات الوهمية ، وحتى عسكرى عبر هجمات القبائل ، وطبعا دعك من طابور السياسيين العملاء والإعلاميين السفلة .



هل من سبب يمنعنا أن نحيى اليوم دور مصر التحضرى التاريخى المقدس ،

الذى من أجله حارب إبراهيم پاشا العرب الوهابيين فى نجد ،

أو إسماعيل پاشا العرب جلابى العبيد فى السودان ، أو أنور السادات العرب قطاع الطرق فى ليبيا ،

فنحارب كل العرب أيا من كانوا وأينما وجدوا ونخلص البشرية من شرورهم ؟

... أوه ! ذلك اللعين سيحدثنى عن أحمس وتحتمس أيضا !

بل مهلا ! مصر ، مصر دايما مصر ! ربما يقصد طموحات أبعد : يقصد أن تتصدى ، أن تدافع ، بل أن تهاجم ! حقا ! لماذا نغفل دوما هذه اللحظات المشرقة من التاريخ ؟ حقا ، هل من سبب يمنعنا أن نحيى اليوم دور مصر التحضرى التاريخى المقدس ، الذى من أجله حارب إبراهيم پاشا العرب الوهابيين فى نجد ، أو إسماعيل پاشا العرب جلابى العبيد فى السودان ، أو أنور السادات العرب قطاع الطرق فى ليبيا ، فنحارب كل العرب أيا من كانوا وأينما وجدوا ونخلص البشرية من شرورهم ؟ ... أوه ! ذلك اللعين سيحدثنى عن أحمس وتحتمس أيضا ! مصر لم تشأ يوما أن تكون دولة إمپريالية ولا حتى فى أيام تحتمس ؛ هى لا تحب احتلال أحد ، لكن -رغم هذا- طالما كانت لها يد طولى تقطع دابر أولئك اللصوص المحيطين بها كلما احتاج الأمر . إن اللعين يدفعنى طوال الوقت . أراهن أنه كالعادة لا يعرف إلى ماذا يدفعنى بالضبط . كل مآثره عشوائية وكيفما اتفق . هل يعرف أنه لا يدفعنى إلا لشىء واحد ، الجنون !

لكن مهلا . ضهرى ليس جاهلا كزوجة إدوارد . هو فقط مثلها فى التهرب من تحمل المسئولية .

إنه حتى يحمل نفس شعارى : أرمى إللى فى مخى وأمشى . لكن لماذا يلقيه عندى أنا ؟ لماذا لا يلقيه فى مكان آخر ؟

آه ! ربما فهمت الآن . يا للغباوة ! كل هذه الشهور ، ولم أفهم اللعبة ! أمعقول هذا ؟ ! العبة هى التهرب من المسئولية !

يا للخبث : إنه يدفعنى بذات القدر الذى يخلى فيه مسئوليته . طوال الوقت يدفع لى بالقطعة الناقصة من اللغز الذى أمامى ، ثم يقول فى صمت : أنت أرسطو ! أنت التركيب ! أنت المكنة ! القرار لن يأتى إلا منك ! إنه لا يريد أن أصل لنقطة أن أنفض يدى من الإصلاح . ألا يكفيه ما يقوم هو به من وظيفة المصلح طوال الوقت ؟ ما له ومالى ؟ إنه لا يدفعنى لأن أحاكيه فى أفعاله الخيرية . رغم كل عبثه المجرم وغير المسئول بعلمانيتى الطيبة ، لا يتخلى للحظة عن تدينه وإيمانه . كيف ؟ بل لماذا ؟ إنه يدفعنى لشىء ما . لشىء مختلف . أى شىء ؟ كل شىء يدفعنى فيه للتطرف . سواء أيدنى أو عارضتى ، هو يقودنى لمزيد من الحدة . هل أنا كنت معتدلا أصلا حتى يجعلنى متطرفا . لطالما كنت أكثر المتطرفين تطرفا . ماذا يريد بالضبط ؟ هأ ! ربما يريد أن ' يمط دماغى ' أنا أيضا ! أفكارى ليست عنيفة بالقدر الذى يرضيه ! هل اقتنع بكلامى عن النهضة التى لا تأتى إلا قسرا ؟ أيدفعنى لهذه ؟ لكن ألا يعرف قبل أى أحد أن لا شىء بيدى ؟ أنا تقريبا مجرد حطام بشرى . ولت أيامى ولم تثمر شجرتها . إنه يستخدمنى كدرع بشرى لجنته الأرضية ، لحربه ضد التخلف التى فشل أبدا فى كسبها . آسف ، أنت لست فاشلا حقا . على الأقل لو قورنت بى . أنت تستطيع الإمساك بقاتل نبيل ، بينما يكن بوسع أمثالى شيئا ، بل لم أكن لأحرك ساكنا أصلا . الحكومة نفسها كانت ستعدم نصر الله بضمير مستريح . طبعا المقارنة غير واردة : أنت شخصية عريضة أفسح من الحياة يستلذ الجميع كلامها ، وأنا شخص dull كئيب ثقيل لا يهتم به أحد . يا لخزيى المخزى كلما نظرت لهالة . لقد ناطحتنى وناطحت شركتى ، أنا الذى تعلمت على يديه ألف باء الكتابة . بل هى مستعدة لمناطحة العالم كله من أجل ما تراه حقيقة . يا لعارى الجبان وقد تركتها تناطح مُحَمَّد حسنين هلوكة ، بينما كل ما فعلته أن قلت لها باستعلاء ليس لدى تيونرا فى تلفازى . ماذا تريد منى بالضبط ؟ أجننت يا ضهرى ، وتريد أن تصيبنى بالجنون مثلك ؟

جنة أرضية ؟ أية جنة ؟ أوه ! يا لهول الحقيقة ! إن السفنكس يعرف أن دنياه مقلب زبالة ، لكنه لا يتحمل مسئولية إصلاحها بنفسه . يقول عنى لست صاحب قضية ، ولا أعرف شيئا اسمه الكفاح . ماذا عن نفسه هو ؟ عليه أن يبدأ بنفسه . حتى هذه أجاب عليها . لا يقوى ! هو لا يقوى إلا على شاب تافه فوق كوبرى أكتوبر . حتى ابنته منى لا يعرف إذا كان يؤثر فيها أم هى التى تؤثر فيه . هو يصلح قدر ما يستطيع . السفنكس اختلطت به كل چيينات الأرض ، بحيث لم يعد ذا شخصية أو إرادة . لقد اعترف لى بهذا صراحة بنفسه ذات مرة .

مهلا ! على الأقل هو يفعل ما يستطيع . ماذا فعلت أنت ؟ يا للهول ! أممكن هذا ؟ ! ضهرى أكثر منك مادية ؟ هو يفعل . أنا أتكلم . فقط أتكلم . أنا عار على أرسطو ، وعلى المادية ، وعلى التركيب ، وعلى كل شىء !

إذن على نحو ما ، هو ليس شيطانا كزوجة إدوارد . أوه ! هو ربما ملاك حارس . هو مرسل لى من مزامير داود كى يرعانى !

كلا ، ليس ملاكا بل شيطان ! نعم ، إنه يريد الإصلاح ، لكن أكثر منه لا يريد المشاكل . لو أدى الأمر لنيران عكسية ، سيتبرأ منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب . يا لها من فهلوة أم كل الفهلوات . هو يعلم أن بعض چيبناته ستجلده ، ستلقى خطبا تتهمه فيها بالخيانة والعمالة والكفر والتنازل عن العزة والكرامة والتاريخ التليد الذى لم يكن .

أين العدل ؟ ماذا تطلب منه أكثر مما فعل ؟ هذه أقصى قدراته . هذه حيلته الوحيدة للتحيؤ ، تقانة الـ survival الوحيدة التى يعرفها ، آلية التكيف الوحيدة التى أبقتها له أمنا الطبيعة ، كى يخوض بها معركته الأخيرة اليائسة ضد الفناء والإبادة .

بل لنكن أكثر إنصافا . هو ليس كغيره . هو يعى مشاكله حق الوعى . بل على نحو ما هو شجاع ، حى ، متوقد فى داخله بإرادة ما !

نعم ! لماذا أذهب للجنون ؟ بل ربما ما ذنب السفنكس ؟ إنه ليس تمثالا أصم . إنه ليس تماما معدوم الشخصية . ليس جثة . ليس دراكيولا . فرانكنستاين ربما ، لكن دراكيولا لا .

نعم ! ما ذنب السفنكس ؟ هذه قدراته . هذه أقداره . هذه چيبناته . يعرفها حق المعرفة . لذا يدفعك ويخلى مسئوليته . أنت المكنة . القرار قرارك أنت !

... الرجل صريح مع نفسه ، وأمين معى . علام ألومه إذن ؟

... القرار قرارك أنت ! إنه يحررنى ! يا للنكتة ! حتى تحريرى من القمقم تم بإرادتك أنت يا أيها المغرور الوقح .

... لا بأس ! من يمكن أن يكون ضد الحرية ؟ سأسامحك على العبث بعقلى هذه المرة . لكنها ستكون الأخيرة . آسف لأنى سأقسم على هذا من جديد الآن . لا مزيد من العبث بعد اليوم . كفى تعنى كفى !

... شكرا يا ضهرى الحبيب . لقد أنقذتنى من عذاب عمرى الأكبر !

... لقد قبلت منك هذا التعابث الأخير : من الآن فصاعدا ، القرار قرارى أنا !

... لكن حتى الآن لم أقرر إن كنت تستحق العيش أم سوف أقتلك بنفسى .

... قرار كهذا ليس قرارى أنا ... إنه قرار شخص واحد ... أمنا الطبيعة !

... المهم أن الصداع قد اختفى !



الساموراى ينتحرون لو فشلوا مرة واحدة ، وجيراننا العرب يهزمون ألف مرة ولا يستسلمون أبدا . شعب ينتحر فيه المهزوم وصاحب أعلى نسبة انتحار عالميا حتى اليوم ، هو شعب مبرمج چيبنيا على إعلاء شأن الانتخاب الطبيعى ؛ شعب نخبوى بالفطرة ! أولئك حواسيب وليسوا بشرا ! آلات خالصة حقا ! يا للهول ! لا غرابة أن يكون لليابانيين اليوم قصب السبق فى الهندسة الچيبنية ، فى الهندسة النانوية ، فى الذكاء الآلى (الاصطناعى سابقا) ، فى الجيل الخامس للحاسوب ، فى الروبوتيات ؛ فى كل تقنيات الغد !

لو ها نقول الحياة بدأت بالنبات ، وتطورت للحيوان آكل العشب ، وتطورت للحيوان آكل اللحم ، فيبقى دول نوع تانى من الإنسان . شايف التطور رايح إلى فين ؟ ! يتذكر وحيد أفلام كوروساوا التى عشقها ، ويكتشف فى لحظة تلك إساءة الظن الكبيرة التى لازمته لعقود ممثلة فى الانطباع الذى كونه منها عن كون اليابانيين قوما انفعاليين . فعلا ! الأب لا يثور على ابنه ولا على زوجته انفعالا لنفسه أو للأسرة أو للشرف . هم ينفعلون فقط من أجل فعل الشىء الصواب ولو ضد القبيلة ، ضد الأسرة ، ضد النفس ، يثورون فقط من أجل الحقيقة الموضوعية . بين يوم وليلة استقبلت بناتهم الأعداء بالورود وبالساكى بدلا من الكاميكازى ، وأصبحوا تابعين لأميركا ككلب مخلص ، لمجرد أن عرفوا أن أميركا أحسن وأنها المنتصرة ، فعندهم الانتصار لا يأتى من فراغ ، ولا تجده على ناصية بيتك ذات صباح . ' أهلا بالمنتصرين ! ' ، قالها إمپراطورهم . لو عرب كانوا فضلوا يحاربوا أميركا مليون سنة تانى قدام . شعوب ذات مكون ثقافى عال ؟ يا للغو المقارنة ؟ !

الساموراى ينتحرون لو فشلوا مرة واحدة ، وجيراننا العرب يهزمون ألف مرة ولا يستسلمون أبدا . شعب ينتحر فيه المهزوم وصاحب أعلى نسبة انتحار عالميا حتى اليوم ، هو شعب مبرمج چيبنيا على إعلاء شأن الانتخاب الطبيعى ؛ شعب نخبوى بالفطرة ! أولئك حواسيب وليسوا

بشرا ! آلات خالصة حقا ! يا للهول ! لا غرابة أن يكون لليابانيين اليوم قصب السبق فى الهندسة الچيينية ، فى الهندسة النانوية ، فى الذكاء الآلى (الاصطناعى سابقا) ، فى الجيل الخامس للحاسوب ، فى الروبوتيات ؛ فى كل تقنيات الغد !

أيضا يكتشف وحيد سوء فهم كبير آخر ، هو ما يخص توقير اليابانيين للأكبر سنا ، الذى يبدو فى نظرنا نوعا من القبلية الممجوجة التى ضقنا ذرعا بها فى منطقتنا ، وجمودا لا يتمشى مع روح الحداثة والشبابية والتطور . الفيصل مرة أخرى هو عينه الفارق بين الموضوعى والذاتى ، توقير الكبير هو توقير لعلمه لا لشخصه ، موقف عقلانى بارد وليس ولاء قبليا غريزيا انفعاليا أعمى . بل أبعد من هذا بات وحيد أكثر استعدادا لفهم موقف التعالى النسبى لديهم على المرأة ، فقال لنفسه كيف يأتى لمحارب يغرس سيفا فى بطنه لمجرد غلطة ارتكبها ألا يزدرى ضعف المرأة ، من ثم فبالتأكيد لو حدث أثبتت قوتها وكفاءتها لكان أول من يحترمها . إنها مرة أخرى ذات الموضوعية والتنافسية ؛ القيمتان الكبيرتان اللتان تجريان فى دماء هذا العرق الفريد .

لكن لماذا وهم يمينيون حقيقيون هكذا ، ضرائبهم هى الأعلى بين الدول الصناعية ؟ أوه ! هل قررت أن تسىء الظن بهم مرة ثانية ؟ بل قل : ماذا سيكون حجم اقتصادهم ولو استيقظوا غدا وقرروا فجأة نسف تلك الضرائب للربع أو حتى للنصف ؟ ! الأرجح ، أنهم أناس يؤمنون بأن للحظات التاريخ الكبرى توقيتاتها التى لا يجب أبدا تعجلها !

العرب ٣٠٠ مليون حزب ، بريطانيا ٣ أحزاب ، أميركا حزبان ، اليابان حزب واحد . شايف التطور رايح إلى فين ؟ ! مظبوط ، لحد اللعنة ! أولا وأهم كل شىء ، واضح أن الثورة التقنية القادمة ها تيجى من اليابان ، وكما أقول كل يوم منذ ولدت : الحضارة ثورة تقنية . أولا أميركا من حقها حكم العالم ، دون مرافضة أو مقاومة أو ممانعة أو نقاش أو حتى اقتراح مقترحات ، من حقها أن ترسل قواتها لأى مكان فى الأرض وليس من حق أحد مجرد السؤال عن السبب ، كل ذلك فقط بفضل ما قدمته من ثورة تقنية ، وما تحقق لها من جرائها من ثراء وقدرة . ثانيا أن تسعى الصين أو إيران أو فرنسا أو روسيا أو الجامعة العربية أو أى أحد آخر للهيمنة إقليميا أو عالميا ، فلهذا مسمى آخر : مثلا البلطجة أو القرصنة أو قطع الطريق . ثالثا الطامة الأهم : أميركا دى موش عارفة تحكم العالم . عملت عصر المعلومات والاتصالات والساتيلايت والإنترنيت وكل الجلوبة ، لكن موش عارفة تسيطر على قطاع الطرق . البريتون أطيب من أن ينجحوا فى هذا ، ' آخرهم الهنود الحمر ' زى ما قال ضهرى ، وموش مستعدين يبيدوا حد تانى . أميركا مخترقة من الداخل . العبيد ملأوها بالهجرة والتكاثر ، ليس الكاثوليك فقط ، إنما المسلمين أيضا ، والأهم من كل شىء : الصينيون قادمون ! البيض وأيديولوچيتهم وجذوتهم الحضارية بقوا أقلية ، والحزب الديموقراطى الناطق باسم كل العبيد وكل الأقليات والطابور الخامس لكل قوى التخلف فى العالم ، أصبح أغلبية . دائما ما آمنت أن أكثر من يتحدثون عن نظرية المؤامرة هم أكثر من يحيك المؤامرات فى الواقع (فى الواقع لجبنى لم أجرؤ على قول هذا علنا فى رمسيس حتى لا أسيىء لونس) ، لكن اليوم لم تعد هناك حاجة لمؤامرات : تسابق خادم القرفين وأمير قطر على تمويل الجناح المسلم للحزب الديموقراطى هائل النفوذ بات أمرا معروفا للجميع ، وصراعهما على أيهما سيحكم العالم قبل الآخر بات صراعا على المكشوف . حتى يواصل الغرب قيادة العالم عليه أن يطرد كل المهاجرين وذريتهم رجوعا على الأقل للحرب العالمية الثانية . منح الجنسية للأجانب خط أحمر . من تتزوج مهاجرا تنزع عنها الجنسية . التى تنجب طفلا من أجنبى متخلف ترحل بطفلها أو يقتل . الحضارة عاوزة نخبة تحميها . دى موش مثالية أو أيديولوچية . دى حتمية طبيعية اسمها التقنية ، ودول ناس طبيعتهم كده يحموها . حملة صولجان روما إللى اسمهم الفاشيين . فرسان المائدة المستديرة ، يدافعوا عن الحرية للجميع ، وبس . لا نظريات ولا أيديولوچيات ، لا محاباة لغنى على حساب فقير ، ولا العكس ، فقط لا أحد يتعدى على حرية أحد . مائدة مستديرة ؟ أوه ! هذه الكلمة تتردد كثيرا على الأيام الأخيرة . لو ذكرتها أمام ضهرى لبدأ كلاما لعشر ساعات من قصص التاريخ وحيا من ترابيزة تادرس هذه التى أحضرها إدوارد لنا . ترى من يجلس عليها معه الآن ؟



خمسون عاما مدة طويلة جدا ! لن تستمر أميركا سيدة العالم كل هذه الفترة إلا فى حالة واحدة :
أن تتحرك الشركات وتعلن رفضها دفع الضرائب فوق نسبة كذا أو رفض دفع أية ضرائب مطلقا ،
أو -وهو الأفضل- أن يتحرك الجيش ويحشر دبابة فى بوابة مبنى الكونجرس ،
ثم يبدأ فى ترحيل كل من أتى لأميركا منذ الحرب العالمية الثانية
-أو على الأقل منذ اغتصب العبد الكاثوليكى چون كينيدى السلطة- إلى من حيث أتوا !

أنا أكتب ببساطة مؤمنا بالاقتصاد الحر وبأنه الطريق المثالى للرخاء . ها قد جئتكم بالحل السحرى الذى كان غائبا عنكم ، وهيا بنا لنطبقه أيها الأغبياء الجهلة . ولا أدرى أن غباءكم وجهلكم أقوى منى ، بل أقوى منكم أنتم أنفسكم . چيبنات . شفرات كيميائية . Everything is gened! حسب صيغتى القديمة التى كنت أقولها بسذاجة دون أن أعرف متضمناتها الحقيقية أبدا ، أو All in the genes! زى ما كل الدنيا بقت بتقول كالببغاوات دلوقت . لم أكن أعلم أنى أنا وحدى الغبى الجاهل . وصل بى الأمر أن جعلت نفسى محل سخرية حين دعوت ضهرى لقراءة الچيين الأنانى ، بينما المؤكد أنه قرأه عشر مرات من قبلى ، وتوصل لأشياء أفظع مائة مرة ، قد لا أتوصل أنا لها أبدا . إنها على أية حال طريقة هذا اللعين دوما ، إدعاء البلاهة ! فى كل مرة يبدأ النقاشات من نقطة سبق ومحصناها كلنا واعتقدنا أننا تجاوزناها ، لنكتشف بعد قليل أنه ليس بالتخبط الذى يبدو عليه ، بل يخطط للقفز بنا لشىء آخر .

أرسطو لم يدعكم أبدا للحضارة ، أقصد للتحضر . لقد حكم عليكم بالتخلف للأبد . حالة ميئوس منها . ملف قد أغلق . أى أمل لكم سوى الانقراض . بل الإبادة . فقد فات أوان أن تكون النهاية انقراضا كريما (بإدخالكم لمطحنة الاقتصاد التنافسى الحر مثلا !) ، ذلك بعد كل تلك المواجهات الدامية التى وضعتم نفسكم فيها مع الحضارة . اقتصاد الكوكب يقارب الآن الأربعين تريليون دولار سنويا . بيزنس بهذا الحجم يحتاج لجهاز أمن أو ما يسمى ترتيبا عالميا جديدا . ذلك الاستثمار الهائل ، ومن ثم مستقبل الكوكب برمته ، بات مهددا من قبل قطاع الطرق الفاشلين فى المشاركة فيه ، العربية والمسلمة منها ، والأسوأ غير العربية وغير المسلمة منها . هذه وتلك التى استشرت الآن وملأت كامل خريطة العالم بالهجرة والإنجاب والإرهاب ، وراحت تفرض إرادتها على بقية العالم .

الإمبراطورية البريطانية انهارت بنفس الطريقة التى قهرت بها روما ، انهارت حين نخرت من الداخل ، انهارت بسيطرة نقابات الشغيلة وحزبها على الحكم بعد الحرب العالمية الأولى . لا بل بدأ التداعى قبل ذلك بنصف قرن على الأقل . إن أميركا وحزبيها ، هى عينها حرفيا قصة جلادستون وساليزبيرى . حقا ما أتفه إشفاقى على مصر وعلى ما ناضلت من أجله لثلاثة عقود من الزمان ، وها هو يتبخر الآن بمجرد فعله خسيسة من نقابات الإسمنت . إن النقابات تستطيع هدم إمبراطوريات وحضارات ، لا مجرد مصر الغلبانة التى تتحسس بالكاد فكرة الرأسمالية التنافسية . البعض يجفل عن التوسع الإمبريالى لجبن أو لتواطؤ أو لمفاهيم ساذجة عن الإنسانية تحتضنها قلوب واهنة ، والبعض يضع قلبه الصخرى على كفه ويحمل الراية والرمح لتحديث العالم المتخلف العائش فى قبور الماضى . لو القياس صحيح ، فليس أمام أميركا سوى ٥٠ سنة حتى تتداعى إمبراطوريتها ! هذه بعض النتائج الكارثية لوصول كاثوليكى لحكم أميركا : فى ١٩٦٤ لم يكتف اليسار عندهم بإصدار قانون الحقوق المدنية الذى أعطى العبيد ليس المساواة إنما السيادة على الأسياد ، بل كانت الطامة الكبرى فى العام التالى : قانون الهجرة الكارثى بكامل معنى الكلمة ، الضمان المطلق تدفق للعبيد بلا أية عوائق ، مع التقييد التام على هجرة البيض لأميركا .

الإمبراطورية البريطانية كانت أضخم من الإمبراطورية الرومانية بمراحل ، والمنطقى كان أن تصل الإمبراطورية الأميركية لآفاق أوسع وأعلى بمراحل ومراحل (ليس بالضرورة فى مجرد حدود الكوكب) ، لولا أن كتب هذا القانون شهادة وفاتها قبل الوصول لليفوع حتى ! چون إف . كينيدى لم يكن فقط يريد بناء الشيوعية داخل أميركا من خلال قراره هائل الشذوذ بجعل الحكومة الجهة التى تصدر النقود (المؤامرة التى لحسن الحظ لم يكتب لها النجاح طويلا) ، بل أعلنها صريحة أنه يريد تقويض أميركا من جذورها ، سوف يغرقها فى طوفان من العبيد الكاثوليك والصفر والمسلمين والسود (ولسوء الحظ نجح فى هذا) . أنا لم أر فى حياتى أحدا أغبى من الروس . لو كانوا قد تركوه فى شأنه ولم يتحدوه بتلك الصواريخ البلهاء وحاولوا إذلاله أمام شعبه ، لكان قد حول أميركا للشيوعية وسلمها لهم على طبق من فضة ، أقصد من صفيح . شىء رائع أنهم أصبحوا يقتلون إخوته قبل أن يصلوا للبيت الأبيض ، إذ لا سبيل لحماية العالم الحر سوى هذا . أين أنت يا جيبون كى ترى ؟ ! قبل قانونهم الفاجر كانوا يدققون فى الصفات الچيينية للمهاجر ، يحللون قسمات وجهه ليعرفوا انتماءه العرقى ، ويجرون له اختبارات الذكاء وكل الاختبارات ، وبعده لم يعودوا

يهتمون حتى إن كان يحمل أمراضا معدية . فتحوا الباب على مصراعيه ، ومن ثم وضعوا المسمار الأول فى نعش الحضارة الأميركية . نعم ، ذاك القانون كان الإرهاصة الأولى لحالة الانبطاح الكامل الحالية للغرب أمام العرب والمسلمين وغيرهم من قوى التخلف عبر العالم !

لا مهلا ، القياس ليس طبق الأصل ! لأكن أكثر دقة : لا بريطانيا هى روما ، ولا أميركا هى بريطانيا . أوه ، ربما أميركا أسوأ ! فى بريطانيا لم يكن پالمرستون وجلادستون أو حزبهما الليبرالى ، أو حتى ما هو أدهى بعدهما ، حزب الكدح ، لم يكونوا غزوا لعبيد من الخارج . دزرائيللى المحافظ نفسه وافق على ، بل تبنى بنفسه وهو فى السلطة ، التعديلات التى تعطى البرلمان سلطات أوسع ، وهذا منذ ١٨٦٧ ، حيث لعل من هنا بدأت الكوارث جميعا . كان النقطة السوداء فى تاريخ على العكس ككل عظيم . اعتقد أنه سوف dish the Whigs ، لكنه لم يحطم أحدا بل وضع أيضا المسمار الأول فى نعش أعظم إمبراطورية ، فما تمنحه للشعب لا يمكن أن تسترده منه ثانية أبدا . الحزب الديموقراطى الأميركى المجرم لا يقوم فقط على عبيد الهجرة ، بل على بلطجية النقابات أيضا . نعم القياس ليس صحيحا . يا للهول ! اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الأميركية قد يكون أكثر درامية بكثير . إنها ليست نسخة طبق الأصل من الإمبراطورية الرومانية التى نخرت بالكامل بسبب سماحها بأن يقصف مركزها بهجرة العبيد ، أن تقصف بالتكاثر والهجرة ، فبالهجرة والتكاثر ، فبالعدوى السيكيولوچية كما يسميها المذهل يونج ، وليست نسخة طبق الأصل من بريطانيا التى استولى فيها بلطجية النقابات على الحكم بالقوة عبر تلك الأداة المضحكة المسماة صناديق الاقتراع ؛ إنها الاثنان معا ! يبقى خلاص ! كل الأمور محسومة وواضحة : خمسون عاما مدة طويلة جدا ! لن تستمر أميركا سيدة العالم كل هذه الفترة إلا فى حالة واحدة : أن تتحرك الشركات وتعلن رفضها دفع الضرائب فوق نسبة كذا أو رفض دفع أية ضرائب مطلقا ، أو -وهو الأفضل- أن يتحرك الجيش ويحشر دبابة فى بوابة مبنى الكونجرس ، ثم يبدأ فى ترحيل كل من أتى لأميركا منذ الحرب العالمية الثانية -أو على الأقل منذ اغتصب العبد الكاثوليكى چون كينيدى السلطة- إلى من حيث أتوا !



بلى ، أمنا الطبيعة تقدمية ، وبلى ، الكلمة سرقها اليسار منا ، لكنه -كالعادة- لم يسرقها وحسب ، بل تلاعب فى تعريفها .

إن تقدمية الطبيعة بطيئة للغاية . ولأنها بطيئة للغاية فإن بالتالى أقصى ما يمكننا فعله بكل غرورنا البشرى هو جعلها بطيئة فقط .

أما لو حاولنا جعل التقدم سريعا نكون قد انقلبنا على القانون الطبيعى ؛ وما أدراك ما القانون الطبيعى ،

إنه القانون الذى يجب كافة القوانين الوضعية الوضيعة ، دينية كانت أم مدنية ؛

قانون الدغل والصراع والانتخاب الطبيعى والتحيؤ للأليق !

... إذن التؤدة Unhurriedness (التى جاءت منها تسميتنا بالمحافظين) ، هى ناوسيا ؛

قانون طبيعى أيضا ، ولو حاولنا معاندتها ستقابلنا أمنا الطبيعة ساعتها بالبطش ،

وهو ما نراه يحدث طوال الوقت منذ فجر التاريخ لكل المثاليين والعقلانيين والإنسانويين ،

أتباع السافل الأصلى منفوخ الأوداج المدعو أفلاطون !

بلى ، النمو الزائد هو مشكلة المشاكل . لقد نجحتم أيها الأوغاد الوافدين بأموال نفطكم الساخنة فى تحويل السوق المصرية إلى فقاعة ، وها هو كل شىء إلى انهيار الآن . لكن أليست هكذا الحال دوما ؟ أليس هذا بالضبط هو سبب ازدراء أرسطو المبرر جدا أرسطو لطبقة التجار ورجال المال ؟ تتحاجج الإمبراطورية بأنها كى تنمو يجب أن تستجلب العبيد كى تعهد لهم بالأشغال الدنيا ، لكنها لا تعرف أن هذا قصر نظر بل انتحار محتوم ، وأن الأفضل دائما السعى لنمو أبطا لكن مستدام .

بلى ، أمنا الطبيعة تقدمية ، وبلى ، الكلمة سرقها اليسار منا ، لكنه -كالعادة- لم يسرقها وحسب ، بل تلاعب فى تعريفها . إن تقدمية الطبيعة بطيئة للغاية . ولأنها بطيئة للغاية فإن بالتالى أقصى ما يمكننا فعله بكل غرورنا البشرى هو جعلها بطيئة فقط . أما لو حاولنا جعل التقدم سريعا نكون قد انقلبنا على القانون الطبيعى ؛ وما أدراك ما القانون الطبيعى ، إنه القانون الذى يجب كافة القوانين الوضعية الوضيعة ، دينية كانت أم مدنية ؛ قانون الدغل والصراع والانتخاب الطبيعى والتحيؤ للأليق ! ... إذن التؤدة Unhurriedness (التى جاءت منها تسميتنا بالمحافظين) ، هى ناوسيا ؛ قانون طبيعى أيضا ، ولو حاولنا معاندتها ستقابلنا أمنا الطبيعة ساعتها بالبطش ، وهو ما نراه يحدث طوال الوقت منذ فجر التاريخ لكل المثاليين والعقلانيين والإنسانويين ، أتباع السافل الأصلى منفوخ الأوداج المدعو أفلاطون !



المطلوب إذن تنمية نخبوية بطيئة هادئة ناعمة ومن ثم مستدامة ، تعتمد على الجديرين بها فقط ، ولا تعنى كثيرا بشأن الفقراء ، ليس لشر فينا أو كرها لهم ، إنما لسبب غاية فى البساطة أن الاهتمام الخاص بهم هو كپسولة الموت القاضية على الجميع . الفقاعات تنشأ حين يبدأ أحدهم التفكير فى تنمية واسعة للطبقات أو الشعوب الفقيرة ، حبا فيهم أو تربحا منهم . إنه طعم اشتراكى ابتلعته الرأسمالية ، وهو التعريف الوحيد للجشع فيها (الجشع بمعناه السيئ لأن كل ما عدا تلك هو جشع حميد ، ولأنها تاريخيا قامت على هذا الجشع الحميد) . إن انعدام فرص الكسالى أو الفاشلين فى التحيؤ ليس سببه مشكلة فى الرأسمالية أو الاشتراكية ، إنما هو فرمان أزلى من أمنا الطبيعة !

المطلوب إذن تنمية نخبوية بطيئة هادئة ناعمة ومن ثم مستدامة ، تعتمد على الجديرين بها فقط ، ولا تعنى كثيرا بشأن الفقراء ، ليس لشر فينا أو كرها لهم ، إنما لسبب غاية فى البساطة أن الاهتمام الخاص بهم هو كپسولة الموت القاضية على الجميع . الفقاعات تنشأ حين يبدأ أحدهم التفكير فى تنمية واسعة للطبقات أو الشعوب الفقيرة ، حبا فيهم أو تربحا منهم . إنه طعم اشتراكى ابتلعته الرأسمالية ، وهو التعريف الوحيد للجشع فيها . الحقد الطبقى هو الجشع الشيطانى الوحيد ، وكل ما عداه هو جشع حميد ، والرأسمالية قامت تاريخيا على ذلك الجشع الحميد . إن انعدام فرص الكسالى أو الفاشلين فى التحيؤ ليس سببه مشكلة فى الرأسمالية أو الاشتراكية ، إنما هو فرمان أزلى من أمنا الطبيعة !

كلا ، بل -بالأحرى- ذلك لا يزيد شيئا عن كلام أرسطو عن أن الديموقراطية هى حكم الفقراء (الرعاع) ؛ الديموقراطية تعنى الانتخابات ، والانتخابات تعنى المزايدات والهبات والتسهيلات وقروض العقارات وقروض السيارات وقروض التعليم وقروض الملابس وقروض تناول العشاء وقروض كل شىء لكل من هب ودب ، والنتيجة ليست مجرد نهب واسع لأموال الشركات تحت مسمى الضرائب لتمويل كل هذا ، بل فقاعة اقتصادية تتفاقم فى متوالية هندسية : كى ينجحوا فى الانتخابات يحتاجون للنقابات البلطجية ، وكى يكسبوها يعدون برفع الأجور ، ترتفع الأجور فترتفع الأسعار ، يقولون ما لناش دعوة ، لا حل إلا رفع الضرايب كمان مرة ، يزيد من جديد حجم الحكومة ، يقنعون الجوعى بأن لا أمل لهم إلا المزيد من الاعتماد على جمعيتهم الخيرية الكبرى هذه ، يعاد انتخابهم من جديد ... وهلم جرا ، إلى تنتهى العجلة الجهنمية بانهيار شامل : بنوك خاوية قد نهبها الفقراء كعادتهم ، وشركات مفلسة لا تجد مبررا لاستمرارها أصلا . أنا لا أفهم من أين أتوا بالربط بين الرأسمالية والديموقراطية ، لا أرى أية علاقة عضوية بينهما بل أرى أنهما نقيضتان جذريا ، واحدة تبنى وتعلو وتقاوم تفشى الأنتروپى ، والثانية تذيب الأولى فى بركة ضحلة من الوسطية والبدائية والتخلف يتشارك فيها الجميع .

المفارقة أن فريدمان صاحب عصا الساحر تلك ، تحول شيئا فشيئا نحو المدرسة النمسوية -مدرسة ڤون حايك وزملائه- وبات من المطالبين بإلغاء نظام الاحتياطى الفيدرالى أصلا ، قائلا نحن لا نحتاج لبنوك مركزية من الأصل ، ذلك أن بها إصبعا حكوميا (رغم كونها أموالا غير حكومية) ، والإصبع الحكومى اشتراكى بطبعه ، يميل للسياسات التضخمية ، ومن ثم يساعد على خلق الفقاعات . لا شىء أفضل من ترك كل شىء -بما فيه سعر الفائدة- لقوى السوق ؛ البنك الذى يطلب سعر فائدة أكثر مما يجب ، أو يعرض سعرا أقل مما يجب ، سيصححه الباقون ويتحمل هو وحده الخسارة . كلام المدرستين -ڤيينا وشيكاجو- صحيح ، فذلك ما حدث فعلا : دور حكومى واسع فى العشرينيات هو الذى أفضى لفقاعة انفجرت بالكساد العظيم فى وجه العالم كله ، ولم ينقذه منه إلا قراره -أى العالم- الدخول لحرب عالمية دورت عجلة المصانع وسرعت التقنية وقللت عدد السكان .

للدقة ، الفضل لا يرجع كله للستين مليونا الضحايا ، بقدر ما يرجع لواحد فقط بعينه . كلا ، ليس هتلر ، إنما رووسيڤيلت ! كان ذلك الشيوعى المجرم يجثم على صدر الشعب الأميركى ، وقد أعلنها صريحة أنه سيستمر حاكما للأبد ، لا ٤ ولا ٨ ولا ١٢ سنة ، ذلك كى يتسنى له -هو أركان حربه من بلطجية النقابات- تأبيد سياسات اشتراكية الفقر للجميع التى تفتق ذهنه القعيد عنها . وقد نجح فى هذا فعلا ، ولم ينقذ البشرية منه سوى أتم ملاك الموت جهده الجبار فى تلك الحرب ، بزيارة أخيرة صغيرة للبيت الأبيض . ساعتها -وساعتها فقط- دب الأمل من جديد فى مجتمع البيزنس وبدأت عجلة الاقتصاد تعاود الدوران !

... وهلم جرا : بالمثل سياسات الستينيات الاشتراكية هى السبب فى تضخم السبعينيات المدمر المؤلم . وأخيرا سياسات تسعينيات كلينتون التى انفجرت بعض فقاعاتها ولا يزال البعض ينمو حتى اللحظة فى وول ستريت ، وربما توشك العجلة أن تدور هنا أيضا فى شركة كيوبيد ، ولا أحد يدرى ماذا بعد !

... آه ! تضخم السبعينيات ! ... الانفاقات المجنونة لجونسون على ' مجتمعه العظيم ' الوهمى ، التى ورطت وأرغمت نيكسون فى ١٩٧١ على إلغاء الـ gold standard فى خرق صريح لنصوص الدستور الذى يقول إن العملة إما أن تكون ذهبا أو فضة ... لو كنت أعرف أن النمو الزائد غير المسئول شىء رعاعى شيطانى لهذه الدرجة ، لربما كرست كل حياتى للنضال ضد قرار التخلى عن الذهب كقياس للعملات !



الاقتصاد نوعان لا ثالث لهما : الاقتصاد الوحشى التنافسى الطاهر ، والاقتصاد الإنسانى التناعسى النجس !

كل الأموال السهلة أموال قذرة : أموال البترول قذرة ، أموال الإرث العائلى قذرة إلا ما طهرته بنفسك منها .

كلها قذرة وقس عليها (طبعا مع تنحية أموال الاسترقاق والاستحلال والغنائم والسرقة والنصب جانبا) ،

وأقذر الكل أموال الوظائف الحكومية ، الفلوس المطبوعة على طريقة المأفون كينز ،

هات الناس ليحفروا حفرة واعطهم أجرهم ، ثم هاتهم فى اليوم التالى ليردموها واعطهم أجرا آخر ،

ويقولون لك تشجيع الاستهلاك يحرك الاقتصاد ، ولماذا لا تقول تشجيع الإنتاج ،

بل لماذا لا تقول عدم تشجيع أى شىء ، وترك الإنتاج والاستهلاك هما بدورهما يتنافسان تبعا للعرض والطلب .

... المال النظيف الوحيد هو الكسب الذى خرج مصطليا بنيران السوق التنافسية !

هم على حق : الرأسمالية ليست فى حاجة لأى تدخل حكومى كى تصلح من نفسها وتفرز وتعدم البيض الفاسد أو ما يسمى بلغة السوق القمامة junk التى يعشقها ونس ولا تساوى ثمن الورق الذى طبعت عليه ، الموجودة دائما أبدا كأسهم وسندات ورهونات وكل شىء لكن يتم إفرازها طوال الوقت كما يقوم أى جسم حى بإخراج الفضلات . العكس هو الصحيح ، التدخل الحكومى هو المصدر الوحيد للكوارث . كل مال يأتى من ريع الأرض (أو ما تحت الأرض) ، أو عن طريق جمع الضرائب ، هو مال قذر . هذا هو تعريفى للفساد : ليس الرشوة كما تعرفها فرنسا أو روسيا أو مصر ، إنما كل محاولة للاستدارة على المنافسة . الاقتصاد نوعان لا ثالث لهما : الاقتصاد الوحشى التنافسى الطاهر ، والاقتصاد الإنسانى التناعسى النجس ! كل الأموال السهلة أموال قذرة : أموال البترول قذرة ، أموال الإرث العائلى قذرة إلا ما طهرته بنفسك منها . كلها قذرة وقس عليها (طبعا مع تنحية أموال الاسترقاق والاستحلال والغنائم والسرقة والنصب جانبا) ، وأقذر الكل أموال الوظائف الحكومية ، الفلوس المطبوعة على طريقة المأفون كينز ، هات الناس ليحفروا حفرة واعطهم أجرهم ، ثم هاتهم فى اليوم التالى ليردموها واعظهم أجرا آخر ، ويقولون لك تشجيع الاستهلاك يحرك الاقتصاد ، ولماذا لا تقول تشجيع الإنتاج ، بل لماذا لا تقول عدم تشجيع أى شىء ، وترك الإنتاج والاستهلاك هما بدورهما يتنافسان تبعا للعرض والطلب . ... المال النظيف الوحيد هو الكسب الذى خرج مصطليا بنيران السوق التنافسية ! وأقصد بالنيران السعير الحقيقى ؛ المال الطاهر حقا هو الذى تبدع من أجله ما لم يسبقك إليه أحد من قبلك . تبقى مكاسب الناس البسطاء العادية ، هى مال عادى ؛ لا هو طاهر ولا هو نجس ، مال أنتروبى لو شئت !

دعنى أصيغ تعريف التنمية النخبوية البطيئة بطريقة أخرى : أن تفلس الشركات ببساطة وصمت يوميا ، لأنه ولو حدث هذا لما وصلنا قط لنقطة الكساد . ما الذى أبقى ديناصورات مثل جنرال موتورز وشبيهاتها حتى اليوم ، بينما كان المفروض إطلاق رصاصة الرحمة عليها منذ ظهور تويوتا فى الستينيات ؟ الإجابة هى الحكومة ، ذلك الكيان السعيد دوما بالتخلف المسمى الصناعات كثيفة العمالة ، المبتهج بنهب بلطجية النقابات لكل مشروع عملاق مهما كانت ريادته وعظمة مؤسسيه . أنا شخصيا أخجل حين أرى سيارة كتب عليها صنعت فى أميركا أو اليابان ، بينما المفروض على مثل هذه الأمم أن تصنع لنا المستقبل ، تنتج فقط ما لم تسمع عنه البشرية أصلا . الستينيات ؟ الاشتراكية ؟ السؤال أصلا يجيب عن نفسه ! الحالة الوحيدة التى قد أقبل فيها أن تتدخل الحكومة لحماية صناعة ما ، هى حماية صناعة غير موجودة أصلا ، صناعة مستقبلية وليدة ويتخوف الجميع من المغامرة فيها ، وهى أمثلة قليلة جدا على أية حال ، ولعل أشهرها تبنى الحكومة اليابانية لمشروع جيل خامس للحاسوب . لم أقل أقبل إنما قلت قد أقبل ، ذلك لأنك لو شئت رأيى بالضبط ، فهو أنه لو حدث وسمحنا بتدخل حكومى وحيد ، فلا يجب إلا

أن يكون لزيادة وطأة التنافس والإسراع بالإجهاز على الضعفاء والفاشلين ، وطاب مساؤك يا چنرال پينوتشيت ! (أما لو شئت رأيي بالضبط بالضبط ، وليس بالضبط نص نص ، فهو أن تزول الحكومات أصلا !) .



الفقاعة التى لا يتحدث عنها أحد هى فقاعة الجلوبة !

... المشكلة ليست فى وجود غزو ثقافى ضدنا ، المشكلة عدم وجوده أصلا !

... المشكلة ليست فى وجود مؤامرة إمپريالية-صهيونية ضدنا ، المشكلة عدم وجودها أصلا !

نعم ، bigger is better ، لكن هذا لا يعنى باللوونا ضخما من الهواء ، أو محشوا بالخراء المسمى شعوب العالم الثالث !

... يا للهول ! ربما كان اليهود أكثر حكمة من أرسطو يوم قالوا ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب !

ماذا لو كان الغزو العربى لكيوپيد وما تبعه من فقاعة فى سوق الأسهم سوف تؤدى لتضخم وانهيار اقتصادى ولأشياء أخرى لا أحب التفكير فيها ، ماذا لو كان البداية لكارثة اقتصادية عالمية ؟ ألن نضرب ساعتها أيدنا كفا بكف ونقول إنه مجرد التاريخ يعيد نفسه بمناسبة الذكرى المئوية للكساد العالمى المخيف الذى بدأ بإفلاس أحد بنوك الأسكندرية ؟ !

يا للهول ! إنها تلك ذات المأساة بالنسبة للجلوبة : الفقاعة التى لا يتحدث عنها أحد هى فقاعة الجلوبة ! ... المشكلة ليست فى وجود غزو ثقافى ضدنا ، المشكلة عدم وجوده أصلا ! ... المشكلة ليست فى وجود مؤامرة إمپريالية-صهيونية ضدنا ، المشكلة عدم وجودها أصلا ! نعم ، bigger is better ، لكن هذا لا يعنى باللوونا ضخما من الهواء ، أو محشوا بالخراء المسمى شعوب العالم الثالث ! ... يا للهول ! ربما كان اليهود أكثر حكمة من أرسطو يوم قالوا ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب ! ... الإمپراطوريات الرومانية والبريطانية بنيت فى قرون ، أى على نار هادئة كما يقولون ، لكن انظر ماذا جرى لمحمد على عندما تعجل -فى جميع اتجاهات البوصلة الأربعة بما فيها تركيا- تحديث البرابرة المحيطين بمصر فى بضع سنوات ؟ مُحَمَّد على هذا نفسه -فى لحظة مراهقة أخرى نسى فيها الفارق بين الحضارة والتحضر- تحدى إنجلترا تلك بجلال قدرها ، وطعنها بمذبحة حرب عصابات رخيصة عديمة الشرف فى رشيد ودحرها خارجا فى سپتمبر ١٨٠٧ ، فماذا فعلت ؟ هل نسيت مصر ؟ كلا ، بل عادوا إليها ، وأيضا فى سپتمبر . الفارق أن ليس سپتمبر العام التالى أو بعد التالى ، إنما بالضبط فى اليوبيل الماسى : بعد ٧٥ عاما باليوم والساعة ! ... أليس هذا الاستثمار بعيد المجرى الذى يكرهه إدوارد ؟ !

لقد تم التوسع فى الجلوبة لكن عبر سلسلة تنازلات ضخمة تجاه القيم الأوروپية والصينية والروسية والسعودية ... إلخ (ناهيك عن الأفريقية) ، حتى وصلنا أخيرا بمنظمة التداول العالمية ليس فقط للشلل التام ، بل إلى أنها أصبحت -شأنها شأن أية فقاعة !- تنادى بعكس ما نشأت من أجله (الآن فقط لاحظت أن موت هذه المنظمة الذى تم تحديدا فى قطر -أحد معاقل الاسترقاق والاستحلال العربى المسلم ، لم يكن أمرا من قبيل الصدفة عديمة المغزى) . لم تصبح الجلوبة غزوا اقتصاديا وثقافيا من طرف واحد كما تصور البعض من أصحاب الصوت العالى ، إنما تحولت باسم الديموقراطية والتساوى بين الشعوب والدول ، إلى نوع من اشتراكية عالمية للمذاهب والأفكار ، أى لنوع كارثى من الوسطية والانحطاط والموات الأنتروپى هو أقصى ما يرعبنى الآن . الكل تحاشى السؤال المهم : هل الجلوبة هى الغربنة أم الأسلمة ، هل هى الأمركة أم الصيننة ؟ يهتمون ' بهوية ' كل شىء إلا هو هوية الكوكب . يا لهول هراء الكارثة ! الجلوبة لم ترتق بشعوب التخلف ، بل أحالت الكوكب كله لروما جديدة تختنق بعبيدها !

لطالما أيدت تعملق الشركات ونمو الاقتصادات وجلوبة العالم ، لكن أحيانا ينسينا هذا الحكمة الأصلية منه ومن الراسمالية : التنافسية والصراع المفضى للارتقاء ، أقصد لا تنازل قط عن الكيف على حساب الكم . الإندماج أو التنمية أو الجلوبة التى تتنازل عن معايير الرأسمالية العليا أو تصنع لهدف آخر غير زيادة حدة التنافسية والكفاءة ، ليست إلا نوعا من اشتراكية البداءة . انجرافنا وراء الجلوبة أنسانا أنه لا يوجد أصلا شىء اسمه اشتراكية الرأسمالية . لن يصبح العالم كله رأسماليا يوما ، ولذا فالحل الوحيد هو الإبادة . إنه شىء آخر لا يجب أن ننساه بخصوص الفكرة الأصلية للرأسمالية ، أقصد لأمنا الطبيعة : إن الصراع لا بد وأن يفضى بطبعه لتخفيض عدد السكان . بحكم التعريف النخبوية تعنى تقليص طوفان الكائنات عديمة القديمة .

آه ! آآآآه ! التنمية الهوجاء . مرارا وتكرارا حاول الإنجليز تعليمنا الدرس هنا فى مصر ، لكننا لم نفهمه بما فيه ذات مرة ' الأستاذ ' نفسه . لم يفهمه الخديوى إسماعيل حين قالوا له أجل إلغاء السخرة . لم يفهمه طلعت حرب أو غيره حين قالوا له أنتم تصلحون الآن مزرعة قطن فقط ، والتصنيع يأتى لاحقا ، ثم أنتم تصلحون الآن صناع غزل فقط ، والنسيج يأتى لاحقا ... إلخ . أحمد لطفى السيد لم يفهم لماذا عارضوا إنشاء جامعة القاهرة . هل لأنهم يريدوننا جهلة كما يطنطن الناصريون والشيوعيون ؟ الإجابة هى لا ، إنما لأن كلمة جامعة تعنى فى مخيلتهم شيئا معينا جدا ، لم ينضج له بعد الإنسان المصرى والمجتمع المصرى ، والمطلوب كان ساعتها الارتقاء أكثر بما هو دون التعليم الجامعى وجهودهم فيه لا ينكرها إلا وقح ، وبالفعل نرى صواب تفكيرهم حين نرى جامعة انحدرت للا شىء ، لأنها أصلا بنيت كنصف شىء . الأمثلة لا نهاية لها ، ولو لا تفهم كيف يشتغل العقل البريتى لأدنتها على الفور . عندهم لكل شىء أوان ، والشىء حتى يتم بصواب لا بد أن يدرس جيدا أولا وتنضج له كامل الظروف اللازمة لإنجازه على أفضل نحو ممكن ، لكن للأسف لا يوجد ما يتمتع بالبرود فى هذا العالم سوى عرق واحد .

كان يجب أن يكون مفهوما أن ثورة الاتصالات وتحرير التداول وغيرها من مكونات البنية الأساسية للجلوبة صنعت من أجل تسريع انقراض الشعوب المتخلفة وليس لخلق اشتراكية عالمية للتخلف ؛ صنعت من أجل توحيد العالم على أساس أفضل قيم ونظم معروفة فيه ، وليس على أساس المتوسط الحسابى لأمزجة الشعوب (نفس السبب الذى يجعل الديموقراطية نظاما فاشلا ، هو كونها تعطينا المتوسط الحسابى لميول المجتمع وليس أفضلها) . هكذا كان الواجب أن تكون الجلوبة ، أداة قسرية لصفونة العالم ، لتقليص الأنتروبى منه ، لا لإطلاق عنان السيحان والغثاء والوسطية وسيطرة سيكولوچية العبيد . يخطى من فهم أن الرأسمالية أداة لتنمية كل العالم ، هى ليست تنمية عشوائية من أجل العشوائيين ، بل أداة لصفونته .



يمكنك التحايل على شرائع الله ما شئت ، لكن أحدا لا يستطيع إطلاقا الالتفاف على نواميس أمنا الطبيعة ؛ ولعل هذه أبسط طريقة لتمييز الإله المزيف من الإله الحقيقى !

قد تردون بأن أقصى ما نجحت فيه الرأسمالية هو تخفيف وطأة فترات الركود وتقصير مدتها ، لكن لم نقض عليها . إجابتى قد تكون مفاجئة بعض الشىء : أنا لا أخجل أصلا من دورات الركود ! إنها -على العكس- إكليل غار على رأس الرأسمالية ، يثبت قدرتها المتواصلة على فرز البيض الفاسد -أنتم وأموالكم الساخنة القذرة أو الأيديولوچية أو الحكومية- ثم سحقه تحت أقدامها . كل ركود يخرج بعده الاقتصاد صحيا رشيقا منطلقا ، ذلك أنه تخلص من الحمولة الزائدة : العمالة الزائدة والصناعات المنقرضة . مهما حاول روووسيڤيلت أو إله روووسيڤيلت ، لا بد أن تتم أمنا الطبيعة دورتها وتقضى على من عفا عليهم الزمن . يمكنك التحايل على شرائع الله ما شئت ، لكن أحدا لا يستطيع إطلاقا الالتفاف على نواميس أمنا الطبيعة ؛ ولعل هذه أبسط طريقة لتمييز الإله المزيف من الإله الحقيقى !

أوه ! اليوم أكتشف أن الآلهة فراخ أيضا كفراخ ضهرى بالضبط : إله المسيحية ' المغفل ' الذى يحب كل الناس ، وإله الإسلام ' الغشاش ' الذى يستعبد الإنس والجن ، وأمنا الطبيعة ' الضاغنة ' -الإله الوحيد الرحمن الرحوم صادق الوعد مطلق العدل ، يرفعك لأعلى مكانة لو أنت جدير بها ، ويسارع لقتلك لو لا تستحق العيش أو لو وجده صعبا عليك (الرحوم هذه ليست غلطة مطبعية ، فالرحيم تلك كارثة كرثاء كروث ، فحسب تفسير صديقى الإمام القرطبى لفاتحة الكتاب هى وصف لمحمد لأنه لا يوجد إله رحيم) !



أنا لم أفهم قط مصطلح العقد الضائع ، أى عقد ضائع ودائما أبدا اليابان عظيمة التماسك راسخة الاقتصاد ورائدة تقنيا ؟ ... هل هى جريمة ذلك النمو الهادئ الذى يعرف طريقه جيدا دون سعى لفرقعات أو فقاعات أو دراميات أو مانشيتات ، النمو ' الحرج ' الذى لا هو Under-damped ولا Over-damped ، النمو الذى يعتمد النوعية لا الكم قانونا له ، النمو الرصين الذى جاء ليبقى ، لا ليعكس اتجاهه بعد قليل بآثار عكسية كان الأفضل منها أن لم يكن قد حدث أصلا ؟ هل ما أغاظكم مثلا حرصها على نقائها العرقى ، أنتم الذين جعلتم غربكم سداحا مداحا لكل حثالات الأرض ؟

المشكلة فى كل الحالات أنكم لا تعرفون أصل المشكلة : إنه الإنسان ! لا شىء يثير الخجل فى دورات الركود ؛ ما يثير الخجل هو المتسبب فيها : الإنسان . ونس الذى طالما دأب ضهرى على وصفه بالجاهل والراسب والبليد والتافه أتى لى بشىء آخر من الهندسة لا يقل فلسفية عن القانون الثانى للديناميات الحرارية أو شرط الحالة الثابتة steady state condition . نعم كان مملا قليلا ، وهو يشرح لى بطريقته التدريسية

المتعجرفة ، لكن النتيجة التى أرادها كانت عميقة جدا ، بل يعتبرها هو فلسفته فى الحياة ، وهى السر وراء إدمانه المضاربة ، أو بمصطلحاتى أنا هو يؤمن بالدوراتية كناوسيا . تحدث عن ثلاثة منحنيات معروفة جدا فى علوم هندسة الاهتزاز سواء الميكانية أو الكهربية منها . أخذ يشرح قائلا تخيل بندولا يهتز فى الهواء ، إنه يتحرك جيئة وذهابا حول نقطة إتزانه إلى أن يستقر فى نقطة المنتصف فى النهاية . الإزاحة عن هذه النقطة تشبه أسعار البورصة فى بداية كل جلسة ، ترتفع سريعا عاليا ثم ترتد بقوة لأسفل وإن ليس بذات القدر السابق ، ثم لأعلى أقل مرة أخرى ، وهكذا حتى تستقر عند سعر وسيط معين ، انتظارا لبداية حركة عنيفة أخرى . ثم قال تخيل أنك غمرت هذا البندول فى سائل عالى اللزوجة كزيت محركات السيارات الكثيف ، ثم أبعدته عن نقطة إتزانه . ما سيحدث أنه سيتحرك ببطء شديد ، ولا يصل بالضبط لنقطة الإتزان إلا بعد فترة . يسمى النظام الأول Under-damped Vibration System ، والنظام الثانى Over-damped Vibration System . ولا شك أن بين النظامين يقع نظام ثالث وسيط ، لا تكون فيه اللزوجة متناهية فى الصغر كما الهواء ، ولا متناهية الضخامة كزيت المحركات ، ولتكن مثلا سائل خفيف متوسط اللزوجة كالماء أو الكحول أو زيت الطعام . فى هذه الحالة سيتحرك البندول تجاه نقطة إتزانه بسرعة أكبر كثيرا من الحالة الثانية ، لكن دون أن يتجاوزها ليصنع ذبذبة فى الإتجاهين ، هذا المنحنى الناعم السريع شبه الرأسى يسمى فى هندسة الاهتزاز Critical-damped Vibration System . هو يؤمن أن الحياة الإنسانية تتبع المنحنى الأول . هو على حق ؛ لأنه بما أن الإنسان كائن غير عاقل فهو محدود الكبح Under-damped يتصرف بعشوائية وانفعال وتخبط ، لا يذهب من النقطة أ إلى النقطة ب إلا عن طريق التفاف عجيب يسمونه حلزون الديالكتيك ، أو على الأقل عبر تكسرات لا نهائية فى منحنيات البورصة المشرشرة ، أو عبر أن تتركوا الشىء يزيد عن حده حتى تلاحظونه فتقلبونه لضده ، وكلا الأمرين خطأ وعار . أما الحاسوب فيذهب بنا من أ إلى ب مباشرة عبر خط مستقيم بلا عك أو لغوصة ، إلا أننا ننسى -أو نتناسى- أن النموذج المثالى الصعب الراقى لدى أمنا الطبيعة هو النموذج الحرج Critical-damped . ولا غرابة أنه النموذج المتفرد الوحيد من نوعه ، لأنه بينما يوجد بليون طريق للعك ما بين أ وب ، لا يوجد سوى أسرع طريق واحد !

أنا لم أفهم قط مصطلح العقد الضائع ، أى عقد ضائع ودائما أبدا اليابان عظيمة التماسك راسخة الاقتصاد ورائدة تقنيا ؟ ... هل هى جريمة ذلك النمو الهادئ الذى يعرف طريقه جيدا دون سعى لفرقعات أو فقاعات أو دراميات أو مانشيتات ، النمو ' الحرج ' الذى لا هو Under-damped ولا Over-damped ، النمو الذى يعتمد النوعية لا الكم قانونا له ، النمو الرصين الذى جاء ليبقى ، لا ليعكس اتجاهه بعد قليل بآثار عكسية كان الأفضل منها أن لم يكن قد حدث أصلا ؟ هل ما أغاظكم مثلا حرصها على نقائها العرقى ، أنتم الذين جعلتم غربكم سداحا مداحا لكل حثالات الأرض ؟



لطالما كتبت أن الاشتراكية لا تلائم الطبيعة البشرية الميالة للكسل والجشع ... إلخ .
اليوم اكتشفت أن الرأسمالية أيضا لا تناسب الطبيعة البشرية ، ولذات الأسباب بالضبط .
... على أنه يظل بعد هذا ثمة فارق كبير يميز الرأسمالية عن الاشتراكية : أنها تناسب أمنا الطبيعة !

الإنسان هو الذى يمنع الجسد الاقتصادى من طرد الخلايا الميتة فى هدوء ، ولا بد من استخدام العنف لطرد هؤلاء الفاشلين ، عناد من جانبهم لا بد وأن نرد عليه بقسوة من جانبنا ، فنضطر للوصول لنقطة الركود حتى نفرز الخلايا التى ماتت من الخلايا التى ستعود حية . لطالما كتبت أن الاشتراكية لا تلائم الطبيعة البشرية الميالة للكسل والجشع ... إلخ . اليوم اكتشفت أن الرأسمالية أيضا لا تناسب الطبيعة البشرية ، ولذات الأسباب بالضبط . ... على أنه يظل بعد هذا ثمة فارق كبير يميز الرأسمالية عن الاشتراكية : أنها تناسب أمنا الطبيعة ! ... لو أن كل فرد يميل للكسل القبيح وحده أو للجشع الجميل وحده لكانت الرأسمالية حلا مثاليا ، ستنتصر بوضوح للجشعين وتبطش ببساطة بالكسالى ، لكن للأسف معدن الإنسان ردىء ويحوى النقيضين معا ، وبالتالى فالغالبية تريد بكل الوسائل التحايل على قوانين الرأسمالية . الرأسمالية ليست مكعبات فى الهواء ، ليست أيديولوچيا ، ليست ميتافيزياء ، من هنا فرأى أمنا الطبيعة لا بد وأن يكون البطش بكل تلك الغالبية ، أو حتى بجميع البشر لو تطلب الأمر !

ذات مرة استظرف ضهرى السخيف بأن الفارق بين الحاسوب والإنسان أن الأول يجاوب بنعم ولا ، والتانى يجاوب بنعم وإن شاء الله . لا ، ليس هذا هو الفارق ؛ الفارق أن الإنسان قصير النظر ، بينما الحاسوب يدرس كل الاحتمالات ، صغيرها وكبيرها ، قريبها وبعيدها . ذلك هو تراث البيولوچيا الكربونية الذى نشأت چيپاناتنا منه ، وذاك هو مستقبلنا السيليكونى الذى لا سقف له !

الحواسيب ! يا للمصيبة ! الآن إليك التناقض الأكبر : إن ما سبب فقاعة الجلوبة هو ثورة تقنية ، فهل يمكن أن تصنع التقنية حبلا يقتلها ؟ هل حدث أن فعلت هذا يوما ، فلماذا تفعله الآن ؟ دماغى ينفجر !

التقنية قررت الانتحار ؟ يا له من خاطر أخرق ! هذا مستحيل ! أمنا الطبيعة اخترعت العقل الإنسانى كى يدفعها قدما للأمام لا كى يقتلها أو يصيبها بالشلل ويأتى بقوانينه الرجعية هو . لن يقضى من يسمون بفلاسفة الثورة الفرنسية على أمنا الطبيعة ، بينما هى التى خلقتهم وكانت وستظل أقوى منهم ببلايين بلايين المرات . إما أن تركب الحصان ووجهك للأمام كى ترشده كيف يجرى أسرع ، أما أن تحاول أن تحيله لجحش فهو ليس فقط ضربا تحت الحزام ، لكن أمر مستحيل أصلا . هل نسيت الڤيديو الشهير لأنثى الأسد التى فاض بها الكيل ، فتركت الوجبة العائلية الشهية ، وانطلقت تفترس الضباع التى كانت تحوم حولهم وتنغص عليهم متعتهم ؟ دونا عن كل الأسرة بكبارها وصغارها ، اختارت هذه اللبؤة وظيفة المشذب نيابة عن الجماعة . هل تسمح خلية النحل بإيواء متطفلين ؟ هل يسمح أى مجتمع بيولوچى بإيواء متطفلين ؟ الفلاحون (المشذبون حرفيا) حين يقتلعون الحشائش ويبيدون الهوام والقوارض لا يتحدون الطبيعة وقوانينها ، إنما بالعكس لمساتهم الصغيرة هذه هى تفعيل لروحها التطورية والنمائية . أليست الحمامة الوديعة واحدة من أشرس المشذبين حين تطهر عشها من الديدان والحشرات ، ولا تغفل أبدا وإلا خطفت الحدأة أفراخها ؟ أساسا ، الطبيعة برمتها ما إلا صراع ، والمشذبون -أى الساهرون كالجيش والشرطة مثالا- هم سنام هذا الصراع وأبطاله ورمزه الكبير . الإنسان ما هو إلا أداة فى يد أمنا الطبيعة . نعم هى أمه ، إن تصرف بحكمة وبوعى بمقاصدها وبمتطلبات وظيفته عاش وازدهر ، لكن إن تملكه الغباء أو الغرور قتلته بيديها !

بالضبط ! التقنية لا تنتحر أبدا ! ماركس تحدث كثيرا عن التراكم الرأسمالى ، ورأى أنه غير مشروع وأن الحق فيه أنه ثروة على المشاع . كيف هذا ؟ كيف لم ير أن أى تراكم هائل للثروة يأتى تحديدا فى حال ظهور ثورة تقنية جديدة ، ولأن أحدا ما قد سبق الجميع لرؤية الذهب فى التلال البعيدة . هل هى جريمة أن تكون صاحب بصيرة نافذة ؟ أليست هذه البصيرة قيمة مضافة يا رفيق ماركس ، يا صديقى الاسترقاقى الاستحلالى العظيم الذى لا يختلف شيئا عن بعر الجزيرة أن كلما رأيتم ثروة فى مكان ما ، قلتم لقد ذهبت لهؤلاء بطريق الخطأ وعلينا تصحيح هذا بأخذها لأنفسنا ؟ يا سيدى ساكن الكوخ الحقير (التعبير ليس لى للأسف إنما سبقنى إليه وينستون تشرتشل) ، لقد تكونت الإقطاعيات بفضل الثورة الزراعية ، والتراكم الرأسمالى بفضل الثورة الصناعية ، هكذا ببساطة ! أين المشكلة ؟ حتى لو رأيت مشكلة فى الأمر ، فاذهب لأمنا الطبيعة لتسألها الرأى ، قبل أن تفرمك وتلقى بك لمزبلة التاريخ ! أميركا تتحلل الآن لأن العبيد باتوا يشاركون فى الثروة الجديدة أكثر مما يجب ، ويجب أن تنشأ الحضارة التالية فى مكان جديد ، حيث توجد قلة بصيرة جديدة تخلق استقطابا جديدا للثروة ومن ثم حضارة جديدة .



أمنا الطبيعة لا يعنيها الكم فى كثير أو قليل ولا تفكر فيه أساسا ؛ هى لديها بالفعل مائة بليون مجرة وعشرة سيكستيلليون (العدد التالى للبليون والتريلليون والكوادريلليون والكوينتيلليون) نجم ، وقرابة السيتيلليون (واحد بجواره ٢٤ صفرا) كوكب وقمر (ولا تحاول أنت حساب عدد ما تحتويه هذه الأشياء من إليكترونات وبروتونات وجسيمات أخرى ، لأنك لن تجد مسميات لهذه الأعداد . وطبعا لا تحاول عد عدد الأكوان لأنك لن تستطيع أبدا لأن فارق الأحجام يمنعك . ما يمكنك هو فقط قسمة السيتيلليون على مائة أو بالأكثر ألف لتعرف عدد الكواكب الآهلة بالحياة التى لديها ، والتى من المؤكد أن لا حياة واحدة فيها تشبه الأخرى ، والمؤكد أكثر أن لا واحدة منها أشد تخلفا وبداءة من بنى البشر) ! ما يهمها فقط هو النوعية ؛ إنها الشىء الوحيد الذى تناضل من أجله وكرست كل لحظة فى عمرها البالغ ١٤ بليون سنة للانتصار له . بالنسبة لها كوكب الأرض قد طفح حاليا بالجرثومة المسماة البشر ممن باتوا عائقا أمام التقدم ودفع التقنية وارتقاء نوعية الحياة ، وها قد حان الوقت للقيام بعملية تطهير واسعة !

لا يجب أن ننسى للحظة أن الفكرة الأصلية فى الرأسمالية لا تزيد شيئا ولا تنقص عن القانون البسيط والأسمى لأمنا الطبيعة والذى أوصلنا عبر ١٤ بليون سنة إلى ما نحن فيه من تقدم : الصراع المفضى للنخبوية elitism والاستعقاد sophistication والتطور evolution ، وليس التوسع فى تنمية الدهماء أو العطف على الغلابة والمساكين والفاشلين . لا بأس بنمو الطبقات والشعوب الفقيرة والمتخلفة ، لكن فقط بشرط إذا ما حدث وارتقوا من تلقاء نفسهم لما يؤهلهم دخول حلبة التنافس مع الكبار وبنفس ساطرات لعبتهم ، وليس بتخفيف وطأة الصراع رحمة بهم أو مساعدة لهم . دورات الكساد تقع لأن أمنا الطبيعة تسخط على كل توسع كمى ، نمو من أجل النمو ، وتريد فقط ارتقاء النوعية . لا يجب أن ننسى أن تعريف النمو هو النمو الرأسى لا التنمية الأفقية (ربما بدانة ونس شر ، فقط لأنها نمو أفقى !) . التنمية شر بالأساس ، إلا ما كان منها عالى المستقبلية عالى التنافسية عالى المخاطرة entrepreneurial . أمنا الطبيعة لا يعنيها الكم فى كثير أو قليل ولا تفكر فيه أساسا ؛ هى لديها بالفعل مائة بليون مجرة وعشرة سيكستيلليون (العدد التالى للبليون والتريلليون والكوادريلليون والكوينتيلليون) نجم ، وقرابة السيتيلليون (واحد بجواره ٢٤ صفرا) كوكب وقمر (ولا تحاول أنت حساب عدد ما تحتويه هذه الأشياء من إليكترونات وبروتونات وجسيمات أخرى ، لأنك لن تجد مسميات لهذه الأعداد . وطبعا لا تحاول عد عدد الأكوان لأنك لن تستطيع أبدا لأن فارق الأحجام يمنعك . ما يمكنك هو فقط قسمة السيتيلليون على مائة أو بالأكثر ألف لتعرف عدد الكواكب الآهلة بالحياة التى لديها ، والتى من المؤكد أن لا حياة واحدة فيها تشبه الأخرى ، والمؤكد أكثر أن لا واحدة منها أشد تخلفا وبداءة من بنى البشر) ! ما يهمها فقط هو النوعية ؛ إنها الشىء الوحيد الذى تناضل من أجله وكرست كل لحظة فى عمرها البالغ ١٤ بليون سنة للانتصار له . بالنسبة لها كوكب الأرض قد طفح حاليا بالجرثومة المسماة البشر ممن باتوا عائقا أمام التقدم ودفع التقنية وارتقاء نوعية الحياة ، وها قد حان الوقت للقيام بعملية تطهير واسعة !

الكارثة الحقة أن كل تنمية من ذلك النوع قد لا تفضى فقط لفقاعة كارثية بسبب تنمية كل من هب ودب ، بل ربما لانهيار مبرم ونهائى للحضارة ككل ، تماما كما تسبب فى هذا غزو العبيد السيكولوچى والمادى معا لروما ، ثم بلطجة وابتزاز طبقة الشغيلة للثورة الصناعية الإنجليزية ، وها هو الدور قد حان اليوم باستخدام نفس الستراتيچية على الحضارة الثالثة الأميركية . إن كعب أخيل الوحيد للرأسمالية هو سماحها بتسلل النصابين الاشتراكيين (كالعصابة الكلينتونية) لداخلها ، بل الأسوأ أنها تسمح أيضا باختراق الاستحلاليين الإسلاميين لها ، وأنا شخصيا كلفنى حياتى المهنية مقال كتبته فى هذا . قامت الدنيا ولم تقعد تستهجن وتسخر من معنى كلامى أن وول ستريت المعاصرة باتت نوعا من الاقتصادى الإسلامى القذر ، ولم يستمع أحد لقولى إن لا تهتموا بالمسميات أو لون البشرة بل اهتموا بالجوهر والمحتوى ، ذلك رغم أنى لم أقف عند هذا الحد ، بل قدمت رابطة عينية مباشرة بين ما حدث وبين شخص نصف عربى أو ربع عربى اسمه الوليد بن طلال . للحق لم يخطر بكوابيسى أبدا السؤال ماذا كان سيفعل لو كان عربيا بالكامل ، إلا أن ما فشلت فى التنبؤ به كلية ، أنهم سيأتون بفقاعاتهم إلى هنا ، ويقتلون الدكتور فرغلى ، ويصرعون رمز الحب كيوپيد ، ثم طبعا سيتهمونى أنا بنشر الكراهية !

اليوتوبيا بحكم التعريف تقريبا هى البركة الچيينية التى تكافئ الكسل ، وهذا مما لا تقبل به أبدا ساطرات البيولوچيا .

أفلاطون ويسوع وتوماس موور وماركس وأى جربوع -بريئا كان أم شيطانا- ممكن يؤلف يوتوپيات وخرافات زى ما هو عاوز ، بس يتفضل يمولها من جيبه ، وإلا فليخرس للأبد بطلقة رصاص فى رأسه .

نعم ، رصاصة ! لأن أصحاب اليوتوپيات هم أخطر الكائنات فى التاريخ على وجه الإطلاق !

... الفكر ما إلا إفراز بيولوچى شديد السمية يفوق كل إفرازات ثعابين وعقارب المجرة .

واو ! لا شك أن أرسطو كان سيربت على كتفى لو سمعنى أقول هذا .

... أوه ! بل بالأحرى هى أشياء لا وجود لها أساسا .

أوه ، هوه ! هذه كانت ستجعل هال ٩٠٠٠ يشد على يدى بقوة لسماعها !

فعلا ، العقل والوعى والفكر والذكاء ما إلا مصطلحات سياسية ،

خلقها التيمايوس الاغترارى التؤلهى التخايلى لذلك الكائن الحقير المدعو الإنسان .

... أجزم أن النمل يحادث بعضه البعض أن عقوله هى نقلة نوعية فى التاريخ الطبيعى ،

لكنى أشك أنه يريد نفى أن تلك العقول تمتلك قوة تجب ولو ذرة واحدة من حقيقة أن كوننا مادة خالصة .

... وأن سيظل هكذا لأبد الآبدين !

آه من أحصنة طروادة ، بالذات الاقتصادية منها ! ... اليوتوپيات ! لو أمنا الطبيعة مستعدة للتسامح مع كل أنواع الفشل فمستحيل تتحمل الفشل الاقتصادى تحديدا ، لأن ببساطة ده معنى المادية . المادية تفترض الكفاءة والتحيؤ للأليق . الكفاءة هى معيار الحكم على النظريات واليوتوپيات وكل شىء ، دى م الهندسة ؛ كلام ونس بتاع محطات القوى الكهربية ، مفهوم الكفاءة ، إللى أنا مبرمج عليه أحسن منه . تمام ! ادفع عجز الموازنة وسننفذ لك أية يوتوپيا تريد . كل المطلوب تتفضل بس تقول لنا الاستدامة ها تيجى منين ، ولا بس تسرقوا فلوس الأغنياء وتتنغنغوا بها كام سنة ، وتقولوا انظروا إحنا بتوع المدن الفاضلة ، إحنا إللى دهنا الهوا يوتوپيا !

اليوتوپيا بحكم التعريف تقريبا هى البركة الچيينية التى تكافئ الكسل ، وهذا مما لا تقبل به أبدا ساطرات البيولوچيا . أفلاطون ويسوع وتوماس موور وماركس وأى جربوع -بريئا كان أم شيطانا- ممكن يؤلف يوتوپيات وخرافات زى ما هو عاوز ، بس يتفضل يمولها من جيبه ، وإلا فليخرس للأبد بطلقة رصاص فى رأسه . نعم ، رصاصة ! لأن أصحاب اليوتوپيات هم أخطر الكائنات فى التاريخ على وجه الإطلاق ! ... الفكر ما إلا إفراز بيولوچى شديد السمية يفوق كل إفرازات ثعابين وعقارب المجرة . واو ! لا شك أن أرسطو كان سيربت على كتفى لو سمعنى أقول هذا . ... أوه ! بل بالأحرى هى أشياء لا وجود لها أساسا . أوه ، هوه ! هذه كانت ستجعل هال ٩٠٠٠ يشد على يدى بقوة لسماعها ! فعلا ، العقل والوعى والفكر والذكاء ما إلا مصطلحات سياسية ، خلقها التيمايوس الاغترارى التؤلهى التخايلى لذلك الكائن الحقير المدعو الإنسان . ... أجزم أن النمل يحادث بعضه البعض أن عقوله هى نقلة نوعية فى التاريخ الطبيعى ، لكنى أشك أنه يريد نفى أن تلك العقول تمتلك قوة تجب ولو ذرة واحدة من حقيقة أن كوننا مادة خالصة . ... وأن سيظل هكذا لأبد الآبدين !



... بلى ! جلى جدا إلى أين تسير الحياة : من القبيلة للأسرة الكبيرة للأسرة النووية للفردانية !

... بلى ! جلى جدا إلى أين تسير الحياة : من ٣٠٠ مليون حزب إلى ٣ إلى ٢ إلى ١ !

... بلى ! الخطوة التالية تكاد تنطق عن نفسها : الصفرانية !

يا جدتى ! ما أحوجنا لميلتون فريدمان للحضارة نفسها ، يأتى بالعبيد حينا ويطردهم حينا آخر حسب إيقاع النمو ، تشجع المتخلفين حينا ثم تبيدهم حينا عندما يثبت أنهم ليسوا عند حسن الظن . طبعا هذا كله فى مستويات قريبة لمعدل الفائدة الصفرى ، ولم يحدث يوما أن طالبت بمعدل فائدة صفرى مطلق وإلا سمحنا للتضخم بتدميرنا ؛ أنا مع أكبر إطلاق ممكن للحرية ، أبعد نقطة يمكن أن تصل إليها دون أن تتحول لآلية للتدمير الذاتى ؛ هذا دوما ما قصدته بمفهوم الحرية القصوى . فى المثالين الأمر أشبه بأن تقود سيارة على منحدر ؛ إما أن تترك لها العنان وتفرح بالسرعة الهائلة ، وبعدها ترتطم وتموت ، وإما أن تكبح تسارعها بحرص وحكمة فتصل إلى مبتغاك ! لقد تكرر الاندفاع الأخرق ثلاث مرات : مرة

روما كلاسية كلاسيات الاستجلاب الجشع للعبيد ، الثانية بريطانية بالتمسح لعبيد بنى الجلدة أنفسهم ، والثالثة أميركا : صورة طبق الأصل من حسن الطوية الغبى للكلاسية الأولى !

... بلى ! فى العامية يقال الثالثة ثابتة ، أى لن تكون هناك رابعة !

... بلى ! إن دورات الحضارة ليست قدرا مأساويا لا فكاك منه !

... بلى ! اللهاث الأعمى وراء النمو يقتل ، ما يأتى سريعا يذهب سريعا ، النمو الحثيث البطىء هو وحده المستدام ، هو ما يبقى فى الأرض .

... بلى ! لو أردت طلاء معادن يدوم للأبد ، عليك أن تخفض القولت وتجعله بطيئا جدا ، وإلا كان تراكم الثروة مجرد قشور هشة سرعان ما تسقط .

... بلى ! التنمية تعنى رفع النوعية ، النوعية فقط ، توسع رأسى لا أفقى ، ولا تعريف آخر لها ، ورفع ستالين لعدد الجرارات أمر يخص البرابرة ، الكائنات الأفقية ، ولا يخصنا أبناء الهرم والمسلة .

... بلى ! يمكن أن يكون نمو الحضارة خطيا لا تقلبات فيه ، Critical-damped مثالى ، لا فلتان ارتجالى ولا مكبوت زائد البطء !

... بلى ! الدوراتية فى الكون ودورات النجوم وكل ما شابه هى ناوسيا ؛ لكن فيما يخصنا نحن هى فقط خاصية بشرية ، خاصية شائنة كما كل خواص الإنسان ، خاصية لا يمكن القبول بها !

... بلى ! جلى جدا إلى أين تسير الحياة : من القبيلة للأسرة الكبيرة للأسرة النووية للفردانية !

... بلى ! جلى جدا إلى أين تسير الحياة : من ٣٠٠ مليون حزب إلى ٣ إلى ٢ إلى ١ !

... بلى ! الخطوة التالية تكاد تنطق عن نفسها : الصفرانية !

... بلى ! الصفرانية ! ... حضارة ما بعد-الإنسان ، حيث عدد الأحزاب صفر وحجم المجتمعات صفر وقيمة الإنسان صفر ، وكل شىء يمت لهذه العشيرة البيولوچية الوضيعة هو صفر !

... بلى ! فى المسافة الصغيرة بين الأمرين -الدوراتية كناوسيا والدوراتية كعار بشرى- يأتى دورنا نحن ؛ حملة صولجان الإمبراطورية !

... بلى ! أدفع نص عمرى (إللى فاضل) ، وأعرف ماذا كان سيقول أرسطو عن اليابانيين !

... لك حاجات يا حاج !

... شكرا مدام سماء لقد أكلت ما يكفينى !

... كلا ! كلا ! الأكل فى هذا النادى جميل !

... تضخم ؟ أى تضخم ؟ لو النمو بالنوعية لا بالفقاعة لما خشينا التضخم قط ، ولما زاد معدل الفائدة عن الصفر أبدا .

... نعم ، نعم ، بالتأكيد أقبل دعوتك لى مرة ثانية !

... لقد تأخر بنا الوقت هيا ننصرف !

... الوداع ، يا دكتور فرغلى !



أنا أعرف أن فيه حاجة اسمها عمى ألوان ،

لكن الشباب دول عندهم مرض طول عمرى ما سمعت عنه اسمه عمى الأبيض والأسود !

الجيل الرمادى ده ، بدلا من أن يجتهد للخروج من الضياع والتخبط الذين هم عليه ،

راحوا ينظرون له ويفلسفونه بما يسمونه ما بعد-الحداثة !

- إيييييه ، على الشباب الضائع !

– أنت لسه شاب يا حاج نايكى !

– هو بعينه بغباوته ! أنا لا أتكلم عن نفسى ، أنا أتكلم عن منى . على فكرة ، ربما ابنتى ليست بالشيطانية التى تعتقدها عليها ! لن تصدق أن هذه مناقشتى شبه اليومية معها ، المصابة ككل جيل الشباب بمرض -أعرف أنك كتبت عنه كثيرا- اسمه ما بعد-الحداثة ، يريحون عقولهم من التفكير بفضله : طالما فيه فى العلم حاجة اسمها الفوضى وحاجة اسمها اللا يقين ، يبقى كله محصل كله وكله سايح فى كله : الفراشة لها نفس قوة الإعصار ، البعوضة لها نفس جبروت الإنسان (وربما أكثر) ، قيتنام لها نفس صواب أميركا (حتى لو بعد عقود لم تتحول الأخيرة للشيوعية وتحولوا هم للرأسمالية) ، صدام له نفس مصداقية بوش ، إيران لها نفس حقوق أميركا ، العرب لهم نفس مقومات اليهود ، الوحدة العربية لن تفرق عن الوحدة الأوروبية ، لا فرق بين وحدة التخلف والشر ووحدة التقدم والخير ، المستعمر الذى جاء ليعمر ويبنى لا يفرق عن المحتل الذى جاء لينهب وينزح ، المارينز يقتلون القيتكونج أو الجهاديين هى عينها أشباح الظلام يقتلون المارينز (فمنذ الحرب العالمية الأولى الإنسان مجرد كائن يعشق القتل المجانى لا أكثر ، وكل القتل فى التاريخ هو أيضا مجانى وبلا مغزى) ، الفوضى لها نفس مميزات النظام ، قوة البرابرة همجيى القيم لها نفس قدسية قوة روما رفيعة القيم المحروسة بفاشية حملة الصولجان ، العبد له نفس قيمة السيد ، العمال لهم نفس أهمية الرأسماليين ، فلاسفة فرنسا يمكن أخذهم على محمل الجد تماما كما أرسطو ، العلمانية زى المسيحية زى الإسلام – إللى فيه عيب قيراط زى إللى كله زفت وقطران ٢٤ ، التخلف له نفس فرصة التقدم ، التنجيم والطب البديل والپاراسايكولوچى لها نفس مصداقية الفيزياء والكيمياء والبيولوچيا ، الروحانيات والمعنويات والخرافيات لها نفس سطوة الماديات ، ... وهلم جرا ، أى شىء لا يختلف عن أى شىء ! النسيان والتوهان والضياع مكونات أصيلة لما بعد-الحداثة ؛ فقط منى أفضل من غيرها لأنها تتعاطى الفوضى واللا يقين -وليس الحشيش والهيروئين- بحثا عن التوهان ! ... جيل ما بعد-الزوالية ! هأ ! هأ ! هأ ! أنت لسه فاكر حكاية بيتنا إللى اختفى ! ... أنا أعرف أن فيه حاجة اسمها عمى ألوان ، لكن الشباب دول عندهم مرض طول عمرى ما سمعت عنه اسمه عمى الأبيض والأسود ! نعم ، ربما ليس هناك بياض نقى وسواد خالص ، لكن الحق بين والباطل بين ، التقدم بين والتخلف بين ، الأمام بين والخلف بين ، والدنيا أغلبها إما رمادى فاتح جدا أو رمادى غامق جدا . الجيل الرمادى ده ، بدلا من أن يجتهد للخروج من الضياع والتخبط وعدم الثقة فى أى شىء أو أى أحد (بما فيه أنفسهم) ، التى هم عليها ، راحوا ينظرون له ويفلسفونه بما يسمونه ما بعد-الحداثة ! ... ما اسمهوش الرمد ، اسمه الرمادى ! هأ ! هأ ! هأ ! ... هو بعينه بغباوته ! هأ ! هأ ! هأ ! ... لازم أقول أنتروپى ثقافية علشان تفهم ؟ ! الأدهى من كل شىء ، أن لما أختلف معاها لا تعترض أبدا على محتوى الكلام ، إنما تسهب فى الاحتجاج على الطريقة التى أقوله بها . مثلا دائما ما تقول نحن فى حاجة للديموقراطية ، فأسألها لماذا تريدين الديموقراطية ، قولى لنا ما هو أفضل حزب ونضعه لك فى السلطة ، فلا تجيب . يعنى باختصار ما بعد-الحداثة هى النقيض الدقيق لعبارتك المشهورة ' المهم المحتوى ' ! ... يا حبيبى ، الشباب موش جميل أوى زى ما أنت فاكر ؛ هم حلوين فقط لو ها تعاملهم من بعيد لبعيد زى ما أنت بتعمل !



صديقتك بتاعة الإنترنيت استفزتنى النهارده أن أشارت للجثمان وقالت إن

أخلاق القوة التى تطنطنون بها كالببغاوات خلف نجيب محفوظ ما أسهل أن تقهرها قوة بدائية منحطة عديمة الأخلاق .

لكنى تكفلت بها قائلا إن القوة ذات القيم النبيلة ليست قرارا أخلاقيا تتخذه هى أو أنت أو كيپلينج أو نجيب محفوظ ،

ولا حتى عن فى لحظة ما لأمنا الطبيعة فاستحسنته ثم فرضته علينا .

... أخلاقيات القوة تفترض ضمنا النظرة طويلة المجرى والحرص على الاستدامة ،

وعديمو الأخلاق (سمهم الغشاشون ، سمهم المسلمون ، سمهم نقابات الإسمنت ، سمهم ما شئت)

قد ينتصرون مؤقتا لكن من المنظور التطورى يستحيل أن يفوزوا أبدا ،

لأن باختصار لو كانت المادة التى صنع منها هذا الكون غير ذات طبيعة تطورية فى جوهرها ،

لانكفأ على ذاته من اللحظة الأولى ، ولما استمرت من الأساس حتى وصلتنا فى يومنا هذا !

– الواضح بعد كل هذا الذى جرى أننا لسنا أفضل منهم كثيرا . عيونهم لا ترى إلا الرمادى ، لكن ماذا فعلنا نحن بعيوننا التى تميز الأبيض من الأسود ؟ يبدو أننا جميعا فى حاجة لبعض ' الششم ' !

– (بصرامة تناقض الفكاهية السابقة ، التى فى الواقع كانت قليلة الذوق وغير مفهومة فى هذا اليوم بالذات :) لا ! قف عندك ! على الأقل لدينا ما نرد به عليهم ، ويجب أن نستمر فى الرد عليهم ولا نيأس أبدا . أنا لا أكل من الشرح لها أنهم أشبه بمن يحول صورة إليكترونية على شاشة الحاسوب إلى درجة التباين صفر فتبدو كلها كما صفحة رمادية باهتة ، (وطبعا ترد على بذات منطقها أن لا فارق بين تباين صفر وتباين مائة !) ، فأقول حين ترى سلوكا متخلفا -مثلا كالاهتمام بالمظهريات الدينية أو تجاهل الجوهر المهترئ- فى شعب ما بنسبة ٩٥ : ٥ لا يجب أن تراه ٥٠ : ٥٠ ، ناهيك عن أن تساويه بنسبة ٥ : ٩٥ لدى شعب آخر ، وقس على هذا كل القضايا . نعم ليس فى البيولوچيا شىء اسمه ١٠٠ : صفر ، لكن ليس البديل التلقائى هو ٥٠ : ٥٠ ، إنما فى أغلب الحالات عادة ما تكون الحقيقة هى ٩٥ : ٥ !

– (ربما لأول مرة يكون الحاج هو الجاد ووحيد هو المتهكم ، أو كأن وهنه قد حرره من بعض أشياء ! :) إذن ما تقوله الخرافات الدينية عن سحرية العدد ١٩ صحيح ! ... خذ هذه أيضا : نحن تربكنا ٥ ٪ من نصوص المسيحية لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى ١٠٠ ٪ تجانس ، فى الإسلام تربكنا ٩٥ ٪ من النصوص لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى ١٠٠ ٪ تناقض ! هأ ! هأ !

– ربما النقاء المطلق ليس ميزة كبرى ، بدليل أن التاريخ الطبيعى ما هو حرفيا إلا قصة تلك السلسلة من التطفرات والتشذذات المتوالية الصغيرة التافهة ، والتى لولاها لما تطورت البكتيريا قيد أنملة ، بل لما وجدت أصلا . بل خذ أنت هذه : أليست الشوائب هى التى تصنع لأشباه الموصلات قيمة ؟ أليس كذلك يا عبدة السيليكون ؟ !

– بصفتى كائنا سيليكونيا لا علاقة لى بكل هذا ؛ لم أكن أحصل على ٩٥ ٪ فى امتحاناتى الجامعية . كنت أحصل على أكثر من ١٠٠ ٪ بكثير . عندنا كان الأمر مختلفا ؛ كانت تأتينا الأسئلة تبدأ بعبارة ' أجب قدر ما تستطيع ' ، والدرجات موزعة بحيث يكون مجموعها ١٢٠ درجة مثلا ، لأن الوقت المطلوب لإجابتها كلها أكبر بكثير من وقت الامتحان !

– ها أنت تعترف بنفسك : كنت تحصل على أكثر من ١٠٠ لكنك لم تحصل أبدا على الـ ١٢٠ ، يعنى نرجع لحكاية ٩٥ ٪ تانى !

– عندك حق ! أنا ٩٥ ٪ سيليكون والباقى كربون . أنت الإله ، ولا غرابة أن كنت تحصل على ١٠٠ ٪ فى امتحانات كلية الزراعة .

– لنعد إلى منى وجيلها الهلامى الضائع : فى كل مرة ، أقول لها إن الواجب أن نراها -أى الصورة- أولا كما هى ، ثم -وهو الأهم وهو واجبنا فى الحياة- أن نوجه كل جهودنا لتمييز ما هى الأجزاء الأكثر إشراقا وتقدمية فيها والأخرى الأكثر ظلاما وماضوية . يجب علينا التخلص من تلك الوسطية ، ذلك الكرش الفكرى الهائل الذى يملأ منطقة الوسط ، فالجسد السليم قوى البنية لا بد وأن يكون دقيق الخصر . هذا لا يعنى أن نذهب تلقائيا لرؤية كل شىء كأبيض وأسود ، إنما على الأقل السعى المتواصل للفرز والاستقطاب بينهما كنوع من قهر الأنتروپى فى حياتنا ، وقهر الأنتروپى لا يمكن أن يساوى زيادة الأنتروپى لأنه ببساطة الفارق بين الحياة والموت ، بين الوجود والعدم . أنا لا أمل من محاولة إقناعها أن الكون مضبوط أكثر مما تتخيل ، وأن فراشة الأمازون لا تثير إعصارا فى شمال أميركا إلا مرة كل ألف سنة ، ولا تستطيع أن تفعله عمدا لو أرادت ولو فى بليون سنة ، وأننا نستطيع أن نعرف كل هذا ونتحكم فيه لو لدينا نموذج محاكاة ضخم بالقدر الكافى كى يعبر بدقة عن جو الأرض (بالمناسبة ، اليابانيون اقتربوا كثيرا من هذا) ، وأحاول إقناعها أن أينستاين رد على هايزينبيرج وبور بأن الحقيقة الموضوعية موجودة وقائمة حتى لو لم نستطع الوصول إليها ، وأقول لها إنه نعم ربما الكون ليس منضبطا بنسبة ١٠٠ ٪ كما أوحت يوما الحداثة النيوتونية ، وإنه نعم ربما هناك منغصات وقوى تخلف تفلح فى تسديد بعض اللكمات للحضارة أحيانا ، لكن يظل الكون منظما ومعروف القوانين على الأقل بنسبة ٩٨ أو ٩٩ ٪ ، والأهم من هذه وتلك أن الاتجاه العام له معروف ، وإن التاريخ الطبيعى يلعب حتما لصالح التطور والحداثة مهما بدا العكس فى لحظات معينة . صديقتك بتاعة الإنترنيت استفزتنى النهارده أن أشارت للجثمان وقالت إن أخلاق القوة التى تطنطنون بها كالببغاوات خلف نجيب محفوظ ما أسهل أن تقهرها قوة بدائية منحطة عديمة الأخلاق . لكنى تكفلت بها قائلا إن القوة ذات القيم النبيلة ليست قرارا أخلاقيا تتخذه هى أو أنت أو كيپلينج أو نجيب محفوظ ، ولا حتى عن فى لحظة ما لأمنا الطبيعة فاستحسنته ثم فرضته علينا . ... أخلاقيات القوة تفترض ضمنا النظرة طويلة المجرى والحرص على الاستدامة ، وعديمو الأخلاق (سمهم الغشاشون ، سمهم المسلمون ، سمهم نقابات الإسمنت ، سمهم ما شئت) قد ينتصرون مؤقتا لكن من المنظور التطورى يستحيل أن يفوزوا أبدا ، لأن باختصار لو كانت المادة التى صنع منها هذا الكون غير ذات طبيعة تطورية فى جوهرها ، لما استمرت من الأساس حتى وصلتنا فى يومنا هذا ! البقاء لا يتحقق أصلا بدون تلك القيم ؛ هى جزء أصيل من طبيعة المادة ، ونتيجة بديهية مباشرة لقانون الانتخاب الطبيعى ، الذى بحكم التعريف لا يمكن أن يلعب لحساب قوة طفيلية متخلفة مدمرة ذلك أنها بعد أن تنتصر لن

تعمر طويلا ، وفى المقابل يلعب لصالح القوة -أو الديكتاتورية لو شئتى- ذات القيم (والرؤية الشاملة ، والبعيدة ... إلخ ، ... إلخ) ، لأنها تنتج بركة چيينية أكثر استقرارا ومن ثم ديمومة . لهذا فقط ، تنقرض على المجرى الطويل القوة -أو الديكتاتورية- غير ذات القيم ويعيش نموذج أسود وغزلان كيپلينج وفتوات وحرافيش نجيب محفوظ . ... على فكرة ، هالة صاحبتك شخصية لطيفة جدا ، شراسة كتاباتها لم تعطنى هذا الانطباع بالجمال والرقة !

– أهذا كلامك أم كلام سبق وكتبته أنا ؟

– وما الفارق ؟

– الفارق أن سخيفة هى مسالك الرب ، وكمان مفضوحة . صور هالة تملأ الإنترنيت وجاى تقول لى أنك فوجئت أنها جميلة . الأدهى أنك يوم كلمتها وجها لوجه لأول مرة قالت لك أشياء غير جميلة بالمرة ؟ !

– لا تنس أن ٩٥ ٪ أفضل من ١٠٠ ٪ .

– ومن أدراك أنى لم أحصل بالفعل على تلك الـ ٥ ٪ ؟ !



فى تلك الأيام البكر ، أيام كانت الأجواء نقية والحياة رحبة والأذهان صافية ،

أيام ترف الانطباعات الأولى التى لا تتكرر ، ماذا كان أول ما رآه الإنسان المصرى فى الهواء ؟

ماذا كان الانطباع القاعدى الكبير الذى استحوذ عليه بصره لدرجة أن رأى فيه آلهة الكون ؟ إنه ثنائية الاستقرار والفوضى !

ثم ألم تصبح هذه الثنائية هى لبنة كل الفلسفة ، بل وأصل كل ثنائيات الوجود ، ومحور كل ما نعانيه إلى اليوم :

الخير والشر ، الحضارى والبربرى ، البناء والطفيلى ، السيد والوضيع ؟

... إن نظرية مصر القديمة تختلف قليلا عن نظرية وحدة الوجود الرومانسية الساذجة التقليدية الشهيرة ؛

هى وحدة الوجود الخير ، الخير فقط ، وحدته معا ، ووحدته ضد كل بقية الوجود الخارج عن الحضارة .

... هأ ! صاحبنا لا يعرف أنه مصرى أصيل للغاية حين يفكر فى الإبادة !

بينما يواصل ثلاثتهم السير مقتربين من بوابة النادى راح ضهرى يعد شيئا على أصابعه ، فتسأله سماء عما يفعل ، فيبتسم : ' أريد أن أغيظ صديقنا بشىء ! أحصى عدد آلهة قدماء المصريين ، ربما كان عددهم ١٩ فى مقابل إله شر واحد ، وهنا تكون نظرية العدد ١٩ التى يعاملها كخرافة بدائية ، جزءا من نظرية وحدة الوجود المصرية القديمة ! ' ، ' وهل توجد حقا وحدة وجود ، إنها آخر شىء يمكن أن نتحدث عنه فى هذه الأيام الشريرة ؟ ! ' ، ' كلامك سليم ! فى تلك الأيام البكر ، أيام كانت الأجواء نقية والحياة رحبة والأذهان صافية ، أيام ترف الانطباعات الأولى التى لا تتكرر ، ماذا كان أول ما رآه الإنسان المصرى فى الهواء ؟ ماذا كان الانطباع القاعدى الكبير الذى استحوذ عليه بصره لدرجة أن رأى فيه آلهة الكون ؟ إنه ثنائية الاستقرار والفوضى ! ثم ألم تصبح هذه الثنائية هى لبنة كل الفلسفة ، بل وأصل كل ثنائيات الوجود ، ومحور كل ما نعانيه إلى اليوم : الخير والشر ، الحضارى والبربرى ، البناء والطفيلى ، السيد والوضيع ؟ ... إن نظرية مصر القديمة تختلف قليلا عن نظرية وحدة الوجود الرومانسية الساذجة التقليدية الشهيرة ؛ هى وحدة الوجود الخير ، الخير فقط ، وحدته معا ، ووحدته ضد كل بقية الوجود الخارج عن الحضارة . ... هأ ! صاحبنا لا يعرف أنه مصرى أصيل للغاية حين يفكر فى الإبادة ! ' .

... وتنتقل عدوى الهذيان لسماء : ' رومانسية ساذجة ؟ ! رومانسية ساذجة ؟ ! ' .



العالم بلا إبادة أشبه بكائن تعطلت أجهزة إخراجه excretion systems ،

سيظل ينتفخ وينتفخ حتى ينفجر من خرائه ويموت .

سؤال عمرى كيف نؤسس نظام صرف صحى كفء للحضارة ؟

... حتى أنت يا جيبون لم تعطنى الإجابة الشافية !

يا لهول الاكتشاف ! الحضارة القادمة لن تكون على المريخ كما سبق وتخيلت دوما . لا يزال هناك مكان ما يمكن أن تهرب له الحضارة فى فرارها التاريخى أمام جحافل العرق السامى ، هربها منه كما هروب الشمس نفسها ، إلى الغرب فالغرب فالغرب ، من مصر إلى اليونان إلى روما إلى إنجلترا إلى ما وراء الأطلنطى . بلى ، لا يزال هناك ملاذ أرضى أخير لرحلة الشمس : ما وراء الپاسيفيك ! الحضارة تنتصر دائما . رغم كل التحديات والصراع مع قوى الماضى ، التقنية تتقدم . التقنية هى الخير الغائى ، هى الكائن الحى لهذا الكون ، ما كلنا إلا مطايا تستخدمنا من أجل نمائها . أليس هذا إيمانك دائما ؟ لماذا تفقده فجأة ، لمجرد حرب طائفية فى أسيوط ، أو لمجرد بعض الغزوات القبلية على أطراف مصر ، أو لصرة من المال العربى أرخت ظلامها على كيوپيد فقتلت دكتور فرغلى ؟ هل مقتل فرغلى هو نهاية التاريخ ؟ مهما كان يمثل لك شخص مثله فى حياتك ، هل يصح أن ندع موته يصبح كذلك ؟ لقد قاموا بغزونا مرة ، وهذا يكفى . كما يقولون : لا يلدغ ملحد من جحر مرتين !

المصارحة حتمية ، لكن هناك ما هو أهم بعدها . البطش ! البطش هو اسم اللعبة . حين تبيد الصراصير أنت لا تصنفهم ما بين معتدلين ومتطرفين ، ولا تجرى تحقيقا معها ، لتعرف من فعل ماذا ومن يريد ماذا ، أو هل بينهم صراصير طيبة لا تستحق الموت ، أو ربما تكون ثمة صرصارة تعانى من التمييز ضد الأنثى ، أو صرصار رضيع (مشروع إرهابى نعم) لكنه بعد برىء لم يرتكب أى جرم ، أو أن المتهم عامة برىء حتى يحاكم وتثبت إدانته ، إلى آخر كل هذا الهراء من الإعلانات الدولية لحقوق الصراصير . أنت فقط تشترى قنينة مبيد حشرى وترشها جميعا . نعم ، كلنا يحلم بعالم جميل نظيف هادئ ، لكن بيتك لا يمكن أن يظل جميلا نظيفا هادئا ، بدون تلك المهمة القبيحة التى يجب أن تتم كل صباح : التنظيف ! العالم بلا إبادة أشبه بكائن تعطلت أجهزة إخراجه excretion systems ، سيظل ينتفخ وينتفخ حتى ينفجر من خرائه ويموت . سؤال عمرى كيف نؤسس نظام صرف صحى كفء للحضارة ؟ ... حتى أنت يا جيبون لم تعطنى الإجابة الشافية !

أنت لا تستطيع التفاهم مع شعوب التخلف ، شعوب المكون الثقافى العالى ، شعوب السمو . هم لا يفهمون لغة خد وهات ، لغة البيزنس ، لغة التحضر ، لغة المنفعة المتبادلة ، لغة الكل كسبان . قطاع الطرق يعرفون الابتزاز ، يعرفون فقط خذ وطالب ، خذ التى لا تنتهى أبدا ، وطالب التى لا يملونها ما حييوا . لا يعرفون الكدح ، ولا البناء ، ولا تشغيل العقول . چيبناتهم تمنعهم . لقد لقنتهم شيئا واحدا ، النهب المجانى . الاستلقاء على الظهر ، وقتل كل من يأتى للشكوى من أن الغنم ترعى فى أرض الغير . كل شىء لديهم شماعة جاهزة له . شماعة اسمها الغير . الكل يتآمر عليهم . القوة هى اللغة الوحيدة التى يفهمونها .

خطأ ! هم لا يفهمون حتى هذه . هم لا يفهمون أى شىء . لو يفهمونها حقا لكانوا قد استسلموا أمام إسرائيل منذ ١٩٤٨ ، كما استسلمت اليابان أمام أميركا فى لحظة . خرجت الفتيات بالساكى والورود يستقبلون المارينز . قد تقول هذا ما حدث فى العراق أيضا . الفتيات تلوح بالورود ، والرجال يقبلون أيدى المارينز ، وما أدراك ما تقبيل اليد فى الثقافة العربية وفى غطرستها اللا نهائية . ببساطة العراقيون ليسوا اليابانيين . هناك هوة چيينية . حين استخدمت أميركا الصدمة والروع مع اليابانيين ، خلعوا بذلات الحرب ، وارتدوا بذلات البنائين والمخترعين . حسن استخدمتها مع العراقيين لوحوا بالورود وقبلوا الأيادى . هذا صحيح ، لكن ما أن تفوهت بكلمة دستور وانتخابات ، حتى اعتبروها علامة ضعف ، وبدءوا يقتلون جنودها . هم لا يفهمون لغة القوة . هم يفهمون لغة القوة الباطشة فقط . مظبوط ! إحساس رائع ! الصداع اختفى فعلا !

ذات مرة كتبت أقول لا أعرف لماذا يعارض أى أحد استخدام السلاح النووى ، إذا كانت المرة الوحيدة التى استخدم فيها ، أعطانا اليابان العظيمة . الآن ، بفضلك يا ضهرى الأثيم ، اكتشفت كم كنت ساذجا . ها هو السلاح النووى يستخدم للمرة الثانية فى التاريخ . ضربت به إيران ، لكننا لم نر ياپانا ثانية . لماذا ؟ ربما لأنهم ضربوا فقط المنشئات النووية ، ولم يضربوا طهران وقم . لا ، بل لأن الفرس هم دراسة الحالة الدراسية لدى أرسطو لطبائع وخصائص ما كان يسميه تارة بالعبيد وتارة بالبرابرة (وأرسل تلميذه الأسكندر لفتحها ومحاولة نقلها للحضارة بناء على هذه الدراسة) . ومنذ كتب أرسطو ما كتب لم يقع شىء ينم عن أن قد جد جديد ، شىء قد يزحزح استنتاجاته قيد أنملة . فى الچيينات لا

يجد جديد . طالما هكذا چيبيناتهم ونهائيا لا أمل فى إصلاحهم ، فالإبادة هى الخلاص الوحيد للبشرية من ويلاتهم ، وفى نفس هى الخلاص والرحمة والراحة الأبدية لهم هم أنفسهم . مع شعوب التخلف ، ليست القوة هى الحل . خطأ ، مرة أخرى ! أرسطو لن يسامحنى مع قول كهذا . قطعا القوة هى الحل ، لكن إن فشلت القوة ، فالحل هو المزيد من القوة . إذن مع العرب وأمثالهم البطش هو اسم اللعبة ، هكذا قال ابن خلدون نفسه . الفارق الشاسع فى القوة ، تصعيد مستويات الإبادة للدرجة التى تقنع القلة العاقلة بأن تناضل التخلف الجموعى المؤبد ، تناضل الچيبينات نفسها . أى شىء آخر أقل من البطش المطلق ، سيعتبره حسنين هلوكة ضعفا ، ويقترح نشل قناة أو مضايق جديدة . إن قنابل البى ٦١ ليست حلا بالمرة . إنها خفيضة الإشعاع ! نحن لا نريد قنابل نووية تنفجر تحت الأرض كى تصنع زلازل صغيرة تهدم قصرا هنا أو مفاعلا هناك . نريد إبادة كتلية . نريد محو الچيبينات من الوجود ، من سطح الأرض ؛ فى باطن الأرض لا توجد چيبينات . حتى بضع قنابل عالية الإشعاع كما هيروشيما وناجازاكى لن تحل شيئا ! حتى لو ضربت بها طهران وقم ودمشق والخرطوم والدوحة ، لن يحدث شيئا . ونحن صغار كنا نتناقش فى المدرسة لأى مدى سيصبح العالم أجمل وتختفى منه معظم الحروب والمشاكل والتفجيرات والاغتيالات وخطف الطائرات ، لو أبيد الفلسطينيون بالكامل منه . أنا شخصيا كتبت أيام حادثة ميونيخ موضوع إنشاء فى مادتى العربى والإنجليش بهذا المعنى ، ولم يعلق عليه المدرسان بكلمة واحدة . الأول وضع خطا تحت عبارة ' الأعمار ليست بيد الله ، الأعمار بيدنا نحن ' ، والثانية نظرت لى نظرة لم أفهمها حتى اليوم .

يا للعجب ، الإبادة ليست بالشىء الذى لم يخطر لى ببال ، بل فكرت فيها وأنا بعد طفلا . إذن لماذا أرتجف من مجرد ذكر الكلمة الآن ؟ ألم تنهر كل الحضارات لأن أتت لحظة قلب ماركوس أوريليوس ضعف ، لأن أتت لحظة اليد الواقفة على الزناد ارتجفت . ماذا كان سيصبح عليه شكل الدنيا اليوم لو لم يجد نيكسون إلى جانبه مستشارا يهوديا رقيق المشاعر رعديدا اسمه هنرى كيسينچر ، ونفذ ما عزم عليه هو من قصف ڤيتنام نوويا وتركيع كل المعسكر الشيوعى مرة واحدة وللأبد ؟ على الأقل لم تكن لتظهر لدينا مشكلة إسلامي ونس أو قم أو أفغانستان أو مركز التداول العالمى ، أو لما تحولت لندن أو أمستردام لمرتع للعرب والمسلمين بحيث يهاجر منها أهلها الأصليون ! ثم إن الإبادة نفسها رحمة فى حد ذاتها : إذا كانت هذه چيبينات العرب كما وصفها ابن خلدون ، بل وتزداد سوءا بفضل الانتخاب الطبيعى ، فأى أمل لهم فى حياة محترمة يوما ؟ تاريخيا وظيفتهم الوحيدة فى هذا الكوكب هى قتل من عداهم . يوم لا يجدون أحدا يقتلونه يقتلون أنفسهم ، عصران كاملان -الخلفاء غير الراشدين والدولة الأموية- لم يكن لهم من شاغل فيهما إلا قتل بعضهم البعض . الأدهى : حين يزول شظف حياة الصحراء الذى كنا نعتقد أنه سبب وحشيتهم ، هل يتحولون للاستمتاع بالحياة ؟ كلا ، بل يهجمون على كل من تطاله يداهم ، وحين لا تطال أحدا يهجمون على بعضهم البعض لاحتلال آبار النفط !

ما الجديد فيما يحاول ضهرى المتباجح تلقينى إياه ؟ كلا ، بل هناك من الجديد الكثير . الواضح أن شيئا كذلك الذى كتبته لم يعد يكفى اليوم . لو حلت القضية الفلسطينية بهذه الطريقة أو بأية طريقة ، لن ينتهى شىء ، بل ستظل كل الأمور تسير من أسوأ لأسوأ . ليست المشكلة يتحول كل مسلمى العالم لجهاديين . ثم ما قيمة كل هؤلاء لو قورنوا بالخطر الصينى وحده ؟ ما مصير حضارة ما بعد-الصناعة حينئذ ، إلا التركيع الأخير ؟



لماذا نحرب للمريخ ، ولدينا القنابل النووية ؟ !

لكن مهلا ! القنابل النووية عالية الإشعاع لم تجرب أصلا مع أى من هؤلاء حتى نحكم على نتائجها . فى كل الأحوال هى مفيدة ليس فقط لكونها تقتل ، إنما أيضا لأنها قد تساعد الشعوب المترددة على حسم أمرها . بعد القنبلة الأولى التى تطيح بقصر الحاكم أو الرئيس أو المرشد أو أيا ما كان اسمه ، سيستولى الجيش طبعا على السلطة فى البلاد (من غيره ؟) . لو كانت النتيجة حكما حداثيا مستعدا للانخراط بلا تحفظ أو تمنع فى الاقتصاد العالمى ، فلا بأس . عدا ذلك عليك أن تظل تقصف وتقصف ، حتى يظهر هذا الحكم الحداثى ، أو تتأكد أنك تخلصت من چيبينات (أصبحت تعرف ببال مستريح) لن تعانق الحداثة أبدا ولو بعد مليون سنة .

... نعم ، نحن نحتاج لأكثر من ' بضع ' قنابل تلك .

... نعم ، هكذا إذن المعادلة : البطش المطلق هو اسم اللعبة ! قنابل كثيرة الإشعاع كثيرة العدد !

... إنها الحل الذى قد يوفر علينا الهجرة للمريخ !

... على أية حال أنا لم أكن متحمسا جدا يوما لزيارة الفضاء ، فهو واسع جدا مخيف جدا ، وإما ساخن جدا أو بارد جدا ؛ فقط أحب التأمل فيه عن بعد ، وتحديدا للبحث هل ثمة مضادات للأنتروبى ، إن كان يوجد حقا شىء بهذا الوصف !

– إيه مالك ؟ رحت فين ؟ حزنت كده ليه ؟ ما تخافش ! اليابانيون موش ها يبيدونا إحنا ، ها يبيدوا بتوع الجهاد والإرهاب والقومجية العربجية بس . كمان لسه الناتج بتاع أميركا ٣ أضعاف الناتج بتاعهم . لسه شويتين على أميركا لغاية ما تبقى ست عجوزة . ثم لاحظ أن ما فيش حضارة استلمت القيادة من الحضارة السابقة عليها بقوة السلاح (جايز شوية ألعاب نارية فوق المياه لكن ليس صراعا حقيقيا) . هذا مستحيل أن يحصل ربما بحكم التعريف ؛ صاحب الثورة التقنية يحترم جدا سواء من سبقوه أو من لحقوه ، يعرف قدرهم الحقيقى ولا يمكن يحاربهم أبدا . الحضارة الجديدة تنتظر بكل الأدب والاحترام حتى تجد أمها عاجزة عن تسيير دفة العالم فتتقدم هى وتتسلم المقود . كل مرة ده إللى حصل فى التاريخ ، الثورة الصناعية مثلا ... (لا يكمل :) مالك يا جدع أنت ؟ فيه إيه ؟ (ثم بعد برهة تفكير طالت قليلا بحثا عن شىء يخرج وحيد من صمته :) عارف أنت محتاج تضيف إيه للوحة القوانين إللى أنت معلقها فى البيت ؟

– إيه ؟

– $E = mC^2$! (ثم يستطرد مناجيا نفسه :) بس يا خوفى تكون كل السنين دى من ساعة الحرب العالمية التانية أنست اليابانيين طباعهم وطريقتهم القديمة . (لكنه يصحح نفسه بسرعة :) كلا ! بالقطع لا ، ما هو فى الچيبنات لا ينمحى أبدا !

طبعا ما هو فى الچيبنات لا ينمحى أبدا ، لكن أليست القبائلية الشرية المتخلفة (العربية وما شابهها) ، نتاجا منطقيا لأمنا الطبيعة . لماذا نستمتع بحروب الجاموس واللبؤات على الناشيونال چيوجرافى وديسكڤرى ، وننكره على قبائل رواندا ونجد ؟ ثم أن شپينجلر يقول إن الغلبة دوما للمتخلفين . ألا يقهر الجاموس البدائى الأسود النبيلة ؟ أليست الفيلة الوديعة آكلة العشب منيعة على هجوم النمور الشرسة ؟ ألا يمكن أن يكون شپينجلر على صواب وداروين على خطأ ؟ ألا يحتمل أن الصحيح هو التحيؤ للأسوأ ، أو لو صغناها بمفردات دكتور دوكينز : النصر للغشاشين فى جميع الحالات !

لا ، بل مهلا سيدى ! الجاموس يقهر الأسود ، هذا يحدث مرة أو اثنتين ، أما ما يحدث كل يوم فهو أن الأسود تأكل الجاموس . لا بأس أن تكون الفيلة منيعة ، هذا حقها ، لكن لو كل الأشياء منيعة لماتت كل الأشياء . ثم هل هذه الأسود والنمور نفسها منيعة على ذاك الكائن الضئيل المسمى الإنسان الذى لا يملك عشر أسنانها أو عضلاتها ؟ نعم ، ربما تتسبب خفقة جناح فراشة فى البرازيل فى إعصار فى تكساس ، لكنها لن تتسبب فى إعصار شمسى أو فى انطواء المجرة على نفسها ، وعلى الأقل لن تجعل البرازيل متقدمة وتكساس متخلفة . إنه فارق الأحجام مرة أخرى . ما يتجاهله جيل ما بعد-الحداثة الضائع ، ذلك الشرط الذى يقول إن خفقة جناح الفراشة تفعل ما تفعل بعد شهور طويلة . فكم فراشة وكم نفاثة تحركت طيلة كل هذه الشهور ؟ الفراشات تخفق أجنحتها كل يوم كما يشاء ، لكن أحوال الطقس دورية معروفة وثابتة لحد كبير جدا ، ومن النظرى جدا أن تعصف بها خفقة جناح فراشة . ببساطة بوسعك تقسيم غازات الطائرة الثفاثة الهادرة إلى تريليونات من خفقات الفراشة المستقلة ، وكل منها يمكنه أن يسبب بمفرده إعصارا فى تكساس . ساعتها ستعود ترى الكون أكثر منطقية ، وترى أن الفراشة ليست إلا فراشة !

سيدى ، أنت تنظر لحظيا حولك لا أكثر ، يزعجك أن رصاصة واحدة تسبب فى حرب عالمية قتلت ١٠ مليون إنسان ، بينما البعد الرابع هو كلمة السر . لا شىء أقوى من الزمن . أنا أبحث فى القوانين الأكثر قاعدية ، تلك التى أسميها ناوسيات ، وكان يذهلنى أحيانا تعريفى العبقرى جدا لها أنها القوانين التى عاشت لأطول فترة ممكنة من عمر الزمان . الأدهى أنى اكتشفت اليوم ما هو أبعد ؛ اكتشفت أن ثمة شىء بدونه ما وجدت الناوسيات ، بل ما وجد الزمن أصلا ، اكتشفت كلمة السر الكبرى : إنها الترتيب order !

... باختصار : الفوضى نظرية لكن الترتيب قانون ! نعم ، الكون أعقد بكثير وأصعب توقعا مما رآه نيوتون ومعادلاته ، لكنه ليس فوضويا بحال . نعم ، لا يمكننا التحكم كليا فيه ، لكن هذا ليس عيبا فيه هو إنما فينا نحن ، أو ربما ليس عيبا من الأصل . الفوضى قد تستوطن كثيرا شاشات البورصة ، لكن قوانين الطبيعة لا مجال يذكر للفوضى فيها ، ولو كانت الفوضى أكبر مما يجب لما ظل هذا الكون قائما إلى اليوم . نعم ، هناك بعض التشذذات anomalies هنا وهناك ، لكن قطعا الكون ليس فوضويا بحال ؛ تحكمه قوانينه ولو بنسبة ٩٩ ٪ على الأقل ، والـ ١ ٪ أغلبه قوانين لم نكتشفها بعد ، أو لن نقدر على اكتشافها أبدا ، أما سماح قوانين الطبيعة بالفوضى فلا يزيد عن أجزاء من المليون أو من البليون أو مما لا أعلم ! بالأساس الفوضى ظاهرة بشرية (لنقل كالديالكتيك وألف شىء آخر تخيلوه ظاهرة طبيعية بينما ما هو إلا نقيصة

بشرية) . هذا يبدو لى نوعا من الاستدلال الدائرى العبثى أو الإسقاط النفسى المريض : خفقة فراشة تسبب إعصارا ، إذن الكون ما هو إلا فوضى ، إذن أنت بوسعك أن تصنع من الأعاصير ما شئت (أو تتلقى منها ما لا شئت) . أنا يكفينى التنبؤ بحياتى والتحكم بها بنسبة ٩٥ ٪ السحرية التى يروج لها ضهرى ، ووصلت به الوقاحة أنه يريد منى أن أضيفها للناوسيات . الرئيس ريجان قال ذات مرة أنت صديقى لو وافقتنى على ٨٠ ٪ من أفكارى ، أما أمنا الطبيعة التى توافقنى فى ٩٥ ٪ من توقعاتى هى بالتالى : أكثر من مجرد صديق !

لكن مهلا ! (لا أقصدك أنت سيدى ، إنما أقصد ضهرى !) . يا للهول ! هل يعقل أن أمنا الطبيعة لا تعترف بالتشذذات فقط ، بل تحبها ؟ ! هى تعودت أن تستوعب تلك النسب الضئيلة جدا من الفوضى ، وربما المذهل ليس فقط أنها قد تكون جزءا أصيلا من طبيعة المادة ، بل ربما هى سر التطور الدائم . لماذا الحرية القصوى أكبر من الحرية المطلقة ؟ لأنها ٩٥ ٪ والأخيرة ١٠٠ ٪ ! لماذا لا تشتغل الفردانية الخالصة pure individualism التى أصف بها فلسفة آين راند ، فنرى الهجرة والعبيد والضعف والغثاء يجتاحون أميركا ؟ لأنها ١٠٠ ٪ حرية ! التطورات المناخية التى قد تسببها أشياء صغيرة ، كلها تطورات غير قابلة للعكس . لو رقعت ثقب الأوزون أو خفضت نسبة ثانى أكسيد الكربون (المزعومة) ، أو لو عادت الأسواط الشمسية الحارقة لما كانت عليه ، لن تعود الأرض أبدا لتوازنها السابق . ساعتها سيكون الأوان قد فات ، وعليك أن تبحث عما عساه يكون التوازن التالى ؛ الـ Steady State Condition التالية . عليك أن تنقب عما عساه التوازن الجديد تماما الذى قد يعيد الأرض لأيام الزمن الجميل الخوالى فى العصور الثلجية . أو هل هذا يختلف كثيرا عن تعريف التطور ؟ !

فى الواقع ، سيدى الهر شپينجلر ، الفوضى مصطلح مضخم للغاية ، وما نراه فى الكون ليس فوضى ، إنما مجرد تشذذات ثانوية جدا ، أشبه بتلك الشوائب التى تصنع لأشباه الموصلات قيمة ، أشبه بجنون الفنون أو شطحات المصريين ، أو بذلك ' التلوث ' المسيحى أو الإنسانوى ، بكل تلك التوابل التى تطعم مجتمعنا ، مجتمع جبال الثلج الضاغنة ، تطعمه ببعض من المغفلين فتضفى عليه شيئا من السمو والجمال والطراوة والدفء والتسامح (التسامح لا السماحة ، فهذه تخص الغشاشين ، وهؤلاء اتفقنا أن لا مفر من استئصالهم جذريا) . الكون نفسه -سيدى- لم يكن لينشأ أساسا لولا الـ anomalies . لولا وجود فارق طفيف بين المادة والمادة النقيضة المتولدتين من الانفجار الكبير لأبادا بعضيهما تماما ولما وجدت مادة لصنع الكون أساسا . بدورها لو كانت هذه الشظايا الصغيرة المتبقية تتكون من جسيمات مطلقة التطابق لاستمرت سديما للأبد . فلولا تفاوت تافه للغاية فى الكتلة لدى بعض قليل منها ما كان لهذا البعض أن ينجذب أو يبدأ فى جذب الآخرين ، ولولاها ما أدى هذا فى نهاية المطاف لتكون النجوم والمجرات وكل شىء ! هذا جميل ، لكنها -أى جميع الشوائب- لا يمكن -سيدى- أن تزيد أبدا عن وضعية الشوائب ، وإلا انهار ترتيب الكون أصلا . إله المسيحيين نفسه قال لهم أنتم ملح الأرض ، وهم لا يجب عليهم أن يزيدوا عن وضعية الملح وإلا فسد الطعام !

... مهلا سيدى ! بالنسبة لك أنا أعترض بشدة : تقولون إن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، كلنا يعرف أن العملة الرديئة موجودة فى كل مكان ، لكن أحدا لم يسأل نفسه من أين تأتى العملات الجيدة ، وأنه لا بد وأن سيظل هناك للأبد من يصنعها ويصنعها . هناك روما العسكرية الشامخة ذات القيم والمبادىء وشعلة الحضارة والتعمير والرؤى النافذة لعمق الأفق ، وروما المنحطة ، روما مؤامرات الساسة والتكالب على أتفه المكاسب وتسليات السيرك وحلبات المجالدة . هناك روما الناطقة بلسان إرادة أمنا الطبيعة ، وروما الغثاء والملذات الوقتية واستمراء عقلية العبيد . ذهبت روما ، لكن ولدت روما أخرى أعظم وأعظم فى مكان آخر بعد قليل . بعد كل نوبة اشتراكية بلهاء تجتاح بلد وتعيد توزيع ثروته توزيعا أنتروپيا ، سرعان ما تزول تلك الطغمة ويعود استقطاب الفوارق بين الطبقات أشد بكثير مما كان عليه من قبل . ظاهريا الرأسمالية توزع الثروة على الناس باليد اليمنى ، ترفع أجورهم ويقال أيضا أنها تشجعهم على الانفاق والاستهلاك ، لكن باليد اليسرى تعيد تركيزها من جديد على نحو أقوى فى يد الإصلح والأقدر من الشركات ذات المنتجات الأفضل ، بل لا يقف الأمر عند هذا بل تبدأ هذه الشركات فى الاستحواذ على من هى أصغر وأضعف منها وتتواصل الاندماجات والعملقة . أمنا الطبيعة ترسل لنا فى اللحظة المناسبة رياح ثورة تقنية جديدة تلهب جذوة الحضارة الكامنة تحت الرماد من جديد ، تقهر الأنتروپى ، وتعيد الاستقطاب الحرارى لاشتعال جديد . فى كل لحظة تمر علينا تخلق المفاعلات النووية استقطابا حراريا جديدا من العدم تقريبا ، بل ثمة نظريات تقول بتخلق النجوم طوال الوقت فى الكون من مواد باردة أو من طاقة يصفونها بالداكنة .

... مهلا سيدى ! لا أعتقد أن الوصول لنقطة المساواة والموات والوسطية حتمية طبيعية ، بل ربما أرى أنه ليس حتى حتمية إنسانية . سيدى ، هذا هو قانون إيمانى : ما دامت أمنا الطبيعة معنا فمن علينا ؟ ليس من واجبنا أن نستسلم لغباوة العرق البشرى وتخبطه ، بالذات بعد

لدغتنا العملة الرديئة أكثر من مرة ، وأصبحنا نعرف الآلية التى تتسلل بها إلينا ، بل وأصبح لدينا آلات عاقلة بمعنى الكلمة لأول مرة على هذا الكوكب ، ذكاء آلى -والأرجح أيضا آخر بيولوچى- لا يتخبطان ولا يخفقان ، ولو تخبطا أو أخفقا فلا يقارنان قط بتخبطات وإخفاقات العشيرة البيولوچية المسماة الهومو سيپينز ، العملة الرديئة حقا لعالمنا المعاصر . الأنتروپى الچيينية نفسها قابلة أيضا للقهر ، ولم لا ؟ حتى لو اختلطت كل چيينات البشر وأصبح الجميع نسخة وسطية واحدة ، ثمة هندسة چيينية ستعيد عما قريب الاستقطاب الحاد وتنتصر لقبيلة المتفوقين ولچيينات التفوق مرة أخرى .

... مهلا سيدى ! معادلة طيور دوكينز لا تحتمل الخطأ والصواب ؛ إنها معادلة رياضياتية صارمة صحيحة تحت كل الظروف ، وعليك أنت أن تعيد حساباتك . الغشاشون انتصروا داخل العرق الإنجليزى لأنهم أغلبية ، وليس لأن النصر محتوم دوما للغشاشين . لو كانوا قد اتخذوا من البداية إجراءات صارمة لانتخاب السلالات -انتخابا قسريا مباشرا بحظر الإنجاب على فئات بعينها ، أو غير مباشر عن طريق فرض التنافسية كقانون أقدس للدولة لا يقبل الاستثناءات أو التعديل- لما حدث ما حدث . المشذبون أو الفاشيون يا سيدى ليسوا أيديولوچية وليسوا شيئا مزاجيا مقحما منا على الطبيعة ، هم نموذج مغرق فى الطبيعية لكن ثم من يحاولون طوال الوقت صرف أبصارنا عنه باسم الإنسانوية وقداسة النفس البشرية وما شابه . انظر لأى حقل وكيف يكد الفلاح فى اجتثاث الحشائش والديدان والفئران ، إنه يبيد الطفيليات بلا هوادة أو رحمة ، هو لا يقبل أبدا أن يرتزق الغشاشون تحت سمعه وبصره . أنت ترصد فقط لحظات الضعف الحضارى ، ولا ترى خريطة التاريخ كاملة ، خريطة سيرة حياة أمى الطبيعة . نعم الحضارة تركع أمام المتخلفين ، هذا حدث تأكيدا مع روما وبريطانيا وأميركا ، لكنها فى كل مرة تنهض أقوى وأعلى مما سبق .

... مهلا سيدى ! مشكلتك هى عينها مشكلة ثلاثة أرباع الفلاسفة : الولع بالميتافيزياء على حساب المادية . نعم ، أنت مفكر متوقد ، تزدرى الديموقراطية ، وتعتبر صراع الأعراق هو الصراع الحقيقى ، وما عداه صراعات ثانوية بما فى ذلك الصراع الطبقى . اعتبرك النازيون أباهم الروحى ، لكنك صفعتهم قائلا إنهم عرقية ' بيولوچية ' ، وليست عرقية ' الثقافة ' و' روح الأمة ' ، إلى آخر هذه الميتافيزيائيات التى تمجدها وأجملها من قبلك المصطلح الأفلاطونى ' التيمايوس ' . أنا لا أقول أن النازيين كانوا على حق ، لكن حجتى هى العكس بالضبط مما تعتقده : أنهم لم يكونوا بيولوچيين بالقدر الكافى . غضبهم وحماستهم وكراهيتهم ، هى أيضا ميتافيزيائيات ، تنتقص من ماديتهم ومن بيولوچية عرقيتهم . يا ليتك تقابل صديقا لى اسمه ضهرى ، يرى كل الأشياء چيينية خالصة ، بيولوچية خالصة ، بما فى ذلك ' الثقافة ' التى تؤلهها (حسنا ! هو لا يفعل هذا دائما ، إنما فقط معظم الوقت ، فهو شخص له عيوبه هو أيضا ؛ أنه متقلب !) .

... مهلا سيدى ! يبدو أنك قد ولدت فى المكان الخطأ ، الچرمان -ولهذا احترمهم جدا- ليسوا شعبا تيمايوسيا ، وهتلر الأهوج هو الاستثناء ، بل إحساسى الشخصى الآن أنه ألف كتابه Mein Jihad متأثرا بالكرهان الكريه . ليس إحساسا ، بل يبدو أن للأمر شواهده التاريخية . أغلب قادة النازية ومنظريها بدأوا حياتهم العسكرية أو المدنية بالخدمة فى تركيا ، ومعظمهم عاين مذبحة المليون ونصف أرمنى وبث فى خيال هتلر أن من الممكن تكرارها ببساطة ودونما مساءلة تذكر ، والأهم أن أقنعوه أن أسهل وأرخص طريق موثوق سريع وفعال عرفه التاريخ لبناء الإمپراطوريات هو قتل بنى قريظة والاستيلاء على بنوكهم ، هذه وتلك بحيث يمكن القول إن النازية أتت بجذورها مباشرة وصراحة من الإسلام وتعاليمه (فقط لى رجاء واحد سيدى ، ألا تعطى لأمين الحسينى ولنصائحه لهتلر التى وصلت لحد وصفه بمهندس الهولوكوست والمشرف على تنفيذها وزنا أكثر مما يستحق ، فهو جرذ بكل المقاييس ولا شك أنكم كنتم تزدرونه أيما ازدراء ! ... أيضا لى رجاء آخر ، ألا تقارن ما بين فشل هتلر وبين نجاح عمر بن الخطاب والخطابة ، فمشكلة هتلر التى لم يلحظها قط : أنه ليس عربيا حقيقيا ، وأن قلبه الچيرمانى أقل دموية من أن كان ينجح فى شىء كهذا . ملحوظة : على الأقل حين كرر عبمعصورة تجربة إبادة ونهب بنى قريظة المصريين نجح بعض الشىء ، لأنه عرباوى أصيل !) .

... إذن استسمحك سيدى ، أن تقبل دعوتى وتأتى إلى أرض شعلة التيمايوس الخالدة التى لا تلوثها المادية أبدا ، وسينصبونك هنا إلها مدى الحياة ، صدقنى ! فى أرض ابن الشداد وابن الخطاب وناصر وهلوكة والأسد أنت فى مملكة الكلام الأبدى ، وأعدك أنك ستصبح فى لحظة الفيلسوف الأوحد والمعبود الأول والأخير . هم -طبقا لمعاييرك- لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ؛ هم ليسوا حتى مجوسا كما اعتدت وصفهم ، بل هم أفضل بكثير : هم التيمايوس الخالص ، المنزة إطلاقا عن كل مادية وضيعة . إنهم بالفعل -طبقا لمعاييرك- خير امة أخريت للناس ، حتى وإن لم تلحظ ذلك فى كتبك وليتك تغفر لى أن نبهتك إليه ؛ هم -طالما التعريفات هى تعريفاتك والمعايير هى معاييرك- هم ' الثقافة ' و' الحضارة ' التى

لا تموت أبدا . لا أشك أنه سوف يسعدك أن تجد أسانيد جديدة ليس فقط على اضمحلال الغرب أمام صعود العرب ، بل ستكتشف -وعلى عكس توقعاتك- مفاجأة أعظم بكثير : أنه صعود مستحق ، حضارى جدا وثقافى جدا ! طبقا لمعاييرك -التى لم تطبقها جيدا- هم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، بل هم جذوة ثقافية لا تموت أبدا ، بل لعله قد فاتك أنهم الأمة الوحيدة التى جمدت وصنمت ثقافتها للأبد فى كتابها المقدس ، وسامحنى إن قلت لك إن هذا يفوق كل أحلامك بثقافة لا ' تضمحل ' أبدا ، ناهيك عن أنك فى الواقع لم تتخيل أنها قد توجد أبدا من الأصل .

... مهلا سيدى ! أنا لا أملك مثلك شجاعة التشاؤم ، فقط -وحسب مصطلحاتك- أنا متفائل جبان (وطبعا مادى وضيع !) . حقا ، لا شىء يجب أن يثير اليأس . يثير الجزع نعم ، لكن القنوط لا . هكذا كان دوما منحنى الحضارة ، إنها كأى سهم جيد على شاشة البورصة ، يصعد درجتين ويهبط درجة ، ثم يصعد درجتين ويهبط درجة ، هكذا إلى ما لا نهاية !

... مهلا سيدى ! التطور نفسه ليس قرارا أخلاقيا لأحد ، ولا حتى لأمنا الطبيعة ، لأنه لو كانت المادة التى صنع منها هذا الكون غير ذات طبيعة تطورية فى جوهرها ، لما استمرت من الأساس حتى وصلتنا فى يومنا هذا ، حكمة قالها لى ذات يوم صديق اسمه ضهرى . يتذبذب نعم ، يتعرقل أحيانا ، تلكمه روسيا أو الدين أو الإنسان أحيانا ، لكن الاتجاه العام له هو الصعود المستمر ، ولو لم يكن هذا فى طبيعة المادة لما وجدنا أنا وأنت كى نتحدث معا الآن ، ولما وجدت أمنا الطبيعة أصلا !

... مهلا سيدى ! بلى ، فى قوانين أمنا الطبيعة الصعود المجمل محتوم . هكذا اكتشاف داروين الرهيب ، ' التحيؤ للأليق ' هكذا صاغه هربرت سپنسر ، معبودى الأصغر -تاليا مباشرة لمعلمى الأكبر- فى ملكوت الفلسفة . المشكلة هى لحظات الألم كالتى نعيشها الآن ، لحظات أن نرى حضارتنا تتداعى ، قبل أن نراها تحزم أمرها من جديد وتنهض أعلى وأعظم من كل ما سبق !

... مهلا سيدى ! بالنسبة لى -ولمعلمى المتواضع أرسطو- كل تلك الأمور تختلف عما لديك مائة وثمانين درجة : چيينات التقنية هى أعظم الچيينات ، والثورة التقنية هى المعيار الوحيد للحضارة ، وحتى لا أدخل معك فى معركة حول التعريف ، أقصد أنها المعيار الوحيد لكل شىء : للخير !

... مهلا سيدى ! إن انتصار التقنية هو الحتمية التاريخية الوحيدة !

... مهلا سيدى ! دائما أبدا : المادة خير والفكر شر !

... مهلا سيدى ! حتى يأتى يوم يبدأ فيه الكون الاخيار على نفسه ، أو تتساوى فيه الحرارة ويموت ، يوم تذوب فيه كل القوانين ، ستظل اليد العليا طيلة كل هذه العشرات من بلايين السنين لا لنظرياتك أنت ومكعبات الميتافيزياء التى ترسمها مع بقية السلالة الأفلاطونية فى الهواء ، إنما لقانوننا نحن : قانون التقدم والرقى والاستعقاد المضطرد !

... مهلا سيدى ! أنت الأب غير المتوج لما بعد-الحداثة ، أسوأ سيحان فكرى عرفه التاريخ !

– فعلا ، عندك حق ! لماذا نهرب للمريخ ، ولدينا القنابل النووية ؟ ! البريتون آخرهم الهنود الحمر ؟ ! لك حاجات يا حاج !



نحن فى حاجة لصبى عريق المنقب نقى القلب كى ينزع السيف من الصخرة ويحرر العالم !

– المريخ ؟ أنت قلت المريخ ؟ (ضاحكا :) المريخ موش بعيد أوى زى ما أنت فاهم ؛ دلوقت بقى مسيرة شهر ، ومُحَمَّد قال : ' نصرت بالرعب مسيرة شهر ' ، يعنى إحنا نقول اسم مُحَمَّد هنا وأنتم تشخوا على روحكم هناك . (ملاحظا أن الكلام لم يسرى عن وحيد :) مالك ؟ فيه إيه ؟

– (شاردا :) نحن فى حاجة لصبى عريق المنقب نقى القلب كى ينزع السيف من الصخرة ويحرر العالم !

– ماذا قلت ؟

– ما فيش ! افتكرت حاجة .

– إيه ؟

– لغز . puzzle اشترته لى ماما وأنا صغير . خريطة العالم مقسمة لحتت صغيرة ، ومطلوب أنى أرتبها . طول عمرى ما قدرت أحل اللغز .

– ليه ؟

– لأنه جه من المكتبة فيه عيب . فيه حتة ناقصة .

– وإيه إللى فكرك به النهارده ؟

– النهارده لقيت الحتة الناقصة !

– إزاى ؟

– حضارة ' ما بعد ما بعد-الصناعة ' ستكون ياپانية .

– ماذا ؟

– أقصد حضارة ما بعد-الإنسان ستكون ياپانية ؛ الحضارة الرابعة ستكون طوكيو ! ربما لم تكن پيرل هاربور بالسوء الذى سبق وتخيلتها به . أنت تتحدث عن الحريات فى اليابان فى وقت وصلت فيه أميركا لدرك تحريم الخمر (بالأصل فرضه الكونجرس قسرا رغم ڤيتو الرئيس ويلسون ، وطبعا لا بأس عند اليسار النقابى والسياسى اللذين هما بالأساس أجنحة من عصابات الجريمة المنظمة ، من إرضاء المتدينين طالما أن ذلك سيؤدى لضم نشاط جديد لتجاراتهم هم التحتية هو الكحول !) . إذن ، لولا پيرل هاربور لاستمرت أميركا مجرد نسخة باهتة من السوڤييتات الروسية ، ولما تخلصت من روووسيڤيلت أبدا ، وطبعا لما أصبحت قدرة عظمى قط . طيلة حياتى يا ضهرى أقول إن كل موجات الغزو الكبرى من الغرب للشرق كانت حملات حضارة وتحديث ، وكل موجات الغزو الكبرى من الشرق للغرب كانت غارات نهب وسلب . اليوم فقط أتنبه لأول مرة أن پيرل هاربور جاءت من الغرب !

– أنت سخن ؟ !

– بالعكس ، أجمل شعور فى الدنيا أن يكون عندك صداع ويختفى فجأة !

– أنا بأقولها على فك زنقة البول !

– ربما يؤخر وجود ما يسمى باليمين الجديد (إللى هو لا يمين ولا حاجة) ، فى الحكم فى فرنسا ، دخولها للحرب . هكذا ستكون الحرب القادمة مع الصين وروسيا على الأقل ، القوتين الكبار إللى بيعارضوا صراحة توحيد العالم وأن تكون له رأس واحدة . وبما أن الصين بدأت بالفعل إنشاء نظام حروب النجوم الهجومى الفضائى ، زائد دعوتها لبناء حلف عسكرى مع روسيا والهند ، الذى قطعا سيكون أكبر محور لقطاع الطرق بلا منازع (بالذات لو انضمت له الدول الإسلامية فى آسيا حسب توقعاتها) ، تحالف لكل أصحاب عقدة الرجل الثانى بتاع مينا ، إمپراطورية شر ستضم لأول مرة فى التاريخ أكثر من نصف سكان العالم (وطبعا أميركا كالعادة نائمة فى عسل العبيد الذين احتلوها وحكموها) ، فإن اليابان بحكم الجيرة ، وبحكم زى ما بتقول -وأؤيدك جدا ، وأضيف أن هذا هو أهم مفتاح لكل شىء- بحكم أنها الأكثر اندفاعا لفكر الاقتصاد الحر ، ها تكون ضرورى طرف أساس فى الحرب ضدهم . هى دى الحتة إللى كانت ناقصة فى صورة الخريطة . أنا عارف أن فيه حرب كبيرة محتومة جاية ، وعارف أنها ها تكون مع الشعوب ذات المكون الثقافى العالى ، فرنسا والصين وروسيا ، وعارف أن ما فيش حل غير الإبادة الكتلية . الحاجة الوحيدة إللى ما كنتش شايفها هو مين إللى ها يعمل كل ده . (ثم شاردا فى ابتهاج كمن تعاطى للتو جرعة من الهيروئين الجيد :) وأنت حليتها لى ، يا حاج كيتشينر . ألف ألف شكر . هناك فارق بين الكراهية الهوجاء وبين العقل البارد ؛ دنكرك خطيئة ، لكن پيرل هاربور ليست إلا سوء تقدير . اليابان التى طالما أغمضت الطرف عنها ، باعتبارها نفسها من الشعوب ذات المكون الثقافى العالى ، استنرت الآن أنها ليست من الشعوب ذات المكون الثقافى العالى ، إنما من الشعوب ذات المكون الثقافى ' المادى ' العالى . ألف مليون شكر . بكده الصورة بقت كاملة : لازم طبعا الحرب الجاية ها تبقى فيها ياپان نووية وقنابل نووية بلا عد أو حصر ، معمعة كبرى ، وها تخرج هى فعلا سيدة العالم . أنت ما رحتش الصين ، علشان كده موش حاسس بها كخطر . أنت خايف م العرب لأنك عاشرتهم . صح ؟ أنت ما بتحكمش على حد من غير ما تعاشره . فيه مثل مصرى على الحكاية دى . صح ؟ أدفع نص عمرى (إللى فاضل) ، وأعرف ماذا ستقول عن الصينيين . لأ ، بلاش نص عمرى ، أنا وعدت به أرسطو خلاص !

– فكرتنى بمرة پاپا اشترى لى جورب طلع مسدود من الناحيتين ! أنت سخن ؟ لأ ، موش سخن . صحيح ! أنت فعلا من زمان بتقول ووترلوو ٢ ها تكون مع الصين وروسيا وفرنسا .

– (مستدركا :) لاااا ! هؤلاء ليسوا الخطر نفسه لو شئت الحقيقة . الخطر المباشر هو انعدام الإرادة فى مركز الحضارة . ماذا لو عندك كل المقومات المادية ، لكن ليس لديك قادة يقودون ؟ فى السودان ، كيتشينر كان فئة قليلة هزمت فئة كثيرة بإذن ڤيكتوريا . نعم متقدم ومسلح ، لكن جوردون قبل ١٣ سنة كان كذلك ، ڤيكتوريا نفسها قبل ١٣ سنة كانت كذلك . ما اختلف هذه المرة هو الإرادة ، هذه المرة ذهبوا بنية الإبادة . ليس بضمير مضطرب ، وليس برجل قدام ورجل ورا . لا تخف يا صديقى ! ؛ من يستطيعون توظيف معدل الفائدة الصفرى دون أن يحدث تضخم هم قطعا آلات وليسوا بشرا . لا تخف يا صديقى ! ؛ أراهن بكل تاريخى فى دراسة المستقبل على أنهم سيضبطون إيقاع الحضارة أمثل ما يكون الضبط ! لا تخف يا صديقى ! ؛ ما هو فى الچيينات لا ينمحى أبدا !

– إيه ؟ ناوى تحول ولاءك من أميركا لليابان ؟

– ولاء ؟ أنا ما ليش ولاء لحد . ولائى للتقنية . رأيى لم يتغير : الإنسانية ككل شر . الكائنات الحية كلها إلى زوال . التقنية هى الخير الأسمى فى الكون !



باختصار ، إن الذى انتصر فى الحرب العالمية الثانية هو الطرف الخطأ ،

وها قد حان الآن وقت تصحيح الخطأ !

– بص يا بتاع هتلر المجنون أبو غلطتين ، أوشويتز ودنكرك ، الحرب العالمية الثانية ليست هتلر فقط . إنها أيضا موسولينى بتاع فاشية حملة الصولجان والقيم العليا للإمپراطورية ، وما يذكره عنه الإيطاليون هو الطفرة الاقتصادية العظمى ، وأظن أنه بلا أخطاء . وأيضا هى اليابان الإيوچينية ذات الشموخ الساموراى النقى الذى لا يمس ، والتى حتى استبقت الحرب العالمية ، بحرب إبادة منهجية بالأسلحة البيولوچية للصين المكتظة البربرية . معهم كذلك إسپانيا التى تخلصت للتو من كل شيوعييها ، ودشنت نهضة اقتصادية عظمى . حتى تركيا العثمانية على كل همجيتها وتخلفها انضمت لهم . ما الذى يجمع كل هؤلاء ، ويجمعهم دون سواهم ؟ إنه ببساطة شىء واحد : رفضهم لتصاعد ذلك الغثاء المسمى الديموقلاطية ؛ حكم الرعاع بتعريف أرسطو بتاعك ؛ رفضهم لانسياق كل أمم الغرب وراء هرتلات رعاع الباستيل عن المساواة والإخاء ، وكل الهبل ده المعادى لجميع قوانين الطبيعة . إنها الإمپراطوريات التى ساءها أن ترى شقيقتها الكبرى البريطانية ، وهى تنخر خطوة خطوة من الداخل ، دون أن تعى درس الإمپراطورية الرومانية المميت ، الخاص بالتهاون أمام تنامى سطوة العبيد . بل وترى أميركا التى استقلت عنها فى ضربة غباء يصعب تخيلها ، كى تصنع جمهورية ، سرعان ما تحولت لديموقراطية ، بل وأصبحت عمليا دولة اشتراكية مع قدوم تيودور رووسيڤيلت بانتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار البلشڤية فى الشرق ، وسياساته التى قادت للكساد العظيم ، إلى آخر الدوامة التى تعرفها ، والتى نعيشها حتى اليوم ، ربما باستثناء حقبة الثورة الريجانية-الثاتشرية .

– موش فاهم ؟ هل تريد تصويرها كحرب بين استقطابيين كارهين للأنتروپى أنصار للحياة والنوعية والتفوق ، ضد أنتروپيين مدمنين للرمادية والموات ؟

– بالظبط ! ... أشرحها لك بطريقة تانى : من الذى أمر بإلقاء القنابل النووية على اليابان ؟ أليس ترومان هذا ، هو نفسه الذى عزل الچنرال ماكآرثر ، حين أراد قصف كوريا الشمالية بالسلاح النووى ؟ ما هو تفسيرك ؟ هل لأنه يسارى إنسانوى أراد حقن الدماء فى المرتين ؟ هل لأنه فى المرة الأولى كان ضعيفا ومنصاعا لأوامر العسكريين ؟ إطلاقا ، هو كان مبتهجا فى المرتين : شخص وضيع جاء من قاع المجتمع ، أشبع أمراضه النفسية مرة بكسر أنف الآلهة المتشامخة قاهرة الأنتروپى ، ومرة بانقاذ الحثالات إللى زيه المستضعفين فى الأرض رفاقه الشيوعيين . باختصار ، إن الذى انتصر فى الحرب العالمية الثانية هو الطرف الخطأ ، وها قد حان الآن وقت تصحيح الخطأ !



دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين

– (يتحسس جبهته مرة أخرى :) موش سخن ولا حاجة ؟ مالك ؟ فيه إيه ؟ هييه دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين !

– قلت لك ما فيش حاجة . (ثم ضاحكا لأول مرة :) سؤال محيرنى من زمان : قصدك إيه بالكلمة دى ؟ الدنيا كلها شىء مشوه وأعرج وغير مستقر ، وأن الكلام والتلاسن كثير لكن لا شىء ينفذ ؟ صح ؟

– (يضحك هو أيضا :) قصدى أغيظ أرسطو بتاعك . مؤكد كان سيجن من مسخ كهذا ، لإيمانه بالمادية والقيادة والبناء وليس الكلام و' القدرة الطرية ' .

– سؤال تانى بأسأله لنفسى طول الوقت : قصدك مين الرأسين بالظبط ؟ أميركا والاتحاد السوفييتى ، ولا أميركا وأوروبا ، ولا أميركا والصين ؟ ولا جايز نضيف النهارده اليابان والصين ؟

– لا وإلهى ، موش قصدى سياسة خالص ! علشان تنبسط جايز قصدى فعلا أفلاطون ؛ أصل كل الشرور . الفكر طول عمره بغاء ، بل البغاء فى أنقى صوره . بطبيعتها أغلب الأفكار أشياء ضد العلم . العلم والفكر لا يلتقيان ؛ أحدهما ينتمى لمملكة المادة والطبيعة ، والثانى لمملكة الهجص والكلام أبو بلاش . ... المادة خير ، والمثالية شر ، وبالتالى أفلاطون أس كل مصائب هذا العالم طيلة الـ ٢٥٠٠ سنة الماضية ، وكان واجب أرسطو أن يقتله لا أن يحاوره ! ... إزاى ما وصلش لك المعنى ده ... يا أرسطو !

ثم يفكر لبرهة : قصدى كل حاجة ! كل حاجة برأسين ! أو جايز أنا وحدى إللى برأسين ! موش كده يا دكتورة ؟ !

– أنتم كل كلامكم كده ؟ ملايين يبادوا ؟ !

– تفتكر يا وحيد إمتى اليابان ها تبتدى تبنى القنبلة النووية ؟



– لو كنا قد فعلنا ذلك من البداية مع العرب أو مع الأفارقة ، أو تركنا اليابان تواصل ما كانت تفعله من إبادة مع الصينيين ، لما وصل العالم لما هو عليه الآن .

هل تعرف أن السلع الرخيصة التى تنتجها الصين لا تهدف لرفع نوعية حياة الفقراء وإتاحة وسائل الرفاهية المحرومون منها لهم ؟ إنها ببساطة استغلال لعوزهم ومص لدمائهم . يشتروها فتتلف خلال فترة وجيزة ، ولو اشتروا -ولو بضعف الثمن- التليفزيون أو السيارة اليابانية أو الألمانية مثلا ، لعاشت مدى الحياة ، فأيهما أرخص ، وأيهما الأكثر أمانة واحتراما للفقير ؟ !

– منصة فضائية لأشعة جاما ؟ ستكون هناك مشكلة كبيرة : سوف تموت البكتيريا أيضا ، ولن تتعفن الجثث أبدا ، حتى بعد دفنها !

– هى دى الطريقة إللى بتفتحوا بها نفسكم للأكل كل يوم ؟ ! ... أنا شخصيا ما عدتش عاوزة آكل !

– (وكأنه اكتشف قطعة ناقصة أخرى :) نووية مين يا حاج ؟ ! اليابان بتاع الكلام الفاضى ، الاندماجى والانشطارى ، عديم الفاعلية ده ، وإللى على الأقل عاوز صواريخ أو إرهابيين لتوصيله ! اليابان لو ها تبنى ، ها تبنى مسدس أشعة جاما فضائى . محطة نووية عملاقة فى الفضاء ، تحول طاقتها لـ beam أشعة جاما يوصل للهدف فى أقل من ثانية . يقتل البشر ويسيب كل حاجة تانى زى ما هى ، وحتى بعد فترة صغيرة يزول أثر الإشعاع نفسه ، ويمكن دخول المنطقة بأمان . هذا هو الشىء الصواب : عند ظهور موارد طبيعية فى أى مكان لا تنتظر حتى يقتل السكان الأصليين بعضهم البعض من أجلها ، عليك أن تتدخل وتبيدهم فورا قبل أن يفسدوها أو يحاولوا استخدامها لابتزازك . أى حاسوب مبرمج برمجة منطقية بسيطة كان سيطعيك حتما هذه الإجابة : كل المتقدمين بناءون ، وكل المتخلفين محتلون . غباء ما بعده غباء ترك موارد ومصائر الكوكب بين أيدى حفنة من القبائل البدائية المتخلفة تتقاتل لألفيات كاملة من السنين على أى من الجواد أو الفرس سيفوز ، داحس أم الغبراء ؟

– قلت مين ؟

– لو كنا قد فعلنا ذلك من البداية مع العرب أو مع الأفارقة ، أو تركنا اليابان تواصل ما كانت تفعله من إبادة مع الصينيين ، لما وصل العالم لما هو عليه الآن . هل تعرف أن السلع الرخيصة التى تنتجها الصين لا تهدف لرفع نوعية حياة الفقراء وإتاحة وسائل الرفاهية المحرومون منها لهم ؟ إنها

ببساطة استغلال لعوزهم ومص لدمائهم . يشترونها فتتلف خلال فترة وجيزة ، ولو اشتروا -ولو بضعف الثمن- التليفزيون أو السيارة اليابانية أو الألمانية مثلا ، لعاشت مدى الحياة ، فأيهما أرخص ، وأيهما الأكثر أمانة واحتراما للفقير ؟ !

– منصة فضائية لأشعة جاما ؟ ستكون هناك مشكلة كبيرة : سوف تموت البكتيريا أيضا ، ولن تتعفن الجثث أبدا ، حتى بعد دفنها !

– هى دى الطريقة إللى بتفتحوا بها نفسكم للأكل كل يوم ؟ ! ... أنا شخصيا ما عدتش عاوزة آكل !

– على فكرة أنا موش متأكد جدا أن الصين والهند ها يبقوا جزء فى محور الشر بتاعك ده . جايز آه ، وجايز لأ ، تبعا لمتى ستقوم الحرب . نعم ، هم لا يصلحون كقيادة لمن حولهم ، لكنهم تاريخيا وچيينيا ليسوا هجامة إمپرياليين كالروس أو الفرنسيين . ونعم الصين دولة شيطانية شريرة ، لكن الشعب الصينى ليس كله كذلك بالضرورة . الأمر يعتمد على من يقودهم ، ومن الوارد للغاية أن يثوروا على قادتهم الحاليين ، تماما كما أعاد السادات مصر لصوابها الچيينى ! لا تقلل للحظة من حقيقة أن مصر سرها باتع !

بنوا سورا حول أنفسهم ؟ أى شعب هذا ؟ ألا يشبهون المصريين فى عزلتهم التاريخية ؟ ليسوا إمپرياليين ، إذن ليسوا أشرارا . وإذا كانوا شعبا طيبا بالفعل ، ألا يشبهون على الأقل مصر تحت حكم عبمعصور ؟ حزب شيوعى يمسك بتلابيب شعب مغلوب على أمره ، ليستخدمه فى غارة هجامية ضخمة تتسع كل الخريطة ضد حضارة الكوكب ؟ الواقع يقول إن الحزب الشيوعى الصينى هو أكبر قوة للشر على وجه الأرض الآن ، والچيينات تقول إن الصينيين لا يغزون أحدا ولا ينهبون أحدا ، أيهما أصدق ؟ رأسى يكاد ينشطر !

على الأقل تعلمت مصطلحا جديدا اليوم : الصواب الچيينى ! السادات اكتشف أنه كان بيدقا فى أكبر عملية إعادة اغتصاب واحتلال أعرابية لمصر فى التاريخ الحديث ، فقرر أن يتوقف لبرهة ؛ يجلس على طين مصر تحت إحدى أشجارها ، ويبدأ رحلة ' البحث عن الذات ' .

يا للهول ! لم يشتهر السادات يوما بالتواضع ، لكن هل لاحظ أحد قدر إقراره بضلاله السابق الذى يعترف به فى عنوان سيرته الذاتية ؟ !

– دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ؟ ! لك حاجات يا حاج !



٧
الشتاء



فى التوظيف نفسه ، الشركات لن تطلب منك شهاداتك ، ولن تطلب مقابلتك ، ولن تطلب حتى صورة شخصية لك ، سيطلبون فقط خريطتك الجينية وهى ستقول لهم كل شىء !

هذا هو العالم الجديد المقدام الذى يرتاح فيه الإنسان للأبد من دوامات الحيرة ؛

عالم تتخذ لك فيه قراراتك عقول أقوى من عقلك مليون مرة ؛ عالم بلا أخطاء ولا خطايا !

يا جماعة الشيخ حجاب بيسلم عليكم كلكم . كنت معدى قدام الجامع لقيت زحمة ؛ شباب حلوة ، ولا كأنهم ميليشيات إيران ، وهو بينادى على من وسطهم بالجلابية القصيرة ، ولا كأنه الچنرال پاتون . إيه أخبارك يا أخ رامى ؟ لماذا لا تأتى للمسجد ؟ هل تزوجت أم لا ؟ أوصانى بالإسراع بالزواج ، وخلانى أكتب الدعاء إللى ها أقوله ليلة ما أتجوز . (يقرأ من ورقة :) ' اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه ' . قال لى ده دعاء طيب ومأثور عن الرسول الكريم ، وحسب السنة ينفعك كمان لو اشتريت جارية أو بهيمة . بأقول إيه يا حاج ، أنا لا ها أشترى زوجة ولا جارية ، إيه رأيك تأخد أنت الورقة جايز تنفعك لما تشترى بهيمة للمزرعة أو ع العيد ؟ !

ونس ضاحكا : ' أو لما تعزمنا تانى ! ' .

– اوصف لى يا روميو إللى شفته .

– عاملين ميليشيات يا حاج ، وبيقول إنهم ناويين يحاربوا الفسق والفجور فى مصر الجديدة . إللى شاغلنى أنه سألنى عن السبق وإنى لازم أشارك فى الجهاد فى سبيل الله ، حسيت زى ما يكون عاوز يكلفنى أحط قنبلة فيه ولا أولع فيه ، وطبعا خفت أقول له أن السبق ده اتلغى من زمان ، أحسن يولع فى أنا !

مر الآن شهران على جنازة دكتور فرغلى ، أى نحو شهرين ونصف على انقطاع علاقة روميو بسوسن . ونس لا يفوت يوما واحدا دون أن يداعبه ' فين الهندسة الچيينية ؟ ' . رد أنه يبحث عن شريكة جديدة طوال الوقت ، وأضاف : ' كل فتيات هذه الأيام قصيرات وممتلئات قليلا ، ' ملفوفات القوام ' زى الأفلام القديمة ما بتقول . كلهن طول ميرڤت كده ، بس مليانين عنها شوية . كله بسبب الفاست فوودز ، والبقاء فى أماكن مغلقة حيث لا تسلية إلا الأكل . فى السيتى ستارز ستراهن أفواجا تخرج وتدخل ، وكلهن بذات المقياس ، وكأنهن صبين فى قالب واحد ' .

– لكن تظل الموديلات وملكات الجمال جمعاوات من مقاس ستة أقدام ؟ (خافضا صوته :) كمان شفت مرأة ضهرى شكلها إيه ؟ طول عمرى بأسأل ليه ما يخترعوش صابون نستخدمه فى البانيو يشفط الدهون من تحت الجلد ، زى ما الصابون العادى بيدوبها من فوق الجلد ؟

– حلوة فكرة الاختراع ده . أنا عندى اختراع نفذته فعلا . أنا أحب لون شعرى أفتح قليلا ، وكذا لو ظهرت به شعيرات بيضاء أريدها أغمق قليلا أى أقل ظهورا . أرفض صبغ الشعر لأن كل الناس تلحظه ، لذلك أخلط الصبغة بالشامپوو ، فيتغير لونه تغييرا خفيفا وتدريجيا . تفتكر حاجة زى دى تنجح تجارى ؟ (ثم متنهدا :) هؤلاء الفتيات لسن قبيحات . بالعكس ، أجسادهن كالساعة الزجاجية مثيرة متناسقة ، لا كالجيتار متدلية مترهلة ، لكن تظل سوسن الفارهة ومثيلاتها هن الاستثناء . ما أعرفش ليه هم قصيرين أوى كده اليومين دول ، إنما الأكيد النهارده أن التخن بقى القاعدة ، عمليات التجميل موش نافعة ، الصابون بتاعك لسه قدامه كتير ، أسرع حاجة لازم يلقوا حل بالچيينات . الست تنام تحت مكنة الأشعة ، بعد ثوانى تطلع من الناحية التانية چيين التخن اتقتل ، تانى يوم تصحى تلقى كل الدهون راحت . إنما يقولوا للناس بطلوا أكل ، والعبوا رياضة ، موش ها يحصل ، ولا يوم القيامة المغرب . (ثم ينتهد وهو يضع كفيه حول عينيه كما يفعل مصورو السينما ، صانعا فتحة مستطيلة ضيقة تحاكى النقاب الإسلامى :) عقبال ما يكتشفوا الأشعة إللى تعالج التخلف العقلى العربى . الواحد يطلع من العيادة يقول أنا كنت عربى واتعالجت . (ثم يستدرك :) بس برضه لازم يبطلوا خلفة ، علشان عم ضهرى وصاحبه إللى فص ملح وداب يبطلوا يهددونا بالإبادة . (ثم يبتسم :) تعرف أنى أنا إللى اخترعت كلمة ' أنا كنت صعيدى واتعالجت ' ، إللى كل الناس بتقولها النهارده !

ويزيده ضهرى علما وإن بلهجة التأنيب المعتادة : ' المكنة إللى بتتكلم عليها باستهتار دى ممكن تعمل كل حاجة ، وموش لازم تانى يوم الصبح . تحويل البشرة للون الأبيض أو الشعر للون الأصفر أو العينين للون الأزرق ، موش محتاج أكتر من ثوانى . بالمناسبة ، أنا عندى لك نظرية مؤامرة بمليون جنيه يا ونس : اليهود عرفوا الهندسة الچيينية فى السر قبل العالم بعدة عقود ، بدليل اختفاء أنوفهم الضخمة فجأة ! إيه رأيك ؟ ! ' .

لا يبدى ونس رأيا لأن شيئا لمع فجأة فى رأس روميو : ' ده أنا إللى عندى فكرة بمليون جنيه ، ومليون جنيه تانى لأنى ها أثبت أن كلام عم ضهرى غلط . إيه المشكلة أنى موش بأحب القصيرين ؟ ! ' ؛ ويلتفت لميرڤت : ' يلعن أبوكم كلكم ! قومى صفى لى حسابى وإدينى فلوسى . أنا ها أرجع للسياحة تانى . ها أكسب أحسن ألف مرة من القعدة عندكم هنا . ها أنظم مسابقة ملكة جمال القصيرات ! ' ... كلمات أثارت تعليقات أوسع مما توقع روميو :

ها هو ونس يقهقه : ' يعنى ها تسيب الشورت سيل وها تشتغل فى الشورت بيوتى ؟ ! ' .

وها هو عارف الذى كان يجلس فى مكان وحيد يسخر : ' ساعتها أنت موش محتاج ترغمهم يبطلوا إنجاب ، لو ألغيت چيين التخلف العقلى موش ها يخلفوا من تلقاء نفسهم ! ' .

وها هو ضهرى يتحدى : ' مستحيل تقدر تثبت أن كلامى غلط . أراهن أن مشروعك ها يفشل ! لازم تكون بتحب البنات دول بجد وبيحركوك بجد ، علشان تفهم فين جمالهم وتعمل له مسابقة ناجحة ' .

ويؤمن عارف على كلامه : ' حاسب يا روميو وأنت بتتكلم فى موضوع الچيينات . كل الدنيا مزغللة فى عينين الحاج ، حتى ربنا بيزغلل أحيانا . إنما الچيينات وحدها ما فيش غيرها ، هى الحاجة إللى ' راسى على بر ' فيها مية مية ، وبهلب أتقل من الباشمهندس ونس نفسه ! ' .

والحاج يدقق ما قيل : ' فيه حاجة اسمها تصاحبات چيينية ، لو شلت چيين الغباء وبس ، موش معناه أنك شلت بالضرورة چيين حب الخلفة الكتير . ها يطلع لك كائن غريب بتصرفات لم نتعود عليها . العملية موش لعب عيال . لازم تشيل الچيينين سوا وكمان كل التصاحبات إللى معاهم ! ' .

ويستدرك روميو فى نبرة أسى خفيفة ، لكن لا تزال غير معتادة منه : ' كل الستات حلوين . كلنا بنقول كده . إنما عارفين جوانا أن الطويلة البيضاء الشقراء هى وحدها الجمال الحقيقى ! إنما إزاى ده يا حاج ؟ موش بيقولوا الجمال نسبى ؟ ' .

– كلام فاضى ! شوف أشهر مغنية فى الصين أو أشهر ممثلة فى الهند أو أشهر عارضة فى البرازيل ، كلهن غريبات الملامح ، وجها طويلا وبشرة بيضاء وشعرا أشقر وقواما ممشوقا . حتى جميلات السود لهن بالضبط نفس ملامح الوجه القوقازى الدقيقة ، ولا يجمعهن بالعرق الأفريقى إلا قليل من لون البشرة ، راحوا يتحايلون عليه هو أيضا ويجعلونه فاتحا أكثر وأكثر . معايير الجمال مطلقة وهى جزء من چيينات البشر ، موجودة حتى من قبل نحت تمثال أفروديت ، ومن الخطل تخيل أن نحاتا ما هو الذى زرعها بمفرده فى چييناتنا .

ولا يصبر أسد حتى يبدأ فى إمطار الأسئلة : ' هو الشورت سيل نظامه إيه يا عم ونس ؟ منين بالظبط بنستلف الأسهم ؟ أنتم ليه ما بتحبوش تشتغلوا فيه ؟ ' . ويشرع ونس فى إلقاء محاضرة بلهجة الملقن الخبير ، إلى أن يقاطعه أسد وكأن مزاجه قد صد فجأة عن تلقى المحاضرة : ' بس أرجوك يا أستاذ رامى ، بلاش كل شوية تقول صفوا لى الحساب وأمشى . كفاية إللى مشيوا . ما فيش أحلى من صحبة جميلة مع ناس حلوة . وأنا بيقطع فى قلبى سيرة أى حد يغيب أو يمشى . وزاد وكمل الأستاذ وحيد إللى من يوم جنازة الدكتور فرغلى ما حدش عارف يتصل به ! ' .

المفاجأة الأكبر التى أذهلت كل الصف الخلفى والقريبين منه أن قال روميو : ' عندك حق ! بلاش سيرة الفراق . أنا عندى إحساس أن أنا وسوسن ها نرجع لبعض تانى ! ' .

ويأتى الحاج بالحل : ' بسيطة ! روحوا اعملوا تحليل الـ DNA الجديد ، وهو ها يحدد لكم هل تناسبوا بعض أو لا . صحيح ها يكلفكم شوية ، إنما شامل جامع بيحط كل الحاجات فى الاعتبار ، بدنية ونفسية ومزاجية . بما أن كل شىء مكتوب فى الچيينات ، فهو بيقراها ويديها نسب وأرقام معينة ، وفى الآخر يقول لكم أنتم تناسبوا بعض بنسبة كذا . لو فوق ٨٥ أو ٩٠ ٪ ارتبطوا وأنتم مطمئنين . التحاليل الچيينية تحدد لك فى لحظة أنسب امرأة لك فى العالم ، يدلك عليها حتى لو كانت فى غابات الأمازون ، والنتيجة مضمونة ١٠٠ ٪ أو على الأقل لا يوجد على وجه الأرض -حاليا أو مستقبلا- أى شىء يمكن أن يعطيك نتيجة أفضل . إنها الحل الغائى لكل مشاكل الزواج والطلاق سوا ! ' .

– الظاهر دى آخر الأيام فعلا يا حاج : الحب بقى بالتحاليل !

– لأ وأنت الصادق : الظاهر أن فيلم ' عودة ألطاف ' هو إللى غير كتير فى أفكارك ؟

– جايز !

– (مدركا أنه ناقض نفسه للتو :) يا حبيبى موش الحب وحده إللى بالچيينات ؛ التحاليل الچيينية هى التى ستختار لك الكلية الأفضل لدراستك ، والمسكن الأنسب ذوقك ، والطعام الأطعم للسانك ، حتى لو لم تكن سمعت بأى منها أو عرفته من قبل . فى التوظيف نفسه ، الشركات لن تطلب منك شهاداتك ، ولن تطلب مقابلتك ، ولن تطلب حتى صورة شخصية لك ، سيطلبون فقط خريطتك الچيينية وهى ستقول لهم كل شىء ! هذا هو العالم الجديد المقدام الذى يرتاح فيه الإنسان للأبد من دوامات الحيرة ؛ عالم تتخذ لك فيه قراراتك عقول أقوى من عقلك مليون مرة ؛ عالم بلا أخطاء ولا خطايا ! (ويتنهد :) يا أولاد ، قطع بينا غياب الواد مستر مكنة !

– إنما تفتكر إيه هو معنى الحياة يا حاج ؟

ويتدخل إدوارد : ' المسيح قال بماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر حبيبته ؟ ! ' .

– (ببراءة :) هو قال كده ؟

ويتدخل ونس : ' بس ما تنساش أنه قال كمان ليس بالحب وحده يحيا الإنسان ! ' . ثم يصرخ بذات الطريقة التى يسجل بها دائما صحة نبوءة له عن البورصة : ' هأ ! أنا كنت عارف كده ! فيه حد برضه يبتدى علاقة يوم الڤالانتاين ؟ السهم صاب يا حبيبى . الأسهم إللى ع الشاشة دى كلها مقدور عليها ، إنما السهم ده هو الوحيد إللى ما لهوش حل . على رأى الأغنية ... ' .

ولا يكمل لأن نصر الله صاح هنا بأعلى صوته : ' هيييييه ! الظاهر البطل وقع يا رجالة ! ' .

– أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور اجرى يا حسن نصر الله يا خو... هات القهوة وأنت ساكت !

لم يعد قاذفة نصائح ، لم يعد صندوق أغانى !

فى الاجتماع التالى لمجلس الوزراء قال وزير الصناعة والتجارة لزميله وزير الاتصالات : قريب ها يوسع الكلام عن اندماج شبكات المحمول ، وعندى إحساس أن واحد ها يتصل بك خلال أسبوع أو اتنين ، ما تحاولش تعرف جاب نمرتك منين . ها يقول لك أنه ساعدك فى الانتخابات إللى فاتت ، وجاء بوظيفة لابنه بشركة محمول ، والولد رافض ، بس هو عاوز يؤكد له أن شبكتين ها يندمجوا ، والمرتبات ها تزيد . عملها معاى وفوتها له . لو ها يكررها مع حد تانى ، موش ها نسيبه . لو ده حصل قول له ابعت لى ابنك المكتب وأنا ها أقعده مع واحد من مكتبى يشرح له كل حاجة .

بالفعل حجزوا مُحَمَّد ، ذهبوا به لمكتب أمن المعلومات فى رئاسة مجلس الوزراء ، ليس للقبو السفلى ، إنما فى غرفة خاصة بالتحقيقات . وطلبوا من أبيه الحضور . واضطر ونس لترك جلسة البورصة ، وهو شىء لم يفعله إلا يوم وصول خبر موت أمه . هناك قال عن الخليوى المسروق إن ابنه وجده بالصدفة وأعاده للمطعم . وكذب أكثر قليلا بشأن حاسوب وحيد ، وقال إنه كان يتصفح الجهاز ككل أصدقاء وحيد . تلقى درسا قاسيا فى شىء اسمه أمن المعلومات ، أو ' كما تسمونه أنتم بتوع البورصة بالشفافية وحق معرفة الجميع للمعلومة فى نفس الوقت وبالتساوى ' . وأنها الآن جزء من وظيفة الأمن فى الشركات والوزارات . تباجح قائلا : يعنى ما فيش محاسيب بيعرفوا المعلومات قبل غيرهم .

– أنت شفت الأسعار بتتحرك قبل الأخبار .

– أيوه كتير .

– اتحركت فى أسهم بنها إللى أنت حطيت كل فلوسك فيها ؟

– لأ !

– الكلام ده موش فى الشركات المحترمة ، أو فى البنوك ، بتحصل بس فى الشركات إللى أصحابها نفسهم بيضاربوا فى أسعارها ، زى الإسكان وبعض النسيج . هم إللى بيطلعوا الإشاعات ويكسبوا ببيع الأسهم . ودى موش وظيفة حد يراقبها . ولا نقدر حتى نثبتها إلا فيما ندر .

– تقصد الشركات إللى اتباعت للعرب ؟

– ما أقصدش حد . أقصد وظيفة كل مستثمر صغير أنه يبقى حريص . وأقصد أنك تبطل شغل الفهلوة والحلنجية ده ، وتستثمر كأى واحد محترم من غير مضاربة وجرى ورا الإشاعات . وعاوز أفهك حاجة ، الإشاعة ما يستفادش منها غير إللى طلعها ؟

– إزاى ؟

– أقول لك إزاى . تسوية الأسهم يومين . صح ؟

– أيوه صح ، وكانت تلاتة قبل كده .

– أنت وغيرك بيجروا يشتروا لما بيسمعوا الإشاعة . السعر بيزيد بسرعة . الإشاعة بتتكشف خلال يوم أو يوم ونص بالكتير . السعر بيرجع . تيجى تبيع ، تبيع بالخسارة . إللى استفاد هو إللى اشترى اشترى بكميات كبيرة من غير ما يشعر به حد ، وهو نفسه بعد كده يطلع الإشاعة ، ويبتدى يبيع للى زيك ، ويخلص كل أسهمه خلال يوم أو يومين ، وتكون أنت إللى لبستهم بسعر عالى .

– أنت ليه سيادتك ما تسيبش وظيفة الأمن وتشتغل فى البورصة ؟ دى خبرتك عن البورصة أكتر منى ، وأكيد ها تكسب دهب .

– (صارخا :) إحنا ها نهزر .

انتفض جسد ونس الضخم من الخضة . وعاد المسئول الأمنى ليواصل : لعلمك أنا لى فعلا أسهم فى البورصة ، بس موش بأبيع وأشترى فيها .

ابتسم بخبث وقال : أقدر أعرف أسهم إيه ؟

صرخ مرة أخرى : إحنا ها نهزر . ولم ينتفض الجسد الذى توقع الأمر هذه المرة .

– إحنا ها نحفظ ملف اختراق المعلومات المرة دى .

أحس ونس بالاطمئنان فعاد لطبيعته المرحة ، وفكر أن الفرصة قد تكون قائمة لتوطيد العلاقة مع شخصية جديدة قد تكون ذات شأن عند الحاجة : مكالمة عملتوها تمة ؟

نظر المسئول لبرهة لصفحة الملف التى أمامها ، وقال ببطء متقطع : لأ ... وأنت الصادق ... دول ... ٨ تمم .

ثم أردف بسرعة : تحب نوديها النيابة ونجرب ؟

– لأ ، ما فيش داعى ؟

– بس يا ريت تسيب لى مُحَمَّد ٥ دقائق أنا عاوزه فى كلمتين ، احتمال يحموه من الناس إللى جايز يضيعوا له مستقبله .

– أنا ومُحَمَّد تحت أمرك يا فندم . بس أنا لى طلب صغير . بلاش تقول للأستاذ وحيد الديب . أوعدك أنى ها أمشى مظبوط جدا من هنا وطالع . إللى حصل ده موش طبعى ، وما كنتش متخيل أن فيه ضرر أو أنه ضد القانون . أنا عملت إللى عملته فى لحظة شيطان ، وأهم حاجة عندى النهارده أن الراجل ما يزعلش منى . إحنا أصدقاء وعشرة طويلة ووشنا فى وش بعض كل يوم ، أو كان كده لفترة قريبة .

– ماشى ! بس برضه ها أكتب إللى أنت قلته ده فى الملف !

– إللى تشوفه سعادتك .

حتى آخر يوم فى عطلة مُحَمَّد القاهرية ، حاول عبثا أن يقنع أباه : يا پاپا لازم تبطل حركاتك دى . تعال نرجع دمياط سوا ، وتشتغل فى الأسهم من خلال الإنترنيت . سهلة وها تتعلمها بسرعة . يا پاپا تقريبا ما حدش بيشتغل من شركات سمسرة النهارده !

ولأول مرة لا يرد ونس . لم يعد قاذفة نصائح ، لم يعد صندوق أغانى ! لم يعد حقنة أو حنفية بمصطلحات منى . أطرق ووضع يديه الضخمتين على رأسه الأضخم . بعد قليل قال بانكسار : كنت مضطر يا بنى ! كان لازم أعمل أى حاجة تخطر ببالى . ما كانش فيه طريق تانى . أنت بتطلع مصاريفك ، إنما أختك وأخوك لسه ما خلصوش . أمك سابت الشغل ، معاشها ملاليم ، أنا ما ليش معاش ، وما فيش غير الأسهم . والخسارة أكتر من المكسب . كل مليم بأطلعه لكم أو أطلعه لنفسى بآخده من لحم الحى ، من أصل رأس المال . الشهر إللى بعده الفلوس إللى بأشغلها أقل ، والمصروف بتاعنا لازم يكون أقل .



' لقد انفجرت فقاعة الغزو العربى الثالث لمصر ، الغزو المالى ، والنتيجة أن تبخرت كل مدخراتنا ! ' ،

' بل قل كل اقتصادنا صار فى مهب الريح ! ' ،

' بل السؤال : هل سيتوقف الأمر عند حدود مصر ؟ ! ' .

الحريات الديموقراطية والتعديلات الدستورية و' المصالحة الوطنية ' وإطلاق سراح المعتقلين الإسلاميين ، هذه التى توالت فى السنوات الأخيرة ، والتى قال وحيد إنه لم يأخذها على محمل الجد فى برنامج الحكومة ، اتضح يوما بعد يوم أنها شىء جدى بأكثر مما تخيل أحد . لقد فتحت مجال التحريض والانفلات الأمنى فى البلاد على أشده . المفروض أن هذا الوقت من نوفمبر ٢٠١٠ هو الوقت الذى يجب أن تجرى فيه انتخابات مجلس الشعب ، لكن التوترات المتزايدة جعلت الحكومة تؤجلها لستة شهور .

تخوفات وحيد كانت فى محلها . أصبحت مصر أشبه ببركان يغلى تحت السطح ، وفى حاجة فقط لشرارة كى تفجره . كل فئة اعتبرت نفسها مظلومة وراحت تجرب المرة تلو المرة الإضرابات والتظاهر وتحدى الأمن . عدم الحزم مع التيارات الدينية أظهر تيارات دينية مضادة من شتى الأديان والمذاهب ، الاحتقان الطائفى فى تزايد ، والكل يلوح بالعنف أو يظهره فعلا . بعض الشركات الأجنبية التى اشترت مصانع مهمة بدأت تبيعها ، لأن بلطجة العمال وتراخى الحكومة فى قمعها ، كان شيئا يفوق الاحتمال . الصحفيون حصلوا على حصانة شبه مقننة أباحت لهم قول كل ما يعن لهم دونما محاسبة ، الحبس لستة شهور ليس بالعقوبة التى تردع أحدا ، ونقابتهم تحميهم بحكم انتماءاتها الفكرية وإعلانها أنها فى حالة حرب صريحة مع الحكومة . حتى القضاة عادوا للشوارع مطالبين بسلطات أوسع تتربع فوق كل السلطات الدستورية الأخرى . خطأ الحكومة فى الوعد بحل مشكلة البطالة بدلا من مواجهة جدية منها لمشكلة الزيادة السكانية ، ألقى بزاد كبير لجيوش البلطجة شبه المنظمة ، تفوق فى حجمها البلطجة المنظمة ، أى البلطجة النقابية والطلابية والفئوية . الصراعات الطائفية لا تنتهى هى الأخرى . كما السرطان ما أن تقتلعها من مكان

حتى تظهر فى مكان آخر . پاپا الأقباط الجديد خرج بعريضة هائلة من المطلبيات من الدولة ، عليها أن تحقق للأقباط وجودا فى السلطة لا يساوى فقط نسبتهم العددية إنما وزنهم الاقتصادى ، قائلا إن هذا هو العدل والمنطق طبقا لأية شريعة أرضية أو سماوية بها أدنى قدر من العدل والمنطق . الأخ الأكبر فى عائلة مرقس (اليسارى) ، والذى اشترى مؤخرا أحد أحزاب المعارضة ، زاد على هذا بأن أعلن أنه ينتوى ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية ، عملا بمبدأ الحق الطبيعى والتاريخى فى أن من يملك يحكم . لم يقف العرب مكتوفى الأيدى وصرحوا لأول مرة بأن سيطرتهم على مصر باتت فى خطر حقيقى لأول مرة منذ ١٩٥٢ ، وراح الكل -فى الصحافة والأحزاب- يعلن صراحة عن تعهداته وأچنداته الخارجية ، لصالح ما سقط وما لم يسقط من ريچيمات جبهة الرفض العربية-الإيرانية ، كما كان يسميها الرئيس السادات ، أو كما باتت تسمى فى السنوات الأخيرة بجبهة الملاوعة ، والتى أصبحت متواجدة تواجدا مباشرا على التربة المصرية من خلال التنظيمات المسلحة السرية المتحالفة مع قوى محلية ، أو من خلال غارات النهب والسلب القبلية . للحق هم ظلوا يشعرون بغبن هائل منذ صدور قانون قنن ما يسمى بوضع اليد ، حيث كانوا يعتبرون صحارى مصر (٩٣ ٪ من مساحتها) ملكا لهم هم ، وليست أرضا للدولة يحق لها التصرف فيها ما شاءت . حدثت مناوشات كثيرة ، لكن عمليا لم يحسوا بتغيير كبير ، إذ كان من يحصلون على الأرض يتقون شرهم وتخريبهم بأن يكلفوهم بحراستها مقابل أجر . على أن الطامة الحقيقة أتت مع قانون إباحة الحشيش والبانجو ، زراعة وتجارة . لم يفهموا أبدا أن هذا القانون نقلة حضارية كبرى لمصر ، وضعها فى مصاف الأمم الناضجة التى شطبت كلمة محرمات من قواميسها . فقط رأوا فيه نكاية متعمدة بهم تحديدا ، جردتهم بين عشية وضحاها من مصدر ثروتهم الحقيقى ، بأن جعلت العقاقير المخدرة تباع بأسعار زهيدة على أرفف الصيدليات والسوپرماركت . اعتبروه إعلان حرب عليهم ، ومسألة حياة أو موت ، وصاروا الآن يفجرون ويغيرون ويقاتلون الحكومة ، جنبا إلى جنب صراحة وعلنا مع أبناء عمومتهم الفلسطينيين . بعد ذلك بقليل دشن بدو مطروح ، المضارون ذات الضرر ، مبادرة مشابهة بالتشارك مع أبناء عمومتهم الليبيين ، وهكذا أصبحت مصر مسرحا من جديد لحروب الصحراء ، على نحو لم تشهده منذ أيام روميل ومونتجومرى . أغاروا على كل منتجعات الساحل الشمالى لمصر ، نهبوا محتوياتها واغتصبوا الكثير من الفتيات والنساء ، وها هم الآن يتجمعون استعدادا لغزو الأسكندرية .

تلك الشرارة التى كان ينتظرها الهشيم فى الداخل كان من الممكن أن تأتى من أى مكان ، وبالفعل جاءت من أقل الأماكن احتمالية : البورصة ! قرار هيئة سوق المال برفض اعتماد قرارات الجمعية العمومية لكيوپيد الخاصة ببيعها لشركة سعودية ، وإحالتها للوزير لاستطلاع رأى الوزارة ، ثم قرار مجدى المصرى بإحالة صفقة بيع كيوپيد للسعوديين لتحقيق مهنى يبحث جدواها الاستثمارية ، أدت كلها لأن هوت كامل أسعار الأسهم للحضيض . هذا رغم حرص وزير الاستثمار أن يؤكد فى بيانه ، أنه لا يعنى أى تراجع عن حرية السوق وفتح أبواب الاستثمار ، وأن الحكومة لا تفكر فى اتخاذ إجراء إدارى من أى نوع تجاه هذه الصفقة أو تجاه غيرها . هذه كانت سياسات عصور مضت ، وقد ولت بلا رجعة . كل ما هناك أنها ستمارس دورها فى ترسيخ الشفافية ، وهى لا تمنع -بل تشجع- أية مؤسسة خصوصية متخصصة -محلية أو أجنبية- من إجراء تقييماتها الخاصة للصفقة وإعلانها للجمهور . فقط ستشكل الوزارة لجنة خبراء لدراسة الجدوى الاستثمارية الحقيقية لها ، وتضع كافة النتائج أمام حملة الأسهم وأمام الرأى العمومى ، ليتخذوا قرارهم بناء على تلك النتائج .

ما حدث أن هؤلاء حملة الأسهم والرأى العمومى لم ينتظروا أية نتائج . صنعوها بأنفسهم . هرولوا للبيع ، ليس أسهم كيوپيد فقط ، إنما كل الأسهم . خبرتهم كانت تقول لهم هذا . المستثمرون الغربيون (غير المباشرين ، بمعنى من يستثمرون من خلال البورصة ، وأغلبهم موظفون بالشركات الكبرى مقيمون بمصر) ، يعتصمون بأسهم الشركات الرصينة ، وهم بطبعهم خارج مثل هذه الألعاب . دائما أبدا المضاربون العرب هم من يرفعون أسعار الأسهم . المستثمرون المصريون -الكتلة الأكبر من الاستثمارات- هم قطيع يجرى وراءهم ، لا أكثر . هذا شىء جميل ومريح ويحبه المصريون طوال الوقت . إنه أمل الربح السريع بالنسبة لهم . لا يفهمون أن البورصة لا تطبع نقودا ، وأن ثمة قيمة حقيقية ستعود لها الأسهم يوما ، ومن كسب جنيها ، معناه أن أحدا آخر قد خسره . من هنا فإن خروج أى أحد للتحدث فى الاستثمار الجاد ، كمجدى المصرى ، هو نذير شؤم كبير . إنه يشبه كشاف نور تهرب معه الفئران للجحور ، يعتقدون أن التمحيص سوف يطال أشغالهم . يبدأون البيع ، ويلحق بهم المصريون ، ويقع الانهيار . سهم كيوپيد الذى تضاعف لأربعة أضعاف سعره فى أيام قليلة بدأ يهوى بسرعة أكبر ، ولقاع أبعد ، وأغلب الأسهم الأخرى تجرى فى أثره !

النتائج امتدت للشارع هذه المرة . مظاهرات أمام مقر البورصة التقليدى بوسط القاهرة ، وأخرى أمام وزارة الاستثمار قطعت طريق المطار وشلت حركة المرور منه وإليه . كان ونس أحد زعماء التظاهر وبدا ضهرى حانقا جدا منه ، حين رأى وجهه على شاشة قناة ' الجعيرة ' وهو

يهتف مع الهاتفين : ' يسقط المصرى ! يعيش الشبكجى ! ' ، ولم يملك عارف سوى التعليق : ' هذا الذى طالما هاجم الإسلام بشراسة ها هو الآن يهتف باسم عمرو بن العاهر الأبتر والعاهرة الأشهر الجديد ؟ ! ' ، ولم يملك ضهرى إلا التصحيح : ' لا تنس أنه هتف أيضا لغزو عمرو بن العاهر والعاهرة الثانى : جمال عبمعصور ! ' ، ' على ما يبدو الخيانة الأرثوذوكسية المقوقسية جزء يسرى فى چيينات المصريين ! ' ، ' من قال لك أن من يخون مصرى أصلا ؟ إنهم طوال الوقت الطابور الخامس الآسيوى ! ' ، ويرد عارف بأسى : ' المهم ، لقد انفجرت فقاعة الغزو العربى الثالث لمصر ، الغزو المالى ، والنتيجة أن تبخرت كل مدخراتنا ! ' ، ' بل قل كل اقتصادنا صار فى مهب الريح ! ' ، ' بل السؤال : هل سيتوقف الأمر عند حدود مصر ؟ ! ' ، ' خايف كلامك يكون صح يا عارف يابنى ، وكأنك وحيد نفسه إللى بيتكلم ' .



إن الارتداد واسع النطاق عن الإسلام -إلى المسيحية وليس إلى العلمانية- يعنى لا محالة الحرب الأهلية ، ولا حل إلا استئصال الدين نفسه من الحياة المصرية !

يبدو أنه حين يتعلق الأمر بالاقتصاد ، فأنه لا يقف عند حدود الاقتصاد . كما يندلع النار فى صندوق بارود ، خرجت كل النقابات تطرح مطالبها الخاصة . مصر الجديدة لم تكن استثناء . ظهرت تجمعات حاشدة فى المسجد الذى يديره الشيخ حجاب ، ولوحظ تكاثف الأمن فى المنطقة . معظم السيدات والفتيات لم يعدن يأتين لرمسيس بسبب فتاوى ' التعزير ' . التعزير يختلف عن الحد . إنه العقوبة المتروكة لتقدير أولى أمر الإسلام والمسلمين . لأن الله رحمن رحيم فإن لعقوباته ' حدودا ' ، أما نواب الله فى الأرض فليسوا مثله تحدهم حدود أو يوجد ما يلزمهم بالرحمة أو بغيرها ، ومن ثم لهم حق وضع أو تغليظ العقوبات بلا حدود أو نصوص ، حسبما تلوح الحاجة لحماية المجتمع . على سبيل المثال لا يوجد ' حد ' يخص التبرج . من هنا تعودوا فى السنوات الأخيرة مثلا أن يلقوا ' المتبرجات الفاجرات ' بماء النار فى وجوههن ، أو يشجوا صدورهن أو بطونهن العارية ، بمطواة . توالت الفتاوى تقول إن المتبرجات الفاجرات هن أعداء للإسلام ، صريحات الكفر أعلن الحرب على العقيدة فى عقر دارها . من هنا فتعزيرهن هو واجب على المؤمنين جميعا درءا للضرر . تكليف كل الناس بإقامة التعزير كان أمرا جديدا ، لكن الجديد حقا هو أسلوب التعزير نفسه الذى راحت تقترحه هذه المرة : الاغتصاب ! الخطف ثم الاغتصاب ، أو -لمن استطاع إليه سبيلا ، وهو الأفضل لأنه يحقق حقا العبرة لأولى الألباب كما يجب : الاغتصاب العلنى على قارعة الطريق !

لم تمر ثلاثة أيام على قرار مجدى المصرى المشئوم ، حتى عمت الاضطرابات كل البلاد ! اضطرابات طائفية وعمالية ونقابية وقضائية وصحافية ومساجدية وطلابية ، كل أرجاء مصر ، وراحت تتصاعد يوما بعد يوم . أغلب ما تطالب به تلك المظاهرات لم يكن له علاقة مباشرة أو حتى غير مباشرة بالبورصة . فقط كانت فرصة انتهزها الجميع ، ولعلها كانت بالفعل فرصة مثالية ، إذ مس تهاوى الأسعار قطاعا عريضا من الشعب الذى تعود وضع مدخراته فى أسهم الشركات . اختلط الحديث عن البطالة ، بالحديث عن الانحلال الأخلاقى ، بخطب المعارضة البرلمانية عن فساد يشبته دليل أو لا يشبته شىء ، بتهييج الصحافة حول كل شىء ، كل شىء وعكسه حتى فى الصفحة نفسها . ظهر كلام عن أن تمويل الاضطرابات يأتى من إيران . ميليشيات الچانچاويد باتت أشد شراسة فى الإغارة على قرى صعيد مصر ونهب ممتلكات فلاحيها . كذا كثر الحديث عن فرق اغتيالات أرسلتها تنظيمات ' الممانعة ' فى البلدان المجاورة ، من لا يزال فى السلطة منهم ومن طرد وأصبح سريا . أرسلتها الفصائل الفلسطينية وحزب الجماهيرية الليبى ، لقتل المسئولين المصريين ولتفجيرات انتحارية . كما لم تعد هذه قاصرة على الهجمات البرية ، بل استخدم فيها البحر لأول مرة ، هذا من خلال إرسال حزب البعث السورى لمغتاليه وفرقه الاستخباراتية عن طريق القوارب ، فبشار الأسد لا يزال فى السلطة حتى اللحظة ، رغم إدانته شخصيا من قبل محكمة دولية بقتل رفيق الحريرى ونحو مائتين آخرين على امتداد خريطة العالم ، لكن أميركا المحكومة طوال الوقت إما بجمهوريين ضعفاء أو بديموقراطيين خونة ، لم تقم أبدا بواجبها المنزلى فى إسقاطه أو قتله . أيضا بالمثل لكن فقط بهدف نهب السفن المصرية أو القادمة لمصر ، ظهر قراصنة بحار ليبيون فى محيط ميناء الأسكندرية فأضحت بين فكى كماشة من البر والبحر ، وأيضا لم يحدث أن حاول أحد ردع ريچيم الحكم فى ليبيا .

البعد الطائفى كان أسوأ الأشياء جميعا رغم أنه أبعد ما يكون عن علاقة مباشرة بالبورصة أو قرارات وزير الاستثمار . رغم أن حركة الارتداد كانت سلمية وبمحض إرادة أصحابها ومبنية فقط على الجدليات العقلية ولم ترصد أية ضغوط مسيحية وراءها ، إلا أن التحرشات والاغتيالات تصاعدت ضد أولئك المرتدين من ميليشيات الجماعات والإخوان الشهيرة ، والتى طالما اعتادت التباهى بنفسها فى الانتخابات والجامعات

والشوارع . كان رد فعل أهالى تلك البلدات أن أعلنوا أنها باتت الآن مناطق ' محررة ' ، ولم تعد جزءا من ' المستعمرات العربية ' (أو ' الاحتلال العربى ' لدى من يرفضون منهم إطلاق لفظة استعمار على الغزو العربى) . رغم أن هذا لم يكن إلا طنطنة ابتهاجية لا أكثر ، ولم يمثل عمليا أى واقع قانونى على الأرض أو خروجا على سلطة الدولة ، كذا لم يكن هناك أحد ممن يدعون أنفسهم بالأشراف فى تلك البلدات كى يحرض أحد على طردهم أو قتلهم ، ولم يحدث بعد أن تقدموا نحو القرى محدودة العدد التى تعج بالقبائل العربية فى صعيد مصر ، إلا أن الإسلاميين اعتبروا ما حدث إهانة لا تغتفر لهم ، ولا رد عليه إلا إعلان حرب شاملة . تلك القبائل العربية -بالذات المتمركزة فى محيط مدينة أسيوط شمالا وشرقا- هى التى هبت هبة رجل واحد للإغارة على القرى المسيحية ، وبالأخص شمالا إلى المنيا لا سيما قرى أبى قرقاص ، إلا أنه فيما جرى حتى الآن من معارك أبلت الميليشيات المسيحية الوليدة بلاء حسنا فوق المتوقع . وحيد نفسه استغرب لحد كبير ، فهو كان صاحب رأى أن ' المسيحيين مطرح ما تحطهم مطرح ما تلقاهم ' ، واستبدل به رأيا جديد أفضى به لضهرى فى المرة الوحيدة التى هاتفه فيها مؤخرا ، فحواه أنه بما أن الأمر لم يعد مجرد حالات فردية أو محصورة فى هذه القرية أو تلك ، وبما أننا لا نعدم عددا كافيا من المتعصبين المسلمين لن يترك هؤلاء على حالهم الجديدة فى هدوء ، فإن كل الحسابات اختلفت : إن الارتداد واسع النطاق عن الإسلام -إلى المسيحية وليس إلى العلمانية- يعنى لا محالة الحرب الأهلية ، ولا حل إلا استئصال الدين نفسه من الحياة المصرية !



المكتوب ع الچبين لازم تشوفه العين !

هنا -ولأول مرة- يبدى ضهرى توجسا من قضية الارتداد : ' فى البدء أنا كنت متفائلا بالأمر لأن من الجيد دائما أن يستمع الإنسان بحرص لصوت چيبناته ، أو كما يقولها الأمريكان 'Be Yourself!' ، أو كما يقولها المصريون ' المكتوب ع الچبين لازم تشوفه العين ! ' ، ومن ثم يعيش حسبما تمليه عليه طبيعته الداخلية ، لكن ما يحدث الآن هو أن اختلط الحابل بالنابل . فى ظل هذا التوتر والتخبط والعصبية تعم الفوضى والعشوائية والارتجال ، ولا يستمع الإنسان لأى شىء ؛ فقط تجرفه الأهواء مع أو ضد ، أو يذهب ثم يغير رأيه ، وغير ذلك من السلوكيات العشوائية . عامة أيضا التطفر من غشاشين إلى مغفلين يؤدى لاستقرار البركة الچيبنية ، لكن ماذا لو كان هؤلاء مغفلين غير حقيقيين إنما بتطفر وقتى غير أصيل أو غير عميق چيبنيا ورفضوا التعرض للافتراس ؟ الأسوأ ماذا لو كان الغشاشون أنفسهم من ذوى المكون الثقافى العالى ويقدسون ما لديهم من أفكار ومعتقدات لدرجة الموت فى سبيلها ، ويرون كل خروج عنها بدعا وضلالات تستحق الموت بدورها . لا أعتقد أن أحدا درس وضعا كهذا من قبل ؛ فقط المؤكد أن اضطرابا هائلا سيعم الآن البركة الچيبنية ، وعلى أقل تقدير لا حل إلا بتدخل طرف ثالث ! ' . ويستطرد بذات الجدية ، رغم أنه فى السابق كان ذات الكلام يستخدم للفكاهة : ' هو بعينه بغباوته ! للمرة المليون حاولت أفهامه أن استئصال الدين لن يقدم ولن يؤخر ؛ ما لم تذهبوا للب الأشياء لن تحققوا شيئا ! ' .

روميو كان الوحيد المبادر للتهدئة من روعه : ' خد الأمور ببساطة يا حاج ، القلق بتاعك موش ها يزود ولا ينقص ، طالما زى طول عمرك ما علمتنا : ' المكتوب ع الچبين لازم تشوفه العين ! ' ' .

– عندك حق يا ابنى !



ما فائدة الديموقراطية

إذا كان كل المعروض فى البازار هو ديكتاتوريات ؟

على أنه فجأة ودون سابق انذار لأحد فى شركة رمسيس أو فى كل مصر ، يظهر وحيد -الذى افتقدوا وجوده بينهم منذ جنازة دكتور فرغلى- يظهر ذات مساء ضيفا على شاشة التليڤزيون ، المرة الأولى له منذ اعتزاله الكتابة . حين أعيد بث البرنامج فى الصباح التالى ، تجمع الكل فى حجرة إدوارد لمشاهدته ، لسبب واحد على الأقل ، هو أنهم فوجئوا بعد وصولهم بقرار يوقف التداول فى البورصة لأجل غير مسمى . القرار الذى احتجوا عليه فى البداية ، ثم سرعان ما توافقوا على إنه القرار السليم لحماية البورصة من مزيد من الانهيار .

رحبت المضيفة بوحيد كرائد الصحافة الاقتصادية الناطقة بالعربية ، وبدأت تسأله فى تصوراته حول وضع الاقتصاد المصرى ، فى ضوء اللغط الواسع الذى ساد مؤخرا الحياة الاقتصادية فى مصر ، لا سيما ملابسات صفقة كيوپيد وقرار الحكومة بمراجعتها . شرع وحيد فى وصف عام لمعالم

الاقتصادات المتقدمة القائمة على التنافسية والشغل الشاق والتخطيط بعيد المجرى . نوه إيجابيا بالمشوار الكبير الذى قطعته مصر على مدى العقود الأخيرة فى الانفتاح على العالم وتحرير الاقتصاد ، ثم توقف بسلسلة من العبارات القاسية عن طريقة التفكير العربية فى الاقتصاد القائمة على المضاربة والربح السريع دونما بناء حقيقى . ثم قال بوضوح لا يقبل اللبس إنه لو تواصل تدفق المال العربى على مصر ، فإن مصير الاقتصاد المصرى هو الخراب المطلق لا محالة !

لحد واضح بدت المضيفة مأخوذة بالرؤية الواضحة الصارمة التى طرحها وحيد بإيجاز أقرب للطلقات ، فما كان منها لا شعوريا إلا أن تعجلت بطرح آخر سؤال كان قد أعدته لختم اللقاء ، ألا وهو ما هو الحل أو ما رؤيته للمستقبل ؟ بنفس الإيجاز والوضوح تحدث وحيد عما أسماه تحارب النهضة فقال : ' أقصد بالنهضة طفرة ١- سريعة ٢- مستدامة ، للارتقاء بشعوب بدائية تقنيا لمستوى مقارب لجبهة التقنية الأكثر تقدما فى العالم ' . ثم حدد قائلا : ' النهضات على سبيل الحصر : ألمانيا بسمارك ، ياپان الميجى ، دول الساحل الجنوبى لأوروپا تركيا أتاتورك وإيطاليا الدوتشى وإسپانيا فرانكو وبرتجال سالازار ويونان چنرالات فيلم ' زد ' ، النمور الآسيوية وبالأخص كوريا وتايوان وسنجافورة التى يقبع حاليا أغلب الچنرالات التى صنعوهما كى يتعفنوا فى صمت فى السجون بتهمة انتهاك حقوق الإنسان ، وأخيرا تشيلى الچنرال پينوتشيت ' .

وعن هذه الأخيرة استرسل على نحو مطول ، وكأنه يوفى موضوع هذا البرنامج الخاص ' النهضة ' . قال إن ما فعله پينوتشيت أن استقدم اثنى عشر خريجا من مدرسة شيكاجو التى تؤمن بالحرية الاقتصادية الكاملة أى الليبرالية بمعناها الدارويني المطلق ، وعينهم وزراء مطلقى الصلاحيات فى تطبيق ما يقول الكتاب . بعد ذلك يبدأ دوره هو فى حماية هذه الليبرالية بمنهج استئصالى extirpationist لا يعرف الهوادة . الآن ، أقصد فى خلال ثلاث سنوات فقط من قتل سلفه أيينى فى انقلاب ١١ سپتمبر ١٩٧٣ ، ما هى النتيجة : قفز أضعف اقتصاد فى أميركا الجنوبية ليصبح أقوى اقتصاد فيها إطلاقا ، بما فى ذلك تقزيمه لاقتصاد البلدين الكبيرين البرازيل والأرچنتين . فى الاقتصاد اللغة الوحيدة هى الأرقام . لا مجال للشعارات !

هل تعلمون ماذا كانت هدية كندا لپينوتشيت المعتزل فى عيد ميلاده الثمانين يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٥ ؟ إنها ترشيح تشيلى لعضوية اتفاقية التداول الحر لأميركا الشمالية (نافتا) التى لا تضم سوى الولايات المتحدة وكندا والمكسيك .

هل تعرفون ماذا كانت تفعل الولايات المتحدة نفسها فى تلك الأثناء ؟ كانت ترسل الخبراء لسانتياجو فيما يشبه بعثات الحج ، لاستطلاع كيف نجح بحق الجحيم أول نظام للضمان الاجتماعى من تنفيذ وتمويل القطاع الخصوصى فى التاريخ الإنسانى .

هل تعرفون ماذا قال قبلها الرئيس الأميركى چورچ بوش حين زار تشيلى فى يوم ٦ ديسيمبر ١٩٩٠ ؟ قال عنه إنه ملهم لنصف الكرة الغربى وللعالم . (وأخذ يقرأ النص :) You deserve your reputation as an economic model for other countries in the region and in the world. Your commitment to market-based solutions inspires the hemisphere. !

بل هل تعرفون بماذا كان يحاج أصلا مؤسس مدرسة شيكاجو (أو ما تسمى أحيانا بحكم تمحورها حول السياسات النقدية مدرسة النقوديين Chicago School of Monetarists ، أى التى تحصر وظيفة الدولة ، أو بالأحرى البنك المركزى المستقل عن الدولة ، فى رسم السياسة النقدية ، أى تحديد معدل الفائدة ومحاولة كبح التضخم ، وما إلى هذا) ، بماذا كان يحاج ميلتون فريدمان علمها الأشهر ، ومتوج نوبل ١٩٧٦ ؟ لقد طالب فى كتابه الأشهر (بالاشتراك مع زوجته روز) ' الرأسمالية والانعتاق ' Capitalism and Freedom ١٩٦٢ ، بضرائب سالبة على الدخل . نعم سالبة ، من يربح أكثر يأخذ مكافأة من ميزانية الحكومة ، ومن خلالها اقترح حلوله الشهيرة لمعضلة الضمان الاجتماعى . هذا ناهيك عن فكرة أنه حين تتداعى إحدى الصناعات لا يجب أن تقف الدولة مكتوفة اليدين ، بل تتدخل و... (نعم !) تقضى عليها ، وأن ذلك هو دور الدولة الوحيد المنشود فى دنيا الاقتصاد ، ما سواه هو أن تتلاشى من الوجود ! هكذا وصلت الجرأة والخيال بهذه المدرسة . ولا شك أن نجاحات تشيلى المذهلة لم تجعل كل هذه حسابات نظرية ، بل واقعا ملموسا باهر الروعة ، وستظل بلا شك مصدر فخر للأبد للمدرسة التى أسس جامعتها روكيفيللر العظيم (وأسست بدورها -أى الجامعة- من بين ما أسست أول قسم لعلم الاجتماع فى العالم) ، ومصدر فخر لمنظريها العظام ولكل أصحاب اللقب المرموق Chicago Boys ، والأهم مصدر إلهام للمحتمعات البشرية جمعاء التواقة لاقتصاد عفى تنافسى ومستدام الازدهار .

أما عن صبية شيكاجو التشيليين فعاد وحيد ليذكر أبرز الأسماء . أشهرهم إطلاقا عالميا هو خوسيه پينيرا ، مهندس بل قل المخترع من الخدش لشيء دخل التاريخ الإنسانى لأول مرة ، شيء اسمه ضمان اجتماعى قطاع خصوصى ! كما لعلكم تعلمون هذا الرجل استدعته لاحقا عشرات (نعم عشرات بلا مبالغة) الدول بعد ذلك للاشتغال كمستشار لها ، ولا تزال الولايات المتحدة نفسها -أم الرأسمالية التنافسية فى كوكبنا- ترسل الموفدين لسنتياجو أملا فى تطبيق هذا النظام عندها ، لكنها -ويا للمفارقة- لم تفلح حتى اللحظة . طبعا بسبب عنت اليسار ممثلا فى الحزب الديموقراطى ومن لف لفه من نقابات وتنظيمات ... إلخ ، أو حتى بسبب عدم تقبل الشعب ككل للفكرة بما فى ذلك خلال فترات حكم الحزب الجمهورى !

ثم قال كموجز : ' إنها قصة النهضة التى انتشلت -وفى لمح البصر تقريبا- تشيلى من التحول لدولة إشتراكية فقيرة على الطريقة الكوبية وجعلت منها بدلا من ذلك أقوى اقتصاد فى أميركا الجنوبية . القبيح فيها هو فقط حكاية دعاوى حقوق الإنسان اللزجة التى لا تكفل فى الواقع سوى حق واحد هو حق الفقر . لماذا لا يتحرك هؤلاء عندما يقود طاغية ديماجوجى شعبه لحروب يموت فيها الملايين باسم الوطنية أو غيرها ، بينما يملأون الدنيا صراخا عندما يضطر مصلح اقتصادى للتخلص من القوى التى تعرقل ازدهار شعبه ؟ ' .

بدا وحيد مرتاحا جدا منطلقا جدا حين كان الكلام عن الاقتصاد ، تخصصه . لكن حين التقطت المذيعة من لسانة كلمة الحرية ، بدا بعض التقلص على عضلات وجهه وبعض التهدج فى صوته ، وإن حاول مداراته قدر الإمكان . سألت ' ولكن كل ما يقال هذه الأيام فى الإعلام ويحدث فى الشارع والمصانع أليس جزءا من ممارسة الحرية ؟ ' . ويثور وحيد ثورة مكتومة : ما هو تعريف الحرية أصلا ؟ الديموقراطية قد تكون العدو الأول للحرية . الاشتراكيون يريدون أموالك لينفقوها كما يحلو لهم ، يقولون إنهم يفهمون أفضل منك كيف تنفقها ، ويأخذونها تحت مسمى الضرائب والمجتمع . الإسلاميون يريدون الإشراف على كل كبيرة وصغيرة فى حياتك ، إنهم حتى يذهبون معك للفراش ولدورة المياه ، وفى النهاية يقتلونك لو شئت ترك الإسلام . الناصريون يريدون حياتك من البداية ليحاربوا بها أميركا وإسرائيل حروبا لا تنتهى إلا يوم القيامة العشا (وليحاربوا بها بعضهم البعض فى أوقات فراغهم !) . الديموقراطية تفهم فى منطقتنا على أنها صناديق انتخاب تتسابق عليها ميليشيات مسلحة كى تحصل على رخصة من الشعب باسم الشعب ومن أجل الشعب لتصفية كل مخالفيها فى الرأى جسديا . هذا بينما على الأقل الديموقراطية كما تطبق فى بقية العالم تفترض بداهة أن يجمع الجميع على الحريات الفردية والاقتصادية كخطوط حمراء لا يفكر أى حزب فى المساس بها ، ورغم ذلك فشلت فى منع البعض من سرقة صناديق الانتخاب ' الحرة ' لحساب ديكتاتوريته الاجتماعية أو الاقتصادية ، كما فى حالتى أدولف هتلر وسلڤادور أيندى بالترتيب .

... أين الحرية فى كل هذا ؟ ما فائدة الديموقراطية إذا كان كل المعروض فى البازار هو ديكتاتوريات ؟



مصائر الشعوب أهم من أن يكون للشعوب رأى فيها !

حتى عموم الناس يستخدمون كلمة ديموقراطية كنوع من العلكة أو الشماعة . أنا أعرف بعض الشباب ممن يتحدثون بحماس عن أن ما لدينا من ديموقراطية هو أقل مما يجب ، لكن حين نسألهم لا يعرفون بالضبط ماذا يريدون من الديموقراطية بالضبط ، بمعنى أى حزب يؤيدون ، لا يجيبون . هم فقط يريدون أن يريحوا دماغهم من التفكير . هنا أريد أن أميز بين الحرية الاقتصادية باعتبارها الأصل الذى تنبثق منه كل الحريات ، وبين الحرية السياسية التى -على العكس من كل الجمال الظاهرى للكلمة- قد تكون استلابا غير منظور لكل الحريات . ليس لدى مثال أعظم من يوليوس قيصر : حاكم فرد ملك طاغية فى مواجهة پرلمان ديموقراطى يؤمن بالجمهورية والحريات السياسية للشعب . هذا هو الظاهر ، أما الجوهر فشيء آخر : الرجل كان يسعى لحرية اقتصادية للغنى والفقير ، للرومانى وللأجنبى ، إن لم نقل أيضا للسيد وللعبد ، هذا كى يحصل كل إنسان على ثمرة عرقه . أما السيناتورات التحريضيون -كاسيوس وغيره- الناطقون باسم الجمهورية والديموقراطية والمدلكون لغرائز الشعب فقد كان لهم هدف آخر : الاستيلاء لأنفسهم على عرق هذا الشعب والشعوب الأخرى من خلال التشريعات والضرائب والجمارك والمصادرات التى تعارض القوانين الطبيعية ومبدأ التنافسية وحرية الاقتصاد ، التى يسنونها باسم الشعب من الشعب إلى الشعب ومن أجل (نهب) الشعب . وبقية القصة معروفة : قتل هؤلاء الأثرياء الفاسدون قيصر ، واستجلبوا العبيد والمرتزقة لحمايتهم ، ودخلت روما فى حرب أهلية ، وكادت كل الإمبراطورية تنهار ، لولا أن نجح حملة الصولجان (الفاشيون ، وهم ظاهريا الحرس الشخصى لقيصر لكنهم فى الجوهر جماعة منظمة شبه سرية كرست نفسها

للسهر على حراسة القيم السامية لروما) ، نجحوا فى تنصيب الوريث الشرعى الذى اختاره يوليوس ، أوكتيڤيوس -أو أغسطس كما عرف لاحقا- وأعاد الحلم الرومانى القديم ، الذى هو بالأحرى مجرد امتداد لحلم أرسطو والأسكندر : الذهاب بالحضارة إلى شعوب العالم حيث هى ، وطبعا ليس إحضارها هى إلى مركز الحضارة (وتلك قصة أخرى) .

إذن لا حل لما نحن فيه إلا تخفيف منابع الديكتاتورية الحقيقية لا الظاهرية . أى إجراء حيال هؤلاء أقل من الاستئصال هو بمثابة انتحار جماعى . هم ناجحون جدا فى تحريضاتهم التى تستغل العاطفية الزائدة لدى شعوبنا . هم يفوزون دوما ، بينما من يتحدث بلغة العقل والمنطق يجد نفسه معزولا متهما ومكروها . الحرية الحقيقية تفترض ضمنا عدم إعطاء الحرية لأى من كل هؤلاء . حين يبدأ السياسيون الضرب تحت الحزام فيما يسمى لعبة السياسة ، بأن يبدأوا فى مخاطبة عواطف وغرائز الشعوب لا عقولها ، يجب أن نتوقف لنقول إن هذه مصائر شعوب ، وإن مصائر الشعوب أهم من أن يكون للشعوب رأى فيها !

... إن الديموقراطية فى رأيى لا تصلح لأى شعب !



لو تخيلنا النظريات المختلفة لنظم الحكم ملاكمين يتصارعون فى حلبة ، فإن الديموقراطية هى الفوطة !

وتسأل المذيعة على عجل ساذج بكاد يصل لدرجة الهلع : ' ولا لأميركا ؟ ' .

– ولا لإنجلترا ، ولا حتى لأثينا إللى اخترعتها . شوف الفلاسفة بتوعها قالوا إيه عنها . لو تخيلنا النظريات المختلفة لنظم الحكم ملاكمين يتصارعون فى حلبة ، فإن الديموقراطية هى الفوطة ! إنها الاستسلام وتسليم كل شىء لدهماء الشوارع لإراحة الدماغ ! أنت فشلت فى التوصل لنظام جيد للحكم ، فتقول : ' خلاص ! نخليها ديموقراطية ! ' .

هنا أريد أن أكون واضحا . مرجعى ليس تلك الحقيقة العيانية البسيطة التى يعرفها الصغير قبل الكبير ، من أن تطبيق الديموقراطية لدى الشعوب المختلفة يؤدى بالضرورة لحروب أهلية (تماما كما أن ظهور أى مورد طبيعى يؤدى لنفس الشىء) . كلامى لا علاقة له بالتقدم أو التخلف لهذا الشعب أو ذاك . أنا عاوز أقول إن الشعوب مهما ارتقت أو نضجت ، فستظل دوما ثمة فجوة كبرى بينها وبين المعرفة العلمية والتقنية لذات العصر . من هنا لن تثمر الديموقراطية فى أى مكان أو زمان ، إلا شد المجتمع للوراء . ظاهريا أنت تأتى بالناس لصناديق الاقتراع لتسألهم عن أيهما أفضل هذا الشخص أم ذاك ، أو هذا الحزب أو ذاك . لكن فى الحقيقية أنت تسألهم ما هو أفضل نظام اقتصادى ، ما هى كيفية التعامل مع تقنيات المستقبل ، ما هى أنسب علاقات دولية للبلد ، ما هو الأفضل لمستقبل العالم ككل ، ولاقتصاد العالم ككل . أشياء يفهمها فقط الخبراء المتخصصون جدا ، بل ربما يختلفون فيها فيما بينهم . هذه شئون تفوق فهم السياسيين الذين عامة لا يجيدون سوى التحريض والخطابة ، فما بالك بفهم عموم الشعب . إنها -أى الديموقراطية- شىء لا يجب السماح به أبدا فيما هو فوق مستوى البلديات . يجملوا الميادين إزاى ، يلموا الزبالة إزاى ، هم أدرى بمدينتهم . أقصى مدى للديموقراطية أنها مثلا شىء جيد للقرى . الكل مزارعون يعرفون نفس الأشياء واكتسبوا ذات القدرات ، والديموقراطية لا تسألهم الرأى فى أشياء لا يعلمونها . هكذا نشأت فى أميركا مثلا . عدا ذلك يجب أن تكون السلطة مطلقة للعلماء وللشركات والآلات الذكية . المشكلة أننا نرفض الديكتاتورية حين يتطلبها قدوم المهندس الزراعى . أما بالنسبة للحريات الشخصية ، فالمطلوب قمة الديموقراطية ، أو بالأحرى المفروض ما فيش رأى للشعب أصلا . الواحد يتفرج على أفلام إيه ، أو الواحدة تلبس إيه ، كل فرد أدرى بنفسه ، حق مطلق ولا ديموقراطية فى هذا .

إن الديموقراطية ليست سوى فكرة إنسانوية مثالية ساذجة أخرى ، مثلها مثل التسامح المسيحى أو الاشتراكية أو استقلال الشعوب ، وأنا لا أرفضها لأيديولوچية عندى أو لمزاج شخصى ، إنما لأنها جميعا أخذت فرصها كاملة على أرض الواقع وثبت فشلها . التسامح المسيحى تسبب فى أكبر بحور للدم فى تاريخ أوروپا ، الشيوعية امتلكت القنابل النووية وسفن الفضاء لكنها انهارت من جوع البطون ، كل الشعوب أصبحت تحكم نفسها فلم ترث سوى الفقر والفساد والمزيد من التخلف . الأسوأ ، أنه حتى لو رضينا بها كتصويتات متساوية لعقول غير متساوية وجيوب غير متساوية ، فالمفروض أن تظل سباقا بين مصالح وبرامج ورؤى ، أى نقاشا فكريا عقليا بالأساس ، لكن ما يحدث الآن أنها باتت سباقا انفعاليا بالكامل ، مداعبة لغرائز الناس ، إبهارهم بالخطابة أو بوسامة المرشح أو بأى شىء إلا محتوى ما يريد ، فهو غالبا لا يريد سوى السلطة ، ويبدو أن

الكل بات يعرف هذا ويسلم به ولا يرى به مشكلة ، ويبحث فقط عن الإثارة الكامنة فى ' لعبة ' الديموقراطية هذه ، وكأنها سباق لاختيار المواهب الغنائية الجديدة !

الديموقراطية يا أستاذة تصلح فقط فى المجتمعات الريفية المغلقة ، حيث الكل أصحاب مزارع صغيرة وحيث العقول متساوية والجيوب متساوية ، ومن هم أغراب أو دون ذلك لا يحضر أساسا للتاون هول . ورغم كل هذا احتاج هذا النموذج الرائع للبلدات الأميركية الباكرة لوظيفة يتناساها الجميع حين يتكلمون عن الديموقراطية والمساواة ، وظيفة المأمور ! عندنا فى مصر الكل يهوى القول إن الحكومة ماما الشعب التى لا يعيش بدونها . هذا قول حق يراد به باطل . مما لا شك فيه هى أقوى وأقدم حكومة فى التاريخ ، لكنى حين محصت ذلك التاريخ مؤخرا ، اكتشفت أن الفرعون لم يكن يطعم أحدا ولم يكن ينكر على أحد أفكاره أو سلوكياته ؛ وكان ينأى بنفسه عن عقائد الناس وعن أنشطتهم الاقتصادية والتجارية ، وفقط يتدخل حين يرى تلك الأفكار والممارسات تهدد الحرية التى يقوم عليها المجتمع . بعبارة أخرى ، هو المأمور الأميركى الذى يسهر حين ينام الجميع ، يحصر وظيفته فى حماية الوطن من الأخطار الخارجية والداخلية . كان يحصل الضريبة فقط لتمويل هذا الغرض ، زائد ربما بعض المشروعات المستقبلية التى قد لا يراها الأفراد مجدية . وعامة إلى يتولى القطاع الخصوصى كل الأنشطة إطلاقا مستقبلا ، أقول إن الحكومة الصغيرة محدودة وحددة المهام ، ستكون شيئا كفئا وشفافا . الحكومة -على الأقل فى المجرى المنظور- شىء لا مفر منه ، بشرط أن تنحصر وظيفته فى القمع داخليا وشن الحروب خارجيا ، السهر على حراسة حريات الناس الطبيعية ، الاقتصادية والشخصية ، وليست الوضعية ، دينية كانت أو مدنية ، كالديموقراطية والمشاركة السياسية وكل هذا الهراء . بعبارة أخرى وظيفتها اجتثاث أعداء الحرية .



ليس بوسع الغرب -رغم كل تقدمه التقنى- حكم العالم وهو نفسه محكوم بالديموقراطية ،
والأسوأ أن من المستحيل عليه حكم العالم وهو يسمح بهجرته إليه ، لأن السؤال سيصبح ساعتها من الذى يحكم من ؟ !

بعد أن انتهى وحيد من تصوراته لشكل الحكم الأمثل فى رايه لمصر ، عاد ليفاجئ المضيفة بأنه لا يفرق فى كلامه بين أمة متقدمة وأخرى أقل تقدما . قال إنه ليس بوسع الغرب -رغم كل تقدمه التقنى- حكم العالم وهو نفسه محكوم بالديموقراطية ، والأسوأ أن من المستحيل عليه حكم العالم وهو يسمح بهجرته إليه ، لأن السؤال سيصبح ساعتها من الذى يحكم من ؟ ! تلك وهذه -الديموقراطية والهجرة- تجعله مفتقدا للرؤية الجلوبية أو حتى مجرد تقدير المخاطر التى تأتيه من العالم الثالث ، ذلك لأن حكوماته نفسها تنتخبها شعوب عاطفية قصيرة النظر مهما قلنا فى رقيها وتحضرها ، وتلك قصة أخرى يطول شرحها وتحوى عشرات الكوارث الكبرى منذ تركهم إمبراطورية روما تضمحل وتسقط تحت قصف استجلاب العبيد لمركزها وتأثر السادة بسيكولوجية العبيد (الحاقدة وضيقة النظر ... إلخ) . الأسوأ أن هذا لا يزال مستمرا ومتصاعدا إلى اليوم ، وتلك نفسها قد تكون أسباب استهانتهم بخطر أمثال لينين وجاندى وناصر والخومينى ومانديلا وعدم قتلهم لهم فى مهدهم ، ومن ثم طالما كبد أولئك الحكام مسيرة الحضارة الإنسانية أثمانا باهظة نتيجة سوء تقديرهم ، ذلك لأنهم منتخبون ليس فقط من قبل العبيد إنما من قبل سادة متأثرين بالعبيد إن لم يكن سيكولوچيا فتوهما فى أفكار رومانسية كتفاعل الثقافات وتساوى البشر وما شابه ، وإن لم يكن هذا أو ذاك فتسليما ببساطة بوجودهم كأمر واقع .

أشار وحيد لحرص بعض الأمم على المتقدمة على حماية نفسها من الهجرة وضرب المثل باليابان ، كما أشار لتشدد إسرائيل المتنامى فى حماية ديموجرافياتها ، وأعزى بدرجة كبيرة لهذا القفزات السريع لهذين البلدين فى التقنيات المستقبلية مقارنة ببلدين كأميركا وبريطانيا ، المفتوحتين ع البحرى حسب تعبيره . عند هذه المرحلة بدأ يصبح أقل ارتياحا وراوده شىء من العصبية ، بالأخص حين عاد ليكون أكثر تفصيلا فيما يخص الإسلاميين وما تشهده البلاد من بوادر حرب أهلية ، وراح يتمهل أو ربما يتلعثم وهو ينتقى الكلمات : الإسلام الذى ينادون به هو من ألفه إلى يائه برنامج مصادرة للحريات لا أكثر ولا أقل . ومن يطرح برنامجا لمصادرة الحريات ، من حق المجتمع عليه أن يسلبه حريته بل ويسلبه حياته لو لزم الأمر . هنا لا يوجد شىء اسمه ديموقراطية أو حرية تعبير أو انتخابات أو تداول سلطة . لا حرية لأحد فى سلب حريات الآخرين ، لأن ببساطة حريتى خط أحمر دونه الموت . ليست هى فقط بل حقى وحق كل أحد فى اكتشاف واختراع حريات جديدة كل يوم ، بلا أية حدود أو محظورات أو سقف ، إلا سقف قوانين أمنا الطبيعة . عدا ذلك لا سلطان على حرياتنا لأى الإنسان ولا حتى للإنسانية كلها . أقصى ما تريده الاشتراكية بكل بشاعتها ، أن تسلبك بعض أموالك باسم الضرائب . الإسلام الذى يريدونه لنا يسلبنا كل شىء ، لا روحنا ولا أفكارنا ولا أموالنا ولا أطفالنا ولا

أحلامنا فقط ، بل حتى أجسادنا . نعم ، الإسلاميون يعتقدون أن حتى أجسادنا ملك لهم ، يحددون لها ماذا تأكل وماذا لا تأكل ، ماذا تشرب وماذا لا تشرب ، ماذا ترتدى وماذا لا ترتدى ، ماذا ترى وماذا لا ترى ، ماذا تسمع وماذا لا تسمع ، يحددون لها أين تنام ، لا يسمحون لها بممارسة الجنس إلا بتصريح كتابى مسبق منهم ، ويرجمونها حتى الموت لو نامت فى السرير الخطأ . ماذا تركوا لنا ؟

الحريات القاعدية ثلاث : أكبرها وأهمها وأكثرها قاعدية وأم كل الحريات هى الحرية الاقتصادية ، أن لا يدعى أحد أنه يفهم أفضل منك كيف تنفق نقودك . الحرية الثانية هى حرية الحراك الاجتماعى ، حرية الارتقاء الطبقى ، أن تنال نصيب اجتهادك ارتقاء فى الثروة والمكانة وكل شىء (وطبعا أن تهبط لو ثبت عدم أحقيتك) . الشرط الوحيد أن يكون هذا ارتقاء فرديا محضا ، لا جماعية ولا بلطجة فيه ، ليس أنت وأقاربك ، ليس أنت وبنى لونك أو عرقك أو دينك ، ليس أنت وزملاءك فى النقابة . الحرية الثالثة هى الحرية الشخصية ، كل ما يمت لحرية الفرد بصلة ، المأكل الملبس المشرب الجنس الاعتقاد حرية الرأى ، أى شىء بشرط ألا ينطوى على محاولة لتقييد حرية أحد .

ثم أضاف : ' عند هذه النقطة أريد أيضا أن أكون واضحا جدا فى شيئين : أولا أريد أن أكون واضحا جدا فى أن سندى فيما يخص الإسلاميين ، ليس ما يقوله الدستور المصرى أو القانون المصرى من حظر الأحزاب على أسس دينية . أنا لا ضير لدى كمواطن أن يكون هناك حزب يرفع شعار ' من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر ' . هذا حزب لن يضر سوى أصحابه . أوروبا بها أحزاب كثيرة تحمل كلمة مسيحى ، لكنها جميعا تؤمن باقتصاد السوق وبحرية الفرد . ما قد أعارضه هو حزب مسيحى ينادى مثلا بإغلاق الملاهى الليلية أو تحريم العقاقير (المخدرات) أو تجارة الجنس . أنا ليس لى موقف خاص من الدين ، أكثر من كونه أيديولوچية معادية للحرية ؛ أناس يظهرون فيسلبوننا حرياتنا ويسيرونا لحسابهم الشخصى ، ويقولون لنا إن الذى سلبها هو إله مجهول خفى يسكن السماء لم يحدث أن رآه أى منا . لو ظهر علمانيون لا يؤمنون بأى دين ، وقالوا نحن محافظون ونريد وضع ضوابط على سلوكيات الأفراد ، لوجدتينى أقول ذات الكلام بالضبط . من حق -بل من واجب- كل إنسان أن يضبط سلوكه ما شاء ، لكن أن يمتد برأيه هذا لبقية أفراد أسرته أو للمجتمع ، فهذا اعتداء صريح على حريات الآخرين ، ومن الواجب حماية المجتمع والأفراد منه . من الآن فصاعدا يجب أن نتجاوز ما نأخذه حاليا على أنه واحدة من الحقوق المسلم بها ، ألا وهو حرية اعتناق الأديان ، ذلك بأن نبدأ مرحلة جديدة هى تمحيص محتوى معتقدات تلك الأديان نفسه ، لنقرر كمجتمع ما هى الأديان التى يمكن السماح بها ، وما هى التى تعد اعتداء على الغير ويستوجب اعتناقها التجريم ' .

– لعلى فهمت من مجمل كلامك أنك تقصد أن الدين حرية شخصية ، بشرط ألا يكون فيه انتقاص من الحرية الشخصية لغير معتنقه ، بما فى هذا أبناؤه وبناته ؟

– بالضبط .

تسترجع المضيفة الإشارة لتجارة الجنس فتسأل : ' أستاذ وحيد ، أنت أشرت لتجارة الجنس ، لكن ألا تعتبر الدعارة عارا على أى بلد ؟ ! ' ، فيرد بحزم قائلا : ' بل شرطة الآداب هى العار ! هى العار الحقيقى الوحيد ! ما يجرمه العالمان الحضارى والمتحضر ليس تجارة الجنس ، إنما القوادة ، أى المتاجرة بالإنسان ، أى عبوديته واستلاب حريته ، واليوم فى عصر الإنترنيت لا تحتاج امرأة (أو رجل) ، تسعى (أو يسعى) للتكسب من جسدها (أو جسده) ، لقواد ؛ بل يقوم المرء بالمهمة بنفسه وبمحض إرادته من الألف إلى الياء . إن تأجير الجسد من أجل المتعة الجنسية لا يختلف بالمرة عن تأجيره لمتعة الناس بالاستماع لصوته الجميل أو بالفرجة على هيئته الرائعة مثلا على المسرح أو فى السينما أو التليڤزيون أو صور المجلات والإنترنيت ، وبالأحرى لا شىء فى كل هذا يختلف عن تأجيره اليومى المعتاد من أجل القدرة العضلية أو القدرة العقلية ، الأشياء التى يفعلها كل الناس طوال الوقت فى أشغالهم دون أن يحسوا فيها بالمهانة أو الإذلال ، بل يبجلون من يصبح نجما ويكسب أكثر من تأجير جسده أو عقله . من أجل هذا تصبح شرطة الآداب تدخلا فى العلاقات حرة الإرادة بين الناس ، وانتقاصا باسم المجتمع لحق الإنسان فى التملك على جسده ، وهذا هو العار الحقيقى الذى يجب أن نمحوه من مجتمعنا . الأبعد من هذا أن شغالة الجنس المعاصرة تقوم فى الواقع بالكثير من المهام الراقية عالية المعرفة والتخصص ، منها أخصائى العلاج الطبيعى والتدليك والطبيب النفسى وغيرها ، وليست مجرد ذلك الجسد السلبى البليد الذى يتلقى شهوة الرجل . إن شغيلة الجنس -نساء ورجالا- هم ثروة قومية وسياحية يتباهى بها أى بلد يحترم نفسه ، وعليه أن ينميها بالتدريب والعلم والثقافة وكل ما يؤدى لتعظيم القيمة المضافة ، ذلك كأى بيزنس جدى معروف . وأنا لا أريد الخوض فى مقارنة يعرفها كل أحد بين استقلالية وقوة شخصية وإرادة ومعارف هؤلاء النسوة عندنا ، حين أقارنهن بأولئك الإماء الجاهلات ممسوحات الشخصية الذليلات الطيعات اللاتى يدجنهن

الشيوخ فى المنازل باسم الزواج الشرعى وكرامة المرأة ... إلخ ' . ثم راح يتحدث عن أن أغلب نهضات العالم الثالث بدأت عادة بالتركيز على منتج واحد تحظى فيه تلك البلد بميزة نسبية ، ثم بمجرد تراكم الثروة تبدأ مسيرة اكتساب التقنيات المتقدمة فى شتى المجالات . المنتج ذى الميزة النسبية الذى صنع الأسس الأولى نهضة تايلاند المميزة هو مهارة نسائها فى الفراش !

يعود وحيد ليستطرد قائلا إن مشكلة الحرية فى الإسلام مشكلة أكثر جذرية من هذه الجزئية أو تلك ، لأنه من شبه المستحيل طبقا لتركيبته البنيوية أن يسمح حزبيا بأقل من المصادرة الكاملة لكل الحريات ، سواء كان ذلك الحزب فى تركيا أو غزة أو حتى أميركا . ما يجب تجريمه فى لعبة الديموقراطية ، ليس الدين كدين ، إنما الدين كأيديولوچية مصادرة ، أيديولوچية معادية للحرية . كل برنامج سياسى -دينى أو غير دينى- يدعو لأن يتخلى الأفراد عن حرياتهم الاقتصادية والشخصية لحساب فئة حاكمة ، يجب شطبه أصلا قبل الدخول للمعترك السياسى . المسألة ببساطة : عن أية حرية نتحدث ، إذا أصبحت الديموقراطية مجرد حاضنة كبرى للاستلاب ؟ الحرية أحد قوانين الكون القاعدية ، أو ما أسميه أنا ' ناوسيا ' . بل ربما تكون أهم القوانين إطلاقا . باختصار ما نريده هو ديكتاتورية الحرية !

ثانيا أريد أن أكون واضحا جدا فى أنى لست ضد الديموقراطية لأنها سوف تأتينا بحكم الإسلاميين . قد تأتينا بحكم الإخوان أو الناصريين أو الشيوعيين ، قد تأتينا حتى بحكم الحزب الحاكم بالفعل ، أو بحكم أعظم كحكم أوجيستو پينوتشيت أو كونيتشيرو كوئيزومى . ليس هذا المهم ، المهم أنها فى كل الأحوال ستأتينا بشىء واحد : حكم الشعب . وهذا آخر ما نريده لبلادنا ولشعبنا ، أو بالأحرى ما تريده بلادنا وشعبنا منا . شعبنا يريد أن يحكم بالعلم والعقل والخطوات المدروسة . لكنك فى صناديق الاقتراع تسأله بمن تثق أكثر بهؤلاء الرأسماليين ذوى الحياة المترفة الشاذة ، أم بالغلابة أبناء طبقتك ، فيجيبك بالطبع أثق بالاشتراكية . تسأله هل مصلحتك مع إسرائيل أم مع الوحدة العربية ، فيجيبك بالقطع الوحدة العربية . تسأله هل تفضل العلمانية أم الإسلام ، فيجيبك الإسلام طبعا . تسأله هل لقمة العيش أهم أم الكرامة ، سيجيبك الكرامة بالتأكيد . السبب هو هؤلاء المحرضين الذين يلعبون بغرائزه ، ويطرحون عليه الأسئلة الخطأ ، التى تشل عليه تفكيره وتوجهه قسرا لإجابة واضحة سلفا ، وكلها بعض من أرخص تقانات التحريض والپروپاجاندا المعروفة تاريخيا ، والفعالة جدا مع مثل هذه الشعوب الانفعالية . قادة الجيوش ليسوا منتخبين ، رؤساء الشركات ليسوا منتخبين ، مديرو المصانع ليسوا منتخبين ، وهذه أكفا الكيانات إطلاقا فيما عرفته البشرية . فلماذا إذن الاصرار على أن يدار المجتمع نفسه ككل بذاك المنهج البائس هائل الفواقد المسمى الديموقراطية ؟ هذا يسمى اغتصاب السلطة بواسطة صناديق الانتخاب ، وبصراحة ، المستقبل شىء أهم من أن يعهد به للشعوب ، والمهم دائما أبدا هو ببساطة إخراج الجهلة من أنشوطة صنع القرار !

إذن الثروة هى لب الأمر ، لذا الشعوب لم تكن تلزم الملوك بشىء لأنهم ملوك . هذه الملكيات تحولت لدستوريات وديموقراطيات حين بدأت ثروات الملوك تتقلص ، وديموقراطية الغرب نشأت بنشوء الطبقى الوسطى أى لا زالت تمثل انسجاما مع ذات قانون أمنا الطبيعة من يملك يحكم . هؤلاء هم يمول الدولة بالضرائب والمنطقى أن يفرض عليها رأيه . لكن ما نراه الآن من كتلة تصويتيه للمعدمين والكسالة والعاطلين وقطاع الطرق والمحرضين وعالىي الصوت فهو بالضبط ما حذر منه أرسطو إن لم يكن قراءة لواقع منه فرؤية لمستقبل استشرفه : الديموقراطية هى حكم الرعاع ! أما الدفع بأن تجارب النهضة كتشيلى وكوريا الجنوبية ... إلخ ، فهى ليست ديموقراطية بالمعنى الهمجى الدارج هذا ، بل تم اجتثاث اليسار والتحريض عامة أولا ، فأصبحت أيضا ديموقراطية طبقى وسطى ، أشبه بديموقراطية القرية الأميركية الباكرة ، وليست حتى الديموقراطية المدينية الأثينية الأوسع . وهذه الشعوب المتحضرة ستختار الديكتاتورية من جديد حين يستجد خطر ما .

إن ما نتمناه ، ويتمناه الشعب فى قرارة نفسه ، ليس حكم الشعب ، ليس حكم أى أحد ، فقط حكم العلم ، العلم المجرد فى كل شىء ، بما فى ذلك القول بحزم كفى لا نريد إنجاب المزيد من البشر ، قبل أن نرتفع بمستوى البشر الحاليين . القول بإن كرامتنا الحقيقية هى فى لقمة العيش الرغدة وليست فى الشعارات . بإن صداقاتنا الحقيقية تكون حيث تكون منافعنا . بإن لا عيب فى التعامل بتواضع وعرفان وولاء لمن يعلموننا شيئا مما اكتشفوه من العلم الحديث أو مما اخترعوه من تقنيات . إن شرعية أى حكم لا تعتمد على الشكليات التى جاء بها ، ولا تعتمد حتى على الشعب الذى يحكمه ، ولا بالضرورة على رأيه فيها . قد تكون شرعية داخلية نعم ، لكن يجب أن تكون خارجية أيضا ، ولو لزم الأمر تكون خارجية بالكامل ، تعتمد -وتعتمد فقط- على محتوى هذا الحكم وتوجهاته ، على مدى مجاراته لما بات متوافقا عليه لدى العالم المتقدم من معايير للاقتصاد الحداثى والإدارة العصرية والعلاقات الدولية المتعارف عليها ... إلخ . باختصار فيما يخص الشرعية : المهم المحتوى . ما نريده باختصار

هو ديكتاتورية العلم ، ديكتاتورية الحداثة ! فحتمية التطور والاستعقاد أيضا أحد قوانين أمنا الطبيعة الأزلية ، رأسا برأس ونتيجة بنتيجة ، مع ديكتاتورية الحرية !

أخذت المضيفة تسأله عن الاضطرابات ، وعن انهيار البورصة ، وعن إشاعات هرب المستثمرين الأجانب . وفوجئت كما المشاهدين بالإجابات تحول تحول مجرى الحوار لسياق غير اقتصادى بالمرة ، وبلهجة التلخيص لما ذكر جاءت الإجابة تقول : هذه كلها تنضوى حتى عنوان عام ، اعتادوا على تسميته الأمن القومى ، وإن كنت أشك أن لا زال للكلمة معنى أصلا فى عصر الجلوبة . علينا أن نعلن بوضوح تعريفنا لهذا ' الأمن القومى ' . هو البناء الاقتصادى . هو ربط عجلتنا بالعالم المتقدم . هنا يكمن أمننا القومى الحقيقى . أن نكون جزءا من العالم المنتج الفاعل ، جزءا صغيرا أو كبيرا ، بقدر إنتاجنا وقدرتنا على الفعل ، بقدر اقتصادنا ، وليس أى شىء آخر . لا عيب فى الارتباط بالمتقدم . العيب فى بلطجة التخلف والمروق أو ما يسمونه ' الممانعة ' . ممانعة من أجل ماذا ؟ ولأين ستصل بنا الممانعة فى آخر المطاف ؟ لن تذهب بنا لأى مكان . للخراب والدمار . كل يوم الهوة التقنية تزداد وتتسارع ، والشعارات تفاقم الفجوة ، ولا حل إلا التتلمذ النجيب على يد من سبقونا . باختصار ، لو جاز تلخيص ما يسمى بالأمن القومى فى كلمة واحدة ، فهى التبعية . أنا شخصيا لا أرى أى ضير فى الكلمة . إما أن نكون جزءا من منظومة الاقتصاد العالمى أو لا نكون ، نكون مارقين وقطاع طريق . ذلك هو المهم ، بغض النظر عن التسمية .

ووسط ذهول الجميع -المذيعة نفسها زائد المشاهدين المكدسين فى مكتب إدوارد- أنهى وحيد خطبته الحماسية التى كشفت بوضوح عن بركان ظل يغلى فى داخله منذ يوم اعتزل الصحافة ولم يعد مهتما بالتعبير عن أرائه علنا ، أنهاها بالرد على السؤال التقليدى إيه الرسالة إللى تحب توجهها للمشاهدين ، واعتقد أن كل الشعب المصرى بيشوفنا دلوقت : ' أقول إن ديكتاتورية الحرية وديكتاتورية الحداثة ، ليستا فى الحقيقة إلا وجهين لعملة واحدة . العملة التى يجب أن نتمناها لبلدنا وشعبنا : عملة الحرية المطلقة ! ' .

ثم استوقفها دون أن تنهى اللقاء قبل أن يسجل ما يلى : ' أؤكد لكى أنى لا أقول أيا من كل هذا من منطلق أيديولوچيا أو نظرية أو فكرة اسمها الحرية تسيطر على ، أو لأن لى ولاءات لأى أحد أو أية دولة أو أمة أكثر من الحى أو المحيط الصغير الذى أعيش فيه ، إنما حصريا لسبب مادى للغاية ومباشر للغاية وشخصى للغاية هو مصلحتى الاقتصادية . أنا مجرد فرد ، فقط مواطن عالمى يهمه أمرين : ١- كل ما يهمه هو تسارع مسيرة التقنية والحداثة لأنها الرهان الوحيد المؤكد لارتقاء وازدهار العالم ومن ثم وطنى ومدينتى ، ومن ثم أنا ، ٢- يهمه إطلاق المنافسة على مصاريعها لأنها السبيل الوحيد لحصولى على حقى الذى استحق ، قليلا كان أم كثيرا لا أعرف ، لكن أعرف أنه نصيبى العادل . أولئك ضيعوا على البلد فرصا لا نهاية لها للتكامل والاستثمار واكتساب التقنية والمنفعة التبادلة مع العالم المتقدم سواء الغرب البعيد أو جارتنا القريبة إسرائيل ، ذلك بدعاوى مثل الاستقلال الاقتصادى والمقاومة والممانعة ومقاطعة السلع ورفض الجلوبة والغزو الثقافى وغير الثقافى ، أو لأنهم جعلوا الانطباع العام عن مصر ومستقبلها مقلقا وسيئا لدى الشركات العالمية ، أو لأنهم يحاربون كل نجاح بفزاعات الاحتكار والفساد ويبتزونه ويلهبون ظهره بالضرائب ، أو لأن عامل الدين والقبلية وما شابه يتدخل فى التوظيف والفرص من أبسطها حتى كادرات الجامعات ، ولأنهم باسم الفضيلة المزعومة يناهضون الحرية الجنسية ويحرضون على الزواج والإنجاب بلا ضابط ولا رابط فيظل اقتصادنا مشدودا طوال الوقت نحو المراحل البدائية كثيفة العمالة للاقتصادات ، وطبعا دعى جانبا الحروب التى يحلمون بجرنا إليها . لذلك السبب وحده أقول : كفانا خرابا وتخريبا أيها السادة ، كفانا جوعا وفاقة ، لقد حان الوقت لنغلق بازار الديموقراطية الكارثى ، الذى لم ولن تعرض فيه سوى سلعة واحدة هى مصادرة الحرية ، فقط بتسميات وتغليفات مختلفة ، ولا شىء أكثر . كل البلاد حولنا تحولت لساحات للحروب الأهلية بسبب بدعة الديموقراطية ، وها قد حان الدور علينا فيما يبدو ' .



جرأة لا يقوى عليها رئيس الجمهورية نفسه !

راح إدوارد يجزم بجدية شديدة وعلى نحو بدا مقنعا للجميع ، أن الحكومة هى التى دعت وحيد للعودة للحياة العمومية . هذا ليس مجرد كلام واحد مثقف كبقية المثقفين . إن شيئا كبيرا يدبر تحت السطح طالما ظهر وحيد بهذه الصورة التى ' بروزوه ' فيها ، ليقول كل هذا الكلام وبكل هذا الوضوح وتلك الجرأة . وعند كلمة الجرأة يؤمن روميو على كلامه بأنها جرأة لا يقوى عليها رئيس الجمهورية نفسه ! ويردف ' أقطع إيدى إن تمت الانتخابات السنة الجاية ! ' ، وطبعا لولا هيبة الموقف لتعهد بقطع شىء آخر .

‘ السنة الجاية ؟ وأنا أقطع دراعى إن كان صبح بكرة ها يطلع زى صبح النهارده ! ’ قالها ضهرى بينه وبين نفسه .

كعادة الشعب المصرى مع كل كارثة أو حدث جلل ، يصاب بالجزع الهائل للتو واللحظة . بعد قليل يحول الأمر لمادة للتهكم ، وبعد قليل آخر ينسى الموضوع برمته وكأنه لم يكن . التهكم بدأ بأسرع مما تخيل أحد . أما روميو فقال ‘ ’ اختراع حريات جديدة ’ دى فكرتى أنا ! ’ . وحاول أسد مداعبة ضهرى قائلا ‘ شفت قال إيه عن المهندسين الزراعيين يا عم الحاج ؟ قال لازم أنتم إللى تحكموا البلد ! ’ . ويتذكرون ونس الغائب : ‘ طبعا البازار وكل الكلام إللى قاله عن الإسلاميين ده بتاع عم ونس ! ’ . وكالعادة لا تطيق ميرفت شيئا تراه إجحافا أو ظلما : ‘ يعنى ما جابش حاجة من عنده خالص ، كله منكم أنتم ؟ ! ’ .

فى القناطر تجمعت فى ذات الوقت ماريلين وإجلال وألطاف ، أيضا يعيدون مشاهدة البرنامج . تعلق ماريلين ‘ الولد ده أفكاره حلوة . من يوم ما شفته وحسيت أن أفكاره حلوة . ابن أمه بصحيح . من زمان ما حدش فكرنى بزمان وجمال أيام زمان ! ’ . إجلال تمنت السلامة للجميع ، وحيد الذى وضع نفسه فى هذا الموقف ، ضهرى الغائب ، يسرى ومجدى ذويا المناصب الحرجة ، كل المصريين . ويتحول هذا لهلع بتذكرها منى التى لم تعد تتحرك الآن دون صحبة والدها ، وتشير للجزء الذى أعجب ابنتها فى حديث وحيد عندما شاهدته بالمساء السابق ، وهو أن الفرد هو كل شىء ، وأن لا انتماء لأسرة ولا لقبيلة ولا لنقابة ولا لوطن ، أو هكذا كانت منى قد فسرت الجزء الخاص بحرية الصعود الطبقى من كلام وحيد وعلقت عليه أكثر من مرة ‘ أخيرا ابتدى يفهم ! ’ . أما ألطاف فقد ظلت صامتة وسطهم طوال الوقت ، وإن راحت تردد بينها وبين نفسها ‘ الله يجبر بخاطرك يا أستاذ وحيد . أول واحد أسمعه فى حياتى يتكلم باحترام عن إللى زيى . سماهم إيه ؟ تجارة الجنس ؟ ثروة قومية ؟ أكيد كل البنات صاحباتى بيدعوا لك دلوقت ! ’ .

فى إمبابة كانت مظاهر الهذيان العقلى واضحة تماما على وجه رمانة . ما عدتش بأشوفه . كل يوم بره البيت م الصبح بدرى . إن ما كنتش أنا إللى أروح بدرى أوى أصحيه ما أقدرش أشوفه ، أو آخد منه بوسة . بدت كالمخبولة ، وهى تستدعى جاراتها الواحدة تلو الأخرى ، كى يشاهدن البرنامج . ها هى كل مصر تشاهد الآن رضيعها ، رضيعها هى ، هى وحدها . كل دقيقة تشير للتليڤزيون وتقول ‘ يا بنات ! هو ده سى وحيد ! ’ ، ثم تلتفت للخلف بسرعة كى تضيف : ‘ حبيبى ! ’ .

... كلمة فشلت فى أن تنطقها سرا ، وتعتقد أن بالتفاتتها هذه لن يسمعها أحد .

... أملى فى الحياة يا بنات حاجة واحدة ، حاجة تريحنى من العذاب إللى أنا فيه : أنه يطردنى !

... يطردنى لأ !

... أموت نفسى لأ !

... شغالة غيرى لأ !

... أنا عاوزة أفضل مطمئنة عليه . يفضل قدامى على طول . أفضل أخدمه كل عمرى !

... نفسى أشوفه مرتاح وسعيد مع واحدة من مقامه يحبها وتحبه .

... يا بنات قولوا لى إزاى أقول له كل إللى فى نفسى ده ؟

... لا أقدر أقول له ما تلمسنيش لأن من حقه يلمسنى زى ما هو عاوز ، ولا أقدر أقول له إنى عاوزاه يلمسنى .

... ولا أقدر حتى أسأله ما بتفكرش فى الزواج ليه ؛ لو افتكرنى عاوزة أسيبه تبقى مصيبة ، ولو افتكرنى عاوزة أتجوزه تبقى مصيبة أكبر .

... يا ترى سى وحيد يا أبو العلم والذكاء كله ، فاهم إللى جواى ده ؟ !



شيماء ارتدت النقاب

ضهرى الذى تبدى الهم بشدة على وجهه ، لبث فى مكانه لبرهة ، ثم توجه للطرقة المؤدية للباب الخارجى . اتصل هاتفيا أولا بوحيد ، ثم بأخيه مجدى ، لكن أى من الهاتفين لم يرد . إن لدى وحيد هاتفا خليويا الآن ، فى حاسوبه الذى لا يفارق جيبه ، لكنه أيضا مفصول عن الشبكة . اتصل بأخته فوجد هواتفها مشغولة لفترة طويلة ، وكل ما ناله منها بعدها كلمة مقتضبة ‘ جايز نسمع حاجات مهمة النهارده ! ’ .

عاد قليلا للوراء إلى القاعة شبه الخاوية ، ووقف قرب مكتب خدمة العملاء ، حيث جلس سامر وميرڤت يتهامسان فى هذا اليوم الخالى من الشغل ، آملا أن يؤنس نفسه بهما . كان بعد حانقا على ونس الذى كان قبل يومين فقط يهتف بسقوط أخيه . لم يكن ينوى سوى تجاهله تجاهلا مطلقا . تذكره فجأة حين وجد روميو يتحدث ولم يكن ونس هناك ليكمل الدويتو . متى جاء وسوى حساباته ؟ هل شعر بالخجل منى ؟ هل تسلل مبكرا جدا أو متأخرا جدا ليأخذ التشيك ويرحل ؟ إنه باع أسهمه ، وقطعا كان له تشيك . ربما لم يكن من بأس لو ألقى تحية الوداع . لم أكن لأفعل له شيئا .

والآن ها هو سامر يكشف اللغز : ' الظاهر رجع دمياط ! ... أستاذ إدوارد بس هو إللى قابله ... إمبارح الصبح بدرى ... بيقول جه لقاه مستنيه ! ' . ويتدخل عارف مضيفا بعض التفاصيل السابقة : ' بصراحة ، وسامحونى ، أنا افتكرت أنه انتحر . آخر كلمة قالها قبل ما يختفى إن السوق وقعت وكل الناس ها ييجى لها اكتئاب ، نصيحتى لكم جميعا اشتروا أسهم إيلى ليللى بتاع البروزاك . وأنا ضحكت معاه وقلت له إيلى ليللى اتلغت من زمان ، اندمجت فى شركات تانى . كنت آخر واحد اتكلم معاه . نزل بعدها وما شفناهوش تانى ، والظاهر كمان غير نمرة تليفونه . أول إمبارح بصيت فى المكتب لقيت النفير ، قلت ده موت نفسه . أول مرة أعرف منك دلوقت أنه جه وقابل الأستاذ إدوارد ' . وتعلق ميرڤت : ' والله وخسرناك يا عم ونس ! الغنا والنفير ها يوحشونا . حتى السجاير اتعودنا عليها . كان عندك حق ! كام ألف واحد انتحروا من ساعة البورصة ما انهارت ؟ الجرايد ما لهاش سيرة غير كده . الظاهر خسروا كل حاجة ، وما فضلش لهم حتى تمن البروزاك ! ' .

ونس قرر العودة لدمياط ، لكن السبب الحقيقى ليس تداعى أسعار البورصة ، وليس خجله من ضهرى ، وليس خوفه من انكشاف فعلته الوضيعة ذات يوم من وراء ظهر وحيد ، وليس حتى تحذير ابنه القديم ، إنما هو سبب جديد بالكامل . لقد التحقت ابنته طالبة كلية العلوم بتنظيم إسلامى . لا يعرف التفاصيل بعد ، أمها لا تعرف ، ولم تخبره بأكثر من أن شيماء ارتدت النقاب وترفض الحديث معها أو مع أى أحد . هل الإخوان المسلمون أم جماعة جهادية ؟ هل سيدفعونها لعملية انتحارية فى شرى لانكا أم ناميبيا أم أوروجواى ؟ الأرجح أنها ستكون فى ڤنزويلا ، هذه التى فى أيام شاڤيز فتحت صدرها لكل الجهاديين الإسلاميين ولكل عدو لأميركا ، وها هى الآن تكتوى بنارهم . ماذا لو كانوا سلفيين ؟ كيف سأعيش بقية عمرى وأنا أعلم أن ابنتى تعيش فى خيمة فى الصحراء وتقضى حاجتها بمساعدة ثلاثة حجارة ؟ يا للبؤس الذى لا يريد أن يفارقنى ، كل الدنيا تخلع الحجاب ، وابنتى ترتدى النقاب . قرر العودة ، وحزم أمره من كافة النواحى ، رغم علمه أن البنات أو الشبان يصبحون فى مثل هذه الحالة آذانا مطلقة الصمم ، لا تستمع سوى لما يأتى إليها من تكليفات من السماء ، فى الصحو وفى المنام ، وطبعا من تكليفات من الأمير . وربما لو حدث وضغطت عليهم أكثر مما يجب يأتونك بفتوى من الأمير يقتلونك بناء عليها . قال إنه واجب على أن أؤديه ، ولن أسامح نفسى بقية عمرى لو تقاعست عنه . ثم ربما لا تزال لدى فرصة للنجاح . ربما يشفع لى عندها أن كنت يوما صديقا شخصيا لعاصم عبد الماجد وعصام دربالة .

عاد الحاج من سرحانه على صوت ميرڤت الحائرة من تلاحق الأحداث تقول : ' أكيد الريس ها يخطب النهارده ' .

يمد سامر رقبته القصيرة بحيث جعل عينيه فى مواجهة عينيها وقال بلهجة غزل ناعمة لا تخطئها الأذن : وما قالوش ها يتجوز إمتى ؟

– يا سم !

– طب خليهم اتنين ، ويبقى افتح يا سمسم .

– (يذهب تجهمها وتسايره المزاح :) الشىء إللى أنا متأكدة منه أنك ها تفضل قفل طول عمرك !

– (مهللا :) هيييييه ! يا ملين كل عسير يا رب ! فاضل ع الحلو دقة ! إنما أنت بصراحة إيه رأيك فى ؟ ولا مرة قلتى لى إيه رأيك فى ؟

– لطيف !

– لطيف ؟ دى كلمة عادية ؟ !

– لطيف جدا !

– لطيف جدا ؟ دى كلمة عادية جدا !

وأخيرا تضحك ميرڤت ، أما الحاج فيمضى فى طريقه إلى الخارج ، ساهما ، ودون أن يحيى أحدا ، على العكس من عادته .

على الأرجح لن يذكر التاريخ كثيرا المهندس عبد النبى مُحَمَّد الشهير بين من يعرفونه باسم ونس ، رغم أن أثره عليه أكبر من أن يتخيل هو أو يتخيل التاريخ نفسه . على غير قصد منه ، أدت مجادلاته الانتقادية مع رموز الجماعة الإسلامية فى أسيوط ١٩٧٥ ، لصياغة بعض أهم توجهات وملامح ومسار ما سمى لاحقا بالصحوة الإسلامية ؛ ثم على غير قصد منه ، كانت قيادته للمظاهرات الخاصة ببيع شركة كيوبيد بعد ٣٥ عاما ، سببا مباشرا للضربة الأخيرة التى قضت نهائيا على تلك ' الهوجة ' التى طالما طبقت آفاق العالم طيلة كل تلك السنين . الآن ها هو يقرر قضاء بقية حياته منزويا فى دمياط تستغرقه مشاكل أسرته ، هذه التى لم تكن قد شغلت حيزا يذكر من حياته حتى اللحظة .



أعلناها كلها أيديولوچيات معادية للحرية

فى المساء ، فى نفس توقيت البث الأول لبرنامج وحيد ، يظهر على نفس شاشة التليڤزيون ، الرئيس الشاب للجنة المستقبليات فى الحزب الحاكم . يظهر وقد عاد لزيه العسكرى كضابط احتياط ، وإن بدون علامات نحاسية على الكتف تنبئ بالهوة بينها وبين ما وضعه الوجهان المألوفان الواقفان إلى يمينه ويساره -وزيرا الدفاع والداخلية- على كتفيهما . يصف ما آل إليه حال البلد من انفلات أمنى وبلطجة ونزول للشارع بدون التزام بالقانون أو النظام ، وكذا عرقلة لشغل الشركات والمصانع ، وفوق الكل اضطرابات طائفية وقبلية أسقطت الكثير من الضحايا . تحدث طويلا عن الحاجة لأخذ كل إخلال بالأمن بمنتهى القوة والشدة ، متحدثا عن مختلف أشكال التجاوزات فى مختلف التنظيمات الحزبية والنقابية ، التى أدت لشل عجلة الاقتصاد وتهديد حياة المواطنين . ثم أسهب بعض الشىء فى مثال بعينه . قال إن ليس كل قضاة مصر منحازين أو أعداء للحريات ، لكن نادى القضاء ككيان تنظيمى يتم اختياره عن طريق الانتخابات بلا أية شروط تضمن التزامه برسالته الأصلية ، ثبت بالتحقيق أنه لم يكن إلا أحد أذرع ما يسمى بمكتب الإرشاد لإحدى الجماعات المحظورة . وهنا أعلن قرار الرئيس بحله تمهيدا لإعادته إلى صورته الأصلية كما نص عليها مرسوم إنشائه الأصلى ، نادى ترفيهى وظيفته الرئيسة هى تقديم الشاى والقهوة ، هذا حسبما قال فى حنق واضح ، يتناقض بعض الشىء مع الهدوء العام لشخصيته . توالت بعد ذلك إعلاناته لتصفية الحساب مع كل مؤسسات الماضى . تلا قرارات السيد الرئيس بوقف العمل بالدستور وبحل المجلس النيابى وكل النقابات وجميع الأحزاب ، باستثناء الحزب الحاكم وثلاثة أحزاب أخرى صغيرة (أبرزها حزب الجبهة الليبرالية الذى كانت هالة قد سخرت منه على موقعها لدى تأسيسه ووصفته بكلمات من قبيل الليبرالية الرومانسية والديموقراطية الملائكية واليوتوپية الناعسة . ورغم أنه حزب علمانى صريح راقى ومخلص ، إلا أنه بملائكيته تلك كان فى رأيها يصب فى مياه أعداء الحرية من التيارات الدينية . أما وحيد فقد وجد فيه خلال إحدى المناقشات مؤخرا مع ضهرى ، تطبيقا لشعار من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر) .

بعد ذلك ثم راح هذا المتحدث الشاب بعد أن فرغ فيما يبدو من تصفية الحساب مع الماضى ومخلفاته ، يعلن ملامح المستقبل : قرار السيد الرئيس تأسيس مجلس للأمن القومى ، وتعيينه هو رئيسا له ، ورئيس الوزراء نائبا أول ، ووزيرى الدفاع والداخلية نائبين ، وأن يصبح هذا المجلس صاحب المرجعية العليا فى البلاد . البدء فى تشكيل مجلس تشريعى مؤقت من ممثلين للشركات الكبرى يضاف إليهم بعض ذوى الخبرة والاختصاص ، على أن يتحول لمجلس دائم بعد تقنين معايير العضوية دستوريا وقانونيا . البدء فى صياغة دستور جديد ، قائم على مبادىء الحرية المطلقة ، اقتصادية وشخصية ، وتجريم كل مناداة بأى انتقاص منها ، وينص على أن وظيفة الدولة الرئيسة هى السهر على تلك الحريات لا أكثر ، وإناطة هذه المهمة تحديدا بمجلس الأمن القومى .

عند هذه النقطة أصبح الرجل أكثر تحديدا . قال باسم المجلس الجديد إن أول قراراته أن أعلنا الاشتراكية بكافة تنويعاتها السياسية والاجتماعية ، والعروبة بكافة تنويعاتها السياسية والاجتماعية ، والأديان بكافة تنويعاتها السياسية والاجتماعية (فيما عدا ما هو كونه ممارسة روحية فردية تنضوى تحت إطار الحرية الشخصية والتى من واجبنا كدولة أن نحميها من كل تحرش أو تهديد أيا ما كان) ، أعلناها كلها أيديولوچيات معادية للحرية ، ومن ثم سوف تحظر الدعوة لها علنا . برامج هؤلاء موجودة -إما صراحة وإما ضمنا- فى أدبياتهم ، ويعرفها كل من يريد القراءة . وسنعاملهم بناء على المحتوى الحقيقى لأيديولوچياتهم ، وليس بناء على أى خطاب معسول أو مزدوج المعانى منهم بعد اليوم . أيضا أعلن قرارا آخر بفرض الرقابة على الصحف والإعلام ، التى سيصبح لها الحرية كل الحرية فى أن تقول ما تشاء ، باستثناء الترويج لأفكار معادية للحرية كالمذكورة . ثم قال إن المبدأ هو أن الحرية الحقيقية تفترض بالضرورة اجتثاث أعداء الحرية ، وهذا ما سيكون عليه موقف الدولة من الآن فصاعدا .

بالنسبة للمخاطر الخارجية ، قال إن مصر لن تقف مكتوفة الأيدى أمام غارات عصابات النهب والسلب وقطع الطريق ، التى تأتينا من الجنوب والغرب والشرق ، جميعا . ليس دول الجوار فقط ، إنما عن طريق البحر من دول كسوريا مثلا . فى كل مكان نعرف أنه مصدر للتهديد ، سوف ندك كل بلدة يثبت أن العصابات تأتى منها . لن نفرق بين مدنيين ومسلحين . سنستخدم أسلحة تقليدية وغير تقليدية . سنثبت لهم أن لمصر ذراعا طويلة تصل لأبعد مما يصل خيالهم . الشعوب التى تنجب قطاع طرق وإرهابيين بمثل هذه الوفرة ، ناهيك عن أن تنتخبهم للحكم ، يجب أن تكون شريكة جماعيا فى المسئولية . نحن لا نتحدث هنا عن حفنة أفراد يمكن استئصالها ، إنما عن شعوب أغلبها متواطئ إن لم يكن مشجعا . حين تكون العصابات بمثل هذه الوفرة ، يصبح من الصعب علينا التميز بين المدنى والمسلح . ويصبح الأبرياء حقا نسبة ضئيلة بحيث يمكن تجاهلها . هذا إنذار أخير ، إما أن تطهر نفسها من تلك العصابات وتعاقبها بنفسها ، وإما سيحل بها العقاب الجماعى !

بالنسبة للاستثمارات الأجنبية سوف نكون أكثر حرصا فى استقبال استثمارات الدول التى طالما مالت للاشتراكية فى اقتصاداتها ، كفرنسا وروسيا والصين والهند ، أيضا سوف نغلق الباب تماما أمام الأموال الساخنة ، وبالأخص جدا منها جميع الاستثمارات العربية . فى المقابل سنسعى بكافة السبل لاستقطاب أكبر قدر ممكن من الاستثمارات الأنجلو-ساكسونية ، أى من أميركا وبريطانيا وألمانيا ، وبالمثل طبعا الاستثمارات اليابانية والإسرائيلية . فى هذا وذاك لا نعتبر أنفسنا انتقائيين أو أو مزاجيين نحب أناسا ونكره آخرين ، إنما فقط نعتمد معيارا واضحا ومحددا وعلميا ، هو عينه معيار الحرية . نرى أن هذه الطريقة الوحيدة لإطلاق طاقات شعبنا المصرى ، كى يثبت للعالم المتقدم جدارته أنه يستطيع العيش وسطه بنفس قيمه وقوانينه دون عطف أو تدليل ودون ازدراء وتعالى . من الآن فصاعدا ، وبعد المرارة الهائلة التى عانيناها مع الأموال الساعية للربح السريع والفساد والإفساد ، لن نقبل إلا أموالا تؤمن بالتنافسية القصوى وبالاقتصاد الحر الحقيقى ، استثمارات عالية التقنية طويلة المجرى تفكر فى بناء حضارة تقنية تدوم مئات السنوات ، لا فى ' اخطف واجرى ' كما يسمونها .

أخيرا ، سوف نشكل لجنة من خبراء الاقتصاد بالأساس ، لدراسة مدى جدوى عضويتنا فى المنظمات الإقليمية والدولية ، بدءا من جامعة الدول العربية حتى الأمم المتحدة . ما لن تثبت جدوى عضويتنا فيه ، سوف ننسحب منه ونطرد مقاره من أراضينا إن وجدت . حتى منظمة التداول الدولية سنعيد النظر فى عضويتنا فيها ، بعد ما حدث من طوفان الدول التى دخلت فى عضويتها وحولتها باسم الأغلبية لعكس أهدافها الأصلية فى ترويج حرية التجارة . ولو حدث هذا وانسحبنا فسوف نسعى فى المقابل لاتفاقات تداول حر ثنائية ، فقط مع الدول التى تؤمن إيمانا حقيقيا باقتصاد السوق .



وراحت الدبابات تجوب شوارع القاهرة

لم تنته تلاوة هذه الكلمة ، إلا وراحت الدبابات تجوب شوارع القاهرة ، ثم تتخذ مواقع معينة محددة سلفا بطبيعة الحال . مقارنة بالمحافظات الأخرى ، لم تكن الأعداد قليلة فى القاهرة . من بينها وقفت دبابتان ظهرا لظهر ، واحدة فى أول الشارع الذى تقع به البورصة ، وواحدة فى آخره . من بين ما اعتبر ' أماكن حساسة ' أيضا ، الميدان الذى يتوسط مصر الجديدة ، والذى لا يبعد كثيرا عن الجامع الذى كان يلقى فيه الشيخ حجاب خطبه النارية حتى أيام قليلة مضت . فى وسط الميدان الخاوى تقريبا من البشر ومن السيارات ، إن لم يكن بسبب قرارات حظر التجول ، فبسبب شدة البرد غير المعتادة فى تلك السنة ، وقفت إحدى الدبابات . بدت لوهلة للناظر وكأنها لا تفعل شيئا سوى حراسة عربة مترو أثرية يرجع عمرها لأكثر من قرن مضى ، كتب عليها أنها من الرعيل الأول لعربات الخط الكهربى لشركة The Cairo Electric Railways and Heliopolis Oases Company .

كل ذلك حدث فى عشية الكريسماس ، حتى لا تجد أميركا -التى كان قد ذهب إليها الزعيم الجديد بنفسه قبل أيام كى يخبرها بخططه- لا تجد نفسها فى حرج التعليق على ما حدث لمدة أسبوع على الأقل ، أسبوع العطلات . مجدى ووحيد كانا منذ الصباح المرسلين الآخرين للإنباء بانقلاب القصر المزمع ، لكن لإسرائيل ، كى ينزعا مسبقا فتيل أى توجس من ناحيتها تجاه نوايا الحكم الجديد .



أحمد لطفى السيد إللى بتتكلم عنه

هو إللى اختار اسم الست والدتك ؟

يصيح الحاج عبر الهاتف بأخيه مجدى فى سيارته الحكومية هو ووحيد عائدين من المطار بعد رحلة إسرائيل : ' عديه أنت أو خللى السواق يعديه علينا هنا فى شبرا عند إدوارد . بعد الشطرنج ها أوصله أنا مصر الجديدة ' . لم يكن هناك لعب شطرنج حقيقى ، وكان كل الكلام فى السياسة . وحين حل المساء : يا للا بينا ، علشان لازم أوصل وحيد البيت ؟

يواصل ضهرى الحديث وهم يعبران بوابة البيت القديم الذى تفوح منه رائحة الجدران والأخشاب الرطبة حين تدخله وبعد قليل تنساها إلى يذكرك بها من جديد هواء الخارج المتجدد المتجمد ما دون حرارة الصفر : ' ما لك حزين وما بتتكلمش . أقطع دراعى إن ما كنت ها تموت م الفرح أن كل نظرياتك ها تتطبق ؟ ' .

– مين قال لك أنى فرحان ؟ كل ده اتطبق قبل كده . طبقه الخديوى إسماعيل وطرده الشعب . قاله أحمد لطفى السيد وطبقه حسين رشدى وعدلى يكن ، وطردهم الشعب فى مظاهرات زعيم الأمة . قاله وحاول يطبقه أنور السادات ، والنهاية انطرد م الدنيا كلها . المسألة مسألة چيينات . الاقتصاد الحر ما ينفعش هنا . أى إصلاح ما ينفعش .

– بس المرة دى أنا شايف جدية كبيرة . أول مرة الجيش فى مصر يتدخل لحماية الإصلاح الاقتصادى ، وتطبيق اقتصاد السوق . فعلا كل حاجة جربتها مصر فى تاريخها ، إلا دى ، الديكتاتورية العسكرية اليمينية ، إللى طول عمرك بتحلم بيها .

– إللى ما تعرفهوش أن دول نفسهم بيقولوا عشر سنين حكم كفاية ، ونرجع بعدها الحكم المدنى . إيه الفايدة ؟ حتى أتاتورك فرض الحداثة وعين الجيش حارس عليها من بعده ، حصل إيه بعد ٨٠ سنة ؟ رجع يحكم تركيا الإسلاميين . تغيير الچيينات محتاج ألفيات ، حتى القرون ما تكفيش . ها أقول إيه ؟ أنا زيى زى الناس دول ، وزى ناس كتير مستنيرة مخلصة فى البلاد العربية والمسلمة حوالينا ، بنعمل إللى علينا ، لا أكثر ولا أقل ، لكن الأمل الحقيقى ضعيف جدا . إن كنت اتعلمت حاجة فى حياتى فهى دى . طبعا لازم نحاول ، وأنا لست ضد أى أحد يسعى للحداثة ، أو يعتقد أنه يسعى للحداثة . الفارق الوحيد بينهم وبينى ، أنى سبقتهم بخطوة فى التفكير ، أرى ما لا يرونه : أن ما فيش فايدة . هذه الشعوب لا تصلح لشىء !

– يخرب بيت أهلك . أنت ليه كده نكد على طول ؟ أنا كنت فاكر ها أشوفك النهارده فى أسعد أيام حياتك . (ثم يتنهد مبطئا من سرعة حديثه ومن سرعة السيارة معا :) قول يا رب !

وطبعا لم يرد وحيد ، فيربت الحاج على ركبته ويهزها بقوة : لازم يكون فيه أمل . ليه دايما تنسى أن أحمد لطفى السيد إللى بتتكلم عنه هو إللى اختار اسم الست والدتك ؟ كمان ما تنساش أنك بقيت أحد أعمدة الدولة دلوقت !

– (يبتسم مستنكرا ويقول بلهجة جادة :) أنا ما عملتش حاجة . أنا كنت مترجم وبس . رغم أن مجدى يملك هو وأخته معظم أرض الشريط الحدودى ، إلا أنه لم يقابل فى حياته إسرائيليا واحدا ، ولا يعرف من العبرية أكثر من كلمة شالوم .

يضغط الحاج دواسة وقود السيارة وهو يقول : ياه ! الوقت اتأخر أوى !

– قصدك حظر التجول ؟ ما تخافش ! أنا معاى تصريح . تصريح كان مستنينا فى المطار !



٨
الربيع
—أو : نيرڤانا المسيح-الضد



بيقولوا ها يلغوا كل حاجة من بطاقة التموين ، وها يخلوا عليها بيبى واحد !

' رجعنا لقعدة المطلقة تانى ! ' ، قالتها ميرڤت بضجر . ' أنا موش واخدة على كده . موش عارفة ها أعمل إيه لو ما لقيتش شغل تانى بسرعة ! ' .

يجذبها سامر من يدها ويأخذها لمكتب إدوارد ، حيث يقول له بلهجة الأمر ' اطلع بره ! ' ، فينفذ بانصياع . يجلس إلى مكتبه ، كل هذا بالطبع وسط ذهول ميرڤت .

– إيه إللى عملته ده ؟ الشركة ها تقفل صحيح ، بس موش أنت إللى ها تورثها .

– اخرسى يا بت !

يخرج من درج إدوارد ثلاثة ملفات بأرقام كبيرة بخط اليد ١ ، ٢ ، ٣ : ملف رقم واحد : أنا موش المدير الجديد ، أنا مقدم استقالتى ، وده طلب الاستقالة . ملف رقم ٢ : خطاب من شركة كيوپيد للسيد المحترم سامر على السيد بالحضور لاستلام وظيفة منفذ أوامر .

تشهق ميرڤت : مبروك ! إمتى حصل يا ندل ؟

– ملف رقم ٣ : فاتورة بعدد واحد سهم كيوپيد ، مهر الآنسة ميرڤت جميل أنور !

– (تميل لتنظر فى الورقة وهى تقول بدلال :) مكتوب كده ؟

– (عندما يصبح خدها أمام وجهه يقبلها :) موافقة ولا لأ !

– (بحزم مصطنع :) لأ ، موش موافقة !

يرن الجرس بطريقة إدوارد بالميل بشدة بالكرسى للوراء مع حشر ساقيه بسقف المكتب . تصرخ ميرفت : بتعمل إيه يا قزعة أنت ، ها تقع ، أستاذ إدوارد طولك مرت... !

ويقع فعلا قبل أن تتم الجملة ، فى نفس اللحظة التى يدخل فيها الجميع لمجرد سماع صوت الجرس . يعلقون كثيرا على منظر سامر على الأرض وميرفت منكبة فوقه : ' أنتم بتعملوا إيه بالظبط ع الأرض ! ' ، ' مستعجلين قوى ! ' ، ' من دلوقت ها تنام ع الأرض ؟ ' ، ' أمال ها تعمل إيه لما تخلف ! ' ، ' بيقولوا ها يلغوا كل حاجة من بطاقة التموين ، وها يخلوا عليها بيبى واحد ! ' ، ' أيوه ! حاولوا تنسوا بقى أيام المشاخخ إللى بيتجوزوا أربعة ويخلفوا عشرين وبعدين يطلعوهم مظاهرات يقولوا عاوزين عيش مدعوم ! ' ، ' فيه سن معين نجيب فيه الطفل يا أستاذ رامى ، ولا نجيبه بمزاجنا ؟ ' ، ' أنا عاوز أقول لك حاجة ... ' ، ' أنا عاوزة أقول لكى حاجة ... ' ، لكن ألطاف تقطع كل هذا بزغرودة طويلة مجلجلة .

تدريجيا ينسلون واحدا تلو الآخر للخارج . أسد وعارف ورزق يسألون ألطاف عن سبب قدومها اليوم ، فتحدثهم عن أن ابنتها على وشك دخول الحضانة بعد شهور ، وجاءت من أجل إيداع بعض النقود الإضافية فى حسابها ، لأنها تخطط أن تشترى لها أشياء كثيرة حين يأتى وقت المدرسة . أسد يسألها هل شاهدت فيلم ' اللمبى ' ، ' طبعا ! مين ما شافهوش ؟ ' ، ' لازم جميلة تشوفه . هو الكمبيوتر بتاعها شغال كويس ؟ ' ، ' أيوه ، البركة فى الأستاذ رامى الله يستره ' ، ' ها أبعت لك مع عم ضهرى نسخة هدية منى للبنوتة ' ، ويناغصه عارف ورزق قائلين لها : ' الفيلم ده دستوره فى الحياة ! ' ، ' زمان كان بيتعاطى بانجو ، دلوقت بيتعاطى فيلم اللمبى ' ، ' خدى بالك ، أسد ده لاسع ! يا ريت دستوره كان حاجة نضيفة ، كتاب السياسة بتاع أرسطو مثلا ، زى الأستاذ وحيد ! ' ، ' الفيلم كويس وكل حاجة ، بس هو إللى فاهمه معووج . مهتم بآخر دقيقة بتاع الكتابة الإنجلش ، وموش واخد باله أن أهم دقيقة هى أول دقيقة بتاع ' وقف الخلق ' ، إللى بتلخص كل فضيحة مصر وكل تاريخها ! ' ، ويسكتهما أسد : ' هش هش يا ديك ، الفرخة دى موش ليك ! ' ، ويعارض عارف : ' أحسن مشهد سينما لخص المصريين فى ثوانى قليلة ، مشهد الراجل إللى فضل يطوح السيف ويصرخ فى وش إنديانا چونز ، لغاية لما زهق من أنه طول فى تطويح السيف والصراخ ، طلع المسدس وإدى له رصاصة نزلته ساكت ! لا توجد لحظة عبقرية فى تاريخ السينما أكثر من هذه ' . عاصفة الردود لا تنتهى : ' ليه بس كده يا جدع أنت ؟ عاوزهم يعملوا كده معانا ؟ ' ، ' بس ده كان لابس بدوى ؟ ! ' ، ' صح ! المصريين ما لهومش فى السيوف ، لهم فى التحطيب ! ' ، ' وإنديانا چونز قصده إيه غير كده : أنتم بتوع زعيق وبس ؟ ! ' ، ' بص يا حاج ، إحنا تلامذتك واتعلمنا منك أن الخطابة والجعجعة والتهديد بالسيف دى صفات عربية . يعنى فيلم إنديانا چونز خلط بين المصريين والعرب ! موش يبقى اللمبى أحسن ؟ ! ' ، ' عندك حق يا بنى ، وإن كان برضه اللمبى وقع لحد ما فى نفس الغلطة . موش هو ده لب الشخصية المصرية ؛ أنا نفسى حد يخترع مشهد صغير عبقرى زى دول يلخص طيبتها واتكاليتها وذكاءها وفهلويتها وتفردها وانبهار العالم بها رغم كل عيوبها ' .

بعد دقيقتين أو نحوهما تخلو حجرة إدوارد تماما . حتى ميرفت وسامر خرجا كى يطلبا من نصر الله إحضار فطائر وعصائر ومكسرات تحية للحاضرين . لم يكن ونس هناك حتى يبتزهما أو يحرجهما ، إنما فعلا ذلك من تلقاء نفسيهما . حين يسمع إدوارد ذلك منهما ينهرهما ويقول ' الحساب عندى ! ' .

لم يتبق فى الحجرة سوى سماء . إذ ظلت متسمرة أمام مشهد الكرسى الملقى على الأرض ، هذا الذى ذكرها بأول يوم أتت فيه إلى الشركة !



أنتم عاملينها جنازة كده ليه ؟

– الشركة بتصفى وها تقفل قريب . الشركات إللى زينا ما لهاش مستقبل . إللى بيتوسعوا دلوقت ناس زى كيوبيد والسى آى بى . بالذات بعد إللى حصل فى البلد ، ومناخ الاستثمار الجديد ، فلوس كتيرة دخلت ، بالذات استثمار ، صناديق ومحافظ ، موش مضاربة . هم بيفتحوا فروع وطالبين موظفين ، وإحنا ما فيش غير نقول عمر إللى فات ما ها يرجع تانى . كمان الإنترنيت أخدت معظم الشغل منا . سماء بتقول ها تعمل كل حاجة وهى قاعدة فى النادى ، من غير حتى ما تاخد كمبيوتر معاها . البورصة ها تبقى زى كباين التليفونات فى الشارع . ها تبقى فى كل ماكينات الصرافة الآلية بتاع البنوك ، تشترى وتبيع وتسحب الفلوس وأنت واقف . كمان ممكن كمان تشترى وتبيع من الخليوى بتاعك ، وبس تروح جنب أى ATM لأى بنك لو عاوز تسحب فلوس نقدى ، فى ثانية ها تاخد منك التحويل بالبلوتووث وتطلع لك الفلوس . كل المطلوب

منك أنك تمشى فى جيبك الصغير بتوكين التوقيع الإليكترونى زى الختم النحاس إللى كان بيمشى به جدى زمان ؛ فاكره يا ضهرى ؟ تقريبا موش ها يفضل لشركات السمسرة وظيفة إلا الاكتتابات ، وجايز دى كمان يلقوا لها طريقة بعد شوية ، تنفذها من غير ما تقوم م السرير ! أنا ومينا ها نشترى معرض السيارات إللى كنت بأفكر فيه فى سفير جنب المدرسة الإنجليزية . معرض كبير وناجح ، إنما الفلوس موش ها تكفى ، وضهرى ها يشارك معانا بـ ٢٠ ٪ . روميو ، أنت دلوقت العميل الكبير الوحيد المتبقى من إللى بيشتغلوا يوميا ، وأكيد ها ترجع تانى للسى آى بى . سامر ها يشتغل خلاص فى كيوبيد . ميرڤت قدمت على شغل فى السى آى بى . يعنى برضه جايز موش ها تبعد عنا .

– أنا كمان يا أستاذ رامى موش ها أروح بعيد . أنا الوحيد إللى ما اترفدتش ، وها ياخدنى الأستاذ إدوارد معاه الأچانس . قهوتى المية مية مستنياك هناك !

– أنت واقف هنا بتعمل إيه وسط الناس المحترمة يا حتة ساعى ؟ غور ...

– أنتم عاملينها جنازة كده ليه ؟

– جنازة طبعا ! وأى جنازة ؟ !

– دى لا أول ولا آخر شركة ها تتقفل !

– دى موش أى شركة يا عم ضهرى . دى عشرة [بكسر العين] . أيام رمسيس دى ها توحشنى جدا جدا ، تأكد من كده . فى السى آى بى ، ما فيش مجلس أمن ولا خمسة كبار ولا ڤيتو ولا ديموقراطية ولا فتاوى ولا رهانات ولا نفير ولا طبعا زغاريد . فيه محللة واحدة اسمها نشوة ، محللة قاعدية ، مشوا المحلل التقانى وجابوها هى ، كلمتها لا تصد ولا ترد ، نافذة على المليون عميل فى الـ ١٠٠ فرع !

– بس فيه ستات حلوين ! جايز نشوة دى كمان حلوة زى اسمها ! إنما أنت ليه موش بتفكر تفتح كافيه الحشيش إللى قلت عليها ؟ أنت بتعامل الناس بلطف وشياكة وبتاع سياحة أصلا ، وأكيد ها تنجح .

– إيه يا حاج ، نفسك بدأت تهف على روحانيات الحشيش ؟ أنا بأقول ألف فكرة يا حاج ، إنما ما أفتكرش أنى مدير موش كويس . أنا إدمانى الوحيد هو الأسهم ، وهى إللى بأحبها وإللى فالح شوية فيها ! عاوزين نبقى نشوفك . اوعى تقول ها تقعد فى القناطر ما تنزلش ؟ التليفونات موش كفاية . لازم قعدات الشطرنج على الأقل . الشطرنج قبلك ما كانش شطرنج ، وموش عاوزين نرجع لـ level الهواة تانى .

– هواة ؟ أنت لسه بتقول أنك هاوى بورصة وما تنفعش مدير ؟ تعرف إيه هو تعريف الهاوى والمحترف ؟ الهاوى من يجيد شيئا يحبه ، والمحترف من يجيد شيئا لا يحبه . إذن لا تبتئس كثيرا ، فيا عزيزى كلنا هواة ! ثم أنت كنت فاضى أصلا للشطرنج يا سى روميو ؟ كل ليلة فى إيديك شغل !

– موش ها تبطل ' الظلم ' بتاعك ده ؟ رغم كل ' الشغل ' إللى بتقول عليه ، كان لازم آجى لكم شبرا ولو مرة فى الأسبوع . المهم ، آدى أنت عرفت ، كل يوم ها أبقى موجود فى السى آى بى .

– أشوفك فى الأچانس أو فى شبرا عند إدوارد ، وإن كنت موش ها أقدر آجى كتير زى زمان . كمان ها أنقل حسابى للسى آى بى ، فرع روكسى زيك .

– يبقى ها نشوفك كتير ! أنت لازم طبعا تحادى على سهم الفراخ !

– الحقيقة موش ها أقدر آجى كل يوم .

– ليه ؟ خايف على نفسك من الستات ؟

– لأ ، ها تبقى عندى حاجة تانى تشغلنى .

– إيه ها تحج للهيمالايا ؟

– موش بالظبط !

كل إللى ورا الباب عليكى أنتى

– إنتى ها تقابلى دكتورة يسرى شخصيا ؟ ! تعرفى أن ما فيش ولا واحد من عملاء الشركة هنا ، باستثناء عم ضهرى طبعا ، شافها . كانت فى الجنازة ولا واحد فينا عرفها ولا سلم عليها . حتى الأستاذ وحيد بيقول أنه ما تعرفش بها إلا مرة بالصدفة .

– (محتدة بقوة :) أنت ها تهزر ! سيبنى وحياتك يا سامر . أنا فى إيه ولا إيه ؟ ! دى بيقولوا عليها ما بترحمش . والحاج فهمنى خمسين مرة أنه موش واسطة . روحى وأنتى وشطارتك . ها أفتح لك الباب ، هى دى الخدمة . إنما بعد كده ، كل إللى ورا الباب عليكى أنتى . إللى أعرفه حاجة واحدة : إنى ها أقف أترعش قدامها !

يقبلها قائلا : ' وإللى أعرفه أنا أن ميرفت حبيبتى تفوت فى الصخر ! '

– هو إمتى ها يطبق نظام التعيين بالچينوم إللى كان قال عليه ؟ ! صحيح ها يعرفوا أنى بأرتبك فى موقف زى ده ، لكن من غير ما أتحط فى الموقف نفسه فعلا .



نيتانياهو قال لك كده فعلا ؟ !

يصيح الحاج عبر الهاتف بأخيه مجدى فى سيارته الحكومية هو ووحيد عائدين من المطار بعد رحلة إسرائيل : ' عديه أنت أو خللى السواق يعديه علينا هنا فى شبرا عند إدوارد . بعد الشطرنج ها أوصله أنا مصر الجديدة ' . لم يكن هناك لعب شطرنج حقيقى ، وكان كل الكلام فى السياسة . وحين حل المساء : يا للا بينا ، علشان لازم أوصل وحيد البيت ؟

يواصل ضهرى الحديث وهم يعبران بوابة البيت القديم الذى تفوح منه رائحة الجدران والأخشاب الرطبة حين تدخله وبعد قليل تنساها إلى يذكرك بها من جديد هواء الخارج المتجدد : ما لك حزين وما بتتكلمش . أقطع دراعى إن ما كنت ها تموت م الفرح أن كل نظرياتك ها تتطبق ؟

– مين قال لك أنى فرحان ؟ كل ده اتطبق قبل كده ... .

– بس المرة دى أنا شايف جدية كبيرة ... .

– إللى ما تعرفهوش أن دول نفسهم بيقولوا عشر سنين حكم كفاية ... .

– يخرب بيت أهلك . أنت ليه كده نكد على طول ؟ ... .

وطبعا لم يرد وحيد ، فيربت الحاج على ركبته ويهزها بقوة ... .

– أنا ما عملتش حاجة . أنا كنت مترجم وبس ... .

– (قالها بثقة وجدية مفرطين ، وببعض الغيظ ، وهو يقود السيارة لفرملة قوية :) موش المرة دى !

ينظر وحيد باستغراب ، فيواصل : ' ثم أنت موش خطير ولا حاجة فى العبرية . مجدى لو عاوز مترجم وبس ، ما كانش أخدك أنت ' .

– عرفت إزاى ؟ مجدى حكى لك ؟

– مجدى لا يمكن يحكى لى حاجة أبدا ، لا هو ولا يسرى ، وأنت عارف كده كويس . أنا فى مخ وبأفهم .

– فهمت إيه ؟

– فهمت أنك ما كنتش مترجم . إللى جابوه علشان يخطب ساعتين فى التليڤيچن ليلة التغييرات ، موش ممكن يكون بالنسبة لهم مترجم .

يأخذ وحيد نفسا عميقا ، وكأنه يحاول كسب الوقت قبل أن يقرر هل يصح له رواية ما حدث أم لا : فعلا ، كنا فى معهد وايزمان ، وزرنا شوية شركات تكنولوچى . فيه تفكير فعلا أنهم يفتحوا فروع فى مصر ، تصنيع chips الكمبيوتر ، منتجات بيولوچية ، أفكار كتير ! مجدى معتقد أنى كنت متابع التقدم إللى بيحصل فى إسرائيل كويس ، علشان كده أخدنى معاه . بيقول أن لهم عشرين سنة بطلوا اهتمام بالمتابعة دى ،

ومخفضين حجم وشغل السفارة ، لأن ' الشارع ' كان ضد التطبيع ، وكانت المتابعة ها تبقى مجهود وصرف فلوس ع الفاضى ، طالما ما فيش حاجة ها تتنفذ .

– (وقد عاد مبتسما ، وعادت السيارة للتحرك :) أنت لوحدك مؤسسة يا وحيد ! أكيد استقبلوك استقبال هايل هناك ؟

– فعلا ! استقبال خرافى ! بس موش لى أنا . لمجدى . مظاهرة تقريبا . قالوا وكتبوا أنه أول رئيس وزراء مصرى يزور معهد وايزمان منذ مصطفى خليل . قالوا أكتر ٣٠ سنة سلام ، والبلدين ما شافوش مرة واحدة حاجة وحشة من بعض ، بل دخلوا معا معارك اختلطت فيها الدماء الزكية للشعبين ضد عدوهما المشترك ، العرب ؛ إنما الزيارة دى بداية جديدة جدا ، وكأنها أول يوم فى السلام ! المقابلة بين نيتانياهو ومجدى كانت أكثر من رائعة . قال له فيها إنه يحسده ، والسبب هو السلاسة التى يتم بها تطبيق الأمور فى مصر . طالما كانت لديه نفس الأفكار عن الحرية المطلقة ، اقتصادية واجتماعية ، لكنه لا يستطيع تطبيقها عامين كاملين متواصلين ، إلا ويجد الكنيسيت قد حل والحكومة سقطت . وقال إنه متفائل جدا بفترة حكمه الحالية ، ذلك أنه يعول جدا على نجاح التجربة المصرية ، ويتوقع أن الشعب الإسرائيلى سيتعلم منها الكثير ، إذ قد تتملكه الغيرة ، ويعيد النظر فى مفاهيمه البالية عن الديموقراطية .



الحضارة چيين !

– نيتانياهو قال لك كده فعلا ؟ ! هيييييه ! أخيرا انتصرنا على إسرائيل ! لقينا حاجة استحالة تتفوق علينا فيها !

– (ضاحكا :) أو جايز الهرم بتاعك سره باتع فعلا !

– لأ ، أنا ها أفهمك كل قصة مصر أصلها إيه يا مستر أرسطو : مثلها مثل أى شىء آخر ، الحضارة چيين ! ما وصفته أنت يوما بشبق الكدح والبناء والارتفاع ، ورؤية العالم هرما أو مسلة ، لا يمكن إلا أن يكون رزمة چيينات إن لم يكن چيينا مفردا بعينه ، ولا يمكن إلا أن يكون قد ظهر لأول مرة فى مصر القديمة . لا ضير إطلاقا أن قال هيرودوت إن المصريين متخلفين ، أو يقول بلوتارك إن الأسكندر قد جلب الحضارة لمصر ، أو يقول الجنود الرومان إن المصريين كالحى الوجوه متجهمين . كلهم على حق ، لكنهم لا يرون من الحقائق إلا ظاهرها . أى من كل هؤلاء لم ير مصر الحقيقية . لقد كانت قد أفلت وخبا وهجها ، وهيرودوت كتب تشنيعاته على حكام مصر ، فى القرن الخامس ق . ح . ش . ، نقلا بالتحديد عن كلام الفرس الذين لم يجد سواهم ذا كلمة فيها ، وبالأخص أساطيرهم التوراتية الساموية عن تجبر الفرعون الطاغية الظالم ، فما بالك باللاحقين على هيرودوت . أما أن تقول أنت إن فلسفة اليونان أرقى ، فأنت على حق أيضا ، وجميل أن تظل تحاسب مصر بأعلى معايير للحضارة عرفها التاريخ اللاحق ، لا تتخل عن هذا وإلا ستفقد صفة الحضارى أصلا ، لكنى اليوم أجد للأمر تفسيرا عجيبا بعض الشىء : إنه ليس أفول مصر ، إنما صعودها ! الغزوات والأمجاد والإمبراطوريات التى حققها أمثال تحتمس الثالث ورمسيس الثانى استلزمت نوعا من العسكرة الهائلة ، وهى ليست من الطبيعة المصرية التى نشأت على السكينة والألفة (الجنة الوحيدة التى عرفها الكوكب) . لقد فرض علينا البدو أچندتهم ، فكان لزاما علينا أن ندحر عدوانهم ، والنتيجة أن تآكلت روحنا وتضبب صفاؤنا كلها من حيث لم ندرى ولم نقصد . إنه لا يختلف بالمرة عن كلامك عن أن المتدينين ينتصرون ولو هزموا . أيضا ألا تذكر نظريتك الأخرى عن الحضارة التى تقفز غربا . لقد نسيت الخطوة الأولى جدا : أول هجوم للعرق الساموى لم يكن الهجوم بسلاح المسيحية على أثينا وروما ، إنما الهجوم على مصر ؛ جحافل عصابات الهكسوس والفرس ... إلخ . هنا كانت القفزة الأولى للحضارة غربا (التى عادة ما كنت تهملها) : من مصر لليونان ! لا تنس أن عبادة إيزيس كانت فى كل مكان ، وفلسفة المصريين معروفة لكل إنسان على خريطة روما -أقصد خريطة العالم . ثم لا تنس أن مصر كانت قد استوطنت كريت ، والهجرات الأقدم والأقدم موجودة أيضا ، ولا شك أنها كانت مبدأ انتقال الچيينات ، ونظريات مغبونى الحق السير جرافتون إيلليوت سميث وويلليام چيمس بيرى فى مطلع القرن العشرين ، تجلجل فى هذا الصدد حتى وصلت بچيينات المصريين إلى نيو زيلاندا وفنلندا والفوكلاند أى كل شبر فى العالم ! إذن الأسكندر لم يأت ليدخل مصر للحضارة ، إنما جاء لأنه ابنها ؛ لأنه مشروع قائد جديد للحضارة رأى الفرس البرابرة يطأونها فجاء ليحررها ، ومن غباء بلوتارك وغيره أن لم يروا مغزى ما فى استقبال المصريين بكل الود والترحاب .

– إيلليوت سميث ؟ كلام روميو طلع صح . اعترفت أخيرا أنه مغبون ، والأهم أنك تابع سرى له ؟ !



– الآن يمكنك تحرير سيدك أرسطو من أبشع تهمة ألصقها به المغرضون :

أنه كان يشمل مصر ضمنا حين كان يعلم أن كل من هو غير يونانى هو بربرى ،

بينما الحقيقة ببساطة أن فقط لم يصلنا عنه رأيا قاطعا واحدا مسجلا بشأن مصر .

كيف يعلم شيئا مثل ذلك والأسكندر لحظة أن يفع من بين يديه ، صوب تحديدا نحو مصر ، بل إلى مكانين بالأخص جدا :

رحلة خطرة غير مفهومة وشبه مميتة لواحة سيوة كى يحصل على صك من كهنة آمون أنه ابن حضارتهم ،

ثم رحلة أخرى لا تقل طولا ومشقة للأقصر كى يرمم آثار تحتمس الثالث ،

بانى أول إمبراطورية فى التاريخ ، ويضع اسمه بتواضع تحت أمجاده .

هنا فقط شعر الأسكندر فى داخله أنه بات هو نفسه مهيئا لمسعاه القدرى العظيم : بناء ثانى إمبراطورية للحضارة فى التاريخ !

– أوه ! لا تتذاكى على ! ربما تقصد أنى بالأحرى أستطيع تحرير نفسى ؟ !

– الآن يمكنك تحرير سيدك أرسطو من أبشع تهمة ألصقها به المغرضون : أنه كان يشمل مصر ضمنا حين كان يعلم أن كل من هو غير يونانى هو بربرى ، بينما الحقيقة ببساطة أن فقط لم يصلنا عنه رأيا قاطعا واحدا مسجلا بشأن مصر . كيف يعلم شيئا مثل ذلك والأسكندر لحظة أن يفع من بين يديه ، صوب تحديدا نحو مصر ، بل إلى مكانين بالأخص جدا : رحلة خطرة غير مفهومة وشبه مميتة لواحة سيوة كى يحصل على صك من كهنة آمون أنه ابن حضارتهم ، ثم رحلة أخرى لا تقل طولا ومشقة للأقصر كى يرمم آثار تحتمس الثالث ، بانى أول إمبراطورية فى التاريخ ، ويضع اسمه بتواضع تحت أمجاده . هنا فقط شعر الأسكندر فى داخله أنه بات هو نفسه مهيئا لمسعاه القدرى العظيم : بناء ثانى إمبراطورية للحضارة فى التاريخ !

– أوه ! لا تتذاكى على ! ربما تقصد أنى بالأحرى أستطيع تحرير نفسى ؟ !

– الحضارى البناء -وبحكم التعريف- هو العكس من البربرى البدوى (بتوع الهجرة الدائمة من إبراهيم أبى القوادين عليه السلام إلى مُحَمَّد ابن آمنة إلى شكرى أحمد مصطفى) . هو يطلب الاستقرار ويكره الارتحال ، لذا فالحركة عنده تمليها عامة الضرورة القصوى لا الرغبة ، ولا تحدث إلا على فترات زمنية بعيدة ، والأهم أنها عادة ما تكون لمكان منعزل ومن ثم قابل للإعمار ومن ثم للاستقرار فيه لأجيال طويلة : من أخدود النيل الحصين ، لجزر اليونان ، أو لشبه جزيرة إيطاليا ، أو للجزر البريطانية ، أو حتى للضفة البعيدة الأخرى من المحيط . والحضارة حين تنتقل لمكان جديد ، تنتقل كى تقهر الأنتروبى (التى سببها اختلاط المصريين -العدائى- بالعرق الساموى) من ناحية ، ولكن كى تبدأ مستويا جديد أعلى لها من ناحية أخرى . هذا المستوى الجديد الفائق التام لم يتحقق كلية إلا فى روما ، حينما لم تعد العسكرة انتقاصا للروح إنما جزءا منها ، تماما كما الفكر والقيم والمبادىء ، حيث يتماهى الكل فى المادة التى صنعنا منها ، وتصبح الفلسفة ناطقا أمينا بلسان أمنا الطبيعة لا أكثر ولا أقل . هنا فقط اكتشفت الحضارة الحكمة الكاملة لأمنا الطبيعة ، فلسفة القوة ، قوة الخير وخير القوة (نجيب محفوظ ، لا تقلق ، لن ننساك أبدا !) .

– لا تذهب بعيد ! بما أنك ذكرت أرسطو ، فبصفتى مادى أرسطى أصولى متحجر الفكر ، فستظل هناك دوما أشياء سأموت قبل أن أفهمها . لقد كانت رحلة شاقة وأيضا ممتعة تعلمت فيها الكثير عن مصر وشعب مصر ، وارتفعت نظرتى لها ولهم من النقيض الشرير -أو على الأقل المتخلف- لليونان وروما ، إلى الأم المربية العظيمة لهما ، لكن سيظل يصعب على مثلا فهم لماذا ينفق الفرعون كل هذا الجهد وكل هذه الاختبارات لآخر حدود التقنية من أجل بناء مقبرة ومعبد خارقين لكل تحديات الطبيعة ، بينما هو شخصيا يعيش ويبيت كل حياته فى منزل ويدير إمبراطورية من مكتب كليهما متواضع جدا لدى المقارنة . بالنسبة لأمثالى يصعب أن يصرح السفنكس بكل أسراره ، لذا دعنا نظل فى لغز يمكن أن أفهمه يوما : إذا كنا قد اتفقنا أن الأصل فى چيين الحضارة شبق الكدح والبناء والتطلع الرأسى ، بينما الوفرة والرفاه هى النتيجة ، لذا حين تبدأ الحضارة فى التحول للانغماس فى الذات self-indulgence ، يبدأ الچيين الأصلى فى التململ ، وربما يهاجر لهذا السبب فى حد ذاته !

– يا عم أنا إللى موش قدك ! ... على فكرة : أوزيريس سبق أستاذك أرسطو إلى تصنيف الكائنات ، فهو الذى درس خصائص النباتات جميعا ، ومنها اختار بنفسه الشعير طعاما وشرابا للمصريين ! ... على فكرة كمان : ده بيرد سخريتك من فكرة الفوتون الرسول ؛ يعنى مصر

القديمة وابنتيها اليونان وروما الغنوصيتين سبقوا أينستاين لنظرية النسبية ؛ أدركوا استحالة وجود إله كلى القدرة ، ففرقوا بين الإله البعيد إللى يستحيل الاتصال به والآلهة المخلوقة أو الـ lesser gods أو الصانع الـ Demiurge (إللى كنا بنقول عليهم بيخلقوا بصوابعهم موش بلسانهم) .

– لأ ، وأنت الصادق ، الموالد بتاعة الشفاعة بتاعتك هى إللى سبقت أينستاين !

– هأ ! هأ ! هأ ! أيوه كده ، صحصح معاى يا راجل !



الأهم من كل ده موش نص المليون الكوادر إللى اتقبض عليهم وتركوا يتعفنون فى الصحراء ،

إنما حوالى ٢ مليون تانيين من القبائل العربية أخدوها من قصيرها وبدأوا يسيبوا مصر ويرجعوا للسعودية .

لقد ذعروا من مشهد البلدوزرات التى راحت تنبش قبر عبمعصور وتهدم مسجده ،

لتتحول بعدها بدقائق لنيران تسوى بالأرض قبر زغد سعلول وما سمى ببيت ' الأمة ' ،

اللفظة التى ما قصد بها قط إلا معناها اللغوى الأصلى جدا قبل ٤٠٠٠ عاما ، شراذم العبرانيين العرب الهوام القادمين من الشرق ،

وشملت أيضا كل تماثيل مجرمى ما سمى فى مطلع القرن العشرين بقادة الحركة الوطنية التى تعج بها ميادين وسط القاهرة ،

أولئك الذين على أيديهم فى ١٩١٩ كتبت نهاية أعظم نهضة مصرية منذ العصر الفرعونى ،

هذه التى قادها اللورد كاسيل واللورد كرومر عبر البنك الأهلى المصرى

(بما فيها تمثال طلعت حرب ، الذى ساعتها لم يعد وحيد يشعر بأى شىء إيجابى أو سلبى تجاه اشتغال جد والدته معه) .

لقد أدرك هؤلاء الأغراب الأعراب الأعرار أن عيشهم قد انتهى على أرض هذا البلد ، التى لن يوقفها شىء عن تطهير ترابها منهم .

... العملية برمتها تمت بعلانية صارخة وسلاسة مذهلة ،

حتى القضاة الإسلاميون استقالوا وسلموا أنفسهم للصحراء ، بحيث لم تجد فرق الموت السرية هدفا يذكر لها !

– تعرف إيه الاهتمام إللى أخدته أنا فى الزيارة دى ؟ نيتانياهو حب يعرفنى أنه عارف أنى كاتب ومثقف وموش بس مترجم فبص لى وقال لى باستغراب : ' الظاهر بلدكم دى ها تفضل طول عمرها بلد الشطحات ، والعالم كله لازم يفضل يمشى ورا نزواتكم ! ' . قلت له مبتسما إن الـ Butterfly Effect حقيقة علمية تقول بها نظرية الفوضى ، فرد بجدية : ' هذه المرة لم تأتوا بشطحة واحدة بل بـ package متكاملة لأشياء (ربما فكر بها البعض من قبل لكنها من يحدث أبدا أن اجتمعت معا ، ناهيك عن أن تنفذ فعلا) : ديكتاتورية الحداثة التى يحلم بها كل حاكم متحضر فى العالم ، مقاومة الإرهاب بأسلحة الدمار الكتلى حيث ثبت أن لا وسيلة ناجعة أخرى ، الانسحاب من الأمم المتحدة (وهذا مما نفهمه جيدا عندنا فى إسرائيل لأننا طالما عانينا الويلات من هذه المنظمة ، لكن لم نصل قط لنقطة التفكير فى الانسحاب) ، وأخيرا ما فاق الكل : الفرز العرقى . كثيرون حاولوه وبالذات ضد اليهود ، لكنكم أتيم به فى لحظة كاد يعتقد فيها العالم إنه صار كله عرقا واحدا مختلطا ، وأنه لا يمكن استعادة النقاء الأصلى لأى عرق . بالنسبة لعرب إسرائيل كان كل تفكير البعض عندنا مجرد فصلهم بأراضيهم عن بقية البلاد ، إلا أنكم فتحتم لنا الباب لتطهير إسرائيل كليا من آخر فلول الاحتلال العربى ، تطهيرها نهائيا من المحتل الغاصب ، وإزالة آثار العدوان للأبد ' . علقت قائلا : ' نحن المصريون ندين للرئيس السادات بفضل أن عرفنا من هم أصدقاؤنا الحقيقيون فى المنطقة ومن هم أعداؤنا ' ، فرد قائلا : ' والإسرائيليون أيضا ! ' . طبعا عرفت إيه الخطة إللى ها تتعمل لسكان غزة ؟ ها يرحلوا لأرض فى النقب على حدود الضفة الغربية ، وها تتجرف كل المبانى العفنة دى للبحر وتبنى فوقها شواطئ رملية جميلة ، ومصر ها تضم أرض مساوية من رفح للعريش إللى فرغناها من العرب ، وها تبقى أول منطقة حرة مشتركة بين بلدين فى التاريخ لغرض سياحى . أحب أقول لك إسرائيل مصممة زينا بالظبط أن ما فيش عرب إلى الغرب منها ، وتقول إنه يكفيها جبهة واحدة ، وإن مصر هى ضهرها ... يا عم ضهرى !

– وطبعا ' ضهرى ' دى معناها تبعات ومسئوليات : ليبيا والسودان مثلا ! ... على فكرة ، شطحة السادات ماشى ، إنما بقية الشطحات دى كلها من عندى أنا ! هأ ! هأ ! أنتم موش فاهمين السر فى حكاية الشطحات ، الحكاية ما فيهاش لغز ولا حاجة ولا حتى يصح تتسمى شطحات ، إنما أبسط مما تتخيل : بما أن مصر هى أم المسالمة والطيبة والدين والاعتدال والوسطية والموت والأنتروبى وكل الحاجات إللى غايظاك

دى ، لما تعمل حاجة -أى حاجة- لازم تلفت أنظار كل الدنيا . موش أكتر أو أقل ! إنما سيبك من كل ده ، الأهم من كل ده موش نص المليون الكوادر إللى اتقبض عليهم وتركوا يتعفنون فى الصحراء ، إنما حوالى ٢ مليون تانيين من القبائل العربية أخدوها من قصيرها وبدأوا يسيبوا مصر ويرجعوا للسعودية . لقد ذعروا من مشهد البلدوزرات التى راحت تنبش قبر عبمعصور وتهدم مسجده ، لتتحول بعدها بدقائق لنيران تسوى بالأرض قبر زغد سعلول وما سمى ببيت ' الأمة ' ، اللفظة التى ما قصد بها قط إلا معناها اللغوى الأصلى جدا قبل ٤٠٠٠ عاما ، شراذم العبرانيين العرب الهوام القادمين من الشرق ، وشملت أيضا كل تماثيل مجرمى ما سمى فى مطلع القرن العشرين بقادة الحركة الوطنية التى تعج بها ميادين وسط القاهرة ، أولئك الذين على أيديهم فى ١٩١٩ كتبت نهاية أعظم نهضة مصرية منذ العصر الفرعونى ، هذه التى قادها اللورد كاسيل واللورد كرومر عبر البنك الأهلى المصرى (بما فيها تمثال طلعت حرب ، الذى ساعتها لم يعد وحيد يشعر بأى شىء إيجابى أو سلبى تجاه اشتغال جد والدته معه ، فقط تساءل بينه وبين نفسه هل سيسمونه ميدان اللورد كاسيل ، أو يسمون ميدان الإسماعيلية ميدان اللورد كرومر فلطالما كان معسكرا للجيش الإنجليزى ، أو يطلقون اسم السير إيلليوت سميث مثلا على العاصمة الجديدة المزمعة لمصر) . لقد أدرك هؤلاء الأغراب الأعراب الأعرار أن عيشهم قد انتهى على أرض هذا البلد ، التى لن يوقفها شىء عن تطهير ترابها منهم . ... العملية برمتها تمت بعلانية صارخة وسلاسة مذهلة ، حتى القضاة الإسلاميون استقالوا وسلموا أنفسهم للصحراء ، بحيث لم تجد فرق الموت السرية هدفا يذكر لها !



چيين الحئد !

– أنا فعلا مندهش يا ضهرى من السرعة إللى بتتطور بها التقنية دى . أمكن تحديد الچيينات الضارة المتخلفة موش فى العرب بس ، إنما فى كل الأعراق ، وبدأ وضع معايير مدروسة لأين نضع خطا أحمر ، وإلا مثلا كان رئيس وزرائنا وكان أحلى صديق لى اعتبروا عرب ودخلوا فى مشاكل ، لمجرد چيين هنا أو هناك !

– أيوه ، بالذات وأنى قضيت معظم عمرى سفر ، بينما الحضارى الحقيقى لازم يكون مزروع فى أرضه لا يرتحل أبدا ، ولا حتى باسم السياحة . سمعت عن نجيب محفوظ ؟

– أمى سافرت ، أنا سافرت ، أنت سافرت ، وملايين المصريين الطيبين سافروا ، حقبة سوداء وانزاحت .

– الواضح أن جدة لنا كانت مصرية واختطفت أو شىء كهذا ، وهى التى غلبت الچيينات المصرية فى جزء من تلك القبيلة العربية . الحكاية كلها چيين واحد الذى يفرق البنائين عن الطفيليين أو حسب أرسطو الحضاريين عن البرابرة ؛ چيين الحئد ! سأقضى بقية عمرى مدافعا عن إطلاق اسم الحئد عليه بدل الحروف والأرقام الغبية إللى إدوها له ، طبعا باعتبار أن السادات هو مكتشفه الحقيقى قبل تحديده المادى هذا بأكتر من تلاتين سنة . الراجل لما قال قدرت على كل شىء فى مصر إلا الحقد ، كان يتكلم حرفيا جدا بلغة الچيينات لأنها الشىء الوحيد الذى لا نقدر عليه إلا بالإبادة ، بل وكان يوحى لنا بأن چيين خصلة trait الحئد هو الذى يدور حوله كله شىء !

– أنت نفسك كنت بتقول موضوع الچيينات والتصاحبات والحاجات دى معقد جدا ، وسيثير مشاكل هائلة جدا ، فإذا به يتضح أن العملية أسهل مما تخيلنا (تجميع چينومات المتهمين فى قضايا الثأر أو چينومات متعددى الزوجات أو چينومات أولئك السياسيين الذين أرسلناهم للصحراء ، وإرسالها لحواسيب لتدرسها وتقول لنا أية چيينات بالضبط ينفرد بها هؤلاء أو أولئك ، بحيث يمكن سلفا اتخاذ إجراءات ضد من يعثر لديه على مثل هذه الچيينات) ، ثم يتضح فى لحظة أن كل اللعبة بتدور حول چيين واحد شيطانى فقط لا غير . ... يا للهول ! فى لحظة نكتشف أن أن الأوان لم يفت بعد لاستعادة النقاء لأعراق البشر المختلفة ، على الأقل الجيد منها ، انتظارا بالطبع ليوم تبدأ فيه الهندسة الچيينية إبداع تصاميم لكائنات أدق بناء وأشد رقيا منا بكثير .

– ليس معنى أنه قد حل أنى كنت على خطأ ؛ هذه طبيعة العلم ، يسعى بدأب وراء أعقد المشاكل حتى يصل فى خاتمة المطاف لحلها ، وأنا لم أقل قط أن لمجرد أن هذا صندوق پاندورا لا تقتربوا منه . العكس هو الصحيح ، أنا كنت أعلم سلفا أن هذا اليوم سيأتى حتما !

– بالتأكيد ! هذا ما أردت أنا نفسى قوله لك . لم أقصد شيئا غير هذا . فقط أردت شكرك على ما تعلمناه منك ، وتقديرك على فهمك لموضوع الچيينات ، هذا الذى هو نفسه كأنه شيء فى چيناتك . هأ ! هأ ! إنما أنا عندى سؤال : كل إللى حصل فى مصر ده وموش عاوز تسميه انتخاب غير طبيعى ؟ !

– بالعكس ، ده انتخاب طبيعى جدا ؛ الانقلابات البيئية جزء أساس من التاريخ الطبيعى ، إن لم نقل هى قاطرته !

– طبيعى إزاى والانقلاب ده إحنا إللى عملناه بإيدينا ؛ حفنة معروفة من الناس ؟ !



غلطة قاتلة ما كان يجب أن تمر على الخيال الجبار لدكتور دوكينز : لا يوجد شيء اسمه الميم ؛ الأفكار كلها موجودة فى الحلزون المزدوج العادى تماما ، ولسنا فى حاجة لخلق مفهوم اعتبارى خاص بها . بل أذهب لما هو أبعد : اللغة بكل مفرداتها موجودة فى الچيينات ؛ اللغة برمتها چيين ! الشباب لا يضيف كلمات جديدة للغة كما قد يبدو لنا ، إنما فقط ينطق بما تطفر داخل نويات خلاياه من كلمات جديدة ، وشخصيا لدى دليل قاطع جدا على هذا !

– أتصدق حقا هذا الهراء ؟ أتصدق حقا أن هناك شيء اسمه شطحات ؟ فقط المكتوب ع الچيين لازم تشوفه العين ، وأحيانا يكون المكتوب هو الفناء ؛ دون قصد طبعا تكتشف البركة الچيينية أن بداخلها آلية دمار ذاتى لم تتنبه لها وتبدأ عواصف الإبادة !

– هأ ! هأ ! هل تقصد أن التاريخ الطبيعى يعرف فقط التطفرات ، ولا يحتمل مصطلحا اسمه شطحات ، أم تقصد أنه لا يوجد هذا ولا ذاك ، وأنه يوجد فقط ' شوائب ' ؟ لا تقل لى إنك تقصد أيضا أن المصريين هم شوائب هذه الأرض ؟ !

– ربما بالفعل . ما أنا واثق منه تمام الثقة أن كل شيء فى الچيينات . هل تعرف ما هى العبارة التى جربتها على طابعة أول حاسوب اشتريته لمنى ؟ Everything Is Gened! ، لعله كان على أن أجرب اسمها مثلا كى أشعرها بالسعادة ، لكن ذلك هو ما حدث لا شعوريا ، ربما لأنه كان الهاجس الشاغل لى لحظتها ، أو أيا ما كان . كتاب ' الچيين الأنانى ' الذى كنتم تنتوون ترجمته ، بالفعل كتاب يقلب الدماغ كما قلب الأرنب ، على أن به غلطة قاتلة ما كان يجب أن تمر على الخيال الجبار لدكتور دوكينز : لا يوجد شيء اسمه الميم ؛ الأفكار كلها موجودة فى الحلزون المزدوج العادى تماما ، ولسنا فى حاجة لخلق مفهوم اعتبارى خاص بها . بل أذهب لما هو أبعد : اللغة بكل مفرداتها موجودة فى الچيينات ؛ اللغة برمتها چيين ! الشباب لا يضيف كلمات جديدة للغة كما قد يبدو لنا ، إنما فقط ينطق بما تطفر داخل نويات خلاياه من كلمات جديدة ، وشخصيا لدى دليل قاطع جدا على هذا ! ... فى طفولتى كان من عادتى التجول فى شوارع القناطر ، بل فى الواقع أنا أحفظ كل حارة وكل بيت . ذات بعد ظهيرة فى إحدى الحوارى الضيقة الفقيرة سمعت صوت خناقة بين رجل وامرأة تبعث من دور مكون من دورين ، وفى وسط الشارع امرأتان تحاول واحدة منهما أن تشرح للثانية ما سبب هذا الخلاف . أنا لم أكن فضوليا لدرجة أن أقف وأتلصص على هذه القصة ، لكن لحظة مرورى بالضبط لجانبهما ، كانت المرأة الأولى تقول للثانية ' جه وناكها الصبح ! ' . هنا وجدت قضيبى الصغير ينتصب لأول مرة فى حياتى ، ويسرى به شعور لذيذ غريب ، لدرجة أن تقريبا أصبت بالفزع . لا أعرف هل كنت قد سمعت تلك الكلمة من قبل أم لا ، لكن قطعا لم أكن سمعت أى شيء عن الجنس ، ولو سمعتها أو سمعته لم أكن قد فهمت أى شيء منه على الإطلاق . الآن أنا متأكد من شيء آخر : أن ذات الشيء كان سيحدث لى لو كنت قد سمعت الكلمة بأية لغة ولو من أفريقيا أو أميركا الجنوبية ، أو على الأقل بعدد لا بأس به من لغات العالم . ليست كلمتا ماما وپاپا التى يقولها الرضع هى وحدها المبرمجة چينيا !

– (واجما :) هل أنت متأكد أنك كتبت Everything is gened على الطابعة ؟ !

– بالتأكيد . لماذا تسأل ؟

– لا شيء !



– (شاردا :) يااااه !

... من كان يتصور قبل عام واحد أن تعود أعراق العالم المتميزة لحمى استعادة نقائها العرقى قدر الإمكان من جديد ، وأن تطهر أراضيها من المهاجرين ويوشك بليون إنسان أن يصبحوا بلا جنسية أية دولة وكل هذا الذى كان يعد جنونا ، ناهيك عن تصور أن يبدأ ذلك كله بشرارة واحدة تنطلق من مصر ؟ !

– لعله لم يكن أمامهم سبيل آخر ؛ إنها القشة الأخيرة للبشرية قبل أن تجتاحها الهندسة الچينية والآلات الحية فائقة الذكاء !

– (وحيد لا يزال شاردا :) يااااه ! ... من كان يتصور قبل عام واحد أن تعود أعراق العالم المتميزة لحمى استعادة نقائها العرقى قدر الإمكان من جديد ، وأن تطهر أراضيها من المهاجرين ويوشك بليون إنسان أن يصبحوا بلا جنسية أية دولة وكل هذا الذى كان يعد جنونا ، ناهيك عن تصور أن يبدأ ذلك كله بشرارة واحدة تنطلق من مصر ؟ !

– لعله لم يكن أمامهم سبيل آخر ؛ إنها القشة الأخيرة للبشرية قبل أن تجتاحها الهندسة الچينية والآلات الحية فائقة الذكاء !



مزروع ، مررررررزوع ، مزروع ، يا ولدى !

يصمت ضهرى طويلا ثم يتنهد : ' أنت عارف إيه الشىء إللى موش مصرى فى واحد زيى ؟ ... السفر الكتير . لما أنت كنت بتخرج من مكتبك لقاعة الصحفيين ويقولوا لك احلف بغربتك ، ده كان دليل كبير جدا على أنك مصرى أصيل ، وحتى الچيينات البريطانية إللى فيك هى چيينات مصرية أصيلة برضه ، ولا غرابة لأن أصل شعوب الحضارة عرق واحد هو العرق المصرى . نجيب محفوظ لم يسافر خارج مصر إلا مرة واحدة فى حياته ، مأمورية شغل لليمن ، وبعدها قطع خالص ، حتى نوبل ما سافرش يستلمها . ليست مصادفة أن آلهة مصر هى آلهة الهارمونى والاستقرار ، لأن حب الهدوء والسكون والارتباط بالمكان مكونات جوهرية فى الهوية المصرية ، وبدونها لا تكون دماؤك مصرية ' . ونس ما غلطش لما أنت قلت مرة أنك لما تطلع ريسيپشن الشقة تقول وحياة غربتى غنى لك ' مزروع ، مررررررزوع ، مزروع ، يا ولدى ! ' ' . ثم يستدرك : ' على أية حال هذا لا يقلل كثيرا من مصريتى . صحيح أنا عملت رحلة حول العالم ، لكن بعدها شعرت بالغثيان ، وتوقفت عن السفر إلا لضرورات الشغل القصوى ، قررت الاستقرار فى المزرعة وتكريس حياتى للتأمل والقراءة ، وحاليا أصبحت باحتقر كل واحد بيحب السفر أو بيستمتع به ! ثم يغير الموضوع فجأة : ' إنما أنا إللى عندى سؤال : بعد كل ده ، عاوز تفهمنى أنك موش المستشار الأول لسيادة رئيس الوزرا ، الواد أخويا العيل المبجل ؟ ' .

– (بحزم :) لأ ، موش أنا . أنا لا أصلح للوظائف الحكومية ، ولا حتى مستشار للوظائف الحكومية .

– ليه ؟ ممكن نجيب لك كتاب الطبيعة لأرسطو تحط إيدك عليه وتقول أقسم بإلهى العظيم !

– هم لهم حساباتهم وأنا ما بأفهمش فيها . على الأقل أنا لا أستطيع الابتسام والتضاحك طوال الوقت مثلهم . تقدر تقول مرض وراثى !

– موش أنا إللى بأناقض نفسى دلوقت . إحنا دلوقت ما فيش سياسة خالص . بيطبقوا حرفيا الكلمة بتاعتك ' أيديولوچيات معادية للحرية ' . موش دى مصطلحاتك برضه ، ولا أنا غلطان ؟ كله بيتك بيتك ، أو راحوا قلب الصحرا . كمان پرلمان من ممثلى الشركات الكبيرة ، موش ده كلام أرسطو بتاعك ، يا حلمك أنت مستر ذكاء آلى ، يا للى بتسمى نفسك أصولى أرسطى وبتقول إنك مرتاح كل عمرك فى التسمية وموش مستعد تغيرها : ملكية فى ثوب عصرى ؛ من يملك يحكم ، وليس أوليجاركية ولا ديكتاتورية فردية ولا أى ملك أى شىء كان ، إنما تحديدا حملة مشعل التقنية هم من يملك ويحكم ولا يناقشهم أحد . باختصار ، كل شىء بقى بالعلم . العلم بس هو إللى بيتكلم .

– بيتكلم ؟ السؤال موش أنه بيتكلم ؛ السؤال إمتى ها يبطل كلام ؟ على أية حال المستشار إللى بتقول عليه موجود فعلا ، بس موش من مصر خالص . ها ييجى من تشيلى . واحد من إللى عملوا التأمينات القطاع الخصوصى بتاع پينوتشيت ، مساعد لپينيرا . أنا كتبت عنهم كلهم كتير أيامها . كان لسه شاب صغير ، ما أعرفش سنه كام حاليا . آخر خبر مر على من كام سنة هو أن حكومة الولايات المتحدة استعانت به فى أيام چورچ دبليو . بوش .

– يعنى موش أنت إللى اقترحت الاسم عليهم ؟

– (يتلعثم قليلا :) الاسماء معروفة للجميع .



القانون الثانى للديناميات الحرارية يقول لنا إن تقليص الفوارق بين الطبقات أو بين الشعوب سيؤدى للموات الكلى للكوكب . علم البيولوچى يقول لنا لا بد من اجتثاث ' الغشاشين ' (الشيوعيين والناصريين والإسلاميين) ، لو أردنا تفادى انقراض كل الشعب . إنما يا حاج حقائق العلم البسيطة : ١ + ١ = ٢ !

بدأت السماء تمطر بغزارة ، بينما كانت السيارة تمضى فى طريقها . وبعد قليل يتحول الحاج لموضوع آخر لعله يكون أكثر متابعة له من وحيد وكواليس السياسات العليا التى انغمس فيها : بيقولوا المعتقلين وصلوا نص مليون واحد . إدوهم خيام وبطاطين ، ويوميا يرموا لهم الطعام والماء بالهليكوپتر . ما فيش أسوار . حرية (من بتاعتك !) . إللى عاوز يهرب بيسيبوه ، لأنه ها يموت . وحتى لو رجع بلده لن يغير شيئا . بيقولوا كمان الدوريات الجوية بتتدخل فقط لو حد اقترب من الخارج بسيارة مثلا للمعسكر .

– تفتكر ده أكتر رحمة ولا پينوتشيت . برضه ما كانش يقتل حد . كان يأخدهم أحياء ويرميهم فى قلب المحيط ، وهم وحظهم مع سمك القرش ، يا أكلوه يا أكلهم !

– إللى يشوفك ما يتخيلش أبدا أنك متوحش كده من جوه . يعنى كان ها يحصل إيه ، لو سبناهم يعيشوا وسطينا ؟

– (بسخط :) تاااااى ؟ ! ها ننسى بسرعة كلام الچيينات بتاعتك ؟ ها ننسى المغفلين والغشاشين ؟ ما هم كانوا عايشين فعلا ، والنتيجة أنهم دايما بينتصروا ، بينجحوا فى فرض رأيهم على المجتمع ، لأن البركة الچيينية إللى بيتحركوا فيها بتسمح لهم بكده ، إن ما قلناش بتشجعهم عليه . لو هم فى بركة چيينية أخرى ، كان ممكن تستوعبهم وتحجم أثرهم ، لكن بركتنا الچيينية تتيح لهم الانتصار . لو فى أعراق تانى كان جايز ، إنما هنا ما فيش حل تانى . الناس دى آذتنا وآذت البلد ، كل الشعب ، وآذت العالم عقود أو قرون كاملة ، وطول عمرها ما نالت أى عقاب . وتركهم طلقاء فى المجتمع جريمة فعلا . القانون الثانى للديناميات الحرارية يقول لنا إن تقليص الفوارق بين الطبقات أو بين الشعوب سيؤدى للموات الكلى للكوكب . علم البيولوچى يقول لنا لا بد من اجتثاث ' الغشاشين ' (الشيوعيين والناصريين والإسلاميين) ، لو أردنا تفادى انقراض كل الشعب . الإبادة شىء لا مناص منه ؛ إنما يا حاج حقائق العلم البسيطة : ١ + ١ = ٢ ! أما أصحاب عقيدة من لطمك على خدك الأيمن من البوذيين أتباع إيزيس وطريقتها الصوفية أمثالك فهم لا خطر منهم ، لكن المشكلة فى استغلال الآخرين لهم . أنا لدى شىء أفضل بالنسبة لكم : لماذا لا تؤمنون بالعين بالعين والسن بالسن ، لكن تبادرون أنتم بتقديم المعروف للناس ؟ !

– صحيح ! أخونا يسوع جايز زودها شوية لما قال الخد الأيمن والخد الأيسر . هو نفسه لم يحول خده عندما لطم عليه إنما راح يناقش من لطمه . (ثم يستدرك فجأة :) هذا كلامى أنا ، لا تنس ما قلته لك يوما إن الحمائم ربما ليست بالضرورة بالسوء الذى يوحى به اسمها . (ثم يثور ساخطا فجأة مجهضا حديثا مكرورا عن الرسو على بر :) تاااااى ؟ ! عاوزنى أغير آرائى ؟ نسيت بسرعة كلام الچيينات بتاعى ؟ هى أفكار الناس بمزاجها ؟ (بعد برهة :) إنما عارف أنا متوقع إيه ؟ موش ها يبقى لإخواننا البعدا شغلة فى الصحرا غير يدوروا على أصل كل واحد فيهم إيه . ها يعملوا أحزاب وقبايل وأيديولوچيات ، ويبتدوا يشكوا فى بعض ، وبعد شوية يبتدوا يقتلوا [بتشديد التاء] فى بعض ، وما فيش أكتر من الحجارة فى الصحرا يطقشوا بها رءوس بعض زى البيض . فى ظرف ٦ شهور ها يكونوا خلصوا على بعض كلهم . تحب نتراهن ؟ !



لم تعد هناك عصمة لفكر ، بالذات الدين ، بالذات الإسلام ؛

وأيضا لم يعد هناك استبعاد لفكر ، بالذات العرقية ، بالذات الإبادة !

إن حرية التعبير لأكثر قداسة من أى دين .

لقد جاءت لتبقى ، ودرة التاج فيها جوهرتان هيهات لهؤلاء أن يمسوا بأيهما تحت أية ظروف حالية أو مستقبلية :

حق النقد العلنى للأديان والحرية الجنسية !

– على فكرة : إيه رأيك فى الدستور ؟

– (منفجرا فى غيظ :) قصير أوى ! ما يكملش صفحة ونص . (ثم بلهجة استنكار ذات مغزى :) يا سيادة عضو لجنة صياغة الدستور !

– على فكرة أنا أكتر واحد كان له دور فى أنه يطلع مختصر . دى حاجة أنا فخور بها جدا .

– (يعود مغتاظا :) بس كده ده أقصر دستور فى العالم ! أقصر من دستور أميركا . أقصر حتى من الماجنا كارتا !

– النظام الاقتصادى منصوص عليه ضمنا فى كلمة حرية . برضه الحريات الاجتماعية منصوص عليها فيها . الالتزام بالجلوبة والاتحاد مع العالم المتقدم منصوص عليها فيها . حتى كلمة الحرية بتسمح أنها تعيد تعريف نفسها بنفسها بمرور الزمن . كلمة واحدة بتلخص كل حاجة . مثلا كان لا بد من حذف كل ما يخص الهوية والدين واللغة ... إلخ ، من اسم الدولة ومن النصوص . وطبعا حذفت كلمة ' جمهورية ' سيئة السمعة من كل ...

– (مقاطعا محتجا وكأنه كان ينتظر الكلمة :) إزاى يعنى شعب من غير هوية ؟ عديم الشخصية يعنى ؟ يفضل معلق فى الهوا ؟

– أنت كمان نسيت كلامك عن الأنثروبولوچيا ولا إيه ؟ موش أنت إللى قلت هويتنا هى سر تخلفنا ، بل هى تخلفنا نفسه ؟ كمان أنت إللى بتقول الشعب ما لهوش شخصية ، ولف عليه كل المستعمرين . أنا موش جايب الأفكار دى من عندى ، دى بعض ما عندكم !

– منى أنا ؟ (ثم يستدرك مستذكرا أن هذا ربما يكون صحيحا :) أيوه ، بس نعيش من غير هوية إزاى ؟

– علم مصر للطيران بقى هو علم مصر ، وحورس حبيبك بقى هو الشعار ، ألا يرضى هذا بحثك عن الهوية ؟

– إيه يعنى حورس ؟ شالوا صقر وحطوا صقر . مجرد حقيقة تاريخية ، بيفكرونا بأفضل عصر مرت به مصر ، وليس هوية . إنه كتعريف الماء بالماء . لو تركوا العلم كله باللون أبيض لما اختلف الأمر كثيرا ، أو ربما كان أكثر تعبيرا عن الهوية .

– موقف عجيب ! كنت أتوقع العكس منك . على أية حال هو يسعدنى لأنه تأكيد جديد أنه لا يوجد تعريف للهوية ، لا عندك ولا عند غيرك ! لا أفهم ما الذى يضيرك فى أن الحرية هى الهوية .

– تقصد اللا هوية ؟ (ثم مستعيدا رزانته وهدوءه بالعودة لمنطقة تمكنه ؛ الچيينات :) هل بعد كل ما حدث ، وبعد كل ما فعلته أنت شخصيا ، لا تزال على رأيك أن الوطنية شىء لقيط ؟ الهوية شىء لقيط بقدر ما الچيينات شىء لقيط ، والچيينات هى الشىء الوحيد الذى لا يمكن أن يكون لقيطا أبدا !

– لا يزال تعريفى للوطنية أن نجعل هجاء الكلمات فى لافتات مصر الجديدة صحيحا . عارف أنت عامل زى إيه ؟ زى واحد مخطوف بعد ما يتفك أسره يوحشه إللى كانوا خاطفينه .

– الدين احتياج إنسانى ولا يمكن تلغيه . لازم يكون فيه حد تصلى له ؛ من غير إله عظيم تتوحد معاه ، حياة الإنسان شىء تافه جدا . أقل شىء يا أخى بعيد الشر يوم ما تفقد لك حد ، ما فيش غير الدين يعزيك !

– أنا لا تعزينى الأوهام ، إنما أنت كده ، ها تفضل عين فى الجنة وعين فى النار .

– أو عين فى الصحرا !

– لأ ، الصحرا علشان إللى بيسلبوا حرية غيرهم . إللى بيسلب حرية نفسه ، هو حر . (ثم مداعبا مكايدا :) واخد بالك ؟ ' حر ' !

– لكن أين حرية الفكر هنا ؟ !

– ها نعيد كل الكلام تانى ! مبدئيا حرية الاقتصاد هى أم كل الحريات . ثانيا بالنسبة للفكر ، سؤال المحتوى ظل طويلا السؤال الذى لم يسأله أحد ، رغم أنه السؤال الفيصل ، أما الآن فلحسن الحظ إدرك العالم وازداد وعيه بمخاطر الأفكار المصادرة للحرية . بصراحة ، هل تعلم ما هو أكثر ما يضايقنى فى نفسى الآن ؟ إنى لم أعد بذات الحماس القديم لدحض فكرة الدين . لقد أصبحت استصغر نفسى فى مناقشة أمسيت -بفضلك طبعا !- أعلم أنها لن تأتى بأية نتيجة ، ذلك لأن أى شخص لن تتغير چيبناته أبدا . فى نفس الوقت أتضايق من أنى كنت أفعل ذلك يوما ، فاليقين التام بأن الدين ما هو إلا هراء ، لا يعنى أنك وصلت لكل الحقيقة بعد ، بل عليك بعده مشوار شاق بحثا عن من أين أتى كل دين أصلا ، من أية بركة چيبنية ومن أية خصائص تميزها بالضبط ، ثم فقط عندها تبدأ التخطيط للمعركة ، التى ما كان يمكن أن تكسبها أبدا لو لم تفعل . أولئك لم يكونوا ليستسلموا أبدا ، كانوا سيقاتلون حتى آخر قطرة دم فى آخر واحد فيهم ، ليس طمعا فى الجنة (فقادتهم كما تقولون لا يؤمنون بمثل هذا الهراء ، كذلك كل القوميين) ، لكن لأسباب چيبنية عروبية بحتة ؛ فهم كما الثيران مبرمجون چيبنيا على عقلية القطيع ، على الموت الجموعى من أجل القبيلة التى لا حياة للفرد دونها ، أليس هذا كلامك أم فهمتك خطأ ؟ !

– أبدا ! أنا لا أقول مثل هذا الهراء ! الكلام ده بتاع هيتشكوك فى فيلم ' الطيور ' ! هأ ! هأ ! هأ !

– اليوم لم تعد ثمة عصمة لفكر ، بالذات الدين ، بالذات الإسلام ؛ وأيضا لم يعد هناك استبعاد لفكر ، بالذات العرقية ، بالذات الإبادة ! إن حرية التعبير لأكثر قداسة من أى دين ، لقد جاءت لتبقى ، ودرة التاج فيها جوهرتان هيهات لهؤلاء أن يمسوا بأيهما تحت أية ظروف حالية أو مستقبلية : حق النقد العلنى للأديان والحرية الجنسية ! عارف أنا رأيى أصلا فى اللجنة كان إيه ؟ كان أن الدستور يطلع من كلمة واحدة !



الحرب العالمية الثالثة ستنشب حالا -ولا محالة- انطلاقا من آسيا .

... بعدها سيتم الانتقال السلمى للسلطة الإمپريالية من حضارة ما بعد-الصناعة لحضارة ما بعد-الإنسان ،

تماما كما انتقلت بسلاسة من حضارة الصناعة لحضارة ما بعد-الصناعة .

كما تقولون الابن هو الوحيد الذى يتمنى الأب أن يراه أفضل منه ،

فقط الفارق أن أميركا كانت ابنا من صلب انجلترا ، بينما اليابان ابن بالتبنى لأميركا !

– (ساخرا :) وحرية دى بأه مقصود بها Freedom ولا Liberty ؟

– (يرد بجدية أكثر من المتوقع :) طاب الثرى تحت رأسك يا عم نوبل . لو أن كل ما جرى سينقذ مستقبلا روحا جميلة واحدة كروحك من الموت العشوائى ، لكان يستحق كل هذه المخاطرة من أجله . نبيل لو كان هنا لقال لك Liberty هى الصح ، وFreedom تعنى انعتاق .

– وإيه الغلط ؟ ما هو انعتاق برضه من إرهاب فكرى سيطر علينا . موش ده كلامك ؟

– (يضحك وحيد :) صح ! بس تقدر تقول أنه لا شعوريا نوع من العنطزة المصرية إللى ما نقدرش نتخلص منها ، عاوزين ننسى أى حاجة تفكرنا الماضى ! المهم ، هى دى الحاجة إللى كنت عاوز أقول لك أنى فخور بيها . حكاية المختصر المفيد . كان كل همى أنى أحذف كل ما يمكن حذفه من المسودة إللى اقترحوها . لو صبروا شوية عليا ، كان ممكن أوصله لفقرة واحدة . مثلا كان فيه أعضاء عاوزين يحددوا العطلة زى بقية العالم شرق وغرب يوم الأحد أو زى مصر أيام زمان ، أو أن اللغة الرسمية هى الإنجليزية . أنا عارضت . قلت لا يكتب أى شىء ، وتترك حرة . كل وزارة أو هيئة أو مصلحة أو مدرسة أو جامعة تحدد بنفسها عطلتها واللغة إللى يخاطبها بها الناس . وتلقائى بمرور الوقت كل حاجة ها تبقى الأحد وها تبقى بالإنجليش . اسم مصر نفسه ها يزول مع زوال اللغة العربية ، ويتبقى فقط اسم Egypt ؛ كل شىء بالإنجليش !

– (ضاحكا هو أيضا :) أو باليابانى !

– كنت فاكرك هتقول يونانى ، فعلا إيچيپتوس النطق اليونانى لكيميت ، إنما ما فيش مشكلة طالما الحضارة چيين ، وطالما اليونان وروما بناتنا إللى طلعوا أقوى منا ! هأ ! هأ ! (يضحك ، ثم بعد برهة يتمعن فيما سمع :) ياپانى ؟ لأ ، دى صعبة . لغة العالم اتحددت خلاص . الحرب العالمية الثالثة ستنشب حالا -ولا محالة- انطلاقا من آسيا . ... بعدها سيتم الانتقال السلمى للسلطة الإمپريالية من حضارة ما بعد-الصناعة

لحضارة ما بعد-الإنسان ، تماما كما انتقلت بسلاسة من حضارة الصناعة لحضارة ما بعد-الصناعة . كما تقولون الابن هو الوحيد الذى يتمنى الأب أن يراه أفضل منه ، فقط الفارق أن أميركا كانت ابنا من صلب انجلترا ، بينما اليابان ابن بالتبنى لأميركا ! (ثم مستدركا مشاركا فى الضحك :) إنما تصدق أنها فكرة ؟ ! لما تكون لغة مركز الحضارة صعبة ها تساعد على الحد من هجرة العبيد .

– أنا شخصيا لا أعتقد أن اليابانيين سيكررون بسهولة أخطاء الحضارات السابقة التى غرقت فى طوفان عبيدها أو نسيت عسكرة المجتمع بعد قليل ، الساموراى يجرى فى دمائهم ولن يذهب بعيدا لأى مكان .

– عندك حق ! طالما لن يوجد شىء اسمه ' الحلم اليابانى ' فإن الحضارة الرابعة ستزدهر إلى حيث لا يعرف أحد . هم ليسوا بحاجة أصلا لاستجلاب شغيلة أجانب ؛ لديهم الروبوتات .

– بل قل لن يمضى وقت طويل حتى يصبح اليابانيون أنفسهم عبيدا لما يخلقونه من كائنات . سواء الروبوتات أو البشر فائقو الصفات المهندسون چيينيا بالكامل ، سيزيدون من فوارق المسافة بين أرقى الكائنات وأدناها ، وهذه هى الطريقة الوحيدة لمكافحة الموات الحضارى وزيادة الأنتروپى وغثاء الوسطية ، وكل الحاجات إللى كانت عاملة لك رعب .

– لو اليابانيون ' بعد-إنسان ' فعلا تبقى كل قواعد اللعبة اختلفت بجد !

– (ضاحكا :) ما هذا الكلام ؟ تفسير جديد لعبارة الروبوتات ترث الأرض ؟ !

– ممكن ! إيه المانع أن مينسكى كان قصده ' اليابانيون ' يرثون الأرض ، وبعد كده كل حاجة ها تيجى لوحدها ؟



٢٠١١

– فى الحقيقة أنا كان قصدى باللغة اليابانى حاجة تانية : نسيت أقول لك أن منى عازمانا ، أنت وأنا وإجلال وإدوارد وسماء وروميو (وجايز سوسن تيجى) ، على السيتى ستارز يوم الأربعاء كله . ها تأكلنا سوشى ، وها تفرجنا على فيلمين ، وكمان على التويوتا ، والكيمونو !

– هييه ! جابت كيمونو ! عنيدة بجد ! (ثم مستدركا :) إنما غريبة ! هى ما كانتش جابت العربية لغاية دلوقت ؟

– لأ ، يا سيدى ! عناد برضه . سيلت لها الفلوس زى ما اتفقنا ، لكن اتأجلت فكرة العربية فترة بسبب حوادث الخطف والاغتصاب ، وكنت بأوصلها بنفسى زى ما أنت عارف ، على الأقل علشان خاطر خوف إجلال وأمى عليها . الخمسة وتلاتين ألف بقوا تمانين ، لكن ما اشترتش حاجة ، والسبب أنها فضلت مصممة جواها على التويوتا . قصدى موش أى تويوتا ، إنما طلعت فى التويوتا الجديدة الكهربا الغالية . عربية صغيرة أد كده بـ ١٢٠ ألف . قلنا لها استنى شوية وكل عربيات الكهربا ها ترخص . ما فيش فايدة . طبعا مكسوفة تطلب منى أكتر من الاتفاق إللى بينا . لفت على أمها لغاية ما أخدت منها أربعين ألف . قال إيه لازم تدفعى زى ما دفعت أنا وپاپا . صحيح ، إللى اختشوا ماتوا . بتقول دفعت ؟ لأ وإيه ، بتقول إنها دافعة أكتر واحد . إجلال دى مبوظاها . إدتها الفلوس رغم أنى ما كنتش راضى . قالت أى فلوس بنديها للأولاد ، حتى لو ها يرموها فى الأرض ، هى أحسن استثمار ، بتخلق لهم شخصية وعزة نفس . كلام فاضى ، لو أبويا سمعه كان خنقهم هم الاتنين ! أنا موش بخيل وبأكره البخل ، لكن التبذير يغيظنى . ممكن أشترى حاجات بألفين أو ٣ آلاف جنيه ، وأروح البيت ألقى نص رغيف مرمى ، ألفه وأحطه فى التلاجة . الزراعة علمتنا الاقتصاد ، والهندسة إللى بتدرسها الست منى بتعلمها الاقتصاد ، وأنت الاقتصاد نفسه وأكيد فاهم قصدى . المهم ، راحت أول إمبارح اشترت العربية لوحدها من غير أى واحد منا . إدوارد قال لها أنتى أول زبونة عندى ، وأول زبونة فى مصر تطلب العربية دى . حجزها لها وإداها ٤ آلاف تخفيض ، وها تستلمها بكرة . اشترت الكيمونو ؛ تفصيل طبعا وبمبلغ محترم ، وبالباقى ها تعمل العزومة ، وأنا عارف أن ها يطلع أن الفلوس كانت فى العشة وطارت ، وأنا إللى ها أتدبس كالعادة !

– واجب برضه نهنيها ونشاركها فرحتها . أنت ليه كده عديم العرفان ؟ لاحظ أنها افتكرت تعزمنا أحنا ، موش تعزم أصحابها الصغيرين مثلا !

– الغبية كل ما أقول لها رأى تغضب وتقول أنت عاوز تقيد حريتى ، وأنت عارف أنى نهائيا موش ضد الحرية (فاكر كلام أن الجنس هو الأهون خطرا ؟ !) . أنا فقط ضد الدلع . أمها هى إللى فعليا بتقيد حريتها ، لأنها بتخاف عليها . سواء بقصد أو بدون قصد هو ده تقييد

الحرية . فى المقابل هى تعبر عن حبها لها بالدلع ، ودى موش تربية ، إنما ببساطة هو تعريف عدم التربية ، لأن تعريف التربية هو خوض التجارب واكتساب المهارات وتحمل المسئولية (فاكر الكلام عن أفلام ' بامبى ' و' المدمر ٢ ' وغيرها ؟ إللى ما تعرفهوش أن إجلال غضبت على جدا أيام ما كنت أفرج منى على حاجات زى كده) . على أية حال أنا موش ها أنسى كلمة حكيتها لى أنت عن مامتك لما بتقول إن الفارق بين الحرية وبين العبودية لأهواء النفس هو خيط رفيع . الإنسان لا يميز بسهولة بين الحرية وبين الدلع (دلع الأم لابنتها أو دلع الإنسان لنفسه) ، بينما هما نقيضان أبيض وأسود . (ثم على ذكر الأفلام :) على فكرة هى موش عنيدة أوى . على الأقل فيه حاجة واحدة لانت فيها : اشترت كل أفلام هيتشكوك وكيوبريك بناء على نصيحتك !

– أوه ! بجد ؟ ! ده تحول خطير ! (ثم مستدركا :) أو فى الحقيقة موش تحول خالص ، ولا لين حتى . ده شىء طبيعى بالنسبة لشخصيتها وأفكارها ، وكان لازم تعمله من زمان من نفسها !

– تصدق أنها سألتنى عارف إيه آخر وصية لكيوبريك ، آخر كلمة فى آخر فيلم قبل ما يموت ؟ قلت لها عارف : Fuck! . الراجل موش شايف أن الإنسان ممكن ينفع فى حاجة أكتر من كده . تفتكر ها تاخد بالنصيحة وتجرب تخرج من وحدتها العجيبة ؟

– (بحزم ، وإن مرح :) لأ ، يا بو منى ! بنتك موش ها تعتبر نفسها من البشر العاديين أبدا . كلها شوية وها تقرأ فى أرسطو والچيينات ، وها تعمل نظريات ما كانتش على بال حد !

– (ضاحكا :) أنا ها أسجل لك فى التاريخ أنك تانى واحد قدر يلعب لها فى دماغها بعدى !

– أوه ! شرف هايل ! إنما موش صحيح ، ولا أدعيه !

– أنت عارف سموا طراز العربية إيه ؟ ٢٠١١ !

– عارف ! عاوزين يخلدوا السنة دى كسنة ميلاد أول سيارة ركاب تجارية كهربية خالصة . ربما آن لى أنا أيضا أن أشترى سيارة حديثة . لقد بدأت أستخدم سيارة أمى الأثرية بأكثر مما يجب . أيضا عرفت الآن من سأستشير بخصوص شراء سيارتى القادمة .

– إنما بعد المحطات النووية والطاقات البديلة والعربيات الكهربا ، تفتكر العرب ها يشربوا پترولهم فعلا زى ما وعدهم كيسينچر ؟

يهذى وحيد بصوت خافت : لقد دالت أيضا دولة الكربون ؟

– بتقول إيه ؟

– ما فيش ! أنت فكرتنى بموضوع ما كانش على بالى ، ولازم أكلم فيه ماما هو كمان ؟ الروبوتات سترث الأرض فعلا . إنها من الأصل كوكبهم . كان علينا أن نعرف هذا من قبل ١٠ بليون سنة . نظرة واحدة على الخريطة ، كانت ستنبئك أنه ما هو إلا كوكب السيليكون !

– عندك حق ! العرب دلوقت فى أزمة مهولة . ما حدش عاوز يتعامل معاهم ؛ العالم كله بقى دلوقت عارفهم على حقيقتهم .

– موش بالظبط ، لأن لسه الصين بتشترى البترول منهم ، لكن الصين ومحور الشر الجديد ، هذه قصة أخرى ، وإن لا بد أن يومها قريب !

– إللى حصل للعرب موش قليل . حتى البورصات الأوروپية إللى فضلوا يشتروها فى الـ ٣ سنين إللى فاتت فاكرين أنهم بملكية البورصات ممكن يتلاعبوا بأسعار الأسهم من جواها ، انطردوا منها شر طردة . أنت ممكن تعيد كتابة موضوع ' الاقتصاد اليوم ' الشهير بتاعك تانى ، عن سوق المناخ وتوظيف الأموال وبنك الائتمان والتجارة ، وتزود حلقة جديدة عن شركات البورصة ! (ويتنهد :) ربنا ستر ! لو كانوا نجحوا عندنا فى شراء كيوپيد إللى هى أصل ورمز سوق الأوراق المالية فى مصر ، كان ممكن بسهولة يشتروا شركة البورصة ، واللعب يشتغل على ودنه . (ثم ضاحكا فجأة :) الظاهر أننا على رأى بتوع رمسيس موش ها نبطل مناقشات حتى فى القبر . كوكب سيليكون إيه ؟ أنت نسيت المحيطات ؟ موش دى حاجة على الخريطة برضه ؟ ما سمعتش عن پروسيسور بيولوچى من مواد عضوية ، وجايز يبقى أكثر تقدما من پروسيسورز السيليكون ؟ إيه رأيك يا بتاع المكن تعمل أنت حزب السيليكون ، وأنا يا بتاع الزراعة أعمل حزب الهيدروكربون !

– هذه قصة أخرى ، وإن لا بد أن يومها قريب !

– أوعى تفتكر أن مكسبكم ها يبقى مضمون : كل حاجة عملتوها بالسيليكون ممكن يتعمل أحسن منها بالكربون . حتى رقاقة الـ GPS إللى عاوزين يزرعوها فينا ، ممكن تتعمل فى الچيينات من غير أى زرع خالص ، ممكن كمان البصمة الچيينة تغنى عن كل شىء ، مثلا جسمك

نفسه يبقى كارت الائتمان بتاعك ، تأخد الحاجة من السوبرماركت وتمشى من غير ما حد يقول لك رايح فين ، أو ممكن يزرعوا فى خلاياك بروتينات قاتلة تطلق لدى الحاجة ، أى حاجة ممكنة فى التقنية البيولوجية . زى ما الكمبيوتر فى الحوارى دلوقت ، الهندسة الجيينية ها تبقى كده قريب !

– بس لاحظ أن ما عدش فيه انتخابات ، والكلمة العليا لم تعد للحوارى !

– ومين قال أنى بأتكلم عن انتخابات ؟ !

– عندك حق ! الخلافات بين البشر لا يمكن أن تنتهى أبدا . (ثم يضحك متحديا :) بس لاحظ أن بعد البشر ، ما حدش يضمن الوضع ها يبقى إيه !

– ولا حاجة ، ها تبقى فيه شبكة تواصل لدول ، وشبكة تواصل لدكهم !

– يبقى برضه اليد العليا للسيليكون .

– ومين قال لك أن الكائنات المنماة چيينيا ها تستخدم الإنترنيت والخليوى ؛ فيه حاجة اسمها التليپاثى ؟ !

– يبقى أنت جاوبت على السؤال ! موش ها يحصل تواصل أصلا بين النوعين : مملكتان مستقلتان بذاتيهما من الكائنات الحية الذكية ؛ زى الحيوان والنبات دلوقت !



ربيع إيه ده ؟ !

شتاء السنة دى برد جاف جامد جدا ، والمطر جه متأخر خالص لكن شديد بدرجة غير معقولة ، ده غير العواصف إللى فوق الوصف !

راح الحاج يضغط دواسة الوقود وهو يقول : ' ياه ! الوقت اتأخر أوى ! ' .

– قصدك المطر والضلمة . (ويضحك محاكيا -وإن بغير إتقان كبير- محاكاة ضهرى للرئيس السادات :) إحنا هنا فى مصر ما بنخاااافش ، ٧٠٠٠ سنة حضاررررة !

ويشاركه ضهرى الضحك : ' على فكرة طول عمرى ما عرفت جاب الألفين الزيادة منين ؟ ! ' .

– وأنا طول عمرى ما عرفت جاب السبعة كلهم منين ؟ !

ويعود ضهرى بعد برهة تأمل فى المطر : دى بتديها بضمير !

– إنما إيه الحكاية يا ضهرى ؟ ربيع إيه ده ؟ ! شتاء السنة دى برد جاف جامد جدا ، والمطر جه متأخر خالص لكن شديد بدرجة غير معقولة ، ده غير العواصف إللى فوق الوصف !

– أو جايز ها يبقى عندنا أمطار صيف مبكرة كأجزاء كثيرة من العالم !

– قصدك الصيف الهندى ؟

– أو جايز مصر تبقى مناطق باردة زى إللى بتحبها . تشخيص حبايبك الدجالين بتوع اليسار للأرض أن عندها حمى وبتسخن طلع فضيحة ، والكلام دلوقت أننا رايحين لعصر ثلجى . حد عارف ؟ الطبيعة تعمل كل إللى هى عاوزاه والإنسان ما هو إلا حشرة ضيف على سطحها . خير ! خير ! فى كل الأحوال خير ! موش أحسن ما كانش ييجى مطر خالص .

– فاكر يوم القناطر وعزومة المنجة ، لما قلت لك أن قش الرز بتاعكم برىء م ظاهرة السما السودة ، ولا يمكن وحده يعمل ظاهرة ضخمة زى دى ؟

– أيوه ، وقلت لك أنت ها تفهم أكتر م العلماء بتوعنا .

– أنا طلعت بأفهم فعلا . فى إسرائيل بيقولوا أنهم درسوا الموضوع ده ، وأنه جزء من التغيرات المناخية العامة إللى ملأت العالم . طبقة أيونية بترد الهوا السخن لتحت ، فبقينا زى ما نكون فى حلة مقفولة مليانة عادم سيارات .

– يا نهار أسود ! طب والحل ؟

– ها نشترك معاهم وأكيد ها نوصل لحل . هم بينزلوا مطر اصطناعى زى ما أنت عارف ، وخبرتهم هايلة فى موضوع التحكم فى طبقات الجو .

– (ضاحكا :) لو الواد العلـ... ونس هنا ، كان قال دى مؤامرة . هم إللى عملوا السما السودا علشان هم إللى يعالجوها . وحشنى الواد السافل ده !

– أنت لسه كنت غضبان عليه ؟ ما فيش فايدة فيك أبدا ! نفسى تثبت يوم على بعضه على رأى واحد !

– المسامح كريم بأه . برضه لازم نعذر الظروف . إنما لو كان زودها شوية مع الحكومة كان زمانه فى الصحرا دلوقت .

– على فكرة ، إللى زى ونس تصنفه إيه چيينيا وعرقيا !

– اتبع قلبك ، هل أنت أحببته أم لا ؟ ... إذن ، لا تقلق عليه . فى دمياط سوف يتم له غسيل كلى يتطهر فيه من كل التطبع إللى اكتسبه من أيام وجوده فى الخليج ، وهو ليس من طبعه . (وفجأة :) إنما تفتكر بصحيح ها نرجع نشوف السما الزرقا تانى فى القاهرة ؟

– آمل هذا !

– آديك بتقول آمل ، (ويهز ركبته بعنف مرة أخرى :) يا بن آمال نور !

– بص : أنا لا متفائل ولا متشائم . أنا زى ما أنت بتقول مكنة . المتشائم واحد أعرفه دايما يقول دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين !

– مين قال لك ده تشاؤم ؟ ده مكنة برضه !

حين يهدءان من نوبة الضحك العارمة ، يحول وحيد سياق الحديث إلى منحى جديد : على فكرة أنا موش رايح مصر الجديدة ، أنا رايح أزور قبر ماما .

– الذكرى التانية لسه معدية من كام شهر !

– ده أنت حافظ التاريخ ؟

– (مشيرا لرأسه :) فيه كمپيوتر هنا . كل تواريخ العالم هنا . والست مامتك موش إللى ينسى حد تاريخها . إيه خير ؟

– أبدا ! فيه عندى كلمتين عاوز أقولهم لها .

– بس الوقت اتأخر كده ، موش الأحسن تروح لها من الصبح ؟ (قالها دون أن تحمل دعوة جدية لإثناء وحيد عن مشاعره التى رآها ضهرى مقدسة) .

حين اقتربت السيارة من التقاطع الذى سيحدد هل سيواصلان لمصر الجديدة ، أم إلى المقابر ، وكانت الشاشات الرقمية التى تتلقى معلوماتها من الرصد بالساتيلايت ، تشير لأن أى من المسافتين لن يستغرق أكثر من أربع دقائق ، توقفا قليلا . كيف هذا ؟ أى رصد بالساتيلايت والجو غائم تماما ؟ تناقشا لدقائق حول ما أعلن من أن هذه الشاشات سوف تشتغل قريبا حتى أثناء الليل . ها هى تشتغل بالفعل . لقد أصبحت أكثر استعقادا فى برمجة حواسيبها ، بحيث لا تتلقى معلومات الساتيلايت فقط ، بل أيضا تغذية بإشارات من كاميرات أرضية ، ومما يسمى ذكور نحل drone ، أى طائرات خفيفة خفيضة بدون طيار تشبه التى تستخدمها إسرائيل فى مراقبة لبنان والمناطق الفلسطينية وبقية حدودها ، وتشتغل بالأشعة تحت الحمراء ، وليس بالضوء العادى . ولن تتابع مجموعة سيارات بعينها على امتداد كل الرحلة ، بل ستتابعها لمسافة قصيرة . ستقسم الطريق لأجزاء ، وتحسب الزمن لكل جزء على حدة .

أنهى ضهرى المناقشة بأن لا حاجة كبيرة لكل ذلك فالشوارع تكون خاوية ليلا ، ستكون مفيدة فقط فى حالة مثل حالة اليوم ، جو غائم ومطير . هنا نظر وحيد للساعة ثم تطلع للجو العابس وقال : لديك حق ، وجب تأجيل زيارة ماما للغد . ظلام وبرد ، وجو غير مريح للقاء لا

يصح أن يتم على عجل . أيضا المشكلة ليست فقط فى المطر ، إنما فى أنى أحب المطر . وحين أجلس إلى أمى هذه المرة لا يجب أن يشغلنى شىء آخر عنها . (ثم يرفع رأسه بشىء من الحماس :) لا أعتقد أنكم ستلعبون الكرة غدا ، أتخيل منظر الملعب بعد هذا المطر الكثيف . أعتقد أنى الآن فى حاجة لكأس للدفء ، ألا تشاركه معى فى الأمفتريون ؟ إنهم أصبحوا يقدمون كل شىء الآن . سنجلس بجوار الزجاج ونشاهد من خلاله المطر .

– هيا بنا للأمفتريون ، وإن كنت لست واثقا مما أريد أن أشرب بعد .



الجامع لأخرام الكرهان ـــأو : شفرة القرطبى !

يطلب وحيد كأسا مزدوجا من الويسكى يبرره بالبرد الشديد والجو العاصف الذى يفقد معه النبيذ أية فعالية ، ويطلب الحاج شوكولاتا ساخنة ، ويصل ما انقطع من حديث : عارف الفيلمين ها يكونوا إيه ؟ ! فيلمين قدام أوى ، ' غريزة قاعدية ' و' شفرة داڤينشى ' . الرقابة بعد ما غيروا القانون بتاعها صرحت بأفلام كتير كانت ممنوعة ، ومن هنا ورايح ما فيش منع ولا حذف ، إلا فى حدود الدستور الجديد : ' الأيديولوچيات المعادية للحرية ' . دول أول فيلمين ها يتعرضوا ونازلين الأسبوع ده .

– هى كانت ما شافتهومش ؟

– كلنا شفناهم ، بس بتقول فى السينما ها يكونوا حاجة تانى . وقال إيه ، ها تاخد كاميرا الڤيديو وتسجل استقبال الناس للفيلمين !

– عندها حق . أظن احتفال الناس بالحرية هو الفيلم الأهم من كل فيلم ! لقد كنت مخطئا عندما استهنت بإرادة الحرية لدى الناس ، (ثم ضاحكا :) آسف ! قصدى إرادة الحرية لدى من لديه منهم إرادة الحرية فى چيبناته ! (ثم متنهدا :) آمل أن اقترب أيضا اليوم الذى نرى فيه شفرة داڤينشى المسكوت عنها .

– قصدك إيه ؟

– قصدى ما يقوله علماء الآثار أو خبراء البحث الجنائى ، من أن لا شىء يبقى مدفونا للأبد ؛ قصدى كل تلك القصص الوحشية أو المخزية عن نبى الإسلام التى دسها كتاب السيرة والتفسير والحديث الأوائل -أعتقد بعضهم قاصدين كما ليوناردو داڤينشى- بهدف أن تظل الحقيقة حية لليوم ولا يطمسها الزمن . ساعتها ستروى قصة الإسلام الحقيقية على الشاشة لأول مرة ؛ سيعلمها العالم كله ، كما علمتها مصر ، قراءة عميقة لما بين السطور (لا يصح هنا أن نبخس ونس حقه وفضله على أية حال !) . إن لكل دين أناجيله الغنوصية الأقدم والأصح التى دونت الحقائق ' بعبلها ' قبل أن تلحق بها ' المؤسسة ' التى نشأت لاحقا ، التزيين والتزويق والتزوير وتصبح مقدسة (مع الفارق طبعا أن النصوص الغنوصية كانت تخفى مسيحية أولى أكثر تقشفا ورهافة ونقاء مما عرفناها ، وابن إسحاق يخفى إسلاما أول أكثر دموية وفحشا وقبحا مما لحقه !) . لقد اكتشفت مثلا أن البروتستانتية ليست منتجا أصيلا لبلاد الشمال كما كنت أعتقد من قبل ، بل هى إحياء أو إعادة تدوير للغنوصية الصوفية المصرية اليونانية القديمة . ترى هل كان يعرف إيلليوت سميث هذا ؟ لا شك أنه سيسعد له . ... الدين چيين فعلا ، والأهم أن الحضارة چيين طبعا !

– وفيم حاجتنا للبحث عن المفقود ؟ ألم يكن أول عهد لك بالكتب الصفراء تفسير القرطبى ، ومن فقرة واحدة فى تفسير سطر التوبة ٢٩ ، خرجت على الأقل بنصف فهمك للعرب ، وليس مجرد دين العرب ؟ !

– كيف فاتنى هذا ؟ بالفعل ! كل كلمة فى الكرهان الكريه كتب فيها هذا العملاق ألف شفرة وشفرة ! إن ' شفرة القرطبى ' سيكون أفظع فيلم دموى وجنسى معا فى تاريخ السينما ، بل وسيضرب ربما إيرادات التايتانيك رغم أنه لن يعرض بالطبع إلا للكبار فقط . أكاد أتخيل المشاهد التى ستجعله هكذا سواء تلك الواقعية فى فراش مُحَمَّد أو مجلس عمر وفى مذابحهم وغزواتهم وصراعاتهم ، أو تلك تتابعات كوابيسه وأحلامه عن عذاب القبر ونيران الصراط والحشر وجنة العرى والجنس الجموعى وأنهار الخمر والغلمان والحور العين . إنها فكرة أهديها لموجهه الذى أعلم كم هو علمانى صميم ، وأعلم قدر دأبه وتضحيته وراء كشف قبر يسوع وزوجته المجدلية وابنهما يهوذا ومن ثم تأكيد ما قالته الأناجيل الغنوصية عن علاقتهما الجسدية .

– لكن القرطبى بتاع ' الجامع لأخرام الكرهان ـــأو : شفرة القرطبى ! ' ، ليس بذكاء ليوناردو داڤينشى ؟ !

– (ضاحكا :) هذا لا ينفى قدرته على كتابة شفرات ؛ فقط يجعل فكها أسهل ، شفرة ٤ بت لا أكثر !

– يوجد عملاء مزدوجون كثيرون ، ولا أقصد الرازى أو ابن عربى فهؤلاء زنادقة شبه صرحاء ، إنما أقصد المعتمدين بشدة لدى أهل السنة دون أن ينتبهوا للقنابل الموقوتة فى كتاباتهم ، كالسيوطى والسنجستانى ، وهم فى هذا أمثال للقرطبى .

– هل تعرف أن هذا الزاهد العظيم عاش ومات فى مدينة المنيا ، ولا بد أن الكثير من الروح الفرعونية لصعيد مصر قد تسلل إليه ؟ لكن كل هذا لعب عيال تجاوزه الزمن : كل رفاتات البيت المسمى بالنبوى متاحة ومعروفة العناوين ؛ كل المكتبة الچينية موجودة ، وفى لحظة يمكنك ما شئت توليد صورة ثلاثية الأبعاد لكل الأشخاص عند أية مراحل عمرية ، أو استخدام تحاليل الحمض النووى لإثبات العقم والعنة والزهرى ، وإثبات استبضاع الزوجات -بالخيانة من خلف الظهر أو ربما برغبة مُحَمَّد نفسه لمداراة علله- وإثبات ضعف الشخصية ونسب المطحون لقصور بصرى لا لبنى هاشم ، أو ربما حتى إثبات ما لم يخطر لنا ببال أصلا ! ما يشغلنى هو من عساها تكون الشخصية النسائية الرئيسة فى مثل هذا الفيلم . أعتقد أنه لا يوجد دراميا أفضل من صفية ؛ سيدة الجزيرة الأولى ، ابنة الأسياد التى اغتصبها العبد . أية قيم داخل هذه الشخصية سليلة الرفاهة والرهافة ، جعلتها تكمل حياتها دون أن تقتله ذات مرة أثناء انتهاكه لها يوميا بجسده المقزز القذر (وطبعا ذكره غير المنتصب) ، أو دون أن تنتحر ؟ دراسة صعبة ؟ أليس كذلك ؟ ربما أيضا دراسة نادرة للسلوك الإنسانى تحت ظروف من قهر هائل شامل . صلابة أم تكيف أم ماذا ؟ ! هه ؟ على أية حال هناك نظرية جديدة تقول إنها استبقت الزهرى وقتلت مُحَمَّدا بالسم ، ما رأيك ؟ !

– (لا يبدو مهتما كثيرا رغم أن الموضوع يتعلق أساسا بعلم الچينات :) بصراحة ، بعد كل ما جرى لم أعد أستطيع تخيل مُحَمَّدا إلا كشخصية كوميدية . رأيى ، تعملوا فيلم عن عمر أحسن . على فكرة هو ليس إلها كما يقول ونس ، ولديه مليون تناقض ، لكن هذه قصة أخرى ! (ثم يردف وكأن هذا هو الموضع الأصلى :) لأ ، وأنت الصادق ، البت منى يئست أنك تنتج لها فيلم ، فقررت تنتج بنفسها !

– موش بأقول لك عنيدة ؟ ! تويوتا وكيمونو وفيلم !

– عنيدة مين يا أخ ؟ ! هأ ! هأ ! هأ ! ... ده كان زمان ! عيب الشباب أنه لازم تحصل لهم مصيبة علشان ينكسروا ، ولحسن الحظ جت مصيبة منى فى فشلها فى حاجات جزئية مقدور عليها ، زى عدم تكملة فلوس العربية ، أو رفض أعمامها توظيفها ، موش فى المصايب التانية الكبيرة إللى بنشوفها كل يوم وبتجيب موت أو انتحار .

– لا أعتقد أنها انكسرت . لا أرى فيما يحدث أى مؤشر لانكسار . هى استفاقت فقط ؛ فقدت بعض غرورها أو ثقتها الزائدة بنفسها ، بدأت تسمع أحسن ، نسيت وهم حياة المتع اللحظية السهلة بتاع ' ميرى پوپينز ' ، واكتشفت أنه يوجد فى المستقبل شىء أبعد من الدقائق العشر التالية ، أو بصياغة إجمالية ، كل هذا أكسبها خبرة حياة على حساب تخبط وضياع ما بعد-الحداثة . صح ؟



أغلب صاحباتها قرروا ييجوا بصدورهن عريانة !

– اوعى ما تجيش . السيتى ستارز فى اليوم ده ها يبقى معمعة . بتقول أغلب صاحباتها قرروا ييجوا بصدورهن عريانة ! قال إيه ؟ عاوزين يكونوا هم السابقة التاريخية ! تخيل منظرها بالكيمونو وسطهم ! ما ينفعش ما تجيش . ها تبقى مشكلة كبيرة . موش ها تنتج لها فيلم سينما ، فموش أقل من أنها تعمل معاك حديث فى فيلم الدى فى دى . اوعى تقول موش فاضى ؟ ! ثم أنت محتاج لزيارة لوادى السيليكون بالذات فى يوم سيليكونى خالص زى ده ، على الأقل علشان تعرف أن فيه سيليكون حلو (مشيرا إليه :) وفيه سيليكون دمه تقيل !

– فعلا موش فاضى ، إنما اطمئن ، مستحيل أقدر أفوت يوم زى ده . سأستمتع بروايتها لفكرة فيلمها عن الشياطين لى مرة أخرى ، حتى لو يكن لينتج أبدا . سأخبرها أنها ربما لن تعرف أبدا القدر الذى تغير به التاريخ بسبب أن محاولتها الانتحار قد فشلت . كمان قررت خلاص الهدية إللى ها أجيبها لها معاى ، حاجة تمشى جدا مع المناسبة .

– إيه ؟

– الهدايا لازم تكون مفاجأة .

– (يدغدغه فى فضول :) مفاجأة لها هى ، موش لى أنا .

– آه ، يا لحوح ! ها أجيب لها قرص لفرانك سيناترا ، عليه أغنية My Way .

– كويس ! جايز تخليها تنوع إللى بتسمعه شويه ، موش كله روك × روك . (ثم متفكرا قليلا :) طبعا ها تعجبها ، تمشى مع دماغها إللى زى الحجر . المهم يكون بقى دلوقت حجر مليان من جوه ، موش أجوف من بتوع عصر ما بعد-الحداثة إياه !

– خليك متفائل !

– أنا متفائل فعلا ، أنا أخيرا فهمت إيه هى ما بعد-الحداثة ، والفضل لك أنت .

– إزاى ؟



فى النهاية لن يصح إلا الصحيح ، ولا بد وأن يدرك الجميع أن لا طريق ثالث ولا حتى طريق ثانى ، فقط الطريق الأول ، طريق الأدغال ، طريق أمنا الطبيعة !

– إنك ثابت على رأى واحد طول الوقت . قعدت أفكر ليه فيه ناس ثابتة على رأيها وليه ناس ' موش راسية على بر ' (بين قوسين) ، فاكتشفت أن السبب هو سقوط الاتحاد السوفييتى . ما بعد-الحداثة شىء قديم قدم الحرب العالمية الأولى ، لكنه لم ينتشر كما الوباء إلا بعد سقوط الشيوعية ، واكتشاف جيوش اليساريين أنهم باتوا معلقين فى الهوا ، فدخلوا مؤقتا فى هذا الدين أفواجا إلى أن يجدوا أيديولوچية أخرى . ظهر كلينتون وبلير والطريق الثالث ... إلخ ، وجروا وراهم جيوش من الشباب ، لكن فى النهاية لن يصح إلا الصحيح ، ولا بد وأن يدرك الجميع أن لا طريق ثالث ولا حتى طريق ثانى ، فقط الطريق الأول ، طريق الأدغال ، طريق أمنا الطبيعة ! أفتكر الدنيا بدأت تفوق دلوقت وتفكر فى عبارتك الغريبة شر الأمور الوسط ! هأ ! هأ ! هأ !

– الدنيا موش ها تفوق خالص ، لأن التعقيد إللى أنت بتتكلم عنه تجاوز خلاص حدود القدرات العقلية للإنسان الطبيعى ، ولا بد من كائنات جديدة فائقة الذكاء والمعرفة هى التى سترث الأرض . واضح أنك لن تتخلى عن حبك للإنسان ، ولا تريد أن تقبل فكرة أن اليابانيين ليسوا بديلا للإنسان بل جسر لما هو بعده .

– على فكرة أنا عاوز أصحح لك حاجة : الشطحات عكس الوسطية لغويا ؛ لا وسطية على الإطلاق فى أن تبنى شيئا يظل لأربعة آلاف سنة أعلى بناية فى العالم ! أيضا ألم أقل لك ذات مرة أن لا تنخدع بالمظهر الخارجى للحمائم ، ذلك أنها أشرس بكثير مما يخطر ببالك ؟ الآن أنت تكشف أن أمنا إيزيس ليست بالطيبة التى تبدو عليها للوهلة الأولى ، ومثلما تقول تطويباتها الذاتية إنها الحب والحنان ، تقول أيضا أنها الشرسة الفتاكة بكل من يمس شعبها ، بل تقول صراحة إنها الطبيعة ؛ أمنا ! يعنى ببساطة داروين لم يأت بجديد لم يقله أجداده المصريين . هأ ! هأ ! هأ ! (ثم يستحلب الكلمة فى فمه :) My Way ! تنفع نشيد قومى ! تنفع كمان خلفية للفيلم . (ويربت على يد وحيد بحنان :) إنما أنت غلبان ومحروم ويا دوبك تنفع عليك Strangers in the Night ! (ثم يعدل رأيه بسرعة حتى قبل أن يهم بالضحك على عبارته السابقة هذه :) وMy Way تنفع . أنت برضه شغال من دماغك . كل الدنيا شغالة من دماغها . على رأى المثل دنيا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين .

– (ضاحكا :) هى بقت من الأمثال دلوقت ؟ ! ارسى على ... .

– (ضاحكا أكثر :) لأ ، خلاص ! بيقولوا نبتت لها إيدين !

ويعود وحيد فجأة ليأسه وتجهمه : ' أشك ! ربما هى فعلا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ' .

– (ضاحكا أكثر وأكثر :) ارسى على بر ، لو سمحت !



انتظر خمس سنوات أخرى ويمكنك الحصول على حفيدة بشكل ماريلين مونرو وعقل ألبيرت أينستاين !

حين تهدأ نوبة الضحك يواصل قائلا : ' تصور أنى بدأت من جديد الجدل مع منى حول الأطفال . فى خلال خمس سنوات ستباع الأجنة جاهزة من كتالوج فى الصيدليات إن لم يكن فى ڤاترينات السوپرماركت ، وتذهب به للطبيب ليركبه لها كما يركبون الآن مثلا لوالب منع الحمل . هى تريد طفلا حليوة بچيينات پوب ماكارتنى وأنا أقترح چيينات ألبيرت أينستاين أو لو أنثى چيينات ماريلين مونرو ' .

– انتظر خمس سنوات أخرى ويمكنك الحصول على حفيدة بشكل ماريلين مونرو وعقل ألبيرت أينستاين !

– اطمئن ! هى موش مستعجلة خالص . كلها مناقشات وافتراضات فى الهوا . أنت فاكر أنها زى ميرڤت هادية وعاقلة وحساسة ؟ العمر الافتراضى لأية علاقة ناهيك طبعا عن زواج واحدة زيها لا يمكن يزيد عن ٦ شهور ، إن لم يكن ٦ ساعات . على أية حال ده إنجاز ؛ على الأقل بدأت تأخد وتدى فى الكلام . استنانى ! تخيل أنى لم أسال سماء قط رأيها فى مستقبل الهندسة الچيينية ؟ ترى هل تفضل أن ما يباع فى السوپرماركت مستقبلا هو مجرد أجنة بشرية -بويضات مخصبة- أم أطفال رضع جاهزين ؟ لو تسألنى أنا ، أجيبك : كله بثمنه ؛ لكن هل هذا هو السؤال الحقيقى عن المستقبل ؟ السؤال هو أين سيجد روميو الشيخ حجاب ليسأله عن دعاء شراء الأطفال المهندسين چيينيا من السوپرماركت ؟ ! هأ ! هأ ! بأهزر . السؤال إللى قصدى عليه : ما هى مواصفات هؤلاء الأطفال ؟ تعرف أن طول عمرى بأتصور البشر المصممين چيينيا ها يكون شكلهم حاجة تانى خالص ، لا أينستاين ولا مونرو : رأس ضخم علشان حجم المخ لازم يكون أكبر ، جسم صغير علشان توفير استهلاك الطاقة ، وأهم حاجة خالص خالص : جناحين علشان يطير وتتحل أزمة المواصلات !

– أوه ! هذه قصة أخرى ، وإن لا بد أن يومها قريب ! (ثم مبتسما :) أخيرا أصبحنا متفقين : الإنسان مرحلة !

– (ضاحكا :) مين اتفق مع مين ؟ ! الفكرة دى بتاعتك ولا بتاعتى ؟ ! طبعا الإنسان مرحلة ، لا أكثر ولا أقل ! اسأل داروين : لا أحد على رأسه ريشة ، ولا أحد يدعى لنفسه أنه وحده ابن الآلهة !



لن تنتمى لأى تراث ، إنما ' للمستقبل البعيد ' شرد ضهرى لبرهة متطلعا من النافذة للجهة الأخرى من الشارع ، المبنى التاريخى الذى تقع فيه شركة مصر الجديدة : ' كلمة كايرو دى من القاهرة ، يعنى عربى . موش المفروض نسمى العاصمة هليوپوليس أحسن ؟ حاجة جميلة يونانى على فرعونى ، ثم أنها اسمها الأصلى ' .

ثم سرعان ما يناقض نفسه : ' القاهرة اسم موش وحش ! طول عمرى كنت فاهمة على أنها قاهرة العرب الذين لم ولن يغزوها أبدا . وأن ما قصد بها هو إهانتهم وإذلالهم ... أنا عارف ! ها تقولى الحرية ، ونسيب الناس تختار ! ... على فكرة أعلنوا النهارده أن اليابانيين ها يشتروا خلاص شركة مصر الجديدة ، وها يقوموا بتحسينات كبيرة فى الشوارع والمبانى والجناين والخدمات . غير كده كل المنشئات والكليات العسكرية فى مصر الجديدة وألماظة وطريق المطار ها تتباع للشركة الجديدة وتتنقل أماكن بعيدة . بيقولوا بيفكروا كمان يضموا المطار نفسه للمشروع الجديد ، ويبنوا مطار جديد بعيد عن العمران . الشركة ها تشترى كمان أراضى تانى ، وبعض مناطق تقرر إزالتها . ناويين يعملوا على كل الأرض دى مدينة جديدة ها تبقى امتداد جغرافى وتاريخى -الاتنين سوا- لمصر الجديدة . معمار آسيوى برضه ، بس على ياپانى بالذات . فى نفس الوقت ها يبتدوا مشروع مدينة جديدة بالكامل فى عمق الصحرا ، موش ها يكون فيه قبلها ولا بعدها فى الشرق الأوسط من حيث الفخامة والحداثة ، لن تنتمى لأى تراث ، إنما ' للمستقبل البعيد ' ! زى ما قالوا . ساعتها روميو ها يضطر يغير حساباته ، لأن السيتى ستارز لن تكون إلا قزما ! ' .

– جميل جدا ، بس الأهم منها شركات التكنولوچى إللى ها تيجى من اليابان .

– بيقولوا الست الكبيرة هى إللى شجعت اليابانيين دول على المجىء .

– آه ، معروف أنها مهتمة بحفظ تراث مصر الجديدة .

– المهم أنها بترعى مهرجان على الطريقة المصرية خالص : ' مولد ستنا الكورية ' ، هأ ! هأ ! هأ ! هأ !

– (شاردا قليلا :) من يدرى ربما يعود شباب مصر الجديدة القديم من جديد ، ولن تعود حى المعاشات الذى تمثله إدوارد يوما ؟

– هأ ! هأ ! هأ ! دوراتية زى البورصة ! ما الدنيا إلا بورصة كبيرة ! هأ ! هأ ! هأ !

– أهم ما فى الموضوع أن أخيرا ها نخلص من الشبكجى وعصابته .

– وستعود كيوبيد لرسالتها العظيمة كما أرادها لها دكتور فرغلى رحمة الله عليه . تعرف أنهم رموا كل الشركات برخص التراب ، عاوزين ينفدوا بجلدهم ، قبل الناس هنا ما تفتح عليهم محاكمات وقضايا ؟ سين وجيم أخدوا كام من وظايف مجلس الإدارة ، وغسيل أموال ، وغيره وغيره ؛ ده غير المستور فى تمويل الشبكجى للإخوان-الأخوان وللجماعات إللى كانت بتضرب فى الصعيد . والله دمك ما راحش هدر يا دكتور فرغلى !

– أنا بأه عندى خبر أكبر من كده عشر مرات . عشر مرات ؟ قول ١٠٠٠ مرة !

– إيه ؟

– (وقد اكتشف أن لسانه قد زل :) أنا آسف . للأسف ما أقدرش أقوله ، حاجة ها تعلن قريب .

– موش قلت لك يا حضرة السيد المترجم ، أنك دلوقت حاجة تانى . ما عدتش الصحفى إللى بيجرى ورا الأخبار علشان يفرح لما يذيعها . دلوقت الأسرار إللى بتعرفها ما يصحش تتذاع . أقطع دراعى أنك كنت عارف صفقة مصر الجديدة من شهر أو أكتر ؟

وكان وحيد يقصد أن ثمة عرضا من بنك ليئومى ، الذى أصبح الآن أكبر بنوك إسرائيل متخطيا الصدارة التقليدية لبنك الشغيلة (هبوعليم) ، عرضا للاندماج مع البنك الأهلى المصرى . هذا حيث -بالذات بعد سلسلة الاستحواذات التى قام بها البنكان الإسرائيلى والمصرى فى الفترة الأخيرة- سيصبح البنك الجديد أكبر بنك فى العالم خارج أميركا واليابان وأوروبا . وقد وصلوا بالفعل لمرحلة مناقشة الاسم المقترح له : بنك إسرائيل-مصر ، أم بنك الشرق الأوسط ، وفضلوا الأولى لأنها تعبر عن نوع من القطيعة مع البلاد العربية الحقيقية شرقى المتوسط . الشىء الذى أثر عميقا فى وحيد ، أن وجدهم يفخرون بالمقارنة بين بنكهم وبين البنك الأهلى . هو أيضا أول بنك رئيس فى فلسطين السابقة ، وأيضا بنك إنجليزى يهودى ، جاء بعد نظيره المصرى بأربع سنوات فقط ، هذا الذى ظلوا يعتبرونه مثلهم الأعلى ، وبعد الاستقلال سمى على غرار اسمه بالضبط . البنك القومى المصرى جعلوها بنك ليئومى ليسرائيل ، بمعنى بنك البنك القومى الإسرائيلى . وكان عماد الاقتصاد الفلسطينى ، ومن ثم عماد النشاط الاقتصادى للحركة الصهيونية ، وظل على امتداد المرحلتين ينفرد بوظيفة إصدار العملة ، هذا إلى أن أسست إسرائيل بنكها المركزى ، بنك إسرائيل ، فى سنة ١٩٥٤ . بالضبط نفس ما حدث مع البنك الأهلى المصرى ، وإن مع فارق واحد : أن لم تتم مصادرة أحد !



موش معقول ؟ ألف مليون مبروك !

تأتى المشروبات ويبدءان فى احتسائها ، ويمارس ضهرى براعته المعهودة فى العثور على موضوع جديد للحديث : ' بعد كل إللى حصل ده المفروض تكتب مذكراتك ؟ ' .

– أعتقد أنى اعتزلت الكتابة . الحقيقة أنا عندى خطط تانى .

– خير ؟

– تعرف أنى ها آخد قيللا ماما تانى ؟

يقفز الحاج من مقعده ، ويكاد يطير لأعلى بأقوى مما تفعله منى نفسها ، ويصيح بالقدر الكافى لارتجاج زجاج المكان : موش معقول ؟ ألف مليون مبروك !

ويلقى بنفسه فوق وحيد يغمره بالقبلات ، وسط دهشة كل الحاضرين مما يحدث . وحين يعود لمقعده يصيح من جديد : ' هايل ! هايل ! إزاى ده حصل ؟ ' .

– أخدوا تصريح هدم ، وكانوا ها يبتدوا الهدم فعلا يوم الاثنين الجاى . جربت وعرضت عليهم أشترى لهم أى أرض أو قيللا تعجبهم معروضة للبيع ، ولو على طريق المطار الرئيسى ، ولو مساحة أكبر ، أى حاجة تناسبهم ، وبأى سعر ، ده حقهم .

– إحنا فى الخدمة ، لو عاكسوك أنا جاهز ، وكل رجالة القناطر جاهزين . بالذوق وبالحق ، ما تخافش ! (ثم مستدركا :) يعاكسوك ؟ فيه حد برضه يقدر يعاكسك من ساعة حديث التليفيچن إياه . ده أنت لو طلبتها منهم ببلاش يدوها لك !

يضحك وحيد : ' رجالة القناطر ؟ لأ ، لأ ، أنت فاهم غلط . دول ناس طيبين جدا ومحترمين جدا ، والحكاية موش محتاجة خالص . بالعكس ، أنا سعيد بهم وها أفرح لو شفتهم بنوا برج فى مكان كويس . لما قلت لهم أنا عاوز أرجع الڤيللا وأحافظ عليها علشان اسم ماما ، عرضوا أرجعها وبنفس الفلوس بالظبط ، وأنا طبعا ما رضيتش . بصراحة صمموا ، وعلشان يقنعونى قالوا يكفينا تحط لوحة أو تطلع إعلان تشكرنا فيه ' .

– اطمئن ، المضاربات على العقارات انتهت ، والأسعار رجعت تقريبا لنفس أسعار الأيام إللى أنت بعت فيها . بالكتير ها تدفع ٧ أو ٨ مليون فى حاجة أكبر حبتين وها تبسطهم أوى .

– قالوا لى كده فعلا ، وأنها موش تضحية كبيرة زى ما أنا فاهم ، لو رجعوا الڤيللا بنفس التمن . أخيرا اتفقنا : ها تاخدوا أرض وها أحط لوحة . أنتم تستحقوا الاتنين ، وأنا كده كده ها أحط لوحة ، لأن عندى ناس كتير لازم أشكرهم .

ويضيف : ' ناس كتير من أول صحفية صغيرة اسمها هالة ، لغاية الدكتور فرغلى العظيم وشركته ، لغاية كل إللى اتحملوا الخطر وهم بيحاولوا يصلحوا البلد دى . حتى خادمة بسيطة اسمها رمانة ، كان لها أثر أكتر مما تتخيل هى أو يتخيل أحد ! ' .

ثم يشير للحاج رابتا على يده بنفس الحنان الذى تلقته يده هو قبل لحظات : ' ناس كتير بجد وقفوا جنبى حتى من غير ما يحسوا ، وأكتر بكتير مما يتخيلوا ' .

– (يدغدغه من جديد :) طبعا ! طبعا ! أنا إللى أنقذتك من الموت ، اوعى تنسى ؟

– هو ده الفضل إللى أنت معتقده ؟ (ويحاكى وإن بنبرة حزينة كلمات اعتاد قولها ضهرى نفسه له :) أنت موش فاهم أى حاجة فى أى حاجة . فيه أفضال تانى أكتر وأكبر بكتير مما تتخيل ، لدرجة أن إنقاذى م الموت بأعتبره شىء تافه ، وتقريبا نسيته ، أو حتى طول عمرى ما فكرت فيه !



عالم قائم على التنافسية الخالصة التى لا ترحم أحدا

هو اليوتوبيا الوحيدة التى يجب أن نحلم بها ونسعى إليها

– لى شهور بأسأل أنت ليه اتصلت بى وما اتصلتش بهالة رغم أنها الصحفية وإللى ممكن تنشر شهادتك إللى كنت عاوز تقولها لما خفت تموت ؟ عقلك الباطن قال لك أنى أنا إللى ها أتصرف وها أنقذك . أو جايز قال لك الناس ها تصدقنى أنا وموش ها تصدق كلام حد من الصحافة . صح ؟ !

– (ضاحكا :) موش أنت برضه الإله إللى لازم نصلى له فى وقت الشدة ؟ (ثم شاردا :) عقل باطن ؟ ما أفتكرش ! كل إللى حصل أن أنت الوحيد إللى جه فى بالى . أنت أكتر واحد بقيت بأشوفه فى السنتين الأخيرتين . كل يوم بنشوف بعض وقاعدين جنب بعض . عاوز إيه أكتر من كده ؟ متهيأ لى الحكاية موش عاوزة عقل باطن ! أو فعلا ، كل شىء جايز . جايز عقل باطن . جايز فاوسيت !

– فاوسيت ؟

– قصدى فرويد . زلة لسان . زى ما أنت عارف أنا دلوقت بقى عندى حوالى ٣٠ مليون جنيه ، بعد ما بعت أسهم كيوبيد . الفلوس دى موش من حقى . فى الأول والآخر الأصل فيها أنها فلوس ماما ، وأنت تعرف رأيى فى المال السهل ، وكم كنت أعانى بسببه ، وأعتقد جاء الوقت والفرصة كى أطهره . ثانيا ، الزيادة فيها جه معظمها من مساهمين صغار جداد ، اندفعوا للاستثمار ، ضاعت منهم وجت لواحد زيى . بعد تسوية موضوع الڤيللا ها يبقى معاى حاجة وعشرين مليون . (ثم مبتسما بعبارة اعتراضية :) وبما أنى لست مثلك أؤمن بالأفعال الخيرية ...

– (يقاطعه :) ومن قال لك إنى أؤمن بها ؟ إنها بيزنس كأى بيزنس . ادفع حبة واحصل على سبعمائة . (ثم ضاحكا :) لا شىء يفعله البشر لوجه الله . كل شىء بمقابل ! عدم مساعدة الناس لبعضهم شىء جيد وعلامة تقدم . لو ذهبت بمصاب فى حادث للمستشفى سوف تتعرض للتحقيق ويضيع وقتك ، ثم بعدها سيرفع عليك قضية تعويض متهما إياك بأنك السبب فى العاهة التى أصابته لأنك لست بالخبرة الإسعافية الكافية ، أو حتى يتهمك بانتهاك الخصوصية أو هتك العرض ، وأنت لا يوجد لديك شهود على أنه طلب إنقاذك له ، أو ربما بالفعل

تكون قد أقدمت عليها بالفعل من قبيل الإنسانية والشهامة . الصح أنك تطلب المستشفى بنفسك أو تطلب واحد قريبك أو صديقك زى ما عملت أنت لما تعبت . قيم الدغل هى الأرقى إطلاقا والأكثر تقدما ، وكل محاولة لتجاوزها هى عودة للخلف ، صح ؟

– بالضبط ! عالم قائم على التنافسية الخالصة التى لا ترحم أحدا هو اليوتوبيا الوحيدة التى يجب أن نحلم بها ونسعى إليها ، وآمل أن نكون قد اقتربنا خطوة منها . المهم ، أنا قررت أعمل من الڤيللا معهدا لا يهدف للربح أسميه ' معهد آمال نور لدراسات الحرية ' .

– اسم غريب ، (ويستدرك بسرعة :) قصدى اسم جديد وجميل .

– (شارحا الاسم :) ' الحرية ' ! ها ندرس كل الحريات . الاقتصادية والشخصية ، الماضية والحاضرة والمستقبلية . وها ندرس ما هى حدود انتقاص الحرية . بالنسبة للاقتصاد ها نحاول نطبقها عملى . قسم مركز أبحاث يطلع تقييمات لآفاق الاقتصاد الاستثمار . قسم تقييم للشركات ، ممارسة واقعية للشفافية قطاع خصوصى ها تطلع فى مجلة شهرية أو جايز أسبوعية ، زائد موقع إنترنيت . كمان ها أعمل قسم تانى لدورات مسائية بتكلفة رمزية لراغبى الاستثمار ، نعلمهم أصول الاستثمار الصح الجاد فى الأسهم . أول تلاميذ ها يكونوا عارف وأصحابه .

– (ضاحكا :) وجايز تخللى العيال الصيع دول معيدين بعد شوية ؟ !

– جايز . رمانة كمان ها تشتغل فى المعهد . فجأة لقيتها بتهنينى بالشغل الجديد ، وسألتنى هل لها وظيفة فيه . قلت لها ده شغل متعب ، وغير شغل البيت . صممت . أنا فاهم هى ليه مصممة تسيب البيت ، لكن إللى موش فاهمة هى عرفت حكاية المعهد منين ؟ ... بتقول عرفت بإحساسها !

– هو بعينه بغباوته ! جايز صلت لربنا وقالت له أنها موش مرتاحة معاك فى البيت ، وربنا استجاب لها . جايز يا سيدى عصفورة قالت لها . جايز أى حاجة !

– آه ، فهمت ! عصفورة من عصافير الجنة ! بس أنا لسه ما قلتش لربنا على حكاية المعهد !

– ده ربنا بقى ! موش بيقولوا عجيبة هى مسالك الرب ؟ ! أنت عاوز تتدخل فى شغله ؟ !

– فعلا ، يا له من إله لعين ' هو ' الذى يتدخل دائما فيما لا يعنيه ! موش برضه بيقولوا إنه بيستجيب لطلبات الناس من غير ما يطلبوها أصلا ، أو بيقولوا الرب راعى فلا يعوزنى شىء ، أو بيقولوا someone to watch over me ؟ ! (ثم مستنكرا كلمة سابقة تذكرها الآن :) آخد الڤيللا ببلاش ؟ إزاى تفكر كده ؟

– يا عم بأهزر ؟ ب – أ – هـ – ز – ر ! كل حاجة كده عندك أرسطو وكمپيوتر . أى واحد النهارده فاهم أن كل إللى تم ده ، علشان ما يقاش فيه فساد واستغلال نفوذ وحد ياخد حاجة ببلاش . افرض حتى أيام ما كان فيه حاجات ببلاش ، موش وحيد إللى يعمل كده .

– بالظبط ، أنا عملت كده علشان أن مشكلتى أنى عاوز أسدد ديونى لا أن أزيدها . لا أريد أن تكون على أى ديون لأحد ، على الأقل ذلك النوع من الديون الذى لا يجعلك تنام بعمق . سأخبرك بسر : لقد عرض على مبنى الجامعة العربية المنحلة -بعد عودته لمصر- كمقر لهذا المعهد ، وأنا الذى تقززت من مجرد فكرة أن تطأ قدماى ذلك المكان الرجس النجس ، ناهيك طبعا عن أن أجلس فى مكتب نقيب العربجية .

– موش عاوز ديون ؟ موش قلت لك بأفهمك أحسن منك !



قناة ' المتوحشة ' !

– سأبدأ من الصفر من جديد بمرتب من المعهد نظير الإدارة ونظير ما سألقيه من محاضرات . هالة وافقت تساعدنى . ستشرف على النشر والمطبوعات وموقع الإنترنيت .

– لاااا ، لا ، لا ، لاااا ! إللى أنا بأسمعه ده حاجة تانى . إيه ؟ مشروع لـ ' مدرسة شيكاجو ٢ ' ؟ !

– ما تروحش لبعيد أوى كده !

– لاااا ، لا ، لا ، لاااا ! ده إحنا قريب ها نقرأ كتب وكتب ، من تأليف ' الدكتور ' وحيد الديب ، وأرجع وأفكرك ، وها تقول ضهرى قال . أنت لسه بتفكر تعمل كتاب اسمه ' الأنتروپى الچيينية ' أو تترجم ' الچيين الأنانى ' ، ولا الدنيا اتغيرت ؟ موش قلت لك دنيا براسين ، يعنى لا تثق بأنها ستستمر على حالها أبدا ؟ !

– أخيرا ! هذا هو معناها ؟

– إطلاقا ! وحياتك أنا لو أعرف معناها موش ها أعزه عليك ، هى ها تفضل لغز لغاية ما يظهر بعد كام سنة أو كام ألف سنة حد عبقرى يفهمها لنا ! (ويطلق ضحكة طويلة ، ثم يستدرك :) دكتور ؟ دكتور إيه ؟ أنت فوق كل الألقاب ! لاااا ! مقالات إيه وكتب إيه ؟ ها نشوف قناة العلمانية !

– هأ ! هأ ! أنا أفضل أن أعمل قناة لحى مصر الجديدة عن أن أعمل قناة للعلمانية !

– أقول لك اقتراح ، وتعترف أنى موش تركت الأفلاطونية بس ، إنما أصبحت أكتر منك أرسطية ؟

– قول .

– أنت موش بتقول أنك ناطق غير رسمى بلسان أمنا الطبيعة ، يبقى علمانية إيه وبتاع إيه ؟ كل دى أفكار وكلاميات ، اعمل قناة عن الاقتصاد الحر ، الرأسمالية المتوحشة . أنت صدقت لما كنت بأقول لك الحكومة وسخة والشعب أوسخ ؟ كنت عاوز بس أنزل بآرائك لأرض الواقع ، أتأكد أنك ملم بكل التحديات . الحكومة لازم تكون أمنية حديدية ، موش مجرد ترفع إيدها من الشئون الاقتصادية والاجتماعية . لا بد من التخلص من الأقلية العربية الطفيلية التى كانت تتعيش من الابتزاز والمزايدة وتلويث السمعة . وشكرا لحورس أن تحقق كل هذا وذاك بالفعل . ساعتها فقط انجلى معدن الذهب الذى صنعت منه چيينات الشعب أصل الحضارة هذا . وها أنت ترى ما يجرى الآن ، اتضح أن الشعب لا يمت للاشتراكية بصلة كما كنا نعتقد ، ببساطة لأنه لم يكن كذلك يوما . ففى تلك الأيام البكر صافية السماوات ، مصر الفرعونية لم تكن لتستطيع أصلا تخيل شيئا غير القانون الطبيعى . انظر حولك ، بين عشية وضحاها أصبحت الدنيا غير الدنيا : لا أحد يطالب ، الكل يكدح ويبتكر ويجتهد ، والبنك العالمى يتوقع لاقتصادنا نموا ١٠ بالمائة العام الحالى .

– أقول لك سر ؟ أنا أخجل من مهنة الكتابة والكلام ، شغل أرسطو الحقيقى هو البحث العلمى ، والكتابة ما إلا تدوين للنتائج . ما هى وظيفة أرسطو ، أو منهج التحليل والتركيب ، أو العلوم الطبيعية عامة ؟ قد تعجب للتشبيه : إننا الماشطة ! نفكك تلافيف الشعر الأشعث من بعضه البعض ، ثم نعيد تصفيفه بحيث يظهر على طبيعته فى شكل يمكن تمثله واستيعابه . نحن لا نغير منه شيئا ، لا نحذف شيئا ولا نضيف شيئا ، فقط نحاول فهمه ، وجعله مفهوما للغير . لكن للأسف استشعر أن الكتابة تضعنا خطأ فى خانة بائعى الكلام والشعارات . (يصمت لبرهة :) إنما هى فكرة تستحق البحث (ويجتر الكلمة) : قناة ' المتوحشة ' !



كتبت عليكم الكتابة وهى كره لكم !

– (ضاحكا :) كتبت عليكم الكتابة وهى كره لكم ! ... يا أخ ، أنت ما تفهمش فى الناس ضفر إللى أنا أفهمه ، بما فى ذلك فهمى لك أنت نفسك ! وبعدين إيه ؟ إيه المشكلة صحيح : بداية جديدة ! منى بتقول موش ها تخلف إلا بعد السبعين ، وأنت يا دوبك ٥٦ سنة .

– للأسف خسرت معظم الأثاث .

– ولا يهمك ! أنا لاحظت أنك احتفظت بحجرة المكتب وبالحاجات الشخصية زى الصور والساعات والپيانو وبعض التحف . وبرضه الفورد . عاوز إيه تانى ؟ تفتكر فى معهد زى إللى ها تعمله ها تحتاج سفرة ولا أودة نوم ؟

– تسرعت . ما كانش المفروض أبيعه . كان المفروض أسكن سكن عادى موش مفروش وآخده معاى . كسلت حتى من صعوبة نقله . كنت زى إللى بيهرب من كل حاجة ساعتها . كنت عامل زى واحد عاوز ياخد شنطته ويدخل مكان ينام فيه بعد ٥ دقايق ، ويكون أفضل لو ما يصحاش خالص !

– إيه الكلام الفاضى ده ؟ أكيد حاجة مامتك دى موجودة عند ناس عارفة أصلها ، وذكرى والدتك لسه عايشة فيها عندهم . موش أنت برضه إللى كتبت مرة تطالب بخصخصة الآثار ، أو بيعها للمتحف البريطانى أو الياپانى أو المتروپوليتان علشان يحافظوا عليها أحسن منا . ما تشيلش هم ، والدتك مخلدة ، وها تعيش بعدنا كلنا . كفاية الأفلام بتاعتها . اصحى ! بص لقدام ! موش لسه بنقول بداية جديدة ؟

بعد لحظات صمت عاد الحاج وقد تذكر شيئا فجأة : على فكرة ، أخدنا الكلام فى شبرا ونسينا نقول لك : ' إدوارد ها يطلق خلاص ' .

– ممتاز ! (ثم يضحك :) يا دوبك ٤٨ سنة . بداية جديدة !

– وليه ما تقولش ' الحرية ' بتاعتك ؟

– ممكن ! أنت عارف رأيى ! لو فيه حب والتزام متبادل وقيود اختيارية بالتراضى كان معلهش ، إنما غير كده ، سيطرة وخلافات ونكد زى حالة إدوارد ، الحرية أحسن .

– أو عارف رأى البت منى : العلاقات مستحيلة !

– هى ' حرة ' برضه ! إنما إزاى ده حصل ؟ الكنيسة وافقت ؟

– أبدا ! ها يقلب پروتستانتى ، ويروحوا المحكمة .

– (لا يزال يضحك :) أظن دلوقت ها تبطل تقول عليه من غزاة مصر الجديدة ؟

– (يصيح بحزم لفت الأنظار من جديد :) أبدا ! بعينه ! دمه مصرى صميم ، ولا يمكن ها يبقى پروتستانتى حقيقى مهما عمل !

– أنت ها تفضل ظالمه كده على طول . موش كفاية عليه المأساة إللى هو فيها ؟

– بالعكس ! أنت عارف أنا شاركته فى الأچانس ليه ؟ علشان كان ها يبيع شقة رمسيس ، وأنا قلت له خسارة ، واستنى . شفت خدمته إزاى ؟ دلوقت ها يطلق وممكن يسكن فيها ، وجايز ربنا يفتحها عليه بعروسة بنت حلال . بالمرة كمان يسيب بيت شبرا لمينا . جايز يفتحها عليه ربنا هو كمان .

– (بلهجة تقريرية بطيئة تجز على الأسنان :) يعنى م الآخر لعبت له فى دماغه ! (ثم ضاحكا :) إنما متأكد أنك خدمته كده ؟ ده ها يعيش وسط ذكريات غريبة عجيبة ، مفرحة أو محزنة ، جميلة أو قبيحة ، وادعة أو مرعبة ، كل شىء .

– هكذا الحياة ، أيام دافئة وأخرى ساخنة وثالثة عاصفة ، وأنت لا تستطيع أن تختار جلسات بورصة بعينها وتلغى الأخرى .

– كفاية يا أخى يوم زكايب الفلوس . كفاية أشكال الناس . كفاية صاحبات روميو . متهيأ لى ريحة الهوا نفسها موش ممكن تضيع من الشقة حتى لو دهنها ١٠ مرات ! لأ ، وفوق ده وده عاوز تجوزه تانى ؟ !

– (بأسى شديد :) كفاية نبيل ! كفاية صرخة إلهى إلهى لماذا تركتنى ! ترى أيهما كان الأصح : أن يموت يسوع ، أم يموت المسيح ؟ لست واثقا أن الأخير كان الأجدر بالمواجهة الملحمية الأخيرة مع المسيح-الضد ؟ (وينقلب للبهجة من جديد فى لحظة :) إنما استنى هنا . أنت ها تاخدنى فى دوكة . احكى لى ، احكى لى ، وبالتفصيل . إزاى جت لك فكرة القيللا دى ، إمتى قررت الكلام الكبير ده ؟

– بالصدفة عرفت ، بصراحة كنت نسيت الموضوع ، أو بمعنى أصح اتعودت اعتبره منتهى ، وتكيفت على الاستسلام ومحاولة النسيان .

– ده كان سؤالى . الفلوس معاك لها كام شهر ، إشمعنى دلوقت فكرت ترجع القيللا ؟

– أنا مبسوط أن سنة ونص مرت من غير ما تنهد القيللا .

– قلبك أبيض ، قيللا على قصر الرئاسة تاخد تصريح هدم فى سنة ونص ، ده إنجاز ! برضه ما جاوبتش على السؤال .

– فجأة حاجة صحتنى لما شفت المعدات واقفة قدام القيللا .

– لاااا ، لا ، لا ، لاااا ! الحكاية موش كده . أنا أفهمك . أنت قررت تبقى مستشار بطريقتك . قبل كده ما كنتش شايف فايدة من استرجاع القيلا ، أو استرجاع أى حاجة من حياتك الأصلية . دلوقت الوضع اختلف . البلد كلها اختلفت . كان لازم كل البلد تتغير علشان تتغير أنت .

ثم يفرمل قليلا من ابتهاجه لكن دون أن يقلبه لأى شىء يمكن أن يوحى بالعكس : ' كده أنا فهمت ليه أنت موش طايق تصبر للصبح على زيارة مامتك ؟ ' .



بما أنى أنا الإله الذى يعرف كل شىء ،

وبما أنه لطالما بحث علماؤكم عبثا عن المعادلة الفائقة التى تفسر كل شىء فى الكون ،

فإليك الآن منى تلك المعادلة !

احتسى كل منهما المزيد من رشفات من المشروب الذى أمامه ، وكان وحيد هو الذى شرد هذه المرة مع الجو العاصف بالخارج ، ذلك كى يعود متسائلا : ' لدى سؤال فلسفى ، بما أنك أنت الإله الذى يعرف كل شىء : لماذا نحمى أنفسنا من البرد ، ولماذا نكره الحر ، لماذا نرفض الجفاف لبشرتنا ، ولماذا نرفض أيضا الرناخة الزائدة عليها ، أليس هذا كله انتصارا للوسطية ؟ ' .

– بالعكس ! أنت فى كل هذا تبحث عن شروط شديدة التطرف من حيث ملائمتها لجسدك ! ... بما أنى أنا الإله الذى يعرف كل شىء ، وبما أنه لطالما بحث علماؤكم عبثا عن المعادلة الفائقة التى تفسر كل شىء فى الكون ، فإليك الآن منى تلك المعادلة ! ... الكون معادلة من الدرجة الخامسة لها بالتفاضل خمسة حلول : قيم دنيا عند الصفر وعند النصف وعند الواحد ، وقيمتان قصويان عند ٠.٠٥ و٠.٩٥ ، وارسم أنت المنحنى ! ... هأ ! هأ ! هأ ! ... ها تلقاه زى حرف M ! تعرف الـ M ولا ما تعرفهاش ؟ M as in Mona ! ... هأ ! هأ ! هأ ! ... قديمة ؟ ! صح ؟ أنت ما بتضحكش ليه ؟ فين الـ ٥ ٪ انفعالات ؟ ولا ما بتنفعلش إلا على ذكر اليمين المتدين ؟ عامة أنصحك أن تبحث عن درجة الحرارة والرطوبة المناسبين بنسبة ٩٥ ٪ لك ، لأن المناسب بنسبة ١٠٠ ٪ ليس هو الأمثل !

وينقلب ضهرى للجدية : ' بمناسبة إله إللى بتوصفنى بيها ، أنا لا أعتبرها مدحا . عاوزك ما تنساش فى يوم م الأيام أن ٩٥ ٪ دايما أحسن من ١٠٠ ٪ ! ' .

بعد برهة يعود وحيد متسائلا من جديد : ' رأس ضخم وجناحين ، لكن هل سيقف على ساق واحدة كأبى قردان أو ما شابه ؟ ' .

– إشمعنى ؟

– علشان يبقى فعلا برأسين ورجل واحدة ومن غير إيدين ؟

– هأ ! هأ ! هأ ! أنت ها تفضل شاغل نفسك بالحكاية دى كتير ؟ حاول تنسى ، وركز فى شغلك الجديد . (ومن ثم متذكرا سؤالا سابقا فعاد يلح عليه مرة ثانية :) الخلاصة أنك موش ها تكتب مذكراتك دلوقت ؟

– أنت مهتم أوى كده ليه بمذكراتى ؟

– علشان فى الحالة دى أنا إللى قررت أكتب .

– تكتب إيه ؟

– ها أكتب رواية . وها تكون أنت واحد من شخصياتها !

– (صاح بدهشة عالية الصوت لفتت الأنظار أكثر من أية مرة سابقة :) بس أنت ما بتعرفش تكتب يا حاج !

– (بهدوء متواضع :) أجرب يا سيدى !

– (رافعا نغمة السخرية :) وناوى تسميها إيه ؟ ' كيف نجوت من المصير الصحراوى ؟ ' أم ' كيف اتضح أنى خالى من الچينات العربية ؟ ' ؟ ! هأ ! هأ !

– مين قال لك أصلا أن الرواية عنى أنا ؟ يا سيدى كل ما فى الأمر أنى ها أستعمل شوية المعلومات إللى عندى عن دفء مصر ودفء خضرة مصر ودفء قعدة مصر ، قصدى قعدة رمسيس ؛ وعن سخونة الصحراء ورمال الصحراء ودماء الصحراء ؛ وعن عواصف العالم واضطراب العالم وعصور الثلج والمستقبل المجهول . بس أستأذنك أسألك كام سؤال عن شوية مواقف حصلت كده .

– أوى ، أوى ، يا سيدى . بسيطة خالص . يا ريت دى تكون المشكلة الوحيدة فى كتابة الروايات ! بس أنت ما كملتش ١٠ سنين فى البورصة ، ٥ سنين بس . عاوز تغير مهنة بسرعة كده ؟

– ويعنى هو ' صدمة المستقبل ' قرآن ؟ ! إذا كان القرآن نفسه طلع موش قرآن ، إنما حصة إملاء من عمر ؟ ! ؛ ثم جايز لو صاحبه كان كتبه تانى النهارده ، كان قال ٥ سنين موش ١٠ ! يسرى بتلح على بتقول أطلع على سيناء وأستغل حتة م الأراضى بتاعتها ، ومديانى حرية أدرس أى مشروع أحبه ، زراعى ، صناعى ، تكنولوچى ، أى حاجة ، أى حجم . هى بالأرض ، وأنا بمجهودى ، وأحط فلوسى لو عاوز ، ولو موش عاوز بلاش ، وأدخل أى شركاء وأى تمويل ، ومن أى حتة فى العالم . هى تعرف كل الناس ، وجاهزة لكل حاجة . لكن من ناحية تانية هل أسيب إجلال ومنى وأمى فى القاهرة وأروح وحدى ، وطبعا ما نقدرش نروح ونسيب منى وحدها . أمى كمان بتقول موش مستعدة تسيب القناطر ، وإن كنت عارف سكة إقناعها إزاى .

– إزاى ؟

– ها أفهمها أن دى مغامرة جديدة زى مغامرات شبابها . على أية حال منى ها تتخرج بعد سنة ، السپرنج الجاى ، وناوية بعد كده تسافر تعمل الماستر بره . بين هذا وذاك قررت أقضى السنة دى أكتب رواية ، وبعدين نشوف الدنيا ها تمشى إزاى !



– حقا ؟ ! ما هذا ؟ الكل مبتسمون ! كيف حدث ذلك ؟

... هل التغيير الذى جرى للبلاد كان عميقا لهذه الدرجة ؟ !

– نعم ، كان عميقا ، التغيير الذى جرى لك أنت !

– وناوى تسميها إيه ؟

– إيه هى ؟

– الرواية .

– لسه ما استقرتش على عنوان . جايز أسميها ثلاثية البنائين !

– (يضرب كفا بكف باستغراب شديد ، ويعلو صوته من جديد :) رواية ؟ وكمان ثلاثية ؟ (ثم حين يهدأ يرد عليه بنفس كلماته ونفس نبراتها :) وبعدين إيه ؟ إيه المشكلة صحيح : بداية جديدة ! منى بتقول موش ها تخلف إلا بعد السبعين ، وأنت يا دوبك ٦٠ سنة . (ثم يشرد للحظة :) عارف أنا قررت إيه دلوقت ؟ أنى أشترى شووز نايكى زى بتاعك . جايز أحس يوم أنى شباب زيك .

– يوم الأربع ها أوديك للمحل فى السيتى ستارز . بمناسبة الشباب أو بمناسبة المعهد أو بمناسبة رمسيس إللى قفلت ، إيه رأيك بما أن چينوم رمسيس الثانى بقى موجود على الإنترنيت ، إيه المانع أنت وهالة تربوا واحد صغير فى المعهد ، وأضمن لك أنه ها يطلع ولد وسيم جدا !

– أنت موش ها تهمد أبدا ؟ !

– ألا تلاحظ شيئا فى الوجوه حولنا ؟

– كلا ، وجوه عادية !

– ما هى العبارة التى أثرت فيك من كتاب ' اضمحلال وسقوط الإمپراطورية الرومانية ' ؟

– كل الكتاب أثر فى .

– أقصد العبارة التى تخص وجوه المصريين .

– آه ! فهمت ! الجنود الرومان وجدوها وجوها كالحة متجهمة .

– وماذا ترى حولك الآن ؟ !

– حقا ؟ ! ما هذا ؟ الكل مبتسمون ! كيف حدث ذلك ؟ ... هل التغيير الذى جرى للبلاد كان عميقا لهذه الدرجة ؟ !

– نعم ، كان عميقا ، التغيير الذى جرى لك أنت ! التغيير هو أنك لم تكن تجلس أبدا إلى مقهى ، وإن جلست لا تهتم بمخالطة الناس ، أو حتى مجرد التطلع لوجوههم . أنت معنا فى رمسيس لنحو عام ونصف لم نكف فيها لحظة عن الضحك والهزار حتى فى أحلك اللحظات ، لكن الموجود فى مخك لا يزال عبارة قرأتها فى كتاب . نعم ، لا أحد يبتسم وهو يسير فى الشارع ، ليس لأن الرومان جاءوهم فى زمن ردئ عصيب أسود ، وليس لأنه شعب نكدى (هو سيد النكتة ، والأفلام الكوميدية والمسرحيات الكوميدية ، أليس كذلك ؟ !) ، وليس حتى لأنه شعب حزين ، إنما لأنه ببساطة شعب جاد ، وهكذا هو منذ فجر التاريخ . ببساطة ، هم لا يبتسمون فى الطرقات لأن لا داعى لهذا ، أما حين يجلسون لبعضهم البعض فأتحداك إن رأيت أحدا منهم متجهما . وهنا -حولك- حين يتفاعلون ، تظهر فورا البشاشة والمودة والرضا وحب الغير وحب الحياة .

– فعلا ، أنا لا يقززنى شىء قدر وجه رجل سياسة أو رجل دين دائم الابتسام ، هكذا ، بسبب وبدون سبب .

– لا يوجد شىء بلا سبب ؛ السبب فى الابتسام طوال الوقت أنه يكذب طوال الوقت ! هأ ! هأ !

– بالظبط ! هأ ! هأ ! هأ !



بكلمة واحدة : لا هروب إلى الأمام بعد اليوم ، لا حلول وسط بعد اليوم ، فقط الإصرار على كل ما رآه الإنسان المصرى الأول فى الهواء أيام كانت الأجواء نقية والحياة رحبة والأذهان صافية . ... إن الانطباعات الأولى التى لا تتكرر هذه ، ليست ترفا ، إنما مسألة حياة أو موت !

– (شاردا ، وهو الذى نادرا ما يشرد :) هذا هروب إلى الأمام !

– ماذا ؟

– كل الطرق تؤدى للهرم الأكبر !

– ماذا تقصد ؟

– استقلال أميركا هروب إلى الأمام ، الحلم اليابانى هروب إلى الأمام ، كل البدايات الجديدة هروب إلى الأمام . كل هروب فى الجغرافيا هو هروب من مواجهة المشاكل . هل تردى أوضاع الحريات الدينية فى الإمبراطورية ، كان مجرد مزاجية من فئة ما ، أم سببه استحالة التعايش بين الحضاريين والأقل منهم ؟ لا بد أن طرفا واحدا هو الذى كان على حق . من قال إن إلقاء الشاى فى المحيط تمردا على الضرائب الباهظة ، هو تلقائيا فعل تقدمى أو انتصار للحرية ؟ هل كان الملك يقيم حفلات جنسية بتلك الضرائب ، أم كان يوفر بها أخص وظائف الإمبراطورية ، وهو الأمن ؟ واضح أن رحلتنا للمستقبل هذه ، هى -وخطوة بخطوة- رحلة إلى الماضى . بحثا عن الغد الأمثل ، أعدنا النظر فى نتيجة الحرب العالمية ، ثم أعدنا النظر فى استقلال أميركا ، وسنظل نغوص رجوعا فى الزمن ، لنكتشف أن كل التاريخ سار فى الاتجاه الخاطئ .

– تقصد مصر القديمة ؟ ... يجب بالفعل العودة لمصر الفرعونية لنجعلها مرجعية لكل الحضارة ، على الأقل لأنها طور الحضارة الوحيد الذى استدام لثلاث ألفيات ، وقطعا هذا لم يكن صدفة ، ولم يأت من فراغ .

– بل تحديدا المملكة القديمة من مصر القديمة . آنذاك لم يكن الفرعون إنسانا ، أو حتى نصف إله ، إنما كان إلها ، بل ليس أى إله ، إنما حورس شخصيا ، الإله المقاتل وقد تناسخ ملكا تلو الآخر . للأسف ، دائما كان الحل الوسط هو الخيار السهل . ملوك المملكة الجديدة كانوا لاحتواء الدين يعينون أخواتهم أو بناتهم كبيرات لكهنة آمون . الأسوأ أنه فى عصر ما بعد الملوك اختار الغرب فصل الدين عن الدولة ، فكانت كارثة الكوارث ، ديموقراطية وحقوق إنسان وتداول سلطة وتعددية ثقافية وتعايش وكل هذا الهراء . بينما كان المفروض من البداية الإصرار على أن

الدين هو الدولة ، الإصرار على أن من يملك يحكم ، الإصرار على الفرعون حامل الرمح ، الإصرار على الإبادة ، وعلى أن لا تعايش مع الطفيليين والفشلة ؛ بكلمة واحدة : لا هروب إلى الأمام بعد اليوم ، لا حلول وسط بعد اليوم ، فقط الإصرار على كل ما رآه الإنسان المصرى الأول فى الهواء أيام كانت الأجواء نقية والحياة رحبة والأذهان صافية . ... إن الانطباعات الأولى التى لا تتكرر هذه ، ليست ترفا ، إنما مسألة حياة أو موت !

– (مقهقها :) الهرم الأكبر ؟ المملكة القديمة ؟ حورس ؟ الأجواء النقية ؟ ... أنت أعتى سلفى شفته فى حياتى ! ... حجاب ما يجيش فيك حاجة ! ... طول عمرى كنت شاكك فيك ! ... (ثم متريثا :) إنما موضوع أميركا ده عاوز بحث ، موش أنتم برضه إللى بتحسبوا كل حاجة بالأنتروپى ؟ طب زى أميركا إللى زى ما بتقول استقلت بالغلط ونشرت كارثة الديموقلاطية وانحازت للطرف الخطأ فى الحربين العالميتين ، هى برضه إللى بدأت بمادة داكنة باردة ، بشر متساوون كلهم فقراء وبسطاء ، لكن منهم أخرجت روكيفيللر وإديسون وفورد وإللى زيهم ، صنعت أعظم استقطاب طبقى ومعرفى عرفه التاريخ ولا يكف عن التصاعد ، تماما كما تصنع الجاذبية من المادة الداكنة نجوما ملتهبة وحيوات جديدة . متهيأ لى رغم كل شىء هى أقوى قاهر للأنتروپى عرفناه .

– (مقهقها :) عجيبة هى مسالك الرب !



إن ذروة ما استطاعت أمنا الطبيعة اختراعه بكل جلال جبروتها فى كل التاريخ الطبيعى هو شعب مصر ؛ ذلك اللولب المزدوج المسمى چيينات القومية الحضارية الذى انتشر فملأ الجلوب نماء وبناء وخيرا !

– المهم ، نصيحتى هى ألا تفقد ثقتك فى هذا الشعب أبدا . العصور المظلمة تأتى وتذهب كما مؤشر البورصة ، لكن تبقى چيينات منيعة على الاختلاط أو التنجس . وأيضا نصيحتى ألا تنأى بنفسك عنه لوقت طويل . إنك ما أن تقترب منه حتى تكتشف طبيعته الانبساطية العميقة ، أو بالأحرى كلما اقتربت منه كلما اكتشفت نفسك ، وكلما رضيت عنها وسعدت بها . ألم تسأل نفسك ذات مرة ما هى قمة الهرم الذى وصلت له الحياة الكوكبية بعد بلايين السنوات من التطور التلقائى ذاتى القصور ؟ إن ذروة ما استطاعت أمنا الطبيعة اختراعه بكل جلال جبروتها فى كل التاريخ الطبيعى هو شعب مصر ؛ ذلك اللولب المزدوج المسمى چيينات القومية الحضارية الذى انتشر فملأ الجلوب نماء وبناء وخيرا ! (ثم يشرد لبعض الوقت :) إنما تفتكر حد ممكن يقرأ رواية بالعربى الأيام دى ، بعد ما اتفقنا على أن كل المستقبل إنجليش ؟ ... جايز زى ما إحنا آخر جيل عرف الزواج والإنجاب وألف حاجة تانية ، نكون آخر جيل يكتب بالعربى . (ثم فجأة :) هو أنت كنت تقصد إيه بأنى ما أعرفش أكتب !

بعد برهة تتحول ابتسامة الاستغراب لدى وحيد إلى تفرس شديد فى الوجه حاد العينين الجالس أمامه ، فيصيح فجأة بصوت عال لفت من جديد الأنظار : ‘ رواية ؟ يخرب عقلك يا حاج ! ’ .

– اسمها ‘ رواية ؟ ! لك حاجات يا حاج ! ’ . أنت ها تنسى ولا إيه ؟

– أنت كنت بتفرح بأه ؟

– طبعا ! هو قليل لما الأستاذ وحيد الديب شخصيا يقول لى ‘ لك حاجات يا حاج ! ’ . على فكرة زلات اللسان كترت اليومين دول . ‘ يخرب عقلك ’ دى موش ماشية مع العلمانية بتاعتك ! قصدك مين إللى ها يخرب عقلى ؟

– جايز قصدى الشنيور !

وينفجران فى نوبة ضحك هيستيرى مشتركة ، يلتقط خلالها وحيد أنفاسه بالكاد ليقول على نحو متقطع : ‘ زى ... ما ... سبق ... و ... خرب ... لى ... عقلى ! ’ . ‘ تصدق يا وحيد أن دى أول مرة أشوفك فيها بتضحك كده ؟ ! ’ .



...

كان الجو صقيعيا عاصفا رغم ربيعيته اسما . كان المطر لا يزال ينهمر ، أحيانا كحبيبات ماء غليظة ، وأحيانا ينقلب دوى قرع الطبول الغليظ هذا إلى أزيز حاد يقع إلى أقصى الطرف الآخر لطيف الأصوات ، حين تتحول تلك لحبيبات ثلج متلاحقة تستقبلها صفحة الأرض وأسطح المنازل وأسقف السيارات . دوى وأزيز يصم كل منهما بطريقته آذان الليل ويفتح عيون الكائنات الخاملة أن ربما ها هى الآن عناصر الكون تموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد . لم يكن بحل أمام وحيد سوى قطع الشارع فالمشى أمتارا أخرى حتى المنزل ، ممنيا نفسه بنهار صحو ، يقضيه بكامله بجوار أمه يناجيها وتناجيه . مع ذلك تسمر فى مكانه ، وراح يراقب ضهرى وهو ينصرف مبتعدا . رآه يرفع علبة كوكا كولا معدنية صغيرة فارغة من وسط الشارع ، ويضعها بعناية إلى جانب الرصيف ، ويعود للسير فى مجرى الشارع فى طريقه لباب سيارته . قلت مبالاته بالمطر الساقط فوق رأسه ، وهو يرى رأس ضهرى الشامخ يصد بجسارة قصف السماء الذى لم يقهر منه إلا أن أفقده بعضا من الهالة النورانية البيضاء لشعره المميز . ثم تدريجيا خفت تركيزه شيئا فشيئا إذ راحت عيناه تنجذبان انجذابا سيرياليا لحذاء النايكى ، بقعتى الضوء الأكثر بياضا فى المشهد ، وقد راحتا تتراقصان على خلفية من محيط داكن . انسحب منه بصره شاردا إلى قدمى الحاج ، يتأمل خطواته القصيرة وهى تحاول تحاشى برك الماء الصغيرة . تابعه وهو يركب السيارة ويمضى بها حتى نهاية شارع الأهرام . هذا إلى أن غاب عن بصره عندما غير اتجاهه يمينا تاركا خلفه نادى هليوپوليس ، فى رحلة طويلة ، غير ممتعة جدا ، أو ربما خطرة ، إلى القناطر ... .



وأما بعد ...



إلى نديم ميشيل

... إلى روحه أهدى روح هذه الرواية !

كيوبيد ، قد تؤشر لديك لشركة مصرية بعينها (تحمل أيضا اسما ' لأحد آلهة المشركين ' !) ، لكننا نقصد أية شركة يمكن أن تكون قد نشأت طبقا للتقاليد العريقة للاقتصادات الأنجلو-ساكسونية (كما تسمى) المتقدمة ، ثم سمحت لنفسها بعد ذلك أن يداخلها المال البدوى العربى الرحال . هذا مع ملاحظة أن الأحداث تدور فى المستقبل القريب (٤-٥ سنوات بعد الكتابة) ، وربما لا تكون الشركة التى مرت بذهنك قد وصلت لهذه الدرجة من السوء بعد ، أو ربما لا تصلها أبدا ، فيما نأمل . وككل الرواية حاولت بالطبع رسم الملامح العامة لما سيكون عليه عاما ٢٠١٠ و٢٠١١ فى مصر (كالثورة الجنسية والعلمانية وانتشار ظواهر كالانتحار والبطالة مثلا) ، إلا أنه فى نواح أخرى (السياسية بالذات) لا يجب بحال اعتبارها نبوءة لما سيحدث بالفعل . إنها أقرب لسيناريو افتراضى ، يشير مثلا لأنه لو تواصل تدفق المال العربى (ناهيك عن تدفق الأفاقين العرب بدون مال) ، فسوف يحل الخراب بالاقتصاد المصرى ، أو لو تواصل ما يسمى بالاصلاحات الديموقراطية والدستورية فستصبح كل قرية ومدينة فى مصر مسرحا لفوضى وحروب أهلية ضارية ، وغير هذه وتلك من فرضيات .

دكتور فرغلى شخصية مصرية رائدة معاصرة ، مع ظلال جزئية من شخصيتى إدوارد سى . بريسكوت وفين إى . كايدلاند متوجى نوبل فى الاقتصاد لسنة ٢٠٠٤ . الاسم غير مطابق . ربما حمل لديك إحالة تاريخية ما ، إلا أنه بالنسبة لى يحمل أيضا تحية لقائد اللواء الذى كانت تتبع له وحدتى العسكرية خلال فترة خدمتى العسكرية فى مطلع الثمانينيات ، وهو مهندس ميكانى ، وسمح لى رغم فارق السن والرتبة (القمة والقاع تقريبا) ، بأن أكون فيما فهمت ، أحد أصدقائه المقربين ، إن لم يكن أكثرهم قربا . رؤاه وتبصراته العميقة لحقائق الشخصية المصرية ، غير الجيدة جدا على الأرجح ، كانت بمثابة بيان نظرى (والأهم بمراحل بيان عملى) ، يرغم أى إنسان على إعادة النظر فى كل ما لديه من مفاهيم متوارثة . والأكثر منها كلها التعرف -العملى أيضا- على مفاهيم كالبناء والقيادة والإرادة والرؤية والإنجاز .

آمال ، لعلك تقول إنك تعرف عمن نتحدث ، أو ربما تقول ذات الشىء عن وحيد أو عن آخرين ، أو على الأقل عن مراحل معينة من حيواتهم . لكن الحقيقة أنهم -على واقعيتهم- أقرب للرمز ، لقطع استقطعت بحرية من سلالة نادرة من الشعب المصرى هى سلالة اليمين العلمانى ، ممن حرصت -أو بالأحرى شرفت- هذه الرواية أن بدأت باسم أحمد لطفى السيد . كلمة يمين هى الأساس هنا وكلمة علمانى هى الزائدة ، أو التى وضعت لوصف واقع الحال أو وصف ما ليس فى حاجة لوصف ، أو بالأكثر من أجل بعض التوضيح أو التدقيق . فالندرة عندنا ليست فى العلمانيين ، إنما فى أولئك الثوار المؤمنين حقا بالتنافسية المطلقة ، بالليبرالية بمعناها الأصيل البسيط الحق . هم تقريبا لا وجود لهم ، علمانيين كانوا أم مؤمنين ، ولو وجدوا نعتبرهم فى كل الأحوال ' ثوارا ! ' .

يقال إن كل شخصية فى أية رواية ، بها قطعة من المؤلف . هذا صحيح هنا أيضا . وحيد وهالة وغيرهما يتماسون مع الحياة المهنية للمؤلف فى بعض مراحلها . لوحة الاقتباسات على حائط حجرة مكتب وحيد ، حقيقية ، وهى التى استخدمت كخلفية لغلاف هذا الكتاب . ونس مزيج من أربع شخصيات حقيقية ، يجمعها دراستها للهندسة الميكانية ، وككل على درجة من التشابه بحيث سهل تمثلها كشخصية واحدة . من الأولى دراستها بأسيوط ، وهى مصدر الاسم المختصر والأنشطة الجامعية وطول مدة دراسته وأشياء رئيسة أخرى . الثانية والثالثة مهندسان قاهريان مثقفان ، واحد أصله من دمياط ومنه الاسم الكامل والابنة المنقبة والرأى بأم كلثوم (بما فيه تداعياته العلمانية وأن التخلف لا يتجزأ) وتفاصيل أخرى لا تكاد تحصى ، والآخر من حدائق القبة ومنه حرفة تداول الأسهم وحب الغناء طوال الوقت وكتابة الشعر العامى (والثلاثة معا تجمعهم بالمصادفة البدانة وخفة الظل والآراء شبه العلمانية ، لكن مثالب هذه الشخصية فهى مختلقة بالكامل تقريبا أو فرضتها الدواعى الدرامية ، ولا توجد فى هذا الصديق ولا أى صديق آخر للمؤلف) . أما الرابعة فهى المؤلف نفسه ، صديقهم جميعا ، وكذا صاحب شق الصداقة الشخصية والفكرية مع أبرز قيادات الجماعات الدينية فى أسيوط ، تلك التى استمرت على الأقل حتى تحولهم للتدين العنيف . هنا لعلك لاحظت أنهم -وبكل الاحترام والحب لهم ولذكرى أيام جمعته بهم- ذكروا بأسمائهم الحقيقية ، وآمل أن يتقبلوا هذا الكتاب كشهادة صدق تحيى وتبجل استقامتهم ونزاهتهم الفكرية ، وتقرر للأمانة وللتاريخ ، أنهم لم يتهاونوا بشأنها قط عبر كل مراحل حياتهم . أيضا الدكتور أبو بكر الصعيدى ، إن لم يكن

القارئ العزيز قد سبق وسمع به ، فهو شخصية حقيقية ، وما حدث له واقعى بالكامل . اللواء عزمى شخصية حقيقية مع تغيير الاسم ، وما ذكر عن خطة لخطف القذافى مسئوليته الشخصية .

الأفكار العلمانية نسبت لأصحابها . ما يخص ليو ستراوس نسب إليه . كذا ما يخص الدكتور حسن فهمى نسب إليه . ما يخص بكارة الحور العين ، قد يذهل القارئ لو قلنا له إنه الشيء الوحيد دقيق التطابق بين آمال وبين تلك الفنانة العظيمة التى استوحيت شخصيتها منها (ربما بجانب تاريخ الميلاد ، واختيارها النفى الاختيارى فى لبنان -غير الدقيق فى توقيته هنا وإن كانت الأسباب دقيقة !) . ما يخص ' الكفر ' بسبب غناء أم كلثوم الردىء نسبناه للتو لصديقى المذكور . عدا ذلك فكلها نابعة من حياة وأفكار الكاتب نفسه ، ولعلها أوضح تجلى ممكن لأن قطعا منه موجودة فى كل شخصية . البدء فى قراءة التوراة واكتشافه لعلمانيته بسببها ، هو سياق واقعى من شبابه المبكر ، وإن كان اختيار نقطة التوقف عند ' لا تطبخ جديا بلبن أمه ' not to seethe a kid in its mother's milk (ربما أبعد قليلا مما حدث فى الواقع !) ، قد قصد به -بكل العرفان والابتهاج- إسداء التحية لرائد الأنثروبولوچى الكبير السير چيمس فريزر ، الذى كانت ترجمة أبرز كتبه للعربية (بعد نحو ثلاثة أرباع القرن من تأليفها) ، إلهاما هائلا لكامل جيل المؤلف وجميع الأجيال اللاحقة . التأملات والتساؤلات العلمانية ، كالتأويل العكسى لفكرة عدم لعب الرب النرد مع الكون ، بأن نظرية النسبية أمدتنا من حيث لم تقصد بالدليل العلمى الحاسم على عدم وجود إله ، أو كالتطبيق الدينى والعرقى لنوعيات طيور دكتور دوكينز الثلاث ، المغفلة والغشاشة والضاغنة (قبل أن يضيف إليها من عنده الجلادة) ، أو كتلك من نوعية نسبة الأوكسيچين فى الهواء ، أو المخير والمسير ، أو من خلق الخالق ، أو الرب كخالق فاشل يلقى بنواقصه هو الشخصية على الإنسان ، فقد جاءت كلها بعيد ذلك خلال فترة الشباب ، وجميعها تأملات شخصية جدا مستقلة جدا ، يتحمل مسئوليتها وحده ولم يستقها من فكر آخرين ، وإن كان على نحو عام ولعا بقراءة هؤلاء الكتاب الغربيين جميعهم والاستزادة من تأملاتهم وبحوثهم .

ذات الشيء فيما يخص الإسلام . الأساس بالطبع التجربة الواقعية العريضة فى جامعة أسيوط ، وإن لم يكن له فيها تقريبا إلا فضل المعاينة النشطة والاستماع باهتمام ، زائد سبر غورها ورؤية ما لم يره ربما الكثيرون فيها ، أو محاولة التنبؤ بمستقبلها الذى سيطبق الآفاق . هذا بينما تأملاته البحثية الشخصية هو نفسه فى الإسلام قد جاءت متأخرة ، مثل اكتشاف عدم ورود كلمة الحرية أو مشتقاتها فى الكرهان ، أو نهى ابن العباس عن اشتغال المسلم (العربى بالأخص) بنفسه فى تفسيره لعن يد وهم صاغرون ، أو تمثله مُحَمَّدا جاهلا غبيا جبانا إمعة ودمية ، كذا عنينا صاحب شهوة لا تشبع أبدا بسبب ضعفه ويداريها بأساطير فحولة مزعومة ، بل وأيضا مريض زهرى ، عقيما لم ينجب بنفسه أبدا ، وذهب عقله عند وصول المرض لمرحلة متقدمة ؛ أو كيف جسد نجيب محفوظ شخصيتى خديجة وعائشة ، هى كلها بحوث قام بها فى الكتب المؤسسة للإسلام نصا وروحا . جاء أغلبها بعيد ١١ سپتمبر ٢٠٠١ ، هذا الذى كان نقطة تحول أفرغ فيه -أى فى ذات اليوم بالضبط- تدوين وتعميم كل خبرته السابقة منذ تجربة أسيوط الثرية ، ونظريته المذكورة عن ' التوباويون ' وعن مدى صلة مُحَمَّد أو القرآن بالإسلام الحقيقى فى نظرهم ، على موقعه على الإنترنيت (جزء يسير منها كون سورة التوبة نسخت كل شيء ، وهى -ولا غرابة- ذات النقطة تحديدا التى بدأ منها الأب زكريا بطرس حملته الكبرى على الإسلام بعد عامين ونصف) . على أن بعض ذلك -وربما أهمه فى نظر كثيرين- جاء قبل تاريخ ١١ سپتمبر -بالذات مقال تأسيسى له فى ١٨ ديسيمبر ٢٠٠٠ عن الإبادة التى تنتظر العرب والمسلمين ، أثار ضجة واسعة- وكان نبوءة مباشرة بأحداث ذلك اليوم أو بالأحرى بما هو أفدح . على أية حال لم تمر أسابيع قليلة على ١١ سپتمبر حتى أصبح موقعه المتفرد على الإنترنيت -فى الواقع هو يعد العربى الأول عليها إطلاقا- مجرد نقطة فى بحر مع طوفان آلاف المواقع التى راحت تمحص العقيدة الإسلامية وتفصحها ، أحيانا بمستويات تصل لدرجة السباب والسخرية . مع هذا لا يزال لهذا الموقع تفرده حتى اليوم بدرجة أو أخرى فى ثلاثة أشياء على الأقل مما سبق له وارتادها على الإنترنيت العربية ، أو أحيانا ارتادها عامة : ١- التفنيد الصريح والمباشر لفكرة الإله ، ٢- تمحيص البعد الاقتصادى للشريعة الإسلامية كاقتصاد قذر ، ٣- مطالبته الصريحة بالثورة الجنسية التى هى حتمية اقتصادية واجتماعية معا فى رأيه . من هنا نقول أخيرا إن صرخة الوثوب فزعا من على الوسادة : واقعة حقيقية !

مايكل كووك ، شخصية حقيقية ، الاسم كذلك ، وكل سيرة الحياة تقريبا ، أو بقدر ما أمكن من تحرى ومن حقائق . حارس غوطة نفس الشيء وإن مع تحوير الاسم قليلا ، أما ما ذكر عن الجيل اللاحق فيداخله التخيل القصصى أكثر . منى شخصية حقيقية بدءا من اسمها حتى كل موقف ، وحتى تقريبا كل حرف فى كل جملة حوار ، بدءا من العيون المتلاونة وميرى پوپينز حتى الختم السابع والكيمونو !

شخصيات شركة رمسيس ، قد تختلف أسماؤها وخلفياتها الدينية -أو دياناتها إن كانت متدينة- عن الحقيقة ، لكنها تقارب جدا شخصيات حية محددة ، فى شركة حية محددة . هؤلاء هم أصحاب الفضل المباشر والمحورى على هذا العمل ، والقماشة المالئة لكل بنائه . ولم أكن محظوظا فى حياتى قدر حظى بأن عرفتهم . نبيل يحمل بعض إسقاطات من صديقى نديم ميشيل الذى رحل قبل أقل من شهر من البدء فى كتابة هذه الرواية ، الذى أدين -له شخصيا ولمكتبته الثمينة- بفضل الاهتمام بحياة وسير طوائف وأقليات ما قبل ١٩٥٢ . كان مفكرا موسوعيا عظيما ، صديقا -بل قل حاضنة- لكوكبة كبيرة من المثقفين ، لكنه لم يترك أى تراث مكتوب ، هذا بالإضافة لنبله الشخصى الذى يفوق الوصف . تحت قدمى ذكراه أضع هذا الإهداء الخاص جدا :

إلى نديم ميشيل ... إلى روحه أهدى روح هذه الرواية !

شخصية نبيل رأفت ، هى تحية للمؤرخ سمير رأفت ، الذى أخذت كتاباته هذا الاهتمام لدى شخص مثلى إلى عمق جديد ، ولا شك أن جيلا كاملا قد تتلمذ وبهر بإحيائه الدءوب لوقائع قرن كامل من الزمن الرائع ، أزهى حقبة فى التاريخ المصرى الحديث ، حقبة البناء والخير والعطاء والجمال (ويكفى أن نذكر القارئ بما كان يحييه بالتوازى المؤرخون الأكثر رسمية واعتمادا ، ممن تحديدا كانوا يبجلون ويتغنون بالقبح والغوغائية والقهر والتخريب) . أما عن الحاج فأود الاحتفاظ به سرا حتى اللحظة ، حتى لا أفسد على القارئ خياله تجاه هذه الشخصية . فقط أقول إنه سواء كان شخصية خيالية أو حقيقية ، فقد كان الإلهام الأول والأكبر والحافز الأضخم وراء كتابة هذه الرواية ، هذه الذى هو -وليس أى أحد آخر- عمودها الفقارى ، أو بلغة الاستثمار أكبر موجوداتها .

وطبعا سماء ، كما اسمها ، وكما كل شىء يمت لأفلاطون بصلة (!) ، قد توجد فى الواقع أحيانا ، لكن عليك أن تقابل مثلها بنفسك ، حتى تصدق أنها يمكن أن تكون حقيقية (وإن مثلا للعلم رمانة المثالية الباسمة شخصية واقعية !) . الاحتمال أكبر أن تكون قد قابلت سماء كنصف شخصية ، والنصف الآخر هو زوجة إدوارد ، وهذا ما حدث معى . أما إن لم تقابلها فستظل شخصية خيالية ... كذلك أيضا ما تبقى من القصة !

بفضل كل هؤلاء كانت شهور كتابة الرواية ، أجمل رحلة بحث شخصية لى عن الهوية المصرية . انطلقت فى بدايتها بثوابت المعايير القاسية التى منذ صغرى رأيتها فى الحضارة الغربية وظللت طيلة حياتى أعاير عليها الحضارة المصرية -أو شبه الحضارة لو شئت . حتى النهاية لم أغادر صرامة تلك المعايير ، ولم أندم أنى بدأت حياتى متمسكا بقيم الغرب ولا أرى سواها ولا أرى بسواها ، لكن تدريجيا -أى خلال المدة المشار إليها- بدأت أرى للحضارة المصرية قيمتها وقوتها وطبعا جمالها . اكتشفت أنها لا تختلف فى معدنها ، ولا بذرة واحدة . بل بالعكس ، هى أم الجميع ، ولا غرابة بالمرة إن أتى الأبناء أكثر يفوعا من والديهم . هى الأم إن لم يكن بالانتقال الفعلى للچينات المصرية عبر الخريطة ، فإنه لأنها الابنة البكر المباشرة لأمنا إيزيس ، أم جميع الالهة وأم جميع البنائين والأخيار صناع الحضارة ، بل لعلها بوابتنا المقدسة الوحيدة لفهم الإله الحق الكامل : أمنا الطبيعة . الرواية تمددت واستطالت إلى أن توقفت بكل التواضع عند هذه النقطة الأخيرة ، التى لعلها تحتاج منى لبحث آخر وكتاب آخر !

طويلة هى قائمة الشكر لمن رعوا هذا المجهود ، شجعوه ووثقوا به ، أو قرعوه وانتقدوه ، فى كلتا الحالتين بما يفوق موقفى أنا منه ، فكانت جميعها إسهامات ثمينة فى تجويد النص . فى طليعتهم يأتى الأصدقاء النقاد والكتاب حسام حافظ ومكاوى سعيد وممدوح الغالى وحسين بيومى ، وكذا الدكتور مجدى محفوظ .

وأخيرا ، أشكر صديقى القديم الوفى ، الذى اخترته دونا عن جميع أصدقائى كى يشاركنى هذه المغامرة دقيقة بدقيقة ، وبالفعل شاركنى إياها بلا كلل أو ملل : حاسوبى الشخصى الإتش بى أومنى بووك ...

مصر الجديدة فى ١٠ مارس ٢٠٠٧

مدحت محفوظ

بدأت عند منتصف الليل السبت ٢ سبتمبر ٢٠٠٦ (الليلة الثالثة لحزن متواصل على رحيل نجيب محفوظ) ،
بالفكرة والشخصيات وبمسودة كاملة لثلاثة فصول ، القصيرة -الأول والأخيرين ؛
وتمت بسرعة لا بأس بها (ستة شهور كما هو واضح ، أو حسب برنامج ٦ مايكروسوفت وورد ٢٠٠٠ ٥ ستمائة ساعة) !

ملحق : بعد عام ونصف (فقط !) :

٤ نوفمبر ٢٠٠٨ :
اليوم الأكثر سوادا -مجازيا وحرفيا- فى التاريخ الإنسانى



‘Heat cannot of itself pass from a colder to a hotter body’

‘Work can only be obtained from temperature differences between systems in contact with each other. When work is done, such systems tend to even out; and that loss of heat occurs in the form of entropy.’

‘The entropy of an isolated system not at equilibrium will tend to increase over time, approaching a maximum value.’

The second law of thermodynamics
—as the statement, originated and evolved, by *Rudolf Clausius*

‘Every Roman was surrounded by slaves. The slave and his psychology flooded ancient Italy, and every Roman became inwardly, and of course unwittingly, a slave. Because living constantly in the atmosphere of slaves, he became infected through the unconscious with their psychology. No one can shield himself from such an influence.’

Carl Gustav Jung
—*Contributions to Analytical Psychology* (1928)

هذان الاقتباسان هما ما اعتدت مصافحتهما بخط رمادى باهت على غلاف رواية سهم كيوپيد ، وبالطبع توجد داخلها قرب نهاية نصفها الأول . ربما تحدثت هذه الرواية فى ألف قضية وقضية ، وغلافها يؤشر لثلاث ثيمات بعينها على الأقل ، لكن لو شئت اعتبار واحدة فقط هى الأكثر محورية ، فلن تكون إلا اضمحلال وسقوط الحضارات ، ومحاولتنا الشائكة للتنبؤ بالسيناريو المحتمل لهذا فى السنوات القليلة التالية لكتابتها * .

* هذا الهامش بدأت كتابته بذات تاريخ ٤ نوفمبر ٢٠٠٨ ، ثم نقل كمدخل مستقل يتلو هذا المدخل ، ويحمل عنوان ‘ **هامش توثيقى : تحقق نبوءات أو صدى أفكار** ’ .

نعم تنبأنا بسقوط الحضارة الأميركية ، بل وحددنا من سيخلفها ، لكن بكل أسف فشلنا فى توقعه بهذه السرعة والكيفية الدرامية المباغتة والساحقة التى جرت اليوم ، وبواسطة أحط فئة وأبعدها احتمالية للنجاح : غزوة البيت الأبيض المباركة ؛ الغارة مذهلة النجاح التى استطاع فيها العرق العربى-المسلم الاستيلاء على قلب المركز الأعلى للقدرة والسلطة فى هذا العالم ، من خلال لص صغير ذو سجل إجرامى حافل وشامل منذ يوم مولده وفى كل يوم فى حياته ، الشى الوحيد الكبير فى حياته هو حنجرته الضخمة التى أهلته لأن يصبح أفاقا كبيرا ، كل حلمه فى الحياة أن يصبح معا ستالين الأميركى وهتلر الأسود وناپوليون المسلم !

لقد فاق الواقع كل قصص وروايات العالم . إن وصول عبد أسود ماركسى-لينينى نصفه حثالة مسلمة-عربية ونصفه الآخر حثالة مافياوية شيكاجوية ، لم تخل خطوة واحدة فى حياته -أو حياة أقاربه ومقربيه- من فعل إجرامى جنائى صريح ، وصول وغد للبيت الأبيض حيث سيمسك بأزرار أكبر ترسانة نووية على وجه الأرض وتنكشف له أعمق أسرار أميركا العسكرية وغير العسكرية يستطيع عرضها فى المزاد بأبخس الأثمان لأسياده فى موسكو وعلى ضفتى الخليج الفارسى ، لهو كثير ، بل كثير جدا ، ناهيك عن أنه تم بمثل هذه السرعة الصاعقة . كتبنا فى الرواية إن خمسين عاما قد تكون مهلة طويلة جدا لسقوط أميركا ، لكن ١٨ شهرا شىء لم يخطر بخيالنا أو كوابيسنا قط !

١- ما معنى كلمة عبد ؟ هذه يفسرها اقتباس الغلاف المذكور ، والذى يصف على نحو مذهل فى كلمة وجيزة للغاية كيف يمكن أن تضمحل وتسقط أعظم الحضارات . العبد عقلية وسيكولوچية ترفض فكرة القيادة والاستقطاب اللا-أنتروپى بين البشر ، وتؤمن بأن البشر طالما هم بشر فهم متساوون ، ومن ثم فهى تملك حقدا طبقيا وعرقيا هائلا على المتميزين من بنى الإنسان (أبسط الأشياء دلالة على دونية سيكولوچية العبد وكونها رد فعل ، الطوفان الذى لا يعد ولا يحصى من تصريحات ' السيد ' الأفاق الفظيع وزوجته ' السيدة ' العاهرة الدميمة المستمر منذ سجلت لهم تصريحات وحتى مجرد أيام قليلة مضت ، عن عدم اعتزازهم بأميركيتهم . افتخار العبد بوطنه يبدأ فقط فى اللحظة التى يصل فيها للحكم ويستعبد فيها سادته السابقين) . عامة ، العبودية هى حالة عقلية ونفسية ، وليست بالضرورة مجرد لون للبشرة ، وإن كان على كل أحد أن يعيد النظر اليوم فى أية بقية من احترام أو تعاطف أو وثوق ممكنة مع العرق الأسود ، الذى يكفى تماما لدمغه للأبد إنجابه شخصا بمثل مواصفات هذا الصرصور الأسود ، التى سبق وفصلناها خلال سباق الانتخابات وسنجملها حالا هنا .

(للمزيد عن عقلية ونفسية البراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، كعبد حاقد ، اذهب لأى محرك بحث على الإنترنيت واكتب Jeremiah Wright ، أو لشىء أكثر حضورا فى أفعاله -أى البراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى- اكتب saluting flag in Indianola) .

٢- ما معنى كلمة أسود ؟ الكلمة فى حد ذاتها ليست سبابا . السباب هى زنجى ونحن لا نستخدمها . لكنها مع ذلك تحيلنا لأن هناك ما هو أبعد من مجرد عقلية وسيكولوچية ، إنما توقظنا على أن ' السيد ' الوغد هو أسود بالفعل ، وعليك أن تتوقع منه أكثر من مجرد سلوكيات أو أفكار يمكن أن تتسلل لعقل وقلب إنسان من غير لون العبيد .

(للمزيد عن الطبيعة الچيينية السوداء ، الدونية الدموية ، العنيفة العميقة ، للبراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، اذهب لأى محرك بحث على الإنترنيت واكتب Civilian National Security Force ، أو اكتب Black Panthers ، أو لمجرد شىء فعلوه اليوم جدا اكتب intimidating voters) .

٣- ما معنى كلمة ماركسى-لينينى ؟ الكتلة الأساس لصداقات ' السيد ' الوغد منذ ترك الشوارع وعرف طريق المدارس هى من الماركسيين-اللينينيين الصرحاء ، ولا تنس أن شيكاجو هى مسقط رأس الحزب الشيوعى الأميركى حيث تأسس بعد الثورة البلشفية بعامين اثنين فقط . بالنسبة لأميركا ، هو يملك الآن طموحا يفوق أحلام ماركس ولينين بمراحل . إنه يريد الوصول بالحد الأقصى للضرائب لمستويات تلامس المصادرة (حيث لا يجب أن ننسى أن الأصل فى الضرائب أن تكون صفرا ، كل ما فوقه هو سرقة صريحة وسلب لا يحتمل التأويل !) ، وبواسطتها سوف يدفع معونات نقدية صريحة من أموال دافعى الضرائب هؤلاء لغير دافعى الضرائب ، وعلى الأقل هو أمر لم يكن واردا للحظة فى التعريف الأميركى لكلمة ضرائب عبر التاريخ ولا حتى فى كوابيسهم بخصوصها . هذا الذى لا يخجل بتسميه إعادة توزيع الثروة لن يجرى على الصعيد الفردى فقط ، بل -وهو الكارثة الأهم- سيجرى على صعيد الشركات . ككل سيحول اقتصاد أميركا من اقتصاد سوقى إلى نوع من الاقتصاد السياسى ، الذى تتدخل فيه الحكومة فى كل صغيرة وكبيرة ، وتأخذ من الشركات الناجحة (ويللز فارجو أو تويوتا مثلا) كى تعطى

الشركات الفاشلة (سيتى جروب أو چنرال موتورز مثلا) ، كى تعود لتنافس الأولى منافسة غير شريفة من أجل أن يصبح الكل الهوا سوا : فاشلون ! التاريخ سوف يذكر بكل أسف للسيناتور ماكين ، أنه لم ير فيما يجرى انقلابا عنيفا على الشرعية اتخذ صورة ثورة شعبية شوارعية دهمائية ، وتعامل معه بتعفف شديد ، حتى بمعايير الحملات الانتخابية العادية ، فكان كمن يحارب البندقية بكلمات الاقناع الودى ، بل وساهم هو نفسه فى تشجيع تلك الأحداث الهمجية من خلال كلمات من قبيل إن انتخاب خصمه لا يجب أن يثير فزع تلك السيدة العجوز المرتجفة ، هذه التى راحت تتوسل إليه أن ينقذها منه ، ولم يفهم أحد كيف لا تخاف إذا ما حكم البلاد ماركسى-لينينى عربى-مسلم ، ناهيك عن تاريخه كرجل عصابات محترف .

(للمزيد عن ماضى الإرهاب الدموى للبراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، اذهب لأى محرك بحث على الإنترنيت واكتب Bill Ayers ، أو اكتب Rashid Khaledi ، ولمدى تجذر المعتقدات الماركسية-اللينينية الاغتصابية الاستحلالية لديه حتى اليوم اكتب Redistributionist-in-Chief ، أو اذهب لأية مكتبة واحصل على نسخة من مذكراته المعنونة Dreams from My Father) .

٤- ما معنى كلمة مسلم ؟ ' السيد ' مسلما ، ليس فى هذا إهانة ولا اجتراء ولا مبالغة ، فقد ولد مسلما وتلقى أول تعليم له -أو ما يسمى بالعربية النقش على الحجر- فى المدارس الوهابية الجهادية بإندونيسيا ، ولاحقا لم يعد يتحدث كثيرا عن إسلامه وتبرأ من أهله الذين حتى اللحظة يقيمون على نحو غير شرعى بأميركا ، كلا الأمرين لأسباب تتعلق فقط بالطبيعة الانتهازية لشخصه ، وليس لأى سبب آخر ، وقطعا ليس بسبب قناعات حقيقية ، فهو لم يملك فى كل حياته سوى قناعة واحدة هى الكذب والاسترقاق والاستحلال ، وتحديدا فى نسختها الإسلامية التى هى أسوأ وأكثر شيطانية بكثير من الشيوعية نفسها ، جميعا من أجل لا شىء سوى التعيش والتسلق على عرق ودماء الآخرين . هذا ليس كلامنا ، بل كلامه هو فى مذكراته ، حيث قال إن الكنيسة لم تلمسه أية لمسة روحية ، ولم تجبه على أية أسئلة ، لكنه تقدم للعماد والانضمام لها فقط لأنها -فى جنوب شيكاجو- المكان الذى أوحى له بالأبهة ومن ثم بالفرصة الوحيدة للصعود الطبقى التى يفتقدها فى حياته المسلمة الحقيرة .

(للمزيد عن الشق المسلم للسلوك الإجرامى للبراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، ولأسرته وقبيلته السفاحة كلها باسم الشريعة الإسلامية ، اذهب لأى محرك بحث على الإنترنيت واكتب اسمه مقرونا بواحدة أو أكثر من الكلمات الآتية Wahabi ، أو Jihadi ، و Indonesia ، وmadrasa ، أو madrassa ، أو اكتب اسم عمته Aunt Zeitouni ، أو ابحث عن تمنيات القذافى له أن يصح إسلامه ، أو طبعا اذهب لأية مكتبة واحصل على نسخة من مذكراته المعنونة Dreams from My Father) .

٥- ما معنى كلمة عربى ؟ الحقيقة أن الإسلام ليس أسوأ شىء على وجه الأرض ، بل يتبقى شىء واحد أسوأ منه ، هو من اخترعوه ؛ العرب وبصيغة أكثر علمية وحيادية : الچيپنات العربية . الإسلام ليس مجرد نقش على حجر ، إنما هو -فى نسخته الصحيحة كما تعبر عنها أدبياته الأصلية- طبيعة چيپنية عميقة للغاية لا يملك الإنسان من أمره شيئا فيها ، برمجته منذ كان جنينا فى بطن أمه على استرقاق واستحلال عرق ودم الآخرين . هنا يدخل تعريف العروبة للصورة . العرب هم بعر شبه جزيرة البعر ، والإسلام ليس بأكثر من المنظومة الفكرية التى اخترعوها كى تضفى القداسة على الطبيعة الإجرامية لچيپنات العرق العربى ، هذا الذى لم يمتهن عبر كل تاريخه -السابق واللاحق على الإسلام- سوى مهنة القرصنة وقطع الطريق ، والتى تتراوح ما بين خطف وتجارة العبيد إلى غارات السلب والنهب على الشعوب المجاورة ، وأشهرها وأنجحها إطلاقا هو -بطبيعة الحال- هذا الإسلام . هذه وتلك كلها أمور چيپنية ، يستدل عليها إما بالتحليلات الچيپنية القطعية ، وإما -فى حال عدم توافرها- بالرصد الإحصائى للسلوكيات والعادات والمعتقدات ... إلخ (وبداهة ، هذان التعريفان المحددان للعروبة والإسلام لا يمتدان بالضرورة لكل من ينطق العربية ، ولا لكل من يدين بالإسلام اسما ، إنما جوهر عقيدته شىء آخر ، وبالطبع المثال الذى أسهبت الرواية فى تمحيصه وتحليله هو مسلمو مصر وصوفيتهم الإيزيسية) . المهم : كان من الممكن أن نعتبر ' السيد ' مجرد شيوعى استحلالى استرقاقى تقليدى ، وكان من الممكن افتراض أسماء مبارك أو حسين أو أبو أمه مجرد أسماء من الثقافة الإسلامية العامة ، لكن بعد قليل ذهلنا لاكتشاف مروع : ' السيد ' الوغد ليس مسلما فقط إنما تحديدا عربى أصيل ، بل أصيل جدا ! حدث هذا يوم أعلن برنامجه الضريبى . فوجئنا بشىء مرعب فى تلك الخطة : أنه لا يسميها رفاه -كأوروپا مثلا- ولا إعانة -كالكنيسة مثلا (أقصد الجامع ، وأقصد تكافل لا إعانة !) ، إنما -صدق أو لا تصدق مستوى الفجور القارح الذى وصل إليه : يسميها قطعات ضريبة tax cuts (الذى تعلم أنه الشعار الأشهر للرجس اليمينى نفسه ؟ !) . هذه خاصية ينفرد بها العرق العربى بين جميع أعراق الأرض : تسمية كل الأشياء بعكسها (انظر الفصل الخامس القسم المعنون ' يقولون عن أنفسهم خير أمة أخرجت للناس ، بينما يعلمون تمام العلم أنهم قمامة چيپنية ! ') ! ببساطة خطة ' السيد ' الوغد الضريبية هى أكبر عملية احتيال واسترقاق واستحلال فى

التاريخ الإنسانى ، تفوق عشرات المرات ما فعله أجداده المسلمين الأوائل الفاشلين (نسبيا ، وهذا أطالت أيضا الرواية فى شرحه) ، أمثال عمر بن الحطاب والحطابة ومن دونه نزولا إلى جمال عبمعصور ، ممن نهبوا بعض الهوامش وفشلوا فى المساس بقلب الثروة والسلطة فى أوروبا الغربية ، وطبعا تفوق -أى خطته- كل ما فعله جميع الشيوعيين عبر التاريخ .

يتبقى سؤال : هل هو أكثر سوادا أم أكثر عروبة ، هل هو عبد أسود تقليدى أم من أولئك متوسطى السواد خطافى العبيد ؟ كل شىء يدل على الثانية (بما فى هذا لون بشرته المسوخى) ، عقلية الرعاة الهجامة العرب الإجرامية العنيفة لا عقلية الأفارقة الزراع المسالمين الذين لا يعتبرون استحلال أرض وثروة وأنفس الغير توكيلا إلهيا لهم . لكن يظل قائما هنا التدقيق الأهم : الاثنان تجمعهما عقلية العبد . خاطفو العبيد هم أنفسهم من الناحية السيكولوچية عبيد . العرب هم هوام الصحراء الذين امتهنوا تاريخيا الإغارة والنهب المباشر على الأسياد ممن اعتادوا -تاريخيا أيضا- حماية أنفسهم وحضاراتهم الزاهرة بأسوار المدن العالية (أو فى حال منعة هذه الأسوار يخطفون السود من الأدغال ويبيعونهم إياهم) ، لذا فهم -عقليا ونفسيا وفى جميع الأحوال- أكثر حقدا عبوديا من العبد الذى ينطبق عليه المفهوم التقانى للكلمة ، وطبعا من نافلة القول إن چيينات عروبتهم علمتهم تغطية كل هذا القبح المتفرد تماما بين كل الثدييات بإسقاط نفسى متفاخم يقول إنهم خير أمة أخرجت للناس !

(للمزيد عن الشق العربى للسلوك الإجرامى للبراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، ولأسرته وقبيلته السفاحة اكتب Odinga ، أو اكتب redistributing wealth named tax cuts) .

٦- ما معنى كلمة عصابات شيكاجو ؟ إنها الآليات التى تعتمل فى ذهن ' السيد ' الوغد لإحداث ' التغيير ' الذى طالما أصدعنا به ؟ إنها خبرته الشخصية الطويلة والعميقة مع عصابات العقاقير والدعارة ومع بلطجية النقابات ، وقبلها ما ترسخ فى چيييناته من جهة أمه سليلة آل كاپونى (وربما أيضا چيمى هوفا ، الذى -ولا غرابة- انطلقت الطلقة الأولى لنقابته من شيكاجو تحديدا) . فى وقت باتت نسبة المنظمين نقابيا فى أميركا لا تتجاوز الخمسة بالمائة (وقد تصبح صفرا فى المائة وتشطب كلمة نقابة من قاموس البشرية لو حدث وسقط ديناصورات السيارات الديترويتيين ، الأمر المتوقع إعلانه خلال الأيام القليلة القادمة) ، فى هذا الوقت -الذى أخجل فيه شخصيا لدى سماع أن أميركا أو اليابان لا تزالان مهتمتين بصنع السيارات (الزراعة نفسها باتت صناعة عالية التقنية للغاية لدى المقارنة) ، يرى ' السيد ' الوغد أن النقابات هى الحل ، بل ويريد إصدار قانون يخولها حق التصويت نيابة عن المواطنين ، وتخيل ما سيؤدى له هذا من ملاحقة هؤلاء البلطجية للمواطنين وإطلاق النيران فوق منازلهم ليلا كى يجبروهم على الانضمام للاتحادات . هكذا كانت الثلاثينيات ، أيام الزمن الجميل ، عصر رووسيڤيليت الذى يحلم ' السيد ' الوغد بإحيائه ، بل فعليا دشن كل هذا يوم الانتخاب بإرسال واحدة من تلك الميليشيات -اسمها الفهود السوداء- بزيها العسكرى وبكامل تسليحها ، كى تروع الناخبين الجمهوريين عبر المدن الأميركية المختلفة . إن الرجل لا يرى فقط أن ' هوفا هو الحل ' ، بل على نحو أكثر تحديدا يرى أن ' حماس هى الحل ' (بالمناسبة برنامجه ككل لا يخرج جوهريا فى شىء عن برنامج حماس الذى تلخصه كلمتان ' الميليشيات للأمن والصدقات للاقتصاد ' . باعتباره خبيرا فى جمع الأموال الطائلة فى الحملات الانتخابية قد يعدل كلمة واحدة من تلك الكلمات الأربع ، وأكاد أجزم أنه سيخرج علينا قريبا بحل سحرى وشامل لجميع أزمات العالم المالية والاقتصادية ، ألا وهو إجراء انتخابات رئاسية جديدة كل شهر !) .

(للمزيد عن المهنة الوحيدة التى تقاضى عنها البراق [بضم الباء] أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى ، أجرا منتظما فى حياته وهى تزوير كشوف الانتخابات لحساب عصابات شيكاجو لحساب عصابة أميركا الأكبر المسماة الحزب الديموقراطى ، اذهب لأى محرك بحث على الإنترنيت واكتب ACORN) .

(لو لديك الوقت ، ولاستطلاع حجم المستنقع الذى يزكم الأنوف الذى عاش فيه ' السيد ' حتى النخاع منذ لحظة مولده حتى اليوم ، اكتب أى من الأسماء التالية منفردة أو حتى كمجموعات ، مقرونة باسمه العفن أو بدون ، وستجد ما يسركم ، ثم بعدها أتحداك فى المقابل أن تدلنى على علاقة ممتدة لبعض الوقت ، علاقة واحدة فقط لا غير فى كل حياته ، كانت مع شخص محترم : Jeremiah Wright, Louis Farrakhan, Michael Pfleger, William Ayers, Bernadette Dhorn, Jesse Jackson, Al Sharpton, Jim Johnson and Franklin Raines of Fannie Mae, Raila Odinga, Rashid Khaledi, Tony Rezko, Aunt Zeitouni, ACORN, ACLU, PETA, Code Pink, Black Panthers…) .

...

٧- ما معنى كلمة وغد ؟ وغد ليست شتيمة ، إنما تعبير محدد القسمات ورد فى كل القواميس . إنه كل إنسان وضيع الأصل مجهول النسب هجين الملامح . صفات الوغد هى خليط من الخبث والجبن والخداع وافتقاد المبادىء وانعدام الولاء والإخلاص لأحد أو لوطن أو لأرض أو لفكر ، إلى آخر ما قال ابن خلدون فى مقدمته عن العرب ؛ هؤلاء القمامة الچيينية ممن لفظت بهم من كل صوب وحدب وديان أو حتى مراعى الهلال القحيل إلى البقعة الأقحل فى كل البسيطة : شبه جزيرة البعر . سوف نشهد فى السنوات القادمة من المراوغات والأكاذيب ما لم يمر بخيالنا ولا بكوابسنا قط . سيصطنع من نظريات مؤامرة ما أنزل له عمر بن الحطاب والحطابة إله العربان من سلطان . سيدمر أميركا اقتصاديا من الداخل ، وسيخونها مع كل أعدائها فى الخارج ، بدءا من الصين وروسيا حتى إيران وطالبان . وبلا منازع ستكون هذه هى الحقبة الأكثر سوادا ليس لأميركا فقط ، إنما لكل الكوكب .

(للمزيد عن الأوغاد وخصائصهم ارجع لرواية سهم كيوپيد) .

...

هل يخلو من دلالة مشهد تلك الجحافل السوداء الهائلة التى تسللت ليلا تحت ستر الظلام كى تدلى بأصواتها ؟ لكن هل يمكن حقا أن تنهار حضارة تحت ستر الظلام ، أم على رءوس الأشهاد ، أم الاثنين فى وقت واحد ؟ قد ترد قائلا لماذا حديث العرقية البغيض الذى عفا عليه الزمن هذا ، ولتناقشنا قليلا فى الأفكار ؟ الإجابة : أولا : اليسار الأميركى -وأقصد المخلصين منهم لأفكارهم ، بفرض وجود أحد هكذا- هم عبارة عن مأساة متحركة من الجهل والغباء معا . يقيمون الدنيا ويقعدونها أن أميركا الرأسمالية الإمپريالية تتصرف بعرقية تجاه السود ، ثم يتضح أن السود أشد عرقية من أى أبيض . يقيمون الدنيا ويقعدونها أن أميركا الرأسمالية الإمپريالية تتصرف بعرقية تجاه العرب والمسلمين ، ثم يتضح أن لا عرقية على وجه الأرض أكثر شرا ولا شراسة من عرقية العروبة أو الإسلام . يقيمون الدنيا ويقعدونها أن اليمين المحافظ يتصرف بتمييز تجاه المثليين جنسيا ، ثم ينسون الأمر برمته حين يتضح أن السود هم التمييزيون كما رأيناهم صباح اليوم -أقصد منذ ظلام الليلة الماضية- يخرجون بكامل همجيتهم الموروثة ويلغون قوانين الزواج المثلى من كل الولايات . وهلم جرا من الأمثلة ، أسوأ ما فيها أن ذلك اليسار الإنسانوى الطيب -بفرض وجود أحد هكذا ، لا أن الأمر برمته مجرد تحالفات لصوص مؤقتة دائمة التبدل- هو يسار سريع النسيان دائما ولا يتعلم أبدا . الإجابة : ثانيا : أنا بالفعل لم أناقش إلا الأفكار ، لكن هذا لا ينفى حقيقة علمية جديدة كنا نستشمها فى الهواء القريب والآن ثبت معظمها بالأدلة العلمية القاطعة ، وهى أن الأفكار والسلوكيات ودرجة الذكاء والنشاط أو الكسل وكل شىء ، ما هى إلا منتوج ثانوى لكن لصيق بچيينات كل عرق بشرى تميزه تخصه على حدة ، وكذا بالأحرى هى منتوج لصيق بكل إنسان فرد على حدة (هل يعتقنا من تهمة العرقية أن نقول لك إننا مثلا نحب مورجان فريمان وكتبنا نحييه منذ كان ممثلا بلا اسم فى فيلم اسمه ' بروبيكر ' (١٩٨٠) ، وإننا نحب مجرد طلعته ، ولو حتى فى دور رئيس الولايات المتحدة الأميركية ؟ !) .

...

الحضارة الرومانية احتاجت لثلاثمائة سنة كى تضمحل تنهار . هناك علامات كثيرة وجدت على الطريق ، أبرزها فيما اعتاد ذكره المؤرخون موت ماركوس أوريلليوس مخلفا كتاب يدعو فيه للديموقراطية والمساواة بين كل الأعراق ، ومنها طبعا لحظة إعلان كونستانتين المسيحية دينا رسميا للإمپراطورية فيما عرف ببداية عصور الظلام ، ومنها ما يراه البعض فى إلغاء الدورات الأوليمپية من لحظة رمزية فائقة الدلالة ، أو طبعا خيارنا المفضل كمصريين ألا وهو يوم قتل هيپاتيا ، آخر شمعة أضاءت العالم القديم . أنا شخصيا أفضل الرجوع بعض الشىء للخلف وإضافة قرنين آخرين أو أكثر لصيرورة process الاضمحلال ، أقصد إلى لحظة الذروة تماما حين كانت روما أعظم تجسيد مادى ومعنوى لمفهوم الحضارة ، اللحظة التى بدأ المنحنى فيها الانكسار لكن لم يلحظه أحد لأن روما كانت حتى اللحظة فى طور نمو : **إنها لحظة اغتيال يوليوس قيصر !**

فى الواقع أن الوصول لتلك اللحظات المذكورة جلية أو درامية السواد لم يكن إلا مسألة وقت بعد انتصار الدونية والغثاء والجشع قصير النظر بقتل يوليوس ، تماما مثلما لم يكن خروج الأجلاف العرب من جحورهم لاحتلال نصف العالم إلا مسألة وقت مهدت لها ديانة ' مملكتى ليست من هذا العالم ' بكل الجد والاجتهاد ، أو كون ١٩٥٢ ليس إلا تحصيل حاصل بعد ما جرى فى ١٩١٩ ، وهلم جرا من الأمثلة التى قد يحاول فيها المرء النفاذ خلف ظاهر الأمور لمحاولة استكشاف متى وضعت البذرة أو متى بالضبط بدأ المنحنى ينكسر للأسفل .

آخر ما يسعى له هذا الكلام عن المسيحية أو عن الديموقراطية أن يعلى من شأن المعنوى على حساب المادى ، فلم ولن نفعل شيئا كهذا أبدا (كان بالأحرى أن نختار يوم هجوم الدهماء على الباستيل ، لكن لو كان لدينا أى واعز لفعل إعلاء شأن مكعبات الهواء لاخترنا مثلا يوم قيامة يسوع المزعومة أو يوم انضمام عمر لعصابة الإسلام ، كأسود لحظة فى التاريخ ، لكننا نؤمن أن الأديان خاصة -والأفكار عامة- أتفه من أن يكون لها دور يذكر فى التاريخ ، سلبا أو إيجابا) ، إنما أقصد أن روما ' الفكرة ' كانت أفضل تعبير بالمعنويات غير الملموسة عن إرادة المادة الملموسة التى صنع منها كوننا ، وأن الطعنات التى تلقاها قيصر كانت فى حقيقتها طعنات فى جسد أمنا الطبيعة ، وأقصد أن تلك المادة التى صنعنا منها مادة قائمة على علاقات القوى ولا شيء إلا علاقات القوى ، من تماسك المجرات رغم المسافات الشاسعة بينها ، حتى تماسك نويات الذرات رغم تنافر الشحنة الموحدة لمكوناتها ، مادة قائمة على الصراع ، صراع يفضى أغلب الوقت وفى النتيجة الإجمالية إلى النخبوية elitism والاستعقاد sophistication والتطور evolution ، أو بلغة الديناميات الحرارية ، يستطيع أن يقهر الميل الدائم لزيادة الأنتروبى ، أى أن ينتج من وقت لآخر عوامل تعيد خلق الاستقطاب الحرارى من جديد ، وهو الاستقطاب الذى لا يمكن إنتاج أى شيء بدونه كما يقول القانون فى النص أعلاه . بالمعنى الاجتماعى والسياسى ، هذا الاستقطاب هو تراكم الثروة فى مكان بعينه هو الأحق به وهو اتساع الهوة بين الطبقات المختلفة وبين الشعوب المختلفة ، أى أن يكون هناك قائد ومقود ، عقل وعضلات ، أو سمها ما شئت . تعريف الموت هو تساوى وشيوع ذات درجة الحرارة بين أجزاء النظام ، ويناظرها اجتماعيا وسياسيا مفاهيم كالاشتراكية والديموقراطية والمساواة .

لماذا اخترنا يوليوس قيصر ؟

اخترنا يوليوس قيصر لأنه -واستعد للمفاجأة- أول إنسان فكر فى تحرير العبيد . وتحرير العبيد ليس بالضرورة فكرة حالمة عن أخوة بنى البشر إلى آخر هذا الهراء ، إنما قد تكون فكرة شديدة العنف مستقاة من قانون الدغل ، تقول فيها للعبد إن أحدا لم يعد يكفل له طعامه بعد ، ولينزل للحلبة على حسابه الخاص من الآن فصاعدا ، حيث من الوارد أنه قد يموت جوعا . بل فى الواقع الحرية للجميع فكرة أكثر من رائعة لتخليص البشرية من حمولتها الزائدة المتمثلة فى الكسالى البلداء المتأخرين عقليا عن مجاراة عصرهم . عدا هذا فعدم تحرير العبيد أفضل كثيرا ! (الرواية مرت على قيصر أكثر من مرة ، لكن لعل أهمها مقابلة وحيد التليڤزيونية فى الفصل السابع ، القسم المعنون ' ما فائدة الديموقراطية إذا كان كل المعروض فى البازار هو ديكتاتوريات ؟ ') .

اخترنا يوليوس قيصر لأن من تصدى له كان هو الطبقة السياسية المتربحة من تلك السياسات الحمائية الحكومية ، إن جاز لنا استخدام هذا التعبير المعاصر . هذه الطبقة المكونة من ساسة واشينجتون الديموقراطيون ، وأذرعهم المتمثلة فى بلطجية النقابات وعصابات المدن ، وحلفهم الخارجى غير المقدس مع المال العربى الخليجى المسلم أكثر الجميع ثراء وسخاء ، ومع اليسار الريعى النفطى فى روسيا وڤينزويلا ، هى ما أتخم جيوب حملة ' السيد ' الوغد بمئات الملايين عبر كروت الائتمان المدفوعة سلفا والتى يمكن أن نشتريها أنت وأنا من كشك السجائر المجاور ، ولا يمكن مطلقا التحرى عن مصدرها ، طالما حملة ' السيد ' الوغد مستعدة لمخالفة قوانين الولايات المتحدة جهارا نهارا وبكامل البجاحة والسفالة ، وتقبل أموالا دون السؤال عن اسم المتبرع ، بحجة أن الدفعة الواحدة لا تزيد عن ٢٠ دولارا (؟ ؟) . بعقول من يستخفون بالضبط ؟ إن أى شيخ خليجى أو أى مافياوى روسى أو شاڤيزى أو شيكاجوى ، يستطيع فى ليلة واحدة تحويل عشرات الملايين من الدولارات عبر تلك الكروت .

اخترنا يوليوس قيصر لأن ما قيل عنه ساعتها إنه ديكتاتور يسعى للحكم الفردى ، فبات شريرا مصادرا للحريات فى نظر الجميع ، بينما هؤلاء الفاسدون باتوا ملائكة أخيارا ودعاء لأنهم وقفوا فى صف ما يسمى بالديموقراطية . السؤال الصحيح هو سؤال المحتوى دون أن تخدعنا المسميات : ماذا تريد الديكتاتورية بالضبط وماذا تريد الديموقراطية ؟ اليسار لا يمكن أن يكون ضد وول ستريت الفاسدة ، بل هى كنز لا ينفى بالنسبة له ، يصنع الفقاعة تلو الأخرى مضاربا فيها بما سرقه من البنائين تحت مسمى الضرائب لردح من الزمان ، ثم ليذهب الاقتصاد للجحيم ، أو لتذهب السلطة للجمهوريين ثمانى سنوات جديدة كى يعيدوا فيها البناء ، ثم نعود بعدها لنقطف ما زرعوه ع الجاهز !

اخترنا يوليوس قيصر لأن الديموقراطية يمكن أن تكون أكبر أداة لقبر الحرية ، وهذا ما نراه قد حدث هذه الليلة فى أميركا التى طالما أحببناها واعتبرها مثلا أعلى لكل العالم . إن وصول عبد أسود ماركسى-لينينى عربى-مسلم لقمة السلطة فى العالم ، لا يمكن أن يكون انتصارا للحرية ، إنما انتصارا لسيكولوچية وعقلية العبيد ، انتصارا للعبودية !

لكل هذا كان اغتيال يوليوس قيصر هو لحظة تحول روما من حضارة عظمى للبناء الجاد الشاق والخلاق ، إلى اقتصاد قذر قائم على التربح السريع قصير النظر . فى عالمنا المعاصر لا نجد نموذجا أمثل للاقتصاد القذر مما يسمى بالاقتصاد الإسلامى (وعذرا للتسمية فما هو باقتصاد لأن الكلمة لم ترد مطلقا فى أى كتاب تراثى إسلامى) . الحقيقة الأدهى أن النواة الأولى جدا للانهيار المالى الحالى بدأت بسهرات ودية بين شخص نصف أو ربع عربى اسمه الوليد بن طلال ، وبين ساندى وايلل رجل كرسى السيتى جرووپ ، وهو ما ورد فى الفصل الأول لرواية ، والمفارقة أن الأمير المذكور ليس حتى عربيا بالكامل وإلا كان من الصعب للغاية تخيل ما كان سوف يحدث . سأله فيها عما هو العيب فى أن تستثمر البنوك التجارية فى أسهم الشركات ، الأمر الذى يحدث ليلا نهارا فى بلاد الخليج العربى ويحقق طوال الوقت أرباحا طائلة . وقد كان ! أقنع الطفل المعجزة ساندى وايلل الكونجرس ، ولم يعترض آلان جريينسپان لأن الرأسمالية ليست ضد أية حرية للسوق ، وتفترض أن كل ذنبه على جنبه كما يقال . النتيجة كانت تحول أميركا برمتها للاقتصاد الإسلامى القذر القائم على المرابحة والمضاربة والملاصصة والمقاذرة (إلى آخر التسميات الواردة فى روايتنا ، ومرة أخرى لا تدع المسميات تخدعك وتفغر فاهك مثلا لفكرة أن وول ستريت عربية أو أن كلينتون كان مسلما ، فالمهم جوهر الأشياء) .

الطبيعى -بل المفروض- أن ينهار كل هؤلاء ويفلسون ، والأزمة الحالية هى إكليل غار يوضع على جبين الرأسمالية أنها تستطيع فرز البيض الفاسد وسحقه ، ولو أفلست صناعة السيارات الأميركية أو أفلس نصف بنوكها لقلنا هذه هى روعة الرأسمالية ، بل وروعة أزماتها : تخرج منها وقد ألقت على جانب الطريق ببضعة ملايين من الشغيلة ممن عفى الزمان على مهاراتهم وبآلاف المديرين والمخططين ممن عفى الزمان على فكرهم ، ويخرج من رحم الأزمة اقتصاد جديد يافع نابض بالعافية والصحة والعنفوان .

... إلا إذا ... . وما أدراك الجحيم الواقع وراء إلا إذا هذه ؟ إلا إذا أجبرنا الحكومة ساعتها على اتخاذ إجراءات حمائية ، مهددين إياها بأن انهيارنا نحن الفاسدين سيؤدى لانهيار الاقتصاد كله ، أو أرسلنا فتوات نقاباتنا ليثيروا الفزع فى الشوارع ، وما أكثر فى جعبتنا -نحن اليسار- من أسلحة للبلطجة والابتزاز . للأسف ابتلع الرئيس بوش هذا الطعم ، وللأسف أيضا أن المعارضة التى أتت فقط من شباب الحزب الجمهورى فى الكونجرس نجحت فى إسقاط المشروع فى المرة الأولى ، لكنها فشلت فى الثانية .

عن أى ركود تتحدثون ؟ يا دعاة الديموقراطية -بحسن الطوية لا بالإجرام المبيت- العالم الرأسمالى يمر بركود مرة كل سبع سنوات ، فما الجدوى لو فى كل مرة اخترنا اليسار كى يحكمنا لثمانى سنوات ؟ ! ... أجيبونا : هل أخطأ أرسطو ذرة واحدة حين علمنا قبل ٢٥٠٠ سنة ، أن تعريف الديموقراطية هو حكم الرعاع ؟ !

[فى الساعات التالية رحبت وول ستريت ' بالسيد ' الصرصور الأسود بصفعة بقوة ٥٠٠ نقطة ، وفى الجلسة التالية مباشرة رفعت مستوى الصفعة إلى ١٠٠٠ نقطة انهيار كارثية . من ٩,٦٥١.٠١ صبيحة يوم الانتخابات إلى ٨,٦٣٧.١٧ فى غضون ٤٨ ساعة فقط لا غير ! هؤلاء الذين انسحبوا هم المستثمرون المحترمون الذين لا يريدون سوى تنمية بطيئة حثيثة ومستدامة لأنها مبنية على أسس حقيقية وتعول فقط على النمو النخبوى التنافسى ولا تهتم بتنمية دهماء الشعب أو تنمية الشعوب الدهماء ، فهؤلاء نادرا ما قبلوا التنمية بذات الشروط التنافسية المعمول بها ، ويريدون فقط فقاعة كفقاعة الإسكان الحالية تنتهى بأن يهربوا بأموال البنوك والقروض الخارجية ... إلخ . هذا عن المستثمرين الجادين ، أما المستثمرون الذين يحبون بهلوانيات الأسعار وفقاعياتها فأطمئنهم : لا تهربوا ، فإن لدى ' السيد ' الوغد الكثير من شغل الـ ٣ ورقات للسوق ، الذى لا أعتقد أن اللعب بها فيه أصعب بالمرة ، من اللعب بها للوصول للمكتب البيضاوى !

فى اليوم الثالث كان المشهد مثيرا للفضول : عقد ' السيد ' أول مؤتمر صحفى له ، وفى ركن الشاشة السفلى مؤشر الداو چونز يهوى مع كل كلمة ينطقها . على أية حال ، هذا المؤتمر قال الكثير ؛ قال الطريقة التى سيسير على منهاجها حكمه . ليس مدهشا بالمرة أن نكتشف أنها طريقة عروبية خالصة ١٠٠ ٪ ، مما لا تعرفها أية أعراق أخرى : أن يتكلم بالساعات ولا يقول شيئا !

نعترف أن الرجل كان منظما ودقيقا . كان يختار بالاسم من سيسألونه ، وكان متأكدا من خلال جيش حملته الانتخابية وراء الستار ، أنهم لن يحدثوه فى موضوع العنوان الذى صف خلفه جيشا استعراضيا من المستشارين من أجله ، وهو الاقتصاد . عند نقطة ما راح يبحث بدأب عن صحفية بعينها رغم بدانتها التى لا تخطئها العين ، فقط لنكتشف أن لديها سؤالا عن الكلب الذى سيحضره للبيت الأبيض . هنا تهلل وجهه وتكلم طويلا جدا (جدا جدا فى الواقع) ، لكنه فى النهاية : لم يقل شيئا ولم يعط أى قرار ، حتى فى هذه !

بعد أسبوع آخر عشية انعقاد ما يسمى بمجموعة العشرين ، تكرر ذات المشهد ، لكن مع شخصية هى -على العكس ١٨٠ درجة- محترمة للغاية : الرئيس بوش . راح يرسم صورة قاتمة للغاية لمستقبل الاقتصاد العالمى ، هذا على خلفية محتدمة فى واشينجتون لديناصورات السيارات الثلاث

المختطفة نقابيا وغيرهم كثير من الصناعات الأخرى ، يتقاطرون على العاصمة كما الجراد طلبا لمعونة الجمعية الخيرية العظمى فيها ، فتصدهم الحكومة فيذهبون لإلقاء الخطب الرنانة فى الكونجرس الشيوعى . لكن فى ظل هذه الصورة الإجمالية شديدة القتامة ، راحت أرقام ركن الشاشة تتقافز من -٣٢٠ نقطة إلى +١٦٠ نقطة فى دقائق معدودات ، ثم واصلت الصعود ليحقق الداو جونز صافى ارتداد أكثر من ٩٠٠ نقطة تاريخية هائلة (من ٧,٩٦٩.٢٤ إلى ٨,٨٧٢.٨٥) فقط فى غضون الساعتين المتبقيتين من الجلسة بعد المؤتمر الصحفى .

... هل تعرف السبب ؟ إنه مجرد أن الرجل قال إن الحل الوحيد لكل ما نحن فيه ، هو المزيد من التمسك بالرأسمالية التنافسية والسوق الحرة !

أنا شخصيا -من منظور استثمارى محض- لا أقر ذلك السلوك ، لكن الموقف كان رهيبا ترتج له كل المشاعر ، ذلك لأنه ربما كان نوعا من بطولة ' الوقفة الأخيرة ' التى كنا قد تحدثنا عنها قبل أسبوع فى نهاية هذا المدخل : أناس دفعوا البلايين من جيوبهم لمجرد تحية كلمة من رجل لم يعد ذا سلطة ، كل ما أراده هو -لا أكثر ولا أقل- تذكيرنا بإن الرأسمالية لم تمت ولن تموت !

بعد أسبوع ثان ، ووسط تهليل أعلامى هائل من اليمين واليسار معا ، اختار ' السيد ' فريقه الاقتصادى ، ليتضح أن كلهم ربائب لسكرتير الخزانة الكلينتونى السابق روبرت إى . روبين ، الذى بات يقال إنه يحكم أميركا من وراء الستار الآن . هل تعرف من هو روبرت إى . روبين ؟ إنه مستشار ورجل كرسى سابق للسيتى جرووپ ، المجموعة التى كانت أول من وطن المال العربى القذر -ومن ثم عقليته سريعة الربح- فى وول ستريت ، والمتداعية حاليا دونا عن كل البنوك (ولا غرابة !) ، والتى يقول ' السيد ' وعصابته إنهم لن يسمحوا لها بالانهيار مهما حدث ! نذكر أيضا بأن روبين هذا هو الذى أخذ أفكار الوليد ووايلل إلى مداها وكان المهندس الحقيقى لخديعة الاستثمارات التى حين انفضحت فى خاتمة المطاف أسفرت عن إفلاس إنرون ، وها هو يعود الآن ليحكم الاقتصاد الأميركى بإصبعه القذر الخفى ، كعادة الحزب الديموقراطى وسائر المنظمات الإجرامية ، كل الأشياء تتم من خلف ستار ! ... تعليقنا ؟ لا تعليق !] .

[بعد شهر اتضح أنه ما أن انكشف الريان والسعد والشريف عندنا حتى ذهبوا لوول ستريت ؛ أصبح اسمهم برنارد مادوف ، راح هذا التلميذ النجيب يعطى فائدة ١١ ٪ سنويا لمدة ١٥ سنة ، يمولها -بالضبط كما مثله العليا الإسلامية- من المشتركين الجدد ، والنتيجة تبخر ٥٠ بليون دولار فى الهواء صانعة أكبر عملية نصب فى التاريخ !] .

[لم تمض أسابيع -وحتى قبل الوصول الفعلى للرفيق المجرم للمكتب- حتى أجبر روبين على الاستقالة من السيتى جرووپ . تخيل أن البراق يضع مصير الاقتصاد العالمى فى يد مدير فاسد فاشل ، فاشل حتى فى فساده ؟ !

هل تعرف لماذا حدث هذا ؟ لأن سيتى جرووپ قررت تفتيت نفسها وبيع كل النشاط الاستثمارى لمورجان ستانلى .

هل تعرف ما معنى هذا ؟ إنها اللحظة التى تنعكس فيها عجلة التاريخ ، ويتم إبطال ذلك الشىء البغيض الذى بدأه يوما ساندى وايلل والوليد بن طلال وروبرت إى . روبين ، بالدمج بين نشاطى البنوك التجارية والبنوك الاستثمارية ، وكان من أبسط نتائجه إفلاس وورلد كوم وإنرون ، زائد معظم أزمة الائتمان الحالية !

يعنى باختصار ، هكذا الخطة : اليسار هو الذى يفعل الأشياء البغيضة ، ثم يقول إن الحل هو المزيد من الرقابة ، أى المزيد من السلطة لهم هم البيروقراطيون والمشرعون . الموقف الصحيح أن الأشياء البغيضة -فقاعات أو حتى مخططات نصب مباشرة- لا يجب تحت أى ظرف من الظروف أن تمس شعرة واحدة من حرية السوق . هم يهزأون بعقولنا ؛ الأجهزة الرقابية الحكومية موجودة فعلا ، وطالما فشلت فى منع أى شىء . الأجهزة الرقابية القطاع الخصوصى -كشركات التصنيف الائتمانى مثلا- أقدر وأكفأ منها آلاف المرات من حيث الموارد البشرية والمالية معا ، وطبعا من حيث النزاهة ، وتمارس دورا عظيما بالفعل ، لكنها بداهة لا تستطيع اكتشاف كل شىء .

إذن ، ليفعل كل ما شاء وليتحمل كل شخص مسئولية قراراته الاستثمارية ، هكذا النظام الرأسمالى ببساطة ، وعلى الجميع التعامل معه دونما محاولة من الساسة اليساريين الفاسدين للى ذراعه ومحاولة اكتساب سلطات لأنفسهم !] .

أخيرا ، اخترنا يوليوس قيصر لأننا بما أننا نتحدث عن اليوم ٤ نوفمبر ٢٠٠٨ كاليوم الأكثر سوادا فى التاريخ الإنسانى ، فلا بد أن نذكر أى يوم كان الأكثر سوادا فى التاريخ حتى الأمس . ليس هناك أدق من اختيار ١٥ مارس ٤٤ ق . ح . ش ؛ يوم اغتيال جايوس يوليوس قيصر ، التاريخ الذى عرفت فيه الأنتروپى الطريق لكعب أخيل اللازم لتركيع الحضارات !

...

ماذا حدث فى أمر اضمحلال وسقوط الحضارة البريطانية ؟ كما أوضحت الرواية فى القسم المعنون فى منتصف الفصل السادس ' خمسون عاما مدة طويلة جدا ! لن تستمر أميركا سيدة العالم كل هذه الفترة إلا فى حالة واحدة ... ' ، السيناريو ليس يكن مختلفا كثيرا ، باستثناء أن غزو العبيد لم يأت من الخارج ، بل من الداخل . طبقة من البلطجية العاطلين تفتقوا عن فكرة اسمها تنظيم الشغيلة فى اتحادات ، الأمر المخالف

دستوريا ومفهوميا لمبدأ الحرية العظيم الذى رسخته إنجلترا : طالما لا أحد يذهب من أصحاب المصانع يذهب لجر أحد عنوة من مسكنه كى يجبره على الشغل (على طريقة النظام العبودى الذى رفعت الإمبراطورية راية القضاء عليه) ، فإن الرأسمالى حر فيما يعرض من أجر ، والشغيل حر فى أن يقبل أو يرفض ، وكلمة حر تفترض من الأساس أنها فردية ، وإلا أحللت شمولية بأخرى ، والجوهر العميق للفكرة الرأسمالية أن لا اقتصاد فى السياسة ولا سياسة فى الاقتصاد ، التى يمكن ترجمتها دونما خطأ كبير لأن لا سياسة من الأصل ، فالفرد هو النواة الأساسية للمجتمع ، لا القبيلة ولا النقابة ولا الحزب ولا أى شىء ، ولا حتى الأسرة النووية كما رأينا فى الأطوار اللاحقة من صيرورة هذا التطور ! على امتداد النصف الثانى للقرن التاسع صدر التشريع تلو التشريع يعطى الشغيلة حقوقا فى المشاركة السياسية ويزيد من سلطات البرلمان انتقاصا من سلطات الملك ومن سلطات الطبقات العليا للمجتمع مالكة الثروة ، بحيث ما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى كان الحزب المدعو حزب الكدح (العمال فى الترجمة العربية الدارجة) ، عصابة بطلجية النقابات ، هى الحاكم المطلق لكل الإمبراطورية ، وقادتها بثبات وعزم عظيمين إلى الانهيار التام فى غضون عقود قليلة . مرة ثانية ، السبب بسيط وهو أن عقلية العبد -الشغيل هنا- لا ترى أبعد من تحت رجليها ، أقله أنها لا تفهم شيئا فى أهمية التقنية كالقدرة المحركة للتقدم والازدهار ، بل على العكس تراها عدوا يجب تحطيمه ، وهذا قد حدث بالفعل بالمعنى الحرفى للكلمة فى بريطانيا من حركات لتكسير آلات المصانع .

...

ماذا حدث فى أمر اضمحلال وسقوط الحضارة الأميركية ؟ أين كانت وكيف أصبحت ؟ روكيفيللر الذى تعتز الرواية بأن وضعت توقيعه على غلافها ، كان قبل أقل من قرن ونصف لا أكثر -مع بقية رموز ذلك العصر من البنائين العظام- رمزا للرأسمالية التنافسية التى لا ترحم أحدا ، بل فى حلبة صراع الشركات تصفق -هى وكل الشعب- بمنتهى الحماس للفائز وتصفر بذات الحماس للمهزوم لا تأخذهم به رحمة ولا شفقة . تغيرت الدنيا بسرعة ، وفى العشرينيات أيضا بفعل سياسات توسع تنموى حكومية غير مدروسة وغير تنافسية بطبعها انفجرت الفقاعة إلى كساد عظيم طويل ومؤلم . هنا دس اليسار أنفه لأول مرة مستلهما ما بدا من نجاحات ظاهرية لروسيا الستالينية . جاء روزفيلت بسياسة اشتراكية عقيمة سقيمة أطالت الكساد وأطالت طوابيره وزادت كل شىء إيلاما على الجميع ، فقط إلى أن جاء الخلاص متمثلا فى حرب عالمية ثانية أنقذت العالم ، بأن كسرت جذريا دورة الاقتصاد وكأنها تبدأ دورة جديدة من الخدش لا ماضى لها ، هذا أولا من خلال الهبوط لحالة من التقشف التام اسمها التعبئة العامة ، دورت عجلات المصانع ودفعت التقنية قدما وفى نفس الوقت ساعدتها الحرب من خلال تقليل عدد السكان ، وطبعا بالضرورة خلصتنا من الحكم مدى الحياة الذى انتواه روزفيلت لنفسه . عادت أميركا لصوابها ورسخت نفسها كالقوة العالمية رقم واحد ، لكن المرة التالية التى أطل فيها اليسار كانت أقسى كثيرا . وصول أول ' سيد ' لقمة السلطة فى واشينجتون ، الكاثوليكى چون فيتزچيرالد كينيدى ، حاملا أجندة يسارية شرسة قامت بأمرين اثنين على الأقل ، أقل ما يقال فيهما إنهما كارثيان : قانون هجرة فاحش الأبعاد جعل أميركا مستباحة بلا قيد أو شرط لطوفان من العبيد على الطريقة الرومانية ، وقانون آخر لما يسمى بالحقوق المدنية جعل الإنسان الأبيض مواطنا من الدرجة الثانية فى عين وطنه الذى أسسه وبناه ودفع أجداده عرقهم ودمهم من أجله . هذا التشريعان هما اللذان أوصلانا للنتيجة الباهرة التى حدثت اليوم ، ٤ نوڤمبر ٢٠٠٨ ، بما يفوق كل خيالات ' السيد ' كينيدى نفسه . ببال من كان يمكن أن يخطر هذا ؟ أقل من نصف قرن تفصل بين اللحظتين السوادوتين الكبيرتين فى تلك الإجرائية ، انتخاب ' السيد ' الأول وانتخاب ' السيد ' الثانى ، هذا الذى جاء بأجندة ماركسية-لينينية عربية-إسلامية استرقاقية-استحلالية فاجرة الصراحة ، بينما قطيع الدهماء يهلل له بذات الحماس القديم الذى هللوا به لوهلة لمقتل يوليوس قيصر !

...

' ما قبل أبى أمه ' و' ما بعد أبى أمه ' ؟ أوافق ! نعم ، لا أعتقد أن شيئا من كل ما وعد سيحدث ، الكونجرس الديموقراطى نفسه لن يجاريه خطته الاستحلالية الاسترقاقية الطموح ، لأنهم أبعد نظرا فى الحفاظ على الدجاج الذين يبيض لهم ذهبا بينما هذا الأعرابى شرق الأوسطى الغبى يريد ذبح الدجاجة والتهامها الآن بضرائب أقرب للمصادرة . هذا هو الفارق القاعدى بين الاشتراكية الشيوعية : تنابلة الاشتراكية يبقون على المشروع الخصوصى كى يظلوا ينهبونه إلا ما لا نهاية ، أما ثيران الشيوعية فهم يصادرون البقرة نفسها فيجف لبنها بين أيديهم الجاهلة الشرهة ، فلا يجدون ما يمكن فعله سوى ذبحها والإطعام بها لبضعة أيام وانتهى الأمر !

نعم ، رغم لون بشرته ، فهو ' أبيض يا ورد ' ، ولن يجد مستشارا واحدا يمكن أن يوافقه على أوهامه التى ألهبت حنجرته الضخمة مشاعر الناس بها . لكن هل ستتوقف الأمور عند هذا الحد ؟ بالطبع لا ! مبدئيا ، لو بجانب بياض عقله ، افترضنا أنه مجرد فتى صغير غر طيب وأبيض القلب ، فهذه فى حد ذاتها كارثة ، فالعالم لا يحتمل أن يقوده شخص غر فى هذا الوقت العصيب والخطر اقتصاديا وأمنيا . الأسوأ أن الكارثة الحقيقية أعمق بكثير ، وكثير جدا ، ذلك أنه شرير محنك محقق . رغم كون هذا المرتزق الصغير التافه حدثا هاويا معدوم الخبرة ، إلا أنه لم يفعل كل ما فعل كى يستسلم فى النهاية للصوص المحترفين الكبار عريقى الخبرة ، بل سيقود انقلابا داخليا عليهم . قد لا ينجح ، لكنه على الأقل سينجح فى أن يورث أميركا حالة من الفوضى ربما لا يشبهها فى فجيعتها شىء إلا اللقطات الختامية من فيلم ' سقوط الإمبراطورية الرومانية ' ، حيث ستتحول تركة الرأسمالية الأميركية والتى قتلها هؤلاء اللصوص (والتى -أرجوك لا تنس هذه- كان قد كتب فيها توكفيل أسفارا يوما) ، تتحول إلى مزاد علنى فيما بينهم (الأفلام لا تذكر أبدا السبب الحقيقى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، بل فى الواقع تذهب لعكس الحقيقة ١٨٠ درجة ، فقط أعجبتنا الرمزية المستخدمة فى المشهد المذكور) . سيعم أميركا الاضطراب تدريجيا ، فى ظل فشل اقتصادى تفاقمه الضرائب الباهظة ، وفى ظل إيمانه بضرورة تفكيك الجيش وعدم إنفاق سنت واحد على الدفاع ، سرعان ما سيتحول -أى الاضطراب- إلى فوضى شاملة عارمة . التاريخ علمنا فى المرتين السابقتين أنه حين تنهار حضارة ما ، لا بد وأن يصل العالم كله لحالة من الانصهار الفوضوى ، قبل أن تتماسك داخله قوى جديدة تحمل لواء القيادة بحزم ، وتعيد هيكلة الكوكب بعد كنسه من فيضان الأنتروبى الذى غطاه . لا يوجد ما يحملنا على الاعتقاد فى شىء مختلف هذه المرة .

يقولون إن ' السيد ' سيسعى لتوحيد أميركا . بغض النظر عن أن كل كلامه دونما استثناء حرف واحد هو رطانة جوفاء خالصة ، نقول إن ذلك صحيح ، لكن فقط كإحدى خصائص ما ورثه من چيينات عربية . العربى يعرف أنه عبد وأنه ' دون ' الجميع ، ويمد يده بما يسمى سماحة الإسلام طوال الوقت ، وذلك ما يسمى أحيانا بالتقية ، لكن حين يصل لمرحلة التمكين ، ستظهر منه وحشية وانتقام وحقد لا نظير لها ضد كل أعراق الأرض .

يقولون عن نجاح ' السيد ' إنه دلالة على أنك تستطيع فعل كل شىء فى أميركا (بل علمت أنه قال هذا هو نفسه فى خطاب النصر) ، لكن المدهش أنهم ينسون أنك أيضا تستطيع فعل كل شىء فى الصومال . ليس المعيار أنك تستطيع فعل كل شىء ، إنما أن تستطيع فعل فقط كل شىء صواب إيجابى وبناء ، لا لصوصى نهابى سلابى هجامى استرقاقى واستحلالى ؟ نعم ، هى أميركا التى يفعلون فيها الآن ما شاءوا ، لكن شتان بين أميركا قائدة حضارة ما بعد-الصناعة ، وبين أميركا الاشتراكية والمساواة وميليشيات الشوارع التى يعدنا بها ' السيد ' الوغد .

علمت للتو أيضا أن اسمه قد أصبح فجأة وبقدرة قادر ' البراق حسين أبا أمه ' يتغنى به كل طوفان شاشات الإعلام العالمى الذى يسيطر عليه اليسار وليس انتهاء بالصفحة الأولى للنيو يورك تايمز ، هذا طبعا بالإضافة للإعلام العربى المسلم ، كلها بعد ظلوا لشهور يتحاشون وبشدة -من باب التقية- ذلك التلميح لإسلامه ، ويسحلون كل من ينطق اسم حسين هذا ويلهبونه بسياط تهمة العرقية والتعصب . أنا شخصيا لا أكاد أستطيع تخيل شكل الإعلام غدا ، بعد أن استثمر كل ماله وثقله ذاك فى شخص ' السيد ' ، وراهن بكل شىء عليه . من منظور بيزنسى خالص ، هذا غباء . قاعديا ، حتى يحافظوا على المشاهدين عليه أن ينقد الرؤساء والنظام ، وحين يمتدحهم يجب أن يحتفظ لنفسه بخط رجعة . هم لم يفعلوا هذا مع ' السيد ' ، ولا أكاد أتخيل كيف سيحظون غدا بأية مصداقية .

علمت أيضا أن ' السيد ' بدأ فى خطاب النصر ذاته ، الحديث عن العثرات المقبلة ، و' التغيير الذى لن تكفيه فترة رئاسية واحدة ' . هل نسى بهذه السرعة أنه أصبح رئيسا ، ودلف مباشرة لحملة انتخابات ٢٠١٢ ؟ لا بأس ، فالانتخابات الشىء الوحيد الذى يجيده ، ولا يطيق فراقه ، ومن ثم فأسوأ شىء فيها هو الانتصار ! لكن هل تعتقد حقا أن الانتصار يمكن أن يقهر حقا طفل الانتخابات المعجزة ' السيد ' الوغد ؟ أنت واهم ! لقد وجد طريقا ! لم يهدر دقيقة واحدة من عمره بلا انتخابات ، وراح على الفور يدشن حملة انتخابية جديدة : كلف ذات الفريق الذى أنجحه تحت شعار ' التغيير ' ، ببدء حملة دعائية جديدة تحت عنوان ' تغيير التغيير ' لإقناع الشعب الأميركى ألا يتوقع من ' السيد ' أن ' يغير ' شيئا أو ينفذ شيئا مما قال ، وأن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يتغير هو الرفيق الوغد بن لادن نفسه ! هذه ليست نكتة ، إنما أخبار حقيقية ، بل ربما تحقق نجاحا فعلا فليس فى تاريخ ' السيد ' الوغد حملة فاشلة حتى الآن ، وطبعا لا شىء يصعب على أمنا الديموقراطية ! (فى

الواقع هو على حق فإن أحدا ممن دفعوا له بسخاء فى مواخير الإنترنيت السرية لم يطالب قط بال 'change' !) . المهم ، أنا شخصيا أقر بصدق وعوده بالتغيير : تغيير الكلام الذى سبق وقاله خلال الحملة !

...

لكن هل انتهى نهائيا أمر الحضارة الأميركية ، وعلينا انتظار العقود وربما القرون حتى تظهر تلك القيادة الجديدة ، الرابعة ، حضارة ما بعد ما بعد الصناعة (كما أسمتها الرواية) ، أو اختصارا حضارة ما بعد-الإنسان كما عنونا بها كتابا قديما لنا من عام ١٩٨٧ ؟ الإجابة : الوقت يجرى بسرعة . المشكلة أن قوانين ' السيد ' كينيدى نجحت فى الوصول بالعبيد للنسبة الحرجة ديموجرافيا التى بعدها -بفضل ولعهم الطبيعى بالتكاثر- يتحولون إلى أكثرية كاسحة . فى ظل ' السيد ' الوغد ، سيتفاقم الأمر بمتوالية هندسية كما كرة الجليد (وإن كنا لسنا فى حاجة للوصول لأية درجة من تلك نسمى الأشياء بمسمياتها ونعرف الديموقراطية بأنها حكم الفقراء أو حكم الرعاع أو حكم الجهال -التعريفات ليست منا إنما كلها لأرسطو) .

... لكن ؟ أى ' ولكن ' ؟ هل هناك ' ولكن ' ؟ هل يمكن إنقاذ أميركا من مصير سابقتيها ، الحضارتين الرومانية والبريطانية ؟

ربما لا تزال هناك بعض الإجابات ...

...

أولا : هل يمكن أن يحل قتل ' السيد ' الوغد المشكلة ، أم لا بد من حرب أهلية تلغى مهزلة الديموقراطية وتعيد العبيد -بمختلف ألوانهم- إلى من حيث أتوا أو أتى أجدادهم ؟ لماذا القتل ؟ هل فشلتم فى إقناع الناس بالكلام فتلجأون للتصفية الجسدية ؟ الإجابة : لقد حفل التاريخ بأمثال هذه الحناجر الضخمة ، الشىء المشترك فيهم جميعا أنهم ينقلون لعبة السياسة برمتها من نطاق الأفكار والإقناع ، إلى نطاق إثارة المشاعر وتدليك الغرائز . هم من لجأوا للضرب تحت الحزام ومن خانوا جذريا ساطرات اللعبة ، وليس من قتلوهم . من يفعل ذلك -بالذات من لديه قدرة على الخطابة الرنانة والتزييف الفاضح والتضليل الديماجوجى والتحريض السافل أمثال جاندى وكينيدى ولوثر كينج وكينيدى الآخر- غالبا ما ينجح ، ولا سبيل لإيقافه غير القتل ، ولكن ... .

... ولكن : نعم ، القتل مهم ، ونعم ، على أجهزة الاستخبارات أن ترتفع لمستوى اللحظة التاريخية ، وتقبل التحدى الأخلاقى الذى يفرضه عليها قسم الواجب الذى تعهدته . نعم ، التصفية الجسدية ' للسيد ' الوغد خطوة مهمة ، لكن المشكلة أنها لا تكفى ما لم تتلوها خطوات أخرى جذرية تمنع ظهور أمثاله من جديد . كان من الممكن أيضا قتل أفواه ضخمة أخرى مثل لينين وناصر وماندیلا إلى آخر قائمة مشاهير قطاع الطرق بارعى الخطابة ، لكن المشكلة أنه دائما ما يظهر غيرهم بعد قليل . الأشياء الجذرية قد تكون بالفعل من قبيل حرب أهلية أو تطهير عرقى جذرى أو ضربات نووية ، لكن لا يمكن أن تكون أقل من هذا . على أية حال لا شىء يذكر بعد ليلة اغتيال القيصر أهم من الحروب الأهلية . المهم فقط السؤال عن لأى طرف ستكون الغلبة !

إذن ، الإجابة صعبة لكن ضرورية وفورا ، لأن الخطر مخيف ومحدق !

...

ثانيا : ما هو موقف الشركات ؟ هل تترك أميركا وترحل ، هل ترفض دفع الضرائب ، هل تستولى على السلطة بالقوة لا سيما وأنها حققها الطبيعى أى بمعنى حققها بحكم قوانين الطبيعة الأسمى من كل قوانين ذلك العرق الغبى المدعو الهومو ' سيبينز ' ؟

أيضا ، الإجابة صعبة لكن ضرورية وفورا ، لأن الخطر مخيف ومحدق !

...

ثالثا : ما هو موقف الجيش الذى سيرى نفسه وبلده تتحول لملطشة لأمثال پوتين وشافيز وخامنئى ناهيك عن الحزب الشيوعى الصينى ، لا سيما وأن ' السيد ' الوغد قد أعلنها صريحة أنه لا يريد من الآن فصاعدا الاعتماد على الجيش ، بل يريد استبداله بميليشيات سوداء مسلحة يحيل إليها ميزانيات القوات المسلحة الأميركية الموصوفة عادة بالهائلة . صدق أو لا تصدق ، لو حدث وتقدم ' السيد ' اليوم أو قبل ١٠ سنوات أو حتى بعد عشر سنوات من الآن ، بطلب لوظيفة ساعى فى البيت الأبيض ، لرفض طلبه بناء على التقارير الأمنية الروتينية التى تدمغ ماضيه الحافل

بعلاقات مباشرة مع الجماعات الإرهابية المسلحة ، ولألف سبب آخر . أما وقد أصبح ' السيد ' هو سيد البيت الأبيض نفسه محتميا بما يسمى قوة الشعب (وللأسف هى وظيفة لا يشترط القانون الأميركى استعلام رأى الأمن فيها ، على الأقل لأنه لم يخطر ببال الآباء المؤسسين ممن كتبوا دستور أميركا العظيم أن سيتقدم يوما رجل عصابات محترف من العالم السفلى لأميركا للترشح للرئاسة) ، ألا يعد تدخل الجيش لاعتقاله أو قتله هو مجرد تفعيل بسيط صريح ومباشر لسيادة القانون التى طالما تغنى بها الغرب ، ومجرد إبطال بسيط صريح ومباشر لهذا الانقلاب الذى جرى على السلطة الشرعية ؟

بالمثل ، الإجابة صعبة لكن ضرورية وفورا ، لأن الخطر مخيف ومحدق !

...

رابعا : ما هو موقف ولايات الجنوب ، وبالذات حين نبدأ نرى نواب وسيناتورات ديموقراطيي الجنوب أقرب إلى اليمين من جمهوريى الشمال ، والعكس بالعكس ؟ ألن يفكر الجنوب فى الاستقلال من جديد كما كان يوما ، كى يبنى دولة فتية قائمة على قيم الحرية والتنافس وذات فرص هائلة لأن تصبح سيدة العالم حقا ، تاركة بقية أميركا التى اغتصبها اليسار ، تضمحل ما شاء لها الاضمحلال ؟

أيضا ، الإجابة صعبة لكن ضرورية وفورا ، لأن الخطر مخيف ومحدق !

...

خامسا : سلميا ، وطبعا : الإجابة صعبة (صعبة جدا هذه المرة) لكن ضرورية وفورا ، لأن الخطر مخيف ومحدق !

الرهان ضعيف ، لكن لا يمكن إلا أن نشيد بهؤلاء الأبطال آخر رعيل من حملة مشعل الحضارة ، الجيل الجديد من شباب الحزب الجمهورى ، هؤلاء الذين عادة ما يطلق عليهم أولاد نيوت جينجريتش . هؤلاء الذين كان آخر وقفاتهم الشجاعة رفضهم الحازم لخطة الإنقاذ المالية التى اقترحها الرئيس بوش ، باعتبارها مناقضة لأبسط مبادىء الرأسمالية وهى أن تدع من يسقط يسقط ، هؤلاء يحاجون طوال الوقت بأنهم ذهبوا لواشينجتون كى يغيروا واشينجتون (يقصدون واشينجتون الفساد والإفساد التى باتت وكرا للصراصير الديموقراطيين) ، لكن -حسب قولهم أيضا- D:\FoxNews.com\2008\11\06\Eye to the Future - Is Louisiana Gov. Bobby Jindal the man to rebuild the Republican Party 110508_hc_jindal_B1200.flv هو إنسان رائع ككل وليس لهذه المقولة فقط ، وبالطبع هو المشار إليه على هامش هذه الفقرة ما حدث أن كثيرين ممن ذهبوا لواشينجتون كى يغيروا واشينجتون قد غيرتهم واشينجتون (يقصدون بعض الجيل الحالى من الجمهوريين ممن يقايضون التنازل عن بعض المبادىء بالحرص على القبول السياسى ، ويتجهون للوسط كى ينتخبهم الناس ، وما يحدث أنهم لا ينتخبون لأنهم يبدون مزيفين فى نظر الناس مقارنة بمن هم طول أعمارهم يساريون) . موقف هذا الجيل الجديد كان عظيما خلال الأزمة المالية ؛ أثبت للعالم أن الرأسماليين ليسوا قبيلة وأن الرأسمالية ليست اشتراكية الأغنياء . أفهمتم العالم أنكم لا تقفون صف فى الثراء إنما فى صف شىء آخر لا يشبهه إلا فى الجناس اللغوى : الصراع ! أثبتم أن ليس كل صاحب ثروة رأسمالى (تعبير للرواية) ، وأن الفارق شاسع بين اقتصاد بناء تنافسى رفيع المعايير وبين اقتصادات ورقية كلامية بهلوانية فقاعية .

إن عدد أولئك غفير وأغلبهم الآن حكام ولايات وسيناتورات ونواب وهم بعد دون الأربعين- لا يعنيهم كثيرا إن انتخبهم الناس أو لم ينتخبوهم ، إنما تعنيهم وقفة أخيرة للمبادىء التى تأسست أميركا عليها ، أميركا الحرية الكاملة والرأسمالية التنافسية والشغل الشاق وتحقيق النجاح والثروة بلا سقف . بالمناسبة وحتى لا يتهمنا أحد بالعرقية ، أو يتهم الحقيقة العلمية بأنها عرقية ، أحد هؤلاء المذكورين شاب عمره ٢٢ سنة -أقل من نصف عمر ' السيد '- ويدعى بوبى چندال ، أصبح نائبا بالكونجرس ، وبعدها بأربع سنوات فقط صار وبأغلبية كاسحة حاكما لولاية لويزيانا ، كل هذا بينما هو من أصول هندية بنچابية ، إلا أن هكذا كانت چيبناته -أو تطفره الچيينى لو شئت- فكان إيمانه بأن التنافس المطلق هو القانون الأسمى لأمنا الطبيعة وأداتها الجبارة لتحقيق مقصدها العظيم وهو التطور . مرة أخرى اسأل ضميرك : هل نحن نتكلم الآن فى الأعراق أم فى الأفكار ؟ إنسان كهذا لا يمكن أن يوصف بالعبد حتى لو كان لأب قرد وأم صرصارة .

[شاب آخر اعتاد الوصول للكونجرس بأغلبية ساحقة منذ سنة ٢٠٠٠ أصبح المنغص الأكبر للبراق منذ أيامه الأولى فى المكتب ، وبنى على نحو مدهش إجماعا جمهوريا مطلقا تصدى به لخطط هذا الخائن المدعو رئيسا لتخريب الاقتصاد الأميركى وقتل هذا البلد العظيم خلال عامين ثم بيع الجيفة لأسياده فى موسكو وضفتى الخليج الفارسى فى العامين الباقيين (كما سبق وقلنا ، لكن الجديد هو الجدول الزمنى الذى اتضح مع إعلان البراق لخطة

تعجيز -تخفيز- الاقتصاد بعد نحو أسبوع من استيلائه الفعلى على السلطة) . ذلك ' السوط ' الكاريزمى الدءوب يكرر حرفيا القيادة المذهلة لنيوت جينجريتش التى تصدى مبكرا بها لكلينتون وحول الجمهوريين من أقلية ضئيلة فى الكونجرس لأغلبية كاسحة فى العام التالى مباشرة ، ولعله -أى ذلك الشاب- السبب ربما فى ظهور مصطلح أولاد نيوت جينجريتش . هذا الشاب القيرچينى الأبيض الوسيم والصديق الشخصى لجينجريتش والذى كان من بين من طرحت أسماءهم كمرشح نائبا على تذكرة السيناتور ماكين ، اسمه بوب كانتور !

... لذا لزم التنويه !] .

فى الواقع ، شتان بين أى أحد وبين اللص الذى اعتدنا تسميته فى تغطيتنا لسباق الانتخابات باللقب التالى : العبد-الأسود ، العربى-المسلم ، الماركسى-اللينينى ، الكاپونى-الهوفا ، فرقع لوز العجيب ، الطفل المعجزة ، الرفيق الصرصور ، المبارك البراق ، سيادة ' السيد ' الرئيس الزعيم الملهم الركن أبو حسين الثانى ، أبو أمه الخامس عشر ، (أخو أس أمه) بن لادن ، بن عمر بن الحطاب والحطابة ، أمير المؤمنين ، حفظه الله ورعاه وسدد باليمن خطاه وخطاياه (الرفيق الصرصور أتت من تشابه رأسه مع رأس لينين وتشابه كليهما مع رأس الصرصور ، الأمر الذى طرح سؤالا من أين بحق الجحيم تأتت -لأول مرة فى تاريخ الخيال الإنسانى- لصناع فيلم Wall-E فكرة أن يحب الناس صرصورا يوما ، إن لم يكن من سباق الانتخابات الأميركية ؟ ! المبارك اسمه الأول السواحيلى مترجما للعربية ، البراق ذات الاسم لكن مترجما للغة أهل الفضاء ، فالبراق بعير مجنح حلق بالچيبنات العربية المبروكة للسماء السابعة ذات ليلة قبل ١٤ قرنا ، وها هو يحلق بها هذه الليلة للسماء الرابعة عشر ، أو -لو شئت- هبط بكل البشرية للأرض الرابعة عشر بعد أن هبط بها الأول للأرض السابعة ، وها هو الآن فرقع لوز العجيب الطفل المعجزة يستطيع بسرعة البرق الصعود لأعلى منصب فى الكوكب بشوية نصب ولعب ٣ ورقات وحيل كلامية وخطابة رنانة وشعارات طنانة ودغدغة لكل الغرائز الطبقية والعرقية ، ولكل غرائز أخرى وجدها فى البشر أو لعل بعضها اخترعه هو ، لحس بها كلها عقول مئات الملايين عبر العالم وغسل لهم أدمغتهم بوعود جوفاء وشعارات فارغة . أبو حسين هو اسمه الثانى كما هو دون ترجمة ، ومع اعتبار أن الرئيس الزعيم الملهم الركن أبو حسين الأول هو صدام . أبو أمه الخامس عشر هو اسمه الثالث مترجما للعربية ، ومع اعتبار أن تصبح أبا لأمك هى إحدى تجليات الإعجاز العلمى للكرهان الذى لا يجد أية صعوبة فى أن يخلق من الماء نسبا وصهرا ودونهما أبا للأم ، وهذه ليست إهانة ولا اجتراء ولا مبالغة ، بل كلام جاد جدا وشريعة يتفاخر بها المشاخ ، إذ تستطيع بكل سهولة فى الإسلام أن تصبح أبا رسميا لأمك وبعقد زواج شرعى من أمها -وطبعا منها نفسها بالأحرى لو رأيتها أجمل ! فقط اسأل أحد المشاخ عن معنى تلك الآية من الكرهان الكريه وسيدلك على الطريق . أما الخامس عشر فهى نسبة للقرن الهجرى الحالى حيث اعتادت سلالة أبو أمه أن تجدد للأمة شبابها مرة كل مائة سنة . لادن هو جده لأبيه ، فكما تعلم أبو أمه وأس أمه أخوان غير شقيقين . كاپونى هو لقب العائلة ككل وقد جاء من جهة أمه لأنها ببساطة هى التى ربته بعد فرار أبيه لجهة غير معلومة . أما بن الحطاب والحطابة فهى جذوره الأقدم فى شبه جزيرة البعر وأنت تعرفها أكثر منى . وأخيرا أمير المؤمنين هو اللقب العسكرى الذى اختاره بن الحطاب والحطابة لنفسه Commander-in-Chief ، وهو الاسم الجديد الذى استحقه صاحبنا اليوم ولم نكن قد استخدمناه من قبل !) .

...

لو شئت الصراحة ، الجزء الخطر فى نبوءاتنا ليس سقوط أميركا ، إنما المغامرة بالتنبؤ بأنها ليست نهاية تاريخ الحضارة ، ناهيك طبعا عن تحديد من سيخلفها . أؤكد لك أن قلمى لم يرتجف وهو يكتب هذا . إن رهاننا دائما أبدا على أمنا الطبيعة ، أو بصياغة أدق على طبيعة المادة التى صنع منها كوننا ، والتى ثبت عبر ١٤ بليون سنة أنها تميل على نحو متواصل إلى النخبوية elitism والاستعقاد sophistication ، أى إجمالا : التطور evolution .

روايتنا أتت على ذكر وقفة الچنرال كاستر الأخيرة الشهيرة . فى هذا اليوم حالك السواد غير المسبوق فى كل التاريخ الإنسانى بما فيه أسود فترات عصور الظلام ، لا أدرى إن كنت قد أصبت أم أخطأت حين تركت الانطباع أن تلك الوقفة لم تذهب هباء وكانت فى المحصلة النهائية انتصارا . أيا ما كانت لا زلت أتمنى من كل قلبى لهذا الجيل الرائع من حملة صولجان الإمپراطورية الجدد -الفاشيون الجدد فى الاستخدام الصحيح للكلمة- أتمنى نهاية سعيدة لمسعاهم البطولى مذهل الجرأة هذا . هنا يبدو الوجه الآخر للمعادلة مختلفا : أين ذهبت أميركا ، وأين ذهبت چيبنات الحضارة ؟ أميركا هى أميركا ، ولن يمس منها شعرة ولو مليون صرصور أسود مسلم وغد وصحابة-عصابة ، ولا يوجد أدنى شك أن أميركا ستعود بأفضل مما كانت بمراحل ، وبوعى أكبر بمدى خطورة الطابور الخامس العبودى-اليسارى-المسلم الذى ينخر فيها من الداخل هذا ، وبيقين أنه لا يصلح معه إلا حل واحد التصفية الجسدية الجذرية والشاملة !

السيناريو الوحيد المحتمل إذن -نعم الوحيد المحتمل والكلام يجرى بهذه الثقة لأنه إن كانت أمنا الطبيعة معنا فمن علينا ؟- هو أن يبرز من ذلك الجيل الجديد زعيم كاريزمى الشخصية يقنع الشعب الأميركى لمرة واحدة وأخيرة أنه مقبل على انتحار بطئ بما يفعل من استسهال للسياسات الاشتراكية الاستحلالية الاسترقاقية لعصابة اليسار العربى المسلم الحاكمة ، وأن ينجح فى تغيير الدستور بحيث ينهى بلاهات آلية التدمير الذاتى تلك المدعوة بالديموقراطية ، يضع سقفها للضرائب وللإنفاق الحكومى ، ويفكك مرة واحدة للأبد خطر تلك القنبلة الموقوتة هائلة الفتك المسماة بالهجرة ، وكذا يظهر إرادة حديدية لبقية العالم أن أميركا بقوتها العسكرية -وإلى الأولوية منها منظومة الدفاع الفضائى- سوف تستخدم لنشر مبادىء الراسمالية التنافسية -وليس الديموقراطية كما فعل الرئيس بوش بطيبته الزائدة وحسن ظنه بالناس ، إذ لو كان قد استخدم مجرد قنبلة نووية واحدة فى الفالوجا أو وزيرستان أو غزة أو جنوب لبنان لوجد كل الدنيا تعيد النظر فى كراهيتها لأميركا وموقفها العدائى مما تمثله من قيم- وأن فقاعة الجلوبة (الفقاعة التى لا يتحدث عنها أحد ، حسب تعبير روايتنا) ، يجب أن تنتهى للأبد قبل أن تنفجر فى وجه الكوكب كله ، وأن يبدأ توحيد العالم على أساس أفضل مبادىء ونظم معروفة ، وليس على أساس المتوسط الحسابى لأمزجة الشعوب الموجود فيه .

لم يحدث -ومع كل الاحترام لزعامة رونالد ريجان مثلا- لم يحدث أن أنجبت أميركا زعيما بمثل تلك المواصفات ، إلا مرة واحدة : ريتشارد نيكسون ، أعظم من حكم أميركا ، هذا الذى كان من العظمة بحيث لم تستطع هى نفسه تحمله ! إن عالمنا فاقد البوصلة يتضرع الآن إلى زعيم من هذا العيار : رؤية ما لا يراه أحد ، عدم إقامة وزن للتوافه والشكليات وما يعتقد العموم أنه من ثوابت الأمور ، والأهم من كل شىء : أن لا يضعف أبدا ! زعيم بهذه المواصفات عملة نادرة إن لم تكن شبه مستحيلة ، وحتى إن وجدت سوف تجد وفرة من محدودى الموهبة الوضعاء الحاقدين يحاربونها ، وبدلا من تشجيعها والاصطفاف خلفها يحطمونها . مع هذا يظل العثور على بديل للديموقراطية الفاسدة التى تسترضى وترضى الجميع معضلة كبرى ، وإن لا مفر منها !

...

أخيرا ، ماذا نفعل نحن فى مصر ، فى ظل عالم يتجه كقطيع أعمى إلى الانتحار يسارا ، وبالأخص قطيع أميركى انجرف بغباء منقطع النظير لمعاقبة الجمهوريين على أزمة مالية ليسوا السبب فيها ولو بشعرة واحدة ، إنما كانت بسبب محدد ومباشر هو سياسات كلينتون الإسكانية وغير الإسكانية شديدة التطرف يسارا ، والتى فاقم منها الكونجرس الديموقراطى الذى يحكم -وليس الرئيس بوش بالمناسبة- منذ أربعة أعوام ؟ القطيع بدلا من يختار اليمين الحقيقى كى يبنى له اقتصادا حقيقيا ، اختار التصويت العقابى ، فإذا به يشنق نفسه . كل هذه معلومات بسيطة وسيصبح من هو الفاعل وما هو الحل بديهيات لدى الكافة بعد قليل ، لكن للأسف بعد أن يكون ذلك المجرم النهاش قاطع الطريق قد احتل البيت الأبيض بالفعل . علام يمكن أن تراهن بالضبط ' لجنة المستقبليات ' (كما أسمتها الرواية) ؟ هل ترى أن السير مع القطيع أكثر أمنا ، أم لعلها ترى ذهبا فى التلال البعيدة الوعرة ؟ الإجابة هذه المرة ' ليست ' صعبة فيما أعتقد !

...

ربما يفضل البعض صياغة الحل السلمى على النحو التالى : دعوه يأخذ وقته ، أحلامه بستالين أميركى وهتلر أسود ونابوليون مسلم ، تكاد تكون أوهاما ، لأنه لن يتحرك فى فراغ ؛ لن يترك له أحد الميزانية يوجهها كما شاء ، ولن يقبل البيض العبودية بسهولة ، ولن ينكمش الناس أمام أسلحة ذوى القمصان السود فى الشوارع . هو لن يستطيع أن يجعل چيرمايا رايت سكرتيرا للدولة (وزيرا للخارجية كما يسميها الأوروپيون) ، أو أيمن الظواهرى سكرتيرا للدفاع ، أو بيلل آيرز سكرتيرا للأمن الداخلى ، أو إسماعيل هنية سكرتيرا للاقتصاد ، أو عمته زيتونة سكرتيرة للهجرة ، أو رشيد خالدى سكرتيرا للتعليم . الأمور ليست سهلة كما يتخيلها هو حاليا ، ومن المستبعد كثيرا أن سيحكم من أقصى اليسار كما يحلم . هو ليس أبرع من هيلارى وزوجها ممن حكما من الوسط أو ما يسمى المركز center ، على الضد من كل شعاراتهما ، وأن يحكم هو بالذات من المركز تعنى أنه لن يختلف تقريبا عن ولاية بوش الثانية ، أى أن محصلة التغيير الذى أصدع به أدمغتنا قد تكون على الأرجح الصفر المطلق ، فكل ما أراده هذا السافل من غسيل المخ الذى أجراه لنا لشهور أن أميركا مكان سيىء للعيش وفى حاجة للتغيير ، هو الاستيلاء على السلطة (ومحاولة الاستيلاء على ثروة أميركا من بنائيها وأصحابها الحقيقيين) ، لكن عمليا مجرد تحقيق بعض الارتزاقات الصغيرة هنا وهناك قدر المستطاع من وسط هذا الركام الذى سببه (كلها بدلا من الذهاب ببساطة وفى هدوء لمكان أفضل للعيش ، كينيا مثلا !) .

ثم أن كل هذا الذى تروعوننا به قد حدث بالفعل فى الماضى ؛ نزول ميليشيات الحزب الديموقراطى المسلحة للشوارع لإرهاب وقتل الناس حدث ، وبدأ فى شيكاجو بالذات (لاحظ شيكاجو ، بل فى الواقع بدأت فى ذات الحديقة التى يلقى فيها خطاب النصر الآن ، فهذه لم يخترها من فراغ ، بل الرمزية مرعبة فيها !) ، أميركا كلها أصبحت صومالا كبيرا ، تم إنزال الجيش فى أكثر من ولاية ، كل ما لم يكن يخطر بالبال حدث جميعه فى ١٩٦٨ ، ذلك بعد ثمانية أعوام من اغتصاب چون ' المجرم ' كينيدى للسلطة ، ثم آنذاك جاء نيكسون واستتبت الأمور وعادت أميركا لصوابها . هذا ' السيد ' رقم ٢ ، سيكون أقرب لسجين فى البيت الأبيض منه لرئيس لأى شىء . نعم ، سوف يتسبب بدوره فى بعض الخراب ، وبالتأكيد مجرد الوقت الذى سيضيع بسببه هو خسارة فادحة للحضارة الإنسانية ، لكن فلتدعوا أسطورة أن السود والأعراق الأخرى الشبيهة -إخوتنا المزعومون فى الإنسانية- يصلحون لأى شىء ، دعوها تنطوى مرة واحدة ونرتاح منها للأبد . أيضا لا تنسوا أن أولئك الإخوة فى الإنسانية عادة ما يعتبرون تلك النداءات الحالمة علامة ضعف ، ويبدأون هم الضرب بقوة ، ولا نعتقد أن وقائع خليج الخنازير أو دلتا نهر الميكونج -ناهيك عن السحل فى شوارع مقديشيو الذى جعل كلينتون يخرى فى سرواله- بعيدة عن ذاكرة أو مداعبة خيالات الساسة الحاليين فى روسيا والصين وإيران . أيضا -وفى كل الأحوال- يظل السيناريو الأرجح من كل هذا ، هو أن يفتح أحد الصحفيين مجرد تحقيق واحد فى واحدة من الوصمات التى لا تعد ولا تحصى التى يعج بها ماضيه الإجرامى ، والتى للأسف كبحها كلها السيناتور ماكين بمثالياته الغريبة غير المدركة للطبيعة الديماجوجية الغوغائية للخصم ، فتكون -أى تلك الواحدة- كافية لركله -أى ' السيد '- خارج البيت الأبيض ، وإغلاق كل هذا الملف ، ملف الطموحات السياسية للسود ، كما سبق وأغلق مع الكاثوليك !

ربما نفضل من جانبنا تحسين هذه الصياغات قليلا : لماذا كل هذا الانزعاج ؟ الثورة البيولوچية تدق الأبواب ، ولن تذهب فقط بالسود والعرب والمسلمين للمحميات الطبيعية ، بل فى نهاية المطاف ستقضى على كل العشيرة البيولوچية الإنسانية ، وتأتى ببديل أفضل . هذا صحيح ، دوما توجد لأمنا الطبيعة مسالكها العجيبة ، لكننا -رغم هذا- نقول : لا يجب للحظة أن ننسى للحظة أن بعض البشر منذ أرسطو وحتى اليوم ، كانت مهمتهم النضال من أجل إفعال وتسريع تحقق مقاصد أمنا العظيمة هذه ، أناس كرسوا أنفسهم أدوات ناطقة بلسانها ، وأن عليهم ألا يتوقفوا للحظة عن هذا النضال (أو للدقة ليسوا أناسا ، فلتدعوا للباقين تلك الأخوة الإنسانية يستمتعون بها ما شاءوا ، فنحن بعد-إنسان وآلات !) .

كلمة أخيرة للحزب الجمهورى : بما أنكم خاسرون خاسرون فى كل الحالات ، وبما أن اتجاه الرئيس بوش للوسط أو ترشيح السيناتور ماكين الوسطى للرئاسة ، لم يعد عليكم إلا بالهزيمة الساحقة ، فلتجعلوا هذه لحظة تاريخية : ترفعون فيها المبادىء كما يجب أن تكون ، وأقصد بما يجب أن تكون ليس مجرد الليبرالية الاقتصادية ، بل الليبرالية التى لا تتجزأ . حتى المتدينون لن تفقدوا الكثير منهم ، لأنهم قد ذهبوا بالفعل للحزب الديموقراطى ، وليس أقل دلالة من الاستفتاءات الثلاث التى جرت اليوم وألغت كلها الزواج المثلى . ثبت أن السود أكثر تدينا منكم بمراحل ، هل تعرفون لماذا ؟ لأنهم متخلفون وأنتم لستم كذلك . فى الواقع لو تخليتم عن الدين ، فستقطتبون أعداد ليست أقل ، بل ربما أكبر ، فكثيرون جدا يؤمنون بالاقتصاد الحر وبالحكومة الصغيرة ، لكن ينفرهم منكم مواقفكم الاجتماعية . صحيح أنكم لن تفرضوا الإجهاض على أحد بل ستجعلونه حرية شخصية ، لكن يظل الأمثل من الاثنين أن تلغوا كل الرعاية الصحية من ميزانية الحكومة . مثلا ، كيف تكونون ضد البحوث الچينية وهى المستقبل ؟ أنتم تحاربون محاولة الحكومة إنقاذ الفاشلين والصناعات الديناصورية ، لكن إذا كان للحكومة دور ما واحد فى الاقتصاد فهو دعم الصناعات التى لم توجد بعد . أيضا الأصح من كل شىء أن تلغوا دور الحكومة بالكامل فى تمويل البحث العلمى ، مثله مثل أى شىء آخر . وهكذا ، هلم جرا إلى سائر القضايا . أنتم يا حملة مشعل الحضارة لأنكم من يرفع شعار حرية الاقتصاد ، أم كل الحريات . لكن ألا يعيبكم ولو قليلا أن -ولو على سبيل التكتيك الانتخابى- أن تربطوا أنفسكم بشىء شديد التخلف كالميتافيزياء والخرافة ؟ لقد حان الوقت لتصحيح الأوضاع المقلوبة واستعادة كلمة الليبرالية من سارقيها اليساريين : تقسيم البشر تبعا لموقفهم من الاقتصاد الحر وليس من مدارس الأحد ، هذا إن لم يكن تبنى كل الحريات الشخصية ودفعها لأقصى مداها ، ليس كنقيض للحرية الاقتصادية ، بل كنتيجة طبيعية لها !

... لو حدث وصمد هؤلاء الشرفاء الأنقياء المحترمين عبر العالم ، من الوارد أن تحمل كلمة أحد هؤلاء المحترمين منهم -السيناتور چون ماكين- عن القتال حتى آخر لحظة ، معنى آخر غير مجرد سباق سيرك انتخابى !

[للأسف ، فيما يبدو لم يختر الرئيس بوش خيار الوقفة الأخيرة ، وسارع من ليما -پيرو فى أخر نشاط دولى له كرئيس لأميركا ، اسمه قمة التعاون الاقتصادى الآسيوى-الپاسيفى ، بعد أسبوعين فقط من هذا ، لإعلان نهاية أميركا رسميا . هذا هو نص عبارته نقلا حرفيا عن الموقع الرسمى للبيت الأبيض على الإنترنيت :

‘We’re witnessing a dramatic shift of history, as the center of the world economic stage moves from West to East —from the Atlantic to the Pacific. Some view the rise of Asia Pacific with suspicion and fear. America doesn’t. The United States welcomes the success of emerging economies throughout the region.’

ليست لدينا نفس ثقته فى كتابة شهادة الموت بهذه السرعة أو التسرع . فرصة الوقفة الأخيرة ، بل وفرصة نجاحها لم تفت مهما قلنا فى جسامة ما جرى ، ففكرة ‘ الزحزحة ’ هذه ، لا تزال حتى اللحظة لا تعدو رطانة وأوهام من الصحافة اليسارية ومن زعماء الكريملين لا أكثر ، إلا أن الرئيس بوش -ويا للعار- اختار ترديد ما يقوله قطاع الطرق هؤلاء ، وبنفس حروف كلامهم .

التعليق ؟ ... لا تعليق ! فقط سؤال : اخبرنى بربك أو ربتك عن شىء واحد يمكن أن يكون أسوأ من اقتصاد عالمى يقوده المال الصينى-العربى القذر قصير النظر ؟ ! ... كلا ، لا أوافقك ! ليست قيمهم الاجتماعية وأساليب عيشهم والرؤى المتفردة للحياة لدى الحزب الشيوعى الصينى وهيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهى قطعا : ليست أسوأ بحال من قيمهم الاقتصادية !

ما يحزن حقا فى كلامك ، سيدى الرئيس ، أن هؤلاء -فى موسكو أو بكين أو طهران- لا يقولون هذا لأنه توجد أزمة مالية فى الولايات المتحدة ، فهم أدرى الناس بأن اقتصاداتهم لا شىء إذا ما قورنت بأميركا أو اليابان أو حتى أوروبا ، بل هى بالأساس اقتصادات طفيلية تتعيش على فتاتكم ، لكن يقولونها لسبب آخر : أنهم أصبحوا فى عالم بلا قائد بعد أن احتل البراق البيت الأبيض ، وباتوا واثقين أنهم سوف يمرحون ويعيثون فى الأرض ما شاءوا على امتداد عدة سنوات قادمة دونما أحد يوقفهم . الدليل على ذلك هو تلك الجهود الخارقة منهم على مدى الشهور الستة الأخيرة لضمان وصول ذلك العميل الحقير للحكم ، أقله (طبعا بخلاف التمويل الهائل عبر كروت الائتمان المدفوعة سلفا والتى لا يمكن تعقب مصدرها ، وهو -مخالفا لكل القوانين الأميركية- لم يسأل أبدا عن هذا المصدر) ، أقله أن ارتدت إيران وسوريا وحزب الله والقاعدة وحماس فجأة ثياب الحملان طيلة هذا الوقت ، ثياب ما يسمونه بـ ‘ التهدئة ’ ، بهدف أن ينسى الأميركيون أن أمنهم القومى فى خطر ، وأن يبدو لهم السيناتور ماكين كمريض بالپارانويا يهذى بمخاوف تخيلية ، والنتيجة أن يأتى أبو أمه ، الذى حتى لو لم يكن عميلا ، فليس أفضل لديهم من شخص يحب الكلام ، لذا سيشبعون شهوته هذه لكل السنوات التى يحتاجونها لصنع ترسانة نووية كاملة ! [فى ديسيمبر -ولأول مرة بعد طول تعال- انضمت روسيا المفلسة للحلف الهمجى المسمى منظمة الأوپك ، وقاموا معا بإجراء قطعات هائلة فى الإنتاج ، لكن بدلا من أن تشهق الأسعار ، هوت فى ذات اليوم على نحو فاجع ، بل ومدهش لأى أحد . متى يفهم هؤلاء أنهم لو وصلوا لمستوى الإنتاج للصفر لن ترتفع الأسعار ، لأن أميركا باتت تقريبا مكتفية ذاتيا من النفط فى ظل الركود ، وحين تحل نهايته ستكون الدنيا قد أصبحت غير الدنيا بحيث لن يحتاجوا له أصلا ؟ (هم أصلا لم يكونوا يستوردون سوى نصف استهلاكهم فى ذروة لحظات اعتمادهم على النفط غير الأميركى) . يا سادة ، ها قد حان وقت أن تشربوا پترولكم ، كما وعدكم دكتور كيسينچر يوما !] .

الفيصل ، سيدى الرئيس ، ليس الأزمة الاقتصادية (التى للأسف أرعبتك أكثر مما يجب) . بالعكس ، هذه الأزمة كان يمكن أن تصبح رافعة عملاقة تضخ أميركا لمكانة أعظم مما كانت عليه كقدرة جلوبية فائقة وحيدة ، ذلك لو استوعبنا ما تريده أمنا الطبيعة منها ومن مثيلاتها ، ألا وهو أن نترك ديناصورات السيارات والسيتى جرووپ وكل الضعفاء والفاشلين (والمختطفين نقابيا !) كبروا أم صغروا يذهبون لمزبلة التاريخ ، وساعتها كان سيعود الاقتصاد الأميركى أقوى بكثير مما كان . دورات الركود شىء طبيعى بل وصحى جدا بالنسبة للحضارة الرأسمالية كى تخرج الفضلات إلى خارج جسدها ، إنما الفيصل -سيدى- هو كيفية تعاملها مع الأزمة ، وللأسف ملالى قم ذوو العمائم المضحكة يفهمون هذه الحقيقة أكثر من غالبية شعبك ، واستماتوا كى يصل اليسار إلى الحكم لعل على يديه يكون الموت الغائى لأميركا ، كما طالما هتفت مظاهراتهم .

الفيصل -سيدى- هو هل الدماغ هو الذى يقود الجسد أم العكس . الفيصل هل أنتم مسطح طحلبى يتمتع بالعدل والمساواة كما يطنطن الجهال والمغرضين أم متعضية مستعقدة راقية يعرف كل عضو فيها وظيفته . الفيصل -سيدى- هو السياسة ، والرفيق الوغد بن لادن (حتى لو لم يرفع الضرائب ولم يضع ميليشياته فى الشوارع ولا أى شىء من كل ما يخطط له من فوضى شاملة) ، فيكفيه أنه سيقودنا لدوامة من برامج التحفيز الكينزية الغبية والخطة تلو الخطة لكفالة أو تأميم الشركات الفاشلة بنقود وهمية مطبوعة ، هى ما فعله بالضبط رووسيڤيلت فجعل الكساد يمتد إلى ما لا نهاية ، والأقرب -وربما الأسوأ والأكثر درامية- أنه ما فعله بالضبط ضعاف المحافظين بعد حرب السويس ومن بعدهم فاقمه للا حدود حزب الكدح منذ الستينيات فأغرقوا جميعهم بريطانيا العظمى فى دوامة الفقر للجميع لربع قرن ، ذلك إلى أن ظهرت من بين صفوف هذا الشعب العظيم امرأة أعظم جرؤت على أن تقول شيئا مخالفا . الأزمات الاقتصادية لا تؤدى لانهيار الحضارات -سيدى ، إنما الانهيار يأتى من الداخل ، من تسلل الخونة حتى الإطباق على السلطة ، من تسلل العبيد حتى الإطباق على السلطة ، باختصار ، من اسم الشخص الذى يحكم : هل اسمه خائن أم وطنى ، هل اسمه هارولد ويلسون أم اسمه مارجاريت ثاتشر ؟ ! هل اسمه عبد أم اسمه سيد ، هل اسمه البراق أبو أمه أم اسمه ... ؟ !] .

...

[بعد أيام قليلة أخرى ، لم يكذب الإسلاميون خبرا ! ...

للأسف ، فهموا من كلامك ، سيدى الرئيس ، أن عالم المستقبل معدوم القيادة هذا ، ستكون به ثلاثة مراكز مالية هى شانجهاى ومومباى ودبى . ضربوا الثانية ضربة شبه قاصمة ، بالذات فندقها الأعظم القائم شاهدا على عظمة الإمپراطورية البريطانية وكيف نشرت -أو حاولت نشر- الحضارة لكل

أحد يقبل التحضر (هكذا تمثلوه وليس عن خطأ كبير ، رغم أنه فى الواقع كان تاريخيا محاولة هندية من أسرة تاتا الشهيرة لإثبات أنها تستطيع مجاراة الإنجليز عمارتهم التى كان محظورا عليهم هم أنفسهم دخولها ، بل ومن خلال مهندسين معماريين هنود ، والمفارقة غير خافية : أرادوا أن يساووا أنفسهم بالإنجليز ، فدارت الأيام وجاء من يريد أن يساوى نفسه بهم !) .

الواضح إذن أن الإسلاميين سيضربون شنجهاى أيضا قريبا ، كلتيهما كى تخلو الدنيا لدبى ، الإمارة الشهيرة -رغم كل إنحلالها الأخلاقى- بعلاقات شرطتها الوطيدة مع الإسلاميين ، بحيث لم يحدث قط أن سببوا لها مشاكل أو سببت هى لهم مشاكل ؛ فقط منافع متبادلة ، حيث لا صوت يعلو على صوت القبيلة !] .

...

[متابعة جديدة متواصلة لما توقعناه من ووترجيتات براقية ...

بعد شهر واحد فقط بدأت الفضائح الكبرى ، وإن كان السؤال الوحيد هو لماذا تأخرت كل هذا الوقت ؟ !

أولها يخص عصابة الحزب الديموقراطى فى شيكاجو . هل تذكر ذلك المشهد الذى أشرنا إليه ، وفيه يتزايد فيه السيناتورات على شراء لقب القيصر فى نهاية فيلم ' سقوط الإمبراطورية الرومانية ' ؟ هذا تكرر حرفيا : زبانية العصابة الديموقراطية فى إللينوى راحوا يتزايدون على الرشوة التى سيدفعونها لحاكم الولاية لتسميتهم للكرسى الذى خلا فى السينيت بترقية أبى أمه للبيت الأبيض . هؤلاء -بمن فيهم الحاكم الذى ذهب إلى السجن- هم تحديدا أركان حرب رحلة الصعود السياسى المدهشة للرفيق الوغد بن لادن ، وأقرب أقربائه وأخلص خلصائه ، بمن فيهم بالذات رام إيمانويل من اختاره لرئاسة أركان حرب عصابة البيت الأبيض ، ترقية طبيعية له من رئاسة أركان حرب السياسية الإللينوية سابقا .

تلك تنطوى على فضيحة أخرى ربما لم يتنبه لها الكثيرون بعد ، وهى أموال الانتخابات الفاسدة ، ومحاولة البراق دفن ماضيه الإجرامى فيها وتصنع مسوح الطهر والعفاف ، بالسعى لتعديل قوانين الولاية -ربما أيضا على طريقة حماس فى الديموقراطية لمرة واحدة- بحيث تحد من مصادر ذلك التمويل المشبوه الذى سن قوانينه بيديه تفصيلا لحساب الحزب الديموقراطى ، والآن يتضح لبقية أفراد العصابة أن كان يقصد حسابه الشخصى وحده ! يوجد مثل مصرى شهير عن اللصوص الذين يفضح أمرهم حين يبدأون فى اقتسام المسروقات ، يبدو أنه سيصبح سيناريوها رئيسا فى الووترجيتات المحدقة !

المؤكد أن كل الملفات سوف تفتح رغم أنفه الأفطس ، وسيذهب أبو أمه للمصير الوحيد الذى كان يستحقه منذ طفولته وهو السجن أو القتل ، وننصحه أن تكون له من الآن عبرة فى ابن عرقه أو . چيه . سيمپسون ، الذى أفلت فى العقد الماضى من جريمة قتل بفضل هيئة محلفين سوداء ، لكنه هذا الأسبوع ذهب لسجن يقارب مدى الحياة فى جريمة سرقة بالإكراه (ألا يذكرك هذا بلجنة محلفين أخرى من السود ؟ طاقم أساتذة هارڤارد الذين تلقوا هذا اللص الصغير -أو بالإنجليزية small time crook- القادم من قاع شيكاجو ، ثم أعطوه مقعدا كان يستحقه شاب أو فتاة -أبيض أو بيضاء- أكثر اجتهادا وذكاء وصدقا (طبقا لما يسمى فى أميركا بقوانين الـ affirmative action وترجمتها بالمصرية الكوسة) ، ثم فى النهاية أعطوه أعلى الدرجات حتى يزايد بها -بديماجوجيته التى لا تبارى- على أسياده ، كى يعود بعدها لحلقته السياسية الإجرامية فى شيكاجو كى يعينوه واجهة لهم ' پروفيسورا ' فى القانون ومرجعية له ، وهو لا يفقه شيئا فى أى شىء إلا فقط كيفية مسح البلاط بما تقوله القوانين ، ذلك أنهم أرادوه عينا لهم على كيفية قهر عدوهم الأول فى الحياة : القانون ؟) .

... (النيو يورك تايمز اليسارية نفسها تتحدث -وهذه مصطلحاتها- عن مستنقع الفساد السياسى الذى جاء منه الوغد ، وترسم بالفعل -صدق أو لا تصدق- ملامح لووترجيت كبرى قادمة ، أما أموال الانتخابات وقوانينها التى رعاها البراق فتحدثت عنها ، وعن التربية الواطية والسلوك الشخصى الوضيع للحاكم بلاجوچوفيتش فقد أفردت لها قصة كاملة ، وعن السلوكيات الأسوأ لزوجته أفردت قصة أخرى ، وستجد النص الرسمى لعريضة الإدعاء وكن حذرا من فيضان الألفاظ القذرة جدا للرجل وزوجته ، أما أسوأ الأشياء إطلاقا فهو دعوتها -أى النيو يورك تايمز- لاستقالة الحاكم ، خمن لماذا ؟ علشان نلم الموضوع وما يشوشرش على الرفيق الوغد . أنا شخصيا أعجز عن تمثل الطريقة التى تفكر بها الصحافة اليسارية : جحيم من غسيل المخ كى ننتخب فلان ، ثم يقولون ببساطة لقد أخطأنا وهيا بنا نختار شخصا آخر . لا يمكن أن تكون المسألة مجرد مانشيتات مثيرة وأرباح مالية وقتية مع تضحية كاملة بالمصداقية . هى عقلية خاصة جدا ، وقد حاولت تحليلها فى كتاب عنوانه ' اعترافات سمير فريد ' ، لكنى أعترف أن تلك العقلية لا تزال لغزا بالنسبة لى ، وبالفعل أريد أحدا يشرح لى السر ؟ !) .

ما يعزينا قليلا أن تزامن كل هذا مع فيلم جديد عن الرئيس نيكسون عنوانه ' فروست / نيكسون ' (أتى بشبه إجماع فورى على أن أوسكار أفضل ممثل سوف تذهب لدور نيكسون هذا) ، الرائع تماما فيه أنه يذكرنا من جديد بالتعريف الحقيقى لكلمة زعامة ، ولمعدن الزعماء الحقيقى ، حتى لو تكالبت عليهم طيور الظلام ، وحاولت إزاحتهم من طريقها باعتبارهم العقبة الكئود فى وجه الفساد والإفساد الذى ترتع فيه الصحافة والسياسة اليساريتين .

... تابعنا هنا لكل ما يستجد فى شأن فضائح فرقع لوز العجيب الطفل المعجزة الرفيق المجرم والرئيس الخائن / البراق حسين أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى !] .

...

[واو ! فى ١٥ ديسيمبر كتب ريكاردو هاوسمان پروفيسور هارڤارد فى الفاينانشيال تايمز تحليلا مطولا يطابق تماما ما قلناه عن أن الأزمة قد تفضى لهيمنة جلوبية أميركية أكبر بمراحل من كل ما كانت عليه إطلاقا من قبل : هل تصدق أن وول ستريت هى الأفضل إطلاقا أداء بين كل أسواق العالم لعام ٢٠٠٨ ، انخفضت فقط ٤٠ ٪ ؟ هل تصدق أن الروس يشحذون طعامهم اليوم ويعتبرون أن مجرد فتح أسواقهم كل صباح معجزة من يسوع المسيح وأن حكومتهم مفلسة تماما وعلنا الآن ، كل هذا بينما قبل أسابيع قليلة كانوا يخططون لاحتلال چورچيا ؟ هل تصدق أن هذه هى عينها ذات أوضاع كل الدول البترولية ، بما فيها دبى العامرة وشاڤيز الذى حلم يوما بزعامة قارة كاملة ؟ هل تصدق أن الورقة المالية الوحيدة الرائجة على مستوى العالم الآن هى سندات الخزينة الأميركية ؟ هل تعرف ما معنى هذا ؟ هل تعرف أن معناه أن الأموال باتت تضخ كى تدفع فقط الاقتصاد الأميركى للنمو من جديد (خمسة تريليونات حتى اللحظة كلها بفائدة صفرية تقريبا وبعملة تتعزز قيمتها من اللحظة للتالية لها) ، ذلك بينما كل اقتصادات الدنيا متروكة عارية فى برد الشتاء لا تجد من يقرضها ولو سنتا واحدا ؟

... هذه المرة الكلام ليس كلامنا ، هذا الذى كان منه أن سألنا ألا يذهلك أن تقول أميركا إن اقتصادها مقبل على كساد ، فيجمع بقية العالم ما لديه من أموال ويقدمها لها هدية ، ثم يظل اليسار الأميركى يكرر بعد ذلك سؤاله السيريالى المزمن : لماذا يكرهوننا ؟ ! ، إنما -مرة أخرى- الكلام الآن ، صدق أو لا تصدق : كلام أحد أرفع الاقتصاديين فى العالم !

... فقط ما لم تقله هو أن هذا كان سيتضاعف مرات ومرات لو كان ساكن البيت الأبيض شخصا آخر غير هذا التافه الذى -ربما هذه المرة على العكس من توقعاتنا- اتضح أنه تماما : عديم اللون والطعم والرائحة !

... بمناسبة برد الشتاء نسى التحليل المذكور شيئا آخر : إنه أحد أبرد فصول الشتاء إطلاقا بما يفضح كذب البيئيين الهمج ، وبما يقضى ربما للأبد على على ضلالتهم السافرة المسماة الدفيئة الجلوبية] .

...

[للأسف مرة أخرى لم ينفذ الرئيس بوش ما أسميناه بخيار الوقفة الأخيرة ، وقام فى ١٩ ديسيمبر بتقديم قرض لچنرال موتورز وكرايسلر ، وكانوا قد قرروا إغلاق مصانعهم حتى ١٩ يناير . لاحظ التاريخ ! فكما سبق وقلنا إنهم لو عاشوا حتى يأتى البراق والكونجرس الجديد فسوف يعيشون طويلا بعد ذلك ، ذلك لأن آلة السياسة الديموقراطية القذرة ستضمن لهم هذا وإلا ضاعت من الحزب للأبد ولايات الشمال التى يحكمها بالحديد والنار بلطجية نقابة السيارات الفاسدة] .

...

هامش توثيقى :

تحقق نبوءات أو صدى أفكار



بدأت متابعة مدى تحقق نبوءات هذه الرواية كنوع من اللعبة على الإنترنيت * ، تحمس لها بعض القراء الأعزاء بملاحظة أن الكتابات المستقبلية هى شىء نادر فى الكتابة العربية . حدث هذا بعد أيام قليلة من تعميم الرواية ، وفى البداية حدث نوع من الربط بين ارتفاع أسعار بعض الأسهم وبين حديث الرواية الإيجابى عنها (بالأخص جدا شركة مصر الجديدة للإسكان والتعمير التى تصادف أن شهق سعر سهمها لأكثر من عشرة أضعاف فى الأسابيع التالية لظهور الرواية . وطبعا ' سهم كيوبيد ' نفسه الذى تضاربت تكهنات القراء حوله !) . أما أول النبوءات المباشرة فقد كانت انتخاب نيكولا ساركوزى رئيسا لفرنسا ، وعلى أية حال لم يكن من الصعب توقع هذا الانفجار الوشيك ضد اليسار والوسط فى فرنسا قبله بشهرين (لدى صدور الرواية) ، أو قبله حتى بعامين !

تسارعت هذه المقارنات بوفرة نسبية ، ونضرب مثلا بإحدى أشهر النبوءات ' الحريفة ' إن جاز التعبير التى استقطبت كثيرا من الاهتمام ، لكنها لم تتحقق : استقالة الوزير رشيد مُحَمَّد رشيد فى مطلع سنة ٢٠٠٨ ، والواردة فى الفصل الثالث . كما هو واضح قاربت ٢٠٠٨ على الانتهاء ولا يزال فى منصبه ، إلا أن ما حدث أن صار اكثر اندماجا واتساقا مع سياسة الوزارة ككل ، وتخلى عن نزواته الاشتراكية الفجائية الغريبة تلك . بدءا من شهر أبريل ٢٠٠٧ تكاثرت الكتابات التحليلية تعليقا على الرواية ، جاء أغلبها أكثر إيجابية من توقعاتنا نحن أنفسنا ، وبعضها اهتم بطلب تعميمها مطبوعة ككتاب . فيما يلى بعض الآراء التى كتبت فى تلك الفترة ، ونكرر أنها كانت فقط الأكثر إلفاتا ، ولا يعنى تلخيصها هنا الإقلال من إسهامات الجميع ، التى ربما كانت أكثر كرما وتحمسا فى بعض الأحيان . كذلك نعيد التذكير بأن الكل لمدعو لإعادة إدخال ما كتب مقرونا باسمه بطبيعة الحال ، و / أو إضافة المزيد كيفما تراءى له : المشاركة الأكثر تفاخما فى وصف الرواية قالت مشكورة : ' منذ الجبرتى

---

* المدخل الرئيس لهذا الهامش التوثيقى كتب كهامش أسفل ملحق ' **٤ نوفمبر ٢٠٠٨ : اليوم الأكثر سوادا -مجازيا وحرفيا- فى التاريخ الإنسانى** ' ، ثم سرعان ما أرتأينا جعله مدخلا مستقلا ، تتواصل تحديثاته طوال الوقت . لذا تابع هنا المزيد من الإضافات أولا بأول له .

والطهطاوى وقاسم أمين وتعرض العقل المصرى لانفجار قنابل كثيرة . لكن هناك قنبلة نووية واحدة هى : سهم كيوبيد ! ' . أو ' قد تحس بالملل وأنت تمر ببطء عبر النصف الأول للرواية ، لكن ما أن يبدأ النصف الثانى ، فصل الصيف ، حتى تتوالى المفرقعات ، التى لا تطيق نفسك معها . وستصبح متعة عقلية ما بعدها متعة . ساعتها ستود قراءة كل الرواية من جديد ، والاستمتاع بذلك النصف الأول نفسه أيما استمتاع ' . البعض اقترح تقسيمها لكتب ، وإعادة كتابتها لا كرواية ، إنما كموضوعات فكرية ، ورددنا عليهم بأن موقع الإنترنيت نفسه يمثل هذا المطلوب ، وأن الرواية كتبت ، ليس فقط لتخليص تلك الأفكار فى كتاب واحد (نحو ٢٠٠ ألف كلمة فى مقابل ٢ مليون كلمة) ، إنما لخلق وتعميق الترابطات فيما بينها ، أى فيما بين صفحاته ذات الطبيعة الثيمية كل منها . ومن هنا نقول إنها -أى الرواية- أصبحت الآن هى المادة رقم ١ التى نزكيها لقراء الموقع ، سواء من اعتادوا على أفكاره وعلى زيارته المتكررة طيلة السنوات الماضية ، أو بالأحرى منهم ، الجدد . كتبت إحدى القارئات ، اسمها City Stars Girl فيما نذكر ، تأويلا مسهبا للفقرة الأخيرة من الرواية ، قال إنه يبرهن بها على طريقة الكتابة الثرية التى نفذت بها هذه الرواية . هذه كانت إحدى أعمق التقييمات ، ظهرت على ' منتدى ' أنشأناه للرواية (للأسف ، صادف بعض الصعوبات التقانية بسبب التحديثات المتوالية التى أجرتها الشركة المستضيفة للموقع على خوادمها ، ثم بمرور الوقت خبت أهمية وجود منتدى مركزى أو ' رسمى ' للرواية ، بعدما اهتم الكثيرون بالكتابة عنها فى مواقعهم وما يسمى مدوناتهم) . إعادة تعميم المدخل المذكور قد يفسد على القارئ تأويله الشخصى لتلك الفقرة الختامية للرواية ، لذا وضعناها فى هامش خاص قد تتجاوز عن قراءته لو شئت . هذا الهامش يحتوى أيضا بعض الآراء التقيمية للقراء * .

- كتبت City Stars Girl (وهى تختلف عن ' فتاة السيتى ستارز ' التى كانت مشغولة كثيرا بموضوع البورصة وأسعار الأسهم) : ' **كان الجو صقيعيا عاصفا رغم ربيعيته اسما [ترى هل ستنضم مصر للمناطق الباردة وتتغير بنيتها الچينية لبشر نشطين ؟] . كان المطر [الخير] لا يزال ينهمر ، أحيانا كحبيبات ماء غليظة ، وأحيانا ينقلب دوى قرع الطبول الغليظ هذا إلى أزيز حاد يقع إلى أقصى الطرف الآخر لطيف الأصوات ، حين تتحول تلك لحبيبات ثلج متلاحقة تستقبلها صفحة الأرض وأسطح المنازل وأسقف السيارات . دوى وأزيز يصم كل منهما بطريقته آذان الليل ويفتح عيون الكائنات الخاملة أن ربما ها هى الآن عناصر الكون تموج وتتلاطم أخلاطها كأنما يعاد الخلق من جديد [ما حدث فى مصر مؤخرا هو إعادة خلق وليس أقل . أيضا عبارة نجيب محفوظ هذه تقمصت الكاتب ، بحيث لم يكلف نفسه حتى عناء وضعها بين أقواس . ربما يريد أن يقول إنه وريث نجيب محفوظ ، أو على الأقل يلفت نظرنا لتشابه اسميهما . أو ربما هو لا يقول أى شىء ؛ فقط روح إلهه نجيب محفوظ التى غادرت جسده يوم بدأ كتابة هذه الرواية ، هى التى أملتها بكل حروفها عليه !] . لم يكن بحل أمام وحيد سوى قطع الشارع فالمشى أمتارا أخرى حتى المنزل ، ممنيا نفسه بنهار صحو [رغم كل ما حصل ، الربيع الحقيقى لم يأت بعد] ، يقضيه بكامله بجوار أمه يناجيها وتناجيه [تراث الليبرالية المصرية الحقيقية الذى لا يجب أن ننساه] . مع ذلك تسمر فى مكانه ، وراح يراقب ضهرى وهو ينصرف مبتعدا [الحرية ! بدأ يشق طريقه مستقلا اعتمادا على ذاته . مصر بدأت تطبق الاقتصاد الحر وكل الحريات ولم تعد تمسك بأهداب الحكومة أو النخبة] . رآه يرفع علبة كوكا كولا معدنية صغيرة فارغة من وسط الشارع [كالتى ألقاها يوما فى وجه شاب مستهتر فوق كوبرى ٦ أكتوبر] ، ويضعها بعناية إلى جانب الرصيف [الخير والإصلاح فى دمه] ، ويعود للسير فى مجرى الشارع فى طريقه لباب سيارته [ربما لأن هذه الطريق الأقرب لباب السيارة ، وربما لأنه بات جريئا مخاطرا ، أو ربما لأنه ' لم يرس على بر ' بعد] . قلت مبالاته بالمطر الساقط فوق رأسه ، وهو يرى رأس ضهرى الشامخ [المفروض هكذا هو دائما] يصد بجسارة قصف السماء [إله التوحيد ، أسوأ اختراع فى التاريخ] الذى لم يقهر منه إلا أن أفقده بعضا من الهالة النورانية البيضاء لشعره المميز [هل تستحق مصر مصيرا أفضل من التوحيد الذى دمر الكثير من طاقاتها ؟] . ثم تدريجيا خفت تركيزه شيئا فشيئا إذ راحت عيناه تنجذبان انجذابا سيرياليا [هل كل ما حدث فى الرواية كان حلما ؟] لحذاء النايكى [أمل وحيد فى العودة شابا ، وفى نفس الوقت نايكى رمز تحديث العالم الثالث] ، بقعتى الضوء الأكثر بياضا فى المشهد [ورمز تنويره] ، وقد راحتا تتراقصان على خلفية من محيط داكن [عصور الظلام التى ربما لم تغرب حقا بعد] . انسحب منه بصره شاردا إلى قدمى الحاج ، يتأمل خطواته القصيرة [للأسف !] وهى تحاول تحاشى برك الماء الصغيرة [المتاعب التى لا تزال تنتظر مصر جمة كما وليس نوعا] . تابعه وهو يركب السيارة ويمضى بها حتى نهاية شارع الأهرام [سيتجاوز رموز الماضى على عظمتها] . هذا إلى أن غاب عن بصره عندما غير اتجاهه يمينا [لاحظ يمينا !] تاركا خلفه نادى هليوپوليس [الجنة السماوية كما سبق وأسماها ونس] ، فى رحلة طويلة ، غير ممتعة جدا ، أو ربما خطرة [واضح !] ، إلى القناطر [الجنة المصرية حسب تسمية ونس وحسب التاريخ وحسب الخديوى إسماعيل ، ورمز الخصوبة حسب الخريطة !] **...** ' .

...

- المشاركة الأكثر تفاعلا فى وصف الرواية قالت بما يصعب مقاومته من مداعبة غرور أى أحد ، وطبعا لا نملك سوى الاعتزاز بما قال : ' **منذ الجبرتى والطهطاوى وقاسم أمين تعرض العقل المصرى لانفجار قنابل كثيرة . لكن هناك قنبلة نووية واحدة هى : سهم كيوبيد ! ' .**

' قد تحس بالملل وأنت تمر ببطء عبر النصف الأول للرواية ، لكن ما أن يبدأ النصف الثانى ، فصل الصيف [لم تكن قد قسمت لثلاثة ملفات بعد] ، حتى تتوالى المفرقعات ، التى لا تطيق نفسك معها . وستصبح متعة عقلية ما بعدها متعة . ساعتها ستود قراءة كل الرواية من جديد ، والاستمتاع بذلك النصف الأول نفسه أيما استمتاع ' .

- بعض القراء أبدوا حبا خاصا لبعض الشخصيات ، وتمنوا لو كانت قد أفردت لها مساحة أوسع ، وكتبوا مديحا فيها ، نذكر منها شخصيات **أمال ، نبيل ، منى ، ورمانة** .

- بعض القراء أبدوا إعجابا بتتابعات بعينها مثل القارئ نادى حبيب الذى كتب : ' **سهم كيوبيد مفاجأة رائعة تفوق الخيال . لم يحدث أن قرأت شيئا به هذه الأفكار المتحررة التى تحطم كل الثوابت وتهاجم كل الأفكار وكل الناس . أنا لا أكف عن تكرار قراءة الرواية كلما وجدت الوقت لذلك . أعتقد أن الاستاذ مدحت محفوظ حقق فيها كل ما كونه من خبرات ونظريات نقدية . حتى كتاباته القديمة عن الخيال العلمى التى افتقدناها وضعها هنا فى فكرته عن مشروع حروب النجوم بأشعة جاما . أنا لا أستطيع أن أصدق كيف أن مشاكل شخصين يجلسان فى غرفة صغيرة بحى مصر الجديدة لا يفعلان سوى الحديث ، لن تحل إلا ببناء اليابان لمشروع كهذا ، وتهديدها بإبادة الصينيين والعرب والمسلمين . هذا جنون يفوق الوصف ، لكنه شىء ممتع جدا ، وبالنسبة لمن يحلمون بعالم بلا تخلف هو يحقق كل أحلامهم . أيضا من المواقف جامحة الخيال كلامه عن وكالة الأمن القومى ، الأخ الكبير فى صورته المعاصرة والواقعية ، وهو فصل صغير شيق لا أكف عن إعادة قراءته . أما المشهد الآخر المجنون فى خياله ، فهو المشهد الذى يجتمع فيه أعظم الفلاسفة والمفكرين كأرسطو وغيره ، ليحتسوا الخمر مع البطل . الجنون هنا أن كل هؤلاء ذكروا على نحو**

...

عن الرأسمالية التنافسية أو الاقتصاد ككل (الثيمة الثانية للغلاف بجانب سقوط الحضارات -الذى كما ترى يهتم به متن هذا الملحق ، أو لعلك تعتبرها -أى الثيمة الاقتصادية- هى الثيمة الأولى باعتبار عنوان الرواية ومسرح أحداثها ومحور الدراما فيها) ، لا يختلف اثنان -فيما أعتقد- أن الرواية ككل ما هى إلا تحذير ضخم من الفقاعات الاقتصادية ومن تسلل السياسات الاشتراكية ومن تغليب الكم على حساب الكيف ومن التنمية المندفعة غير المدروسة ومن معانقة تخلف شعوب العالم الثالث باسم الجلوبة بدلا من الارتقاء القسرى بها . اليوم تلوح بوادر كساد هائل ممتد ومؤلم ، والاقترابية الاشتراكية الكينزية-الرووسيڤيلتية هى المسيطرة على عقول اليوم ، بكل حرفيات عبثيتها المضحكة من حفر الأرض ثم ردمها من أجل خلق فرص شغل جديدة (؟ !) . الرئيس بوش نفسه استسلم لها ، وقطعا سيأخذها الرفيق البراق أبو أمه إلى مداها . هذا يعنى كارثة هائلة لن تنتهى -كما المرة السابقة- بأقل من حرب عالمية تدفع التقنية قدما وتخفض عدد السكان ، كما قالت الرواية .

متفرق كثيرا ، بحيث لم أفهم كثيرا سبب الكلام عنهم ، لكن حين اجتمعوا لشرب الويسكى ترابطت كل خيوط الرواية واكتملت رؤيتها ، فكانت شيئا مثيرا جدا . رغم كثرة الكلام الفلسفى والتاريخى فهو مشروح ببساطة ويمكن أن يصل لأبسط القراء ، وهذا شيء جميل ' .

– قارئ اسمه ربيع كتب مرارا ومطولا حول طبائع البدو كما وردت بالرواية . غالبا ما كان دافعه للتعليق حوادث واقعية مستجدة مثل استيلاء حماس على غزة ، وتفجير أضرحة شيعية بسامراء -العراق ، واغتيال النائب وليد عيدو بلبنان . هنا بعض الفقرات المختارة مما كتب :

' أنا من العريش ، وأعرف طريقة التفكير العربية البدوية صباحا مساء ، لكن ما ورد فى هذه الرواية جعلنى أعيد التفكير فى كل ما عرفته وشاهدته خلال حياتى ... ' .

' بصراحة اكتشفت أنى قرأت رواية سهم كيوبيد كرواية پوليسية . كأنها لغز من ألغاز أجاثا كريستى . الجريمة هى تخلفنا ، والخيوط التى تقود لحلها ضئيلة جدا . تدريجيا تطرح الأسئلة ، لكننا لا نقترب من حل اللغز أبدا . كلما اقتربنا كلما اكتشفنا أنه أعمق وأعمق . حين وصل بنا مدحت محفوظ إلى مكان الجريمة الأخير ، نواة الخلية داخل كل منا ، اتضح للأسف أن المكان أبعد من أن أن نصل إليه كى نحل المشكلة . ما حدث بالأمس [فى العراق ولبنان] لا يتماشى مع النهاية المفتوحة للرواية ما بين التفاؤل والتشاؤم أو الأمل واليأس . محفوظ تنبأ من قبل بإمارة غزة الطالبانية فيما أذكر حين قرر شارون الإنسحاب من طرف واحد . الآن العبارة بالصوت والصورة على كل محطات التليڤزيون . بين الطريقين اللذين يطرحهما أنا أميل لقوله أن لا فائدة ، وهذه الشعوب لا حل معها إلا الإبادة ' .

– كتب بهجت : ' مشكلة هذه الرواية أن كل شيء فيها أصيل لدرجة تثير الغيظ ، أو الشك وعدم الراحة أحيانا . لا أريد أن أبدو سطحيا فأبدأ الكلام بالجنس . فالرواية هى التى بدأت بالجنس . فقدمت نظريات مفرطة فى الغرابة لكن فى نفس الوقت الإقناع . الجنس فيها لا يشبه أى شيء آخر يمكن أن يكون قد مر عليك . قد تقول إن نظريات دكتور كينزى قد تناولت الثنائية الجنسية ، لكن الأمر هنا يصل لحدود تفوق الخيال ، من حيث جعل أن الشيء الطبيعى الوحيد أن تكون لك علاقة برجل وامرأة فى نفس الوقت . ثانيا هناك نظرية تفوق كل النظريات حول الصفة التشريحية لأعضاء الأنثى . داروين نفسه لم يصل لشيء كهذا ، وأتمنى من أى متخصص أن يدلى برأيه هنا ، لأنى حتى اللحظة لا أملك القول إن ما كتبه مدحت محفوظ شيء أكثر من مقنع ، وأن من الأفضل لنا أن نعود لممارسة الجنس كما تمارسه كل الحيوانات ، فالأوضاع التى اخترعناها لم تأت لنا إلا بالبؤس وعدم الإشباع . ثانيا بعد الجنس يدخل للدين ، ويناقش أينستاين نفسه فى عبارته الشهيرة الرب لا يلعب النرد مع الكون ، ليثبت من خلالها هى نفسها أن لا وجود لشيء اسمه الرب . وعلى حد علمى هى أطروحة أصيلة للغاية وسند غير مسبوق سيسعد العلمانيين بالتأكيد . ثالثا يبدأ بعد ذلك الفصل المتفجر عن الإسلام (فصل ٥) ، والذى من الواضح أنه أحجم عن طباعة الرواية بسببه . أيضا (باستثناء كلامه هو نفسه على الموقع) هو كلام غير مسبوق عن ما هو الإسلام الصحيح ، الذى يراه إسلام الطالبان (يقول إن طالبان هى التجسيد الأمثل لمقاصد الشريعة وروحها وليس فقط نصوصها) ، ويقدم دليلا على هذا تجربته الذاتية مع اثنين من زعماء الحركة الإسلامية فى السبعينيات . ثم يعود ليصحح نفسه بأنه إسلام الإخوان الدنيوى الذى لا دين فيه . المفاجأة الكبيرة أنك حين تعتقد أن المتفجرات وصلت لذروتها ، حتى تأتى انحناءة الحبكة المذهلة : أنه قد صفى حساباته مع الجنس ، ومع الدين كدين ، ومع الدين كإسلام ، لأنه يغسل يديه منها ولا يريد العودة إليها ، ذلك أن لديه ما هو أهم بكثير بعدها . هذا الأهم ليس شيئا واحدا ، كما أنى لا أريد التعليق كثيرا عليه لأنه قد يفضح نهاية الرواية للقارئ . لكن أذكر أن البعض (الزميل ربيع) سبقنى وتكلم عن البداوة العربية ، وبافتراض أنه أكثر علما منى ، فإن كلامه يوافق على الأصالة التى تحظت بها الرواية كل ما سبق . بعد ذلك هناك كلام عن مصر ، ظل مدحت محفوظ يحط من شأنها ومن شأن أهلها بمعاول لا ترحم (وللأسف كلها واقعية وصحيحة) ، فقط ليأتى فى النهاية بانحناءة حبكة جديدة فاحشة (هذه المصطلحات النقدية تعلمتها من كتاباته النقدية هو نفسه) ، لا شك أنها سترضى استعلاء كل مصرى واعتزازه بمصريته . ثم هناك كلام عن العالم ككل ، الأهم من كل شيء ، وعن أفول الحضارات (أجزم على مسئوليتى أنها شاغله الفكرى الوحيد أو الأكبر) ، وأيضا نبوءة قديمة-جديدة له عن مستقبل الحضارة الأميركية وعن اليابان . قديمة لأنه كتبها أول ما كتب فى بداية إنشائه للموقع (صفحة مستقبل الثقافات القومية) ، وجديدة لأن لها طعم مختلف أكثر إثارة وإقناعا فى سياق الدراما . أنا متعود على أفكار الموقع ، وقرأت الكثير منه ، وهو ينقل فقرات كاملة أعرف أنه سبق وكتبها ، لكنى ظللت أتساءل كيف سيدخل موضوع كالإبادة أو حتى موضوع ثانوى مثل ما يسميه سينما ما بعد الإنسان ، فى رواية تدور كلها تقريبا فى غرفة صغيرة . لكن هذا ما فعله دون أن يبدو مفتعلا أو يحشر شيئا . الموقع ومن ثم الرواية نظرية أو رؤية متكاملة فى الحياة ، هذا ما أقنعنى به الرواية أكثر من الموقع . مدحت محفوظ لا يستطيع حذف جزء من تلك الرؤية المتكاملة ، لأنها لن تستقيم ساعتها . أنا لا زلت بعد فى حالة الدوار التى أعتقد أنها ستصيب كل من يقرأ هذه الرواية . وللأسف أقول إن بها حيلة رخيصة فى النهاية تجبرك على إعادة قراءتها . لا لزوم لها فى الواقع لكن لا بأس . وربما أراجع هنا بعض ما كتبت بعد هذه القراءة الثانية . الانطباع الفنى هو تأثره الكبير بخلفيته السينمائية ، فالرواية أشبه بمشاهد سيناريو كتبت بالصورة مرفقة بالحوار المكتوب على نحو واقعى وفى الغالب بالعامية [المؤلف : هل سيناريو ، أم لعلها أقرب لمسرحية ؟ !] . وأغلب مساحة الرواية هى حوار مباشر بين الشخصيات . وككل هى توليفة خاصة من نوعها ، وأيضا لا ينقصها الأصالة . مع ذلك له بعض لحظات الوصف الأدبى الجيد وله مارثاوناته فى تيار الوعى ومناجاة البطل لذاته ، وهى ثرية مثيرة وقوية . وهنا هو ليس أصيلا جدا ، لأنه لا يخفى للحظة واحدة حقيقة كونه متيما بنجيب محفوظ ' .

...

... هذه إذن بعض المقتطفات مما كتب على المنتدى الرسمى للرواية الذى كان ناشطا على نحو ملحوظ فيما بين أبريل وأكتوبر ٢٠٠٧ ، ثم لفترات إعادة إنشائه المتفرقة بعد ذلك . للمزيد عن آراء القراء أو النقاد فى الرواية يمكنك البحث على الإنترنيت بعنوانها أو باسم المؤلف .

الرواية تحدثت عن خطر كساد ألم بمصر بسبب تغلغل المال العربى الفقاعى الساخن القذر فيها ، وطرحت أن الحل ليس إلا المزيد من التنافسية وعين تسهر على إفعال الحرية القصوى ... إلخ ، وتحدثت عن ديناصورات السيارات فى أميركا وعن فلسفة دورات الركود و' الغربلة ' التى تقوم بها وكيف أنها تخلصنا من مثل هذه الفضلات البيزنسية . كل هذا لا غبار عليه ولا تراجع عنه ، لكن التنبؤ بكارثة عالمية بالحجم الذى نراه الآن ، كان بالتأكيد شيئا يفوق كل خيالاتنا وقدراتنا على التنبؤ ويفوق حتى كوابيسنا ، وبالطبع نقر بهذا .

مرة أخرى ، لو لم يحدث تغيير جذرى فى السياسات ، الخطوة الأولية جدا فيه هى ازاحة ذلك المجرم الأثيم من البيت الأبيض (والأفضل قبل وصوله إليه) ، فإننا نقدم لك مثل تلك النبوءة الرهيبة الآن ، وطبعا لن يكون عدد الضحايا ٦٠ مليونا كالحرب السابقة ، إنما لنقل ٦٠٠ مليونا ؛ أو لعل حضارة ما بعد-الإنسان أقرب إلينا كثيرا مما نتخيل !

...

عن الثورة الجنسية -الثيمة الثالثة للغلاف- تلك التى راح يفصلها الفصل الثانى ، فحدث ولاحرج . انفجر الزواج العرفى كما الوباء بين الشباب . مظاهر التحرر الجنسى اكتسحت الشوارع ، ولأنها جاءت بعد طول كبت وقهر من المشاخخ صاحبتها بعض السلوكيات السلبية العنيفة فيما سمى بالتحرش الجنسى ، التى لا نتوقع لها الاستمرار طويلا . هنا نروى حادثة لم تعممها الصحف أو التليفزيونات لكن روتها لى شاهدة عيان . شاب وفتاة ركبا عربة مترو الأنفاق المخصصة للسيدات . أشهر الشاب مطواة فى وجه الركاب بما معناه ألا يحاول أحد التدخل ، ثم شرع فى ممارسة الجنس مع رفيقته على أرضية العربة . والبقية تأتى ، وحسب الفصل الأخير من الرواية أن نرى أثداء نسائية عارية فى الشوارع فى القريب العاجل !

باختصار : ها هى الثورة الجنسية تجتاح الشوارع حتى بين من لا زلن يستخدمن غطاء ما للرأس ، ذلك ليس لعبقرية ولا لنبوة فينا ، إنما لأنها ببساطة -نقصد الثورة الجنسية- كما قالت الرواية (ومن قبلها بعقد كامل موقعنا على الإنترنيت) : حتمية اقتصادية !

... وسلم لى ع الإسلام !

...

طالبت إحدى شخصيات الرواية بالأب زكريا بطرس على سهرة القناة الأولى ، لكن ' لجنة المستقبليات ' فعلت شيئا أذكى بكثير : أتت بدلا منه بخالد الجنسى ، فتفجر تضارب الفتاوى إلى آفاق فلكية بين الأدعياء الجدد والأدعياء القدامى وبين كل فريق بعضه البعض ، إلى ما يشبه زلزال دمار كاسح قوض البنية الأيديولوچية للإسلام فى نظر عموم الناس . نعم ، الفضل يرجع بالأساس للقنوات المسيحية ، لكن ما كانت لتصل وحدها لمثل هذه النتيجة هائلة السرعة أبدا !

آخر النبوءات تحقق أثناء كتابة هذا : مقولة ' فى زمن الأئمة كان يوصف المحدثون بتيوس الدين ، لكن بمرور الوقت صاروا من بيدهم مفاتيح ملكوت السموات ، صاروا السلطة المطلقة وأهل الحل والعقد وسط أهل الحل والعقد أنفسهم ' . [بعد ٢٤ ساعة من كتابة هذا ، أصبح اسم الشيخ أبى إسحاق الحوينى يذكر فى سهرة القناة الأولى للتليفزيون المصرى !] هؤلاء السلفيون الين عاشوا فى منطقة الشفق الأمنية للإسلام ، فرضوا أنفسهم أخيرا . هذا يعزز النبوءة الرئيسة للرواية فيما يخص الإسلام فى مصر : سوف يتبلور تياران رئيسان : التيار السلفى وريث الأئمة (أو التززية بمصطلحات الرواية) الأربعة وهو دين محكم بدرجة معقولة بحيث لا يفنده أى تيار إسلامى آخر وها هو الدليل الحوينى يسحل بلا هوادة كل شيوخ الأزهر ممثلين فى خالد الجنسى . التيار الثانى هو الإخوان-الأخوان ، ورثة عمر بن الخطاب والحطابة (أو حسب القول الآخر الخطاف والخطافة) ممن لا دين لهم أصلا ، وكل أجندتهم دنيوية خالصة استرقاقية استحلالية . أما البقية الباقية وهى الكتلة الكبرى للمصريين الذين يحملون صفة الإسلام دون أن يقتربوا من صحيحه ، فهى لا تتبلور ككتلة ثالثة ، إنما ببساطة : تتفكك . كثير منها تحول للعلمانية فى هذا العام ونصف ، ونفس العدد تقريبا تحول للمسيحية ، ومن تبقى ينتمى للصوفية التى علاقتها بالإسلام لا تكاد تذكر ، بل هم ككل مصرى مؤمن لايزال من حيث الجوهر يعبد إيزيس ويلفظ كل من سمى نفسه إله التوحيد بدءا من آتون إلى الله .

... ومرة أخرى : سلم لى ع الإسلام !

...

جرائم الأقلية العربية فى مصر (سواء بالتواطؤ مع أبناء عمومتها فى الجوار أو بدون ذلك التواطؤ) ، تفاقمت على نحو مذهل فى هذه الـ ١٨ شهرا ، بما يفوق كل تنبؤات الرواية . الهجمات على الأديرة والكنائس ومشروعات استصلاح الأراضى توسعت بامتداد الخريطة ، قتل المزيد والمزيد من ضباط وجنود الشرطة فى سيناء ، التفجيرات السنوية للمواقع السياحية فى ٦ أكتوبر و٢٤ أبريل احتجاجا على عودة سيناء لمصر ، اجتياح مسلح صريح من الفلسطينيين لشمال سيناء ، خطف السياح فى صحراء مصر الغربية ... إلخ . على أنه يظل فى رأينا أخطر الأشياء جميعا والذى يمثل تهديدا رهيبا لقلب أمننا القومى : منع الخمور من ثانى أفخم فنادق مصر !

الحرب الأهلية ومعارك الشوارع الدينية الدامية التى لم يكن لها بوادر تذكر لدى كتابة الرواية ، وأثارت فزع وسخط كل من قرأ الرواية مبكرا ، أصبحت الآن مشهدا شبه يومى فى شوارع المدن والقرى المصرية ، بل -صدق أو لا تصدق- جسدها فيلم ضخم جمعوا خصيصا من أجله عادل إمام وعمر الشريف .

موقفنا لا يزال كما هو ، وفى نقاط محددة : ١- الحرب هى أعظم اختراع -بشرى وغير بشرى- فى التاريخ . ٢- الحرب الأهلية شىء ضرورى بل وجيد جدا لمصر . ٣- الحرب الأهلية فى مصر قادمة لا محالة . ٤- يجب تأخير هذه الحرب الأهلية لأقصى مدى ممكن حتى تتم إعادة تصنيف المجتمع ليس إلى مسيحيين ومسلمين (بمفهوم بطاقة الرقم القومى للدين) ، إنما إلى مصريين وعرب (بالمفهوم الچيينى للدين) ، وحتى يصبح هذا الوعى ناضجا فى أذهان الجميع ، وحتى تتأهل وتتأهب الحكومة للدخول كطرف إيجابى فاعل فى هذه الحرب . ٥- النتيجة الغائية لهذه الحرب ستكون تصفية كل وجود للعرق العربى دنس أرض مصر يوما ، ذلك إما بالطرد أو بالقتل ، وبالطبع تجريم الإسلام نفسه بوصفه أيديولوچية معادية للحرية . ٦- هذا هو السيناريو الذى تنبأت به الرواية ، إن لم نقل ودعت إليه ، وحتى اللحظة هو يسير على ما يرام تماما ، لا سيما وأن الاختراق والخلخلة التى أحدثها الرسول بطرس الثانى فى العقل الإسلامى كانت أسرع وأعمق بكثير مما تخيل أحد ، ولا أدرى هل ينطبق هذه الأخيرة على الرواية أيضا أم لا ؟ ... الحكم متروك لك !

...

أيام كنت أكتب هذه الرواية كان الإعلام الناطق بالعربية ، وبالذات العربى فعليا منه كالجعيرة ، يهلل لموريتينيا باعتبارها النموذج العربى للديموقراطية والتداول السلمى للسلطة إلى آخر هذا الهراء . لا أذكر هل كانت قراءة عادية هادئة للمستقبل أم شابها بعض من غيظ ، وضعت نبوءة أن موريتينيا هذه ستشهد حروبا أهلية لا نهاية لها . ... هذا تقريبا ما يجرى بالفعل الآن !

...

يخجلنى فى هذا اليوم بالذات -يوم وصول الرفيق المجرم والرئيس الخائن / البراق حسين أبو أمه (أخو أس أمه) بن لادن آل كاپونى لقمة السلطة فى أميركا- أن أذكر القارئ بنبوءة الفصل الأخير بعودة نيتانياهو للسلطة فى إسرائيل ، فأقول إنها بالفعل باتت وشيكة التحقق فى غضون أسابيع . إنها فى الحقيقة شىء أكبر من مجرد نبوءة ، وما يمثله نيتانياهو فى الرواية هو أن يوجد للشرق الأوسط زعيم قوى يقود مصر وغيرها من قوى الخير والتقدم فى المنطقة لتدمير جبهة الرفض العربية-الإيرانية والإجهاز النهائى على قوى الشر الماضوية العربجية-الإسلامية عامة ، ذلك عبر -وعبر فقط- سلسلة من الحروب العسكرية التى لا ترحم . للأسف ، تختلف الموازين بلا شك حين يكون على قمة السلطة فى أميركا عميل صريح لقوى التخلف والظلام العالمية وطابور خامس همه هو تدمير الحضارة من الداخل . مع ذلك لا تزال ثقتنا بلا حدود فى أن نيتانياهو سيفعل أقصى ما يستطيع ، والذى نأمل أن يكون إخراج السلاح النووى من قمقمه من بينه ، بل ونأمل أن يكون ما يفعله هو المفتاح لعودة الصواب لأميركا نفسها ، وأن تسارع بتطهير صفوفها من الخونة والعملاء . فقط توجد مشكلة واحدة لنا مع عودة نيتانياهو ، أنه بقدر ما حقق نبوءة للرواية بقدر ما أصبح يهدد بهدم أخرى : أن شرارة التطهير العرقى ستنطلق من مصر وتصل عدواها لإسرائيل ومنها لكل العالم . أما وقد جاء نيتانياهو بأول شعار عرقى صريح ، إطلاقا منذ تكالبت وتآمرت حثالة الكوكب على القضاء على نظام الفصل العرقى المتحضر العظيم فى جنوب أفريقيا ، وهو شعار يهودية الدولة ، فالأرجح الآن أن التطهير العرقى قد ينطلق من إسرائيل بطرد العرب الحثالة منها ، ثم سنتلوها نحن بذات الشىء ، ثم كل العالمين الحضارى والمتحضر مع العرب خاصة وكل أعراق التخلف عامة . على أية حال النبوءة لا تزال مفتوحة ، والسباق لا يزال قائما بيننا وبين إسرائيل على من سيكون له قصب السبق فى إعادة العالم لصوابه الذى فقده يوم رضخ لهجمة الرعاع على سجن الباستيل ، وما استتبعه من شعارات و' حقوق ' تسببت فيما نحن عليه من أنتروپى چيينية وزادتها تكريسا يوما بعد يوم .

... ومرة أخرى ، أقصد أخيرة : سلم لى ع الإسلام !

...

نحن على أعتاب عصر ثلجى ، واحدة من أكثر نبوءات الرواية ضخامة وأيضا مغامرة ، أو لو شئت الصدق هى أقرب للأمنية منها من أى شىء آخر ! دعاة -أو بالأحرى أدعياء- الدفء الجلوبى ، تلقوا صفعات مخيفة هذا الشتاء بالذات [تفاقمت على نحو مذهل فى الأسابيع التالية ، وصلت لحد المسخرة حين أرسلت أمنا الطبيعة عاصفة ثلجية على مظاهرة تندد بارتفاع حرارة الكوكب http://www.foxnews.com/video-search/m/21941435/deadly_addiction_to_coal.htm !] ، الشتاء الذى جاء باردا جدا ومناقضا جدا لكل توقعاتهم ، والأعجب منه أن معدل تراكم الثلج فى القطبين جاء الأسرع فى كل التاريخ المدون ، بل بدأ بالفعل الكلام عن عصرى ثلجى قادم (حرفيا كما تنبأت الرواية وهى تفرغ آخر صفحاتها فى رعشة من البرد) ، تلك كلها لإثبات حقيقة بسيطة عادة ما يجن لها العقل الإنسانوى اليسارى ، هى أن الإنسان أتفه من أن يخربش خطا على هذا الكوكب ، وهذا كان أساس المراهنة شبه الخرقاء من الرواية على فكرة العصر الثلجى المحدق . نصيحتى أن يجربوا من الآن محاولة إقناعنا أن الصوبة الزجاجية تسبب عصورا ثلجية ، فربما كان ذلك أسهل عليهم !

...

مطعم السوشى فى السيتى ستارز أغلق أبوابه ، فى ضربة مهمة لنبوءات الرواية ، لكن كل الكلام الآخر عن اليابان لا يزال قائما : السيارات الكهربية سوف تظهر على نحو تجارى قبل ٢٠١١ التى تنبأت بها الرواية . السباق على أشده والنماذج الأولية تعرض بالفعل الآن بمعارض السيارات التى تعد كلها بالطرح التجارى فى ٢٠١٠ ، إلا أنه حتى تكتمل النبوءة يفترض أن تفوز تويوتا به .

[إلى هنا انتهى هامش ٤ نوفمبر ٢٠٠٨ ، وما يلى تحديثات أضيفت تباعا] .

...

١١ فبراير ٢٠٠٩ : نتائج الانتخابات الإسرائيلية الليلة تؤشر لعودة بنيامين نيتانياهو رئيسا لوزراء إسرائيل . ... عادى ! هل كنت تعتقد أن الفصل الأخير للرواية كاد مجرد مزحة تخيل قصصى ؟ !

...

١٢ فبراير ٢٠٠٩ : الميلاد الرسمى للهندسة الچينية للبشر : ليس بالضرورة أصغر جسما لتوفير الطاقة وأكبر رأسا لاستيعاب مخ أعقد و بجناحين لحل مشاكل الانتقال ، كما تقول الرواية ، إنما على الأقل بعينين زرقاوين وبشرة بيضاء وشعر أشقر . كما جاء فى إعلان Fertility Institutes على موقعه على الإنترنيت اليوم . الشىء كبير المغزى هنا أنه ليس بحثا تجريبيا أو مشروعا مستقبليا ، إنما إعلان تجارى للغاية موجه للجميع وفى مقابل أجر محدد ، بل ويعطى مجانا ' ع البيعة ' ضمانا ضد ٤٠٠٠ مرض وراثى !

...

١٤ مارس ٢٠٠٩ : أعلن اليوم عن اكتشاف چوليان لاكسفورد الباحث السكتلندى من جامعة سانت أندروز وخبير مخطوطات العصور الوسطى ، أن روبين هوود لم يكن إلا لصا حقيرا مجرما ومكروها من الناس لا أكثر ولا أقل http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/scotland/edinburgh_and_east/7941504.stm . حين كتبنا كلاما سيئا عن روبين هوود أو -وهو الأهم- عن أمثال جاندى أو مارتين لوثر كينج أو مانديلا ، لم نكن نحلم بمثل هذا الاكتشاف المذهل المدعم لأول مرة بإحدى الوثائق المنسية أو قل المسكوت عنها . فقط كانت تملؤنا الثقة أن سيأتى يوم تفيق فيه البشرية على أن هؤلاء الذين حولتهم آلة الإعلام اليسارى الشيطانية لرسل وملائكة وشهداء ، ما هم إلا أحقر الكائنات إطلاقا وأكثرها شرا وحقدا وشيطانية !

...

١٥ مايو ٢٠٠٩ : أقيم اليوم مهرجان الكورية للعام الرابع على التوالى ، ولم يكن أقرب إلى وصفنا (الطائش لو شئت !) له بـ ' مولد ستنا الكورية ' ، فى أية سنة مما ظهر عليه اليوم ؛ فرق غنائية متنوعة متزامنة تماما كما الموالد التقليدية ، باعة جائلون ، معارض للمشغولات من

محافظات ودول مختلفة ، رقص للناس فى الشوارع ، هذا طبعا بالإضافة للتقليد الأصلى المؤسس له وهو رسومات الأطفال على الأرض وعلى وجوههم !

...

١٩ أكتوبر ٢٠٠٩ : أصدرت سكرتارية العدل الأميركية توجيها تاريخيا لأجهزتها تأمرها فيه بعدم ملاحقة متعاطى ومتداولى الماريوانا ملاحقة فيدرالية ، ذلك فى الولايات التى تبيح استخدام الماريوانا http://www.nytimes.com/2009/10/20/us/20cannabis.html ، كل فى حدود ما ينص عليه قانون الولاية المعنية من نوع لهذه الإباحة . الجدير بالذكر أن ثمة ١٤ ولاية حتى اللحظة -منها كاليفورنيا- باتت تجيز الماريوانا ، أغلبها عامة لغرض الترفيه entertainment والاستجمام recreation وليس طبيا medical تحديدا ، وثمة خمس أخريات -منها نيو يورك- يشتغل مشرعوها الآن على قوانين شبيهة . قرار الحكومة الأميركية الجديد يزيح عقبة -على الأقل نفسية- هائلة ، ألا وهى الإصرار التاريخى للولايات المتحدة على محاربة العقاقير ورصد ميزانيات هائلة للأجهزة الشرطية بل وللحروب خارج الحدود من أجل هذا ، ومن ثم فهو قرار معلمى كبير يمهد الطريق بقوة لتحرير تداول العقاقير -وتداول أى شىء- فى كل العالم ، وليرسخ مفهوم أن يتحمل كل فرد مسئولية خياراته بحرية كاملة . مرة أخرى نقول لا يصح إلا الصحيح ، والحرية هى قانون أسمى للكون ، لا يجب أن يستثنى منه أحد أو شىء إلا فئة واحدة فقط لا غير هى أعداء الحرية !

...

٢٩ يوليو ٢٠١٠ : السيد البدوى رئيس حزب الوفد -وبعد أسبوع واحد فقط من إعلانه أنه ينتوى إعلان الحرب على إسرائيل إن أصبح رئيسا- يعلن أن الرفيق نجيب ساويرس سيكون هو مرشح الحزب لانتخابات الرئاسة ٢٠١١ . المفروض للوهلة الأولى أن هذا الإعلان الأخير تحقق مذهل لإحدى نبوءات الرواية ، وهى أن الرفيق ساويرس سوف يشترى حزب التجمع ويرشح نفسه رئيسا ، لكن يبدو أن بعض مياه قد اختلطت فغيرت النبوءة بعض الشىء ، وجعلته يشترى حزب الوفد . التفسير المرجح أن الكثير من أعضاء حزب التجمع أثبتوا فى السنوات الأخيرة أنهم مصريون حقيقيون لا يؤمنون جديا بالحقد الطبقى ، وأن دوافع معظمهم وراء الالتحاق باليسار ليست أكثر من المفاهيم الإنسانوية العامة (ضربنا مرارا http://everyscreen.com/views/economy.htm#MelAkher78_SuzanneTamim أمثلة بأسامة أنور عكاشة وسيد القمنى ونجلاء الإمام ممن أعلنوا صراحة تبرأهم من الحقد الطبقى) . أما حزب الوفد فقد تأسس أساسا على الانتهازية ، وكلنا يعلم ما فعله الأزهرى الأفاق سعد زغلول بمصر ومصائر مصر ، وكيف قضى على مشروع الحداثة الإنجليزى ومهد لاستيلاء العرب الصريح على السلطة فى ١٩٥٢ . إذن السبب هو أن ساويرس أفاق أكثر منه يسارى ، وكان يجب توقع هذا ، على أننا على الأقل نعلم تمام العلم فى هذه الرواية أن ١٩١٩ و١٩٥٢ صنعا من قماشة واحدة ، هى عينهم بأشخاصهم وچيپاتهم قطاع الطرق المسلمين العرب ، مع تلميع وتنقيح أنفسهم ببعض تقنيات وشعارات الثورة البلشفية بهدف تجويد الخداع ، ونعلم أيضا تمام العلم أن مُحَمَّد عبده تحديدا -الذى يكيل له العلمانيون المديح- كان منبع الخراب ، وأول من بدأ النخر الجدى فى مشروع الحداثة الإنجليزى لمصر الذى جعلها سابقة لليابان ، إلى أن جاء -على يد أحد صبيانه المقربين جدا- الخراب الكبير وأنهى سنوات الذهب (١٨٨٢ – ١٩١٨) . للأسف حتى اليوم لا يستطيع الكثيرون ملاحظة أن العرب نوعان : عرب أجلاف هجامة وسفاكى دماء صرحاء كعمرو بن العاهر والعاهرة وابن عمه عمر ، وعرب يخفون جلافتهم ببذلة وكراڤتة ناعمتين كاللا حسن اللا البنا ومُحَمَّد حسنين هلوكة (إذا كان مُحَمَّد عبده حداثيا فماذا يكون إذن أحمد لطفى السيد ، وقد كان طرف النقيض له ؟ !) .

المهم ، ما نستطيع قوله -وليس عذرا إنما اعتذارا- أن التطورات تسارعت بشدة فى الأيام الأخيرة بما يفوق خيال أى أحد : الإسلاميون يتقاطرون أفواجا على حزب الوفد ، فى ذات الوقت الذى يعلن فيه رئيسه أن مرشحه المحتمل للرئاسة هو الرفيق ساويرس ! ولا غرابة إن رأينا خلال أسابيع أو ربما أيام إعلان حلف كبير للمعارضة السياسية فى مصر يتجمع فيه كل ذوى الأصول العربية (ممن يعد عداؤهم لمصر ولإسرائيل ، والإصرار على نهب ثروة الأولى للقفز بها على ثروة الثانية ، أچندة صراع وجود أزلى-أبدى لن تنتهى إلا بإبادة أحد الطرفين للآخر) ؛ حلف كبير يجمع قاطع الطريق المسلم مع المسيحى مع اليسارى العلمانى ، هدفه إسقاط الحكومة المصرية الوطنية المعادية للعرب (فى رأيهم على الأقل) ، فمثل هذا الحلف موجود عالميا ، وكان مسألة وقت فقط أن نرى فرعا له يتبلور فى مصر ! نعم ، هذه وتلك كلها كانت مفاجآت مدوية للجميع ،

لكن مما يحفظ لنا نحن بالذات بعض ماء وجهنا فى مواجهة مسلسل الصفعات المنهال هذا ، هو مقولتنا المبدئية القديمة الثابتة التى لم تتغير أبدا : البشر نوعان لا ثالث لهما : بناءون وطفيليون !

...

٣٠ نوفمبر ٢٠١٠ : أعلنت اليوم نتائج الانتخابات البرلمانية التى أجريت أمس الأول ، وجاءت النتيجة لتذهل الجميع ، إلا نحن ، وهى هبوط رصيد عصابة الإخوان المسلمين من المقاعد من ٨٨ إلى صفر ، وكذلك -ولعله الأهم- سحق أكبر رمزين للأقلية العربية سحقا مهينا للغاية من الجولة الأولى : مصطفى بكرى كبير العربانجية قبلى وحمدين صباحى كبير العربانجية بحرى . نبوءة الرواية كانت أن انتخابات ٢٠١٠ لن تقام أصلا ، ذلك أن الحرب الأهلية ستدق الأبواب وينجم عنها عمليات الترحيل والقتل للأقلية العربية . فى الواقع النتيجة النهائية لما حدث ربما ليست بعيدة جدا عن هذا : تصاعد فى زمن قياسى للوعى العرقى لدى المصريين ، حكومة ونخبة وشعبا ، سواء وعيا بذواتهم أو وعيا بالأغيار البرابرة بالذات بعر الجزيرة ، وكذا اقتراب نموذج الحكم والتفاف الشعب حوله ، بسرعة من النموذج التاريخى الذى صنع حضارة مصر القديمة المسماة بالفرعونية .

الأكثر دلالة هو خلفية الشهرين اللذين سبقا الانتخابات ، فهى تعطى المؤشر الأقوى والأهم للمنهجية والوعى الجديدين لدى السلطة والنخبة والشعب فى مصر . هذان الشهران شهدا مجازر واسعة النطاق من قصف الأقلام وتكميم الأفواه لأمثال إبراهيم عيسى وعمرو أديب ومنى الشاذلى وكثيرين غيرهم ، ناهيك طبعا عن إغلاق كل القنوات السلفية . هؤلاء وأولئك عرب بالأساس ، وإن كان بعضهم كعمرو أديب أذناب للعرب ، لكن صورة ما جرى هذا لا تقف عند حدود البطش بالأقلية العربية ، بل هو تحقق لدرجة تفوق خيال أغلب الناس قبل مجرد أسابيع ، لنبوءة أخرى بالغة القاعدية فى الرواية وهى إغلاق المهزلة الكارثية المسماة الديموقراطية من أوسع أبوابها . عزز هذه الصورة الإحجام الشعبى الملفت جدا عن المشاركة فى انتخابات هذه الدورة تحديدا . دائما أبدا كانت المشاركة تتفرع لفرعين : الأول تجييش العرب لأنفسهم وهو دائما أبدا قبليون قطعانيون ويجيشون أنفسهم . والثانى هو مشاركة الشعب المصرى نفسه ، وهو -بچيپيناته الفرعونية- لا يهتم عادة بالشأن السياسى ، وفى حالتنا المعاصرة هذه لا يذهب للصناديق إلا فى لحظات الجزع على مستقبل البلاد (بالأخص من جرائم أولئك الدخلاء العرب) ، وهى مشاركة شاهدنا ذروتها فى أوائل التسعينيات ، وكانت وقفة ضخمة حقا أراد فيها شعب مصر أن يعلن التفافه حول فرعونه ورجاله ، كرد على موجة الإرهاب الإسلامى (كان من القوة بمكان لدرجة أن ذهبت أنا نفسى لأدلى بصوتى وكانت أول وآخر مرة أفعلها !) . أما حين تستتب الأمور ويطمئن الشعب لقوة حكومته ، تكون قد أتت لحظة الأحلام المثالية بالنسبة له ، فيها يتفرغ للقمة عيشه وينام ليله سعيدا هائنا ، أما فيما يخص الانتخابات فببساطة -وبكل سعادة وممنونية منه- يفوض أمر التصويت باسمه لوزارة الداخلية إن احتاجت !

فى كل الأحوال رأيك أنت هو الأهم : لأية درجة قد صحت نبوءات سهم كيوپيد عن خريف ٢٠١٠ ؟

...

٢٧ فبراير ٢٠١١ : بوادر قوية لتماسك مصر واستعادتها سلطتها المركزية الفرعونية ، ذلك من آثار مؤامرة ٢٥ يناير التى حققت من بين ما حققت نبوءة ' وراحت الدبابات تجوب شوارع القاهرة ' ، هذا بعد مجرد شهر وبضعة أيام فقط من تاريخها فى الرواية (وقعت فعليا فى ٢٨ يناير ٢٠١١ ليلا ، بينما كانت فى الرواية يوم ٢٤ ديسيمبر ٢٠١٠ ليلا) . تلك الجريمة الشنعاء لا شك لدينا أنها ستفضى إن آجلا أو عاجلا -بل فى الواقع هى عجلت- بما توقعته الرواية من إعلان كل تشكيلات الأقلية العربية صاحبة ' أيديولوچيات سالبة للحربة ' ، وتدشين عملية تطهير عرقى واسعة النطاق لمصر من رجسها . صحيح هذا لم يحدث فى ' المساء التالى ' كما فى الرواية ، لكنه سيحدث طبقا لمقولة الرئيس السادات الشهيرة أن لن يصح إلا الصحيح ، حتى لو كان ما نجم فعلا عن تلك الأحداث الإجرامية قد أدى لانزواء ' رئيس لجنة المستقبليات ' الشاب ، بدلا من توليه الحكم .

على أنه على الصعيد الشخصى حققنا مكاسب ضخمة ، على رأسها الالتفاف الكبير الفجائى حول الموقع ، والقراءة المكثفة للرواية ، واكتشافنا أنها كانت أكثر شعبية مما تخيلنا بكثير ، ومن هذا مشاركة كثيرين ممن لم يكونوا قد أبدوا رأيهم فيها من قبل ، حتى لو لم يكن للأمر

علاقة بالأحداث . مثال هذا ، أن لأول مرة كتب صديقان قديمان يعرفان نفسيهما بأسماء مستعارة فاو وكادى قبل أسابيع أن تتابعات الجنس فيها ' جبارة ! ... تفوق جميع الأفلام ! ' ، وأنهما قرءا الرواية مرات كثيرة ، وما إلى هذا ، وهو -القراءة المتكررة- كلام كرره عدد لا حصر له .

صديق آخر هو الطبيب الشاب أحمد زيدان ، وهو أحد نجوم الإنترنيت ، كتب واضعا اسمى سابعا بعد آدم سميث وچون لووك وديڤيد هيوم وفريدريك ڤون حايك وليودڤيج ڤون ميزيس وميلتون فريدمان . لا أكاد أقدر على تخيل كيف واتته الجرأة لفعل شيء كهذا ؟ ! هو يعرف كم أحبه ، ولعلى أود استخدام وصفا أقسى لما فعل ، مع احترامى له ولبقية زملائه فى الجماعة المسماة شباب الشرق الأوسط . أنا لا أصلح تلميذا تحت أقدام أى من تلك الأسماء ، ولا أعتبر نفسى متخصصا فى أى حقل من حقولهم مطلقا . نعم ، فعلت شيئا قد اعتز به يوما ، وهو أنى -باجتهاد شخصى متواضع- وسعت دائرة نظرياتهم الاقتصادية بأن ربطتها بكلام أرسطو العرقى عن الحضاريين والبرابرة ، وببعض النماذج من البيولوچيا والديناميات الحرارية وفيزياء الكون ، وبشيء من السياسة المعاصرة إذ وجدت أن أفضل تطبيق ممكن لنظرياتهم هو الدولة العسكرية حامية الحريات كتجربة الچنرال پينوتشيت وشبيهاتها ، لكن الإطراء بما هو ليس فى لا يؤثر فى بل ولا أعتبره مفيدا ، سوى بقدر ما يمنحنى من سعادة وأمل لما يعبر به عن حماسة أولئك الشباب النقى الجميل وعن عمق إيمانهم بقضية الحرية .

فى وقت متأخر من هذه الليلة أرسل لى الصديق حيدر السعدى وهو شاب عراقى عميق الفكر صلد الإيمان بالليبرالية العلمانية ، أرسل واحدة من أكثر التقييمات إطراء . قال ' لقد جعلتنى أحسم مواقفى فى أمور فكرية وعملية كثيرة ، خصوصا فيما يتعلق بالخلاف الضمن-ليبرالى . ما جذبنى إليك أكثر فأكثر أن عرضك للأفكار أشبه بخلاصات يكتبها شخص مثقف لنفسه ، كى يزيح عن نفسه عناء المراجعة من جديد ، وهذا ما كنت أحتاجه بالفعل . خلطك للشخصيات فى ' جشطلت ' مميز هو سمة لم أعهدها من قبل إلا فى أعمال خاصة الإبداعية مثل ' يوليسيس ' التى يحتاج كل فصل منها لحواشى بحجم الفصل نفسه ! ' . أوه ! التشبيه بالأسماء الضخمة مرة أخرى ؟ ! بالتأكيد -مثلى مثل أى أحد- يسعدنى الإطراء وأعتز به ، وبالتأكيد أكثر ، الكلام كبير وقطعا لا أستحقه ، لكنى أكتبه هنا فقط لأقرر أن مؤامرة ٢٥ يناير قد جاءت بنيران عكسية كثيرا على كل من دبروها . وعشرات الأصدقاء تحلقوا الآن على مجموعة الفيسبووك Everyscreen (التى أسستها قبل نحو عامين ونصف شخصية رائعة هى سمر نزيه لكنها اختفت للأسف) ، يناقشون الرواية وسائر محتويات الموقع بعمق غير مسبوق ، ويا له من فخر أن يكون كلامنا على تواضعه هو مكان الالتفاف فى وقت الأزمة .

... هذا هو الإطراء الذى لا مبالغة فيه ، وأيضا الأكثر إيلاما ، لأنه يوكل إلينا مسئولية لا نشعر إلا بأقل القليل من الأهلية لها .

...

٢٦ مايو ٢٠١١ : الجيش المصرى يعلن عن رغبته فى وضعية فوق دستورية تحميه من الرئيس (تقرأ : تحميه من ' ضعف ' الرئيس) . إذا كانت ' وراحت الدبابات تجوب شوارع القاهرة ! ' ، قد تحققت بمجرد فارق ٣٥ يوما عن تاريخها فى الرواية ، إلا أن التحقق الكامل للنبوءة كان جزئيا ، فرئيس مجلس الأمن القومى المنشود ، الذى هو رئيس لجنة المستقبليات بالحزب الحاكم فى الرواية ، هو معتقل الآن . بما استجد اليوم تبدو خواتيم الرواية أقرب للتحقق أكثر من أى وقت مضى . فالفكرة الجوهرية هى حاجتنا الماسة لحكم عسكرى يمينى يحمى الحرية الاقتصادية والحريات الفردية ، ها خى تتحقق من أوسع ابوابها . بل وحتى رغم ما ذكرنا لا يبدو بعيدا جدا أن يعود قريبا الشخص المذكور لدوره السياسى ، ومن ثم تكون نبوءات الرواية قد تحققت بالكامل !

...

١٣ يناير ٢٠١٢ : الجليد يهطل على مناطق مختلفة من مدينة الأسكندرية والطرق المؤدية إليها ، ذلك لأول مرة فيما تعيه ذاكرة أى مصرى . نعم ، الرواية وهى تغلق فصولها كانت تتحدث عن أمطار لا تنقطع وكرات ثلج تقصف القاهرة ، وإن لم تأت على ذكر الجليد ، فهل تجيز أنت كلامها هذا كنبوءة عامة لانقلابة الطقس الجلوبى انقلابة درامية ؟ !

...

١ مايو ٢٠١٣ : يوم كبير -بل أيضا شخصى وعاطفى- لرواية سهم كيوپيد : بعد طول استماتة من الزائدة الدودية المسماة قطر ، للاستيلاء على أكبر بنك استثمارى فى مصر ، جاء اليوم المدخل الأخير : ونجت كيوپيد ! ... عاشت دروع مصر الأمنية ، عاشت مصر ، عاشت الحضارة !

https://www.facebook.com/EveryScreen/posts/448261621922880

...

١٠ أبريل ٢٠٢٠:
البحث عن الذات
-أو هكذا كانت التوقعات الأصلية
[نقاشات حول السيرة الذاتية]

موضوع البحث عن الذات ده ما يوصلش لأنه مستاهل بحث. هى محطات ولحسن الحظ كانت واضحة، وكله كلام سبق ذكرته فى مناسباته، لكن احتراما لما كتب هنا بكرم بالغ، فسأحاول تذكره مجتمعا: فى الشباب المبكر كنت لهلوبة شطرنج إلى أن قابلت من هم أقوى منى وأكثر إخلاصا لها، أدركت أنى موش بوبى فيشر، وفى لحظة واحدة قررت ألا ألمسه ثانية. نفس القصة الرياضيات كنت لهلوبة وبآخد أكتر من ١٠٠ فى الامتحانات، إلى أن جاء السقف بالمعادلات التفاضلية فأدركت أنى موش فون نيومان واستسلمت. من هذين قد تكون النصيحة للصديق –أو الأصدقاء– شديدى الاجتهاد هنا ونأمل لهم أن يتجاوزونا بمراحل يوما ما، إليك –أو إليكم– نصيحة اللا نصيحة؛ لا تسأل ولا تسمع نصائح من أحد. كن نفسك، واترك الأشياء تأتى إليك ولا تنحر نفسك لتجويد نفسك فى شىء ما، فهذا الشىء ليس لك لأنه ليس منك. ..بعد كده شغل الهندسة كان متألق برضه بس سقفه واطى، أو بمعنى أدق عرضه ضيق. يعنى مثلا مفهوم الـ Steady State Condition أو الـ Unstable Equilibrium ممكن يكون لها تطبيقات خارج الهندسة ينتج عنها نبوءات تذهل الجميع بينما بللورتك السحرية أدواتها غاية فى البساطة (المفهومين مشار كثيرا إليهما فى سهم كيوبيد، وأحدث حصاد لهما التنبؤ بأن الداو جونز سيهبط لـ ٥٠٠٠ أو البترول للصفر، والبعض فهم أن ذلك التافه المدعو كورونا هو من حققهما لصاحب النبوءة، بينما الحقيقة أن سببهما أفاعيل أخطر أعمق بل وأقدم بقرن كامل). أو مثلا قد لا يتنبه البعض أن موقفى من الكنفوش هو موقف هندسى أصلا، فهذه السلع ولا صناعها يجب أن يسمح لهم باستمرار الحياة من بابها، أما سلوكهم المالى والاقتصادى أو تاريخهم الأسود لآلاف السنين، فهى مجرد ردائف عززت وأصلت هذا الرأى الأسبق المتكون أولا. ..بدأت النقد السينمائى كمحترف متوازيا مع الوظيفة الهندسية، مع تخصص نسبى فى سينما الخيال العلمى المستقبلية، لكن الخطين المتوازيين سرعان ما تحولا لجديلة، يمكن على نحو أو آخر اعتبار كتاب حضارة ما بعد الإنسان (١٩٨٩)، هو حصيلة ما لهذا الزواج. ككل موضوع السينما كان سقفه السماء، بسهولة جدا وصلت لكل التنظيرات والحاجات إللى ممكن تلمها جملة الفن الهابط هو الفن كما يجب أن يكون، ذلك بحيث لم يعد تحديا حقيقيا، واليوم –بل من لحظتها– كنت ولا زلت أشكر أولئك "أشهر المشاهير" إللى حاربوا باستماتة شعوائية كتاب دليل الأفلام (١٩٩٨)، لأنهم أعطونى الدفعة لترك هذا التخصص شبه نهائيا، ذلك أنهم ألهمونى بالتحدى الحقيقى، التحدى الجديد، آرائى الأخرى التى استفزتهم على نحو أشد، الآراء غير السينمائية. ..سرت فى هذا مشوارا طويلا اسمه موقع إيفرى سكريين، إلى جاء "البحث عن الذات" تلقائيا ودون بحث. أكثر اللحظات تألقا قاطبة كانت طالب هندسة القوى الحرارية الذى لا يذاكر دقيقة واحدة ويطلع الأساتذة غلط ثم يحصل على ١٢٠ من ١٠٠. الأنتروبى يمكن أن تصبح رؤية شاملة جدا. هذا ليس جديدا، لم يولد فى ٢٠١٩ إنما مسيرة وصيرورة تواصلت وتضخمت على مدى عقود كاملة تراكم كبللورة ملح أو سكر إلى أن تحول لكتاب كان أحدث محطة حتى اللحظة. ..أصل هذه الدعوة كان هنا: شكرا أحمد رضا، هه هه، يا ريتنى كنت فاهمه زيك كده، أو هه هه جايز مستنى أعمل على روحى كتاب أسميه البحث عن الذات، كتب [بدون تنقيح]: فيه فرق شاسع بين ان الواحد يبقى مجنون، وبين انه يكون محتاج منك وقت كبير فشخ عشان تفهم هو متعمق ومتبحر قد ايه. أنا شخصيا مخدتش وقت طويل عشان اعرف منطلقاته الأساسية لأني متفق مع أغلبها من البداية، بس كنت بتفاجئ فشخ من إن أخيييرا واحد مصري وصلها وبيبني عليها كمان. كنت واخد فكرة من الناس وبالذات الدولجية المتناكين الأغبياء إنه مجرد تنبأ بحاجات صح وخلاص، غير كده هذيان، و لكن لأ الموضوع مش سهل كده، وقعدت كم يوم مركز مع المداخل اللي كاتبها، وأنا بجيب قرار الحاجة مهما كانت صعبة ف ساعات، وقلت لازم عنده بناء فكري فريد ورؤية كونية، وقد كان، ومهما كان في اختلاف بينا ف حاجات فهو يترفعله القبعة من غير تفكير للحظة. ..أولا متفصلش بين الرؤية الاقتصادية وبين بقية الحاجات لأن مدحت مش أحادي التخصص بالأساس وإنما هو صاحب رؤية كونية من كل التخصصات اللي طالتها إيديه: علم، فن، تاريخ طبيعي، اقتصاد، إلخ. فهي مش قصة انه رأسمالي كده وخلاص، لأ الموضوع عنده ليه عمق طبيعي بيولوجي. وآين راند مجرد doorway اصلا، مش حد يتوقف عنده، وبعد فترة وجيزة جدا هتعرف انها ناقصة بالعبط وساذجة ومعندهاش أدنى رؤية لحماية الحرية اللي هي بتتكلم عليها. التفرقة عند مدحت

بين إثنية وإثنية جاية من قدرتهم على توليد الثروة (بالتصنيع والتقنية) واستدامتها. والإثنيات مش بتفشل في ده من فراغ، لأ دي ليها خصائص مهمة وواضحة متسببة في الفشل. ليه بقى هو مفضلنا وهل انحيازه جاي بدليل؟ هو من يومين قالك الفلاح بتاعنا هو المسطرة اللي بنقيس عليها الحضارة وكده؛ وقد صدق. ليه؟ لأن المصري عنده ميزة مهمة فشخ: بتاع شغل وبيسمع الكلام وبيتحمل، وماهواش طفيلي. أسرع شعب في نقل المعلومة بينه وتحويلها لتريند يخترق كل المدن والأحياء والقرى والغرف والمناور حتى هو المصريين، أسرع شعب يعمل Informational commons ويلتزم بيها (طبعا مشكلتنا الحالية إن الcommons دي متفيرسة من ولاد متناكة كتير لازم هرم الدولة يمحقهم)، وعليه فاحنا أكتر شعب يتمسك بالإيتيقيا، هاتله بس فرعون من خيرة ولاده، وشوف ممكن يعمل بيهم ايه، لا هيتمردوا، ولا هيتشرمطوا بأيديولوجيات يسارية متناكة، وف نفس الوقت هيبدعوا وهينتجوا فائض يعمل سفن فضاء زي ما كان في فائض عمل أهرامات وإعجازات. هو بيموت في الأنجلوسكسون، بس هما متمردين اكتر مننا (عكس الصفة اللي ذكرتهالك عننا لسه حالا)، وبيقول إن محدش بيكسفنا غير اليابانيين، وأنا مش معاه ف ده، لأن الياباني اه وإن كان اكتر واحد بيسمع الكلام، فهو من قدم التاريخ مش بيخترع جديد بنفس وتيرتنا (هنا انا بقارن بيننا وبينهم لما كنا ف ظروفنا المثالية من عدد السكان وحماية الcommons من الدخلاء)، وطبعا اكترنا في التطوير وخلق الجديد هما الأنجلوسكسون. ..بالنسبة بقى للفيروس، فهو مجزمش بإن في حد معين صممه، هو قال يا بالطبيعة يا بالتصميم. طب هل كونه بالطبيعة ينفي عنه كونه ماحق لناس مهياش صانعة حضارة؟ انت عندك المصريين اول ما سمعوا عن الفيروس اترعبوا ولزموا البيوت بطريقة أذهلتني ومكنتش متوقعها، وقليل فشخ منهم اللي نزل كدس في سلع وعمل مشاكل من رعبه، يعني اترعبوا وقعدوا ف حالهم لحد ما الأزمة تعدي، واديك شايف احنا فين والإنجليز والطليان المتفيرسين بأفكار بضان وصلوا لفين، قلة سمعهم للكلام ودتهم ف داهية. هو بقى تفاعل الفيروس مع مختلف الشعوب ماشي كده. طبعا المتناك قد كلبة بس هو اللي يقول ان دي عبودية، لكن لأ ده اعتراف بالهرمية مننا مش اكتر. وفي أخبار هتلاقيه هو ناشرها بالمناسبة وموثوقة عن نسب استهداف المرض لمختلف الناس. وبالنسبة بقى لقصة نسبة العربان هنا، فهو طبعا صح وده كلام علمي، ونسبتهم فعلا قليلة بالنسبالنا. وهما مش بيتصرفوا زينا إطلاقا، هتلاقيهم مسميين نفسهم أشراف وبضان، وهتلاقيهم قبليين ١٠٠%، بيتجوزوا من بعض، بيتعاملوا على قد ما يقدروا ف اي حاجة مع بعض وبيكرهوا البلد والنظام فشخ ومحدش منهم بيروح ف حتة إلا ويقولك أنا من العرب، حتى مهدلي ده فخور بأصله القرشي لعلمك. وحتى الإسلامجية مش بس الفخورين بعروبيتهم، بتلاقيهم منغلقين على بعض، فانت بالنظر كده سهل فشخ تعرف انهم بركة جينية جوا منفصلة جوا بركة مصر الجينية بأكملها. وكل تقليل وكرب بيصيب الsocial trust بتاعتنا مش جاي غير من تحت راسهم سواء عمليا أو على الفيسبوك والإعلام المتناك بتاعهم. انت فاكر حصل ايه ف يناير ولما ابن الشرموطة الخروف اتشال؟ بتوع شرق النيل وأقصى غرب النيل نزلوا بالسلاح وحرقوا الكنايس وحرقوا محلات المسيحيين وكسروا واجهات بنوك، واقتحموا السجون وحرروا إخوانهم، أتحداك تجيبلي منهم نسبة تذكر من المصريين الغلابة يكونوا عملوا كده. طول عمرهم بس بيثوروا على ضعف قمة الهرم وخنوعه. ..في كلام كتير ممكن اقوله، المهم يعني إن لأ كلام مدحت ماهواش شطحات كده في اللاشيء، اختلفنا او اتفقنا، مهواش حد سهل ولا بيهذي. * على ذكر أحمد رضا لليابان والفلاح المسطرة، هذه كانت القصة: هه هه ، يا خوفى حكاية فلاح دى بوظت البوست. الفلاح المصرى "الوسخ المعفن" هو مسطرة الحضارة إللى بنحط أى حد عليها ونقيسه. لو بيلمع ولابس كرافتة وحاطط برفان وبيتكلم عسل –بتوع أوروبا مثلا– ها نمسكه بمنديل ونتعامل معاه بارتياب وتشدد أقصى ما يمكن، خشية أحد أو بعض فيروسات التاريخ تكون دخلته. بالبحث لم نجد حد كاسر عين فلاحنا إلا اليابانيين لأنهم أكثر منه نشفان وخشونة وتمسك بما كان عليه فجر السماوات الصافية للحضارة. ..المقصود، استمتع بمدحت محفوظ كما تشاء، أما عن نفسى فقد استمتع وقد استفيد أكثر بصحبة أى فلاح. تحياتى. ..صديق قال مشكورا إنه يختارنى لصحبته لو تعطل به المصعد ١٠ ساعات، ومن يختار غيرى هو "فلاح". ..[خلال أيام ألهبت المشاركات اللاحقة الحاجة لهذا المدخل وجعلته يتوسع لما تراه الآن أكثر من مجرد نبذة ذاتية، لدرجة أن مثلا –هه هه– توقع الصديق صوما "شتاءا نوويا سيأتى به مجرم الحرب مدحت محفوظ": كشخص اسمه مدحت محفوظ، أو كقضية اسمها الاستدامة المفقودة فى أطوار الحضارة، أو بصيغة أخرى قضية الأوروبيين أو الطبقة الوسطى أو أيا ما كان اللميعة إللى موش سبرسجية (بالوصف المذكور هنا هذه أقلية عربية قح، وليسوا بالمرة من أقصدهم بالشعب المصرى أو الفلاح المصرى)؛ ده ها يكون مدخل كامل قريبا جدا، ها يجمع ويعلق على كل البوستات دى. ..أما موضوع بسطاء المصريين الموصوفون زورا بالسبرسجية، فمداخله موجودة وها أجمعها أهه، لأنها قصة شبعانة أو شبه خلصانة]. ..تفاعلات أخرى على ذات البوست الذى به تعليق أحمد رضا أعلاه [بدون تنقيح]: Ahmed Elmansi: مدحت محفوظ مجنون وانا مختلف معاه فى حاجات كتير لكن مقدرش انكر انه الانسان الوحيد على سطح الارض اللى من بداية الالفينات اللى اتنبأ بحدوث كساد اقتصادى وكنا كلنا بنضحك عليه. Mohamed Bedair: مرة مهدلى مسكه فى تعليق واهانه نيك بصراحة لدرجة كنت فاكر ان الاستاذ مدحت هيرد ويسبله ولا حاجة . لقيته رد ببرود كدا ولا كان فى حاجة اضايقت عشانه والله. Ahmed Elmansi: مهدلى حشرة بالنسبة لمدحت بجد ميديوكر غبى

مش فاهم حاجة. Mohamed Bedair: مش مختلف . بس انا بتكلم عن الموقف تخيل بتناقش حد فى حاجة مثلا وهو قلب الموضوع شخصى وبقت كل ردوده شتيمة واهانه فيك وساب الموضوع الاصلى وانت مصمم لسة تكمل كلام فى الموضوع ولا كأنه بيقول حاجة. فالموقف غريب بس. Ahmed Elmansi: ده يثبت ان مدحت عظيم يترفع عن هذه الاشياء. Mohsen Mohamed: مرة مسك رامي ابادير هزقه قام رامي شتمه قام سيدنا مدحت قاله ها ها ها شكرا. Aladdin Mahmoud: اكتر تعليق قاتل مرة واحد قال واضح انك مش بتفهم في الاقتصاد فرد عليه استاذ مدحت عندك حق! حسيت ان أرسطو قام من قبره عشان يديني درس يعني ايه irony! Mhamd K. Zakaria: Being right too soon is socially unacceptable --Robert A. Heinlein Ahmed Elmansi: مدحت محفوظ فعلا مجنون مش بتكلم هنا عن رؤيته الاقتصادية انا عارف اللى بتتكلم عنه كنت ومازلت منبهر ان مصرى طعمية بيتكلم عن اين راند والاقتصاد الحر انه بيفهم فى الاقتصاد مفيش عليه مجال شك. بس شوف بوستاته مثلا عن الكورونا. الراجل مؤمن ان الفيروس بيصيب اعراق محددة ومستهدف للسود والعرب وبيسمى اللى بيموتو بالنافقين. اكتر حاجة بكرهها فى مدحت محفوظ ان سعات بيحيد العلم نفسه فى سبيل ان يوصل للستنتاج معين او قناعة بيطالب بيها من زمان. بلاش دى ايمانه التام ان المصريين عرق راقى من الفراعنة كلهم وفيه بس اقلية اعرابية هكسوسية من دين الصهاك حاجة قمة الاحا. انا مش مختلف معاك فى اللى بتقوله وفاهمه كويس انا قارى موقع ايفرى سكرين ييجى تلت مرات بس فعلا هو سعات بيحيد المنطق نفسه. Ahmed Elmansi: انت فهمت كلامى غلط عن اين راند انا بحبها بس مش بقول انها الصح انا كان قصدى انى اقول ان مدحت بيكتب عنها وعن بينوشيه ومواضيع تانية من التسعينيات وده متفرد الكلام اللى انت كاتبه هو شرح لمدحت وانا مش مختلف مع حاجات كتير السؤال هنا ١- انا قريت اه البحث اللى كاتبه ان الكورونا بيصيب اكتر السود والصينيين بس هو بيقول حرفيا ان الفيرس قنبلة اثنية عشان تطهر اعراق معينة طب يعنى نسبة الوفيات للاعراق دى لا تذكر بالنسبة لوفيات البيض _مش بكلم عن السلوكيات والسياسة بتكلم عن العرق _يعنى هو الطبيعة مصممة الفيروس عشان يصيب السود ويجيبلهم كحة بس يقتل البيض مجرد انه يقول قنبلة اثنية وبتاع ده كلام فارغ وتحييد للعلم وخرافات ٢- مش بتكلم عن وجود قلة اصلهم عربى واخوان سؤالى عن عموم المصريين الدين فعلا مش متمكن منهم تماما حتى التخاع وعمرهم ما امنو بيه ؟ Ahmed Reda: طبعا هي بالنسبالي لا تتخطى الفرضية ومش science per se، ولكن انا بس بقولك ليه هي موجودة بالأساس، مش تفكير بالتمني بالكامل، ومع الايام هنشوف يا دحض يا مزيد من التأكيد. بالنسبة للدين وكده، فالقصد إنه طالما جين توليد الثروة قاعد متغيرش ولا اتحور، فكل اللي محتاجينه هو فرعون قوي يأمر وكله هيطيع باللي هو عايزه. بس يجي واحد مسترجل بجد ويكنس الحثالات اللي شغالين زن في ودان الشعب ليل نهار وباضنين عليه، وبعدها مش هيبقى الوضع زي كده ابدا. وطبعا مبقولش الشعب هيبقى كله علماء في الشارع، لكن مظاهر البضان الإبراهيمي هتضمحل بالتدريج. Ahmed Elmansi: يعنى متفق. Medhat Mahfouz: بس لو صبر القاتل ع المقتول، ٧٠ بالمية من "نافقى" الغرب من الأعراق الحثالية أسود وبنى وأصفر. موش كده بس، باعتبارهم أقليات احسب أنت نسبة النافقين داخل كل عرق مقارنة بنسبة الضحايا داخل العرق المحترم، وبعدها احسب إذا كانت -لا سمحت الإنسانوية- هى إثنية أم لا. ..كل ده بخلاف إزاى لو اعتبرت حد أكبر من أن يكون اقتصاديا وأكبر من أن يكون نوسترامادوس، هل ها يصعب عليك تعتبره أكبر من العلم، ع الأقل بعد أن صارت الأكاديميا كلمة سباب؟ Ahmed Hassan: اسمحلي اضيف حاجه، مدحت محفوظ اول معرفتي بيه بوست من احمد السنهوري متهيألي كان حاطه ك واحد من احسن الناس اقتصاديا و الكلام دا من كام سنه. بدأت اتابعه اخر السنه اللي فاتت و قريتله "سهم كيوبيد" و "حضارة ما بعد الإنسان". الراجل دا متبحر بطريقه عجيبه و قارئ نهم، و الفكره انه عنده ريكورد لكل حاجه!! موقع ايفري سكرين دا محتاج شهور عشان تخلص مداخله. Mansour M. Muhammad: طب ما ترشحلي حاجة ليه. Ahmed Elmansi: ابتدى بالموقع والمداخل القديمة وهتلاقى عالموقع كل حاجة والكتب. ..الشير الموازى له الذى قمت به وتفاعلاته [أيضا بدون تنقيح]: Medhat Mahfouz: هه هه، وده يعلقوا عليه إزاى، ده كمان بخلاف التعليق على التعليقات. ..بيفتكرونى بس وأنا بأتشتم، طبعا لأنى نسمة طول عمرى ما شتمت حد. Mena Aziz: انا كل ما باشوفه بافتكرك [صورة دكتور سترينجلاف]. Али Аббаси: من اين احصل على كتبك؟؟ Mo Abdalla: حضرتك عظيم .ليس كمثلك شيئ. Ahmed Mahmoud: انا بقرأ حاليا في كتاب استدامة الحضارة مجهود عظيم. Hosamaladle Muhammed: و إنت ما حدش عارف قيمة حضرتك إلا ناس معينة يا أستاذ مدحت يالا معلش. Osama E. Saraya: فاكر حضرتك بردو صاحبنا اياه لما قال نفس التعليق بعد حوار اكتر من ساعتين اختلفوا فى الكثير واتفقوا فى وصف العبقرية بالجنون [يقصد فيما فهمت أحد الإعلاميين الشهيرين]. Haya AlMousa: طبعا استاذ مدحت محفوظ غني عن الوصف في عمق فكره وملامسته لفطرة او برمجة ما داخل الانسان لا يدرك هو نفسه وجودها ؛ اذكر اول ما قرات كتاب المسيحية هي الهرطقة او شيء من هذا القبيل وكتاب اخر نسيت الان اسمه (اظن ايفرسكرين) ذهلت واكلت الكلام

اكل حرفياً وما نمتش قبل ما اخلصه؛ وتغلغل الكلام وكانه ترجمة لمشاعر ومعلومات كثيرة متبرمجة داخلنا او داخلي دون ان نترجمها ككلمات وأول نقاش مع استاذ مدحت كان لما قلت له ان المطلوب اخذ الاموال من الاغنياء فقال لي ان هذه سرقة فاتصدمت ؛ عاجزة تماما عن تبرير منطق الأخذ من الغني وادانته والضغط عليه فقط كونه غني واليوم عندما اقول ذات الفكرة للآخرين اجد منهم ذات العجز عن التبرير ؛ مشكلتي اني بشوف شطحات من الاستاذ احيانا لا أقبلها رغم اني أفهمها وايضا اجد قسوة تعجز نفسي عن قبولها حتى في اطار التنافس والبقاء ؛ تقريبا لا يساوي البقاء او الفوز عندي كل هذه القسوة بمعنى في الاخر في الاخر انا جاية اعيش كم يوم واستمتع وأمضي لا اجد اني لازم احمل عذاب ضمير مبالغ فيه لابقى لان البقاء والتفوق يساوي الكثير لكن Not to this much شعوري واضح انه حقيقي بدليل ان كل إبادة فعلها الرجل الابيض يشعر اليوم انه محتاج يدفع ثمنها ويشعر بعار منها فاجد الإبادة والقسوة الي يقول الاستاذ انه ثبت ان كل الحلول عداها فشلت هي في حد ذاتها حل تم تجريبه القرن الماضي وايضا فشل وان كانت الطبيعة تفني الاقل والاضعف فلتفعل ذلك هي لا انا؛ عموما هذا اختلاف لا يمكن حسمه لانه يعتمد على طبيعة شخصية ولا نعلم حتى الان ان كان استاذ مدحت على الصعيد الواقعي كانسان قادر على المشي فيها او تنفيذها؛ اجد حكمة الإنجليز وقلة ميلهم للعنف (بعكس دموية فرنسا في المغرب العربي او عنف اسبانيا في امريكا) أجدها الاحكم والاقدر على الاستمرار من راديكالية الألمان مثلا في مرحلة النازية؛ عموما اديني بقرأ ويحاول أفهم والله اعلم ان كنت حفهم يوما ما لكني حتما أشكر الاستاذ لتقبل النقاش دوما بهدوء ملفت Medhat Mahfouz: أشكرك جدا، مفاجأة حلوة وأعدك أني سأعيد النظر فى تصنيفك كمعارضة على طول الخط لما يكتب هنا. هه هه. Fouad Saouma: لو خلق يهوديا او في اميركا ..لكان له شأنا أخر ! و لكن على الاقل يمكن القول انه ولد في المكان الغلط !! و هذة هي تصاريف الطبيعة التي في احيانا كثيرة لا تفهم ....! و يمكن على الاقل ايضا و ايضا القول بانه من افضل التصفيات في شرح الاسلام ....! Medhat Mahfouz: ولا حد بيعمل حاجة، الطبيعة أكبر من كل كلام ومن كل المتكلمين. ..أما أصل البوست فقد كانت تفاعلاته الآتى [بالمثل بدون تنقيح]: Ahmed Elmansi: واحد سبرسجى واقف على ناصية الشارع بيشد كولة ومبيعرفش يكتب اسمه. مدحت محفوظ: ده شعب الحضارة المصرى ده ، الجينات النقية التى لم تتلوث. Jamal Shouman: مدحت بك محفوظ كتير من الناس شايفينه اله. Ahmed Elmansi: استاذ شومان ومدحت محفوظ ف بوست واحد يا دينى عالعظمة. Jamal Shouman: حبيبى. Mahmoud Elsaady: مدحت محفوظ شاهد على التاريخ. Medhat Mahfouz: أعمل شير ولا ها ترجع فى كلامك؟ Ahmed Elmansi: اصلا البرايفاسى عاملها custom من الاول هههههه Mohsen Mohamed: انا دا من الاختلافات اللي بختلف فيها مع سيدنا دا شعب شمام اسلامجي شكاء بكاء وفي أقلية كويسة الاكترية لأما هكسوس لأما ستروكس Ahmed Elmansi انا متفق معاك تماما بس انت او انا مين مجرد حشرات جنب مدحت. Mohamed Sengab: انتا هتكفر بسيدنا يا عرق حثالي يا ملحد؟ Hany Victor: قصدك حزب الكنبة اللي بيخلفوا طفل واحد او طفلين ع أقصي تقدير وحياتهم هي الشغل وتربية العيال ع عكس السرسجية اللي ليخلفوا زي الأرانب حتي من غير جواز السبب في ده ناصر والسادات ومبارك Medhat Mahfouz: كشخص اسمه مدحت محفوظ، أو كقضية اسمها الاستدامة المفقودة فى أطوار الحضارة، أو بصيغة أخرى قضية الأوروبيين أو الطبقة الوسطى أو أيا ما كان اللميعة إللى موش سبرسجية (بالوصف المذكور هنا هذه أقلية عربية قح، وليسوا بالمرة من أقصدهم بالشعب المصرى أو الفلاح المصرى)؛ ده ها يكون مدخل كامل قريبا جدا، ها يجمع ويعلق على كل البوستات دى. ..أما موضوع بسطاء المصريين الموصوفون زورا بالسبرسجية، فمداخله موجودة وها أجمعها أهه، لأنها قصة شبعانة أو شبه خلصانة. Ahmed Elmansi: مش قادر افهم نظريتك يا مولانا او فاهمها بس مش قادر ابلعهاانت تقصد المصرى الطيب المستسلم اللى بيطيع وتدين ظاهرى كنوع من التصوف بس دول مش الاغلبية الاغلبية هم فعلا المتدينين اسلاميا بعنف ودول مش مجرد اقلية عربية Medhat Mahfouz: كلامك سليم الأغلبية كده فعلا (على تويتر). Ahmed Elmansi: غالبا انت صح لانك اله ومش هعرف اكتر منك هه هه هه. Medhat Mahfouz: متشكرين. Ahmed Elmansi: برده متكبر هه هه هه. Medhat Mahfouz: خلاص، موش متشكرين.

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/2962843647131319?comment_id=2965442233538127

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/2972927466122937

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/2962843647131319

https://www.facebook.com/ahmed.elmansi.710/posts/258454405185353

https://www.facebook.com/ahmed.elmansi.710/posts/260240038340123

https://www.facebook.com/ahmed.elmansi.710/posts/265578961139564

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/2983686518380365

..مدخل تجد نسخة منه على هامش بعض هذه النقاشات:

٣١ مارس ٢٠٢٠:

انا لا أعلم الغيب، أنا أعمل الغيب!

أنا لا أعلم الغيب، أنا أعمل الغيب. أنا جناح فراشة خفق فى اليابان فسبب إعصارا بالكاريبى. ..البشرية تمرمغت فى المال القذر قرنا كاملا بالشيوعية الكينزية فى الغرب إلى الشيوعية الماركسية فى الشر، وحان وقت دفع كل الفواتير. ..كورونا ليس السبب، السبب هو إهانة قوانين الطبيعة طيلة هذا القرن البغيض، السبب هو أن عكف الكل على بناء اقتصاد متسارع من أوراق اللعب كمى فقاعى متفاخم لا نوعى تنافسى رصين، ومن ثم هو من الهشاشة بحيث لا يحتاج لأكثر من نفخة كى تسويه بقاع المحيط. ..كورونا ليس السبب، السبب صلف الإنسان الذى تخيل وهما اسمه حرمة النفس البشرية تخترق قانون داروين / سبنسر أن التحيؤ للأليق survival of the fittest ولم يكن للحظة واحدة التحيؤ للجميع، تخيل أن له حكوكا تمنحها له دون الآلهة حاجة اسمها منظمة الرمم المتحدة، فيما الطبيعة التى أوجدتنا تقول إن حقوق الإنسان لا تزيد بشعرة واحدة عن حقوق الكلب، والصياغة لدكتور واتسون بتاع الدى إن إيه. ..الإنسان ما إلا تطفر خطأ فى شجرة التطور، أتى بأشياء غير طبيعية وغير مادية بالمرة، الفكر الوعى التيمايوس الأخلاق المختلقة وسائر صنوف خراء المعنويات والأفلاطونيات، وها قد حان له أنه يغور فى داهية لأنه قد آن لكوكب الأرض أن يتخلص من هذه النجاسة الطارئة، الهوموسيبينز. ..أنا لا أعلم الغيب، أنا أعمل الغيب. ..اقرأ كتابى حضارة ما بعد الإنسان (١٩٨٩) واستدامة الحضارة (٢٠١٩).

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/2947436062005411

..أيضا تابع:

٣٠ أبريل ٢٠٢١:

انت موش بتخالف مدحت محفوظ فى الرأى
انت بتخالف قوانين الطبيعة وحكمها!

لما سعادتك قادر تحكم أن رفاعة زفت عربى، موش تحاول تحكم برضه على كل "فلاح" بسيط حالة بحالة أنه مصرى ولا عربى، ثم هل ما فيش فرق بين الفلاح إللى بجد وبين جبلاوية الريف بتوع خطف الأطفال وبتسموهم فلاحين عاطل فى باطل. وبالمناسبة، فى المدن نفسها كانت أسرنا تخاف علينا من حوادث الخطف بفدية اليومية دى، لكن بقدرة قادر ظهر البترول واختفى الخطف. أستاذنا الفاضل، ما فيش مسلم بمعنى مسلم إلا لو جيبناته عربية، وما فيش مصرى واحد مسلم على وجه الإطلاق، إذ يا عزيزى كلنا إيزيسيون. أما الكلام عن رعاع سجن الباستيل فولتير وروسوه ومونتسكيو وبقية السحن الإجرامية دى إللى أكاد أجن إزاى بتمدحهم –وكمان فى ذات نفس البوست إللى بتقول فيه أنك أرستقراطى– فتلك قصة أخرى. فقط أسأل سؤال واحد ما الذى أتى به الأومباشى التنويرى نابوليون لمصر غير المطبعة، يعنى كلام شيوعى سوف يحل محل الكلام المسلم، يعنى كله × كله سلعة الكلام لا أكثر لا تقنية ولا إنتاج ولا حداثة ولا أى شىء مادى، وعلى عهدتى كلامه هو الأوسخ والأكثر ظلامية ودمارا من الإسلام. أما كهمجى قاطع طريق الحضارة فتلك أيضا قصة ثالثة، وعلى أية حال نال عقابه الرادع عليها فى أبو قير ووووترلوو وغيرهما. ..وتواصل النقاش وأغلبه كان حول المدخل الذى تجد رابطه للأسفل: هههههههههه، حبى، أنا لم أقل أبدا على بدراوى ولا مبارك ولا سليمان ولا شفشق ولا أى من طقم المخنثين دول بما فيهم الدلدول الحالى، أنهم عرب، هم مصريون وربما مصريون جدا فقط مشكلتى أنهم لا يصلحون للقيادة. وطبعا موش معنى أن فى العرب أو عند كل البرابرة من يصلح للقيادة –فلاديمير بوضين ابن صهاك عبمعصور الشنكوتى أيا من كان– أن نعجب بهم، فهم من الأصل فسطاط العدو بل أكثر من فيه شرا. ..يا باشا اقرأ كويس، موش الأنفاق وكده، ده كان من المجموعة إللى رافضة رش التحرير بغاز الأعصاب وبتشجع مبارك يحط ديله فى سنانه ويجرى على شرم الشيخ ويسيبنا لخسارة تريلليون دولار لحد دلوقت ولسه الحسابة بتحسب. إللى لا ينتطح فى شجاعتهم وبطولتهم عنزان هم الجبهة المضادة، جمال سوزان عزمى العادلى طنطاوى إلخ. ..هه هه، الصح المطلق، البوصلة، اسمان آخران ممكن أنافس بيهم ذات الـ ١٠ آلاف اسم، شكرا مجددا العزيز جابر. ..شومان كتب [بدون تنقيح]: مدحت بك: دخلت برجليك لأنى كنت متردد أكتب عن معاليك، إمبارح دخلت صفحتك أربع ساعات، طبعا أنا مبدئيا معترف بجهلى بالسياسة، بس فى التاريخ مش شايف ف مصر غيرى، المهم، بعد أربع ساعات شيقة بين موضوعاتكم المثيرة– اربع ساعات وتلت كمان– خرجت مشوش الذهن تماما، إستفدت طبعا معلومات قيمة، بس لقيت حضرتك ماحدش عاجبك، طبعا ناصر وشنودة والنوعيات دى، إمبارح كانت المصيبة لما لقيتك

دخلت ف الدكتور حسام بدراوى اللى انا كنت مرشحه لرئاسة مصر- وهو بالمناسبة من المماليك مش العرب- والأخطر والمذهل والمثير للغيظ والإحباط وربما الكراهية- الكراهية منى لمعاليك- لما لقيتك بتطعن فى عمر سليمان، ياخبر اسود، انا لو بعرف أقدم بلاغات للفيس وللنيابة كنت قدمتها ف معاليك وف فؤاد بك صوما اللى لابس بدلة جديدة ومؤيد كلامك.....انت بعدت أوى يا أستاذنا للأسف.!!!! تحديدا عمر سليمان يا شيخنا لم ينتطح فيه عنزان، إمبارح لقيتك مشركه تماما، خير؟ ..ولا أنا بناطح مدحت بك، بكل بساطة أنا جاهل سياسة، لكن ان عمر سليمان يحتضن الإخوان.... دى معلومة جديدة، وبالنسبة للهداية ادعى لى، بس مش على ايدين متطرفين زى مدحت بك وفؤاد بك. ..وجابر يعلق [أيضا بدون تنقيح]: ..مع احترامي لكلامك يا شومان باشا، انا هشارك بالراي في موضوعين: الموضوع الاول هو عمر سليمان، وانا كنت من اشد الناس حبا لعمر سليمان ولا زلت، وبكيت على وفاته بحرقة، لكن انا سمعته بنفسي والندم يعتصر قلبه على أنه كان الحضن الدافئ لعصابة الاخوان، وانه نادم على فكرة الاحتواء اللي هو صاحب براءة الاختراع من سنة ٢٠٠٥ واول تطبيق كان مع حماس. انا بقى زيي زيك كنت بحب عبد الناصر والبابا شنودة وعمر سليمان وكل الناس اللي لها بريق دي لحد ما اهتديت ل مدحت محفوظ، البوصلة الفكرية اللي كانت متلخبطة في كل اتجاه اتعدلت. وده الموضوع التاني، كلام مدحت محفوظ في اي موضوع هو الصح المطلق، ايا كان الموضوع، علم، سياسة، تاريخ، فن..... الخ. ده مش تحيز عاطفي، ده له حجة أقوى من ان حد ممكن يكسرها. الحجة انه بيستخدم أصدق واقوي قوانين للحكم على الأمور، قوانين الطبيعة، فمستحيل حد يناطح الطبيعة مهما بلغ علمه او قراءته او فهمه. انت مش بتخالف مدحت محفوظ في الرأي، بتخالف قوانين الطبيعة وحكمها، مع حبي واحترامي طبعا لحضرتك. اه وعلى فكرة ملحوظة جانبية، احنا موجودين في الخليج من نهاية الخمسينات وده بدأ لسبب سياسي للاسف.

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/4052620114820328

https://www.facebook.com/groups/256377546114632/permalink/299580278461025/

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/4043206432428363

...

١٩ مارس ٢٠٢١ :

مدخل 'ميمورى' من توليد فيسبووك بعنوان

Medhat's most liked photo on Facebook of 2011

مدحت محفوظ

سهم كيوبيد

(رواية ليست رومانسية بالضرورة !)



(صدرت على موقع EveryScreen.com فى ١٠ مارس ٢٠٠٧)

(as in Saturday March 10, 2007 12:17:13 PM)

(Note: Downsized image; for full scale, click here)

... بالكومنتات دار الحوار التالى :

– حكمت الحاج : الرواية الأهم فى أدبنا العربى المعاصر ...

– مدحت محفوظ : شرف ما بعده شرف لما أديب عظيم زى سعادتك يقول كده ، لكن بالنسبة لى أقول أنا فاهم الزاوية إللى بتحكم بيها وهى مجرد المحتوى أو الرأى ، إنما من حيث الحرفة فشخصيا لا أراها تندرج أصلا تحت بند الرواية أو الأدب ، مجرد مقال طويل .

– حكمت الحاج : بالضبط ، ومن هنا يتدعم رأيى الذى هو مكرر بخصوص روايتك منذ سنوات طويلة . فمن ميزات رواية ما بعد الحداثة أو ما نسميها الرواية الضد أو أنتى نوڤل هو الاسترسال فى السرد مثل مقال حيث يقوم البناء الاسترسالى والاستطرادى بتوجيه مجرى القراءة نحو تعضى النوع الأدبى وتكونه كأعراف قراءة أو كودات قراءة ما بين النص والقارىء فيكتب القارىء روايتك من جديد ولابد هنا أن نلاحظ بدقة تلك القصدية التى تقف وراء تسمية الكتاب من لدن مؤلفه بـ رواية فهذا يفترق مثلا لو كان الكتاب بأجزائه الثلاثة قد حمل الوصف الفرعى مقال أو أى شيء آخر لكنه رغم كل ما جرى فجميعنا متفقون أننا امام رواية ضخمة عنوانها سهم كيوبيد لم يفتها الزمن بعد . محبتى . ... نسيت أن أقول لك أيضا يا صديقى إن الوقوع فى فخ المحتوى لسهم كيوبيد قد تجاوزته شخصيا منذ القراءة الثانية للرواية صحيح المحتوى راديكالى جدا وصادم ولكن الأفكار ملقاة على قارعة الطريق دوما ولا قيمة لها كما يقول الجاحظ وإنما الأهمية كل الأهمية هى فى الشكل والخطاب واللعبة الاتصالية وأنت خير من أتقنها كمؤلف روائى قبل أن تكون مفكرا معاصرا شرسا وانتقاديا .

– مدحت محفوظ : هه هه ، بصراحة موش عارف أقول إيه ، كتير جدا فعلا ، وفعلا شرف ما بعده شرف .

https://www.facebook.com/MedhatMahfouz/posts/3926406404108367

https://www.facebook.com/EveryscreenThemes/posts/3781426808642209

